297.207
A162tA
V.2-3
c.1

تفسير أبي السعود

المسمى

ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم

لخاتمة المحققين وامام المدققين قاضى القضاة

أبى السعود محمد بن محمد العمادى

ولد رحمه الله تعالى سنة ٨٩٦ هجرية وتوفى سنة ٩٥١

الجزء الثانى

صححت هذه الطبعة بمعرفة بعض أفاضل العلماء وقوبلت على عدة نسخ

باشراف

محمد عبد اللطيف

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد على صبيح واولاده

بميدان الأزهر بمصر . ت ٤٨٥٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المائدة مدنية وهى مائة وعشرون آية

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

(يٰأَيُّها الذِين ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) الوفاء القيام بموجب العقد وكذا الايفاء والعقد هو العهد الموثق المشبه بعقد الحبل ونحوه والمراد بالعقود مايعم جميع ما ألزمه الله تعالى عباده وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية ومايعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن دينا بأن يحمل الأمر على معنى يعم الوجوب والندب أمر بذلك أولا على وجه الاجمال ثم شرع فى تفصيل الأحكام التى أمر بالايفاء بها وبدىء بما يتعلق بضروريات معايشهم فقيل (أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعٰمِ) البهيمة كل ذات أربع وإضافتها إلى الأنعام للبيان كثوب الخز وافرادها لإرادة الجنس أى أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام وهى الأزواج الثمانية المعدودة فى سورة الأنعام وألحق بها الظباء وبقر الوحش ونحوهما وقيل هى المرادة بالبهيمة ههنا لتقدم بيان حل الأنعام والاضافة لما بينهما من المشابهة والمماثلة فى الاجترار وعدم الأنياب وفائدتها الاشعار بعلة الحكم المشتركة بين المضافين كأنه قيل أحلت لكم البهيمة الشبيهة بالأنعام التى بين احلالها فيما سبق المماثلة لها فى مناط الحكم وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من اظهار العناية بالمقدم لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر فان ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة إلى وروده فيتمكن عندها فضل تمكن (إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) استثناء من بهيمة الأنعام أى الا محرم مايتلى عليكم من قوله تعالى حرمت عليكم الميتة ونحوه أو الا مايتلى عليكم آية تحريمه (غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ) أى الاصطياد فى البر أو أكل صيده وهو نصب على الحالية من ضمير لكم ومعنى عدم احلالهم له تقرير حرمته عملا واعتقادا وهو شائع فى الكتاب والسنة وقوله تعالى (وَأَنْتُمْ حُرُمٌ) أى محرمون حال من الضمير فى محلى وفائدة تقييد احلال بهيمة الأنعام بما ذكر من عدم احلال الصيد حال الاحرام على تقدير كون المراد بها الظباء ونظائرها ظاهرة لما أن احلالها غير مطلق كأنه قيل أحل لكم الصيد حال كونكم ممتنعين عنه عند احرامكم وأما على التقدير الأول ففائدته اتمام النعمة واظهار الامتنان باحلالها بتذكير احتياجهم اليه فان حرمة الصيد فى حالة الاحرام من مظان حاجتهم إلى احلال غيره حينئذ كأنه قيل أحلت لكم الأنعام مطلقا حال كونكم ممتنعين عن تحصيل مايغنيكم عنها فى بعض الأوقات محتاجين إلى احلالها وفى اسناد عدم الاحلال اليهم بالمعنى المذكور مع حصول المراد بأن يقال غير محلل لكم أو محرما عليكم الصيد حال احرامكم مزيدة تربية للامتنان وتقرير للحاجة ببيان علتها القريبة فان تحريم الصيد عليهم إنما يوجب حاجتهم إلى احلال مايغنيهم عنه باعتبار تحريمهم له عملا واعتقادا مع مافى ذلك من وصفهم بما هو اللائق بهم (إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) من الأحكام حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فيدخل فيها ماذكر من التحليل والتحريم دخولا أوليا ومعنى الايفاء بهما الجريان على موجبهما عقدا وعملا والاجتناب عن تحليل المحرمات وتحريم بعض المحللات كالبحيرة ونظائرها التى سيأتى بيانها (يٰأَيُّها الذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعٰئِرَ اللهِ) لما بين حرمة احلال الاحرام

الذى هو من شعائر الحج عقب ذلك ببيان حرمة احلال سائر الشعائر وإضافتها إلى الله عز وجل لتشريفها وتهويل الخطب فى إحلالها وهى جمع شعيرة وهى اسم لما أشعر أى جعل شعارا وعلما للنسك من مواقيت الحج ومرامى الجمار والمطاف والمسعى والأفعال التى هى علامات الحاج يعرف بها من الاحرام والطواف والسعى والحلق والنحر واحلالها أن يتهاون بحرمتها ويحال بينها وبين المتنسكين بها ويحدث فى أشهر الحج مايصد به الناس عن الحج وقيل المراد بها دين الله لقوله تعالى ومن يعظم شعائر الله أى دينه وقيل حرمات الله وقيل فرائضه التى حدها لعباده واحلالها الاخلال بها والأول أنسب بالمقام (وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ) أى لاتحلوه بالقتال فيه وقيل بالنسىء والأول هو الأولى بحال المؤمنين والمراد به شهر الحج وقيل الأشهر الأربعة الحرم والافراد لارادة الجنس (وَلَا الْهَدْىَ) بأن يتعرض له بالغصب أو بالمنع عن بلوغ محله وهو ما أهدى إلى الكعبة من ابل أو بقر أو شاء جمع هدية كجدى وجدية (وَلَا الْقَلَائِدَ) هى جمع قلادة وهى مايقلد به الهدى من نعل أو لحاء شجر ليعلم به أنه هدى فلا يتعرض له والمراد النهى عن التعرض لذوات القلائد من الهدى وهى البدن وعطفها على الهدى مع دخولها فيه لمزيد التوصية بها لمزيتها على ماعداها كما عطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام كأنه قيل والقلائد منه خصوصا أو النهى عن التعرض لنفس القلائد مبالغة فى النهى عن التعرض لأصحابها على معنى لاتحلوا قلائدها فضلا عن أن تحلوها كما نهى عن ابداء الزينة بقوله تعالى ولا يبدين زينتهن مبالغة فى النهى عن إبداء مواقعها (وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ) أى لاتحلوا قوما قاصدين زيارته بأن تصدوهم عن ذلك بأى وجه كان وقيل هناك مضاف محذوف أى قتال قوم أو أذى قوم آمين الخ وقرىء ولا آمى البيت الحرام بالاضافة وقوله تعالى (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا) حال من المستكن فى آمين لاصفة له لأن المختار أن اسم الفاعل إذا وصف بطل عمله أى قاصدين زيارته حال كونهم طالبين أن يثيبهم الله تعالى ويرضى عنهم وتنكير فضلا ورضوانا للتفخيم ومن ربهم متعلق بنفس الفعل أو بمحذوف وقع صفة لفضلا مغنية عن وصف ماعطف عليه بها أى فضلا كائنا من ربهم ورضوانا كذلك والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميرهم لتشريفهم والاشعار بحصول مبتغاهم وقرىء تبتغون على الخطاب فالجملة حينئذ حال من ضمير المخاطبين فى لاتحلوا على أن المراد بيان منافاة حالهم هذه للمنهى عنه لاتقييد النهى بها وإضافة الرب إلى ضمير الآمين للايماء إلى اقتصار التشريف عليهم وحرمان المخاطبين عنه وعن نيل المبتغى وفى ذلك من تعليل النهى وتأكيده والمبالغة فى استنكار المنهى عنه مالايخفى ومن ههنا قيل ان المراد بالآمين هم المسلمون خاصة وبه تمسك من ذهب إلى أن الآية محكمة وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال سورة المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا احلالها وحرموا احرامها وقال الحسن رحمه الله تعالى ليس فيها منسوخ وعن أبى ميسرة فيها ثمان عشرة فريضة وليس فيها منسوخ وقد قيل هم المشركون خاصة لأنهم المحتاجون إلى نهى المؤمنين عن احلالهم دون المؤمنين على أن حرمة احلالهم ثبتت بطريق دلالة النص ويؤيده أن الآية نزلت فى الحطم بن ضبعة البكرى وقد كان أتى المدينة فخلف خيله خارجها فدخل على النبى عليه الصلاة والسلام وحده ووعده أن يأتى بأصحابه فيسلموا ثم خرج من عنده عليه السلام فمر بسرح المدينة فاستاقه فلما كان فى العام القابل خرج من اليمامة حاجا فى حجاج بكر بن وائل ومعه تجارة عظيمة وقد قلدوا الهدى فسأل المسلمون النبى صلى الله عليه وسلم أن يخلى بينهم وبينه فأباه النبى عليه الصلاة والسلام فأنزل الله عز وجل ياأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله الآية وفسر ابتغاء الفضل بطلب الرزق بالتجارة وابتغاء الرضوان بأنهم كانوا يزعمون أنهم على سداد من دينهم وأن الحج يقربهم إلى الله تعالى فوصفهم الله تعالى بظنهم وذلك الظن الفاسد وإن كان بمعزل من استتباع رضوانه تعالى لكن لابعد فى كونه مدار الحصول بعض مقاصدهم

الدنيوية وخلاصهم عن المكاره العاجلة لا سيما فى ضمن مراعاة حقوق الله تعالى وتعظيم شعائره وقال قتادة هو أن يصلح معايشهم فى الدنيا ولا يعجل لهم العقوبة فيها وقيل هم المسلمون والمشركون لما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن المسلمين والمشركين كانوا يحجون جميعاً فنهى الله المسلمين أن يمنعوا أحداً عن حج البيت بقوله تعالى لا تحلوا الآية ثم نزل بعد ذلك إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام وقوله تعالى ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله وقال مجاهد والشعبى لا تحلوا نسخ بقوله تعالى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ولا ريب فى تناول الآمين للمشركين قطعا اما استقلالا واما اشتراكا لما سيأتى من قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الخ فيتعين النسخ كلا أو بعضا ولا بد فى الوجه الأخير من تفسير الفضل والرضوان بما يناسب الفريقين فقيل ابتغاء الفضل أى الرزق للمؤمنين والمشركين عامة وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة ويجوز أن يكون الفضل على اطلاقه شاملا للفضل الأخروى أيضاً ويختص ابتغاؤه بالمؤمنين (وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا) تصريح بما أشير اليه بقوله تعالى وأنتم حرم من انتهاء حرمة الصيد بانتفاء موجبها والأمر للاباحة بعد الحظر كأنه قيل وإذا حللتم فلا جناح عليكم فى الاصطياد وقرىء أحللتم وهو لغة فى حل وقرىء بكسر الفاء بالقاء حركة همزة الوصل عليها وهو ضعيف جدا (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ) نهى عن احلال قوم من الآمين خصوا به مع اندراجهم فى النهى عن احلال الكل كافة لاستقلالهم بأمور ربما يتوهم كونها مصححة لاحلالهم داعية اليه وجرم جار مجرى كسب فى المعنى وفى التعدى إلى مفعول واحد وإلى اثنين يقال جرم ذنبا نحو كسبه وجرمته ذنبا نحو كسبته إياه خلا أن جرم يستعمل غالبا فى كسب ما لا خير فيه وهو السبب فى ايثاره ههنا على الثانى وقد ينقل الأول من كل منهما بالهمزة إلى معنى الثانى فيقال أجرمته ذنبا وأكسبته إياه وعليه قراءة من قرأ يجرمنكم بضم الياء (شَنَآنُ قَوْمٍ) بفتح النون وقرىء بسكونها وكلاهما مصدر أضيف إلى مفعوله لا إلى فاعله كما قيل وهو شدة البغض وغاية المقت (أَن صَدُّوكُمْ) متعلق بالشنآن باضمار لام العلة أى لأن صدوكم عام الحديبية (عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) عن زيارته والطواف به للعمرة وهذه آية بينة فى عموم آمين للمشركين قطعاً وقرىء ان صدوكم على أنه شرط معترض أغنى عن جوابه لا يجرمنكم قد أبرز الصد المحقق فيما سبق فى معرض المفروض للتوبيخ والتنبيه على أن حقه أن لا يكون وقوعه إلا على سبيل الفرض والتقدير (أَن تَعْتَدُوا) أى عليهم وإنما حذف تعويلا على ظهوره وإيماء إلى أن المقصد الأصلى من النهى منع صدور الاعتداء عن المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر لا منع وقوعه على القوم مراعاة لجانبهم وهو ثانى مفعولى يجرمنكم أى لا يكسبنكم شدة بغضكم لهم لصدهم إياكم عن المسجد الحرام اعتداءكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفى وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهياً للشنآن عن كسب الاعتداء للمخاطبين لكنه فى الحقيقة نهى لهم عن الاعتداء على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشىء ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية وقد يوجه النهى إلى المسبب ويراد النهى عن السبب كما فى قوله لا أرينك ههنا يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه ولعل تأخير هذا النهى عن قوله تعالى وإذا حللتم فاصطادوا مع ظهور تعلقه بما قبله للايذان بأن حرمة الاعتداء لا تنتهى بالخروج عن الاحرام كانتهاء حرمة الاصطياد به بل هى باقية ما لم تنقطع علاقتهم عن الشعائر بالكلية وبذلك يعلم بقاء حرمة التعرض لسائر الآمين بالطريق الأولى (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) لما كان الاعتداء غالبا بطريق التظاهر والتعاون أمروا اثر ما نهوا عنه بأن يتعاونوا على كل ما هو من باب البر والتقوى ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى فدخل فيه ما نحن بصدده من التعاون على العفو والاغضاء عما وقع منهم دخولا أولياً ثم نهوا عن التعاون فى كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصى بقوله تعالى (وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) فاندرج فيه النهى عن التعاون على الاعتداء والانتقام

بالطريق البرهانى وأصل لاتعاونوا لاتتعاونوا لحذف منه إحدى التاءين تخفيفا وانما أخر النهى عن الأمر مع تقدم التخلية على التحلية مسارعة إلى إيجاب ماهو مقصود بالذات فان المقصود من إيجاب ترك التعاون على الاثم والعدوان إنما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى ثم أمروا بقوله تعالى (واتقوا الله) بالاتقاء فى جميع الامور التى من جملتها مخالفة ماذكر من الأوامر والنواهى فثبت وجوب الاتقاء فيها بالطريق البرهانى ثم علل ذلك بقوله تعالى (إن الله شديد العقاب) أى لمن لا يتقيه فيعاقبكم لامحالة ان لم تتقوه واظهار الاسم الجليل لما مر مرارا من ادخال الروعة وتربية المهابة وتقوية استقلال الجملة (حرمت عليكم الميتة) شروع فى بيان المحرمات التى أشير إليها بقوله تعالى الاما يتلى عليكم والميتة مافارقه الروح من غير ذبح (والدم) أى المسفوح منه لقوله تعالى أو دما مسفوحا وكان أهل الجاهلية يصبونه فى الامعاء ويشوونه ويقولون لم يحرم من فزدله أى من فصدله (ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) أى رفع الصوت لغير الله عند ذبحه كقولهم باسم اللات والعزى (والمنخنقة) أى التى ماتت بالخنق (والموقوذة) أى التى قتلت بالضرب بالخشب ونحوه من وقذته إذا ضربته (والمتردية) أى التى تردت من علو أو إلى بئر فماتت (والنطيحة) أى التى نطحتها أخرى فماتت بالنطح والتاء للنقل وقرىء والمنطوحة (وما أكل السبع) أى وما أكل منه السبع فمات وقرىء بسكون الباء وقرىء وأكيل السبع وفيه دليل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما صادته لم يحل (إلا ما ذكيتم) الا ما أدركتم ذكاته وفيه بقية حياة يضطرب اضطراب المذبوح وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع والذكاة فى الشرع بقطع الحلقوم والمرىء بمحدد (وما ذبح على النصب) قيل هو مفرد وقيل جمع نصاب وقرىء بسكون الصاد وأياما كان فهو واحد الانصاب وهى أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة وقيل هى الاصنام (وأن تستقسموا بالأزلام) جمع زلم وهو القدح أى وحرم عليكم الاستقسام بالأقداح وذلك أنهم إذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها أمرنى ربى وعلى الثانى نهانى ربى وعلى الثالث غفل فان خرج الآمر مضوا على ذلك وان خرج الناهى اجتنبوا عنه وان خرج الغافل أجالوها مرة أخرى فمعنى الاستقسام طلب معرفة ماقسم لهم بالازلام وقيل هو استقسام الجزور بالأقداح على الانصباء المعهودة (ذلكم) إشارة إلى الاستقسام بالازلام ومعنى البعد فيه للاشارة إلى بعد منزلته فى الشر (فسق) تمرد وخروج عن الحدود دخول فى علم الغيب وضلال باعتقاد أنه طريق اليه وافتراء على الله سبحانه ان كان هو المراد بقولهم ربى وشرك وجهالة ان كان هو الصنم وقيل ذلكم اشارة إلى تناول المحرمات المعدودة لان معنى تحريمها تحريم تناولها (اليوم) اللام للعهد والمراد به الزمان الحاضر وما يتصل به من الازمنة الماضية والآتية وقيل يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر الجمعة يوم عرفة فى حجة الوداع والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على العضباء فكادت عضد الناقة تندق لثقلها فبركت وأياما كان فهو منصوب على أنه ظرف لقوله تعالى (يئس الذين كفروا من دينكم) أى من ابطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث أوغيرها أومن أن يغلبوكم عليه لما شاهدوا من أن الله عز وجل وفى بوعده حيث أظهره على الدين كله وهو الانسب بقوله تعالى (فلا تخشوهم) أى أن يظهروا عليكم (واخشون) أى وأخلصوا إلى الخشية (اليوم أكملت لكم دينكم) بالنصر والاظهار على الاديان كلها أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد وتقديم الجار والمجرور للايذان من أول الأمر بأن الاكمال لمنفعتهم ومصلحتهم كما فى قوله تعالى ألم نشرح لك صدرك وعليكم فى قوله تعالى (وأتممت عليكم نعمتى) متعلق بأتممت لا بنعمتى لان المصدر لا يتقدم عليه معموله وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرات أى أتممتها بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكها والنهى عن حج المشرك وطواف العريان أو باكمال

الدين والشرائع أو بالهداية والتوفيق قيل معنى أتممت عليكم نعمتي أنجزت لكم وعدي بقولي ولأتم نعمتي عليكم (وَرَضِيتُ
لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً) أى اخترته لكم من بين الاديان وهو الدين عند الله لا غير . عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى
عنه أن رجلا من اليهود قال له يا أمير المؤمنين آية فى كتابكم تقرؤنها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا
قال أى آية قال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى الآية قال عمر رضى الله تعالى عنه قال قد عرفنا ذلك اليوم والمكان
الذى أنزلت فيه على النبى عليه الصلاة والسلام وهو قائم بعرفة يوم الجمعة أشار رضى الله تعالى عنه إلى أن ذلك اليوم عيد لنا
وروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضى الله تعالى عنه فقال له النبى عليه الصلاة والسلام ما يبكيك يا عمر قال أبكانى انا كنا
فى زيادة من ديننا فاذا كمل فانه لا يكمل شىء الا نقص فقال عليه الصلاة والسلام صدقت فكانت هذه الآية نعى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فما لبث بعد ذلك الا أحدا وثمانين يوما (فَمَنِ اضْطُرَّ) متصل بذكر المحرمات وما بينهما
اعتراض بما يوجب أن يجتنب عنه وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام
المرضى أى فمن اضطر إلى تناول شىء من هذه المحرمات (فِى مَخْمَصَةٍ) أى مجاعة يخاف معها الموت أو مباديه
(غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ) قيل غير مائل ومنحرف اليه بأن يأكلها تلذذا أو مجاوزا حد الرخصة أو ينتزعها من مضطر آخر
كقوله تعالى غير باغ ولا عاد (فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) لا يؤاخذه بذلك (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ) شروع فى
تفصيل المحللات التى ذكر بعضها على وجه الاجمال اثر بيان المحرمات كأنهم سألوا عنها عند بيان أضدادها ولتضمن السؤال
معنى القول أوقع على الجملة فماذا مبتدأ وأحل لهم خبره وضمير الغيبة لما أن يسألون بلفظ الغيبة فانه كما يعتبر حال المحكى
عنه فيقال أقسم زيد لأفعلن يعتبر حال الحاكى فيقال أقسم زيد ليفعلن والمسؤل ما أحل لهم من المطاعم (قُلْ أُحِلَّ
لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ) أى ما لم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه كما فى قوله تعالى ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث
(وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ) عطف على الطيبات بتقدير المضاف على أن ما موصولة والعائد محذوف أى وصيد ما علمتموه
أو مبتدأ على أن ما شرطية والجواب فكلوا وقد جوز كونها مبتدأ على تقدير كونها موصولة أيضا والخبر كلوا وانما
دخلته الفاء تشبيها للموصول باسم الشرط ومن الجوارح حال من الموصول أو ضميره المحذوف والجوارح الكواسب
من سباع البهائم والطير وقيل سميت بها لانها تجرح الصيد غالبا (مُكَلِّبِينَ) أى معلمين لها الصيد والمكلب مؤدب
الجوارح ومضريها بالصيد مشتق من الكلب لان التأديب كثيرا ما يقع فيه أو لان كل سبع يسمى كلبا لقوله عليه
الصلاة والسلام فى حق عتبة بن أبى لهب حين أراد سفر الشأم فقال النبى عليه الصلاة والسلام اللهم سلط عليه كلبا من
كلابك فأكله الأسد وانتصابه على الحالية من فاعل علمتم وفائدتها المبالغة فى التعليم لما أن اسم المكلب لا يقع إلا على
النحرير فى علمه وقرىء مكلبين بالتخفيف والمعنى واحد (تُعَلِّمُونَهُنَّ) حال ثانية منه أو حال من ضمير مكلبين
أو استئناف (مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ) من الحيل وطرق التعليم والتأديب فان العلم به إلهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل
الذى هو منحة منه أو بما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بارسال صاحبه وانزجاره بزجره وانصرافه بدعائه وإمساك
الصيد عليه وعدم أكله منه (فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ) قد مر فيما سبق أن هذه الجملة على تقدير كون ما شرطية
جواب الشرط وعلى تقدير كونها موصولة مرفوعة على الابتداء خبر لها وأما على تقدير كونها عطفا على الطيبات فهى
جملة متفرعة على بيان حل صيد الجوارح المعلمة مبينة للمضاف المقدر الذى هو المعطوف وبه يتعلق الاحلال حقيقة
ومشيرة إلى نتيجة التعليم وأثره داخلة تحت الامر فالفاء فيها كما فى قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ومن تبعيضية لما أن
البعض مما يتعلق به الأكل كالجلود والعظام والريش وغير ذلك وما موصولة أو موصوفة حذف عائدها وعلى

متعلقة بأمسكن أى فكلوا بعض ما أمسكنه عليكم وهو الذى لم يأكل منه وأما ما أكل منه فهو مما أمسكنه على أنفسهن لقوله عليه الصلاة والسلام لعدى بن حاتم وان أكل منه فلا تأكل انما أمسك على نفسه واليه ذهب أكثر الفقهاء وقال بعضهم لا يشترط عدم الأكل فى سباع الطير لما أن تأديبها إلى هذه الدرجة متعذر وقال آخرون لا يشترط ذلك مطلقا وقد روى عن سلمان وسعد بن أبى وقاص وأبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه إذا أكل الكلب ثلثيه وبقى ثلثه وقد ذكرت اسم الله عليه فكل (وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ) الضمير لما علمتم أى سموا عليه عند ارساله أو لما أمسكنه أى سموا عليه اذا أدركتم ذكاته (وَاتَّقُوا اللهَ) فى شأن محرماته (إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) أى سريع اتيان حسابه أو سريع تمامه إذا شرع فيه يتم فى أقرب ما يكون من الزمان والمعنى على التقديرين أنه يؤاخذكم سريعا فى كل ما جل ودق واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ) قيل المراد بالأيام الثلاثة وقت واحد وإنما كرر للتأكيد ولاختلاف الأحداث الواقعة فيه حسن تكريره والمراد بالطيبات ما مر (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) أى اليهود والنصارى واستثنى على رضى الله تعالى عنه نصارى بنى تغلب وقال ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر وبه أخذ الشافعى رضى الله عنه والمراد بطعامهم ما يتناول ذبائحهم وغيرها (حِلٌّ لَكُمْ) أى حلال وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال لا بأس وهو قول عامة التابعين وبه أخذ أبو حنيفة رضى الله عنه وأصحابه وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عنده وقال صاحباه هما صنفان صنف يقرؤن الزبور ويعبدون الملائكة عليهم السلام وصنف لا يقرؤن كتابا ويعبدون النجوم فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب وأما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب فى أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم لقوله عليه الصلاة والسلام سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم (وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) فلا عليكم أن تطعموهم وتبيعوه منهم ولو حرم عليهم لم يجز ذلك (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ) رفع على أنه مبتدأ حذف خبره لدلالة ما تقدم عليه أى حل لكم أيضا والمراد بهن الحرائر العفائف وتخصيصهن بالذكر للبعث على ما هو الأولى لا لنفى ما عداهن فان نكاح الأماء المسلمات صحيح بالاتفاق وكذا نكاح غير العفائف منهن وأما الاماء الكتابيات فهن كالمسلمات عند أبى حنيفة رضى الله عنه خلافا للشافعى رضى الله عنه (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ) أى هن أيضا حل لكم وإن كن حربيات وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا تحل الحربيات (إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) أى مهورهن وتقييد الحل بايتائها لتأكيد وجوبها والحث على الأولى وقيل المراد بايتائها التزامها وإذا ظرفية عاملها حل المحذوف وقيل شرطية حذف جوابها أى إذا آتيتموهن أجورهن حللن لكم (مُحْصِنِينَ) حال من فاعل آتيتموهن أى حال كونكم أعفاء بالنكاح وكذا قوله تعالى (غَيْرَ مُسَافِحِينَ) وقيل هو حال من ضمير محصنين وقيل صفة لمحصنين أى غير مجاهرين بالزنا (وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ) أى ولا مسرين به والخدن الصديق يقع على الذكر والأنثى وهو اما مجرور عطفا على مسافحين وزيدت لا لتأكيد النفى المستفاد من غير أو منصوب عطفا على غير مسافحين باعتبار أوجهه الثلاثة (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ) أى ومن ينكر شرائع الاسلام التى من جملتها ما بين ههنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة ويمتنع عن قبولها (فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) الصالح الذى عمله قبل ذلك (وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) هو مبتدأ من الخاسرين خبره وفى متعلقة بما تعلق به الخبر من الكون المطلق وقيل بمحذوف دل عليه المذكور أى خاسر فى الآخرة وقيل بالخاسرين على أن الألف واللام للتعريف لا موصولة لأن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها وقيل يغتفر فى الظرف ما لا يغتفر فى غيره كما فى قوله :

ربيته حتى إذا تمعددا … كان جزائى بالعصا أن أجلدا

(يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) شروع فى بيان الشرائع المتعلقة بدينهم بعد بيان ما يتعلق بدنياهم (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ) أى أردتم القيام اليها كما فى قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله عبر عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها مجازا للايجاز والتنبيه على أن من أراد الصلاة حقه أن يبادر اليها بحيث لا ينفك عن ارادتها أو إذا قصدتم الصلاة اطلاقا لاسم أحد لازميها على لازمها الآخر وظاهر الآية الكريمة يوجب الوضوء على كل قائم اليها وان لم يكن محدثا لما أن الأمر للوجوب قطعا والإجماع على خلافه وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد فقال عمر رضى الله تعالى عنه صنعت شيئا لم تكن تصنعه فقال عليه الصلاة والسلام عمدا فعلته يا عمر يعنى بيانا للجواز وحمل الأمر بالنسبة إلى غير المحدث على الندب مما لا مساغ له فالوجه أن الخطاب خاص بالمحدثين بقرينة دلالة الحال واشتراط الحدث فى التيمم الذى هو بدله وما نقل عن النبى عليه الصلاة والسلام والخلفاء من أنهم كانوا يتوضئون لكل صلاة فلا دلالة فيه على أنهم كانوا يفعلونه بطريق الوجوب أصلا كيف لا وما روى عنه عليه الصلاة والسلام من قوله من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات صريح فى أن ذلك كان منهم بطريق الندب وما قيل كان ذلك أول الأمر ثم نسخ يرده قوله عليه الصلاة والسلام المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ) أى أمروا عليها الماء ولا حاجة إلى الدلك خلافا لمالك (وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ) الجمهور على دخول المرفقين فى المغسول ولذلك قيل إلى بمعنى مع كما فى قوله تعالى ويزدكم قوة إلى قوتكم وقيل هى إنما تفيد معنى الغاية مطلقا وأما دخولها فى الحكم أو خروجها منه فلا دلالة لها عليه وإنما هو أمر يدور على الدليل الخارجى كما فى حفظت القرآن من أوله إلى آخره وقوله تعالى فنظرة إلى ميسرة فان الدخول فى الأول والخروج فى الثانى متيقن بناء على تحقق الدليل وحيث لم يتحقق ذلك فى الآية وكانت الأيدى متناولة للمرافق حكم بدخولها فيها احتياطا وقيل إلى من حيث افادتها للغاية تقتضى خروجها لكن لما لم تتميز الغاية ههنا عن ذى الغاية وجب ادخالها احتياطا (وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ) الباء مزيدة وقيل للتبعيض فانه الفارق بين قولك مسحت المنديل ومسحت بالمنديل وتحقيقه أنها تدل على تضمين الفعل معنى الالصاق فكأنه قيل وألصقوا المسح برؤسكم وذلك لا يقتضى الاستيعاب كما يقتضيه مالو قيل وامسحوا رؤسكم فانه كقوله تعالى فاغسلوا وجوهكم واختلف العلماء فى القدر الواجب فأوجب الشافعى أقل ما ينطلق عليه الاسم أخذا باليقين وأبو حنيفة ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث مسح على ناصيته وقدرها بربع الرأس ومالك مسح الكل أخذا بالاحتياط (وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ) بالنصب عطفا على وجوهكم ويؤيده السنة الشائعة وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة والتحديد إذ المسح لم يعهد محدودا وقرىء بالجر على الجوار ونظيره فى القرآن كثير كقوله تعالى عذاب يوم أليم ونظائره وللنحاة فى ذلك باب مفرد وفائدته التنبيه على أنه ينبغى أن يقتصد فى صب الماء عليها ويغسلها غسلا قريبا من المسح وفى الفصل بينه وبين أخواته ايماء إلى أفضلية الترتيب وقرىء بالرفع أى وأرجلكم مغسولة (وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا) أى فاغتسلوا وقرىء فاطهروا أى فطهروا أبدانكم وفى تعليق الأمر بالطهارة الكبرى بالحدث الأكبر اشارة إلى اشتراط الأمر بالطهارة الصغرى بالحدث الأصغر (وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ) مرضا يخاف به الهلاك أو ازدياده باستعمال الماء (أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ) أى مستقرين عليه (أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ) من لابتداء الغاية وقيل للتبعيض وهى متعلقة بامسحوا وقرىء فأموا صعيدا وقد مر تفسير الآية الكريمة مشبعا فى سورة النساء فليرجع اليه ولعل التكرير ليتصل الكلام فى أنواع الطهارة (مَا يُرِيدُ اللَّهُ) أى ما يريد بالأمر بالطهارة للصلاة أو بالامر بالتيمم (لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ) من ضيق فى الامتثال

به (ولكن يريد) مايريد بذلك (ليطهركم) أى لينظفكم أو ليطهركم عن الذنوب فان الوضوء مكفر لها أو ليطهركم بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء فمفعول يريد فى الموضعين محذوف واللام للعلة وقيل مزيدة والمعنى مايريد الله أن يجعل عليكم من حرج فى باب الطهارة حتى لايرخص لكم فى التيمم ولكن يريد أن يطهركم بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء (وليتم) بشرعه ماهو مطهرة لأبدانكم ومكفرة لذنوبكم (نعمته عليكم) فى الدين أو ليتم برخصة انعامه عليكم بعزائمه (لعلكم تشكرون) نعمته ومن لطائف الآية الكريمة أنها مشتملة على سبعة أمور كلها مثنى طهارتان أصل وبدل والأصل اثنان مستوعب وغير مستوعب وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود وأن آلتهما مائع وجامد وموجبهما حدث أصغر وأكبر وأن المسح للعدول إلى البدل مرض وسفر وان الموعود عليهما تطهير الذنوب وإتمام النعمة (واذكروا نعمة الله عليكم) بالاسلام لتذكركم المنعم وترغبكم فى شكره (وميثاقه الذى واثقكم به) أى عهده المؤكد الذى أخذه عليكم وقوله تعالى (إذ قلتم سمعنا وأطعنا) ظرف لواثقكم به أو لمحذوف وقع حالا من الضمير المجرور فى به أو من ميثاقه أى كائنا وقت قولكم سمعنا وأطعنا وفائدة التقييد به تأكيد وجوب مراعاته بتذكر قبولهم والتزامهم بالمحافظة عليه وهو الميثاق الذى أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله عليه الصلاة والسلام على السمع والطاعة فى حال العسر واليسر والمنشط والمكره وقيل هو الميثاق الواقع ليلة العقبة وفى بيعة الرضوان وإضافته اليه تعالى مع صدوره عنه عليه الصلاة والسلام لكون المرجع اليه كما نطق به قوله تعالى ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله وقال مجاهد هو الميثاق الذى أخذه الله تعالى على عباده حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام (واتقوا الله) أى فى نسيان نعمته ونقض ميثاقه أو فى كل ماتأتون وماتذرون فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا (إن الله عليم بذات الصدور) أى بخفياتها الملابسة لها ملابسة تامه مصححة لاطلاق الصاحب عليها فيجازيكم عليها فما ظنكم بجليات الأعمال والجملة اعتراض تذييلى وتعليل للأمر بالاتقاء وإظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة (يأيها الذين آمنوا) شروع فى بيان الشرائع المتعلقة بما يجرى بينهم وبين غيرهم اثر بيان مايتعلق بأنفسهم (كونوا قوامين لله) مقيمين لأوامره ممتثلين بها معظمين لها مراعين لحقوقها (شهداء بالقسط) أى بالعدل (ولا يجرمنكم) أى لايحملنكم (شنآن قوم) أى شدة بغضكم لهم (على ألا تعدلوا) فلاتشهدوا فى حقوقهم بالعدل أو فتعتدوا عليهم بارتكاب مالايحل كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيا وغير ذلك (اعدلوا هو) أى العدل (أقرب للتقوى) الذى أمرتم به صرح لهم بالأمر بالعدل وبين أنه بمكان من التقوى بعد مانهاهم عن الجور وبين أنه مقتضى الهوى وإذا كان وجوب العدل فى حق الكفار بهذه المثابة فماظنك بوجوبه فى حق المسلمين (واتقوا الله) أمر بالتقوى اثر مابين أن العدل أقرب له اعتناء بشأنه وتنبيها على أنه ملاك الأمر (إن الله خبير بما تعملون) من الأعمال فيجازيكم بذلك وتكرير هذا الحكم إما لاختلاف السبب كما قيل ان الأول نزل فى المشركين وهذا فى اليهود أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة فى إطفاء ثائرة الغيظ والجملة تعليل لما قبلها وإظهار الجلالة لما مر مرات وحيث كان مضمونها منبئا عن الوعد والوعيد عقب بالوعد لمن يحافظ على طاعته تعالى وبالوعيد لمن يخل بها فقيل (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) التى من جملتها العدل والتقوى (لهم مغفرة وأجر عظيم) حذف ثانى مفعولى وعد استغناء عنه بهذه الجملة فانه استئناف مبين له وقيل الجملة فى موقع المفعول فان الوعد ضرب من القول فكأنه قيل وعدهم هذا القول (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) التى من جملتها ماتليت من النصوص الناطقة بالأمر

بالعدل والتقوى (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الكفر وتكذيب الآيات (أصحاب الجحيم) ملابسوها ملابسة مؤبدة . من السنة السنية القرآنية شفع الوعد بالوعيد والجمع بين الترغيب والترهيب إيفاء لحق الدعوة بالتبشير والإنذار (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم) تذكير لنعمة الانجاء من الشر إثر تذكير نعمة إيصال الخير الذى هو نعمة الاسلام وما يتبعها من الميثاق وعليكم متعلق بنعمة الله أو بمحذوف وقع حالا منها وقوله تعالى (إذ هم قوم) على الاول ظرف لنفس النعمة وعلى الثانى لما تعلق به عليكم ولا سبيل إلى كونه ظرفا لاذكروا لتنافى زمانيهما أى اذكروا انعامه تعالى عليكم أو اذكروا نعمته كائنة عليكم فى وقت همهم (أن يبسطوا إليكم أيديهم) أى بأن يبطشوا بكم بالقتل والاهلاك يقال بسط اليه يده إذا بطش به وبسط اليه لسانه إذا شتمه وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة إلى بيان رجوع ضرر البسط وغائلته اليهم حملا لهم من أول الأمر على الاعتداد بنعمة دفعه كما أن تقديم لكم فى قوله عز وجل هو الذى خلق لكم ما فى الأرض للمبادرة الى بيان كون المخلوق من منافعهم تعجيلا للمسرة (فكف أيديهم عنكم) عطف على هم وهو النعمة التى أريد تذكيرها وذكر الهم للايذان بوقوعها عند مزيد الحاجة اليها والفاء للتعقيب المفيد لتمام النعمة وكمالها وإظهار أيديهم فى موقع الاضمار لزيادة التقرير أى منع أيديهم أن تمد اليكم عقيب همهم بذلك لا أنه كفها عنكم بعد ما مدوها اليكم وفيه من الدلالة على كمال النعمة من حيث أنها لم تكن مشوبة بضرر الخوف والانزعاج الذى قلما يعرى عنه الكف بعد المد ما لا يخفى مكانه وذلك ما روى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعسفان فى غزوة ذى أنمار وهى غزوة ذات الرقاع وهى السابعة من مغازيه عليه الصلاة والسلام قاموا إلى الظهر معا فلما صلوا ندم المشركون ألا كانوا قد أكبوا عليهم فقالوا إن لهم بعدها صلاة هى أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم يعنون صلاة العصر وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا اليها فرد الله تعالى كيدهم بأن أنزل صلاة الخوف وقيل هو ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى قريظة ومعه الشيخان وعلى رضى الله تعالى عنهم يستقرضهم لدية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ يحسبهما مشركين فقالوا نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما سألت فأجلسوه فى صفة وهموا بالفتك به وعمد عمرو بن جحاش إلى رحا عظيمة يطرحها عليه فأمسك الله تعالى يده ونزل جبريل عليه السلام فأخبره فخرج عليه الصلاة والسلام وقيل هو ما روى أنه عليه الصلاة والسلام نزل منزلا وتفرق أصحابه فى العضاه يستظلون بها فعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه بشجرة فجاء أعرابى فأخذه وسله فقال من يمنعك منى فقال صلى الله عليه وسلم الله تعالى فأسقطه جبريل عليه السلام من يده فأخذه الرسول عليه الصلاة والسلام فقال من يمنعك منى فقال لا أحد أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله (واتقوا الله) عطف على اذكروا أى اتقوه فى رعاية حقوق نعمته ولا تخلوا بشكرها أو فى كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا (وعلى الله) أى عليه تعالى خاصة دون غيره استقلالا واشتراكا (فليتوكل المؤمنون) فانه يكفيهم فى ايصال كل خير ودفع كل شر والجملة تذييل مقرر لما قبله وايثار صيغة أمر الغائب واسنادها إلى المؤمنين لايجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهانى وللايذان بأن ما وصفوا به عند الخطاب من وصف الايمان داع إلى ما أمروا به من التوكل والتقوى وازع عن الاخلال بهما واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة التذييلية (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل) كلام مستأنف مشتمل على ذكر بعض ما صدر عن بنى إسرائيل من الخيانة ونقض الميثاق وما أدى اليه ذلك من التبعات مسوق لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله تعالى ومراعاة حق الميثاق الذى واثقهم به وتحذيرهم من نقضه أو لتقرير ما ذكر من الهم بالبطش وتحقيقه على تقدير كون ذلك من بنى قريظة حسبما

مر من الرواية ببيان أن الغدر والخيانة عادة لهم قديمة توارثوها من أسلافهم وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتفخيم الميثاق وتهويل الخطب فى نقضه مع مافيه من رعاية حق الاستئناف المستدعى للانقطاع عما قبله والالتفات فى قوله تعالى (وَبَعَثْنا مِنهُمُ اثْنَىْ عشرَ نَقِيباً) للجرى على سنن الكبرياء أو لأن البعث كان بواسطة موسى عليه السلام كما سيأتى وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر والنقيب فعيل بمعنى فاعل مشتق من النقب وهو التفتيش ومنه قوله تعالى فنقبوا فى البلاد سمى بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم وأسرارهم . قال الزجاج وأصله من النقب وهو الثقب الواسع . روى أن بنى إسرائيل لما استقروا بمصر بعد مهلك فرعون أمرهم الله عز وجل بالمسير إلى أريحاء أرض الشام وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون وقال لهم إنى كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرجوا اليها وجاهدوا من فيها وإنى ناصركم وأمر موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا أمينا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقة عليهم فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل وتكفل اليهم النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فرأوا أجراما عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا وقد نهاهم موسى عن ذلك فنكثوا الميثاق الا كالب بن يوفنا نقيب سبط يهوذا ويوشع بن نون نقيب سبط افرايم بن يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام قيل لما توجه النقباء إلى أرضهم للتجسس لقيهم عوج ابن عنق وكان طوله ثلاثة آلاف وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وقد عاش ثلاثة آف سنة وكان على رأسه حزمة حطب فأخذهم وجعلهم فى الحزمة وانطلق بهم إلى امرأته وقال انظرى إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا فطرحهم بين يديها وقال ألا أطحنهم برجلى فقالت لا بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل فجعلوا يتعرفون أحوالهم وكان لايحمل عنقود عنبهم إلا خمسة رجال أو أربعة فلما خرج النقباء قال بعضهم لبعض ان أخبرتم بنى إسرائيل بخبر القوم ارتدوا عن نبى الله ولكن اكتموه الا عن موسى وهرون عليهما السلام فيكونان هما يريان رأيهما فأخذ بعضهم على بعض الميثاق ثم انصرفوا إلى موسى عليه السلام وكان معهم حبة من عنبهم وقر رجل فنكثوا عهدهم وجعل كل منهم ينهى سبطه عن قتالهم ويخبرهم بما رأى الا كالب ويوشع وكان معسكر موسى فرسخا فى فرسخ فجاء عوج حتى نظر اليهم ثم رجع الى الجبل فقور منه صخرة عظيمة على قدر العسكر ثم حملها على رأسه ليطبقها عليهم فبعث الله تعالى الهدهد فقور من الصخرة وسطها المحاذى لرأسه فانثقبت فوقعت فى عنق عوج وطوقته فصرعته وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع وكذا طول العصا فترامى فى السماء عشرة أذرع فما أصاب العصا الا كعبه وهو مصروع فقتله قالوا فأقبلت جماعة ومعهم الخناجر حتى حزوا رأسه (وقالَ اللهُ) أى لبنى اسرائيل فقط اذهم المحتاجون الى ماذكر من الترغيب والترهيب كما ينبىء عنه الالتفات مع مافيه من تربية المهابة وتأكيد مايتضمنه الكلام من الوعد (إنِّى مَعَكُمْ) أى بالعلم والقدرة والنصرة لا بالنصرة فقط فان تنبيههم على علمه تعالى بكل ما يأتون وما يذرون وعلى كونهم تحت قدرته وملكوته مما يحملهم على الجد فى الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه كأنه قيل انى معكم أسمع كلامكم وأرى أعمالكم وأعلم ضمائركم فأجازيكم بذلك هذا وقد قيل المراد بالميثاق هو الميثاق بالايمان والتوحيد وبالنقباء ملوك بنى اسرائيل الذين ينقبون أحوالهم ويلون أمورهم بالأمر والنهى واقامة العدل وهو الأنسب بقوله تعالى (لَئِنْ أقَمْتُمُ الصَّلٰوةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكٰوةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلى) أى بجميعهم واللام موطئة للقسم المحذوف وتأخير الايمان عن اقامة الصلاة وايتاء الزكاة مع كونهما من الفروع المترتبة عليه لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم لتكذيب بعض الرسل عليهم السلام ولمراعاة المقارنة بينه وبين قوله تعالى (وَعَزَّرْتُمُوهُمْ) أى نصرتموهم وقويتموهم وأصله الذب وقيل

التعظيم والتوقير والثناء بخير وقرىء وعزرتموهم بالتخفيف (وأقرضتم الله) بالانفاق فى سبيل الخير أو بالتصدق بالصدقات المندوبة وقوله تعالى (قرضاً حسناً) اما مصدر مؤكد وارد على غير صيغة المصدر كما فى قوله تعالى فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا أو مفعول ثان لأقرضتم على أنه اسم للمال المقرض وقوله تعالى (لأكفرن عنكم سيئاتكم) جواب للقسم المدلول عليه باللام ساد مسد جواب الشرط (ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) عطف على ماقبله داخل معه فى حكم الجواب متأخر عنه فى الحصول أيضا ضرورة تقدم التخلية على التحلية (فمن كفر) أى برسلى أو بشىء مما عدد فى حيز الشرط والفاء لترتيب بيان حكم من كفر على بيان حكم من آمن تقوية للترغيب بالترهيب (بعد ذلك) الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم الموجب للايمان قطعا (منكم) متعلق بمضمر وقع حالا من فاعل كفر ولعل تغيير السبك حيث لم يقل وإن كفرتم عطفا على الشرطية السابقة لإخراج كفر الكل عن حيز الاحتمال وإسقاط من كفر عن رتبة الخطاب وليس المراد إحداث الكفر بعد الإيمان بل ما يعم الاستمرار عليه أيضا كأنه قيل فمن اتصف بالكفر بعد ذلك خلا أنه قصد بإيراد ما يدل على الحدوث بيان ترقيهم فى مراتب الكفر فان الاتصاف بشىء بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وإن كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث (فقد ضل سواء السبيل) أى وسط الطريق الواضح ضلالا بينا وأخطأه خطأ فاحشا لا عذر معه أصلا بخلاف من كفر قبل ذلك إذ ربما يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم له معذرة (فبما نقضهم ميثاقهم) الباء سببية وما مزيدة لتأكيد الكلام وتمكينه فى النفس أى بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لا بشىء آخر استقلالا أو انضماما (لعناهم) طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا أو مسخناهم قردة وخنازير أو أذللناهم بضرب الجزية عليهم وتخصيص البيان بما ذكر مع أن حقه أن يبين بعد بيان تحقق نفس اللعن والنقض بأن يقال مثلا فنقضوا ميثاقهم فلعناهم ضرورة تقدم هيئة الشىء البسيطة على هيئته المركبة للايذان بأن تحققهما أمر جلى غنى عن البيان وإنما المحتاج إلى ذلك ما بينهما من السببية والمسببية (وجعلنا قلوبهم قسية) بحيث لا تتأثر من الآيات والنذر وقيل أملينا لهم ولم نعاجلهم بالعقوبة حتى قست أو خذلناهم ومنعناهم الالطاف حتى صارت كذلك وقرىء قسية وهى إما مبالغة قاسية وإما بمعنى رديئة من قولهم درهم قسى أى ردىء إذا كان مغشوشا له يبس وخشونة وقرىء بكسر القاف اتباعا لها بالسين (يحرفون الكلم عن مواضعه) استئناف لبيان مرتبة قساوة قلوبهم فانه لا مرتبة أعظم مما يصحح الاجتراء على تغيير كلام الله عز وجل والافتراء عليه وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقيل حال من مفعول لعناهم (ونسوا حظاً) أى تركوا نصيبا وافرا (مما ذكروا به) من التوراة أو من اتباع محمد عليه الصلاة والسلام وقيل حرفوا التوراة وزلت أشياء منها عن حفظهم وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) أى خيانة على أنها مصدر كلاغية وكاذبة أو فعلة خائنة أى ذات خيانة أو طائفة خائنة أو شخص خائنة على أن التاء للمبالغة أو نفس خائنة ومنهم متعلق بمحذوف وقع صفة لها خلا أن من على الوجهين الأولين ابتدائية أى على خيانة أو على فعلة خائنة كائنة منهم صادرة عنهم وعلى الوجوه الباقية تبعيضية والمعنى أن الغدر والخيانة عادة مستمرة لهم ولأسلافهم بحيث لا يكادون يتركونها أو يكتمونها فلا تزال ترى ذلك منهم (إلا قليلاً منهم) استثناء من الضمير المجرور فى منهم على الوجوه كلها وقيل من خائنة على الوجوه الثلاثة الأخيرة والمراد بهم الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل من خائنة على الوجه الثانى فالمراد بالقليل الفعل القليل ومن ابتدائية كما مر أى الافعلا قليلا كائنا منهم (فاعف عنهم واصفح) أى ان تابوا وآمنوا أو عاهدوا والتزموا الجزية وقيل مطلق نسخ بآية السيف (إن الله يحب المحسنين) تعليل للأمر وحث على الامتثال به

وتنبيه على أن العفو على الاطلاق من باب الاحسان (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ) بيان لقبائح النصارى وجناياتهم اثر بيان قبائح اليهود وخياناتهم ومن متعلقة بأخذنا إذ التقدير وأخذنا من الذين قالوا انا نصارى ميثاقهم وتقديم الجار والمجرور للاهتمام به ولأن ذكر حال إحدى الطائفتين مما يوقع فى ذهن السامع أن حال الأخرى ماذا فكأنه قيل ومن الطائفة الأخرى أيضاً أخذنا ميثاقهم وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع خبراً لمبتدا محذوف قامت صفته أو صلته مقامه أى ومنهم قوم أخذنا ميثاقهم أو من أخذنا ميثاقهم وضمير ميثاقهم راجع إلى الموصوف المقدر وأما فى الوجه الأول فراجع إلى الموصول وقيل راجع إلى بنى اسرائيل أى أخذنا من هؤلاء ميثاق أولئك أى مثل ميثاقهم من الايمان بالله والرسل وبما يتفرع على ذلك من أفعال الخير وإنما نسب تسميتهم نصارى إلى أنفسهم دون أن يقال ومن النصارى إيذاناً بأنهم فى قولهم نحن أنصار الله بمعزل من الصدق وإنما هو تقول محض منهم وليسوا من نصرة الله تعالى فى شىء أو إظهاراً لكمال سوء صنيعهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم فان ادعاءهم لنصرته تعالى يستدعى ثباتهم على طاعته تعالى ومراعاة ميثاقه (فَنَسُوا) عقيب أخذ الميثاق من غير تلعثم (حَظًّا) وافرا (مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) فى تضاعيف الميثاق من الايمان بالله تعالى وغير ذلك حسبما مر آنفا وقيل هو ما كتب عليهم فى الانجيل من أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام فتركوه ونبذوه وراء ظهورهم واتبعوا أهواءهم فاختلفوا وتفرقوا نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصار الشيطان (فَأَغْرَيْنَا) أى ألزمنا وألصقنا من غرى بالشىء إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره ومنه الغراء وقوله تعالى (بَيْنَهُمُ) إما ظرف لأغرينا أو متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله أى أغرينا (الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ) كائنة بينهم ولا سبيل إلى جعله ظرفا لهما لأن المصدر لا يعمل فيما قبله وقوله تعالى (إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) اما غاية للاغراء أو للعداوة والبغضاء أى يتعادون ويتباغضون إلى يوم القيامة حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة وآراؤهم الزائغة المؤدية إلى التفرق إلى الفرق الثلاث فضمير بينهم لهم خاصة وقيل لهم ولليهود أى أغرينا العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى (وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) وعيد شديد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت أى يجازيهم بما عملوه على الاستمرار من نقض الميثاق ونسيان الحظ الوافر مما ذكروا به وسوف لتأكيد الوعيد والالتفات إلى ذكر الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة لتشديد الوعيد والتعبير عن العمل بالصنع للايذان برسوخهم فى ذلك وعن المجازاة بالتنبئة للتنبيه على أنهم لا يعلمون حقيقة ما يعلمونه من الأعمال السيئة واستتباعها للعذاب فيكون ترتيب العذاب عليها فى افادة العلم بحقيقة حالها بمنزلة الاخبار بها (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ) التفات إلى خطاب الفريقين على أن الكتاب جنس شامل للتوراة والانجيل اثر بيان أحوالهما من الخيانة وغيرها من فنون القبائح ودعوة لهم إلى الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن وإيرادهم بعنوان أهلية الكتاب لانطواء الكلام المصدر به على ما يتعلق بالكتاب وللمبالغة فى التشنيع فان أهلية الكتاب من موجبات مراعاته والعمل بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا وهم يعلمون (قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا) الاضافة للتشريف والايذان بوجوب اتباعه وقوله تعالى (يُبَيِّنُ لَكُمْ) حال من رسولنا وإيثار الجملة الفعلية على غيرها للدلالة على تجدد البيان أى قد جاءكم رسولنا حال كونه مبينا لكم على التدريج حسبما تقتضيه المصلحة (كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ) أى التوراة والانجيل كبعثة محمد عليه الصلاة والسلام وآية الرجم فى التوراة وبشارة عيسى بأحمد عليهما السلام فى الانجيل وتأخير كثيرا عن الجار والمجرور لما مر مرارا من إظهار العناية بالمقدم لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر لأن ما حقه التقديم إذا أخر لا سيما مع الاشعار بكونه من منافع المخاطب تبقى النفس

مترقبة إلى وروده فيتمكن عندها إذا ورد فضل تمكن ولأن فى المؤخر ضرب تفصيل ربما يخل تقديمه بتجاذب أطراف النظم الكريم فان مما متعلق بمحذوف وقع صفة لكثيرا وما موصولة اسمية وما بعدها صلتها والعائد اليها محذوف ومن الكتاب متعلق بمحذوف هو حال من العائد المحذوف والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرارهم على الكتم والاخفاء أى يبين لكم كثيرا من الذى تخفونه على الاستمرار حال كونه من الكتاب الذى أنتم أهله والمتمسكون به (وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ) أى ولا يظهر كثيرا مما تخفونه إذا لم تدع اليه داعية دينية صيانة لكم عن زيادة الافتضاح كما يفصح عنه التعبير عن عدم الاظهار بالعفو وفيه حث لهم على عدم الاخفاء ترغيبا وترهيبا والجملة معطوفة على الجملة الحالية داخلة فى حكمها وقيل يعفو عن كثير منكم ولا يؤاخذه وقوله تعالى (قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان أن فائدة مجيء الرسول ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه بل له منافع لا تحصى ومن الله متعلق بجاء ومن لابتداء الغاية مجازا أو بمحذوف وقع حالا من نور وأيا ما كان فهو تصريح بما يشعر به إضافة الرسول من مجيئه من جنابه عز وجل وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون المجيء من جهته العالية والتشويق إلى الجائى ولأن فيه نوع تطويل يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم كما فى قوله تعالى وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين وتنوين نور للتفخيم والمراد به وبقوله تعالى (وَكِتَابٌ مُّبِينٌ) القرآن لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك وإبانة ما خفى على الناس من الحق والاعجاز البين والعطف لتنزيل المغايرة بالعنوان منزلة المغايرة بالذات وقيل المراد بالأول هو الرسول عليه الصلاة والسلام وبالثانى القرآن (يَهْدِي بِهِ اللهُ) توحيد الضمير المجرور لاتحاد المرجع بالذات أو لكونهما فى حكم الواحد أو أريد يهدى بما ذكر وتقديم الجار والمجرور للاهتمام وإظهار الجلالة لاظهار كمال الاعتناء بأمر الهداية ومحل الجملة الرفع على أنها صفة ثانية لكتاب أو النصب على الحالية منه لتخصصه بالصفة (مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ) أى رضاه بالايمان به ومن موصولة أو موصوفة (سُبُلَ السَّلَامِ) أى طرق السلامة من العذاب والنجاة من العقاب أو سبل الله تعالى وهى شريعته التى شرعها للناس قيل هو مفعول ثان ليهدى والحق أن انتصابه بنزع الخافض على طريقة قوله تعالى واختار موسى قومه وإنما يعدى إلى الثانى بالى أو باللام كما فى قوله تعالى إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم (وَيُخْرِجُهُم) الضمير لمن والجمع باعتبار المعنى كما أن الافراد فى اتبع باعتبار اللفظ (مِّنَ الظُّلُمَاتِ) أى ظلمات فنون الكفر والضلال (إِلَى النُّورِ) إلى الايمان (بِإِذْنِهِ) بتيسيره أو بارادته (وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) هو أقرب الطرق إلى الله تعالى ومؤد اليه لا محالة وهذه الهداية عين الهداية إلى سبل السلام وإنما عطفت عليها تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله تعالى ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) أى لا غير كما يقال الكرم هو التقوى وهم اليعقوبية القائلون بأنه تعالى قد يحل فى بدن انسان معين أو فى روحه وقيل لم يصرح به أحد منهم لكن حيث اعتقدوا اتصافه بصفات الله الخاصة وقد اعترفوا بأن الله تعالى موجود فلزمهم القول بأنه المسيح لا غير وقيل لما زعموا أن فيه لاهوتا وقالوا لا اله الا واحد لزمهم أن يكون هو المسيح فنسب اليهم لازم قولهم توضيحا لجهلهم وتفضيحا لمعتقدهم (قُلْ) أى تبكيتا لهم واظهارا لبطلان قولهم الفاسد والقاما لهم الحجر والفاء فى قوله تعالى (فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا) فصيحة ومن استفهامية للانكار والتوبيخ والملك الضبط والحفظ التام عن حزم ومن متعلقة به على حذف المضاف أى ان كان الأمر كما تزعمون فمن يمنع من قدرته تعالى وارادته شيئا وحقيقته فمن يستطيع أن يمسك شيئا منهما (إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) ومن حق من

يكون إلهاً أن لا يتعلق به ولا بشأن من شئونه بل بشيء من الموجودات قدرة غيره بوجه من الوجوه فضلا عن أن يعجز عن دفع شيء منها عند تعلقها بهلاكه فلما كان عجزه بينا لا ريب فيه ظهر كونه بمعزل مما تقولوا في حقه والمراد بالاهلاك الإماتة والإعدام مطلقا لا بطريق السخط والغضب وإظهار المسيح على الوجه الذى نسبوا اليه الألوهية في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره وملكوته تعالى ونفي المالكية المذكورة بالاستفهام الإنكاري عن كل أحد من تحقق الالزام والتبكيت بنفيها عن المسيح فقط بأن يقال فهل يملك شيئاً من الله إن أراد الخ لتحقيق الحق بنفي الألوهية عن كل ما عداه سبحانه وإثبات المطلوب في ضمنه بالطريق البرهاني فان انتفاء المالكية المستلزم لاستحالة الألوهية متى ظهر بالنسبة الى الكل ظهر بالنسبة إلى المسيح على أبلغ وجه وآكده فيظهر استحالة ألوهيته قطعا وتعميم ارادة الإهلاك للكل مع حصول ما ذكر من التحقيق بقصرها عليه بأن يقال فمن يملك من الله شيئاً ان أراد أن يهلك المسيح لتهويل الخطب واظهار كمال العجز ببيان ان الكل تحت قهره تعالى وملكوته لا يقدر أحد على دفع ما أريد به فضلا عن دفع ما أريد بغيره وللايذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات في كونه عرضة للهلاك كما أنه أسوة لها فيما ذكر من العجز وعدم استحقاق الألوهية وتخصيص أمه بالذكر مع اندراجها في ضمن من في الأرض لزيادة تأكيد عجز المسيح ولعل نظمها في سلك من فرض ارادة اهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها أنموذجا لحال بقية من فرض اهلاكه كأنه قيل قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن في الأرض وقد أهلك أمه فهل مانعه أحد فكذا حال من عداها من الموجودين وقوله تعالى (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) أى ما بين قطرى العالم الجسماني لا بين وجه الأرض ومقعر فلك القمر فقط فيتناول ما في السموات من الملائكة عليهم السلام وما في أعماق الأرض والبحار من المخلوقات تنصيص على كون الكل تحت قهره تعالى وملكوته اثر الاشارة الى كون البعض أى من في الارض كذلك أى له تعالى وحده ملك جميع الموجودات والتصرف المطلق فيها ايجادا واعداما وإحياء وإماتة لا لأحد سواه استقلالا ولا اشتراكا فهو تحقيق لاختصاص الالوهية به تعالى اثر بيان انتفائها عن كل ما سواه وقوله تعالى (يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبهة في أمر المسيح لولادته من غير أب وخلق الطير وإحياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص أى يخلق ما يشاء من أنواع الخلق والإيجاد على أن ما نكرة موصوفة محلها النصب على المصدرية لا على المفعولية كأنه قيل يخلق أى خلق يشاؤه فتارة يخلق من غير أصل كخلق السموات والأرض وأخرى من أصل كخلق ما بينهما فينشىء من أصل ليس من جنسه كخلق آدم وكثير من الحيوانات ومن أصل يجانسه اما من ذكر وحده كخلق حواء أو انثى وحدها كخلق عيسى عليه السلام أو منهما كخلق سائر الناس ويخلق بلا توسط شيء من المخلوقات كخلق عامة المخلوقات وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر كخلق الطير على يد عيسى عليه السلام معجزة له واحياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص وغير ذلك فيجب أن ينسب كله اليه تعالى لا الى من أجرى ذلك على يده (وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله واظهار الاسم الجليل للتعليل وتقوية استقلال الجملة (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة وبيان لبطلانها بعد ذكر ما صدر عن أحدهما وبيان بطلانه أى قالت اليهود نحن أشياع ابنه عزير وقالت النصارى نحن أشياع ابنه المسيح كما قيل لأشياع أبي خبيب وهو عبد الله بن الزبير الخبيبيون وكما يقول أقارب الملوك عند المفاخرة نحن الملوك وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبي عليه الصلاة والسلام دعا جماعة من اليهود الى دين الإسلام وخوفهم بعقاب الله تعالى فقالوا كيف تخوفنا

به ونحن أبناء الله وأحباؤه وقيل إن النصارى يتلون فى الانجيل إن المسيح قال لهم إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم وقيل أرادوا أن الله تعالى كالأب لنا فى الحنو والعطف ونحن كالأبناء له فى القرب والمنزلة وبالجملة أنهم كانوا يدعون أن لهم فضلا ومزية عند الله تعالى على سائر الخلق فرد عليهم ذلك وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (قل) إلزاما لهم وتبكيتا (فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ) أى إن صح مازعمتم فلأى شىء يعذبكم فى الدنيا بالقتل والاسر والمسخ وقد اعترفتم بأنه تعالى سيعذبكم فى الآخرة بالنار أياما بعدد أيام عبادتكم العجل ولو كان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم ما وقع وقوله تعالى (بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى لستم كذلك بل أنتم بشر (مِمَّنْ خَلَقَ) أى من جنس من خلقه الله تعالى من غير مزية لكم عليهم (يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ) أن يغفر له من أولئك المخلوقين وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله (وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) أن يعذبه منهم وهم الذين كفروا به وبرسله مثلكم (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) من الموجودات لا ينتمى إليه سبحانه شىء منها إلا بالمملوكية والعبودية والمقهورية تحت ملكوته يتصرف فيهم كيف يشاء إيجادا وإعداما إحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا فأنى لهم ادعاء مازعموا (وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) فى الآخرة خاصة لا إلى غيره استقلالا ولا اشتراكا فيجازى كلا من المحسن والمسىء بما يستدعيه عمله من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه (يٰأَهْلَ الْكِتٰبِ) تكرير للخطاب بطريق الالتفات ولطف فى الدعوة (قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ) حال من رسولنا وإيثاره على مبينا لما مر فيما سبق أى يبين لكم الشرائع والأحكام الدينية المقرونة بالوعد والوعيد ومن جملتها ما بين فى الآيات السابقة من بطلان أقاويلكم الشنعاء وما سيأتى من أخبار الأمم السالفة وإنما حذف تعويلا على ظهور أن مجىء الرسول إنما هو لبيانها أو يفعل لكم البيان ويبذله لكم فى كل ما تحتاجون فيه إلى البيان من أمور الدين وأما تقدير مثل ما سبق فى قوله تعالى كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب كما قيل فمع كونه تكريرا من غير فائدة يرده قوله عز وجل (عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ) فان فتور الارسال وانقطاع الوحى إنما يحوج إلى بيان الشرائع والأحكام لا إلى بيان ما كتموه وعلى فترة متعلق بجاءكم على الظرفية كما فى قوله تعالى واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان أى جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحى ومزيد احتياج إلى بيان الشرائع والأحكام الدينية أو بمحذوف وقع حالا من ضمير يبين او من ضمير لكم أى يبين لكم ما ذكر حال كونه على فترة من الرسل أو حال كونكم عليها أحوج ما كنتم إلى البيان ومن الرسل متعلق بمحذوف وقع صفة لفترة أى كائنة من الرسل مبتدأة من جهتهم وقوله تعالى (أَنْ تَقُولُوا) تعليل لمجىء الرسول بالبيان على حذف المضاف أى كراهة أن تقولوا معتذرين عن تفريطكم فى مراعاة أحكام الدين (مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ) وقد انطمست آثار الشرائع السابقة وانقطعت أخبارها وزيادة من فى الفاعل للمبالغة فى نفى المجىء وتنكير بشير ونذير للتقليل وهذا كما ترى يقتضى أن المقدر أو المنوى فيما سبق هو الشرائع والأحكام لا كيفما كانت بل مشفوعة بما ذكر من الوعد والوعيد وقوله تعالى (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ) متعلق بمحذوف ينبىء عنه الفاء الفصيحة وتبين أنه معلل به وتنوين بشير ونذير للتفخيم أى لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم بشير أى بشير ونذير أى نذير (وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فيقدر على الارسال تترى كما فعله بين موسى وعيسى عليهما السلام حيث كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألف نبى وعلى الارسال بعد الفترة كما فعله بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام حيث كان بينهما ستمائة سنة أو خمسمائة وتسع وستون سنة أو خمسمائة وست وأربعون سنة وأربعة أنبياء على ماروى الكلبى ثلاثة من بنى اسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسى وقيل لم يكن بعد عيسى عليه السلام إلا رسول الله عليه السلام وهو الأنسب بما فى تنوين فترة من التفخيم اللائق بمقام الامتنان عليهم بأن الرسول قد بعث اليهم عند كمال حاجتهم اليه بسبب مضى دهر طويل

بعد انقطاع الوحي ليهشوا اليه ويعدوه أعظم نعمة من الله تعالى وفتح باب إلى الرحمة وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل اليهم من ينبههم من غفلتهم (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان مافعلت بنو اسرائيل بعد أخذ الميثاق منهم وتفصيل كيفية نقضهم له وتعلقه بما قبله من حيث أن ماذكر فيه من الأمور التي وصف النبي عليه السلام بيانها ومن حيث اشتماله على انتفاء فترة الرسل فيما بينهم وإذ نصب على أنه مفعول لفعل مقدر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن أهل الكتاب ليعدد عليهم ماصدر عن بعضهم من الجنايات أي واذكر لهم وقت قول موسى لقومه ناصحا لهم ومستميلا لهم باضافتهم اليه (يَٰقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ماوقع فيه بالطريق البرهاني ولأن الوقت مشتمل على ماوقع فيه تفصيلا فاذا استحضر كان ماوقع فيه حاضرا بتفاصيله كأنه مشاهد عيانا وعليكم متعلق بنفس النعمة إذا جعلت مصدرا او بمحذوف وقع حالا منها إذا جعلت اسما أي اذكروا انعامه عليكم أو اذكروا نعمته كائنة عليكم وكذا إذ في قوله تعالى (إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ) أي اذكروا انعامه تعالى عليكم في وقت جعله أو اذكروا نعمته تعالى كائنة عليكم في وقت جعله فيما بينكم من أقربائكم أنبياء ذوي عدد كثير وأولي شأن خطير حيث لم يبعث من أمة من الأمم مابعث من بني اسرائيل من الأنبياء (وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا) عطف على جعل فيكم داخل في حكمه أي جعل فيكم أو منكم ملوكا كثيرة فانه قد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء وإنما حذف الظرف تعويلا على ظهور الأمر أو جعل الكل في مقام الامتنان عليهم ملوكا لما أن أقارب الملوك يقولون عند المفاخرة نحن الملوك وإنما لم يسلك ذلك المسلك فيما قبله لما أن منصب النبوة من عظم الخطر وعزة المطلب وصعوبة المنال ليس بحيث يليق أن ينسب اليه ولو مجازا من ليس ممن اصطفاه الله تعالى له وقيل كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم الله تعالى فسمى انقاذهم ملكا وقيل الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار وقيل من له بيت وخدم وقيل من له مال لا يحتاج معه إلى تكلف الأعمال وتحمل المشاق (وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَٰلَمِينَ) من فلق البحر واغراق العدو وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغير ذلك مما آتاهم الله تعالى من الأمور العظام والمراد بالعالمين الأمم الخالية إلى زمانهم وقيل من عالمي زمانهم (يَٰقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ) كرر النداء بالاضافة التشريفية اهتماما بشأن الأمر ومبالغة في حثهم على الامتثال به والأرض هي بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين وقيل هي الطور وماحوله وقيل دمشق وفلسطين وبعض الأردن وقيل هي الشام (الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ) أي كتب في اللوح المحفوظ أنها تكون مسكنا لكم ان آمنتم وأطعتم لقوله تعالى لهم بعدما عصوا فانها محرمة عليهم وقوله تعالى (وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ) فان ترتيب الخيبة والخسران على الارتداد يدل على اشتراط الكتب بالمجاهدة المترتبة على الايمان والطاعة قطعا أي لا ترجعوا مدبرين خوفا من الجبابرة فالجار والمجرور متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ترتدوا ويجوز أن يتعلق بنفس الفعل وقيل لما سمعوا أحوالهم من النقباء بكوا وقالوا ياليتنا متنا بمصر تعالوا نجعل لنا رأسا ينصرف بنا إلى مصر أو لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق بالله تعالى وقوله فتنقلبوا اما مجزوم عطفا على ترتدوا أو منصوب على جواب النهي والخسران خسران الدين والدنيا لا سيما دخول ما كتب لهم (قَالُوا) استئناف مبني نشأ من مساق الكلام كأنه قيل فماذا قالوا بمقابلة أمره عليه السلام ونهيه فقيل قالوا غير ممتثلين بذلك (يَٰمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ) متغلبين لا يتأتى منازعتهم ولا يتسنى مناصبتهم والجبار العاتي الذي يجبر الناس ويقسرهم كائنا من كان على مايريده كأنما كان فعال من جبره على الأمر أي أجبره عليه (وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا)

من غير صنع من قبلنا فانه لا طاقة لنا باخراجهم منها (فإنْ يخرُجُوا منها) بسبب من الأسباب التي لا تعلق لنا بها (فإنا داخلون) حينئذ أتوا بهذه الشرطية مع كون مضمونها مفهوما مما سبق من توقيت عدم الدخول بخروجهم منها تصريحا بالمقصود وتنصيصا على أن امتناعهم من دخولها ليس إلا لمكانهم فيها وأتوا في الجزاء بالجملة الاسمية المصدرة بحرف التحقيق دلالة على تقرر الدخول وثباته عند تحقق الشرط لا محالة واظهارا لكمال الرغبة فيه وفي الامتثال بالأمر (قال رجلان) استئناف كما سبق كأنه قيل هل اتفقوا على ذلك أو خالفهم البعض فقيل قال رجلان (من الذين يخافون) أي يخافون الله تعالى دون العدو ويتقونه في مخالفة أمره ونهيه وبه قرأ ابن مسعود وفيه تعريض بأن من عداهما لا يخافونه تعالى بل يخافون العدو وقيل من الذين يخافون العدو أي منهم في النسب لا في الخوف وهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا من النقباء وقيل هما رجلان من الجبابرة أسلما وسارا إلى موسى عليه السلام فالواو حينئذ لبني اسرائيل والموصول عبارة عن الجبابرة واليهم يعود العائد المحذوف أي من الذين يخافهم بنو اسرائيل ويعضده قراءة من قرأ يخافون على صيغة المبني للمفعول أي المخوفين وعلى الأول يكون هذا من الاخافة أي من الذين يخافون من الله تعالى بالتذكير أو يخوفهم الوعيد (أنعم الله عليهما) أي بالتثبيت وربط الجأش والوقوف على شؤونه تعالى والثقة بوعده أو بالايمان وهو صفة ثانية لرجلان أو اعتراض وقيل حال من الضمير في يخافون أو من رجلان لتخصصه بالصفة أي قالا مخاطبين لهم ومشجعين (ادخلوا عليهم الباب) أي باب بلدهم وتقديم الجار والمجرور عليه للاهتمام به لأن المقصود إنما هو دخول الباب وهم في بلدهم أي باغتوهم وضاغطوهم في المضيق وامنعوهم من البروز إلى الصحراء لئلا يجدوا للحرب مجالا (فإذا دخلتموه) أي باب بلدهم وهم فيه (فإنكم غالبون) من غير حاجة إلى القتال فانا قد رأيناهم وشاهدنا أن قلوبهم ضعيفة وان كانت أجسادهم عظيمة فلا تخشوهم واهجموا عليهم في المضايق فانهم لا يقدرون فيها على الكر والفر وقيل إنما حكما بالغلبة لما علماها من جهة موسى عليه السلام ومن قوله تعالى كتب الله لكم أو لما علما من سنته تعالى نصرة رسله وما عهدا من صنعه تعالى لموسى عليه السلام من قهر أعدائه والأول أنسب بتعليق الغلبة بالدخول (وعلى الله) تعالى خاصة (فتوكلوا) بعد ترتيب الأسباب ولا تعتمدوا عليها فانها بمعزل من التأثير وإنما التأثير من عند الله العزيز القدير (إن كنتم مؤمنين) أي مؤمنين به تعالى مصدقين لوعده فان ذلك مما يوجب التوكل عليه حتما (قالوا) استئناف كما سبق أي قالوا غير مبالين بهما وبمقالتهما مخاطبين لموسى عليه السلام اظهارا لاصرارهم على القول الأول وتصريحا بمخالفتهم له عليه السلام (يموسى إنا لن ندخلها) أي أرض الجبابرة فضلا عن دخول بابهم وهم في بلدهم (أبدا) أي دهرا طويلا (ما داموا فيها) أي في أرضهم وهو بدل من أبدا بدل البعض أو عطف بيان (فاذهب) الفاء فصيحة أي فاذا كان الأمر كذلك فاذهب (أنت وربك فقاتلا) أي فقاتلاهم إنما قالوا ذلك استهانة واستهزاء به سبحانه وبرسوله وعدم مبالاة بهما وقصدوا ذهابهما حقيقة كما ينبئ عنه غاية جهلهم وقسوة قلوبهم وقيل أرادوا إرادتهما وقصدهما كما تقول كلمته فذهب يجيبني كأنهم قالوا فأريدا قتالهم واقصداهم وقيل التقدير فاذهب أنت وربك يعينك ولا يساعده قوله تعالى فقاتلا ولم يذكروا هرون ولا الرجلين كأنهم لم يجزموا بذهابهم أو لم يعبأوا بقتالهم وقوله تعالى (إنا ههنا قاعدون) يؤيد الوجه الأول وأرادوا بذلك عدم التقدم لا عدم التأخر (قال) عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من العناد على طريقة البث والحزن والشكوى إلى الله تعالى مع رقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة (رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي) عطف على نفسي وقيل على الضمير في إني على معنى إني لا أملك إلا نفسي وإن أخي لا يملك إلا نفسه وقيل على الضمير في لا أملك للفصل

(فافرُق بيننا) يريد نفسه وأخاه والفاء لترتيب الفرق أو الدعاء به على ماقبله (وبين القوم الفسقين) الخارجين عن طاعتك المصرين على عصيانك بأن تحكم لنا بما نستحقه وعليهم بما يستحقونه وقيل بالتبعيد بيننا وبينهم وتخليصنا من صحبتهم (قال فإنها) أى الأرض المقدسة والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها من الدعاء (محرمة عليهم) تحريم منع لاتحريم تعبد لايدخلونها ولا يملكونها لان كتابتها لهم كانت مشروطة بالإيمان والجهاد وحيث نكصوا على أدبارهم حرموا ذلك وانقلبوا خاسرين وقوله تعالى (أربعين سنة) ان جعل ظرفا للمحرمة يكون التحريم موقتا لامؤبدا فلا يكون مخالفا الظاهر قوله تعالى كتب الله لكم فالمراد بتحريمها عليهم أنه لايدخلها أحد منهم فى هذه المدة لكن لابمعنى أن كلهم يدخلونها بعدها بل بعضهم ممن بقى حسبما روى أن موسى عليه السلام سار بمن بقى من بنى إسرائيل إلى أريحا وكان يوشع بن نون على مقدمته ففتحها وأقام بها ماشاء الله تعالى ثم قبضه عليه السلام وقيل لم يدخلها أحد ممن قال لن ندخلها أبدا وإنما دخلها مع موسى عليه السلام النواشى من ذرياتهم فالموقت بالاربعين فى الحقيقة تحريمها على ذرياتهم وإنما جعل تحريمها عليهم لما بينهما من العلاقة التامة المتاخمة للاتحاد وقوله تعالى (يتيهون فى الأرض) أى يتحيرون فى البرية استئناف لبيان كيفية حرمانهم أو حال من ضمير عليهم وقيل الظرف متعلق بيتيهون فيكون التيه موقتا والتحريم مطلقا قيل كانوا استمائة ألف مقاتل وكان طول البرية تسعين فرسخا وقد تاهوا فى ستة فراسخ أو تسعة فراسخ فى ثلاثين فرسخا وقيل فى ستة فراسخ فى اثنى عشر فرسخا . روى أنهم كانوا كل يوم يسيرون جادين حتى إذا أمسوا إذا هم بحيث ارتحلوا وكان الغمام يظلهم من حر الشمس ويطلع بالليل عمود من نور يضىء لهم وينزل عليهم المن والسلوى ولا تطول شعورهم وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله وهذه الانعامات عليهم مع أنهم معاقبون لما أن عقابهم كان بطريق العرك والتأديب . قيل كان موسى وهرون معهم لكن كان ذلك لهما روحا وسلامة كالنار لابراهيم وملائكة العذاب عليهم السلام وروى أن هرون مات فى التيه ومات موسى بعده فيه بسنة ودخل يوشع أريحا بعد موته بثلاثة أشهر ولا يساعده ظاهر النظم الكريم فانه تعالى بعدما قبل دعوته على بنى إسرائيل وعذبهم بالتيه بعيد أن ينجى بعض المدعو عليهم أو ذراريهم ويقدر وفاتهما فى محل العقوبة ظاهرا وان كان ذلك لهما منزل روح وراحة وقد قيل انهما لم يكونا معهم فى التيه وهو الأنسب بتفسير الفرق بالمباعدة ومن قال بأنهما كانا معهم فيه فقد فسر الفرق بما ذكر من الحكم بما يستحقه كل فريق (فلا تأس) فلا تحزن (على القوم الفسقين) روى أنه عليه السلام ندم على دعائه عليهم فقيل لاتندم ولا تحزن فانهم أحقاء بذلك لفسقهم (واتل عليهم) عطف على مقدر تعلق به قوله تعالى وإذ قال موسى الخ وتعلقه به من حيث أنه تمهيد لما سيأتى من جنايات بنى إسرائيل بعدما كتب عليهم ما كتب وجاءتهم الرسل بما جاءت به من البينات (نبأ ابنى ءادم) هما قابيل وهابيل ونقل عن الحسن والضحاك أنهما رجلان من بنى إسرائيل بقرينة آخر القصة وليس كذلك أوحى الله عز وجل إلى آدم أن يزوج كلا منهما توأمة الآخر وكانت توأمة قابيل أجمل واسمها اقليما فحسد عليها أخاه وسخط وزعم أن ذلك ليس من عند الله تعالى بل من جهة آدم عليه السلام فقال لهما عليه السلام قربا قربانا فمن أيكما قبل تزوجها ففعلا فنزلت نار على قربان هابيل فأكلته ولم تتعرض لقربان قابيل فازداد قابيل حسدا وسخطا وفعل مافعل (بالحق) متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر محذوف أى تلاوة ملتبسة بالحق أو الصحة أو حالا من فاعل اتل أو من مفعوله أى ملتبسا أنت أو نبأهما بالحق والصدق حسبما تقرر فى كتب الأولين (إذ قربا قربانا) منصوب بالنبأ ظرف له أى اتل قصتهما ونبأهما فى ذلك الوقت وقيل بدل منه على حذف المضاف أى اتل عليهم نبأهما نبأ ذلك الوقت ورد عليه بأن اذا لا يضاف اليها غير الزمان كوقتئذ وحينئذ

والقربان اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من نسك أو صدقة كالحلوان اسم لما يحلى أى يعطى وتوحيده لما أنه فى الأصل مصدر وقيل تقديره إذ قرب كل منهما قربانا (فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا) هو هابيل قيل كان هو صاحب ضرع وقرب جملا سمينا فنزلت نار فأكلته (وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ) هو قابيل قيل كان هو صاحب زرع وقرب أردأ ما عنده من القمح فلم تتعرض له النار أصلا (قَالَ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قال من لم يتقبل قربانه فقيل قال لأخيه لتضاعف سخطه وحسده لما ظهر فضله عليه عند الله عز وجل (لَأَقْتُلَنَّكَ) أى والله لأقتلنك بالنون المشددة وقرىء بالمخففة (قَالَ) استئناف كما قبله أى قال الذى تقبل قربانه لما رأى أن حسده لقبول قربانه وعدم قبول قربان نفسه (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ) أى القربان (مِنَ الْمُتَّقِينَ) لا من غيرهم وانما تقبل قربانى ورد قربانك لما فينا من التقوى وعدمه أى إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلى فلم تقتلنى خلا أنه لم يصرح بذلك بل سلك مسلك التعريض حذارا من تهييج غضبه وحملا له على التقوى والاقلاع عما نواه ولذلك اسند الفعل إلى الاسم الجليل لتربية المهابة ثم صرح بتقواه على وجه يستدعى سكون غيظه لو كان له عقل وازع حيث قال بطريق التوكيد (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ) حيث صدر الشرطية باللام الموطئة للقسم وقدم الجار والمجرور على المفعول الصريح ايذانا من أول الأمر برجوع ضرر البسط وغائلته اليه ولم يجعل جواب القسم الساد مسد جواب الشرط جملة فعلية موافقة لما فى الشرط بل اسمية مصدرة بما الحجازية المفيدة لتأكيد النفى بما فى خبرها من الباء للمبالغة فى اظهار براءته عن بسط اليد ببيان استمراره على نفى البسط كما فى قوله تعالى وماهم بمؤمنين وقوله وماهم بخارجين منها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت كذلك السلبية تدل بمعونته على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام وذلك باعتبار الدوام والاستمرار بعد اعتبار النفى لا قبله حتى يرد النفى على المقيد بالدوام فيرفع قيده أى والله لئن باشرت قتلى حسبما أوعدتنى به وتحقيق ذلك منك ما أنا بفاعل مثله لك فى وقت من الأوقات ثم علل ذلك بقوله (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) وفيه من ارشاد قابيل إلى خشية الله تعالى على أبلغ وجه وآكده ما لا يخفى كأنه قال انى أخافه تعالى ان بسطت يدى اليك لأقتلك أن يعاقبنى وان كان ذلك منى لدفع عداوتك عنى فاظنك بحالك وأنت البادىء العادى وفى وصفه تعالى بربوبية العالمين تأكيد للخوف قيل كان هابيل أقوى منه ولكن تحرج عن قتله واستسلم خوفا من الله تعالى لأن القتل للدفع لم يكن مباحا حينئذ وقيل تحريا لما هو الأفضل حسبما قال عليه السلام كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل ويأباه التعليل بخوفه تعالى الا أن يدعى أن ترك الأولى عنده بمنزلة المعصية فى استتباع الغائلة مبالغة فى التنزه وقوله تعالى (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ) تعليل آخر لامتناعه عن المعارضة على أنه غرض متأخر عنه كما أن الأول باعث متقدم عليه وإنما لم يعطف عليه تنبيها على كفاية كل منهما فى العلية والمعنى انى أريد باستسلامى لك وامتناعى عن التعرض لك أن ترجع باثمى أى بمثل اثمى لو بسطت يدى اليك وباثمك ببسط يدك إلى كما فى قوله عليه السلام المستبان ما قالا فعلى البادىء مالم يعتد المظلوم أى على البادىء عين اثم سبه ومثل سب صاحبه بحكم كونه سببا له وقيل معنى باثمى اثم قتلى ومعنى باثمك اثمك الذى لأجله لم يتقبل قربانك وكلاهما نصب على الحالية أى ترجع ملتبسا بالاثمين حاملا لهما ولعل مراده بالذات انما هو عدم ملابسته للاثم لا ملابسة أخيه له وقيل المراد بالاثم عقوبته ولا ريب فى جواز ارادة عقوبة العاصى ممن علم أنه لا يرعوى عن المعصية أصلا ويأباه قوله تعالى (فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) فان كونه منهم انما يترتب على رجوعه بالاثمين لا على ابتلائه بعقوبتهما وحمل العقوبة على نوع آخر يترتب عليها العقوبة النارية يرده قوله تعالى (وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) فانه صريح فى أن كونه من أصحاب النار تمام

العقوبة وكالها والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبلها وقدسلك فى صرفه عما نواه من الشر كل مسلك من العظة والتذكير
بالترغيب تارة والترهيب أخرى فما أورثه ذلك إلا الاصرار على الغى والانهماك فى الفساد (فطوعت له نفسه قتل
أخيه) أى وسعته وسهلته من طاع له المرتع إذا اتسع وترتيب التطويع على ماحكى من مقالات هابيل مع تحققه قبلها
أيضا كما يفصح عنه قوله لأقتلنك لما أن بقاء الفعل بعد تقرر مايزيله من الدواعى القوية وإن كان استمرارا عليه بحسب
الظاهر لكنه فى الحقيقة أمر حادث وصنع جديد كما فى قولك وعظته فلم يتعظ أو لأن هذه المرتبة من التطويع لم تكن
حاصلة قبل ذلك بناء على تردده فى قدرته على القتل لما أنه كان أقوى منه وإنما حصلت بعد وقوفه على استسلام هابيل
وعدم معارضته له والتصريح بأخوته لكمال تقبيح ما سولته نفسه وقرىء فطاوعت على أنه فاعل بمعنى فعل أو على أن قتل
أخيه كأنه دعى نفسه إلى الاقدام عليه فطاوعته ولم تمتنع وله لزيادة الربط كقولك حفظت لزيد ماله (فقتله) قيل لم
يدر قابيل كيف يقتل هابيل فتمثل إبليس وأخذ طائرا ووضع رأسه على حجر ثم شدخها بحجر آخر فتعلم منه فرضخ رأس
هابيل بين حجرين وهو مستسلم لا يستعصى عليه وقيل اغتاله وهو نائم وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة واختلف فى
موضع قتله فقيل عند عقبة حراء وقيل بالبصرة فى موضع المسجد الأعظم وقيل فى جبل بود ولما قتله تركه بالعراء لا يدرى
مايصنع به فخاف عليه السباع فحمله فى جراب على ظهره أربعين يوما وقيل سنة حتى أروح وعكفت عليه الطيور والسباع
تنظر متى يرمى به فتأكله (فأصبح من الخاسرين) دينا ودنيا (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه
كيف يوارى سوأة أخيه) روى أنه تعالى بعث غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه حفرة
فألقاه فيها والمستكن فى يريه لله تعالى أو للغراب واللام على الأول متعلقة ببعث حتما وعلى الثانى بيبحث ويجوز تعلقها
ببعث أيضا وكيف حال من ضمير يوارى والجملة ثانى مفعولى يرى والمراد بسوأة أخيه جسده الميت (قال) استئناف
مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قال عند مشاهدة حال الغراب فقيل قال (ياويلتى) هى كلمة
جزع وتحسر والألف بدل من ياء المتكلم والمعنى ياويلتى احضرى فهذا أوانك والويل والويلة الهلكة (أعجزت أن
أكون) أى عن أن أكون (مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى) تعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى اليه
الغراب وقوله تعالى فأوارى بالنصب عطف على أن أكون وقرىء بالرفع أى فأنا أوارى (فأصبح من النادمين)
أى على قتله لما كابد فيه من التحير فى أمره وحمله على رقبته مدة طويلة . روى أنه لما قتله اسود جسده وكان أبيض فسأله
آدم عن أخيه فقال ما كنت عليه وكيلا قال بل قتلته ولذلك اسود جسدك ومكث آدم بعده مائة سنة لا يضحك وقيل لما
قتل قابيل هابيل هرب إلى عدن من أرض اليمن فأتاه إبليس فقال له إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يخدمها ويعبدها فان
عبدتها أيضا حصل مقصودك فبنى بيت نار فعبدها وهو أول من عبد النار (من أجل ذلك) شروع فيما هو المقصود
من تلاوة النبأ من بيان بعض آخر من جنايات بنى اسرائيل ومعاصيهم وذلك إشارة إلى عظم شأن القتل وافراط قبحه
المفهومين مما ذكر فى تضاعيف القصة من استعظام هابيل له وكمال اجتنابه عن مباشرته وإن كان ذلك بطريق الدفع عن
نفسه واستسلامه لأن يقتل خوفا من عقابه وبيان استتباعه لتحمل القاتل لاثم المقتول ومن كون قابيل بمباشرته
من جملة الخاسرين دينهم ودنياهم ومن ندامته على فعله مع ما فيه من العتو وشدة الشكيمة وقساوة القلب والأجل فى
الأصل مصدر أجل شرا إذا جناه استعمل فى تعليل الجنايات كما فى قولهم من جراك فعلته أى من أن جررته وجنيته
ثم اتسع فيه واستعمل فى كل تعليل وقرىء من أجل بكسر الهمزة وهى لغة فيه وقرىء من اجل بحذف الهمزة والقاء
فتحتها على النون ومن لابتداء الغاية متعلقة بقوله تعالى (كتبنا على بنى اسرائيل) وتقديمها عليه للقصر أى من

ذلك ابتداء الكتب ومنه نشأ لا من شيء آخر أى قضينا عليهم وبينا (إنه مَنْ قَتَلَ نفسًا) واحدة من النفوس (بغَيرِ نفسٍ) أى بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص (أوْ فسادٍ فى الأرْضِ) أى فساد يوجب اهدار دمها وهو عطف على ما أضيف اليه غير على معنى نفى كلا الأمرين معا كما فى قولك من صلى بغير وضوء أو تيمم بطلت صلاته لا نفى أحدهما كما فى قولك من صلى بغير وضوء أو ثوب بطلت صلاته ومدار الاستعمالين اعتبار ورود النفى على ما يستفاد من كلمة أو من الترديد بين الأمرين المنبىء عن التخيير والاباحة واعتبار العكس ومناط الاعتبارين اختلاف حال ما أضيف اليه غير من الأمرين بحسب اشتراط نقيض الحكم بتحقيق أحدهما واشتراطه بتحققهما معا ففى الأول يرد النفى على الترديد الواقع بين الأمرين قبل وروده فيفيد نفيهما معا وفى الثانى يرد الترديد على النفى فيفيد نفى أحدهما حتما اذ ليس قبل ورود النفى ترديد حتى يتصور عكسه وتوضيحه أن كل حكم شرط بتحقق أحد شيئين مثلا فنقيضه مشروط بانتفائهما معا وكل حكم شرط بتحققهما معا فنقيضه مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شيء مشروط بنقيض شرطه ولا ريب فى أن نقيض الايجاب الجزئى كما فى الحكم الأول هو السلب الكلى ونقيض الايجاب الكلى كما فى الحكم الثانى هو رفعه المستلزم للسلب الجزئى فثبت اشتراط نقيض الأول بانتفائهما معا واشتراط نقيض الثانى بانتفاء أحدهما ولما كان الحكم فى قولك من صلى بوضوء أو تيمم صحت صلاته مشروطا بتحقق أحدهما مبهما كان نقيضه فى قولك من صلى بغير وضوء أو تيمم بطلت صلاته مشروطا بنقيض الشرط المذكور البتة وهو انتفاؤهما معا فتعين ورود النفى المستفاد من غير على الترديد الواقع بين الوضوء والتيمم بكلمة أو فانتفى تحققهما معا ضرورة عموم النفى الوارد على المبهم وعلى هذا يدور ما قالوا انه إذا قيل جالس العلماء أو الزهاد ثم أدخل عليه لا الناهية امتنع فعل الجميع نحو ولا تطع منهم آثما أو كفورا إذ المعنى لا تفعل أحدهما فأيهما فعله فهو أحدهما وأما قولك من صلى بوضوء أو ثوب صحت صلاته فحيث كان الحكم فيه مشروطا بتحقق كلا الأمرين كان نقيضه فى قولك من صلى بغير وضوء أو ثوب بطلت صلاته مشروطا بنقيض الشرط المذكور وهو انتفاء أحدهما فتعين ورود الترديد على النفى فأفاد نفى أحدهما ولا يخفى أن اباحة القتل مشروطة بأحد ماذكر من القتل والفساد ومن ضرورته اشتراط حرمته بانتفائهما معا فتعين ورود النفى على الترديد لا محالة كأنه قيل من قتل نفسا بغير أحدهما (فكَأنمَا قتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) فمن قال فى تفسيره أو بغير فساد فقد أبعد عن توفية النظم الكريم حقه وما فى كأنما كافة مهيئة لوقوع الفعل بعدها وجميعا حال من الناس أو تأكيد ومناط التشبيه اشتراك الفعلين فى هتك حرمة الدماء والاستعصاء على الله تعالى وتجسير الناس على القتل وفى استتباع القود واستجلاب غضب الله تعالى وعذابه العظيم (ومَنْ أحْياها) أى تسبب لبقاء نفس واحدة موصوفة بعدم ماذكر من القتل والفساد فى الارض إما بنهى قاتلها عن قتلها أو استنقاذها من سائر أسباب الهلكة بوجه من الوجوه (فكأنمَا أحْيا النَّاسَ جَمِيعًا) وجه التشبيه ظاهر والمقصود تهويل أمر القتل وتفخيم شأن الاحياء بتصوير كل منهما بصورة لائقة به فى إيجاب الرهبة والرغبة ولذلك صدر النظم الكريم بضمير الشأن المنبىء عن كمال شهرته ونباهته وتبادره إلى الاذهان عند ذكر الضمير الموجب لزيادة تقرير ما بعده فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده فضل تمكن كأنه قيل ان الشأن الخطير هذا (ولَقَدْ جاءَتهُمْ رُسُلنا بالبيِّنات) جملة مستقلة غير معطوفة على كتبنا أكدت بالتأكيد القسمى وحرف التحقيق لكمال العناية بتحقق مضمونها وإنما لم يقل ولقد أرسلنا اليهم رسلنا الخ للتصريح بوصول الرسالة اليهم فانه أدل على تناهيهم فى العتو والمكابرة أى وبالله لقد جاءتهم رسلنا حسبما أرسلناهم بالآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم تأكيدا لوجوب مراعاته وتأييدا لتحتم المحافظة عليه

(ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ) أى بعدما ذكر من الكتب وتأكيد الأمر بارسال الرسل تترى وتجديد العهد مرة بعد أخرى ووضع اسم الاشارة موضع الضمير للايذان بكمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايماء إلى علو درجته وبعد منزلته فى عظم الشأن وثم للتراخى فى الرتبة والاستبعاد (فِى الْأَرْضِ) متعلق بقوله تعالى (لَمُسْرِفُونَ) وكذا الظرف المتقدم ولا يقدح فيه توسط اللام بينه وبينهما لأنها لام الابتداء وحقها الدخول على المبتدأ وإنما دخولها على الخبر لمكان ان فهى فى حيزها الأصلى حكما والاسراف فى كل أمر التباعد عن حد الاعتدال مع عدم مبالاة به أى مسرفون فى القتل غير مبالين به ولما كان إسرافهم فى أمر القتل مستلزما لتفريطهم فى شأن الاحياء وجودا وذكرا وكان هو أقبح الأمرين وأفظعهما اكتفى بذكره فى مقام التشنيع (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) كلام مستأنف سيق لبيان حكم نوع من أنواع القتل وما يتعلق به من الفساد بأخذ المال ونظائره وتعيين موجبه العاجل والآجل إثر بيان عظم شأن القتل بغير حق وأدرج فيه بيان ما أشير اليه اجمالا من الفساد المبيح للقتل قيل أى يحاربون رسوله وذكر الله تعالى للتمهيد والتنبيه على رفعة محله عنده عز وجل ومحاربة أهل شريعته وسالكى طريقته من المسلمين محاربة له عليه السلام فيعم الحكم من يحاربهم ولو بعد أعصار بطريق العبارة دون الدلالة والقياس لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول فيحتاج فى تعميمه لغيرهم إلى دليل آخر وقيل جعل محاربة المسلمين محاربة لله تعالى ورسوله تعظيما لهم والمعنى يحاربون أولياءهما وأصل الحرب السلب والمراد ههنا قطع الطريق وقيل المكابرة بطريق اللصوصية وإن كانت فى مصر (وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ) عطف على يحاربون والجار والمجرور متعلق به وقوله تعالى (فَسَادًا) اما مصدر وقع موقع الحال من فاعل يسعون أى مفسدين أو مفعول له أى للفساد أو مصدر مؤكد ليسعون لأنه فى معنى يفسدون على أنه مصدر من أفسد بحذف الزوائد أو اسم مصدر . قيل نزلت الآية فى قوم هلال بن عويمر الأسلمى وكان وادعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن أتاه من المسلمين فهو آمن لا يهاج ومن مر بهلال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو آمن لا يهاج فمر قوم من بنى كنانة يريدون الإسلام بناس من قوم هلال ولم يكن هلال يومئذ شاهدا فقطعوا عليهم وقتلوهم وأخذوا أموالهم وقيل نزلت فى العرنيين وقصتهم مشهورة وقيل فى قوم من أهل الكتاب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا فى الأرض ولما كانت المحاربة والفساد على مراتب متفاوتة ووجوه شتى من القتل بدون أخذ المال ومن القتل مع أخذه وأخذه بدون القتل ومن الاخافة بدون قتل وأخذ شرعت لكل مرتبة من تلك المراتب عقوبة معينة بطريق التوزيع فقيل (أَنْ يُقَتَّلُوا) أى حدا من غير صلب ان افردوا القتل ولو عفا الأولياء لا يلتفت إلى ذلك لانه حق الشرع ولا فرق بين أن يكون القتل بآلة جارحة أو لا (أَوْ يُصَلَّبُوا) أى مع القتل ان جمعوا بين القتل والاخذ بأن يصلبوا أحياء وتبعج بطونهم برمح إلى أن يموتوا وفى ظاهر الرواية أن الامام مخير ان شاء اكتفى بذلك وإن شاء قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وقتلهم وصلبهم وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقرىء بالتخفيف فيهما (أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ) أى أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى ان اقتصروا على أخذ المال من مسلم أو ذمى وكان المقدار بحيث لو قسم عليهم أصاب كلا منهم عشرة دراهم أو ما يساويها قيمته أما قطع أيديهم فلأخذ المال وأما قطع أرجلهم فلاخافة الطريق بتفويت أمنه (أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ) إن لم يفعلوا غير الإخافة والسعى للفساد والمراد بالنفى عندنا هو الحبس فانه نفى عن وجه الارض لدفع شرهم عن أهلها ويعزرون أيضا لمباشرتهم منكر الاخافة وإزالة الأمن وعند الشافعى رضى الله عنه النفى من بلد إلى بلد لا يزال

يطاب وهو هارب فزعا وقيل هو النفى عن بلده فقط وكانوا ينفونه إلى دهلك وهو بلد فى أقصى تهامة وناصع وهو بلد من بلاد الحبشة (ذَٰلِكَ) أى ما فصل من الأحكام والاجزية قيل هو مبتدأ وقوله تعالى (لَهُمْ خِزْيٌ) جملة من خبر مقدم على المبتدا وقوله تعالى (فِى الدُّنْيَا) متعلق بمحذوف وقع صفة لخزى أو متعلق بخزى على الظرفية والجملة فى محل الرفع على أنها خبر لذلك وقيل خزى خبر لذلك ولهم متعلق بمحذوف وقع حالا من خزى لأنه فى الأصل صفة له فلما قدم انتصب حالا وفى الدنيا إما صفة لخزى أو متعلق به على ما مر والخزى الذل والفضيحة (وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ) غير هذا (عَذَابٌ عَظِيمٌ) لا يقادر قدره لغاية عظم جناياتهم فقوله تعالى لهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وفى الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالا من عذاب لانه فى الاصل صفة له فلما قدم انتصب حالا أى كائنا فى الآخرة (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ) استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله عز وجل كما ينبىء عنه قوله تعالى (فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أما ما هو من حقوق الأولياء من القصاص ونحوه فاليهم ذلك إن شاؤا عفوا وإن أحبوا استوفوا وإنما يسقط بالتوبة وجوب استيفائه لا جوازه وعن على رضى الله عنه أن الحرث بن بدر جاءه تائبا بعد ما كان يقطع الطريق فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) لما ذكر عظم شأن القتل والفساد وبين حكمهما وأشير فى تضاعيف ذلك إلى مغفرته تعالى لمن تاب من جنايته أمر المؤمنون بأن يتقوه تعالى فى كل ما يأتون وما يذرون بترك ما يجب اتقاؤه من المعاصى التى من جملتها ما ذكر من القتل والفساد وبفعل الطاعات التى من زمرتها السعى فى إحياء النفوس ودفع الفساد والمسارعة إلى التوبة والاستغفار (وَابْتَغُوا) أى اطلبوا لأنفسكم (إِلَيْهِ) أى إلى ثوابه والزلفى منه (الْوَسِيلَةَ) هى فعيلة بمعنى ما يتوسل به ويتقرب إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصى من وسل إلى كذا أى تقرب إليه بشىء وإليه متعلق بها قدم عليها للاهتمام به وليست بمصدر حتى لا تعمل فيما قبلها ولعل المراد بها الاتقاء المأمور به فانه ملاك الأمر كله كما أشير اليه وذريعة لنيل كل خير ومنجاة من كل ضير فالجملة حينئذ جارية مما قبلها مجرى البيان والتأكيد أو مطلق الوسيلة وهو داخل فيها دخولا أوليا وقيل الجملة الأولى أمر بترك المعاصى والثانية أمر بفعل الطاعات وحيث كان فى كل من ترك المعاصى المشتهاة للنفس وفعل الطاعات المكروهة لها كلفة ومشقة عقب الأمر بهما بقوله تعالى (وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ) بمحاربة أعدائه البارزة والكامنة (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) بنيل مرضاته والفوز بكراماته (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) كلام مبتدأ مسوق لتأكيد وجوب الامتثال بالأوامر السابقة وترغيب المؤمنين فى المسارعة إلى تحصيل الوسيلة اليه عز وجل قبل انقضاء أوانه ببيان استحالة توسل الكفار يوم القيامة بأقوى الوسائل إلى النجاة من العذاب فضلا عن نيل الثواب (لَوْ أَنَّ لَهُمْ) أى لكل واحد منهم كما فى قوله تعالى ولو أن لكل نفس ظلمت الخ لا لجميعهم إذ ليس فى ذلك هذه المرتبة من تهويل الأمر وتفظيع الحال (مَا فِى الْأَرْضِ) أى من أصناف أموالها وذخائرها وسائر منافعها قاطبة وهو اسم أن ولهم خبرها ومحلها الرفع بلا خلاف خلا أنه عند سيبويه رفع على الابتداء ولا حاجة فيه إلى الخبر لاشتمال صلتها على المسند والمسند اليه وقد اختصت من بين سائر ما يؤول بالاسم بالوقوع بعد لو وقيل الخبر محذوف ثم قيل يقدر مقدما أى لو ثابت كون ما فى الأرض لهم وقيل يقدر مؤخرا أى لو كون ما فى الأرض لهم ثابت وعند المبرد والزجاج والكوفيين رفع على الفاعلية والفعل مقدر بعد لو أى لو ثبت أن لهم ما فى الأرض وقوله تعالى (جَمِيعًا) توكيد للموصول أو حال منه (وَمِثْلَهُ) بالنصب عطف عليه وقوله تعالى (مَعَهُ) ظرف وقع حالا من المعطوف والضمير راجع إلى الموصول وفائدته التصريح بفرض كينونتهما لهم بطريق المعية لا بطريق التعاقب تحقيقا لكمال فظاعة الامر مع ما فيه من نوع إشعار بكونهما شيئا واحدا وتمهيدا لإفراد الضمير الراجع اليهما

واللام فى قوله تعالى (لِيَفْتَدُوا بِهِ) متعلقة بما تعلق به خبر أن أعنى الاستقرار المقدر فى لهم وبالخبر المقدر عند من يرى تقدير الخبر مقدما أو مؤخرا وبالفعل المقدر بعد لو على رأى المبرد ومن نحا نحوه ولا ريب فى أن مدار الافتداء بما ذكر هو كونه لهم لا ثبوت كونه لهم وإن كان مستلزما له والباء فى به متعلقة بالافتداء والضمير راجع إلى الموصول ومثله معا وتوحيده اما لما أشير اليه واما لاجرائه مجرى اسم الاشارة كأنه قيل بذلك كما فى قوله كأنه فى الجلد توليع البهق أى كأن ذلك وقيل هو راجع إلى الموصول والعائد إلى المعطوف أعنى مثله محذوف كما حذف الخبر من قيار فى قوله فانى وقيار بها لغريب أى وقيار أيضا غريب وقد جوز أن يكون نصب ومثله على أنه مفعول معه ناصبه الفعل المقدر بعد لو تفريعا على مذهب المبرد ومن رأى رأيه وأنت خبير بأنه يؤدى إلى كون الرافع للفاعل غير الناصب للمفعول معه لأن المعنى على اعتبار المعية بين ما فى الأرض ومثله فى الكينونة لهم لا فى ثبوت تلك الكينونة وتحققها ولا مساغ لجعل ناصبه الاستقرار المقدر فى لهم لما أن سيبويه قد نص على اسم الاشارة وحرف الجر المتضمن للاستقرار لا يعملان فى المفعول معه وأن قوله هذا لك وأباك قبيح وان جوزه بعض النحاة فى الظرف وحرف الجر وقوله تعالى (مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ) متعلق بالافتداء أيضا أى لو أن ما فى الأرض ومثله ثابت لهم ليجعلوه فدية لأنفسهم من العذاب الواقع يومئذ (مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ) ذلك وهو جواب لو وترتيبه على كون ذلك لهم لأجل افتدائهم به من غير ذكر الافتداء بأن يقال وافتدوا به مع أن الرد والقبول إنما يترتب عليه لا على مباديه للايذان بأنه أمر محقق الوقوع غنى عن الذكر وإنما المحتاج إلى الفرض قدرتهم على ما ذكر أو للمبالغة فى تحقق الرد وتخييل أنه وقع قبل الافتداء على منهاج ما فى قوله تعالى أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده حيث لم يقل فأتى به فرآه فلما الخ وما فى قوله تعالى وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه من غير ذكر خروجه عليه السلام عليهن ورؤيتهن له والجملة الامتناعية بحالها خبر ان الذين كفروا والمراد تمثيل لزوم العذاب لهم واستحالة نجاتهم منه بوجه من الوجوه المحققة والمفروضة وعن النبى عليه الصلاة والسلام يقال للكافر أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقال له قد سئلت أيسر من ذلك وهو كلمة الشهادة وقوله تعالى (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) تصريح بما أشير اليه بعدم قبول فديتهم لزيادة تقريره وبيان هوله وشدته قيل محله النصب على الحالية وقيل الرفع عطفا على خبر ان وقيل عطف على ان الذين فلا محل له كالمعطوف عليه (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ) استئناف مسوق لبيان حالهم فى أثناء مكابدة العذاب مبنى على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فكيف يكون حالهم أو ماذا يصنعون فقيل يريدون الخ وقد بين فى تضاعيفه أن عذابهم عذاب النار قيل إنهم يقصدون ذلك ويطلبون المخرج فيلفحهم لهب النار ويرفعهم إلى فوق فهنالك يريدون الخروج ولات حين مناص وقيل يكادون يخرجون منها لقوة النار وزيادة رفعها إياهم وقيل يتمنونه ويريدونه بقلوبهم وقوله عز وجل (وَمَا هُمْ بِخٰرِجِينَ مِنْهَا) اما حال من فاعل يريدون أو اعتراض وأياما كان فايثار الجملة الاسمية على الفعلية مصدرة بما الحجازية الدالة بما فى خبرها من الباء على تأكيد النفى لبيان كمال سوء حالهم باستمرار عدم خروجهم منها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تفيد بمعونة المقام دوام الثبوت تفيد السلبية أيضا بمعونته دوام النفى لا نفى الدوام كما مر فى قوله تعالى ما أنا بباسط الخ وقرىء أن يخرجوا على بناء المفعول من الاخراج (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) تصريح بما أشير اليه آنفا من عدم تناهى مدته بعد بيان شدته (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ) شروع فى بيان حكم السرقة الصغرى بعد بيان أحكام الكبرى وقد عرفت اقتضاء الحال لايراد ما توسط بينهما من المقال ولما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال صرح بالسارقة أيضا مع أن المعهود فى الكتاب والسنة ادراج النساء فى الأحكام الواردة فى شأن الرجال بطريق الدلالة لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة

فى الزجر وهو مبتدأ خبره عند سيبويه محذوف تقديره وفيما يتلى عليكم أو وفيما فرض عليكم السارق والسارقة أى حكمهما وعند المبرد قوله تعالى (فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط إذ المعنى الذى سرق والتى سرقت وقرىء بالنصب وفضلها سيبويه على قراءة الرفع لأن الإنشاء لا يقع خبرا إلا بتأويل وإضمار والسرقة أخذ مال الغير خفية وإنما توجب القطع إذا كان الأخذ من حرز والمأخوذ يساوى عشرة دراهم فما فوقها مع شروط فصلت فى موقعها والمراد بأيديهما أيمانهما كما يفصح عنه قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم ولذلك ساغ وضع الجمع موضع المثنى كما فى قوله تعالى فقد صغت قلوبكما اكتفاء بتثنية المضاف اليه واليد اسم لتمام الجارحة ولذلك ذهب الخوارج إلى أن المقطع هو المنكب والجمهور على أنه الرسغ لأنه عليه الصلاة والسلام أتى بسارق فأمر بقطع يمينه منه (جَزَاءً) نصب على أنه مفعول له أى فاقطعوا للجزاء أو مصدر مؤكد لفعله الذى يدل عليه فاقطعوا أى فجازوهما جزاء وقوله تعالى (بِمَا كَسَبَا) على الأول متعلق بجزاء وعلى الثانى متعلق باقطعوا وما مصدرية أى بسبب كسبهما أو موصولة أى ما كسباه من السرقة التى تباشر بالأيدى وقوله تعالى (نَكَالًا) مفعول له أيضا على البدلية من جزاء لأنهما من نوع واحد وقيل القطع معلل بالجزاء والقطع المعلل معلل بالنكال وقيل هو منصوب بجزاء على طريقة الاحوال المتداخلة فانه علة للجزاء والجزاء علة للقطع كما إذا قلت ضربته تأديباً له احسانا اليه فان الضرب معلل بالتأديب والتأديب معلل بالإحسان وقد أجازوا فى قوله عز وجل أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده أن يكون بغيا مفعولا له ناصبه أن يكفروا ثم قالوا إن قوله تعالى أن ينزل الله مفعول له ناصبه بغيا على أن التنزيل علة للبغى والبغى علة للكفر وقوله تعالى (مِّنَ اللهِ) متعلق بمحذوف وقع صفة لنكالا أى نكالا كائنا منه تعالى (وَاللهُ عَزِيزٌ) غالب على أمره يمضيه كيف يشاء من غير ند ينازعه ولا ضد يمانعه (حَكِيمٌ) فى شرائعه لا يحكم إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ولذلك شرع هذه الشرائع المنطوية على فنون الحكم والمصالح (فَمَن تَابَ) أى من السراق إلى الله تعالى (مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ) الذى هو سرقته والتصريح به مع أن التوبة لا تتصور قبله لبيان عظم نعمته تعالى بتذكير عظم جنايته (وَأَصْلَحَ) أى أمره بالتفصى عن تبعات ما باشره والعزم على ترك المعاودة اليها (فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ) أى يقبل توبته فلا يعذبه فى الآخرة وأما القطع فلا تسقطه التوبة عندنا لان فيه حق المسروق منه وتسقطه عند الشافعى فى أحد قوليه (إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) مبالغ فى المغفرة والرحمة ولذلك يقبل توبته وهو تعليل لما قبله وإظهار الاسم الجليل للاشعار بعلة الحكم وتأييد استقلال الجملة وكذا فى قوله عز وجل (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) فان عنوان الالوهية مدار أحكام ملكوتهما والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والارض مبتدأ والجملة خبر لأن وهى مع ما فى حيزها سادة مسد مفعولى تعلم عند الجمهور وما فيه من تكرير الإسناد لتقوية الحكم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين وقيل لكل أحد صالح للخطاب والاستفهام الانكارى لتقرير العلم والمراد به الاستشهاد بذلك على قدرته تعالى على ما سيأتى من التعذيب والمغفرة على أبلغ وجه وأتمه أى ألم تعلم أن الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهما وفيما فيهما إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة إلى غير ذلك حسبما تقتضيه مشيئته (يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) أن يعذبه (وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ) أن يغفر له من غير ند يساهمه ولا ضد يزاحمه وتقديم التعذيب على المغفرة لمراعاة ما بين سببيهما من الترتيب والجملة إما تقرير لكون ملكوت السموات والارض له سبحانه أو خبر آخر لأن (وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة والإظهار فى موقع الإضمار لما مر مرارا والجملة تذييل مقرر لما قبلها (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

خوطب عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للتشريف والاشعار بما يوجب عدم الحزن والمسارعة فى الشىء الوقوع فيه بسرعة ورغبة وإيثار كلمة فى على كلمة إلى الواقعة فى قوله تعالى وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة الخ للايماء إلى أنهم مستقرون فى الكفر لا يبرحونه وانما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه إلى بعض آخر منها كاظهار موالاة المشركين وابراز آثار الكيد للاسلام ونحو ذلك كما فى قوله تعالى أولئك يسارعون فى الخيرات فانهم مستمرون على الخير مسارعون فى أنواعه وأفراده والتعبير عنهم بالموصول للاشارة بما فى حيز صلته إلى مدار الحزن وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيا للكفرة عن أن يحزنوه عليه الصلاة والسلام بمسارعتهم فى الكفر لكنه فى الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن التأثر من ذلك والمبالاة بهم على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشىء ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وقلع له من أصله وقد يوجه النهى إلى المسبب ويراد به النهى عن السبب كما فى قوله لا أرينك ههنا يريد نهى مخاطبه عن الحضور بين يديه وقرىء لا يحزنك من أحزنه منقولا من حزن بكسر الزاى وقرىء يسرعون يقال أسرع فيه الشيب أى وقع فيه سريعا أى لا تحزن ولا تبال بتهافتهم فى الكفر بسرعة وقوله تعالى (مِنَ الذينَ قالُوا ءامَنّا بأفوٰهِهِمْ) بيان للمسارعين فى الكفر وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يسارعون وقيل من الموصول أى كائنين من الذين الخ والباء متعلقة بقالوا لا بآمنوا وقوله تعالى (وَلَمْ تؤْمِن قُلُوبُهُمْ) جملة حالية من ضمير قالوا وقيل عطف على قالوا وقوله تعالى (وَمِنَ الذينَ هادُوا) عطف على من الذين قالوا الخ وبه يتم بيان المسارعين فى الكفر بتقسيمهم إلى قسمين المنافقين واليهود فقوله تعالى (سَمّٰعُونَ لِلْكَذِبِ) خبر لمبتدأ محذوف راجع إلى الفريقين أو إلى المسارعين وأما رجوعه إلى الذين هادوا فمخل بعموم الوعيد الآتى ومباديه للكل كما ستقف عليه وكذا جعل قوله ومن الذين الخ خبرا على أن قوله سماعون صفة لمبتدأ محذوف أى ومنهم قوم سماعون الخ لأدائه إلى اختصاص ما عدد من القبائح وما يترتب عليها من الغوائل الدنيوية والأخروية بهم فالوجه ما ذكر أولا أى هم سماعون واللام اما لتقوية العمل واما لتضمين السماع معنى القبول واما لام كى والمفعول محذوف والمعنى هم مبالغون فى سماع الكذب أو فى قبول ما يفتريه أحبارهم من الكذب على الله سبحانه وتحريف كتابه أو سماعون أخباركم وأحاديثكم ليكذبوا عليكم بأن يمسخوها بالزيادة والنقص والتبديل والتغيير أو أخبار الناس وأقاويلهم الدائرة فيما بينهم ليكذبوا فيها بأن يرجفوا بقتل المؤمنين وانكسار سراياهم ونحو ذلك مما يضربهم وأيا ما كان فالجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهى فان كونهم سماعين للكذب على الوجوه المذكورة وابتناء أمورهم على ما لا أصل له من الأباطيل والأراجيف مما يقتضى عدم المبالاة بهم وترك الاعتداد بما يأتون وما يذرون للقطع بظهور بطلان أكاذيبهم واختلال ما بنوا عليها من الأفاعيل الفاسدة المؤدية إلى الخزى والعذاب كما سيأتى وقرىء سماعين للكذب بالنصب على الذم وقوله تعالى (سَمّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءاخَرِينَ) خبر ثان للمبتدأ المقدر مقرر للاول ومبين لما هو المراد بالكذب على الوجهين الأولين واللام مثل ما فى سمع الله لمن حمده فى الرجوع إلى معنى من أى قبل منه حمده والمعنى مبالغون فى قبول كلام قوم آخرين وأما كونها لام التعليل بمعنى سماعون منه عليه الصلاة والسلام لأجل قوم آخرين وجوههم عيونا ليبلغوهم ما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام أو كونها متعلقة بالكذب على أن سماعون الثانى مكرر للتأكيد بمعنى سماعون ليكذبوا القوم آخرين فلا يكاد يساعده النظم الكريم أصلا وقوله تعالى (لَمْ يأتوكَ) صفة أخرى لقوم أى لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك تكبرا وافراطا فى البغضاء قيل هم يهود خيبر والسماعون بنو قريظة وقوله تعالى (يحرِّفونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضعِهِ) صفة أخرى لقوم وصفوا أولا بمغايرتهم للسماعين تنبيها على استقلالهم وأصالتهم فى الرأى والتدبير ثم بعدم حضورهم مجلس الرسول عليه الصلاة

والسلام إيذانا بكمال طغيانهم فى الضلال ثم باستمرارهم على التحريف بيانا لإفراطهم فى العتو والمكابرة والاجتراء على الافتراء على الله تعالى وتعيينا للكذب الذى سمعه السماعون أى يميلونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها اما لفظا باهماله أو تغيير وضعه واما معنى بحمله على غير المراد واجرائه فى غير مورده وقيل الجملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب ناعية عليهم شنائعهم وقيل خبر مبتدأ محذوف راجع إلى القوم وقوله تعالى (يَقُولُونَ) كالجملة السابقة فى الوجوه المذكورة ويجوز أن يكون حالا من ضمير يحرفون وأما تجويز كونها صفة لسماعون أو حالا من الضمير فيه فما لا سبيل اليه أصلا كيف لا وأن مقول القول ناطق بأن قائله ممن لا يحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم والمخاطب به ممن يحضره فكيف يمكن أن يقوله السماعون المترددون اليه عليه الصلاة والسلام لمن لا يحوم حوله قطعا وادعاء قول السماعين لأعقابهم المخالطين للمسلمين تعسف ظاهر مخل بجزالة النظم الكريم والحق الذى لا محيد عنه أن المحرفين والقائلين هم القوم الآخرون أى يقولون لأتباعهم السماعين لهم عند القائهم اليهم أقاويلهم الباطلة مشيرين إلى كلامهم الباطل (إِنْ أُوتِيتُمْ) من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام (هَٰذَا فَخُذُوهُ) واعملوا بموجبه فانه الحق (وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ) بل أوتيتم غيره (فَاحْذَرُوا) أى فاحذروا قبوله وإياكم وإياه وفى ترتيب الأمر بالحذر على مجرد عدم إيتاء المحرف من المبالغة فى التحذير مالا يخفى. روى أن شريفا من خيبر زنى بشريفة وهما محصنان وحدهما الرجم فى التوراة فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا رهطا منهم إلى بنى قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقالوا ان أمركم بالجلد والتحميم فاقبلوا وان أمركم بالرجم فلا تقبلوا وأرسلوا الزانيين معهم فأمرهم بالرجم فأبوا أن يأخذوا به فقال جبريل عليه السلام اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له فقال عليه الصلاة والسلام هل تعرفون شابا أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا قالوا نعم وهو أعلم يهودى على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى بن عمران فى التوراة قال فأرسلوا اليه ففعلوا فأتاهم فقال له النبى عليه الصلاة والسلام أنت ابن صوريا قال نعم قال عليه الصلاة والسلام وأنت أعلم اليهود قال كذلك يزعمون قال لهم أترضون به حكما قالوا نعم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى لا إله إلا هو الذى فلق البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى ورفع فوقكم الطور وأنزل عليكم التوراة فيها حلاله وحرامه هل تجدون فى كتابكم الرجم على من أحصن قال نعم والذى ذكرتنى به لولا خشيت أن يحرقنى التوراة ان كذبت أو غيرت مااعترفت لك ولكن كيف هى فى كتابك يامحمد قال عليه الصلاة والسلام اذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخل فيها كما يدخل الميل فى المكحلة وجب عليه الرجم قال ابن صوريا والذى أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله فى التوراة على موسى فوثب عليه سفلة اليهود فقال خفت إن كذبته أن ينزل علينا العذاب ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله النبى الأمى العربى الذى بشر به المرسلون وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب المسجد (وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ) أى ضلالته أو فضيحته كائنا من كان فيندرج فيه المذكورون اندراجا أوليا وعدم التصريح بكونهم كذلك للاشعار بكمال ظهوره واستغنائه عن ذكره (فَلَن تَمْلِكَ لَهُ) فلن تستطيع له (مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) فى دفعها والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ومبينة لعدم انفكاكهم عن القبائح المذكورة أبدا (أُولَٰئِكَ) إشارة إلى المذكورين من المنافقين واليهود ومافى اسم الإشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفساد وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ) أى من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهماكهم فيهما واصرارهم عليهما وإعراضهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية بالكلية كما ينبىء عنه وصفهم بالمسارعة فى الكفر أولا وشرح فنون ضلالاتهم آخرا والجملة استئناف مبين لكون إرادته تعالى لفتنتهم

منوطة بسوء اختيارهم وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء (لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ) أما المنافقون فخزيهم فضيحتهم وهتك سترتهم بظهور نفاقهم فيما بين المسلمين وأما خزى اليهود فالذل والجزية والافتضاح بظهور كذبهم فى كتمان نص التوراة وتنكير خزى للتفخيم وهو مبتدأ ولهم خبره وفى الدنيا متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار وكذا الحال فى قوله تعالى (وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ) أى مع الخزى الدنيوى (عَذَابٌ عَظِيمٌ) هو الخلود فى النار وضمير لهم فى الجملتين للمنافقين واليهود جميعا لا لليهود خاصة كما قيل وتكرير لهم مع اتحاد المرجع لزيادة التقرير والتأكيد والجملتان استئناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل أفعالهم وأحوالهم الموجبة للعقاب كأنه قيل فما لهم من العقوبة فقيل لهم فى الدنيا الآية (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ) خبر آخر للمبتدأ المقدر كرر تأكيدا لما قبله وتمهيدا لما بعده من قوله تعالى (أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ) وهو أيضا خبر آخر للمقدر وارد على طريقة الذم أو بناء على أن المراد بالكذب ما يفتعله الراشون عند الآكلين والسحت بضم السين وسكون الحاء فى الأصل كل ما لا يحل كسبه وقيل هو الحرام مطلقا من سحته إذا استأصله سمى به لأنه مسحوت البركة والمراد به ههنا إما الرشا التى كان يأخذها المحرفون على تحريفهم وسائر أحكامهم الزائغة وهو المشهور أو ما كان يأخذه فقراؤهم من أغنيائهم من المال ليقيموا على اليهودية كما قيل وإما مطلق الحرام المنتظم لما ذكر انتظاما أوليا وقرىء للسحت بضم السين والحاء وبفتحهما وبفتح السين وسكون الحاء وبكسر السين وسكون الحاء وعن النبى عليه الصلاة والسلام كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به (فَإِنْ جَاءُوكَ) لما بين تفاصيل أمورهم الواهية وأحوالهم المختلفة الموجبة لعدم المبالاة بهم وبأفاعيلهم حسبما أمر به عليه الصلاة والسلام خوطب عليه الصلاة والسلام ببعض ما يبتنى عليه من الأحكام بطريق التفريع والفاء فصيحة أى وإذا كان حالهم كما شرح فان جاءوك متحاكمين اليك فيما شجر بينهم من الخصومات (فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ) غير مبال بهم ولا خائف من جهتهم أصلا وهذا كما ترى تخيير له عليه الصلاة والسلام بين الأمرين فقيل هو فى أمر خاص هو ما ذكر من زنا المحصن وقيل فى قتيل قتل من اليهود فى بنى قريظة والنضير فتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بنو قريظة اخواننا بنو النضير أبونا واحد وديننا واحد ونبينا واحد وإذا قتلوا منا قتيلا لم يرضوا بالقود وأعطونا سبعين وسقا من تمر وإذا قتلنا منهم قتلوا القاتل وأخذوا منا الضعف مائة وأربعين وسقا من تمر وإن كان القتيل امرأة قتلوا بها الرجل منا وبالرجل منهم الرجلين منا وبالعبد منهم الحر منا فاقض بيننا فجعل عليه الصلاة والسلام الدية سواء وقيل هو عام فى جميع الحكومات ثم اختلفوا فمن قائل إنه ثابت وهو المروى عن عطاء والنخعى والشعبى وقتادة وأبى بكر الأصم وأبى مسلم وقائل إنه منسوخ وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم ينسخ من المائدة إلا آيتان قوله تعالى لا تحلوا شعائر الله نسخها قوله تعالى فاقتلوا المشركين وقوله تعالى فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم نسخها قوله تعالى وأن احكم بينهم بما أنزل الله وعليه مشايخنا (وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ) بيان لحال الأمرين اثر تخييره عليه الصلاة والسلام بينهما وتقديم حال الاعراض للمسارعة إلى بيان أنه لا ضرر فيه حيث كان مظنة الضرر لما أنهم كانوا لا يتحاكمون اليه عليه الصلاة والسلام إلا لطلب الايسر والاهون عليهم فاذا أعرض عنهم وأبى الحكومة بينهم شق ذلك عليهم فتشتد عداوتهم ومضارتهم له عليه الصلاة والسلام فأمنه الله عز وجل بقوله (فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا) من الضر فان الله عاصمك من الناس (وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ) بالعدل الذى أمرت به كما حكمت بالرجم (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) ومن ضرورته أن يحفظهم عن كل مكروه ومحذور (وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ) تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه والحال أن الحكم منصوص

عليه فى كتابهم الذى يدعون الايمان به وتنبيه على أنهم ماقصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع وإنما طلبوا به ماهو أهون عليهم وإن لم يكن ذلك حكم الله على زعمهم فقوله تعالى وعندهم التوراة حال من فاعل يحكمونك وقوله تعالى فيها حكم الله حال من التوراة ان جعلت مرتفعة بالظرف وان جعلت مبتدأ فهو حال من ضميرها المستكن فى الخبر وقيل استئناف مسوق لبيان أن عندهم مايغنيهم عن التحكيم وتانيثها لكونها نظيرة المؤنث فى كلامهم كموماة ودوداة (ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ) عطف على يحكمونك داخل فى حكم التعجيب وثم للتراخى فى الرتبة وقوله تعالى (مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ) أى من بعد ما حكموك تصريح بما علم قطعاً لتأكيد الاستبعاد والتعجيب أى ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم من بعد ما رضوا بحكمك وقوله تعالى (وَمَآ أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) تذييل مقرر لفحوى ماقبله ووضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للقصد أو احضارهم فى الذهن بما وصفوا به من القبائح إيماء إلى علة الحكم وإلى أنهم قد تميزوا بذلك عن غيرهم أكمل تميز حتى انتظموا فى سلك الأمور المشاهدة ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى العتو والمكابرة أى وما أولئك الموصوفون بما ذكر بالمؤمنين أى بكتابهم لاعراضهم عنه أولا وعن حكمك الموافق له ثانيا أو بهما وقيل وما أولئك بالكاملين فى الايمان تهكما بهم (إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ) كلام مستأنف سيق لبيان علو شأن التوراة ووجوب مراعاة أحكامها وأنها لم تزل مرعية فيما بين الأنبياء ومن يقتضى بهم كابراً عن كابر مقبولة لكل أحد من الحكام والمتحاكمين محفوظة عن المخالفة والتبديل تحقيقاً لما وصف به المحرفون من عدم إيمانهم بها وتقريراً لكفرهم وظلمهم وقوله تعالى (فِيهَا هُدًى وَنُورٌ) حال من التوراة فان مافيها من الشرائع والأحكام من حيث إرشادها للناس إلى الحق الذى لا يحيد عنه هدى ومن حيث اظهارها وكشفها مااستبهم من الأحكام ومايتعلق بها من الأمور المستورة بظلمات الجهل نور وقوله تعالى (يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ) أى أنبياء بنى اسرائيل وقيل موسى ومن بعده من الأنبياء جملة مستأنفة مبينة لرفعة رتبتها وسمو طبقتها وقد جوز كونه حالا من التوراة فيكون حالا مقدرة أى يحكمون بأحكامها ويحملون الناس عليها وبه تمسك من ذهب إلى أن شريعة من قبلنا شريعة لنا مالم تنسخ وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مراراً من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر ولأن فى المؤخر ومايتعلق به نوع طول ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقوله تعالى (الَّذِينَ أَسْلَمُوا) صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح دون التخصيص والتوضيح لكن لا للقصد إلى مدحهم بذلك حقيقة فان النبوة أعظم من الاسلام قطعا فيكون وصفهم به بعد وصفهم بها تنزلا من الأعلى إلى الأدنى بل لتنويه شأن الصفة فان ابراز وصف فى معرض مدح العظماء منبىء عن عظم قدر الوصف لامحالة كما فى وصف الأنبياء بالصلاح ووصف الملائكة بالايمان عليهم السلام ولذلك قيل أوصاف الاشراف أشراف الأوصاف وفيه رفع لشأن المسلمين وتعريض باليهود وأنهم بمعزل من الاسلام والاقتداء بدين الأنبياء عليهم السلام لاسيما مع ملاحظة ماوصفوا به فى قوله تعالى (لِلَّذِينَ هَادُوا) وهو متعلق بيحكم أى يحكمون فيما بينهم واللام إما لبيان اختصاص الحكم بهم أعم من أن يكون لهم أو عليهم كأنه قيل لاجل الذين هادوا وإما للايذان بنفعه للمحكوم عليه أيضا باسقاط التبعة عنه وإما للاشعار بكمال رضاهم به وانقيادهم له كأنه أمر نافع لكلا الفريقين ففيه تعريض بالمحرفين وقيل التقدير للذين هادوا وعليهم فحذف ماحذف لدلالة ماذكر عليه وقيل هو متعلق بأنزلنا وقيل بهدى ونور وفيه فصل بين المصدر ومعموله وقيل متعلق بمحذوف وقع صفة لهما أى هدى ونور كائنان للذين هادوا (وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ) أى الزهاد والعلماء من ولد هرون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الربانيون الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم

بصغاره قبل كباره والأحبار هم الفقهاء واحده حبر بالفتح والكسر والثانى أفصح وهو رأى الفراء مأخوذ من التحبير والتحسين فانهم يحبرون العلم ويزينونه وهو عطف على النبيون أى هم أيضا يحكمون بأحكامها وتوسيط المحكوم لهم بين المعطوفين للايذان بأن الأصل فى الحكم بها وحمل الناس على مافيها هم النبيون وإنما الربانيون والأحبار خلفاء ونواب لهم فى ذلك كما ينبىء عنه قوله تعالى (بِمَا اسْتُحْفِظُوا) أى بالذى استحفظوه من جهة النبيين وهو التوراة حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل على الاطلاق ولاريب فى أن ذلك منهم عليهم السلام استخلاف لهم فى اجراء أحكامها من غير اخلال بشىء منها وفى ابهامها أولا ثم بيانها ثانيا بقوله تعالى (مِن كِتَٰبِ اللَّهِ) من تفخيمها واجلالها ذاتا واضافة وتأكيد وايجاب حفظها والعمل بما فيها مالا يخفى وايرادها بعنوان الكتاب للايماء إلى ايجاب حفظها عن التغيير من جهة الكتابة والباء الداخلة على الموصول متعلقة بيحكم لكن لا على أنها صلة له كالتى فى قوله تعالى بها ليلزم تعلق حرفى جر متحدى المعنى بفعل واحد بل على أنها سببية أى ويحكم الربانيون والاحبار أيضا بسبب ماحفظوه من كتاب الله حسبما وصاهم به أنبياؤهم وسألوهم أن يحفظوه وليس المراد بسببيته لحكمهم ذلك سببيته من حيث الذات بل من حيث كونه محفوظا فان تعليق حكمهم بالموصول مشعر بسببية الحفظ المترتب لامحالة على مافى حيز الصلة من الاستحفاظ له وقيل الباء صلة لفعل مقدر معطوف على قوله تعالى يحكم بها النبيون عطف جملة على جملة أى ويحكم الربانيون والاحبار بحكم كتاب الله الذى سألهم أنبياؤهم أن يحفظوه من التغيير (وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ) أى رقباء يحمونه من أن يحوم حوله التغيير والتبديل بوجه من الوجوه فتغيير الاسلوب لماذكر من المزايا وقيل بما استحفظوا بدل من قوله تعالى بها باعادة العامل وهو بعيد وكذا تجويز كون الضمير فى استحفظوا للانبياء والربانيين والاحبار جميعا على أن الاستحفاظ من جناب الله عز وجل أى يكلفهم الله تعالى أن يحفظوه ويكونوا عليه شهداء وقوله تعالى وتقدس (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ) خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهى بطريق الدلالة دون العبارة والفاء لترتيب النهى على مافصل من حال التوراة وكونها معتنى بشأنها فيما بين الأنبياء عليهم السلام ومن يقتدى بهم من الربانيين والاحبار المتقدمين عملا وحفظا فان ذلك مما يوجب الاجتناب عن الاخلال بوظائف مراعاتها والمحافظة عليها بأى وجه كان فضلا عن التحريف والتغيير ولما كان مدار جراءتهم على ذلك خشية ذى سلطان أو رغبا فى الحظوظ الدنيوية نهوا عن كل منهما صريحا أى إذا كان شأنها كما ذكر فلا تخشوا الناس كائنا من كان واقتدوا فى مراعاة أحكامها وحفظها بمن قبلكم من الأنبياء وأشياعهم (وَاخْشَوْنِ) فى الاخلال بحقوق مراعاتها فكيف بالتعرض لها بسوء (وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي) الاشتراء استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه لابذل الثمن لتحصيلها كما قيل ثم استعير لأخذ شىء بدلا مما كان له عينا كان أو معنى أخذا منوطا بالرغبة فيما أخذ والاعراض عما أعطى ونبذ كما فصل فى تفسير قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فالمعنى لاتستبدلوا بآياتى التى فيها بأن تخرجوها منها أو تتركوا العمل بها وتأخذوا لأنفسكم بدلا منها (ثَمَنًا قَلِيلًا) من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية فانها وان جلت قليلة مسترذلة فى نفسها لاسيما بالنسبة إلى مافات عنهم بترك العمل بها وانما عبر عن المشترى الذى هو العمدة فى عقود المعاوضة والمقصد الأصلى بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة إلى تحصيله وأبرزت الآيات التى حقها أن يتنافس فيها المتنافسون فى معرض الآلات والوسايط حيث قرنت بالباء التى تصحب الوسائل ايذانا بمبالغتهم فى التعكيس بأن جعلوا المقصد الاقصى وسيلة والوسيلة الادنى مقصدا (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ) كائنا من كان دون المخاطبين خاصة فانهم مندرجون فيه اندراجا أوليا أى من لم يحكم بذلك مستهينا به منكرا له كما يقتضيه مافعلوه من تحريف آيات الله تعالى

اقتضاء يدنا (فأولئك) اشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فيما سبق باعتبار لفظها (هم الكافرون) لاستهانتهم به وهم إما ضمير الفصل أو مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر لأولئك وقد مر تفصيله في مطلع سورة البقرة والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير وتحذير عن الاخلال به أشد تحذير حيث علق فيه الحكم بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى فكيف وقد انضم اليه الحكم بخلافه لاسيما مع مباشرة مانهوا عنه من تحريفه ووضع غيره موضعه وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا (وكتبنا) عطف على أنزلنا التوراة (عليهم) أى على الذين هادوا وقرىء وأنزل الله على بنى إسرائيل (فيها) أى فى التوراة (أن النفس بالنفس) أى تقاد بها إذا قتلتها بغير حق (والعين) تفقأ (بالعين) إذا فقئت بغير حق (والأنف) يجدع (بالأنف) المقطوع بغير حق (والأذن) تصلم (بالأذن) المقطوعة ظلما (والسن) تقلع (بالسن) المقلوعة بغير حق (والجروح قصاص) أى ذات قصاص إذا كانت بحيث تعرف المساواة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة فنزلت وقرىء وان الجروح قصاص وقرىء والعين إلى آخره بالرفع عطفا على محل أن النفس لان المعنى كتبنا عليهم النفس بالنفس اما لاجراء كتبنا مجرى قلنا واما لان معنى الجملة التى هى قولك النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما يقع عليه القراءة تقول كتبت الحمد لله وقرأت سورة أنزلناها (فمن تصدق) أى من المستحقين (به) أى بالقصاص أى فمن عفى عنه والتعبير عنه بالصدق للمبالغة فى الترغيب فيه (فهو) أى التصدق (كفارة له) أى للمتصدق يكفر الله تعالى بها ذنوبه وقيل للجانى إذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه مالزمه وقرىء فهو كفارته له أى فالمتصدق كفارته التى يستحقها بالتصدق له لاينقص منها شىء وهو تعظيم لما فعل كقوله تعالى فأجره على الله (ومن لم يحكم) كائنا من كان فيتناول من لا يرى قتل الرجل بالمرأة من اليهود تناولا بينا (بما أنزل الله) من الأحكام والشرائع كائنا ما كان فيدخل فيها الأحكام المحكية دخولا أوليا (فأولئك هم الظالمون) المبالغون فى الظلم المتعدون لحدوده تعالى الواضعون للشىء فى غير موضعه والجملة تذييل مقرر لايجاب العمل بالأحكام المذكورة (وقفينا على آثارهم) شروع فى بيان أحكام الانجيل اثر بيان أحكام التوراة وهو عطف على أنزلنا التوراة أى آثار النبيين المذكورين يقال قفيته بفلان إذا اتبعته اياه فحذف المفعول لدلالة الجار والمجرور عليه أى قفيناهم (بعيسى ابن مريم) أى أرسلناه عقيبهم (مصدقا لما بين يديه من التوراة) حال من عيسى عليه السلام (وآتيناه الإنجيل) عطف على قفينا وقرىء بفتح الهمزة (فيه هدى ونور) كما فى التوراة وهو فى محل النصب على أنه حال من الانجيل أى كائنا فيه ذلك كأنه قيل مشتملا على هدى ونور وتنوين هدى ونور للتفخيم ويندرج فى ذلك شواهد نبوته عليه السلام (ومصدقا لما بين يديه من التوراة) عطف عليه داخل فى حكم الحالية وتكرير ما بين يديه من التوراة لزيادة التقرير (وهدى وموعظة للمتقين) عطف على مصدقا منتظم معه فى سلك الحالية جعل كله هدى بعد ما جعل مشتملا عليه حيث قيل فيه هدى وتخصيص كونه هدى وموعظة بالمتقين لانهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) أمر مبتدأ لهم بأن يحكموا ويعملوا بما فيه من الامور التى من جملتها دلائل رسالته عليه الصلاة والسلام وشواهد نبوته وما قرره الشريعة الشريفة من أحكامه وأما أحكامه المنسوخة فليس الحكم بها حكما بما أنزل الله فيه بل هو ابطال وتعطيل له اذ هو شاهد بنسخها وانتهاء وقت العمل بها لان شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة شهادة بنسخها وبأن أحكامه ما قررته تلك الشريعة التى شهد بصحتها كما سيأتى فى قوله تعالى يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل الآية وقيل هو حكاية للأمر الوارد عليهم بتقدير فعل معطوف على آتيناه أى وقلنا ليحكم أهل الانجيل الخ وقرىء وأن ليحكم

على أن موصولة بالأمر كما في قولك أمرته بأن قم كأنه قيل وآتيناه الانجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الانجيل الخ وقرىء على صيغة المضارع ولام التعليل على أنها متعلقة بمقدر كأنه قيل وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه آتيناه إياه وقد عطف على هدى وموعظة على أنهما مفعول لهما كأنه قيل وللهدى والموعظة وآتيناه إياه وللحكم بما أنزل الله فيه (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ) منكراله مستهينابه (فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ) المتمردون الخارجون عن الايمان والجملة تذييل مقرر لمضمون الجملة السابقة ومؤكد لوجوب الامتثال بالأمر وفيه دلالة على أن الانجيل مشتمل على الأحكام وأن عيسى عليه السلام كان مستقلا بالشرع مأمورا بالعمل بما فيه من الأحكام قلت أو كثرت لا بما في التوراة خاصة وحمله على معنى وليحكم بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ) أى الفرد الكامل الحقيق بأن يسمى كتابا على الاطلاق لحيازته جميع الأوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوى وتفوقه على بقية أفراده وهو القرآن الكريم فاللام للعهد والجملة عطف على أنزلنا وما عطف عليه وقوله تعالى (بِالْحَقِّ) متعلق بمحذوف وقع حالا مؤكدة من الكتاب أى ملتبسا بالحق والصدق وقيل من فاعل أنزلنا وقيل من الكاف فى اليك وقوله تعالى (مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) حال من الكتاب أى حال كونه مصدقا لما تقدمه اما من حيث أنه نازل حسبما نعت فيه أو من حيث أنه موافق له فى القصص والمواعيد والدعوة إلى الحق والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش وأما مايتراءى من مخالفته له فى بعض جزئيات الأحكام المتغيرة بسبب تغير الأعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة بل هى موافقة لها من حيث أن كلا من تلك الأحكام حق بالاضافة إلى عصره متضمن للحكمة التى عليها يدور أمر الشريعة وليس فى المتقدم دلالة على أبدية أحكامه المنسوخة حتى يخالفه الناسخ المتأخر وإنما يدل على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها وزوالها بل نقول هو ناطق بزوالها لما أن النطق بصحة ماينسخها نطق بنسخها وزوالها وقوله تعالى (مِنَ الْكِتَٰبِ) بيان لما واللام للجنس إذ المراد هو الكتاب السماوى وهو بهذا العنوان جنس برأسه وإن كان فى نفسه نوعا مخصوصا من مدلول لفظ الكتاب وعن هذا قالوا اللام للعهد إلا أن ذلك لا ينتهى إلى خصوصية الفردية بل إلى خصوصية النوعية التى هى أخص من مطلق الكتاب وهو ظاهر ومن الكتاب السماوى أيضا حيث خص بما عدا القرآن (وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) أى رقيبا على سائر الكتب المحفوظة من التغيير لأنه يشهد لها بالصحة والثبات ويقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها ويعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها ولا ريب فى أن تمييز أحكامها الباقية على المشروعية أبدا عما انتهى وقت مشروعيته وخرج عنها من أحكام كونه مهيمنا عليه وقرىء ومهيمنا عليه على صيغة المفعول أى هو من عليه وحوفظ من التغيير والتبديل كقوله عز وجل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والحافظ اما من جهته تعالى كما فى قوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون أو الحفاظ فى الأعصار والأمصار والفاء فى قوله تعالى (فَاحْكُم بَيْنَهُم) لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان كون شأن القرآن العظيم حقا مصدقا لما قبله من الكتب المنزلة على الأمم مهيمنا عليه من موجبات الحكم المأمور به أى إذا كان القرآن كما ذكر فاحكم بين أهل الكتابين عند تحاكمهم اليك (بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ) أى بما أنزله اليك فانه مشتمل على جميع الأحكام الشرعية الباقية فى الكتب الالهية وتقديم بينهم للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على علية ما فى حيز الصلة للحكم والالتفات باظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ) الزائغة (عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ) الذى لا محيد عنه وعن متعلقة بلا تتبع على تضمين معنى العدول ونحوه كأنه قيل ولا تعدل عما جاءك من الحق متبعا أهواءهم وقيل بمحذوف وقع حالا من فاعله أى لا تتبع أهواءهم عادلا

عما جاءك وفيه أن ما وقع حالا لابد أن يكون فعلا عاما ووضع الموصول موضع ضمير الموصول الأول للايماء بما فى حيز الصلة من مجىء الحق إلى ما يوجب كمال الاجتناب عن اتباع الأهواء وقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) كلام مستأنف جىء به لحمل أهل الكتابين من معاصريه عليه الصلاة والسلام على الانقياد لحكمه بما أنزل اليه من القرآن الكريم ببيان أنه هو الذى كلفوا العمل به دون غيره من الكتابين وإنما الذين كلفوا العمل بهما من مضى قبل نسخهما من الأمم السالفة والخطاب بطريق التلوين والالتفات للناس كافة لكن لا للموجودين خاصة بل للماضين أيضا بطريق التغليب واللام متعلقة بجعلنا المتعدى لواحد وهو اخبار بجعل ماض لا انشاء وتقديمها عليه للتخصيص ومنكم متعلق بمحذوف وقع صفة لما عوض عنه تنوين كل ولا ضير فى توسط جعلنا بين الصفة والموصوف كما فى قوله تعالى أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات الخ والمعنى لكل أمة كائنة منكم أيها الأمم الباقية والخالية جعلنا أى عينا ووضعنا شرعة ومنهاجا خاصين بتلك الأمة لا تكاد أمة تتخطى شرعتها التى عينت لها فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام شرعتهم التوراة والتى كانت من مبعث عيسى إلى مبعث النبى عليهما الصلاة والسلام شرعتهم الانجيل وأما أنتم أيها الموجودون فشرعتكم القرآن ليس إلا فآمنوا به واعملوا بما فيه والشرعة والشريعة هى الطريقة إلى الماء شبه بها الدين لكونه سبيلا موصولا إلى ما هو سبب للحياة الأبدية كما أن الماء سبب للحياة الفانية والمنهاج الطريق الواضح فى الدين من نهج الأمر إذا وضح وقرىء شرعة بفتح الشين قيل فيه دليل على أنا غير متعبدين بشرائع من قبلنا والتحقيق أنا متعبدون بأحكامها الباقية من حيث أنها أحكام شرعتنا لا من حيث أنها شرعة للأولين (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) متفقة على دين واحد فى جميع الأعصار من غير اختلاف بينكم وبين من قبلكم من الأمم فى شىء من الأحكام الدينية ولا نسخ ولا تحويل ومفعول المشيئة محذوف تعويلا على دلالة الجزاء عليه أى ولو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة لجعلكم الخ وقيل المعنى لو شاء الله اجتماعكم على الاسلام لأجبركم عليه (ولكن ليبلوكم) متعلق بمحذوف يستدعيه النظام أى ولكن لم يشأ ذلك أى أن يجعلكم أمة واحدة بل شاء ما عليه السنة الالهية الجارية فيما بين الأمم ليعاملكم معاملة من يبتليكم (فى ما آتاكم) من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها وقرونها هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى المشيئة الالهية المبنية على أساس الحكم البالغة والمصالح النافعة لكم فى معاشكم ومعادكم أو تزيغون عن الحق وتتبعون الهوى وتستبدلون المضرة بالجدوى وتشترون الضلالة بالهدى وبهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة المذكورة ليس مجرد الابتلاء بل العمدة فى ذلك ما أشير اليه من انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتهم معاشا ومعادا كما ينبىء عنه قوله عز وجل (فاستبقوا الخيرات) أى إذا كان الأمر كما ذكر فسارعوا إلى ما هو خير لكم فى الدارين من العقائد الحقة والأعمال الصالحة المندرجة فى القرآن الكريم وابتدروها انتهازا للفرصة وإحرازا لسابقة الفضل والتقدم ففيه من تأكيد الترغيب فى الاذعان للحق وتشديد التحذير عن الزيغ ما لا يخفى وقوله تعالى (إلى الله مرجعكم) استئناف مسوق مساق التعليل لاستباق الخيرات بما فيه من الوعد والوعيد وقوله تعالى (جميعا) حال من ضمير الخطاب والعامل فيه اما المصدر المنحل إلى حرف مصدرى وفعل مبنى للفاعل أو مبنى للمفعول واما الاستقرار المقدر فى الجار (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أى فيفعل بكم من الجزاء الفاصل بين المحق والمبطل ما لا يبقى لكم معه شائبة شك فيما كنتم فيه تختلفون فى الدنيا وإنما عبر عن ذلك بما ذكر لوقوعه موقع إزالة الاختلاف التى هى وظيفة الأخبار (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) عطف على الكتاب أى أنزلنا اليك الكتاب والحكم بما فيه والتعرض لعنوان انزاله تعالى إياه لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر أو على الحق أى أنزلناه بالحق وبأن احكم وحكاية

انزال الأمر بهذا الحكم بعدما مر من الأمر الصريح بذلك تأكيدله وتمهيد لما يعقبه من قوله تعالى (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) أى يصرفوك عن بعضه ولوكان أقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق واظهار الاسم الجليل لتأكيد الأمر بتهويل الخطب وأن بصلته بدل اشتمال من ضميرهم أى احذر فتنتهم أو مفعول له أى احذرهم مخافة أن يفتنوك وإعادة ما أنزل الله لتأكيد التحذير بتهويل الخطب . روى أن أحبار اليهود قالوا اذهبوا بنا إلى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فذهبوا اليه صلى الله عليه وسلم وقالوا يا أبا القاسم قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا ان اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم اليك فتقضى لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (فإن تولوا) أى أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى وأرادوا غيره (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أى بذنب توليهم عن حكم الله عز وجل وإنما عبر عنه بذلك ايذانا بأن لهم ذنوبا كثيرة هذا مع كمال عظمه واحد من جملتها وفى هذا الابهام تعظيم للتولى كما فى قول لبيد : أو يرتبط بعض النفوس حمامها يريد به نفسه أى نفسا كبيرة ونفسا أى نفس (وإن كثيراً من الناس لفاسقون) أى متمردون فى الكفر مصرون عليه خارجون عن الحدود المعهودة وهو اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله (أفحكم الجاهلية يبغون) انكار وتعجيب من حالهم وتوبيخ لهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية وتقديم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الانكار والتعجيب لأن التولى عن حكمه عليه الصلاة والسلام وطلب حكم آخر منكر عجيب وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب والمراد بالجاهلية اما الملة الجاهلية التى هى متابعة الهوى الموجبة للميل والمداهنة فى الأحكام فيكون تعبير اليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التى هى هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحى واما أهل الجاهلية وحكمهم ما كانوا عليه من التفاضل فيما بين القتلى حيث روى أن بنى النضير لما تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خصومة قتل وقعت بينهم وبين بنى قريظة طلبوا اليه عليه الصلاة والسلام أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل فقال عليه الصلاة والسلام القتلى سواء فقال بنو النضير نحن لا نرضى بذلك فنزلت وقرىء برفع الحكم على أنه مبتدأ ويبغون خبره والراجع محذوف حذفه فى قوله تعالى أهذا الذى بعث الله رسولا وقد استضعف ذلك فى غير الشعر وقرىء بتاء الخطاب اما بالالتفات لتشديد التوبيخ واما بتقدير القول أى قل لهم أفحكم الخ وقرىء بفتح الحاء والكاف أى أفحاكما كحكام الجاهلية يبغون (ومن أحسن من الله حكماً) انكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه تعالى أو مساوله وإن كان ظاهر السبك غير متعرض لنفى المساواة وانكارها وقد مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله (لقوم يوقنون) أى عندهم واللام كما فى هيت لك أى هذا الاستفهام لهم فانهم الذين يتدبرون الأمور بأنظارهم فيعلمون يقينا أن حكم الله عز وجل أحسن الأحكام وأعدلها (يا أيها الذين آمنوا) خطاب يعم حكمه كافة المؤمنين من المخلصين وغيرهم وإن كان سبب وروده بعضا منهم كما سيأتى ووصفهم بعنوان الإيمان لحملهم من أول الأمر على الانزجار عما نهوا عنه بقوله عز وجل (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) فان تذكير اتصافهم بضد صفات الفريقين من أقوى الزواجر عن موالاتهما أى لا يتخذ أحد منكم أحدا منهم وليا بمعنى لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الأحباب ومعاشرتهم لا بمعنى لا تجعلوهم أولياء لكم حقيقة فانه أمر ممتنع فى نفسه لا يتعلق به النهى (بعضهم أولياء بعض) أى بعض كل فريق من ذينك الفريقين أولياء بعض آخر من ذلك الفريق لا من الفريق الآخر وإنما أوثر الاجمال فى البيان تعويلا على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين فريقى اليهود والنصارى رأسا والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهى

وتأكيد ايجاب الاجتناب عن المنهى عنه أى بعضهم أولياء بعض متفقون على كلمة واحدة فى كل ما يأتون وما يذرون ومن ضرورته اجماع الكل على مضادتكم ومضارتكم بحيث يسومونكم السوء ويبغونكم الغوائل فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة وقوله تعالى (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) حكم مستنتج منه فان انحصار الموالاة فيما بينهم يستدعى كون من يواليهم منهم ضرورة أن الاتحاد فى الدين الذى عليه يدور أمر الموالاة حيث لم يكن بكونهم ممن يواليهم من المؤمنين تعين أن يكون ذلك بكون من يواليهم منهم وفيه زجر شديد للمؤمنين عن اظهار صورة الموالاة لهم وان لم تكن موالاة فى الحقيقة وقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) تعليل لكون من يتولاهم منهم أى لايهديهم إلى الايمان بل يخليهم وشأنهم فيقعون فى الكفر والضلالة وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تنبيها على أن توليهم ظلم لما أنه تعريض لأنفسهم للعذاب الخالد ووضع للشىء فى غير موضعه وقوله تعالى (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) بيان لكيفية توليهم واشعار بسببه وبما يؤول اليه أمرهم والفاء للايذان بترتبه على عدم الهداية والخطاب اما للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين واما لكل أحد ممن له أهلية له وفيه مزيد تشنيع للتشنيع أى لايهديهم بل يذرهم وشأنهم فتراهم الخ وانما وضع موضع الضمير الموصول ليشار بما فى حيز صلته الى أن ما ارتكبوه من التولى بسبب ما فى قلوبهم من مرض النفاق ورخاوة العقد فى الدين وقوله تعالى (يُسَارِعُونَ فِيهِمْ) حال من الموصول والرؤية بصرية وقيل مفعول ثان والرؤية قلبية والأول هو الانسب بظهور نفاقهم أى تراهم مسارعين فى موالاتهم وإنما قيل فيهم مبالغة فى بيان رغبتهم فيها وتهالكهم عليها وإيثار كلمة فى على كلمة إلى للدلالة على أنهم مستقرون فى الموالاة وإنما مسارعتهم من بعض مراتبها إلى بعض آخر منها كما فى قوله تعالى أولئك يسارعون فى الخيرات لأنهم خارجون عنها متوجهون اليها كما فى قوله تعالى وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة وقرىء فيرى بياء الغيبة على أن الضمير لله سبحانه وقيل لمن تصح منه الرؤية وقيل الفاعل هو الموصول والمفعول هو الجملة على حذف أن المصدرية والرؤية قلبية أى ويرى القوم الذين فى قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم فلما حذفت أن انقلب الفعل مرفوعا كما فى قول من قال:

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى والمراد بهم عبدالله بن أبى وأضرابه الذين كانوا يسارعون فى موادة اليهود ونصارى نجران وكانوا يعتذرون إلى المؤمنين بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم صروف الزمان وذلك قوله تعالى (يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ) وهو حال من ضمير يسارعون والدائرة من الصفات الغالبة التى لايذكر معها موصوفها أى تدور علينا دائرة من دوائر الدهر ودولة من دوله بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار وقيل نخشى أن يصيبنا مكروه من مكاره الدهر كالجدب والقحط فلا يعطونا الميرة والقرض . روى أن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان لى موالى من اليهود كثيرا عددهم وإنى أبرأ الى الله ورسوله من ولايتهم وأوالى الله ورسوله فقال عبدالله بن أبى إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالى وهم يهود بنى قينقاع ولعله يظهر للمؤمنين أنه يريد بالدوائر المعنى الأخير ويضمر فى نفسه المعنى الأول وقوله تعالى (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ) رد من جهة الله تعالى لعللهم الباطلة وقطع لأطماعهم الفارغة وتبشير للمؤمنين بالظفر فان عسى منه سبحانه وعد محتوم لما أن الكريم إذا أطمع أطعم لامحالة فما ظنك بأكرم الأكرمين وأن يأتى فى محل النصب على أنه خبر عسى وهو رأى الأخفش أو على أنه مفعول به وهو رأى سيبويه لئلا يلزم الاخبار عن الجثة بالحدث كما فى قولك عسى زيد أن يقوم والمراد بالفتح فتح مكة قال الكلبى والسدى وقال الضحاك فتح قرى اليهود من خيبر وفدك وقال قتادة ومقاتل هو القضاء الفصل بنصره عليه الصلاة والسلام على من خالفه واعزاز الدين (أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ) بقطع شأفة اليهود من القتل والاجلاء (فَيُصْبِحُوا)

أى أولئك المنافقون المتعللون بما ذكر وهو عطف على يأتى داخل معه فى حيز خبر عسى وإن لم يكن فيه ضمير يعود إلى اسمها فان فاء السببية مغنية عن ذلك فانها تجعل الجملتين كجملة واحدة (عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِى أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ) وهو ما كانوا يكتمونه فى أنفسهم من الكفر والشك فى أمره عليه الصلاة والسلام وتعليق الندامة به لا بما كانوا يظهرونه من موالاة الكفرة لما أنه الذى كان يحملهم على الموالاة ويغريهم عليها فدل ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها (وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا) كلام مبتدأ مسوق لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة وقرىء بغير واو على أنه جواب سؤال نشأ مما سبق كأنه قيل فماذا يقول المؤمنون حينئذ وقرىء ويقول بالنصب عطفا على يصبحوا وقيل على يأتى باعتبار المعنى كأنه قيل فعسى أن يأتى الله بالفتح ويقول الذين آمنوا والأول أوجه لأن هذا القول إنما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة المنافقين لا عند إتيان الفتح فقط والمعنى ويقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ويرجون دولتهم ويظهرون لهم غاية المحبة وعدم المفارقة عنهم فى السراء والضراء عند مشاهدتهم لخيبة رجائهم وانعكاس تقديرهم بوقوع ضد ما كانوا يترقبونه ويتعللون به تعجيبا للمخاطبين من حالهم وتعريضا بهم (أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ) أى بالنصرة والمعونة كما قالوا فيما حكى عنهم وإن قوتلتم لننصرنكم واسم الإشارة مبتدأ وما بعده خبره والمعنى إنكار ما فعلوه واستبعاده وتخطئتهم فى ذلك أو يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين إلى المنافقين أيضا أهؤلاء الذين أقسموا للكفرة انهم لمعكم فالخطاب فى معكم لليهود على التقديرين إلا أنه على الأول من جهة المؤمنين وعلى الثانى من جهة المقسمين وهذه الجملة لا محل لها من الإعراب لأنها تفسير وحكاية لمعنى اقسموا لكن لا بألفاظهم وإلا لقيل إنا معكم وجهد الأيمان أغلظها وهو فى الأصل مصدر ونصبه على الحال على تقدير وأقسموا بالله يجهدون جهد أيمانهم فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ولا يبالى بتعريفه لفظا لانه مؤول بنكرة أى مجتهدين فى أيمانهم أو على المصدر أى أقسموا اقسام اجتهاد فى اليمين وقوله تعالى (حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَـٰسِرِينَ) إما جملة مستأنفة مسوقة من جهته تعالى لبيان مآل ما صنعوه من ادعاء الولاية والاقسام على المعية فى المنشط والمكره اثر الإشارة إلى بطلانه بالاستفهام الإنكارى وإما خبر ثان للمبتدا عند من يجوز كونه جملة كما فى قوله تعالى فاذا هى حية تسعى أو هو الخبر والموصول مع ما فى حيز صلته صفة لاسم الاشارة فالاستفهام حينئذ للتقرير وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم والمعنى بطلت أعمالهم التى عملوها فى شأن موالاتكم وسعوا فى ذلك سعيا بليغا حيث لم تكن لكم دولة فينتفعوا بما صنعوا من المساعى وتحملوا من مكابدة المشاق وفيه من الاستهزاء بالمنافقين والتقريع للمخاطبين ما لا يخفى وقيل قاله بعض المؤمنين مخاطبا لبعض تعجبا من سوء حال المنافقين واغتباطا بما من الله تعالى على أنفسهم من التوفيق للاخلاص أهؤلاء الذين أقسموا لكم باغلاظ الايمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار بطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين الناس وأنت خبير بأن ذلك الكلام من المؤمنين إنما يليق بما لو أظهر المنافقون حينئذ خلاف ما كانوا يدعونه ويقسمون عليه من ولاية المؤمنين ومعاضدتهم على الكفار فظهر كذبهم وافتضحوا بذلك على رؤس الاشهاد وبطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين المؤمنين ولا ريب فى أنهم يومئذ أشد ادعاء وأكثر اقساما منهم قبل ذلك فضلا عن أن يظهروا خلاف ذلك وإنما الذى يظهر منهم الندامة على ما صنعوا وليس ذلك علامة ظاهرة الدلالة على كفرهم وكذبهم فى ادعائهم فانهم يدعون أن ليست ندامتهم إلا على ما أظهروه من موالاة الكفرة خشية إصابة الدائرة (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ) وقرىء يرتدد بالفك على لغة الحجاز والادغام لغة تميم لما نهى فيما سلف عن موالاة اليهود والنصارى وبين أن موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين وفصل

مصير أمر من يواليهم من المنافقين شرع فى بيان حال المرتدين على الاطلاق وهذا من الكائنات التى أخبر عنها القرآن قبل وقوعها. روى أنه ارتد عن الإسلام إحدى عشرة فرقة ثلاث فى عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود العنسى كان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده فأخرج منها عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب عليه الصلاة والسلام إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن فأهلكه الله تعالى على يدى فيروز الديلمى بيته فقتله وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ليلة قتل فسر به المسلمون وقبض عليه الصلاة والسلام من الغد وأتى خبره فى آخر شهر ربيع الاول وبنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب تنبأ وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد فان الارض نصفها لى ونصفها لك فأجاب عليه الصلاة والسلام من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين فحاربه أبو بكر رضى الله عنه بجنود المسلمين وقتل على يدى وحشى قاتل حمزة رضى الله عنه وكان يقول قتلت فى جاهليتى خير الناس وفى اسلامى شر الناس وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث اليه أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد فانهزم بعد القتال إلى الشأم فأسلم وحسن إسلامه وسبع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه فزارة قوم عيينة بن حصن وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيرى وبنو سليم قوم الفجاءة ابن عبد ياليل وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التى زوجت نفسها من مسيلمة الكذاب وفيها يقول أبو العلاء المعرى فى كتاب استغفر واستغفرى :

أمت سجاح ووالاها مسيلمة كذابة فى بنى الدنيا وكذاب

وكندة قوم الاشعث بن قيس وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد وكفى الله تعالى أمرهم على يد أبى بكر رضى الله عنه وفرقة واحدة فى عهد عمر رضى الله عنه غسان قوم جبلة بن الايهم نصرته اللطمة وسيرته إلى بلاد الروم وقصته مشهورة وقوله تعالى (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ) جواب الشرط والعائد الى اسم الشرط محذوف أى فسوف يأتى الله مكانهم بعد اهلاكهم (بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ) أى يريد بهم خيرى الدنيا والآخرة ومحل الجملة الجر على أنها صفة لقوم وقوله تعالى (وَيُحِبُّونَهُ) أى يريدون طاعته ويتحرزون عن معاصيه معطوف عليها داخل فى حكمها قيل هم أهل اليمن لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام أشار الى أبى موسى الاشعرى وقال قوم هذا وقيل هم الانصار رضى الله عنهم وقيل هم الفرس لما روى أنه عليه السلام سئل عنهم فضرب بيده الكريمة على عاتق سلمان رضى الله عنه وقال هذا وذووه ثم قال لو كان الايمان معلقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس وقيل هم ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وثلاثة آلاف من أفناء الناس جاهدوا يوم القادسية (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) جمع ذليل لا ذلول فان جمعه ذلل أى أرقاء رحماء متذللين ومتواضعين لهم واستعماله بعلى اما التضمين معنى العطف والحنو أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم أو لرعاية المقابلة بينه وبين ما فى قوله تعالى (أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) أى أشداء متغلبين عليهم من عزه اذا غلبه كما فى قوله عز وعلا أشداء على الكفار رحماء بينهم وهما صفتان أخريان لقوم ترك بينهما العاطف للدلالة على استقلالهم بالاتصاف بكل منهما وفيه دليل على صحة تأخير الصفة الصريحة عن غير الصريحة من الجملة والظرف كما فى قوله تعالى وهذا كتاب أنزلناه مبارك وقوله تعالى ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث وقوله تعالى ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث وما ذهب اليه من لا يجوزه من أن قوله تعالى يحبهم ويحبونه كلام معترض وأن مبارك خبر بعد خبر أو خبر لمبتدا محذوف وأن من ربهم ومن الرحمن حالان مقدمتان من ضمير محدث تكلف لا يخفى وقرىء أذلة أعزة بالنصب على الحالية من قوم لتخصصه بالصفة (يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) صفة أخرى لقوم مترتبة على ما قبلها مبينة مع ما بعدها لكيفية

عزتهم أو حال من الضمير فى أعزة (وَلا يخافونَ لومَةَ لائِمٍ) عطف على يجاهدون بمعنى أنهم جامعون بين المجاهدة فى سبيل الله وبين التصلب فى الدين وفيه تعريض بالمنافقين فانهم كانوا إذا خرجوا فى جيش المسلمين خافوا أولياءهم اليهود فلا يكادون يعملون شيئا يلحقهم فيه لوم من جهتهم وقيل هو حال من فاعل يجاهدون بمعنى أنهم يجاهدون وحالهم خلاف حال المنافقين واعترض عليهم بأنهم نصوا على أن المضارع المنفى بلا أو ما كالمثبت فى عدم جواز مباشرة واو الحال له واللومة المرة من اللوم وفيها وفى تنكير لائم مبالغة لا تخفى (ذلِكَ) إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف الجليلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الفضل (فضلُ اللهِ) أى لطفه وإحسانه لا أنهم مستقلون فى الاتصاف بها (يؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ) ايتاءه اياه ويوفقه لكسبه وتحصيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (وَاللهُ واسِعٌ) كثير الفواضل والألطاف (عَليمٌ) مبالغ فى العلم بجميع الأشياء التى من جملتها من هو أهل للفضل والتوفيق والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله واظهار الاسم الجليل للاشعار بالعلة وتأكيدا استقلال الجملة الاعتراضية (إنما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسولُهُ وَالذينَ آمَنوا) لما نهاهم الله عز وجل عن موالاة الكفرة وعلله بأن بعضهم أولياء بعض لا يتصور ولايتهم للمؤمنين وبين أن من يتولاهم يكون من جملتهم بين ههنا من هو وليهم بطريق قصر الولاية عليه كأنه قيل لا تتخذوهم أولياء لأن بعضهم أولياء بعض وليسوا بأوليائكم إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة ولا تتخطوهم إلى غيرهم وإنما أفرد الولى مع تعدده للايذان بأن الولاية أصالة لله تعالى وولايته عليه السلام وكذا ولاية المؤمنين بطريق التبعية لولايته عز وجل (الذينَ يقيمونَ الصَّلوةَ وَيؤتونَ الزَّكوةَ) صفة للذين آمنوا لجريانه مجرى الاسم أو بدل منه أو نصب على المدح أو رفع عليه (وَهُمْ راكِعونَ) حال من فاعل الفعلين أى يعملون ما ذكر من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى وقيل هو حال مخصوصة بايتاء الزكاة والركوع ركوع الصلاة والمراد بيان كمال رغبتهم فى الاحسان ومسارعتهم اليه وروى أنها نزلت فى على رضى الله عنه حين سأله سائل وهو راكع فطرح اليه خاتمه كأنه كان مرجا فى خنصره غير محتاج فى إخراجه إلى كثير عمل يؤدى إلى فساد الصلاة ولفظ الجمع حينئذ لترغيب الناس فى مثل فعله رضى الله عنه وفيه دلالة على أن صدقة التطوع تسمى زكاة (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسولَهُ وَالذينَ آمَنوا) أوثر الاظهار على أن يقال ومن يتولهم رعاية لما مر من نكتة بيان أصالته تعالى فى الولاية كما ينبىء عنه قوله تعالى (فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغالِبونَ) حيث أضيف الحزب اليه تعالى خاصة وهو أيضا من باب وضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى من أى فانهم الغالبون لكنهم جعلوا حزب الله تعالى تعظيما لهم واثباتا لغلبتهم بالطريق البرهانى كأنه قيل ومن يتول هؤلاء فانهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون (يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا الذينَ اتَّخَذوا دينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً) روى أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرا الإسلام ثم نافقا وكان رجال من المؤمنين يوادونهما فنهوا عن موالاتهما ورتب النهى على وصف يعمهما وغيرهما تعميما للحكم وتنبيها على العلة وإيذانا بأن من هذا شأنه جدير بالمعاداة فكيف بالموالاة (مِنَ الذينَ أوتوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ) بيان للمستهزئين والتعرض لعنوان ايتاء الكتاب لبيان كمال شناعتهم وغاية ضلالتهم لما ان إيتاء الكتاب وازع لهم عن الاستهزاء بالدين المؤسس على الكتاب المصدق لكتابهم (وَالكُفّارَ) أى المشركين خصوا به لتضاعف كفرهم وهو عطف على الموصول الأول ففيه اشعار بأنهم ليسوا بمستهزئين كما ينبىء عنه تخصيص الخطاب بأهل الكتاب فى قوله تعالى يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الآية وقرى بالجر عطفا على الموصول الأخير ويعضده قراءة أبى ومن الكفار وقراءة عبدالله ومن الذين أشركوا فهم أيضا من جملة المستهزئين (أولِياءَ) وجانبوهم كل المجانبة (وَاتَّقوا اللهَ) فى ذلك بترك موالاتهم أو بترك المناهى

على الاطلاق فيدخل فيه ترك موالاتهم دخولا أوليا (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أى حقا فان قضية الايمان توجب الاتقاء لا محالة (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا) أى الصلاة أو المناداة ففيه دلالة على شرعية الاذان (هُزُوًا وَلَعِبًا) بيان لاستهزائهم بحكم خاص من أحكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على الاطلاق اظهارا لكمال شقاوتهم . روى أن نصرانيا بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمدا رسول الله يقول أحرق الله الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطايرت منه شرارة فى البيت فأحرقته وأهله جميعا (ذَٰلِكَ) أى الاستهزاء المذكور (بِأَنَّهُمْ) بسبب أنهم (قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) فان السفه يؤدى الى الجهل بمحاسن الحق والهزؤ به ولو كان لهم عقل فى الجملة لما اجترءوا على تلك العظيمة (قُلْ) أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق تلوين الخطاب بعد نهى المؤمنين عن تولى المستهزئين بأن يخاطبهم ويبين أن الدين منزه عما يصحح صدور ما صدر عنهم من الاستهزاء ويظهر لهم سبب ما ارتكبوه ويلقمهم الحجر أى قل لأولئك الفجرة (يَٰأَهْلَ الْكِتَٰبِ) وصفوا بأهلية الكتاب تمهيدا لما سيأتى من تبكيتهم والزامهم بكفرهم بكتابهم (هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا) من نقم منه كذا اذا عابه وأنكره وكرهه ينقمه من حد ضرب وقرىء بفتح القاف من حد علم وهى أيضا لغة أى ما تعيبون وما تنكرون منا (إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا) من القرآن المجيد (وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ) أى من قبل انزاله من التوراة والانجيل المنزلين عليكم وسائر الكتب الإلهية (وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ) أى متمردون خارجون عن الإيمان بما ذكر فان الكفر بالقرآن مستلزم للكفر بما يصدقه لا محالة وهو عطف على أن آمنا على أنه مفعول له لتنقمون والمفعول الذى هو الدين محذوف ثقة بدلالة ما قبله وما بعده عليه دلالة واضحة فان اتخاذ الدين هزوا ولعبا عين نقمه وانكاره والإيمان بما فصل عين الدين الذى نقموه خلا أنه أبرز فى معرض علة نقمهم له تسجيلا عليهم بكمال المكابرة والتعكيس حيث جعلوه موجبا لنقمه مع كونه فى نفسه موجبا لقبوله وارتضائه فالاستثناء من أعم العلل أى ما تنقمون منا دينا لعلة من العلل الا لأن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل من كتبكم ولأن أكثركم متمردون غير مؤمنين بواحد مما ذكر حتى لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطق بصحة كتابنا لآمنتم به وإسناد الفسق إلى أكثرهم لأنهم الحاملون لأعقابهم على التمرد والعناد وقيل عطف عليه على أنه مفعول لتنقمون منا لكن لا على أن المستثنى مجموع المعطوفين بل هو ما يلزمهما من المخالفة كأنه قيل ما تنقمون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا الايمان وأنتم خارجون عنه وقيل على حذف المضاف أى واعتقاد أن أكثركم فاسقون وقيل عطف على ما أى ما تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وبأنكم فاسقون وقيل عطف على علة محذوفة أى لقلة انصافكم ولأن أكثركم فاسقون وقيل الواو بمعنى مع أى ما تنقمون منا إلا الايمان مع أن أكثركم الخ وقيل هو منصوب بفعل مقدر دل عليه المذكور أى ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف أى وفسقكم معلوم أى ثابت والجملة حالية أو معترضة وقرىء بأن المكسورة والجملة مستأنفة مبينة لكون أكثرهم فاسقين متمردين (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ) لما أمر عليه الصلاة والسلام بالزامهم وتبكيتهم ببيان أن مدار نقمهم للدين إنما هو اشتماله على ما يوجب ارتضاءه عندهم أيضا وكفرهم بما هو مسلم لهم أمر عليه الصلاة والسلام عقيبه بأن يبكتهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب حقيقة ما هم عليه من الدين المحرف وينعى عليهم فى ضمن البيان جناياتهم وما حاق بهم من تبعاتها وعقوباتها على منهاج التعريض لئلا يحملهم التصريح بذلك على ركوب متن المكابرة والعناد ويخاطبهم قبل البيان بما ينبىء عن عظم شأن المبين ويستدعى إقبالهم على تلقيه من الجملة الاستفهامية المشوقة إلى المخبر به والتنبئة المشعرة بكونه أمرا خطيرا لما أن النبأ هو الخبر الذى له شأن وخطر وحيث كان مناط النقم شرية المنقوم حقيقة أو اعتقادا وكان مجرد النقم غير مفيد

لشريته البتة قيل بشر من ذلك ولم يقل بأنقم من ذلك تحقيقا للشرية ماسيذكر وزيادة تقرير لها وقيل إنما قيل ذلك لوقوعه في عبارة المخاطبين حيث أتى نفر من اليهود فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دينه فقال عليه الصلاة والسلام أومن بالله وما أنزل إلينا إلى قوله ونحن له مسلمون فحين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام قالوا لا نعلم شرا من دينكم وإنما اعتبر الشرية بالنسبة إلى الدين وهو منزه عن شائبة الشرية بالكلية مجاراة معهم على زعمهم الباطل المنعقد على كمال شريته ليثبت أن دينهم شر من كل شر أى هل أخبركم بما هو شر فى الحقيقة مما تعتقدونه شرا وإن كان فى نفسه خيرا محضا (مَثُوبَةً عِندَ اللهِ) أى جزاء ثابتا فى حكمه وقرىء مثوبة وهى لغة فيها كمشورة ومشورة وهى مختصة بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر وإنما وضعت ههنا موضعها على طريقة قوله: تحية بينهم ضرب وجيع ونصبها على التمييز من بشر وقوله عز وجل (مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ) خبر لمبتدا محذوف بتقدير مضاف قبله مناسب لما أشير إليه بكلمة ذلك أى دين من لعنه الخ أو بتقدير مضاف قبلها مناسب لمن أى بشر من أهل ذلك والجملة على التقديرين استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الجملة الاستفهامية اما على حالها وهو الظاهر المناسب لسياق النظم الكريم واما باعتبار التقدير فيها فكأنه قيل ما الذى هو شر من ذلك فقيل هو دين من لعنه الله الخ أو قيل فى السؤال من ذا الذى هو شر من أهل ذلك فقيل هو من لعنه الله ووضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة وتهويل أمر اللعن وما تبعه والموصول عبارة عن المخاطبين حيث أبعدهم الله تعالى من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم فى المعاصى بعد وضوح الآيات وسنوح البينات (وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ) أى مسخ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم كفار مائدة عيسى عليه السلام وقيل كلا المسخين فى أصحاب السبت مسخت شبانهم قردة وشيوخهم خنازير وجمع الضمير الراجع إلى الموصول فى منهم باعتبار معناه كما أن افراد الضميرين الأولين باعتبار لفظه وإيثار وضعه موضع ضمير الخطاب المناسب لأنبئكم للقصد إلى إثبات الشرية بما عدد فى حيز صلته من الأمور الهائلة الموجبة لها على الطريقة البرهانية مع ما فيه من الاحتراز عن تهييج لجاجهم (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) عطف على صلة من وافراد الضمير لما مر وكذا عبد الطاغوت على قراءة البناء للمفعول ورفع الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بمعنى صار معبودا فالراجع إلى الموصول محذوف على القراءتين أى عبد فيهم أو بينهم وتقديم أوصافهم المذكورة بصدد اثبات شرية دينهم على وصفهم هذا مع أنه الاصل المستتبع لها فى الوجود وان دلالته على شريته بالذات لأن عبادة الطاغوت عين دينهم البين البطلان ودلالتها عليها بطريق الاستدلال بشرية الآثار على شرية ما يوجبها من الاعتقاد والعمل اما للقصد إلى تبكيتهم من أول الأمر بوصفهم بما لا سبيل لهم إلى الجحود لا بشريته وفظاعته ولا باتصافهم به وإما للايذان باستقلال كل من المقدم والمؤخر بالدلالة على ما ذكر من الشرية ولو روعى ترتيب الوجود وقيل من عبد الطاغوت ولعنه الله وغضب عليه الخ لربما فهم ان علة الشرية هو المجموع، وقد قرىء عابد الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بالإضافة على أنه نعت كفطن ويقظ وكذا عبدة الطاغوت بالإضافة على أنه جمع عابد كخدم أو على أن أصله عبدة حذفت تاؤه للاضافة بالنصب فى الكل عطفا على القردة والخنازير وقرىء وعبد الطاغوت بالجر عطفا على من بناء على أنه مجرور بتقدير المضاف وقد قيل إن من مجرور على أنه بدل من شر على أحد الوجهين المذكورين فى تقدير المضاف وأنت خبير بأن ذلك مع اقتضائه اخلاء النظم الكريم عن المزايا المذكورة بالمرة مما لا سبيل إليه قطعا ضرورة أن المقصود الأصلى ليس مضمون الجملة الاستفهامية بل هو كما مر مقدمة سيقت أمام المقصود لهز المخاطبين وتوجيه أذهانهم نحو تلقى ما يلقى إليهم عقيبها بجملة خبرية موافقة فى الكيفية للسؤال الناشىء عنها وهو المقصود بإفادته وعليه يدور ذلك الإلزام والتبكيت حسبما شرح فاذا جعل الموصول

بما فى حيز صلته من تتمة الجملة الاستفهامية فإن الذى يلقى اليهم عقيبها جوابا عما نشأ منها من السؤال ليحصل به الالزام والتبكيت وأما الجملة الآتية فبمعزل من صلاحية الجواب كيف لا ولابد من موافقته فى الكيفية للسؤال الناشىء عن الجملة الاستفهامية وقد عرفت أن السؤال الناشىء عنها يستدعى وقوع الشر من تتمة المخبر عنه لاخبرا كما فى الجملة المذكورة وسيتضح ذلك مزيد اتضاح باذن الله تعالى والمراد بالطاغوت العجل وقيل هو الكهنة وكل من أطاعوه فى معصية الله عز وجل فيعم الحكم دين النصارى أيضاً ويتضح وجه تأخير ذكر عبادته عن العقوبات المذكورة إذ لو قدمت عليها لتوهم اشتراك الفريقين فى تلك العقوبات ولما كان مآل ماذكر بصدد التبكيت أن ماهو شر مما نقموه دينهم أو أن من هو شر من أهل مانقموه أنفسهم بحسب ماقدر من المضافين وكانت الشرية على كلا الوجهين من تتمة الموضوع غير مقصودة الاثبات لدينهم أو لأنفسهم عقب ذلك باثباتها لهم على وجه يشعر بعلية ماذكر من القبائح لثبوتها لهم بجملة مستأنفة مسوقة من جهته سبحانه شهادة عليهم بكمال الشرارة والضلال أو داخلة تحت الأمر تأكيدا للالزام وتشديدا للتبكيت فقيل (أولٰئك شرٌّ مَكاناً) فاسم الاشارة عبارة عمن ذكرت صفاتهم الخبيثة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشرارة أى أولئك الموصوفون بتلك القبائح والفضائح شر مكانهم جعل مكانا شر اليكون أبلغ فى الدلالة على شرارتهم وقيل شر مكانا أى منصرفا (وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) عطف على شر مقرر له أى أكثر ضلالا عن الطريق المستقيم وفيه دلالة على كون دينهم شرا محضا بعيدا عن الحق لأن مايسلكونه من الطريق دينهم فاذا كانوا أضل كان دينهم ضلالا مبينا لاغاية وراءه وصيغة التفضيل فى الموضعين للزيادة مطلقا لا بالاضافة إلى من يشاركهم فى أصل الشرارة والضلال (وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا) نزلت فى ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويظهرون له الإيمان نفاقا فالخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والجمع للتعظيم أوله مع من عنده من المسلمين أى إذا جاءوكم أظهروا الإسلام (وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ) أى يخرجون من عندك ملتبسين بالكفر كما دخلوا لم يؤثر فيهم ماسمعوا منك والجملتان حالان من فاعل قالوا وبالكفر وبه حالان من فاعل دخلوا وخرجوا وقد وإن دخلت لتقريب الماضى من الحال ليصح أن يقع حالا أفادت أيضا بما فيها من معنى التوقع أن أمارات النفاق كانت لائحة وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يظنه ويتوقع أن يظهره الله تعالى ولذلك قيل (وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ) أى من الكفر وفيه وعيد شديد لهم (وَتَرَى) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب والرؤية بصرية (كَثِيرًا مِنْهُمْ) من اليهود والمنافقين وقوله تعالى (يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ) حال من كثيرا وقيل مفعول ثان والرؤية قلبية والأول أنسب بحالهم وظهور نفاقهم والمسارعة المبادرة والمباشرة للشىء بسرعة وايثار كلمة فى على كلمة إلى الواقعة فى قوله تعالى وسارعوا إلى مغفرة الخ لما ذكر فى قوله تعالى فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم والمراد بالاثم الكذب على الاطلاق وقيل الحرام وقيل كلمة الشرك وقولهم عزير ابن الله وقيل هو مايختص بهم من الآثام (وَالْعُدْوَانِ) أى الظلم المتعدى إلى الغير أو مجاوزة الحد فى المعاصى (وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ) أى الحرام خصه بالذكر مع اندراجه فى الاثم للمبالغة فى التقبيح (لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى لبئس شيأ كانوا يعملونه والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ) قال الحسن الربانيون علماء الانجيل والاحبار علماء التوراة وقيل كلهم فى اليهود وهو تحضيض للذين يقتدى بهم أفناؤهم ويعلمون قباحة ماهم فيه وسوء مغبته على نهى أسافلهم عن ذلك مع توبيخ لهم على تركه (عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ) مع علمهم بقبحهما ومشاهدتهم لمباشرتهم لهما (لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) وهذا أبلغ مما قيل فى حق عامتهم لما أن العمل لا يبلغ درجة

الصنع مالم يتدرب فيه صاحبه ولم يحصل فيه مهارة تامة ولذلك ذم به خواصهم ولأن ترك الحسنة أقبح من مواقعة المعصية لأن النفس تلتذ بها وتميل اليها ولا كذلك ترك الانكار عليها فكان جديرا بأبلغ ذم وفيه مما ينعى على العلماء توانيهم فى النهى عن المنكرات مالا يخفى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها أشد آية فى القرآن وعن الضحاك مافى القرآن آية أخوف عندى منها (وَقَالَتِ الْيَهُودُ) قال ابن عباس وعكرمة والضحاك إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله سبحانه بأن كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبوه كف عنهم ما بسط عليهم فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء (يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ) وحيث لم ينكر عليه الآخرون ورضوا به نسبت تلك العظمة إلى الكل كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وإنما القاتل واحد منهم وأرادوا بذلك لعنهم الله أنه تعالى ممسك يقتر بالرزق فان كلا من غل اليد وبسطها مجاز عن محض البخل والجود من غير قصد فى ذلك إلى اثبات يد وغل أو بسط ألا يرى أنهم يستعملونه حيث لا يتصور فيه ذلك كما فى قوله تعالى .

جاد الحمى بسط اليدين بوابل   شكرت نداه تلاعه ووهاده

وقد سلك لبيد هذا المسلك السديد حيث قال :

وغداة ريح قد شهدت وقرة   إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فانه إنما أراد بذلك اثبات القدرة التامة للشمال على التصرف فى القرة كيفما تشاء على طريقة المجاز من غير أن يخطر بباله أن يثبت لها يدا ولا للقرة زماما وأصله كناية فيمن يجوز عليه إرادة المعنى الحقيقى كما مر فى قوله تعالى ولا ينظر اليهم يوم القيامة فى سورة آل عمران وقيل أرادوا ما حكى عنهم بقوله تعالى لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ) دعاء عليهم بالبخل المذموم والمسكنة أو بالفقر والنكد أو بغل الأيدى حقيقة بأن يكونوا أسارى مغلولين فى الدنيا ويسحبوا إلى النار بأغلالها فى الآخرة فتكون المطابقة حينئذ من حيث اللفظ وملاحظة المعنى الاصلى كما فى سبنى سب الله دابره (وَلُعِنُوا) عطف على الدعاء الاول أى أبعدوا من رحمة الله تعالى (بِمَا قَالُوا) أى بسبب ماقالوا من الكلمة الشنعاء وقيل كلاهما خبر (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) عطف على مقدر يقتضيه المقام أى كلا ليس كذلك بل هو فى غاية ما يكون من الجود واليه أشير بتثنية اليد فان أقصى ماينتهى اليه همم الاسخياء أن يعطوا ما يعطونه بكلتا يديهم وقيل التثنية للتنبيه على منحه تعالى لنعمتى الدنيا والآخرة وقيل على إعطائه إكراما وعلى اعطائه استدراجا (يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) جملة مستأنفة واردة لتأكيد كمال جوده وللتنبيه على سر ما ابتلوا به من الضيق الذى اتخذوه من غاية جهلهم وضلالهم ذريعة إلى الاجتراء على تلك الكفرة العظيمة والمعنى أن ذلك ليس لقصور فى فيضه بل لان انفاقه تابع لمشيئته المبنية على الحكم التى عليها يدور أمر المعاش والمعاد وقد اقتضت الحكمة بسبب مافيهم من شؤم المعاصى أن يضيق عليهم كما أشير اليه بما سيأتى من قوله عز وجل ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل الآية وكيف ظرف ليشاء والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير ينفق أى ينفق كائنا على أى حال يشاء أى كائنا على مشيئته أى مريدا وترك ذكر ما ينفقه لقصد التعميم (وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ) وهم علماؤهم ورؤساؤهم (مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) من القرآن المشتمل على هذه الآيات وتقديم المفعول للاعتناء به وتخصيص الكثير منهم بهذا الحكم لما أن بعضهم ليس كذلك (مِنْ رَبِّكَ) متعلق بأنزل كما أن اليك كذلك وتأخيره عنه مع أن حق المبدأ أن يتقدم على المنتهى لاقتضاء المقام الاهتمام ببيان المنتهى لان مدار الزيادة هو النزول اليه عليه السلام كما فى قوله تعالى وأنزل لكم من السماء ماء والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة الى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام (طُغْيَانًا وَكُفْرًا) مفعول ثان للزيادة أى ليزيدنهم طغيانا على طغيانهم

وكفرا على كفرهم القديمين امامن حيث الشدة والغلو وامامن حيث الكم والكثرة إذ كلما نزلت آية كفروا بها نيزداد
طغيانهم وكفرهم بحسب المقدار كما أن الطعام الصالح للاصحاء يزيد المرضى مرضا (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ) أى بين اليهود فان
بعضهم جبرية وبعضهم قدرية وبعضهم مرجئة وبعضهم مشبهة (الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ) فلا يكاد تتوافق قلوبهم ولا
تتطابق أقوالهم والجملة مبتدأة مسوقة لازاحة ماعسى يتوهم من ذكر طغيانهم وكفرهم من الاجتماع على أمر يؤدى إلى
الاضرار بالمسلمين قيل العداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو مبغض بلاعكس كلى (إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) متعلق
بألقينا وقيل بالبغضاء (كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ) تصريح بما أشير اليه من عدم وصول غائلة ماهم فيه
إلى المسلمين أى كلما أرادوا محاربة الرسول عليه الصلاة والسلام ورتبوا مباديها وركبوا فى ذلك متن كل صعب
وذلول ردهم الله تعالى وقهرهم أو كلما أرادوا حرب أحد غلبوا فانهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله تعالى عليهم
بخت نصر ثم أفسدوا فسلط الله عليهم فطرس الرومى ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين
وللحرب اما صلة لأوقدوا أو متعلق بمحذوف وقع صفة لنارا أى كائنة للحرب (وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا) أى
يجتهدون فى الكيد للاسلام وأهله وإثارة الشر والفتنة فيما بينهم مما يغاير ماعبر عنه بايقاد نار الحرب وفسادا اما مفعول له
أو فى موقع المصدر أى يسعون للفساد أو يسعون سعى فساد (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) ولذلك أطفأ نائرة افسادهم
واللام اما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا واما للعهد ووضع المظهر مقام الضمير للتعليل وبيان كونهم راسخين
فى الافساد (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ) أى اليهود والنصارى على أن المراد بالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والانجيل
وإنما ذكروا بذلك العنوان تأكيدا للتشنيع فان أهلية الكتاب توجب إيمانهم به وإقامتهم له لامحالة فكفرهم به وعدم
إقامتهم له وهم أهله أقبح من كل قبيح وأشنع من كل شنيع فمفعول قوله تعالى (آمَنُوا) محذوف ثقة بظهوره مما سبق من
قوله تعالى هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثرهم فاسقون وما لحق من قوله تعالى
ولو أنهم أقاموا التوراة الخ أى ولو أنهم مع صدور ماصدر عنهم من فنون الجنايات قولا وفعلا آمنوا بمانفى عنهم الإيمان به
فيندرج فيه فرض ايمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وأما إرادة إيمانهم به عليه السلام خاصة فيأباها المقام لأن
ماذكر فيما سبق وما لحق من كفرهم به عليه السلام انما ذكر مشفوعا بكفرهم بكتابهم أيضا قصدا إلى الالزام والتبكيت
ببيان أن الكفر به عليه الصلاة والسلام مستلزم للكفر بكتابهم فحمل الايمان ههنا على الايمان به عليه السلام خاصة
مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم (وَاتَّقَوْا) ماعددنا من معاصيهم التى من جملتها مخالفة كتابهم (لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ) التى اقترفوها وإن كانت فى غاية العظم ونهاية الكثرة ولم نؤاخذهم بها (وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ) مع ذلك (جَنَّاتِ
النَّعِيمِ) وتكرير اللام لتأكيد الوعد وفيه تنبيه على كمال عظم ذنوبهم وكثرة معاصيهم وأن الاسلام يجب ماقبله من
السيئات وان جلت وجاوزت كل حد معهود (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ) بمراعاة مافيهما من الأحكام التى
من جملتها شواهد نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ومبشرات بعثته فان اقامتهما إنما تكون بذلك لا بمراعاة جميع مافيهما
من الأحكام لانتساخ بعضها بنزول القرآن فليست مراعاة الكل من إقامتهما فى شىء (وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ)
من القرآن المجيد المصدق لكتبهم وإيراده بهذا العنوان للايذان بوجوب إقامته عليهم لنزوله اليهم وللتصريح ببطلان
ماكانوا يدعونه من عدم نزوله إلى بنى اسرائيل وتقديم اليهم لما مر من قبل وفى اضافة الرب إلى ضميرهم مزيد لطف بهم فى
الدعوة إلى الاقامة وقيل المراد بما أنزل اليهم كتب أنبياء بنى اسرائيل مثل كتاب شعياء وكتاب حنقوق وكتاب دانيال
فانها مملوءة بالبشارة ببعثه صلى الله عليه وسلم (لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم) أى لوسع عليهم أرزاقهم بأن

يفيض عليهم بركات السماء والأرض أو بأن يكثر ثمرات الاشجار وغلال الزروع أو بأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار
فيجتنوا ماتهدل منها من رؤس الأشجار ويلتقطوا ما تساقط منها على الأرض وقيل المراد المبالغة فى شرح السعة والخصب
لاتعيين الجهتين كأنه قيل لأكلوا من كل جهة ومفعول أكلوا محذوف لقصد التعميم أو للقصد إلى نفس الفعل كما فى قوله
فلان يعطى ويمنع ومن فى الموضعين لابتداء الغاية وفى هاتين الشرطيتين من حثهم على ماذكر من الايمان والتقوى
والاقامة بالوعد بنيل سعادة الدارين وزجرهم عن الاخلال به بماذكر ببيان افضائه إلى الحرمان عنها وتنبيههم على أن
ماأصابهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جناياتهم لالقصور فى فيض الفياض مالايخفى (مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ)
جملة مستأنفة مبنية على سؤال نشأ من مضمون الجملتين المصدرتين بحرف الامتناع الدالتين على انتفاء الايمان والاتقاء
وإقامة الكتب المنزلة من أهل الكتاب كأنه قيل هل كلهم كذلك مصرون على عدم الايمان الخ فقيل منهم أمة مقتصدة
اما على أن منهم مبتدأ باعتبار مضمونه أى بعضهم أمة واما بتقدير الموصوف أى بعض كائن منهم كما مر فى قوله تعالى ومن
الناس من يقول آمنا بالله الآية أى طائفة معتدلة وهم المؤمنون منهم كعبدالله بن سلام وأضرابه وثمانية وأربعون من
النصارى وقيل طائفة حالهم امم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ) مبتدأ لتخصصه بالصفة خبره
(سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) أى مقول فى حقهم هذا القول أى بئسما يعملون وفيه معنى التعجب أى ماأسوأ عملهم من العناد
والمكابرة وتحريف الحق والاعراض عنه والافراط فى العداوة وهم الاجلاف المتعصبون ككعب بن الاشرف
وأشباهه والروم (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ) نودى عليه السلام بعنوان الرسالة تشريفا له وإيذانا بأنها من موجبات الاتيان
بما أمر به من تبليغ ما أوحى اليه (بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) أى جميع ما أنزل اليك من الأحكام ومايتعلق بها كائنا ما كان
وفى قوله تعالى (مِنْ رَبِّكَ) أى مالك أمورك ومبلغك إلى كمالك اللائق بك عدة ضمنية بحفظه عليه السلام وكلأته
أى بلغه غير مراقب فى ذلك أحدا ولاخائف أن ينالك مكروه أبدا (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ) ماأمرت به من تبليغ الجميع بالمعنى
المذكور كما ينبيء عنه قوله تعالى (فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) فان مالاتتعلق به الأحكام أصلا من الاسرار الخفية ليست مما
يقصد تبليغه إلى الناس أى فما بلغت شيئا من رسالته وانسلخت مما شرفت به من عنوان الرسالة بالمرة لما أن بعضها ليس
أولى بالأداء من بعض فاذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها
لادلاء كل منها بما يدليه غيرها وكونها لذلك فى حكم شيء واحد ولاريب فى أن الواحد لايكون مبلغا غير مبلغ مؤمنا به
غير مؤمن به ولأن كتمان بعضها اضاعة لما أدى منها كترك بعض أركان الصلاة فان غرض الدعوة ينتقض بذلك وقيل
فكأنك مابلغت شيئا منها كقوله تعالى فكأنما قتل الناس جميعا من حيث أن كتمان البعض والكل سواء فى الشناعة
واستجلاب العقاب وقرىء فما بلغت رسالاتى وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان كتمت آية لم تبلغ رسالاتى وروى عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى الله برسالاته فضقت بها ذرعا فأوحى الله إلى ان لم تبلغ رسالاتى عذبتك وضمن لى
العصمة فقويت وذلك قوله تعالى (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) فانه كما ترى عدة كريمة بعصمته من لحوق ضررهم
بروحه العزيز باعثة له عليه السلام على الجد فى تحقيق ماأمر به من التبليغ غير مكترث بعداوتهم وكيدهم وعن أنس
رضى الله عنه أنه عليه السلام كان يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدم فقال انصرفوا ياأيها الناس فقد عصمنى
الله من الناس وقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) تعليل لعصمته تعالى له عليه السلام أى لايمكنهم
مما يريدون بك من الإضرار وايراد الآية الكريمة فى تضاعيف الآيات الواردة فى حق أهل الكتاب لما أن الكل
قوارع يسوء الكفار سماعها ويشق على الرسول صلى الله عليه وسلم مشافهتهم بها وخصوصا مايتلوها من النص الناعي

عليهم كمال ضلالتهم ولذلك أعيد الأمر فقيل (قُلْ يَأَهْلَ الكِتَبِ) مخاطبا للفريقين (لَسْتُمْ عَلَى شَىْءٍ) أى دين يعتد به ويليق بأن يسمى شيئا لظهور بطلانه ووضوح فساده وفى هذا التعبير من التحقير والتصغير مالا غاية وراءه (حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَيةَ وَالإِنجِيلَ) أى تراعوهما، تحافظوا على مافيهما من الأمور التى من جملتها دلائل رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وشواهد نبوته فان اقامتهما إنما تكون بذلك وأما مراعاة أحكامهما المنسوخة فليست من اقامتهما فى شىء بل هى تعطيل لهما ورد لشهادتهما لأنهما شاهدان بنسخها وانتهاء وقت العمل بها لأن شهادتهما بصحة ماينسخها شهادة بنسخها وخروجها عن كونها من أحكامهما وأن أحكامهما ماقرره النبى الذى بشر فيهما ببعثته وذكر فى تضاعيفهما نعوته فاذن اقامتهما بيان شواهد النبوة والعمل بما قرره الشريعة من الأحكام كما يفصح عنه قوله تعالى (وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ) أى القرآن المجيد بالايمان به فان اقامة الجميع لا تتأتى بغير ذلك وتقديم اقامة الكتابين على اقامته مع أنها المقصودة بالذات لرعاية حق الشهادة واستنزالهم عن رتبة الشقاق وايراده بعنوان الانزال اليهم لما مر من التصريح بأنهم مأمورون باقامته والإيمان به لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب وفى اضافة الرب إلى ضميرهم ماأشير اليه من اللطف فى الدعوة وقيل المراد بما أنزل اليهم كتب أنبياء بنى اسرائيل كما مر وقيل الكتب الالهية فانها بأسرها آمرة بالايمان لمن صدقته المعجزة ناطقة بوجوب الطاعة له . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن جماعة من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تقرأ أن التوراة حق من عند الله تعالى فقال عليه السلام بلى فقالوا فانا مؤمنون بها ولا نؤمن بغيرها فنزلت وقوله تعالى (وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَنًا وَكُفْرًا) جملة مستأنفة مبينة لشدة شكيمتهم وغلوهم فى المكابرة والعناد وعدم افادة التبليغ نفعا وتصديرها بالقسم لتأكيد مضمونها وتحقيق مدلولها والمراد بالكثير المذكور علماؤهم ورؤساؤهم ونسبة الانزال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع نسبته فيما مر اليهم للانباء عن انسلاخهم عن تلك النسبة (فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَفِرِينَ) أى لاتتأسف ولاتحزن عليهم لافراطهم فى الطغيان والكفر بما تبلغه اليهم فان غائلته آيلة اليهم وتبعته حائقة بهم لاتتخطاهم وفى المؤمنين مندوحة لك عنهم ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالرسوخ فى الكفر (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا) كلام مستأنف مسوق لترغيب من عدا المذكورين فى الايمان والعمل الصالح أى الذين آمنوا بألسنتهم فقط وهم المنافقون وقيل أعم من أن يواطئها قلوبهم أولا (وَالَّذِينَ هَادُوا) أى دخلوا فى اليهودية (وَالصَّبِئُونَ وَالنَّصَرَى) جمع نصران وقد مر تفصيله فى سورة البقرة وقوله تعالى والصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخر عما فى حيز ان والتقدير ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كيت وكيت والصابئون كذلك كقوله : فانى وقيار بها لغريب وقوله :

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة مابقينا فى شقاق

خلا أنه وسط بين اسم ان وخبرها دلالة على أن الصابئين مع ظهور ضلالهم وزيغهم عن الأديان كلها حيث قبلت توبتهم ان صح منهم الايمان والعمل الصالح فغيرهم أولى بذلك وقيل الجملة الآتية خبر للمبتدا المذكور وخبر ان مقدر كما فى قوله :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقيل النصارى مرفوع على الابتداء كقوله تعالى والصابئون عطفا عليه وهو مع خبره عطف على الجملة المصدرة بان ولا مساغ لعطفه وحده على محل ان واسمها لاشتراط ذلك بالفراغ عن الخبر والا لارتفع الخبر بان والابتداء معا واعتذر عنه بأن ذلك اذا كان المذكور خبرا لهما وأما إذا كان خبر المعطوف محذوفا فلا محذور فيه ولا على الضمير فى هادوا لعدم التأكيد والفصل ولاستلزامه كون الصابئين هودا وقرىء والصابيون بياء صريحة بتخفيف الهمزة وقرىء والصابون

وهو من صبا يصبو لأنهم صبوا إلى اتباع الهوى والشهوات فى دينهم وقرىء والصابئين وقرىء يا أيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون وقوله تعالى (مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا) إما فى محل الرفع على أنه مبتدأ خبره (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط وجمع الضمائر الأخيرة باعتبار معنى الموصول كما أن إفراد ما فى صلته باعتبار لفظه والجملة خبر إن والعائد إلى اسمها محذوف أى من آمن منهم وإما فى محل النصب على أنه بدل من اسم إن وما عطف عليه والخبر قوله تعالى فلا خوف والفاء كما فى قوله عز وعلا إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم الآية فالمعنى على تقدير كون المراد بالذين آمنوا المنافقين وهو الأظهر من أحدث من هذه الطوائف إيمانا خالصا بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق لا كما يزعمه أهل الكتاب فإن ذلك بمعزل من أن يكون إيمانا بهما وعمل عملا صالحا حسبما يقتضيه الإيمان بهما فلا خوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب ولا هم يحزنون حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا لأن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام وأما على تقدير كون المراد بالذين آمنوا مطلق المتدينين بدين الإسلام المخلصين منهم والمنافقين فالمراد بمن آمن من اتصف منهم بالإيمان الخالص بالمبدأ والمعاد على الإطلاق سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كما هو شأن المخلصين أو بطريق إحداثه وإنشائه كما هو حال من عداهم من المنافقين وسائر الطوائف وفائدة التعميم للمخلصين المبالغة فى ترغيب الباقين فى الإيمان ببيان أن تأخرهم فى الاتصاف به غير مخل بكونهم أسوة لأولئك الأقدمين الأعلام وأما ما قيل المعنى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فمما لا سبيل إليه أصلا كما مر تفصيله فى سورة البقرة (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) كلام مبتدأ مسوق لبيان بعض آخر من جناياتهم المنادية باستبعاد الإيمان منهم أى بالله لقد أخذنا ميثاقهم بالتوحيد وسائر الشرائع والأحكام المكتوبة عليهم فى التوراة (وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا) ذوى عدد كثير وأولى شأن خطير ليقرروهم على مراعاة حقوق الميثاق ويطلعوهم على ما يأتون ويذرون فى دينهم ويتعهدوهم بالعظة والتذكير وقوله تعالى (كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ) جملة شرطية مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الإخبار بأخذ الميثاق وإرسال الرسل وجواب الشرط محذوف كأنه قيل فماذا فعلوا بالرسل فقيل كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما لا تحبه أنفسهم المنهمكة فى الغى والفساد من الأحكام الحقة والشرائع عصوه وعادوه وقوله تعالى (فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) جواب مستأنف عن استفسار كيفية ما أظهروه من آثار المخالفة المفهومة من الشرطية على طريقة الإجمال كأنه قيل كيف فعلوا بهم فقيل فريقا منهم كذبوهم من غير أن يتعرضوا لهم بشىء آخر من المضار وفريقا آخر منهم لم يكتفوا بتكذيبهم بل قتلوهم أيضا وإنما أوثر عليه صيغة المضارع على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها الهائلة للتعجيب منها وللتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر وللمحافظة على رؤس الآى الكريمة وتقديم فريقا فى الموضعين للاهتمام به وتشويق السامع إلى ما فعلوا به لا للقصر هذا وأما جعل الشرطية صفة لرسلا كما ذهب إليه الجمهور فلا يساعده المقام أصلا ضرورة أن الجملة الخبرية إذا جعلت صفة أو صلة ينسلخ ما فيها من الحكم وتجعل عنوانا للموصوف تتمة له فى إثبات أمر آخر له ولذلك يجب أن يكون الوصف معلوم الانتساب إلى الموصوف عند السامع قبل جعله وصفا له ومن ههنا قالوا إن الصفات قبل العلم بها أخبار والأخبار بعد العلم بها أوصاف ولا ريب فى أن ما سيق له النظم إنما هو بيان أنهم جعلوا كل من جاءهم من رسل الله تعالى عرضة للقتل أو التكذيب حسبما يفيده جعلها استئنافا على أبلغ وجه وآكده لا بيان أنه تعالى أرسل إليهم رسلا

موصوفين بكون كل منهم كذلك كما هو مقتضى جعلها صفة (وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ) أى حسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم من الله تعالى بما أوتوا من الداهية الدهياء والخطة الشنعاء بلاء وعذاب وقرىء لا تكون بالرفع على أن أن هى المخففة من أن واسمها ضمير الشأن المحذوف وأصله أنه لا تكون فتنة وتعليق فعل الحسبان بها وهى للتحقيق لتنزيله منزلة العلم لكمال قوته وأن بما فى حيزها سادمسد مفعوليه (فَعَمُوا) عطف على حسبوا والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها أى أمنوا بأس الله تعالى فتمادوا فى فنون الغى والفساد وعموا عن الدين بعدما هداهم الرسل إلى معالمه الظاهرة وبينوا لهم مناهجه الواضحة (وَصَمُّوا) عن استماع الحق الذى ألقوه عليهم ولذلك فعلوا بهم ما فعلوا وهذا إشارة إلى المرة الأولى من مرتى إفساد بنى إسرائيل حين خالفوا أحكام التوراة وركبوا المحارم وقتلوا أشعياء وقيل حبسوا أرمياء عليهما السلام لا إلى عبادتهم العجل كما قيل فإنها وإن كانت معصية عظيمة ناشئة عن كمال العمى والصمم لكنها فى عصر موسى عليه السلام ولا تعلق لها بما حكى عنهم مما فعلوا بالرسل الذين جاؤوهم بعده عليه السلام بأعصار (ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد بعدما كانوا ببابل دهرا طويلا تحت قهر بخت نصر أسارى فى غاية الذل والمهانة فوجه الله عز وجل ملكا عظيما من ملوك فارس إلى بيت المقدس ليعمره ونجى بقايا بنى إسرائيل من أسر بخت نصر بعد مهلكه وردهم إلى وطنهم وتراجع من تفرق منهم فى الأكناف فعمروه ثلاثين سنة فكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا عليه وقيل لما ورث بهمن ابن اسفنديار الملك من جده كشتاسف ألقى الله عز وجل فى قلبه شفقة عليهم فردهم إلى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من أتباع بخت نصر فقامت فيهم الأنبياء فرجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه من الحال وذلك قوله تعالى ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأما ما قيل من أن المراد قبول توبتهم عن عبادة العجل فقد عرفت أن ذلك لا تعلق له بالمقام ولم يسند التوبة إليهم كسائر أحوالهم من الحسبان والعمى والصمم تجافيا عن التصريح بنسبة الخير إليهم وإنما أشير إليها فى ضمن بيان توبته تعالى عليهم تمهيدا لبيان نقضهم إياها بقوله تعالى (ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا) وهو إشارة إلى المرة الآخرة من مرتى إفسادهم وهو اجتراؤهم على قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام لا إلى طلبهم الرؤية كما قيل لما عرفت سره فإن فنون الجنايات الصادرة عنهم لا تكاد تتناهى خلا أن انحصار ما حكى عنهم ههنا فى المرتين وترتبه على حكاية ما فعلوا بالرسل عليهم السلام يقضى بأن المراد ما ذكرناه والله عنده علم الكتاب وقرىء عموا وصموا بالضم على تقدير عماهم الله وصمهم أى رماهم وضربهم بالعمى والصمم كما يقال نزكته إذا ضربته بالنيزك وركبته إذا ضربته بركبتك وقوله تعالى (كَثِيرٌ مِنْهُمْ) بدل من الضمير فى الفعلين وقيل خبر مبتدأ محذوف أى أولئك كثير منهم (وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) أى بما عملوا وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورتها الفظيعة ورعاية للفواصل والجملة تذييل أشير به إلى بطلان حسبانهم المذكور ووقوع العذاب من حيث لم يحتسبوا إشارة إجمالية اكتفى بها تعويلا على ما فصل نوع تفصيل فى سورة بنى إسرائيل والمعنى حسبوا أن لا يصيبهم عذاب ففعلوا ما فعلوا من الجنايات العظيمة المستوجبة لأشد العقوبات والله بصير بتفاصيلها فكيف لا يؤاخذهم بها ومن أين لهم ذلك الحسبان الباطل ولقد وقع ذلك فى المرة الأولى حيث سلط الله تعالى عليهم بخت نصر عامل لهراسب على بابل وقيل جالوت الجزرى وقيل سنجاريب من أهل نينوى والأول هو الأظهر فاستولوا على بيت المقدس فقتل من أهله أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية إلى أرضه فبقوا هناك على أقصى ما يكون من الذل والنكد إلى أن أحدثوا توبة صحيحة فردهم الله عز وجل إلى ما حكى عنهم من حسن الحال ثم عادوا إلى المرة الآخرة من الإفساد فبعث الله تعالى عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك

الطوائف اسمه خيدرودوقيل خيدروس ففعل بهم مافعل قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال ماصدقونى فقتل عليه ألوفا منهم ثم قال ان لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى عليه السلام فقال بمثل هذا ينتقم الله تعالى منكم ثم قال يا يحيى قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل أن لا أبقى أحدا منهم فهدأ (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) شروع فى تفصيل قبائح النصارى وابطال أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود وهؤلاء هم الذين قالوا ان مريم ولدت الها قيل هم الملكانية والماريعقوبية منهم وقيل هم اليعقوبية خاصة قالوا ومعنى هذا أن الله تعالى حل فى ذات عيسى واتحد بذاته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (وَقَالَ الْمَسِيحُ) حال من فاعل قالوا بتقدير قد مفيدة لمزيد تقبيح حالهم ببيان تكذيبهم للمسيح وعدم انزجارهم عما أصروا عليه بما أوعدهم به أى قالوا ذلك وقد قال المسيح مخاطبا لهم (يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ) فانى عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقى وخالقكم (إِنَّهُ) أى الشأن (مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ) أى شيئا فى عبادته أو فيما يختص به من صفات الألوهية (فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) فلن يدخلها أبدا كما لا يصل اليه المحرم عليه المحرم فانها دار الموحدين واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة (وَمَأْوَاهُ النَّارُ) فانها هى المعدة للمشركين وهذا بيان لابتلائهم بالعقاب اثر بيان حرمانهم الثواب (وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) أى مالهم من أحد ينصرهم بانقاذهم من النار امابطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة والجمع لمراعاة المقابلة بالظالمين واللام اما للعهد والجمع باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها واما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا ووضعه على الأول موضع الضمير للتسجيل عليهم بأنهم ظلموا بالاشراك وعدلوا عن طريق الحق والجملة تذييل مقرر لما قبله وهو اما من تمام كلام عيسى عليه السلام واما وارد من جهته تعالى تأكيدا لمقالته عليه السلام وتقريرا لمضمونها وقد قيل انه من كلامه عز وجل على معنى أنهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على عيسى عليه السلام فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم ورده وأنكره وان كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره أو من قول عيسى عليه السلام على معنى لا ينصركم أحد فيما تقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبعده عن المعقول وأنت خبير بأن التعبير عما حكى عنه عليه السلام من مقابلته لقولهم الباطل بصريح الرد والانكار والوعيد بحرمان الجنة ودخول النار بمجرد عدم مساعدته على ذلك ونفى نصرته له مع خلوه من الفائدة تصوير للقوى بصورة الضعيف وتهوين للخطب فى مقام تهويله بل ربما يوهم ذلك بحسب الظاهر مالا يليق بشأنه عليه السلام من توهم المساعدة والنصرة لاسيما مع ملاحظة قوله وان كانوا معظمين له الخ الا أن يحمل الكلام على التهكم بهم وكذا الحال على تقدير كونه من تمام كلامه عليه السلام فان زجره عليه السلام اياهم عن قولهم الفاسد بما ذكر من عدم الناصر والمساعد بعد زجره اياهم بما مر من الرد الأكيد والوعيد الشديد بمعزل من الافادة والتأثير ولا سبيل هنا إلى الاعتذار بالتهكم (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) شروع فى بيان كفر طائفة أخرى منهم ومعنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الأعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع الجمهور أن ينصب ما بعده بأن يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة وانما ينصبه إذا كان ما بعده دونه بمرتبة كما فى قولك عاشر تسعة وتاسع ثمانية قيل انهم يقولون ان الالهية مشتركة بين الله سبحانه وتعالى وعيسى ومريم وكل واحد من هؤلاء اله ويؤكده قوله تعالى للمسيح أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله فقوله تعالى ثالث ثلاثة أى أحد ثلاثة آلهة وهو المتبادر من ظاهر قوله تعالى (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ) أى والحال أنه ليس فى الوجود ذات واجب مستحق للعبادة من حيث أنه مبدأ جميع

الموجودات الا الٰه موصوف بالوحدانية متعال عن قبول الشركة ومن مزيدة للاستغراق وقيل انهم يقولون الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وانهم يريدون بالأول الذات وقيل الوجود وبالثانى العلم وبالثالث الحياة فمعنى قوله تعالى ومامن اله الا اله واحد الا الٰه واحد بالذات منزه عن شائبة التعدد بوجه من الوجوه (وإن لم يَنتَهُوا عمّا يقُولونَ) من الكفر الشنيع ولم يوحدوا وقوله تعالى (ليَمَسّنّ الذينَ كفرُوا) جواب قسم محذوف ساد مسد جواب الشرط أى وبالله ان لم ينتهوا ليمسنهم وإنما وضع موضع ضميرهم الموصول لتكرير الشهادة عليهم بالكفر فمن فى قوله تعالى (مِنهُمْ) بيانية أوليمسن الذين بقوا منهم على ماكانوا عليه من الكفر فمن تبعيضية وإنما جىء بالفعل المنبىء عن الحدوث تنبيها على أن الاستمرار عليه بعد ورود ماينحى عليه بالقلع من نص عيسى عليه السلام وغيره كفر جديد وغلو زائد على ما كانوا عليه من أصل الكفر (عَذابٌ أليمٌ) أى نوع شديد الالم من العذاب وهمزة الاستفهام فى قوله تعالى (أفلا يَتُوبونَ إلى اللهِ ويَستغفرُونَه) لانكار الواقع واستبعاده لا لانكار الوقوع وفيه تعجيب من اصرارهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائغة والأقاويل الباطلة فلا يتوبون إلى الله تعالى ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عما نسبوه اليه من الاتحاد والحلول فمدار الانكار والتعجيب عدم الانتهاء وعدم التوبة معاً أو أيسمعون هذه الشهادات المكررة والتشديدات المقررة فلايتوبون عقيب ذلك فمدارهما عدم التوبة عقيب تحقق مايوجبها من سماع تلك القوارع الهائلة وقوله عز وجل (واللهُ غفُورٌ رَحيمٌ) جملة حالية من فاعل يستغفرونه مؤكدة للانكار والتعجيب من اصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار أى والحال أنه تعالى مبالغ فى المغفرة فيغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله (مَا المَسيحُ ابنُ مَريمَ إلاّ رَسُولٌ) استئناف مسوق لتحقيق الحق الذى لا محيد عنه وبيان حقيقة حاله عليه السلام وحال أمه بالاشارة أولا إلى أشرف مالهما من نعوت الكمال التى بها صارا من زمرة أكمل أفراد الجنس وآخرا إلى الوصف المشترك بينهما وبين جميع أفراد البشر بل أفراد الحيوان استنزالا لهم بطريق التدريج عن رتبة الاصرار على ماتقولوا عليهما وارشادا لهم إلى التوبة والاستغفار أى هو مقصور على الرسالة لايكاد يتخطاها وقوله تعالى (قَدْ خَلَتْ مِن قَبلهِ الرُّسلُ) صفة لرسول منبئة عن اتصافه بماينافى الألوهية فان خلو الرسل السالفة عليهم السلام منذر بخلوه المقتضى لاستحالة ألوهيته أى ماهو الارسول كالرسل الخالية من قبله خصه الله تعالى ببعض من الآيات كما خص كلا منهم ببعض آخر منها فان أحيى الموتى على يده فقد أحيى العصا فى يد موسى عليه السلام وجعلت حية تسعى وهو أعجب منه وان خلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم وهو أغرب منه وكل ذلك من جنابه عز وجل وإنما موسى وعيسى مظاهر لشئونه وأفعاله (وأمُّهُ صِدّيقَةٌ) أى وما أمه أيضا الا كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق أو التصديق ويبالغن فى الاتصاف به فما رتبتهما الارتبة بشرين أحدهما نبى والآخر صحابى فمن أين لكم أن تصفوهما بمالا يوصف به سائر الأنبياء وخواصهم (كانا يأكُلانِ الطّعامَ) استئناف مبين لما أشير اليه من كونهما كسائر أفراد البشر فى الاحتياج إلى مايحتاج اليه كل فرد من أفراده بل من أفراد الحيوان وقوله عز وجل (انظُرْ كيفَ نُبيّنُ لهُمُ الآياتِ) تعجيب من حال الذين يدعون لهما الربوبية ولا يرعوون عن ذلك بعد مابين لهم حقيقة حالهما بيانا لايحوم حوله شائبة ريب وكيف معمول لنبين والجملة فى حيز النصب معلقة لانظر أى انظر كيف نبين لهم الآيات الباهرة المنادية ببطلان ماتقولوا عليهما نداء يكاد يسمعه صم الجبال (ثمّ انظُرْ أنّى يُؤفَكُونَ) أى كيف يصرفون عن استماعها والتأمل فيها والكلام فيه كما فيما قبله وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة فى التعجيب وثم لاظهار ما بين العجبين من التفاوت أى ان بياننا للآيات أمر بديع فى

بابه بالغ لاقاصى الغايات القاصية من التحقيق والايضاح واعراضهم عنها مع انتفاء مايصححه بالمرة وتعاضد مايوجب قبولها أعجب وأبدع (قُلْ) أمر له عليه الصلاة والسلام بالزامهم وتبكيتهم اثر تعجيبه من أحوالهم (أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ) أى متجاوزين اياه وتقديمه على قوله تعالى (مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر والموصول عبارة عن عيسى عليه السلام وايثاره على كلمة من لتحقيق ماهو المراد من كونه بمعزل من الألوهية رأسا ببيان انتظامه عليه السلام فى سلك الأشياء التى لاقدرة لها على شىء أصلا وهو عليه السلام وان كان يملك ذلك بتمليكه تعالى اياه لكنه لايملكه من ذاته ولا يملك مثل مايضر به الله تعالى من البلايا والمصائب وماينفع به من الصحة وتقديم الضر على النفع لأن التحرز عنه أهم من تحرى النفع ولأن أدنى درجات التأثير دفع الشر ثم جلب الخير وقوله تعالى (وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) حال من فاعل أتعبدون مؤكد للانكار والتوبيخ ومقرر للالزام والتبكيت والرابط هو الواو أى أتشركون بالله تعالى ما لا يقدر على شىء من ضركم ونفعكم والحال ان الله تعالى هو المختص بالإحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات التى من جملتها ما أنتم عليه من الأقوال الباطلة والعقائد الزائغة والأعمال السيئة وبالقدرة الباهرة على جميع المقدورات التى من جملتها مضاركم ومنافعكم فى الدنيا والآخرة (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى فريق أهل الكتاب بطريق الالتفات على لسان النبى عليه الصلاة والسلام بعد إبطال مسلك كل منهما للمبالغة فى زجرهم عما سلكوه من المسلك الباطل وارشادهم إلى الأمم المؤتاة (لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ) أى لاتتجاوزوا الحد وهو نهى للنصارى عن رفع عيسى عن رتبة الرسالة إلى ماتقولوا فى حقه من العظيمة وللیهود عن وضعهم له عليه السلام عن رتبته العلية إلى ماتقولوا عليه من الكلمة الشنعاء وقيل هو خاص بالنصارى كما فى سورة النساء فذكرهم بعنوان أهلية الكتاب لتذكير أن الانجيل أيضا ينهاهم عن الغلو وقوله تعالى (غَيْرَ الْحَقِّ) نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى لاتغلوا فى دينكم غلوا غير الحق أى غلوا باطلا أو حال من ضمير الفاعل أى لاتغلوا مجاوزين الحق أو من دينكم أى لاتغلوا فى دينكم حال كونه باطلا وقيل نصب على الاستثناء المتصل وقيل على المنقطع (وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ) هم أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا من الفريقين أو من النصارى على القولين قبل مبعث النبى عليه الصلاة والسلام فى شريعتهم (وَأَضَلُّوا كَثِيرًا) أى قوما كثيرا ممن شايعهم فى الزيغ والضلال أو إضلالا كثيرا والمفعول محذوف (وَضَلُّوا) عند بعثة النبى عليه الصلاة والسلام وتوضيح محجة الحق وتبيين مناهج الاسلام (عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ) حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه وقيل الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل والثانى إلى ضلالهم عما جاء به الشرع (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى لعنهم الله عز وجل وبناء الفعل للمفعول للجرى على سنن الكبرياء (مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ) متعلق بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من فاعل كفروا وقوله تعالى (عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) متعلق بلعن أى لعنهم الله تعالى فى الزبور والإنجيل على لسانهما وقيل ان أهل ايلة لما اعتدوا فى السبت دعا عليهم داود عليه السلام وقال اللهم العنهم واجعلهم آية فسخهم الله قردة واصحاب المائدة لما كفروا قال عيسى عليه السلام اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين والعنهم كما لعنت أصحاب السبت فأصبحوا اخنازير وكانوا خمسة آلاف رجل مافيهم امرأة ولا صبى (ذَلِكَ) إشارة إلى اللعن المذكور وايثاره على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازه عن نظائره وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ومافيه من معنى البعد للايذان بكمال فظاعته وبعد درجته فى الشناعة والهول وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) والجملة مستأنفة واقعة موقع الجواب عما نشأ من الكلام

كأنه قيل بأى سبب وقع ذلك فقيل ذلك اللعن الهائل الفظيع بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمر كما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل وينبىء عنه قوله تعالى (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ) فانه استئناف مفيد بعبارته لاستمرار عدم التناهى عن المنكر ولا يمكن استمراره إلا باستمرار تعاطى المنكرات وليس المراد بالتناهى أن ينهى كل واحد منهم الآخر عما يفعله من المنكر كما هو المعنى المشهور لصيغة التفاعل بل مجرد صدور النهى عن أشخاص متعددة من غير اعتبار أن يكون كل واحد منهم ناهيا ومنهيا معا كما فى تراءوا الهلال وقيل التناهى بمعنى الانتهاء يقال تناهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع عنه وتركه فالجملة حينئذ مفسرة لما قبلها من المعصية والاعتداء ومفيدة لاستمرارهما صريحا وعلى الأول مفيدة لاستمرار انتفاء النهى عن المنكر بأن لا يوجد فيما بينهم من يتولاه فى وقت من الأوقات ومن ضرورته استمرار فعل المنكر حسبما سبق وعلى كل تقدير فما يفيده تنكير المنكر من الوحدة نوعية لا شخصية فلا يقدح وصفه بالفعل الماضى فى تعلق النهى به لما أن متعلق الفعل إنما هو فرد من أفراد ما يتعلق به النهى والانتهاء من مطلق المنكر باعتبار تحققه فى ضمن أى فرد كان من أفراده على أن المضى المعتبر فى الصفة إنما هو بالنسبة إلى زمان النزول لا إلى زمان النهى حتى يلزم كون النهى بعد الفعل فلا حاجة إلى تقدير المعاودة أو المثل أو جعل الفعل عبارة عن الإرادة على أن المعاودة كالنهى لا تتعلق بالمنكر المفعول فلا بد من المصير إلى أحد ما ذكر من الوجهين أو إلى تقدير المثل أو إلى جعل الفعل عبارة عن ارادته وفى كل ذلك تعسف لا يخفى (لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) تقبيح لسوء أعمالهم وتعجيب منه بالتوكيد القسمى كيف لا وقد أداهم إلى ما شرح من اللعن الكبير وليس فى تسبيبه بذلك دلالة على خروج كفرهم عن السببية مع الإشارة إلى سببيته له فيما سبق من قوله تعالى لعن الذين كفروا فان إجراء الحكم على الموصول مشعر بعلية ما فى حيز الصلة له لما أن ما ذكر فى حيز السببية مشتمل على كفرهم أيضا (تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ) أى من أهل الكتاب ككعب بن الأشرف وأضرابه حيث خرجوا إلى مشركى مكة ليتفقوا على محاربة النبى عليه الصلاة والسلام والرؤية بصرية وقوله تعالى (يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) حال من كثيرا لكونه موصوفا أى يوالون المشركين بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل من منافقى أهل الكتاب يتولون اليهود وهو قول ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومجاهد والحسن وقيل يوالون المشركين ويصافونهم (لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ) لبئس شيأ قدموا ليردوا عليه يوم القيامة (أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) هو المخصوص بالذم على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه تنبيها على كمال التعلق والارتباط بينهما كأنهما شىء واحد ومبالغة فى الذم أى موجب سخطه تعالى ومحله الرفع على الابتداء والجملة قبله خبره والرابط عند من يشترطه هو العموم أو لا حاجة اليه لأن الجملة عين المبتدا أو على أنه خبر لمبتدا محذوف ينبىء عنه الجملة المتقدمة كأنه قيل ما هو أو أى شىء هو فقيل هو أن سخط الله عليهم وقيل المخصوص بالذم محذوف وما اسم تام معرفة فى محل رفع بالفاعلية لفعل الذم وقدمت لهم أنفسهم جملة فى محل الرفع على أنها صفة للمخصوص بالذم قائمة مقامه والتقدير لبئس الشىء شىء قدمته لهم أنفسهم فقوله تعالى أن سخط الله عليهم بدل من شىء المحذوف وهذا مذهب سيبويه (وَفِي الْعَذَابِ) أى عذاب جهنم (هُمْ خَالِدُونَ) أبد الآبدين (وَلَوْ كَانُوا) أى الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب (يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ) أى نبيهم (وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ) من الكتاب أو لو كان المنافقون يؤمنون بالله ونبينا ايمانا صحيحا (مَا اتَّخَذُوهُمْ) أى المشركين أو اليهود (أَوْلِيَاءَ) فان الإيمان بما ذكر وازع عن توليهم قطعا (وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) خارجون عن الدين والإيمان بالله ونبيهم وكتابهم أو متمردون فى النفاق مفرطون فيه (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير

ماقبلها من قبائح اليهود وعراقتهم فى الكفر وسائر أحوالهم الشنيعة التى من جملتها موالاتهم المشركين أكدت بالتوكيد القسمى اعتناء ببيان تحقق مضمونها والخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد صالح له إيذانا بأن حالهم مما لايخفى على أحد من الناس والوجدان متعد إلى اثنين أحدهما أشد الناس والثانى اليهود وماعطف عليه وقيل بالعكس لأنهما فى الأصل مبتدأ وخبر ومصب الفائدة هو الخبر لا المبتدأ ولاضير فى التقديم والتأخير إذا دل على الترتيب دليل وههنا دليل واضح عليه وهو أن المقصود بيان كون الطائفتين أشد الناس عداوة للمؤمنين لا كون أشدهم عداوة لهم الطائفتين المذكورتين وأنت خبير بأنه بمعزل من الدلالة على ذلك كيف لا والافادة فى الصورة الثانية أتم وأكمل مع خلوها من تعسف التقديم والتأخير إذ المعنى انك ان قصدت أن تعرف من أشد الناس عداوة للمؤمنين وتتبعت أحوال الطوائف طرا وأحطت بما لديهم خبرا وبالغت فى تعرف أحوالهم الظاهرة والباطنة وسعيت فى تطلب ما عندهم من الأمور البارزة والكامنة لتجدن الاشد تينك الطائفتين لاغير فتأمل واللام الداخلة على الموصول متعلقة بعداوة مقوية لعملها ولا يضر كونها مؤنثة بالتاء مبنية عليها كما فى قوله ورهبة عقابك وقيل متعلقة بمحذوف هو صفة لعداوة أى كائنة للذين آمنوا وصفهم الله تعالى بذلك لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم وانهماكهم فى اتباع الهوى وقربهم إلى التقليد وبعدهم عن التحقيق وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الأنبياء والاجتراء على تكذيبهم ومناصبتهم وفى تقديم اليهود على المشركين بعدلزهما فى قرن واحد إشعار بتقدمهم عليهم فى العداوة كما أن فى تقديمهم عليهم فى قوله تعالى ولتجدنهم أحرص الناس على حيوة ومن الذين أشركوا إيذانا بتقدمهم عليهم فى الحرص (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا) أعيد الموصول مع صلته رومالزيادة التوضيح والبيان (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى) عبر عنهم بذلك إشعارا بقرب مودتهم حيث يدعون أنهم أنصار الله وأوداء أهل الحق وإن لم يظهروا اعتقاد حقية الاسلام وعلى هذه النكتة مبنى الوجه الثانى فى تفسير قوله تعالى ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم والكلام فى مفعولى لتجدن وتعلق اللام كالذى سبق والعدول عن جعل مافيه التفاوت بين الفريقين شيئا واحدا قد تفاوتا فيه بالشدة والضعف أو بالقرب والبعد بأن يقال آخرا ولتجدن أضعفهم عداوة الخ أو بأن يقال أو لتجدن أبعد الناس مودة الخ للايذان بكمال تباين مابين الفريقين من التفاوت ببيان أن أحدهما فى أقصى مراتب أحد النقيضين والآخر فى أقرب مراتب النقيض الآخر (ذَٰلِكَ) أى كونهم أقرب مودة للمؤمنين (بِأَنَّ مِنْهُمْ) أى بسبب أن منهم (قِسِّيسِينَ) وهم علماء النصارى وعبادهم ورؤساؤهم والقسيس صيغة مبالغة من تقسس الشىء إذا تتبعه وطلبه بالليل سموا به لمبالغتهم فى تتبع العلم قاله الراغب وقيل القس بفتح القاف تتبع الشىء ومنه سمى عالم النصارى قسيسا لتتبعه العلم وقيل قص الاثر وقسه بمعنى وقيل أنه أعجمى وقال قطرب القس والقسيس العالم بلغة الروم وقيل ضيعت النصارى الانجيل ومافيه وبقى منهم رجل يقال له قسيسا لم يبدل دينه فمن راعى هديه ودينه قيل له قسيس (وَرُهْبَانًا) وهو جمع راهب كراكب وركبان وفارس وفرسان وقيل أنه يطلق على الواحد وعلى الجمع وأنشد فيه قول من قال:

لو عاينت رهبان دير فى قلل لاقبل الرهبان يعدو ونزل

والترهب التعبد فى الصومعة قال الراغب الرهبانية الغلو فى تحمل التعبد من فرط الخوف والتنكير لافادة الكثرة ولا بد من اعتبارها فى القسيسين أيضا إذ هى التى تدل على مودة جنس النصارى للمؤمنين فان اتصاف أفراد كثيرة لجنس بخصلة مظنة لاتصاف الجنس بها والافمن اليهود أيضا قوم مهتدون ألا يرى إلى عبدالله بن سلام وأضرابه قال تعالى من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون الخ لكنهم لما لم يكونوا فى الكثرة كالذين من

النصارى لم يتعد حكمهم إلى جنس اليهود (وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ) عطف على أن منهم أى وبأنهم لا يستكبرون عن قبول الحق إذا فهموه ويتواضعون ولا يتكبرون كاليهود وهذه الخصلة شاملة لجميع أفراد الجنس فسببيتها الاقربيتهم مودة للمؤمنين واضحة وفيه دليل على أن التواضع والاقبال على العلم والعمل والاعراض عن الشهوات محمود وان كان ذلك من كافر (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ) عطف على لا يستكبرون أى ذلك بسبب أنهم لا يستكبرون وأن أعينهم تفيض من الدمع عند سماع القرآن وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم الى قبول الحق وعدم ابائهم اياه (تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) أى تمتلىء بالدمع فاستعير له الفيض الذى هو الانصباب عن امتلاء مبالغة أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها (مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) من الأولى لابتداء الغاية والثانية لتبيين الموصول أى ابتدأ الفيض ونشأ من معرفة الحق وحصل من أجله وبسببه ويحتمل أن تكون الثانية تبعيضية لأن ماعرفوه بعض الحق وحيث أبكاهم ذلك فما ظنك بهم لو عرفوا كله وقرؤا القرآن وأحاطوا بالسنة وقرىء ترى أعينهم على صيغة المبنى للمفعول (يَقُولُونَ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم عند سماع القرآن كأنه قيل ماذا يقولون فقيل يقولون (رَبَّنَا آمَنَّا) بهذا أو بمن أنزل هذا عليه أو بهما وقيل حال من الضمير فى عرفوا أو من الضمير المجرور فى أعينهم لما أن المضاف جزؤه كما فى قوله تعالى ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا (فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) أى الذين شهدوا بأنه حق أو بنبوته أو مع أمته الذين هم شهداء على الأمم يوم القيامة وانما قالوا ذلك لأنهم وجدوا ذكرهم فى الانجيل كذلك (وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ) كلام مستأنف قالوه تحقيقا لايمانهم وتقريرا له بانكار سبب انتفائه ونفيه بالكلية على أن قوله تعالى لا نؤمن حال من الضمير فى لنا والعامل ما فيه من الاستقرار أى أى شىء حصل لنا غير مؤمنين على توجيه الانكار والنفى الى السبب والمسبب جميعا كما فى قوله تعالى ومالى لا أعبد الذى فطرنى ونظائره لا الى السبب فقط مع تحقق المسبب كما فى قوله تعالى فما لهم لا يؤمنون وأمثاله فان همزة الاستفهام كما تكون تارة لانكار الواقع كما فى أتضرب أباك وأخرى لانكار الوقوع كما فى أأضرب أبى كذلك ما الاستفهامية قد تكون لانكار سبب الواقع ونفيه فقط كما فى الآية الثانية وقوله تعالى مالكم لا ترجون لله وقارا فيكون مضمون الجملة الحالية محققا فان كلا من عدم الايمان وعدم الرجاء أمر محقق قد أنكر ونفى سببه وقد تكون لانكار سبب الوقوع ونفيه فيسرى الى المسبب أيضا كما فى الآية الأولى فيكون مضمون الجملة الحالية مفروضا قطعا فان عدم العبادة أمر مفروض حتما وقوله تعالى (وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ) حال أخرى من الضمير المذكور بتقدير مبتدأ والعامل فيها هو العامل فى الأولى مقيدا بها أى أى شىء حصل لنا غير مؤمنين ونحن نطمع فى صحبة الصالحين أو من الضمير فى لا نؤمن على معنى أنهم أنكروا على أنفسهم عدم ايمانهم مع أنهم يطمعون فى صحبة المؤمنين وقيل معطوف على نؤمن على معنى ومالنا نجمع بين ترك الايمان وبين الطمع المذكور (فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا) أى عن اعتقاد من قولك هذا قول فلان أى معتقده وقرىء فآتاهم الله (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) أى الذين أحسنوا النظر والعمل أو الذين اعتادوا الاحسان فى الأمور والآيات الأربع روى أنها نزلت فى النجاشى وأصحابه بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه فقرأه ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه وأحضر القسيسين والرهبان فأمر جعفر ان يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم فبكوا وآمنوا بالقرآن وقيل نزلت فى ثلاثين او سبعين رجلا من قومه وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم سورة مريم فبكوا وآمنوا (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) عطف التكذيب بآيات الله على الكفر مع أنه ضرب منه لما أن القصد الى بيان حال

المكذبين وذكرهم بمقابلة المصدقين بها جمعا بين الترغيب والترهيب (يٰأيها الذين ءامنوا لا تحرموا طيبٰت ما أحل الله لكم) أى ما طاب ولذ منه كأنه لما تضمن ما سلف من مدح النصارى على الترهب ترغيب المؤمنين فى كسر النفس ورفض الشهوات عقب ذلك بالنهى عن الافراط فى الباب أى لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم أو لا تقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم فى العزم على تركها تزهدا منكم وتقشفا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف القيامة لأصحابه يوما فبالغ وأشبع الكلام فى الانذار فرقوا واجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك ولا يقربوا النساء والطيب ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح ويسيحوا فى الأرض ويجبوا مذاكيرهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم إنى لم أومر بذلك ان لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وافطروا وقوموا وناموا فانى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى فنزلت (ولا تعتدوا) أى ولا تتعدوا حدود ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم أو ولا تسرفوا فى تناول الطيبات أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلما فنهى عن مطلق الاعتداء ليدخل تحته النهى عن تحريمها دخولا أوليا لوروده عقيبه أو أريد ولا تعتدوا بذلك (إن الله لا يحب المعتدين) تعليل لما قبله (وكلوا مما رزقكم الله حلٰلا طيبا) أى ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله فحلالا مفعول كلوا ومما رزقكم اما حال منه تقدمت عليه لكونه نكرة أو متعلق بكلوا ومن ابتدائية أو هو المفعول وحلالا حال من الموصول أو من عائده المحذوف أو صفة لمصدر محذوف أى أكلا حلالا وعلى الوجوه كلها لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) توكيد للوصية بما أمر به فان الايمان به تعالى يوجب المبالغة فى التقوى والانتهاء عما نهى عنه (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمٰنكم) اللغو فى اليمين الساقط الذى لا يتعلق به حكم وهو عندنا أن يحلف على شىء يظن أنه كذلك وليس كما يظن وهو قول مجاهد قيل كانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظن أنه قربة فلما نزل النهى قالوا كيف بأيماننا فنزلت وعند الشافعى رحمه الله تعالى ما يبدو من المرء من غير قصد كقوله لا والله وبلى والله وهو قول عائشة رضى الله تعالى عنها وفى أيمانكم صلة يؤاخذكم أو اللغو لأنه مصدر أو حال منه (ولٰكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمٰن) أى بتعقيدكم الايمان وتوثيقها عليه بالقصد والنية والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتموه إذا حنثتم أو بنكث ما عقدتم فحذف للعلم به وقرىء بالتخفيف وقرىء عاقدتم بمعنى عقدتم (فكفٰرته) أى فكفارة نكثه وهى الفعلة التى من شأنها أن تكفر الخطيئة وتسترها واستدل بظاهره على جواز التكفير قبل الحنث وعندنا لا يجوز ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا فليأت الذى هو خير ثم ليكفر عن يمينه (إطعام عشرة مسٰكين من أوسط ما تطعمون أهليكم) أى من أقصده فى النوع أو المقدار وهو نصف صاع من بر لكل مسكين ومحله النصب لأنه صفة مفعول محذوف تقديره أن تطعموا عشرة مساكين طعاما كائنا من أوسط ما تطعمون أو الرفع على أنه بدل من اطعام وأهلون جمع أهل كأرضون جمع أرض وقرىء أهاليكم بسكون الياء على لغة من يسكنها فى الحالات الثلاث كالألف وهذا أيضا جمع أهل كالأراضى فى جمع أرض والليالى فى جمع ليل وقيل جمع أهلاة (أو كسوتهم) عطف على اطعام أو على محل من أوسط على تقدير كونه بدلا من اطعام وهو ثوب يغطى العورة وقيل ثوب جامع قميص أو رداء أو إزار وقرىء بضم الكاف وهى لغة كقدوة فى قدوة واسوة فى اسوة وقرىء أو كاسوتهم على أن الكاف فى محل الرفع تقديره أو اطعامهم كاسوتهم بمعنى أو كمثل ما تطعمون أهليكم اسرافا وتقتيرا تواسون بينهم وبينهم ان لم تطعموهم الأوسط (أو تحرير رقبة) أى أو اعتاق انسان كيفما كان وشرط الشافعى رضى الله تعالى عنه فيه الايمان قياسا على كفارة القتل ومعنى أو ايجاب احدى

الخصال مطلقا وخيار التعيين للمكلف (فَمَن لَّمْ يَجِدْ) أى شيئا من الأمور المذكورة (فَصِيَامُ) أى فكفارته صيام (ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ) والتتابع شرط عندنا لقراءة ثلاث أيام متتابعات والشافعى رضى الله عنه لا يرى الشواذ حجة (ذَٰلِكَ) أى الذى ذكر (كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ) أى وحنثتم (وَاحْفَظُوا أَيْمَٰنَكُمْ) بأن تضنوا بها ولا تبذلوها كما يشعر به قوله تعالى إذا حلفتم وقيل بأن تبروا فيها ما استطعتم ولم يفت بها خير أو بأن تكفروها إذا حنثتم وقيل احفظوها كيف حلفتم بها ولا تنسوها تهاونا بها (كَذَٰلِكَ) إشارة إلى مصدر الفعل الآتى لا الى تبيين آخر مفهوم مما سبق والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحله فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير يبين الله تبيينا كائنا مثل ذلك التبيين فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار نفس المصدر لا نعتا له وقد مر تفصيله فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا أى ذلك البيان البديع (يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِ) أعلام شريعته وأحكامه لا بيانا أدنى منه وتقديم لكم على المفعول لما مر مرارا (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ) أى الأصنام المنصوبة للعبادة (وَالْأَزْلَٰمُ) سلف تفسيرها فى أوائل السورة الكريمة (رِجْسٌ) قذر تعاف عنه العقول وافراده لأنه خبر الخمر وخبر المعطوفات محذوف ثقة بالمذكور أو المضاف محذوف أى شأن الخمر والميسر الخ (مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ) فى محل الرفع على أنه صفة رجس أى كائن من عمله لأنه مسبب من تسويله وتزيينه (فَاجْتَنِبُوهُ) أى الرجس أو ماذكر (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أى راجين فلاحكم وقيل لكى تفلحوا بالاجتناب عنه وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى لعلكم تتقون ولقد أكد تحريم الخمر والميسر فى هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد حيث صدرت الجملة بانما وقرنا بالاصنام والازلام وسميا رجسا من عمل الشيطان تنبيها على أن تعاطيهما شر بحت وأمر بالاجتناب عن عينهما وجعل ذلك سببا يرجى منه الفلاح فيكون ارتكابهما خيبة ومحقة ثم قرر ذلك ببيان ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقيل (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) وهو إشارة إلى مفاسدهما الدنيوية (وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ) إشارة إلى مفاسدهما الدينية وتخصيصهما باعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال للتنبيه على أن المقصود بيان حالهما وذكر الاصنام والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما فى الحرمة والشرارة لقوله عليه الصلاة والسلام شارب الخمر كعابد الوثن وتخصيص الصلاة بالافراد مع دخولها فى الذكر للتعظيم والاشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الايمان لما أنها عماده ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبا على ما تقدم من أصناف الصوارف فقيل (فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) ايذانا بأن الأمر فى الزجر والتحذير وكشف ما فيهما من المفاسد والشرور قد بلغ الغاية وأن الأعذار قد انقطعت بالكلية (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) عطف على اجتنبوه أى أطيعوهما فى جميع ما أمرا به ونهيا عنه (وَاحْذَرُوا) أى مخالفتهما فى ذلك فيدخل فيه مخالفة أمرهما ونهيهما فى الخمر والميسر دخولا أوليا (فَإِن تَوَلَّيْتُمْ) أى أعرضتم عن الامتثال بما أمرتم به من الاجتناب عن الخمر والميسر وعن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام والاحتراز عن مخالفتهما (فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ) وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه وخرج عن عهدة الرساله أى خروج وقامت عليكم الحجة وانتهت الاعذار وانقطعت العلل وما بقى بعد ذلك إلا العقاب وفيه من عظم التهديد وشدة الوعيد ما لا يخفى وأما ما قيل من أن المعنى فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول لأنه ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات وقد فعل وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتموه فلا يساعده المقام إذ لا يتوهم منهم ادعاء أنهم بتوليهم يضرونه عليه الصلاة والسلام حتى يرد عليهم بأنهم

لايضرونه وإنما يضرون أنفسهم (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ) أى إثم وحرج (فِيمَا طَعِمُوٓا) أى تناولوا أكلا أو شربا فان استعماله فى الشرب أيضا مستفيض منه قوله تعالى ومن لم يطعمه فانه منى قيل لما أنزل الله تعالى تحريم الخمر بعد غزوة الاحزاب قال رجال من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام أصيب فلان يوم بدر وفلان يوم أحد وهم يشربونها ونحن نشهد أنهم فى الجنة وفى رواية أخرى لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة رضى الله تعالى عنهم يارسول الله فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر وفى رواية أخرى قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه يارسول الله كيف باخواننا الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وفعلوا القمار فنزلت وليست كلمة ما فى ما طعموا عبارة عن المباحات خاصة والالزام تقييد إباحتها باتقاء ماعداها من المحرمات لقوله تعالى (إِذَا مَا اتَّقَوا) واللازم منتف بالضرورة بل هى على عمومها موصولة كانت أو موصوفة وإنما تخصصت بذلك القيد الطارىء عليها والمعنى ليس عليهم جناح فيما تناولوه من المأكول والمشروب كائنا ما كان إذا اتقوا أن يكون فى ذلك شىء من المحرمات والالم يكن نفى الجناح فى كل ماطعموه بل فى بعضه ولا محذور فيه إذ اللازم منه تقييد إباحة الكل بأن لا يكون فيه محرم لا تقييد اباحة بعضه باتقاء بعض آخر منه كما هو اللازم من الأول (وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ) أى واستمروا على الايمان والأعمال الصالحة وقوله تعالى (ثُمَّ اتَّقَوا) عطف على اتقوا داخل معه فى حيز الشرط أى اتقوا ماحرم عليهم بعد ذلك مع كونه مباحا فيما سبق (وَءَامَنُوا) أى بتحريمه وتقديم الاتقاء عليه اما للاعتناء به أو لأنه الذى يدل على التحريم الحادث الذى هو مؤمن به أو واستمروا على الايمان (ثُمَّ اتَّقَوا) أى ماحرم عليهم بعد ذلك مما كان مباحا من قبل على أن المشروط بالاتقاء فى كل مرة اباحة كل ماطعموه فى ذلك الوقت لا اباحة كل ماطعموه قبله لانتساخ اباحة بعضه حينئذ (وَأَحْسَنُوا) أى عملوا الأعمال الحسنة الجميلة المنتظمة لجميع ماذكر من الأعمال القلبية والقالبية وليس تخصيص هذه المرات بالذكر لتخصيص الحكم بها بل لبيان التعدد والتكرر بالغاً مابلغ والمعنى أنهم إذا اتقوا المحرمات واستمروا على ماهم عليه من الايمان والأعمال الصالحة وكانوا فى طاعة الله ومراعاة أوامره ونواهيه بحيث كلما حرم عليهم شىء من المباحات اتقوه ثم ثم فلا جناح عليهم فيما طعموه فى كل مرة من المطاعم والمشارب إذ ليس فيها شىء محرم عند طعمه وأنت خبير بأن ماعدا اتقاء المحرمات من الصفات الجميلة المذكورة لا دخل لها فى انتفاء الجناح وإنما ذكرت فى حيز إذا شهادة باتصاف الذين سئل عن حالهم بها ومدحا لهم بذلك وحمداً لأحوالهم وقد أشير إلى ذلك حيث جعلت تلك الصفات تبعا للاتقاء فى كل مرة تمييزا بينها وبين ماله دخل فى الحكم فان مساق النظم الكريم بطريق العبارة وإن كان لبيان حال المتصفين بماذكر من النعوت فيماسيأتى بقضية كلمة إذا ما لكنه قد أخرج مخرج الجواب عن حال الماضين لاثبات الحكم فى حقهم فى ضمن التشريع الكلى على الوجه البرهانى بطريق دلالة النص بناء على كمال اشتهارهم بالاتصاف بها فكأنه قيل ليس عليهم جناح فيما طعموه إذ كانوا فى طاعته تعالى مع مالهم من الصفات الحميدة بحيث كلما أمروا بشىء تلقوه بالامتثال وإنما كانوا يتعاطون الخمر والميسر فى حياتهم لعدم تحريمها إذ ذاك ولو حرما فى عصرهم لاتقوهما بالمرة . هذا وقد قيل التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة أو باعتبار الحالات الثلاث استعمال الانسان التقوى بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله عز وجل ولذلك جىء بالاحسان فى الكرة الثالثة بدل الايمان إشارة إلى ماقاله عليه الصلاة والسلام فى تفسيره أو باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى أو باعتبار مايتقى فانه ينبغى أن يترك المحرمات توقيا من العقاب والشبهات توقيا من الوقوع فى الحرام وبعض المباحات حفظا للنفس عن الخسة وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة وقيل التكرير لمجرد التأكيد كما فى قوله تعالى كلا سوف تعلمون ثم

كلا سوف تعلمون ونظائره وقيل المراد بالأول اتقاء الكفر وبالثانى اتقاء الكبائر وبالثالث اتقاء الصغائر ولا ريب فى أنه لا تعلق لهذه الاعتبارات بالمقام فأحسن التأمل (وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) تذييل مقرر لمضمون ما قبله أبلغ تقرير (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ) جواب قسم محذوف أى والله ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليتعرف أحوالكم (بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ) أى من صيد البر مأكولا أو غير مأكول ما عدا المستثنيات من الفواسق فاللام للعهد نزلت عام الحديبية ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون كانت الوحوش تغشاهم فى رحالهم بحيث كانوا متمكنين من صيدها أخذا بأيديهم وطعنا برماحهم وذلك قوله تعالى (تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ) فهموا بأخذها فنزلت وروى أنه عن لهم حمار وحش فحمل عليه أبو اليسر بن عمرو فطعنه برمحه وقتله فقيل له قتلته وأنت محرم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عن ذلك فأنزل الله تعالى الآية فالتأكيد القسمى فى ليبلونكم إنما هو لتحقيق أن ما وقع من عدم توحش الصيد عنهم ليس إلا لابتلائهم لا لتحقيق وقوع المبتلى به كما لو كان النزول قبل الابتلاء وتنكير شىء للتحقير المؤذن بأن ذلك ليس من الفتن الهائلة التى تزل فيها أقدام الراسخين كالابتلاء بقتل الأنفس وإتلاف الأموال وإنما هو من قبيل ما ابتلى به أهل أيلة من صيد البحر وفائدته التنبيه على أن من لم يتثبت فى مثل هذا كيف يتثبت عند شدائد المحن فمن فى قوله تعالى من الصيد بيانية قطعا أى بشىء حقير هو الصيد وجعلها تبعيضية يقتضى اعتبار قلته وحقارته بالنسبة إلى كل الصيد لا بالنسبة إلى عظائم البلايا فيعرى الكلام عن التنبيه المذكور (لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ) أى ليتميز الخائف من عقابه الأخروى وهو غائب مترقب لقوة إيمانه فلا يتعرض للصيد ممن لا يخافه كذلك لضعف إيمانه فيقدم عليه وإنما عبر عن ذلك بعلم الله تعالى اللازم له إيذانا بمدار الجزاء ثوابا وعقابا فإنه أدخل فى حملهم على الخوف وقيل المعنى ليتعلق علمه تعالى بمن يخافه بالفعل فإن علمه تعالى بأنه سيخافه وإن كان متعلقا به قبل خوفه لكن تعلقه بأنه خائف بالفعل وهو الذى يدور عليه أمر الجزاء إنما يكون عند تحقق الخوف بالفعل وقيل هناك مضاف محذوف والتقدير ليعلم أولياء الله وقرىء ليعلم من الإعلام على حذف المفعول الأول أى ليعلم الله عباده الخ والعلم على القراءتين متعد إلى واحد وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة (فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ) أى بعد بيان أن ما وقع ابتلاء من جهته تعالى لما ذكر من الحكمة لا بعد تحريمه أو النهى عنه كما قاله بعضهم إذ النهى والتحريم ليس أمرا حادثا يترتب عليه الشرطية بالفاء ولا بعد الابتلاء كما اختاره آخرون لأن نفس الابتلاء لا يصلح مدارا لتشديد العذاب بل ربما يتوهم كونه عذرا مسوغا لتخفيفه وإنما الموجب للتشديد بيان كونه ابتلاء لأن الاعتداء بعد ذلك مكابرة صريحة وعدم مبالاة بتدبير الله تعالى وخروج عن طاعته وانخلاع عن خوفه وخشيته بالكلية أى فمن تعرض للصيد بعد ما بينا أن ما وقع من كثرة الصيد وعدم توحشه منهم ابتلاء مؤد إلى تميز المطيع من العاصى (فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) لما ذكر من أنه مكابرة محضة ولأن من لا يملك زمام نفسه ولا يراعى حكم الله تعالى فى أمثال هذه البلايا الهينة لا يكاد يراعيه فى عظائم المداحض والمراد بالعذاب الأليم عذاب الدارين قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يوسع ظهره وبطنه جلدا وينزع ثيابه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) شروع فى بيان ما يتدارك به الاعتداء من الأحكام إثر بيان ما يلحقه من العذاب والتصريح بالنهى فى قوله تعالى (لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ) مع كونه معلوما لا سيما من قوله تعالى غير محلى الصيد وأنتم حرم لتأكيد الحرمة وترتيب ما يعقبه عليه واللام فى الصيد للعهد حسبما سلف وحرم جمع حرام وهو المحرم وإن كان فى الحل وفى حكمه من فى الحرم وإن كان حلالا كردح جمع رادح والجملة حال من فاعل لا تقتلوا أى لا تقتلوه وأنتم محرمون (وَمَنْ قَتَلَهُ) أى الصيد المعهود وذكر القتل فى الموضعين دون الذبح للإيذان بكونه فى حكم الميتة (مِنْكُمْ) متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل قتله أى كائنا منكم (مُتَعَمِّدًا)

حال منه أيضا أى ذاكرا لاحرامه عالما بحرمة قتل مايقتله والتقييد بالتعمد مع أن محظورات الاحرام يستوى فيها العمد والخطأ لما أن الآية نزلت فى المتعمد كما مر من قصة أبى اليسر ولأن الأصل فعل المتعمد والخطأ لاحق به للتغليظ وعن الزهرى نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه لا أرى فى الخطأ شيئا أخذا باشتراط التعمد فى الآية وهو قول داود وعن مجاهد والحسن أن المراد بالتعمد هو تعمد القتل مع نسيان الاحرام أما إذا قتله عمدا وهو ذاكر لاحرامه فلا حكم عليه وأمره إلى الله عز وجل لأنه أعظم من أن يكون له كفارة (فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ) برفعهما أى فعليه جزاء مماثل لما قتله وقرىء برفع الأول ونصب الثانى على أعمال المصدر وقرىء بجر الثانى على إضافته إلى مفعوله وقرىء فجزاؤه مثل ما قتل على الابتداء والخبرية وقرىء بنصبهما على تقدير فليجز جزاء أو فعليه أن يجزى جزاء مثل ما قتل والمراد به عند أبى حنيفة وأبى يوسف رضى الله عنهما المثل باعتبار القيمة يقوم الصيد حيث صيد أو فى أقرب الاماكن اليه فان بلغت قيمته قيمة هدى يخير الجانى بين أن يشترى بها ماقيمته قيمة الصيد فيهديه إلى الحرم وبين أن يشترى بها طعاما فيعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوما فان فضل مالا يبلغ طعام مسكين تصدق به أو صام عنه يوما كاملا إذ لم يعهد فى الشرع صوم مادونه فيكون قوله تعالى (مِنَ النَّعَمِ) بيانا للهدى المشترى بالقيمة على أحد وجوه التخيير فان من فعل ذلك يصدق عليه أنه جزى بمثل ماقتل من النعم وعند مالك والشافعى رحمهما الله تعالى ومن يرى رأيهما هو المثل باعتبار الخلقة والهيئة لأن الله تعالى أوجب مثل المقتول مقيدا بالنعم فمن اعتبر المثل بالقيمة فقد خالف النص وعن الصحابة رضى الله عنهم أنهم أوجبوا فى النعامة بدنة وفى الظبى شاة وفى الحمار الوحش بقرة وفى الأرنب عناقا وعن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال الضبع صيد وفيه شاة إذا قتله المحرم ولنا أن النص أوجب المثل والمثل المطلق فى الكتاب والسنة وإجماع الأمة والمعقول يراد به اما المثل صورة ومعنى واما المثل معنى وأما المثل صورة بلا معنى فلا اعتبار له فى الشرع أصلا وإذا لم يمكن ارادة الأول اجماعا تعينت ارادة الثانى لكونه معهودا فى الشرع كما فى حقوق العباد ألا يرى أن المماثلة بين أفراد نوع واحد مع كونها فى غاية القوة والظهور لم يعتبرها الشرع ولم يجعل الحيوان عند الاتلاف مضمونا بفرد آخر من نوعه مماثل له فى عامة الأوصاف بل مضمونا بقيمته مع أن المنصوص عليه فى أمثاله إنما هو المثل قال تعالى فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم فحيث لم تعتبر تلك المماثلة القوية مع تيسر معرفتها وسهولة مراعاتها فلأن لا تعتبر ما بين أفراد أنواع مختلفة من المماثلة الضعيفة الخفية مع صعوبة مأخذها وتعسر المحافظة عليها أولى وأحرى ولأن القيمة قد أريدت فيما لا نظير له اجماعا فلم يبق غيره مرادا إذ لا عموم للمشترك فى مواقع الاثبات والمراد بالمروى إيجاب النظير باعتبار القيمة لا باعتبار العين ثم الموجب الأصلى للجناية والجزاء المماثل للمقتول إنما هو قيمته لكن لا باعتبار أن يعمد الجانى اليها فيصرفها إلى المصارف ابتداء بل باعتبار أن يجعلها معيارا فيقدر بها احدى الخصال الثلاث فيقيمها مقامها فقوله تعالى مثل ماقتل وصف لازم للجزاء غير مفارق عنه بحال وأما قوله تعالى من النعم فوصف له معتبر فى ثانى الحال بناء على وصفه الأول الذى هو المعيار له ولما بعده من الطعام والصيام فحقهما أن يعطفا على الوصف المفارق لا على الوصف اللازم فضلا عن العطف على الموصوف كما سيأتى بإذن الله تعالى ومما يرشدك إلى أن المراد بالمثل هو القيمة قوله عز وجل (يَحْكُمُ بِهِ) أى بمثل ماقتل (ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) أى حكمان عادلان من المسلمين لكن لا لأن التقويم هو الذى يحتاج إلى النظر والاجتهاد من العدول دون الأشياء المشاهدة التى يستوى فى معرفتها كل أحد من الناس فان ذلك ناشىء من الغفلة عما أرادوا بما به المماثلة بل لأن ماجعلوه مدار المماثلة بين الصيد وبين النعم من ضرب مشاكلة ومضاهاة فى بعض الأوصاف والهيئات

مع تحقق التباين بينهما فى بقية الأحوال مما لايهتدى اليه من أساطين أئمة الاجتهاد وصناديد أهل الهداية والارشاد الا المؤيدون بالقوة القدسية ألا يرى أن الامام الشافعى رضى الله عنه أوجب فى قتل الحمامة شاة بناء على ما أثبت بينهما من المماثلة من حيث أن كلا منهما يعب ويهدر مع أن النسبة بينهما من سائر الحيثيات كما بين الضب والنون فكيف يفوض معرفة أمثال هذه الدقائق العويصة إلى رأى عدلين من آحاد الناس على أن الحكم بهذا المعنى إنما يتعلق بالأنواع لا بالأشخاص فبعد ماعين بمقابلة كل نوع من أنواع الصيد نوع من أنواع النعم يتم الحكم ولا يبقى عند وقوع خصوصيات الحوادث حاجة إلى حكم أصلا وقرىء يحكم به ذو عدل على ارادة جنس العادل دون الوحدة وقيل بل على ارادة الامام والجملة صفة لجزاء أو حال منه لتخصصه بالصفة وقوله تعالى (هَدْيًا) حال مقدرة من الضمير فى به أو من جزاء لما ذكر من تخصصه بالصفة أو بدل من مثل فيمن نصبه أو من محله فيمن جره أو نصب على المصدر أى يهديه هديا والجملة صفة أخرى لجزاء (بَالِغَ الْكَعْبَةِ) صفة لهديا لأن الاضافة غير حقيقية (أَوْ كَفَّارَةٌ) عطف على محل من النعم على أنه خبر مبتدا محذوف والجملة صفة ثانية لجزاء كما أشير اليه وقوله تعالى (طَعَامُ مَسَاكِينَ) عطف بيان لكفارة عند من لا يخصصه بالمعارف أو بدل منه أو خبر مبتدا محذوف أى هى طعام مساكين وقوله تعالى (أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا) عطف على طعام الخ كأنه قيل فعليه جزاء مماثل للمقتول هو من النعم أو طعام مساكين أو صيام أيام بعددهم فحينئذ تكون المماثلة وصفا لازما للجزاء يقدر به الهدى والطعام والصيام أما الاولان فبلا واسطة وأما الثالث فبواسطة الثانى فيختار الجانى كلا منها بدلا من الآخرين هذا وقد قيل ان قوله تعالى أو كفارة عطف على جزاء فلا يبقى حينئذ فى النظم الكريم ما يقدر به الطعام والصيام والالتجاء إلى القياس على الهدى تعسف لا يخفى هذا على قراءة جزاء بالرفع وعلى سائر القراءات فقوله تعالى أو كفارة خبر مبتدا محذوف والجملة معطوفة على جملة هو من النعم وقرىء أو كفارة طعام مساكين بالاضافة لتبيين نوع الكفارة وقرىء طعام مسكين على أن التبيين يحصل بالواحد الدال على الجنس وقرىء أو عدل بكسر العين والفرق بينهما أن عدل الشىء ما عادله من غير جنسه كالصوم والاطعام وعدله ما عدل به فى المقدار كأن المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول وذلك اشارة إلى الطعام وصياما تمييز للعدل والخيار فى ذلك للجانى عند أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله وللحكمين عند محمد رحمه الله (لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ) متعلق بالاستقرار فى الجار والمجرور أى فعليه جزاء ليذوق الخ وقيل بفعل يدل عليه الكلام كأنه قيل شرع ذلك عليه ليذوق وبال أمره أى سوء عاقبة هتكه لحرمة الاحرام والوبال فى الأصل المكروه والضرر الذى ينال فى العاقبة من عمل سوء لثقله ومنه قوله تعالى فأخذناه أخذا وبيلا ومنه الطعام الوبيل وهو الذى لا تستمرئه المعدة (عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ) من قتل الصيد محرما قبل أن يسألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام وقيل عما سلف منه فى الجاهلية لأنهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرما (وَمَنْ عَادَ) إلى قتل الصيد بعد النهى عنه وهو محرم (فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ) خبر مبتدا محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه ولذلك دخلت الفاء كقوله تعالى فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا أى فذلك لا يخاف الخ وقوله تعالى ومن كفر فأمتعه أى فأنا أمتعه والمراد بالانتقام التعذيب فى الآخرة وأما الكفارة فمن عطاء وابراهيم وسعيد بن جبير والحسن أنها واجبة على العائد وعن ابن عباس رضى الله عنهما وشريح أنه لا كفارة عليه تعلقا بالظاهر (وَاللَّهُ عَزِيزٌ) غالب لا يغالب (ذُو انْتِقَامٍ) شديد فينتقم ممن أصر على المعصية والاعتداء (أُحِلَّ لَكُمْ) الخطاب للمحرمين (صَيْدُ الْبَحْرِ) أى ما يصاد فى المياه كلها بحرا كان أو نهرا أو غديرا وهو ما لا يعيش الا فى الماء مأكولا أو غير مأكول (وَطَعَامُهُ) أى وما يطعم من صيده وهو تخصيص بعد تعميم والمعنى

أحل لكم التعرض لجميع مايصاد فى المياه والانتفاع به وأكل ما يؤكل منه وهو السمك عندنا وعند ابن أبى ليلى جميع مايصاد فيه على أن تفسير الآية عنده أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه وقرىء وطعمه وقيل صيد البحر ماصيد فيه وطعامه ماقذفه أو نضب عنه (مَتٰعًا لَّكُمْ) نصب على أنه مفعول له مختص بالطعام كما أن نافلة فى قوله تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة حال مختصة بيعقوب عليه السلام أى أحل لكم طعامه تمتيعا للمقيمين منكم يأكلونه طريا (وَلِلسَّيَّارَةِ) منكم يتزودونه قديدا وقيل نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر أى متعكم به متاعا وقيل مؤكد لمعنى أحل لكم فانه فى قوة متعكم به تمتيعا كقوله تعالى كتاب الله عليكم (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ) وقرىء على بناء الفعل للفاعل ونصب صيد البر وهو مايفرخ فيه وإن كان يعيش فى الماء فى بعض الأوقات كطير الماء (مَادُمْتُمْ حُرُمًا) أى محرمين وقرىء بكسر الدال من دام يدام وظاهره يوجب حرمة ماصاده الحلال على المحرم وإن لم يكن له مدخل فيه وهو قول عمر وابن عباس رضى الله عنهم وعن أبى هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير رضى الله عنهم أنه يحل له أكل ماصاده الحلال وإن صاده لأجله إذا لم يشر اليه ولم يدل عليه وكذا ماذبحه قبل احرامه وهو مذهب أبى حنيفة لأن الخطاب للمحرمين فكأنه قيل وحرم عليكم ماصدتم فى البر فيخرج منه مصيد غيرهم وعند مالك والشافعى وأحمد لايباح ماصيد له (وَاتَّقُوا اللّٰهَ) فيما نهاكم عنه أو فى جميع المعاصى التى من جملتها ذلك (الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) لا إلى غيره حتى يتوهم الخلاص من أخذه تعالى بالالتجاء اليه (جَعَلَ اللّٰهُ الْكَعْبَةَ) قال مجاهد سميت كعبة لكونها مكعبة مربعة وقيل لانفرادها من البناء وقيل لارتفاعها من الأرض ونتوئها وقوله تعالى (الْبَيْتَ الْحَرَامَ) عطف بيان على جهة المدح دون التوضيح كما تجىء الصفة كذلك وقيل مفعول ثان لجعل وقوله تعالى (قِيٰمًا لِّلنَّاسِ) نصب على الحال ويرده عطف مابعده على المفعول الأول كما سيجىء بل هذا هو المفعول الثانى وقيل الجعل بمعنى الانشاء والخلق وهو حال كما مر ومعنى كونه قياما لهم أنه مدار لقيام أمر دينهم ودنياهم إذ هو سبب لانتعاشهم فى أمور معاشهم ومعادهم يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف ويربح فيه التجار ويتوجه اليه الحجاج والعمار وقرىء قيما على أنه مصدر على وزن شبع أعل عينه بما أعل فى فعله (وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ) أى الذى يؤدى فيه الحج وهو ذو الحجة وقيل جنس الشهر الحرام وهو ومابعده عطف على الكعبة فالمفعول الثانى محذوف ثقة بما مر أى وجعل الشهر الحرام (وَالْهَدْىَ وَالْقَلٰٓئِدَ) أيضا قياما لهم والمراد بالقلائد ذوات القلائد وهى البدن خصت بالذكر لأن الثواب فيها أكثر وبهاء الحج بها أظهر (ذٰلِكَ) إشارة إلى الجعل المذكور خاصة أو مع ماذكر من الأمر بحفظ حرمة الإحرام وغيره ومحله النصب بفعل مقدر يدل عليه السياق وهو العامل فى اللام بعده أى شرع ذلك (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) فان تشريع هذه الشرائع المستتبعة لدفع المضار الدينية والدنيوية قبل وقوعها وجلب المنافع الأولوية والأخروية من أوضح الدلائل على حكمة الشارع وعدم خروج شىء عن علمه المحيط وقوله تعالى (وَأَنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) تعميم اثر تخصيص للتأكيد ويجوز أن يراد بما فى السموات والأرض الاعيان الموجودة فيهما وبكل شىء الأمور المتعلقة بتلك الموجودات من العوارض والأحوال التى هى من قبيل المعانى (اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) وعيد لمن انتهك محارمه أو أصر على ذلك وقوله تعالى (وَأَنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وعد لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى أو أقلع عن الانتهاك بعد تعاطيه ووجه تقديم الوعيد ظاهر (مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلٰغُ) تشديد فى إيجاب القيام بما أمر به أى الرسول قد أتى بما وجب عليه من التبليغ بما لامزيد عليه وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم من بعد فى التفريط (وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) فيؤاخذكم بذلك نقيرا وقطميرا (قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ) حكم عام فى نفى المساواة عند الله تعالى

بين الردىء من الاشخاص والاعمال والاموال وبين جيدها قصد به الترغيب فى جيد كل منها والتحذير عن رديئها وإن كان سبب النزول شريح بن ضبعة البكرى الذى مرت قصته فى تفسير قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله الخ وقيل نزل فى رجل سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام إن الخمر كانت تجارتى وإنى اعتقدت من بيعها مالا فهل ينفعنى من ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله تعالى فقال النبى عليه الصلاة والسلام إن أنفقته فى حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل جناح بعوضة إن الله لا يقبل إلا الطيب وقال عطاء والحسن رضى الله عنهما الخبيث والطيب الحرام والحلال وتقديم الخبيث فى الذكر للاشعار من أول الامر بأن القصور الذى ينبىء عنه عدم الاستواء فيه لا فى مقابله فان مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر كما فى قوله تعالى هل يستوى الاعمى والبصير إلى غير ذلك وأما قوله تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فلعل تقديم الفاضل فيه لما أن صلته ملكة لصلة المفضول (وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ) أى وإن سرك كثرته والخطاب لكل واحد من الذين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بخطابهم والواو لعطف الشرطية على مثلها المقدر وقيل للحال وقدر أى لو لم تعجبك كثرة الخبيث ولو أعجبتك وكلتاهما فى موقع الحال من فاعل لا يستوى أى لا يستويان كائنين على كل حال مفروض كما فى قولك أحسن إلى فلان وإن أساء اليك أى أحسن اليه ان لم يسىء اليك وان أساء اليك أى كائنا على كل حال مفروض وقد حذفت الاولى حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فان الشىء اذا تحقق مع المعارض فلأن يتحقق بدونه أولى وعلى هذا السر يدور ما فى لو وان الوصليتين من المبالغة والتأكيد وجواب لو محذوف فى الجملتين لدلالة ما قبلهما عليه وسيأتى تمام تحقيقه فى مواقع عديدة باذن الله عز وجل (فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) أى فى تحرى الخبيث وان كثر وآثروا عليه الطيب وان قل فان مدار الاعتبار هو الجودة والرداءة لا الكثرة والقلة فالمحمود القليل خير من المذموم الكثير بل كلما كثر الخبيث كان أخبث (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) راجين أن تنالوا الفلاح (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ) هو اسم جمع على رأى الخليل وسيبويه وجمهور البصريين كطرفاء وقصباء أصله شيآء بهمزتين بينهما الف فقلبت الكلمة بتقديم لامها على فائها فصار وزنها لفعاء ومنعت الصرف لالف التأنيث الممدودة وقيل هو جمع شىء على أنه مخفف من شيىء كهين مخفف من هين والاصل أشيئاء كما هو نا بزنة أفعلاء فاجتمعت همزتان لام الكلمة والتى للتأنيث اذ الالف كالهمزة فخففت الكلمة بأن قلبت الهمزة الأولى ياء لانكسار ما قبلها فصارت أشيياء فاجتمعت ياءان أولاهما عين الكلمة فحذفت تخفيفا فصارت أشياء وزنها أفلاء ومنعت الصرف لألف التأنيث وقيل انما حذفت من أشيياء الياء المنقلبة من الهمزة التى هى لام الكلمة وفتحت الياء المكسورة لتسلم الف الجمع فوزنها أفعاء وقوله تعالى (إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) صفة لأشياء داعية الى الانتهاء عن السؤال عنها وحيث كانت المساءة فى هذه الشرطية معلقة بابدائها لا بالسؤال عنها عقبت بشرطية أخرى ناطقة باستلزام السؤال عنها لابدائها الموجب للمحذور قطعا فقيل (وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ) أى تلك الاشياء الموجبة للمساءة بالوحى كما ينبىء عنه تقييد السؤال بحين التنزيل والمراد بها ما يشق عليهم ويغمهم من التكاليف الصعبة التى لا يطيقون بها والاسرار الخفية التى يفتضحون بظهورها ونحو ذلك مما لا خير فيه فكما أن السؤال عن الأمور الواقعة مستتبع لابدائها كذلك السؤال عن تلك التكاليف مستتبع لايجابها عليهم بطريق التشديد لاساءتهم الادب واجترائهم على المسألة والمراجعة وتجاوزهم عما يليق بشأنهم من الاستسلام لامر الله عز وجل من غير بحث فيه ولا تعرض لكيفيته وكميته أى لا تكثروا مساءلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما لا يعنيكم من نحو تكاليف شاقة عليكم ان أفتاكم بها وكلفكم اياها

حسبما أوحى اليه لم تطيقوا بها ونحو بعض أمور مستورة تكرهون بروزها وذلك مثل ماروى عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال إن الله تعالى كتب عليكم الحج فقام رجل من بنى أسد يقال له عكاشة بن محصن وقيل هو سراقة بن مالك فقال أفى كل عام يارسول الله فأعرض عنه حتى عاد مسألته ثلاث مرات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت مااستطعتم ولو تركتم لكفرتم فاتركونى ماتركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا أمرتكم بأمر فخذوا منه مااستطعتم واذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ومثل ماروى عن أنس وأبى هريرة رضى الله عنهما أنه سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء حتى أحفوه فى المسألة فقام عليه الصلاة والسلام مغضبا خطيبا فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال سلونى فوالله ماتسألونى عن شىء مادمت فى مقامى هذا إلا بينته لكم فأشفق أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام أن يكون بين يدى أمر قد حضر قال أنس رضى الله عنه فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فلا أجد رجلا إلا وهو لاف رأسه فى ثوبه يبكى فقام رجل من قريش من بنى سهم يقال له عبد الله بن حذافة وكان إذا لاحى الرجال يدعى إلى غير أبيه وقال يانبى الله من أبى فقال عليه الصلاة والسلام أبوك حذافة بن قيس الزهرى وقام آخر وقال أين أبى قال عليه الصلاة والسلام فى النار ثم قام عمر رضى الله عنه فقال رضينا بالله تعالى ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا نبيا نعوذ بالله تعالى من الفتن انا حديثو عهد بجاهلية وشرك فاعف عنا يارسول الله فسكن غضبه عليه الصلاة والسلام ﴿ عَفَا اللهُ عَنْهَا ﴾ استئناف مسوق لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتهم عن المساءة بل لأنها فى نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفا عنها وفيه من حثهم على الجد فى الانتهاء عنها مالا يخفى وضمير عنها للمسألة المدلول عليها بلا تسألوا أى عفا الله تعالى عن مسائلكم السالفة حيث لم يفرض عليكم الحج فى كل عام جزاء بمسألتكم وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية بسائر مسائلكم فلا تعودوا إلى مثلها وأما جعله صفة أخرى لأشياء على أن الضمير لها بمعنى لاتسألوا عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلفكم اياها فمما لاسبيل اليه أصلا لاقتضائه أن يكون الحج قد فرض أولا فى كل عام ثم نسخ بطريق العفو وأن يكون ذلك معلوما للمخاطبين ضرورة أن حق الوصف أن يكون معلوم الثبوت للموصوف عند المخاطب قبل جعله وصفاله وكلاهما ضرورى الانتفاء قطعا على أنه يستدعى اختصاص النهى بمسألة الحج ونحوها ان سلم بوقوعها مع أن النظم الكريم صريح فى أنه مسوق للنهى عن السؤال عن الأشياء التى يسوؤهم ابداؤها سواء كانت من قبيل الأحكام والتكاليف الموجبة لمساءتهم بانشائها وإيجابها بسبب السؤال عقوبة وتشديدا كمسألة الحج لولا عفوه تعالى عنها أومن قبيل الأمور الواقعة قبل السؤال الموجبة للمساءة بالاخبار بها كمسألة من قال أين أبى . إن قلت تلك الأشياء غير موجبة للمساءة البتة بل هى محتملة لايجاب المسرة أيضا لان ايجابها للاولى ان كان من حيث وجودها فهى من حيث عدمها موجبة للاخرى قطعا وليست إحدى الحيثيتين محققه عند السائل وانما غرضه من السؤال ظهورها كيف كانت بل ظهورها بحيثية ايجابها للمسرة فلم عبر عنها بحيثية ايجابها للمساءة قلت لتحقيق المنهى عنه كما ستعرفه مع مافيه من تأكيد النهى وتشديده لأن تلك الحيثية هى الموجبة للانتهاء والانزجار لاحيثية ايجابها للمسرة ولاحيثية ترددها بين الايجابين ان قيل الشرطية الثانية ناطقة بأن السؤال عن تلك الأشياء الموجبة للمساءة مستلزم لابدائها البتة كما مر فلم تخلف الابداء عن السؤال فى مسئلة الحج حيث لم يفرض فى كل عام قلنا لوقوع السؤال قبل ورود النهى وماذكر فى الشرطية انما هو السؤال الواقع بعد وروده إذ هو الموجب للتغليظ والتشديد ولا تخلف فيه . ان قيل ماذكرته انما يتمشى فيما إذا كان السؤال عن الأمور المترددة بين الوقوع وعدمه كما ذكر من التكاليف الشاقة وأما إذا كان عن الأمور الواقعة قبله

فلا يكاد يتسنى لأن مايتعلق به الابداء هو الذى وقع فى نفس الأمر ولا مرد له سواء كان السؤال قبل النهى أو بعده وقد يكون الواقع مايوجب المسرة كما فى مسئلة عبد الله بن حذافة فيكون هو الذى يتعلق به الابداء لاغيره فيتعين التخلف حتما قلنا لا احتمال للتخلف فضلا عن التعين فان المنهى عنه فى الحقيقة انما هو السؤال عن الأشياء الموجبة للمساءة الواقعة فى نفس الأمر قبل السؤال كسؤال من قال أين أبى لا عما يعمها وغيرها مما ليس بواقع لكنه محتمل للوقوع عند المكلفين حتى يلزم التخلف فى صورة عدم الوقوع وجملة الكلام أن مدلول النظم الكريم بطريق العبارة انما هو النهى عن السؤال عن الأشياء التى يوجب ابداؤها المساءة البتة اما بأن تكون تلك الأشياء بعرضية الوقوع فتبدى عند السؤال بطريق الإنشاء عقوبة وتشديدا كما فى صورة كونها من قبيل التكاليف الشاقة واما بأن تكون واقعة فى نفس الأمر قبل السؤال فتبدى عنده بطريق الإخبار بها فالتخلف ممتنع فى الصورتين معا ومنشأ توهمه عدم الفرق بين المنهى عنه وبين غيره بناء على عدم امتيازما هو موجود أو بعرضية الوجود من تلك الأشياء فى نفس الأمر وماليس كذلك عند المكلفين وملاحظتهم للكل باحتمال الوجود والعدم وفائدة هذا الابهام الانتهاء عن السؤال عن تلك الأشياء على الاطلاق حذارا ابداء المكروه (وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) اعتراض تذييلى مقرر لعفوه تعالى أى مبالغ فى مغفرة الذنوب والإغضاء عن المعاصى ولذلك عفا عنكم ولم يؤاخذكم بعقوبة مافرط منكم (قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ) أى سألوا هذه المسألة لكن لا عينها بل مثلها فى كونها محظورة ومستتبعة للوبال وعدم التصريح بالمثل للمبالغة فى التحذير (مِّن قَبْلِكُمْ) متعلق بسألها (ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا) أى بسببها أو بمرجوعها (كَٰفِرِينَ) فان بنى اسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم فى أشياء فاذا أمروا بها تركوها فهلكوا (مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ) رد وإبطال لما ابتدعه أهل الجاهلية حيث كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أى شقوها وحرموا ركوبها ودرها ولا تطرد عن ماء ولا عن مرعى وكان يقول الرجل إذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضى فناقتى سائبة وجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها وقيل كان الرجل اذا أعتق عبدا قال هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث واذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم وإن ولد ذكرا فهو لآلهتهم وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم واذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى ومعنى ماجعل ماشرع وماوضع ولذلك عدى إلى مفعول واحد هو بحيرة وماعطف عليها ومن مزيدة لتأكيد النفى فان الجعل التكوينى كما يجىء تارة متعديا إلى مفعولين وأخرى إلى واحد كذلك الجعل التشريعى يجىء مرة متعديا إلى مفعولين كما فى قوله تعالى جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس وأخرى إلى واحد كما فى الآية الكريمة (وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ) حيث يفعلون مايفعلون ويقولون الله أمرنا بهذا وامامهم عمرو بن لحى فانه أول من فعل هذه الأفاعيل الباطلة هذا شأن رؤسائهم وكبرائهم (وَأَكْثَرُهُمْ) وهم أراذلهم الذين يتبعونهم من معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يشهد به سياق النظم الكريم (لَا يَعْقِلُونَ) أنه افتراء باطل حتى يخالفوهم ويهتدوا إلى الحق بأنفسهم فيبقون فى أسر التقليد وهذا بيان لقصور عقولهم وعجزهم عن الاهتداء بأنفسهم وقوله عز وجل (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ) أى للذين عبر عنهم بأكثرهم على سبيل الهداية والإرشاد (تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ) من الكتاب المبين للحلال والحرام (وَإِلَى ٱلرَّسُولِ) الذى أنزل هو عليه لتقفوا على حقيقة الحال وتميزوا الحرام من الحلال (قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا) بيان لعنادهم واستعصائهم على الهادى إلى الحق وانقيادهم للداعى إلى الضلال (أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ) قيل الواو للحال دخلت عليها

الهمزة للانكار والتعجيب أى أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم جهلة ضالين وقيل للعطف على شرطية أخرى مقدرة قبلها وهو الأظهر والتقدير أحسبهم ذلك أو أيقولون هذا القول لو لم يكن آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا لا يعلمون الخ وكلتاهما فى موقع الحال أى أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم كائنين على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة كيف لا وأن الشىء إذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى كما فى قولك أحسن إلى فلان وان أساء اليك أى أحسن اليه ان لم يسىء إليك وان أساء أى أحسن إليه كائنا على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها دلالة ظاهرة إذ الاحسان حيث أمر به عند المانع فلأن يؤمر به عند عدمه أولى وعلى هذا السر يدور ما فى ان ولو الوصليتين من المبالغة والتأكيد وجواب لو محذوف لدلالة ما سبق عليه أى لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون حسبهم ذلك أو يقولون ذلك وما فى لو من معنى الامتناع والاستبعاد انما هو بالنظر إلى زعمهم لا إلى نفس الأمر وفائدته المبالغة فى الانكار والتعجيب ببيان أن ما قالوه موجب للانكار والتعجيب إذا كان كون آبائهم جهلة ضالين فى حيز الاحتمال البعيد فكيف إذا كان ذلك واقعا لاريب فيه وقيل مآل الوجهين واحد لأن الجملة المقدرة حال فكذا ما عطف عليها وأنت خبير بأن الحال على الوجه الأخير مجموع الجملتين لا الأخيرة فقط وأن الواو للعطف لا للحال وقد مر التحقيق فى قوله تعالى أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون فتدبر (يَٰأيها الذين ءامنوا عليكم أنفسكم) أى الزموا أمر أنفسكم وإصلاحها وقرىء بالرفع على الابتداء أى واجبة عليكم أنفسكم وقوله عز وجل (لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) اما مجزوم على أنه جواب للامر أو نهى مؤكد له وانما ضمت الراء اتباعا لضمة الضاد المنقولة اليها من الراء المدغمة إذ الأصل لا يضرركم ويؤيده القراءة بفتح الراء وقراءة من قرأ لا يضركم بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره واما مرفوع على أنه كلام مستأنف فى موقع التعليل لما قبله ويعضده قراءة من قرأ لا يضيركم أى لا يضركم ضلال من ضل إذا كنتم مهتدين ولا يتوهمن أن فيه رخصة فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع استطاعتهما كيف لا ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر حسبما تفى به الطاقة قال عليه الصلاة والسلام من رأى منكم منكرا فاستطاع أن يغيره فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وقد روى أن الصديق رضى الله تعالى عنه قال يوما على المنبر يا أيها الناس انكم تقرءون هذه الآية وتضعونها غير موضعها ولا تدرون ما هى وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيروه عمهم الله بعقاب فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ولا تغتروا بقول الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا الخ فيقول أحدكم على نفسى والله لتأمرن بالمعروف وتنهن عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لهم وعنه عليه الصلاة والسلام ما من قوم عمل فيهم منكر أو سن فيهم قبيح فلم يغيروه ولم ينكروه الا وحق على الله تعالى أن يعمهم بالعقوبة جميعا ثم لا يستجاب لهم والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة وكانوا يتمنون ايمانهم وهم من الضلال بحيث لا يكادون يرعوون عنه بالأمر والنهى وقيل كان الرجل إذا أسلم لاموه وقالوا له سفهت آباءك وضللتهم أى نسبتهم إلى السفاهة والضلال فنزلت تسلية له بأن ضلال آبائه لا يضره ولا يشينه (إلى الله) لا إلى أحد سواه (مرجعكم) رجوعكم يوم القيامة (جميعا) بحيث لا يتخلف عنه أحد من المهتدين وغيرهم (فينبئكم بما كنتم تعملون) فى الدنيا من أعمال الهداية والضلال فهو وعد ووعيد للفريقين وتنبيه على أن أحدا لا يؤاخذ بعمل غيره (يَٰأيها الذين ءامنوا) استئناف مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بأمور دنياهم اثر بيان الأحوال المتعلقة بأمور دينهم وتصديره بحرف النداء والتنبيه لاظهار كمال العناية بمضمونه وقوله عز

وجل (شهادة بينكم) بالرفع والاضافة إلى الظرف توسعا اما باعتبار جريانها بينهم أو باعتبار تعلقها بما يجرى بينهم من الخصومات مبتدأ وقوله تعالى (إذا حضر أحدكم الموت) أى شارفه وظهرت علائمه ظرف لها وتقديم المفعول لافادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها فانه أدخل فى تهوين أمر الموت وقوله تعالى (حين الوصية) بدل منه لاظرف للموت كما توهم ولا لحضوره كما قيل فان فى الابدال تنبيها على أن الوصية من المهمات المقررة التى لا ينبغى أن يتهاون بها المسلم ويذهل عنها وقوله تعالى (اثنان) خبر للمبتدا بتقدير المضاف أى شهادة بينكم حينئذ شهادة اثنين أو فاعل شهادة بينكم على أن خبرها محذوف أى فيما نزل عليكم أن يشهد بينكم اثنان وقرىء شهادة بالرفع والتنوين والاعراب كما سبق وقرىء شهادة بالنصب والتنوين على أن عاملها مضمر هو العامل فى اثنان أيضا أى ليقم شهادة بينكم اثنان (ذوا عدل منكم) أى من أقاربكم لأنهم أعلم بأحوال الميت وأنصح له وأقرب إلى تحرى ماهو أصلح له وقيل من المسلمين وهما صفتان لاثنان (أو آخران) عطف على اثنان تابع له فيما ذكر من الخبرية والفاعلية أى أو شهادة آخرين أو أن يشهد بينكم آخران أو ليقم شهادة بينكم آخران وقوله تعالى (من غيركم) صفة لآخران أى كائنان من غيركم أى من الأجانب وقيل من أهل الذمة وقد كان ذلك فى بدء الاسلام لعزة وجود المسلمين لاسيما فى السفر ثم نسخ وعن مكحول أنه نسخها قوله تعالى واشهدوا ذوى عدل منكم (إن أنتم) مرفوع بمضمر يفسره مابعده تقديره ان ضربتم فلما حذف الفعل انفصل الضمير وهذا رأى جمهور البصريين وذهب الأخفش والكوفيون إلى أنه مبتدأ بناء على جواز وقوع المبتدا بعد أن الشرطية كجواز وقوعه بعد إذا فقوله تعالى (ضربتم فى الأرض) أى سافرتم فيها لامحل له من الاعراب عند الأولين لكونه مفسرا ومرفوع على الخبرية عند الباقين وقوله تعالى (فأصابتكم مصيبة الموت) عطف على الشرطية وجوابه محذوف لدلالة ماقبله عليه أى ان سافرتم فقاربكم الأجل حينئذ ومامعكم من الأقارب أو من أهل الإسلام من يتولى أمر الشهادة كما هو الغالب المعتاد فى الأسفار فليشهد آخران أو فاستشهدوا آخرين أو فالشاهدان آخران كذا قيل والأنسب أن يقدر عين ماسبق أى فآخران على معنى شهادة بينكم شهادة آخرين أو فأن يشهد آخران على الوجوه المذكورة ثمة وقوله تعالى (تحبسونهما) استئناف وقع جوابا عما نشأ من اشتراط العدالة كأنه قيل فكيف نصنع ان ارتبنا بالشاهدين فقيل تحبسونهما أى تقفونهما وتصبرونهما للتحليف (من بعد الصلوة) وقيل هو صفة لآخران والشرط بجوابه المحذوف اعتراض فائدته الدلالة على أن اللائق اشهاد الاقارب أو أهل الاسلام وأما اشهاد الآخرين فعند الضرورة الملجئة اليه وأنت خبير بأن يقتضى اختصاص الحبس بالآخرين مع شموله للأولين أيضا قطعا على أن اعتبار اتصافهما بذلك يأباه مقام الأمر باشهادهما اذ ما له فآخران شأنهما الحبس والتحليف وان أمكن اتمام التقريب باعتبار قيد الارتياب بهما كما يفيده الاعتراض الآتى والمراد بالصلاة صلاة العصر وعدم تعيينها لتعينها عندهم بالتحليف بعدها لأنه وقت اجتماع الناس ووقت تصادم ملائكة الليل وملائكة النهار ولأن جميع أهل الأديان يعظمونه ويجتنبون فيه الحلف الكاذب وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام وقد حلف من حلف كما سيأتى وقيل بعد أى صلاة كانت لأنها داعية إلى النطق بالصدق وناهية عن الكذب والزور ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (فيقسمان بالله) عطف على تحبسونهما وقوله تعالى (إن ارتبتم) شرطية محذوفة الجواب لدلالة ماسبق من الحبس والاقسام عليه سيقت من جهته تعالى معترضة بين القسم وجوابه للتنبيه على اختصاص الحبس والتحليف بحال الارتياب أى أن الارتياب بهما الوارث منكم بخيانة وأخذ شىء من التركة فاحبسوهما وحلفوهما بالله وقوله تعالى (لانشترى به ثمنا) جواب للقسم وليس هذا من قبيل ما اجتمع فيه قسم وشرط فاكتفى بذكر جواب سابقهما

عن جواب الآخر كما هو الواقع غالبا فان ذلك إنما يكون عند سد جواب السابق مسد جواب اللاحق لاتحاد مضمونهما كما فى قولك والله ان أتيتنى لأكرمنك ولا ريب فى استحالة ذلك ههنا لأن القسم وجوابه كلاهما وقد عرفت أن الشرط من جهته تعالى والاشتراء هو استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه لابذله لتحصيلها كما قيل وإن كان مستلزما له فان المعتبر فى عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب المعتبر فى عقد البيع ثم استعير لأخذ شىء بإزالة ماعنده عينا كان أو معنى على وجه الرغبة فى المأخوذ والاعراض عن الزائل كما هو المعتبر فى المستعار منه حسبما مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والضمير فى به لله والمعنى لانأخذ لأنفسنا بدلا من الله أى من حرمته عرضا من الدنيا بأن نهتكها ونزيلها بالحلف الكاذب أى لانحلف بالله كاذبين لأجل المال وقيل الضمير للقسم فلا بد من تقدير مضاف البتة أى لانستبدل بصحة القسم بالله أى لانأخذ لانفسنا بدلا منها عرضا من الدنيا بأن نزيل عنه وصف الصدق ونصفه بالكذب أى لانحلف كاذبين كما ذكر والافلا سداد للمعنى سواء أريد به القسم الصادق أو الكاذب أما ان أريد به الكاذب فلأنه يفوت حينئذ ماهو المعتبر فى الاستعارة من كون الزائل شيئا مرغوبا فيه عند الحالف كحرمة اسم الله تعالى ووصف الصحة والصدق فى القسم ولا ريب فى أن القسم الكاذب ليس كذلك وأما ان أريد به الصادق فلأنه وان أمكن أن يتوسل باستعماله إلى عرض الدنيا كالقسم الكاذب لكن لامحذور فيه وأما التوسل اليه بترك استعماله فلا امكان له ههنا حتى يصح التبرؤ منه وانما يتوسل اليه باستعمال القسم الكاذب وليس استعماله من لوازم ترك استعمال الصادق ضرورة جواز تركهما معا حتى يتصور جعل ما أخذ باستعماله مأخوذا بترك استعمال الصادق كما فى صورة تقدير المضاف فان إزالة وصف الصدق عن القسم مع بقاء الموصوف مستلزمة لثبوت وصف الكذب له البتة فتأمل وقوله تعالى (وَلَوْ كَانَ) أى المقسم له المدلول عليه بفحوى الكلام (ذَا قُرْبَىٰ) أى قريبا منا تأكيد لتبرئهم من الحلف كاذبا ومبالغة فى التنزه عنه كأنهما قالا لانأخذ لأنفسنا بدلا من حرمة اسمه تعالى مالا ولو انضم اليه رعاية جانب الاقرباء فكيف إذا لم يكن كذلك وصيانة أنفسهما وإن كانت أهم من رعاية الأقرباء لكنها ليست ضميمة للمال بل هى راجعة اليه وجواب لو محذوف ثقة بدلالة ماسبق عليه أى لانشترى به ثمنا والجملة معطوفة على أخرى مثلها كما فصل فى تفسير قوله تعالى ولو أعجبك الخ وقوله عز وجل (وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ) أى الشهادة التى أمرنا الله تعالى باقامتها معطوف على لانشترى به داخل معه فى حكم القسم وعن الشعبى أنه وقف على شهادة ثم ابتدأ آلله بالمد على حذف حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه وبغير مد كقولهم الله لأفعلن (إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ) أى ان كتمناها وقرىء لملاثمين بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وادخال النون فيها (فَإِنْ عُثِرَ) أى اطلع بعد التحليف (عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا) حسبما اعترفا به بقولهما إنا إذاً لمن الآثمين أى فعلا مايوجب اثما من تحريف وكتم بأن ظهر بأيديهما شىء من التركة وادعيا استحقاقهما له بوجه من الوجوه كما وقع فى سبب النزول حسبما سيأتى (فَآخَرَانِ) أى رجلان آخران وهو مبتدأ خبره (يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا) ولا محذور فى الفصل بالخبر بين المبتدا وبين وصفه الذى هو الجار والمجرور بعده أى يقومان مقام اللذين عثر على خيانتهما وليس المراد بمقامهما مقام أداء الشهادة التى توليها ولم يؤدياها كما هى بل هو مقام الحبس والتحليف على الوجه المذكور لاظهار الحق وابراز كذبهما فيما ادعيا من استحقاقهما لما فى أيديهما (مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ) على البناء للفاعل على قراءة على وابن عباس وأبى رضى الله عنهم أى من أهل الميت الذين استحق (عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ) من بينهم أى الأقربان إلى الميت الوارثان له الأحقان بالشهادة أى باليمين كما ستعرفه ومفعول استحق محذوف أى استحقا عليهم أن يجردوهما للقيام بها لأنها حقهما ويظهروا بهما كذب الكاذبين وهما فى الحقيقة الآخران القائمان مقام الأولين على وضع

المظهر مقام المضمر وقرىء على البناء للمفعول وهو الاظهر أى من الذين استحق عليهم الاثم أى جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته فالأوليان مرفوع على أنه خبر لمبتدا محذوف كأنه قيل ومن هما فقيل الأوليان أو هو بدل من الضمير فى يقومان أو من آخران وقد جوز ارتفاعه باستحق على حذف المضاف أى استحق عليهم انتداب الاولين منهم للشهادة وقرىء الاولين على أنه صفة للذين الخ مجرور أو منصوب على المدح ومعنى الأولية التقدم على الاجانب فى الشهادة لكونهم أحق بها وقرىء الاولين على التثنية وانتصابه على المدح وقرىء الأولان (فيقسمان بالله) عطف على يقومان (لشهادتنا) المراد بالشهادة اليمين كما فى قوله تعالى فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله أى ليميننا على أنهما كاذبان فيما ادعيا من الاستحقاق مع كونها حقة صادقة فى نفسها (أحق) بالقبول (من شهادتهما) أى من يمينهما مع كونها كاذبة فى نفسها لما أنه قد ظهر للناس استحقاقهما للاثم ويميننا منزهة عن الريب والريبة فصيغة التفضيل مع أنه لاحقية فى يمينهما رأسا إنما هى لامكان قبولها فى الجملة باعتبار احتمال صدقهما فى ادعاء تملكهما لما ظهر فى أيديهما (وما اعتدينا) عطف على جواب القسم أى ما تجاوزنا فيها الحق أو ما اعتدينا عليهما بابطال حقهما (إنا إذا لمن الظالمين) استئناف مقرر لما قبله أى انا ان اعتدينا فى يميننا لمن الظالمين أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى أو لمن الواضعين الحق فى غير موضعه ومعنى النظم الكريم أن المحتضر ينبغى أن يشهد على وصيته عدلين من ذوى نسبه أو دينه فان لم يجدهما بأن كان فى سفر فآخران من غيرهم ثم ان وقع ارتياب بهما أقسما على أنهما ما كتما من الشهادة ولا من التركة شيئا بالتغليظ فى الوقت فان اطلع بعد ذلك على كذبهما بأن ظهر بأيديهما شىء من التركة وادعيا تملكه من جهة الميت حلف الورثة وعمل بأيمانهم ولعل تخصيص الاثنين لخصوص الواقعة فانه روى أن تميم بن أوس الدارى وعدى ابن يزيد خرجا إلى الشأم للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل بن أبى مريم مولى عمرو بن العاص وكان مسلما مهاجرا فلما قدموا الشأم مرض بديل فكتب كتابا فيه جميع ما معه وطرحه فى متاعه ولم يخبرهما بذلك وأوصى اليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله ومات ففتشاه فوجدا فيه إناء من فضة وزنه ثلثمائة مثقال منقوشا بالذهب فغيباه ودفعا المتاع إلى أهله فأصابوا فيه الكتاب فطلبوا منهما الاناء فقالا ما ندرى إنما أوصى الينا بشىء وأمرنا أن ندفعه اليكم ففعلنا وما لنا بالاناء من علم فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل يا أيها الذين آمنوا الآية فاستحلفهما بعد صلاة العصر عند المنبر بالله الذى لا إله إلا هو أنهما لم يختانا شيأ مما دفع ولا كتما فحلفا على ذلك فخلى عليه الصلاة والسلام سبيلهما ثم ان الاناء وجد بمكة فقال من بيده اشتريته من تميم وعدى وقيل لما طالت المدة أظهراه فبلغ ذلك بنى سهم فطلبوه منهما فقالا كنا اشتريناه من بديل فقالوا ألم نقل لكما هل باع صاحبنا من متاعه شيأ فقلتما لا قالا ما كان لنا بينة فكرهنا أن نقر به فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله عز وجل فان عثر الآية فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبى وداعة السهميان فحلفا بالله بعد العصر أنهما كذبا وخانا فدفع الاناء اليهما وفى رواية إلى أولياء الميت واعلم أنهما ان كانا وارثين لبديل فلا نسخ إلا فى وصف اليمين فان الوارث لا يحلف على البتات والا فهو منسوخ (ذلك) كلام مستأنف سيق لبيان أن ما ذكر مستتبع للمنافع وارد على مقتضى الحكمة والمصلحة أى الحكم الذى تقدم تفصيله (أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) أى أقرب أن يؤدى الشهود الشهادة على وجهها الذى تحملوها عليه من غير تحريف ولا خيانة خوفا من العذاب الأخروى وهذا كما ترى حكمة شرعية التحليف بالتغليظ المذكور وقوله تعالى (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) بيان لحكمة شرعية رد اليمين على الورثة معطوف على مقدر ينبىء عنه المقام كأنه قيل ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عقاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح

على رؤس الأشهاد بابطال أيمانهم والعمل بأيمان الورثة فينزجروا عن الخيانة المؤدية اليه فأى الخوفين وقع حصل المقصد الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها وقيل هو عطف على يأتوا على معنى أن ذلك أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو إلى أن يخافوا الافتضاح برد اليمين على الورثة فلا يحلفوا على موجب شهادتهم إن لم يأتوا بها على وجهها فيظهر كذبهم بنكولهم وأما ما قيل من أن المعنى ان ذلك أقرب إلى أحد الأمرين اللذين أيهما وقع كان فيه الصلاح أداء الشهادة على الصدق والامتناع عن أدائها على الكذب فيأباه المقام إذ لا تعلق له بالحادثة أصلا ضرورة أن الشاهد مضطر فيها إلى الجواب فالامتناع عن الشهادة الكاذبة مستلزم للاتيان بالصادقة قطعا فليس هناك أمران أيهما وقع كان فيه الصلاح حتى يتوسط بينهما كلمة أو وإنما يتأتى ذلك فى شهود لم يتهموا بخيانة على أن إضافة الامتناع عن الشهادة الكاذبة إلى خوف رد اليمين على الورثة ونسبة الاتيان بالصادقة إلى غيره مع أن ما يقتضى أحدهما يقتضى الآخر لا محالة تحكم بحت فتأمل (واتَّقُوا اللهَ) فى مخالفة أحكامه التى من جملتها هذا الحكم (واسْمَعُوا) ما تؤمرون به كائنا ما كان سمع طاعة وقبول (واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الفَسِقِينَ) الخارجين عن الطاعة أى فان لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم فاسقين والله لا يهدى القوم الفاسقين أى إلى طريق الجنة أو إلى ما فيه نفعهم (يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرسلَ) نصب على أنه بدل اشتمال من مفعول اتقوا لما بينهما من الملابسة فان مدار البدلية ليس ملابسة الظرفية والمظروفية ونحوها فقط بل هو تعلق ما مصحح لانتقال الذهن من المبدل منه إلى البدل بوجه إجمالى كما فيما نحن فيه فان كونه تعالى خالق الأشياء كافة مالك يوم الدين خاصة كاف فى الباب مع أن الأمر بتقوى الله تعالى يتبادر منه إلى الذهن أن المتقى أى شأن من شئونه وأى فعل من أفعاله وقيل هناك مضاف محذوف به يتحقق الاشتمال أى اتقوا عقاب الله فحينئذ يجوز انتصابه منه بطريق الظرفية وقيل منصوب بمضمر معطوف على اتقوا وما عطف عليه أى واحذروا أو اذكروا يوم الخ فان تذكير ذلك اليوم الهائل مما يضطرهم إلى تقوى الله عز وجل وتلقى أمره بسمع الاجابة والطاعة وقيل هو ظرف لقوله تعالى لا يهدى أى لا يهديهم يومئذ إلى طريق الجنة كما يهدى اليه المؤمنين وقيل منصوب بقوله تعالى واسمعوا بحذف مضاف اسمعوا خبر ذلك اليوم وقيل منصوب بفعل مؤخر قد حذف للدلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة التامة والدواهى العامة كأنه قيل يوم يجمع الله الرسل فيقول الخ يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفى ببيانه نطاق المقال واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة وتشديد التهويل وتخصيص الرسل بالذكر ليس لاختصاص الجمع بهم دون الأمم كيف لا وذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وقد قال الله تعالى يوم ندعو كل أناس بامامهم بل لابانة شرفهم وأصالتهم والايذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم بناء على ظهور كونهم أتباعا لهم ولاظهار سقوط منزلتهم وعدم لياقتهم بالانتظام فى سلك جمع الرسل كيف لا وهم عليهم السلام يجمعون على وجه الاجلال وأولئك يسحبون على وجوههم بالاغلال (فَيَقُولُ) لهم مشير إلى خروجهم عن عهدة الرسالة كما ينبغى حسبما يعرب عنه تخصيص السؤال بجواب الأمم اعرابا واضحا وإلا لصدر الخطاب بأن يقال هل بلغتم رسالاتى وماذا فى قوله عز وجل (مَاذا أُجِبْتُمْ) عبارة عن مصدر الفعل فهو نصب على المصدرية أى أى إجابة أجبتم من جهة أممكم إجابة قبول أو إجابة رد وقيل عبارة عن الجواب فهو فى محل النصب بعد حذف الجار عنه أى بأى جواب أجبتم وعلى التقديرين ففى توجيه السؤال عما صدر عنهم وهم شهود إلى الرسل عليهم السلام كسؤال الموءودة بمحضر من الوائد والعدول عن إسناد الجواب اليهم بأن يقال ماذا أجابوا من الأنباء عن كمال تحقير شأنهم وشدة الغيظ والسخط عليهم ما لا يخفى (قَالُوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا يقول الرسل عليهم السلام هنالك فقيل يقولون (لا عِلْمَ لَنَا) وصيغة الماضى

للدلالة على التقرر والتحقق كما فى قوله تعالى ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الأعراف ونظائرها وانما يقولون ذلك تفويضا للأمر إلى علمه تعالى وإحاطته بما اعتراهم من جهتهم من مقاساة الاهوال ومعاناة الهموم والأوجال وعرضا لعجزهم عن بيانه لكثرته وفظاعته (إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ الْغُيُوبِ) تعليل لذلك أى فتعلم ما أجابوا وأظهروا وما لم نعلمه مما أضمروه فى قلوبهم وفيه اظهار للشكاة ورد للامر إلى علمه تعالى بما لقوا من قبلهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاء إلى ربهم فى الانتقام منهم وقيل المعنى لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا وإنما الحكم للخاتمة ورد ذلك بأنهم يعرفونهم بسيماهم فكيف يخفى عليهم أمرهم وأنت خبير بأن مرادهم حينئذ أن بعضهم كانوا فى زمانهم على الحق ثم صاروا كفرة وعن ابن عباس ومجاهد والسدى رضى الله عنهم أنهم يفزعون من أول الأمر ويذهلون عن الجواب ثم يجيبون بعدما ثابت اليهم عقولهم بالشهادة على أممهم ولا يلائمه التعليل المذكور وقيل المراد به المبالغة فى تحقيق فضيحتهم وقرىء علام الغيوب بالنصب على النداء أو الاختصاص بالمدح على أن الكلام قد تم عند قوله تعالى أنت أى انك أنت المنعوت بنعوت كمالك المعروف بذلك (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ) شروع فى بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيل اثر بيان ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الاجمال ليكون ذلك كالانموذج لتفاصيل أحوال الباقين وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلا من بين شئون سائر الرسل عليهم السلام مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعيت عليهم فى السورة الكريمة جناياتهم فتفصيله أعظم عليهم وأجلب لحسرتهم وندامتهم وأفت فى أعضادهم وأدخل فى صرفهم عن غيهم وعنادهم واذ بدل من يوم يجمع الله الخ وصيغة الماضى لما ذكر من الدلالة على تحقق الوقوع وإظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار لما مر من المبالغة فى التهويل وكلمة على فى قوله تعالى (اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ) متعلقة بنفس النعمة ان جعلت مصدرا أى اذكر انعامى عليكما أو بمحذوف هو حال منها إن جعلت اسما أى اذكر نعمتى كائنة عليكما وليس المراد بأمره عليه السلام يومئذ بذكر النعمة المنتظمة فى سلك التعديد تكليفه عليه السلام شكرها والقيام بمواجبها ولات حين تكليف مع خروجه عليه السلام عن عهدة الشكر فى أوانه أى خروج بل اظهار أمره عليه السلام بتعداد تلك النعم حسبما بينه الله تعالى اعتدادا بها وتلذذا بذكرها على رؤس الأشهاد لتكون حكاية ذلك على ما أنبأ عنه النظم الكريم توبيخا ومزجرة للكفرة المختلفين فى شأنه عليه السلام افراطا وتفريطا وابطالا لقولهما جميعا (إِذْ أَيَّدتُّكَ) ظرف لنعمتى أى اذكر انعامى عليكما وقت تأييدى لك أو حال منها أى اذكرها كائنة وقت تأييدى لك وقرىء آيدتك والمعنى واحد أى قويتك (بِرُوحِ الْقُدُسِ) بجبريل عليه السلام لتثبيت الحجة أو بالكلام الذى يحيى به الدين واضافته الى القدس لأنه سبب الطهر عن أوضار الآثام أو يحيى به الموتى أو النفوس حياة أبدية وقيل الأرواح مختلفة الحقائق فمنها طاهرة نورانية ومنها خبيثة ظلمانية ومنها مشرقة ومنها كدرة ومنها حرة ومنها نذلة وكان روحه عليه السلام طاهرة مشرقة نورانية علوية وأيا ما كان فهو نعمة عليهما (تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا) استئناف مبين لتأييده عليه السلام أو حال من الكاف وذكر تكليمه عليه السلام فى حال الكهولة لبيان أن كلامه عليه السلام فى تينك الحالتين كان على نسق واحد بديع صادرا عن كمال العقل مقارنا لرزانة الرأى والتدبير وبه استدل على أنه عليه السلام سينزل من السماء لما أنه عليه السلام رفع قبل التكهل قال ابن عباس رضى الله عنهما أرسله الله تعالى وهو ابن ثلاثين سنة ومكث فى رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله تعالى اليه (وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَـٰبَ) عطف على قوله تعالى اذ أيدتك منصوب بما نصبه أى اذكر نعمتى عليكما وقت تعليمى

لك الكتاب (والحكمة) أى جنسهما (والتوراة والإنجيل) خصا بالذكر بما تناوله الكتاب والحكمة اظهارا لشرفهما وقيل الخط والحكمة الكلام المحكم الصواب (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير) أى تصور منه هيئة مماثلة لهيئة الطير (بإذني) بتسهيلي وتيسيري لا على أن يكون الخلق صادرا عنه عليه السلام حقيقة بل على أن يظهر ذلك على يده عليه السلام عند مباشرة الأسباب مع كون الخالق حقيقة لله تعالى كما ينبيء عنه قوله تعالى (فتنفخ فيها) أى فى الهيئة المصورة (فتكون) أى تلك الهيئة (طيرا بإذني) فان إذنه تعالى لو لم يكن عبارة عن تكوينه تعالى للطير بل عن محض تيسيره مع صدور الفعل حقيقة عما أسند اليه لكان هذا تكونا من جهة الهيئة وتكرير قوله باذنى فى الطير مع كونه شيأ واحدا للتنبيه على أن كلا من التصوير والنفخ أمر معظم بديع لا يتسنى ولا يترتب عليه شيء إلا باذنه تعالى (وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني) عطف على تخلق (وإذ تخرج الموتى بإذني) عطف على إذ تخلق أعيد فيه إذ لكون اخراج الموتى من قبورهم لا سيما بعد ما صارت رميما معجزة باهرة ونعمة جليلة حقيقة بتذكير وقتها صريحا قيل أخرج سام بن نوح رجلين وامرأة وجارية وتكرير قوله باذنى فى المواضع الاربعة للاعتناء بتحقيق الحق ببيان أن تلك الخوارق ليست من قبل عيسى عليه الصلاة والسلام بل من جهته سبحانه قد أظهرها على يديه معجزة له ونعمة خصها به وأما ذكره فى سورة آل عمران مرتين لما أن ذلك موضع الإخبار وهذا موضع تعداد النعم (وإذ كففت بني إسرائيل عنك) عطف على إذ تخرج أى منعت اليهود الذين أرادوا بك السوء عن التعرض لك (إذ جئتهم بالبينات) بالمعجزات الواضحة مما ذكر وما لم يذكر كالاخبار بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ونحو ذلك وهو ظرف لكففت لكن لا باعتبار المجيء بها فقط بل باعتبار ما يعقبه من قوله تعالى (فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) فان قولهم ذلك مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله عليه السلام المحوج إلى الكف أى كففتهم عنك حين قالوا ذلك عند مجيئك اياهم بالبينات وإنما وضع موضع ضميرهم الموصول لذمهم بما فى حيز الصلة فكلمة من بيانية وهذا إشارة إلى ما جاء به والتذكير لأن إشارتهم إلى ما رأوه من نفس المسمى من حيث هو أو من حيث هو سحر لا من حيث هو مسمى بالبينات وقريء ان هذا إلا ساحر مبين فهذا حينئذ إشارة إلى عيسى عليه السلام (وإذ أوحيت إلى الحواريين) عطف على ما قبله من أخواتها الواقعة ظروفا للنعمة التى أمر بذكرها وهى وإن كانت فى الحقيقة عين ما يفيده الجمل التى أضيف اليها تلك الظروف من التأييد بروح القدس وتعليم الكتاب والحكمة وسائر الخوارق المعدودة لكنها لمغايرتها لها بعنوان منبيء عن غاية الاحسان أمر بذكرها من تلك الحيثية وجعلت عاملة فى تلك الظروف لكفاية المغايرة الاعتبارية فى تحقيق ما اعتبر فى مدلول كلمة إذ من تعدد النسبة فانه ظرف موضوع لزمان نسبتين ماضيتين واقعتين فيه احداهما معلومة الوقوع فيه للمخاطب دون الأخرى فيراد افادة وقوعها أيضا له فيضاف إلى الجملة المفيدة للنسبة الأولى ويجعل ظرفا معمولا للنسبة الثانية ثم قد تكون المغايرة بين النسبتين بالذات كما فى قولك اذكر احسانى اليك إذ أحسنت إلى تريد تنبيه المخاطب على وقوع إحسانك اليه وقت وقوع إحسانه اليك وهما نسبتان متغايرتان بالذات وقد تكون بالاعتبار كما فى قولك اذكر احسانى اليك إذ منعتك من المعصية تريد تنبيهه على كون منعه منها إحسانا اليه لا على احسان آخر واقع حينئذ ومن هذا القبيل عامة ما وقع فى التنزيل من قوله تعالى ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا الآية وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف ايديهم عنكم إلى غير ذلك من النظائر ومعنى ايحائه تعالى اليهم أمره تعالى اياهم فى الانجيل على لسانه عليه السلام وقيل الهامه تعالى اياهم كما فى قوله تعالى وأوحينا إلى أم موسى وأن فى قوله تعالى (أن آمنوا بي وبرسولي) مفسرة لما فى الايحاء من معنى القول وقيل مصدرية وإيراده

عليه السلام بعنوان الرسالة للتنبيه على كيفية الايمان به عليه السلام كأنه قيل آمنوا بوحدانيتي في الألوهية والربوبية وبرسالة رسولي ولا تزيلوه عن حيزه حطا ولا رفعا وقوله تعالى (قالوا) استئناف مبني على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قالوا حين أوحي اليهم ذلك فقيل قالوا (ءامنا) أي بما ذكر من وحدانيته تعالى وبرسالة رسوله كما يؤذن به قولهم (واشهد بأننا مسلمون) أي مخلصون في إيماننا من أسلم وجهه لله وهذا القول منهم بمقتضى وحيه تعالى وأمره لهم بذلك نعمة جليلة كسائر النعم الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام وكل ذلك نعمة على والدته أيضا . روى أنه عليه السلام لما علم أنه سيؤمر بذكر هاتيك النعم العظام جعل يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدخر شيأ لغد يقول لكل يوم رزقه لم يكن له بيت فيخرب ولا ولد فيموت أينما أمسى بات (إذ قال الحواريون) كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ماجرى بينه عليه السلام وبين قومه منقطع عما قبله كما ينبئ عنه الإظهار في موقع الإضمار وإذ منصوب بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق تلوين الخطاب والالتفات لكن لا لأن الخطاب السابق لعيسى عليه السلام فانه ليس بخطاب وإنما هو حكاية خطاب بل لأن الخطاب لمن خوطب بقوله تعالى واتقوا الله الآية فتأمل كأنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم عقيب حكاية ماصدر عن الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله تعالى الفائضة على عيسى عليه السلام اذكر للناس وقت قولهم الخ وقيل هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاءهم الإيمان والإخلاص لم يكن عن تحقيق وإيقان ولا يساعده النظم الكريم (يـعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) اختلف في أنهم هل كانوا مؤمنين أو لا فقيل كانوا كافرين شاكين في قدرة الله تعالى على ماذكروا وفي صدق عيسى عليه السلام كاذبين في دعوى الإيمان والإخلاص وقيل كانوا مؤمنين وسؤالهم للاطمئنان والتثبت لا لإزاحة الشك وهل يستطيع سؤال عن الفعل دون القدرة عليه تعبيرا عنه بلازمه وقيل الاستطاعة على ماتقتضيه الحكمة والإرادة لا على ماتقتضيه القدرة وقيل المعنى هل يطيع ربك بمعنى هل يجيبك واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب بمعنى أجاب وقرىء هل تستطيع ربك أي سؤال ربك والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عنه وهي قراءة علي وعائشة وابن عباس ومعاذ رضي الله عنهم وسعيد بن جبير في آخرين والمائدة الخوان الذي عليه الطعام من ماده اذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم اليه ونظيره قولهم شجرة مطعمة وقال أبو عبيد هي فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية (قال) استئناف مبني على سؤال ناشيء مما قبله كأنه قيل فماذا قال لهم عيسى عليه السلام حين قالوا ذلك فقيل قال (اتقوا الله) أي من أمثال هذا السؤال (إن كنتم مؤمنين) أي بكمال قدرته تعالى وبصحة نبوتي أو إن صدقتم في ادعاء الايمان والإسلام فان ذلك مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات وقيل أمرهم بالتقوى ليصير ذلك ذريعة لحصول المسئول كقوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة (قالوا) استئناف كما سبق (نريد أن نأكل منها) تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال أي لسنا نريد بالسؤال إزاحة شبهتنا في قدرته سبحانه على تنزيلها أو في صحة نبوتك حتى يقدح ذلك في الإيمان والتقوى بل نريد أن نأكل منها أي أكل تبرك وقيل أكل حاجة وتمتع (وتطمئن قلوبنا) بكمال قدرته تعالى وإن كنا مؤمنين به من قبل فان انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالي مما يوجب ازدياد الطمأنينة وقوة اليقين (ونعلم) أي علما يقينيا لا يحوم حوله شائبة شبهة أصلا وقرىء ليعلم على البناء للمفعول (أن قد صدقتنا) أن هي المخففة من أن وضمير الشأن محذوف أي ونعلم أنه قد صدقتنا في دعوى النبوة وأن الله يجيب دعوتنا وإن كنا عالمين بذلك من قبل (ونكون عليها من الشـهدين) نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقينا

ويؤمن بسببها كفارهم أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر وعليها متعلق بالشاهدين ان جعل اللام للتعريف وبيان لما يشهدون عليه ان جعلت موصولة كأنه قيل على أى شىء يشهدون فقيل عليها فان ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول أو هو حال من اسم كان أو هو متعلق بمحذوف يفسره من الشاهدين (قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) لما رأى عليه السلام أن لهم غرضا صحيحا فى ذلك وأنهم لا يقلعون عنه أزمع على استدعائها واستنزالها وأراد أن يلزمهم الحجة بكمالها . روى أنه عليه الصلاة والسلام اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين فطأطأ رأسه وغض بصره ثم قال (اللَّهُمَّ رَبَّنَا) ناداه سبحانه وتعالى مرتين مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية اظهارا لغاية التضرع ومبالغة فى الاستدعاء (أَنْزِلْ عَلَيْنَا) تقديم الظرف على قوله (مَآئِدَةً) لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقوله (مِنَ السَّمَاءِ) متعلق بأنزل أو بمحذوف هو صفة لمائدة أى كائنة من السماء نازلة منها وقوله (تَكُونُ لَنَا عِيدًا) فى محل النصب على أنه صفة لمائدة واسم تكون ضمير المائدة وخبرها اما عيدا ولنا حال منه أو من ضمير تكون عند من يجوز أعمالها فى الحال واما لنا وعيدا حال من الضمير فى لنا لأنه وقع خبرا فيحمل ضميرا أو من ضمير تكون عند من يرى ذلك أى يكون يوم نزولها عيدا نعظمه وإنما أسند ذلك إلى المائدة لأن شرف اليوم مستعار من شرفها وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمى يوم العيد عيدا وقرىء تكن بالجزم على جواب الأمر كما فى قوله تعالى فهب لى من لدنك وليا يرثنى خلا أن قراءة الجزم هناك متواترة وههنا من الشواذ (لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا) بدل من لنا باعادة العامل أى عيدا لمتقدمينا ومتأخرينا . روى أنها نزلت يوم الأحد ولذلك اتخذه النصارى عيدا وقيل للرؤساء منا والأتباع وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا وقرىء لأولانا وأخرانا بمعنى الأمة والطائفة (وَآيَةً) عطف على عيدا (مِّنْكَ) متعلق بمحذوف هو صفة لآية أى كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتى (وَارْزُقْنَا) أى المائدة أو الشكر عليها (وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) تذييل جار مجرى التعليل أى خير من يرزق لأنه خالق الأرزاق ومعطيها بلا عوض وفى اقباله عليه السلام على الدعاء بتكرير النداء المنبىء عن كمال الضراعة والابتهال وزيادته مالم يخطر ببال السائلين من الأمور الداعية إلى الاجابة والقبول دلالة واضحة على أنهم كانوا مؤمنين وأن سؤالهم كان لتحصيل الطمأنينة كما فى قول ابراهيم عليه السلام رب أرنى كيف تحيى الموتى والا لما قبل اعتذارهم بما ذكروه ولما أضاف اليه من عنده ما يؤكده ويقربه إلى القبول. (قَالَ اللَّهُ) استئناف كما سبق (إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ) وورود الاجابة منه تعالى بصيغة التفعيل المنبئة عن التكثير مع كون الدعاء منه عليه السلام بصيغة الأفعال لاظهار كمال اللطف والاحسان كما فى قوله تعالى قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب الخ بعد قوله تعالى لئن أنجانا من هذه الخ مع ما فيه من مراعاة ما وقع فى عبارة السائلين وفى تصدير الجملة بكلمة التحقيق وجعل خبرها اسما تحقيق للوعد وإيذان بأنه تعالى منجزله لا محالة من غير صارف يثنيه ولا مانع يلويه واشعار بالاستمرار أى إنى منزل المائدة عليكم مرات كثيرة وقرىء بالتخفيف وقيل الانزال والتنزيل بمعنى واحد (فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ) أى بعد تنزيلها (مِنْكُمْ) متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يكفر (فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ) بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية الباهرة (عَذَابًا) اسم مصدر بمعنى التعذيب وقيل مصدر بحذف الزوائد وانتصابه على المصدرية بالتقديرين المذكورين وجوز أن يكون مفعولا به على الاتساع وقوله تعالى (لَا أُعَذِّبُهُ) فى محل النصب على أنه صفة لعذابا والضمير له أى أعذب به تعذيبا لا أعذب مثل ذلك التعذيب (أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ) أى من عالمى زمانهم أو من العالمين جميعا قيل لما سمعوا هذا الوعيد الشديد خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا لا نريدها فلم تنزل وبه قال مجاهد والحسن رحمهما الله والصحيح الذى عليه جماهير الأمة ومشاهير الأئمة أنها قد

نزلت . روى أنه عليه السلام لما دعا بما دعا وأجيب بما أجيب إذا بسفرة حمراء نزلت بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحتها وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة للعالمين ولا تجعلها مثلة وعقوبة ثم قام وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسما وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون رأس الحواريين يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة قال ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله تعالى بالقدرة العالية كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله فقالوا يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال يا سمكة احيى باذن الله فاضطربت ثم قال لها عودى كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة ثم عصوا فمسخوا قردة وخنازير وقيل كانت تأتيهم أربعين يوما غبا يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون فى ظلها ولم يأكل منها فقير إلا غنى مدة عمره ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبدا ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أن اجعل مائدتى فى الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء فاضطرب الناس لذلك فمسخ منهم من مسخ فأصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات ويأكلون العذرة فى الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا إلى عيسى عليه السلام وبكوا على الممسوخين فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيبكون ويشيرون برؤسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عيسى عليه السلام قال لهم صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ما شئتم يعطكم فصاموا فلما فرغوا قالوا إنا لو عملنا لاحد فقضينا عمله لأطعمنا وسألوا الله تعالى المائدة فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم قال كعب نزلت منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل الطعام إلا اللحم وقال قتادة كان عليها ثمر من ثمار الجنة وقال عطية العوفى نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شيء وقال الكلبى ومقاتل نزلت سمكة وخمسة أرغفة فأكلوا ما شاء الله تعالى والناس ألف ونيف فلما رجعوا إلى قراهم ونشروا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقالوا ويحكم إنما سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن أراد فتنته رجع إلى كفره فمسخوا خنازير فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ معطوف على إذ قال الحواريون منصوب بما نصبه من المضمر المخاطب به النبى صلى الله عليه وسلم أو بمضمر مستقل معطوف على ذلك أى اذكر للناس وقت قول الله عز وجل له عليه السلام فى الآخرة توبيخا للكفرة وتبكيتا لهم باقراره عليه السلام على رؤس الاشهاد بالعبودية وأمره لهم بعبادته عز وجل وصيغة الماضى لما مر من الدلالة على التحقق والوقوع ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ الاتخاذ اما متعد إلى مفعولين فالهين ثانيهما واما إلى واحد فهو حال من المفعول وليس مدار أصل الكلام أن القول متيقن والاستفهام لتعيين القائل كما هو المتبادر من ايلاء الهمزة المبتدأ على الاستعمال الفاشى وعليه قوله تعالى أأنت فعلت هذا بآلهتنا ونظائره بل على أن المتيقن هو الاتخاذ والاستفهام لتعيين أنه بأمره عليه السلام أو من تلقاء أنفسهم كما فى قوله تعالى أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل وقوله تعالى ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ متعلق بالاتخاذ ومحله النصب على أنه حال من فاعله أى متجاوزين الله أو بمحذوف هو صفة لالهين أى كائنين من دونه تعالى وأيا ما كان فالمراد اتخاذهما بطريق اشراكهما به سبحانه كما فى قوله تعالى ومن الناس

من يتخذ من دون الله أندادا وقوله عز وجل ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله إلى قوله سبحانه وتعالى عما يشركون اذ به يتأتى التوبيخ ويتسنى التقريع والتبكيت ومن توهم أن ذلك بطريق الاستقلال ثم اعتذر عنه بأن النصارى يعتقدون أن المعجزات التى ظهرت على يد عيسى ومريم عليهما الصلاة والسلام لم يخلقها الله تعالى بل هما خلقاها فصح أنهم اتخذوهما فى حق بعض الأشياء الهين مستقلين ولم يتخذوه تعالى الها فى حق ذلك البعض فقد أبعد عن الحق بمراحل وأما من تعمق فقال ان عبادته تعالى مع عبادة غيره كلا عبادة فمن عبده تعالى مع عبادتهما كأنه عبدهما ولم يعبده تعالى فقد غفل عما يجديه واشتغل بما لا يعنيه كدأب من قبله فان توبيخهم إنما يحصل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحا لا بما يلزمه بضرب من التأويل واظهار الاسم الجليل لكونه فى حيز القول المسند إلى عيسى عليه السلام (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فماذا يقول عيسى عليه السلام حينئذ فقيل يقول وايثار صيغة الماضى لما مر مرارا (سبحانك) سبحان علم للتسبيح وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه وفيه من المبالغة فى التنزيه من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الأرض ومن جهة النقل إلى صيغة التفعيل ومن جهة العدول من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة المشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل مالا يخفى أى أنزهك تنزيها لائقا بك من أن أقول ذلك أو من أن يقال فى حقك ذلك وأما تقدير من أن يكون لك شريك فى الألوهية فلا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى (مَا يكونُ لِى أنْ أقولَ مَا ليسَ لِى بِحَقّ) استئناف مقرر للتنزيه ومبين للمنزه منه وما عبارة عن القول المذكور أى ما يستقيم وما ينبغى لى أن أقول قولا لا يحق لى أن أقوله وايثار ليس على الفعل المنفى لظهور دلالته على استمرار انتفاء الحقية وافادة التأكيد بما فى حيزه من الباء فان اسمه ضميره العائد إلى ما وخبره بحق الجار والمجرور فيما بينهما للتبيين كما فى سقيا لك ونحوه وقوله تعالى (إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ) استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام بالطريق البرهانى فان صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعا فحيث انتفى علمه تعالى به انتفى صدوره عنه حتما ضرورة أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم (تعلمُ مَا فى نَفسى) استئناف جار مجرى التعليل لما قبله كأنه قيل لانك تعلم ما أخفيه فى نفسى فكيف بما أعلنه وقوله تعالى (وَلا أعلمُ مَا فِى نفسِكَ) بيان للواقع واظهار لقصوره أى ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك وقوله فى نفسك للمشاكلة وقيل المراد بالنفس هو الذات ونسبة المعلومات اليها لما أنها مرجع الصفات التى من جملتها العلم المتعلق بها فلم يكن كنسبتها إلى الحقيقة وقوله تعالى (إنكَ أنتَ عَلّامُ الغُيوبِ) تعليل لمضمون الجملتين منطوقا ومفهوما وقوله تعالى (مَا قُلْتُ لهُمْ إلاَّ مَا أمَرْتنى بِهِ) استئناف مسوق لبيان ما صدر عنه قد أدرج فيه عدم صدور القول المذكور عنه على أبلغ وجه وآكده حيث حكم بانتفاء صدور جميع الأقوال المغايرة للمأمور به فدخل فيه انتفاء صدور القول المذكور دخولا أوليا أى ما أمرتهم الا بما أمرتنى به وإنما قيل ما قلت لهم نزولا على قضية حسن الأدب ومراعاة لما ورد فى الاستفهام وقوله تعالى (أنِ اعبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُم) تفسير للمأمور به وقيل عطف بيان للضمير فى به وقيل بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقا ليلزم بقاء الموصول بلا عائد وقيل خبر مضمر أو مفعوله مثل هو أو أعنى (وكُنتُ عليهِمْ شَهيداً) رقيبا أراعى أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك وأمنعهم عن المخالفة أو مشاهدا لاحوالهم من كفر وإيمان (مَّا دُمْتُ فِيهِمْ) ما مصدرية ظرفية تقدر بمصدر مضاف اليه زمان ودمت صلتها أى كنت شهيدا عليهم مدة دوامى فيما بينهم (فلمّا تَوَفّيتَنِى) بالرفع إلى السماء كما فى قوله تعالى انى متوفيك ورافعك إلى فان التوفى أخذ الشىء وافيا

والموت نوع منه قال تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها (كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ) لاغيرك فأنت ضمير الفصل أو تأكيد وقرىء الرقيب بالرفع على أنه خبر أنت والجملة خبر لكان وعليهم متعلق به أى أنت كنت الحافظ لأعمالهم والمراقب فمنعت من أردت عصمته عن المخالفة بالارشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بارسال الرسل وانزال الآيات وخذلت من خذلت من الضالين فقالوا ماقالوا (وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) اعتراض يذيلى مقرر لما قبله وفيه ايذان بأنه تعالى كان هو الشهيد على الكل حين كونه عليه السلام فيمابينهم وعلى متعلقة بشهيد والتقديم لمراعاة الفاصلة (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ) وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك (وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ) أى القوى القادر على جميع المقدورات ومن جملتها الثواب والعقاب (الْحَكِيمُ) الذى لايريد ولايفعل الا مافيه حكمة ومصلحة فان المغفرة مستحسنة لكل مجرم فان عذبت فعدل وان غفرت فتفضل وعدم غفران الشرك إنما هو بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع الترديد وقيل الترديد بالنسبة إلى فرقتين والمعنى ان تعذبهم أى من كفر منهم وان تغفر لهم أى من آمن منهم (قَالَ اللَّهُ) كلام مستأنف ختم به حكاية ماحكى مما يقع يوم يجمع الله الرسل عليهم الصلاة والسلام واشير إلى نتيجته ومآله أى يقول الله تعالى يومئذ عقيب جواب عيسى عليه السلام مشيرا إلى صدقه فى ضمن بيان حال الصادقين الذين هو فى زمرتهم وصيغة الماضى لما مر فى نظائره مرارا وقوله تعالى (هَذَا) إشارة إلى ذلك اليوم وهو مبتدأ خبره مابعده أى هذا اليوم الذى حكى بعض مايقع فيه اجمالا وبعضه تفصيلا (يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ) بالرفع والاضافة والمراد بالصادقين كما ينبىء عنه الاسم المستمرون فى الدارين على الصدق فى الامور الدينية التى معظمها التوحيد الذى نحن بصدده والشرائع والأحكام المتعلقة به من الرسل الناطقين بالحق والصدق الداعين إلى ذلك وبه تحصل الشهادة بصدق عيسى عليه السلام ومن الأمم المصدقين لهم المقتدين بهم عقدا وعملا وبه يتحقق المقصود بالحكاية من ترغيب السامعين فى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لا كل من صدق فى أى شىء كان ضرورة أن الجانى المعترف فى الدنيا بجنايته لاينفعه يومئذ اعترافه وصدقه (صِدْقُهُمْ) أى صدقهم فيماذكر من أمور الدين فى الدنيا إذ هو المستتبع للنفع يومئذ واعتبار استمراره فى الدارين مع أنه لاحاجة اليه كما عرفت ولا دخل له فى استتباع النفع والجزاء مما لاوجه له وهذه القراءة هى التى أطبق عليها الجمهور وهى الأليق بسباق النظم الكريم وسياقه وقد قرىء يوم بالنصب اما على أنه ظرف لقال فهذا حينئذ إشارة إلى قوله تعالى أأنت قلت الخ واما على أنه خبر لهذا فهو حينئذ إشارة إلى جواب عيسى عليه السلام أى هذا الجواب منه عليه السلام واقع يوم ينفع الخ أو إلى السؤال والجواب معا وقيل هو خبر ولكنه بنى على الفتح وليس بصحيح عند البصريين لأنه مضاف إلى متمكن وقرىء يوم بالرفع والتنوين كقوله تعالى واتقوا يوما لاتجزى الآية (لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) استئناف مسوق لبيان النفع المذكور كأنه قيل مالهم من النفع فقيل لهم نعيم دائم وثواب خالد وقوله تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) استئناف آخر لبيان أنه عز وجل أفاض عليهم غير ماذكر من الجنات مالاقدر لها عنده وهو رضوانه الذى لاغاية وراءه كما ينبىء عنه قوله تعالى (وَرَضُوا عَنْهُ) إذ لاشىء أعز منه حتى يمتد اليه أعناق الهمم (ذَلِكَ) إشارة إلى نيل رضوانه تعالى وقيل إلى نيل الكل (الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) لما أن عظم شأن الفوز تابع لعظم شأن المطلوب الذى تعلق به الفوز وقد عرفت أن لامطلب وراء ذلك أصلا وقوله تعالى (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ) تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد مازعموا فى حق المسيح وأمه أى له تعالى خاصة ملك السموات والأرض وما فيهما من العقلاء وغيرهم يتصرف فيها كيف يشاء ايجادا واعداما احياء واماتة وأمرا ونهيا من غير أن يكون لشىء من

الأشياء مدخل فى ذلك وفى إيثار ما على من المختصة بالعقلاء على تقدير تناولها للكل مراعاة للاصل وإشارة إلى تساوى الفريقين فى استحالة الربوبية حسب تساويهما فى تحقق المربوبية وعلى تقدير اختصاصها بغير العقلاء تنبيه على كمال قصورهم عن رتبة الألوهية واهانة بهم بتغليب غيرهم عليهم (وهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ) من الأشياء (قَدِيرٌ) مبالغ فى القدرة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المائدة أعطى من الأجر عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودى ونصرانى يتنفس فى الدنيا .

سـورة الأنعام

مكية غير ست آيات أو ثلاث من قوله تعالى قل تعالوا أتل . وهى مائة وخمس وستون آية

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

(الْحَمْدُ لِلهِ) تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة أولا باسم الذات الذى عليه يدور كافة مايوجبه من صفات الكمال واليه يؤول جميع نعوت الجلال والجمال للايذان بأنه عز وجل هو المستحق له بذاته لما مر من اقتضاء اختصاص الحقيقة به سبحانه لاقتصار جميع أفرادها عليه بالطريق البرهانى ووصفه تعالى ثانيا بما ينبىء عن تفصيل بعض موجباته المنتظمة فى سلك الاجمال من عظائم الآثار وجلائل الأفعال من قوله عز وجل (الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ) للتنبيه على استحقاقه تعالى له واستقلاله به باعتبار أفعاله العظام وآلائه الجسام أيضا وتخصيص خلقهما بالذكر لاشتمالهما على جملة الآثار العلوية والسفلية وعامة الآلاء الجلية والخفية التى أجلها نعمة الوجود الكافية فى ايجاب حمده تعالى على كل موجود فكيف بما يتفرع عليها من فنون النعم الأنفسية والآفاقية المنوط بها مصالح العباد فى المعاش والمعاد أى أنشأهما على ماهما عليه من النمط الفائق والطراز الرائق منطويتين من أنواع البدائع وأصناف الروائع على ماتتحير فيه العقول والأفكار من تعاجيب العبر والآثار تبصرة وذكرى لأولى الابصار وجمع السموات لظهور تعدد طبقاتها واختلاف آثارها وحركاتها وتقديمها لشرفها وعلو مكانها وتقدمها وجودا على الأرض كماهى (وَجَعَلَ الظُّلُمٰتِ وَالنُّورَ) عطف على خلق مترتب عليه لكون جعلهما مسبوقا بخلق منشئهما ومحلهما داخل معه فى حكم الاشعار بعلة الحمد فكما أن خلق السموات والأرض ومابينهما لكونه أثرا عظيما ونعمة جليلة موجب لاختصاص الحمد بخالقهما جل وعلا كذلك جعل الظلمات والنور لكونه أمرا خطيرا ونعمة عظيمة مقتض لاختصاصه بجاعلهما والجعل هو الانشاء والابداع كالخلق خلا أن ذلك مختص بالانشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما فى الآية الكريمة وللتشريعى أيضا كما فى قوله تعالى ماجعل الله من بحيرة الآية وأياما كان فهو انباء عن ملابسة مفعوله بشىء آخر بأن يكون فيه أوله أو منه أو نحو ذلك ملابسة مصححة لأن يتوسط بينهماشىء من الظروف لغوا كان أو مستقرا لكن لاعلى أن يكون عمدة فى الكلام بل قيدا فيه كما فى قوله عز وجل وجعل بينهما برزخا وقوله تعالى وجعل فيها رواسى وقوله تعالى واجعل لنا من لدنك وليا الآية فان كل واحد من هذه الظروف اما متعلق بنفس الجعل أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله تقدمت عليه لكونه نكرة وأياما كان فهو قيد فى الكلام حتى إذا اقتضى الحال وقوعه عمدة فيه يكون الجعل متعديا إلى اثنين هو ثانيهما كما فى قوله تعالى يجعلون أصابعهم فى آذانهم وربما يشتبه الامر فيظن أنه عمدة فيه وهو فى الحقيقة قيد بأحد الوجهين كما سلف فى قوله تعالى إنى جاعل فى الأرض خليفة حيث قيل ان الظرف مفعول ثان لجاعل وقد أشير هناك الى أن الذى يقضى به الذوق السليم وتقتضيه جزالة النظم الكريم أنه متعلق بجاعل أو بمحذوف وقع حالا من المفعول وأن المفعول

الثانى هو خليفة وأن الأول محذوف على مامر تفصيله وجمع الظلمات لظهور كثرة أسبابها ومحالها عند الناس ومشاهدتهم لها على التفصيل وتقديمها على النور لتقدم الاعدام على الملكات مع ما فيه من رعاية حسن المقابلة بين القرينتين وقوله تعالى (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) معطوف على الجملة السابقة الناطقة بما مر من موجبات اختصاصه تعالى بالحمد المستدعى لاقتصار العبادة عليه كما حقق فى تفسير الفاتحة الكريمة مسوق لانكار ما عليه الكفرة واستبعاده من مخالفتهم لمضمونها واجترائهم على ما يقضى ببطلانه بديهة العقول والمعنى أنه تعالى مختص باستحقاق الحمد والعبادة باعتبار ذاته وباعتبار ما فصل من شئونه العظيمة الخاصة به الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه ثم هؤلاء الكفرة لا يعملون بموجبه ويعدلون به سبحانه أى يسوون به غيره فى العبادة التى هى أقصى غايات الشكر الذى رأسه الحمد مع كون كل ما سواه مخلوقا له غير متصف بشىء من مبادى الحمد وكلمة ثم لاستبعاد الشرك بعد وضوح ما ذكر من الآيات التكوينية القاضية ببطلانه لا بعد بيانه بالآيات التنزيلية والموصول عبارة عن طائفة الكفار جار مجرى الاسم لهم من غير أن يجعل كفرهم بما يجب أن يؤمن به كلا أو بعضا عنوانا للموضوع فان ذلك مخل باستبعاد ما أسند اليهم من الاشراك والباء متعلقة بيعدلون ووضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح والتقديم لمزيد الاهتمام والمسارعة إلى تحقيق مدار الانكار والاستبعاد والمحافظة على الفواصل وترك المفعول لظهوره أو لتوجيه الانكار إلى نفس الفعل بتنزيله منزلة اللازم ايذانا بأنه المدار فى الاستبعاد والاستنكار لا خصوصية المفعول هذا هو الحقيق بجزالة التنزيل والخليق بفخامة شأنه الجليل وأما جعل الباء صلة لكفروا على أن يعدلون من العدول والمعنى أن الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته فيرده أن كفرهم به تعالى لا سيما باعتبار ربوبيته تعالى لهم أشد شناعة وأعظم جناية من عدولهم عن حمده عز وجل لتحققه مع اغفاله أيضا فجعل أهون الشرين عمدة فى الكلام مقصود الافادة واخراج أعظمهما مخرج القيد المفروغ عنه مما لا عهد له فى الكلام السديد فكيف بالنظم التنزيلى هذا وقد قيل أنه معطوف على خلق السموات والمعنى أنه تعالى خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به سبحانه ما لا يقدر على شىء منه لكن لا على قصد أنه صلة مستقلة ليكون بمنزلة أن يقال الحمد لله الذى عدلوا به بل على أنه داخل تحت الصلة بحيث يكون الكل صلة واحدة كأنه قيل الحمد لله الذى كان منه تلك النعم العظام ثم من الكفرة الكفر وأنت خبير بأن ما ينتظم فى سلك الصلة المنبئة عن موجبات حمده عز وجل حقه أن يكون له دخل فى ذلك الانباء ولو فى الجملة ولا ريب فى أن كفرهم بمعزل منه وادعاء أن له دخلا فيه لدلالته على كمال الجود كأنه قيل الحمد لله الذى أنعم بمثل هذه النعم العظام على من لا يحمده تعسف لا يساعده النظام وتعكيس يأباه المقام كيف لا ومساق النظم الكريم كما تفصح عنه الآيات الآتية تشنيع الكفرة وتوبيخهم ببيان غاية إساءتهم مع نهاية إحسانه تعالى اليهم لا بيان نهاية إحسانه تعالى اليهم مع غاية إساءتهم فى حقه تعالى كما يقتضيه الادعاء المذكور وبهذا اتضح أنه لا سبيل إلى جعل المعطوف من روادف المعطوف عليه لما أن حق الصلة أن تكون غير مقصودة الافادة فما ظنك بما هو من روادفها وقد عرفت أن المعطوف هو الذى سيق له الكلام فتأمل وكن على الحق المبين (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ) استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمان به اثر بيان بطلان إشراكهم به تعالى مع معاينتهم لموجبات توحيده وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث مع أن ما ذكر من خلق السموات والأرض من أوضحها وأظهرها كما ورد فى قوله تعالى أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم لما أن محل النزاع بعثهم فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر وهم بشئون أنفسهم أعرف والتعامى

عن الحجة النيرة أقبح والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ أى ابتدأ خلقكم منه فانه المادة الأولى للكل لما أنه منشأ آدم الذى هو أبو البشر وإنما نسب هذا الخلق إلى المخاطبين لا إلى آدم عليه السلام وهو المخلوق منه حقيقة بأن يقال هو الذى خلق أباكم الخ مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه فى إيجاب الإيمان بالبعث وبطلان الامتراء لتوضيح منهاج القياس وللمبالغة فى إزاحة الاشتباه والالتباس مع ما فيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمة خفية هى أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشائه عليه السلام منه حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكأن خلقه عليه السلام من الطين خلقا لكل أحد من فروعه منه ولما كان خلقه على هذا النمط السارى إلى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم قدرة الخلاق العليم وكمال علمه وحكمته وكان ابتداء حال المخاطبين أولى بأن يكون معيار الانتهائها فعل ما فعل ولله در شأن التنزيل وعلى هذا السر مدار قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم الخ وقوله تعالى وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا كما سيأتى وقيل المعنى خلق أباكم منه على حذف المضاف وقيل معنى خلقهم منه خلقهم من النطفة الحاصلة من الأغذية المتكونة من الأرض وأياما كان ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث ما لا يخفى فان من قدر على إحياء ما لم يشم رائحة الحياة قط كان على إحياء ما قارنها مدة أظهر قدرة (ثُمَّ قَضَىٰ) أى كتب لموت كل واحد منكم (أَجَلاً) خاصا به أى حدا معينا من الزمان يفنى عند حلوله لا محالة وكلمة ثم للايذان بتفاوت ما بين خلقهم وبين تقدير آجالهم حسبما تقتضيه الحكم البالغة (وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) أى حد معين لبعثكم جميعا وهو مبتدأ لتخصصه بالصفة كما فى قوله تعالى ولعبد مؤمن ولوقوعه فى موقع التفصيل كما فى قول من قال

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له … بشق وشق عندنا لم يحول

وتنوينه لتفخيم شأنه وتهويل أمره ولذلك أوثر تقديمه على الخبر الذى هو (عِندَهُ) مع أن الشائع المستفيض هو التأخير كما فى قولك عندى كلام حق ولى كتاب نفيس كأنه قيل وأى أجل مسمى مثبت معين فى علمه لا يتغير ولا يقف على وقت حلوله أحد لا مجملا ولا مفصلا وأما أجل الموت فعلوم إجمالا وتقريبا بناء على ظهور أماراته أو على ما هو المعتاد فى اعمار الإنسان وتسميته أجلا إنما هى باعتبار كونه غاية لمدة لبثهم فى القبور لا باعتبار كونه مبدأ لمدة القيامة كما أن مدار التسمية فى الأجل الاول هو كونه آخر مدة الحياة لا كونه أول مدة الممات لما أن الاجل فى اللغة عبارة عن آخر المدة لا عن أولها وقيل الاجل الاول ما بين الخلق والموت والثانى ما بين الموت والبعث من البرزخ فان الاجل كما يطلق على آخر المدة يطلق على كلها وهو الاوفق لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الله تعالى قضى لكل أحد أجلين أجلا من مولده إلى موته وأجلا من موته الى مبعثه فان كان برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث فى أجل العمر وان كان فاجرا قاطعا نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث وذلك قوله تعالى وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب فمعنى عدم تغير الاجل حينئذ عدم تغير آخره والاول هو الاشهر الاليق بتفخيم الاجل الثانى المنوط باختصاصه بعلمه تعالى والانسب بتهويله المبنى على مقارنته للطامة الكبرى فان كون بعضه معلوما للخلق ومضيه من غير أن يقع فيه شىء من الدواهى كما يستلزمه الحمل على المعنى الثانى مخل بذلك قطعا ومعنى زيادة الاجل ونقصه فيما روى تأخير الاجل الاول وتقديمه (ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ) استبعاد واستنكار لامترائهم فى البعث بعد معاينتهم لما ذكر من الحجج الباهرة الدالة عليه أى تمترون فى وقوعه وتحققه فى نفسه مع مشاهدتكم فى أنفسكم من الشواهد ما يقطع مادة الامتراء بالكلية فان من قدر على افاضة الحياة وما يتفرع عليها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة لشىء منها أصلا

كان أوضح اقتدارا على إفاضتها على مادة قد استعدت لها وقارنتها مدة ومن ههنا تبين أن ما قيل من أن الأجل الأول هو النوم والثانى هو الموت أو أن الأول أجل الماضين والثانى أجل الباقين أو أن الأول مقدار ما مضى من عمر كل أحد والثانى مقدار ما بقى منه مما لا وجه له أصلا لما رأيت من أن مساق النظم الكريم استبعاد امترائهم فى البعث الذى عبر عن وقته بالأجل المسمى فحيث أريد به أحد ما ذكر من الأمور الثلاثة فنى أى شىء يمترون ووصفهم بالامتراء الذى هو الشك وتوجيه الاستبعاد اليه مع أنهم جازمون بانتفاء البعث مصرون على إنكاره كما ينبىء عنه قولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ونظائره للدلالة على أن جزمهم المذكور فى أقصى مراتب الاستبعاد والاستنكار وقوله تعالى (وَهُوَ اللهُ) جملة من مبتدأ وخبر معطوفة على ما قبلها مسوقة لبيان شمول أحكام الهيته تعالى لجميع المخلوقات وإحاطة علمه بتفاصيل أحوال العباد وأعمالهم المؤدية إلى الجزاء إثر الإشارة إلى تحقق المعاد فى تضاعيف بيان كيفية خلقهم وتقدير آجالهم وقوله تعالى (فِى السَّمٰوٰتِ وَفِى الأَرْضِ) متعلق بالمعنى الوصفى الذى ينبىء عنه الاسم الجليل اما باعتبار أصل اشتقاقه كونه علما للمعبود بالحق كأنه قيل وهو المعبود فيهما واما باعتبار أنه اسم اشتهر بما اشتهرت به الذات من صفات الكمال فلوحظ معه منها ما يقتضيه المقام من المالكية الكلية والتصرف الكامل حسبما تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة فعلق به الظرف من تلك الحيثية فصار كأنه قيل وهو المالك أو المتصرف المدبر فيهما كما فى قوله تعالى وهو الذى فى السماء اله وفى الأرض اله وليس المراد بما ذكر من الاعتبارين أن الاسم الجليل يحمل على معناه اللغوى أو على معنى المالك أو المتصرف أو نحو ذلك بل مجرد ملاحظة أحد المعانى المذكورة فى ضمنه كما لوحظ مع اسم الأسد فى قوله أسد على الخ ما اشتهر به من وصف الجراءة التى اشتهر بها مسماه فجرى مجرى جرىء على وبهذا تبين أن ما قيل بصدد التصوير والتفسير أى هو المعروف بذلك فى السموات وفى الأرض أو هو المعروف المشتهر بالصفات الكمالية أو هو المعروف بالالهية فيهما ونحو ذلك بمعزل من التحقيق فان المعتبر مع الاسم هو نفس الوصف الذى اشتهر به اذ هو الذى يقتضيه المقام حسبما بين آنفا لا اشتهاره به ألا يرى أن كلمة على فى المثال المذكور لا يمكن تعليقها باشتهار الاسم بالجراءة قطعا وقيل هو متعلق بما يفيده التركيب الحصرى من التوحد والتفرد كأنه قيل وهو المتوحد بالالهية فيهما وقيل بما تقرر عند الكل من اطلاق هذا الاسم عليه خاصة كأنه قيل وهو الذى يقال له الله فيهما لا يشرك به شىء فى هذا الاسم على الوجه الذى سبق من اعتبار معنى التوحد أو القول فى فحوى الكلام بطريق الاستتباع لا على حمل الاسم الجليل على معنى المتوحد بالالهية أو على تقدير القول وقد جوز أن يكون الظرف خبرا ثانيا على أن كونه سبحانه فيهما عبارة عن كونه تعالى مبالغا فى العلم بما فيهما بناء على تنزيل علمه المقدس عن حصول الصور والأشباح لكونه حضوريا منزلة كونه تعالى فيهما وتصويره به على طريقة التمثيل المبنى على تشبيه حالة علمه تعالى بما فيهما بحالة كونه تعالى فيهما فان العالم إذا كان فى مكان كان عالما به وبما فيه على وجه لا يخفى عليه منه شىء فعلى هذا يكون قوله عز وجل (يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) أى ما أسررتموه وما جهرتم به من الأقوال أو ما أسررتموه وما أعلنتموه كائنا ما كان من الأقوال والأعمال بيانا وتقريرا لمضمونه وتحقيقا للمعنى المراد منه وتعليق علمه عز وجل بما ذكر خاصة مع شموله لجميع ما فيهما حسبما تفيده الجملة السابقة لانسياق النظم الكريم إلى بيان حال المخاطبين وكذا على الوجه الثانى فان ملاحظة الاسم الجليل من حيث المالكية الكلية والتصرف الكامل الجارى على النمط المذكور مستتبعة لملاحظة علمه المحيط حتما فيكون هذا بيانا وتقريرا له بلا ريب وأما على الاوجه الثلاثة الباقية فلا سبيل إلى كونه بيانا لكن لا لما قيل من أنه لا دلالة لاستواء السر والجهر فى علمه تعالى على ما اعتبر فيهما من المعبودية والاختصاص بهذا الاسم إذ ربما يعبد ويختص به من ليس له كمال العلم فانه باطل قطعا إذ المراد

بما ذكر هو المعبودية بالحق والاختصاص بالاسم الجليل ولا ريب فى أنهما مما لا يتصور فيمن ليس له كمال العلم بديهة بل لأن ما ذكر من العلم غير معتبر فى مدلول شىء من المعبودية بالحق والاختصاص بالاسم حتى يكون هذا بيانا له وبهذا تبين أنه ليس ببيان على الوجه الثالث أيضا لما أن التوحد بالإلهية لا يعتبر فى مفهومه العلم الكامل ليكون هذا بيانا له بل هو معتبر فيما صدق عليه المتوحد وذلك غير كاف فى البيانية وقيل هو خبر بعد خبر عند من يجوز كون الخبر الثانى جملة كما فى قوله تعالى فإذا هى حية تسعى وقيل هو الخبر والاسم الجليل بدل من هو وبه يتعلق الظرف المتقدم ويكفى فى ذلك كون المعلوم فيهما كما فى قولك رميت الصيد فى الحرم إذا كان هو فيه وأنت خارجه ولعل جعل سرهم وجهرهم فيهما لتوسيع الدائرة وتصوير أنه لا يعزب عن علمه شىء منهما فى أى مكان كان لا لأنهما قد يكونان فى السموات أيضا وتعميم الخطاب لأهلها تعسف لا يخفى (وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) أى ما تفعلونه لجلب نفع أو دفع ضر من الأعمال المكتسبة بالقلوب أو بالجوارح سرا أو علانية وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فيما سبق على التفسير الثانى للسر والجهر لإظهار كمال الاعتناء بها لأنها التى يتعلق بها الجزاء وهو السر فى إعادة يعلم (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ) كلام مستأنف وارد لبيان كفرهم بآيات الله وإعراضهم عنها بالكلية بعد ما بين فى الآية الأولى اشراكهم بالله سبحانه وإعراضهم عن بعض آيات التوحيد وفى الآية الثانية امتراؤهم فى البعث وإعراضهم عن بعض آياته والالتفات للاشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحا وتعدد جناياتهم لغيرهم ذما لهم وتقبيحا لحالهم فما نافية وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو للدلالة على الاستمرار التجددى ومن الأولى مزيدة للاستغراق والثانية تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لآية وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤا عليه فى حقها والمراد بها إما الآيات التنزيلية فإتيانها نزولها والمعنى ما ينزل إليهم آية من الآيات القرآنية التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله عز وجل المنبئة عن جريان أحكام ألوهيته تعالى على كافة الكائنات وإحاطة علمه بجميع أحوال الخلق وأعمالهم الموجبة للاقبال عليها والإيمان بها (إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) أى على وجه التكذيب والاستهزاء كما ستقف عليه وأما الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات فإتيانها ظهورها لهم والمعنى ما يظهر لهم آية من الآيات التكوينية التى من جملتها ما ذكر من جلائل شئونه تعالى الشاهدة بوحدانيته إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى إلى الإيمان بمكونها وإيثاره على أن يقال إلا أعرضوا عنها كما وقع مثله فى قوله تعالى وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر للدلالة على استمرارهم على الاعراض حسب استمرار اتيان الآيات وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل والجملة فى محل النصب على أنها حال من مفعول تأتى أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما وأياما كان ففيها دلالة بينة على كمال مسارعتهم إلى الإعراض وإيقاعهم له فى آن الاتيان كما يفصح عنه كلمة لما فى قوله تعالى (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ) فإن الحق عبارة عن القرآن الذى أعرضوا عنه حين أعرضوا عن كل آية آية منه عبر عنه بذلك إبانة لكمال قبح ما فعلوا به فإن تكذيب الحق مما لا يتصور صدوره عن أحد والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنها شىء مغاير له فى الحقيقة واقع عقيبه أو حاصل بسببه بل على أن الأول هو عين الثانى حقيقة وإنما الترتيب بحسب التغاير الاعتبارى وقد لتحقيق ذلك المعنى كما فى قوله تعالى فقد جاؤا ظلما وزورا بعد قوله تعالى وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فإن ما جاءوه أى فعلوه من الظلم والزور عين قولهم المحكى لكنه لما كان مغايرا له مفهوما وأشنع منه حالا رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لأمره كذلك مفهوم التكذيب بالحق حيث كان أشنع من مفهوم الإعراض المذكور أخرج مخرج اللازم البين البطلان فرتب

عليه بالفاء إظهار الغاية بطلانه ثم قيد ذلك بكونه بلا تأمل تأكيدا للشناعته وتمهيدا لبيان أن ما كذبوا به آثر ذي أثير له عواقب جليلة ستبدو لهم البتة والمعنى أنهم حيث أعرضوا عن تلك الآيات عند إتيانها فقد كذبوا بما لا يمكن تكذيبه أصلا من غير أن يتدبروا في حاله ومآله ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد الموجبة لتصديقه كقوله تعالى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كما ينبيء عنه قوله تعالى (فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَـٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) فإن ما عبارة عن الحق المذكور وعبر عنه بذلك تهويلا لأمره بإبهامه وتعليلا للحكم بما في حيز الصلة وأنباؤه عبارة عما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة التي نطقت بها آيات الوعيد وفي لفظ الانباء إيذان بغاية العظم لما أن النبأ لا يطلق إلا على خبر عظيم الوقع وحملها على العقوبات الآجلة أو على ظهور الاسلام وعلو كلمته يأباه الآيات الآتية وسوف لتأكيد مضمون الجملة وتقريره أي فسيأتيهم البتة وإن تأخر مصداق أنباء الشيء الذي كانوا يكذبون به قبل من غير أن يتدبروا في عواقبه وإنما قيل يستهزءون إيذانا بأن تكذيبهم كان مقرونا بالاستهزاء كما أشير إليه هذا على أن يراد بالآيات الآية القرآنية وهو الأظهر وأما إن أريد بها الآيات التكوينية فالفاء داخلة على جواب شرط محذوف والإعراض على حقيقته كأنه قيل إن كانوا معرضين عن تلك الآيات فلا تعجب فقد فعلوا بما هو أعظم منها ما هو أعظم من الإعراض حيث كذبوا بالحق الذي هو أعظم الآيات ولا مساغ لحمل الآيات في هذا الوجه على كلها أصلا وأما ما قيل من أن المعنى أنهم لما كانوا معرضين عن الآيات كلها كذبوا بالقرآن فمما ينبغي تنزيه التنزيل عن أمثاله (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ) استئناف مسوق لتعيين ما هو المراد بالانباء التي سبق بها الوعيد وتقرير إتيانها بطريق الاستشهاد وهمزة الانكار لتقرير الرؤية وهي عرفانية مستدعية لمفعول واحد وكم استفهامية كانت أو خبرية معلقة لها عن العمل مفيدة للتكثير سادة مع ما في حيزها مسد مفعولها منصوبة بأهلكنا على المفعولية على أنها عبارة عن الأشخاص ومن قرن مميز لها على أنه عبارة عن أهل عصر من الأعصار سموا بذلك لاقترانهم برهة من الدهر كما في قوله عليه الصلاة والسلام خير القرون قرني ثم الذين يلونهم الحديث وقيل هو عبارة عن مدة من الزمان والمضاف محذوف أي من أهل قرن وأما انتصابها على المصدرية أو على الظرفية على أنها عبارة عن المصدر أو عن الزمان فتعسف ظاهر ومن الاولى ابتدائية متعلقة بأهلكنا أي ألم يعرفوا بمعاينة الآثار وسماع الاخبار كم أمة أهلكنا من قبل أهل مكة أي من قبل خلقهم أو من قبل زمانهم على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه كعاد وثمود وأضرابهم وقوله تعالى (مَكَّنَّـٰهُمْ فِي الْأَرْضِ) استئناف لبيان كيفية الاهلاك وتفصيل مباديه مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل كيف كان ذلك فقيل مكناهم الخ وقيل هو صفة لقرن لما أن النكرة مفتقرة إلى مخصص فاذا وليها ما يصلح مخصصا لها تعين وصفيته لها وأنت خبير بأن تنوينه التفخيمي مغن له عن استدعاء الصفة على أن ذلك مع اقتضائه أن يكون مضمونه ومضمون ما عطف عليه من الجمل الأربع أمرا مفروغا عنه غير مقصود بسياق النظم مؤد إلى اختلال النظم الكريم كيف لا والمعنى حينئذ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن موصوفين بكذا وكذا وبأهلاكنا إياهم بذنوبهم وأنه بين الفساد وتمكين الشيء في الأرض جعله قارا فيها ولما لزمه جعلها مقرا له ورد الاستعمال بكل منهما فقيل تارة مكنه في الأرض ومنه قوله تعالى ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وأخرى مكن له في الأرض ومنه قوله تعالى إنا مكنا له في الأرض حتى أجرى كل منهما مجرى الآخر ومنه قوله تعالى (مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ) بعد قوله تعالى مكناهم في الأرض كأنه قيل في الأول مكنا لهم أو في الثاني ما لم نمكنكم وما نكرة موصوفة بما بعدها من الجملة المنفية والعائد محذوف محلها النصب على المصدرية أي مكناهم تمكينا لم نمكنه لكم والالتفات لما في مواجهتهم بضعف الحال مزيد بيان لشأن الفريقين ولدفع الاشتباه من أول الأمر عن مرجعي

الضميرين (وأرسلنا السماء) أى المطر أو السحاب أو المظلة لأنها مبدأ المطر (عليهم) متعلق بأرسلنا (مدرارا) أى مغزارا حال من السماء (وجعلنا الأنهار) أى صيرناها فقوله تعالى (تجرى من تحتهم) مفعول ثان لجعلنا أو أنشأناها فهو حال من مفعوله ومن تحتهم متعلق بتجرى وفيه من الدلالة على كونها مسخرة لهم مستمرة على الجريان على الوجه المذكور ما ليس فى أن يقال وأجرينا الأنهار من تحتهم وليس المراد بتعداد هاتيك النعم العظام الفائضة عليهم بعد ذكر تمكينهم بيان عظم جنايتهم فى كفرانها واستحقاقهم بذلك لأعظم العقوبات بل بيان حيازتهم لجميع أسباب نيل المآرب ومبادى الأمن والنجاة من المكاره والمعاطب وعدم اغناء ذلك عنهم شيأ والمعنى أعطيناهم من البسطة فى الاجسام والامتداد فى الأعمار والسعة من الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا فى استجلاب المنافع واستدفاع المضار ما لم نعط أهل مكة ففعلوا ما فعلوا (فأهلكناهم بذنوبهم) أى أهلكنا كل قرن من تلك القرون بسبب ما يخصهم من الذنوب فما أغنى عنهم تلك العدد والأسباب فسيحل بهؤلاء مثل ما حل بهم من العذاب وهذا كما ترى آخر ما به الاستشهاد والاعتبار وأما قوله سبحانه (وأنشأنا من بعدهم) أى أحدثنا من بعد إهلاك كل قرن (قرنا آخرين) بدلا من الهالكين فلبيان كمال قدرته تعالى وسعة سلطانه وأن ما ذكر من اهلاك الأمم الكثيرة لم ينقص من ملكه شيأ بل كلما أهلك أمة أنشأ بدلها أخرى (ولو نزلنا عليك) جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب لبيان شدة شكيمتهم فى المكابرة وما يتفرع عليها من الأقاويل الباطلة اثر بيان اعراضهم عن آيات الله تعالى وتكذيبهم بالحق واستحقاقهم بذلك لنزول العذاب ونسبة التنزيل ههنا اليه عليه السلام مع نسبة إتيان الآيات ومجىء الحق فيما سبق اليهم للاشعار بقدحهم فى نبوته عليه السلام فى ضمن قدحهم فيما نزل عليه صريحا وقال الكلبي ومقاتل نزلت فى النضر بن الحرث وعبد الله بن أبى أمية ونوفل بن خويلد حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنك رسوله (كتابا) ان جعل اسما كالإمام فقوله تعالى (فى قرطاس) متعلق بمحذوف وقع صفة له أى كتابا كائنا فى صحيفة وإن جعل مصدرا بمعنى المكتوب فهو متعلق بنفسه (فلمسوه) أى الكتاب وقيل القرطاس وقوله تعالى (بأيديهم) مع ظهور أن اللمس لا يكون عادة الا بالأيدى لزيادة التعيين ودفع احتمال التجوز الواقع فى قوله تعالى وأنا لمسنا السماء أى تفحصنا أى فمسوه بأيديهم بعد ما رأوه بأعينهم بحيث لم يبق لهم فى شأنه اشتباه ولم يقدروا على الاعتذار بتسكير الأبصار (لقال الذين كفروا) أى لقالوا وإنما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على اتصافهم بما فى حيز الصلة من الكفر الذى لا يخفى حسن موقعه باعتبار مفهومه اللغوى أيضا (إن هذا) أى ما هذا مشيرين إلى ذلك الكتاب (إلا سحر مبين) أى بين كونه سحرا تعنتا وعنادا للحق بعد ظهوره كما هو دأب المفحم المحجوج وديدن المكابر اللجوج (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) شروع فى قدحهم فى نبوته عليه السلام صريحا بعد ما أشير إلى قدحهم فيها ضمنا وقيل هو معطوف على جواب لو وليس بذاك لما أن تلك المقالة الشنعاء ليست مما يقدر صدوره عنهم على تقدير تنزيل الكتاب المذكور بل هى من أباطيلهم المحققة وخرافاتهم الملفقة التى يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل أى هلا أنزل عليه عليه السلام ملك بحيث نراه ويكلمنا أنه نبى حسبما نقل عنهم فيما روى عن الكلبي ومقاتل ونظيره قولهم لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ولما كان مدار هذا الاقتراح على شيئين انزال الملك كما هو وجعله معه عليه السلام نذيرا أجيب عنه بأن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الوجود أصلا لاشتماله على أمرين متباينين لا يجتمعان فى الوجود لما أن إنزال الملك على صورته يقتضى انتفاء جعله نذيرا وجعله نذيرا يستدعى عدم انزاله على صورته لا محالة وقد أشير إلى الأول بقوله تعالى (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر) أى لو أنزلنا

ملكا على هيئته حسبما اقترحوه والحال أنه من هول المنظر بحيث لا تطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية ألا يرى أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة ويفاوضونهم على الصور البشرية كضيف ابراهيم ولوط وخصم داود عليهم السلام وغير ذلك وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى القدسية فما ظنك بمن عداهم من العوام فلو شاهدوه كذلك لقضى أمر هلاكهم بالكلية واستحال جعله نذيرا وهو مع كونه خلاف مطلوبهم مستلزم لاخلاء العالم عما عليه يدور نظام الدنيا والآخرة من إرسال الرسل وتأسيس الشرائع وقد قال سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وفيه كما ترى ايذان بأنهم فى ذلك الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه وإن عدم الإجابة اليه للبقيا عليهم وبناء الفعل الأول فى الجواب للفاعل الذى هو نون العظمة مع كونه فى السؤال مبنيا للمفعول لتهويل الأمر وتربية المهابة وبناء الثانى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وكلمة ثم فى قوله تعالى (ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ) أى لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين فضلا عن أن ينذروا به كما هو المقصود بالإنذار للتنبيه على تفاوت ما بين قضاء الأمر وعدم الانظار فان مفاجأة العذاب أشد من نفس العذاب وأشق وقيل فى سبب اهلاكهم أنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورته وهى آية لا شىء أبين منها ثم لم يؤمنوا لم يكن بد من إهلاكهم وقيل انهم إذا رأوه يزول الاختيار الذى هو قاعدة التكليف فيجب اهلاكهم وإلى الثانى بقوله تعالى (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا) على أن الضمير الأول للنذير المفهوم من فحوى الكلام بمعونة المقام وإنما لم يجعل للملك المذكور قبله بأن يعكس ترتيب المفعولين ويقال ولو جعلناه نذيرا لجعلناه رجلا مع فهم المراد منه أيضا لتحقيق أن مناط ابراز الجعل الأول فى معرض الفرض والتقدير ومدار استلزامه للثانى إنما هو ملكية النذير لا نذرية الملك وذلك لأن الجعل حقه أن يكون مفعوله الأول مبتدأ والثانى خبرا لكونه بمعنى التصيير المنقول من صار الداخل على المبتدا والخبر ولا ريب فى أن مصب الفائدة ومدار اللزوم بين طرفى الشرطية هو محمول المقدم لا موضوعه فحيث كانت امتناعية أريد بها بيان انتفاء الجعل الاول لاستلزامه المحذور الذى هو الجعل الثانى وجب أن يجعل مدار الاستلزام فى الاول مفعولا ثانيا لا محالة ولذلك جعل مقابله فى الجعل الثانى كذلك ابانة لكمال التنافى بينهما الموجب لانتفاء الملزوم والضمير الثانى للملك لا لما رجع اليه الاول والمعنى لو جعلنا النذير الذى اقترحوه ملكا لمثلنا ذلك الملك رجلا لما مر من عدم استطاعة الآحاد لمعاينة الملك على هيكله وفى ايثار رجلا على بشرا ايذان بأن الجعل بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة وتعيين لما يقع به التمثيل وقوله تعالى (وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ) عطف على جواب لو مبنى على الجواب الأول وقرىء بحذف لام الجواب اكتفاء بما فى المعطوف عليه يقال لبست الامر على القوم ألبسه إذا شبهته وجعلته مشكلا عليهم وأصله الستر بالثوب وقرىء الفعلان بالتشديد للمبالغة أى ولخلطنا عليهم بتمثيله رجلا (مَا يَلْبِسُونَ) على أنفسهم حينئذ بأن يقولوا له إنما أنت بشر ولست بملك ولو استدل على ملكيته بالقرآن المعجز الناطق بها أو بمعجزات أخر غير ملجئة إلى التصديق لكذبوه كما كذبوا النبى عليه الصلاة والسلام ولو أظهر لهم صورته الأصلية لزم الأمر الاول والتعبير عن تمثيله تعالى رجلا باللبس اما لكونه فى صورة اللبس أو لكونه سببا للبسهم أو لوقوعه فى صحبته بطريق المشاكلة وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكا كأنه قيل لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا من لبس الامر عليهم وقد جوز أن يكون المعنى وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة فى كفرهم بآيات الله البينة (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من قومه وفى تصدير الجملة بلام القسم وحرف التحقيق من الاعتناء بها ما لا يخفى وتنوين رسل للتفخيم والتكثير ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسل أى وبالله لقد استهزىء برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل

زمانك على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه (فحَاقَ) عقيبه أى أحاط أو نزل أو حل أو نحو ذلك فان معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل إلا فى الشر والحيق مايشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى (بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ) أى استهزؤا بهم من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذى هو قوله تعالى (مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم وما اما موصولة مفيدة للتهويل أى فأحاط بهم الذى كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لأجله واما مصدرية أى فنزل بهم وبال استهزائهم وتقديم الجار والمجرور على الفعل لرعاية الفواصل (قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ) بعد بيان مافعلت الأمم الخالية ومافعل بهم خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بانذار قومه وتذكيرهم بأحوالهم الفظيعة تحذيرا لهم عما هم عليه وتكملة للتسلية بما فى ضمنه من العدة اللطيفة بأنه سيحيق بهم مثل ماحاق بأضرابهم الأولين ولقد أنجز ذلك يوم بدر أى انجاز أى سيروا فى الأرض لتعرف أحوال أولئك الأمم (ثُمَّ انْظُرُوا) أى تفكروا (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) وكلمة ثم اما لأن النظر فى آثار الهالكين لايتسنى إلا بعد انتهاء السير إلى أماكنهم واما لابانة مابينهما من التفاوت فى مراتب الوجوب وهو الأظهر فان وجوب السير ليس إلا لكونه وسيلة إلى النظر كما يفصح عنه العطف بالفاء فى قوله عز وجل فانظروا الآية وأما أن الأمر الأول لإباحة السير للتجارة ونحوها والثانى لإيجاب النظر فى آثارهم وثم لتباعد مابين الواجب والمباح فلا يناسب المقام وكيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة النصب بنزع الخافض أى تفكروا فى أنهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال والعاقبة مصدر كالعافية ونظائرها وهى منتهى الأمر ومآله ووضع المكذبين موضع المستهزئين لتحقيق أن مدار اصابة ما أصابهم هو التكذيب لينزجر السامعون عنه لاعن الاستهزاء فقط مع بقاء التكذيب بحاله بناء على توهم أنه المدار فى ذلك (قُلْ) لهم بطريق الالجاء والتبكيت (لِمَنْ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ) من العقلاء وغيرهم أى لمن الكائنات جميعا خلقا وملكا وتصرفا وقوله تعالى (قُلْ لِلّٰهِ) تقرير لهم وتنبيه على أنه المتعين للجواب بالاتفاق بحيث لايتأتى لأحد أن يجيب بغيره كما نطق به قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقوله تعالى (كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) جملة مستقلة داخلة تحت الأمر ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق شمول ملكه وقدرته للكل مسوقة لبيان أنه تعالى رؤف بعباده لايعجل عليهم بالعقوبة ويقبل منهم التوبة والانابة وأن ماسبق ذكره وما لحق من أحكام الغضب ليس من مقتضيات ذاته تعالى بل من جهة الخلق كيف لا ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة وهداهم إلى معرفته وتوحيده بنصب الآيات الانفسية والآفاقية وارسال الرسل وانزال الكتب المشحونة بالدعوة إلى موجبات رضوانه والتحذير عن مقتضيات سخطه وقد بدلوا فطرة الله تبديلا وأعرضوا عن الآيات بالمرة وكذبوا بالكتب واستهزؤا بالرسل وماظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين ولولا شمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضا مسلك الغابرين ومعنى كتب الرحمة على نفسه أنه تعالى قضاها وأوجبها بطريق التفضل والاحسان على ذاته المقدسة بالذات لابتوسط شىء أصلا وقيل هو ماروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما قضى الله تعالى الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتى سبقت غضبى وعنه فى رواية أنه عليه الصلاة والسلام قال لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتابا فهو عنده فوق العرش ان رحمتى غلبت غضبى وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب ما أول شىء ابتدأه الله تعالى من خلقه فقال كعب كتب الله كتابا لم يكتبه بقلم ولامداد كتابة الزبرجد واللؤلؤ والياقوت إنى أنا الله لاإله إلا أنا سبقت رحمتى غضبى ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقا بالخلق وأكثر وصولا اليهم مع أنهما من مقتضيات الذات المفيضة للخير وفى التعبير عن الذات بالنفس حجة على من ادعى أن لفظ النفس لايطلق

على الله تعالى وان أريد به الذات إلا مشاكلة لما ترى من انتفاء المشاكلة ههنا بنوعيها وقوله تعالى (لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ) جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق للوعيد على اشراكهم واغفالهم النظر أى والله ليجمعنكم فى القبور مبعوثين أو محشورين إلى يوم القيامة فيجازيكم على شرككم وسائر معاصيكم وان أمهلكم بموجب رحمته ولم يعاجلكم بالعقوبة الدنيوية وقيل إلى بمعنى اللام أى ليجمعنكم ليوم القيامة كقوله تعالى انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه وقيل هى بمعنى فى أى ليجمعنكم فى يوم القيامة (لَا رَيْبَ فِيهِ) أى فى اليوم أو فى الجمع وقوله تعالى (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) أى بتضييع رأس مالهم وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام واستماع الوحى وغير ذلك من آثار الرحمة فى موضع النصب أو الرفع على الذم أى أعنى الذين الخ أو هم الذين الخ أو هو مبتدأ والخبر قوله تعالى (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط والاشعار بأن عدم إيمانهم بسبب خسرانهم فان ابطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك فى التقليد واغفال النظر أدى بهم إلى الاصرار على الكفر والامتناع من الايمان والجملة تذييل مسوق من جهته تعالى لتقبيح حالهم غير داخل تحت الأمر (وَلَهُ) أى لله عز وجل خاصة (مَا سَكَنَ فِى الَّيْلِ وَالنَّهَارِ) نزل الملوان منزلة المكان فعبر عن نسبة الأشياء الزمانية اليهما بالسكنى فيهما وتعديته بكلمة فى كما فى قوله تعالى وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم أو السكون مقابل الحركة والمراد ما سكن فيهما أو تحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر (وَهُوَ السَّمِيعُ) المبالغ فى سماع كل مسموع (الْعَلِيمُ) المبالغ فى العلم بكل معلوم فلا يخفى عليه شىء من الأقوال والأفعال (قُلْ) لهم بعد ما بكتهم بما سبق من الخطاب (أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا) أى معبودا بطريق الاستقلال أو الاشتراك وإنما سلطت الهمزة على المفعول الأول لا على الفعل إيذانا بأن المنكر هو اتخاذ غير الله وليا لا اتخاذ الولى مطلقا كما فى قوله تعالى أغير الله أبغى ربا وقوله تعالى أفغير الله تأمرونى أعبد الخ (فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ) أى مبدعهما بالجر صفة للجلالة مؤكدة للانكار لأنه بمعنى الماضى ولذلك قرىء فطر ولا يضر الفصل بينهما بالجملة لأنها ليست بأجنبية إذ هى عاملة فى عامل الموصوف أو بدل فان الفصل بينه وبين المبدل منه أسهل لأن البدل على نية تكرير العامل وقرىء بالرفع والنصب على المدح وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم إلى اعرابيان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أى ابتدأتها (وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ) أى يرزق الخلق ولا يرزق وتخصيص الطعام بالذكر لشدة الحاجة اليه أو لأنه معظم ما يصل إلى المرزوق من الرزق ومحل الجملة النصب على الحالية فان مضمونها مقرر لوجوب اتخاذه سبحانه وتعالى وليا وقرىء ولا يطعم بفتح الياء وبعكس القراءة الأولى أيضا على أن الضمير لغير الله والمعنى أأشرك بمن هو فاطر السموات والأرض ما هو نازل عن رتبة الحيوانية وببنائهما للفاعل على أن الثانى بمعنى يستطعم أو على معنى أنه يطعم تارة ولا يطعم أخرى كقوله تعالى يقبض ويبسط (قُلْ) بعد بيان أن اتخاذ غيره تعالى وليا مما يقضى ببطلانه بديهة العقول (إِنِّى أُمِرْتُ) من جنابه عز وجل (أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) وجهه لله مخلصا له لأن النبى امام أمته فى الاسلام كقوله تعالى وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين وقوله تعالى سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين (وَلَا تَكُونَنَّ) أى وقيل لى ولا تكونن (مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أى فى أمر من أمور الدين ومعناه أمرت بالاسلام ونهيت عن الشرك وقد جوز عطفه على الأمر (قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى) أى بمخالفة أمره ونهيه أى عصيان كان فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا وفيه بيان لكمال اجتنابه عليه السلام عن المعاصى على الاطلاق وقوله تعالى (عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) أى عذاب يوم القيامة مفعول خاف والشرطية معترضة بينهما والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه وفيه قطع لاطماعهم الفارغة وتعريض بأنهم عصاة

مستوجبون للعذاب العظيم (مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ) على البناء للمفعول أى العذاب وقرىء على البناء للفاعل والضمير
لله سبحانه وقد قرىء بالاظهار والمفعول محذوف وقوله تعالى (يَوْمَئِذٍ) ظرف للصرف أى فى ذلك اليوم العظيم وقد
جوز أن يكون هو المفعول على قراءة البناء للفاعل بحذف المضاف أى عذاب يومئذ (فَقَدْ رَحِمَهُ) أى نجاه وأنعم
عليه وقيل فقد أدخله الجنة كما فى قوله تعالى فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز والجملة مستأنفة مؤكدة لتهويل
العذاب وضمير عنه ورحمه لمن وهو عبارة عن غير العاصى (وَذَلِكَ) إشارة إلى الصرف أو الرحمة لأنها مؤولة بأن
مع الفعل وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجته وبعد مكانه فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (الْفَوْزُ
الْمُبِينُ) أى الظاهر كونه فوزا وهو الظفر بالبغية والألف واللام لقصره على ذلك (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ) أى
ببلية كمرض وفقر ونحو ذلك (فَلَا كَاشِفَ لَهُ) أى فلا قادر على كشفه عنك (إِلَّا هُوَ) وحده (وَإِنْ يَمْسَسْكَ
بِخَيْرٍ) من صحة ونعمة ونحو ذلك (فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ومن جملته ذلك فيقدر عليه فيمسك به ويحفظه عليك
من غير أن يقدر على دفعه أو على رفعه أحد كقوله تعالى فلا راد لفضله وحمله على تأكيد الجوابين يأباه الفاء . تذكرة
روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسرى فركبها بحبل من
شعر ثم اردفنى خلفه ثم سار بى ميلا ثم التفت إلى فقال ياغلام فقلت لبيك يارسول الله فقال احفظ الله يحفظك احفظ
الله تجده امامك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله فقد مضى
القلم بما هو كائن فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب
الله عليك ماقدروا عليه فان استطعت ان تعمل بالصبر مع اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان فى الصبر على ماتكره
خيرا كثيرا واعلم أن النصر مع الصبر وأن مع الكرب فرجا وأن مع العسر يسرا (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) تصوير
لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة (وَهُوَ الْحَكِيمُ) فى كل مايفعله ويأمر به (الْخَبِيرُ) بأحوال عباده وخفايا أمورهم
واللام فى المواضع الثلاثة للقصر (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً) روى أن قريشا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
يامحمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول الله
فنزلت فأى مبتدأ وأكبر خبره وشهادة نصب على التميز وقوله تعالى (قُلِ اللهُ) أمر له عليه الصلاة والسلام بأن
يتولى الجواب بنفسه اما للايذان بتعينه وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره أو لأنهم ربما يتلعثمون فيه لا لترددهم فى
أنه أكبر من كل شىء بل فى كونه شهيدا فى هذا الشأن وقوله تعالى (شَهِيدٌ) خبر مبتدا محذوف أى هو شهيد (بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ) ويجوز أن يكون الله شهيد بينى وبينكم هو الجواب لأنه إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم كان أكبر شىء شهادة
شهيدا له عليه الصلاة والسلام وتكرير البين لتحقيق المقابلة (وَأُوحِيَ إِلَيَّ) أى من جهته تعالى (هَذَا الْقُرْآنُ)
الشاهد بصحة رسالتى (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ) بما فيه من الوعيد والاقتصار على ذكر الانذار لما أن الكلام مع الكفرة
(وَمَنْ بَلَغَ) عطف على ضمير المخاطبين أى لأنذركم به ياأهل مكة وسائر من بلغه من الاسود والأحمر أو من الثقلين
أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين يوم
نزوله ومن سيوجد بعد إلى يوم القيامة خلا أن ذلك بطريق العبارة فى الكل عند الحنابلة وبالاجماع عندنا فى غير
الموجودين وفى غير المكلفين يومئذ كما مر فى أول سورة النساء (أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى) تقرير
لهم مع انكار واستبعاد (قُلْ لَا أَشْهَدُ) بذلك وان شهدتم به فانه باطل صرف (قُلْ) تكرير للامر للتأكيد (إِنَّمَا هُوَ
إِلَهٌ وَاحِدٌ) أى بل إنما أشهد أنه تعالى لا اله الا هو (وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) من الاصنام أو من اشراككم

(الذين آتيناهم الكتاب) جواب عما سبق من قولهم لقد سألنا عنك اليهود والنصارى أخر عن تعيين الشهيد مسارعة إلى إلزامهم بالجواب عن تحكمهم بقولهم فأرنا من يشهد لك الخ والمراد بالموصول اليهود والنصارى وبالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والانجيل وإيرادهم بعنوان إيتاء الكتاب للإيذان بمدار ما أسند إليهم بقوله تعالى (يعرفونه) أى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة الكتابين بحليته ونعوته المذكورة فيهما (كما يعرفون أبناءهم) بحلالهم بحيث لا يشكون فى ذلك أصلا . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة قال عمر رضى الله عنه لعبد الله بن سلام أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآية وكيف هذه المعرفة فقال يا عمر لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابنى ولأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى لأنى لا أدرى ما صنع النساء وأشهد أنه حق من الله تعالى (الذين خسروا أنفسهم) من أهل الكتابين والمشركين بأن ضيعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها وأعرضوا عن البينات الموجبة للإيمان بالكلية (فهم لا يؤمنون) لما أنهم مطبوع على قلوبهم ومحل الموصول الرفع على الابتداء وخبره الجملة المصدرة بالفاء لشبه الموصول بالشرط وقيل على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين خسروا الخ وقيل على أنه نعت للموصول الأول وقيل النصب على الذم فقوله تعالى فهم لا يؤمنون على الوجوه الأخيرة عطف على جملة الذين آتيناهم الكتاب الخ (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بوصفهم النبى الموعود فى الكتابين بخلاف أوصافه عليه الصلاة والسلام فإنه افتراء على الله سبحانه وبقولهم الملائكة بنات الله وقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله ونحو ذلك وهو إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وإن كان سبك التركيب غير متعرض لإنكار المساواة ونفيها يشهد به العرف الفاشى والاستعمال المطرد فإنه إذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل ألا يرى إلى قوله عز وجل لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون بعد قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا الخ والسر فى ذلك أن النسبة بين الشيئين إنما تتصور غالبا لا سيما فى باب المغالبة بالتفاوت زيادة ونقصانا فإذا لم يكن أحدهما أزيد يتحقق النقصان لا محالة (أو كذب بآياته) كأن كذبوا بالقرآن الذى من جملته الآية الناطقة بأنهم يعرفونه عليه الصلاة والسلام كما يعرفون أبناءهم وبالمعجزات وسموها سحرا وحرفوا التوراة وغيروا نعوته عليه الصلاة والسلام فإن ذلك تكذيب بآياته تعالى وكلمة أو للإيذان بأن كلا من الافتراء والتكذيب وحده بالغ غاية الإفراط فى الظلم فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ونفوا ما أثبته قاتلهم الله أنى يؤفكون (إنه) الضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل إن الشأن الخطير هذا هو (لا يفلح الظالمون) أى لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب وإذا كان حال الظالمين هذا فما ظنك بمن فى الغاية القاصية من الظلم (ويوم نحشرهم جميعا) منصوب على الظرفية بمضمر مؤخر قد حذف إيذانا بضيق العبارة عن شرحه وبيانه وإيماء على عدم استطاعة السامعين لسماعه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة والداهية التامة كأنه قيل ويوم نحشرهم جميعا (ثم نقول) لهم ما نقول كان من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال وتقدير صيغة الماضى للدلالة على التحقق ولحسن موقع عطف قوله تعالى ثم لم تكن الخ عليه وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم أى واذكر لهم للتخويف والتحذير يوم نحشرهم الخ وقيل وليتقوا أو ليحذروا يوم نحشرهم الخ والضمير للكل وجميعا حال منه وقرىء يحشرهم جميعا ثم يقول بالياء فيهما (للذين أشركوا) أى نقول لهم خاصة للتوبيخ والتقريع على رؤس الأشهاد (أين شركاؤكم) أى

آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله سبحانه وإضافتها اليهم لما أن شركتها ليست إلا بتسميتهم وتقولهم الكاذب كما ينبيء عنه قوله تعالى (الذين كنتم تزعمون) أي تزعمونها شركاء فحذف المفعولان معا وهذا السؤال المنبيء عن غيبة الشركاء مع عموم الحشر لها لقوله تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله وغير ذلك من النصوص إنما يقع بعدما جرى بينها وبينهم من التبرؤ من الجانبين وتقطع ما بينهم من الأسباب والعلائق حسبما يحكيه قوله تعالى فزيلنا بينهم الخ ونحو ذلك من الآيات الكريمة اما بعدم حضورها حينئذ في الحقيقة بابعادها من ذلك الموقف واما بتنزيل عدم حضورها بعنوان الشركة والشفاعة منزلة عدم حضورها في الحقيقة إذ ليس السؤال عنها من حيث ذواتها بل إنما هو من حيث أنها شركاء كما يعرب عنه الوصف بالموصول ولا ريب في أن عدم الوصف يوجب عدم الموصوف من حيث هو موصوف فهي من حيث هي شركاء غائبة لا محالة وان كانت حاضرة من حيث ذواتها أصناما كانت أو غيرها وأما ما يقال من أنه يحال بينها وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها فيروا مكان خزيهم وحسرتهم فربما يشعر بعدم شعورهم بحقيقة الحال وعدم انقطاع حبال رجائهم عنها بعد وقد عرفت أنهم شاهدوها قبل ذلك وانصرمت عروة أطماعهم عنها بالكلية على أنها معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب في البرزخ وانما الذي يحصل يوم الحشر الانكشاف الجلي واليقين القوي المترتب على المحاضرة والمحاورة (ثم لم تكن فتنتهم) بتأنيث الفعل ورفع فتنتهم على أنه اسم له والخبر (إلا أن قالوا) وقرىء بنصب فتنتهم على أنها الخبر والاسم الا أن قالوا والتأنيث للخبر كما في قولهم من كانت أمك وقرىء بالتذكير مع رفع الفتنة ونصبها ورفعها أنسب بحسب المعنى والجملة عطف على ما قدر عاملا في يوم نحشرهم كما أشير اليه فيما سلف والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء وفتنتهم اما كفرهم مرادا به عاقبته أي لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه مدة أعمارهم وافتخروا به شيئا من الأشياء الاجحوده والتبرؤ منه بأن يقولوا (والله ربنا ما كنا مشركين) وأما جوابهم عبر عنه بالفتنة لأنه كذب ووصفه تعالى بربوبيته لهم للمبالغة في التبرؤ من الاشراك وقرىء ربنا على النداء فهو لإظهار الضراعة والابتهال في استدعاء قبول المعذرة وإنما يقولون ذلك مع علمهم بأنه بمعزل من النفع رأسا من فرط الحيرة والدهش وحمله على معنى ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا في الدنيا أنا على خطأ في معتقدنا مما لا ينبغي أن يتوهم أصلا فانه مما يوهم أن لهم عذرا ما وأن لهم قدرة على الاعتذار في الجملة وذلك مخل بكمال هول اليوم قطعا على أنه قد قضى ببطلانه قوله تعالى (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) فانه تعجيب من كذبهم الصريح بانكار صدور الإشراك عنهم في الدنيا أي انظر كيف كذبوا على أنفسهم في قولهم ذلك فانه أمر عجيب في الغاية وأما حمله على كذبهم في الدنيا فتمحل يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه وقوله تعالى (وضل عنهم ما كانوا يفترون) عطف على كذبوا داخل معه في حكم التعجيب وما مصدرية أو موصولة قد حذف عائدها والمعنى انظر كيف كذبوا باليمين الفاجرة المغلظة على أنفسهم بانكار صدور ما صدر عنهم وكيف ضل عنهم أي زال وذهب افتراؤهم أو ما كانوا يفترونه من الاشراك حتى نفوا صدوره عنهم بالكلية وتبرءوا منه بالمرة وقيل ما عبارة عن الشركاء وإيقاع الافتراء عليها مع أنه في الحقيقة واقع على أحوالها من الالهية والشركة والشفاعة ونحوها للمبالغة في أمرها كأنها نفس المفترى وقيل الجملة كلام مستأنف غير داخل في حيز التعجيب (ومنهم من يستمع إليك) كلام مبتدأ مسوق لحكاية ما صدر في الدنيا عن بعض المشركين من أحكام الكفر ثم بيان ما سيصدر عنهم يوم الحشر تقريرا لما قبله وتحقيقا لمضمونه والضمير للذين أشركوا ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف كما في قوله تعالى ومنا دون ذلك أي وجمع منا الخ ومن موصولة أو موصوفة محلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعضهم أو وبعض منهم الذي يستمع

اليك أو فريق يستمع اليك على أن مناط الإفادة اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين وقد مر فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ . روى أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر وكان صاحب أخبار يا أباقتيلة مايقول محمد فقال والذى جعلها بيته ما أدرى مايقول إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ماحدثتكم من القرون الماضية فقال أبو سفيان إنى لأراه حقا فقال أبو جهل كلا فنزلت (وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) من الجعل بمعنى الانشاء وعلى متعلقة به وضمير قلوبهم راجع إلى من وجمعيته بالنظر إلى معناها كما أن افراد ضمير يستمع بالنظر إلى لفظها وقد روعى جانب المعنى فى قوله تعالى ومنهم من يستمعون اليك الآية والأكنة جمع كنان وهو مايستر به الشىء وتنوينها للتفخيم والجملة إما مستأنفة للاخبار بما تضمنه من الختم أو حال من فاعل يستمع باضمار قد عند من يقدرها قبل الماضى الواقع حالا أى يستمعون اليك وقد ألقينا على قلوبهم أغطية كثيرة لا يقادر قدرها خارجة عما يتعارفه الناس (أَن يَفْقَهُوهُ) أى كراهة أن يفقهوا مايستمعونه من القرآن المدلول عليه بذكر الاستماع ويجوز أن يكون مفعولا لما ينبىء عنه الكلام أى منعناهم أن يفقهوه (وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا) صمما وثقلا مانعا من سماعه والكلام فيه كما فى قوله تعالى على قلوبهم أكنة وهذا تمثيل معرب عن كمال جهلهم بشئون النبى عليه الصلاة والسلام وفرط نبوة قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له وقد مر تحقيقه فى أول سورة البقرة وقيل هو حكاية لما قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر الآية وأنت خبير بأن مرادهم بذلك الاخبار بما اعتقدوه فى حق القرآن والنبى عليه الصلاة والسلام جهلا وكفرا من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والإيمان ككون القرآن سحرا او شعرا او أساطير الأولين وقس على ماتخيلوه فى حق النبى صلى الله عليه وسلم لا الاخبار بأن هناك أمرا وراء ذلك قد حال بينهم وبين إدراكه حائل من قبلهم حتى يمكن حمل النظم الكريم على ذلك (وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ) من الآيات القرآنية أى يشاهدوها بسماعها (لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا) على عموم النفى لا على نفى العموم أى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم إياها كما هى لما مر من حالهم (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ) هى حتى التى تقع بعدها الجمل والجملة هى قوله تعالى إذا جاءوك (يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا) ومابينهما حال من فاعل جاءوا وإنما وضع الموصول موضع الضمير ذما لهم بما فى حيز الصلة وإشعارا بعلة الحكم أى بلغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاءوك يجادلين لك لا يكتفون بمجرد عدم الايمان بما سمعوا من الآيات الكريمة بل يقولون (إِنْ هَٰذَآ) أى ماهذا (إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) فان عدأحسن الحديث وأصدقه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من قبيل الأباطيل والخرافات رتبة من الكفر لا غاية وراءها ويجوز أن تكون حتى جارة وإذا ظرفية بمعنى وقت مجيئهم ويجادلونك حال كما سبق وقوله تعالى يقول الذين كفروا الخ تفسير للمجادلة والأساطير جمع أسطورة أو اسطارة أو جمع اسطار وهو جمع سطر بالتحريك وأصل الكل السطر بمعنى الخط (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ) الضمير المرفوع للمذكورين والمجرور للقرآن أى لا يقنعون بما ذكر من تكذيبه وعده من قبيل الأساطير بل ينهون الناس عن استماعه لئلا يقفوا على حقيته فيؤمنوا به (وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ) أى يتباعدون عنه بأنفسهم إظهارا لغاية نفورهم عنه وتأكيدا لنهيهم عنه فان اجتناب الناهى عن المنهى عنه من متممات النهى ولعل ذلك هو السر فى تأخير النأى عن النهى وقيل الضمير المجرور للنبى عليه الصلاة والسلام وقيل المرفوع لأبى طالب ولعل جمعيته باعتبار استتباعه لاتباعه فانه كان ينهى قريشا عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وينأى عنه فلا يؤمن به وروى أنهم اجتمعوا اليه وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا فقال :

والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لامحالة أنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أوحذارى سبة لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

فنزلت (وَإِن يُهْلِكُونَ) أى مايهلكون بمافعلوا من النهى والنأى (إلا أنفُسَهُمْ) بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه عاجلا وآجلا وهو عذاب الضلال والاضلال وقوله تعالى (وَمَا يَشْعُرُونَ) حال من ضمير يهلكون أى يقصرون الاهلاك على انفسهم والحال أنهم مايشعرون أى لا باهلاكهم أنفسهم ولا باقتصار ذلك عليهامن غير أن يضروا بذلك شيأ من القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وإنما عبر عنه بالاهلاك مع أن المنفى عن غيرهم مطلق الضرر إذ غاية مايؤدى اليه مافعلوا من القدح فى القرآن الكريم المانعة فى تمشى أحكامه وظهور أمر الدين للايذان بأن مايحيق بهم هو الهلاك لا الضرر المطلق على أن مقصدهم لم يكن مطلق المانعة فيماذكر بل كانوا يبغون الغوائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ويجوز أن يكون الاهلاك معتبرا بالنسبة إلى الذين يضلونهم بالنهى فقصره على أنفسهم حينئذ مع شموله للفريقين مبنى على تنزيل عذاب الضلال عند عذاب الاضلال منزلة العدم (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ) شروع فى حكاية ماسيصدر عنهم يوم القيامة من القول المناقض لما صدر عنهم فى الدنيا من القبائح المحكية مع كونه كذبا فى نفسه والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل المشاهدة والعيان قصدا إلى بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الشناعة والفظاعة إلى حيث لايختص استغرابها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الأمور العجيبة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها وجواب لو محذوف ثقة بظهوره وإيذانا بقصور العبارة عن تفصيله وكذا مفعول ترى لدلالة مافى حيز الظرف عليه أى لو تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها لرأيت مالا يسعه التعبير وصيغة الماضى للدلالة على التحقق أوحين يطلعون عليها اطلاعا وهى تحتهم أويدخلونها فيعرفون مقدار عذابها من قولهم وقفته على كذا اذا فهمته وعرفته وقرىء على البناء للفاعل من وقف عليه وقوفا (فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ) أى إلى الدنيا تمنيا للرجوع والخلاص وهيهات ولات حين مناص (وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا) أى بآياته الناطقة بأحوال النار وأهوالها الآمرة باتقائها إذهى التى تخطر حينئذ ببالهم ويتحسرون على مافرطوا فى حقها أو بجميع آياته المنتظمة لتلك الآيات انتظاما أوليا (وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) بها العاملين بمقتضاها حتى لانرى هذا الموقف الهائل أونكون من فريق المؤمنين الناجين من العذاب الفائزين بحسن المآب ونصب الفعلين على جواب التمنى باضمار أن بعد الواو واجرائها مجرى الفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود وابن اسحق فلانكذب والمعنى ان رددنالم نكذب ونكن من المؤمنين وقيل ينسبك من أن المصدرية ومن الفعل بعدها مصدر ويقدر قبله مصدر متوهم فيعطف هذا عليه كأنه قيل ليت لنا ردا وانتفاء تكذيب وكونا من المؤمنين وقرىء برفعهما على أنه كلام مستأنف كقوله دعنى ولا أعود أى وأنا لا أعود تركتنى أولم تتركنى أوعطف على نرد أوحال من ضميره فيكون داخلا فى حكم التمنى كالوجه الأخير للنصب وتعلق التكذيب الآتى به لماتضمنه من العدة بالإيمان وعدم التكذيب كمن قال ليتى رزقت مالا فأكافئك على صنيعك فانه متمن فى معنى الواعد فلو رزق مالا ولم يكافى صاحبه يكون مكذبا لامحالة وقرىء برفع الأول ونصب الثانى وقدمر وجههما (بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ) اضراب عماينبىء عنه التمنى من الوعد بتصديق الآيات والإيمان بها أي ليس ذلك عن عزيمة صادقة ناشئة عن رغبة فى الايمان وشوق إلى تحصيله والاتصاف به بل لأنه ظهر لهم

فى موقفهم ذلك ما كانوا يخفونه فى الدنيا من الداهية الدهياء وظنوا أنهم مواقعوها فلخوفها وهول مطلعها قالوا ماقالوا
والمراد بها النار التى وقفوا عليها إذ هى التى سيق الكلام لتهويل أمرها والتعجيب من فظاعة حال الموقوفين عليها وباخفائها
تكذيبهم بها فان التكذيب بالشىء كفر به واخفاء له لا محالة وايثاره على صريح التكذيب الوارد فى قوله عز وجل هذه
جهنم التى يكذب بها المجرمون وقوله تعالى هذه النار التى كنتم بها تكذبون مع كونه أنسب بما قبله من قولهم ولا نكذب
بآيات ربنا لمراعاة مافى مقابلته من البدو هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم وأما ما قيل من أن المراد بما يخفون
كفرهم ومعاصيهم أو قبائحهم وفضائحهم التى كانوا يكتمونها من الناس فتظهر فى صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم أو
شركهم الذى يجحدون به فى بعض مواقف القيامة بقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ثم يظهر بما ذكر من شهادة الجوارح
عليهم أو ما أخفاه رؤساء الكفرة عن أتباعهم من أمر البعث والنشور أو ما كتمه علماء أهل الكتابين من صحة نبوة
النبى عليه الصلاة والسلام ونعوته الشريفة عن عوامهم على أن الضمير المجرور للعوام والمرفوع للخواص أو كفرهم
الذى أخفوه عن المؤمنين والضمير المجرور للمؤمنين والمرفوع للمنافقين فبعد الاغضاء عما فى كل منها من الاعتساف
والاختلال لا سبيل إلى شىء من ذلك أصلا لما عرفت من أن سوق النظم الشريف لتهويل أمر النار وتفظيع حال أهلها
وقد ذكر وقوفهم عليها وأشير إلى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة والدهشة ما لا يحيط به الوصف
ورتب عليه تمنيهم المذكور بالفاء القاضية بسببية ماقبلها لما بعدها فاسقاط النار بعد ذلك من تلك السببية وهى فى نفسها
أدهى الدواهى وأزجر الزواجر واسنادها إلى شىء من الأمور المذكورة التى دونها فى الهول والزجر مع عدم جريان
ذكرها ثمة أمر يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله وأما ما قيل من أن المراد جزاء ما كانوا يخفون فمن قبيل دخول
البيوت من ظهورها وأبوابها مفتوحة فتأمل (وَلَوْ رُدُّوا) أى من موقفهم ذلك إلى الدنيا حسبما تمنوه وغاب عنهم
ماشاهدوه من الأهوال (لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) من فنون القبائح التى من جملتها التكذيب المذكور ونسوا ما عاينوه
بالكلية لاقتصار أنظارهم على الشاهد دون الغائب (وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) أى لقوم ديدنهم الكذب فى كل ما يأتون وما
يذرون (وَقَالُوا) عطف على عادوا داخل فى حيز الجواب وتوسيط قوله تعالى وانهم لكاذبون بينهما لأنه اعتراض مسوق
لتقرير ما أفاده الشرطية من كذبهم المخصوص ولو أخر لأوهم أن المراد تكذيبهم فى انكارهم البعث والمعنى لو ردوا إلى
الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وقالوا (إِنْ هِيَ) أى ما الحياة (إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) بعد ما فارقنا هذه
الحياة كأن لم يروا ما رأوا من الأحوال التى أولها البعث والنشور (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ) الكلام فيه
كالذى مر فى نظيره خلا أن الوقوف ههنا مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجانى بين يدى سيده للعقاب وقيل
عرفوا ربهم حق التعريف وقيل وقفوا على جزاء ربهم وقوله تعالى (قَالَ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام
السابق كأنه قيل فماذا قال لهم ربهم إذ ذاك فقيل قال (أَلَيْسَ هَٰذَا) مشيرا إلى ما شاهدوه من البعث وما يتبعه من
الأمور العظام (بِالْحَقِّ) تقريعا لهم على تكذيبهم لذلك وقولهم عند سماع ما يتعلق به ما هو بحق وما هو إلا باطل
(قَالُوا) استئناف كما سبق (بَلَىٰ وَرَبِّنَا) أكدوا اعترافهم باليمين اظهارا لكمال يقينهم بحقيقته وإيذانا بصدور
ذلك عنهم بالرغبة والنشاط طمعا فى نفعه (قَالَ) استئناف كما مر (فَذُوقُوا الْعَذَابَ) الذى عاينتموه والفاء لترتيب
التعذيب على اعترافهم بحقية ما كفروا به فى الدنيا لكن لا على أن مدار التعذيب هو اعترافهم بذلك بل هو كفرهم
السابق بما اعترفوا بحقيته الآن كما نطق به قوله عز وجل (بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) أى بسبب كفركم فى الدنيا
بذلك أو بكل ما يجب الايمان به فيدخل كفرهم به دخولا أوليا ولعل هذا التوبيخ والتقريع انما يقع بعد ما وقفوا

على النار فقالوا ما قالوا إذ الظاهر أنه لا يبقى بعد هذا الأمر إلا العذاب (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ) هم الذين حكيت أحوالهم لكن وضع الموصول موضع الضمير للايذان بتسبب خسرانهم بما فى حيز الصلة من التكذيب بلقائه تعالى بقيام الساعة وما يترتب عليه من البعث وأحكامه المتفرعة عليه واستمرارهم على ذلك فان كلمة حتى فى قوله تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ) غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم فانه أبدى لا حد له (بَغْتَةً) البغت والبغتة مفاجأة الشىء بسرعة من غير شعور به يقال بغته بغتا وبغتة أى فجأة وانتصابها اما على أنها مصدر واقع موقع الحال من فاعل جاءتهم أى مباغتة أو من مفعوله أى مبغوتين وإما على أنها مصدر مؤكد على غير الصدر فان جاءتهم فى معنى بغتتهم كقولهم أتيته ركضا أو مصدر مؤكد لفعل محذوف وقع حالا من فاعل جاءتهم أى جاءتهم الساعة تبغتهم بغتة (قَالُوا) جواب إذا (يَا حَسْرَتَنَا) تعالى فهذا أوانك والحسرة شدة الندم وهذا التحسر وإن كان يعتريهم عند الموت لكن لما كان ذلك من مبادى الساعة سمى باسمها ولذلك قال عليه الصلاة والسلام من مات فقد قامت قيامته أو جعل مجىء الساعة بعد الموت كالواقع بغير فترة لسرعته (عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) أى على تفريطنا فى شأن الساعة وتقصيرنا فى مراعاة حقها والاستعداد لها بالإيمان بها واكتساب الأعمال الصالحة كما فى قوله تعالى على ما فرطت فى جنب الله وقيل الضمير للحياة الدنيا وان لم يجر لها ذكر لكونها معلومة والتفريط التقصير فى الشىء مع القدرة على فعله وقيل هو التضييع وقيل الفرط السبق ومنه الفارط أى السابق ومعنى فرط خلى السبق لغيره فالتضعيف فيه للسلب كما فى جلدت البعير وقوله تعالى (وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ) حال من فاعل قالوا فائدته الايذان بأن عذابهم ليس مقصورا على ما ذكر من الحسرة على ما فات وزال بل يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقال والإيماء إلى أن تلك الحسرة من الشدة بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات والسر فى ذلك أن العذاب الروحانى أشد من الجسمانى نعوذ برحمة الله عز وجل منهما والوزر فى الأصل الحمل الثقيل سمى به الاثم والذنب لغاية ثقله على صاحبه وذكر الظهور كذكر الأيدى فى قوله تعالى فبما كسبت أيديكم فان المعتاد حمل الاثقال على الظهور كما أن المألوف هو الكسب بالأيدى والمعنى انهم يتحسرون على ما لم يعملوا من الحسنات والحال انهم يحملون أوزار ما عملوا من السيئات (أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) تذييل مقرر لما قبله وتكملة له أى بئس شيأ يزرونه وزرهم (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ) لما حقق فيما سبق أن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يلقون فيها من الخطوب ما يلقون بين بعده حال تينك الحياتين فى أنفسهما واللعب عمل يشغل النفس ويفترها عما تنتفع به واللهو صرفها عن الجد الى الهزل والمعنى اما على حذف المضاف أو على جعل الحياة الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة كما فى قول الخنساء فانما هى إقبال وإدبار أى وما أعمال الدنيا أى الأعمال المتعلقة بها من حيث هى هى أو وما هى من حيث انها محل لكسب تلك الأعمال الا لعب يشغل الناس ويلهيهم بما فيه من منفعة سريعة الزوال ولذة وشيكة الاضمحلال عما يعقبهم منفعة جليلة باقية ولذة حقيقية غير متناهية من الإيمان والعمل الصالح (وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ) التى هى محل الحياة الاخرى (خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) الكفر والمعاصى لأن منافعها خالصة عن المضار ولذاتها غير منغصة بالآلام مستمرة على الدوام (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان والفاء للعطف على مقدر أى أتغفلون فلا تعقلون أو ألا تتفكرون فتعقلون وقرىء يعقلون على الغيبة (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ) استئناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن الذى يعتريه مما حكى عن الكفرة من الاصرار على التكذيب والمبالغة فيه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من الله عز وجل وأن ما يفعلون فى حقه فهو راجع اليه تعالى فى الحقيقة وأنه ينتقم منهم لا محالة أشد انتقام وكلمة قد لتأكيد العلم بما ذكر المفيد لتأكيد

الوعيد كما فى قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه وقوله تعالى قد يعلم الله المعوقين ونحوهما باخراجها إلى معنى التكثير حسبما يخرج اليه ربما فى مثل قوله : وان تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود جريا على سنن العرب عند قصد الافراط فى التكثير تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندي وعنده مقانب جمة يريد بذلك التمادى فى تكثير فرسانه ولكنه يروم اظهار براءته عن التزيد وابراز أنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وعليه قوله عز وجل ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وهذه طريقة إنما تسلك عند كون الأمر من الوضوح بحيث لا تحوم حوله شائبة ريب حقيقة كما فى الآيات الكريمة المذكورة أو ادعاء كما فى البيت وقوله : قد أترك القرن مصفرا أنامله وقوله : ولكنه قد يهلك المال نائله والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة تعلقه وهو متعد إلى اثنين وما بعده ساد مسدهما واسم ان ضمير الشأن وخبرها الجملة المفسرة له والموصول فاعل يحزنك وعائده محذوف أى الذى يقولونه وهو ما حكى عنهم من قولهم ان هذا الا أساطير الأولين ونحو ذلك وقرىء ليحزنك من أحزن المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) تعليل لما يشعر به الكلام السابق من النهى عن الاعتداد بما قالوا لكن لا بطريق التشاغل عنه وعدم المبالاة به بل بطريق تعهده وصرفه إلى ما هو أهم منه من استعظام جحودهم بآيات الله عز وجل كما قيل فانه مع كونه بمعزل من التسلية بالكلية بما يوهم كون حزنه عليه الصلاة والسلام لخاصة نفسه بل بطريق التسلى بما يفيده من بلوغه عليه الصلاة والسلام فى جلالة القدر ورفعة المحل والزلفى من الله عز وجل إلى حيث لا غاية وراءه حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه الصلاة والسلام تكذيبا لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله بل نفى تكذيبهم عنه عليه الصلاة والسلام وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ايذانا بكمال القرب واضمحلال شئونه عليه الصلاة والسلام فى شأن الله عز وجل نعم فيه استعظام لجنايتهم منبىء عن عظم عقوبتهم كأنه قيل لا تعتد به وكله الى الله تعالى فانهم فى تكذيبهم ذلك لا يكذبونك فى الحقيقة (وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) أى ولكنهم بآياته تعالى يكذبون فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالرسوخ فى الظلم الذى جحودهم هذا فن من فنونه والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ما أقدموا عليه من جحود آياته تعالى وايراد الجحود فى مورد التكذيب للايذان بأن آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد وأن من ينكرها فانما ينكرها بطريق الجحود الذى هو عبارة عن الانكار مع العلم بخلافه كما فى قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم وهو المعنى بقول من قال أنه نفى ما فى القلب اثباته أو اثبات ما فى القلب نفيه والباء متعلقة بيجحدون يقال جحد حقه وبحقه إذا أنكره وهو يعلمه وقيل هو لتضمين الجحود معنى التكذيب وأيا ما كان فتقديم الجار والمجرور للقصر وقيل المعنى فانهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بألسنتهم ويعضده ما روى من أن الاخنس بن شريق قال لأبى جهل يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس عندنا أحد غيرنا فقال له والله ان محمدا الصادق وما كذب قط ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فنزلت وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب فى شىء ولكنهم كانوا يجحدون وقيل فانهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ولكنهم يجحدون بآيات الله كما يروى أن أبا جهل كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما نكذبك وانك عندنا الصادق ولكنا نكذب ما جئتنا به فنزلت وكأن صدق المخبر عند الخبيث بمطابقة خبره لاعتقاده والأول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية وقرىء لا يكذبونك من الاكذاب فقيل كلاهما بمعنى واحد كأكثر وكثر وأنزل ونزل وهو الأظهر وقيل معنى أكذبه وجده كاذبا ونقل عن

الكسائى أن العرب تقول كذبت الرجل أى نسبت الكذب اليه وأكذبته أى نسبت الكذب إلى ماجاء به لا إليه وقوله تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ) افتنان فى تسليته عليه الصلاة والسلام فان عموم البلية ربما يهون أمرها بعض تهوين وإرشاد له عليه الصلاة والسلام إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فى الصبر على ما أصابهم من أممهم من فنون الأذية وعدة ضمنية له عليه الصلاة والسلام بمثل مامنحوه من النصر وتصدير الكلام بالقسم لتأكيد التسلية وتنوين رسل للتفخيم والتكثير ومن اما متعلقة بكذبت أو بمحذوف وقع صفة لرسل أى وبالله لقد كذبت من قبل تكذيبك رسل أولو شأن خطير وذوو عدد كثير أو كذبت رسل كانوا من زمان قبل زمانك (فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا) ما مصدرية وقوله تعالى (وَأُوذُوا) عطف على كذبوا داخل فى حكمه فانسبك منهما مصدران من المبنى للمفعول أى فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم فتأس بهم واصطبر على ما نالك من قومك والمراد بإيذائهم اما عين تكذيبهم واما مايقارنه من فنون الايذاء لم يصرح به ثقة باستلزام التكذيب إياه غالبا وأيا ما كان ففيه تأكيد للتسلية وقيل عطف على صبروا وقيل على كذبت وقيل هو استئناف وقوله تعالى (حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) غاية للصبر وفيه ايذان بأن نصره تعالى إياهم أمر مقرر لأمر دله وأنه متوجه اليهم لابد من اتيانه البتة والالتفات إلى نون العظمة لابراز الاعتناء بشأن النصر وقوله تعالى (وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) اعتراض مقرر لما قبله من اتيان نصره إياهم والمراد بكلماته تعالى ماينبىء عنه قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون وقوله تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلى من المواعيد السابقة للرسل عليهم الصلاة والسلام الدالة على نصرة رسول الله أيضا لا نفس الآيات المذكورة ونظائرها فان الاخبار بعدم تبدلها إنما يفيد عدم تبدل المواعيد الواردة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة دون المواعيد السابقة للرسل عليهم الصلاة والسلام ويجوز أن يراد بكلماته تعالى جميع كلماته التى من جملتها تلك المواعيد الكريمة ويدخل فيها المواعيد الواردة فى حقه عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا والالتفات إلى الاسم الجليل للاشعار بعلة الحكم فان الألوهية من موجبات أن لا يغالبه أحد فى فعل من الأفعال ولا يقع منه تعالى خلف فى قول من الأقوال وقوله تعالى (وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ) جملة قسمية جىء بها لتحقيق مامنحوا من النصر وتأكيد مافى ضمنه من الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لتقرير جميع ماذكر من تكذيب الأمم وماترتب عليه من الأمور والجار والمجرور فى محل الرفع على أنه فاعل اما باعتبار مضمونه أى بعض نبأ المرسلين أو بتقدير الموصوف أى بعض من نبأ المرسلين كما مر فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية وأيا ما كان فالمراد بنبئهم عليهم السلام على الأول نصره تعالى إياهم بعد اللتيا والتى وعلى الثانى جميع ماجرى بينهم وبين أممهم على ماينبىء عنه قوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا الآية وقيل فى محل النصب على الحالية من المستكن فى جاءك العائد إلى مايفهم من الجملة السابقة أى ولقد جاءك هذا الخبر كائنا من نبأ المرسلين (وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ) كلام مستأنف مسوق لتأكيد ايجاب الصبر المستفاد من التسلية ببيان أنه أمر لا محيد عنه أصلا أى ان كان عظم عليك وشق اعراضهم عن الايمان بما جئت به من القرآن الكريم حسبما يفصح عنه ماحكى عنهم من تسميتهم له أساطير الأولين وتنائيهم عنه ونهيهم الناس عنه وقيل أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى محضر من قريش فقال يا محمد ائتنا بآية من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل وأنا أصدقك فأبى الله أن يأتى بآية مما اقترحوا فأعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك عليه لما أنه عليه الصلاة والسلام كان شديد الحرص على ايمان قومه فكان إذا سألوا آية يود أن ينزلها الله تعالى طمعاً

فى إيمانهم فنزلت فقوله تعالى اعراضهم مرتفع بكبر وتقديم الجار والمجرور عليه لمامر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر والجلة فى محل النصب على أنها خبر لكان مفسرة لاسمها الذى هو ضمير الشأن ولا حاجة إلى تقدير قد وقيل اسم كان اعراضهم وكبر جملة فعلية فى محل النصب على أنها خبر لها مقدم على اسمها لأنه فعل رافع لضمير مستتر كما هو المشهور وعلى التقديرين فقوله تعالى (فإن استطعت) الخ شرطية أخرى محذوفة الجواب وقعت جوابا للشرط الأول والمعنى إن شق عليك اعراضهم عن الايمان بما جئت به من البينات وعدم عدهم لها من قبيل الآيات وأحببت أن تجيبهم إلى ماسألوه اقتراحا فان استطعت (أن تبتغى نفقا) أى سربا ومنفذا (فى الأرض) تنفذ فيه إلى جوفها (أو سلما) أى مصعدا (فى السماء) تعرج به فيها (فتأتيهم) منهما (بآية) مما اقترحوه فافعل وقد جوز أن يكون ابتغاؤهما نفس الاتيان بالآية فالفاء فى فتأتيهم حينئذ تفسيرية وتنوين آية للتفخيم أى فان استطعت أن تبتغيهما فتجعل ذلك آية لهم فافعل والظرفان متعلقان بمحذوفين هما نعتان لنفقا وسلما والأول لمجرد التأكيد إذ النفق لا يكون إلا فى الأرض أو بتبتغى وقد جوز تعلقهما بمحذوف وقع حالا من فاعل تبتغى أى أن تبتغى نفقا كائنا أنت فى الأرض أو سلما كائنا فى السماء وفيه من الدلالة على تبالغ حرصه عليه الصلاة والسلام على اسلام قومه وترامية إلى حيث لو قدر على أن يأتى بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لفعل رجاء لايمانهم مالا يخفى وإيثار الابتغاء على الاتخاذ ونحوه للايذان بأن ماذكر من النفق والسلم مما لايستطاع ابتغاؤه فكيف باتخاذه (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أى ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم على ماأنتم عليه من الهدى لفعله بان يوفقهم للايمان فيؤمنوا معكم ولكن لم يشأ لعدم صرف اختيارهم إلى جانب الهدى مع تمكنهم التام منه فى مشاهدتهم للآيات الداعية اليه لأنه تعالى لم يوفقهم له مع توجههم إلى تحصيله وقيل لو شاء الله لجمعهم عليه بأن يأتيهم بآية ملجئة اليه ولكن لم يفعله لخروجه عن الحكمة وقوله تعالى (فلا تكونن من الجاهلين) نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان عليه من الحرص الشديد على اسلامهم والميل إلى إتيان مايقترحونه من الآيات طمعا فى إيمانهم مرتب على بيان عدم تعلق مشيئته تعالى بهدايتهم والمعنى وإذا عرفت أنه تعالى لم يشأ هدايتهم وإيمانهم بأحد الوجهين فلا تكونن بالحرص الشديد على اسلامهم أو الميل إلى نزول مقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شئونه تعالى التى من جملتها ماذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بايمانهم أما اختيارا فلعدم توجههم اليه وأما اضطرارا فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار ويجوز أن يراد بالجاهلين على الوجه الثانى المقترحون ويراد بالنهى منعه عليه الصلاة والسلام من المساعدة على اقتراحهم وايرادهم بعنوان الجهل دون الكفر ونحوه لتحقيق مناط النهى الذى هو الوصف الجامع بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم (إنما يستجيب الذين يسمعون) تقرير لما مر من أن على قلوبهم أكنة مانعة من الفقه وفى آذانهم وقرا حاجزا من السماع وتحقيق لكونهم بذلك من قبيل الموتى لايتصور منهم الايمان البتة والاستجابة الاجابة المقارنة للقبول أى إنما يقبل دعوتك إلى الإيمان الذين يسمعون مايلقى اليهم سماع تفهم وتدبر دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى انك لاتسمع الموتى وقوله تعالى (والموتى يبعثهم الله) تمثيل لاختصاصه تعالى بالقدرة على توفيقهم للايمان باختصاصه تعالى بالقدرة على بعث الموتى من القبور وقيل بيان لاستمرارهم على الكفر وعدم اقلاعهم عنه أصلا على أن الموتى من القبور وقيل بيان مستعار للكفرة بناء على تشبيه جهلهم بموتهم أى وهؤلاء الكفرة يبعثهم الله تعالى من قبورهم (ثم إليه يرجعون) للجزاء فحينئذ يستجيبون وأما قبل ذلك فلا سبيل اليه وقرىء يرجعون على البناء للفاعل من رجع رجوعا والمشهورة أوفى بحق المقام لانبائه عن كون مرجعهم اليه تعالى بطريق

الاضطرار (وَقالوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) حكاية لبعض آخر من أباطيلهم بعد حكاية ما قالوا فى حق القرآن الكريم وبيان ما يتعلق به والقائلون رؤساء قريش وقيل الحرث بن عامر بن نوفل وأصحابه ولقد بلغت بهم الضلالة والطغيان إلى حيث لم يقتنعوا بما شاهدوا من البينات التى تخر لها صم الجبال حتى اجترؤا على ادعاء أنها ليست من قبيل الآيات وإنما هى ما اقترحوه من الخوارق الملجئة أو المعقبة للعذاب كما قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية والتنزيل بمعنى الانزال كما ينبىء عنه القراءة بالتخفيف فيما سيأتى وما يفيده التعرض لعنوان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من الاشعار بالعلية إنما هو بطريق التعريض بالتهكم من جهتهم واطلاق الآية فى قوله تعالى (قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً) مع أن المراد بها ما هو من الخوارق المذكورة لا آية ما من الآيات لفساد المعنى مجاراة معهم على زعمهم ويجوز أن يراد بها آية موجبة لهلاكهم كانزال ملائكة العذاب ونحوه على أن تنوينها للتفخيم والتهويل كما أن اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة مع ما فيه من الاشعار بعلة القدرة الباهرة والاقتصار فى الجواب على بيان قدرته تعالى على تنزيلها مع أنها ليست فى حيز الانكار للايذان بأن عدم تنزيله تعالى إياها مع قدرته عليه لحكمة بالغة يجب معرفتها وهم عنها غافلون كما ينبىء عنه الاستدراك بقوله تعالى (وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) أى ليسوا من أهل العلم على أن المفعول مطروح بالكلية أو لا يعلمون شيئاً على أنه محذوف مدلول عليه بقرينة المقام والمعنى أنه تعالى قادر على أن ينزل آية من ذلك أو آية أى آية ولكن أكثرهم لا يعلمون فلا يدرون أن عدم تنزيلها مع ظهور قدرته عليه لما أن فى تنزيلها قلعاً للأساس التكليف المبنى على قاعدة الاختيار أو استئصالاً لهم بالكلية فيقترحونها جهلا ويتخذون عدم تنزيلها ذريعة إلى التكذيب وتخصيص عدم العلم بأكثرهم لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال وإنما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعنادا وقوله تعالى (وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ) الخ كلام مستأنف مسوق لبيان كمال قدرته عز وجل وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه تعالى قادر على تنزيل الآية وإنما لا ينزلها محافظة على الحكم البالغة وزيادة من لتأكيد الاستغراق وفى متعلقة بمحذوف هو وصف لدابة مفيد لزيادة التعميم كأنه قيل وما فرد من أفراد الدواب يستقر فى قطر من أقطار الأرض وكذا زيادة الوصف فى قوله تعالى (وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ) مع ما فيه من زيادة التقرير أى ولا طائر من الطيور يطير فى ناحية من نواحى الجو بجناحيه كما هو المشاهد المعتاد وقرىء ولا طائر بالرفع عطفا على محل الجار والمجرور كأنه قيل وما دابة ولا طائر (إِلَّا أُمَمٌ) أى طوائف متخالفة والجمع باعتبار المعنى كأنه قيل وما من دواب ولا طير إلا أمم (أَمْثالُكُمْ) أى كل أمة منها مثلكم فى أن أحوالها محفوظة وأمورها مقننة ومصالحها مرعية جارية على سنن السداد ومنتظمة فى سلك التقديرات الالهية والتدبيرات الربانية (مَا فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) يقال فرط الشىء أى ضيعه وتركه قال ساعدة ابن جوية معه سقاء لا يفرط حمله أى لا يتركه ولا يفارقه ويقال فرط فى الشىء أى أهمل ما ينبغى أن يكون فيه وأغفله فقوله تعالى فى الكتاب أى فى القرآن على الأول ظرف لغو وقوله تعالى من شىء مفعول لفرطنا ومن مزيدة للاستغراق أى ما تركنا فى القرآن شيئاً من الأشياء المهمة التى من جملتها بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغى وعلى الثانى مفعول للفعل ومن شىء فى موضع المصدر أى ما جعلنا الكتاب مفرطا فيه شيئاً من التفريط بل ذكرنا فيه كل ما لابد من ذكره وأيا ما كان فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها وقيل الكتاب اللوح فالمراد بالاعتراض الاشارة إلى أن أحوال الأمم مستقصاة فى اللوح المحفوظ غير مقصورة على هذا القدر المجمل وقرىء فرطنا بالتخفيف وقوله تعالى (ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) بيان لأحوال الأمم المذكورة فى الآخرة بعد بيان أحوالها فى الدنيا وايراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء لاجرائها مجراهم والتعبير عنها بالأمم أى إلى مالك أمورهم يحشرون يوم القيامة كدأبكم لا إلى غيره فيجازيهم

فينصف بعضهم من بعض حتى يبلغ من عدله أن يأخذ للجماء من القرناء وقيل حشرها موتها ويأباه مقام تهويل الخطب وتفظيع الحال وقوله تعالى (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) متعلق بقوله تعالى ما فرطنا فى الكتاب من شىء والموصول عبارة عن المعهودين فى قوله تعالى ومنهم من يستمع اليك الآيات ومحله الرفع على الابتداء خبره ما بعده أى أوردنا فى القرآن جميع الأمور المهمة وأزحنا به العلل والاعذار والذين كذبوا بآياتنا التى هى منه (صُمٌّ) لا يسمعونها سمع تدبر وفهم فلذلك يسمونها أساطير الأولين ولا يعدونها من الآيات ويقترحون غيرها (وَبُكْمٌ) لا يقدرون على أن ينطقوا بالحق ولذلك لا يستجيبون دعوتك بها وقوله تعالى (فِى الظُّلُمَاتِ) أى فى ظلمات الكفر أو ظلمات الجهل والعناد والتقليد اما خبر ثان للمبتدا على أنه عبارة عن العمى كما فى قوله تعالى صم بكم عمى واما متعلق بمحذوف وقع حالا من المستكن فى الخبر كأنه قيل ضالون كائنين فى الظلمات أو صفة لبكم أى بكم كائنون فى الظلمات والمراد به بيان كمال عراقتهم فى الجهل وسوء الحال فان الأصم والأبكم إذا كان بصيرا ربما يفهم شيئاً باشارة غيره وان لم يفهمه بعبارته وكذا يشعر غيره بما فى ضميره بالاشارة وان كان معزولا عن العبارة وأما إذا كان مع ذلك أعمى أو كان فى الظلمات فينسد عليه باب الفهم والتفهيم بالكلية وقوله تعالى (مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ) تحقيق للحق وتقرير لما سبق من حالهم ببيان أنهم من أهل الطبع لا يتأتى منهم الايمان أصلا فمن مبتدأ خبره ما بعده ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وانتفاء الغرابة فى تعلقها به أى من يشأ الله اضلاله أى أن يخلق فيه الضلال يضلله أى يخلقه فيه لكن لا ابتداء بطريق الجبر من غير أن يكون له دخل ما فى ذلك بل عند صرف اختياره إلى كسبه وتحصيله وقس عليه قوله تعالى (وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) لا يضل من ذهب اليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ) أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبكتهم ويلقمهم الحجر بما لا سبيل لهم إلى النكير والكاف حرف جىء به لتأكيد الخطاب لا محل له من الاعراب ومبنى التركيب وان كان على الاستخبار عن الرؤية قلبية كانت أو بصرية لكن المراد به الاستخبار عن متعلقها أى أخبرونى (إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ) حسبما أتى الأمم السابقة من أنواع العذاب الدنيوى (أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ) التى لا محيص عنها البتة (أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ) هذا مناط الاستخبار ومحط التبكيت وقوله تعالى (إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) متعلق بأرأيتكم مؤكد للتبكيت كاشف عن كذبهم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى ان كنتم صادقين فى أن أصنامكم آلهة كما أنها دعواكم المعروفة أو ان كنتم قوما صادقين فأخبرونى أغير الله تدعون ان أتاكم عذاب الله الخ فان صدقهم بأى معنى كان من موجبات اخبارهم بدعائهم غيره سبحانه وأما جعل الجواب ما يدل عليه قوله تعالى أغير الله تدعون أعنى فادعوه على أن الضمير لغير الله فمخل بجزالة النظم الكريم كيف لا والمطلوب منهم إنما هو الاخبار بدعائهم غيره تعالى عند إتيان ما يأتى لا نفس دعائهم إياه وقوله تعالى (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ) عطف على جملة منفية ينبىء عنها الجملة التى تعلق بها الاستخبار انباء جليا كأنه قيل لا غيره تعالى تدعون بل إياه تدعون وقوله تعالى (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ) أى إلى كشفه عطف على تدعون أى فيكشفه اثر دعائكم وقوله تعالى (إِن شَاءَ) أى إن شاء كشفه لبيان أن قبول دعائهم غير مطرد بل هو تابع لمشيئته المبنية على حكم خفية قد استأثر الله تعالى بعلمها فقد يقبله كما فى بعض دعواتهم المتعلقة بكشف العذاب الدنيوى وقد لا يقبله كما فى بعض آخر منها وفى جميع ما يتعلق بكشف العذاب الأخروى الذى من جملته الساعة وقوله تعالى (وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) أى تتركون ما تشركونه به تعالى من الأصنام تركا كليا عطف على تدعون أيضا وتوسيط الكشف بينهما مع تقارنهما وتأخر الكشف عنهما لاظهار كمال العناية بشأن الكشف والايذان بترتبه على الدعاء خاصة وقوله تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا) كلام مستأنف مسوق لبيان أن منهم من لا يدعو الله

تعالى عند اتيان العذاب أى لتماديهم فى الغى والضلال لايتأثرون بالزواجر التكوينية كما لايتأثرون بالزواجر التنزيلية وتصديره بالجملة القسمية لاظهار مزيد الاهتمام بمضمونه ومفعول أرسلنا محذوف لما أن مقتضى المقام بيان حال المرسل اليهم لاحال المرسلين أى وبالله لقد أرسلنا رسلا (إِلَىٰ أُمَمٍ) كثيرة (مِّن قَبْلِكَ) أى كائنة من زمان قبل زمانك (فَأَخَذْنَاهُم) أى فكذبوا رسلهم فأخذناهم (بِالْبَأْسَاءِ) أى بالشدة والفقر (وَالضَّرَّاءِ) أى الضر والآفات وهما صيغتا تأنيث لامذكر لهما (لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) أى لكى يدعوا الله تعالى فى كشفها بالتضرع والتذلل ويتوبوا اليه من كفرهم ومعاصيهم (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا) أى فلم يتضرعوا حينئذ مع تحقق مايستدعيه (وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ) استدراك عما قبله أى فلم يتضرعوا اليه تعالى برقة القلب والخضوع مع تحقق مايدعوهم اليه ولكن ظهر منهم نقيضه حيث قست قلوبهم أى استمرت على ماهى عليه من القساوة أوازدادت قساوة كقولك لم يكرمنى إذجئته ولكن أهاننى (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من الكفر والمعاصى فلم يخطروا ببالهم أن مااعتراهم من البأساء والضراء مااعتراهم إلا لأجله وقيل الاستدراك لبيان أنهم لم يكن لهم فى ترك التضرع عذر سوى قسوة قلوبهم والاعجاب بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم وقوله تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) عطف على مقدر ينساق اليه النظم الكريم أى فانهمكوا فيه ونسوا ماذكروا به من البأساء والضراء فلما نسوه (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) من فنون النعماء على منهاج الاستدراج لماروى أنه عليه الصلاة والسلام قال مكر بالقوم ورب الكعبة وقرىء فتحنا بالتشديد للتكثير وفى ترتيب الفتح على النسيان المذكور اشعار بأن التذكر فى الجملة غير خال عن النفع وحتى فى قوله تعالى (حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا) هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية كما فى قوله تعالى حتى إذا جاء أمرنا الآية ونظائره وهى مع ذلك غاية لقوله تعالى فتحنا أو لمايدل هو عليه كأنه قيل ففعلوا مافعلوا حتى إذا اطمأنوا بما أتيح لهم وبطروا وأشروا (أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً) أى نزل بهم عذابنا فجأة ليكون أشد عليهم وقعا وأفظع هولا (فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) متحسرون غاية الحسرة آيسون من كل خير واجمون وفى الجملة الاسمية دلالة على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعة (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد من دبره دبرا ودبورا أى تبعه ووضع الظاهر موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم فان هلاكهم بسبب ظلمهم الذى هو وضع الكفر موضع الشكر واقامة المعاصى مقام الطاعات (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) على ماجرى عليهم من النكال فان اهلاك الكفار والعصاة من حيث أنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة مستجلبة للحمد لاسيما مع مافيه من اعلاء كلمة الحق التى نطقت بها رسلهم عليهم السلام (قُلْ أَرَأَيْتُمْ) أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتكرير التبكيت عليهم وتثنية الالزام بعد تكملة الالزام الأول ببيان أنه أمر مستمر لم يزل جاريا فى الأمم وهذا أيضا استخبار عن متعلق الرؤية وان كان بحسب الظاهر استخبارا عن نفس الرؤية (إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ) بأن أصمكم وأعماكم بالكلية (وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم) بأن غطى عليها بما لايبقى لكم معه عقل وفهم أصلا وتصيرون مجانين ويجوز أن يكون الختم عطفا تفسيريا للاخذ المذكور فان السمع والبصر طريقان للقلب منهما يرد مايرده من المدركات فأخذهما سد لبابه بالكلية وهو السر فى تقديم أخذهما على ختمها وأما تقديم السمع على الابصار فلأنه مورد الآيات القرآنية وافراده لما أن أصله مصدر وقوله تعالى (مَّنْ إِلَٰهٌ) مبتدأ وخبر ومن استفهامية وقوله تعالى (غَيْرُ اللَّهِ) صفة للخبر وقوله تعالى (يَأْتِيكُم بِهِ) أى بذلك على أن الضمير مستعار لاسم الاشارة أو بما أخذ وختم عليه صفة أخرى له والجملة متعلق الرؤية ومناط الاستخبار أى أخبرونى ان سلب الله مشاعركم من إله غيره تعالى يأتيكم بها وقوله تعالى (انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من

عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة أى انظر كيف نكررها و نقررها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب تارة بترتيب المقدمات العقلية وتارة بطريق الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير (ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) عطف على نصرف داخل فى حكمه وهو العمدة فى التعجيب وثم لاستبعاد صدوفهم أى اعراضهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديع الموجب للاقبال عليها (قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ) تبكيت آخر لهم بالجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم (إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ اللهِ) أى عذابه العاجل الخاص بكم كما أتى من قبلكم من الأمم (بَغْتَةً) أى فجأة من غير أن يظهر منه مخايل الاتيان وحيث تضمن هذا معنى الخفية قوبل بقوله تعالى (أَوْ جَهْرَةً) أى بعد ظهور أماراته وعلائمه وقيل ليلا أو نهارا كما فى قوله تعالى بياتا أو نهارا لما أن الغالب فيما أتى ليلا البغتة وفيما أتى نهارا الجهرة وقرىء بغتة أو جهرة وهما فى موضع المصدر أى إتيان بغتة أو إتيان جهرة وتقديم البغتة لكونها أهول وأفظع وقوله تعالى (هَلْ يُهْلَكُ) متعلق الاستخبار والاستفهام للتقرير أى قل لهم تقريرا لهم باختصاص الهلاك بهم أخبرونى ان أتاكم عذابه تعالى حسبما تستحقونه هل يهلك بذلك العذاب إلا أنتم أى هل يهلك غيركم ممن لا يستحقه وإنما وضع موضعه (إِلَّا الْقَوْمُ الظَّـٰلِمُونَ) تسجيلا عليهم بالظلم وإيذانا بأن مناط اهلاكهم ظلمهم الذى هو وضع الكفر موضع الإيمان وقيل المراد بالظالمين الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا قال الزجاج هل يهلك الا أنتم ومن أشبهكم ويأباه تخصيص الاتيان بهم وقيل الاستفهام بمعنى النفى فمتعلق الاستخبار حينئذ محذوف كأنه قيل أخبرونى ان أتاكم عذابه تعالى بغتة أو جهرة ماذا يكون الحال ثم قيل بيانا لذلك ما يهلك إلا القوم الظالمون أى ما يهلك بذلك العذاب الخاص بكم إلا أنتم فمن قيد الهلاك بهلاك التعذيب والسخط لتحقيق الحصر باخراج غير الظالمين لما أنه ليس بطريق التعذيب والسخط بل بطريق الاثابة ورفع الدرجة فقد أهمل ما يجديه واشتغل بما لا يعنيه وأخل بجزالة النظم الكريم وقرىء هل يهلك من الثلاثى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ) كلام مستأنف مسوق لبيان وظائف منصب الرسالة على الاطلاق وتحقيق ما فى عهدة الرسل عليهم السلام وإظهار أن ما يقترحه الكفرة عليه عليه السلام ليس مما يتعلق بالرسالة أصلا وصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الالهية وقوله تعالى (إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) حالان مقدرتان من المرسلين أى ما نرسلهم الا مقدرا تبشيرهم وإنذارهم ففيهما معنى العلة الغائية قطعا أى ليبشروا قومهم بالثواب على الطاعة وينذروهم بالعقاب على المعصية أى ليخبروهم بالخبر السار والخبر الضار دنيويا كان أو أخرويا من غير أن يكون لهم دخل ما فى وقوع المخبر به أصلا وعليه يدور القصر والالزام أن لا يكون بيان الشرائع والأحكام من وظائف الرسالة والفاء فى قوله تعالى (فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها ومن موصولة والفاء فى قوله تعالى (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) لشبه الموصول بالشرط أى لا خوف عليهم من العذاب الذى أنذروه دنيويا كان أو أخرويا ولا هم يحزنون بفوات ما بشروا به من الثواب العاجل والآجل وتقديم نفى الخوف على نفى الحزن لمراعاة حق المقام وجمع الضمائر الثلاثة الراجعة إلى من باعتبار معناها كما أن افراد الضميرين السابقين باعتبار لفظها أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما تقرر فى موضعه من أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ألا يرى أن الجملة الاسمية تدل بمعونة المقام على استمرار الثبوت فاذا دخل عليها حرف النفى دلت على استمرار الانتفاء لا على انتفاء الاستمرار كذلك المضارع الخالى عن حرف النفى يفيد استمرار الثبوت فاذا دخل عليه حرف النفى

يفيد استمرار الانتفاء لا انتفاء الاستمرار ولا بعد فى ذلك فان قولك ما زيدا ضربت مفيد لاختصاص النفى لا نفى الاختصاص كما بين فى محله وقوله عز وجل (والذين كذبوا) عطف على من آمن داخل فى حكمه وقوله تعالى (بآياتنا) إشارة إلى أن ما ينطق به الرسل عليهم السلام عند التبشير والإنذار ويبلغونه إلى الأمم آياته تعالى وأن من آمن به فقد آمن بآياته تعالى ومن كذب به فقد كذب بها وفيه من الترغيب فى الايمان به والتحذير عن تكذيبه مالا يخفى والمعنى ما نرسل المرسلين إلا ليخبروا أممهم من جهتنا بما سيقع منا من الأمور السارة والضارة لا ليوقعوها استقلالا من تلقاء أنفسهم أو استدعاء من قبلنا حتى يقترحوا عليهم ما يقترحون فاذا كان الأمر كذلك فن آمن بما أخبروا به من قبلنا تبشيرا أو إنذارا فى ضمن آياتنا وأصلح ما يجب إصلاحه من أعماله أو دخل فى الصلاح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا التى بلغوها عند التبشير والانذار (يمسهم العذاب) أى العذاب الذى أنذروه عاجلا أو آجلا أو حقيقة العذاب وجنسه المنتظم له انتظاما أوليا (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم المستمر الذى هو الاصرار على الخروج عن التصديق والطاعة (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله) استئناف مبنى على ما أسس من السنة الالهية فى شأن إرسال الرسل وإنزال الكتب مسوق لاظهار تبرئه صلى الله عليه وسلم عما يدور عليه مقترحاتهم أى قل للكفرة الذين يقترحون عليك تارة تنزيل الآيات وأخرى غير ذلك لا أدعى أن خزائن مقدوراته تعالى مفوضة إلى أتصرف فيها كيفما أشاء استقلالا أو استدعاء حتى تقترحوا على تنزيل الآيات أو إنزال العذاب أو قلب الجبال ذهبا أو غير ذلك مما لا يليق بشأنى وجعل هذا تبرؤا عن دعوى الالهية مما لا وجه له قطعا وقوله تعالى (ولا أعلم الغيب) عطف على محل عندى خزائن الله أى ولا أدعى أيضا أنى أعلم الغيب من أفعاله تعالى حتى تسألونى عن وقت الساعة أو وقت نزول العذاب أو نحوهما (ولا أقول لكم إنى ملك) حتى تكلفونى من الأفاعيل الخارقة للعادات مالا يطيق به البشر من الرقى فى السماء ونحوه أو تعدوا عدم اتصافى بصفاتهم قادحا فى أمرى كما ينبىء عنه قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق والمعنى أنى لا أدعى شيأ من هذه الأشياء الثلاثة حتى تقترحوا على ما هو من آثارها وأحكامها وتجعلوا عدم إجابتى إلى ذلك دليلا على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة التى لا تعلق لها بشىء مما ذكر قطعا بل إنما هى عبارة عن تلقى الوحى من جهة الله عز وجل والعمل بمقتضاه فحسب حسبما ينبىء عنه قوله تعالى (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) لا على معنى تخصيص اتباعه صلى الله عليه وسلم بما يوحى اليه دون غيره بتوجيه القصر إلى المفعول بالقياس إلى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر إلى ما يتعلق بالفعل باعتبار النفى فى الأصل والاثبات فى القيد بل على معنى تخصيص حاله صلى الله عليه وسلم باتباع ما يوحى اليه بتوجيه القصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى ما يغره من الأفعال لكن لا باعتبار النفى والاثبات معا فى خصوصية فان ذلك غير ممكن قطعا بل باعتبار النفى فيما يتضمنه من مطلق الفعل والاثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فان كل فعل من الأفعال الخاصة كنصر مثلا ينحل عند التحقيق إلى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل وإلى معنى خاص يقومه فان معناه فعل النصر يرشدك إلى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الاعطاء والمنع فمورد القصر فى الحقيقة ما يتعلق بالفعل بتوجيه النفى إلى الأصل والاثبات إلى القيد كأنه قيل ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلى من غير أن يكون لى مدخل ما فى الوحى أو فى الموحى بطريق الاستدعاء أو بوجه آخر من الوجوه أصلا (قل هل يستوى الأعمى والبصير) مثل للضال والمهتدى على الاطلاق والاستفهام إنكارى والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ومن يعلمها وفيه من الاشعار بكمال ظهورها ومن التنفير عن الضلال والترغيب فى الاهتداء مالا يخفى وتكرير الأمر لتثنية التبكيت وتأكيد الالزام وقوله تعالى

(أفلا تتفكرون) تقريع وتوبيخ داخل تحت الأمر والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا تسمعون هذا الكلام الحق فلا تتفكرون فيه أو أتسمعون فلا تتفكرون فيه فمناط التوبيخ فى الأول عدم الأمرين معا وفى الثانى عدم التفكر مع تحقق ما يوجبه (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) بعدما حكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن من الكفرة قوما لا يتعظون بتصريف الآيات الباهرة ولا يتأثرون بمشاهدة المعجزات القاهرة قد ايفت مشاعرهم بالكلية والتحقوا بالأموات وقرر ذلك بأن كرر عليهم من فنون التبكيت والالزام ما يلقمهم الحجر أى القام فأبوا الا الاباء والنكير وما نجع فيهم عظة ولا تذكير وما أفادهم الإنذار إلا الاصرار على الانكار أمر عليه الصلاة والسلام بتوجيه الانذار إلى من يتوقع منهم التأثر فى الجملة وهم المجوزون منهم للحشر على الوجه الآتى سواء كانوا جازمين بأصله كأهل الكتاب وبعض المشركين المعترفين بالبعث المترددين فى شفاعة آبائهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالأولين أو فى شفاعة الأصنام كالآخرين أو مترددين فيهما معا كبعض الكفرة الذين يعلم من حالهم أنهم إذا سمعوا بحديث البعث يخافون أن يكون حقا وأما المنكرون للحشر رأسا والقائلون به القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الأصنام فهم خارجون ممن أمر بانذارهم وقد قيل هم المفرطون فى الأعمال من المؤمنين ولا يساعده سباق النظم الكريم ولا سياقه بل فيه ما يقضى باستحالة صحته كما ستقف عليه والضمير المجرور لما يوحى أو لما دل هو عليه من القرآن والمفعول الثانى للانذار اما العذاب الأخروى المدلول عليه بما فى حيز الصلة واما مطلق العذاب الذى ورد به الوعيد والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلى لتربية المهابة وتحقيق المخافة وقوله تعالى (ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع) فى حيز النصب على الحالية من ضمير يحشروا ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من اسم ليس لأنه فى الأصل صفة له فلما قدم عليه انتصب حالا خلا أن الحال الأولى لاخراج الحشر الذى لم يقيد بها عن حيز الخوف وتحقيق أن ما نيط به الخوف هو الحشر على تلك الحالة لا الحشر كيفما كان ضرورة أن المعترفين به الجازمين بنصرة غيره تعالى بمنزلة المنكرين له فى عدم الخوف الذى عليه يدور أمر الانذار وأما الحال الثانية فليست لاخراج الولى الذى لم يقيد بها عن حيز الانتفاء لفساد المعنى لاستلزام ثبوت ولايته تعالى لهم كما فى قوله تعالى وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير بل لتحقيق مدار خوفهم وهو فقدان ما علقوا به رجاءهم وذلك إنما هو ولاية غيره سبحانه وتعالى فى قوله تعالى ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء والمعنى أنذر به الذين يخافون أن يحشروا غير منصورين من جهة أنصارهم على زعمهم ومن هذا اتضح أن لا سبيل إلى كون المراد بالخائفين المفرطين من المؤمنين إذ ليس لهم ولى سواه تعالى ليخافوا الحشر بدون نصرته وإنما الذى يخافونه الحشر بدون نصرته عز وجل وقوله تعالى (لعلهم يتقون) تعليل للامر أى أنذرهم لكى يتقوا الكفر والمعاصى أو حال من ضمير الأمر أى أنذرهم راجيا تقواهم أو من الموصول أى أنذرهم مرجوا منهم التقوى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) لما أمر صلى الله عليه وسلم بانذار المذكورين لينتظموا فى سلك المتقين نهى صلى الله عليه وسلم عن كون ذلك بحيث يؤدى الى طردهم. روى أن رؤساء من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو طردت هؤلاء الأعبد وأرواح جبابهم يعنون فقراء المسلمين كعمار وصهيب وخباب وسلمان وأضرابهم رضى الله تعالى عنهم جلسنا اليك وحادثناك فقال صلى الله عليه وسلم ما أنا بطارد المؤمنين فقالوا فأقمهم عنا اذا جئنا فاذا قمنا فاقعدهم معك ان شئت قال صلى الله عليه وسلم نعم طمعا فى ايمانهم. وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال له عليه الصلاة والسلام لو فعلت حتى ننظر الى ما يصيرون وقيل ان عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدى والحرث بن نوفل وقرصة بن عبيد وعمرو بن نوفل

وأشراف بنى عبد مناف من أهل الكفر أتوا أباطالب فقالوا ياأباطالب لو أن ابن أخيك محمدا يطرد موالينا وخلفاءنا وهم عبيدنا وعتقاؤنا كان أعظم فى صدورنا وأدنى لاتباعنا اياه فأتى أبو طالب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذى كلموه فقال عمر رضى الله عنه لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذى يريدون وإلى ما يصيرون وقال سلمان وخباب فينا نزلت هذه الآية جاء الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وعباس بن مرداس وذووهم من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبى صلى الله عليه وسلم جالسا مع أناس من ضعفاء المؤمنين فلما رأوهم حوله صلى الله عليه وسلم حقروهم فأتوه عليه الصلاة والسلام فقالوا يارسول الله لو جلست فى صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم لجالسناك وحادثناك وأخذنا عنك فقال صلى الله عليه وسلم ما أنا بطارد المؤمنين قالوا فانا نحب أن تجعل لنا معك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا مع هؤلاء الأعبد فاذا نحن جئناك فاقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم ان شئت قال صلى الله عليه وسلم نعم قالوا فاكتب لنا كتابا فدعا بالصحيفة وبعلى رضى الله تعالى عنه ليكتب ونحن قعود فى ناحية فنزل جبريل عليه السلام بالآية فرمى عليه السلام بالصحيفة ودعانا فأتيناه وجلسنا عنده وكنا ندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه وقال الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات والمراد بذكر الوقتين الدوام وقيل صلاة الفجر والعصر وقرىء بالغدوة وقوله تعالى (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) حال من ضمير يدعون أى يدعونه تعالى مخلصين له فيه وتقييده به لتأكيد عليته للنهى فان الاخلاص من أقوى موجبات الإكرام المضاد للطرد وقوله تعالى (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّن شَىْءٍ) اعتراض وسط بين النهى وجوابه تقريرا له ودفعا لما عسى يتوهم كونه مسوغا لطردهم من أقاويل الطاعنين فى دينهم كدأب قوم نوح حيث قالوا ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى أى ما عليك شىء ما من حساب ايمانهم وأعمالهم الباطنة حتى تتصدى له وتبنى على ذلك ما تراه من الأحكام وإنما وظيفتك حسبما هو شأن منصب النبوة اعتبار ظواهر الأعمال وإجراء الأحكام على موجبها وأما بواطن الأمور فحسابها على العليم بذات الصدور كقوله تعالى ان حسابهم إلا على ربى وذكر قوله تعالى (وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ) مع أن الجواب قد تم بماقبله للمبالغة فى بيان انتفاء كون حسابهم عليه صلى الله عليه وسلم بنظمه فى سلك ما لا شبهة فيه أصلا وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام عليهم على طريقة قوله تعالى لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون وأما ما قيل من أن ذلك لتنزيل الجملتين منزلة جملة واحدة لتأدية معنى واحد على نهج قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى فغير حقيق بجلالة شأن التنزيل وتقديم عليك فى الجملة الأولى للقصد إلى ايراد النفى على اختصاص حسابهم به صلى الله عليه وسلم إذ هو الداعى إلى تصديه عليه الصلاة والسلام لحسابهم وقيل الضمير للمشركين والمعنى انك لاتؤاخذ بحسابهم حتى يهمك ايمانهم ويدعوك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين وقوله تعالى (فَتَطْرُدَهُمْ) جواب النفى وقوله تعالى (فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) جواب النهى وقد جوز عطفه على فتطردهم على طريقة التسبيب وليس بذلك (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) استئناف مبين لما نشأ عنه ما سبق من النهى وذلك إشارة إلى مصدر ما بعده من الفعل الذى هو عبارة عن تقديمه تعالى لفقراء المؤمنين فى أمر الدين بتوفيقهم للايمان مع ما هم عليه فى أمر الدنيا من كمال سوء الحال وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الكمال والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف والتقدير فتنا بعضهم ببعض فتونا كائنا مثل ذلك الفتون ثم قدم على الفعل لإفادة القصر المفيد لعدم القصور فقط واعتبرت الكاف مقحمة فصار نفس المصدر

المؤكد لا نعتاً له والمعنى ذلك الفتون الكامل البديع فتنا أى ابتلينا بعض الناس ببعضهم لا فتونا غيره حيث قدمنا الآخرين
فى أمر الدين على الأولين المتقدمين عليهم فى أمر الدنيا تقدما كليا واللام فى قوله تعالى (لِيَقُولُوا) للعاقبة أى ليقول
البعض الأولون مشيرين إلى الآخرين محقرين لهم نظرا إلى ما بينهما من التفاوت الفاحش الدنيوى وتعاميا عما هو مناط
التفضيل حقيقة (أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا) بأن وفقهم لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده تعالى من دوننا ونحن
المقدمون والرؤساء وهم العبيد والفقراء وغرضهم بذلك انكار وقوع المن رأساً على طريقة قولهم لو كان خيرا ما سبقونا
اليه لا تحقير الممنون عليهم مع الاعتراف بوقوعه بطريق الاعتراض عليه تعالى وقوله تعالى (أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ
بِالشَّاكِرِينَ) رد لقولهم ذلك وإبطال له وإشارة إلى أن مدار استحقاق الانعام معرفة شأن النعمة والاعتراف
بحق المنعم والاستفهام لتقرير علمه البالغ بذلك أى ليس الله بأعلم بالشاكرين لنعمه حتى تستبعدوا إنعامه عليهم وفيه من
الإشارة إلى أن أولئك الضعفاء عارفون بحق نعم الله تعالى فى تنزيل القرآن والتوفيق للايمان شاكرون له تعالى على ذلك
مع التعريض بأن القائلين بمعزل من ذلك كله ما لا يخفى (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا) هم الذين نهى عن
طردهم وصفوا بالإيمان بآيات الله عز وجل كما وصفوا بالمداومة على عبادته تعالى بالإخلاص تنبيها على احرازهم
لفضيلتى العلم والعمل وتأخير هذا الوصف مع تقدمه على الوصف الأول لما أن مدار الوعد بالرحمة والمغفرة هو الايمان بها
كما أن مناط النهى عن الطرد فيما سبق هو المداومة على العبادة وقوله تعالى (فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) أمر بتبشيرهم بالسلامة
عن كل مكروه بعد انذار مقابليهم وقيل بتبليغ سلامه تعالى اليهم وقيل بأن يبدأهم بالسلام وقوله تعالى (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى
نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أى قضاها وأوجبها على ذاته المقدسة بطريق التفضل والإحسان بالذات لا بتوسط شىء ما أصلا
تبشير لهم بسعة رحمته تعالى وبنيل المطالب اثر تبشيرهم بالسلامة عن المكاره وقبوله التوبة منهم وفى التعرض لعنوان
الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم اظهار اللطف بهم والاشعار بعلة الحكم وقيل إن قوما جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم
فقالوا إنا أصبنا ذنوبا عظاما فلم يرد عليهم شيئا فانصرفوا فنزلت وقوله تعالى (أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا) بدل من الرحمة
وقرىء بكسر انه على أنه تفسير للرحمة بطريق الاستئناف وقوله تعالى (بِجَهَالَةٍ) حال من فاعل عمل أى عمله وهو جاهل
بحقيقة ما يتبعه من المضار والتقييد بذلك للايذان بأن المؤمن لا يباشر ما يعلم أنه يؤدى إلى الضرر أو عمله ملتبسا بجهالة (ثُمَّ
تَابَ مِن بَعْدِهِ) أى من بعد عمله أو من بعد سفهه (وَأَصْلَحَ) أى ما أفسده تداركا وعزما على أن لا يعود اليه أبدا (فَأَنَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أى فأمره أنه غفور رحيم أو فله أنه غفور رحيم وقرىء فانه بالكسر على أنه استئناف وقع فى صدر
الجملة الواقعة خبرا لمن على أنها موصولة أو جوابا لها على أنها شرطية (وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ) قد مر آنفا ما فيه من
الكلام أى هذا التفصيل البديع نفصل الآيات فى صفة أهل الطاعة وأهل الاجرام المصرين منهم والأوابين (وَلِتَسْتَبِينَ
سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) بتأنيث الفعل بناء على تأنيث الفاعل وقرىء بالتذكير بناء على تذكيره فان السبيل مما يذكر ويؤنث
وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور لم يقصد تعليله بها بعينها وإنما قصد الاشعار بأن له فوائد جمة من جملتها
ما ذكر أو علة لفعل مقدر هو عبارة عن المذكور فيكون مستأنفا أى ولتستبين سبيلهم نفعل ما نفعل من
التفصيل وقرىء بنصب السبيل على أن الفعل متعد وتاؤه للخطاب أى ولتستوضح أنت يا محمد سبيل المجرمين فتعاملهم بما
يليق بهم (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ) أمر عليه الصلاة والسلام بالرجوع إلى مخاطبة المصرين على الشرك اثر ما أمر بمعاملة من
عداهم من أهل الانذار والتبشير بما يليق بحالهم أى قل لهم قطعا لأطماعهم الفارغة عن ركونه عليه الصلاة
والسلام اليهم وبيانا لكون ما هم عليه من الدين هوى محضا وضلالا بحتا انى صرفت وزجرت بما نصب لى

من الأدلة وأنزل على من الآيات فى أمر التوحيد (أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ) أى عن عبادة ماتعبدونه (مِنْ دُونِ اللهِ) كائناما كان (قُلْ) كرر الأمر مع قرب العهد اعتناء بشأن المأمور به أو إيذانا باختلاف المقولين من حيث أن الأول حكاية لما من جهته تعالى من النهى والثانى حكاية لما من جهته صلى الله عليه وسلم من الانتهاء عماذكر من عبادة مايعبدونه وإنما قيل (لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ) استجهالا لهم وتنصيصا على أنهم فيما هم فيه تابعون لأهواء باطلة وليسوا على شىء مما ينطلق عليه الدين أصلا وإشعارا بما يوجب النهى والانتهاء وقوله تعالى (قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا) استئناف مؤكد لانتهائه عمانهى عنه مقرر لكونهم فى غاية الضلال والغواية أى ان اتبعت أهواءكم فقد ضللت وقوله تعالى (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) عطف على ماقبله والعدول إلى الجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار أى دوام النفى واستمراره لانفى الدوام والاستمرار كامر مرارا أى ماأنا فى شىء من الهدى حين أكون فى عدادهم وقوله تعالى (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ) تحقيق للحق الذى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان لاتباعه إياه اثر ابطال الباطل الذى عليه الكفرة وبيان عدم اتباعه له والبينة الحجة الواضحة التى تفصل بين الحق والباطل والمراد بها القرآن والوحى وقيل هى الحجج العقلية أومايعمها ولايساعده المقام والتنوين للتفخيم وقوله تعالى (مِنْ رَبِّي) متعلق بمحذوف هو صفة لبينة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من التشريف ورفع المنزلة مالايخفى وقوله تعالى (وَكَذَّبْتُمْ بِهِ) إما جملة مستأنفة أوحالية بتقدير قد أوبدونه جىء بها لاستقباح مضمونها واستبعاد وقوعه مع تحقق مايقتضى عدمه من غاية وضوح البينة والضمير المجرور للبينة والتذكير باعتبار المعنى المراد والمعنى إنى على بينة عظيمة كائنة من ربى وكذبتم بها وبما فيها من الاخبار التى من جملتها الوعيد بمجىء العذاب وقوله تعالى (مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) استئناف مبين لخطئهم فى شأن ماجعلوه منشأ لتكذيبهم بها وهو عدم مجىء ماوعد فيها من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد ان كنتم صادقين بطريق الاستهزاء أو بطريق الالزام على زعمهم أى ليس ماتستعجلونه من العذاب الموعود فى القرآن وتجعلون تأخره ذريعة إلى تكذيبه فى حكمى وقدرتى حتى أجىء به وأظهر لكم صدقه أوليس أمره بمفوض إلى (إِنِ الْحُكْمُ) أى ما الحكم فى ذلك تعجيلا وتأخيرا أو ما الحكم فى جميع الأشياء فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا (إِلَّا لِلَّهِ) وحده من غير أن يكون لغيره دخل ما فيه بوجه من الوجوه وقوله تعالى (يَقُصُّ الْحَقَّ) أى يتبعه بيان لشئونه تعالى فى الحكم المعهود أو فى جميع أحكامه المنتظمة له انتظاما أوليا أى لايحكم إلا بما هو حق فيثبت حقيقة التأخير وقرىء يقضى فانتصاب الحق حينئذ على المصدرية أى يقضى القضاء الحق أو على المفعولية أى يصنع الحق ويدبره من قولهم قضى الدرع إذا صنعها وأصل القضاء الفصل بتمام الأمر وأصل الحكم المنع فكأنه يمنع الباطل عن معارضة الحق أو الخصم عن التعدى على صاحبه (وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله مشير إلى أن قص الحق ههنا بطريق خاص هو الفصل بين الحق والباطل هذا هو الذى تستدعيه جزالة التنزيل وقد قيل إن المعنى إنى من معرفة ربى وأنه لامعبود سواه على حجة واضحة وشاهد صدق وكذبتم به أنتم حيث أشركتم به تعالى غيره وأنت خبير بأن مساق النظم الكريم فيما سبق وما لحق على وصفهم بتكذيب آيات الله تعالى بسبب عدم مجىء العذاب الموعود فيها فتكذيبهم به سبحانه فى أمر التوحيد مما لاتعلق له بالمقام أصلا (قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي) أى فى قدرتى ومكنتى (مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) من العذاب الذى ورد به الوعيد بأن يكون أمره مفوضا إلى من جهته تعالى (لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) أى بأن ينزل ذلك عليكم اثر استعجالكم بقولكم متى هذا الوعد ونظائره وفى بناء الفعل للمفعول من الايذان بتعيين الفاعل الذى هو

الله تعالى وتهويل الأمر ومراعاة حسن الأدب مالا يخفى فما قيل فى تفسيره لأهلكتكم عاجلا غضبا لربى ولتخلصت منكم سريعا بمعزل من توفية المقام حقه وقوله تعالى (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ) اعتراض مقرر لما أفادته الجملة الامتناعية من انتفاء كون أمر العذاب مفوضا اليه صلى الله عليه وسلم المستتبع لانتفاء قضاء الأمر وتعليل له والمعنى والله تعالى أعلم بحال الظالمين وبأنهم مستحقون للامهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب ولذلك لم يفوض الأمر إلى فلم يقض الأمر بتعجيل العذاب والله أعلم (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ) بيان لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى من حيث العلم اثر بيان اختصاص كلها به تعالى من حيث القدرة والمفاتح إما جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن فهو مستعار لمكان الغيب كأنها مخازن خزنت فيها الأمور الغيبية يغلق عليها ويفتح واما جمع مفتح بكسرها وهو المفتاح ويؤيده قراءة من قرأ مفاتيح الغيب فهو مستعار لما يتوصل به إلى تلك الأمور بناء على الاستعارة الأولى أى عنده تعالى خاصة خزائن غيوبه أو مايتوصل به اليها وقوله عز وجل (لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ) تأكيد لمضمون ماقبله وإيذان بأن المراد هو الاختصاص من حيث العلم لامن حيث القدرة والمعنى أن ماتستعجلونه من العذاب ليس مقدورا لى حتى ألزمكم بتعجيله ولامعلوما لدى لأخبركم وقت نزوله بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلما فينزله حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وقوله تعالى (وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ) بيان لتعلق علمه تعالى بالمشاهدات اثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملة له وتنبيها على أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء فى الجلاء أى يعلم مافيهما من الموجودات مفصلة على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثر أفرادها وقوله تعالى (وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا) بيان لتعلقه بأحوالها المتغيرة بعد بيان تعلقه بذواتها فان تخصيص حال السقوط بالذكر ليس إلا بطريق الاكتفاء بذكرها عن ذكر سائر الأحوال كما أن ذكر حال الورقة وما عطف عليها خاصة دون أحوال سائر مافيهما من فنون الموجودات الفائتة للحصر باعتبار أنها أنموذج لأحوال سائرها وقوله تعالى (وَلَا حَبَّةٍ) عطف على ورقة وقوله تعالى (فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ) متعلق بمحذوف هو صفة لحبة مفيدة لكمال نفوذ علمه تعالى أى ولاحبة كائنة فى بطون الأرض إلا يعلمها وكذا قوله تعالى (وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ) معطوفان عليها داخلان فى حكمها وقوله تعالى (إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ) بدل من الاستثناء الأول بدل الكل على أن الكتاب المبين عبارة عن علمه تعالى أو بدل الاشتمال على أنه عبارة عن اللوح المحفوظ وقرىء الأخيران بالرفع عطفا على محل من ورقة وقيل رفعهما بالابتداء والخبر إلا فى كتاب مبين وهو الأنسب بالمقام لشمول الرطب واليابس حينئذ لما ليس من شأنه السقوط وقد نقل قراءة الرفع فى ولاحبة أيضا (وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ) أى ينيمكم فيه على استعارة التوفى من الاماتة للانامة لما بين الموت والنوم من المشاركة فى زوال الاحساس والتمييز وأصله قبض الشىء بتمامه (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ) أى ما كسبتم فيه والمراد بالليل والنهار الجنس المتحقق فى كل فرد من أفرادهما إذ بالتوفى والبعث الموجودين فيها يتحقق قضاء الأجل المسمى المترتب عليها لافى بعضها والمراد بعلمه تعالى ذلك علمه قبل الجرح كما يلوح به تقديم ذكره على البعث أى يعلم ماتجرحون بالنهار وصيغة الماضى للدلالة على التحقق وتخصيص التوفى بالليل والجرح بالنهار مع تحقق كل منهما فيما خص بالآخر للجرى على سنن العادة (ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ) أى يوقظكم فى النهار عطف على يتوفاكم وتوسيط قوله تعالى ويعلم الخ بينهما لبيان مافى بعثهم من عظيم الاحسان اليهم بالتنبيه على أن مايكتسبونه من السيئات مع كونها موجبة لابقائهم على التوفى بل لاهلاكهم بالمرة يفيض عليهم الحياة ويمهلهم كما ينبىء عنه كلمة التراخى كأنه قيل هو الذى يتوفاكم فى جنس الليالى ثم يبعثكم فى جنس النهر مع علمه بما ستجرحون فيها (لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى) معين لكل فرد فرد بحيث لايكاد يتخطى أحد ماعين له طرفة عين (ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ)

أى رجوعكم بالموت لا إلى غيره أصلا (ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) بالمجازاة بأعمالكم التى كنتم تعملونها فى تلك الليالى والأيام وقيل الخطاب مخصوص بالكفرة والمعنى انكم ملقون كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار وانه تعالى مطلع على أعمالكم يبعثكم الله من القبور فى شأن ماقطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ليقضى الأجل الذى سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم وفيه مالايخفى من التكلف والاخلال لإفضائه إلى كون البعث معللا بقضاء الأجل المضروب له (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) أى هو المتصرف فى أمورهم لاغيره يفعل بهم مايشاء إيجادا وإعداما واحياء وإماتة وتعذيبا واثابة إلى غير ذلك (وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ) خاصة أيها المكلفون (حَفَظَةً) من الملائكة وهم الكرام الكاتبون وعليكم متعلق بيرسل لمافيه من معنى الاستيلاء وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقيل متعلق بمحذوف هو حال من حفظة إذلو تأخر لكان صفة أى كائنين عليكم وقيل متعلق بحفظة والمحفوظ محذوف على كل حال أى يرسل عليكم ملائكة يحفظون أعمالكم كائنة ما كانت وفى ذلك حكمة جميلة ونعمة جليلة لما أن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رؤس الاشهاد كان ذلك أزجر له عن تعاطى المعاصى والقبائح وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشمه احتشامه من خدمه الواقفين على أحواله وحتى فى قوله تعالى (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ) هى التى يبتدأ بها الكلام وهى مع ذلك تجعل ما بعدها من الجملة الشرطية غاية لماقبلها كأنه قيل ويرسل عليكم حفظة يحفظون أعمالكم مدة حياتكم حتى إذا انتهت مدة أحدكم كائنا من كان وجاءه أسباب الموت ومباديه (تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) الآخرون المفوض اليهم ذلك وهم ملك الموت وأعوانه وانتهى هناك حفظ الحفظة وقرىء توفاه ماضيا أو مضارعا بطرح احدى التاءين (وَهُمْ) أى الرسل (لَا يُفَرِّطُونَ) أى بالتوانى والتأخير وقرىء مخففا من الإفراط أى لايجاوزون ماحد لهم بزيادة أو نقصان والجملة حال من رسلنا وقيل مستأنفة سيقت لبيان اعتنائهم بما أمروا به وقوله تعالى (ثُمَّ رُدُّوا) عطف على توفته والضمير للكل المدلول عليه بأحدكم وهو السر فى مجيئه بطريق الالتفات تغليبا والافراد أولا والجمع آخرا لوقوع التوفى على الانفراد والرد على الاجتماع أى ثم ردوا بعد البعث بالحشر (إِلَى اللَّهِ) أى إلى حكمه وجزائه فى موقف الحساب (مَوْلَاهُمُ) أى مالكهم الذى يلى أمورهم على الاطلاق لاناصرهم كما فى قوله تعالى وأن الكافرين لامولى لهم (الْحَقِّ) الذى لايقضى إلا بالعدل وقرىء بالنصب على المدح (أَلَا لَهُ الْحُكْمُ) يومئذ صورة ومعنى لا لأحد غيره بوجه من الوجوه (وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) يحاسب جميع الخلائق فى أسرع زمان وأقصره لايشغله حساب عن حساب ولاشأن عن شأن وفى الحديث ان الله تعالى يحاسب الكل فى مقدار حلب شاة (قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) أى قل تقريرا لهم بانحطاط شركائهم عن رتبة الالهية من ينجيكم من شدائدهما الهائلة التى تبطل الحواس وتدهش العقول ولذلك استعير لها الظلمات المبطلة لحاسة البصر يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب أو من الخسف فى البر والغرق فى البحر وقرىء ينجيكم من الانجاء والمعنى واحد وقوله تعالى (تَدْعُونَهُ) نصب على الحالية من مفعول ينجيكم والضمير لمن أى من ينجيكم منها حال كونكم داعين له أو من فاعله أى من ينجيكم منها حال كونه مدعوا من جهتكم وقوله تعالى (تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) اما حال من فاعل تدعونه أو مصدر مؤكد له أى تدعونه متضرعين جهارا ومسرين أو تدعونه دعاء اعلان وإخفاء وقرىء خفية بكسر الخاء وقوله تعالى (لَئِنْ أَنجَانَا) حال من الفاعل أيضا على تقدير القول أى تدعونه قائلين لئن أنجيتنا (مِنْ هَٰذِهِ) الشدة والورطة التى عبر عنها بالظلمات (لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) أى الراسخين فى الشكر المداومين عليه لأجل هذه النعمة أو جميع النعماء التى من جملتها هذه

وقرىء لئن أنجانا مراعاة لقوله تعالى تدعونه (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) أمر صلى الله عليه وسلم بتقرير الجواب مع كونه من وظائفهم للايذان بأنه متعين عندهم ولبناء قوله تعالى (ثم أنتم تشركون) عليه أى الله تعالى وحده ينجيكم مما تدعونه إلى كشفه من الشدائد المذكورة وغيرها من الغموم والكرب ثم أنتم بعد ماتشاهدون هذه النعم الجليلة تشركون بعبادته تعالى غيره وقرىء ينجيكم بالتخفيف وقوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً) استئناف مسوق لبيان أنه تعالى هو القادر على القائهم فى المهالك اثر بيان أنه هو المنجى لهم منها وفيه وعيد ضمنى بالعذاب لاشراكهم المذكور على طريقة قوله عز وجل أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر إلى قوله تعالى أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى الآية وعليكم متعلق بيبعث وتقديمه على مفعوله الصريح للاعتناء به والمسارعة إلى بيان كون المبعوث مما يضرهم ولتهويل أمر المؤخر وقوله تعالى (من فوقكم) متعلق به أيضا أو بمحذوف وقع صفة لعذابا أى عذابا كائنا من جهة الفوق كما فعل بمن فعل من قوم لوط وأصحاب الفيل وأضرابهم (أو من تحت أرجلكم) أو من جهة السفل كما فعل بفرعون وقارون وقيل من فوقكم أكابركم ورؤسائكم ومن تحت أرجلكم سفلتكم وعبيدكم وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع فلا منع لما كان من الجهتين معا كما فعل بقوم نوح (أو يلبسكم شيعا) أى يخلطكم فرقا متحزبين على أهواء شتى كل فرقة مشايعة لامام فينشب بينكم القتال فتختلطوا فى الملاحم كقول الحماسى:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدى

(ويذيق بعضكم بأس بعض) عطف على يبعث وقرىء بنون العظمة على طريقة الالتفات لتهويل الأمر والمبالغة فى التحذير والبعض الأول الكفار والآخر المؤمنون ففيه وعد ووعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال عند قوله تعالى عذابا من فوقكم أعوذ بوجهك وعند قوله تعالى أو من تحت أرجلكم أعوذ بوجهك وعند قوله تعالى أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض هذا أهون أو هذا أيسر وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال سألت ربى أن لا يبعث على أمتى عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطانى ذلك وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنى ذلك (انظر كيف نصرف الآيات) من حال إلى حال (لعلهم يفقهون) كى يفقهوا ويقفوا على جلية الأمر فيرجعوا عما هم عليه من المكابرة والعناد (وكذب به) أى بالعذاب الموعود أو القرآن المجيد الناطق بمجيئه (قومك) أى المعاندون منهم ولعل إيرادهم بهذا العنوان للايذان بكمال سوء حالهم فان تكذيبهم بذلك مع كونهم من قومه عليه الصلاة والسلام مما يقضى بغاية عتوهم ومكابرتهم وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من اظهار الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقوله تعالى (وهو الحق) حال من الضمير المجرور أى كذبوا به والحال أنه الواقع لا محالة أو انه الكتاب الصادق فى كل ما نطق به وقيل هو استئناف وأيا ما كان ففيه دلالة على عظم جنايتهم ونهاية قبحها (قل) لهم منها على ما يؤول اليه أمرهم وعلى أنك قد أديت ما عليك من وظائف الرسالة (لست عليكم بوكيل) بحفيظ وكل إلى أمركم لا منعكم من التكذيب وأجبركم على التصديق إنما أنا منذر وقد خرجت عن العهدة حيث أخبرتكم بما سترونه (لكل نبأ) أى لكل شىء ينبأ به من الانباء التى من جملتها عذابكم أو لكل خبر من الأخبار التى من جملتها خبر مجيئه (مستقر) أى وقت استقرار ووقوع البتة أو وقت استقرار بوقوع مدلوله (وسوف تعلمون) أى حال نبئكم فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معا وسوف للتأكيد كما فى قوله تعالى ولتعلمن نبأه بعد حين (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا) أى بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها كما هو دأب قريش وديدنهم (فأعرض عنهم) بترك مجالستهم والقيام عنهم وقوله تعالى (حتى يخوضوا فى حديث غيره) غاية للاعراض أى استمر على الاعراض الى أن يخوضوا فى حديث غير آياتنا

والتذكير باعتبار كونها حديثا فان وصف الحديث بمغايرتها مشير إلى اعتبارها بعنوان الحديثية وقيل باعتبار كونها قرآنا
(وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ) بأن يشغلك فتنسى النهي فتجالسهم ابتداء أو بقاء وقرىء ينسينك من التنسية (فَلَا تَقْعُدْ
بَعْدَ الذِّكْرَىٰ) أي بعد تذكر النهي (مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أي معهم فوضع المظهر موضع المضمر نعيا عليهم أنهم
بذلك الخوض ظالمون واضعون للتكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم راسخون في ذلك (وَمَا عَلَى الَّذِينَ
يَتَّقُونَ) روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المسلمين حين نهوا عن مجالستهم عند خوضهم في الآيات قالوا لئن كنا
نقول كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ونطوف بالبيت فنزلت أي ما على الذين يتقون قبائح
أعمال الخائضين وأحوالهم (مِنْ حِسَابِهِمْ) أي مما يحاسبون عليه من الجرائر (مِنْ شَيْءٍ) أي شيء ما على أنه في محل
الرفع على أنه مبتدأ وما تميمية أو اسم لها وهي حجازية ومن مزيدة للاستغراق ومن حسابهم حال منه وعلى الذين يتقون في
محل الرفع على أنه خبر للمبتدأ أو لما الحجازية على رأي من لا يجيز أعمالها في الخبر المقدم مطلقا أو في محل النصب على رأي من
يجوز أعمالها في الخبر المقدم عند كونه ظرفا أو حرف جر (وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ) استدراك من النفي السابق أي ولكن
عليهم أن يذكروهم ويمنعوهم عما هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير ويظهروا لهم الكراهة والنكير ومحل
ذكرى اما النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف أي عليهم أن يذكروهم تذكيرا أو الرفع على أنه مبتدأ محذوف
الخبر أي ولكن عليهم ذكرى (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) أي يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم وقد جوز كون الضمير
للموصول أي يذكرونهم رجاء أن يثبتوا على تقواهم أو يزدادوها (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ) الذي كلفوه وأمروا
باقامة مواجبه (لَعِبًا وَلَهْوًا) حيث سخروا به واستهزؤا أو بنوا أمر دينهم على ما لا يكاد يتعاطاه العاقل بطريق الجد
وإنما يصدر عنه لو صدر بطريق اللعب واللهو كعبادة الاصنام وتحريم البحائر والسوائب ونحو ذلك والمعنى أعرض عنهم
ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم وقيل هو تهديد لهم كقوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا الآية (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)
واطمأنوا بها حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبدا (وَذَكِّرْ بِهِ) أي بالقرآن من يصلح للتذكير (أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا
كَسَبَتْ) أي لئلا تبسل كقوله تعالى أن تضلوا الآية أو مخافة أن تبسل أو كراهة أن تبسل نفوس كثيرة كما في قوله تعالى علمت
نفس ما أحضرت وترتهن لسوء عملها وأصل الابسال والبسل المنع ومنه أسد باسل لان فريسته لا تفلت منه أو لانه ممتنع
والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه وهذا بسل عليك أي حرام ممنوع وقد جوز أن يكون الضمير المجرور في به راجعا
إلى الابسال مع عدم جريان ذكره كما في ضمير الشأن وتكون الجملة بدلا منه مفسرا له لما في الابهام أولا والتفسير
ثانيا من التفخيم وزيادة التقرير كما في قوله : على جوده لضن بالماء حاتم بجر حاتم على انه بدل من ضمير جوده فالمعنى
وذكر بارتهان النفوس وحبسها بما كسبت وقوله تعالى (لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) استئناف مسوق
للاخبار بذلك وقيل في محل النصب على أنه حال من ضمير كسبت وقيل في محل الرفع على أنه وصف لنفس والاظهر
أنه حال من نفس فانه في قوة نفس كافرة أو نفوس كثيرة كما في قوله تعالى علمت نفس ما أحضرت ومن دون الله متعلق
بمحذوف هو حال من ولي كما بين في تفسير قوله تعالى وأنذر به الآية وقيل هو خبر لليس فيكون لها حينئذ متعلقا بمحذوف
على البيان (وَإِن تَعْدِلْ) أي ان تفد تلك النفس (كُلَّ عَدْلٍ) أي كل فداء على أنه مصدر مؤكد (لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا)
على اسناد الفعل إلى الجار والمجرور لا إلى ضمير العدل كما في قوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل فانه المفدى به لا المصدر
كما نحن فيه (أُولَٰئِكَ) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم
في سوء الحال ومحله الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى (الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا) والجملة مستأنفة سيقت اثر

تحذيرهم من الابسال المذكور لبيان أنهم المبتلون بذلك أى أولئك المتخذون دينهم لعباً ولهواً المغترون بالحياة الدنيا هم الذين أبسلوا بما كسبوا وقوله تعالى (لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ) استئناف آخر مبين لكيفية الابسال المذكور وعاقبته مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل ماذا لهم حين أبسلوا بما كسبوا فقيل لهم شراب من ماء مغلى يتجرجر فى بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم (وَعَذابٌ أَلِيمٌ) بنار تشتعل بأبدانهم (بِما كانُوا يَكْفُرُونَ) أى بسبب كفرهم المستمر فى الدنيا وقد جوز أن يكون لهم شراب الخ حالا من ضمير أبسلوا وترتيب ما ذكر من العذابين على كفرهم مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضا حسبما ينطق به قوله تعالى بما كسبوا لأنه العمدة فى إيجاب العذاب والأهم فى باب التحذير أو أريد بكفرهم ما هو أعم منه ومن مستتبعاته من المعاصى والسيئات هذا وقد جوز أن يكون أولئك إشارة إلى النفوس المدلول عليها بنفس محله الرفع بالابتداء والموصول الثانى صفته أو بدل منه ولهم شراب الخ خبره والجملة مسوقة لبيان تبعة الابسال (قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا) قيل نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأصنام فتوجيه الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للايذان بما بينهما من الاتصال والاتحاد تنويها لشأن الصديق رضى الله تعالى عنه أى أنعبد متجاوزين عبادة الله الجامع لجميع صفات الألوهية التى من جملتها القدرة على النفع والضر ما لا يقدر على نفعنا إذا عبدناه ولا على ضرنا إذا تركناه وأدنى مراتب المعبودية القدرة على ذلك وقوله تعالى (وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا) عطف على ندعوا داخل فى حكم الانكار والنفى أى ونرد إلى الشرك والتعبير عنه بالرد على الأعقاب لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علم فى القبح مع ما فيه من الاشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر وإيثار نرد على نرتد لتوجيه الانكار إلى الارتداد برد الغير تصريحا بمخالفة المضلين وقطعا لأطماعهم الفارغة وإيذانا بأن الارتداد من غير راد ليس فى حيز الاحتمال ليحتاج إلى نفيه وانكاره وقوله تعالى (بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللهُ) أى إلى الاسلام وأنقذنا من الشرك متعلق بنرد مسوق لتأكيد النكير لا لتحقيق معنى الرد وتصويره فقط وإلا لكفى أن يقال بعد إذ اهتدينا كأنه قيل ونرد إلى الشرك باضلال المضل بعد إذ هدانا الله الذى لا هادى سواه وقوله تعالى (كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ) فى محل النصب على أنه حال من مرفوع نرد أى أنرد على أعقابنا مشبهين بالذى استهوته مردة الجن واستغوته إلى المهامه والمهالك أو على أنه نعت لمصدر محذوف أى أنرد ردا مثل رد الذى استهوته الخ والاستهواء استفعال من هوى فى الأرض إذا ذهب فيها كأنها طلبت هويه وحرصت عليه وقرىء استهواه بألف ممالة وقوله تعالى (فِي الْأَرْضِ) إما متعلق باستهوته أو بمحذوف هو حال من مفعوله أى كائنا فى الأرض وكذا قوله تعالى (حَيْرانَ) حال منه على أنها بدل من الأولى أو حال ثانية عند من يجيزها أو من الذى أو من المستكن فى الظرف أى تائها ضالا عن الجادة لا يدرى ما يصنع وقوله تعالى (لَهُ أَصْحابٌ) جملة فى محل النصب على أنها صفة لحيران أو حال من الضمير فيه أو مستأنفة سيقت لبيان حاله وقوله تعالى (يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى) صفة لأصحاب أى لذلك المستهوى رفقة يهدونه إلى الطريق المستقيم تسمية له بالمصدر مبالغة كأنه نفس الهدى (ائْتِنا) على ارادة القول على أنه بدل من يدعونه أو حال من فاعله أى يقولون ائتنا وفيه إشارة إلى أنهم مهتدون ثابتون على الطريق المستقيم وأن من يدعونه ليس ممن يعرف الطريق المستقيم ليدعى إلى اتيانه وإنما يدرك سمت الداعى ومورد النعيق فقط (قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ) الذى هدانا إليه وهو الاسلام (هُوَ الْهُدى) وحده وما عداه ضلال محض وغى بحت كقوله تعالى فماذا بعد الحق إلا الضلال ونحوه وتكرير الأمر للاعتناء بشأن المأمور به ولأن ما سبق للزجر عن الشرك وهذا حث على الاسلام وهو توطئة لما بعده فان اختصاص الهدى بهداه تعالى مما يوجب الامتثال بالأوامر

الواردة بعده (وأمرنا) عطف على أن هدى الله هو الهدى داخل تحت القول واللام فى (لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعٰلَمِينَ)
لتعليل الأمر المحكى وتعيين ما أريد به من الأوامر الثلاثة كما فى قوله تعالى قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا
الآية كأنه قيل أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم وقيل هى بمعنى الباء أى أمرنا بأن نسلم وقيل زائدة أى أمرنا أن نسلم
على حذف الباء وقوله تعالى (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَاتَّقُوهُ) أى الله تعالى فى مخالفة أمره عطف على نسلم على الوجوه
الثلاثة على أن أن المصدرية إذا وصلت بالأمر يتجرد هو عن معنى الأمر نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى
والاستقبال فالمعنى على الأول أمرنا أى قيل لنا أسلموا وأقيموا الصلاة واتقوا الله لأجل أن نسلم ونقيم الصلاة ونتقيه
تعالى وعلى الأخيرين أمرنا بأن نسلم ونقيم الصلاة ونتقيه تعالى والتعرض لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الامر
وتأكيد وجوب الامتثال به كما أن قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) جملة مستأنفة موجبة للامتثال بما أمر به
من الامور الثلاثة (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ) أريد بخلقهما خلق ما فيهما أيضا وعدم التصريح بذلك
لظهور اشتمالها على جميع العلويات والسفليات وقوله تعالى (بِالْحَقِّ) متعلق بمحذوف هو حال من فاعل خلق أو من
مفعوله أو صفة لمصدره المؤكد له أى قائما بالحق أو ملتبسة بالحق أو خلقا ملتبسا به وقوله تعالى (وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ
فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ) استئناف لبيان أن خلقه تعالى لما ذكر من السموات والارض ليس مما يتوقف على مادة أو مدة
بل يتم بمحض الامر التكوينى من غير توقف على شىء آخر أصلا وأن ذلك الامر المتعلق بكل فرد فرد من أفراد
المخلوقات فى حين معين من أفراد الاحيان حق فى نفسه متضمن للحكمة ويوم ظرف لمضمون جملة قوله الحق والواو
بحسب المعنى داخل عليها وتقديمه عليها للاعتناء به من حيث أنه مدار الحقية وترك ذكر المقول له للثقة بغاية ظهوره
والمراد بالقول كلمة كن تحقيقا أو تمثيلا كما هو المشهور فالمعنى وأمره المتعلق بكل شىء يريد خلقه من الاشياء فى حين
تعلقه به لا قبله ولا بعده من أفراد الاحيان الحق أى المشهود له بالحقية المعروف بها هذا وقد قيل قوله مبتدأ والحق
صفته ويوم يقول خبره مقدما عليه كقولك يوم الجمعة القتال وانتصابه بمعنى الاستقرار وحاصل المعنى قوله الحق كائن
حين يقول لشىء من الاشياء كن فيكون ذلك الشىء وقيل يوم منصوب بالعطف على السموات أو على الضمير فى واتقوه
أو بمحذوف دل عليه بالحق وقوله الحق مبتدأ وخبر أو فاعل يكون على معنى حين يقول لقوله الحق أى لقضائه الحق كن
فيكون والمراد حين يكون الاشياء ويحدثها او حين تقوم القيامة فيكون التكوين حشر الاجساد واحياءها فتأمل حق
التأمل (وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) تقييد اختصاص الملك به تعالى بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع
الاوقات لغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازية الكائنة فى الدنيا المصححة للمالكية المجازية فى الجملة كقوله تعالى
لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (عٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهٰدَةِ) أى هو عالمهما (وَهُوَ الْحَكِيمُ) فى كل ما يفعله (الْخَبِيرُ)
بجميع الامور الجلية والخفية (وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيمُ) منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام
معطوف على قل أندعو الاعلى أقيموا كما قيل لفساد المعنى أى واذكر لهم بعد ما أنكرت عليهم عبادة ما لا يقدر على
نفع وضر وحققت أن الهدى هو هدى الله وما يتبعه من شئونه تعالى وقت قول ابراهيم الذى يدعون أنهم على ملته موبخا
(لِأَبِيهِ آزَرَ) على عبادة الاصنام فان ذلك مما يبكتهم وينادى بفساد طريقتهم وتوجيه الامر بالذكر إلى الوقت دون
ما وقع فيه من الحوادث مع انها المقصودة لما مر مرارا من المبالغة فى إيجاب ذكرها وآزر بزنة آدم وعابر وعازر وفالغ
وكذلك تارح ذكره محمد بن اسحق والضحاك والكلبى وكان من قرية من سواد الكوفة ومنع صرفه للعجمة والعلمية
وقيل اسمه بالسريانية تارح وآزر لقبه المشهور وقيل اسم صنم لقب هو به للزومه عبادته فهو عطف بيان لابيه او بدل منه

وقال الضحاك معناه الشيخ الهرم وقال الزجاج المخطىء وقال الفراء وسليمان التيمى المعوج فهو نعت له كما اذا جعل مشتقا من الأزر أو الوزر أو أريد به عابد آزر على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه وقرىء آزر على النداء وهو دليل العلمية إذ لا يحذف حرف النداء إلا من الأعلام (أَتَتَّخِذُ) متعد إلى مفعولين هما (أَصْنَامًا آلِهَةً) أى أتجعلها لنفسك آلهة على توجيه الإنكار إلى اتخاذ الجنس من غير اعتبار الجمعية وإنما ايراد صيغة الجمع باعتبار الوقوع وقرىء أأزرا بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاء ساكنة وراء منونة منصوبة وهو اسم صنم ومعناه أتعبد ازرا ثم قيل تتخذ أصناما آلهة تثبيتا لذلك وتقريرا وهو داخل تحت الانكار لكونه بيانا له وقيل الازر القوة والمعنى ألأجل القوة والمظاهرة تتخذ أصناما آلهة انكارا للتعزز بها على طريقة قوله تعالى أيبتغون عندهم العزة (إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ) الذين يتبعونك فى عبادتها (فِي ضَلَالٍ) عن الحق (مُّبِينٍ) أى بين كونه ضلالا لا اشتباه فيه أصلا والرؤية اما علمية فالظرف مفعولها الثانى واما بصرية فهو حال من المفعول والجملة تعليل للانكار والتوبيخ (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ) هذه الاراءة من الرؤية البصرية المستعارة للمعرفة ونظر البصيرة أى عرفناه وبصرناه وصيغة الاستقبال حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها وذلك إشارة إلى مصدر نرى لا إلى اراءة أخرى مفهومة من قوله إنى أراك وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه بذلك وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير نرى ابراهيم اراءة كائنة مثل تلك الاراءة فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار المشار اليه نفس المصدر المؤكد لا نعتاله أى ذلك التبصير البديع نبصره عليه السلام (مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى ربوبيته تعالى ومالكيته لهما وسلطانه القاهر عليهما وكونهما بما فيهما مربوبا ومملوكا له تعالى لا تبصيرا آخر أدنى منه والملكوت مصدر على زنة المبالغة كالرهبوت والجبروت ومعناه الملك العظيم والسلطان القاهر ثم هل هو مختص بملك الله عز سلطانه أولا فقد قيل وقيل والأول هو الأظهر وبه قال الراغب وقيل ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما روى أنه كشف له عليه السلام عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين وقيل آياتهما وقيل ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الأرض الجبال والأشجار والبحار وهذه الأقوال لا تقتضى أن تكون الاراءة بصرية إذ ليس المراد باراءة ما ذكر من الأمور الحسية مجرد تمكينه عليه السلام من ابصارها ومشاهدتها فى أنفسها بل اطلاعه عليه السلام على حقائقها وتعريفها من حيث دلالتها على شئونه عز وجل ولا ريب فى أن ذلك ليس مما يدرك حسا كما ينبىء عنه اسم الاشارة المفصح عن كون المشار اليه أمرا بديعا فان الاراءة البصرية المعتادة بمعزل من تلك المثابة وقرىء ترى بالتاء واسناد الفعل إلى الملكوت أى تبصره عليه السلام دلائل الربوبية واللام فى قوله تعالى (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) متعلقة بمحذوف مؤخر والجملة اعتراض مقرر لما قبلها أى وليكون من زمرة الراسخين فى الايقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى فعلنا ما فعلنا من التبصير البديع المذكور لا لأمر آخر فان الوصول إلى تلك الغاية القاصية كمال مترتب على ذلك التبصير لا عينه وليس القصر لبيان انحصار فائدته فى ذلك كيف لا وارشاد الخلق والزام المشركين كما سيأتى من فوائده بلا مرية بل لبيان انه الأصل الأصيل والباقى من مستتبعاته وقيل هى متعلقة بالفعل السابق والجملة معطوفة على علة أخرى محذوفة ينسحب عليه الكلام اى ليستدل بها وليكون الخ فينبغى ان يراد بملكوتهما بدائعهما وآياتهما لأن الاستدلال من غايات اراءتها لا من غاية اراءة نفس الربوبية وقوله تعالى (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) على الأول وهو الحق المبين عطف على قال ابراهيم داخل تحت ما أمر بذكره بالأمر

بذكر وقته وما بينهما اعتراض مقرر لما سبق وما لحق فان تعريفه عليه السلام ربوبيته ومالكيته للسموات والأرض وما فيهما وكون الكل مقهورا تحت ملكوته مفتقرا اليه فى الوجود وسائر مايترتب عليه من الكمالات وكونه من الراسخين فى معرفة شئونه تعالى الواصلين إلى ذروة عين اليقين مما يقضى بأن يحكم عليه السلام باستحالة الهية ماسواه سبحانه من الأصنام والكواكب وعلى الثانى هو تفصيل لما ذكر من إراءة ملكوت السموات والارض وبيان لكيفية استدلاله عليه السلام ووصوله إلى رتبة الايقان ومعنى جن عليه الليل ستره بظلامه وقوله تعالى (رَءَا كَوْكَباً) جواب لما فان رؤيته انما تتحقق بزوال نور الشمس عن الحس وهذا صريح فى أنه لم يكن فى ابتداء الطلوع بل كان غيبته عن الحس بطريق الاضمحلال بنور الشمس والتحقيق أنه كان قريبا من الغروب كما ستعرفه قيل كان ذلك الكوكب هو الزهرة وقيل هو المشترى وقوله تعالى (قَالَ هَٰذَا رَبِّى) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الشرطية السابقة المتفرعة على بيان اراءته عليه السلام ملكوت السموات والأرض فان ذلك مما يحمل السامع على استكشاف ماظهر منه عليه السلام من آثار تلك الإراءة وأحكامها كأنه قيل فماذا صنع عليه السلام حين رأى الكوكب فقيل قال على سبيل الوضع والفرض هذا ربى مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فان المستدل على فساد قول يحكيه على رأى خصمه ثم يكر عليه بالابطال ولعل سلوك هذه الطريقة فى بيان استحالة ربوبية الكواكب دون بيان استحالة الهية الأصنام لما أن هذا أخفى بطلانا واستحالة من الأول فلو صدع بالحق من أول الأمر كما فعله فى حق عبادة الأصنام لتمادوا فى المكابرة والعناد ولجوا فى طغيانهم يعمهون وقيل قاله عليه السلام على وجه النظر والاستدلال وكان ذلك فى زمان مراهقته وأول أوان بلوغه وهو مبنى على تفسير الملكوت بآياتهما وعطف قوله تعالى ليكون على ماذكر من العلة المقدرة وجعل قوله تعالى فلما جن الخ تفصيلا لما ذكر من الاراءة وبيانا لكيفية الاستدلال وأنت خبير بأن كل ذلك مما يخل بجزالة النظم الجليل وجلالة منصب الخليل عليه الصلاة والسلام (فَلَمَّا أَفَلَ) أى غرب (قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) أى الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان المتغيرين من حال إلى حال المحتجبين بالأستار فانهم بمعزل من استحقاق الربوبية قطعا (فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغاً) أى مبتدئا فى الطلوع اثر غروب الكوكب (قَالَ هَٰذَا رَبِّى) على الأسلوب السابق (فَلَمَّا أَفَلَ) كما أفل النجم (قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى) إلى جنابه الذى هو الحق الذى لامحيد عنه (لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) فان شيئا مما رأيته لايليق بالربوبية وهذا مبالغة منه عليه السلام فى إظهار النصفة ولعله عليه السلام كان إذ ذاك فى موضع كان فى جانبه الغربى جبل شامخ يستتر به الكوكب والقمر وقت الظهر من النهار أو بعده بقليل وكان الكوكب قريبا منه وأفقه الشرقى مكشوف أولا وإلا فطلوع القمر بعد أفول الكوكب ثم أفوله قبل طلوع الشمس كما ينبىء عنه قوله تعالى (فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً) أى مبتدئة فى الطلوع مما لايكاد يتصور (قَالَ) أى على النهج السابق (هَٰذَا رَبِّى) وإنما لم يؤنث لما أن المشار اليه والمحكوم عليه بالربوبية هو الجرم المشاهد من حيث هو لا من حيث هو مسمى باسم من الأسامى فضلا عن حيثية تسميته بالشمس أو لتذكير الخبر وصيانة الرب عن وصمة التأنيث وقوله تعالى (هَٰذَا أَكْبَرُ) تأكيد لما رامه عليه السلام من إظهار النصفة مع اشارة خفية إلى فساد دينهم من جهة أخرى ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر (فَلَمَّا أَفَلَتْ) هى أيضا كما أفل الكوكب والقمر (قَالَ) مخاطبا للكل صادعا بالحق بين أظهرهم (يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) أى من الذى تشركونه من الأجرام المحدثة المتغيرة من حالة إلى أخرى المسخرة لمحدثها أو من اشراككم وترتيب هذا الحكم ونظيريه على الأفول دون البزوغ والظهور من ضروريات سوق الاحتجاج على هذا المساق الحكيم فان كلا منهما وإن كان فى نفسه انتقالا منافيا لاستحقاق معروضه للربوبية قطعا لكن لما كان الأول حالة موجبة لظهور

الآثار والأحكام ملائمة لتوهم الاستحقاق فى الجملة رتب عليها الحكم الأول على الطريقة المذكورة وحيث كان الثانى حالة مقتضية لانطماس الآثار وبطلان الأحكام المنافيين للاستحقاق المذكور منافاة بينة يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد رتب عليهما ما رتب ثم لما تبرأ عليه السلام منهم توجه إلى مبدع هذى المصنوعات ومنشئها فقال (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ) التى هذه الأجرام التى تعبدونها من أجزائها (وَالْأَرْضَ) التى تغيب هى فيها (حَنِيفاً) أى مائلا عن الأديان الباطلة والعقائد الزائغة كلها (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فى شىء من الأفعال والأقوال (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ) أى شرعوا فى مغالبته فى أمر التوحيد (قَالَ) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية محاجتهم كأنه قيل فماذا قال عليه السلام حين حاجوه فقيل قال منكرا لما اجترؤا عليه من محاجته مع قصورهم عن تلك الرتبة وعزة المطلب وقوة الخصم (أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ) بادغام نون الجمع فى نون الوقاية وقرىء بحذف الأول وقوله تعالى (وَقَدْ هَدَانِ) حال من ضمير المتكلم مؤكدة للانكار فان كونه عليه السلام مهديا من جهة الله تعالى ومؤيدا من عنده مما يوجب استحالة محاجته عليه السلام أى أتجادلوننى فى شأنه تعالى ووحدانيته والحال أنه تعالى هدانى إلى الحق بعد ما سلكت طريقتكم بالفرض والتقدير وتبين بطلانها تبينا تاما كما شاهدتموه وقوله تعالى (وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ) جواب عما خوفوه عليه السلام فى أثناء المحاجة من إصابة مكروه من جهة أصنامهم كما قال لهود عليه السلام قومه إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ولعلهم فعلوا ذلك حين فعل عليه السلام بآلهتهم ما فعل وما موصولة اسمية حذف عائدها وقوله تعالى (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً) استثناء مفرغ من أعم الأوقات أى لا أخاف ما تشركونه به سبحانه من معبوداتكم فى وقت من الأوقات إلا فى وقت مشيئته تعالى شيئا من إصابة مكروه بى من جهتها وذلك انما هو من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فيه أصلا وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إظهار منه لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى واستسلام لأمره واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته وقوله تعالى (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) كأنه تعليل للاستثناء أى أحاط بكل شىء علما فلا يبعد أن يكون فى علمه تعالى أن يحيق بى مكروه من قبلها بسبب من الأسباب وفى الاظهار فى موضع الاضمار تأكيد للمعنى المذكور واستلذاذ بذكره تعالى (أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) أى أتعرضون عن التأمل فى أن آلهتكم جمادات غير قادرة على شىء ما من نفع ولا ضر فلا تتذكرون أنها غير قادرة على اضرارى وفى ايراد التذكر دون التفكر ونظائره اشارة إلى ان امر أصنامهم مركوز فى العقول لا يتوقف الا على التذكر وقوله تعالى (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ) استئناف مسوق لنفى الخوف عنه عليه السلام بحسب زعم الكفرة بالطريق الإلزامى كما سيأتى بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفس الأمر والاستفهام لانكار الوقوع ونفيه بالكلية كما فى قوله تعالى كيف يكون للمشركين عهد عند الله الآية لا لانكار الواقع واستبعاده مع وقوعه كما فى قوله تعالى كيف تكفرون بالله الخ وفى توجيه الانكار إلى كيفية الخوف من المبالغة ما ليس فى توجيهه إلى نفسه بأن يقال أأخاف لما أن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال وكيفية من الكيفيات قطعا فاذا انتفى جميع أحواله وكيفياته فقد انتفى وجوده من جميع الجهات بالطريق البرهانى وقوله تعالى (وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ) حال من ضمير أخاف بتقدير مبتدأ والواو كافية فى الربط من غير حاجة إلى الضمير العائد إلى ذى الحال وهو مقرر لانكار الخوف ونفيه عنه عليه السلام ومفيد لاعترافهم بذلك فانهم حيث لم يخافوا فى محل الخوف فلأن لا يخاف عليه السلام فى محل الأمن أولى وأحرى أى وكيف أخاف أنا ما ليس فى حيز الخوف أصلا وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخوفات وأهولها وهو اشراككم بالله الذى ليس كمثله شىء فى الأرض ولا فى السماء ما هو من جملة مخلوقاته وإنما عبر عنه بقوله تعالى (مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ) أى باشراكه

(عليكم سلطانا) على طريقة التهكم مع الايذان بأن الأمور الدينية لا يعول فيها إلا على الحجة المنزلة من عند الله تعالى وفى تعليق الخوف الثانى باشراكهم من المبالغة ومراعاة حسن الأدب ما لا يخفى هذا وأما ما قيل من أن قوله تعالى ولا تخافون الخ معطوف على أخاف داخل معه فى حكم الانكار والتعجيب فما لا سبيل اليه أصلا لافضائه إلى فساد المعنى قطعا كيف لا وقد عرفت أن الانكار بمعنى النفى بالكلية فيؤول المعنى إلى نفى الخوف عنه عليه الصلاة والسلام ونفى نفيه عنهم وأنه بين الفساد وحمل الإنكار فى الأول على معنى نفى الوقوع وفى الثانى على استبعاد الواقع مما لا مساغ له على أن قوله تعالى (فأى الفريقين أحق بالأمن) ناطق ببطلانه حتما فانه كلام مرتب على إنكار خوفه عليه الصلاة والسلام فى محل الأمن مع تحقق عدم خوفهم فى محل الخوف مسوق لالجائهم إلى الاعتراف باستحقاقه عليه الصلاة والسلام لما هو عليه من الأمن وبعدم استحقاقهم لما هم عليه وإنما جىء بصيغة التفضيل المشعرة باستحقاقهم له فى الجملة لاستنزالهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سنن الانصاف والمراد بالفريقين الفريق الآمن فى محل الأمن والفريق الآمن فى محل الخوف فايثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم لتأكيد الالجاء إلى الجواب الحق بالتنبيه على علة الحكم والتفادى عن التصريح بتخطئتهم لا لمجرد الاحتراز عن تزكية النفس (إن كنتم تعلمون) المفعول إما محذوف تعويلا على ظهوره بمعونة المقام أى إن كنتم تعلمون من أحق بذلك أو قصدا إلى التعميم أى ان كنتم تعلمون شيأ وإما متروك بالمرة أى ان كنتم من أولى العلم وجواب الشرط محذوف أى فأخبرونى (الذين آمنوا) استئناف من جهته تعالى مبين للجواب الحق الذى لا محيد عنه أى الفريق الذين آمنوا (ولم يلبسوا إيمانهم) ذلك أى لم يخلطوه (بظلم) أى بشرك كما يفعله الفريق المشركون حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله عز وجل وأن عبادتهم للاصنام من تتمات إيمانهم وأحكامه لكونها لأجل التقريب والشفاعة كما قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى وهذا معنى الخلط (أولئك) إشارة إلى الموصول من حيث اتصافه بما فى حيز الصلة وفى الإشارة اليه بعد وصفه بما ذكر إيذان بأنهم تميزوا بذلك عن غيرهم وانتظموا فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف وهو مبتدأ ثان وقوله تعالى (لهم الأمن) جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر وقعت خبرا لأولئك وهو مع خبره خبر للمبتدا الاول الذى هو الموصول ويجوز أن يكون أولئك بدلا من الموصول أو عطف بيان له ولهم خبر للموصول والأمن فاعلا للظرف لاعتماده على المبتدا ويجوز أن يكون لهم خبرا مقدما والامن مبتدأ والجملة خبرا للموصول ويجوز أن يكون أولئك مبتدءا ثانيا ولهم خبره والامن فاعلا له والجملة خبر الموصول أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الايمان الخالص عن شوب الشرك لهم الامن فقط (وهم مهتدون) الى الحق ومن عداهم فى ضلال مبين . روى أنه لما نزلت الآية شق ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال عليه الصلاة والسلام ليس ما تظنون إنما هو ما قال لقمان لابنه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم وليس الايمان به أن يصدق بوجود الصانع الحكيم ويخلط بهذا التصديق الاشراك به وليس من قضية الخلط بقاء الأصل بعد الخلط حقيقة وقيل المراد بالظلم المعصية التى تفسق صاحبها والظاهر هو الأول لوروده موردا لجواب عن حال الفريقين (وتلك) إشارة إلى ما احتج به ابراهيم عليه السلام من قوله تعالى فلما جن وقيل من قوله أتحاجونى إلى قوله مهتدون وما فى اسم الاشارة من معنى البعد لتفخيم شأن المشار اليه والاشعار بعلو طبقته وسمو منزلته فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (حجتنا) خبره وفى إضافتها إلى نون العظمة من التفخيم ما لا يخفى وقوله تعالى (آتيناها إبراهيم) أى أرشدناه اليها أو علمناه اياها فى محل النصب على أنه حال من حجتنا والعامل فيها معنى الاشارة كما فى قوله تعالى فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا أو فى محل الرفع على أنه

خبر ثان أو هو الخبر وحجتنا بدل أو بيان للمبتدا وإبراهيم مفعول أول لآتيناقدم عليه الثانى لكونه ضميرا وقوله تعالى (عَلَى قَوْمِهِ) متعلق بحجتنا ان جعل خبر التلك أو بمحذوف ان جعل بدلا أى آتينا ابراهيم حجة على قومه وقيل بقوله آتينا (نَرْفَعُ) بنون العظمة وقرىء بالياء على طريقة الالتفات وكذا الفعل الآتى (دَرَجَاتٍ) أى رتبا عظيمة عالية من العلم والحكمة وانتصابها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض أى إلى درجات أو على التميز والمفعول قوله تعالى (مَنْ نَشَاءُ) وتأخيره على الوجوه الثلاثة الأخيرة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ومفعول المشيئة محذوف أى من نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على أن ذلك سنة مستمرة جارية فيما بين المصطفين الاخيار غير مختصة بابراهيم عليه السلام وقرىء بالاضافة إلى من والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها لا محل لها من الإعراب وقيل هى فى محل النصب على أنها حال من فاعل آتينا أى حال كوننا رافعين الخ (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ) فى كل ما فعل من رفع وخفض (عَلِيمٌ) بحال من يرفعه واستعداده له على مراتب متفاوتة والجملة تعليل لما قبلها وفى وضع الرب مضافا إلى ضميره عليه السلام موضع نون العظمة بطريق الالتفات فى تضاعيف بيان أحوال ابراهيم عليه السلام إظهار لمزيد لطف وعناية به عليه السلام (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) عطف على قوله تعالى وتلك حجتنا الخ فان عطف كل من الجملة الفعلية والاسمية على الأخرى مما لا نزاع فى جوازه ولا مساغ لعطفه على آتيناها لأن له محلا من الإعراب نصبا ورفعا حسبما بين من قبل فلو عطف هذا عليه لكان فى حكمه من الحالية والخبرية المستدعيتين للرابط ولا سبيل اليه ههنا (كُلًّا) مفعول لما بعده وتقديمه عليه للقصر لكن لا بالنسبة إلى غيرهما مطلقا بل بالنسبة إلى أحدهما أى كل واحد منهما (هَدَيْنَا) لا أحدهما دون الآخر وترك ذكر المهدى اليه لظهور أنه الذى أوتى إبراهيم وأنهما مقتديان به (وَنُوحًا) منصوب بمضمر يفسره (هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ) أى من قبل ابراهيم عليه السلام عد هداه نعمة على إبراهيم عليه السلام لأن شرف الوالد سار إلى الولد (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ) الضمير لابراهيم لأن مساق النظم الكريم لبيان شئونه العظيمة من ايتاء الحجة ورفع الدرجات وهبة الأولاد الأنبياء وإبقاء هذه الكرامة فى نسله إلى يوم القيامة كل ذلك لالزام من ينتمى إلى ملته عليه السلام من المشركين واليهود وقيل لنوح لانه أقرب ولان يونس ولوطا ليسا من ذرية إبراهيم فلو كان الضمير له لاختص بالمعدودين فى هذه الآية والتى بعدها وأما المذكورون فى الآية الثالثة فعطف على نوحا وروى عن ابن عباس أن هؤلاء الانبياء كلهم مضافون إلى ذرية ابراهيم وان كان منهم من لم يلحقه بولاد من قبل أم ولا أب لان لوطا ابن أخى ابراهيم والعرب تجعل العم أبا كما أخبر الله تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق مع أن اسمعيل عم يعقوب (دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ) منصوبان بمضمر مفهوم مما سبق وكذا ما عطف عليهما وبه يتعلق من ذريته وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بشأنه مع ما فى المفاعيل من نوع طول ربما يخل تأخيره بتجاوب النظم الكريم أى وهدينا من ذريته داود وسليمان (وَأَيُّوبَ) هو ابن اموص من أسباط عيص بن اسحق (وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ) أو بمحذوف وقع حالا من المذكورين أى وهديناهم حال كونهم من ذريته (وَكَذَلِكَ) اشارة الى ما يفهم من النظم الكريم من جزاء ابراهيم عليه السلام ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير (نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) جزاء مثل ذلك الجزاء والتقديم للقصر وقد مر تحقيقه مرارا والمراد بالمحسنين الجنس وبمماثلة جزائهم لجزائه عليه السلام مطلق المشابهة فى مقابل الاحسان بالاحسان والمكافأة بين الأعمال والاجزية من غير بخس لا المماثلة من كل وجه ضرورة أن الجزاء بكثرة الأولاد الانبياء مما اختص به ابراهيم عليه السلام والاقرب أن لام المحسنين للعهد وذلك اشارة الى مصدر الفعل الذى بعده وهو عبارة عما أوتى

المذكورون من فنون الكرامات ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقته والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير ونجزى المحسنين المذكورين جزاء كائنا مثل ذلك الجزاء فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار المشار اليه نفس المصدر المؤكد لا نعتاً له أى وذلك الجزاء البديع نجزى المحسنين المذكورين لا جزاء آخر أدنى منه والاظهار فى موضع الاضمار للثناء عليهم بالإحسان الذى هو عبارة عن الاتيان بالاعمال الحسنة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المقارن لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك والجملة اعتراض مقرر لما قبلها (وَزَكَرِيَّا) هو ابن آذن (وَيَحْيَى) ابنه (وَعِيسَى) هو ابن مريم وفيه دليل بين على أن الذرية تتناول أولاد البنات (وَإِلْيَاسَ) قيل هو ادريس جد نوح فيكون البيان مخصوصا بمن فى الآية الأولى وقيل هو من أسباط هرون أخى موسى عليهما السلام (كُلٌّ) أى كل واحد من أولئك المذكورين (مِّنَ الصَّٰلِحِينَ) أى من الكاملين فى الصلاح الذى هو عبارة عن الاتيان بما ينبغى والتحرز عما لا ينبغى والجملة اعتراض جىء به للثناء عليهم بالصلاح (وَإِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ) هو ابن اخطوب بن العجوز وقرىء والليسع وهو على القراءتين علم أعجمى أدخل عليه اللام ولا اشتقاق له ويقال أنه يوشع بن نون وقيل أنه منقول من مضارع وسع واللام كما فى يزيد فى قول من قال :

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا شديدا بأعباء الخلافة كاهله

(وَيُونُسَ) هو ابن متى (وَلُوطاً) هو ابن هاران بن أخى ابراهيم عليه السلام (وَكُلاًّ) أى وكل واحد من أولئك المذكورين (فَضَّلْنَا) بالنبوة لا لبعضهم دون بعض (عَلَى الْعَٰلَمِينَ) على عالمى عصرهم والجملة اعتراض كأختيها وقوله تعالى (وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ) اما متعلق بما تعلق به من ذريته ومن ابتدائية والمفعول محذوف أى وهدينا من آبائهم وذرياتهم واخوانهم جماعات كثيرة واما معطوف على كلا ومن تبعيضية أى وفضلنا بعض آبائهم الخ (وَاجْتَبَيْنَٰهُمْ) عطف على فضلنا أى اصطفيناهم (وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) تكرير للتأكيد وتمهيد لبيان ماهدوا اليه (ذَٰلِكَ) اشارة الى مايفهم من النظم الكريم من مصادر الأفعال المذكورة وقيل إلى مادانوا به وما فى ذلك من معنى البعد لمامر مرارا (هُدَى اللَّهِ) الاضافة للتشريف (يَهْدِى بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ) وهم المستعدون للهداية والارشاد وفيه اشارة إلى أنه تعالى متفضل بالهداية (وَلَوْ أَشْرَكُوا) أى هؤلاء المذكورون (لَحَبِطَ عَنْهُم) مع فضلهم وعلو طبقاتهم (مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من الأعمال المرضية الصالحة فكيف بمن عداهم وهم هم وأعمالهم أعمالهم (أُولَٰئِكَ) اشارة الى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر والمعطوفين عليهم عليهم السلام باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها من النعوت الجليلة الثابتة لهم ومافيه من معنى البعد لمامر غير مرة من الايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والشرف وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ) أى جنس الكتاب المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية والمراد بايتائه التفهيم التام بما فيه من الحقائق والتمكين من الاحاطة بالجلائل والدقائق أعم من أن يكون ذلك بالانزال ابتداء أو بالايراث بقاء فان المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين (وَالْحُكْمَ) أى الحكمة أو فصل الأمر على مايقتضيه الحق والصواب (وَالنُّبُوَّةَ) أى الرسالة (فَإِن يَكْفُرْ بِهَا) أى بهذه الثلاثة أو بالنبوة الجامعة للباقين (هَٰؤُلَآءِ) أى كفار قريش فانهم بكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن كافرون بما يصدقه جميعا وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لمامر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر (فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا) أى أمرنا بمراعاتها

ووفقنا للايمان بها والقيام بحقوقها (قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَـٰفِرِينَ) أى فى وقت من الأوقات بل مستمرون على الايمان بها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تفيد دوام الثبوت كذلك السلبية تفيد دوام النفى بمعونة المقام لانفى الدوام كما حقق فى مقامه قال ابن عباس ومجاهد رضى الله تعالى عنهما هم الأنصار وأهل المدينة وقيل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وقيل كل مؤمن من بنى آدم وقيل الفرس فان كلا من هؤلاء الطوائف موفقون للايمان بالأنبياء وبالكتب المنزلة اليهم عاملون بما فيها من أصول الشرائع وفروعها الباقية فى شريعتنا وبه يتحقق الخروج عن عهدة التوكيل والتكليف دون المنسوخة منها فانها بانتساخها خارجة عن كونها من أحكامها وقد مر تحقيقه فى تفسير سورة المائدة وقيل هم الأنبياء المذكورون فالمراد بالتوكيل الأمر بما هو أعم من اجراء أحكامها كما هو شأنهم فى حق كتابهم ومن اعتقاد حقيتها كما هو شأنهم فى حق سائر الكتب التى من جملتها القرآن الكريم وقيل هم الملائكة فالتوكيل هو الأمر بانزالها وحفظها واعتقاد حقيتها وأيا ما كان فتنكير قوما للتفخيم والباء الأولى صلة لكافرين قدمت عليه محافظة على الفواصل والثانية لتأكيد النفى وأما تقديم صلة وكلنا على مفعوله الصريح فلما ذكر آنفا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ولأن فيه نوع طول ربما يؤدى تقديمه إلى الاخلال بتجاوب النظم الكريم أو إلى الفصل بين الصفة والموصوف وجواب الشرط محذوف يدل عليه المذكور أى فان يكفر بها هؤلاء فلا اعتداد به أصلا فقد وفقنا للايمان بها قوما فخاما ليسوا بكافرين بها قطعا بل مستمرون على الإيمان بها والعمل بما فيها ففى ايمانهم بها مندوحة عن إيمان هؤلاء ومن هذا تبين أن الوجه أن يكون المراد بالقوم احدى الطوائف المذكورة إذ بايمانهم بالقرآن والعمل بأحكامه تتحقق الغنية عن ايمان الكفرة به والعمل بأحكامه وأما الأنبياء والملائكة عليهم السلام فايمانهم به ليس من قبيل ايمان آحاد الأمة كما أشير اليه (أُولَـٰئِكَ) إشارة إلى الانبياء المذكورين ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (الَّذِينَ هَدَى اللهُ) أى الى الحق والنهج المستقيم والالتفات إلى الاسم الجليل للاشعار بعلة الهداية (فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) أى فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد بغيرهم والمراد بهداهم طريقتهم فى الايمان بالله تعالى وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ فانها بعد النسخ لا تبقى هدى والهاء فى اقتده للوقف حقها أن تسقط فى الدرج واستحسن إثباتها فيه أيضا اجراء له مجرى الوقف واقتداء بالامام وقرىء باشباعها على أنها كناية المصدر (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ) أى على القرآن أو على التبليغ فان مساق الكلام يدل عليهما وان لم يجر ذكرهما (أَجْراً) من جهتكم كما لم يسأله من قبلى من الأنبياء عليهم السلام وهذا من جملة ما أمر صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم فيه (إِنْ هُوَ) أى ما القرآن (إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ) أى عظة وتذكير لهم كافة من جهته سبحانه فلا يختص بقوم دون آخرين (وَمَا قَدَرُوا اللهَ) لما بين شأن القرآن العظيم وأنه نعمة جليلة منه تعالى على كافة الأمم حسبما ينطق به قوله تعالى وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين عقب ذلك ببيان غمطهم إياها وكفرهم بها على وجه سرى ذلك إلى الكفر بجميع الكتب الالهية وأصل القدر السبر والحزر يقال قدر الشيء يقدره بالضم قدرا إذا سبره وحزره ليعرف مقداره ثم استعمل فى معرفة للشيء فى مقداره وأحواله وأوصافه وقوله تعالى (حَقَّ قَدْرِهِ) نصب على المصدرية وهو فى الأصل صفة للمصدر أى قدره الحق فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه موصوفه أى ما عرفوه تعالى حق معرفته فى اللطف بعباده والرحمة عليهم ولم يراعوا حقوقه تعالى فى ذلك بل أخلوا بها إخلالا (إِذْ قَالُوا) منكرين لبعثة الرسل وإنزال الكتاب كافرين بنعمته الجليلة فيهما (مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) فنفى معرفتهم لقدره سبحانه كناية عن حطهم لقدره الجليل ووصفهم له تعالى بنقيض نعته الجميل كما أن نفى المحبة

فى مثل ان الله لا يحب الكافرين كناية عن البغض والسخط والافنى معرفة قدره تعالى يتحقق مع عدم التعرض لحطه بل مع السعى فى تحصيل المعرفة كما فى قول من يناجى مستقصر المعرفته وعبادته سبحانك ماعرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك أوماعرفوه حق معرفته فى السخط على الكفار وشدة بطشه تعالى بهم حسبما نطق به القرآن حين اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء فالنفى بمعناه الحقيقى والقائلون هم اليهود وقد قالوه مبالغة فى انكار انزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فألزموا بما لا سبيل لهم إلى انكاره أصلا حيث قيل (قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ) أى قل لهم ذلك على طريقة التبكيت والقام الحجر وروى أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها ان الله يبغض الحبر السمين فأنت الحبر السمين قد سمنت من مالك الذى تطعمك اليهود فضحك القوم فغضب ثم التفت إلى عمر رضى الله عنه فقال ما أنزل الله على بشر من شىء فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف وقيل هم المشركون والزامهم انزال التوراة لما أنه كان عندهم من المشاهير الذائعة ولذلك كانوا يقولون لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ووصف الكتاب بالوصول اليهم لزيادة التقريع وتشديد التبكيت وكذا تقييده بقوله تعالى (نُورًا وَهُدًى) فان كونه بينا بنفسه ومبينا لغيره مما يؤكد الالزام أى تأكيد وانتصابهما على الحالية من الكتاب والعامل أنزل أو من الضمير فى به والعامل جاء واللام فى قوله تعالى (لِّلنَّاسِ) اما متعلق بهدى أو بمحذوف هو صفة له أى هدى كائنا للناس وليس المراد بهذا مجرد الزامهم بالاعتراف بانزال التوراة فقط بل بانزال القرآن أيضا فان الاعتراف بانزالها مستلزم للاعتراف بانزاله قطعا لما فيها من الشواهد الناطقة به وقد نعى عليهم ما فعلوا بها من التحريف والتغيير حيث قيل (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ) أى تضعونه فى قراطيس مقطعة وورقات مفرقة بحذف الجار بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم أو تجعلونه نفس القراطيس المقطعة وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة والجملة حال كما سبق وقوله تعالى (تُبْدُونَهَا) صفة لقراطيس وقوله تعالى (وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) معطوف عليه والعائد إلى الموصول محذوف أى كثيرا منها وقيل كلام مبتدأ لا محل له من الاعراب والمراد بالكثير نعوت النبى عليه الصلاة والسلام وسائر ما كتموه من أحكام التوراة وقرىء الأفعال الثلاثة بالياء حملا على قالوا وما قدروا وقوله تعالى (وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ) قيل هو حال من فاعل تجعلونه باضمار قد أو بدونه على اختلاف الرأيين قلت فينبغى أن يجعل ما عبارة عما أخذوه من الكتاب من العلوم والشرائع ليكون التقييد بالحال مفيدا لتأكيد التوبيخ وتشديد التشنيع فان ما فعلوه بالكتاب من التفريق والتقطيع لما ذكر من الابداء والاخفاء شناعة عظيمة فى نفسها ومع ملاحظة كونه مأخذ لعلومهم ومعارفهم أشنع وأعظم لا عما تلقوه من جهة النبى صلى الله عليه وسلم زيادة على ما فى التوراة وبيانا لما التبس عليهم وعلى آبائهم من مشكلاتها حسبما ينطق به قوله تعالى ان هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون كما قالوا الآن تلقيهم لذلك من القرآن الكريم ليس مما يزجرهم عما صنعوا بالتوراة أما ما ورد فيه زيادة على ما فيها فلأنه لا تعلق له بها نفيا ولا اثباتا وأما ما ورد بطريق البيان فلأن مدار ما فعلوا بها من التبديل والتحريف ليس ما وقع فيها من التباس الأمر واشتباه الحال حتى يقلعوا عن ذلك بايضاحه وبيانه فتكون الجملة حينئذ خالية عن تأكيد التوبيخ فلا تستحق أن تقع موقع الحال بل الوجه حينئذ أن تكون استئنافا مقررا لما قبلها من مجىء الكتاب بطريق التكملة والاستطراد والتمهيد لما يعقبه من مجىء القرآن ولا سبيل إلى جعل ما عبارة عما كتموه من أحكام التوراة كما يفصح عنه قوله تعالى قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب فان

ظهوره وان كان مزجرة لهم عن الكتم مخافة الافتضاح ومصححا لوقوع الجملة فى موقع الحال لكن ذلك مما يعلمه الكاتمون حتما هذا وقد قيل الخطاب لمن آمن من قريش كما فى قوله تعالى لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم وقوله تعالى (قل الله) أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عنهم اشعارا بتعين الجواب بحيث لا محيد عنه وايذانا بأنهم أفحموا ولم يقدروا على التكلم أصلا (ثم ذرهم فى خوضهم) فى باطلهم الذى يخوضون فيه ولا عليك بعد الزام الحجة والقام الحجر (يلعبون) حال من الضمير الأول والظرف صلة للفعل المقدم أو المؤخر أو متعلق بمحذوف هو حال من مفعول الأول أو من فاعل الثانى أو من الضمير الثانى لأنه فاعل فى الحقيقة والظرف متصل بالأول (وهذا كتاب أنزلناه) تحقيق لنزول القرآن الكريم بعد تقرير انزال ما بشر به من التوراة وتكذيب لهم فى كلمتهم الشنعاء اثر تكذيب (مبارك) أى كثير الفوائد وجم المنافع (مصدق الذى بين يديه) من التوراة لنزوله حسبما وصف فيها أو الكتب التى قبله فانه مصدق للكل فى إثبات التوحيد والأمر به ونفى الشرك والنهى عنه وفى سائر أصول الشرائع التى لا تنسخ (ولتنذر أم القرى) عطف على ما دل عليه مبارك أى للبركات ولانذارك أهل مكة وإنما ذكرت باسمها المنبىء عن كونها أعظم القرى شأنا وقبلة لأهلها قاطبة ايذانا بأن انذار أهلها أصل مستتبع لانذار أهل الأرض كافة وقرىء لينذر بالياء على أن الضمير للكتاب (ومن حولها) من أهل المدر والوبر فى المشارق والمغارب (والذين يؤمنون بالآخرة) وبما فيها من أفانين العذاب (يؤمنون به) أى بالكتاب لأنهم يخافون العاقبة ولا يزال الخوف يحملهم على النظر والتأمل حتى يؤمنوا به (وهم على صلاتهم يحافظون) تخصيص محافظتهم على الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات التى لا بد للمؤمنين من أدائها للايذان بانافتها من بين سائر الطاعات وكونها أشرف العبادات بعد الإيمان (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فزعم أنه تعالى بعثه نبيا كمسيلمة الكذاب والاسود العنسى أو اختلق عليه أحكاما من الحل والحرمة كعمرو بن لحى ومتابعيه أى هو أظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب على نفى الاظلم منه وانكاره من غير تعرض لنفى المساوى وانكاره فان الاستعمال الفاشى فى قولك من أفضل من زيد أولا أكرم منه على أنه أفضل من كل فاضل وأكرم من كل كريم وقد مر تمام الكلام فيه (أو قال أوحى إلى) من جهته تعالى (ولم يوح إليه) أى والحال أنه لم يوح اليه (شىء) أصلا كعبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فلما نزلت ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين فلما بلغ ثم أنشأناه خلقا آخر قال عبدالله تبارك الله أحسن الخالقين تعجبا من تفصيل خلق الانسان ثم قال عليه الصلاة والسلام اكتبها كذلك فشك عبدالله وقال لئن كان محمد صادقا فقد أوحى إلى كما أوحى اليه ولئن كان كاذبا فقد قلت كما قال (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) كالذين قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا (ولو ترى إذ الظالمون) حذف مفعول ترى لدلالة الظرف عليه أى ولو ترى الظالمين إذ هم (فى غمرات الموت) أى شدائده من غمره إذا غشيه (والملائكة باسطوا أيديهم) بقبض أرواحهم كالمتقاضى الملظ الملح يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه فى المطالبة من غير امهال وتنفيس أو باسطوها بالعذاب قائلين (أخرجوا أنفسكم) أى اخرجوا أرواحكم الينا من أجسادكم أو خلصوا أنفسكم من العذاب (اليوم) أى وقت الاماتة أو الوقت الممتد بعده إلى ما لا نهاية له (تجزون عذاب الهون) أى العذاب المتضمن لشدة واهانة فاضافته إلى الهون وهو الهوان لعراقته فيه (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) كاتخاذ الولد له ونسبة الشريك اليه وادعاء النبوة والوحى كاذبا (وكنتم عن آياته تستكبرون) فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون بها (ولقد جئتمونا) للحساب (فرادى) منفردين عن الأموال والاولاد وغير ذلك مما آثرتموه من الدنيا أو عن الاعوان والاصنام التى كنتم تزعمون أنها شفعاؤكم وهو جمع فرد والالف للتأنيث ككسالى وقرىء فرادا كرخال وفراد كثلاث وفردى كسكرى (كما خلقناكم أول مرة)

بدل من فرادى أى على الهيئة التى ولدتم عليها فى الانفراد أو حال ثانية عند من يجوز تعددها أو حال من الضمير فى فرادى أى مشبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة غرلا بهما أو صفة مصدر جئتمونا أى مجيئا كخلقنا لكم أول مرة (وتركتم ماخولناكم) تفضلناه عليكم فى الدنيا فشغلتم به عن الآخرة (وراء ظهوركم) ماقدمتم منه شيأ ولم تحملوا نقيرا (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاؤا) أى شركاء الله تعالى فى الربوبية واستحقاق العبادة (لقد تقطع بينكم) أى وقع التقطع بينكم كما يقال جمع بين الشيئين أى أوقع الجمع بينهما وقرىء بينكم بالرفع على إسناد الفعل إلى الظرف كما يقال قوتل أمامكم وخلفكم أو على أن البين اسم للفصل والوصل أى تقطع وصلكم وقرىء ما بينكم (وضل عنكم) أى ضاع أو غاب (ما كنتم تزعمون) أنها شفعاؤكم أو أن لا بعث ولا جزاء (إن الله فالق الحب والنوى) شروع فى تقرير بعض أفاعيله تعالى الدالة على كمال علمه وقدرته ولطف صنعه وحكمته إثر تقرير أدلة التوحيد والفلق الشق بابانة أى شاق الحب بالنبات والنوى بالشجر وقيل المراد به الشق الذى فى الحبوب والنوى أى خالقهما كذلك كما فى قولك ضيق فم الركية ووسع أسفلها وقيل الفلق بمعنى الخلق قال الواحدى ذهبوا بفالق مذهب فاطر (يخرج الحى من الميت) أى يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات مما لا ينمو من النطفة والحب والجملة مستأنفة مبينة لما قبلها وقيل خبر ثان لأن وقوله تعالى (ومخرج الميت) كالنطفة والحب (من الحى) كالحيوان والنبات عطف على فالق الحب لا على يخرج على الوجه الأول لأن اخراج الميت من الحى ليس من قبيل فلق الحب والنوى (ذلكم) القادر العظيم الشأن هو (الله) المستحق للعبادة وحده (فأنى تؤفكون) فكيف تصرفون عن عبادته إلى غيره ولا سبيل اليه أصلا (فالق الإصباح) خبر آخر لأن أو لمبتدأ محذوف والاصباح مصدر سمى به الصبح وقرىء بفتح الهمزة على أنه جمع صبح أى فالق عمود الفجر عن بياض النهار واسفاره أو فالق ظلمة الاصباح وهى الغبش الذى يلى الصبح وقرىء فالق بالنصب على المدح (وجعل الليل سكنا) يسكن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه من سكن إليه إذا اطمأن إليه استئناسا به أو يسكن فيه الخلق من قوله تعالى لتسكنوا فيه وقرىء جاعل الليل فانتصاب سكنا بفعل دل عليه جاعل وقيل بنفسه على أن المراد به الجعل المستمر فى الأزمنة المتجددة حسب تجددها لا الجعل الماضى فقط وقيل اسم الفاعل من الفعل المتعدى إلى اثنين يعمل فى الثانى وإن كان بمعنى الماضى لأنه لما أضيف إلى الأول تعين نصبه للثانى لتعذر الاضافة بعد ذلك (والشمس والقمر) معطوفان على الليل وعلى القراءة الأخيرة قيل هما معطوفان على محله والأحسن نصبهما حينئذ بفعل مقدر وقد قرئا بالجر وبالرفع أيضا على الابتداء والخبر محذوف أى مجعولان (حسبانا) أى على أدوار مختلفة يحسب بها الأوقات التى نيط بها العبادات والمعاملات أو محسوبان حسبانا والحسبان بالضم مصدر حسب كما أن الحساب بالكسر مصدر حسب (ذلك) إشارة إلى جعلهما كذلك وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته أى ذلك التسيير البديع (تقدير العزيز) الغالب القاهر الذى لا يستعصى عليه شىء من الأشياء التى من جملتها تسييرهما على الوجه المخصوص (العليم) بجميع المعلومات التى من جملتها ما فى ذلك التسيير من المنافع والمصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم (وهو الذى جعل لكم النجوم) شروع فى بيان نعمته تعالى فى الكواكب اثر بيان نعمته تعالى فى النيرين والجعل متعد إلى واحد واللام متعلقة به وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أى أنشأها وأبدعها لأجلكم فقوله تعالى (لتهتدوا بها) بدل من المجرور باعادة العامل بدل اشتمال كما فى قوله تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا والتقدير جعل لكم النجوم لاهتدائكم لكن لا على أن غاية خلقها اهتداؤهم فقط بل على طريقة افراد بعض منافعها وغاياتها بالذكر

حسبما يقتضيه المقام وقد جوز أن يكون مفعولا ثانيا للجعل وهو بمعنى التصيير أى جعلها كائنة لاهتدائكم فى أسفاركم عند دخولكم المفاوز أو البحار كما ينبىء عنه قوله تعالى (فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ) أى فى ظلمات الليل فى البر والبحر وإضافتها إليهما للملابسة فان الحاجة إلى الاهتداء بها إنما تتحقق عند ذلك أو فى مشتبهات الطرق عبر عنها بالظلمات على طريقة الاستعارة (قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ) أى بينا الآيات المتلوة المذكرة لنعمه التى هذه النعمة من جملتها أو الآيات التكوينية الدالة على شئونه تعالى مفصلة (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أى معانى الآيات المذكورة ويعملون بموجبها أو يتفكرون فى الآيات التكوينية فيعلمون حقيقة الحال وتخصيص التفصيل بهم مع عمومه للكل لأنهم المنتفعون به (وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ) تذكير لنعمة أخرى من نعمه تعالى دالة على عظيم قدرته ولطيف صنعه وحكمته أى أنشأكم مع كثرتكم من نفس آدم عليه السلام (فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) أى فلكم استقرار فى الأصلاب أو فوق الأرض واستيداع فى الأرحام أو تحت الأرض أو موضع استقرار واستيداع فيما ذكر والتعبير عن كونهم فى الأصلاب أو فوق الأرض بالاستقرار لأنهما مقرهم الطبيعى كما أن التعبير عن كونهم فى الأرحام أو تحت الأرض بالاستيداع لما أن كلا منهما ليس بمقرهم الطبيعى وقد حمل الاستيداع على كونهم فى الأصلاب وليس بواضح وقرىء فمستقر بكسر القاف أى فمنكم مستقر ومنكم مستودع فان الاستقرار منا بخلاف الاستيداع (قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ) المبينة لتفاصيل خلق البشر من هذه الآية ونظائرها (لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) غوامض الدقائق باستعمال الفطنة وتدقيق النظر فان لطائف صنع الله عز وجل فى أطوار تخليق بنى آدم مما تحار فى فهمه الألباب وهو السر فى إيثار يفقهون على يعلمون كما ورد فى شأن النجوم (وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) تذكير لنعمة أخرى من نعمه تعالى منبئة عن كمال قدرته تعالى وسعة رحمته أى أنزل من السحاب أو من سمت السماء ماء خاصا هو المطر وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا (فَأَخْرَجْنَا بِهِ) التفت إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله أى فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته (نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ) من الأشياء التى من شأنها النمو من أصناف النجم والشجر وأنواعهما المختلفة فى الكم والكيف والخواص والآثار اختلافا متفاوتا فى مراتب الزيادة والنقصان حسبما يفصح عنه قوله تعالى يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل وقوله تعالى (فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا) شروع فى تفصيل ما أجمل من الاخراج وقد بدىء بتفصيل حال النجم أى فأخرجنا من النبات الذى لا ساق له شيئاً غضاً أخضر يقال شىء أخضر وخضر كأعور وعور وأكثر ما يستعمل الخضر فيما تكون خضرته خلقية وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة وقوله تعالى (نُّخْرِجُ مِنْهُ) صفة لخضرا وصيغة المضارع لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة أى نخرج من ذلك الخضر (حَبًّا مُّتَرَاكِبًا) هو السنبل المنتظم للحبوب المتراكبة بعضها فوق بعض على هيئة مخصوصة وقرىء يخرج منه حب متراكب وقوله تعالى (وَمِنَ ٱلنَّخْلِ) شروع فى تفصيل حال الشجر اثر بيان حال النجم فقوله تعالى من النخل خبر مقدم وقوله تعالى (مِن طَلْعِهَا) بدل منه باعادة العامل كما فى قوله تعالى لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله الخ والطلع شىء يخرج من النخل كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود وقوله تعالى (قِنْوَانٌ) مبتدأ أى وحاصلة من طلع النخل قنوان ويجوز أن يكون الخبر محذوفا لدلالة أخرجنا عليه أى ومخرجة من طلع النخل قنوان ومن قرأ يخرج منه حب متراكب كان قنوان عنده معطوفا على حب وقيل المعنى وأخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان أو ومن النخل شىء من طلعها قنوان وهو جمع قنو وهو عنقود النخلة كصنو وصنوان وقرىء بضم القاف كذئب

وذؤبان وبفتحها أيضا على أنه اسم جمع لان فعلان ليس من أبنية الجمع (دانية) سهلة المجتنى قريبة من القاطف فانها وإن كانت صغيرة ينالها القاعد تأتى بالثمر لا ينتظر الطول أو ملتفة متقاربة والاقتصار على ذكرها لدلالتها على مقابلها كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر ولزيادة النعمة فيها (وجنات من أعناب) عطف على نبات كل شىء أى وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب وقرىء جنات بالرفع على الابتداء أى ولكم أو ثمة جنات وقد جوز عطفه على قنوان كأنه قيل وحاصلة أو مخرجة من النخل قنوان وجنات من نبات أعناب ولعل زيادة الجنات ههنا من غير اكتفاء بذكر اسم الجنس كما فيما تقدم وما تأخر لما أن الانتفاع بهذا الجنس لا يتأتى غالبا الا عند اجتماع طائفة من أفراده (والزيتون والرمان) منصوبان على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم أو على العطف على نبات وقوله تعالى (مشتبها وغير متشابه) حال من الزيتون اكتفى به عن حال ما عطف عليه كما يكتفى بخبر المعطوف عليه عن خبر المعطوف فى نحو قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وتقديره والزيتون مشتبها وغير متشابه والرمان كذلك وقد جوز أن يكون حالا من الرمان لقربه ويكون المحذوف حال الأول والمعنى بعضه متشابها وبعضه غير متشابه فى الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها وحكمة منشئها ومبدعها (انظروا إلى ثمره إذا أثمر) أى انظروا اليه نظر اعتبار واستبصار إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا لا يكاد ينتفع به وقرىء إلى ثمره (وينعه) أى والى حال نضجه كيف يصير إلى كماله اللائق به ويكون شيئا جامعا للمنافع جمة والينع فى الأصل مصدر ينعت الثمرة إذا أدركت وقيل جمع يانع كتاجر وتجر وقرىء بالضم وهى لغة فيه وقرىء يانعة (إن فى ذلكم) اشارة إلى ما أمر بالنظر اليه وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته (لآيات لقوم يؤمنون) أى لآيات عظيمة أو كثيرة دالة على وجود القادر الحكيم ووحدته فان حدوث هاتيك الأجناس المختلفة والأنواع المتشعبة من أصل واحد وانتقالها من حال إلى حال على نمط بديع يحار فى فهمه الالباب لا يكاد يكون إلا باحداث صانع يعلم تفاصيلها ويرجح ما تقتضيه حكمته من الوجوه الممكنة على غيره ولا يعوقه عن ذلك ضد يناويه أو ند يقاويه ولذلك عقب بتوبيخ من أشرك به والرد عليه حيث قيل (وجعلوا لله شركاء) أى جعلوا فى اعتقادهم لله الذى شأنه ما فصل فى تضاعيف هذه الآيات الجليلة شركاء (الجن) أى الملائكة حيث عبدوهم وقالوا الملائكة بنات الله وسموا جنا لاجتنانهم تحقيرا لشأنهم بالنسبة إلى مقام الالوهية أو الشياطين حيث أطاعوهم كما أطاعوا الله تعالى أو عبدوا الاوثان بتسويلهم وتحريضهم أو قالوا الله خالق الخير وكل نافع والشيطان خالق الشر وكل ضار كما هو رأى الثنوية ومفعولا جعلوا قوله تعالى شركاء الجن قدم ثانيهما على الأول لاستعظام أن يتخذ لله سبحانه شريك ما كائنا ما كان ولله متعلق بشركاء قدم عليه للنكتة المذكورة وقيل هما لله شركاء والجن بدل من شركاء مفسر له نص عليه الفراء وأبو اسحق أو منصوب بمضمر وقع جوابا عن سؤال مقدر نشأ من قوله تعالى وجعلوا الله شركاء كأنه قيل من جعلوه شركاء لله تعالى فقيل الجن أى جعلوا الجن ويؤيده قراءة أبى حيوة ويزيد بن قطيب الجن بالرفع على تقديرهم الجن فى جواب من قال من الذين جعلوهم شركاء لله تعالى وقد قرىء بالجر على أن الاضافة للتبيين (وخلقهم) حال من فاعل جعلوا بتقدير قد أو بدونه على اختلاف الرأيين مؤكدة لما فى جعلهم ذلك من كمال القباحة والبطلان باعتبار علمهم بمضمونها أى وقد علموا أنه تعالى خالقهم خاصة وقيل الضمير للشركاء أى والحال أنه تعالى خلق الجن فكيف يجعلون مخلوقه شريكا له تعالى وقرىء خلقهم عطفا على الجن أى وما يخلقونه من الأصنام أو على شركاء أى وجعلوا له اختلاقهم الافك حيث نسبوه اليه تعالى (وخرقوا له) أى افتعلوا وافتروا له يقال خلق الافك واختلقه وخرقه واخترقه بمعنى وقرىء خرقوا بالتشديد للتكثير وقرىء وحرفوا

له أى زوروا (بنينَ وبنٰتٍ) فقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت طائفة من العرب الملائكة بنات الله (بغيرِ علمٍ) أى بحقيقة ماقالوه من خطأ أو صواب بل رميا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية أو بغير علم بمرتبة ماقالوه وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادر قدره والباء متعلقة بمحذوف هو حال من فاعل خرقوا أو نعت لمصدر مؤكد له أى خرقوا ملتبسين بغير علم أو خرقا كائنا بغير علم (سُبحٰنه) استئناف مسوق لتنزيهه عز وجل عما نسبوه اليه وسبحان علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقادا وقولا أى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح فى الأرض والماء إذا أبعد فيهما وأمعن ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى أنزهه عما لا يليق به عقدا وعملا تنزيها خاصا به حقيقا بشأنه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من السبح ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران لأنه سمع له فعل من الثلاثى كما ذكر فى القاموس أريد به التنزه التام والتباعد الكلى ففيه مبالغة من حيث اسناد التنزه إلى ذاته المقدسة أى تنزه بذاته تنزها لائقا به وهو الأنسب بقوله سبحانه (وتعٰلى) فانه معطوف على الفعل المضمر لامحالة ولما فى السبحان والتعالى من معنى التباعد قيل (عمّا يصِفون) أى تباعد عما يصفونه من أن له شريكا أوولدا (بديعُ السّمٰوٰتِ والأرضِ) أى مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه فان البديع كما يطلق على المبدع يطلق على المبدع نص عليه أئمة اللغة كالصريخ بمعنى المصرخ وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه على ماذكر فى القاموس وغيره ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قوله أمن ريحانة الداعى السميع وقيل هو من إضافة الصفة المشبهة إلى الفاعل للتخفيف بعد نصبه تشبيها لها باسم الفاعل كما هو المشهور أى بديع سمواته وأرضه من بدع إذا كان على نمط عجيب وشكل فائق وحسن رائق أو إلى الظرف كما فى قولهم ثبت الغدر بمعنى أنه عديم النظير فيهما والأول هو الوجه والمعنى أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوى والسفلى بلا مادة فاعل على الاطلاق منزه عن الانفعال بالمرة والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه فكيف يمكن أن يكون له ولد وقرىء بديع بالنصب على المدح وبالجر على أنه بدل من الاسم الجليل أو من الضمير المجرور فى سبحانه على رأى من يجيزه وارتفاعه فى القراءة المشهورة على أنه خبر مبتدأ محذوف أو فاعل تعالى واظهاره فى موضع الاضمار لتعليل الحكم وتوسيط الظرف بينه وبين الفعل للاهتمام ببيانه أو مبتدأ خبره قوله تعالى (أنّى يكونُ له ولدٌ) وهو على الأولين جملة مستقلة مسوقة كما قبلها لبيان استحالة مانسبوه اليه تعالى وتقرير تنزهه عنه وقوله تعالى (ولم تكن له صٰحبةٌ) حال مؤكدة للاستحالة المذكورة فان انتفاء أن يكون له تعالى صاحبة مستلزم لانتفاء أن يكون له ولد ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة وان أمكن وجوده بلا والد وانتفاء الأول مما لاريب فيه لأحد فمن ضرورته انتفاء الثانى أى من أين أو كيف يكون له ولد كما زعموا والحال أنه ليس له على زعمهم أيضا صاحبة يكون الولد منها وقرى ولم يكن بتذكير الفعل للفصل أو لأن الاسم ضميره تعالى والخبر هو الظرف وصاحبة مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو الظرف خبر مقدم وصاحبة مبتدأ مؤخر والجملة خبر للكون وعلى هذا الوجه يجوز ان يكون الاسم ضمير الشأن لصلاحية الجملة حينئذ لأن تكون مفسرة لضمير الشأن لا على الوجه الأول لما بين فى موضعه أن ضمير الشان لا يفسر إلا بجملة صريحة وقوله تعالى (وخلقَ كلّ شىءٍ) اما جملة مستأنفة أخرى سيقت لتحقيق ماذكر من الاستحالة أو حال أخرى مقررة لها أى أنى يكون له ولد والحال أنه خلق كل شىء انتظمه التكوين والايجاد من الموجودات التى من جملتها ماسموه ولدا له تعالى فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدا لخالقه (وهوَ بكلّ شىءٍ) من شأنه ان يعلم كائنا ماكان

مخلوقا أوغير مخلوق كما ينبىء عنه ترك الاضمار إلى الاظهار (عَلِيمٌ) مبالغ فى العلم أزلا وأبدا حسبما يعرب عنه العدول إلى الجملة الاسمية فلايخفى عليه خافية مما كان وماسيكون من الذوات والصفات والأحوال التى من جملتها مايجوز عليه تعالى ومالايجوز من المحالات التى ماز عموه فرد من أفرادها والجملة استئناف مقرر لمضمون ماقبلها من الدلائل القاطعة ببطلان مقالتهم الشنعاء التى اجترءوا عليها بغير علم (ذَٰلِكُمُ) اشارة الى المنعوت بماذكر من جلائل النعوت ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه وبعد منزلته فى العظمة والخطاب للمشركين المعهودين بطريق الالتفات وهو مبتدأ وقوله تعالى (اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) أخبار أربعة مترادفة أى ذلك الموصوف بتلك الصفات العظيمة هو الله المستحق للعبادة خاصة مالك أمركم لاشريك له أصلا خالق كل شىء مما كان ومما سيكون فلا تكرار إذ المعتبر فى عنوان الموضوع إنما هو خالقيته لما كان فقط كما ينبىء عنه صيغة الماضى وقيل الخبر هو الأول والبواقى أبدال وقيل الاسم الجليل بدل من المبتدا والبواقى أخبار وقيل يقدر لكل من الأخبار الثلاثة مبتدأ وقيل يجعل الكل بمنزلة اسم واحد وقوله تعالى (فَاعْبُدُوهُ) حكم مترتب على مضمون الجملة فان من جمع هذه الصفات كان هو المستحق للعبادة خاصة وقوله تعالى (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) عطف على الجملة المتقدمة أى هو مع مافصل من الصفات الجليلة متولى أمور جميع مخلوقاته التى أنتم من جملتها فكلوا أموركم اليه وتوسلوا بعبادته إلى نجاح مآربكم الدنيوية والأخروية (لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) البصر حاسة النظر وقد تطلق على العين من حيث أنها محلها وإدراك الشىء عبارة عن الوصول اليه والاحاطة به أى لاتصل اليه الابصار ولاتحيط به كما قال سعيد بن المسيب وقال عطاء كلت أبصار المخلوقين عن الاحاطة به فلا متمسك فيه لمنكرى الرؤية على الاطلاق وقد روى عن ابن عباس ومقاتل رضى الله عنهم لاتدركه الابصار فى الدنيا وهو يرى فى الآخرة (وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) أى يحيط بها علمه إذ لاتخفى عليه خافية (وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) فيدرك مالاتدركه الابصار ويجوز أن يكون تعليلا للحكمين السابقين على طريقة اللف أى لاتدركه الابصار لأنه اللطيف وهو يدرك الابصار لأنه الخبير فيكون اللطيف مستفادا من مقابل الكثيف لما يدرك بالحاسة ولاينطبع فيها وقوله تعالى (قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ) استئناف وارد على لسان النبى عليه الصلاة والسلام والبصائر جمع بصيرة وهى النور الذى به تستبصر النفس كما أن البصر نور به تبصر العين والمراد بها الآية الواردة ههنا أو جميع الآية المنتظمة لها انتظاما أوليا ومن لابتداء الغاية مجازا سواء تعلقت بجاء أو بمحذوف هو صفة لبصائر والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضمير المخاطبين لاظهار كمال اللطف بهم أى قد جاءكم من جهة مالككم ومبلغكم إلى كمالكم اللائق بكم من الوحى الناطق بالحق والصواب ماهو كالبصائر للقلوب قد جاءكم بصائر كائنة من ربكم (فَمَنْ أَبْصَرَ) أى الحق بتلك البصائر وآمن به (فَلِنَفْسِهِ) أى فلنفسه أبصر أو فابصاره لنفسه لأن نفعه مخصوص بها (وَمَنْ عَمِيَ) أى ومن لم يبصر الحق بعد ماظهر له بتلك البصائر ظهورا بينا وضل عنه وإنما عبر عنه بالعمى تقبيحا له وتنفيرا عنه (فَعَلَيْهَا) أى فعليها عمى أو فعماه عليها أو وبال عماه (وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) وإنما أنا منذر والله هو الذى يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها (وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ) أى مثل ذلك التصريف البديع نصرف الآيات الدالة على المعانى الرائقة الكاشفة عن الحقائق الفائقة لاتصريفا أدنى منه وقوله تعالى (وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ) علة لفعل قد حذف تعويلا على دلالة السباق عليه أى وليقولوا درست نفعل مانفعل من التصريف المذكور واللام للعاقبة والواو اعتراضية وقيل هى عاطفة على علة محذوفة واللام متعلقة بنصرف أى مثل ذلك التصريف نصرف الآيات لنلزمهم الحجة وليقولوا الخ وقيل اللام لام الامر وتنصره القراءة بسكون اللام كأنه قيل وكذلك نصرف الآيات وليقولوا هم مايقولون

فانه لا احتفال بهم ولا اعتداد بقولهم وهذا أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بقولهم ورد عليه بأن مابعده يأباه ومعنى درست قرأت وتعلمت وقرئ دارست أى دارست العلماء ودرست أى قدمت هذه الآيات وعفت كما قالوا أساطير الأولين ودرست بضم الراء مبالغة فى درست أى اشتد دروسها ودرست على البناء للمفعول بمعنى قرئت أو عفيت ودارست وفسروها بدارست اليهود محمدا صلى الله عليه وسلم وجاز الاضمار لاشتهارهم بالدراسة وقد جوز إسناد الفعل إلى الآيات وهو فى الحقيقة لأهلها أى دارس أهل الآيات وحملتها محمدا صلى الله عليه وسلم وهم أهل الكتاب ودرس أى درس محمد ودارسات أى هى دارسات أى قديمات أو ذات درس كعيشة راضية وقوله تعالى (وَلِنُبَيِّنَهُ) عطف على ليقولوا واللام على الأصل لأن التبيين غاية التصريف والضمير للآيات باعتبار المعنى أو للقرآن وإن لم يذكر أو للمصدر أى ولنفعل التبيين واللام فى قوله تعالى (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) متعلقة بالتبيين وتخصيصه بهم لما أنهم المنتفعون به قال ابن عباس هم أولياؤه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد ووصفهم بالعلم للايذان بغاية جهل الأولين وخلوهم عن العلم بالمرة (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) لما حكى عن المشركين قدحهم فى تصريف الآيات عقب ذلك بأمره عليه السلام بالثبات على ماهو عليه وبعدم الاعتداد بهم وبأباطيلهم أى دم على ما أنت عليه من اتباع ماأوحى اليك من الشرائع والأحكام التى عمدتها التوحيد وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميره عليه السلام من إظهار اللطف به مالا يخفى وقوله تعالى (لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) اعتراض بين الأمرين المتعاطفين مؤكد لايجاب اتباع الوحى لا سيما فى أمر التوحيد وقد جوز أن يكون حالا من ربك أى منفردا فى الألوهية (وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) لاتحتفل بهم وبأقاويلهم الباطلة التى من جملتها ماحكى عنهم آنفا ومن جعله منسوخا بآية السيف حمل الاعراض على مايعم الكف عنهم (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ) أى عدم إشراكهم حسبما هو القاعدة المستمرة فى حذف مفعول المشيئة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء (مَا أَشْرَكُوا) وهذا دليل على أنه تعالى لايريد إيمان الكافر لكن لا بمعنى أنه تعالى يمنعه عنه مع توجهه اليه بل بمعنى أنه تعالى لايريده منه لعدم صرف اختياره الجزئى نحو الإيمان وإصراره على الكفر والجملة اعتراض مؤكد للاعراض وكذا قوله تعالى (وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) أى رقيبا مهيمنا من قبلنا تحفظ عليهم أعمالهم وكذا قوله تعالى (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) من جهتهم تقوم بأمورهم وتدبر مصالحهم وعليهم فى الموضعين متعلق بما بعده قدم عليه للاهتمام به أو لرعاية الفواصل (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى لاتشتموهم من حيث عبادتهم لآلهتهم كأن تقولوا تبا لكم ولما تعبدونه مثلا (فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا) تجاوزا عن الحق إلى الباطل بأن يقولوا لكم مثل قولكم لهم (بِغَيْرِ عِلْمٍ) أى بجهالة بالله تعالى وبما يجب أن يذكر به وقرئ عدوا يقال عدا يعدو عدوا وعدوا وعداء وعدوانا. روى أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول قوله تعالى إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون إلهك وقيل كان المسلمون يسبونهم فنهوا عن ذلك لئلا يستتبع سبهم سبه سبحانه وتعالى وفيه أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فان مايؤدى إلى الشر شر (كَذَٰلِكَ) أى مثل ذلك التزيين القوى (زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ) من الخير والشر باحداث مايمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقا أو تخذيلا ويجوز أن يراد بكل أمة أمم الكفرة إذ الكلام فيهم وبعملهم شرهم وفسادهم والمشبه به تزيين سب الله تعالى لهم (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ) مالك أمرهم (مَرْجِعُهُمْ) أى رجوعهم بالبعث بعد الموت (فَيُنَبِّئُهُمْ) من غير تأخير (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فى الدنيا على الاستمرار من السيئات المزينة لهم وهو وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة سرية مبنية على حكمة أبية وهى أن كل مايظهر

فى هذه النشأة من الأعيان والاعراض فانما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة فان المعاصى سموم قاتلة قد برزت فى الدنيا بصورة ماتستحسنها نفوس العصاة كما نطقت به هذه الآية الكريمة وكذا الطاعات فانها مع كونها أحسن الاحاسن قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ولذلك قال عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات فأعمال الكفرة قد برزت لهم فى النشأة بصورة مزينة يستحسنها الغواة ويستحبها الطغاة وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا فعبر عن اظهارها بصورها الحقيقية بالاخبار بها لما أن كلا منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هى فليتدبر قوله تعالى (وأقسموا بالله) روى أن قريشا اقترحوا بعض آيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فان فعلت بعض ماتقولون أتصدقوننى فقالوا نعم وأقسموا لئن فعلته لنؤمنن جميعا فسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها طمعا فى ايمانهم فهم عليه الصلاة والسلام بالدعاء فنزلت وقوله تعالى (جهد أيمانهم) مصدر فى موقع الحال أى أقسموا به تعالى جاهدين فى أيمانهم (لئن جاءتهم آية) من مقترحاتهم أو من جنس الآيات وهو الأنسب بحالهم فى المكابرة والعناد وترامى أمرهم فى العتو والفساد حيث كانوا لايعدون مايشاهدونه من المعجزات الباهرة من جنس الآيات (ليؤمنن بها) وما كان مرمى غرضهم فى ذلك الا التحكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلب المعجزة وعدم الاعتداد بما شاهدوا منه من البينات الحقيقية بأن تقطع بها الأرض وتسير بها الجبال (قل إنما الآيات) أى كلها فيدخل فيها ما اقترحوه دخولا أوليا (عند الله) أى أمرها فى حكمه وقضائه خاصة يتصرف فيها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة لاتتعلق بها ولا بشأن من شؤونها قدرة أحد ولا مشيئته لا استقلالا ولا اشتراكا بوجه من الوجوه حتى يمكننى أن أتصدى لاستنزالها بالاستدعاء وهذا كما ترى سد لباب الاقتراح على أبلغ وجه وأحسنه ببيان علو شأن الآيات وصعوبة منالها وتعاليها من أن تكون عرضة للسؤال والاقتراح وأما ماقيل من أن المعنى انما الآيات عند الله تعالى لاعندى فكيف أجيبكم اليها أو آتيكم بها وهو القادر عليها لا أنا حتى آتيكم بها فلا مناسبة له بالمقام كيف لا وليس مقترحهم مجيئها بغير قدرة الله تعالى وارادته حتى يجابوا بذلك وقوله تعالى (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر مسوق من جهته تعالى لبيان الحكمة الداعية إلى ماأشعر به الجواب السابق من عدم مجىء الآيات خوطب به المسلمون اما خاصة بطريق التلوين لما كانوا راغبين فى نزولها طمعا فى إسلامهم واما معه عليه الصلاة والسلام بطريق التعميم لما روى عنه صلى الله عليه وسلم من الهم بالدعاء وقد بين فيه أن أيمانهم فاجرة وايمانهم مما لايدخل تحت الوجود وان أجيب إلى ماسألوه وما استفهامية انكارية لكن لا على أن مرجع الانكار هو وقوع المشعر به بل هو نفس الاشعار مع تحقيق المشعر به فى نفسه أى وأى شىء يعلمكم أن الآية التى يقترحونها إذا جاءت لايؤمنون بل يبقون على ماكانوا عليه من الكفر والعناد أى لاتعلمون ذلك فتتمنون مجيئها طمعا فى ايمانهم فكأنه بسط عذر من جهة المسلمين فى تمنيهم نزول الآيات وقيل لا مزيدة فيتوجه الانكار إلى الاشعار والمشعر به جميعا أى أى شىء يعلمكم ايمانهم عند مجىء الآيات حتى تتمنوا مجيئها طمعا فى ايمانهم فيكون تخطئة لرأى المسلمين وقيل أن بمعنى لعل يقال ادخل السوق أنك تشترى اللحم وعنك وعلك ولعلك كلها بمعنى ويؤيده أنه قرىء لعلها إذا جاءت لايؤمنون على أن الكلام قد تم قبله والمفعول الثانى ليشعركم محذوف كما فى قوله تعالى وما يدريك لعله يزكى والجملة استئناف لتعليل الانكار وتقريره أى أى شىء يعلمكم حالهم وما سيكون عند مجىء الآيات لعلها إذا جاءت لايؤمنون بها فما لكم تتمنون مجيئها فان تمنيه انما يليق بما إذا كان ايمانهم بها محقق الوجود عند مجيئها لامرجو العدم وقرىء انها بالكسر على أنه استئناف حسبما سبق مع زيادة

تحقيق لعدم إيمانهم وقرىء لاتؤمنون بالفوقانية فالخطاب فى ومايشعركم للمشركين وقرىء ومايشعرهم أنها إذا جاءتهم لايؤمنون فمرجع الانكار اقدام المشركين على الاقسام المذكور مع جهلهم بحال قلوبهم عند مجىء الآيات وبكونها حينئذ كما هى الآن (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ) عطف على لايؤمنون داخل فى حكم مايشعركم مقيد بما قيد به أى ومايشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلايفقهونه وأبصارهم عن اجتلائه فلايبصرونه لكن لامع توجهها اليه واستعدادها لقبوله بل لكمال نبوها عنه واعراضها بالكلية ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم إشعارا باصالتهم فى الكفر وحسما لتوهم أن عدم إيمانهم ناشىء من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الاجبار (كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ) أى بما جاء من الآيات (أَوَّلَ مَرَّةٍ) أى عند ورود الآيات السابقة والكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف منصوب بلايؤمنون وما مصدرية أى لايؤمنون بل يكفرون كفرا كائنا ككفرهم أول مرة وتوسيط تقليب الأفئدة والأبصار بينهما لأنه من متممات عدم إيمانهم (وَنَذَرُهُمْ) عطف على لايؤمنون داخل فى حكم الاستفهام الانكارى مقيد بما قيد به مبين لما هو المراد بتقليب الأفئدة والأبصار ومعرب عن حقيقته بأنه ليس على ظاهره بأن يقلب الله سبحانه مشاعرهم عن الحق مع توجهها اليه واستعدادهم له بطريق الاجبار بل بأن يخليهم وشأنهم بعد ماعلم فساد استعدادهم وفرط نفورهم عن الحق وعدم تأثير اللطف فيهم أصلا ويطبع على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم كما أشرنا اليه وقوله تعالى (فِى طُغْيَٰنِهِمْ) متعلق بنذرهم وقوله تعالى (يَعْمَهُونَ) حال من الضمير المنصوب فى نذرهم أى ندعهم فى طغيانهم متحيرين لانهديهم هداية المؤمنين أو مفعول ثان لنذرهم أى نصيرهم عامهين وقرىء يقلب ويذر بالياء على اسنادهما إلى ضمير الجلالة وقرىء تقلب بالتاء والبناء للمفعول على اسناده إلى أفئدتهم (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةَ) تصريح بما أشعر به قوله عز وجل ومايشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون من الحكمة الداعية إلى ترك الاجابة إلى ما اقترحوه من الآيات اثر بيان أنها فى حكمه تعالى وقضائه المبنى على الحكم البالغة لامدخل لأحد فى أمرها بوجه من الوجوه وبيان لكذبهم فى أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وآكده أى ولو أننا لم نقتصر على ايتاء مااقترحوه ههنا من آية واحدة من الآيات بل نزلنا اليهم الملائكة كما سألوه بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة وقولهم لوما تأتينا بالملائكة (وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ) وشهدوا بحقية الايمان بعد أن أحييناهم حسبما اقترحوه بقولهم فأتوا بآبائنا (وَحَشَرْنَا) أى جمعنا (عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا) بضمتين وقرىء بسكون الباء أى كفلاء بصحة الأمر وصدق النبى صلى الله عليه وسلم على أنه جمع قبيل بمعنى الكفيل كرغيف ورغف وقضيب وقضب وهو الأنسب بقوله تعالى أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أى لو لم نقتصر على مااقترحوه بل زدنا على ذلك بأن أحضرنا لديهم كل شىء يتأتى منه الكفالة والشهادة بما ذكر لافرادى بل بطريق المعية أو جماعات على أنه جمع قبيل وهو جمع قبيلة وهو الأوفق لعموم كل شىء وشموله للأنواع والأصناف أى حشرنا كل شىء نوعا نوعا وصنفا صنفا وفوجا فوجا وانتصابه على الحالية وجمعيته باعتبار الكل المجموعى اللازم للكل الافرادى أو مقابلة وعيانا على أنه مصدر كقبلا وقد قرىء كذلك وانتصابه على الوجهين على أنه مصدر فى موقع الحال وقد نقل عن المبرد وجماعة من أهل اللغة أن الأخير بمعنى الجهة كما فى قولك لى قبل فلان حق وأن انتصابه على الظرفية (مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) أى ماصح وما استقام لهم الايمان لتماديهم فى العصيان وغلوهم فى التمرد والطغيان وأما ماسبق القضاء عليهم بالكفر فمن الأحكام المترتبة على ذلك حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل ونذرهم فى طغيانهم يعمهون وقوله تعالى (إِلَّا أَن يَشَآءَ اللَّهُ) استثناء مفرغ من أعم الأحوال والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة أى ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ماذكر من الأمور الموجبة للايمان فى حال من الأحوال الداعية اليه المتممة لموجباته

المذكورة إلا فى حال مشيئته تعالى لايمانهم أو من أعم العلل أى ما كانوا ليؤمنوا لعلة من العلل المعدودة وغيرها إلا لمشيئته تعالى له وأياما كان فليس المراد بالاستثناء بيان أن ايمانهم على خطر الوقوع بناء على كون مشيئته تعالى أيضا كذلك بل بيان استحالة وقوعه بناء على استحالة وقوعها كأنه قيل ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله وهيهات ذلك وحالهم حالهم بدليل ماسبق من قوله تعالى ونقلب أفئدتهم الآية كيف لا وقوله عز وجل (وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) استدراك من مضمون الشرطية بعد ورود الاستثناء لا قبله ولا ريب فى أن الذى يجهلونه سواء أريد بهم المسلمون وهو الظاهر أو المقسمون ليس عدم إيمانهم بلا مشيئة الله تعالى كما هو اللازم من حمل النظم الكريم على المعنى الأول فانه ليس مما يعتقده الأولون ولا مما يدعيه الآخرون بل إنما هو عدم إيمانهم لعدم مشيئته إيمانهم ومرجعه إلى جهلهم بعدم مشيئته إياه فالمعنى أن حالهم كما شرح ولكن أكثر المسلمين يجهلون عدم إيمانهم عند مجىء الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لايمانهم فيتمنون مجيئها طمعا فيما لا يكون فالجملة مقررة لمضمون قوله تعالى وما يشعركم الخ على القراءة المشهورة أو ولكن أكثر المشركين يجهلون عدم ايمانهم عند مجىء الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لايمانهم حينئذ فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يكاد يكون فالجملة على القراءة السابقة بيان مبدأ المنشأ خطأ المقسمين ومناط أقسامهم وتقرير له على قراءة لا تؤمنون بالتاء الفوقانية وكذا على قراءة وما يشعرهم أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا) كلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يشاهده من عداوة قريش له عليه الصلاة والسلام وما بنوا عليها مما لا خير فيه من الأقاويل والأفاعيل ببيان أن ذلك ليس مختصا بك بل هو أمر ابتلى به كل من سبقك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أشير اليه بذلك منصوب بفعله المحذوف مؤكد لما بعده وذلك إشارة إلى ما يفهم مما قبله أى جعلنا لكل نبى عدوا والتقديم على الفعل المذكور للقصر المفيد للمبالغة أى مثل ذلك الجعل الذى جعلنا فى حقك حيث جعلنا لك عدوا يضادونك ويضارونك ولا يؤمنون ويبغونك الغوائل ويدبرون فى ابطال أمرك مكايد جعلنا لكل نبى تقدمك عدوا فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤك لا جعلا أنقص منه وفيه دليل على أن عداوة الكفرة للانبياء عليهم السلام بخلقه تعالى للابتلاء (شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ) أى مردة الفريقين على أن الاضافة بمعنى من البيانية وقيل هى إضافة الصفة إلى الموصوف والأصل الانس والجن الشياطين وقيل هى بمعنى اللام أى الشياطين التى للانس والتى للجن وهو بدل من عدوا والجعل متعد إلى واحد أو إلى اثنين وهو أول مفعوليه قدم عليه الثانى مسارعة إلى بيان العداوة واللام على التقديرين متعلقة بالجعل أو بمحذوف هو حال من عدوا وقوله تعالى (يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ) كلام مستأنف مسوق لبيان أحكام عداوتهم وتحقيق وجه الشبه بين المشبه والمشبه به أو حال من الشياطين أو نعت لعدوا وجمع الضمير باعتبار المعنى فانه عبارة عن الأعداء كما فى قوله: إذا أنا لم أنفع صديقى بوده فان عدوى لم يضرهموا بغضى
والوحى عبارة عن الايماء والقول السريع أى يلقى ويوسوس شياطين الجن إلى شياطين الانس أو بعض كل من الفريقين إلى بعض آخر (زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ) أى المموه منه المزين ظاهره الباطل باطنه من زخرفه إذا زينه (غُرُورًا) مفعول له ليوحى أى ليغروهم أو مصدر فى موقع الحال أى غارين أو مصدر مؤكد لفعل مقدر هو حال من فاعل يوحى أى يغرون غرورا (وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ) رجوع إلى بيان الشئون الجارية بينه صلى الله عليه وسلم وبين قومه المفهومة من حكاية ماجرى بين الأنبياء عليهم السلام وبين أممهم كما ينبئ عنه الالتفات والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم المعربة عن كمال اللطف فى التسلية أى ولو شاء ربك عدم الأمور المذكورة لا ايمانهم كما قيل فان

القاعدة المستمرة أن مفعول المشيئة إنما يحذف عند وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وهو قوله تعالى (مَا فَعَلُوهُ) أى مافعلوا ماذكر من عداوتك وإيحاء بعضهم إلى بعض مزخرفات الأقاويل الباطلة المتعلقة بأمرك خاصة لا بما يعمه وأمور الأنبياء عليهم السلام أيضا كما قيل فان قوله تعالى (فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) صريح فى أن المراد بهم الكفرة المعاصرون له عليه الصلاة والسلام أى إذا كان مافعلوه من أحكام عداوتك من فنون المفاسد بمشيئته تعالى فاتركهم وافتراءهم أو ومايفترونه من أنواع المكايد فان لهم فى ذلك عقوبات شديدة ولك عواقب حميدة لابتناء مشيئته تعالى على الحكم البالغة البتة (وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ) أى إلى زخرف القول وهو على الوجه الأول علة أخرى للايحاء معطوفة على غرورا ومابينهما اعتراض وإنما لم ينصب لفقد شرطه إذ الغرور فعل الموحى وصغو الافئدة فعل الموحى اليه أى يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول ليغروهم به ولتميل اليه (أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) إنما خص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة دون ماعداها من الأمور التى يجب الايمان بها وهم بها كافرون إشعارا بما هو المدار فى صغو افئدتهم إلى مايليق اليهم فان لذات الآخرة محفوفة فى هذه النشأة بالمكاره وآلامها مزينة بالشهوات فالذين لايؤمنون بها وبأحوال مافيها لايدرون أن وراء تلك المكاره لذات ودون هذه الشهوات آلاما وإنما ينظرون إلى مابدالهم فى الدنيا بادىء الرأى فهم مضطرون إلى حب الشهوات التى من جملتها مزخرفات الأقاويل ومموهات الأباطيل واما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال ناظرين إلى عواقب الأمور لم يتصور منهم الميل إلى تلك المزخرفات لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتها وأما على الوجهين الأخيرين فهو علة لفعل محذوف يدل عليه المقام أى ولكون ذلك جعلنا ماجعلنا والمعتزلة جعلوا اللام لام العاقبة أو لام القسم أو لام الأمر وضعفه فى غاية الظهور (وَلِيَرْضَوْهُ) لأنفسهم بعدما مالت اليه أفئدتهم (وَلِيَقْتَرِفُوا) أى يكتسبوا بموجب ارتضائهم له (مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ) له من القبائح التى لايليق ذكرها (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا) كلام مستأنف وارد على ارادة القول والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام أى قل لهم أأميل الى زخارف الشياطين فأبتغى حكما غير الله يحكم بيننا ويفصل المحق منا من المبطل وقيل ان مشركى قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من أمرك فنزلت وإسناد الابتغاء المنكر إلى نفسه صلى الله عليه وسلم لا إلى المشركين كما فى قوله تعالى أفغير دين الله يبغون مع أنهم الباغون لاظهار كمال النصفة أو لمراعاة قولهم اجعل بيننا وبينك حكما وغير إما مفعول أبتغى وحكما حال منه وإما بالعكس وأياما كان فتقديمه على الفعل الذى هو المعطوف بالفاء حقيقة كما أشير اليه للايذان بأن مدار الانكار هو ابتغاء غيره تعالى حكما لا مطلق الابتغاء وقيل حكما تمييز لما فى غير من الابهام كقولهم ان لنا غيرها ابلا قالوا الحكم أبلغ من الحاكم وأدل على الرسوخ لما أنه لايطلق إلا على العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم وقوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ) جملة حالية مؤكدة لانكار ابتغاء غيره تعالى حكما ونسبة الانزال اليهم خاصة مع أن مقتضى المقام إظهار تساوى نسبته الى المتحاكمين لاستمالتهم نحو المنزل واستنزالهم الى قبول حكمه بايهام قوة نسبته اليهم أى أغيره تعالى أبتغى حكما والحال أنه هو الذى أنزل اليكم وأنتم أمة أمية لاتدرون ما تأتون وما تذرون القرآن الناطق بالحق والصواب الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب (مُفَصَّلًا) أى مبينا فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الأحكام بحيث لم يبق فى أمور الدين شىء من التخليط والابهام فأى حاجة بعد ذلك الى الحكم وهذا كما ترى صريح فى أن القرآن الكريم كاف فى أمر الدين مغن عن غيره ببيانه وتفصيله وأما أن يكون لاعجازه دخل فى ذلك كما قيل فلا وقوله تعالى (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) كلام مستأنف غير داخل

تحت القول المقدر مسوق من جهته سبحانه لتحقيق حقية الكتاب الذى نيط به أمر الحكمية وتقرير كونه منزلا من عنده عز وجل ببيان أن الذين وثقوا بهم ورضوا بحكميتهم حسبما نقل آنفا من علماء اليهود والنصارى عالمون بحقيته ونزوله من عنده تعالى وفى التعبير عن التوراة والانجيل باسم الكتاب ايماء الى ما بينهما وبين القرآن من المجانسة المقتضية للاشتراك فى الحقيقة والنزول من عنده تعالى مع ما فيه من الايجاز وإيراد الطائفتين بعنوان إيتاء الكتاب للايذان بأنهم علموه من جهة كتابهم حيث وجدوه حسبما نعت فيه وعاينوه موافقا له فى الأصول ومالا يختلف من الفروع ومخبرا عن أمور لا طريق إلى معرفتها سوى الوحى والمراد بالموصول اما علماء الفريقين وهو الظاهر فالايتاء هو التفهيم بالفعل واما الكل وهم داخلون فيه دخولا أوليا فهو أعم مما ذكر من التفهيم بالقوة ولا ريب فى أن الكل متمكنون من ذلك وقيل المراد مؤمنو أهل الكتاب وقرىء منزل من الانزال والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لتشريفه عليه الصلاة والسلام والباء فى قوله تعالى بالحق متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى منزل أى ملتبسا بالحق (فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ) أى فى أنهم يعلمون ذلك لما لا تشاهد منهم آثار العلم وأحكام المعرفة فالفاء لترتيب النهى على الاخبار بعلم أهل الكتاب بشأن القرآن أو فى أنه منزل من ربك بالحق فيكون من باب التهييج والالهاب كقوله تعالى ولا تكونن من المشركين وقيل الخطاب فى الحقيقة للامة وان كان له صلى الله عليه وسلم صورة وقيل الخطاب لكل أحد على معنى أن الادلة قد تعاضدت وتظاهرت فلا ينبغى لاحد أن يمترى فيه والفاء على هذه الوجوه لترتيب النهى على نفس علمهم بحال القرآن (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) شروع فى بيان كمال الكتاب المذكور من حيث ذاته اثر بيان كماله من حيث اضافته اليه تعالى بكونه منزلا منه بالحق وتحقيق ذلك بعلم أهل الكتاب به وانما عبر عنه بالكلمة لأنها الاصل فى الاتصاف بالصدق والعدل وبها تظهر الآثار من الحكم وقرىء كلمات ربك (صِدْقاً وَعَدْلاً) مصدران نصبا على الحال وقيل على التمييز وقيل على العلة وقوله تعالى (لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) اما استئناف مبين لفضلها على غيرها اثر بيان فضلها فى نفسها واما حال أخرى من فاعل تمت على أن الظاهر مغن عن الضمير الرابط والمعنى أنها بلغت الغاية القاصية صدقا فى الاخبار والمواعيد وعدلا فى الاقضية والاحكام لا أحد يبدل شيئا من ذلك بما هو أصدق وأعدل ولا بما هو مثله فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى (وَهُوَ السَّمِيعُ) لكل ما يتعلق به السمع (العَلِيمُ) بكل ما يمكن أن يعلم فيدخل فى ذلك أقوال المتحاكمين وأحوالهم الظاهرة والباطنة دخولا أوليا هذا وقد قيل المعنى لا أحد يقدر على أن يحرفها كما فعل بالتوراة فيكون ضمانا لها من الله عز وجل بالحفظ كقوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون أو لا نبى ولا كتاب بعدها ينسخها (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الأَرْضِ) لما تحقق اختصاصه تعالى بالحكمية لاستقلاله بما يوجبها من انزال الكتاب الكامل الفاصل بين الحق والباطل وتمام صدق كلامه وكمال عدالة أحكامه وامتناع وجود من يبدل شيأ منها واستبداده تعالى بالاحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات عقب ذلك ببيان أن الكفرة متصفون بنقائض تلك الكمالات من النقائص التى هى الضلال والاضلال واتباع الظنون الفاسدة الناشىء من الجهل والكذب على الله سبحانه وتعالى ابانة لكمال مباينة حالهم لما يرومونه وتحذيرا عن الركون اليهم والعمل بآرائهم والمراد بمن فى الأرض الناس وبأكثرهم الكفار وقيل أهل مكة والأرض أرضها أى ان تطعهم بان جعلت منهم حكما (يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) عن الطريق الموصل اليه أو عن الشريعة التى شرعها لعباده (إِنْ يَتَّبِعُوا إِلاَّ الظَّنَّ) وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم على آثارهم يهتدون أو جهالاتهم وآراؤهم الباطلة على أن المراد بالظن ما يقابل العلم والجملة استئناف مبنى على سؤال نشأ من الشرطية

كأنه قيل كيف يضلون فقيل لا يتبعون فى أمور دينهم الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا فيضلون ضلالا مبينا ولا ريب فى أن الضال المتصدى للارشاد إنما يرشد غيره إلى مسلك نفسه فهم ضالون مضلون وقوله تعالى (وإنْ همْ إلاّ يَخرصُونَ) عطف على ماقبله داخل فى حكمه أى يكذبون على الله سبحانه فيما ينسبون اليه تعالى كاتخاذ الولد وجعل عبادة الأوثان ذريعة اليه تعالى وتحليل الميتة وتحريم البحائر ونظائرها أو يقدرون أنهم على شىء وأنى لهم ذلك ودونه مناط العيوق وحقيقته مايقال عن ظن وتخمين (إنّ ربّكَ هوَ أعلمُ مَنْ يَضِلُّ عنْ سَبيلِهِ وهوَ أعلمُ بالمُهتَدِينَ) تقرير لمضمون الشرطية ومابعدها وتأكيد لما يفيده من التحذير أى هو أعلم بالفريقين فاحذر أن تكون من الأولين ومن موصولة أو موصوفة فى محل النصب لا بنفس أعلم فان أفعل التفضيل لا ينصب الظاهر فى مثل هذه الصور بل بفعل دل هو عليه أو استفهامية مرفوعة بالابتداء والخبر يضل والجملة معلق عنها الفعل المقدر وقرىء يضل بضم الياء على أن من فاعل ليضل ومفعوله محذوف ومحلها النصب بما ذكر من الفعل المقدر أى هو أعلم يعلم من يضل الناس فيكون تأكيدا للتحذير عن طاعة الكفرة وأما أن الفاعل هو الله تعالى ومن منصوبة بما ذكر أى يعلم من يضله أو مجرورة باضافة أعلم اليها أى أعلم المضلين من قوله تعالى من يضلل الله أو من قولك أضللته اذا وجدته ضالا فلا يساعده السباق والسياق والتفضيل فى العلم بكثرته وإحاطته بالوجوه التى يمكن تعلق العلم بها ولزومه وكونه بالذات لا بالغير (فَكُلوا مِمّا ذُكِرَ اسمُ اللهِ عَليهِ) أمر مترتب على النهى عن اتباع المضلين الذين من جملة اضلالهم تحليل الحلال وتحريم الحرام وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين انكم تعبدون الله فما قتله الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم فقيل للمسلمين كلوا مما ذكر اسمه تعالى خاصة على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره فقط أو مع اسمه تعالى أو مات حتف أنفه (إن كُنتمْ بآياتِهِ) التى من جملتها الآيات الواردة فى هذا الشأن (مُؤمِنِينَ) فان الايمان بها يقتضى استباحة ماأحله الله والاجتناب عما حرمه وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه (ومَا لكمْ ألاّ تأكلُوا مِمّا ذُكِرَ اسمُ اللهِ عَليهِ) انكار لأن يكون لهم شىء يدعوهم إلى الاجتناب عن أكل ماذكر عليه اسم الله تعالى من البحائر والسوائب ونحوها وقوله تعالى (وَقدْ فَصّلَ لكمْ) الخ جملة حالية مؤكدة للانكار كما فى قوله تعالى وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا أى وأى سبب حاصل لكم فى أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه أو وأى غرض يحملكم على أن لا تأكلوا ويمنعكم من أكله والحال أنه قد فصل لكم (مَا حَرّمَ عليكمْ) بقوله تعالى قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما الخ فبقى ماعدا ذلك على الحل لا بقوله تعالى حرمت عليكم الميتة الخ لانها مدنية وأما التأخر فى التلاوة فلا يوجب التأخر فى النزول وقرىء الفعلان على البناء للمفعول وقرىء الأول على البناء للفاعل والثانى للمفعول (إلاّ مَا اضطُرِرتمْ إليهِ) مما حرم فانه أيضا حلال حينئذ (وإنّ كثيراً) أى من الكفار (لَيُضِلّونَ) الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام كعمرو بن لحى وأضرابه وقرىء يضلون (بأهوائهمْ) الزائغة وشهواتهم الباطلة (بغَيرِ علمٍ) مقتبس من الشريعة الشريفة مستند الى الوحى (إنّ ربّكَ هوَ أعلمُ بالمُعتَدِينَ) المتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل والحلال إلى الحرام (وَذرُوا ظاهِرَ الإثمِ وَباطِنَهُ) أى مايعلن من الذنوب ومايسر أو ما يعمل منها بالجوارح وما بالقلب وقيل الزنا فى الحوانيت واتخاذ الاخدان (إنّ الذِينَ يَكسِبونَ الإثمَ) أى يكتسبونه من الظاهر والباطن (سَيُجزَوْنَ بما كانُوا يَقتَرِفونَ) كائنا ما كان فلابد من اجتنابهما والجملة تعليل للأمر (ولا تأكلُوا مِمّا لمْ يُذكَرِ اسمُ اللهِ عليهِ) ظاهر فى تحريم متروك التسمية عمدا كان أو نسيانا واليه ذهب داود وعن أحمد بن حنبل مثله وقال مالك والشافعى بخلافه لقوله عليه السلام ذبيحة المسلم حلال وان لم يذكر اسم الله عليه وفرق أبو حنيفة بين العمد والنسيان وأوله بالميتة أو بما ذكر عليه اسم

غيره تعالى لقوله (وإنه لفسق) فان الفسق ما أهل به لغير الله والضمير لما ويجوز أن يكون للاكل المدلول عليه بلا تأكلوا والجلة مستأنفة وقيل حالية (وإن الشيطين ليوحون إلى أوليائهم) المراد بالشياطين إبليس وجنوده فايحاؤهم وسوستهم إلى المشركين وقيل مردة المجوس فايحاؤهم إلى أوليائهم ما أنهوا إلى قريش بالكتاب أن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن مايقتلونه حلال وما يقتله الله حرام (ليجدلوكم) أى بالوساوس الشيطانية أو بما نقل من أباطيل المجوس وهو يؤيد التأويل بالميتة (وإن أطعتموهم) فى استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم (إنكم لمشركون) ضرورة أن من ترك طاعة الله إلى طاعة غيره واتبعه فى دينه فقد أشركه به تعالى بل آثره عليه سبحانه (أومن كان ميتا) وقرىء ميتا على الأصل (فأحيينه) تمثيل مسوق لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين اثر تحذيرهم عنها بالاشارة إلى أنهم مستضيئون بأنوار الوحى الالهى والمشركون خابطون فى ظلمات الكفر والطغيان فكيف يعقل اطاعتهم لهم والهمزة للانكار والنفى والواو لعطف الجملة الاسمية على مثلها الذى يدل عليه الكلام أى أأنتم مثلهم ومن كان ميتا فأعطيناه الحياة ومايتبعهامن القوى المدركة والمحركة (وجعلنا له) مع ذلك من الخارج (نورا) عظيما (يمشى به) أى بسببه والجملة استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا يصنع بذلك النور فقيل يمشى به (فى الناس) أى فيما بينهم آمنا من جهتهم أوصفة له (كمن مثله) أى صفته العجيبة وهومبتدأ وقوله تعالى (فى الظلمت) خبره على أن المراد بهما اللفظ لا المعنى كما فى قولك زيد صفته أسمر وهذه الجملة صلة لمن وهى مجرورة بالكاف وهى مع مجرورها خبر لمن الأولى وقوله تعالى (ليس بخارج منها) حال من المستكن فى الظرف وقيل من الموصول أى غير خارج منها بحال وهذا كما ترى مثل أريد به من بقى فى الضلالة بحيث لا يفارقها أصلا كما أن الأول مثل أريد به من خلقه الله تعالى على فطرة الاسلام وهداه بالآيات البينة إلى طريق الحق يسلكه كيف يشاء لكن لا على أن يدل على كل واحد من هذه المعانى بما يليق به من الألفاظ الواردة فى المثلين بواسطة تشبيهه بما يناسبه من معانيها فان ألفاظ المثل باقية فى معانيها الأصلية بل على أنه قد انتزعت من الأمور المتعددة المعتبرة فى كل واحد من جانبى المثلين هيئة على حدة ومن الأمور المتعددة المذكورة فى كل واحد من جانبى المثلين هيئة على حدة فشبهت بهما الاوليان ونزلتا منزلتيهما فاستعمل فيهما مايدل على الأخريين بضرب من التجوز وقد أشير فى تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم الآية إلى أن التمثيل قسم برأسه لا سبيل إلى جعله من باب الاستعارة حقيقة وأن الاستعارة التمثيلية من عبارات المتأخرين . نعم قد يجرى ذلك على سنن الاستعارة بأن لا يذكر المشبه كهذين التمثيلين ونظائرهما وقد يجرى على منهاج التشبيه كما فى قوله :

وما الناس إلا كالديار وأهلها   بها يوم حلوها وغدوا بلاقع

(كذلك) أى مثل ذلك التزيين البليغ (زين) أى من جهة الله تعالى بطريق الخلق عند ايحاء الشياطين أو من جهة الشياطين بطريق الزخرفة والتسويل (للكفرين) التابعين للوساوس الشيطانية الآخذين بالمزخرفات التى يوحونها اليهم (ما كانوا يعملون) ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصى التى من جملتها ما حكى عنهم من القبائح فانها لولم تكن مزينة لهم لما أصروا عليها ولما جادلوا بها الحق وقيل الآية نزلت فى حمزة رضى الله عنه وأبى جهل وقيل فى عمر أو عمار رضى الله عنهما وأبى جهل (وكذلك) قيل معناه كما جعلنا فى مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها (جعلنا فى كل قرية) من سائر القرى (أكبر مجرميها ليمكروا فيها) ومفعولا جعلنا أكابر مجرميها على تقديم المفعول الثانى والظرف لغو أوهما الظرف وأكابر على أن مجرميها

بدل أو مضاف اليه فان أفعل التفضيل إذا أضيف جاز الافراد والمطابقة ولذلك قرىء أكبر مجرميها وقيل أكابر مجرميها مفعوله الأول والثاني ليمكروا فيها ولا يخفى أن أى معنى يراد من هذه المعانى لابد أن يكون مشهور التحقق عند الناس معهودا فيما بينهم حتى يصلح أن تصرف الاشارة عن سباق النظم الكريم وتوجه اليه ويجعل مقياسا لنظائره باخراجه مخرج المصدر التشبيهى والظاهر أن ليس الأمر كذلك ولا سبيل إلى توجيهها إلى مايفهم من قوله تعالى كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون وان كان المراد بهم أكابر مكة لأن مآل المعنى حينئذ بعد اللتيا والتى كما جعلنا أعمال أهل مكة مزينة لهم جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها الخ فاذن الأقرب أن ذلك إشارة إلى الكفرة المعهودين باعتبار اتصافهم بصفاتهم والافراد بتأويل الفريق أو المذكور ومحل الكاف النصب على أنه المفعول الثانى لجعلنا قدم عليه لافادة التخصيص كما فى قوله تعالى كذلك كنتم من قبل الآية والأول أكابر مجرميها والظرف لغو أى ومثل أولئك الكفرة الذين هم صناديد مكة ومجرموها جعلنا فى كل قرية أكابرها المجرمين أى جعلناهم متصفين بصفات المذكورين مزينا لهم أعمالهم مصرين على الباطل مجادلين به الحق ليمكروا فيها أى ليفعلوا المكر فيها وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وَمَا يَمْكُرُونَ إلا بِأنفُسِهِمْ) اعتراض على سبيل الوعد لرسول الله عليه الصلاة والسلام والوعيد للكفرة أى وما تحيق غائلة مكرهم الابهم (وَمَا يَشْعُرُونَ) حال من ضمير يمكرون مع اعتبار ورود الاستثناء على النفى أى إنما يمكرون بأنفسهم والحال أنهم مايشعرون بذلك أصلا بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم وقوله تعالى (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ) رجوع إلى بيان حال مجرمى أهل مكة بعد مابين بطريق التسلية أن حال غيرهم أيضا كذلك وأن عاقبة مكر الكل ماذكر فان العظيمة المنقولة إنما صدرت عنهم لاعن سائر المجرمين أى إذا جاءتهم آية بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام (قالوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللهِ) قال ابن عباس رضى الله عنهما حتى يوحى الينا ويأتينا جبريل عليه السلام فيخبرنا أن محمدا صادق كما قالوا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا وعن الحسن البصرى مثله وهذا كما ترى صريح فى أن ماعلق بايتاء ما أوتى الرسل عليهم الصلاة والسلام هو إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أنزل اليه إيمانا حقيقيا كما هو المتبادر منه عند الاطلاق خلا أنه يستدعى أن يحمل ما أوتى رسل الله على مطلق الوحى ومخاطبة جبريل عليه السلام فى الجملة وأن تصرف الرسالة فى قوله تعالى (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) عن ظاهرها وتحمل على رسالة جبريل عليه السلام بالوجه المذكور ويراد بجعلها تبليغها إلى المرسل اليه لا وضعها فى موضعها الذى هو الرسول ليتأتى كونه جوابا عن اقتراحهم ورداله بأن يكون معنى الاقتراح لن نؤمن بكون تلك الآية نازلة من عند الله تعالى إلى الرسول حتى يأتينا بالذات عيانا كما يأتى الرسول فيخبرنا بذلك ومعنى الرد الله أعلم من يليق بارسال جبريل عليه السلام اليه لأمر من الأمور ايذانا بأنهم بمعزل من استحقاق ذلك التشريف وفيه من التمحل مالا يخفى وقال مقاتل نزلت فى أبى جهل حين قال زاحمنا بنى عبد مناف فى الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا منانبى يوحى اليه والله لانرضى به ولانتبعه أبدا حتى يأتينا وحى كما يأتيه وقال الضحاك سأل كل واحد من القوم أن يخص بالرسالة والوحى كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة ولايخفى أن كل واحد من هذين القولين وإن كان مناسبا للرد المذكور لكنه يقتضى أن يراد بالايمان المعلق بايتاء ما أوتى الرسل مجرد تصديقهم برسالته عليه الصلاة والسلام فى الجملة من غير شمول لكافة الناس وأن تكون كلمة حتى فى قول اللعين حتى يأتينا وحى كما يأتيه الخ غاية لعدم الرضا لالعدم الاتباع فانه مقرر على تقديرى ايتاء الوحى وعدمه فالمعنى لن نؤمن برسالته أصلا حتى نؤتى نحن من الوحى والنبوة مثل ما أوتى رسل الله أو ايتاء مثل ايتاء رسل الله وأما

ماقيل من أن الوليدبن المغيرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لوكانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك لأنى أكبر منك سناً وأكثر منك مالا وولدا فنزلت فلا تعلق له بكلامهم المردود إلا أن يراد بالإيمان المعلق بما ذكر مجرد الايمان بكون الآية النازلة وحياً صادقا لا الإيمان بكونها نازلة إليه عليه الصلاة والسلام فيكون المعنى وإذا جاءتهم آية نازلة إلى الرسول قالوا لن نؤمن بنزولها من عند الله حتى يكون نزولها إلينا لا إليه لأنا نحن المستحقون دونه فان ملخص معنى قوله لو كانت النبوة حقا الخ لو كان ماتدعيه من النبوة حقاً لكنت أنا النبي لا أنت وإذلم يكن الأمر كذلك فليست بحق وماله تعليق الايمان بحقية النبوة بكون نفسه نبيا ومثل ماأوتى نصب على أنه نعت لمصدر محذوف وما مصدرية أى حتى نؤتاها إيتاء مثل إيتاء رسل الله وإضافة الإيتاء إليهم لأنهم منكرون لإيتائه عليه الصلاة والسلام وحيث نصب على المفعولية توسعا لا بنفس أعلم لماعرفت من أنه لا يعمل فى الظاهر بل بفعل دل هو عليه أى هو أعلم يعلم الموضع الذى يضعها فيه والمعنى أن منصب الرسالة ليس ممايناك بكثرة المال والولد وتعاضد الأسباب والعدد وإنما ينال بفضائل نفسانية يخصها الله تعالى بمن يشاء من خلص عباده وقرىء رسالاته (سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا) استئناف آخر ناع عليهم ماسيلقونه من فنون الشر بعدمانعى عليهم حرمانهم مما أملوه والسين للتأكيد ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بأن إصابة مايصيبهم لإجرامهم المستتبع لجميع الشرور والقبائح أى يصيبهم البتة مكان ماتمنوه وعلقوا به أطماعهم الفارغة من عزة النبوة وشرف الرسالة (صَغَارٌ) أى ذلة وحقارة بعدكبرهم (عِندَ اللهِ) أى يوم القيامة وقيل من عند الله (وَعَذَابٌ شَدِيدٌ) فى الآخرة أو فى الدنيا (بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ) أى بسبب مكرهم المستمر أو بمقابلته وحيث كان هذا من معظم مواد اجرامهم صرح بسببيته (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ) أى يعرفه طريق الحق ويوفقه للايمان (يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) فيتسع له وينفتح وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيئة لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه وإليه أشار عليه الصلاة والسلام حين سئل فقال نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فينشرح له وينفتح فقالوا هل لذلك من أمارة يعرف بها فقال نعم الإنابة إلى دار الخلود والإعراض عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ) أى يخلق فيه الضلال بصرف اختياره إليه (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً) بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يكاد يدخله الإيمان وقرىء ضيقاً بالتخفيف وحرجا بكسر الراء أى شديد الضيق والأول مصدر وصف به مبالغة (كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ) ماهذه مهيئة لدخول كأن على الجمل الفعلية (فِى السَّمَاءِ) شبه للمبالغة فى ضيق صدره بمن يزاول مالا يكاد يقدر عليه فان صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة وفيه تنبيه على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود وقيل معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبواً عن الحق وتباعداً فى الهرب منه وأصل يصعد يتصعد وقد قرىء به وقرىء يصاعد وأصله يتصاعد (كَذَٰلِكَ) أى مثل ذلك الجعل الذى هو جعل الصدر حرجا على الوجه المذكور (يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ) أى العذاب أو الخذلان قال مجاهد الرجس مالاخير فيه وقال الزجاج الرجس اللعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) أى عليهم ووضع الموصول موضع المضمر للاشعار بأن جعله تعالى معلل بما فى حيز الصلة من كمال نبوهم عن الإيمان وإصرارهم على الكفر (وَهَٰذَا) أى البيان الذى جاء به القرآن أو الإسلام أو ماسبق من التوفيق والخذلان (صِرَاطُ رَبِّكَ) أى طريقه الذى ارتضاه أو عادته وطريقته التى اقتضتها حكمته وفى التعرض لعنوان الربوبية إيذان بأن تقويم ذلك الصراط للتربية وإفاضة الكمال (مُسْتَقِيماً) لا عوج فيه أو عادلا مطردا وهو حال مؤكدة كقوله تعالى وهو الحق مصدقا والعامل فيها معنى الإشارة (قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ) بيناها مفصلة (لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) يتذكرون مافى تضاعيفها

فيعلمون أن كل مايحدث من الحوادث خيرا كان أو شرا فانما يحدث بقضاء الله تعالى وخلقه وانه تعالى عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم وتخصيص القوم المذكورين بالذكر لأنهم المنتفعون بتفصيل الآيات (لَهُمْ دَارُ السَّلَٰمِ) أى للمتذكرين دار السلامة من كل المكاره وهى الجنة (عِندَ رَبِّهِمْ) أى فى ضمانه أو ذخيرة لهم عنده لايعلم كنهها غيره تعالى (وَهُوَ وَلِيُّهُم) أى مولاهم وناصرهم (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) بسبب أعمالهم الصالحة أو متوليهم بجزائها يتولى إيصاله اليهم (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً) منصوب بمضمر اما على المفعولية أو الظرفية وقرىء بنون العظمة على الالتفات لتهويل الأمر والضمير المنصوب لمن يحشر من الثقلين أى واذكر يوم يحشر الثقلين قائلا (يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ) أو ويوم يحشرهم يقول يامعشر الجن أو ويوم يحشرهم ويقول يامعشر الجن يكون من الأحوال والأهوال مالا يساعده الوصف لفظاعته والمعشر الجماعة والمراد بمعشر الجن الشياطين (قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ) أى من اغوائهم واضلالهم أو منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم كقولهم استكثر الأمير من الجنود وهذا بطريق التوبيخ والتقريع (وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم) أى الذين أطاعوهم ومن فى قوله تعالى (مِّنَ الْإِنسِ) اما لبيان الجنس أى أولياؤهم الذين هم الانس أو متعلقة بمحذوف هو حال من أولياؤهم أى كائنين من الانس (رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ) أى انتفع الانس بالجن بأن دلوهم على الشهوات ومايتوصل به اليها وقيل بأن ألقوا اليهم من الأراجيف والسحر والكهانة والجن بالانس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم بقبول ما ألقوه اليهم وقيل استمتاع الانس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم فى المفاوز والمخاوف واستمتاعهم بالانس اعترافهم بأنهم قادرون على اجارتهم (وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا) وهو يوم القيامة قالوه اعترافا بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتكذيب البعث واظهار للندامة عليها وتحسرا على حالهم واستسلاما لربهم ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين للايذان بأن المضلين قد أفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلا (قَالَ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية كلامهم كأنه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذ فقيل قال (النَّارُ مَثْوَاكُمْ) أى منزلكم أو ذات ثوائكم كما أن دار السلام مثوى المؤمنين (خَٰلِدِينَ فِيهَا) حال والعامل مثواكم ان جعل مصدرا ومعنى الاضافة ان جعل مكانا (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) قال ابن عباس رضى الله عنهما استثنى الله تعالى قوما قد سبق فى علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبى عليه الصلاة والسلام وهذا مبنى على أن الاستثناء ليس من المحكى وما بمعنى من وقيل المعنى الا الأوقات التى ينقلون فيها من النار إلى الزمهرير فقد روى أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير مايميز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم وقيل يفتح لهم وهم فى النار باب إلى الجنة فيسرعون نحوه حتى إذا صاروا اليه سد عليهم الباب وعلى التقديرين فالاستثناء تهكم بهم وقيل الا ماشاء الله قبل الدخول كأنه قيل النار مثواكم أبدا الا ما أمهلكم ولايخفى بعده (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ) فى أفاعيله (عَلِيمٌ) بأحوال الثقلين وأعمالهم وبما يليق بها من الجزاء (وَكَذَٰلِكَ) أى مثل ماسبق من تمكين الجن من اغواء الانس واضلالهم (نُوَلِّى بَعْضَ الظَّٰلِمِينَ) من الانس (بَعْضاً) آخر منهم أى نجعلهم بحيث يتولونهم بالاغواء والاضلال أو نجعل بعضهم قرناء بعض فى العذاب كما كانوا كذلك فى الدنيا عند اقتراف مايؤدى اليه من القبائح (بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) بسبب ماكانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصى (يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ) شروع فى حكاية ماسيكون من توبيخ المعشرين وتقريعهم بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسهم اثر حكاية توبيخ معشر الجن باغواء الانس واضلالهم وبيان مآل أمرهم (أَلَمْ يَأْتِكُمْ) أى فى الدنيا (رُسُلٌ) أى من عند الله عز وجل لكن لا على أن يأتى كل رسول كل واحدة من الأمم بل على أن يأتى كل أمة رسول خاص بها أى ألم يأت كل

أمة منكم رسول معين وقوله تعالى (مِنكُمْ) متعلق بمحذوف وقع صفة لرسل أى كائنة من جملتكم لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معا بل من الانس خاصة وإنما جعلوا منهما اما للتأكيد وجوب اتباعهم والايذان بتقاربهما ذاتا واتحادهما تكليفا وخطابا كأنهما جنس واحد ولذلك تمكن أحدهما من اضلال الآخر واما لأن المراد بالرسل مايعم رسل الرسل وقد ثبت أن الجن قد استمعوا القرآن وأنذروا به قومهم حيث نطق به قوله تعالى وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن إلى قوله تعالى ولوا إلى قومهم منذرين وقوله تعالى (يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى) صفة أخرى لرسل محققة لما هو المراد من إرسال الرسل من التبليغ والانذار وقد حصل ذلك بالنسبة إلى الثقلين (وَيُنذِرُونَكُمْ) بما فى تضاعيفها من القوارع (لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا) يوم الحشر الذى قد عاينوا فيه ما أعد لهم من افانين العقوبات الهائلة (قَالُوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام السابق كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك التوبيخ الشديد فقيل قالوا (شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا) أى باتيان الرسل وانذارهم وبمقابلتهم اياهم بالكفر والتكذيب وباستحقاقهم بسبب ذلك للعذاب المخلد حسبما فصل فى حكاية جوابهم عن سؤال خزنة النار حيث قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء ان أنتم إلا فى ضلال كبير وقد أجمل ههنا فى الحكاية كما أجمل فى حكاية جوابهم حيث قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وقوله تعالى (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا) مع ماعطف عليه اعتراض لبيان ما أداهم فى الدنيا إلى ارتكابهم للقبائح التى ارتكبوها والجائهم بعد ذلك فى الآخرة الى الاعتراف بالكفر واستيجاب العذاب وذم لهم بذلك أى واغتروا فى الدنيا بالحياة الدنيئة واللذات الخسيسة الفانية وأعرضوا عن النعيم المقيم الذى بشرت به الرسل واجترؤا على ارتكاب مايجرهم إلى العذاب المؤبد الذى أنذروهم اياه (وَشَهِدُوا) فى الآخرة (عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا) فى الدنيا (كَـٰفِرِينَ) أى بالآيات والنذر التى أتى بها الرسل على التفصيل المذكور آنفا واضطروا إلى الاستسلام لأشد العذاب كما ينبىء عنه ما حكى عنهم بقوله تعالى وقالوا لوكنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير وفيه من تحسيرهم وتحذير السامعين عن مثل صنيعهم مالامزيد عليه (ذَٰلِكَ) اشارة إلى ماذكر من شهادتهم على أنفسهم بالكفر واستيجاب العذاب والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ) بحذف اللام على أن أن مصدرية أو مخففة من أن وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف وقوله تعالى (بِظُلْمٍ) متعلق اما بمهلك أى بسبب ظلم أو بمحذوف وقع حالا من القرى أى ملتبسة بظلم فان ملابسة أهلها للظلم ملابسة للقرية له بواسطتهم وأما كونه حالا من ربك أو من ضميره فى مهلك كما قيل فيأباه أن غفلة أهلها مأخوذة فى معنى الظلم وحقيقته لامحالة فلايحسن تقييده بقوله تعالى (وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ) والمعنى ذلك ثابت لانتفاء كون ربك أو لان الشأن لم يكن ربك مهلك القرى بسبب أى ظلم فعلوه من أفراد الظلم قبل أن ينهوا عنه وينبهوا على بطلانه برسول وكتاب وان قضى به بديهة العقول وينذروا عاقبة جناياتهم أى لو لا انتفاء كونه تعالى معذبا لهم قبل ارسال الرسل وانزال الكتب لما أمكن التوبيخ بما ذكر ولما شهدوا على أنفسهم بالكفر واستيجاب العذاب ولاعتذروا بعدم اتيان الرسل كما فى قوله تعالى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى وانما علل ما ذكر بانتفاء التعذيب الدنيوى الذى هو اهلاك القرى قبل الانذار مع أن التقريب فى تعليله بانتفاء مطلق التعذيب من غير بعث الرسل أتم على مانطق به قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا لبيان كمال نزاهته سبحانه وتعالى عن كلا التعذيبين الدنيوى والأخروى معا من غير انذار على أبلغ وجه وآكده حيث اقتصر على نفى التعذيب الدنيوى عنه تعالى ليثبت نفى التعذيب الأخروى عنه تعالى على الوجه البرهانى بطريق الاولوية فانه تعالى حيث لم يعذبهم بعذاب يسير منقطع

بدون إنذار فلأن لا يعذبهم بعذاب شديد مخلد أولى وأجلى ولو علل بما ذكر من نفى التعذيب لانصرف بحسب المقام إلى مافيه الكلام من نفى التعذيب الأخروى ونفى التعذيب الدنيوى غير متعرض له لاصريحا ولا دلالة ضرورة أن نفى الأعلى لايدل على نفى الأدنى ولأن ترتب التعذيب الدنيوى على الانذار عند عدم تأثر المنذرين منه معلوم مشاهد عند السامعين فيستدلون بذلك على أن التعذيب الأخروى أيضا كذلك فينزجرون عن الاخلال بمواجب الانذار أشد انزجار هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم وأما جعل ذلك اشارة إلى إرسال الرسل عليهم السلام وانذارهم وخبر المبتدا محذوف كما أطبق عليه الجمهور فبمعزل من مقتضى المقام والله سبحانه أعلم (وَلِكُلٍّ) أى من المكلفين من الثقلين (دَرَجَٰتٌ) متفاوتة وطبقات متباينة (مِّمَّا عَمِلُوا) من أعمالهم صالحة كانت أوسيئة فان أعمالهم درجات فى أنفسها أومن جزاء أعمالهم فان كل جزاء مرتبة معينة لهم أو من أجل أعمالهم (وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) فيخفى عليه عمل من أعمالهم أو قدر ما يستحقون بها من ثواب أو عقاب وقرىء بالتاء تغليبا للخطاب على الغيبة (وَرَبُّكَ الْغَنِىُّ) مبتدأ وخبر أى هو المعروف بالغنى عن كل ماسواه كائنا من كان وما كان فيدخل فيه غناه عن العباد وعن عبادتهم وفى التعرض لوصف الربوبية فى الموضعين لاسيما فى الثانى لكونه موقع الاضمار مع الاضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من إظهار اللطف به عليه السلام وتنزيه ساحته عن توهم شمول الوعيد الآتى لها أيضا مالايخفى وقوله تعالى (ذُو الرَّحْمَةِ) خبر آخر أوهو الخبر والغنى صفة أى يترحم عليهم بالتكليف تكميلا لهم ويمهلهم على المعاصى وفيه تنبيه على أن ما سلف ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتمهيد لقوله تعالى (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ) أى مابه حاجة اليكم ان يشأ يذهبكم أيها العصاة وفى تلوين الخطاب من تشديد الوعيد مالايخفى (وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم) أى من بعد إذهابكم (مَّا يَشَآءُ) من الخلق وإيثار ما على من لإظهار كمال الكبرياء واسقاطهم عن رتبة العقلاء (كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ) أى من نسل قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام لكنه أبقاكم ترحما عليكم وما فى كما مصدرية ومحل الكاف النصب على أنه مصدر تشبيهى على غير الصدر فان يستخلف فى معنى ينشىء كأنه قيل وينشىء إنشاء كائنا كانشائكم الخ أو نعت لمصدر الفعل المذكور أى يستخلف استخلافا كائنا كانشائكم الخ والشرطية استئناف مقرر لمضمون ما قبلها من الغنى والرحمة (إِنَّ مَا تُوعَدُونَ) أى الذى توعدونه من البعث وما يتفرع عليه من الأمور الهائلة وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار التجددى (لَأَتٍ) لواقع لامحالة كقوله تعالى إن ماتوعدون لواقع وإيثاره عليه لبيان كمال سرعة وقوعه بتصويره بصورة طالب حثيث لايفوته هارب حسبما يعرب عنه قوله تعالى (وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) أى بفائتين ذلك وان ركبتم فى الهرب متن كل صعب وذلول كما أن إيثار صيغة الفاعل على المستقبل للايذان بكمال قرب الاتيان والمراد بيان دوام انتفاء الاعجاز لابيان انتفاء دوام الاعجاز فان الجملة الاسمية كما تدل على دوام الثبوت تدل بمعونة المقام اذا دخل عليها حرف النفى على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام كما حقق فى موضعه (قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ) اثر مابين لهم حالهم ومآلهم بطريق الخطاب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين بأن يواجههم بتشديد التهديد وتكرير الوعيد ويظهر لهم ماهو عليه من غاية التصلب فى الدين ونهاية الوثوق بأمره وعدم المبالاة بهم أى اعملوا على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن أو على جهتكم وحالتكم التى أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة وقرىء مكاناتكم والمعنى اثبتوا على كفركم ومعاداتكم (إِنِّى عَامِلٌ) ما أمرت به من الثبات على الاسلام والاستمرار على الأعمال الصالحة والمصابرة وايراد التهديد بصيغة الأمر مبالغة فى الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعا عليه فيحمله بالأمر على مايؤدى اليه وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى

منه إلا الشر كالذي أمر به بحيث لا يجد إلى التفصي عنه سبيلا (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ) سوف لتأكيد مضمون الجملة والعلم عرفاني ومن إما استفهامية معلقة لفعل العلم محلها الرفع على الابتداء وتكون باسمها وخبرها خبر لها وهي مع خبرها في محل نصب لسدها مسد مفعول تعلمون أي فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة الحسنى التي خلق الله تعالى هذه الدار لها وإما موصولة فمحلها النصب على أنها مفعول لتعلمون أي فسوف تعلمون الذي له عاقبة الدار وفيه مع الانذار إنصاف في المقال وتنبيه على كمال وثوق المنذر بأمره وقرىء بالياء لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي (إِنَّهُ) أي الشأن (لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ) وضع الظلم موضع الكفر إيذانا بأن امتناع الفلاح يترتب على أي فرد كان من أفراد الظلم فما ظنك بالكفر الذي هو أعظم أفراده (وَجَعَلُوا) شروع في تقبيح أحوالهم الفظيعة بحكاية أقوالهم وأفعالهم الشنيعة وهم مشركو العرب كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله تعالى وأشياء منهما لآلهتهم فاذا رأوا ما جعلوه لله تعالى زاكياناميا يزيد في نفسه خيرا رجعوا فجعلوه لآلهتهم وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم تركوه معتلين بأن الله تعالى غني وما ذاك إلا لحب آلهتهم وإيثارهم لها والجعل إما متعد إلى واحد فالجاران في قوله تعالى (لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ) متعلقان به ومن في قوله تعالى (مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ) بيان لما وفيه تنبيه على فرط جهالتهم حيث أشركوا الخالق في خلقه جمادا لا يقدر على شيء ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزكي له أي عينوا له تعالى مما خلقه من الحرث والأنعام (نَصِيبًا) يصرفونه إلى الضيفان والمساكين وتأخيره عن المجرورين لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وإما إلى مفعولين أولهما ذرأ على أن من تبعيضية أي جعلوا بعض ما خلقه نصيبا له وما قيل من أن الأول نصيبا والثاني لله لا يساعده سداد المعنى وحكاية جعلهم له تعالى نصيبا تدل على أنهم جعلوا لشركائهم أيضا نصيبا ولم يذكر اكتفاء بقوله تعالى (فَقَالُوا هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا) وقرىء بضم الزاء وهو لغة فيه وإنما قيد به الأول للتنبيه على أنه في الحقيقة ليس بجعل لله تعالى غير مستتبع لشيء من الثواب كالتطوعات التي يبتغى بها وجه الله تعالى لا لما قيل من أنه للتنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله تعالى به فان ذلك مستفاد من الجعل ولذلك لم يقيد به الثاني ويجوز أن يكون ذلك تمهيدا لما بعده على معنى أن قولهم هذا لله مجرد زعم منهم لا يعملون بمقتضاه الذي هو اختصاصه به تعالى فقوله تعالى (فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ) بيان وتفصيل له أي فما عينوه لشركائهم لا يصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عينوه لله تعالى من قرى الضيفان والتصدق على المساكين وما عينوه لله تعالى إذا وجدوه زاكيا يصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عينوه لآلهتهم من انفاق عليها وذبح نسائك عندها والاجراء على سدنتها ونحو ذلك (سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) فيما فعلوا من إيثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم بما لم يشرع لهم وما بمعنى الذي والتقدير ساء الذي يحكمون حكمهم فيكون حكمهم مبتدأ وما قبله الخبر وحذف لدلالة يحكمون عليه (وَكَذَٰلِكَ) ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك في قسمة القربان بين الله تعالى وبين آلهتهم أو مثل ذلك التزيين البليغ المعهود من الشياطين (زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ) بوأدهم ونحرهم لآلهتهم. كان الرجل يحلف في الجاهلية لئن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب وهو مشهور (شُرَكَآؤُهُمْ) أي أولياؤهم من الجن أو من السدنة وهو فاعل زين أخر عن الظرف والمفعول لما مر غير مرة وقرىء على البناء للمفعول الذي هو القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء باضافة القتل إليه مفصولا بينهما بمفعوله وقرىء على البناء للمفعول ورفع قتل وجر أولادهم ورفع شركاؤهم باضمار فعل دل عليه زين كأنه لما قيل زين لهم قتل أولادهم قيل من زينه فقيل زينه شركاؤهم (لِيُرْدُوهُمْ) أي يهلكوهم بالاغواء (وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ) وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين اسمعيل عليه السلام أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به واللام للتعليل ان كان

التزيين من الشياطين وللعاقبة إن كان من السدنة (ولو شاء الله) أى عدم فعلهم ذلك (ما فعلوه) أى مافعل المشركون مازين لهم من القتل أو الشركاء التزيين أو الارداء واللبس أو الفريقان جميع ذلك على اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة (فذرهم وما يفترون) الفاء فصيحة أى اذا كان مافعلوه بمشيئة الله تعالى فدعهم وافتراءهم أو ومايفترونه من الافك فان فيما شاء الله تعالى حكما بالغة انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى (وقالوا) حكاية لنوع آخر من أنواع كفرهم (هذه) اشارة الى ماجعلوه لآلهتهم والتأنيث للخبر (أنعام وحرث حجر) أى حرام فعل بمعنى مفعول كالذبح يستوى فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى لأن أصله المصدر ولذلك وقع صفة لانعام وحرث وقرىء حجر بالضم وبضمتين وحرج أى ضيق وأصله حرج وقيل هو مقلوب من حجر (لا يطعمها إلا من نشاء) يعنون خدم الأوثان من الرجال دون النساء والجملة صفة أخرى لأنعام وحرث (بزعمهم) متعلق بمحذوف هو حال من فاعل قالوا أى قالوه ملتبسين بزعمهم الباطل من غير حجة (وأنعام) خبر مبتدا محذوف والجملة معطوفة على قوله تعالى هذه أنعام الخ أى قالوا مشيرين الى طائفة أخرى من أنعامهم وهذه أنعام (حرمت ظهورها) يعنون بها البحائر والسوائب والحوامى (وأنعام) أى وهذه أنعام كما مر وقوله تعالى (لا يذكرون اسم الله عليها) صفة لأنعام لكنه غير واقع فى كلامهم المحكى كنظائره بل مسوق من جهته تعالى تعيينا للموصوف وتمييزا له عن غيره كما فى قوله تعالى وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله على أحد التفاسير كأنه قيل وأنعام ذبحت على الأصنام فانها التى لا يذكر عليها اسم الله وانما يذكر عليها اسم الأصنام وقيل لا يحجون عليها فان الحج لا يعرى عن ذكر الله تعالى وقال مجاهد كانت لهم طائفة من أنعامهم لا يذكرون اسم الله عليها ولا فى شىء من شأنها لا ان ركبوا ولا ان حلبوا ولا ان نتجوا ولا ان باعوا ولا ان حملوا (افتراء عليه) نصب على المصدر اما على أن ماقالوه تقول على الله تعالى واما على تقدير عامل من لفظه أى افتروا افتراء والجار متعلق بقالوا أو بافتروا المقدر أو بمحذوف هو صفة له لا بافتراء لأن المصدر المؤكد لا يعمل أو على الحال من فاعل قالوا أى مفترين أو على العلة أى للافتراء فالجار متعلق به (سيجزيهم بما كانوا يفترون) أى بسببه أو بدله وفى ابهام الجزاء من التهويل مالا يخفى (وقالوا) حكاية لفن آخر من فنون كفرهم (ما فى بطون هذه الأنعام) يعنون به أجنة البحائر والسوائب (خالصة لذكورنا) حلال لهم خاصة والتاء للنقل الى الاسمية أو للمبالغة أو لأن الخالصة مصدر كالعافية وقع موقع الخالص مبالغة أو بحذف المضاف أى ذو خالصة أو للتأنيث بناء على أن ماعبارة عن الأجنة والتذكير فى قوله تعالى (ومحرم على أزواجنا) أى جنس أزواجنا وهن الاناث باعتبار اللفظ وفيه كما ترى حمل للنظم الكريم على خلاف المعهود الذى هو الحمل على اللفظ أولا وعلى المعنى ثانيا كما فى قوله تعالى ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم الخ ونظائره وأما العكس فقد قالوا أنه لا نظير له فى القرآن وهذا الحكم منهم ان ولد ذلك حيا وهو الظاهر المعتاد (وإن يكن ميتة) أى ان ولدت ميتة (فهم) أى الذكور والاناث (فيه) أى فيما فى بطون الانعام وقيل المراد بالميتة مايعم الذكر والأنثى فغلب الأول على الثانى (شركاء) يأكلون منه جميعا وقرىء خالصة بالنصب على أنه مصدر مؤكد والخبر لذكورنا أو حال من الضمير الذى فى الظرف لا من الذى فى ذكورنا ولا من الذكور لأنه لا يتقدم على العامل المعنوى ولا على صاحبه المجرور وقرىء خالصه بالرفع والاضافة الى الضمير على أنه بدل من ما أو مبتدأ ثان (سيجزيهم وصفهم) اى جزاء وصفهم الكذب على الله تعالى فى امر التحليل والتحريم

من قوله تعالى وتصف ألسنتهم الكذب (إنه حكيم عليم) تعليل للوعيد بالجزاء فإن الحكيم العليم بما صدر عنهم لا يكاد يترك جزاءهم الذي هو من مقتضيات الحكمة (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) جواب قسم محذوف وقرىء بالتشديد وهم ربيعة ومضر وأضرابهم من العرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر أي خسروا دينهم ودنياهم (سفها بغير علم) متعلق بقتلوا على أنه علة له أي لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرزاق لهم ولأولادهم أو نصب على الحال ويؤيده أنه قرىء سفهاء أو مصدر (وحرموا ما رزقهم الله) من البحائر والسوائب ونحوهما (افتراء على الله) نصب على أحد الوجوه المذكورة وإظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار لإظهار كمال عتوهم وطغيانهم (قد ضلوا) عن الطريق المستقيم (وما كانوا مهتدين) إليه وإن هدوا بفنون الهدايات أو وما كانوا مهتدين من الأصل لسوء سيرتهم فالجملة حينئذ اعتراض وعلى الأول عطف على ضلوا (وهو الذي أنشأ جنات معروشات) تمهيد لما سيأتي من تفصيل أحوال الأنعام أي هو الذي أنشأهن من غير شركة لأحد في ذلك بوجه من الوجوه والمعروشات من الكروم المرفوعات على ما يحملها (وغير معروشات) وهن الملقيات على وجه الأرض وقيل المعروشات ما غرسه الناس وعرشوه وغير المعروشات ما نبت في البوادي والجبال (والنخل والزرع) عطف على جنات أي أنشأهما (مختلفا أكله) وقرىء أكله بسكون الكاف أي ثمره الذي يؤكل في الهيئة والكيفية والضمير إما للنخل والزرع داخل في حكمه أو للزرع والباقي مقيس عليه أو للجميع على تقدير أكل ذلك أو كل واحد منهما ومختلفا حال مقدرة إذ ليس كذلك وقت الانشاء (والزيتون والرمان) أي أنشأهما وقوله تعالى (متشابها وغير متشابه) نصب على الحالية أي يتشابه بعض أفرادهما في اللون والهيئة أو الطعم ولا يتشابه بعضها (كلوا من ثمره) أي من ثمر كل واحد من ذلك (إذا أثمر) وإن لم يدرك ولم يينع بعد وقيل فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) أريد به ما كان يتصدق به يوم الحصاد بطريق الوجوب من غير تعيين المقدار لا الزكاة المقدرة فإنها فرضت بالمدينة والسورة مكية وقيل الزكاة والآية مدنية والأمر بإيتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتصفية وقرىء يوم حصاده بكسر الحاء وهو لغة فيه (ولا تسرفوا) أي في التصدق كما روي عن ثابت بن قيس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كلها ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله كقوله تعالى ولا تبسطها كل البسط الآية (إنه لا يحب المسرفين) أي لا يرتضي إسرافهم (ومن الأنعام حمولة وفرشا) شروع في تفصيل حال الأنعام وإبطال ما تقولوا على الله تعالى في شأنها بالتحريم والتحليل وهو عطف على مفعول أنشأ ومن متعلقة به أي وأنشأ من الأنعام ما يحمل عليه الأثقال وما يفرش للذبح أو ما يفرش المصنوع من شعره وصوفه ووبره وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار الدانية من الأرض كأنها فرش مفروش عليها (كلوا مما رزقكم الله) ما عبارة عما ذكر من الحمولة والفرش ومن تبعيضية أي كلوا بعض ما رزقكم الله تعالى أي حلاله وفيه تصريح بأن انشاءها لأجلهم ومصلحتهم (ولا تتبعوا) في أمر التحليل والتحريم بتقليد أسلافكم المجازفين في ذلك من تلقاء أنفسهم المفترين على الله سبحانه (خطوات الشيطان) فإن ذلك منهم باغوائه واستتباعه إياهم (إنه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (ثمانية أزواج) الزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل والمراد بها الأنواع الأربعة وإيرادها بهذا العنوان وهذا العدد تمهيداً لما سيق له الكلام من الانكار المتعلق بتحريم كل واحد من الذكر والأنثى وبما في بطنها وهو بدل من حمولة وفرشا منصوب بما نصبهما وجعله مفعولا لكلوا على أن قوله تعالى ولا تتبعوا الآية معترض بينهما أو حالا من ما بمعنى مختلفة أو متعددة يأباه جزالة النظم الكريم لظهور أنه مسوق لتوضيح

حال الأنعام بتفصيلها أولا إلى حمولة وفرش ثم بتفصيلها إلى ثمانية أزواج حاصلة من تفصيل الأولى إلى الإبل والبقر وتفصيل الثانى إلى الضأن والمعز ثم تفصيل كل من الأقسام الأربعة إلى الذكر والأنثى كل ذلك لتحرير المواد التى تقولوا فيها عليه سبحانه وتعالى بالتحليل والتحريم ثم تبكيتهم باظهار كذبهم وافترائهم فى كل مادة من تلك المواد بتوجيه الانكار إليها مفصلة وثنين فى قوله سبحانه وتعالى (مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ) بدل من ثمانية أزواج منصوب بناصبه وهو العامل فى من أى أنشأ من الضأن زوجين الكبش والنعجة وقرىء اثنان على الابتداء والضأن اسم جنس كالإبل وجمعه ضئين كأمير أو جمع ضائن كتاجر وتجر وقرىء بفتح الهمزة (وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) عطف على مثله شريك له فى حكمه أى وأنشأ من المعز زوجين التيس والعنز وقرىء بفتح العين وهو جمع ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس وقرىء ومن المعزى وهذه الأزواج الأربعة تفصيل للفرش ولعل تقديمها فى التفصيل مع تأخر أصلها فى الإجمال لكون هذين النوعين عرضة للأكل الذى هو معظم مايتعلق به الحل والحرمة وهو السر فى الاقتصار على الأمر به فى قوله تعالى كلوا مما رزقكم الله من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب وغير ذلك مما حرموه فى السائبة وأخواتها (قُلْ) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تفصيل أنواع الأنعام التى أنشأها أى قل تبكيتاً لهم وإظهاراً لانقطاعهم عن الجواب (ءَالذَّكَرَيْنِ) من ذينك النوعين وهما الكبش والتيس (حَرَّمَ) أى الله عز وجل كما تزعمون أنه هو المحرم (أَمِ الْأُنثَيَيْنِ) وهما النعجة والعنز ونصب آلذكرين والأنثيين بحرم وهو مؤخر عنهما بحسب المعنى وان توسط بينهما صورة وكذا قوله تعالى (أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ)أى أم ما حملت أناث النوعين حرم ذكراً كان أو أنثى وقوله تعالى (نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ) الخ تكرير للالزام وتثنية للتبكيت والافحام أى أخبرونى بأمر معلوم من جهة الله تعالى من الكتاب أو أخبار الأنبياء يدل على أنه تعالى حرم شيئاً مما ذكر أو نبئونى تنبئة ملتبسة بعلم صادرة عنه (إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) أى فى دعوى التحريم عليه سبحانه وقوله تعالى (وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ) عطف على قوله تعالى من الضأن اثنين أى وأنشأ من الإبل اثنين هما الجمل والناقة (وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ) ذكراً وأنثى (قُلْ) افحاما لهم فى أمر هذين النوعين أيضاً (ءَالذَّكَرَيْنِ) منهما (حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ) من ذينك النوعين والمعنى انكار أن الله سبحانه حرم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة وإظهار كذبهم فى ذلك وتفصيل ما ذكر من الذكور والأناث وما فى بطونها للمبالغة فى الرد عليهم بايراد الانكار على كل مادة من مواد افترائهم فانهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وأناثها تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى مسندين ذلك كله إلى الله سبحانه وإنما عقب تفصيل كل واحد من نوعى الصغار ونوعى الكبار بما ذكر من الأمر بالاستفهام والانكار مع حصول التبكيت بايراد الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة بأن يقال قل آلذكور حرم أم الأناث أم ما اشتملت عليه أرحام الأناث لما فى التثنية والتكرير من المبالغة فى التبكيت والالزام وقوله تعالى (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ) تكرير للافحام كقوله تعالى نبئونى بعلم وأم منقطعة ومعنى الهمزة الانكار والتوبيخ ومعنى بل الاضراب عن التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بوجه آخر أى بل أكنتم حاضرين مشاهدين (إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا) أى حين وصاكم بهذا التحريم إذ أنتم لا تؤمنون بنبى فلا طريق لكم حسبما يقود اليه مذهبكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهدة والسماع وفيه من تركيك عقولهم والتهكم بهم ما لا يخفى (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) فنسب اليه تحريم مالم يحرم والمراد كبراؤهم المقررون لذلك أو عمرو بن لحى بن قمعة وهو المؤسس لهذا الشر أو الكل لاشتراكهم فى الافتراء عليه سبحانه وتعالى أى فأى فريق أظلم من فريق افتروا الخ ولا يقدح فى أظلمية الكل كون بعضهم مخترعين له وبعضهم مقتدين بهم والفاء لترتيب ما بعدها على ماسبق من تبكيتهم وإظهار كذبهم وافترائهم أى هو أظلم من

كل ظالم وان كان المنفي صريحا الأظلمية دون المساواة كامر غير مرة (لِيُضِلَّ النَّاسَ) متعلق بالافتراء (بِغَيْرِ عِلْمٍ) متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل افترى أى افترى عليه تعالى جاهلا بصدور التحريم عنه تعالى وإنما وصفوا بعدم العلم بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدوره عنه تعالى ايذانا بخروجهم فى الظلم عن الحدود والنهايات فان من افترى عليه تعالى بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه إذا كان أظلم من كل ظالم فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدر عنه ويجوز أن يكون حالا من فاعل يضل أى ملتبسا بغير علم بما يؤدى بهم اليه (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) كائنا من كان إلى ما فيه صلاح حالهم عاجلا أو آجلا وإذا كان هذا حال المتصفين بالظلم فى الجملة فما ظنك بمن هو فى أقصى غاياته (قل) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الزام المشركين وتبكيتهم وبيان أن ما يتقولونه فى أمر التحريم افتراء بحت لا أصل له قطعا بأن يبين لهم ما حرمه عليهم وفى قوله تعالى (لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) ايذان بأن مناط الحل والحرمة هو الوحى وأنه صلى الله عليه وسلم قد تتبع جميع ما أوحى اليه وتفحص عن المحرمات فلم يجد غير ما فصل وفيه مبالغة فى بيان انحصارها فى ذلك ومحرما صفة لمحذوف أى لا أجد ريثما تصفحت ما أوحى إلى طعاما محرما من المطاعم التى حرموها (عَلَىٰ طَاعِمٍ) أى أى طاعم كان من ذكر أو أنثى ردا على قولهم محرم على أزواجنا وقوله تعالى (يَطْعَمُهُ) لزيادة التقرير (إِلَّا أَن يَكُونَ) أى ذلك الطعام (مَيْتَةً) وقرىء تكون بالتاء لتأنيث الخبر وقرىء ميتة بالرفع على أن كان تامة وقوله تعالى (أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا) حينئذ عطف على أن مع ما فى حيزه أى الا وجود ميتة أو دما مفسوحا أى مصبوبا كالدماء التى فى العروق لا كالطحال والكبد (أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ) أى الخنزير (رِجْسٌ) أى لحمه قذر لتعوده أكل النجاسات أو خبيث (أَوْ فِسْقًا) عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض مقرر لحرمته (أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) صفة له موضحة أى ذبح على اسم الأصنام وانما سمى ذلك فسقا لتوغله فى الفسوق ويجوز أن يكون فسقا مفعولا له لأهل وهو عطف على يكون والمستكن راجع إلى ما رجع اليه المستكن فى يكون (فَمَنِ اضْطُرَّ) أى أصابه الضرورة الداعية إلى أكل الميتة بوجه من الوجوه المضطرة (غَيْرَ بَاغٍ) فى ذلك على مضطر آخر مثله (وَلَا عَادٍ) قدر الضرورة (فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) مبالغ فى المغفرة والرحمة لا يؤاخذه بذلك وليس التقييد بالحال الاولى لبيان أنه لم يوجد القيد لتحققت الحرمة المبحوث عنها بل للتحذير من حرام آخر هو أخذه حق مضطر آخر فان من أخذ لحم الميتة من يد مضطر آخر فأكله فان حرمته ليست باعتبار كونه لحم الميتة بل باعتبار كونه حقا للمضطر الآخر وأما الحال الثانية فلتحقيق زوال الحرمة المبحوث عنها قطعا فان التجاوز عن القدر الذى يسد به الرمق حرام من حيث أنه لحم الميتة وفى التعرض لوصفى المغفرة والرحمة ايذان بأن المعصية باقية لكنه تعالى يغفر له ويرحمه والآية محكمة لأنها تدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يجد فيما أوحى اليه الى تلك الغاية غيره ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك فى شىء آخر فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل الأشياء التى هى غيرها الا مع الاستصحاب (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا) خاصة لا على من عداهم من الأولين والآخرين (حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ) أى كل ماله أصبع من الابل والسباع والطيور وقيل كل ذى مخلب وحافر وسمى الحافر ظفرا مجازا والمسبب عن الظلم هو تعميم التحريم حيث كان بعض ذوات الظفر حلالا لهم فلما ظلموا عم التحريم كلها وهذا تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بابطال ما يخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم فى ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر الينا (وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا) لا لحومهما فانها باقية على الحل والشحوم الثروب وشحوم الكلى والإضافة لزيادة الربط (إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا) استثناء من الشحوم

مخرج لما علق من الشحم بظهورهما عن حكم التحريم (أَوِ الْحَوَايَا) عطف على ظهورهما أى ماحملته الحوايا وهى جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء وقواصع أو حوية كسفينة وسفائن (أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ) عطف على ماحملت وهو شحم الالية واختلاطه بالعظم اتصاله بعجب الذنب وقيل هو كل شحم متصل بالعظم من الأضلاع وغيرها (ذَٰلِكَ) إشارة إلى الجزاء أو التحريم فهو على الأول نصب على أنه مصدر مؤكد لما بعده وعلى الثانى على أنه مفعول ثان له أى ذلك التحريم (جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ) بسبب ظلمهم وهو قتلهم الأنبياء بغير حق وأكلهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل كقوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وكانوا كلما أتوا بمعصية عوقبوا بتحريم شىء مما أحل لهم وهم ينكرون ذلك ويدعون أنها لم تزل محرمة على الأمم فرد ذلك عليهم وأكد بقوله تعالى (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) أى فى جميع أخبارنا التى من جملتها هذا الخبر ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل إلا ماحرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوارة كيف وقد بين فيها جميع مايحذرون أوضح بيان (فَإِنْ كَذَّبُوكَ) قيل الضمير لليهود لأنهم أقرب ذكرا ولذكر المشركين بعد ذلك بعنوان الاشراك وقيل للمشركين فالمعنى على الأول ان كذبتك اليهود فى الحكم المذكور وأصروا على ماكانوا عليه من ادعاء قدم التحريم (فَقُلْ) لهم (رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) لايؤاخذكم بكل ماتأتونه من المعاصى ويمهلكم على بعضها (وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ) بالكلية (عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) فلا تنكروا ماوقع منه تعالى من تحريم بعض الطيبات عليكم عقوبة وتشديدا وعلى الثانى فان كذبك المشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم فقل لهم ربكم ذو رحمة واسعة لايعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم فلا تغتروا بذلك فانه إمهال لا إهمال وقيل ذو رحمة للمطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقيم مقامه قوله تعالى ولا يرد بأسه الخ لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدلالة على أنه لاحق بهم البتة من غير صارف يصرفه عنهم أصلا (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) حكاية لفن آخر من كفرهم واخباره قبل وقوعه ثم وقوعه حسبما أخبر به كما يحكيه قوله تعالى عند وقوعه وقال الذين أشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شىء صريح فى أنه من عند الله تعالى (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) أى لو شاء خلاف ذلك مشيئة ارتضاء لما فعلنا الاشراك نحن (وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ) أرادوا به أن مافعلوه حق مرضى عند الله تعالى لا الاعتذار من ارتكاب هذه القبائح بارادة الله تعالى إياها منهم حتى ينتهض ذمهم به دليلا للمعتزلة ألا يرى إلى قوله تعالى (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى مثل ما كذبك هؤلاء فى أنه تعالى منع من الشرك ولم يحرم ماحرموه كذب متقدموهم الرسل فانه صريح فيما قلنا وعطف آباؤنا على الضمير للفصل بلا (حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا) الذى أنزلنا عليهم بتكذيبهم (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ) من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على مازعمتم (فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) أى فتظهروه لنا (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) أى ما تتبعون فى ذلك إلا الظن الباطل الذى لايغنى من الحق شيئا (وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) تكذبون على الله عز وجل وليس فيه دلالة على المنع من اتباع الظن على الاطلاق بل فيما يعارضه قطعى (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) الفاء جواب شرط محذوف أى وإذ قد ظهر أن لاحجة لكم فلله الحجة البالغة أى البينة الواضحة التى بلغت غاية المتانة والثبات أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه والمراد بها الكتاب والرسول والبيان وهى من الحجج بمعنى القصد كأنها تقصد اثبات الحكم وتطلبه (فَلَوْ شَاءَ) هدايتكم جميعا (لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن لم يشأ هداية الكل بل هداية البعض الصارفين هممهم إلى سلوك طريق الحق وضلال آخرين صرفوا اختيارهم إلى خلاف

ذلك من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم (قل هلم شهداءكم) أى أحضروهم وهو اسم فعل لا يتصرف على لغة أهل الحجاز وفعل يؤنث ويجمع على لغة بنى تميم على رأى الجمهور وقد خالفهم البعض فى فعليته وليس بشىء وأصله عند البصريين هالم من لم إذا قصد حذفت الألف لتقدير السكون فى اللام فانه الأصل وعند الكوفيين هل أم فحذفت الهمزة بالقاء حركتها على اللام وهو بعيد لأن هل لا تدخل الأمر ويكون متعديا كما فى الآية ولازما كما فى قوله تعالى هلم إلينا (الذين يشهدون أن الله حرم هذا) وهم قدوتهم الذين ينصرون قولهم وإنما أمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم وأنه لا متمسك لهم كمن يقلدهم ولذلك قيد الشهداء بالاضافة ووصفوا بما يدل على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم (فإن شهدوا) بعد ما حضروا بأن الله حرم هذا (فلا تشهد معهم) أى فلا تصدقهم فانه كذب بحت وافتراء صرف وبين لهم فساده فان تسليمه منهم موافقة لهم فى الشهادة الباطلة (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) من وضع المظهر مقام المضمر للدلالة على أن من كذب بآيات الله تعالى وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير وأن من اتبع الحجة لا يكون إلا مصدقا بها (والذين لا يؤمنون بالآخرة) كعبدة الأوثان عطف على الموصول الأول بطريق عطف الصفة على الصفة مع اتحاد الموصوف كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب فى المزدحم

فان من يكذب بآياته تعالى لا يؤمن بالآخرة وبالعكس (وهم بربهم يعدلون) أى يجعلون له عديلا عطف على لا يؤمنون والمعنى لا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله وبين الكفر بالآخرة وبين الاشراك به سبحانه لكن لا على أن يكون مدار النهى الجمع المذكور بل على أن أولئك جامعون لها متصفون بكلها (قل تعالوا) لما ظهر بطلان ما ادعوا من أن إشراكهم وإشراك آبائهم وتحريم ما حرموه بأمر الله تعالى ومشيئته بظهور عجزهم عن اخراج شىء يتمسك به فى ذلك وإحضار شهداء يشهدون بما ادعوا فى أمر التحريم بعد ما كلفوه مرة بعد أخرى عجزا بينا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم من المحرمات ما يقتضى الحال بيانه على الأسلوب الحكيم إيذانا بأن حقهم الاجتناب عن هذه المحرمات وأما الأطعمة المحرمة فقد بينت بقوله تعالى قل لا أجد الآية وتعال أمر من التعالى والأصل فيه أن يقوله من فى مكان عال لمن هو فى أسفل منه ثم أتسع فيه بالتعميم كما أن الغنيمة فى الأصل اصابة الغنم من العدو ثم استعملت فى إصابة كل ما يصاب منهم اتساعا ثم فى الفوز بكل مطلب من غير مشقة (أتل) جواب الأمر وقوله تعالى (ما حرم ربكم) منصوب به على أن ما موصولة والعائد محذوف أى أقرأ الذى حرمه ربكم أى الآيات المشتملة عليه أو مصدرية أى الآيات المشتملة على تحريمه أو بحرم على أنها استفهامية والجملة مفعول لأتل لأن التلاوة من باب القول كأنه قيل أقل أى شىء حرم ربكم (عليكم) متعلق بحرم على كل حال وقيل بأتل والأول أنسب بمقام الاعتناء بايجاب الانتهاء عن المحرمات المذكورة وهو السر فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميرهم فان تذكير كونه تعالى ربا لهم ومالكا لأمرهم على الاطلاق من أقوى الدواعى إلى انتهائهم عما نهاهم عنه أشد انتهاء وأن فى قوله تعالى (ألا تشركوا به) مفسرة لفعل التلاوة المعلق بما حرم ولا ناهية كما ينبىء عنه عطف ما بعده من الأوامر والنواهى عليه وليس من ضرورة كون المعطوف عليه تفسير التلاوة المحرمات بحسب منطوقه كون المعطوفات أيضا كذلك حتى يمتنع انتظام الأوامر فى سلك العطف عليه بل يكفى فى ذلك كونها تفسيرا لها باعتبار لوازمها التى هى النواهى المتعلقة بأضداد ما تعلقت هى به فان الأمر بالشىء مستلزم للنهى عن ضده بل هو عينه عند البعض كأن الأوامر ذكرت وقصد لوازمها فان عطف الأوامر على النواهى الواقعة بعد أن المفسرة لتلاوة المحرمات مع القطع بأن المأمور به لا يكون محرما

دليل واضح على أن التحريم راجع إلى الاضداد على الوجه المذكور فكأنه قيل أتل ماحرم ربكم أن لاتشركوا ولا تسيئوا إلى الوالدين خلا أنه قد أخرج مخرج الأمر بالاحسان إليهما بين النهيين المكتنفين له للمبالغة فى إيجاب مراعاة حقوقهما فان مجرد ترك الاساءة اليهما غير كاف فى قضاء حقوقهما ولذلك عقب به النهى عن الاشراك الذى هو أعظم المحرمات وأكبر الكبائر ههنا وفى سائر المواقع وقيل أن ناصبة ومحلها النصب بعليكم على أنه للاغراء وقيل النصب على البدلية مما حرم وقيل من عائدها المحذوف على أن لا زائدة وقيل الجر بتقدير اللام وقيل الرفع بتقدير المتلو أن لاتشركوا أو المحرم أن لاتشركوا بزيادة لا وقيل والذى عليه التعويل هو الأول لأمور من جملتها أن فى إخراج المفسر على صورة النهى مبالغة فى بيان التحريم وقوله تعالى (شَيْئاً) نصب على المصدرية أو المفعولية أى لاتشركوا به شيئا من الاشراك أو شيئا من الأشياء (وَبِالْوالِدَيْنِ) أى واحسنوا بهما (إِحْسٰناً) وقد مر تحقيقه (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلٰدَكُمْ) تكليف متعلق بحقوق الأولاد عقب به التكليف المتعلق بحقوق الوالدين أى لاتقتلوهم بالوأد (مِّنْ إِمْلٰقٍ) أى من أجل فقر كما فى قوله تعالى خشية املاق وقيل هذا فى الفقر الناجز وذا فى المتوقع وقوله تعالى (نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيّٰاهُمْ) استئناف مسوق لتعليل النهى وابطال سببية ما اتخذوه سببا لمباشرة المنهى عنه وضمان منه تعالى لارزاقهم أى نحن نرزق الفريقين لا أنتم فلا تخافوا الفقر بناء على عجزكم عن تحصيل الرزق وقوله تعالى (وَلا تَقْرَبُوا الْفَوٰحِشَ) كقوله تعالى ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة الآية الا أنه جىء ههنا بصيغة الجمع قصدا إلى النهى عن أنواعها ولذلك أبدل عنها قوله تعالى (مَا ظَهَرَ مِنْهٰا وَمَا بَطَنَ) أى ما يفعل منها علانية فى الحوانيت كما هو دأب أراذلهم وما يفعل سرا باتخاذ الاخدان كما هو عادة أشرافهم وتعليق النهى بقربانها اما للمبالغة فى الزجر عنها لقوة الدواعى اليها واما لان قربانها داع إلى مباشرتها وتوسيط النهى عنها بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن القتل مطلقا كما وقع فى سورة بنى إسرائيل باعتبار أنها مع كونها فى نفسها جناية عظيمة فى حكم قتل الاولاد فان أولاد الزنا فى حكم الاموات وقد قال صلى الله عليه وسلم فى حق العزل اذ ذاك وأدخفى ومن ههنا تبين أن حمل الفواحش على الكبائر مطلقا وتفسير ما ظهر منها وما بطن بما فسر به ظاهر الاثم وباطنه فيما سلف من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللّٰهُ) أى حرم قتلها بأن عصمها بالاسلام أو بالعهد فيخرج منها الحربى وقوله تعالى (إِلاّ بِالْحَقِّ) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى لاتقتلوها فى حال من الاحوال الا حال ملابستكم بالحق الذى هو أمر الشرع بقتلها وذلك بالكفر بعد الإيمان والزنا بعد الاحصان وقتل النفس المعصومة أو من أعم الاسباب أى لاتقتلوها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق وهو ما ذكر أو من أعم المصادر أى لاتقتلوها قتلا ما الا قتلا كائنا بالحق وهو القتل بأحد الامور المذكورة (ذٰلِكُمْ) اشارة إلى ما ذكر من التكاليف الخمسة وما فى ذلك من معنى البعد للايذان بعلو طبقاتها من بين التكاليف الشرعية وهو مبتدأ وقوله تعالى (وَصّٰكُمْ بِهِ) أى أمركم به ربكم أمرا مؤكدا خبره والجملة استئناف جىء به تجديدا للعهد وتأكيدا لايجاب المحافظة على ما كلفوه ولما كانت الأمور المنهى عنها مما تقضى بديهة العقول بقبحها فصلت الآية الكريمة بقوله تعالى (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أى تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح المذكورة (وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ) توجيه النهى إلى قربانه لما مر من المبالغة فى النهى عن أكله ولإخراج القربان النافع عن حكم النهى بطريق الاستثناء أى لاتتعرضوا له بوجه من الوجوه (إِلاّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) الا بالخصلة التى هى أحسن ما يكون من الحفظ والتثمير ونحو ذلك والخطاب للأولياء والأوصياء لقوله تعالى (حَتّٰى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) فانه غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهى كأنه قيل احفظوه حتى يصير بالغا رشيدا فحينئذ سلموه اليه كما فى قوله تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم

أموالهم والأشد جمع شدة كنعمة وأنعم أو شد ككلب وأكلب أو شد كصر وآصر وقيل هو مفرد كآنك (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) أى بالعدل والتسوية (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) إلا مايسعها ولا يعسر عليها وهو اعتراض جيء به عقيب الأمر بالعدل للايذان بأن مراعاة العدل كما هو عسير كأنه قيل عليكم بما فى وسعكم وماوراءه معفو عنكم (وَإِذَا قُلْتُمْ) قولا فى حكومة أو شهادة أو نحوهما (فَاعْدِلُوا) فيه (وَلَوْ كَانَ) أى المقول أو عليه (ذَا قُرْبَىٰ) أى ذا قرابة منكم ولا تميلوا نحوهم أصلا وقد مر تحقيق معنى لو فى مثل هذا الموضع مرارا (وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا) أى ماعهد اليكم من الأمور المعدودة أو أى عهد كان فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا أو ماعاهدتم الله عليه من الايمان والنذور وتقديمه للاعتناء بشأنه (ذَٰلِكُمْ) اشارة إلى مافصل من التكاليف ومعنى البعد لما ذكر فيما قبل (وَصَّاكُم بِهِ) أمركم به أمرا مؤكدا (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) تتذكرون مافى تضاعيفه وتعملون بمقتضاه وقرىء بتشديد الذال وهذه أحكام عشرة لاتختلف باختلاف الأمم والأعصار. عن ابن عباس رضى الله عنهما هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب وهن محرمات على بنى آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار وعن كعب الأحبار والذى نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شىء فى التوراة بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا الآيات (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي) اشارة إلى ماذكر فى الآيتين من الأمر والنهى قاله مقاتل وقيل إلى ماذكر فى السورة فانها بأسرها فى إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة وقرىء صراطى بفتح الياء ومعنى إضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام انتسابه اليه عليه الصلاة والسلام من حيث السلوك لا من حيث الوضع كما فى صراط الله والمراد بيان أن ما فصل من الأوامر والنواهى غير مختصة بالمتلو عليهم بل متعلقة به عليه الصلاة والسلام أيضا وأنه صلى الله عليه وسلم مستمر على العمل بها ومراعاتها وقوله تعالى (مُسْتَقِيمًا) حال مؤكدة ومحل أن مع مافى حيزها الجر بحذف لام العلة أى ولأن هذا صراطى أى مسلكى مستقيما (فَاتَّبِعُوهُ) كقوله تعالى وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا وتعليل اتباعه بكونه صراطه عليه الصلاة والسلام لا بكونه صراط الله تعالى مع أنه فى نفسه كذلك من حيث أن سلوكه صلى الله عليه وسلم فيه داع للخلق إلى الاتباع إذ بذلك يتضح عندهم كونه صراط الله عز وجل وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف وقرىء أن هذا مخففة من أن على أن اسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف وقرىء سراطى وقرىء هذا صراطى وقرىء وهذا صراط ربكم وهذا صراط ربك (وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ) الأديان المختلفة أو طرق البدع والضلالات (فَتَفَرَّقَ بِكُمْ) بحذف إحدى التاءين والباء للتعدية أى فتفرقكم حسب تفرقها إيادى سبا فهو كما ترى أبلغ من تفرقكم كما قيل من أن ذهب به لما فيه من الدلالة على الاستصحاب أبلغ من أذهبه (عَن سَبِيلِهِ) أى سبيل الله الذى لا عوج فيه ولا حرج وهو دين الاسلام الذى ذكر بعض أحكامه وقيل هو اتباع الوحى واقتفاء البرهان وفيه تنبيه على أن صراطه عليه الصلاة والسلام عين سبيل الله تعالى (ذَٰلِكُمْ) إشارة إلى ما مر من اتباع سبيله تعالى وترك اتباع سائر السبل (وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) اتباع سبل الكفر والضلالة (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) كلام مسوق من جهته تعالى تقريرا للوصية وتحقيقا لها وتمهيدا لما يعقبه من ذكر انزال القرآن المجيد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل بعد قوله تعالى ذلكم وصاكم به بطريق الاستئناف تصديقا له وتقريرا لمضمونه فعلنا ذلك ثم آتينا الخ كما أن قوله تعالى ونطبع على قلوبهم معطوف على مايدل عليه معنى أو لم يهد الخ كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ وأما عطفه على ذلكم وصاكم به ونظمه معه فى سلك الكلام الملقن كما أجمع عليه الجمهور فمما لا يليق بجزالة النظم الكريم فتدبر وثم للتراخى

فى الاخبار كما فى قولك بلغنى ماصنعت اليوم ثم ماصنعت أمس أعجب أو للتفاوت فى الرتبة كأنه قيل ذلكم وصاكم به قديما وحديثا ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى التوراة فان ايتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها أعظم من التوصية بها فقط (تَمَامًا) للكرامة والنعمة أى اتماما لها على أنه مصدر من أتم بحذف الزوائد (عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ) أى على من أحسن القيام به كائنا من كان ويؤيده أنه قرىء على الذين أحسنوا وتماما على المحسنين أو على الذى أحسن تبليغه وهو موسى عليه السلام أو تماما على ما أحسنه موسى عليه السلام أى أجاده من العلم والشرائع أى زيادة على علمه على وجه التتميم وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى على الذى هو أحسن دين وأرضاه أو آتينا موسى الكتاب تماما أى تاما كاملا على أحسن ما يكون عليه الكتب (وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ) وبيانا مفصلا لكل مايحتاج اليه فى الدين وهو عطف على تماما ونصبهما اما على العلية أو على المصدرية كما أشير اليه أو على الحالية وكذا قوله تعالى (وَهُدًى وَرَحْمَةً) وضمير (لَعَلَّهُمْ) لبنى اسرائيل المدلول عليهم بذكر موسى وايتاء الكتاب والباء فى قوله تعالى (بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ) متعلقة بقوله تعالى (يُؤْمِنُونَ) قدمت عليه محافظة على الفواصل قال ابن عباس رضى الله عنهما كى يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعذاب (وَهَٰذَا) أى الذى تليت عليكم أوامره ونواهيه أى القرآن (كِتَٰبٌ) عظيم الشأن لا يقادر قدره وقوله تعالى (أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ) أى كثير المنافع دينا ودنيا صفتان لكتاب وتقديم وصف الانزال مع كونه غير صريح لأن الكلام مع منكريه أو خبران آخران لاسم الاشارة أى أنزلناه مشتملا على فنون الفوائد الدينية والدنيوية التى فصلت عليكم طائفة منها والفاء فى قوله تعالى (فَاتَّبِعُوهُ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان عظم شأن الكتاب فى نفسه وكونه منزلا من جنابه عز وجل مستتبعا للمنافع الدينية والدنيوية موجب لاتباعه أى ايجاب (وَاتَّقُوا) مخالفته (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) بواسطة اتباعه والعمل بموجبه (أَن تَقُولُوا) علة لأنزلناه المدلول عليه بالمذكور لا لنفسه للزوم الفصل حينئذ بين العامل والمعمول بأجنبى هو مبارك وصفا كان أو خبرا أى أنزلناه كذلك كراهة أن تقولوا يوم القيامة لو لم تنزله (إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَٰبُ) الناطق بتلك الأحكام العامة لكل الأمم (عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ) كائنتين (مِن قَبْلِنَا) وهما اليهود والنصارى وتخصيص الانزال بكتابيهما لأنهما الذى اشتهر حينئذ فيما بين الكتب السماوية بالاشتمال على الأحكام لاسيما الأحكام المذكورة (وَإِن كُنَّا) ان هى المخففة من ان واللام فارقة بينها وبين النافية وضمير الشأن محذوف ومرادهم بذلك دفع ما يرد عليهم من أن نزوله عليهما لا ينافى عموم أحكامه فلم تعملوا بأحكامه العامة أى وانه كنا (عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ) لا ندرى ما فى كتابهم إذ لم يكن على لغتنا حتى نتلق منه تلك الأحكام العامة ونحافظ عليها وان لم يكن منزلا علينا وبهذا تبين أن معذرتهم هذه مع أنهم غير مأمورين بما فى الكتابين لاشتمالها على الأحكام المذكورة المتناولة لكافة الأمم كما أن قطع تلك المعذرة بانزال القرآن لاشتماله أيضا عليها لا على سائر الشرائع والأحكام فقط (أَوْ تَقُولُوا) عطف على تقولوا وقرىء كلاهما بالياء على الالتفات من خطاب فاتبعوه واتقوا (لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَٰبُ) كما أنزل عليهم (لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ) الى الحق الذى هو المقصد الأقصى أو الى ما فى تضاعيفه من جلائل الأحكام والشرائع ودقائقها لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا ولذلك تلقفنا من فنون العلم كالقصص والاخبار والخطب والاشعار ونحو ذلك طرفا صالحا ونحن أميون وقوله تعالى (فَقَدْ جَاءَكُم) متعلق بمحذوف ينبىء عنه الفاء الفصيحة اما معلل به أى لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم الخ واما شرط له أى ان صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم من كونكم اهدى من الطائفتين على تقدير نزول الكتاب عليكم فقد حصل ما فرضتم وجاءكم (بَيِّنَةٌ) واى بينة اى حجة واضحة لا يكتنه كنهها وقوله تعالى

(مِنْ رَبِّكُمْ) متعلق بجاءكم أو بمحذوف هو صفة لبينة أى بينة كائنة منه تعالى وأياً ما كان ففيه دلالة على فضلها الاضافى كما أن فى تنوينها التفخيمى دلالة على فضلها الذاتى وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة إلى ضميرهم مزيد تأكيد لايجاب الاتباع (وَهُدًى وَرَحْمَةٌ) عطف على بينة وتنوينهما أيضا تفخيمى عبر عن القرآن بالبينة ايذانا بكمال تمكنهم من دراسته ثم بالهدى والرحمة تنبيها على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم بل هو عين الهداية والرحمة (فَمَنْ أَظْلَمُ) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان مجىء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه أى وإذا كان الأمر كذلك فمن اظلم (مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ) وضع الموصول موضع ضميرهم بطريق الالتفات تنصيصا على اتصافهم بما فى حيز الصلة واشعارا بعلة الحكم واسقاطا لهم عن رتبة الخطاب وعبر عما جاءهم بآيات الله تهويلا للأمر وتنبيها على أن تكذيب أى آية كانت من آيات الله تعالى كاف فى الأظلمية فما ظنك بتكذيب القرآن المنطوى على الكل والمعنى إنكار أن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وان لم يكن سبك التركيب معرضا لانكار المساواة ونفيها فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد به حتما بحكم العرف الفاشى والاستعمال المطرد أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وقد مر مرارا (وَصَدَفَ عَنْهَا) أى صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والاضلال (سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ) الناس (عَنْ آيَاتِنَا) وعيد لهم ببيان جزاء اضلالهم بحيث يفهم منه جزاء ضلالهم أيضا ووضع الموصول موضع المضمر لتحقيق مناط الجزاء (سُوءَ الْعَذَابِ) أى العذاب السيء الشديد النكاية (بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ) أى بسبب ما كانوا يفعلون الصدف والصرف على التجدد والاستمرار وهذا تصريح بما أشعر به إجراء الحكم على الموصول من علية ما فى حيز الصلة له (هَلْ يَنْظُرُونَ) استئناف مسوق لبيان أنه لا يتأتى منهم الإيمان بانزال ما ذكر من البينات والهدى وأنهم لا يرعوون عن التمادى فى المكابرة واقتراح ما ينافى الحكمة التشريعية من الآيات الملجئة وأن الإيمان عند إتيانها مما لا فائدة له أصلا مبالغة فى التبليغ والانذار وازاحة العلل والأعذار أى ما ينتظرون (إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ) حسبما اقترحوا بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا وبقولهم أو تأتى بالله والملائكة قبيلا وبقولهم لولا أنزل عليه ملك ونحو ذلك أو الا أن تأتيهم ملائكة العذاب أو يأتى أمر ربك بالعذاب والانتظار محمول على التمثيل كما سيجىء وقرىء يأتيهم بالياء لأن تأنيث الملائكة غير حقيقى (أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) أى غير ما ذكر كما اقترحوا بقولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ونحو ذلك من عظائم الآيات التى علقوا بها إيمانهم والتعبير عنها بالبعض للتهويل والتفخيم كما أن اضافة الآيات فى الموضعين إلى اسم الرب المنبىء عن المالكية الكلية لذلك واضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقيل المراد بالملائكة ملائكة الموت وباتيانه سبحانه وتعالى إتيان كل آياته بمعنى آيات القيامة والهلاك الكلى بقرينة ما بعده من إتيان بعض آياته تعالى على أن المراد به أشراط الساعة التى هى الدخان ودابة الأرض وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب والدجال وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام ونار تخرج من عدن كما نطق به الحديث الشريف المشهور وحيث لم يكن إتيان هذه الأمور مما ينتظرونه كاتيان ما اقترحوه من الآيات فان تعليق إيمانهم باتيانها انتظار منهم له ظاهرا حمل الانتظار على التمثيل المبنى على تشبيه حالهم فى الاصرار على الكفر والتمادى فى العناد إلى أن تأتيهم تلك الأمور الهائلة التى لا بد لهم من الإيمان عند مشاهدتها البتة بحال المنتظرين لها وأنت خبير بأن النظم الكريم بسباقه المنبىء عن تماديهم فى تكذيب آيات الله تعالى وعدم الاعتداد بها وسياقه الناطق بعدم نفع الإيمان عند إتيان ما ينتظرونه يستدعى أن يحمل ذلك على أمور هائلة مخصوصة بهم اما بأن

تكون عبارة عما اقترحوه أو عن عقوبات مترتبة على جناياتهم كاتيان ملائكة العذاب وإتيان أمره تعالى بالعذاب وهو الأنسب لما سيأتى من قوله تعالى قل انتظروا انا منتظرون وأما حمله على ماذكر من إتيان ملائكة الموت وإتيان كل آيات القيامة وظهور أشراط الساعة مع شمول إتيانها الكل بر وفاجر واشتمال غائلتها على كل مؤمن وكافر فمما لا يساعده المقام على أن بعض أشراط الساعة ليس مما يسد به باب الإيمان والطاعة نعم يجوز حمل بعض الآيات فى قوله عز وجل (يوم يأتى بعض آيات ربك) على ما يعم مقترحاتهم وغيرها من الدواهى العظام السالبة للاختيار الذى عليه يدور فلك التكليف فانه بمنزلة الكبرى من الشكل الأول فيتم التقريب عند وقوعها بدخول ما ينتظرونه فى ذلك دخولا أوليا ويوم منصوب بقوله تعالى (لا ينفع) فان امتناع عمل ما بعد لا فيما قبلها عند وقوعها جواب القسم وقرىء يوم بالرفع على الابتداء والخبر هو الجملة والعائد محذوف أى لا ينفع فيه (نفسا) من النفوس (إيمانها) حينئذ لانكشاف الحال وكون الأمر عيانا ومدار قبول الإيمان أن يكون بالغيب كقوله تعالى فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا وقرىء لا تنفع بالتاء الفوقانية لاكتساب الإيمان من ملابسة المضاف اليه تأنيثا وقوله تعالى (لم تكن آمنت من قبل) أى من قبل إتيان بعض الآيات صفة لنفسا فصل بينهما بالفاعل لاشتماله على ضمير الموصوف ولا ضير فيه لانه غير أجنبى منه لاشتراكهما فى العامل (أو كسبت فى إيمانها خيرا) عطف على آمنت بايراد الترديد على النفى المفيد لكفاية أحد النفيين فى عدم النفع والمعنى أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفسا لم تقدم إيمانها أو قدمته ولم تكسب فيه خيرا ومن ضرورته اشتراط النفع بتحقق الأمرين أى الإيمان المقدم والخير المكسوب فيه معا بمعنى أن النافع هو تحققهما والإيمان المؤخر لغو وتحصيل للحاصل لا أنه هو النافع وتحققهما شرط فى نفعه كما لو كان المقدم غير المؤخر بالذات فان قولك لا ينفع الصوم والصدقة من لم يؤمن قبلهما معناه أنهما ينفعانه عند وقوعهما بعد الإيمان وقد استدل به أهل الاعتزال على عدم اعتبار الإيمان المجرد عن الأعمال وليس بناهض ضرورة صحة حمله على نفى الترديد المستلزم لعمومه المفيد بمنطوقه لاشتراط عدم النفع بعدم الأمرين معا وبمفهومه لاشتراط النفع بتحقق أحدهما بطريق منع الخلو دون الانفصال الحقيقى فالمعنى أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفسا لم يصدر عنها من قبل أحد الأمرين اما الإيمان المجرد أو الخير المكسوب فيه فيتحقق النفع بأيهما كان حسبما تنطق به النصوص الكريمة من الآيات والأحاديث وما قيل من أن عدم الإيمان السابق مستلزم لعدم كسب الخير فيه بالضرورة فيكون ذكره تكرارا بلا فائدة على أن الموجب للخلود فى النار هو العدم الأول من غير أن يكون للثانى دخل ما فى ذلك قطعا فيكون ذكره بصدد بيان ما يوجب الخلود لغوا من الكلام لغو من الكلام مبنى على توهم أن المقصود بوصف النفس بالعدمين المذكورين مجرد بيان إيجابهما للخلود فيها وعدم نفع الإيمان الحادث فى انجائها عنه وليس كذلك والا لكفى فى البيان أن يقال لا ينفع نفسا ايمانها الحادث بل المقصد الأصلى من وصفها بذينك العدمين فى أثناء بيان عدم نفع الإيمان الحادث تحقيق أن موجب النفع إحدى ملكتيهما أعنى الإيمان السابق والخير المكسوب فيه بما ذكر من الطريقة والترغيب فى تحصيلهما فى ضمن التحذير من تركهما ولا سبيل إلى أن يقال كما أن عدم الأول مستقل فى إيجاب الخلود فى النار فيلغو ذكر عدم الثانى كذلك وجوده مستقل فى إيجاب الخلاص عنها فيكون ذكر الثانى لغوا لما أنه قياس مع الفارق كيف لا والخلود فيها أمر لا يتصور فيه تعدد العلل وأما الخلاص عنها مع دخول الجنة فله مراتب بعضها مترتب على نفس الايمان وبعضها على فروعه المتفاوتة كما وكيفا وإنما لم يقتصر على بيان ما يوجب أصل النفع وهو الإيمان السابق مع أنه هو المقابل لما لا يوجبه أصلا أعنى الإيمان الحادث بل قرن به ما يوجب النفع الزائد أيضا ارشادا إلى تحرى الأعلى وتنبيها على كفاية الأدنى واقناطا للكفرة عما علقوا به

أطاعهم الفارغة من أعمال البر التي عملوها في الكفر من صلة الأرحام وإعتاق الرقاب وفك العناة وإغاثة الملهوفين وقرى الأضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم ببيان أن كل ذلك لغو بحت لابتنائه على غير أساس حسبما نطق به قوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح الآية ونحو ذلك من النصوص الكريمة وأن الايمان الحادث كما لا ينفعهم وحده لا ينفعهم بانضمام أعمالهم السابقة واللاحقة ولك أن تقول المقصود بوصف النفس بما ذكر من العدمين التعريض بحال الكفرة في تمردهم وتفريطهم في كل واحد من الأمرين الواجبين عليهم وإن كان وجوب أحدهما منوطا بالآخر كما في قوله عز وجل فلا صدق ولا صلى تسجيلا بكمال طغيانهم وإيذانا بتضاعف عقابهم لما تقرر من أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع في حق المؤاخذة كما ينبئ عنه قوله تعالى فويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة إذا تحققت هذا وقفت على أن الآية الكريمة أحق بأن تكون حجة على المعتزلة من أن تكون حجة لهم هذا وقد قيل انها من باب اللف التقديري أي لا ينفع نفسا إيمانها ولا كسبها في الايمان لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فيه وليس بواضح فان مبنى اللف التقديري أن يكون المقدر من متمات الكلام ومقتضيات المقام قد ترك ذكره تعويلا على دلالة الملفوظ عليه واقتضائه إياه كما مر في تفسير قوله عز وجل ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا فانه قد طوى في المفصل ذكر حشر المؤمنين ثقة بأنباء التفصيل عنه أعني قوله تعالى فأما الذين آمنوا الآية ولا ريب في أن ما قدر ههنا ليس مما يستدعيه قوله تعالى أو كسبت في إيمانها خيرا ولا هو من مقتضيات المقام لأنه ليس مما وعدوه وعلقوه باتيان ما ذكر من الآيات كالايمان حتى يرد عليهم ببيان عدم نفعه إذ ذاك على أن ذلك مشعر بأن لهم بعد ما أصابهم من الدواهي ما أصابهم بقاء على السلامة وزمانا يتأتى منهم الكسب والعمل فيه وفيه من الاخلال بمقام تهويل الخطب وتفظيع الحال ما لا يخفى وقد أجيب عن الاستدلال بوجوه أخرى قصارى أمرها اسقاط الآية الكريمة عن رتبة المعارضة للنصوص القطعية المتون القوية الدلالة على ما ذكر من كفاية الايمان المجرد عن العمل في الانجاء من العذاب الخالد ولو بعد اللتيا والتي لما تقرر من أن الظني بمعزل من معارضة القطعي (قل) لهم بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد (انتظروا) ما تنتظرونه من اتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أي شيء تنتظرون (إنا منتظرون) لذلك لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة وفيه تأييد لكون المراد بما ينتظرونه إتيان ملائكة العذاب أو اتيان أمره تعالى بالعذاب كما أشير اليه وعدة ضمنية لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بمعاينتهم لما يحيق بالكفرة من العقاب ولعل ذلك هو الذي شاهدوه يوم بدر والله سبحانه أعلم (إن الذين فرقوا دينهم) استئناف لبيان أحوال أهل الكتابين اثر بيان حال المشركين أي بددوه وبعضوه فتمسك بكل بعض منه فرقة منهم وقرئ فارقوا أي باينوا فان ترك بعضه وإن كان بأخذ بعض آخر منه ترك للكل ومفارقة له (وكانوا شيعا) أي فرقا تشيع كل فرقة اماما لها قال عليه الصلاة والسلام افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة واستثناء الواحدة من فرق كل من أهل الكتابين انما هو بالنظر الى العصر الماضي قبل النسخ واما بعده فالكل في الهاوية وان اختلفت اسباب دخولهم فمعنى قوله تعالى (لست منهم في شيء) لست من البحث عن تفرقهم والتعرض لمن يعاصرك منهم بالمناقشة والمؤاخذة وقيل من قتالهم في شيء سوى تبليغ الرسالة وإظهار شعائر الدين الحق الذي امرت بالدعوة اليه فيكون منسوخا بآية السيف وقوله تعالى (إنما أمرهم إلى الله) تعليل للنفي المذكور اى هو يتولى وحده أمر أولاهم وأخراهم ويدبره كيف يشاء حسبما تقتضيه الحكمة يؤاخذهم في الدنيا متى شاء ويأمر بقتالهم اذا اراد وقيل المفرقون اهل البدع

والأهواء الزائغة من هذه الأمة ويرده أنه عليه الصلاة والسلام مأمور بمؤاخذتهم والاعتذار بأن معنى لست منهم فى شىء حينئذ أنت برىء منهم ومن مذهبهم وهم برآء منك يأباه التعليل المذكور (ثُمَّ يُنَبِّئُهُم) أى يوم القيامة (بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) عبر عن إظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة فى أنهما سببان للعلم تنبيها على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته أى يظهر لهم على رؤس الأشهاد ويعلمهم أى شىء شنيع كانوا يفعلونه فى الدنيا على الاستمرار ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء وقوله تعالى (مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) استئناف مبين لمقادير أجزية العاملين وقد صدر ببيان أجزية المحسنين المدلول عليهم بذكر أضدادهم قال عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهم يريد من عمل من المصدقين حسنة كتبت له عشر حسنات أى من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة من المؤمنين إذ لا حسنة بغير إيمان فله عشر حسنات أمثالها تفضلا من الله عز وجل وقرىء عشر بالتنوين وأمثالها بالرفع على الوصف وهذا أقل ما وعد من الأضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وبسبعمائة وبغير حساب ولذلك قيل المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص (وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ) أى بالأعمال السيئة كائنا من كان من العاملين (فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا) بحكم الوعد واحدة بواحدة (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) بنقص الثواب وزيادة العقاب (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم ما هو عليه من الدين الحق الذى يدعون أنهم عليه وقد فارقوه بالكلية وتصدير الجملة بحرف التحقيق لاظهار كمال الاعتناء بمضمونها والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لمزيد تشريفه أى قل لأولئك المفرقين أرشدنى ربى بالوحى وبما نصب فى الآفاق والأنفس من الآيات التكوينية (إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) موصل إلى الحق وقوله تعالى (دِينًا) بدل من إلى صراط فان محله النصب كما فى قوله تعالى ويهديك صراطا مستقيما أو مفعول لفعل مضمر يدل عليه المذكور (قِيَمًا) مصدر نعت به مبالغة والقياس قوما كعوض فأعل لاعلال فعله كالقيام وقرىء قيما وهو فيعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من المستقيم باعتبار الزنة وإن كان هو أبلغ منه باعتبار الصيغة (مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ) عطف بيان لدينا (حَنِيفًا) حال من ابراهيم أى مائلا عن الأديان الباطلة وقوله تعالى (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) اعتراض مقرر لنزاهته عليه السلام عما عليه المفرقون لدينه من عقد وعمل أى ما كان منهم فى أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك ردا على الذين يدعون أنهم على ملته عليه السلام من أهل مكة واليهود والمشركين بقولهم عزير ابن الله والنصارى المشركين بقولهم المسيح ابن الله (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي) أعيد الأمر لما أن المأمور به متعلق بفروع الشرائع وما سبق بأصولها أى عبادتى كلها وقيل وذبحى جمع بينه وبين الصلاة كما فى قوله تعالى فصل لربك وانحر وقيل صلاتى وحجى (وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي) أى وما أنا عليه فى حياتى وما أكون عليه عند موتى من الايمان والطاعة أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى الممات كالوصية والتدبير وقرىء محياى بسكون الياء اجراء للوصل مجرى الوقف (لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ) خالصة له لا أشرك فيها غيره (وَبِذَٰلِكَ) إشارة إلى الاخلاص وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل أى بذلك الاخلاص (أُمِرْتُ) لا بشىء غيره وقوله تعالى (وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) لبيان مسارعته عليه السلام إلى الامتثال بما أمر به وأن ما أمر به ليس من خصائصه عليه السلام بل الكل مأمورون به ويقتدى به عليه السلام من أسلم منهم (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا) آخر فأشركه فى العبادة (وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) جملة حالية مؤكدة للانكار أى والحال أن كل ما سواه مربوب له مثلى فكيف يتصور أن يكون شريكا له فى المعبودية (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا) كانوا يقولون للمسلين اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم إما بمعنى ليكتب علينا ما عملتم من الخطايا لا عليكم وإما بمعنى لنحمل يوم القيامة ما كتب

عليكم من الخطايا فهذا رد له بالمعنى الأول أى لا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر حتى يتأتى ماذكرتم وقوله تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) رد له بالمعنى الثانى أى لا تحمل يومئذ نفس حاملة حمل نفس أخرى حتى يصح قولكم (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكل لتأكيد الوعد وتشديد الوعيد أى إلى مالك أموركم ورجوعكم يوم القيامة (فَيُنَبِّئُكُم) يومئذ (بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) ببيان الرشد من الغى وتمييز الحق من الباطل (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ) حيث خلفتم الأمم السالفة أو يخلف بعضكم بعضاً أو جعلكم خلفاء الله تعالى فى أرضه تتصرفون فيها على أن الخطاب عام (وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ) فى الشرف والغنى (فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ) كثيرة متفاوتة (لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ) من المال والجاه أى ليعاملكم معاملة من يبتليكم لينظر ماذا تعملون من الشكر وضده (إِنَّ رَبَّكَ) تجريد الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع إضافة اسم الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لإبراز مزيد اللطف به عليه السلام (سَرِيعُ الْعِقَابِ) أى عقابه سريع الإتيان لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله تعالى ولم يشكره لأن كل آت قريب أو سريع التمام عند إرادته لتعاليه عن استعمال المبادى والآلات (وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) لمن راعاها كما ينبغى وفى جعل خبر هذه الجملة من الصفات الذاتية الواردة على بناء المبالغة مؤكداً باللام مع جعل خبر الأولى صفة جارية على غير من هى له من التنبيه على أنه تعالى غفور رحيم بالذات مبالغ فيهما فاعل للعقوبة بالعرض مسامح فيها ما لا يخفى والله أعلم. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزلت على سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الأنعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة والله تعالى أعلم.

سورة الأعراف

(مكية غير ثمان آيات من قوله واسألهم إلى قوله وإذ نتقنا الجبل وآيها مائتان وخمس)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

(الٓمٓصٓ) اما مسرود على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الإعراب واما اسم للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والتقدير هذا المص أى مسمى به وتذكير اسم الإشارة مع تأنيث المسمى لما أن الإشارة إليه من حيث أنه مسمى بالإسم المذكور لا من حيث انه مسمى بالسورة وإنما صحت الإشارة إليه مع عدم سبق ذكره لما أنه باعتبار كونه بصدد الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد وقوله عز وجل (كِتَابٌ) على الوجه الأول خبر مبتدأ محذوف وهو ماينبىء عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف مراداً به السورة كتاب الخ أو اسم إشارة أشير به إليه تنزيلا لحضور المؤلف منه منزلة حضور نفس المؤلف أى هذا كتاب الخ وعلى الوجه الثانى خبر بعد خبر جىء به اثر بيان كونه مترجماً باسم بديع منبىء عن غرابته فى نفسه إبانة لجلالة محله ببيان كونه فرداً من أفراد الكتب الالهية حائزاً للكمالات المختصة بها وقد جوز كونه خبراً والمص مبتدأ أى المسمى بالمص كتاب وقد عرفت مافيه من أن ما يجعل عنواناً للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه عند المخاطب وإذ لا عهد بالتسمية قبل لحقها الاخبار بها (أُنزِلَ إِلَيْكَ) أى من جهته تعالى بنى الفعل للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وإيذاناً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعينه وهو السر فى ترك ذكر مبدأ الانزال كما فى قوله جل ذكره بلغ ما أنزل اليك من ربك ونظائره والجملة صفة لكتاب مشرفة له ولمن أنزل اليه وجعله خبراً له على معنى

كتاب عظيم الشأن أنزل اليك خلاف الأصل (فلا يكن في صدرك حرج) أي شك كما في قوله تعالى فان كنت في شك مما أنزلنا اليك خلا أنه عبر عنه بما يلازمه من الحرج فان الشاك يعتريه ضيق الصدر كما أن المتيقن يعتريه انشراحه وانفساحه مبالغة في تنزيه ساحته عليه الصلاة والسلام عن نسبة الشك اليه ولو في ضمن النهى فانه من الأحوال القلبية التي يستحيل اعتراؤها إياه عليه الصلاة والسلام وماقد يقع من نسبته اليه في ضمن النهى فعلى طريقة التهيج والالهاب والمبالغة في التنفير والتحذير بايهام أن ذلك من القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلا فكيف بمن يمكن ذلك منه والتنوين للتحقير والجار في قوله تعالى (منه) متعلق بحرج يقال حرج منه أى ضاق به صدره أو بمحذوف وقع صفة له أى حرج كائن منه أى لا يكن فيه شك ما في حقيته أو في كونه كتابا منزلا اليك من عنده تعالى فالفاء على الأول لترتيب النهى أو الانتهاء على مضمون الجملة فانه مما يوجب انتفاء الشك فيما ذكر بالكلية وحصول اليقين به قطعا وأما على الثاني فهي لترتيب ماذكر على الاخبار بذلك لا على نفسه فتدبر وتوجيه النهى إلى الحرج مع أن المراد نهيه عليه الصلاة والسلام عنه اما لما مر من المبالغة في تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن الشك فيما ذكر فان النهى عن الشيء مما يوهم امكان صدور المنهى عنه عن المنهى وإما للمبالغة في النهى فان وقوع الشك في صدره عليه الصلاة والسلام سبب لاتصافه عليه الصلاة والسلام به والنهى عن السبب نهى عن المسبب بالطريق البرهاني ونفى له من أصله بالمرة كما في قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الآية وليس هذا من قبيل لا أرينك ههنا فان النهى هناك وارد على المسبب مرادا به النهى عن السبب فيكون المآل نهيه عليه الصلاة والسلام عن تعاطى مايورث الحرج فتأمل وقيل الحرج على حقيقته أى لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه مخافة أن يكذبوك وأن تقصر في القيام بحقه فانه عليه الصلاة والسلام كان يخاف تكذيب قومه له وإعراضهم عنه فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له فآمنه الله تعالى ونهاه عن المبالاة بهم فالفاء حينئذ للترتيب على مضمون الجملة أو على الاخبار به فان كلا منهما موجب للاقدام على التبليغ وزوال الخوف قطعاً وإن كان إيجابه الثاني بواسطة الأول وقوله تعالى (لتنذر به) أى بالكتاب المنزل متعلق بأنزل وما بينهما اعتراض توسط بينهما تقريرا لما قبله وتمهيدا لما بعده وحسما لتوهم أن مورد الشك هو الانزال للانذار وقيل متعلق بالنهى فان انتفاء الشك في كونه منزلا من عنده تعالى موجب للانذار به قطعاً وكذا انتفاء الخوف منهم أو العلم بأنه موفق للقيام بحقه موجب للتجاسر على ذلك وأنت خبير بأنه لا يتأتى على التفسير الأول لأن تعليل النهى عن الشك بما ذكر من الانذار والتذكير مع إيهامه لإمكان صدوره عنه عليه الصلاة والسلام مشعر بأن المنهى عنه ليس محذوراً لذاته بل لافضائه إلى فوات الانذار والتذكير لا أقل من الإيذان بأن ذلك معظم غائلته ولاريب في فساده وأما على التفسير الثاني فانما يتأتى التعليل بالإنذار لا بتذكير المؤمنين إذ ليس فيه شائبة خوف حتى يجعل غاية لانتفائه وقوله تعالى (وذكرى للمؤمنين) في حيز النصب باضمار فعله معطوفا على تنذر أى وتذكر المؤمنين تذكيرا أو الجر عطفا على محل أن تنذر أى للانذار والتذكير وقيل مرفوع عطفا على كتاب أو خبر لمبتدأ محذوف وتخصيص التذكير بالمؤمنين للايذان باختصاص الانذار بالكفرة أى لتنذر به المشركين وتذكر المؤمنين وتقديم الانذار لأنه أهم بحسب المقام (اتبعوا ما أنزل إليكم) كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين بطريق التلوين وأمروا باتباع ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم قبله بتبليغه بطريق الانذار والتذكير وجعله منزلا اليهم بواسطة إنزاله اليه عليه الصلاة والسلام اثر ذكر مايصححه من الانذار والتذكير لتأكيد وجوب اتباعه وقوله تعالى (من ربكم) متعلق بأنزل على أن من لابتداء الغاية مجازاً أو بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من ضميره في الصلة وفي التعرض

لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين مزيد لطف بهم وترغيب لهم فى الامتثال بما أمروا به وتأكيد لوجوبه وجعل ما أنزل ههنا عاما للسنة القولية والفعلية بعيد نعم يعمهما حكمه بطريق الدلالة لا بطريق العبادة ولما كان اتباع ما أنزله الله تعالى اتباعا له تعالى عقب الأمر بذلك بالنهى عن اتباع غيره تعالى فقيل (وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ) أى من دون ربكم الذى أنزل اليكم مايهديكم إلى الحق ومحله النصب على أنه حال من فاعل فعل النهى أى لاتتبعوا متجاوزين الله تعالى (أَوْلِيَاءَ) من الجن والانس بأن تقبلوا منهم مايلقونه اليكم بطريق الوسوسة والإغواء من الأباطيل ليضلوكم عن الحق ويحملوكم على البدع والأهواء الزائغة أو من أولياء قدم عليه لكونه نكرة إذ لو أخر عنه لكان صفة له أى أولياء كائنة غيره تعالى وقيل الضمير للموصول على حذف المضاف فى أولياء أى ولا تتبعوا من دون ما أنزل أباطيل أولياء كأنه قيل ولا تتبعوا من دون دين ربكم دين أولياء وقرىء ولا تبتغوا كما فى قوله تعالى ومن يبتغ غير الاسلام دينا وقوله تعالى (قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) بحذف إحدى التاءين وتخفيف الذال وقرىء بتشديدها على ادغام التاء المهموسة فى الذال المجهورة وقرىء يتذكرون على صيغة الغيبة وقليلا نصب اما بما بعده على أنه نعت لمصدر محذوف مقدم للقصر أو لزمان كذلك محذوف وما مزيدة لتأكيد القلة أى تذكرا قليلا أو زمانا قليلا تذكرون لا كثيرا حيث لاتتأثرون بذلك ولا تعملون بموجبه وتتركون دين الله تعالى وتتبعون غيره ويجوز أن يراد بالقلة العدم كما قيل فى قوله تعالى فقليلا مايؤمنون والجملة اعتراض تذييلى مسوق لتقبيح حال المخاطبين والالتفات على القراءة الأخيرة للايذان باقتضاء سوء حالهم فى عدم الامتثال بالأمر والنهى صرف الخطاب عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة وامانصب على أنه حال من فاعل لاتتبعوا وما مصدرية مرتفعة به أى لاتتبعوا من دونه أولياء قليلا تذكركم لكن لا على توجيه النهى إلى المقيد فقط كما فى قوله تعالى لا تقربوا الصلوة وأنتم سكارى بل إلى المقيد والقيد جميعا وتخصيصه بالذكر لمزيد تقبيح حالهم بجمعهم بين المنكرين (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) شروع فى انذارهم بما جرى على الأمم الماضية بسبب إعراضهم عن اتباع دين الله تعالى واصرارهم على اتباع دين أوليائهم وكم خبرية للتكثير فى موضع رفع على الابتداء كما فى قولك زيد ضربته والخبر هو الجملة بعدها ومن قرية تمييز والضمير فى أهلكناها راجع إلى معنى كم أى كثير من القرى أهلكناها أو فى موضع نصب بأهلكناها كما فى قوله تعالى انا كل شىء خلقناه بقدر والمراد باهلاكها إرادة اهلاكها كما فى قوله تعالى إذا قمتم إلى الصلوة أى أردنا اهلاكها (فَجَاءَهَا) أى فجاء أهلها (بَأْسُنَا) أى عذابنا (بَيَاتًا) مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال أى بائتين كقوم لوط (أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) عطف عليه أى أو قائلين من القيلولة نصف النهار كقوم شعيب وانما حذفت الواو من الحال المعطوفة على اختها استثقالا لاجتماع العاطفين فان واو الحال حرف عطف قد استعيرت للوصل لا اكتفاء بالضمير كما فى جاءنى زيد هو فارس فانه غير فصيح وتخصيص الحالتين بالعذاب لما أن نزول المكروه عند الغفلة والدعة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة ووصف الكل بوصفى البيات والقيلولة مع أن بعض المهلكين بمعزل منهما لاسيما القيلولة للايذان بكمال غفلتهم وأمنهم (فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ) أى دعاؤهم واستغاثتهم ربهم أو ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم (إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا) عذابنا وعاينوا امارته (إِلَّا أَنْ قَالُوا) جميعا (إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) أى الا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وشهادتهم ببطلانه تحسرا عليه وندامة وطمعا فى الخلاص وهيهات ولات حين نجاة (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ) بيان لعذابهم الأخروى اثر بيان عذابهم الدنيوى خلا أنه قد تعرض لبيان مبادى أحوال المكلفين جميعا لكونه أدخل فى التهويل والفاء لترتيب الأحوال الأخروية على الدنيوية ذكرا حسب ترتبها عليها وجودا أى لنسألن الأمم القاطبة قائلين ماذا أجبتم المرسلين (وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) عما أجيبوا

قال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم والذى نفى بقوله تعالى ولا
يسأل عن ذنوبهم المجرمون سؤال الاستعلام أو الأول فى موقف الحساب والثانى فى موقف العقاب (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ)
أى على الرسل حين يقولون لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب أو عليهم وعلى المرسل اليهم جميعا ما كانوا عليه (بِعِلْمٍ)
أى عالمين بظواهرهم وبواطنهم أو بمعلومنا منهم (وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) عنهم فى حال من الأحوال فيخفى علينا شىء
من أعمالهم وأحوالهم والجملة تذييل مقرر لما قبلها (وَالْوَزْنُ) أى وزن الأعمال والتميز بين راجحها وخفيفها
وجيدها ورديئها ورفعه على الابتداء وقوله تعالى (يَوْمَئِذٍ) خبره وقوله تعالى (الْحَقُّ) صفته أى والوزن الحق
ثابت يوم إذ يكون السؤال والقص وقيل خبر مبتدا محذوف كأنه قيل ما ذلك الوزن فقيل الحق أى العدل السوى
وقرىء القسط واختلف فى كيفية الوزن والجمهور على أن صحائف الأعمال هى التى توزن بميزان له لسان وكفتان ينظر اليه
الخلائق اظهارا للمعدلة وقطعا للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وجوارحهم ويشهد عليهم الانبياء
والملائكة والاشهاد وكما يثبت فى صحائفهم فيقرءونها فى موقف الحساب ويؤيده ماروى أن الرجل يؤتى به إلى الميزان
فينشر له تسعة وتسعون سجلا مدى البصر فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة
فتطيش السجلات وتثقل البطاقة وقيل يوزن الاشخاص لما روى عنه عليه الصلاة والسلام انه ليأتى العظيم السمين يوم
القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقيل الوزن عبارة عن القضاء السوى والحكم العادل وبه قال مجاهد والاعمش
والضحاك واختاره كثير من المتأخرين بناء على أن استعمال لفظ الوزن فى هذا المعنى شائع فى اللغة والعرف بطريق الكناية
قالوا ان الميزان انما يراد به التوصل إلى معرفة مقادير الشىء ومقادير أعمال العباد لا يمكن اظهارها بذلك لانها أعراض قد
فنيت وعلى تقدير بقائها لا تقبل الوزن وقيل ان الاعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور
جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح حتى ان الذنوب والمعاصى تتجسم هناك وتتصور بصورة النار وعلى ذلك حمل قوله
تعالى وان جهنم لمحيطة بالكافرين وقوله تعالى الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وكذا قوله
عليه الصلاة والسلام فى حق من يشرب من اناء الذهب والفضة انما يجرجر فى بطنه نار جهنم ولا بعد فى ذلك ألا يرى أن العلم
يظهر فى عالم المثال على صورة اللبن كما لا يخفى على من له خبرة بأحوال الحضرات الخمس وقد روى عن ابن عباس رضى الله
تعالى عنهما أنه يؤتى بالاعمال الصالحة على صور حسنة وبالاعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع فى الميزان ان قيل
ان المكلف يوم القيامة اما مؤمن بأنه تعالى حكيم منزه عن الجور فيكفيه حكمه تعالى بكيفيات الاعمال وكمياتها واما
منكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الاعمال على بعض لخصوصيات راجعة إلى ذوات تلك الاعمال بل يسنده إلى
اظهار الله تعالى إياه على ذلك الوجه فما الفائدة فى الوزن أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذ وتظهر جميع الاشياء بحقائقها
على ماهى عليه وبأوصافها وأحوالها فى انفسها من الحسن والقبح وغير ذلك وتنخلع عن الصور المستعارة التى بها ظهرت
فى الدنيا فلا يبقى لاحد ممن يشاهدها شبهة فى أنها هى التى كانت فى الدنيا بعينها وان كل واحد منها قد ظهر فى هذه النشأة
بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته ولا يخطر بباله خلاف ذلك والله تعالى أعلم (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) تفصيل
للأحكام المترتبة على الوزن والموازين اما جمع ميزان أو جمع موزون على أن المراد به ماله وزن وقدر وهو الحسنات
فان رجحان أحدهما مستلزم لرجحان الآخر أى فمن رجحت موازينه التى توزن بها حسناته أو أعماله التى لها قدر وزنة
وعن الحسن البصرى وحق لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف (فَأُولَئِكَ)
اشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بثقل الميزان والجمعية باعتبار معناه كما أن جمع الموازين لذلك وأما ضمير موازينه

فراجع اليه باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والشرف (هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الفائزون بالنجاة والثواب وهم اما ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند اليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لأولئك وتعريف المفلحون للدلالة على أنهم الناس الذين بلغك أنهم مفلحون فى الآخرة أو اشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) أى موازين أعماله أو أعماله التى لاوزن لها ولا اعتداد بها وهى أعماله السيئة (فَأُولَٰئِكَ) اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بتلك الصفة القبيحة والجمعية ومعنى البعد لما مر آنفا فى نظيره وهو مبتدأ خبره (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) أى ضيعوا الفطرة السليمة التى فطروا عليها وقد أيدت بالآيات البينة وقوله تعالى (بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) متعلق بخسر وما مصدرية وبآياتنا متعلق بيظلمون على تضمين معنى التكذيب قدم عليه لمراعاة الفواصل والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم فى الدنيا أى فأولئك الموصوفون بخفة الموازين الذين خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم المستمر بآياتنا ظالمين (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ) لما أمر الله سبحانه أهل مكة باتباع ما أنزل اليهم ونهاهم عن اتباع غيره وبين لهم وخامة عاقبته بالاهلاك فى الدنيا والعذاب المخلد فى الآخرة ذكرهم ما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر ترغيبا فى الامتثال بالأمر والنهى اثر ترهيب أى جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ) المعايش جمع معيشة وهى ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها أو ما يتوصل به إلى ذلك والوجه فى قراءته اخلاص الياء وعن ابن عامر أنه همزة تشبيها له بصحائف ومدائن والجعل بمعنى الانشاء والابداع أى أنشأنا وأبدعنا لمصالحكم ومنافعكم فيها أسبابا تعيشون بها وكل واحد من الظرفين متعلق به أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله المنكر إذ لو تأخر لكان صفة له وتقديمهما على المفعول مع أن حقهما التأخير عنه لما مر غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر فان النفس عند تأخير ما حقه التقديم لا سيما عند كون المقدم منبئا عن منفعة للسامع تبقى مترقبة لورود المؤخر فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن وأما تقديم اللام على فى فلما أنه المنبىء عما ذكر من المنفعة فالاعتناء بشأنه أتم والمسارعة إلى ذكره أهم هذا وقد قيل ان الجعل متعد إلى مفعولين ثانيهما أحد الظرفين على أنه مستقر قدم على الأول والظرف الآخر اما لغو متعلق بالجعل أو بالمحذوف الواقع حالا من المفعول الأول كما مر وأنت خبير بأنه لا فائدة معتد بها فى الاخبار بجعل المعايش حاصلة لهم أو حاصلة فى الأرض وقوله تعالى (قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) أى تلك النعمة تذييل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم وبقية الكلام فيه عين ما مر فى تفسير قوله تعالى قليلا ما تذكرون (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ) تذكير لنعمة عظيمة فائضة على آدم عليه السلام سارية إلى ذريته موجبة لشكرهم كافة وتأخيره عن تذكير ما وقع قبله من نعمة التمكين فى الأرض اما لأنها فائضة على المخاطبين بالذات وهذه بالواسطة واما للايذان بأن كلا منهما نعمة مستقلة مستوجبة للشكر على حيالها فان رعاية الترتيب الوقوعى ربما تؤدى إلى توهم عد الكل نعمة واحدة كما ذكر فى قصة البقرة وتصدير الجملتين بالقسم وحرف التحقيق لاظهار كمال العناية بمضمونهما وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المراد بهما خلق آدم عليه السلام وتصويره حتما توفية لمقام الامتنان حقه وتأكيدا لوجوب الشكر عليهم بالرمز إلى أن لهم حظا من خلقه عليه السلام وتصويره لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه عليه السلام كسجود الملائكة له عليه السلام بل من الأمور السارية إلى ذريته جميعا إذ الكل مخلوق فى ضمن خلقه على نمطه ومصنوع على شاكلته فكأنهم الذى تعلق به خلقه وتصويره أى خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم سار اليكم جميعا (ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) صريح فى أنه ورد بعد خلقه

عليه الصلاة والسلام وتسويته ونفخ الروح فيه أمر منجز غير الأمر المعلق الوارد قبل ذلك بقوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين وهو المراد بما حكى بقوله تعالى وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم الآية في سورة البقرة وسورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من غير تعرض لوقته وكلمة ثم ههنا تقتضي تراخيه عن التصوير من غير تعرض لبيان ماجرى بينهما من الأمور وقد بينا في سورة البقرة أن ذلك ظهور فضل آدم عليه السلام بعد المحاورة المسبوقة بالاخبار باستخلافه عليه السلام حسبما نطق به قوله عز وجل وإذ قال ربك للملائكة انى جاعل في الأرض خليفة إلى قوله وما كنتم تكتمون فان ذلك أيضا من جملة مانيط به الأمر المعلق من التسوية ونفخ الروح وعدم ذكره عند الحكاية لا يقتضي عدم ذكره عند وقوع المحكي كما أن عدم ذكر الأمر المعلق عند حكاية الأمر المنجز لا يستلزم عدم مسبوقيته به فان حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة يقتضيها المقام ليست بعزيزة في الكلام العزيز فلعله قد ألقى إلى الملائكة عليهم السلام أولا جميع مايتوقف عليه الأمر المنجز اجمالا بأن قيل مثلا انى خالق بشرا من طين وجاعل إياه خليفة في الأرض فاذا سويته ونفخت فيه من روحي وتبين لكم فضله فقعوا له ساجدين فخلقه فسواه فنفخ فيه من روحه فقالوا عند ذلك ماقالوا أو ألقى اليهم خبر الخلافة بعد تحقق الشرائط المذكورة بأن قيل اثر نفخ الروح انى جاعل هذا خليفة في الأرض فهنالك ذكروا في حقه عليه السلام ماذكروا فأيده الله تعالى بتعليم الاسماء فشاهدوا منه عليه السلام ماشاهدوا فعند ذلك ورد الأمر المنجز اعتناء بشأن المأمور به وايذانا بوقته وقد حكى بعض الأمور المذكورة في بعض المواطن وبعضها في بعضها اكتفاء بما ذكر في كل موطن عما ترك في موطن آخر والذي يرفع غشاوة الاشتباه عن البصائر السليمة أن مافي سورة ص من قوله تعالى إذ قال ربك للملائكة الآيات بدل من قوله إذ يختصمون فيما قبله من قوله ماكان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون أي بكلامهم عند اختصامهم ولاريب في أن المراد بالملأ الأعلى الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس حسبما أطبق عليه جمهور المفسرين وباختصامهم ماجرى بينهم في شأن الخلافة من التقاول الذي من جملته ماصدر عنه عليه السلام من الأنباء بالأسماء ومن قضية البدلية وقوع الاختصام المذكور في تضاعيف ماشرح فيه مفصلا من الأمر المعلق وماعلق به من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه وماترتب عليه من سجود الملائكة وعناد إبليس ولعنه واخراجه من بين الملائكة وماجرى من بعده من الافعال والأقوال وإذ ليس تمام الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة إبليس وطرده من البين لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة فاذن هو بعد نفخ الروح وقبل السجود بأحد الطريقين المذكورين والله تعالى أعلم (فَسَجَدُوا) أي الملائكة عليهم السلام بعد الأمر من غير تلعثم (إِلَّا إِبْلِيسَ) استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه في فسجدوا ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنسا يتوالدون يقال لهم الجن كما مر في سورة البقرة فقوله تعالى (لَمْ يَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ) أي ممن سجد لآدم كلام مستأنف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فان عدم السجود قد يكون للتأمل ثم يقع السجود وبه علم أنه لم يقع قط وقيل منقطع فحينئذ يكون متصلا بما بعده أي لكن ابليس لم يكن من الساجدين (قال) استئناف مسوق للجواب عن سؤال نشأ من حكاية عدم سجوده كأنه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذ وبه يظهر وجه الالتفات إلى الغيبة إذ لا وجه لتقدير السؤال على وجه المخاطبة وفيه فائدة أخرى هي الاشعار بعدم تعلق المحكي بالمخاطبين كما في حكاية الخلق والتصوير (مَامَنَعَكَ أَلاتَسْجُدَ) أي أن تسجد كما وقع في سورة ص ولا مزيدة مؤكدة لمعنى الفعل الذي دخلت عليه كما في قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب منبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود وقيل الممنوع عن الشيء مصروف إلى خلافه

فالمعنى ما صرفك إلى أن لا تسجد (إِذْ أَمَرْتُكَ) قيل فيه دلالة على أن مطلق الأمر للوجوب والفور وفى سورة الحجر يا إبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين وفى سورة ص مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى واختلاف العبارات عند الحكاية يدل على أن اللعين قد أدمج فى معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الأمر ومفارقة الجماعة والاباء عن الانتظام فى سلك أولئك المقربين والاستكبار مع تحقير آدم عليه السلام وقد وبخ حينئذ على كل واحدة منها لكن اقتصر عند الحكاية فى كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاء بما ذكر فى موطن آخر وإشعاراً بأن كل واحدة منها كافية فى التوبيخ وإظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأساً فى سورة البقرة وسورة بنى إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه (قَالَ) استئناف كما سبق مبنى على سؤال نشأ من حكاية التوبيخ كأنه قيل فماذا قال اللعين عند ذلك فقيل قال (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ) متجانفاً عن تطبيق جوابه على السؤال بأن يقول منعنى كذا مدعياً لنفسه بطريق الاستئناف شيئاً بين الاستلزام لمنعه من السجود على زعمه ومشعراً بأن من شأنه هذا لا يحسن أن يسجد لمن دونه فكيف يحسن أن يؤمر به كما ينبىء عنه ما فى سورة الحجر من قوله لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون فهو أول من أسس بنيان التكبر واخترع القول بالحسن والقبح العقليين وقوله تعالى (خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) تعليل لما ادعاه من فضله عليه ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أى بغير واسطة على وجه الاعتناء به وما من جهة الصورة كما نبه عليه بقوله تعالى ونفخت فيه من روحى وما من جهة الغاية وهو ملاك الأمر ولذلك أمر الملائكة بسجوده عليه السلام حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة فى الارض وأن له خواص ليست لغيره وفى الآية دليل على الكون والفساد وأن الشياطين أجسام كائنة ولعل اضافة خلق البشر إلى الطين والشياطين إلى النار باعتبار الجزء الغالب (قَالَ) استئناف كما سلف والفاء فى قوله تعالى (فَاهْبِطْ مِنْهَا) لترتيب الامر على ما ظهر من اللعين من مخالفة الامر وتعليله بالاباطيل وإصراره على ذلك أى فاهبط من الجنة والاضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى عدن لا فى جنة الخلد وقيل من زمرة الملائكة المعززين فان الخروج من زمرتهم هبوط وأى هبوط وفى سورة الحجر فاخرج منها وأما ما قيل من أن المراد الهبوط من السماء فيرده أن وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد فلابد أن يحمل على أحد الوجهين قطعاً وتكون وسوسته على الوجه الاول بطريق النداء من باب الجنة كما روى عن الحسن البصرى وقوله تعالى (فَمَا يَكُونُ لَكَ) أى فما يصح ولا يستقيم لك ولا يليق بشأنك (أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا) أى فى الجنة أو فى زمرة الملائكة تعليل للأمر بالهبوط فان عدم صحة أن يتكبر فيها علة للأمر المذكور فانها مكان المطيعين الخاشعين ولا دلالة فيه على جواز التكبر فى غيرها وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأنه تعالى إنما طرده لتكبره لا لمجرد عصيانه وقوله تعالى (فَاخْرُجْ) تأكيد للأمر بالهبوط متفرع على علته وقوله تعالى (إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) تعليل للامر بالخروج مشعر بأنه لتكبره أى من الاذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أوليائه لتكبرك وعن عمر رضى الله عنه من تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش نعشك الله ومن تكبر وعدا طوره وهصه الله الى الارض (قَالَ) استئناف كما مر مبنى على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فماذا قال اللعين بعد ما سمع هذا الطرد المؤكد فقيل قال (أَنْظِرْنِى) أى أمهلنى ولا تمتنى (إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وهو وقت النفخة الثانية وأراد اللعين بذلك أن يجد فسحة من اغوائهم ويأخذ منهم ثاره وينجو من الموت لاستحالته بعد البعث (قَالَ) استئناف كما سلف (إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ) وورود الجواب بالجملة

الاسمية مع التعرض لشمول ماسأله لآخرين على وجه يشعر بأن السائل تبع لهم فى ذلك صريح فى أنه اخبار بالانظار المقدر لهم أزلا لا انشاء لانظار خاص به إجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت إذبه يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل أى انك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية إلى وقت فناء غير ما استثناه الله تعالى من الخلائق وهو النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذى هو المسئول وقد ترك التوقيت للايجاز ثقة بما وقع فى سورة الحجر وسورة ص كما ترك ذكر النداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ماذكر فيهما بقوله عز وجل رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم وفى انظاره ابتلاء للعباد وتعريض للثواب ان قلت لاريب فى أن الكلام المحكى له عند صدوره عن المتكلم حالة مخصوصة تقتضى وروده على وجه خاص من وجوه النظم بحيث لو أخل بشىء من ذلك سقط الكلام عن رتبة البلاغة البتة فالكلام الواحد المحكى على وجوه شتى ان اقتضى الحال وروده على وجه معين من تلك الوجوه الواردة عند الحكاية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى رتبة البلاغة دون ماعداه من الوجوه إذا تمهد هذا فنقول لا يخفى أن استنظار اللعين إنما صدر عنه مرة واحدة لا غير فمقامه ان اقتضى اظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على ماحاق به من اللعن والطرد على نهج استدعاء الجبر فى مقابلة الكسر كما هو المتبادر من قوله رب فأنظرنى حسبما حكى عنه فى السورتين فما حكى ههنا يكون بمعزل من المطابقة لمقتضى الحال فضلا عن العروج إلى معارج الاعجاز قلنا مقام استنظاره مقتض لما ذكر من اظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على الحرمان المدلول عليه بالطرد والرجم وكذا مقام الانظار مقتض لترتيب الاخبار بالانظار على الاستنظار وقد طبق الكلام عليه فى تينك السورتين وفى كل واحد من مقامى الحكاية والمحكى جميعا حظه وأما ههنا فحيث اقتضى مقام الحكاية مجرد الاخبار بالاستنظار والانظار سيقت الحكاية على نهج الايجاز والاختصار من غير تعرض لبيان كيفية كل واحد منهما عند المخاطبة والحوار ان قلت فاذن لا يكون ذلك نقلا للكلام على ماهو عليه ولا مطابقا لمقتضى المقام قلنا الذى يجب اعتباره فى نقل الكلام إنما هو أصل معناه ونفس مدلوله الذى يفيده وأما كيفية إفادته له فليس مما يجب مراعاته عند النقل البتة بل قد تراعى وقد لا تراعى حسب اقتضاء المقام ولا يقدح فى أصل الكلام تجريده عنها بل قد يراعى عند نقله كيفيات وخصوصيات لم يراعها المتكلم أصلا ولا يخل ذلك بكون المنقول أصل المعنى ألا يرى أن جميع المقالات المنقولة فى القرآن الكريم إنما تحكى بكيفيات واعتبارات لا يكاد يقدر على مراعاتها من تكلم بها حتما وإلا لأمكن صدور الكلام المعجز عن البشر فيما إذا كان المحكى كلاما وأما عدم مطابقته لمقتضى الحال فمنشؤه الغفلة عما يجب توفير مقتضاه من الأحوال فان ملاك الأمر هو مقام الحكاية وأما مقام وقوع المحكى فان كان مقتضاه موافقا لمقتضى مقام الحكاية يوفى كل واحد من المقامين حقه كما فى سورة الحجر وسورة ص فان مقام الحكاية فيهما لما كان مقتضيا لبسط الكلام وتفصيله على الكيفيات التى وقع عليها روعى حق المقامين معا وأما فى هذه السورة الكريمة فحيث اقتضى مقام الحكاية الايجاز روعى جانبه ألا يرى أن المخاطب المنكر إذا كان ممن لا يفهم الا أصل المعنى وجب على المتكلم أن يجرد كلامه عن التأكيد وسائر الخواص والمزايا التى يقتضيها المقام ويخاطبه بما يناسبه من الوجوه لكنه مع ذلك يجب أن يقصد معنى زائدا يفهمه سامع آخر بليغ هو تجريده عن الخواص رعاية لمقتضى حال المخاطب فى الفهم وبذلك يرتقى كلامه عن رتبة أصوات الحيوانات كما حقق فى مقامه فاذا وجب مراعاة مقام الحكاية مع افضائها إلى تجريد الكلام عن الخواص والمزايا بالمرة فما ظنك بوجوب مراعاته مع تحلية الكلام بمزايا أخر يرتقى بها إلى رتبة الاعجاز لاسيما إذا وفى حق مقام وقوع المحكى فى السورتين الكريمتين وكان هذا الايجاز مبنيا عليه وثقة به (قال) استئناف كأمثاله

(فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي) الباء للقسم كما فى قوله تعالى فبعزتك لأغوينهم فان اغوائه تعالى اياه أثر من آثار قدرته عز وجل وحكم من أحكام سلطانه تعالى فمآل الاقسام بهما واحد فلعل اللعين أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر والفاء لترتيب مضمون الجملة على الانظار وما مصدرية أى فأقسم باغوائك اياى (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ) أو للسببية على أن الباء متعلقة بفعل القسم المحذوف لا بقوله لاقعدن لهم كما فى الوجه الأول فان اللام تصد عن ذلك أى فبسبب اغوائك اياى لأجلهم أقسم بعزتك لأقعدن لآدم وذريته ترصدا بهم كما يقعد القطاع للقطع على السابلة (صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) الموصل إلى الجنة وهو دين الإسلام فالقعود مجاز متفرع على الكناية وانتصابه على الظرفية كما فى قوله:

كما عسل الطريق الثعلب وقيل على نزع الجار تقديره على صراتك كقولك ضرب زيد الظهر والبطن (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) أى من الجهات الأربع التى يعتاد هجوم العدو منها مثل قصده اياهم للتسويل والاضلال من أى وجه يتيسر باتيان العدو من الجهات الأربع ولذلك لم يذكر الفوق والتحت وعن ابن عباس رضى الله عنهما من بين أيديهم من قبل الآخرة ومن خلفهم من جهة الدنيا وعن أيمانهم وعن شمائلهم من جهة حسناتهم وسيئاتهم وقيل من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز منه ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم ومن حيث لا يتيسر لهم ذلك وانما عدى الفعل إلى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما متوجه اليهم وإلى الآخرين بحرف المجاوزة فان الآتى منهما كالمنحرف المتجافى عنهم المار على عرضهم ونظيره جلست عن يمينه (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) أى مطيعين وإنما قاله ظنا لقوله تعالى ولقد صدق عليهم إبليس ظنه لما رأى منهم مبدأ الشر متعددا ومبدأ الخير واحدا وقيل سمعه من الملائكة عليهم السلام (قَالَ) استئناف كما سلف مرارا (اخْرُجْ مِنْهَا) أى من الجنة أو من السماء أو من بين الملائكة (مَذْءُومًا) أى مذموما من ذأمه إذا ذمه وقرىء مذوما كمسول فى مسئول أو كمكول فى مكيل من ذامه يذيمه ذيما (مَدْحُورًا) مطرودا (لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ) اللام موطئة للقسم وجوابه (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ) وهو ساد مسد جواب الشرط وقرى لمن تبعك بكسر اللام على أنه خبر لاملأن على معنى لمن تبعك هذا الوعيد أو علة لاخرج ولأملأن جواب قسم محذوف ومعنى منكم منك ومنهم على تغليب المخاطب (وَيَا آدَمُ) أى وقلنا كما وقع فى سورة البقرة وتصدير الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلقى المأمور به وتخصيص الخطاب به عليه السلام للايذان بأصالته فى تلقى الوحى وتعاطى المأمور به (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) هو من السكن الذى هو عبارة عن اللبث والاستقرار والاقامة لا من السكون الذى هو ضد الحركة ضمير أكد به المستكن ليصح العطف عليه والفاء فى قوله تعالى (فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا) لبيان المراد بما فى سورة البقرة من قوله تعالى وكلا منها رغدا حيث شئتما من أن ذلك كان جمعا مع الترتيب وقوله تعالى من حيث شئتما فى معنى منها حيث شئتما ولم يذكر ههنا رغدا ثقة بما ذكر هناك وتوجيه الخطاب اليهما لتعميم التشريف والايذان بتساويهما فى مباشرة المأمور به فان حواء أسوة له عليه السلام فى حق الأكل بخلاف السكن فانها تابعة له فيه ولتعليق النهى بهما صريحا فى قوله تعالى (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) وقرىء هذى وهو الأصل لتصغيره على ذيا والهاء بدل من الياء (فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) اما جزم على العطف أو نصب على الجواب (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ) أى فعل الوسوسة لأجلهما أو تكلم لهما كلاما خفيا متداركا متكررا وهى فى الأصل الصوت الخفى كالهينمة والخشخشة ومنه وسوس الحلى وقد سبق بيان كيفية وسوسته فى سورة البقرة (لِيُبْدِيَ لَهُمَا) أى ليظهر لهما واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما ولذلك عبر عنهما بالسوأة

وفيه دليل على أن كشف العورة فى الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن فى الطباع (مَا وُورِىَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءٰتِهِمَا) ماغطى وستر عنهما من عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر وانما لم تقلب الواو المضمومة همزة فى المشهورة كما قلبت فى أويصل تصغير واصل لأن الثانية مدة وقرىء سواتهما بحذف الهمزة والقاء حركتها على الواو وبقلبها واوا وإدغام الواو الساكنة فيها (وَقَالَ) عطف على وسوس بطريق البيان (مَا نَهٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ) أى عن أكلها (إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ) أى إلا كراهة أن تكونا ملكين (أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخٰلِدِينَ) الذين لا يموتون أو يخلدون فى الجنة وليس فيه دلالة على أفضلية الملائكة عليهم السلام لما أن من المعلوم أن الحقائق لا تنقلب وإنما كانت رغبتهما فى أن يحصل لهما أوصاف الملائكة من الكمالات الفطرية والاستغناء عن الاطعمة والأشربة وذلك بمعزل من الدلالة على الافضلية بالمعنى المتنازع فيه (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النّٰصِحِينَ) أى أقسم لهما وصيغة المغالبة للمبالغة وقيل أقسما له بالقبول وقيل قالا له أتقسم بالله انك لمن الناصحين وأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة (فَدَلّٰهُمَا) فنزلهما على الأكل من الشجرة وفيه تنبيه على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية فان التدلية والادلاء ارسال الشىء من الأعلى إلى الأسفل (بِغُرُورٍ) بما غرهما به من القسم فانهما ظنا أن أحدا لا يقسم بالله كاذبا أو ملتبسين بغرور (فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءٰتُهُمَا) أى فلما وجدا طعمها آخذين فى الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما واختلف فى أن الشجرة كانت السنبلة أو الكرم أو غيرهما وأن اللباس كان نورا أو ظفرا (وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ) طفق من أفعال الشروع والتلبس كأخذ وجعل وأنشأ وعلق وهب وانبرى أى أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة (عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) قيل كان ذلك ورق التين وقرىء يخصفان من أخصف أى يخصفان أنفسهما ويخصفان من التخصيف ويخصفان أصله يختصفان (وَنَادٰهُمَا رَبُّهُمَا) مالك أمرهما بطريق العتاب والتوبيخ (أَلَمْ أَنْهَكُمَا) وهو تفسير للنداء فلا محل له من الاعراب أو معمول لقول محذوف أى وقال أو قائلا ألم أنهكما (عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ) ما فى اسم الاشارة من معنى البعد لما أنه اشارة إلى الشجرة التى نهى عن قربانها (وَأَقُلْ لَكُمَا) عطف على أنهكما أى ألم أقل لكما (إِنَّ الشَّيْطٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ) وهذا عتاب وتوبيخ على الاغترار بقول العدو كما أن الأول عتاب على مخالفة النهى قيل فيه دليل على أن مطلق النهى للتحريم ولكما متعلق بعدو لما فيه من معنى الفعل أو بمحذوف هو حال من عدو ولم يحك هذا القول ههنا وقد حكى فى سورة طه بقوله تعالى ان هذا عدو لك ولزوجك الآية . روى أنه تعالى قال لآدم ألم يكن فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة فقال بلى وعزتك ولكن ماظننت أن أحدا من خلقك يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدا فأهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وعجن وخبز (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا) أى ضررناها بالمعصية والتعريض للاخراج من الجنة (وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا) ذلك (وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ) وهو دليل على أن الصغائر يعاقب عليها ان لم تغفر وقالت المعتزلة لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر ولذلك حملوا قولهما ذلك على عادات المقربين فى استعظام الصغير من السيئات واستصغار العظيم من الحسنات (قَالَ) استئناف كما مر مرارا (اهْبِطُوا) خطاب لآدم وحواء وذريتهما أو لهما ولابليس كرر الأمر له تبعا لهما ليعلم أنهم قرناء أبدا أو أخبر عما قال لهم مفرقا كما فى قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ولم يذكر ههنا قبول توبتهما ثقة بما ذكر فى سائر المواضع (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) جملة حالية من فاعل اهبطوا أى متعادين (وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ) أى استقرار أو موضع استقرار (وَمَتٰعٌ) أى تمتع وانتفاع (إِلٰى حِينٍ) هو حين انقضاء آجالكم (قَالَ) أعيد

الاستئناف اما للايذان بعدم اتصال مابعده بما قبله كما فى قوله تعالى قال فما خطبكم أيها المرسلون اثر قوله تعالى قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون وقوله تعالى قال أرأيتك هذا الذى كرمت على بعد قوله تعالى قال أأسجد لمن خلقت طينا واما لإظهار الاعتناء بمضمون مابعده من قوله تعالى (فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) أى للجزاء كقوله تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (يَٰبَنِي ءَادَمَ) خطاب للناس كافة وإيرادهم بهذا العنوان مما لايخفى سره (قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً) أى خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة منها ونظيره وأنزل لكم من الأنعام الخ وقوله تعالى وأنزلنا الحديد (يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ) التى قصد ابليس ابداءها من أبويكم حتى اضطر إلى خصف الأوراق وأنتم مستغنون عن ذلك وروى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عرايا ويقولون لانطوف بثياب عصينا الله تعالى فيها فنزلت ولعل ذكر قصة آدم عليه السلام حينئذ للايذان بأن انكشاف العورة أول سوء أصاب الانسان من قبل الشيطان وأنه أغواهم فى ذلك كما أغوى أبويهم (وَرِيشاً) ولباساً تتجملون به والريش الجمال وقيل مالا ومنه تريش الرجل أى تمول وقرىء رياشاً وهو جمع ريش كشعب وشعاب (وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ) أى خشية الله تعالى وقيل الإيمان وقيل السمت الحسن وقيل لباس الحرب ورفعه بالابتداء خبره جملة (ذَٰلِكَ خَيْرٌ) أو خير وذلك صفته كأنه قيل ولباس التقوى المشار إليه خير وقرىء ولباس التقوى بالنصب عطفا على لباسا (ذَٰلِكَ) أى إنزال اللباس (مِنْ ءَايَٰتِ اللهِ) دالة على عظيم فضله وعميم رحمته (لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) فيعرفون نعمته أو يتعظون فيتورعون عن القبائح (يَٰبَنِي ءَادَمَ) تكرير النداء للايذان بكمال الاعتناء بمضمون ماصدر به وإيرادهم بهذا العنوان مما لايخفى سببه (لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ) أى لايوقعنكم فى الفتنة والمحنة بأن يمنعكم من دخول الجنة (كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ) نعت لمصدر محذوف أى لايفتننكم فتنة مثل إخراج أبويكم وقد جوز أن يكون التقدير لايخرجنكم بفتنته إخراجا مثل إخراجه لأبويكم والنهى وإن كان متوجها إلى الشيطان لكنه فى الحقيقة متوجه إلى المخاطبين كما فى قولك لاأرينك ههنا وقد مر تحقيقه مراراً (يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا) حال من أبويكم أو من فاعل أخرج وإسناد النزع اليه للتسبيب وصيغة المضارع لاستحضار الصورة وقوله تعالى (إِنَّهُ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ) أى جنوده وذريته استئناف لتعليل النهى وتأكيد التحذير منه (مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) من لابتداء غاية الرؤية وحيث ظرف لمكان انتفاء الرؤية ولاترونهم فى محل الجر باضافة الظرف إليه ورؤيتهم لنا من حيث لانراهم لاتقتضى امتناع رؤيتنا لهم مطلقا واستحالة تمثلهم لنا (إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَٰطِينَ) جعل قبيله من جملته فجمع (أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) أى جعلناهم بما أوجدنا بينهم من المناسبة أو بارسالهم عليهم وتمكينهم من اغوائهم وحملهم على ماسولوا لهم أولياء أى قرناء مسلطين عليهم والجملة تعليل آخر للنهى وتأكيد للتحذير اثر تحذير (وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً) جملة مبتدأة لامحل لها من الإعراب وقد جوز عطفها على الصلة والفاحشة الفعلة المتناهية فى القبح والتاء لأنها جارية على الموصوف المؤنث أو للنقل من الوصفية إلى الإسمية والمراد بها عبادة الأصنام وكشف العورة فى الطواف ونحوهما (قَالُوا) جوابا للناهين عنها (وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا) محتجين بأمرين تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه ولعل تقديم المقدم للايذان منهم بأن آباءهم إنما كانوا يفعلونه بأمر الله تعالى بها على أن ضمير أمرنا لهم ولآبائهم فحينئذ يظهر وجه الإعراض عن الأول فى رد مقالتهم بقوله تعالى (قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ) فان عادته تعالى جارية على الأمر بمحاسن الأعمال والحث على مراضى الخصال ولا دلالة فيه على أن قبح الفعل بمعنى ترتب الذم عليه عاجلا والعقاب آجلا عقلى فان المراد بالفاحشة ماينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم وقيل هما جوابا سؤالين مترتبين كأنه قيل لما فعلوها لم فعلتم فقالوا وجدنا عليها

آباءنا فقيل لم فعلها آباؤكم فقالوا الله أمرنا بها وعلى الوجهين يمنع التقليد إذا قام الدليل بخلافه لا مطلقا (أتقولون على الله ما لا تعلمون) من تمام القول المأمور به والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وتوجيه الانكار والتوبيخ إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون صدوره عنه تعالى مع أن بعضهم يعلمون عدم صدوره عنه تعالى مبالغة فى انكار تلك الصورة فان اسناد ما لم يعلم صدوره عنه تعالى اليه تعالى إذا كان منكرا فاسناد ما علم عدم صدوره عنه اليه عز وجل أشد قبحا وأحق بالانكار (قل أمر ربى بالقسط) بيان للمأمور به اثر نفى ما أسند أمره اليه تعالى من الأمور المنهى عنها والقسط العدل وهو الوسط من كل شىء المتجافى عن طرفى الافراط والتفريط (وأقيموا وجوهكم) وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها أو أقيموا وجوهكم نحو القبلة (عند كل مسجد) فى كل وقت سجود أو مكان سجود هو الصلاة أو فى أى مسجد حضرتكم الصلاة عنده ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم (وادعوه) واعبدوه (مخلصين له الدين) أى الطاعة فان مصيركم اليه بالآخرة (كما بدأكم) أى أنشأكم ابتداء (تعودون) اليه باعادته فيجازيكم على أعمالكم وإنما شبه الإعادة بالابداء تقرير الإمكانها والقدرة عليها وقيل كما بدأكم من التراب تعودون اليه وقيل حفاة عراة غرلا تعودون اليه وقيل كما بدأكم مؤمنا وكافرا يعيدكم (فريقا هدى) بأن وفقهم للايمان (وفريقا حق عليهم الضلالة) بمقتضى القضاء السابق التابع للمشيئة المبنية على الحكم البالغة وانتصابه بفعل مضمر يفسره ما بعده أى وخذل فريقا (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) تعليل لخذلانه أو تحقيق لضلالتهم (ويحسبون أنهم مهتدون) فيه دلالة على أن الكافر المخطىء والمعاند سواء فى استحقاق الذم وللفارق أن يحمله على المقصر فى النظر (يا بنى آدم خذوا زينتكم) أى ثيابكم لمواراة عورتكم (عند كل مسجد) أى طواف أو صلاة ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة وفيه دليل على وجوب ستر العورة فى الصلاة (وكلوا واشربوا) مما طاب لكم. روى أن بنى عامر كانوا فى أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فهم المسلمون بمثله فنزلت (ولا تسرفوا) بتحريم الحلال أو بالتعدى إلى الحرام أو بالإفراط فى الطعام والشره عليه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وقال على بن الحسين بن واقد جمع الله الطب فى نصف آية فقال كلوا واشربوا ولا تسرفوا (إنه لا يحب المسرفين) أى لا يرتضى فعلهم (قل من حرم زينة الله) من الثياب وما يتجمل به (التى أخرج لعباده) من النبات كالقطن والكتان والحيوان كالحرير والصوف والمعادن كالدروع (والطيبات من الرزق) أى المستلذات من المآكل والمشارب وفيه دليل على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات الاباحة لأن الاستفهام فى من انكارى (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) بالاصالة والكفرة وإن شاركوهم فيها فبالتبع (خالصة يوم القيامة) لا يشاركهم فيها غيرهم وانتصابه على الحالية وقرىء بالرفع على أنه خبر بعد خبر (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) أى مثل هذا التفصيل نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما فى تضاعيفها من المعانى الرائقة (قل إنما حرم ربى الفواحش) أى ما تفاحش قبحه من الذنوب وقيل ما يتعلق منها بالفروج (ما ظهر منها وما بطن) بدل من الفواحش أى جهرها وسرها (والإثم) أى ما يوجب الاثم وهو تعميم بعد تخصيص وقيل هو شرب الخمر (والبغى) أى الظلم أو الكبر أفرد بالذكر للمبالغة فى الزجر عنه (بغير الحق) متعلق بالبغى مؤكد له معنى (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) تهكم بالمشركين وتنبيه على تحريم اتباع ما لا يدل عليه برهان (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) بالالحاد فى صفاته والافتراء عليه كقولهم والله أمرنا بها وتوجيه التحريم إلى قولهم عليه تعالى ما لا يعلمون وقوعه لا ما يعلمون عدم وقوعه قد مر سره (ولكل أمة) من الأمم المهلكة (أجل) حد معين من الزمان مضروب

لمهلكهم (فإذا جاء أجلهم) ان جعل الضمير للأمم المدلول عليها بكل أمة فاظهار الأجل مضافا اليه لافادة المعنى المقصود الذى هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيئه إياها بواسطة اكتساب الأجل بالإضافة عموما يفيده معنى الجمعية كأنه قيل إذا جاءهم آجالهم بأن يجىء كل واحدة من تلك الأمم أجلها الخاص بها وإن جعل لكل أمة خاصة كما هو الظاهر فالإظهار فى موقع الإضمار لزيادة التقرير والإضافة إلى الضمير لإفادة أكمل التمييز أى إذا جاءها أجلها الخاص بها (لا يستأخرون) عن ذلك الأجل (ساعة) أى شيئا قليلا من الزمان فانها مثل فى غاية القلة منه أى لا يتأخرون أصلا وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك مع طلبهم له (ولا يستقدمون) أى ولا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع إمكانه فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا كما فى قوله سبحانه وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع ظهور أن لا توبة له رأسا قد نظم فى عدم القبول فى سلك من سوفها إلى حضور الموت إيذانا بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة وقيل المراد بالمجىء الدنو بحيث يمكن التقدم فى الجملة كمجىء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة فيه وليس بذاك وتقديم بيان انتفاء الاستيخار لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب وأما ما فى قوله تعالى ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون من سبق السبق فى الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير اهلاكهم مع استحقاقهم له حسبما ينبىء عنه قوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون فالأهم هناك بيان انتفاء السبق (يبنى ءادم) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى كافة الناس اهتماما بشأن ما فى حيزه (إما يأتينكم) هى ان الشرطية ضمت اليها ما لتأكيد معنى الشرط ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة وفيه تنبيه على أن إرسال الرسل أمر جائز لا واجب عقلا (رسل منكم) الجار متعلق بمحذوف هو صفة لرسل أى كائنون من جنسكم وقوله (يقصون عليكم ءايتى) صفة أخرى لرسل أى يبينون لكم أحكامى وشرائعى وقوله تعالى (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) جملة شرطية وقعت جوابا للشرط أى فمن اتقى منكم التكذيب وأصلح عمله فلا خوف الخ وكذا قوله تعالى (والذين كذبوا بئايتنا واستكبروا عنها أولئك أصحب النار هم فيها خلدون) أى والذين كذبوا منكم بآياتنا وإيراد الاتقاء فى الأول للايذان بأن مدار الفلاح ليس مجرد عدم التكذيب بل هو الاتقاء والاجتناب عنه وإدخال الفاء فى الجزاء الأول دون الثانى للمبالغة فى الوعد والمسامحة فى الوعيد (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بئايته) أى تقول عليه تعالى مالم يقله أو كذب ما قاله أى هو أظلم من كل ظالم وقد مر تحقيقه مرارا (أولئك) إشارة إلى الموصول والجمع باعتبار معناه كما أن أفراد الفعلين باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للايذان بتماديهم فى سوء الحال أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الافتراء والتكذيب (ينالهم نصيبهم من الكتب) أى مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار وقيل الكتاب اللوح أى مما أثبت لهم فيه وأيا ما كان فمن الابتدائية متعلقة بمحذوف وقع حالا من نصيبهم أى ينالهم نصيبهم كائنا من الكتاب وقيل نصيبهم من العذاب وسواد الوجه وزرقة العيون وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كتب لمن يفترى على الله سواد الوجه قال تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة وقوله تعالى (حتى إذا جاءتهم رسلنا) أى ملك الموت وأعوانه (يتوفونهم) أى حال كونهم متوفين لأرواحهم يؤيد الأول فان حتى وإن كانت هى التى يبتدأ بها الكلام لكنها غاية لما قبلها فلا بد أن يكون نصيبهم مما يتمتعون بها إلى حين وفاتهم أى ينالهم نصيبهم من الكتاب إلى أن يأتيهم ملائكة الموت فاذا جاءتهم (قالوا) لهم (أين ما كنتم تدعون من دون الله) أى أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا وما وقعت موصولة بأين فى

خط المصحف وحقها الفصل لأنها موصولة (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية سؤال الرسل كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا (ضلوا عنا) أى غابوا عنا أى لاندرى مكانهم (وشهدوا على أنفسهم) عطف على قالوا أى اعترفوا على أنفسهم (أنهم كانوا) أى فى الدنيا (كافرين) عابدين لما لا يستحق العبادة أصلا حيث شاهدوا حاله وضلاله ولعله أريد بوقت مجىء الرسل وحال التوفى الزمان الممتد من ابتداء المجىء والتوفى إلى انتهائه يوم الجزاء بناء على تحقق المجىء والتوفى فى كل ذلك الزمان بقاء وإن كان حدوثهما فى أوله فقط أو قصد بيان غاية سرعة وقوع البعث والجزاء كأنهما حاصلان عند ابتداء التوفى كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام من مات فقد قامت قيامته وإلا فهذا السؤال والجواب وما ترتب عليهما من الأمر بدخول النار وما جرى بين أهلها من التلاعن والتقاول إنما يكون بعد البعث لا محالة (قال) أى الله عز وجل يوم القيامة بالذات أو بواسطة الملك (ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم) أى كائنين من جملة أمم مصاحبين لهم (من الجن والإنس) يعنى كفار الأمم الماضية من النوعين (فى النار) متعلق بقوله ادخلوا (كلما دخلت أمة) من الأمم السابقة واللاحقة فيها (لعنت أختها) التى ضلت بالاقتداء بها (حتى إذا اداركوا فيها جميعا) أى تداركوا وتلاحقوا فى النار (قالت أخراهم) دخولا أو منزلة وهم الاتباع (لأولاهم) أى لأجلهم إذ الخطاب مع الله تعالى لا معهم (ربنا هؤلاء أضلونا) سنوا لنا الضلال فاقتدينا بهم (فآتهم عذابا ضعفا) أى مضاعفا (من النار) لأنهم ضلوا وأضلوا (قال لكل ضعف) أما القادة فلما ذكر من الضلال والإضلال وأما الاتباع فلكفرهم وتقليدهم (ولكن لا تعلمون) أى مالكم ومالكل فريق من العذاب وقرىء بالياء (وقالت أولاهم) أى مخاطبين (لأخراهم) حين سمعوا جواب الله تعالى لهم (فما كان لكم علينا من فضل) أى فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وإنا وإياكم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب (فذوقوا العذاب) أى العذاب المعهود المضاعف (بما كنتم تكسبون) من قول القادة (إن الذين كذبوا بآياتنا) مع وضوحها (واستكبروا عنها) أى عن الايمان بها والعمل بمقتضاها (لا تفتح لهم أبواب السماء) أى لا تقبل أدعيتهم ولا أعمالهم أو لا تعرج اليها أرواحهم كما هو شأن أدعية المؤمنين وأعمالهم وأرواحهم والتاء فى تفتح لتأنيث الأبواب والتشديد لكثرتها وقرىء بالتخفيف وبالتخفيف والياء وقرىء على البناء للفاعل ونصب الأبواب على أن الفعل للآيات وبالياء على أنه لله تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) أى حتى يدخل ما هو مثل فى عظم الجرم فيما هو علم فى ضيق المسلك وهو ثقبة الابرة وفى كون الجمل مما ليس من شأنه الولوج فى سم الابرة مبالغة فى الاستبعاد وقرىء الجمل كالقمل والجمل كالنغر والجمل كالقفل والجمل كالنصب والجمل كالحبل وهى الحبل الغليظ من القنب وقيل حبل السفينة وسم بالضم والكسر وقرىء فى سم المخيط وهو الخياط أى ما يخاط به كالحزام والحزم (وكذلك) أى ومثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزى المجرمين) أى جنس المجرمين وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا (لهم من جهنم مهاد) أى فراش من تحتهم والتنوين للتفخيم ومن تجريدية (ومن فوقهم غواش) أى أغطية والتنوين للبدل عن الاعلال عند سيبويه وللصرف عند غيره وقرىء غواش على الغاء المحذوف كما فى قوله تعالى وله الجوار المنشآت (وكذلك) ومثل ذلك الجزاء الشديد (نجزى الظالمين) عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعارا بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بكل واحد من ذينك الوصفين القبيحين وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة والظلم مع التعذيب بالنار للتنبيه على أنه أعظم الجرائم والجرائر (والذين آمنوا) أى بآياتنا أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيدخل فيه الآيات دخولا أوليا وقوله تعالى (وعملوا الصالحات) أى الأعمال الصالحة التى شرعت بالآيات وهذا بمقابلة

الاستكبار عنها (لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) اعتراض وسط بين المبتدأ الذى هو الموصول والخبر الذى هو جملة (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) للترغيب فى اكتساب مايؤدى إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله وتيسر تحصيله وقرىء لاتكلف نفس واسم الإشارة مبتدأ وأصحاب الجنة خبره والجملة خبر للمبتدا الأول أو اسم الاشارة بدل من المبتدا الأول الذى هو الموصول والخبر أصحاب الجنة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل والشرف (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) حال من أصحاب الجنة وقد جوز كونه حالا من الجنة لاشتماله على ضميرها والعامل معنى الاضافة أو اللام المقدرة أو خبر ثان لأولئك على رأى من جوزه وفيها متعلق بخالدون (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ) أى نخرج من قلوبهم أسباب الغل أو نطهرها منه حتى لايكون بينهم إلا التوادد وصيغة الماضى للايذان بتحققه وتقرره وعن على رضى الله تعالى عنه انى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ) زيادة فى لذتهم وسرورهم والجملة حال من الضمير فى صدورهم والعامل اما معنى الاضافة واما العامل فى المضاف أو حال من فاعل نزعنا والعامل نزعنا وقيل هى مستأنفة للاخبار عن صفة أحوالهم (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا) أى لما جزاؤه هذا (وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ) أى لهذا المطلب الأعلى أو لمطلب من المطالب التى هذا من جملتها (لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) ووفقنا له واللام لتأكيد النفى وجواب لولا محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه ومفعول نهتدى وهدانا الثانى محذوف لظهور المراد أو لإرادة التعميم كما أشير اليه والجملة مستأنفة أو حالية وقرىء ماكنا لنهتدى الخ بغير واو على أنها مبينة ومفسرة للاولى (لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا) جواب مقسم مقدر قالوه تبجحا واغتباطا بما نالوه وابتهاجا بايمانهم بما جاءتهم الرسل عليهم السلام والباء فى قوله تعالى (بِالْحَقِّ) اما للتعدية فهى متعلقة بجاءت أو للملابسة فهى متعلقة بمقدر وقع حالا من الرسل أى والله لقد جاؤا بالحق أو لقد جاؤا ملتبسين بالحق (وَنُودُوا) أى نادتهم الملائكة عليهم السلام (أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ) أن مفسرة لما فى النداء من معنى القول أو مخففة من أن وضمير الشأن محذوف ومعنى البعد فى اسم الاشارة اما لأنهم نودوا عند رؤيتهم اياها من مكان بعيد واما لرفع منزلتها وبعد رتبتها واما للاشعار بأنها تلك الجنة التى وعدوها فى الدنيا (أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فى الدنيا من الأعمال الصالحة أى أعطيتموها بسبب أعمالكم أو بمقابلة أعمالكم والجملة حال من الجنة والعامل معنى الاشارة على أن تلكم الجنة مبتدأ وخبر أو الجنة صفة والخبر أورثتموها (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ) تبجحا بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيرا لهم لا لمجرد الاخبار بحالهم والاستخبار عن حال مخاطبيهم (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا) حيث نلنا هذا المنال الجليل (فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا) حذف المفعول من الفعل الثانى اسقاطا لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد وقيل لأن ماساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصا بهم وعدا كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة فانهم قد وجدوا جميع ذلك حقا وإن لم يكن وعده مخصوصا بهم (قَالُوا نَعَمْ) أى وجدناه حقا وقرىء بكسر العين وهى لغة فيه (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ) قيل هو صاحب الصور (بَيْنَهُمْ) أى بين الفريقين (أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) بأن المخففة أو المفسرة وقرىء بأن المشددة ونصب لعنة وقرىء إن بكسر الهمزة على ارادة القول أو اجراء أذن مجرى قال (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) صفة مقررة للظالمين أو رفع على الذم أو نصب عليه (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) أى يبغون لها عوجا بأن يصفوها بالزيغ والميل عن الحق وهو أبعد شىء منهما والعوج بالكسر فى المعانى والأعيان مالم يكن منتصبا وبالفتح ما كان فى المنتصب كالرمح والحائط (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ) غير معترفين (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ) أى بين الفريقين كقوله تعالى فضرب بينهم بسور أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر

احداهما إلى الأخرى (وَعَلَى الأَعْرَافِ) أى على أعراف الحجاب وأعاليه وهو السور المضروب بينهما جمع عرف مستعار من عرف الفرس وقيل العرف ما ارتفع من الشىء فانه بظهوره أعرف من غيره (رِجَالٌ) طائفة من الموحدين قصروا فى العمل فيجلسون بين الجنة والنار حتى يقضى الله تعالى فيهم ما يشاء وقيل قوم علت درجاتهم كالأنبياء والشهداء والأخيار والعلماء من المؤمنين أو ملائكة يرون فى صور الرجال (يَعْرِفُونَ كُلاً) من أهل الجنة والنار (بِسِيمَاهُمْ) بعلامتهم التى أعلمهم الله تعالى بها كبياض الوجه وسواده فعلى من سام إبله اذا أرسلها فى المرعى معلمة أو من وسم بالقلب كالجاه من الوجه وإنما يعرفون ذلك بالالهام أو بتعليم الملائكة (وَنَادَوْا) أى رجال الأعراف (أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) حين رأوهم (أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) بطريق الدعاء والتحية أو بطريق الاخبار بنجاتهم من المكاره (لَمْ يَدْخُلُوهَا) حال من فاعل نادوا أو من مفعوله وقوله تعالى (وَهُمْ يَطْمَعُونَ) حال من فاعل يدخلوها أى نادوهم وهم لم يدخلوها حال كونهم طامعين فى دخولها مترقبين له أى لم يدخلوها وهم فى وقت عدم الدخول طامعون (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ) أى إلى جهتهم وفى عدم التعرض لتعلق أنظارهم بأصحاب الجنة والتعبير عن تعلق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف اشعار بأن التعلق الأول بطريق الرغبة والميل الثانى بخلافه (قَالُوا) متعوذين بالله تعالى من سوء حالهم (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أى فى النار وفى وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذى هو الموجب للدعاء اشعار بأن المحذور عندهم ليس نفى العذاب فقط بل مع ما يوجبه ويؤدى اليه من الظلم (وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ) كرر ذكرهم مع كفاية الاضمار لزيادة التقرير (رِجَالاً) من رؤساء الكفرة حين رأوهم فيما بين أصحاب النار (يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ) الدالة على سوء حالهم يومئذ وعلى رياستهم فى الدنيا (قالوا) بدل من نادى (مَا أَغْنَى عَنْكُمْ) ما اما استفهامية للتوبيخ والتقريع أو نافية (جَمْعُكُمْ) أى أتباعكم وأشياعكم أو جمعكم للمال (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ) ما مصدرية أى ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم المستمر عن قبول الحق أو على الخلق وهو الأنسب بما بعده وقرىء تستكثرون من الكثرة أى من الأموال والجنود (أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ) من تتمة قولهم للرجال والاشارة إلى ضعفاء المؤمنين الذين كانت الكفرة يحتقرونهم فى الدنيا ويحلفون صريحا أنهم لا يدخلون الجنة أو يفعلون ما ينبىء عن ذلك كما فى قوله تعالى أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى أولئك المذكورين أى ادخلوا الجنة على رغم أنوفهم (لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ) بعد هذا (وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ) أو قيل لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة بفضل الله تعالى بعد أن حبسوا وشاهدوا أحوال الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا والاظهر أن لا يكون المراد بأصحاب الأعراف المقصرين فى العمل لأن هذه المقاولات وما تتفرع هى عليه من المعرفة لا يليق بمن لم يتعين حاله بعد وقيل لما عيروا أصحاب النار أقسموا أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة فقال الله تعالى أو الملائكة ردا عليهم أهؤلاء الخ وقرىء ادخلوا ودخلوا على الاستئناف وتقديره دخلوا الجنة مقولا فى حقهم لا خوف عليكم (ونادى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار واطمأنت به الدار (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ) أى صبوه وفيه دلالة على أن الجنة فوق النار (أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) من سائر الأشربة ليلائم الافاضة أو من الأطعمة على أن الافاضة عبارة عن الاعطاء بكثرة (قالوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالوا فقيل قالوا (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) أى منعهم منعا كليا فلا سبيل إلى ذلك قطعا (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا) كتحريم البحيرة والسائبة ونحوهما والتصدية حول البيت واللهو صرف الهم إلى ما لا يحسن أن يصرف اليه واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) بزخارفها العاجلة (فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ) نفعل

بهم ما يفعل الناس بالمنسى من عدم الاعتداد بهم وتركهم فى النار تركا كليا والفاء فى فاليوم فصيحة وقوله تعالى (كما نسوا لقاء يومهم هذا) فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى ننساهم نسيانا مثل نسيانهم لقاء يومهم هذا حيث لم يخطروه ببالهم ولم يعتدوا له وقوله تعالى (وما كانوا بآياتنا يجحدون) عطف على ما نسوا أى وكما كانوا منكرين بأنها من عند الله تعالى انكارا مستمرا (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه) أى بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ والضمير للكفرة قاطبة والمراد بالكتاب الجنس أو للمعاصرين منهم والكتاب هو القرآن (على علم) حال من فاعل فصلناه أى عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيما أو من مفعوله أى مشتملا على علم كثير وقرىء فضلناه أى على سائر الكتب عالمين بفضله (هدى ورحمة) حال من المفعول (لقوم يؤمنون) لأنهم المغتنمون لآثاره المقتبسون من أنواره (هل ينظرون إلا تأويله) أى ما ينتظر هؤلاء الكفرة بعدم إيمانهم به إلا ما يؤول اليه أمره من تبين صدقه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد (يوم يأتى تأويله) وهو يوم القيامة (يقول الذين نسوه من قبل) أى تركوه ترك المنسى من قبل اتيان تأويله (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أى قد تبين أنهم قد جاؤا بالحق (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) اليوم ويدفعوا عنا العذاب (أو نرد) أى هل نرد إلى الدنيا وقرىء بالنصب عطفا على فيشفعوا أو لأن أو بمعنى إلى أن فعلى الأول المسؤل أحد الأمرين اما الشفاعة لدفع العذاب أو الرد إلى الدنيا وعلى الثانى أن يكون لهم شفعاء اما لأحد الأمرين أو لأمر واحد هو الرد (فنعمل) بالنصب على أنه جواب الاستفهام الثانى وقرىء بالرفع أى فنحن نعمل (غير الذى كنا نعمل) أى فى الدنيا (قد خسروا أنفسهم) بصرف أعمارهم التى هى رأس مالهم إلى الكفر والمعاصى (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى ظهر بطلان ما كانوا يفترونه من أن الاصنام شركاء الله تعالى وشفعاؤهم يوم القيامة (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) شروع فى بيان مبدأ الفطرة اثر بيان معاد الكفرة أى ان خالقكم ومالككم الذى خلق الاجرام العلوية والسفلية فى ستة أوقات كقوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره أو فى مقدار ستة أيام فان المتعارف أن اليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها ولم تكن هى حينئذ وفى خلق الأشياء مدرجا مع القدرة على ابداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الأمور (ثم استوى على العرش) أى استوى أمره واستولى وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف والمعنى أنه تعالى استوى على العرش على الوجه الذى عناه منزها عن الاستقرار والتمكن والعرش الجسم المحيط بسائر الأجسام سمى به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فان الامور والتدابير تنزل منه وقيل الملك (يغشى الليل النهار) أى يغطيه به ولم يذكر العكس للعلم به أو لأن اللفظ يحتملهما ولذلك قرىء بنصب الليل ورفع النهار وقرىء بالتشديد للدلالة على التكرار (يطلبه حثيثا) أى يعقبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما شىء والحثيث فعيل من الحث وهو صفة مصدر محذوف أو حال من الفاعل أو من المفعول بمعنى حاثا أو محثوثا (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) أى خلقهن حال كونهن مسخرات بقضائه وتصريفه وقرىء كلها بالرفع على الابتداء والخبر (ألا له الخلق والأمر) فانه الموجد للكل والمتصرف فيه على الاطلاق (تبارك الله رب العالمين) أى تعالى بالوحدانية فى الألوهية وتعظم بالتفرد فى الربوبية وتحقيق الآية الكريمة والله تعالى أعلم أن الكفرة كانوا متخذين أربابا فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد هو الله تعالى لأنه الذى له الخلق والامر فانه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الافلاك ثم زينها بالشمس والقمر والنجوم كما أشار اليه بقوله تعالى فقضاهن سبع سموات فى يومين وعمد إلى الاجرام السفلية فخلق جسما قابلا للصور المتبدلة والهيئات المختلفة ثم قسمها لصور نوعية متباينة الآثار والافعال وأشار اليه بقوله تعالى وخلق الارض فى يومين أى ما فى جهة السفل

فى يومين ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولا وتصويرها ثانيا كما قال بعد قوله تعالى خلق الأرض فى يومين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام أى مع اليومين الأولين لما فصل فى سورة السجدة ثم لما تم له عالم الملك عمد إلى تدبيره كالملك الجالس على سريره فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالى والأيام ثم صرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال تعالى ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ثم أمر بأن يدعوه مخلصين متذللين فقال (ادْعُوا رَبَّكُمْ) الذى قد عرفتم شئونه الجليلة (تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) أى ذوى تضرع وخفية فإن الإخفاء دليل الإخلاص (إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) أى لا يحب دعاء المجاوزين لما أمروا به فى كل شىء فيدخل فيه الاعتداء فى الدعاء دخولا أوليا وقد نبه به على أن الداعى يجب أن لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء والصعود إلى السماء وقيل هو الصياح فى الدعاء والإسهاب فيه وعن النبى صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ثم قرأ إنه لا يحب المعتدين (وَلا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ) بالكفر والمعاصى (بَعْدَ إِصْلاحِها) ببعث الأنبياء عليهم السلام وشرع الأحكام (وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً) أى ذوى خوف نظرا إلى قصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطمع نظر إلى سعة رحمته ووفور فضله وإحسانه (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) فى كل شىء ومن الإحسان فى الدعاء أن يكون مقرونا بالخوف والطمع وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الرحم أو لأنه صفة لمحذوف أى أمر قريب أو على تشبيهه بفعيل الذى هو بمعنى مفعول أو الذى هو مصدر كالنقيض والصهيل أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره أو لاكتسابه التذكير من المضاف إليه كما أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه (وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّياحَ) عطف على الجملة السابقة وقرىء الريح (بُشْراً) تخفيف بشر جمع بشير أى مبشرات وقرىء بفتح الباء على أنه مصدر بشره بمعنى باشرات أو للبشارة وقرىء نشرا بالنون المضمومة جمع نشور أى ناشرات ونشرا على أنه مصدر فى موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فإن الإرسال والنشر متقاربان (بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ) قدام رحمته التى هى المطر فإن الصبا تثير السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه (حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ) أى حملت واشتقاقه من القلة فإن المقل للشىء يستقله (سَحاباً ثِقالاً) بالماء جمعه لأنه بمعنى السحائب (سُقْناهُ) أى السحاب وإفراد الضمير لإفراد اللفظ (لِبَلَدٍ مَيِّتٍ) أى لأجله ولمنفعته أو لإحيائه أو لسقيه وقرىء ميت (فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ) أى بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح والتذكير بتأويل المذكور وكذلك قوله تعالى (فَأَخْرَجْنا بِهِ) ويحتمل أن يعود الضمير إلى الماء وهو الظاهر وإذا كان للبلد فالباء للإلصاق فى الأول والظرفية فى الثانى وإذا كان لغيره فهى للسببية (مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ) أى من كل أنواعها (كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى) الإشارة إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميت أى كما نحييه بإحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) بطرح إحدى التاءين أى تتذكرون فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا من غير شبهة (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ) أى الأرض الكريمة التربة (يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ) بمشيئته وتيسيره عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لأنه أوقعه فى مقابلة قوله تعالى (وَالَّذِى خَبُثَ) من البلاد كالسبخة والحرة (لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً) قليلا عديم النفع ونصبه على الحال والتقدير والبلد الذى خبث لا يخرج نباته إلا نكدا فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصار مرفوعا مستترا وقرىء لا يخرج إلا نكدا أى لا يخرجه البلد إلا نكدا فيكون إلا نكدا مفعوله وقرىء نكدا على المصدر أى ذا نكد ونكدا

بالاسكان للتخفيف (كذلك) أى مثل ذلك التصريف البديع (نصرف الآيات) أى نرددها ونكررها (لقوم يشكرون) نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها ويعتبرون بها وهذا كما ترى مثل لارسال الرسل عليهم السلام بالشرائع التى هى ماء حياة القلوب إلى المكلفين المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها والمحرومين من مغانم آثارها وقد عقب ذلك بما يحققه ويقرره من قصص الأمم الخالية بطريق الاستئناف فقيل (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) هو جواب قسم محذوف أى والله لقد أرسلنا الخ واطراد استعمال هذه اللام مع قد لكون مدخولها مظنة للتوقع الذى هو معنى قد فان الجملة القسمية إنما تساق لتأكيد الجملة المقسم عليها ونوح هو ابن لمك بن متوشلح بن أخنوخ وهو ادريس النبى عليهما السلام . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين سنة من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا ومائتين وأربعين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة (فقال يا قوم اعبدوا الله) أى اعبدوه وحده وترك التقييد به للايذان بأنها العبادة حقيقة وأما العبادة بالاشراك فليست من العبادة فى شىء وقوله تعالى (مالكم من إله غيره) أى من مستحق للعبادة استئناف مسوق لتعليل العبادة المذكورة أو الأمر بها وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله الذى هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية وقرىء بالجر باعتبار لفظه وقرىء بالنصب على الاستثناء وحكم غير حكم الاسم الواقع بعد الا أى مالكم من اله الا إياه كقولك ما فى الدار من أحد الا زيد أو غير زيد فمن اله ان جعل مبتدأ فلكم خبره أو خبره محذوف ولكم للتخصيص والتبيين أى مالكم فى الوجود أو فى العالم اله غير الله (إنى أخاف عليكم) أى ان لم تعبدوه حسبما أمرت به (عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة أو يوم الطوفان والجملة تعليل للعبادة ببيان الصارف عن تركها اثر تعليلها ببيان الداعى اليها ووصف اليوم بالعظم لبيان عظم ما يقع فيه وتكميل الانذار (قال الملأ من قومه) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قوله عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالوا له عليه الصلاة والسلام فى مقابلة نصحه فقيل قال الرؤساء من قومه والاشراف الذين يملؤن صدور المحافل بأجرامهم والقلوب بجلالهم وهيبتهم والابصار بجمالهم وأبهتهم (إنا لنراك فى ضلال) أى ذهاب عن طريق الحق والصواب والرؤية قلبية ومفعولاها الضمير والظرف (مبين) بين كونه ضلالا (قال) استئناف كما سبق (يا قوم) ناداهم باضافتهم اليه استمالة لقلوبهم نحو الحق (ليس بى ضلالة) أى شىء ما من الضلال قصد عليه الصلاة والسلام تحقيق الحق فى نفى الضلال عن نفسه ردا على الكفرة حيث بالغوا فى اثباته له عليه الصلاة والسلام حيث جعلوه مستقرا فى الضلال الواضح كونه ضلالا وقوله تعالى (ولكنى رسول من رب العالمين) استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه فى أقصى مراتب الهداية فان رسالة رب العالمين مستلزمة له لامحالة كأنه قيل ليس بى شىء من الضلال ولكنى فى الغاية القاصية من الهداية ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف هو صفة لرسول مؤكدة لما يفيده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى رسول وأى رسول كائن من رب العالمين (أبلغكم رسالات ربى) استئناف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها وأحوالها وقيل صفة أخرى لرسول على طريقة أنا الذى سمتنى أمى حيدره وقرىء أبلغكم من الابلاغ وجمع الرسالات لاختلاف أوقاتها أو لتنوع معانيها أو لان المراد بها ما أوحى اليه والى النبيين من قبله وتخصيص ربوبيته تعالى به عليه الصلاة والسلام بعد بيان عمومها للعالمين للاشعار بعلة الحكم الذى هو تبليغ رسالته تعالى اليهم فان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته تعالى

اليهم (وَأَنصَحُ لَكُمْ) عطف على أبلغكم مبين لكيفية أداء الرسالة وزيادة اللام مع تعدى النصح بنفسه للدلالة على امحاض النصيحة لهم وأنها لمنفعتهم ومصلحتهم خاصة وصيغة المضارع للدلالة على تجدد نصيحته لهم كما يعرب عنه قوله تعالى رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا وقوله تعالى (وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) عطف على ماقبله وتقرير لرسالته عليه الصلاة والسلام أى أعلم من جهة الله تعالى بالوحى مالا تعلمونه من الأمور الآتية أو أعلم من شئونه عز وجل وقدرته القاهرة وبطشه الشديد على أعدائه وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين مالا تعلمونه قيل كانوا لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا غافلين آمنين لا يعلمون ماعلمه نوح عليه السلام بالوحى (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ) جواب ورد لما اكتفى عن ذكره بقولهم انا لنراك فى ضلال مبين من قولهم ما نراك الا بشرا مثلنا وقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل أاستبعدتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر أى وحى أو موعظة من مالك أموركم ومربيكم (عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ) أى على لسان رجل من جنسكم كقوله تعالى ما وعدتنا على رسلك وقلتم لأجل ذلك ماقلتم من أن الله تعالى لو شاء لأنزل ملائكة (لِيُنْذِرَكُمْ) علة للمجىء أى ليحذركم عاقبة الكفر والمعاصى (وَلِتَتَّقُوا) عطف على العلة الأولى مترتبة عليها (وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) عطف على العلة الثانية مترتبة عليها أى ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم وفائدة حرف الترجى التنبيه على عزة المطلب وأن التقوى غير موجب للرحمة بل هى منوطة بفضل الله تعالى وأن المتقى ينبغى أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن عذاب الله عز وجل (فَكَذَّبُوهُ) فتموا على تكذيبه فى دعوى النبوة وما نزل عليه من الوحى الذى بلغه اليهم وأنذرهم بما فى تضاعيفه واستمروا على ذلك هذه المدة المتطاولة بعد ما كرر عليه الصلاة والسلام عليهم الدعوة مرارا فلم يزدهم دعاؤه الا فرارا حسبما نطق به قوله تعالى رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات إذ هو الذى يعقبه الانجاء والاغراق لا مجرد التكذيب (فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ) من المؤمنين قيل كانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة وقيل تسعة أبناؤه الثلاثة وستة ممن آمن به وقوله تعالى (فِي الْفُلْكِ) متعلق بالاستقرار فى الظرف أى استقروا معه فى الفلك أو صحبوه فيه أو بفعل الانجاء أى أنجيناهم فى السفينة ويجوز أن يتعلق بمضمر وقع حالا من الموصول أو من ضميره فى الظرف (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) أى استمروا على تكذيبها وليس المراد بهم الملأ المتصدين للجواب فقط بل كل من أصر على التكذيب منهم ومن أعقابهم وتقديم ذكر الانجاء على الاغراق للمسارعة إلى الاخبار به والايذان بسبق الرحمة التى هى مقتضى الذات وتقدمها على الغضب الذى يظهر أثره بمقتضى جرائمهم (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ) عمى القلوب غير مستبصرين قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد وقرىء عامين والأول أدل على الثبات والقرار (وَإِلَى عَادٍ) متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا فى قصة نوح عليه السلام وهو الناصب لقوله تعالى (أَخَاهُمْ) أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم أى واحدا منهم فى النسب لا فى الدين كقولهم يا أخا العرب وقيل العامل فيهما الفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا والأول هو الأولى وأياما كان فلعل تقديم المجرور ههنا على المفعول الصريح للحذار عن الاضمار قبل الذكر يرشدك إلى ذلك ما سيأتى من قوله تعالى ولوطا الخ فان قومه لما لم يعهدوا باسم معروف يقتضى الحال ذكره عليه السلام مضافا اليهم كما فى قصة عاد وثمود ومدين خولف فى النظم الكريم بين قصته عليه السلام وبين القصص الثلاث وقوله تعالى (هُودًا) عطف بيان لأخاهم وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن عم أبى عاد وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله فى صدقه وأمانته

وأقرب إلى اتباعه (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية إرساله عليه السلام إليهم كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال (يا قوم اعبدوا الله) أى وحده كما يعرب عنه قوله (ما لكم من إله غيره) فإنه استئناف جار مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل لها أو للأمر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئا إذ ليس لكم إله سواه وغيره بالرفع صفة لإله باعتبار محله وقرىء بالجر حملا له على لفظه (أفلا تتقون) انكار واستبعاد لعدم اتقائهم عذاب الله تعالى بعد ما علموا ما حل بقوم نوح والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا تتفكرون أو أتغفلون فلا تتقون فالتوبيخ على المعطوفين معا أو أتعلمون ذلك فلا تتقون فالتوبيخ على المعطوف فقط وفى سورة هود أفلا تعقلون ولعله عليه السلام خاطبهم بكل منهما وقد اكتفى بحكاية كل منهما فى موطن عن حكايته فى موطن آخر كما لم يذكر ههنا ماذكر هناك من قوله تعالى إن أنتم إلا مفترون وقس على ذلك حال بقية ماذكر وما لم يذكر من أجزاء القصة بل حال نظائره فى سائر القصص لاسيما فى المحاورات الجارية فى الأوقات المتعددة والله أعلم (قال الملأ الذين كفروا من قومه) استئناف كما مر وإنما وصف الملأ بالكفر إذ لم يكن كلهم على الكفر كملأ قوم نوح بل كان منهم من آمن به عليه السلام ولكن كان يكتم إيمانه كمرثد بن سعد وقيل وصفوا به لمجرد الذم (إنا لنراك فى سفاهة) أى متمكنا فى خفة عقل راسخا فيها حيث فارقت دين آبائك ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (وإنا لنظنك من الكاذبين) أى فيما ادعيت من الرسالة قالوه لعراقتهم فى التقليد وحرمانهم من النظر الصحيح (قال) مستعطفا لهم ومستميلا لقلوبهم مع ماسمع منهم ماسمع من الكلمة الشنعاء الموجبة لتغليظ القول والمشافهة بالسوء (يا قوم ليس بى سفاهة) أى شىء منها ولا شائبة من شوائبها (ولكنى رسول من رب العالمين) استدراك عما قبله باعتبار مايستلزمه ويقتضيه من كونه فى الغاية القصوى من الرشد والأناة والصدق والأمانة فإن الرسالة من جهة رب العالمين موجبة لذلك حتما كأنه قيل ليس بى شىء مما نسبتمونى إليه ولكنى فى غاية مايكون من الرشد والصدق ولم يصرح بنفى الكذب اكتفاء بما فى حيز الاستدراك ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسول مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية وقوله تعالى (أبلغكم رسالات ربى) استئناف سيق لتقرير رسالته وتفصيل أحوالها وقيل صفة أخرى لرسول والكلام فى اضافة الرب إلى نفسه عليه السلام بعد إضافته إلى العالمين وكذا فى جمع الرسالات كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام وقرىء أبلغكم من الابلاغ (وأنا لكم ناصح أمين) معروف بالنصح والأمانة مشهور بين الناس بذلك وإنما جىء بالجملة الاسمية دلالة على الثبات والاستمرار وإيذانا بأن من هذا حاله لايحوم حوله شائبة السفاهة والكذب (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم) الكلام فيه كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام (على رجل منكم) أى من جنسكم (لينذركم) ويحذركم عاقبة ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى حتى نسبتمونى إلى السفاهة والكذب وفى إجابة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من يشافههم بما لاخير فيه من أمثال تلك الأباطيل بما حكى عنهم من المقالات الحقة المعربة عن نهاية الحلم والرزانة وكمال الشفقة والرأفة من الدلالة على حيازتهم القدح المعلى من مكارم الأخلاق ما لايخفى مكانه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء) شروع فى بيان ترتيب أحكام النصح والامانة والانذار وتفصيلها وإذ منصوب باذكروا على المفعولية دون الظرفية وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما فيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل عليها فإذا استحضر كانت هى حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا ولعله معطوف على مقدر كأنه قيل لا تعجبوا من ذلك أو تدبروا فى أمركم واذكروا وقت جعله تعالى إياكم خلفاء (من بعد قوم نوح) أى فى مساكنهم أو فى الأرض بأن جعلكم ملوكا فإن

شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شحر عمان (وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ) أى فى الابداع والتصوير أو فى الناس (بَسْطَةً) قامة وقوة فانه لم يكن فى زمانهم مثلهم فى عظم الاجرام قال الكلبى والسدى كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا (فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ) التى أنعم بها عليكم من فنون النعماء التى هذه من جملتها وهذا تكرير للتذكير لزيادة التقرير وتعميم اثر تخصيص (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) كى يؤديكم ذلك إلى الشكر المؤدى إلى النجاة من الكروب والفوز بالمطلوب (قالوا) مجيبين عن تلك النصائح العظيمة (أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ) أى لنخصه بالعبادة (وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) أنكروا عليه عليه السلام مجيئه لتخصيصه تعالى بالعبادة والاعراض عن عبادة الأوثان انهماكا فى التقليد وحبا لما ألفوه وألفوا أسلافهم عليه ومعنى المجيء اما مجيئه عليه السلام من متعبده ومنزله وإما من السماء على التهكم واما القصد والتصدى مجازا كما يقال فى مقابله ذهب يشتمنى من غير ارادة معنى الذهاب (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى أفلا تتقون (إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أى فى الاخبار بنزول العذاب وجواب إن محذوف لدلالة المذكور عليه أى فائت به (قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ) أى وجب وحق أو نزل باصراركم هذا بناء على تنزيل المتوقع منزلة الواقع كما فى قوله تعالى أتى أمر الله (مِنْ رَبِّكُمْ) أى من جهته تعالى وتقديم الظرف الأول على الثانى مع أن مبدأ الشيء متقدم على منتهاه للمسارعة إلى بيان اصابة المكروه لهم وكذا تقديمهما على الفاعل الذى هو قوله تعالى (رِجْسٌ) مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر ولأن فيه نوع طول بما عطف عليه من قوله تعالى (وَغَضَبٌ) فربما يخل تقديمهما بتجاوب النظم الكريم والرجس العذاب من الارتجاس الذى هو الاضطراب والغضب ارادة الانتقام وتنوينهما للتفخيم والتهويل (أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ) عارية عن المسمى (سَمَّيْتُمُوهَا) أى سميتم بها (أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) انكار واستقباح لانكارهم مجيئه عليه السلام داعيا لهم الى عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الاصنام أى أتجادلوننى فى أشياء سميتموها آلهة ليست هى الا محض الاسماء من غير أن يكون فيها من مصداق الالهية شيء ما لان المستحق للمعبودية بالذات ليس الا من أوجد الكل وأنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى اما بانزال آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل وذلك قوله تعالى (مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) وإذ ليس ذلك فى حيز الامكان تحقق بطلان ما هم عليه (فَانْتَظِرُوا) مترتب على قوله تعالى قد وقع عليكم أى فانتظروا ما تطلبونه بقولكم فائتنا بما تعدنا الخ (إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) لما يحل بكم والفاء فى قوله تعالى (فَأَنْجَيْنَاهُ) فصيحة كما فى قوله تعالى فانفجرت أى فوقع ما وقع فأنجيناه (وَالَّذِينَ مَعَهُ) أى فى الدين (بِرَحْمَةٍ) أى عظيمة لا يقادر قدرها وقوله تعالى (مِنَّا) أى من جهتنا متعلق بمحذوف هو نعت لرحمة مؤكد لفخامتها الذاتية المنفهمة من تنكيرها بالفخامة الاضافية (وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) أى استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم (وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ) عطف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة أى أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا عن ذلك أبدا وتقديم حكاية الانجاء على حكاية الاهلاك قد مر سره وفيه تنبيه على أن مناط النجاة هو الايمان بالله تعالى وتصديق آياته كما أن مدار البوار هو الكفر والتكذيب وقصتهم أن عادا قوم كانوا باليمن بالأحقاف وكانوا قد تبسطوا فى البلاد ما بين عمان إلى حضرموت وكانت لهم أصنام يعبدونها صدا وصمودا والهبا فبعث الله تعالى اليهم هودا نبيا وكان من أوسطهم وأفضلهم حسبا فكذبوه وازدادوا عتوا وتجبرا فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا وكان الناس اذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله الفرج منه عند بيته الحرام مسلمهم ومشركهم وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر فجهزت عاد إلى مكة من أماثلهم سبعين رجلا منهم قيل ابن عنز ومرثد بن سعد الذى كان يكتم اسلامه فلما قدموا نزلوا على معاوية

ابن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم قينتا معاوية فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك وقال قد هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء على ماهم عليه وكان يستحى أن يكلمهم خشية أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به لايدرون من قاله فقال معاوية :

ألا ياقيل ويحك قم فهينم لعل الله يسقينا غماما
فيسقى أرض عاد ان عادا قد امسوا لايبينون الكلاما

فلما غنتا به قالوا إن قومكم يتغوثون من البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال لهم مرثد بن سعد والله لاتسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله تعالى سقيتم وأظهر اسلامه فقالوا لمعاوية احبس عنا مرثدا لايقدمن معنا فانه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة فقال قيل اللهم اسق عادا ماكنت تسقيهم فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء ياقيل اختر لنفسك ولقومك فقال اخترت السوداء فانها أكثرهن ماء فخرجت على عاد من وادٍ يقال له المغيث فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه فأتوا مكة فعبدوا الله تعالى فيها إلى أن ماتوا (وإلى ثَمُودَ أخاهُمْ صلحاً) عطف على ماسبق من قوله تعالى وإلى عاد أخاهم هودا موافق فى تقديم المجرور على المنصوب وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود ابن عابر بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل إنما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وقرىء بالصرف بتأويل الحى وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وأخوة صالح عليه السلام لهم من حيث النسب كهود عليه السلام فانه صالح بن عبيد بن اسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ولما كان الاخبار بارساله عليه السلام اليهم مظنة لأن يسأل ويقال فماذا قال لهم قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف (قالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إلٰهٍ غيرُهُ) وقد مر الكلام فى نظائره (قَدْ جاءَتْكُم بيِّنَةٌ) أى آية ومعجزة ظاهرة شاهدة بنبوتى وهى من الألفاظ الجارية مجرى الابطح والابرق فى الاستغناء عن ذكر موصوفاتها حالة الافراد والجمع كالصالح افرادا وجمعا وكذلك الحسنة والسيئة سواء كانتا صفتين للاعمال أو المثوبة أو الحالة من الرخاء والشدة ولذلك أوليت العوامل وقوله تعالى (مِّن رَّبِّكُمْ) متعلق بجاءتكم أو بمحذوف هو صفة لبينة كما مر مرارا والمراد بها الناقة وليس هذا الكلام منه عليه السلام أول ماخاطبهم اثر دعوتهم إلى التوحيد بل إنما قاله بعد مانصحهم وذكرهم بنعم الله تعالى فلم يقبلوا كلامه وكذبوه ألا يرى إلى مافى سورة هود من قوله تعالى هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها إلى آخر الآيات . روى أنه لما أهلكت عاد عمرت ثمود بلادها وخلفوهم فى الأرض وكثروا وعمروا أعمارا طوالا حتى إن الرجل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم فى حياته فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا فى سعة ورخاء من العيش فعتوا على الله تعالى وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأوثان فبعث الله تعالى اليهم صالحا وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا فدعاهم إلى الله عز وجل فلم يتبعه إلاقليل منهم مستضعفون فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال أية آية تريدون قالوا تخرج معنا إلى عيدنا فى يوم معلوم لهم من السنة فتدعو الهك وندعو آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا فقال صالح عليه السلام نعم فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوا الاستجابة فلم تجبهم ثم قال سيدهم جندع بن عمرو وأشار إلى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يقال لها الكاثبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء والمخترجة التى شاكلت البخت فان فعلت صدقناك وأجبناك فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن

قالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى وعظماؤهم ينظرون ثم نتجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع ورهط من قومه ومنع أعقابهم ناس من رؤسهم أن يؤمنوا فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد غبا فاذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر فما ترفعها حتى تشرب كل مافيها ثم تتفحج فيحتلبون ماشاؤا حتى تمتلىء أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت إذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادى فيهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتى المواشى فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه فانطلق سقبها حتى رقى جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا وكان صالح عليه السلام قال لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه فانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح تصبحون غدا ووجوهكم مصفرة وبعد غد ووجوهكم محمرة واليوم الثالث ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالانطاع فاتتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض فتقطعت قلوبهم فهلكوا وقوله تعالى (هٰذهِ ناقةُ اللهِ لكُمْ ءَايةً) استئناف مسوق لبيان البينة وإضافة الناقة إلى الاسم الجليل لتعظيمها ولمجيئها من جهته تعالى بلا أسباب معهودة ووسايطه معتادة ولذلك كانت آية وأى آية ولكم بيان لمن هى آية له وانتصاب آية على الحالية والعامل فيها معنى الاشارة ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أو عطف بيان له أو مبتدأ ثانيا ولكم خبرا عاملا فى آية (فذرُوها) تفريع على كونها آية من آيات الله تعالى فان ذلك مما يوجب عدم التعرض لها (تأكل فى أرْضِ اللهِ) جواب الأمر أى الناقة ناقة الله والأرض أرض الله تعالى فاتركوها تأكل ما تأكل فى أرض ربها فليس لكم أن تحولوا بينها وبينها وقرىء تأكل بالرفع على أنه فى موضع الحال أى آكلة فيها وعدم التعرض للشرب اما للاكتفاء عنه بذكر الأكل أو لتعميمه له أيضا كما فى قوله : علفتها تبنا وماء باردا وقد ذكر ذلك فى قوله تعالى لها شرب ولكم شرب يوم معلوم (ولا تمسُّوها بسُوءٍ) نهى عن المس الذى هو مقدمة الاصابة بالشر الشامل لانواع الأذية ونكر السوء مبالغة فى النهى أى لا تتعرضوا لها بشىء مما يسوءها أصلا ولا تطردوها ولا تريبوها اكراما لآية الله تعالى (فيأخُذكمْ عذابٌ أليمٌ) جواب للنهى ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر فى غزوة تبوك قال لأصحابه لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذى أصابهم وقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه يا على أتدرى من أشقى الأولين قال الله ورسوله أعلم قال عاقر ناقة صالح أتدرى من أشقى الآخرين قال الله ورسوله أعلم قال قاتلك (واذكرُوا إذْ جعلكمْ خلفآءَ من بعدِ عادٍ) أى خلفاء فى الأرض أو خلفاء لهم كما مر (وبوّأكمْ فى الأرْضِ) أى جعل لكم مباءة ومنزلا فى أرض الحجر بين الحجاز والشام (تتّخذُونَ من سُهولها قصُوراً) استئناف مبين لكيفية التبوئة أى تبنون فى سهولها قصورا رفيعة أو تبنون من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص واللبن والآجر (وتنحِتونَ الجبال) أى الصخور وقرىء تنحتون بفتح الحاء وتنحاتون باشباع الفتحة كما فى قوله ينباع من ذفرى أسيل حرة والنحت نجر الشىء الصلب فانتصاب الجبال على المفعولية وانتصاب قوله تعالى (بُيوتاً) على أنها حال مقدرة منها كما تقول خطت هذا الثوب قميصا وقيل انتصاب الجبال على اسقاط الجار أى من الجبال وانتصاب بيوتا على المفعولية وقد جوز أن يضمن النحت معنى الاتخاذ فانتصابهما على المفعولية قيل كانوا يسكنون السهول فى الصيف

والجبال فى الشتاء (فاذكروا ءالاء الله) التى أنعم بها عليكم مما ذكر أو جميع آلائه التى هذه من جملتها (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) فان حق آلائه تعالى أن تشكر ولا تهمل ولا يغفل عنها فكيف بالكفر والعثى فى الأرض بالفساد (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) أى عتوا وتكبروا والاستئناف كما سلف وقرىء بالواو عطفا على ماقبله من قوله تعالى قال ياقوم الخ واللام فى قوله تعالى (للذين استضعفوا) للتبليغ وقوله تعالى (لمن ءامن منهم) بدل من الموصول باعادة العامل بدل الكل ان كان ضمير منهم لقومه وبدل البعض ان كان للذين استضعفوا على أن من المستضعفين من لم يؤمن والأول هو الوجه إذ لا داعى إلى توجيه الخطاب أولا إلى جميع المستضعفين مع أن المجاوبة مع المؤمنين منهم على أن الاستضعاف مختص بالمؤمنين أى قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم (أتعلمون أن صلحا مرسل من ربه) وإنما قالوه بطريق الاستهزاء بهم (قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا نعم أو نعلم أنه مرسل منه تعالى مسارعة إلى تحقيق الحق واظهار مالهم من الإيمان الثابت المستمر الذى ينبىء عنه الجملة الاسمية وتنبيها على أن أمر ارساله من الظهور بحيث لا ينبغى أن يسأل عنه وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به (قال الذين استكبروا) أعيد الموصول مع صلته مع كفاية الضمير إيذانا بأنهم قد قالوا ماقالوه بطريق العتو والاستكبار (إنا بالذى ءامنتم به كفرون) وإنما لم يقولوا انا بما أرسل به كافرون إظهارا لمخالفتهم إياهم وردا لمقالتهم (فعقروا الناقة) أى نحروها أسند العقر إلى الكل مع أن المباشر بعضهم للملابسة أو لان ذلك لما كان برضاهم فكأنه فعله كلهم وفيه من تهويل الأمر وتفظيعه بحيث أصابت غائلته الكل مالا يخفى (وعتوا عن أمر ربهم) أى استكبروا عن امتثاله وهو ما بلغهم صالح عليه السلام من الأمر والنهى (وقالوا) مخاطبين له عليه السلام بطريق التعجيز والالخام على زعمهم (يصلح ائتنا بما تعدنا) أى من العذاب والاطلاق للعلم به قطعا (إن كنت من المرسلين) فان كونك من جملتهم يستدعى صدق ماتقول من الوعد والوعيد (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة لكن لا اثر ما قالوا ماقالوا بل بعد ماجرى عليهم ماجرى من مبادىء العذاب فى الأيام الثلاثة حسبما سيأتى تفصيله (فأصبحوا فى دارهم) أى صاروا فى أرضهم وبلدهم أو فى مساكنهم (جثمين) خامدين موتى لا حراك بهم وأصل الجثوم والبروك يقال الناس جثوم أى قعود لا حراك بهم ولا ينبسون نبسة قال أبو عبيدة الجثوم للناس والطير والبروك للابل والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب ولا حركة كما يكون عند الموت المعتاد ولا يخفى مافيه من شدة الاخذ وسرعة البطش اللهم انا بك نعوذ من نزول سخطك وحلول غضبك وجاثمين خبر لاصبحوا والظرف متعلق به ولا مساغ لكونه خبرا وجاثمين حالا لافضائه إلى كون الاخبار بكونهم فى دارهم مقصوداً بالذات وكونهم جاثمين قيداً تابعاً له غير مقصود بالذات قيل حيث ذكرت الرجفة وحدت الدار وحيث ذكرت الصيحة جمعت لان الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فقرن كل منهما بما هو أليق به (فتولى عنهم) اثر ماشاهد ماجرى عليهم تولى مغتم متحسر على مافاتهم من الإيمان متحزن عليهم (وقال يقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم) بالترغيب والترهيب وبذلت فيكم وسعى ولكن لم تقبلوا منى ذلك وصيغة المضارع فى قوله تعالى (ولكن لا تحبون النصحين) حكاية حال ماضية أى شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم خاطبهم عليه الصلاة والسلام بذلك خطاب رسول الله عليه الصلاة والسلام أهل قليب بدر حيث قال انا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا وقيل إنما تولى عنهم قبل نزول العذاب بهم عند مشاهدته عليه الصلاة والسلام لعلاماته تولى ذاهب عنهم منكر لاصرارهم على ماهم عليه وروى أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء ونزل بهم العذاب يوم السبت وروى

أنه خرج فى مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكى فالتفت فرأى الدخان ساطعا فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفا وخمسمائة دار وروى أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم (وَلُوطًا) منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق وعدم التعرض للمرسل اليهم مقدما على المنصوب حسبما وقع فيما سبق وما لحق قد مر بيانه فى قصة هود عليه السلام وهو لوط بن هاران بن تارخ بن أخى ابراهيم كان من أرض بابل من العراق مع عمه ابراهيم فهاجر إلى الشام فنزل فلسطين وأنزل لوطا الأردن وهى كورة بالشام فأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم وهى بلد بحمص وقوله تعالى (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ) ظرف للمضمر المذكور أى أرسلنا لوطا إلى قومه وقت قوله لهم الخ ولعل تقييد ارساله عليه السلام بذلك لما أن ارساله اليهم لم يكن فى أول وصوله اليهم وقيل هو بدل من لوطا بدل اشتمال على أن انتصابه باذكر أى اذكر وقت قوله عليه السلام لقومه (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ) بطريق الانكار التوبيخى التقريعى أى أتفعلون تلك الفعلة المتناهية فى القبح المادية فى الشربة والسوء (مَا سَبَقَكُمْ بِهَا) ما عملها قبلكم على أن الباء للتعدية كما فى قوله عليه السلام سبقك بها عكاشة من قولك سبقته بالكرة أى ضربتها قبله ومن فى قوله تعالى (مِنْ أَحَدٍ) مزيدة لتأكيد النفى وافادة معنى الاستغراق وفى قوله تعالى (مِّنَ الْعَالَمِينَ) للتبعيض والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع فان مباشرة القبيح قبيح واختراعه أقبح ولقد أنكر الله تعالى عليهم أولا اتيان الفاحشة ثم وبخهم بأنهم أول من عملها فان سبك النظم الكريم وان كان على نفى كونهم مسبوقين من غير تعرض لكونهم سابقين لكن المراد أنهم سابقون لكل من عداهم من العالمين كما مر تحقيقه مرارا فى نحو قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو مسوقة جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل من جهتهم لم لا نأتيها فقيل بيانا للعلة واظهارا للزاجر ما سبقكم بها أحد لغاية قبحها وسوء سبيلها فكيف تفعلونها قال عمرو بن دينار ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط قال محمد بن اسحق كانت لهم ثمار وقرى لم يكن فى الدنيا مثلها فقصدهم الناس فآذوهم فعرض لهم إبليس فى صورة شيخ ان فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فأبوا فلما ألح الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانا صباحا فأخبثوا فاستحكم فيهم ذلك قال الحسن كانوا لا يفعلون ذلك الا بالغرباء وقال الكلبى أول من فعل به ذلك الفعل إبليس الخبيث حيث تمثل لهم فى صورة شاب جميل فدعاهم إلى نفسه ثم عبثوا بذلك العمل (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ) خبر مستأنف لبيان تلك الفاحشة وقرىء بهمزتين صريحتين وبتليين الثانية بغير مد وبمد أيضا على أنه تأكيد للانكار السابق وتشديد للتوبيخ وفى زيادة ان واللام مزيد توبيخ وتقريع كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد فيؤكد تأكيدا قويا وفى ايراد لفظ الرجال دون الغلمان والمراد أن ونحوهما مبالغة فى التوبيخ وقوله تعالى (شَهْوَةً) مفعول له أو مصدر فى موقع الحال وفى التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغى له أن يكون الداعى له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الشهوة ويجوز أن يكون المراد الانكار عليهم وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة كما ينبىء عنه قوله تعالى (مِّن دُونِ النِّسَاءِ) أى متجاوزين النساء اللاتى هن محل الاشتهاء كما ينبىء عنه قوله تعالى هن أطهر لكم (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) اضراب عن الانكار المذكور إلى الاخبار بحالهم التى أفضتهم إلى ارتكاب أمثالها وهى اعتياد الاسراف فى كل شىء أو عن الانكار عليها إلى الذم على جميع معايبهم أو عن محذوف أى لا عذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتكم الاسراف (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ) أى المستكبرين منهم المتولين للأمر والنهى المتصدين للعقد والحل وقوله تعالى (إِلَّا أَن قَالُوا) استثناء مفرغ من أعم الأشياء أى ما كان جوابا من جهة قومه شىء من الأشياء الا قولهم أى لبعضهم الآخرين المباشرين للأمور معرضين عن مخاطبته عليه السلام (أَخْرِجُوهُم) أى لوطا ومن معه من أهله المؤمنين (مِّن قَرْيَتِكُمْ) أى الا هذا القول الذى يستحيل أن يكون جوابا لكلام لوط عليه السلام وقرىء برفع جواب على انه اسم كان والا أن قالوا الخ خبرها وهو

أظهر وان كان الأول أقوى فى الصناعة لأن الاعرف أحق بالاسمية وأياما كان فليس المراد أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن مقالات لوط عليه السلام ومواعظه إلا هذه المقالة الباطلة كما هو المتسارع الى الافهام بل إنه لم يصدر عنهم فى المرة الأخيرة من مرات المحاورات الجارية بينهم وبينه عليه السلام إلا هذه الكلمة الشنيعة وإلا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثير من الترهات حسبما حكى عنهم فى سائر السور الكريمة وهذا هو الوجه فى نظائره الواردة بطريق القصر وقوله تعالى (إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) تعليل للأمر بالاخراج ووصفهم بالتطهر للاستهزاء والسخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش والخبائث والافتخار بما هم فيه من القذارة كما هو ديدن الشطار والدعار (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ) أى المؤمنين منهم (إِلَّا امْرَأَتَهُ) استثناء من أهله فانها كانت تسر بالكفر (كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) أى الباقين فى ديارهم الهالكين فيها والتذكير للتغليب ولبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون للفاحشة والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن استثنائها من حكم الانجاء كأنه قيل فماذا كان حالها فقيل كانت من الغابرين (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا) أى نوعا من المطر عجيبا وقد بينه قوله تعالى وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل قال أبو عبيدة مطر فى الرحمة وأمطر فى العذاب وقال الراغب مطر فى الخير وأمطر فى العذاب والصحيح أن أمطرنا بمعنى أرسلنا عليهم إرسال المطر قيل كانت المؤتفكة خمس مدائن وقيل كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة فأمطر الله عليهم الكبريت والنار وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم وقيل أمطر عليهم ثم خسف بهم وروى أن تاجرا منهم كان فى الحرم فوقف الحجر له أربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه وروى أن امرأته التفتت نحو ديارها فأصابها حجر فماتت (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) خطاب لكل من يتأتى منه التأمل والنظر تعجيبا من حالهم وتحذيرا من أعمالهم (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا) عطف على قوله وإلى عاد أخاهم هودا وما عطف عليه وقد روعى ههنا ما فى المعطوف عليه من تقديم المجرور على المنصوب أى وأرسلنا اليهم وهم أولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين وقيل شعيب بن ثويب بن مدين وقيل شعيب بن يثرون بن مدين وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين مع كفرهم (قَالَ) استئناف مبنى على سؤال نشأ عن حكاية ارساله اليهم كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) مر تفسيره مرارا (قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ) أى معجزة وقوله تعالى (مِّن رَّبِّكُمْ) متعلق بجاءتكم أو بمحذوف هو صلة لفاعله مؤكدة لفخامته الذاتيه المستفادة من تنكيره بفخامته الإضافية أى بينة عظيمة ظاهرة كائنة من ربكم ومالك أموركم ولم يذكر معجزته عليه السلام فى القرآن العظيم كما لم يذكر أكثر معجزات النبى صلى الله عليه وسلم فمنها ماروى من محاربة عصا موسى عليه السلام التنين حين دفع اليه غنمه ومنها ولادة الغنم الدرع خاصة حين وعد أن يكون له الدرع من أولادها ومنها وقوع عصا آدم عليه السلام على يده فى المرات السبع لأن كل ذلك كان قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام وقيل البينة مجيئه عليه السلام كما فى قوله تعالى ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى أى حجة واضحة وبرهان نير عبر بهما عما آتاه الله من النبوة والحكمة (فَأَوْفُوا الْكَيْلَ) أى المكيال كما وقع فى سورة هود ويؤيده قوله تعالى (وَالْمِيزَانَ) فان المتبادر منه الآلة وإن جاز كونه مصدرا كالميعاد وقيل آلة الكيل والوزن على الاضمار والفاء لترتيب الأمر على مجىء البينة ويجوز أن تكون عاطفة على اعبدوا فان عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهى التى معظمها بعد الكفر البخس الذى كانوا يباشرونه (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) التى تشترونها بهما معتمدين على تمامهما أى شىء كان وأى مقدار كان فانهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير وقيل كانوا مكاسين لايدعون شيأ إلا مكسوه قال زهير :

أفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ماباع امرؤ مكس درهم

(وَلا تفسِدُوا فِي الأرْضِ) أي بالكفر والحيف (بَعْدَ إصْلَاحِها) بعدما أصلح أمرها وأهلها الانبياء وأتباعهم باجراء الشرائع أو أصلحوا فيها وإضافته اليها كاضافة مكر الليل والنهار (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ) إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ومعنى الخيرية إما الزيادة مطلقا أو فى الانسانية وحسن الأحدوثة ومايطلبونه من التكسب والربح لأن الناس إذا عرفوهم بالامانة رغبوا فى معاملتهم ومتاجرتهم (إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أى مصدقين لى فى قولى هذا (وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ) أى بكل طريق من طرق الدين كالشيطان وصراط الحق وإن كان واحدا لكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام وكانوا إذا رأوا أحدا يشرع فى شىء منها منعوه وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيبا إنه كذاب لايفتننك عن دينك ويتوعدون لمن آمن به وقيل يقطعون الطريق (وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) أى السبيل الذى قعدوا عليه فوقع المظهر موقع الضمير بيانا لكل صراط ودلالة على عظم مايصدون عنه وتقبيحا لما كانوا عليه أو الإيمان بالله أو بكل صراط على أنه عبارة عن طرق الدين وقوله تعالى (مَنْ آمَنَ بِهِ) مفعول تصدون على أعمال الاقرب ولو كان مفعول توعدون لقيل وتصدونهم وتوعدون حال من الضمير فى تقعدوا (وَتَبْغُونَها عِوَجاً) أى وتطلبون لسبيل الله عوجا بالقاء الشبه أو بوصفها للناس بأنها معوجة وهى أبعد شىء من شائبة الاعوجاج (وَاذْكُرُوا إذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ) من البركة فى النسل والمال (وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ) من الامم الماضية كقوم نوح ومن بعدهم من عاد وثمود وأضرابهم واعتبروا بهم (وَإنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) من الشرائع والأحكام (وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا) أى به أولم يفعلوا الايمان (فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا) أى بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين (وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ) إذ لا معقب لحكمه ولا حيف فيه (قَالَ المَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه المقال كأنه قيل فماذا قالوا بعدما سمعوا هذه المواعظ من شعيب عليه السلام فقيل قال أشراف قومه المستكبرون متطاولين عليه عليه السلام غير مكتفين بمجرد الاستعصاء عليه والامتناع من الطاعة له بل بالغين من العتو والاستكبار إلى أن تصدوا استتباعه عليه السلام فيماهم فيه وأتباعه المؤمنين واجترؤا على اكراههم عليه بوعيد النفى وخاطبوه بذلك على طريقة التوكيد القسمى (لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) بنسبة الاخراج اليه عليه السلام أولا وإلى المؤمنين ثانيا بعطفهم عليه تنبيها على إصالته عليه السلام فى الاخراج وتبعيتهم له فيه كما ينبىء عنه قوله تعالى (مَعَكَ) فانه متعلق بالاخراج لا بالايمان وتوسيط النداء باسمه العلى بين المعطوفين لزيادة التقرير والتهديد الناشئة عن غاية الوقاحة والطغيان أى والله لنخرجنك وأتباعك (مِنْ قَرْيَتِنا) بغضا لكم ودفعا لفتنتكم المترتبة على المساكنة والجوار وقوله تعالى (أوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا) عطف على جواب القسم أى والله ليكونن أحد الأمرين البتة على أن المقصد الاصلى هو العود وإنما ذكر النفى والاجلاء المحض القسر والالجاء كما يفصح عنه عدم تعرضه عليه السلام لجواب الاخراج كأنهم قالوا لاندعكم فيما بيننا حتى تدخلوا فى ملتنا وادخالهم له عليه السلام فى خطاب العود مع استحالة كونه عليه السلام فى ملتهم قبل ذلك إنما هو بطريق تغليب الجماعة على الواحد وإنما لم يقولوا أو لنعيدنكم على طريقة ماقبله لما أن مرادهم أن يعودوا اليها بصورة الطواعية حذار الاخراج باختيار أهون الشرين لا لإعادتهم بسائر وجوه الاكراه والتعذيب (قَالَ) استئناف كما سبق أى قال عليه السلام ردا لمقالتهم الباطلة وتكذيبا لهم فى أيمانهم الفاجرة (أوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ) على أن الهمزة لانكار الوقوع ونفيه لا لانكار الواقع واستقباحه كالتى فى قوله تعالى أولو جئتك بشىء مبين

ويجوز أن يكون الاستفهام فيه باقيا على حاله وقد مر مرارا أن كلمة لو فى مثل هذا المقام ليست لبيان انتفاء الشىء فى الزمن الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف تعويلا على دلالة ماقبلها عليه ملاحظة قصدية إلا عند القصد إلى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ماعداه من الأحوال بطريق الأولوية لما أن الشىء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لايذكر معه شىء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الأحوال على سبيل الإجمال وهذا المعنى ظاهر فى الخبر الموجب والمنفى والأمر والنهى كما فى قولك فلان جواد يعطى ولو كان فقيراً أو بخيل لايعطى ولو كان غنيا وكقولك أحسن اليه ولو أساء إليك ولاتهنه ولو أهانك لبقائه على حاله سالما عما يغيره وأما فيما نحن فيه ففيه نوع خفاء لتغيره بورود الانكار عليه لكن الأصل فى الكل واحد إلا أن كلمة لو فى الصور المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وأن مايقصد بيان تحققه على كل حال هو نفس مدلوله وأن الجملة حال من ضميره أو مما يتعلق به وأن ما فى حيز لو مقرر على ماهو عليه من الاستبعاد بخلاف مانحن فيه لما أن كلمة لو متعلقة فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور وأن مايقصد بيان تحققه على كل حال هو مدلوله لامدلول المذكور وأن الجملة حال من ضميره لامن ضمير المذكور كما سيأتى وأن المقصود الأصلى انكار مدلوله من حيث مقارنته للحالة المذكورة وأما تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وأن ما فى حيز لو لا يقصد استبعاده فى نفسه بل يقصد الاشعار بأنه أمر مقرر إلا أنه أخرج مخرج الاستبعاد مبالغة فى الانكار من جهة أن العود مما ينكر عند كون الكراهة أمراً مستبعداً فكيف به عند كونها أمراً محققاً ومعاملة مع المخاطبين على معتقدهم لاستنزالهم من رتبة العناد وليس المراد بالكراهة مجرد كراهة المؤمنين للعود فى ملة الكفر ابتداء حتى يقال إنها معلومة لهم فكيف تكون مستبعدة عندهم بل إنما هى كراهتهم له بعد وعيد الاخراج الذى جعل قرينا للقتل فى قوله تعالى ولو أنا كتبنا الآية فانهم كانوا يستبعدونها ويطمعون فى أنهم حينئذ يختارون العود خشية الاخراج إذ رب مكروه يختار عند حلول ماهو أشد منه وأفظع والتقدير أنعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين غير مبالين بالاكراه فالجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير الفعل المقدر حسبما أشير إليه إذ مآله أنعود فيها حال عدم الكراهة وحال الكراهة انكارا لما تفيده كلمتهم الشنيعة باطلاقها من العود على أى حالة كانت غير أنه اكتفى بذكر الحالة الثانية التى هى أشد الأحوال منافاة للعود وأكثرها بعداً منه تنبيها على أنها هى الواقعة فى نفس الأمر وثقة باغنائها عن ذكر الأولى اغناء واضحا لأن العود الذى تعلق به الانكار حين تحقق مع الكراهة على مايوجبه كلامهم فلأن يتحقق مع عدمها أولى إن قلت النفى المستفاد من الاستفهام الانكارى فيما نحن فيه بمنزلة صريح النفى ولاريب فى أن الأولوية هناك معتبرة بالنسبة إلى النفى ألا يرى أن الأولى بالتحقق فيما ذكر من مثال النفى عند الحالة المسكوت عنها أعنى عدم الغنى هو عدم الاعطاء لا نفسه فكان ينبغى أن يكون الأولى بالتحقق فيما نحن فيه عند عدم الكراهة عدم العود لا نفسه إذ هو الذى يدل عليه قولنا أنعود لأنه فى معنى لانعود فلم اختلف الحال بينهما قلت لما أن مناط الأولوية هو الحكم الذى أريد بيان تحققه على كل حال وذلك فى مثال النفى عدم الاعطاء المستفاد من الفعل المنفى المذكور وأما فيما نحن فيه فهو نفس العود المستفاد من الفعل المقدر إذ هو الذى يقتضيه الكلام السابق أعنى قولهم لتعودن وأما الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لابطال مايفيده ونفى

مايقتضيه لا أنه من تمامه كما فى صورة النفى وتوضيحه أن بين النفيين فرقا معنويا تختلف به أحكامهما التى من جملتها ماذكر من اعتبار الأولوية فى أحدهما بالنسبة إلى نفسه وفى الآخر بالنسبة إلى متعلقه ولذلك لا تستقيم إقامة أحدهما مقام الآخر على وجه الكلية ألا يرى أنك لو قلت مكان أنعود فيها الخ لا نعود فيها ولو كنا كارهين لاختل المعنى اختلالا فاحشا لأن مدلول الأول نفى العود المقيد بحال الكراهة ومدلول الثانى تقييد العود المنفى بها وذلك لأن حرف النفى يباشر نفس الفعل وينفيه ومايذكر بعده يرجع اليه من حيث هو منفى وأما همزة الاستفهام فانها تباشر الفعل بعد تقيده بما بعده لما أن دلالتها على الانكار والنفى ليست بدلالة وضعية كدلالة حرف النفى حتى يتعلق معناها بنفس الفعل الذى يليها ويكون مابعده راجعا اليه من حيث هو منفى بل هى دلالة عقلية مستفادة من سياق الكلام فلابد أن يكون مايذكر بعد الفعل من موانعه ودواعى انكاره ونفيه حتما ليكون قرينة صارفة للهمزة عن حقيقتها إلى معنى الانكار والنفى ثم لما كان المقصود نفى الحكم على كل حال مع الاقتصار على ذكر بعض منها مغن عن ذكر ماعداها لاستلزام تحققه معه تحققه مع غيره بطريق الأولوية وكانت حال الكراهة عند كونها قيداً لنفس العود كذلك أى مغنيا عن ذكر سائر الأحوال ضرورة أن تحقق العود فى حال الكراهة مستلزم لتحققه فى حال عدمها البتة وعند كونها قيداً لنفيه بخلاف ذلك أى غير مغن عن ذكر غيرها ضرورة أن نفى العود فى حال الكراهة لا يستلزم نفيه فى غيرها بل الأمر بالعكس فان نفيه فى حال الارادة مستلزم لنفيه فى حال الكراهة قطعاً استقام الأول لافادته نفى العود فى الحالتين مع الاقتصار على ذكر ماهو مغن عن ذكر الأخرى ولم يستقم الثانى لعدم إفادته إياه على الوجه المذكور إن قيل فما وجه استقامتهما جميعاً عند ذكر المعطوفين معاً حيث يصح أن يقال لا نعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين كما يصح أن يقال أنعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين مع أن المقدر فى حكم الملفوظ قلنا وجهها أن كلا منهما يفيد معنى صحيحاً فى نفسه لا أن معنى أحدهما عين معنى الآخر أو متلازمان متفقان فى جميع الأحكام كيف لا ومدلول الأول أن العود منتف فى الحالتين ومدلول الثانى أن العود فى الحالتين منتف وكلا المعنيين صحيح فى نفسه مصحح لنفى العود فى الحالتين مع ذكرهما معاً غير أن الثانى مصحح لنفى العود فى الحالتين مع الاقتصار على ذكر حالة الكراهة على عكس المعنى الأول فانه مصحح لنفيه فيهما مع الاقتصار على ذكر حالة الإرادة (قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً) أى كذبا عظيما لا يقادر قدره (إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ) التى هى الشرك وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه أى إن عدنا فى ملتكم (بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا) فقد افترينا على الله كذبا عظيما حيث نزعم حينئذ أن لله تعالى ندا وليس كمثله شىء وأنه قد تبين لنا أن ماكنا عليه من الإسلام باطل وأن ماكنتم عليه من الكفر حق وأى افتراء أعظم من ذلك وقيل إنه جواب قسم محذوف حذف عنه اللام تقديره والله لقد افترينا الخ (وَمَا يَكُونُ لَنَا) أى ومايصح ومايستقيم لنا (أَنْ نَعُودَ فِيهَا) فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات (إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ) أى إلا حال مشيئة الله تعالى أو وقت مشيئته تعالى لعودنا فيها وذلك مما لا يكاد يكون كما ينبىء عنه قوله تعالى (رَبُّنَا) فان التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم مما ينبىء عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعاً وكذا قوله تعالى بعد إذ نجانا الله منها فان تنجيته تعالى لهم منها من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها وقيل معناه إلا أن يشاء الله خذلاننا وقيل فيه دليل على أن الكفر بمشيئته تعالى وأياً ماكان فليس المراد بذلك بيان أن العود فيها فى حيز الإمكان وخطر الوقوع بناء على كون مشيئته تعالى كذلك بل بيان استحالة وقوعها كأنه قيل وماكان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وهيهات ذلك بدليل ماذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً) فهو محيط بكل ماكان ومايكون من الأشياء التى من جملتها أحوال عباده وعزائمهم ونياتهم وماهو اللائق بكل

واحد منهم فحال من لطفه أن يشاء عودنا فيها بعد ما نجانا منها مع اعتصامنا به خاصة حسبما ينطق به قوله تعالى (عَلَى اللّٰهِ توكّلنا) أى فى أن يثبتنا على ما نحن عليه من الايمان ويتم علينا نعمته بانجائنا من الاشراك بالكلية واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار للمبالغة فى التضرع والجؤار وقوله تعالى (رَبّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ) اعراض عن مقاولتهم اثر ما ظهر له عليه الصلاة والسلام أنهم من العتو والعناد بحيث لا يتصور منهم الايمان أصلا وإقبال على الله تعالى بالدعاء لفصل ما بينه وبينهم بما يليق بحال كل من الفريقين أى احكم بيننا بالحق والفتاحة الحكومة أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز المحق من المبطل من فتح المشكل إذا بينه (وأنت خير الفاتحين) تذييل مقرر لمضمون ما قبله على المعنيين (وقال الملأ الذين كفروا من قومه) عطف على قال الملأ الذين الخ ولعل هؤلاء غير أولئك المستكبرين ودونهم فى الرتبة شأنهم الوساطة بينهم وبين العامة والقيام بأمورهم حسبما يراه المستكبرون ويجوز أن يكون عين الأولين وتغيير الصلة لما أن مدار قولهم هذا هو الكفر كما أن مناط قولهم السابق هو الاستكبار أى قال أشرافهم الذين أصروا على الكفر لأعقابهم بعد ما شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين فى الايمان وخافوا أن يستتبعوا قومهم تثبيطا لهم عن الايمان به وتنفيرا لهم عنه على طريقة التوكيد القسمى والله (لئن اتّبعتم شعيبا) ودخلتم فى دينه وتركتم دين آبائكم (إنّكم إذاً لخاسرون) أى فى الدين لاشترائكم الضلالة بهداكم أو فى الدنيا لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف وإذن حرف جواب وجزاء معترض بين اسم ان وخبرها والجملة سادة مسد جوابى الشرط والقسم الذى وطأته اللام (فأخذتهم الرّجفة) أى الزلزلة وهكذا فى سورة العنكبوت وفى سورة هود وأخذت الذين ظلموا الصيحة أى صيحة جبريل عليه السلام ولعلها من مبادى الرجفة فأسند هلاكهم إلى السبب القريب تارة وإلى البعيد أخرى (فأصبحوا فى دارهم) أى فى مدينتهم وفى سورة هود فى ديارهم (جاثمين) أى ميتين لازمين لأماكنهم لا براح لهم منها (الذين كذّبوا شعيبا) استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم فيما سبق لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا وعقوبتهم بمقابلته والموصول مبتدأ خبره قوله تعالى (كأن لم يغنوا فيها) أى استؤصلوا بالمرة وصاروا كأنهم لم يقيموا بقريتهم أصلا أى عوقبوا بقولهم ذلك وصاروا هم المخرجين من القرية إخراجا لا دخول بعده أبدا وقوله تعالى (الذين كذّبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الاخير وإعادة الموصول والصلة كما هى لزيادة التقرير والايذان بأن ما ذكر فى حيز الصلة هو الذى استوجب العقوبتين أى الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بمقالتهم الأخيرة فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لا المتبعون له عليه الصلاة والسلام وبهذا القصر اكتفى عن التصريح بانجائه عليه الصلاة والسلام كما وقع فى سورة هود من قوله تعالى ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه الخ (فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربّى ونصحت لكم) قاله عليه الصلاة والسلام بعد ما هلكوا تأسفا بهم لشدة حزنه عليهم ثم أنكر على نفسه ذلك فقال (فكيف آسى) أحزن حزنا شديدا (على قوم كافرين) أى مصرين على الكفر ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم أو قاله اعتذارا عن عدم شدة حزنه عليهم والمعنى لقد بالغت فى الابلاغ والانذار وبذلت وسعى فى النصح والاشفاق فلم تصدقوا قولى فكيف آسى عليكم وقرىء ايسى بامالتين (وما أرسلنا فى قرية من نبىّ) اشارة إجمالية إلى بيان أحوال سائر الأمم اثر بيان أحوال الأمم المذكورة تفصيلا ومن مزيدة لتأكيد النفى والصفة محذوفة أى من نبى كذب أو كذبه أهلها (إلا أخذنا أهلها) استثناء مفرغ من أعم الاحوال وأخذنا فى محل النصب من فاعل أرسلنا والفعل الماضى لا يقع بعد الا الا بأحد شرطين اما تقدير قد كما فى هذه الآية أو مقارنة قد كما فى قولك ما زيد الا قد قام والتقدير وما أرسلنا فى

قرية من القرى المهلكة نبيا من الأنبياء فى حال من الأحوال إلا حال كوننا آخذين أهلها (بالبأساء) بالبؤس والفقر (والضراء) بالضر والمرض لكن لا على معنى أن ابتداء الارسال مقارن للاخذ المذكور بل على أنه مستتبع له غير منفك عنه بالآخرة لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه حسبما فعلت الأمم المذكورة (لعلهم يضرعون) كى يتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر والعزة عن أكتافهم كقوله تعالى لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون (ثم بدلنا) عطف على أخذنا داخل فى حكمه (مكان السيئة) التى أصابتهم للغاية المذكورة (الحسنة) أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والسعة كقوله تعالى وبلوناهم بالحسنات والسيئات (حتى عفوا) أى كثروا عددا وعددا من عفا النبات إذا كثر وتكاثف وأبطرتهم النعمة (وقالوا) غير واقفين على أن ما أصابهم من الأمرين ابتلاء من الله سبحانه (قد مس آباءنا الضراء والسراء) كما مسنا ذلك وما هو إلا من عادة الدهر يعاقب فى الناس بين الضراء والسراء من غير أن يكون هناك داعية تؤدى اليهما أو تبعة تترتب عليهما ولعل تأخير السراء للاشعار بأنها تعقب الضراء فلا ضير فيها (فأخذناهم) اثر ذلك (بغتة) فجأة أشد الاخذ وأفظعه (وهم لا يشعرون) بذلك ولا يخطرون ببالهم شيئا من المكاره كقوله تعالى حتى إذا فرحوا بما أوتوا الآية وليس المراد بالاخذ بغتة اهلاكهم طرفة عين كاهلاك عاد وقوم لوط بل ما يعمه وما يمضى بين الاخذ وإتمام الاهلاك أيام كدأب ثمود (ولو أن أهل القرى) أى القرى المهلكة المدلول عليها بقوله تعالى فى قرية وقيل هى مكة وما حولها من القرى وقيل جنس القرى المنتظمة لما ذكر ههنا انتظاما أوليا (آمنوا) بما أوحى إلى أنبيائهم معتبرين بما جرى عليهم من الابتلاء بالضراء والسراء (واتقوا) أى الكفر والمعاصى أو اتقوا ما أنذروا به على ألسنة الأنبياء ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح ولم يحملوا ابتلاء الله تعالى على عادات الدهر وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وحدوا الله واتقوا الشرك (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التى بعضها من السماء وبعضها من الأرض وقيل المراد المطر والنبات وقرىء لفتحنا بالتشديد للتكثير (ولكن كذبوا) أى ولكن لم يؤمنوا ولم يتقوا وقد اكتفى بذكر الأول لاستلزامه للثانى (فأخذناهم بما كانوا يكسبون) من أنواع الكفر والمعاصى التى من جملتها قولهم قد مس آباءنا الخ وهذا الأخذ عبارة عما فى قوله تعالى فأخذناهم بغتة لا عن الجدب والقحط كما قيل فانهما قد زالا بتبديل الحسنة مكان السيئة (أفأمن أهل القرى) أى أهل القرى المذكورة على وضع المظهر موضع المضمر للايذان بأن مدار التوبيخ أمن كل طائفة ما أتاهم من البأس لا أمن مجموع الامم فان كل طائفة منهم أصابهم بأس خاص بهم لا يتعداهم إلى غيرهم كما سيأتى والهمزة لانكار الواقع واستقباحه لا لانكار الوقوع ونفيه كما قاله أبو شامة وغيره لقوله تعالى فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون والفاء للعطف على أخذناهم وما بينهما اعتراض توسط بينهما للمسارعة إلى بيان أن الاخذ المذكور مما كسبته أيديهم والمعنى أبعد ذلك الاخذ أمن أهل القرى (أن يأتيهم بأسنا بياتا) أى تبييتا أو وقت بيات أو مبيتا أو مبيتين وهو فى الأصل مصدر بمعنى البيتوتة ويجىء بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم (وهم نائمون) حال من ضميرهم البارز أو المستتر فى بياتا (أو أمن أهل القرى) انكار بعد انكار للمبالغة فى التوبيخ والتشديد ولذلك لم يقل أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون وقرىء أو بسكون الواو على الترديد (أن يأتيهم بأسنا ضحى) أى ضحوة النهار وهو فى الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت (وهم يلعبون) أى يلهون من فرط الغفلة أو يشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون (أفأمنوا مكر الله) تكرير للنكير لزيادة التقرير ومكر الله تعالى استعارة لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب والمراد به اتيان

بأسه تعالى فى الوقتين المذكورين ولذلك عطف الأول والثالث بالفاء فى الانكار فيهما متوجه إلى ترتب الأمن على الأخذ المذكور وأما الثانى فمن تتمة الأول (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ) أى الذين خسروا أنفسهم وأضاعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها والاستعداد القريب المستفاد من النظر فى الآيات (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا) أى يخلفون من خلا قبلهم من الأمم المهلكة ويرثون ديارهم والمراد بهم أهل مكة ومن حولها وتعدية فعل الهداية باللام اما لتنزيلها منزلة اللازم كأنه قيل أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم الخ واما لأنها بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل على التقديرين هو الجملة الشرطية أى أولم يبين لهم مآل أمرهم (أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَٰهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) أى أن الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم أو بسبب ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وقرىء نهد بنون العظمة فالجملة مفعوله (وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) عطف على ما يفهم من قوله تعالى أولم يهد كأنه قيل لا يهتدون أو يغفلون عن الهداية أو عن التفكر والتأمل أو منقطع عنه بمعنى ونحن نطبع ولا يجوز عطفه على أصبناهم على أنه بمعنى طبعنا لافضائه إلى نفى الطبع عنهم لأنه فى سياق جواب لو (فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) أى أخبار الأمم المهلكة فضلا عن التدبر والنظر فيها والاغتنام بما فى تضاعيفها من الهداية (تِلْكَ الْقُرَىٰ) جملة مستأنفة جارية مجرى الفذلكة لما قبلها من القصص منبئة عن غاية غواية الامم المذكورة وتماديهم فيها بعد ما أتتهم الرسل بالمعجزات الباهرة وتلك إشارة إلى قرى الامم المهلكة على أن اللام للعهد وهو مبتدأ وقوله تعالى (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا) خبره وصيغة المضارع للايذان بعدم انقضاء القصة بعد ومن للتبعيض أى بعض أخبارها التى فيها عظة وتذكير وقيل تلك مبتدأ والقرى خبره وما بعده حال أو خبر بعد خبر عند من يجوز كون الخبر الثانى جملة كما فى قوله تعالى فاذا هى حية تسعى وتصدير الكلام بذكر القرى وإضافة الانباء اليها مع أن المقصوص أنباء أهلها والمقصود بيان أحوالهم حسبما يعرب عنه قوله تعالى (وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَٰتِ) لما أن حكاية هلاكهم بالمرة على وجه الاستئصال بحيث يشمل أماكنهم أيضا بالخسف بها والرجفة وبقاؤها خاوية معطلة أهول وأفظع والباء فى قوله تعالى بالبينات متعلقة اما بالفعل المذكور على أنها للتعدية واما بمحذوف وقع حالا من فاعله أى ملتبسين بالبينات لكن لا بأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد انما هى فيما بين الرسل وضمير الامم والجملة مستأنفة مبينة لكمال عتوهم وعنادهم أى وبالله لقد جاء كل أمة من تلك الامم المهلكة رسولهم الخاص بهم بالمعجزات البينة المتكثرة المتواردة عليهم الواضحة الدلالة على صحة رسالته الموجبة للايمان حتما وقوله تعالى (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) بيان لاستمرار عدم ايمانهم فى الزمان الماضى لا لعدم استمرار ايمانهم وترتيب حالتهم هذه على مجىء الرسل بالبينات بالفاء لما أن الاستمرار على فعل من الأفعال بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وإن كان استمرارا عليه فى الحقيقة لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث نحو وعظته فلم ينزجر ودعوته فلم يجب واللام لتأكيد النفى أى فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوام فى وقت من الاوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم إلى أن لقوا ما لقوا لغاية عتوهم وشدة شكيمتهم فى الكفر والطغيان ثم ان كان المحكى عنهم آخر حال كل قوم منهم فالمراد بعدم ايمانهم المذكور ههنا اصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتى وبما أشير اليه بقوله تعالى (بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ) تكذيبهم من لدن مجىء الرسل إلى وقت الاصرار والعناد وانما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالاول بل جعل صلة للموصول ايذانا بأنه بين بنفسه وانما المحتاج إلى البيان عدم ايمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التى كانت تضطرهم إلى القبول لو كانوا من أصحاب العقول والموصول الذى تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وايجابا عبارة عن جميع الشرائع التى جاء بها كل رسول أصولها وفروعها

وإن كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجىء الرسل الخ وبما أشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من جعل الموصول المذكور عبارة عن أصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم اليها آثر ذى أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجىء رسلهم أنهم ما كانوا فى زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا كلمة التوحيد قط بل كانت كل أمة من أولئك الأمم يتسامعون بها من بقايا من قبلهم فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجىء رسلهم كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الأصول لظهور حال الباقى بدلالة النص فانهم حين لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما انفرد به بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أن ما عليه يدور فلك العذاب والعقاب هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وانما ذكر ما وقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى كلا التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع إلى أسلافهم والمعنى فما كان الأبناء ليؤمنوا بما كذب به الآباء ولا يخفى ما فيه من التعسف وقيل المراد ما كانوا ليؤمنوا لو أحييناهم بعد اهلاكهم ورددناهم إلى دار التكليف بما كذبوا من قبل كقوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقيل الباء للسببية وما مصدرية أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يرد عليه ههنا ما ورد فى سورة يونس من مخالفة الجمهور بجعل ما المصدرية من قبيل الأسماء كما هو رأى الأخفش وابن السراج ليرجع اليه الضمير فى به (كذٰلك) أى مثل ذلك الطبع الشديد المحكم (يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الكٰفِرِينَ) أى من المذكورين وغيرهم فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر وفيه تحذير للسامعين واظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وادخال الروعة (ومَا وَجَدنا لِأكثَرِهِمْ) أى أكثر الأمم المذكورين واللام متعلقة بالوجدان كما فى قولك ما وجدت له مالا أى ما صادفت له مالا ولا لقيته أو بمحذوف وقع حالا من قوله تعالى (مِن عَهدٍ) لأنه فى الأصل صفة للنكرة فلما قدمت عليها انتصبت حالا والأصل ما وجدنا عهدا كائنا لأكثرهم ومن مزيدة للاستغراق أى وما وجدنا لأكثرهم من وفاء عهد فانهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه عند مساس البأساء والضراء قائلين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فتخصيص هذا الشأن بأكثرهم ليس لأن بعضهم كانوا يوفون بعهودهم بل لأن بعضهم كانوا لا يعهدون ولا يوفون وقيل المراد بالعهد ما عهد الله تعالى اليهم من الايمان والتقوى بنصب الآيات وانزال الحجج وقيل ما عهدوا عند خطاب ألست بربكم فالمراد بأكثرهم كلهم وقيل الضمير للناس والجملة اعتراض فان أكثرهم لا يوفون بالعهود بأى معنى كان (وَإنْ وَجَدْنا أكثَرَهُمْ) أى أكثر الامم أى علمناهم كما فى قولك وجدت زيدا ذا حفاظ وقيل الاول أيضا كذلك وان مخففة من ان وضمير الشأن محذوف أى ان الشأن وجدناهم (لفٰسِقِينَ) خارجين عن الطاعة ناقضين للعهود وعند الكوفيين أن ان نافية واللام بمعنى الا أى ما وجدناهم إلا فاسقين (ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ) أى أرسلناه من بعد انقضاء وقائع الرسل المذكورين أو من بعد هلاك الامم المحكية والتصريح بذلك مع دلالة ثم على التراخى للايذان بأن بعثه عليه الصلاة والسلام جرى على سنن السنة الالهية من ارسال الرسل تترى وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر (بِئَايٰتِنا) متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعول بعثنا أو صفة لمصدره أى بعثناه عليه الصلاة والسلام ملتبسا بآياتنا أو بعثناه بعثا ملتبسا بها وهى الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم حسبما سيأتى على التفصيل (إلى فِرْعَوْنَ) هو لقب لكل من ملك مصر من العمالقة

كما أن كسرى لقب لكل من ملك فارس وقيصر لكل من ملك الروم واسمه قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن الريان
(وَمَلَإِيْهِ) أى أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر مع عموم رسالته عليه الصلاة والسلام لقومه كافة حيث كانوا جميعا
مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية لاصالتهم
فى تدبير الأمور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور (فَظَلَمُوا بِهَا) أى كفروا بها أجرى الظلم مجرى الكفر لكونهما
من واد واحد أو ضمن معنى الكفر أو التكذيب أى ظلموا كافرين بها أو مكذبين بها أو كفروا بها مكان الإيمان
الذى هو من حقها لوضوحها ولهذا المعنى وضع ظلموا موضع كفروا وقيل ظلموا أنفسهم بسببها بأن عرضوها للعذاب
الخالد أو ظلموا الناس بصدهم عن الإيمان بها والمراد به الاستمرار على الكفر بها الى أن لقوا من العذاب ما لقوا ألا
يرى إلى قوله تعالى (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) فكما أن ظلمهم بها مستتبع لتلك العاقبة الهائلة كذلك حكاية
ظلمهم بها مستتبع للأمر بالنظر اليها وكيف خبر كان قدم على اسمها لاقتضائه الصدارة والجملة فى حيز النصب باسقاط
الخافض أى فانظر بعين عقلك إلى كيفية مافعلنا بهم ووضع المفسدين موضع ضميرهم للايذان بأن الظلم مستلزم للافساد
(وَقَالَ مُوسَى) كلام مبتدأ مسوق لتفصيل ما أجمل فيما قبله من كيفية إظهار الآيات وكيفية عاقبة المفسدين (يَا فِرْعَوْنُ
إِنِّي رَسُولٌ) أى اليك (مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) على الوجه الذى مر بيانه (حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ)
جواب عما ينساق اليه الذهن من حكاية ظلمهم بالآيات من تكذيبه إياه عليه الصلاة والسلام فى دعوى الرسالة وكان أصله
حقيق على أن لا أقول الخ كما هو قراءة نافع فقلب للامن من الإلباس كما فى قول من قال : وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر
أو لأن مالزمك فقد لزمته أو للاغراق فى الوصف بالصدق والمعنى واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله لا يرضى
إلا بمثلى ناطقا به أو ضمن حقيق معنى حريص أو وضع على موضع الباء لإفادة التمكن كقولهم رميت على القوس وجئت
على حال حسنة ويؤيده قراءة أبى بالباء وقرىء حقيق أن لا أقول وقوله تعالى (قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)
استئناف مقرر لما قبله من كونه رسولا من رب العالمين وكونه حقيقا بقول الحق ولم يكن هذا القول منه عليه الصلاة والسلام
وما بعده من جواب فرعون اثر ما ذكر ههنا بل بعد ما جرى بينهما من المحاورة المحكية بقوله تعالى قال فمن ربكما الآيات
وقوله تعالى وما رب العالمين الآيات وقد طوى ههنا ذكره للايجاز ومن متعلقة اما بجئتكم على أنها لابتداء الغاية مجازا واما
بمحذوف وقع صفة لبينة مفيدة لفخامتها الإضافية المؤكدة لفخامتها الذاتية المستفادة من التنوين التفخيمى وإضافة اسم
الرب إلى المخاطبين بعد إضافته فيما قبله إلى العالمين لتأكيد وجوب الإيمان بها (فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أى فخلهم
حتى يذهبوا معى إلى الأرض المقدسة التى هى وطن آبائهم وكان قد استعبدهم بعد انقراض الأسباط يستعملهم ويكلفهم
الأفاعيل الشاقة فأنقذهم الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام وكان بين اليوم الذى دخل يوسف مصر واليوم الذى دخله
موسى عليهما السلام أربعمائة عام والفاء لترتيب الإرسال أو الأمر به على ما قبله من رسالته عليه السلام ومجيئه بالبينة (قَالَ)
استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الكلام كأنه قيل فماذا قال فرعون له عليه السلام حين قال له ما قال فقيل
قال (إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ) أى من عند من أرسلك كما تدعيه (فَأْتِ بِهَا) أى فأحضرها حتى تثبت بها رسالتك
(إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فى دعواك فان كونك من جملة المعروفين بالصدق يقتضى إظهار الآية لا محالة (فَأَلْقَى
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ) أى ظاهر أمره لا يشك فى كونه ثعبانا وهو الحية العظيمة وإيثار الجملة الاسمية
للدلالة على كمال سرعة الانقلاب وثبات وصف الثعبانية فيها كأنها فى الأصل كذلك . روى أنه لما ألقاها صار ثعبانا
أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجه نحو

فرعون فهرب منه وأحدث فانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بنى اسرائيل فأخذه فعاد عصا (وَنَزَعَ يَدَهُ) أى من جيبه أو من تحت إبطه (فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) أى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادة يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمرها وذلك ماروى أنه أرى فرعون يده وقال ماهذه فقال يدك ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فاذا هى بيضاء بياضا نورانيا غلب شعاعه شعاع الشمس وكان عليه السلام آدم شديد الادمة وقيل بيضاء للناظرين لأنها كانت بيضاء فى جبلتها (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ) أى الاشراف منهم وهم أصحاب مشورته (إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) أى مبالغ فى علم السحر ماهر فيه قالوه تصديقا لفرعون وتقريرا لكلامه فان هذا القول بعينه معزى فى سورة الشعراء اليه (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ) أى من أرض مصر (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) بفتح النون وما فى ماذا فى محل النصب على أنه مفعول ثان لتأمرون بحذف الجار والأول محذوف والتقدير بأى شىء تأمرونى وهذا من كلام فرعون كما فى قوله تعالى ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب أى فاذا كان كذلك فماذا تشيرون على فى أمره وقيل قاله الملأ من قبله بطريق التبليغ إلى العامة فقوله تعالى (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ) على الأول وهو الأظهر حكاية لكلام الملأ الذين شاورهم فرعون وعلى الثانى لكلام العامة الذين خاطبهم الملأ ويأباه أن الخطاب لفرعون وأن المشاورة ليست من وظائفهم أى أخره وأخاه وعدم التعرض لذكره لظهور كونه معه حسبما ينادى به الآيات الأخر والمعنى أخر أمرهما وأصدرهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبر شأنهما وقرىء أرجئه وأرجه من أرجأه وأرجاه (وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) قيل هى مدائن صعيد مصر وكان رؤساء السحرة ومهرتهم بأقصى مدائن الصعيد وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم كانوا سبعين ساحرا أخذوا السحر من رجلين مجوسيين من أهل نينوى مدينة يونس عليه السلام بالموصل ورد ذلك بأن المجوسية ظهرت بزرادشت وهو إنما جاء بعد موسى عليه الصلاة والسلام (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) أى ماهر فى السحر وقرىء بكل سحار عليم والجملة جواب الأمر (وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ) بعدما أرسل اليهم الحاشرين وإنما لم يصرح به حسبما فى قوله تعالى فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين للايذان بمسارعة فرعون إلى الإرسال ومبادرة الحاشرين والسحرة إلى الإمتثال (قَالُوا) استئناف منوط بسؤال نشأ من حكاية مجىء السحرة كأنه قيل فماذا قالوا له عند مجيئهم إياه فقيل قالوا مدلين بما عندهم واثقين بغلبتهم (إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) بطريق الإخبار بثبوت الأجر وإيجابه كأنهم قالوا الا بد لنا من أجر عظيم حينئذ أو بطريق الاستفهام التقريرى بحذف الهمزة وقرىء باثباتها وقولهم إن كنا لمجرد تعيين مناط ثبوت الأجر لا لترددهم فى الغلبة وتوسيط الضمير وتحلية الخبر باللام للقصر أى إن كنا نحن الغالبين لاموسى (قَالَ نَعَمْ) وقوله تعالى (وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) عطف على محذوف سد مسده حرف الإيجاب كأنه قال إن لكم لأجرا وإنكم مع ذلك لمن المقربين للمبالغة فى الترغيب . روى أنه قال لهم تكونون أول من يدخل مجلسى وآخر من يخرج منه (قَالُوا) استئناف كما مر كأنه قيل فماذا فعلوا بعد ذلك فقيل قالوا متصدين لشأنهم مخاطبين لموسى عليه السلام (يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ) ماتلقى أولا (وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) أى لما نلقى أولا أو الفاعلين للالقاء أولا خيروه عليه السلام بالبدء بالالقاء مراعاة للادب وإظهارا للجلادة وأنه لايختلف حالهم بالتقديم والتأخير ولكن كانت رغبتهم فى التقديم كما ينبىء عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل وتأكيد الضمير المتصل (قَالَ أَلْقُوا) غير مبال بأمرهم أى ألقوا ماتلقون (فَلَمَّا أَلْقَوْا) ماألقوا (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ) بأن خيلوا اليهم ما لاحقيقة له (وَاسْتَرْهَبُوهُمْ) أى بالغوا فى ارهابهم (وَجَاءُو

بسحر عظيم) فى بابه . روى أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا كأنها حيات ملأت الوادى وركب بعضها بعضا (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون) الفاء فصيحة أى فألقاها فصارت حية فإذا هى الآية وإنما حذف للاشعار بمسارعة موسى عليه السلام إلى الالقاء وبغاية سرعة الانقلاب كأن لقفها لما يأفكون قد حصل متصلا بالأمر بالالقاء وصيغة المضارع لاستحضار صورة اللقف الهائلة والافك الصرف والقلب عن الوجه المعتاد وما موصولة أو موصوفة والعائد محذوف أى ما يأفكونه ويزورونه أو مصدرية وهى مع الفعل بمعنى المفعول روى أنها لما تلقفت ملء الوادى من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصا كما كانت وأعدم الله تعالى بقدرته الباهرة تلك الاجرام العظام أو فرقها أجزاء لطيفة قالت السحرة لو كان هذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا (فوقع الحق) أى فثبت لظهور أمره (وبطل ما كانوا يعملون) أى ظهر بطلان ما كانوا مستمرين على عمله (فغلبوا) أى فرعون وقومه (هنالك) أى فى مجلسهم (وانقلبوا صاغرين) أى صاروا أذلاء مبهوتين أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين والأول هو الظاهر لقوله تعالى (وألقى السحرة ساجدين) فان ذلك كان بمحضر من فرعون قطعا أى خروا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم كيف لا وقد بهرهم الحق واضطرهم إلى ذلك (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) أبدلوا الثانى من الأول لئلا يتوهم أن مرادهم فرعون عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما آمنت السحرة اتبع موسى من بنى اسرائيل ستمائة ألف (قال فرعون) منكرا على السحرة وموبخا لهم على ما فعلوه (آمنتم به) بهمزة واحدة إما على الاخبار المحض المتضمن للتوبيخ أو على الاستفهام التوبيخى بحذف الهمزة كما مر فى ان لنا لأجرا وقد قرىء بتحقيق الهمزتين معا وبتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين أى آمنتم بالله تعالى (قبل أن آذن لكم) أى بغير أن آذن لكم كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لا أن الاذن منه ممكن فى ذلك (إن هذا لمكر مكرتموه) يعنى ان ما صنعتموه ليس مما اقتضى الحال صدوره عنكم لقوة الدليل وظهور المعجزة بل هو حيلة احتلتموها مع مواطأة موسى (فى المدينة) يعنى مصر قبل أن تخرجوا إلى الميعاد . روى أن موسى عليه الصلاة والسلام وأمير السحرة التقيا فقال له موسى أرأيتك ان غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ما جئت به الحق فقال الساحر والله لئن غلبتنى لأومنن بك وفرعون يسمعهما وهو الذى نشأ عنه هذا القول (لتخرجوا منها أهلها) أى القبط وتخلص هى لك ولبنى اسرائيل وهاتان شبهتان ألقاهما إلى أسماع عوام القبط عند معاينتهم لارتفاع أعلام المعجزة ومشاهدتهم لخضوع أعناق السحرة لها وعدم تمالكهم من أن يؤمنوا بها ليمنعهم بهما عن الايمان بنبوة موسى عليه الصلاة والسلام باراءة أن إيمان السحرة مبنى على المواضعة بينهم وبين موسى وأن غرضهم بذلك إخراج القوم من المدينة وإبطال ملكهم ومعلوم أن مفارقة الأوطان المألوفة والنعمة المعروفة مما لا يطاق به فجمع اللعين بين الشبهتين تثبيتا للقبط على ما هم عليه وتهييجا لعداوتهم له عليه الصلاة والسلام ثم عقبهما بالوعيد ليريهم أن له قوة وقدرة على المدافعة فقال (فسوف تعلمون) أى عاقبة ما فعلتم وهذا وعيد ساقه بطريق الإجمال للتهويل ثم عقبه بالتفصيل فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أى من كل شق طرفا (ثم لأصلبنكم أجمعين) تفضيحا لكم وتنكيلا لأمثالكم قيل هو أول من سن ذلك فشرعه الله تعالى لقطاع الطريق تعظيما لجرمهم ولذلك سماه الله تعالى محاربة لله تعالى (قالوا) استئناف مسوق للجواب عن سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال السحرة عندما سمعوا وعيد فرعون هل تأثروا به أو تصلبوا فيما هم فيه من الدين فقيل قالوا ثابتين على ما أحدثوا من الايمان (إنا إلى ربنا منقلبون) أى بالموت لا محالة فسواء كان ذلك من قبلك أو لا فلا نبالى بوعيدك أو انا إلى رحمة ربنا وثوابه منقلبون ان فعلت بنا ذلك كأنهم استطابوه شغفا على لقاء الله

تعالى أوانا جميعاً إلى ربنا منقلبون فيحكم بيننا وبينك (وَمَا تَنقِمُ مِنَّا) أى وماتنكر وتعيب منا (إلا أن ءامنا بئايٰت رَبِّنَا لمَّا جآءَتْنا) وهو خير الأعمال وأصل المفاخر ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلبا لمرضاتك ثم أعرضوا عن مخاطبته إظهاراً لما فى قلوبهم من العزيمة على ما قالوا وتقريراً له ففزعوا إلى الله عز وجل وقالوا (رَبَّنَا أفرِغْ علينا صبراً) أى أفض علينا من الصبر ما يغمرنا كما يغمر الماء أوصب علينا ما يطهرنا من أوضار الأوزار وأدناس الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون (وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) ثابتين على ما رزقتنا من الاسلام غير مفتونين من الوعيد قيل فعل بهم ما أوعدهم به وقيل لم يقدر عليه لقوله تعالى أنتما ومن اتبعكما الغالبون (وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ) مخاطبين له بعد ما شاهدوا من أمر موسى عليه السلام (أتذرُ مُوسىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدوا فِى الأرْضِ) أى فى أرض مصر بتغيير الناس عليك وصرفهم عن متابعتك (وَيَذَرَكَ) عطف على يفسدوا أو جواب الاستفهام بالواو كما فى قول الحطيئة :

ألم أك جاركم ويكون بينى وبينكم المودة والاخاء

أى أيكون منك ترك موسى ويكون تركه إياك وقرىء بالرفع عطفا على أتذر أو استئنافا أو حالا وقرىء بالسكون كأنه قيل يفسدوا ويذرك كقوله تعالى فأصدق وأكن (وَءالِهَتَكَ) ومعبوداتك قيل إنه كان يعبد الكواكب وقيل صنع لقومه أصناما وأمرهم بأن يعبدوها تقربا إليه ولذلك قال أنا ربكم الأعلى وقرىء والهتك أى عبادتك (قَالَ) مجيبا لهم (سَنُقَتِّلُ أبْنَاءَهُمْ ونَسْتَحىِ نِسَاءَهُمْ) كما كنا نفعل بهم ذلك من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم أنه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه وقرىء سنقتل بالتخفيف (وَإنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ) كما كنا لم يتغير حالنا أصلا وهم مقهورون تحت أيدينا كذلك (قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ) تسلية لهم وعدة بحسن العاقبة حين سمعوا قول فرعون وتضجروا منه (اسْتَعِينُوا بالله وَاصْبِرُوا) على ما سمعتم من أقاويله الباطلة (إنَّ الأرْضَ لِلَّهِ) أى أرض مصر أو جنس الأرض وهى داخلة فيها دخولا أوليا (يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) الذين أنتم منهم وفيه إيذان بأن الاستعانة بالله تعالى والصبر من باب التقوى وقرىء والعاقبة بالنصب عطفا على اسم ان (قَالُوا) أى بنو اسرائيل (أُوذِينَا) أى من جهة فرعون (مِنْ قَبْلِ أنْ تَأتِيَنَا) أى بالرسالة يعنون بذلك قتل أبنائهم قبل موسى عليه الصلاة والسلام وبعده (وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) أى رسولا يعنون به ما توعدهم به من إعادة قتل الأبناء وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام من فنون الجور والظلم والعذاب وأما ما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن كما قيل فليس مما يلحقهم بواسطته عليه السلام فليس لذكره كثير ملابسة بالمقام (قَالَ) أى موسى عليه الصلاة والسلام لما رأى شدة جزعهم مما شاهدوه مسليا لهم بالتصريح بما لوح به فى قوله إن الأرض لله الخ (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ) الذى فعل بكم ما فعل وتوعدكم بإعادته (وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأرْضِ) أى يجعلكم خلفاء فى أرض مصر (فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) أحسنا أم قبيحاً فيجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال وفيه تأكيد للتسلية وتحقيق للأمر قيل لعل الاتيان بفعل الطمع لعدم الجزم منه عليه السلام بأنهم هم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم فقد روى أن مصر إنما فتحت فى زمن داود عليه السلام ولا يساعده قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها فان المتبادر استخلاف أنفس المستضعفين لا استخلاف أولادهم وإنما مجيء فعل الطمع للجرى على سنن الكبرياء (وَلَقَدْ أخَذْنَا ءالَ فِرْعَوْنَ بالسِّنِينَ) شروع فى تفصيل مبادى الهلاك الموعود وإيذان بأنه تعالى لم يمهلهم بعد ذلك ولم يكونوا فى خفض ودعة بل رتبت أسباب هلاكهم فتحولوا من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال وتصدير الجملة بالقسم

لاظهار الاعتناء بمضمونها والسنون جمع سنة والمراد بها عام القحط وفيها لغتان أشهرهما اجراؤها مجرى المذكر السالم فيرفع بالواو وينصب ويجر بالياء ويحذف نونه بالاضافة واللغة الثانية اجراء الاعراب على النون ولكن مع الياء خاصة اما باثبات تنوينها أو بحذفه قال الفراء هي في هذه اللغة مصروفة عند بني عامر وغير مصروفة عند بني تميم ووجه حذف التنوين التخفيف وحينئذ لايحذف النون للاضافة وعلى ذلك جاء قول الشاعر :

دعاني من نجد فان سنينه لعبن بنا شيبا وشيبننا مردا

وجاء الحديث اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف وسنين كسنين يوسف باللغتين (وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ) باصابة العاهات عن كعب يأتي على الناس زمان لاتحمل النخلة الاثمرة قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أما السنون فكانت لباديتهم وأهل ماشيتهم وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم (لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) كي يتذكروا ويتعظوا بذلك ويقفوا على أن ذلك لأجل معاصيهم وينزجروا عما هم عليه من العتو والعناد. قال الزجاج ان أحوال الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل وفي الرجوع اليه تعالى ألا يرى إلى قوله تعالى وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض وقد مر تحقيق القول في لعل وفي محالها في تفسير قوله تعالى لعلكم تتقون في أوائل سورة البقرة وقوله تعالى (فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ) الخ بيان لعدم تذكرهم وتماديهم في الغي أي فاذا جاءتهم السعة والخصب وغيرهما من الخيرات (قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ) أي لاجلنا واستحقاقنا لها (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ) أي جدب وبلاء (يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ) أي يتشاءموا بهم ويقولوا ما أصابتنا الا بشؤمهم وهذا كما ترى شاهد بكمال قساوة قلوبهم ونهاية جهلهم وغباوتهم فان الشدائد ترقق القلوب وتلين العرائك لاسيما بعد مشاهدة الآيات وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شيء منها بل ازدادوا عتوا وعنادا وتعريف الحسنة وذكرها بأداة التحقيق للايذان بكثرة وقوعها وتعلق الارادة بها بالذات كما أن تنكير السيئة وايرادها بحرف الشك للاشعار بندرة وقوعها وعدم تعلق الارادة بها الا بالعرض وقوله تعالى (أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ) استئناف مسوق من قبله تعالى لرد مقالتهم الباطلة وتحقيق الحق في ذلك وتصديره بكلمة التنبيه لابراز كمال العناية بمضمونه أي ليس سبب خيرهم الا عنده تعالى وهو حكمه ومشيئته المتضمنة للحكم والمصالح أو ليس سبب شؤمهم وهو أعمالهم السيئة الا عنده تعالى أي مكتوبة لديه فانها التي ساقت اليهم مايسوءهم لاماعداها وقرىء انما طيرهم وهو اسم جمع طائر وقيل جمع له (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ذلك فيقولون مايقولون مما حكى عنهم واسناد عدم العلم إلى أكثرهم للاشعار بأن بعضهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشر من جهة الله تعالى أو يعلمون أن ما أصابهم من المصائب والبلايا ليس الا بما كسبت أيديهم ولكن لايعملون بمقتضاه عنادا واستكبارا (وَقَالُوا) شروع في بيان بعض آخر مما أخذ به آل فرعون من فنون العذاب التي هي في أنفسها آيات بينات وعدم ارعوائهم مع ذلك عما كانوا عليه من الكفر والعناد أي قالوا بعد ما رأوا مارأوا من شأن العصا والسنين ونقص الثمرات (مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ) كلمة مهما تستعمل للشرط والجزاء وأصلها ما الجزائية ضمت اليها ما المزيدة للتأكيد كما ضمت إلى أين وان في أينما تكونوا واما تذهبن بك خلا ان ألف الأولى قلبت هاء حذرا من تكرير المتجانسين هذا هو الرأي السديد وقيل مه كلمة يصوت بها الناهي ضمت اليها ما الشرطية ومحلها الرفع بالابتداء أو النصب بفعل يفسره مابعدها أي شيء تظهره لدينا وقوله تعالى (مِنْ آيَةٍ) بيان لمهما وتسميتهم اياها آية لجاراتهم على رأس موسى عليه السلام واستهزائهم بها وللاشعار بأن عنوان كونها آية لايؤثر فيهم وقوله تعالى (لِتَسْحَرَنَا بِهَا) اظهار لكمال الطغيان والغلو فيه وتسمية للارشاد إلى الحق بالسحر وتسكير الأبصار والضميران المجروران راجعان إلى مهما وتذكير الأول لمراعاة جانب اللفظ لابهامه وتأنيث الثاني للمحافظة على جانب المعنى لتبيينه بآية كما في قوله تعالى مايفتح الله

للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له (فما نحن لك بمؤمنين) بمصدقين لك ومؤمنين لنبوتك (فأرسلنا عليهم) عقوبة لجرائمهم لاسيما لقولهم هذا (الطوفان) أى الماء الذى طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل وقيل هو الجدرى وقيل الموتان وقيل الطاعون (والجراد والقمل) قيل هو كبار القردان وقيل أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها (والضفادع والدم) روى أنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يستطيع أن يخرج أحد من بيته ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل منه قطرة وهى فى خلال بيوتهم وفاض الماء على أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والتصرف ودام ذلك سبعة أيام فقالوا له عليه الصلاة والسلام ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك فدعا فكشف عنهم فنبت من العشب والكلأ مالم يعهد قبله ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم الجراد فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم ففزعوا اليه عليه الصلاة والسلام لما ذكر فخرج إلى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت إلى النواحى التى جاءت منها فلم يؤمنوا فسلط الله تعالى عليهم القمل فأكل ما أبقته الجراد وكان يقع فى أطعمتهم ويدخل بين ثيابهم وجلودهم فيمصها ففزعوا اليه ثالثا فرفع عنهم فقالوا قد تحققنا الآن أنك ساحر ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام الا وجدت فيه وكانت تمتلىء منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهى تغلى وإلى أفواههم عند التكلم ففزعوا اليه رابعا وتضرعوا فأخذ عليهم العهود فدعا فكشف الله عنهم فنقضوا العهد فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماء حتى كان يجتمع القبطى والإسرائيلى على اناء فيكون مايليه دما ومايلى الإسرائيلى ماء على حاله ويمص من فم الإسرائيلى فيصير دما فى فيه وقيل سلط الله عليهم الرعاف (ءايت) حال من المنصوبات المذكورة (مفصلت) مبينات لا يشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته وقيل مفرقات بعضها من بعض لامتحان أحوالهم وكان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة منها أسبوعا وقيل انه عليه السلام لبث فيهم بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل (فاستكبروا) أى عن الإيمان بها (وكانوا قوما مجرمين) جملة معترضة مقررة لمضمون ماقبلها (ولما وقع عليهم الرجز) أى العذاب المذكور على التفصيل فاللام للجنس المنتظم لكل واحدة من الآيات المفصلة أى كلما وقع عليهم عقوبة من تلك العقوبات (قالوا) فى كل مرة (يموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) أى بعهده عندك وهو النبوة أو بالذى عهداليك أن تدعوه فيجيبك كما أجابك فى آياتك وهو صلة لادع أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلا اليه بما عهد عندك أو متعلق بمحذوف دل عليه التماسهم مثل أسعفنا إلى مانطلب بحق ماعندك أو قسم أجيب بقوله تعالى (لئن كشفت عنا الرجز) الذى وقع علينا (لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرءيل) أى أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت الخ (فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بلغوه) أى إلى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون بعده أو مهلكون (إذا هم ينكثون) جواب لما أى فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث من غير تأمل وتوقف (فانتقمنا منهم) أى فأردنا أن ننتقم منهم لما أسلفوا من المعاصى والجرائم فان قوله تعالى (فأغرقنهم) عين الانتقام منهم فلا يصح دخول الفاء بينهما ويجوز أن يكون المراد مطلق الانتقام منهم والفاء تفسيرية كما فى قوله تعالى ونادى نوح ربه فقال رب الخ (فى اليم) فى البحر الذى لايدرك قعره وقيل فى لجته (بأنهم كذبوا بايتنا وكانوا عنها غفلين) تعليل للاغراق أى كان اغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى واعراضهم عنها وعدم تفكرهم فيها بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية والفاء وان دلت على ترتب الاغراق على ماقبله من النكث لكنه صرح بالتعليل ايذانا بأن مدار جميع ذلك تكذيب آيات الله تعالى والاعراض عنها ليكون ذلك مزجرة للسامعين عن تكذيب الآيات الظاهرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاعراض عنها

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ) أى بالاستعباد وذبح الابناء والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده وهم بنو اسرائيل ذكروا بهذا العنوان اظهارا لكمال لطفه تعالى بهم وعظيم إحسانه اليهم فى رفعهم من حضيض المذلة إلى أوج العزة (مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا) أى جانبيها الشرقى والغربى حيث ملكها بنو اسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتصرفوا فى أكنافها الشرقية والغربية كيف شاؤا وقوله تعالى (الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا) أى بالخصب وسعة الأرزاق صفة للمشارق والمغارب وقيل للأرض وفيه ضعف للفصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف كما فى قولك قام أم هند وأبوها العاقلة (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى) وهى وعده تعالى إياهم بالنصر والتمكين كما ينبىء عنه قوله تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين وقرىء كلمات لتعدد المواعيد ومعنى تمت مضت واستمرت (عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا) أى بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من جهة فرعون وقومه (وَدَمَّرْنَا) أى خربنا وأهلكنا (مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ) من العمارات والقصور أى ودمرنا الذى كان فرعون يصنعه على أن فرعون اسم كان ويصنع خبر مقدم والجملة الكونية صلة ما والعائد محذوف وقيل اسم كان ضمير عائد إلى ما الموصولة ويصنع مسند إلى فرعون والجملة خبر كان والعائد محذوف أيضا والتقدير ودمرنا الذى كان هو يصنعه فرعون الخ وقيل كان زائدة وما مصدرية والتقدير ما يصنع فرعون الخ وقيل كان زائدة كما ذكر وما موصولة اسمية والعائد محذوف تقديره ودمرنا الذى يصنعه فرعون الخ أى صنعه والعدول إلى صيغة المضارع على هذين القولين لاستحضار السورة (وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) من الجنات أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان وقرىء يعرشون بضم الراء والكسر أفصح وهذا آخر قصة فرعون وقومه وقوله عز وجل (وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ) شروع فى قصة بنى اسرائيل وشرح ما أحدثوه من الأمور الشنيعة بعد أن أنقذهم الله عز وجل من ملكة فرعون ومن عليهم من النعم العظام الموجبة للشكر وأراهم من الآيات الكبار ما تخر له شم الجبال تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإيقاظا للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم وجاوز بمعنى جاز وقرىء جوزنا بالتشديد وهو أيضا بمعنى جاز فعدى بالباء أى قطعنا بهم البحر . وروى أنه عبر بهم موسى عليه السلام يوم عاشوراء بعدما أهلك الله تعالى فرعون فصاموه شكراً لله عز وجل (فَأَتَوْا) أى مروا (عَلَى قَوْمٍ) قيل كانوا من لخم وقيل من العمالقة الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم (يَعْكِفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ) أى يواظبون على عبادتها ويلازمونها وقرىء بكسر الكاف قال ابن جريج كانت أصنامهم تماثيل بقر وهو أول شأن العجل (قَالُوا) عندما شاهدوا أحوالهم (يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا) مثالا نعبده (كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) الكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لالها وما موصولة ولهم صلتها وآلهة بدل من ما والتقدير اجعل لنا إلها كائنا كالذى استقر هو لهم (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) تعجب عليه السلام من قولهم هذا اثر ما شاهدوا من الآية الكبرى والمعجزة العظمى فوصفهم بالجهل المطلق إذ لا جهل أعظم مما ظهر منهم وأكده بقوله (إِنَّ هَؤُلَاءِ) يعنى القوم الذين يعبدون تلك التماثيل (مُتَبَّرٌ) أى مدمر مكسر (مَا هُمْ فِيهِ) أى من الدين الباطل أى يتبر الله تعالى ويهدم دينهم الذى هم عليه عن قريب ويحطم أصنامهم ويتركها رضاضا وإنما جىء بالجملة الاسمية للدلالة على التحقق (وَبَاطِلٌ) أى مضمحل بالكلية (مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من عبادتها وإن كان قصدهم بذلك التقرب إلى الله تعالى فانه كفر محض وليس هذا كما فى قوله تعالى وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا كما توهم فان المراد به أعمال البر التى عملوها فى الجاهلية فانها فى أنفسها حسنات لو قارنت الايمان لاستتبعت أجورها وإنما بطلت لمقارنتها الكفر وفى

إيقاع هؤلاء اسماً لان وتقديم الخبر من الجملة الواقعة خبر الهاوسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار وأنه لا يعدوهم البتة وأنه لهم ضربة لازب ليحذرهم عاقبة ماطلبوا ويبغض اليهم ماأحبوا (قالَ أغيرَ اللهِ أبغيكُمْ إلٰهاً) شروع فى بيان شئون الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى بعد بيان أن ماطلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلا لكونه هالكا باطلا ولذلك وسط بينهما قال مع كون كل منهما كلام موسى عليه الصلاة والسلام والاستفهام للانكار والتعجب والتوبيخ وادخال الهمزة على غير للايذان بأن المنكر هو كون المبغى غيره تعالى لما أنه لاختصاص الانكار بغيره تعالى دون انكار الاختصاص بغيره تعالى وانتصاب غير على أنه مفعول أبغى بحذف اللام أى أبغى لكم أى أطلب لكم غير الله تعالى وإلها إما تمييز أو حال أو على الحالية من الها وهو المفعول لأبغى على أن الأصل أبغى لكم إلها غير الله فغير الله صفة لالها فلما قدمت صفة النكرة انتصبت حالا (وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العٰلَمِينَ) أى والحال أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم وفيه تنبيه على ماصنعوا من سوء المعاملة حيث قابلوا تخصيص الله تعالى إياهم من بين أمثالهم بما لم يستحقوه تفضلا بأن عمدوا إلى أخس شىء من مخلوقاته فجعلوه شريكاله تعالى تبا لهم ولما يعبدون (وَإذْ أنجيْنٰكُمْ) تذكير لهم من جهته سبحانه بنعمة الانجاء من ملكة فرعون وقرىء نجينا كم من التنجية وقرىء أنجاكم فيكون مسوقا من جهة موسى عليه الصلاة والسلام أى واذكروا وقت انجائنا إياكم (مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ) من ملكتهم لا بمجرد تخليصكم من أيديهم وهم على حالهم فى المكنة والقدرة بل باهلاكهم بالكلية وقوله تعالى (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ) من سامه خسفا أى أولاه إياه أو كلفه إياه وهو اما استئناف لبيان ما أنجاهم منه أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما معا لاشتماله على ضميريهما وقوله تعالى (يُقَتِّلُونَ أبْنٰاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) بدل من يسومونكم مبين أو مفسر له (وَفى ذٰلِكُمْ) الانجاء أو سوء العذاب (بَلاءٌ) أى نعمة أو محنة (مِنْ رَبِّكُمْ) من مالك أمركم فان النعمة والنقمة كلتاهما منه سبحانه وتعالى (عَظِيمٌ) لا يقادر قدره (وَوٰعَدْنَا مُوسَى ثَلٰثِينَ لَيْلَةً) روى أن موسى عليه السلام وعد بنى اسرائيل وهم بمصر ان أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان مايأتون ومايذرون فلما هلك فرعون سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب فامره بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك وقيل أوحى الله تعالى اليه أما علمت أن ريح فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك فأمره الله تعالى بأن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك وذلك قوله تعالى (وَأتْمَمْنٰاها بِعَشْرٍ) والتعبير عنها بالليالى لأنها غرر الشهور وقيل أمره الله تعالى بأن يصوم ثلاثين يوما وأن يعمل فيها بما يقربه من الله تعالى ثم أنزلت عليه التوراة فى العشر وكلم فيها وقد أجمل ذكر الأربعين فى سورة البقرة وفصل ههنا وواعدنا بمعنى وعدنا وقد قرىء كذلك وقيل الصيغة على بابها بناء على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وثلاثين مفعول ثان لواعدنا بحذف المضاف أى اتمام ثلاثين ليلة (فَتَمَّ مِيقٰتُ رَبِّهِ أرْبَعِينَ لَيْلَةً) أى بالغا أربعين ليلة (وَقالَ مُوسَىٰ لأخِيهِ هٰرُونَ) حين توجه إلى المناجاة حسبما أمر به (اخْلُفْنِى) أى كن خليفتى (فى قَوْمِى) وراقبهم فيما يأتون ومايذرون (وَأصْلِحْ) مايحتاج إلى الاصلاح من أمورهم أو كن مصلحا (وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المُفْسِدِينَ) أى لا تتبع من سلك الافساد ولا تطع من دعاك اليه (وَلَمَّا جاءَ مُوسَى لِمِيقٰتِنا) لوقتنا الذى وقتناه واللام للاختصاص أى اختص مجيئه بميقاتنا (وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) من غير واسطة كما يكلم الملائكة عليهم السلام وفيما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه عز وجل ليس من جنس سماع كلام المحدثين (قالَ رَبِّ أرِنِى أنْظُرْ إلَيْكَ) أى أرنى ذاتك بأن تمكننى من رؤيتك أو تتجلى لى فأنظر اليك وأراك وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة فى الجملة

لما أن طلب المستحيل مستحيل من الأنبياء لا سيما ما يقتضى الجهل بشئون الله تعالى ولذلك رده بقوله لن ترانى دون لن أرى ولن أريك ولن تنظر إلى تنبيها على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد فى الرائى ولم يوجد فيه ذلك بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا أرنا الله جهرة خطأ إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل ذلك حين قالوا اجعل لنا إلها وأن لا يتبع سبيلهم كما قال لأخيه ولا تتبع سبيل المفسدين والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ إذ لا يدل الاخبار بعدم رؤيته إياه على أنه لا يراه أبدا وأن لا يراه غيره أصلا فضلا عن أن يدل على استحالتها ودعوى الضرورة مكابرة أو جهل لحقيقة الرؤية (قالَ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا قال رب العزة حين قال موسى عليه السلام ما قال فقيل قال (لَنْ تَرانِي وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي) استدراك لبيان أنه لا يطيق بها وفى تعليقها باستقرار الجبل أيضا دليل على الجواز ضرورة أن المعلق بالممكن ممكن والجبل قيل هو جبل أردن (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ) أى ظهرت له عظمته وتصدى له اقتداره وأمره وقيل أعطى الجبل حياة ورؤية حتى رآه (جَعَلَهُ دَكًّا) مدكوكا مفتتا والدك والدق أخوان كالشك والشق وقرىء دكاء أى أرضا مستوية ومنه ناقة دكاء للتى لا سنام لها وقرىء دكا جمع دكاء أى قطعا (وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً) مغشيا عليه من هول ما رآه (فَلَمَّا أَفاقَ) الافاقة رجوع العقل والفهم إلى الانسان بعد ذهابهما بسبب من الأسباب (قالَ) تعظيما لما شاهده (سُبْحانَكَ) أى تنزيها لك من أن أسألك شيأ بغير اذن منك (تُبْتُ إِلَيْكَ) أى من الجراءة والاقدام على السؤال بغير اذن (وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) أى بعظمتك وجلالك وقيل أول من آمن بأنك لا ترى فى الدنيا وقيل بأنه لا يجوز السؤال بغير إذن منك (قالَ يا مُوسى) استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام من عدم الاجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحدا من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ) أى اخترتك واتخذتك صفوة وآثرتك (عَلَى النَّاسِ) أى المعاصرين لك وهرون وان كان نبيا كان مأمورا باتباعه وما كان كليما ولا صاحب شرع (بِرِسالاتِي) أى بأسفار التوراة وقرىء برسالتى (وَبِكَلامِي) وبتكليمى إياك بغير واسطة (فَخُذْ ما آتَيْتُكَ) أى أعطيتك من شرف النبوة والحكمة (وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) على ما أعطيت من جلائل النعم . قيل كان سؤال الرؤية يوم عرفة واعطاء التوراة يوم النحر (وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) أى مما يحتاجون اليه من أمور دينهم (مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ) بدل من الجار والمجرور أى كتبنا له كل شىء من المواعظ وتفصيل الأحكام واختلف فى عدد الألواح وفى جوهرها ومقدارها فقيل انها كانت عشرة ألواح وقيل سبعة وقيل لوحين وانها كانت من زمردة جاء بها جبريل عليه السلام وقيل من زبرجدة خضراء أو ياقوتة حمراء وقيل أمر الله تعالى موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده وشققها بأصابعه وعن الحسن رضى الله عنه كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة وان طولها كان عشرة أذرع وقيل أنزلت التوراة وهى سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منه فى سنة لم يقرأها الا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام وعن مقاتل رضى الله عنه كتب فى الألواح انى أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بى شيئا ولا تقطعوا السبيل ولا تزنوا ولا تعقوا الوالدين (فَخُذْها) على اضمار قول معطوف على كتبنا أى فقلنا خذها (بِقُوَّةٍ) بجد وعزيمة وقيل هو بدل من قوله تعالى فخذ ما آتيتك والضمير للألواح أو لكل شىء لأنه بمعنى الأشياء أو للرسالة أو للتوراة (وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها) أى بأحسن ما فيها كالعفو والصبر بالاضافة إلى الاقتصاص والانتصار على طريقة الندب والحث على اختيار الأفضل كما فى قوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم أو بواجباتها فانها أحسن من المباح وقيل المعنى يأخذوا بها وأحسن صلة قال قطرب أى بحسنها

وكلها حسن كقوله تعالى ولذكر الله أكبر وقيل هو أن تحمل الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعان على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها إلى الصواب (سأوريكم دار الفسقين) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى قومه عليه الصلاة والسلام بطريق الالتفات حملا لهم على الجد فى الامتثال بما أمروا به اما على نهج الوعيد والترهيب على أن المراد بدار الفاسقين أرض مصر وديار عاد وثمود وأضرابهم فان رؤيتها وهى خالية عن أهلها خاوية على عروشها موجبة للاعتبار والانزجار عن مثل أعمال أهلها كيلا يحل بهم ما حل بأولئك واما على نهج الوعد والترغيب على أن المراد بدار الفاسقين اما أرض مصر خاصة أو مع أرض الجبابرة والعمالقة بالشام فانها أيضا مما أتيح لبنى إسرائيل وكتب لهم حسبما ينطق به قوله عز وجل ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ومعنى الاراءة الادخال بطريق الايراث ويؤيده قراءة من قرأ سأورثكم بالثاء المثلثة كما فى قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها وقرىء سأوريكم ولعله من أوريت الزند أى سأبينها لكم وقوله تعالى (سأصرف عن ءايتى الذين يتكبرون فى الأرض) استئناف مسوق لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر فى الآيات التى هى ما كتب فى ألواح التوراة من المواعظ والأحكام أو مايعمها وغيرها من الآيات التكوينية التى من جملتها ماوعد اراءته من دار الفاسقين ومعنى صرفهم عنها الطبع على قلوبهم بحيث لايكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لاصرارهم على ماهم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع أن فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الجليل أى سأطبع على قلوب الذين يعدون أنفسهم كبراء ويرون لهم على الخلق مزية وفضلا فلا ينتفعون بآياتى التنزيلية والتكوينية ولا يغتنمون مغانم آثارها فلا تسلكوا مسلكهم لتكونوا أمثالهم وقيل المعنى سأصرفهم عن أبطالها وان اجتهدوا كما اجتهد فرعون فى ابطال مارآه من الآيات فأبى الله تعالى الا احقاق الحق وازهاق الباطل وعلى هذا فالانسب أن يراد بدار الفاسقين أرض الجبابرة والعمالقة المشهورين بالفسق والتكبر فى الأرض وباراءتها للمخاطبين ادخالهم الشام واسكانهم فى مساكنهم ومنازلهم حسبما نطق به قوله تعالى ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ويكون قوله تعالى سأصرف عن آياتى الخ جوابا عن سؤال مقدر ناشىء من الوعد بادخال الشام على أن المراد بالآيات ماتلى آنفا ونظائره وبصرفهم عنها إزالتهم عن مقام معارضتها وممانعتها لوقوع أخبارها وظهور أحكامها وآثارها باهلاكهم على يد موسى عليه الصلاة والسلام حين صار بعد التيه بمن بقى من بنى إسرائيل أو بذرياتهم على اختلاف الروايتين إلى أريحا ويوشع بن نون فى مقدمته ففتحها واستقر بنو إسرائيل بالشام وملكوا مشارقها ومغاربها كأنه قيل كيف يرون دارهم وهم فيها فقيل سأهلكهم وإنما عدل إلى الصرف ليزدادوا ثقة بالآيات واطمئنانا بها وقوله تعالى (بغير الحق) اما صلة للتكبر أى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط أو متعلق بمحذوف هو حال من فاعله أى يتكبرون ملتبسين بغير الحق وقوله تعالى (وإن يروا كل ءاية لا يؤمنوا بها) عطف على يتكبرون داخل معه فى حكم الصلة والمراد بالآية اما المنزلة فالمراد برؤيتها مشاهدتها بسماعها أو مايعمها وغيرها من المعجزات فالمراد برؤيتها مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع والابصار أى وان يشاهدوا كل آية من الآيات لا يؤمنوا بها على عموم النفى لا على نفى العموم أى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم إياها كما هى وهذا كما ترى يؤيد كون الصرف بمعنى الطبع وقوله تعالى (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا) عطف على ماقبله داخل فى حكمه أى لا يتوجهون إلى الحق ولا يسلكون سبيله أصلا لاستيلاء الشيطنة عليهم ومطبوعيتهم على الانحراف والزيغ وقرىء بفتحتين وقرىء الرشاد وثلاثتها لغات كالسقم والسقم والسقام (وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا) أى يختارونه لأنفسهم مسلكا

مستمر آلا يكادون يعدلون عنه لموافقته لأهوائهم الباطلة وافضائه بهم إلى شهواتهم (ذٰلك) اشارة إلى ماذكر من تكبرهم وعدم ايمانهم بشيء من الآيات واعراضهم عن سبيل الرشد واقبالهم التام إلى سبيل الغي وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بِأَنَّهُمْ) أى حاصل بسبب أنهم (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح وعلى حقية أضدادها (وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) لا يتفكرون فيها والا لما فعلوا ما فعلوا من الاباطيل ويجوز أن يكون اشارة إلى ماذكر من الصرف ولا يمنعه الاشعار بعلية ما في حيز الصلة كيف لا وقد مر أن ذلك في قوله تعالى ذلك بما عصوا الآية يجوز أن يكون اشارة إلى ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم مع كون ذلك معللا بالكفر بآيات الله صريحا وقيل محل اسم الاشارة النصب على المصدر أى سأصرفهم ذلك الصرف بسبب تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ) أى وبلقائهم الدار الآخرة أو لقائهم ما وعده الله تعالى في الآخرة من الجزاء ومحل الموصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى (حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) خبره أى ظهر بطلان أعمالهم التى كانوا عملوها من صلة الأرحام وإغاثة الملهوفين ونحو ذلك أو حبطت بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير ايمانهم بها (هَلْ يُجْزَوْنَ) أى لا يجزون (إلا ما كانوا يَعْمَلُونَ) أى الا جزاء ما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصى (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ) أى من بعد ذهابه إلى الطور (مِنْ حُلِيِّهِمْ) متعلق باتخذ كالجار الأول لاختلاف معنييهما فان الأول للابتداء والثانى للتبعيض أو للبيان أو الثانى متعلق بمحذوف وقع حالا مما بعده اذ لو تأخر لكان صفة له واضافة الحلى اليهم مع أنها كانت للقبط لادنى الملابسة حيث كانوا استعاروها من أربابها قبيل الغرق فبقيت في أيديهم وأما أنهم ملكوها بعد الغرق فذلك منوط بتملك بنى اسرائيل غنائم القبط مستأمنون فيما بينهم فلا يساعده قولهم حملنا أوزارا من زينة القوم والحلى بضم الحاء وكسر اللام جمع حلى كثدى وثدى وقرىء بكسر الحاء بالاتباع كدلى وقرىء حليهم على الافراد وقوله تعالى (عِجْلًا) مفعول اتخذ أخر عن المجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقيل هو متعد إلى اثنين بمعنى التصيير والمفعول الثانى محذوف أى الها وقوله تعالى (جَسَدًا) بدل من عجلا أى جثة ذا دم ولحم أو جسدا من ذهب لا روح معه وقوله تعالى (لَهُ خُوَارٌ) أى صوت بقر وقرىء بالجيم والهمزة وهو الصياح نعت لعجلا. روى أن السامرى لما صاغ العجل ألقى في فمه ترابا من أثر فرس جبريل عليه الصلاة والسلام وقد كان أخذه عند فلق البحر أو عند توجهه إلى الطور فصار حيا وقيل صاغه بنوع من الحيل فيدخل الريح في جوفه فيصوت والانسب بما في سورة طه هو الأول وإنما نسب اتخاذه اليهم وهو فعله اما لأنه واحد منهم واما لأنهم رضوا به فكأنهم فعلوه واما لأن المراد بالاتخاذ اتخاذهم اياه الها لا صنعه واحداثه (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ) استئناف مسوق لتقريعهم وتشنيعهم وتركيك عقولهم وتسفيههم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى هو اتخاذه الها أى ألم يروا أنه ليس فيه شيء من أحكام الالوهية حيث لا يكلمهم (وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا) بوجه من الوجوه فكيف اتخذوه إلها وقوله تعالى (اتَّخَذُوهُ) أى فعلوا ذلك (وَكَانُوا ظَالِمِينَ) أى واضعين للاشياء في غير موضعها فلم يكن هذا أول منكر فعلوه والجملة اعتراض تذييلى وتكرير اتخذوه لتثنية التشنيع وترتيب الاعتراض عليه (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) أى ندموا على ما فعلوا غاية الندم فان ذلك كناية عنه لأن النادم المتحسر يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها وقرىء سقط على البناء للفاعل بمعنى وقع العض فيها فاليد حقيقة وقال الزجاج معناه سقط الندم في أنفسهم اما بطريق الاستعارة بالكناية أو بطريق التمثيل (وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا) باتخاذ العجل أى تبينوا بحيث تيقنوا بذلك حتى كأنهم رأوه بأعينهم وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية مع كونه متأخرا عنها للمسارعة إلى بيانه والاشعار

بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية (قالوا) والله (لئن لم يرحمنا ربنا) بانزال التوبة المكفرة (ويغفر لنا) ذنوبنا بالتجاوز عن خطيئتنا وتقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية إما للمسارعة إلى ماهو المقصود الأصلى وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبدأ لانزال التوبة المكفرة لذنوبهم واللام فى لئن موطئة للقسم كما أشير اليه فى قوله تعالى (لنكونن من الخسرين) لجواب القسم وما حكى عنهم من الندامة والرؤية والقول وان كان بعد مارجع موسى عليه الصلاة والسلام اليهم كما ينطق به الآيات الواردة فى سورة طه لكن أريد بتقديمه عليه حكاية ماصدر عنهم من القول والفعل فى موضع واحد (ولما رجع موسى إلى قومه) شروع فى بيان ماجرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه من الميقات اثر بيان ماوقع من قومه بعده وقوله تعالى (غضبن أسفا) حالان من موسى عليه السلام أو الثانى من المستكن فى غضبان والأسف الشديد الغضب وقيل الحزين (قال بئسما خلفتمونى من بعدى) أى بئسما فعلتم من بعد غيبتى حيث عبدتم العجل بعدما رأيتم فعلى من توحيد الله تعالى ونفى الشركاء عنه واخلاص العبادة له أو من حملكم على ذلك وكفكم عما طمحت نحوه أبصاركم حيث قلتم اجعل لنا الها كما لهم آلهة ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف فالخطاب للعبدة من السامرى وأشياعه أو بئسما قمتم مقامى ولم تراعوا عهدى حيث لم تكفوا العبدة عما فعلوا فالخطاب لهرون ومن معه من المؤمنين كما ينبىء عنه قوله تعالى قال ياهرون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمرى ويجوز أن يكون الخطاب للكل على أن المراد بالخليفة مايعم الأمرين المذكورين وما نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بئس المستكن فيه والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم (أعجلتم أمر ربكم) أى تركتموه غير تام على تضمين عجل معنى سبق يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام أو أعجلتم وعد ربكم الذى وعدنيه من الأربعين وقدرتم موتى وغيرتم بعدى كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم (وألقى الألواح) طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حمية للدين . روى أن التوراة كانت سبعة أسباع فى سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفعت ستة أسباعها التى كان فيها تفصيل كل شىء وبقى سبع كان فيه المواعظ والأحكام (وأخذ برأس أخيه) بشعر رأسه عليهما السلام (يجره إليه) حال من ضمير أخذ فعله عليه السلام توهما أنه قصر فى كفهم وهرون كان أكبر منه عليهما السلام بثلاث سنين وكان حمولا ولذلك كان أحب إلى بنى اسرائيل (قال) أى هرون مخاطبا لموسى عليهما السلام (ابن أم) بحذف حرف النداء وتخصيص الأم بالذكر مع كونهما شقيقين لما أن حق الأم أعظم وأحق بالمراعاة مع أنها كانت مؤمنة وقد قاست فيه المخاوف والشدائد وقرىء بكسر الميم باسقاط الياء تخفيفا كالمنادى المضاف إلى الياء وقراءة الفتح لزيادة التخفيف أو لتشبيهه بخمسة عشر (إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى) إزاحة لتوهم التقصير فى حقه والمعنى بذلت جهدى فى كفهم حتى قهرونى واستضعفونى وقاربوا قتلى (فلا تشمت بى الأعداء) أى فلا تفعل بى ما يكون سببا لشماتتهم بى (ولا تجعلنى مع القوم الظلمين) أى معدودا فى عدادهم بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير وهذا يؤيد كون الخطاب للكل أو لا تعتقد أنى واحد من الظالمين مع براءتى منهم ومن ظلمهم (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماذا قال موسى عند ذلك فقيل قال (رب اغفر لى) أى مافعلت بأخى من غير ذنب مقرر من قبله (ولأخى) إن فرط منه تقصير ما فى كفهم عما فعلوه من العظيمة استغفر عليه السلام لنفسه ليرضى أخاه ويظهر للشامتين رضاه لئلا تتم شماتتهم به ولأخيه للايذان بأنه محتاج إلى الاستغفار حيث كان يجب عليه أن يقاتلهم (وأدخلنا فى رحمتك) بمزيد الانعام بعد غفران ماسلف منا (وأنت أرحم الرحمين) فلا غرو فى انتظامنا فى سلك رحمتك الواسعة فى الدنيا

والآخرة والجملة إعتراض تذييلي مقرر لماقبله (إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ) أى تموا على اتخاذه واستمروا على عبادته كالسامرى وأشياعه من الذين أشربوه فى قلوبهم كما يفصح عنه كون الموصول الثانى عبارة عن التائبين فان ذلك صريح فى أن الموصول الأول عبارة عن المصرين (سَيَنَالُهُمْ) أى فى الآخرة (غَضَبٌ) أى عظيم لا يقادر قدره مستتبع لفنون العقوبات لما أن جريمتهم أعظم الجرائم وأقبح الجرائر وقوله تعالى (مِنْ رَبِّهِمْ) أى مالكهم متعلق بينالهم أو بمحذوف هو نعت لغضب مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى كائن من ربهم (وَذِلَّةٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) هى ذلة الاغتراب التى تضرب بها الأمثال والمسكنة المنتظمة لهم ولأولادهم جميعا والذلة التى اختص بها السامرى من الانفراد عن الناس والابتلاء بلا مساس . يروى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك وإذا مس أحدهم أحد غيرهم حما جميعا فى الوقت وايراد ما نالهم فى حيز السين مع مضيه بطريق تغليب حال الأخلاف على حال الأسلاف وقيل المراد بهم التائبون وبالغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم واعتذر عن السين بأن ذلك حكاية عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل بأنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فيكون سابقا على الغضب وأنت خبير بأن سباق النظم الكريم وسياقه نابيان عن ذلك نبوا ظاهرا كيف لا وقوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ) ينادى على خلافه فانهم شهداء تائبون فكيف يمكن وصفهم بعد ذلك بالافتراء وأيضا ليس يجزى الله تعالى كل المفترين بهذا الجزاء الذى ظاهره قهر وباطنه لطف ورحمة وقيل المراد بهم أبناؤهم المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فان تعيير الأبناء بأفاعيل الآباء مشهور معروف منه قوله تعالى وإذ قتلتم نفسا الآية وقوله تعالى وإذ قلتم ياموسى الآية والمراد بالغضب الغضب الأخروى وبالذلة ما أصابهم من القتل والاجلاء وضرب الجزية عليهم وقيل المراد بالموصول المتخذون حقيقة وبالضمير فى ينالهم أخلافهم ولاريب فى أن توسيط حال هؤلاء فى تضاعيف بيان حال المتخذين من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه (وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ) أى سيئة كانت (ثُمَّ تَابُوا) عن تلك السيئات (مِنْ بَعْدِهَا) أى بعد عملها (وَآمَنُوا) إيمانا صحيحا خالصا واشتغلوا باقامة ما هو من مقتضياته من الأعمال الصالحة ولم يصروا على ما فعلوا كالطائفة الأولى (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا) أى من بعد تلك التوبة المقرونة بالايمان (لَغَفُورٌ) للذنوب وإن عظمت وكثرت (رَحِيمٌ) مبالغ فى إفاضة فنون الرحمة الدنيوية والأخروية والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميره عليه السلام للتشريف (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) شروع فى بيان بقية الحكاية اثر ما بين تحزب القوم إلى مصر وتائب والاشارة إلى مآل كل منهما إجمالا أى لما سكن عنه الغضب باعتذار أخيه وتوبة القوم وهذا صريح فى أن ما حكى عنهم من الندم وما يتفرع عليه كان بعد مجىء موسى عليه الصلاة والسلام وفى هذا النظم الكريم من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول منزلة الآمر بذلك المغرى عليه بالتحكم والتشديد والتعبير عن سكونه بالسكوت ما لا يخفى وقرىء سكن وسكت وأسكت على أن الفاعل هو الله تعالى أو أخوه أو التائبون (أَخَذَ الْأَلْوَاحَ) التى ألقاها (وَفِى نُسْخَتِهَا) أى فيما نسخ فيها وكتب فعلة بمعنى مفعول كالخطبة وقيل فيما نسخ منها أى من الألواح المنكسرة (هُدًى) أى بيان للحق (وَرَحْمَةٌ) للخلق بارشادهم إلى ما فيه الخير والصلاح (لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) اللام الأولى متعلقة بمحذوف هو صفة لرحمة أى كائنة لهم أو هى لام الأجل أى هدى ورحمة لأجلهم والثانية لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله تعالى إن كنتم للرؤيا تعبرون أو هى أيضا لام العلة والمفعول محذوف أى يرهبون المعاصى لأجل ربهم لا للرياء والسمعة (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ) شروع فى بيان كيفية استدعاء التوبة وكيفية وقوعها واختار يتعدى إلى اثنين ثانيهما مجرور بمن أى اختار من قومه بحذف

الجار وإيصال الفعل إلى المجرور كما فى قوله :

اختارك الناس اذرثت خلائقهم واعتل من كان يرجى عنده السول

أى اختارك من الناس (سَبعِينَ رَجُلاً) مفعول لاختار أخر عن الثانى لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر (لِمِيقَٰتِنَا) الذى وقتناه بعدما وقع من قومه ماوقع لا لميقات الكلام الذى ذكر قبل ذلك كما قيل. قال السدى أمره الله تعالى بأن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون اليه تعالى من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار عليه السلام من قومه سبعين رجلا وقال محمد بن اسحق اختارهم ليتوبوا اليه تعالى مما صنعوا ويسألوه التوبة على من تركوهم وراءهم من قومهم قالوا اختار عليه الصلاة والسلام من كل سبط ستة فزادا اثنان فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال عليه الصلاة والسلام ان لمن قعد مثل أجر من خرج فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين وأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم فخرج بهم إلى طور سيناء فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجدا فسمعوه تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه حسبما يشاء وهو الأمر بقتل أنفسهم توبة (فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) بما اجترءوا عليه من طلب الرؤية فانه يروى أنه لما انكشف الغمام أقبلوا إلى موسى عليه السلام وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة أى الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها أى ماتوا ولعلهم أرادوا بقولهم لن نؤمن لك لن نصدقك فى أن الأمر بما سمعنا من الأمر بقتل أنفسهم هو الله تعالى حتى نراه حيث قاسوا رؤيته تعالى على سماع كلامه قياسا فاسدا فحين شاهد موسى تلك الحالة الهائلة (قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ) أى حين فرطوا فى النهى عن عبادة العجل وما فارقوا عبدته حين شاهدوا إصرارهم عليها (وَإِيَّٰىَ) أيضا حين طلبت منك الرؤية أى لو شئت إهلاكنا بذنوبنا لأهلكتنا حينئذ أراد به عليه السلام تذكير العفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق فان الاعتراف بالذنب والشكر على النعمة مما يربط العتيد ويستجلب المزيد يعنى إنا كنا مستحقين للاهلاك ولم يذكر من موانعه إلا عدم مشيئتك إياه فحيث لطفت بنا وعفوت عنا تلك الجرائم فلا غرو فى أن تعفو عنا هذه الجريمة أيضا وحمل الكلام على التمنى يأباه قوله تعالى (أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَآءُ مِنَّآ) أى الذين لا يعلمون تفاصيل شئونك ولا يتثبتون فى المداحض والهمزة اما لانكار وقوع الاهلاك ثقة بلطف الله عز وجل كما قاله ابن الانبارى أو للاستعطاف كما قاله المبرد أى لا تهلكنا (إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ) استئناف مقرر لما قبله واعتذار عما صنعوا ببيان منشأ غلطهم أى ما الفتنة التى وقع فيها السفهاء وقالوا بسببها ما قالوا من العظيمة الا فتنتك أى محنتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك ولم يتثبتوا فطمعوا فيما فوق ذلك تابعين للقياس الفاسد وقوله تعالى (تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ) اما استئناف مبين لحكم الفتنة أو حال من فتنتك أى حال كونها مضلا بها الخ أى تضل بسببها من تشاء اضلاله فلا يهتدى الى التثبت وتهدى من تشاء هدايته الى الحق فلا يتزلزل فى أمثالها فيقوى بها ايمانه (أَنتَ وَلِيُّنَا) أى القائم بأمورنا الدنيوية والاخروية وناصرنا وحافظنا لا غيرك (فَاغْفِرْ لَنَا) ما قارفناه من المعاصى والفاء لترتيب الدعاء على ما قبله من الولاية كأنه قيل فمن شأن الولى المغفرة والرحمة وقيل ان اقدامه عليه الصلاة والسلام على أن يقول ان هى الا فتنتك الخ جراءة عظيمة فطلب من الله تعالى غفرانها والتجاوز عنها (وَارْحَمْنَا) بافاضة آثار الرحمة الدنيوية والاخروية علينا (وَأَنتَ خَيْرُ الْغَٰفِرِينَ) اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من الدعاء وتخصيص المغفرة بالذكر لانها الأهم بحسب المقام (وَاكْتُبْ لَنَا) أى عين لنا وقيل أوجب وحقق وأثبت (فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً) أى نعمة وعافية أو خصلة حسنة. قال ابن عباس رضى الله عنهما اقبل وفادتنا وردنا بالمغفرة والرحمة (وَفِى الْآخِرَةِ) أى واكتب لنا فيها أيضا حسنة وهى المثوبة الحسنى والجنة

(إنا هُدْنا إليكَ) أى تبنا وأنبنا إليك من هاد يهود إذا رجع وقرىء بكسر الهاء من هاده يهيده إذا حركه وأماله ويحتمل أن يكون مبنيا للفاعل أو للمفعول بمعنى أملنا أنفسنا أو أملنا إليك وتجويز أن تكون القراءة المشهورة على بناء المفعول على لغة من يقول عود المريض مع كونها لغة ضعيفة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل والجملة استئناف مسوق لتعليل الدعاء فان التوبة مما يوجب قبوله بموجب الوعد المحتوم وتصديرها بحرف التحقيق لإظهار كمال النشاط والرغبة فى التوبة والمعنى إنا تبنا ورجعنا عما صنعنا من المعصية العظيمة التى جئناك للاعتذار عنها وعما وقع ههنا من طلب الرؤية فبعيد من لطفك وفضلك أن لا تقبل توبة التائبين . قيل لما أخذتهم الرجفة ماتوا جميعا فأخذ موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله تعالى حتى أحياهم وقيل رجفوا وكادت تبين مفاصلهم وأشرفوا على الهلاك فخاف موسى عليه الصلاة والسلام فبكى فكشفها الله تعالى عنهم (قالَ) استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الكلام كأنه قيل فماذا قال الله تعالى عند دعاء موسى عليه السلام فقيل قال (عَذَابى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ) لعله عز وجل حين جعل توبة عبدة العجل بقتلهم أنفسهم ضمن موسى عليه السلام دعاءه التخفيف والتيسير حيث قال واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة أى خصلة حسنة عارية عن المشقة والشدة فان فى قتل أنفسهم من العذاب والتشديد ما لا يخفى فأجاب تعالى بأن عذابى شأنه أن أصيب به من أشاء تعذيبه من غير دخل لغيرى فيه وهم ممن تناولته مشيئتى ولذلك جعلت توبتهم مشوبة بالعذاب الدنيوى (ورَحْمَتى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ) أى شأنها أن تسع فى الدنيا المؤمن والكافر بل كل ما يدخل تحت المشيئة من المكلفين وغيرهم وقد نال قومك نصيب منها فى ضمن العذاب الدنيوى وفى نسبة الاصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضى إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات وأما العذاب فبمقتضى معاصى العباد والمشيئة معتبرة فى جانب الرحمة أيضا وعدم التصريح بها للاشعار بغاية الظهور ألا يرى إلى قوله تعالى (فَسَأَكْتُبُها) أى أثبتها وأعينها فانه متفرع على اعتبار المشيئة كأنه قيل فاذا كان الأمر كذلك أى كما ذكر من اصابة عذابى وسعة رحمتى لكل من أشاء فسأكتبها كتبة كائنة كما دعوت بقولك واكتب لنا فى هذه الخ أى سأكتبها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوى (لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) أى الكفر والمعاصى إما ابتداء أو بعد ملابستهما وفيه تعريض بقومه كأنه قيل لا لقومك لأنهم غير متقين فيكفيهم ما قدر لهم من الرحمة وإن كانت مقارنة للعذاب الدنيوى (وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ) وفيه أيضا تعريض بهم حيث كانت الزكاة شاقة عليهم ولعل الصلاة إنما لم تذكر مع إنافتها على سائر العبادات اكتفاء عنها بالاتقاء الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك المنكرات عن آخرها وإيراد إيتاء الزكاة لما مر من التعريض (وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا) جميعا (يُؤْمِنُونَ) إيمانا مستمرا من غير إخلال بشىء منها وفيه تعريض بهم وبكفرهم بالآيات العظام التى جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام وبما سيجىء بعد ذلك من الآيات البينات كتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغير ذلك وتكرير الموصول مع أن المراد به عين ما أريد بالموصول الأول دون أن يقال ويؤمنون بآياتنا عطفا على يؤتون الزكاة كما عطف هو على يتقون لما أشير اليه من القصر بتقديم الجار والمجرور أى هم بجميع آياتنا يؤمنون لا ببعضها دون بعض (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ) الذى نوحى اليه كتابا مختصا به (النَّبِىَّ) أى صاحب المعجزة وقيل عنوان الرسالة بالنسبة اليه تعالى وعنوان النبوة بالنسبة إلى الأمة (الأُمِّىَّ) بضم الهمزة نسبة إلى الأم كأنه باق على حالته التى ولدته عليها من أمه أو إلى أمة العرب كما قال عليه الصلاة والسلام انا أمة لا نحسب ولا نكتب أو إلى أم القرى وقرىء بفتح الهمزة أى الذى لم يمارس القراءة والكتابة وقد جمع مع ذلك علوم الأولين والآخرين والموصول بدل من الموصول الأول بدل الكل أو منصوب على المدح أو مرفوع عليه أى أعنى الذين أو هم الذين وأما جعله مبتدأ على أن خبره يأمرهم أو أولئك هم

المفلحون فغير سديد (الذى يجدونه مكتوبا) باسمه ونعوته بحيث لا يشكون أنه هو ولذلك عدل عن أن يقال يجدون اسمه أو وصفه مكتوبا (عندهم) زيد هذا لزيادة التقرير وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلا (فى التوراة والإنجيل) اللذين تعبد بهما بنو اسرائيل سابقا ولاحقا والظرفان متعلقان بيجدونه أو بمكتوبا وذكر الانجيل قبل نزوله من قبيل ما نحن فيه من ذكر النبى عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم قبل مجيئهما (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) كلام مستأنف لا محل له من الإعراب قاله الزجاج متضمن لتفصيل بعض أحكام الرحمة التى وعد فيما سبق بكتبها اجمالا فان ما بين فيه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واحلال الطيبات وتحريم الخبائث وإسقاط التكاليف الشاقة كلها من آثار رحمته الواسعة وقيل فى محل النصب على أنه حال مقدرة من مفعول يجدونه أو من النبي أو من المستكن فى مكتوبا أو مفسر لمكتوبا أى لما كتب (ويحل لهم الطيبات) التى حرمت عليهم بشؤم ظلمهم (ويحرم عليهم الخبائث) كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) أى يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التى هى من قبيل ما كتب عليهم حينئذ من كون التوبة بقتل النفس كتعيين القصاص فى العمد والخطأ من غير شرع الدية وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب وإحراق الغنائم وتحريم السبت. وعن عطاء أنه كانت بنو اسرائيل إذا قاموا يصلون لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة وقرىء آصارهم أصل الأصر الثقل الذى يأصر صاحبه من الحراك (فالذين آمنوا به) تعليم لكيفية اتباعه عليه الصلاة والسلام وبيان لعلو رتبة متبعيه واغتنامهم مغانم الرحمة الواسعة فى الدارين اثر بيان نعوته الجليلة والاشارة إلى إرشاده عليه الصلاة والسلام إياهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحلال الطيبات وتحريم الخبائث أى فالذين آمنوا بنبوته وأطاعوه فى أوامره ونواهيه (وعزروه) أى عظموه ووقروه وأعانوه بمنع أعدائه عنه وقرىء بالتخفيف وأصله المنع ومنه التعزير (ونصروه) على أعدائه فى الدين (واتبعوا النور الذى أنزل معه) أى مع نبوته وهو القرآن عبر عنه بالنور المنبىء عن كونه ظاهرا بنفسه ومظهرا لغيره أو مظهرا للحقائق كاشفا عنها لمناسبة الاتباع ويجوز أن يكون معه متعلقا باتبعوا أى واتبعوا القرآن المنزل مع اتباعه عليه الصلاة والسلام بالعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه أو اتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه (أولئك) اشارة إلى المذكورين من حيث اتصافهم بما فصل من الصفات الفاضلة للاشعار بعليتها للحكم وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم فى الفضل والشرف أى أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة (هم المفلحون) أى هم الفائزون بالمطلوب الناجون عن الكروب لا غيرهم من الامم فيدخل فيهم قوم موسى عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا حيث لم ينجوا عما فى توبتهم من المشقة الهائلة وبه يتحقق التحقيق ويتأتى التوفيق والتطبيق بين دعائه عليه الصلاة والسلام وبين الجواب لا بمجرد ما قيل من أنه لما دعا لنفسه ولبنى اسرائيل أجيب بما هو منطوعلى توبيخ بنى اسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله عز وجل وعلى كفرهم بآياته العظام التى أجراها على يد موسى عليه الصلاة والسلام وعرض بذلك فى قوله تعالى والذين هم بآياتنا يؤمنون وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به كعبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتابين لطفا بهم وترغيبا فى اخلاص الايمان والعمل الصالح (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم) لما حكى ما فى الكتابين من نعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف من يتبعه من أهلهما ونيلهم لسعادة الدارين امر عليه الصلاة والسلام ببيان أن تلك السعادة غير مختصة بهم بل شاملة لكل من يتبعه كائنا من كان ببيان عموم رسالته للثقلين مع اختصاص رسالة سائر الرسل عليهم السلام

بأقوامهم وإرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه بالآيات التسع إنما كان لأمرهم بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبارسال بنى اسرائيل من الاسر والقسر وأما العمل بأحكام التوراة فمختص ببنى اسرائيل (جميعا) حال من الضمير فى اليكم (الذى له ملك السموات والأرض) منصوب أو مرفوع على المدح أو مجرور على أنه صفة للجلالة وان حيل بينهما بما هو متعلق بما أضيف اليه فانه فى حكم المتقدم عليه وقوله تعالى (لا إله إلا هو) بيان لما قبله فان من ملك العالم كان هو لا إله لا غيره وقوله تعالى (يحيى ويميت) لزيادة تقرير ألوهيته والفاء فى قوله تعالى (فآمنوا بالله ورسوله) لتفريع الأمر على ما تمهد وتقرر من رسالته عليه الصلاة والسلام وإيراد نفسه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات إلى الغيبة للمبالغة فى إيجاب الامتثال بأمره ووصف الرسول بقوله (النبى الأمى) لمدحه عليه الصلاة والسلام بهما ولزيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب فى الكتابين ووصفه بقوله تعالى (الذى يؤمن بالله وكلماته) أى ما أنزل اليه والى سائر الرسل عليهم السلام من كتبه ووحيه لحمل أهل الكتابين على الامتثال بما أمروا به والتصريح بايمانه بالله تعالى للتنبيه على أن الايمان به تعالى لا ينفك عن الايمان بكلماته ولا يتحقق إلا به وقرىء وكلمته على إرادة الجنس أو القرآن تنبيها على أن المأمور به هو الايمان به عليه الصلاة والسلام من حيث أنزل عليه القرآن لا من حيثية أخرى أو على أن المراد بها عيسى عليه الصلاة والسلام تعريضا باليهود وتنبيها على أن من لم يؤمن به لم يعتد بايمانه (واتبعوه) أى فى كل ما يأتى وما يذر من أمور الدين (لعلكم تهتدون) علة للفعلين أو حال من فاعليهما أى رجاء لاهتدائكم إلى المطلوب أو راجين له وفى تعليقه بهما ايذان بأن من صدقه ولم يتبعه بالتزام أحكام شريعته فهو بمعزل من الاهتداء مستمر على الغى والضلالة (ومن قوم موسى) كلام مبتدأ مسوق لدفع ما عسى يوهمه تخصيص كتب الرحمة والتقوى والايمان بالآيات بمتبعى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام من كل خير وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم بل منهم (أمة يهدون) أى الناس (بالحق) أى ملتبسين به أو يهدونهم بكلمة الحق (وبه) أى بالحق (يعدلون) أى فى الاحكام الجارية فيما بينهم وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية وقيل هم الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ويأباه أنه قدم ذكرهم فيما سلف وقيل ان بنى إسرائيل لما بالغوا فى العتو والطغيان حتى اجترؤا على قتل الأنبياء عليهم السلام تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرق بينهم وبين أولئك الطاغين ففتح الله تعالى لهم نفقا فى الأرض فساروا فيه سنة ونصفا حتى خرجوا من وراء الصين وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا وقد ذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أن جبريل عليه السلام ذهب به ليلة الاسراء نحوهم فكلمهم فقال جبريل عليه السلام هل تعرفون من تكلمون قالوا لا فقال هذا محمد النبى الأمى فآمنوا به وقالوا يا رسول الله ان موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ منى عليه السلام فرد محمد على موسى السلام عليهما السلام ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن نزلت يومئذ فريضة غير الصلاة والزكاة أمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت هذا وأنت خبير بأن تخصيصهم بالهداية من بين قومه عليه السلام مع أن منهم من آمن بجميع الشرائع لا يخلو عن بعد (وقطعناهم) أى قوم موسى لا الأمة المذكورة منهم وقرىء بالتخفيف وقوله تعالى (اثنتى عشرة) ثانى مفعولى قطع لتضمنه معنى التصيير والتأنيث للحمل على الأمة أو القطعة أى صيرناهم اثنتى عشرة أمة أو قطعة متميزا بعضها من بعض أو حال من مفعوله أى فرقناهم معدودين هذا العدد وقوله تعالى (أسباطا) بدل منه ولذلك جمع أو تمييز له على أن كل واحدة من اثنتى عشرة قطعة أسباطا لا سبط وقرىء عشرة بكسر الشين وقوله تعالى (أمما) على الأول بدل

بعد بدل أو نعت لأسباطا وعلى الثانى بدل من أسباطا (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ) حين استولى عليهم العطش فى التيه الذى وقعوا فيه بسوء صنيعهم لا بمجرد استسقائهم اياه عليه الصلاة والسلام بل باستسقائه لهم لقوله تعالى واذا استسقى موسى لقومه وقوله تعالى (أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ) مفسر لفعل الايحاء وقد مر بيان شأن الحجر فى تفسير سورة البقرة (فَانْبَجَسَتْ) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف تعويلا على كمال الظهور وايذانا بغاية مسارعته عليه السلام إلى الامتثال واشعارا بعدم تأثير الضرب حقيقة وتنبيها على كمال سرعة الانبجاس وهو الانفجار كانه حصل اثر الأمر قبل تحقق الضرب كما فى قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فضرب فانبجست (مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) بعدد الأسباط وأما ما قيل من أن التقدير فان ضربت فقد انبجست فغير حقيق بجزالة النظم التنزيلى وقرىء عشرة بكسر الشين وفتحها (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ) كل سبط عبر عنهم بذلك ايذانا بكثرة كل واحد من الاسباط (مَشْرَبَهُمْ) أى عينهم الخاصة بهم (وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ) أى جعلناها بحيث تلقى عليهم ظلها تسير فى التيه بسيرهم وتسكن باقامتهم وكان ينزل بالليل عمود من نار يسيرون بضوئه (وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) أى الترنجبين والسمانى. قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل انسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه (كُلُوا) أى وقلنا لهم كلوا (مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) أى مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى (وَمَا ظَلَمُونَا) رجوع إلى سنن الكلام الأول بعد حكاية خطابهم وهو معطوف على جملة محذوفة للايجاز والاشعار بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به أى فظلموا بأن كفروا بتلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) اذ لا يتخطاهم ضرره وتقديم المفعول لافادة القصر الذى يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب من التهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فيما هم فيه من الظلم والكفر (وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ) منصوب بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وإيراد الفعل على البناء للمفعول مع استناده اليه تعالى كما يفصح عنه ما وقع فى سورة البقرة من قوله تعالى وإذ قلنا للجرى على سنن الكبرياء والايذان بالغنى عن التصريح به لتعين الفاعل وتغيير النظم بالامر بالذكر للتشديد فى التوبيخ أى اذكر لهم وقت قوله تعالى لأسلافهم (اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ) منصوب على المفعولية يقال سكنت الدار وقيل على الظرفية اتساعا وهى بيت المقدس وقيل أريحا وهى قرية الجبارين وكان فيها من بقية عاد يقال لهم العمالقة رأسهم عوج بن عنق وفى قوله تعالى اسكنوا ايذان بأن المأمور به فى سورة البقرة هو الدخول على وجه السكنى والإقامة ولذلك اكتفى به عن ذكر رغدا فى قوله تعالى (وَكُلُوا مِنْهَا) أى من مطاعمها وثمارها على أن من تبعيضية أو منها على أنها ابتدائية (حَيْثُ شِئْتُمْ) أى من نواحيها من غير أن يزاحمكم فيها أحد فان الأكل المستمر على هذا الوجه لا يكون إلا رغدا واسعا وعطف كلوا على اسكنوا بالواو لمقارنتهما زمانا بخلاف الدخول فانه مقدم على الأكل ولذلك قيل هناك فكلوا (وَقُولُوا حِطَّةٌ) أى مسئلتنا أو أمرك حطة لذنوبنا وهى فعلة من الحط كالجلسة (وَادْخُلُوا الْبَابَ) أى باب القرية (سُجَّدًا) أى متطامنين مخبتين أو ساجدين شكرا على إخراجهم من التيه وتقديم الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور فى سورة البقرة غير مخل بهذا الترتيب لأن المأمور به هو الجمع بين الفعلين من غير اعتبار الترتيب بينهما ثم ان كان المراد بالقرية أريحاء فقد روى أنهم دخلوها حيث سار اليها موسى عليه السلام بمن بقى من بنى اسرائيل أو بذراريهم على اختلاف الروايتين ففتحها كما مر فى سورة المائدة وأما إن كان بيت المقدس فقد روى أنهم لم يدخلوه فى حياة موسى عليه السلام فقيل المراد بالباب باب القبة التى كانوا يصلون اليها (نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ) وقرىء خطاياكم كما فى سورة البقرة وتغفر لكم خطيئاتكم وخطاياكم وخطيئتكم على البناء للمفعول (سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) عدة بشيئين

بالمغفرة وبالزيادة وطرح الواو ههنا لايخل بذلك لأنه استئناف مترتب على تقدير سؤال نشأ من الاخبار بالغفران كأنه قيل فماذا لهم بعد الغفران فقيل سنزيد وكذلك زيادة منهم زيادة بيان (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) بما أمروا به من التوبة والاستغفار حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعه (قَوْلاً) آخر مما لاخير فيه . روى أنهم دخلوه زاحفين على أستاههم وقالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا شمقاثا يعنون حنطة حمراء استخفافا بأمر الله تعالى واستهزاء بموسى عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) نعت لقولا صرح بالمغايرة مع دلالة التبديل عليها قطعا تحقيقا للمخالفة وتنصيصا على المغايرة من كل وجه (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ) اثر مافعلوا مافعلوا من غير تأخير وفى سورة البقرة على الذين ظلموا والمعنى واحد والارسال من فوق فيكون كالانزال (رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ) عذابا كائنا منها والمراد الطاعون . روى أنه مات منهم فى ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا (بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ) بسبب ظلمهم المستمر السابق واللاحق حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لا بسبب التبديل فقط كما يشعر به ترتيب الارسال عليه بالفاء والتصريح بهذا التعليل لما أن الحكم ههنا مترتب على المضمر دون الموصول بالظلم كما فى سورة البقرة وأما التعليل بالفسق بعد الاشعار بعلية الظلم فقد مر وجهه هناك والله تعالى أعلم (وَسْئَلْهُمْ) عطف على المقدر فى اذ قيل أى واسأل اليهود المعاصرين لك سؤال تقريع وتقرير بقديم كفرهم وتجاوزهم لحدود الله تعالى واعلاما لهم بأن ذلك مع كونه من علومهم الخفية التى لا يقف عليها الا من مارس كتبهم قد أحاط به النبى عليه الصلاة والسلام خبرا وإذ ليس ذلك بالتلقى من كتبهم لأنه عليه الصلاة والسلام بمعزل من ذلك تعين أنه من جهة الوحى الصريح (عَنِ الْقَرْيَةِ) أى عن حالها وخبرها وماجرى على أهلها من الداهية الدهياء وهى ايلة قرية بين مدين والطور وقيل هى مدين وقيل طبرية والعرب تسمى المدينة قرية (الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ) أى قريبة منه مشرفة على شاطئه (إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ) أى يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم السبت وإذ ظرف للمضاف المحذوف أو بدل منه وقيل ظرف لكانت أو حاضرة وليس بذاك إذ لا فائدة فى تقييد الكون أو الحضور بوقت العدوان وقرىء يعدون وأصله يعتدون ويعدون من الاعداد حيث كانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت وهم منهيون عن الاشتغال فيه بغير العبادة (إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ) ظرف ليعدون أو بدل بعد بدل والأول هو الأولى لأن السؤال عن عدوانهم أدخل فى التقريع والحيتان جمع حوت قلبت الواو ياء لانكسار ماقبلها كنون ونينان لفظا ومعنى واضافتها اليهم للاشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لايكاد يوجد فى سائر أفراد الجنس من الخواص الخارقة للعادة أولأن المراد بها الحيتان الكائنة فى تلك الناحية وان ماذكر من الإتيان وعدمه لاعتيادها أحوالهم فى عدم التعرض يوم السبت (يَوْمَ سَبْتِهِمْ) ظرف لتأتيهم أى تأتيهم يوم تعظيمهم لأمر السبت وهو مصدر سبتت اليهود إذا عظمت السبت بالتجرد للعبادة وقيل اسم لليوم والاضافة لاختصاصهم بأحكام فيه ويؤيد الأول قراءة من قرأ يوم اسباتهم وقوله تعالى (شُرَّعًا) جمع شارع من شرع عليه إذا دنا وأشرف وهو حال من حيتانهم أى تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء قريبة من الساحل (وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ) أى لايراعون أمر السبت لكن لا بمجرد عدم المراعاة مع تحقق يوم السبت كما هو المتبادر بل مع انتفائهما معا أى لاسبت ولا مراعاة كما فى قوله ولا ترى الضب بها ينجحر وقرىء لايسبتون من أسبت ولا يسبتون على البناء للمفعول بمعنى لايدخلون فى السبت ولايدار عليهم حكم السبت ولا يؤمرون فيه بما أمروا به يوم السبت (لَا تَأْتِيهِمْ) كما كانت تأتيهم يوم السبت حذارا من صيدهم وتغيير السبك حيث لم يقل ولاتأتيهم يوم لايسبتون لما أن الاخبار باتيانها يوم سبتهم مظنة أن يقال فماذا حالها يوم لايسبتون فقيل يوم لايسبتون لاتأتيهم (كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ) أى مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع

نعاملهم معاملة من يختبرهم ليظهر عداوتهم و نؤاخذهم به وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجيب منها (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) أى بسبب فسقهم المستمر المدلول عليه بالجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لكن لا فى تلك المادة فان فسقهم فيها لا يكون سببا للبلوى بل بسبب فسقهم المستمر فى كل ما يأتون وما يذرون وقيل كذلك متصل بما قبله أى لا تأتيهم مثل ما تأتيهم يوم سبتهم فالجملة بعده حينئذ استئناف مبنى على السؤال عن حكمة اختلاف حال الحيتان بالاتيان تارة وعدمه أخرى (وَإِذْ قَالَتْ) عطف على إذ يعدون مسوق لتماديهم فى العدوان وعدم انزجارهم عنه بعد العظات والانذارات (أُمَّةٌ مِّنْهُمْ) أى جماعة من صلحائهم الذين ركبوا فى عظتهم متن كل صعب وذلول حتى يئسوا من احتمال القبول لآخرين لا يقلعون عن التذكير رجاء للنفع والتأثير مبالغة فى الاعذار وطمعا فى فائدة الانذار (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ) أى مخترمهم بالكلية ومطهر الأرض منهم (أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) دون الاستئصال بالمرة وقيل مهلكهم مخزيهم فى الدنيا أو معذبهم فى الآخرة لعدم اقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق والطغيان والترديد لمنع الخلو دون منع الجمع فانهم مهلكون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة وايثار صيغة اسم الفاعل مع أن كلا من الاهلاك والتعذيب مترقب للدلالة على تحققهما وتقررهما البتة كأنهما واقعان وإنما قالوه مبالغة فى أن الوعظ لا ينجع فيهم أو ترهيبا للقوم أو سؤالا عن حكمة الوعظ ونفعه ولعلهم إنما قالوه بمحضر من القوم حثا لهم على الاتعاظ فان بت القول بهلاكهم وعذابهم مما يلقى فى قلوبهم الخوف والخشية وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعاظهم ردا عليهم وتهكما بهم وليس بذاك كما ستقف عليه (قَالُوا) أى الوعاظ (مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ) أى نعظهم معذرة اليه تعالى على أنه مفعول له وهو الانسب بظاهر قولهم لم تعظون أو نعتذر معذرة على أنه مصدر لفعل محذوف وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى موعظتنا معذرة اليه تعالى حتى لا ننسب إلى نوع تفريط فى النهى عن المنكر وفى اضافة الرب إلى ضمير المخاطبين نوع تعريض بالسائلين (وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) عطف على معذرة أى ورجاء لأن يتقوا بعض التقاة وهذا صريح فى أن القائلين لم تعظون الخ ليسوا من الفرقة الهالكة والا لوجب الخطاب (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) أى تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم ترك الناسى للشىء وأعرضوا عنه اعراضا كليا بحيث لم يخطر ببالهم شىء من تلك المواعظ أصلا (أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) وهم الفريقان المذكوران واخراج انجائهم مخرج الجواب الذى حقه الترتب على الشرط وهو نسيان المعتدين المستتبع لاهلاكهم لما أن ما فى حيز الشرط شيآن النسيان والتذكير كأنه قيل فلما ذكر المذكرون ولم يتذكر المعتدون أنجينا الأولين وأخذنا الآخرين وأما تصدير الجواب بانجائهم فلما مر مرارا من المسارعة إلى بيان نجاتهم من أول الأمر مع ما فى المؤخر من نوع طول (وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا) بالاعتداء ومخالفة الأمر (بِعَذَابٍ بَئِيسٍ) أى شديد وزنا ومعنى من بؤس يبؤس بأسا إذا اشتد وقرىء بئس على وزن فيعل بفتح العين وكسرها وبئس كحذر وبئس على تخفيف العين ونقل حركتها إلى الفاء ككبد فى كبد وبيس بقلب الهمزة ياء كذيب فى ذئب وبيس كريس بقلب همزة بئيس ياء وادغام الياء فيها وبيس على تخفيف بيس كهين فى هين وتنكير العذاب للتفخيم والتهويل (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) متعلق بأخذنا كالباء الأولى ولا ضير فيه لاختلافهما معنى أى أخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب تماديهم فى الفسق الذى هو الخروج عن الطاعة وهو الظلم والعدوان أيضا وإجراء الحكم على الموصول وان أشعر بعلية ما فى حيز الصلة له لكنه صرح بالتعليل المذكور ايذانا بأن العلة هو الاستمرار على الظلم والعدوان مع اعتبار كون ذلك خروجا عن طاعة الله عز وجل لا نفس الظلم والعدوان والا لما أخروا عن ابتداء المباشرة ساعة ولعله تعالى قد عذبهم بعذاب شديد دون الاستئصال فلم يقلعوا عما كانوا

عليه بل ازدادوا فى الغى فمسخهم بعد ذلك لقوله تعالى (فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ) أى تمردوا وتكبروا وأبوا أن يتركوا ما نهوا عنه (قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ) صاغرين أذلاء بعداء عن الناس والمراد بالأمر هو الأمر التكوينى لا القولى وترتيب المسخ على العتو عن الانتهاء عما نهوا عنه للايذان بأنه ليس لخصوصية الحوت بل العمدة فى ذلك هو مخالفة الأمر والاستعصاء عليه تعالى وقيل المراد بالعذاب البئيس هو المسخ والجملة الثانية تقرير للأولى . روى أن اليهود أمروا باليوم الذى أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت وهو المعنى بقوله تعالى إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه فابتلوا به وحرم عليهم الصيد فيه وأمروا بتعظيمه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كأنها المخاض لا يرى وجه الماء لكثرتها ولا تأتيهم فى سائر الأيام فكانوا على ذلك برهة من الدهر ثم جاءهم إبليس فقال لهم إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا سهلة الورود صعبة الصدود ففعلوا فجعلوا يسوقون الحيتان اليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها ويأخذونها يوم الأحد وأخذ رجل منهم حوتا وربط فى ذنبه خيطا إلى خشبة فى الساحل ثم شواه يوم الأحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع فى تنوره فقال له إنى أرى الله سيعذبك فلما لم يره عذب أخذ فى يوم السبت القابل حوتين فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم استمروا على ذلك فصادوا وأكلوا وملحوا وباعوا وكانوا نحوا من سبعين ألفا فصار أهل القرية أثلاثا ثلث استمروا على النهى وثلث ملوا التذكير وسئموه وقالوا للواعظين لم تعظون الخ وثلث باشروا الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون نحن لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان لهم لشأنا فعلوا الجدار فنظروا فاذا هم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسباءهم من الانس وهم لا يعرفونها فجعل القرد يأتى نسيبه فيشم ثيابه فيبكى فيقول له نسيبه ألم ننهكم فيقول القرد برأسه بلى ثم ماتوا عن ثلاث وقيل صار الشبان قردة والشيوخ خنازير وعن مجاهد رضى الله عنه مسخت قلوبهم وقال الحسن البصرى أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزيا فى الدنيا وأطولها عذابا فى الآخرة هاه وأيم الله ماحوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل موعدا والساعة أدهى وأمر (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ) منصوب على المفعولية بمضمر معطوف على قوله تعالى واسألهم وتأذن بمعنى آذن كما أن توعد بمعنى أوعد أو بمعنى عزم فان العازم على الأمر يحدث به نفسه وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله فلذلك أجيب بجوابه حيث قيل (لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ) أى واذكر لهم وقت إيجابه تعالى على نفسه أن يسلط على اليهود البتة (مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ) كالاذلال وضرب الجزية وغير ذلك من فنون العذاب وقد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه السلام بخت نصر فخرب ديارهم وقتل مقاتلتهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقى منهم وكانوا يؤدونها إلى المجوس حتى بعث النبى عليه الصلاة والسلام ففعل ما فعل ثم ضرب الجزية عليهم فلا تزال مضروبة إلى آخر الدهر (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ) يعاقبهم فى الدنيا (وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) لمن تاب وآمن منهم (وَقَطَّعْنَٰهُمْ) أى فرقنا بنى اسرائيل (فِى الْأَرْضِ) وجعلنا كل فرقة منهم فى قطر من أقطارها بحيث لا تخلو ناحية منها منهم تكملة لادبارهم حتى لا تكون لهم شوكة وقوله تعالى (أُمَمًا) اما مفعول ثان لقطعنا أو حال من مفعوله (مِّنْهُمُ الصَّٰلِحُونَ) صفة لأمما أو بدل منه وهم الذين آمنوا بالمدينة ومن يسير بسيرتهم (وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ) أى ناس دون ذلك الوصف أى منحطون عن الصلاح وهم كفرتهم وفسقتهم (وَبَلَوْنَٰهُم بِالْحَسَنَٰتِ وَالسَّيِّـَٔاتِ) بالنعم والنقم (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) عما كانوا فيه من الكفر والمعاصى (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ) أى من بعد المذكورين (خَلْفٌ) أى بدل سوء مصدر نعت به

ولذلك يقع على الواحد والجمع وقيل جمع وهو شائع فى الشر والخلف بفتح اللام فى الخير والمراد به الذين كانوا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَرِثُوا الْكِتَٰبَ) أى التوراة من أسلافهم يقرؤنها ويقفون على مافيها (يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ) استئناف مسوق لبيان مايصنعون بالكتاب بعد وراثتهم إياه أى يأخذون حطام هذا الشىء الأدنى أى الدنيا وهو من الدنو أو الدناءة والمراد به ما كانوا يأخذونه من الرشا فى الحكومات وعلى تحريف الكلام وقيل حال من واو ورثوا (وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا) ولا يؤاخذنا الله تعالى بذلك ويتجاوز عنه والجملة تحتمل العطف والحالية والفعل مسند إلى الجار والمجرور أو مصدر يأخذون (وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ) حال من الضمير فى لنا أى يرجون المغفرة والحال أنهم مصرون على الذنب عائدون إلى مثله غير تائبين عنه (أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ الْكِتَٰبِ) أى الميثاق الوارد فى الكتاب (أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) عطف بيان للميثاق أو متعلق به أى بأن لا يقولوا الخ والمراد به الرد عليهم والتوبيخ على بتهم القول بالمغفرة بلا توبة والدلالة على أنها افتراء على الله تعالى وخروج عن ميثاق الكتاب (وَدَرَسُوا مَا فِيهِ) عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فانه تقرير او على ورثوا وهو اعتراض (وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ) مافعل هؤلاء (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) فتعلموا ذلك فلا تستبدلوا الأدنى المؤدى إلى العقاب بالنعيم المخلد وقرىء بالياء وفى الالتفات تشديد للتوبيخ (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ) أى يتمسكون فى أمور دينهم يقال مسك بالشىء وتمسك به قال مجاهد هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذى جاء به موسى عليه السلام فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة وقال عطاء هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام وقرىء يمسكون من الامساك وقرىء تمسكوا واستمسكوا موافقا لقوله تعالى (وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ) ولعل التغيير فى المشهورة للدلالة على أن التمسك بالكتاب أمر مستمر فى جميع الأزمنة بخلاف إقامة الصلاة فانها مختصة بأوقاتها وتخصيصها بالذكر من بين سائر العبادات لانافتها عليها ومحل الموصول إما الجر نسقا على الذين يتقون وقوله أفلا تعقلون اعتراض مقرر لما قبله واما الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) والرابط اما الضمير المحذوف كما هو رأى البصريين والتقدير أجر المصلحين منهم واما الألف واللام كما هو رأى الكوفيين فانه فى حكم مصلحيهم كما فى قوله تعالى فان الجنة هى المأوى أى مأواهم وقوله تعالى مفتحة لهم الأبواب أى أبوابها واما العموم فى مصلحين فانه من الروابط ومنه نعم الرجل زيد على أحد الوجوه وقيل الخبر محذوف والتقدير والذين يمسكون بالكتاب مأجورون أو مثابون وقوله تعالى إنا لا نضيع الخ اعتراض مقرر لما قبله (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ) أى قلعناه من مكانه ورفعناه (كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ) أى سقيفة وهى كل ما أظلك (وَظَنُّوا) أى تيقنوا (أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ) ساقط عليهم لان الجبل لا يثبت فى الجو لانهم كانوا يوعدون به واطلاق الظن فى الحكاية لعدم وقوع متعلقه وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله تعالى عليهم الطور وقيل لهم إن قبلتم مافيها والا ليقعن عليكم (خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم) أى وقلنا أو قائلين خذوا ما آتيناكم من الكتاب (بِقُوَّةٍ) بجد وعزيمة على تحمل مشاقه وهو حال من الواو (وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ) بالعمل ولا تتركوه كالمنسى (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) بذلك قبائح الاعمال ورذائل الاخلاق أو راجين أن تنتظموا فى سلك المتقين (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ) منصوب بمضمر معطوف على ما انتصب به إذ نتقنا مسوق للاحتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العام المنتظم للناس قاطبة وتوبيخهم بنقضه اثر الاحتجاج عليهم بتذكير ميثاق الطور وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانه مرارا أى واذكر لهم أخذ ربك (مِن بَنِىٓ ءَادَمَ) المراد بهم الذين ولدهم كائنا من كان نسلا بعد نسل سوى من لم يولد له بسبب من

الأسباب كالعقم وعدم التزوج والموت صغيرا وإيثار الأخذ على الإخراج للإيذان بالاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه من الأنباء عن الاجتباء والاصطفاء وهو السبب فى اسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتى واضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقوله تعالى (مِن ظُهُورِهِم) بدل من بنى آدم بدل البعض بتكرير الجار كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم ومن فى الموضعين ابتدائية وفيه مزيد تقرير لابتنائه على البيان بعد الابهام والتفصيل غب الاجمال وتنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم وهم فى أصلاب الآباء ولم يستودعوا فى أرحام الأمهات وقوله تعالى (ذُرِّيَّتَهُمْ) مفعول أخذ أخر عن المفعول بواسطة الجار لاشتماله على ضمير راجع اليه ولمراعاة أصالته ومنشئيته ولما مر مرارا من التشويق إلى المؤخر وقرىء ذرياتهم والمراد بهم أولادهم على العموم فيندرج فيهم اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اندراجا أوليا كما اندرج أسلافهم فى بنى آدم كذلك وتخصيصهما باليهود سلفا وخلفا مع أن ما أريد بيانه من بديع صنع الله تعالى عز وجل شامل للكل كافة مخل بفخامة التنزيل وجزالة التمثيل (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ) أى أشهد كل واحدة من أولئك الذريات المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسها لا على غيرها تقريرا لهم بربوبيته التامة وما تستتبعه من المعبودية على الاختصاص وغير ذلك من أحكامها وقوله تعالى (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) على ارادة القول أى قائلا ألست بربكم ومالك أمركم ومربيكم على الاطلاق من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شئونكم فينتظم استحقاق المعبودية ويستلزم اختصاصه به تعالى (قَالُوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا (بَلَىٰ شَهِدْنَا) أى على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك كما ورد فى الحديث الشريف وهذا تمثيل لخلقه تعالى اياهم جميعا فى مبدأ الفطرة مستعدين للاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والأنفس المؤدية إلى التوحيد والاسلام كما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة الحديث مبنى على تشبيه الهيئة المنتزعة من تعريضه تعالى إياهم لمعرفة ربوبيته بعد تمكينهم منها بما ركز فيهم من العقول والبصائر ونصب لهم فى الآفاق والأنفس من الدلائل تمكينا تاما ومن تمكنهم منها تمكنا كاملا وتعرضهم لها تعرضا قويا بهيئة منتزعة من حمله تعالى اياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ومن مسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثم أصلا من غير أن يكون هناك أخذ واشهاد وسؤال وجواب كما فى قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين وقوله تعالى (أَن تَقُولُوا) بالتاء على تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاصريه من اليهود تشديدا فى الالزام أو اليهم وإلى متقدميهم بطريق التغليب لكن لا من حيث أنهم مخاطبون بقوله تعالى ألست بربكم فانه ليس من الكلام المحكى وقرىء بالياء على أن الضمير للذرية وأيا ما كان فهو مفعول له لما قبله من الأخذ والاشهاد أى فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة أو يقولوا هم (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) عند ظهور الأمر (إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا) عن وحدانية الربوبية وأحكامها (غَافِلِينَ) لم ننبه عليه فانهم حيث جبلوا على ما ذكر من التهيؤ التام لتحقيق الحق والقوة القريبة من الفعل صاروا محجوجين عاجزين عن الاعتذار بذلك إذ لا سبيل لأحد إلى انكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة وقوله تعالى (أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا) عطف على تقولوا وأو لمنع الخلو دون الجمع أى هم اخترعوا الاشراك وهم سنوه (مِن قَبْلُ) أى من قبل زماننا (وَكُنَّا) نحن (ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ) لا نهتدى إلى السبيل ولا نقدر على الاستدلال بالدليل (أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) من آبائنا المضلين بعد ظهور أنهم المجرمون ونحن عاجزون عن التدبير والاستبداد بالرأى أو أتؤاخذنا فتهلكنا الخ فان ما ذكر من استعدادهم الكامل يسد عليهم باب الاعتذار بهذا أيضا فان التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها مما لا مساغ له أصلا هذا وقد حملت هذه المقاولة على الحقيقة كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما

من أنه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فقال ألست بربكم قالوا بلى فنودي يومئذ جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن الآية الكريمة فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال ان الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون وليس المعنى أنه تعالى أخرج الكل من ظهره عليه الصلاة والسلام بالذات بل أخرج من ظهره عليه السلام أبناءه الصلبية ومن ظهرهم أبناءهم الصلبية وهكذا إلى آخر السلسلة لكن لما كان المظهر الأصلى ظهره عليه الصلاة والسلام وكان مساق الحديثين الشريفين بيان حال الفريقين اجمالا من غير أن يتعلق بذكر الوسايط غرض على نسب اخراج الكل اليه وأما الآية الكريمة فحيث كانت مسوقة للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان عدم افادة الاعتذار باسناد الاشراك إلى آبائهم اقتضى الحال نسبة إخراج كل واحد منهم إلى ظهر أبيهم من غير تعرض لاخراج الابناء الصلبية لآدم عليه السلام من ظهره قطعا وعدم بيان الميثاق فى حديث عمر رضى الله تعالى عنه ليس بيانا لعدمه ولا مستلزما له وأما ما قالوا من أن أخذ الميثاق لاسقاط عذر الغفلة حسبما ينطق به قوله تعالى أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ومعلوم أنه غير دافع لغفلتهم فى دار التكليف إذ لا فرد من أفراد البشر يذكر ذلك فمردود لكن بما قيل من أن الله عز وجل قد أوضح الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمته الحجة ونسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد اخبار المخبر الصادق بل بأن قوله تعالى أن تقولوا الخ ليس مفعولا له لقوله تعالى وأشهدهم وما يتفرع عليه من قولهم بلى شهدنا حتى يجب كون ذلك الاشهاد والشهادة محفوظا لهم فى الزامهم بل لفعل مضمر ينسحب عليه الكلام والمعنى فعلنا ما فعلنا من الأمر بذكر الميثاق وبيانه كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة إنا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه فى دار التكليف والا لعملنا بموجبه هذا على قراءة الجمهور وأما على القراءة بالياء فهو مفعول له لنفس الأمر المضمر العامل فى إذ أخذ والمعنى اذكر لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباء هذا على تقدير كون قوله تعالى شهدنا من كلام الذرية وهو الظاهر فاما على تقدير كونه من كلامه تعالى فهو العامل فى أن تقولوا ولا محذور أصلا اذ المعنى شهدنا قولكم هذا لئلا تقولوا يوم القيامة الخ لأنا نذكركم ونكذبكم حينئذ (وَكَذَٰلِكَ) إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه وبعد منزلته والكاف مقحمة مؤكدة لما أفاده اسم الاشارة من الفخامة والتقديم على الفعل لافادة القصر ومحله النصب على المصدرية أى ذلك التفصيل البليغ المستتبع للمنافع الجليلة (نُفَصِّلُ الْآيَاتِ) المذكورة لا غير ذلك (وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وليرجعوا عما هم عليه من الاصرار على الباطل وتقليد الآباء نفعل التفصيل المذكور قالوا وان ابتدائيتان ويجوز أن تكون الثانية عاطفة على مقدر مترتب على التفصيل أى وكذلك نفصل الآيات ليقفوا على ما فيها من المرغبات والزواجر وليرجعوا الخ (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ) عطف على المضمر العامل فى إذ أخذوا رد على نمطه فى الانباء عن الحور بعد الكور والضلالة بعد الهدى أى واتل على اليهود (نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) أى خبره الذى له شأن وخطر وهو أحد علماء بنى إسرائيل وقيل هو بلعم بن باعوراء أو بلعام بن باعر من الكنعانيين أوتى علم بعض كتب الله تعالى وقيل هو أمية بن أبي الصلت وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل فى ذلك الزمان رسولا ورجا أن يكون هو الرسول فلما بعث الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به والأول هو الأنسب بمقام توبيخ اليهود بهناتهم

(فانسلخ منها) أى من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة ولم يخطرها بباله أصلا أو خرج منها بالكلية بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره وأياما كان فالتعبير عنه بالانسلاخ المنبىء عن اتصال المحيط بالمحاط خلقة وعن عدم الملاقاة بينهما أبداً للايذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال (فأتبعه الشيطان) أى تبعه حتى لحقه وأدركه فصار قريناله وهو المعنى على قراءة فاتبعه من الافتعال وفيه تلويح بأنه أشد من الشيطان غواية أو أتبعه خطواته (فكان من الغاوين) فصار من زمرة الضالين الراسخين فى الغواية بعد أن كان من المهتدين وروى أن قومه طلبوا اليه أن يدعو على موسى عليه السلام فقال كيف أدعو على من معه الملائكة فلم يزالوا به حتى فعل فبقوا فى التيه ويرده أن التيه كان لموسى عليه السلام روحا وراحة وإنما عذب به بنو إسرائيل وقد كان ذلك بدعائه عليه السلام عليهم كما مر فى سورة المائدة (ولو شئنا) كلام مستأنف مسوق لبيان مناط ماذكر من انسلاخه من الآيات ووقوعه فى مهاوى الغواية ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء على القاعدة المستمرة أى ولو شئنا رفعه (لرفعناه) أى إلى المنازل العالية للأبرار العالمين بتلك الآيات العاملين بموجبها لكن لابمحض مشيئتنا من غير أن يكون له دخل فى ذلك أصلا فانه مناف للحكمة التشريعية المؤسسة على تعليق الأجزية بالأفعال الاختيارية للعباد بل مع مباشرته للعمل المؤدى إلى الرفع بصرف اختياره إلى تحصيله كما ينبىء عنه قوله تعالى (بها) أى بسبب تلك الآيات بأن عمل بموجبها فان اختياره وإن لم يكن مؤثرا فى حصوله ولا فى ترتب الرفع عليه بل كلاهما بخلق الله تعالى لكن خلقه تعالى منوط بذلك البتة حسب جريان العادة الالهية وقد أشير إلى ذلك فى الاستدراك بأن أسند مايؤدى إلى نقيض التالى اليه حيث قيل (ولكنه أخلد إلى الأرض) مع أن الاخلاد اليها أيضا مما لا يتحقق عند صرف اختياره اليه إلا بخلقه تعالى كأنه قيل ولو شئنا رفعه بمباشرته لسببه لرفعناه بسبب تلك الآيات التى هى أقوى أسباب الرفع ولكن لم نشأه لمباشرته لسبب نقيضه فترك فى كل من المقامين ماذكر فى الآخر تعويلا على إشعار المذكور بالمطوى كما فى قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله وتخصيص كل من المذكورين بمقامه للايذان بأن الرفع مراد له تعالى بالذات وتفضل محض عليه لادخل فيه لفعله حقيقة كيف لا وجميع أفعاله ومباديها من نعمه تعالى وتفضلاته وأن نقيضه إنما أصابه بسوء اختياره على موجب الوعيد لا بالارادة الذاتية له سبحانه كما قيل فى وجه ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر فى الآية المذكورة وهو السر فى جريان السنة القرآنية على إسناد الخير اليه تعالى وإضافة الشر إلى الغير كما فى قوله تعالى وإذا مرضت فهو يشفين ونظائره والاخلاد إلى الشىء الميل إليه مع الاطمئنان به والمراد بالأرض الدنيا وقيل السفالة والمعنى ولكنه آثر الدنيا الدنية على المنازل السنية أو الضعة والسفالة على الرفعة والجلالة (واتبع هواه) معرضاً عن تلك الآيات الجليلة فانحط أبلغ انحطاط وارتد أسفل سافلين وإلى ذلك أشير بقوله تعالى (فمثله كمثل الكلب) لما أنه أخس الحيوانات وأسفلها وقد مثل حاله بأخس أحواله وأذلها حيث قيل (إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) أى فحاله التى هى مثل فى السوء كصفته فى أرذل أحواله وهى حالة دوام اللهث به فى حالتى التعب والراحة فكأنه قيل فتردى إلى مالاغاية وراءه فى الخسة والدناءة وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية بأن يقال فصار مثله كمثل الكلب الخ للايذان بدوام اتصافه بتلك الحالة الخسيسة وكمال استقراره واستمراره عليها والخطاب فى فعل الشرط لكل أحد ممن له حظ من الخطاب فانه أدخل فى إشاعة فظاعة حاله واللهث ادلاع اللسان بالتنفس الشديد أى هو ضيق الحال مكروب دائم اللهث سواء هيجته وأزعجته بالطرد العنيف أو تركته على حاله فانه فى الكلاب طبع لا تقدر على نفض الهواء المتسخن وجلب الهواء البارد بسهولة لضعف قلبها وانقطاع فؤادها بخلاف سائر الحيوانات فانها لاتحتاج إلى التنفس الشديد

ولا يلحقها الكرب والمضايقة إلا عند التعب والاعياء والشرطية مع أختها تفسير لما أبهم فى المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه لا محل له من الإعراب على منهاج قوله تعالى خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون اثر قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم وقيل هى فى محل النصب على الحالية من الكلب بناء على خروجهما من حقيقة الشرط وتحولهما إلى معنى التسوية حسب تحول الاستفهامين المتناقضين اليه فى مثل قوله تعالى أأنذرتهم أم لم تنذرهم كأنه قيل لاهثا فى الحالتين وأياما كان فالأظهر أنه تشبيه للهيئة المنتزعة مما اعتراه بعد الانسلاخ من سوء الحال واضطرام القلب ودوام القلق والاضطراب وعدم الاستراحة بحال من الأحوال بالهيئة المنتزعة مما ذكر من حال الكلب وقيل لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فتدلى على صدره وجعل يلهث كالكلب إلى أن هلك (ذَٰلِكَ) إشارة إلى ماذكر من الحالة الخسيسة منسوبة إلى الكلب أو إلى المنسلخ وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الخسة والدناءة أى ذلك المثل السيء (مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) وهم اليهود حيث أوتوا فى التوراة ما أوتوا من نعوت النبى عليه الصلاة والسلام وذكر القرآن المعجز وما فيه فصدقوه وبشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ) القصص مصدر سمى به المفعول كالسلب واللام للعهد والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى إذا تحقق أن المثل المذكور مثل هؤلاء المكذبين فاقصصه عليهم حسبما أوحى اليك (لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) فيقفون على جلية الحال وينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال ويعلمون انك قد علمته من جهة الوحى فيزدادون إيقانا بك والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير المخاطب أو على أنها مفعول له أى فاقصص القصص راجيا لتفكرهم أو رجاء لتفكرهم (سَاءَ مَثَلًا) استئناف مسوق لبيان كمال قبح حال المكذبين بعد بيان كونه كحال الكلب أو المنسلخ وساء بمعنى بئس وفاعلها مضمر فيها ومثلا تمييز مفسر له والمخصوص بالذم قوله تعالى (الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) وحيث وجب التصادق بينه وبين الفاعل والتمييز وجب المصير إلى تقدير مضاف إما اليه وهو الظاهر أى ساء مثلا مثل القوم الخ أو إلى التمييز أى ساء أصحاب مثل القوم الخ وقرىء ساء مثل القوم وإعادة القوم موصوفا بالموصول مع كفاية الضمير بأن يقال ساء مثلا مثلهم للايذان بأن مدار السوء ما فى حيز الصلة ولربط قوله تعالى (وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ) به فانه إما معطوف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة بمعنى جمعوا بين تكذيب آيات الله بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها وبين ظلمهم لأنفسهم خاصة أو منقطع عنه بمعنى وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فان وباله لا يتخطاها وأياما كان فى يظلمون لمح إلى أن تكذيبهم بالآيات متضمن للظلم بها وأن ذلك أيضا معتبر فى القصر المستفاد من تقديم المفعول (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي) لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله ليتفكروا فيه ويتركوا ما هم عليه من الاخلاد إلى الضلالة ويهتدوا إلى الحق عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية فى حصول الاهتداء من غير تأثير لها فيه سوى كونها دواعى إلى صرف العبد اختياره نحو تحصيله حسبما نيط به خلق الله تعالى إياه كسائر أفعال العباد فالمراد بهذه الهداية ما يوجب الاهتداء قطعا لكن لا لأن حقيقتها الدلالة الموصلة إلى البغية البتة بل لأنها الفرد الكامل من حقيقة الهداية التى هى الدلالة إلى ما يوصل إلى البغية أى ما من شأنه الايصال اليها كما سبق تحقيقه فى تفسير قوله تعالى هدى للمتقين وليس المراد مجرد الاخبار باهتداء من هداه الله تعالى حتى يتوهم عدم الافادة بحسب الظاهر لظهور استلزام هدايته تعالى للاهتداء ويحمل النظم الكريم على تعظيم شأن الاهتداء والتنبيه على أنه فى نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه بل هو قصر الاهتداء على من هداه الله تعالى حسبما يقضى به تعريف الخبر فالمعنى

من يهده الله أى يخلق فيه الاهتداء على الوجه المذكور فهو المهتدى لاغير كائنا من كان (وَمَن يُضْلِلْ) بأن لم يخلق فيه الاهتداء بل خلق فيه الضلالة لصرف اختياره نحوها (فأولٰئِكَ) الموصوفون بالضلالة على الوجه المذكور (همُ الخٰسِرُون) أى الكاملون فى الخسران لاغير وافراد المهتدى نظراً إلى لفظ من وجمع الخاسرين نظراً إلى معناها للايذان باتحاد منهاج الهدى وتفرق طرق الضلال (وَلقَدْ ذَرَأْنا) كلام مستأنف مقرر لمضمون ماقبله بطريق التذييل أى خلقنا (لجَهَنَّمَ) أى لدخولها والتعذيب بها وتقديمه على قوله تعالى (كثِيراً) أى خلقا كثيراً مع كونه مفعولا به لما فى توابعه من نوع طول يؤدى توسيطه بينهما وتأخيره عنها إلى الاخلال بجزالة النظم الكريم وقوله تعالى (مِنَ الجِنّ والإنسِ) متعلق بمحذوف هو صفة لكثيرا أى كائنا منهما وتقديم الجن لأنهم أعرق من الإنس فى الاتصاف بما نحن فيه من الصفات وأكثر عددا وأقدم خلقا والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم مايؤدى إلى ذلك بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبدا بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيا بها كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطرى للعبادة وتمكنهم التام منها جعل خلقهم مغيا بها كما نطق به قوله تعالى وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون وقوله تعالى (لهُمْ قلوبٌ) فى محل النصب على أنه صفة أخرى لكثيرا وقوله تعالى (لا يَفقهُونَ بها) فى محل الرفع على أنه صفة لقلوب مؤكدة لما يفيده تنكيرها وابهامها من كونها غير معهودة مخالفة لسائر أفراد الجنس فاقدة لكماله بالكلية لكن لا بحسب الفطرة حقيقة بل بسبب امتناعهم عن صرفها إلى تحصيله وهذا وصف لها بكمال الاغراق فى القساوة فانها حيث لم يتأت منها الفقه بحال فكأنها خلقت غير قابلة له رأسا وكذا الحال فى أعينهم وآذانهم وحذف المفعول للتعميم أى لهم قلوب ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئا مما من شأنه أن يفقه فيدخل فيه مايليق بالمقام من الحق ودلائله دخولا أوليا وتخصيصه بذلك مخل بالافصاح عن كنه حالهم (وَلهُمْ أعيُنٌ لا يُبصِرُونَ بها) الكلام فيه كما فيما عطف هو عليه والمراد بالابصار والسمع المنفيين مايختص بالعقلاء من الادراك على ماهو وظيفة الثقلين لا مايتناول مجرد الاحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الانعام أى لا يبصرون بها شيأ من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجا أوليا (وَلهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعونَ بها) أى شيأ من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية تناولا أوليا وإعادة الخبر فى الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بأن يقال وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها للتقرير سوء حالهم وفى اثبات المشاعر الثلاثة لهم ثم وصفها بعدم الشعور دون سلبها عنهم ابتداء بأن يقال ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها من الشهادة بكمال رسوخهم فى الجهل والغواية مالا يخفى (أولٰئكَ) إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الضلال أى أولئك الموصوفون بالأوصاف المذكورة (كالأنعٰمِ) أى فى انتفاء الشعور على الوجه المذكور أو فى أن مشاعرهم متوجهة الى أسباب التعيش مقصورة عليها (بلْ همْ أضلُّ) فانها تدرك ما من شأنها أن تدركه من المنافع والمضار فتجتهد فى جلبها وسلبها غاية جهدها مع كونها بمعزل من الخلود وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لا يميزون بين المنافع والمضار بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه وفى الخبر كل شىء أطوع لله من ابن آدم (أولٰئكَ) المنعوتون بما مر من مثلية الأنعام والشرية منها (همُ الغٰفِلونَ) الكاملون فى الغفلة المستحقون لأنهم يخص بهم الاسم ولا يطلق على غيرهم كيف لا وإنهم لا يعرفون من شئون الله عز وجل ولا من شئون ماسواه شيأ فيشركون

به سبحانه وليس كمثله شيء وهو السميع البصير أصنامهم التي هي من أخس مخلوقاته تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المخلين بذلك الغافلين عنه سبحانه عما يليق به من الأمور وما لا يليق به اثر بيان غفلتهم التامة وضلالتهم الطامة والحسنى تأنيث الأحسن أى الاسماء التي هي أحسن الاسماء وأجلها لانبائها عن أحسن المعاني وأشرفها (فَادْعُوهُ بِهَا) أى فسموه بتلك الاسماء (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) الالحاد واللحد الميل والانحراف يقال لحد وألحد إذا مال عن القصد وقرىء يلحدون من الثلاثى أى يميلون فى شأنها عن الحق إلى الباطل إما بأن يسموه تعالى بما لا توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسدا كما فى قول أهل البدو يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا نخى ونحو ذلك فالمراد بالترك المأمور به الاجتناب عن ذلك وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم لا أسماؤه تعالى حقيقة وعلى ذلك يحمل ترك الاضمار بأن يقال يلحدون فيها واما بأن يعدلوا عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة كما قالوا وما الرحمن ما نعرف سوى رحمان اليمامة فالمراد بالترك الاجتناب أيضا وبالاسماء أسماؤه تعالى حقيقة فالمعنى سموه تعالى بجميع أسمائه الحسنى واجتنبوا اخراج بعضها من البين واما بأن يطلقوها على غيره تعالى كما سموا أصنامهم آلهة واما بأن يشتقوا من بعضها أسماء أصنامهم كما اشتقوا اللات من الله تعالى والعزى من العزيز فالمراد بالاسماء أسماؤه تعالى حقيقة كما فى الوجه الثانى والاظهار فى موقع الاضمار مع التجريد عن الوصف فى الكل للايذان بأن إلحادهم فى نفس الاسماء من غير اعتبار الوصف وليس المراد بالترك حينئذ الاجتناب عن ذلك إذ لا يتوهم صدور مثل هذا الإلحاد عن المؤمنين ليؤمروا بتركه بل هو الإعراض عنهم وعدم المبالاة بما فعلوا ترقبا لنزول العقوبة بهم عن قريب كما هو المتبادر من قوله تعالى (سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فانه استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بعدم المبالاة والاعراض عن المجازاة كأنه قيل لم لا نبالى بالحادهم ولا نتصدى لمجازاتهم فقيل لأنه سينزل بهم عقوبته وتشفون بذلك عن قريب وأما على الوجهين الأولين فالمعنى اجتنبوا الحادهم كيلا يصيبكم ما أصابهم فانه سينزل بهم عقوبة الحادهم (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) بيان إجمالى لحال من عدا المذكورين من الثقلين الموصوفين بما ذكر من الضلال والالحاد عن الحق ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ اما باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف وما بعده خبره كما مر فى تفسير قوله تعالى ومن الناس الخ أى وبعض من خلقنا أو وبعض ممن خلقنا أمة أى طائفة كثيرة يهدون الناس ملتبسين بالحق أو يهدونهم بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة وبالحق يحكمون فى الحكومات الجارية فيما بينهم ولا يجورون فيها. عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا قرأها هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة الآية. وعنه عليه الصلاة والسلام إن من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى وروى لا تزال من أمتى طائفة على الحق إلى أن يأتى أمر الله وروى لا تزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون وفيه من الدلالة على صحة الاجماع ما لا يخفى والاقتصار على نعتهم بهداية الناس للايذان بأن اهتداءهم فى أنفسهم أمر محقق غنى عن التصريح به (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) شروع فى تحقيق الحق الذى به يهدى الهادون وبه يعدل العادلون وحمل الناس على الاهتداء به على وجه الترهيب ومحل الموصول الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده من الجملة الاستقبالية وإضافة الآيات إلى نون العظمة لتشريفها واستعظام الاقدام على تكذيبها أى والذين كذبوا بآياتنا التى هى معيار الحق ومصداق الصدق والعدل (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ) أى نستدنيهم البتة إلى الهلاك شيئا فشيئا والاستدراج استفعال من درج إما بمعنى صعد ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل نقل تدريجى سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط أو الاستقامة واما بمعنى مشى مشيا ضعيفا واما بمعنى طوى والأول هو الأنسب بالمعنى المراد الذى هو النقل إلى

أعلى درجات المهالك ليبلغ أقصى مراتب العقوبة والعذاب ثم استعير لطلب كل نقل تدريجى من حال إلى حال من الأحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه بحيث يزعم أن ذلك ترق فى مراقى منافعه مع أنه فى الحقيقة تردٍ فى مهاوى مصارعه فاستدراجه سبحانه إياهم أن يواتر عليهم النعم مع انهماكهم فى الغى فيحسبوا أنها لطف لهم منه تعالى فيزدادوا بطرا وطغيانا لكن لا على أن المطلوب تدرجهم فى مراتب النعم بل هو تدرجهم فى مدارج المعاصى إلى أن يحق عليهم كلمة العذاب على أفظع حال وأشنعها والأول وسيلة اليه وقوله تعالى (مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ) متعلق بمضمر وقع صفة لمصدر الفعل المذكور أى سنستدرجهم استدراجا كائنا من حيث لا يعلمون أنه كذلك بل يحسبون أنه أثرة من الله عز وجل وتقريب منه وقيل لا يعلمون ما يراد بهم (وَأُمْلِي لَهُمْ) عطف على سنستدرجهم غير داخل فى حكم السين لما أن الاملاء الذى هو عبارة عن الامهال والاطالة ليس من الأمور التدريجية كالاستدراج الحاصل فى نفسه شيئا فشيئا بل هو فعل يحصل دفعة وإنما الحاصل بطريق التدريج آثاره وأحكامه لا نفسه كما يلوح به تغيير التعبير بتوحيد الضمير مع ما فيه من الافتنان المنبىء عن مزيد الاعتناء بمضمون الكلام لابتنائه على تجديد القصد والعزيمة وأما ان ذلك للاشعار بأنه بمحض التقدير الالهى والاستدراج بتوسط المدبرات فبناه دلالة نون العظمة على الشركة وأنى ذلك وإلا لاحترز عن إيرادها فى قوله تعالى ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم الآية بل إنما إيرادها فى أمثال هذه الموارد بطريق الجريان على سنن الكبرياء (إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) تقرير للوعيد وتأكيد له أى قوى لا يدافع بقوة ولا بحيلة والمراد به إما الاستدراج والاملاء مع نتيجتهما التى هى الأخذ الشديد على غرة فتسميته كيدا لما أن ظاهره لطف وباطنه قهر واما نفس ذلك الأخذ فقط فالتسمية لكون مقدماته كذلك وأما أن حقيقة الكيد هو الأخذ على خفاء من غير أن يعتبر فيه إظهار خلاف ما أبطنه فمما لا تعويل عليه مع عدم مناسبته للمقام ضرورة استدعائه لاعتبار القيد المذكور حتما (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ) كلام مبتدأ مسوق لانكار عدم تفكرهم فى شأنه عليه الصلاة والسلام وجهلهم بحقيقة حاله الموجبة للايمان به وبما أنزل عليه من الآيات التى كذبوا بها والهمزة للانكار والتعجيب والتوبيخ والواو للعطف على مقدر يستدعيه سباق النظم الكريم وسياقه وما إما استفهامية انكارية فى محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم وإما نافية اسمها جنة وخبرها بصاحبهم والجنة من المصادر التى يراد بها الهيئة كالركبة والجلسة وتنكيرها للتقليل والتحقير والجملة معلقة لفعل التفكر لكونه من أفعال القلوب ومحلها على الوجهين النصب على نزع الجار أى أكذبوا بها ولم يتفكروا فى أى شىء من جنون ما كائن بصاحبهم الذى هو أعظم الأمة الهادية بالحق وعليه أنزلت تلك الآيات أو فى أنه ليس بصاحبهم شىء من جنة حتى يؤديهم التفكر فى ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحة نبوته فيؤمنوا به وبما أنزل عليه من الآيات وقيل قد تم الكلام عند قوله تعالى أولم يتفكروا وأى كذبوا بها ولم يفعلوا التفكر ثم ابتدىء فقيل أى شىء بصاحبهم من جنة ما على طريقة الانكار والتعجيب والتبكيت أو قيل ليس بصاحبهم شىء منها والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم للايذان بأن طول مصاحبتهم له عليه الصلاة والسلام مما يطلعهم على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة ما ذكر ففيه تأكيد للنكير وتشديد له والتعرض لنفى الجنون عنه عليه الصلاة والسلام مع وضوح استحالة ثبوته له عليه الصلاة والسلام لما أن التكلم بما هو خارق لقضية العقول والعادات لا يصدر إلا عمن به مس من الجنون كيفما اتفق من غير أن يكون له أصل ومعنى أو عمن له تأييد إلهى يخبر به عن الأمور الغيبية وإذ ليس به عليه السلام شائبة الأول تعين أنه عليه الصلاة والسلام مؤيد من عند الله تعالى وقيل إنه عليه الصلاة والسلام علا الصفا ليلا فجعل يدعو قريشا فخذا فخذا يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم إن صاحبكم هذا المجنون بات يهوت إلى الصباح فنزلت فالتصريح بنفى الجنون حينئذ للرد على عظيمتهم الشنعاء والتعبير عنه

عليه الصلاة والسلام بصاحبهم وارد على شاكلة كلامهم مع ما فيه من النكتة المذكورة وقوله تعالى (إن هو إلا نذير مبين) جملة مقررة لمضمون ما قبلها ومبينة لحقيقة حاله عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى إن هذا إلا ملك كريم بعد قوله تعالى ما هذا بشرا أى ما هو عليه الصلاة والسلام إلا مبالغ فى الإنذار مظهر له غاية الإظهار إبرازا لكمال الرأفة ومبالغة فى الإعذار وقوله تعالى (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض) استئناف آخر مسوق للإنكار والتوبيخ بإخلالهم بالتأمل فى الآيات التكوينية المنصوبة فى الآفاق والأنفس الشاهدة بصحة مضمون الآيات المنزلة إثر ما نعى عليهم إخلالهم بالتفكر فى شأنه عليه الصلاة والسلام والهمزة لما ذكر من الإنكار والتعجب والتوبيخ والواو للعطف على المقدر المذكور أو على الجملة المنفية بلم والملكوت الملك العظيم أى أكذبوا بها أو ألم يتفكروا فيما ذكر ولم ينظروا نظر تأمل فيما يدل عليه السموات والأرض من عظم الملك وكمال القدرة (وما خلق الله) أى وفيما خلق فيهما على أنه عطف على ملكوت وتخصيصه بهما لكمال ظهور عظم الملك فيهما أو وفى ملكوت ما خلق على أنه عطف على السموات والأرض والتعميم لاشتراك الكل فى الدلالة على عظم الملك فى الحقيقة وعليه قوله تعالى فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وقوله تعالى (من شىء) بيان لما خلق مفيد لعدم اختصاص الدلالة المذكورة بجلائل المصنوعات دون دقائقها والمعنى أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق فيهما من جليل ودقيق مما ينطلق عليه اسم الشىء ليدلهم ذلك على العلم بوحدانيته تعالى وبسائر شئونه التى ينطق بها تلك الآيات فيؤمنوا بها لاتحادهما فى المدلول فإن كل فرد من أفراد الأكوان مما عز وهان دليل لائح على الصانع المجيد وسبيل واضح إلى عالم التوحيد وقوله تعالى (وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) عطف على ملكوت وأن مخففة من أن واسمها ضمير الشأن وخبرها عسى مع فاعلها الذى هو أن يكون واسم يكون أيضا ضمير الشأن والخبر قد اقترب أجلهم والمعنى أولم ينظروا فى أن الشأن عسى أن يكون الشأن قد اقترب أجلهم وقد جوز أن يكون اسم يكون أجلهم وخبرها قد اقترب على أنها جملة من فعل وفاعل هو ضمير أجلهم لتقدمه حكما وأياما كان فمناط الإنكار والتوبيخ تأخيرهم للنظر والتأمل أى لعلهم يموتون عما قريب فما لهم لا يسارعون إلى التدبر فى الآيات التكوينية الشاهدة بما كذبوه من الآيات القرآنية وقد جوز أن يكون الأجل عبارة عن الساعة والإضافة إلى ضميرهم لملابستهم لها من جهة إنكارهم لها وبحثهم عنها وقوله تعالى (فبأى حديث بعده يؤمنون) قطع لاحتمال إيمانهم رأسا ونفى له بالكلية مترتب على ما ذكر من تكذيبهم بالآيات وإخلالهم بالتفكر والنظر والباء متعلقة بيؤمنون وضمير بعده للآيات على حذف المضاف المفهوم من كذبوا والتذكير باعتبار كونها قرآنا أو بتأويلها بالمذكور أو لإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة والمعنى أكذبوا بها ولم يتفكروا فيما يوجب تصديقها من أحواله عليه الصلاة والسلام وأحوال المصنوعات فبأى حديث يؤمنون بعد تكذيبه ومعه مثل هذه الشواهد القوية كلا وهيهات وقيل الضمير للقرآن والمعنى فبأى حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية فى البيان وقيل هو إنكار وتبكيت لهم مترتب على إخلالهم بالمسارعة إلى التأمل فيما ذكر كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا وقيل الضمير لأجلهم والمعنى فبأى حديث بعد انقضاء أجلهم يؤمنون وقيل للرسول عليه الصلاة والسلام على حذف مضاف أى فبأى حديث بعد حديثه يؤمنون وهو أصدق الناس وقوله تعالى (من يضلل الله فلا هادى له) استئناف مقرر لما قبله منبئ عن الطبع على قلوبهم وقوله تعالى (ويذرهم فى طغيانهم) بالياء والرفع على الاستئناف أى وهو يذرهم وقرئ بنون العظمة على طريقة الالتفات أى ونحن نذرهم وقرئ بالياء والجزم عطفا على محل فلا هادى له كأنه قيل من يضلل الله

لايهده أحد ويذرهم وقد روى الجزم بالنون عن نافع وأبي عمرو في الشواذ وقوله تعالى (يعمهون) أي يترددون ويتحيرون حال من مفعول يذرهم وتوحيد الضمير في حيز النفي نظر إلى لفظ من وجمعه في حيز الاثبات نظر إلى معناها للتنصيص على شمول النفي والاثبات للكل (يسئلونك عن الساعة) استئناف مسوق لبيان بعض أحكام ضلالهم وطغيانهم أي عن القيامة وهي من الأسماء الغالبة واطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة أو لسرعة ما فيها من الحساب أو لأنها ساعة عند الله تعالى مع طولها في نفسها قيل إن قوماً من اليهود قالوا يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً فانا نعلم متى هي وكان ذلك امتحاناً منهم مع علمهم أنه تعالى قد استأثر بعلمها وقيل السائلون قريش وقوله تعالى (أيان مرساها) بفتح الهمزة وقد قرىء بكسرها وهو ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام ويليه المبتدأ أو الفعل المضارع دون الماضي بخلاف متى حيث يليها كلاهما قيل اشتقاقه من أي فعلان منه لأن معناه أي وقت وهو من أويت إلى الشيء لأن البعض آو إلى الكل متساند اليه ومحله الرفع على أنه خبر مقدم ومرساها مبتدأ مؤخر أي متى إرساؤها أي إثباتها وتقريرها فانه مصدر ميمي من أرساه إذا أثبته وأقره ولا يكاد يستعمل إلا في الشيء الثقيل كما في قوله تعالى والجبال أرساها ومنه مرساة السفن ومحل الجملة قيل الجر على البدلية من الساعة والتحقيق أن محلها النصب بنزع الخافض لأنها بدل من الجار والمجرور لا من المجرور فقط كأنه قيل يسألونك عن الساعة عن أيان مرساها وفي تعليق السؤال بنفس الساعة أولاً وبوقت وقوعها ثانياً تنبيه على أن المقصد الأصلي من السؤال نفسها باعتبار حلولها في وقتها المعين لا وقتها باعتبار كونه محلاً لها وقد سلك هذا المسلك في الجواب الملقن أيضاً حيث أضيف العلم المطلوب بالسؤال إلى ضميرها فأخبر باختصاصه به عز وجل حيث قيل (قل إنما علمها) أي علمها بالاعتبار المذكور (عند ربي) ولم يقل إنما علم وقت ارسائها ومن لم يتنبه لهذه النكتة حمل النظم الكريم على حذف المضاف والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام للايذان بأن توفيقه عليه الصلاة والسلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والإرشاد ومعنى كونه عنده تعالى خاصة أنه تعالى قد استأثر به بحيث لم يخبر به أحداً من ملك مقرب أو نبي مرسل وقوله تعالى (لا يجليها لوقتها إلا هو) بيان لاستمرار تلك الحالة إلى حين قيامها واقناط كلي عن إظهار أمرها بطريق الاخبار من جهته تعالى أو من جهة غيره لاقتضاء الحكمة التشريعية إياه فانه أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما إن إخفاء الأجل الخاص للانسان كذلك والمعنى لا يكشف عنها ولا يظهر للناس أمرها الذي تسألونني عنه إلا هو بالذات من غير أن يشعر به أحد من المخلوقين فيتوسط في إظهاره لهم لكن لا بأن يخبرهم بوقتها قبل مجيئه كما هو المسئول بل بأن يقيمها فيشاهدوها عياناً كما يفصح عنه التجلية المنبئة عن الكشف التام المزيل للابهام بالكلية وقوله تعالى لوقتها أي في وقتها قيد للتجلية بعد ورود الاستثناء عليها لا قبله كأنه قيل لا يجليها إلا هو في وقتها إلا أنه قدم على الاستثناء للتنبيه من أول الأمر على أن تجليتها ليست بطريق الاخبار بوقتها بل باظهار عينها في وقتها الذي يسألون عنه وقوله تعالى (ثقلت في السموات والأرض) استئناف كما قبله مقرر لمضمون ما قبله أي كبرت وشقت على أهلهما من الملائكة والثقلين كل منهم أهمه خفاؤها وخروجها عن دائرة العقول وقيل عظمت عليهم حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها وقيل ثقلت فيهما إذ لا يطيقها منهما ومما فيهما شيء أصلاً والأول هو الأنسب بما قبله وبما بعده من قوله تعالى (لا تأتيكم إلا بغتة) فانه أيضاً استئناف مقرر لمضمون ما قبله فلابد من اعتبار الثقل من حيث الخفاء أي لا تأتيكم إلا فجأة على غفلة كما قال عليه الصلاة والسلام إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته والرجل يقوم سلعته في سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه (يسئلونك كأنك حفي عنها) استئناف مسوق لبيان خطئهم في توجيه السؤال إلى رسول الله صلى الله عليه سلم

بناء على زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام عالم بالمسئول عنه أو أن العلم بذلك من مواجب الرسالة اثر بيان خطئهم فى أصل السؤال باعلام شأن المسئول عنه والجملة التشبيهية فى محل النصب على أنها حال من الكاف جىء بها بيانا لما يدعوهم إلى السؤال على زعمهم وإشعارا بخطئهم فى ذلك أى يسألونك مشبها حالك عندهم بحال من هو حفى عنها أى مبالغ فى العلم بها فعيل من حفى وحقيقته كأنك مبالغ فى السؤال عنها فان ذلك فى حكم المبالغة فى العلم بها لما أن من بالغ فى السؤال عن الشىء والبحث عنه استحكم علمه به ومبنى التركيب على المبالغة والاستقصاء ومنه احفاء الشارب واحتفاء البقل أى استئصاله والاحفاء فى المسئلة أى الالحاف فيها وقيل عن متعلقة بيسألونك وقوله تعالى كأنك حفى معترض وصلة حفى محذوفة أى حفى بها وقد قرىء كذلك وقيل هو من الحفاوة بمعنى البر والشفقة فان قريشا قالوا له عليه الصلاة والسلام ان بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة والمعنى يسألونك كأنك حفى تتحفى بهم فتخصهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوى أمرها عن غيرهم ففيه تخطئة لهم من جهتين وقيل هو من حفى بالشىء بمعنى فرح به والمعنى كأنك فرح بالسؤال عنها تحبه مع أنك كاره له لما أنه تعرض لحرم الغيب الذى استأثر الله عز وجل بعلمه (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ) أمر عليه الصلاة والسلام باعادة الجواب الأول تأكيدا للحكم وتقريرا له وإشعارا بعلته على الطريقة البرهانية بايراد اسم الذات المنبىء عن استتباعها صفات الكمال التى من جملتها العلم وتمهيدا للتعريض بجهلهم بقوله تعالى (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أى لا يعلمون ما ذكر من اختصاص علمها به تعالى فبعضهم ينكرونها رأسا فلا يعلمون شيئا مما ذكر قطعا وبعضهم يعلمون أنها واقعة البتة ويزعمون أنك واقف على وقت وقوعها فيسألونك عنه جهلا وبعضهم يدعون أن العلم بذلك من مواجب الرسالة فيتخذون السؤال عنه ذريعة إلى القدح فى رسالتك والمستثنى من هؤلاء هم الواقفون على جلية الحال من المؤمنين وأما السائلون عنها من اليهود بطريق الامتحان فهم منتظمون فى سلك الجاهلين حيث لم يعملوا بعلمهم وقوله تعالى (قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) شروع فى الجواب عن السؤال ببيان عجزه عن علمها اثر بيان عجز الكل عنه وابطال زعمهم الذى بنوا عليه سؤالهم من كونه عليه الصلاة والسلام ممن يعلمها وإعادة الأمر لإظهار كمال العناية بشأن الجواب والتنبيه على استقلاله ومغايرته للأول والتعرض لبيان عجزه عما ذكر من النفع والضر لإثبات عجزه عن علمها بالطريق البرهانى واللام إما متعلق بأملك أو بمحذوف وقع حالا من نفعا أى لا أقدر لأجل نفسى على جلب نفع ما ولا على دفع ضر ما (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) أن أملكه من ذلك بأن يلهمنيه فيمكننى منه ويقدرنى عليه أولكن ما شاء الله من ذلك كائن فالاستثناء منقطع وهذا أبلغ فى إظهار العجز (وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ) أى جنس الغيب الذى من جملته ما بين الأشياء من المناسبات المصححة عادة للسببية والمسببية ومن المباينات المستتبعة للمانعة والمدافعة (لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) أى لحصلت كثيرا من الخير الذى نيط تحصيله بالأفعال الاختيارية للبشر بترتيب أسبابه ودفع موانعه (وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) أى السوء الذى يمكن التفصى عنه بالتوقى عن موجباته والمدافعة بموانعه لا سوء ما فان منه ما لا مدفع له (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) أى ما أنا إلا عبد مرسل للانذار والبشارة شأنى حيازة ما يتعلق بهما من العلوم الدينية والدنيوية لا الوقوف على الغيوب التى لا علاقة بينها وبين الأحكام والشرائع وقد كشفت من أمر الساعة ما يتعلق به الانذار من مجيئها لا محالة واقترابها وأما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الانذار بل هو مما يقدح فيه لما مر من أن إبهامه أدعى إلى الانزجار عن المعاصى وتقديم النذير على البشير لما أن المقام مقام الانذار وقوله تعالى (لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إما متعلق بهما جميعا لأنهم ينتفعون بالانذار كما ينتفعون بالبشارة وإما بالبشير فقط وما يتعلق بالنذير محذوف أى نذير للكافرين أى الباقين على الكفر وبشير لقوم يؤمنون أى فى أى وقت كان ففيه ترغيب للكفرة فى إحداث الإيمان وتحذير عن الاصرار على الكفر والطغيان (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم) استئناف

سيق لبيان كمال عظم جناية الكفرة فى جراءتهم على الاشراك بتذكير مبادى أحوالهم المنافية له وايقاع الموصول خبرا لتفخيم شأن المبتدأ أى هو ذلك العظيم الشأن الذى خلقكم جميعا وحده من غير أن يكون لغيره مدخل فى ذلك بوجه من الوجوه (مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) هو آدم عليه الصلاة والسلام وهذا نوع تفصيل لما أشير إليه فى مطلع السورة الكريمة إشارة إجمالية من خلقهم وتصويرهم فى ضمن خلق آدم وتصويره وبيان لكيفيته (وَجَعَلَ) عطف على خلقكم داخل فى حكم الصلة ولا ضير فى تقدمه عليه وجودا لما أن الواو لا تستدعى الترتيب فى الوجود (مِنْهَا) أى من جنسها كما فى قوله تعالى جعل لكم من أنفسكم أزواجا أو من جسدها لما يروى أنه تعالى خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه الصلاة والسلام والأول هو الأنسب إذ الجنسية هى المؤدية إلى الغاية الآتية لا الجزئية والجعل اما بمعنى التصيير فقوله تعالى (زَوْجَهَا) مفعوله الأول والثانى هو الظرف المقدم واما بمعنى الانشاء والظرف متعلق بجعل قدم على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أو بمحذوف هو حال من المفعول والأول هو الأولى وقوله تعالى (لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) علة غائية للجعل باعتبار تعلقه بمفعوله الثانى أى ليستأنس بها ويطمئن اليها اطمئنانا مصححا للازدواج كما يلوح به تذكير الضمير ويفصح عنه قوله تعالى (فَلَمَّا تَغَشَّاهَا) أى جامعها (حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا) فى مبادىء الأمر فانه عند كونه نطفة أو علقة أو مضغة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب والتعرض لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم فى إنشائه تعالى إياهم متدرجين فى أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ومن الضعف إلى القوة (فَمَرَّتْ بِهِ) أى فاستمرت به كما كانت قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت وعليه قراءة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقرىء فمرت بالتخفيف وفارت من المور وهو المجىء والذهاب أو من المرية فظنت الحمل وارتابت به وأما ما قيل من أن المعنى حملت حملا خف عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذية ولم تستثقله كما يستثقلنه فمرت به أى فمضت به إلى ميلاده من غير اخداج ولا ازلاق فيرده قوله تعالى (فَلَمَّا أَثْقَلَتْ) إذ معناه فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها ولا ريب فى أن الثقل بهذا المعنى ليس مقابلا للخفة بالمعنى المذكور إنما يقابلها الكرب الذى يعترى بعضهن من أول الحمل إلى آخره دون بعض أصلا وقرىء أثقلت على البناء للمفعول أى أثقلها حملها (دَعَوَا اللَّهَ) أى آدم وحواء عليهما السلام لما دهمهما أمر لم يعهداه ولم يعرفا ماله فاهتما به وتضرعا اليه عز وجل وقوله تعالى (رَبَّهُمَا) أى مالك أمرهما الحقيق بان يخص به الدعاء إشارة إلى أنهما قد صدرا به دعاءهما كما فى قولهما ربنا ظلمنا أنفسنا الآية ومتعلق الدعاء محذوف تعويلا على شهادة الجملة القسمية به أى دعواه تعالى أن يؤتيهما صالحا ووعدا بمقابلته الشكر على سبيل التوكيد القسمى وقالا أو قائلين (لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا) أى ولدا من جنسنا سويا (لَنَكُونَنَّ) نحن ومن يتناسل من ذريتنا (مِنَ الشَّاكِرِينَ) الراسخين فى الشكر على نعمائك التى من جملتها هذه النعمة وترتيب هذا الجواب على الشرط المذكور لما أنهما قد علما أن ما علقا به دعاءهما أنموذج لسائر أفراد الجنس ومعيار لها ذاتا وصفة وجوده مستتبع لوجودها وصلاحه مستلزم لصلاحها فالدعاء فى حقه متضمن للدعاء فى حق الكل مستتبع له كأنهما قالا لئن آتيتنا وذريتنا أولادا صالحة وقيل ان ضمير آتيتنا أيضا لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما فالوجه ظاهر وأنت خبير بأن نظم الكل فى سلك الدعاء اصالة يأباه مقام المبالغة فى الاعتناء بشأن ما هما بصدده وأما جعل ضمير لنكونن للكل فلا محذور فيه لأن توسيع دائرة الشكر غير مخل بالاعتناء المذكور بل مؤكد له وأياما كان فمعنى قوله تعالى (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا) لما آتاهما ما طلباه أصالة واستتباعا من الولد وولد الولد ما تناسلوا فقوله تعالى (جَعَلَا) أى جعل أولادهما (لَهُ) تعالى (شُرَكَاءَ) على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ثقة بوضوح

الأمر وتعويلا على ما يعقبه من البيان وكذا الحال فى قوله تعالى (فِيمَا ءَاتَىٰهُمَا) أى فيما آتى أولادهما من الأولاد حيث سموهم بعبد مناف وعبد العزى ونحو ذلك وتخصيص اشراكهم هذا بالذكر فى مقام التوبيخ مع أن اشراكهم بالعبادة أغلظ منه جناية وأقدم وقوعا لما أن مساق النظم الكريم لبيان اخلالهم بالشكر فى مقابلة نعمة الولد الصالح وأول كفرهم فى حقه إنما هو تسميتهم إياه بما ذكر وقرىء شركا أى شركة أو ذوى شركة أى شركاء ان قيل ماذكر من حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه إنما يصار اليه فيما يكون للفعل ملابسة ما بالمضاف اليه أيضا بسرايته اليه حقيقة أو حكما وتتضمن نسبته اليه صورة مزية يقتضيها المقام كما فى مثل قوله تعالى وإذ نجيناكم من آل فرعون الآية فان الانجاء منهم مع أن تعلقه حقيقة ليس الا باسلاف اليهود قد نسب إلى أخلافهم بحكم سرايته اليهم توفية لمقام الامتنان حقه وكذا فى قوله تعالى قل فلم تقتلون أنبياء الله الآية فان القتل حقيقة مع كونه من جناية آبائهم قد أسند اليهم بحكم رضاهم به أداء لحق مقام التوبيخ والتبكيت ولا ريب فى أنهما عليهما الصلاة والسلام بريئان من سراية الجعل المذكور اليهما بوجه من الوجوه فما وجه اسناده اليهما صورة قلنا وجهه الايذان بتركهما الأولى حيث أقدما على نظم أولادهما فى سلك أنفسهما والتزما شكرهم فى ضمن شكرهما وأقسما على ذلك قبل تعرف أحوالهم ببيان ان اخلالهم بالشكر الذى وعداه وعدا مؤكدا باليمين بمنزلة اخلالهما بالذات فى استيجاب الحنث والخلف مع ما فيه من الاشعار بتضاعف جنايتهم ببيان أنهم بجعلهم المذكور أوقعوهما فى ورطة الحنث والخلف وجعلوهما كأنهما باشراه بالذات فجمعوا بين الجناية على الله تعالى والجناية عليهما عليهما السلام (فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) تنزيه فيه معنى التعجب والفاء لترتيبه على ما فصل من أحكام قدرته تعالى وآثار نعمته الزاجرة عن الشرك الداعية إلى التوحيد وصيغة الجمع لما أشير اليه من تعين الفاعل وتنزيه آدم وحواء عن ذلك وما فى عما اما مصدرية أى عن اشراكهم أو موصولة أو موصوفة أى عما يشركونه به سبحانه والمراد باشراكهم اما تسميتهم المذكورة أو مطلق اشراكهم المنتظم لها انتظاما أوليا وقرىء تشركون بتاء الخطاب بطريق الالتفات وقيل الخطاب لآل قصى من قريش والمراد بالنفس الواحدة نفس قصى فانهم خلقوا منه وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله تعالى ولدا صالحا فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم عبد مناف وعبد شمس وعبد قصى وعبد الدار وضمير يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما وأما ما قيل من أنه لما حملت حواء أتاها إبليس فى صورة رجل فقال لها ما يدريك ما فى بطنك لعله بهيمة أو كلب أو خنزير وما يدريك من أين يخرج فخافت من ذلك فذكرته لآدم فأهمهما ذلك ثم عاد اليها وقال انى من الله تعالى بمنزلة فان دعوته أن يجعله خلقا مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث وكان اسمه حارثا فى الملائكة فقبلت فلما ولدته سمته عبد الحرث فمما لا تعويل عليه . كيف لا وأنه عليه الصلاة والسلام كان علما فى علم الاسماء والمسميات فعدم علمه بابليس واسمه واتباعه إياه فى مثل هذا الشأن الخطير أمر قريب من المحال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال (أَيُشْرِكُونَ) استئناف مسوق لتوبيخ كافة المشركين واستقباح اشراكهم على الاطلاق وابطاله بالكلية ببيان شأن ما أشركوه به سبحانه وتفصيل أحواله القاضية ببطلان ما اعتقدوه فى حقه أى أيشركون به تعالى (مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا) أى لا يقدر على أن يخلق شيئا من الأشياء أصلا ومن حق المعبود أن يكون خالقا لعابده لا محالة وقوله تعالى (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) عطف على لا يخلق وايراد الضميرين بجمع العقلاء مع رجوعهما إلى ما المعبر بها عن الاصنام إنما هو بحسب اعتقادهم فيها واجرائهم لها مجرى العقلاء وتسميتهم لها آلهة وكذا حال سائر الضمائر الآتية ووصفها بالمخلوقية بعد وصفها بنفى الخالقية لابانة كمال منافاة حالها لما اعتقدوه فى حقها واظهار غاية جهلهم فان اشراك ما لا يقدر على خلق شىء ما بخالقه وخالق جميع الأشياء مما لا يمكن أن يسوغه من له عقل فى الجملة وعدم التعرض لخالقها

للايذان بتعينه والاستغناء عن ذكره (وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ) أى لعبدتهم إذا حزبهم أمر مهم وخطب ملم (نَصْرًا) أى نصراً ما بجلب منفعة أو دفع مضرة (وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) إذا اعتراهم حادثة من الحوادث أى لا يدفعونها عن أنفسهم وإيراد النصر للمشاركة وهذا بيان لعجزهم عن إيصال منفعة ما من المنافع الوجودية والعدمية إلى عبدتهم وأنفسهم بعد بيان عجزهم عن إيصال منفعة الوجود اليهم وإلى أنفسهم خلا أنهم وصفوا هناك بالمخلوقية لكونهم أهلا لها وههنا لم يوصفوا بالمنصورية لأنهم ليسوا أهلا لها وقوله تعالى (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ) بيان لعجزهم عما هو أدنى من النصر المنفي عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب والارشاد إلى طريق حصوله من غير أن يحصله الطالب والخطاب للمشركين بطريق الالتفات المنبيء عن مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت أى ان تدعوهم أيها المشركون إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به المطالب أو تنجون به عن المكاره (لا يَتَّبِعُوكُمْ) إلى مرادكم وطلبتكم وقرىء بالتخفيف وقوله تعالى (سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ) استئناف مقرر لمضمون ما قبله ومبين لكيفية عدم الاتباع أى مستو عليكم فى عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم البحت فانه لا يتغير حالكم فى الحالين كما لا يتغير حالهم بحكم الجمادية وقوله تعالى أم أنتم صامتون جملة اسمية فى معنى الفعلية معطوفة على الفعلية لأنها فى قوة أم صمتم عدل عنها للمبالغة فى عدم إفادة الدعاء ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمر وما قيل من أن الخطاب للمسلمين والمعنى وإن تدعوا المشركين إلى الهدى أى الاسلام لا يتبعوكم الخ مما لا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه أصلا على أنه لو كان كذلك لقيل عليهم مكان عليكم كما فى قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فان استواء الدعاء وعدمه إنما هو بالنسبة إلى المشركين لا بالنسبة إلى الداعين فانهم فائزون بفضل الدعوة (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) تقرير لما قبله من عدم اتباعهم لهم ان الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة (عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ) أى مماثلة لكم لكن لا من كل وجه بل من حيث أنها مملوكة لله عز وجل مسخرة لأمره عاجزة عن النفع والضرر وتشبيهها بهم فى ذلك مع كون عجزها عنهما أظهر وأقوى من عجزهم إنما هو لاعترافهم بعجز أنفسهم وادعائهم لقدرتها عليهما إذ هو الذى يدعوهم إلى عبادتها والاستعانة بها وقوله تعالى (فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ) تحقيق لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم أى فادعوهم فى جلب نفع أو كشف ضر (إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) فى زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه وقوله تعالى (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا) الخ تبكيت اثر تبكيت مؤكد لما يفيده الأمر التعجيزى من عدم الاستجابة ببيان فقدان آلاتها بالكلية فان الاستجابة من الهياكل الجسمانية إنما تتصور إذا كان لها حياة وقوى محركة ومدركة وما ليس له شيء من ذلك فهو بمعزل من الأفاعيل بالمرة كأنه قيل ألهم هذه الآلات التى بها تتحقق الاستجابة حتى يمكن استجابتهم لكم وقد وجه الانكار إلى كل واحدة من هذه الآلات الأربع على حدة تكريراً للتبكيت وتثنية للتقريع وإشعاراً بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها كاف فى الدلالة على استحالة الاستجابة ووصف الأرجل بالمشى بها للايذان بأن مدار الانكار هو الوصف وإنما وجه إلى الأرجل لا إلى الوصف بأن يقال أيمشون بأرجلهم لتحقيق أنها حيث لم يظهر منها ما يظهر من سائر الأرجل فهى ليست بأرجل فى الحقيقة وكذا الكلام فيما بعده من الجوارح الثلاث الباقية وكلمة أم فى قوله تعالى (أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا) منقطعة وما فيها من الهمزة لما مر من التبكيت والالزام وبل للاضراب المفيد للانتقال من فن من التبكيت بعد تمامه الى فن آخر منه لما ذكر من المزايا والبطش الأخذ بقوة وقرىء يبطشون بضم الطاء وهى لغة فيه والمعنى بل ألهم أيد يأخذون بها ما يريدون أخذه وتأخير هذا عما قبله لما أن المشى حالهم فى أنفسهم والبطش حالهم بالنسبة الى الغير وأما تقديمه على قوله تعالى (أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) مع أن الكل

سواء فى أنها من أحوالهم بالنسبة الى الغير فلمراعاة المقابلة بين الأيدى والأرجل ولأن انتفاء المشى والبطش أظهر والتبكيت بذلك أقوى وأما تقديم الاعين فلما أنها أشهر من الآذان وأظهر عينا وأثرا هذا وقد قرىء ان الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم على اعمال أن النافية عمل ما الحجازية أى ما الذين تدعون من دونه تعالى عبادا أمثالكم بل أدنى منكم فيكون قوله تعالى ألهم الخ تقريراً لنفى المماثلة باثبات القصور والنقصان (قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ) بعد مابين أن شركاءهم لايقدرون على شىء ما أصلا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يناصبهم للمحاجة ويكرر عليهم التبكيت والقامم الحجر أى ادعوا شركاءكم واستعينوا بهم على (ثُمَّ كِيدُونِ) جميعا أنتم وشركاؤكم وبالغوا فى ترتيب ماتقدرون عليه من مبادى الكيد والمكر (فَلَا تُنْظِرُونِ) أى فلا تمهلونى ساعة بعد ترتيب مقدمات الكيد فانى لا أبالى بكم أصلا (إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ) تعليل لعدم المبالاة المنفهم من السوق انفهاما جليا ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب للاشعار بدليل الولاية والاشارة الى علة أخرى لعدم المبالاة كأنه قيل لا أبالى بكم وبشركائكم لان وليي هو الله الذى أنزل الكتاب الناطق بأنه وليي وناصرى وبأن شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصركم وقوله تعالى (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) تذييل مقرر لمضمون ماقبله أى ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده وينصرهم ولا يخذلهم (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ) اى تعبدونهم (مِنْ دُونِهِ) تعالى أو تدعونهم للاستعانة بهم على حسبما أمرتكم به (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ) أى فى أمر من الامور أو فى خصوص الامر المذكور (وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ) اذا نابتهم نائبة (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى) الى أن يهدوكم الى ماتحصلون به مقاصدكم على الاطلاق أو فى خصوص الكيد المعهود (لَا يَسْمَعُوا) اى دعاءكم فضلا عن المساعدة والامداد وهذا ابلغ من نفى الاتباع وقوله تعالى (وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) بيان لعجزهم عن الابصار بعد بيان عجزهم عن السمع وبه يتم التعليل فلا تكرار أصلا والرؤية بصرية وقوله تعالى ينظرون اليك حال من المفعول والجملة الاسمية حال من فاعل ينظرون أى وترى الأصنام رأى العين يشبهون الناظرين اليك ويخيل اليك أنهم يبصرونك لما أنهم صنعوا لها أعينا مركبة بالجواهر المضيئة المتلألئة وصوروها بصورة من قلب حدقته إلى الشىء ينظر اليه والحال أنهم غير قادرين على الابصار وتوحيد الضمير فى تراهم مع رجوعه إلى المشركين لتوجيه الخطاب إلى كل واحد واحد منهم لا إلى الكل من حيث هو كل كالخطابات السابقة تنبيها على أن رؤية الأصنام على الهيئة المذكورة لاتتسنى للكل معاً بل لكل من يواجهها وقيل ضمير الفاعل فى تراهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وضمير المفعول على حاله وقيل للمشركين على أن التعليل قدتم عند قوله تعالى لايسمعوا أى وترى المشركين ينظرون اليك والحال أنهم لا يبصرونك كما أنت عليه وعن الحسن ان الخطاب فى قوله تعالى وان تدعوا للمؤمنين على أن التعليل قدتم عند قوله تعالى ينصرون أى وان تدعوا أيها المؤمنين المشركين إلى الإسلام لايلتفتوا اليكم ثم خوطب عليه السلام بطريق التجريد بأنك تراهم ينظرون اليك والحال أنهم لايبصرونك حق الابصار تنبيها على أن مافيه عليه السلام من شواهد النبوة ودلائل الرسالة من الجلاء بحيث لايكاد يخفى على الناظرين (خُذِ الْعَفْوَ) بعدما عد من أباطيل المشركين وقبائحهم مالايطاق تحمله أمر عليه الصلاة والسلام بمجامع مكارم الأخلاق التى من جملتها الاغضاء عنهم أى خذ ماعفا لك من أفعال الناس وتسهل ولا تكلفهم مايشق عليهم من العفو الذى هو ضد الجهد أو خذ العفو من المذنبين أو الفضل من صدقاتهم وذلك قبل وجوب الزكاة (وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ) بالجميل المستحسن من الأفعال فانها قريبة من قبول الناس من غير نكير (وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) من غير مماراة ولا مكافأة قيل لما نزلت سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فقال لا أدرى حتى أسأل ثم رجع فقال يامحمد ان ربك

أمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وعن جعفر الصادق أمر الله تعالى نبيه بمكارم الأخلاق وروى أنه لما نزلت الآية الكريمة قال عليه الصلاة والسلام كيف يارب والغضب متحقق فنزل قوله تعالى (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ) النزغ والنسغ والنخس الغرز شبهت وسوسته للناس وإغراؤه لهم على المعاصى بغرز السائق لما يسوقه وإسناده إلى النزغ من قبيل جد جده أى وإما يحملنك من جهته وسوسة ما على خلاف ما أمرت به من اعتراء غضب أو نحوه (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ) فالتجىء إليه تعالى من شره (إِنَّهُ سَمِيعٌ) يسمع استعاذتك به قولا (عَلِيمٌ) يعلم تضرعك إليه قلبا فى ضمن القول أو بدونه فيعصمك من شره وقد جوز أن يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب على نهج الاستعارة كما فى قول الصديق رضى الله عنه إن لى شيطانا يعترينى ففيه زيادة تنفير عنه وفرط تحذير عن العمل بموجبه وفى الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة التى لا يتخلص من مضرتها إلا بالالتجاء إلى حرم عصمته عز وجل وقيل يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه أو سميع بأقوال من آذاك عليم بأفعاله فيجازيه عليها (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا) استئناف مقرر لما قبله ببيان أن ما أمر به عليه الصلاة والسلام من الاستعاذة بالله تعالى سنة مسلوكة للمتقين والاخلال بها ديدن الغاوين أى إن الذين اتصفوا بوقاية أنفسهم عما يضرها (إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ) أدنى لمة منه على أن تنوينه للتحقير وهو اسم فاعل من طاف يطوف كأنها تطوف بهم وتدور حولهم لتوقع بهم أو من طاف به الخيال يطيف طيفا أى ألم وقرىء طيف على أنه مصدر أو تخفيف من طيف من الواوى أو اليائى كهين ولين والمراد بالشيطان الجنس ولذلك جمع ضميره فيما سيأتى (تَذَكَّرُوا) أى الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه (فَإِذَا هُمْ) بسبب ذلك التذكر (مُبْصِرُونَ) مواقع الخطأ ومكايد الشيطان فيحترزون عنها ولا يتبعونه (وَإِخْوَانُهُمْ) أى اخوان الشياطين وهم المنهمكون فى الغى المعرضون عن وقاية أنفسهم عن المضار (يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَيِّ) أى يكون الشياطين مددا لهم فيه ويعضدونهم بالتزيين والحمل عليه وقرىء يمدونهم من الامداد ويمادونهم كأنهم يعينونهم بالتسهيل والاغراء وهؤلاء بالاتباع والامتثال (ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) أى لا يمسكون عن الاغواء حتى يردوهم بالكلية ويجوز أن يكون الضمير للاخوان أى لا يرعوون عن الغى ولا يقصرون كالمتقين ويجوز أن يراد بالاخوان الشياطين ويرجع الضمير إلى الجاهلين فيكون الخبر جاريا على من هو له (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ) من القرآن عند تراخى الوحى أو بآية مما اقترحوه (قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا) اجتبى الشىء بمعنى جباه لنفسه أى هلا جمعتها من تلقاء نفسك تقولا يرون بذلك أن سائر الآيات أيضا كذلك أو هلا تلقيتها من ربك استدعاء (قُلْ) ردا عليهم (إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي) من غير أن يكون لى دخل ما فى ذلك أصلا على معنى تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام باتباع ما يوحى إليه بتوجيه القصر المستفاد من كلمة انما إلى نفس الفعل بالنسبة إلى مقابله الذى كلفوه إياه عليه الصلاة والسلام لا على معنى تخصيص اتباعه عليه الصلاة والسلام بما يوحى إليه بتوجيه القصر إلى المفعول بالقياس إلى مفعول آخر كما هو الشائع فى موارد الاستعمال وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ان اتبع إلا ما يوحى الى كأنه قيل ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلى منه تعالى وفى التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية والتبليغ إلى الكمال اللائق مع الاضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه عليه الصلاة والسلام والتنبيه على تأييده ما لا يخفى (هَذَا) اشارة إلى القرآن الكريم المدلول عليه بما يوحى إلى (بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ) بمنزلة البصائر للقلوب بها تبصر الحق وتدرك الصواب وقيل حجج بينة وبراهين نيرة ومن متعلقة بمحذوف هو صفة لبصائر مفيدة لفخامتها أى بصائر كائنة منه تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميرهم لتأكيد وجوب الايمان بها وقوله تعالى (وَهُدًى وَرَحْمَةٌ) عطف على بصائر وتقديم

الظرف عليهما وتعقيبهما بقوله تعالى (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) للايذان بأن كون القرآن بمنزلة البصائر للقلوب متحقق بالنسبة إلى الكل وبه تقوم الحجة على الجميع وأما كونه هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين به إذ هم المقتبسون من أنواره والمغتنمون بآثاره والجملة من تمام القول المأمور به (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ) إرشاد إلى طريق الفوز بما أشير اليه من المنافع الجليلة التى ينطوى عليها القرآن أى وإذا قرىء القرآن الذى ذكرت شئونه العظيمة فاستمعوا له استماع تحقيق وقبول (وَأَنْصِتُوا) أى واسكتوا فى خلال القراءة وراعوها إلى انقضائها تعظيما له وتكميلا للاستماع (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أى تفوزون بالرحمة التى هى أقصى ثمراته وظاهر النظم الكريم يقتضى وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن فى الصلاة وغيرها وقيل معناه إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وجمهور الصحابة رضى الله تعالى عنهم على أنه فى استماع المؤتم وقد روى أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة فأمروا باستماع قراءة الامام والانصات له وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ فى المكتوبة وقرأ أصحابه خلفه فنزلت وأما خارج الصلاة فعامة العلماء على استحبابهما والآية اما من تمام القول المأمور به أو استئناف من جهته تعالى فقوله تعالى (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ) على الأول عطف على قل وعلى الثانى فيه تجريد للخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عام فى الأذكار كافة فان الاخفاء أدخل فى الاخلاص وأقرب من الاجابة (تَضَرُّعاً وَخِيفَةً) أى متضرعا وخائفا (وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ) أى ومتكلما كلاما دون الجهر فانه أقرب إلى حسن التفكر (بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) متعلق باذكر أى اذكره فى وقت الغدوات والعشيات وقرىء والايصال وهو مصدر آصل أى دخل فى الأصيل موافق للغدو (وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) عن ذكر الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ) وهم الملائكة عليهم السلام ومعنى كونهم عنده سبحانه وتعالى قربهم من رحمته وفضله لتوفرهم على طاعته تعالى (لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ) بل يؤدونها حسبما أمروا به (وَيُسَبِّحُونَهُ) أى ينزهونه عن كل مالا يليق بجناب كبريائه (وَلَهُ يَسْجُدُونَ) أى يخصونه بغاية العبودية والتذلل لا يشركون به شيئا وهو تعريض بسائر المكلفين ولذلك شرع السجود عند قراءته. عن النبى صلى الله عليه وسلم إذا قرأ ابن آدم آية السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى فيقول ياويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار. وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الأعراف جعل الله تعالى يوم القيامة بينه وبين إبليس سترا وكان آدم عليه السلام شفيعا له يوم القيامة.

سورة الأنفال

(مدنية . وهى ست وسبعون آية)

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

(يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ) النفل الغنيمة سميت به لأنها عطية من الله تعالى زائدة على ما هو أصل الأجر فى الجهاد من الثواب الأخروى ويطلق على ما يعطى بطريق التنفيل زيادة على السهم من المغنم وقرىء علنفال بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وادغام نون عن فى اللام . روى أن المسلمين اختلفوا فى غنائم بدر وفى قسمتها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم ولمن الحكم فيها أللمهاجرين أم للانصار أم لهم جميعا وقيل إن الشباب قد أبلوا يومئذ بلاء حسنا فقتلوا سبعين وأسروا سبعين فقالوا نحن المقاتلون ولنا الغنائم وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردءا لكم وفئة تنحازون اليها حتى قال سعد بن معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما منعنا

أى نطلب ماطلب هؤلاء زهادة فى الأجر ولا جبن من العدو ولكن كرهنا أن نعرى مصافك فيعطف عليك خيل من المشركين فنزلت وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم قد شرط لمن كان له بلاء أن ينفله ولذلك فعل الشبان مافعلوا من القتل والاسر فسألوه عليه الصلاة والسلام ماشرط لهم فقال الشيوخ المغنم قليل والناس كثير وإن تعط هؤلاء ماشرطت لهم حرمت أصحابك فنزلت والأول هو الظاهر لما أن السؤال استعلام لحكم الأنفال بقضية كلمة عن لا استعطاء لنفسها كما نطق به الوجه الأخير وادعاء زيادة عن تعسف ظاهر والاستدلال عليه بقراءة ابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وعلى بن الحسين وزيد ومحمد الباقر وجعفر الصادق وعكرمة وعطاء يسألونك الأنفال غير متنهض فان مبناها كما قالوا على الحذف والإيصال كما يعرب عنه الجواب بقوله عز وجل (قُلِ الأَنفالُ لِلهِ وَالرَّسولِ) أى حكمها مختص به تعالى يقسمها الرسول عليه الصلاة والسلام كيفما أمر به من غير أن يدخل فيه رأى أحد ولو كان السؤال استعطاء لما كان هذا جوابا له فان اختصاص حكم ماشرط لهم من الأنفال بالله والرسول لا ينافى اعطاءها إياهم بل يحققه لأنهم انما يسألونها بموجب شرط الرسول عليه الصلاة والسلام الصادر عنه بإذن الله تعالى لا بحكم سبق أيديهم اليها ونحو ذلك مما يخل بالاختصاص المذكور وحمل الجواب أن الأنفال بالمعنى المذكور مختصة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا حق فيها للمنفل كائنا من كان بما لا سبيل اليه قطعا ضرورة ثبوت الاستحقاق بالتنفيل وادعاء أن ثبوته بدليل متأخر التزام لتكرر النسخ من غير علم بالناسخ الأخير ولا مساغ للمصير إلى ماذهب اليه مجاهد وعكرمة والسدى من أن الأنفال كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لأحد فيها شىء بهذه الآية فنسخت بقوله تعالى فأن لله خمسه وللرسول لما أن المراد بالأنفال فيما قالوا هو المعنى الأول حتما كما نطق به قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شىء الآية على أن الحق أنه لا نسخ حينئذ أيضا حسبما قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بل بين فى صدر السورة الكريمة اجمالا أن أمرها مفوض إلى الله تعالى ورسوله ثم بين مصارفها وكيفية قسمتها على التفصيل وادعاء اقتصار هذا الحكم أعنى الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنفال المشروطة يوم بدر بجعل اللام للعهد مع بقاء استحقاق المنفل فى سائر الأنفال المشروطة يأباه مقام بيان الأحكام كما ينبىء عنه اظهار الأنفال فى موقع الاضمار على أن الجواب عن سؤال الموعود ببيان كونه له عليه الصلاة والسلام خاصة مما لا يليق بشأنه الكريم أصلا وقد روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال قتل أخى عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبنى فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت إن الله تعالى قد شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف فقال لى عليه الصلاة والسلام ليس هذا لى ولا لك اطرحه فى القبض فطرحته وبى مالا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ياسعد إنك سألتنى السيف وليس لى وقد صار لى فاذهب فخذه وهذا كما ترى يقتضى عدم وقوع التنفيل يومئذ وإلا لكان سؤال السيف من سعد بموجب شرطه ووعده عليه السلام لا بطريق الهبة المبتدأة وحمل ذلك من سعد على مراعاة الأدب مع كون سؤاله بموجب الشرط يرده رده عليه الصلاة والسلام قبل النزول وتعليله بقوله ليس هذا لى لاستحالة أن يعد عليه الصلاة والسلام بما لا يقدر على انجازه واعطاؤه صلى الله عليه وسلم بعد النزول وترتيبه على قوله وقد صار لى ضرورة أن مناط صيرورته له عليه الصلاة والسلام قوله تعالى الأنفال لله والرسول والفرض أنه المانع من اعطاء المسئول ومما هو نص فى الباب قوله عز وجل (فَاتَّقوا اللهَ) أى إذا كان أمر الغنائم لله تعالى ورسوله فاتقوه تعالى واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لسخط الله تعالى أو فاتقوا فى كل ماتأتون وما تذرون فيدخل فيه ماهم فيه دخولا أوليا ولو كان السؤال طلبا للمشروط لما كان

فيه محذور يجب اتقاؤه واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) جعل مابينهم من الحال لملابستها التامة لبينهم صاحبة له كما جعلت الأمور المضمرة فى الصدور ذات الصدور أى أصلحوا مابينكم من الأحوال بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى وتفضل به عليكم وعن عبادة بن الصامت نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله تعالى من أيدينا فجعله لرسوله فقسمه بين المسلمين على السواء وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين وعن عطاء كان الاصلاح بينهم أن دعاهم وقال أقسموا غنائمكم بالعدل فقالوا قد أكلنا وأنفقنا فقال ليرد بعضكم على بعض (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) بتسليم أمره ونهيه وتوسيط الأمر باصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لاظهار كمال العناية بالاصلاح بحسب المقام وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) متعلق بالأوامر الثلاثة والجواب محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أو هو الجواب على الخلاف المشهور وأياما كان فالمقصود تحقيق المعلق بناء على تحقق المعلق به وفيه تنشيط للمخاطبين وحث لهم على المسارعة إلى الامتثال والمراد بالايمان كماله أى إن كنتم كاملى الايمان فان كمال الايمان يدور على هذه الخصال الثلاث طاعة الأوامر واتقاء المعاصى واصلاح ذات البين بالعدل والإحسان (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان من أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث وفيه مزيد ترغيب لهم فى الامتثال بالأوامر المذكورة أى إنما الكاملون فى الايمان المخلصون فيه (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) أى فزعت لمجرد ذكره من غير أن يذكر هناك مايوجب الفزع من صفاته وأفعاله استعظاما لشأنه الجليل وتهيبا منه وقيل هو الرجل يهم بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفا من عقابه وقرىء وجلت بفتح الجيم وهى لغة وقرىء فرقت أى خافت (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ) أى آية كانت (زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) أى يقينا وطمأنينة نفس فان تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين وقيل إن نفس الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان وإنما زيادته باعتبار زيادة المؤمن به فانه كلما نزلت آية صدق بها المؤمن فزاد إيمانه عددا وأما نفس الإيمان فهو بحاله وقيل باعتبار أن الأعمال تجعل من الإيمان فيزيد بزيادتها والأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة وهى التى عبر عنها بالزيادة للفرق النير بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الأمة وعليه مبنى ماقال على رضى الله عنه لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا وكذا بين ماقام عليه دليل واحد وماقامت عليه أدلة كثيرة (وَعَلَى رَبِّهِمْ) مالكهم ومدبر أمورهم خاصة (يَتَوَكَّلُونَ) يفوضون أمورهم لا إلى أحد سواه والجملة معطوفة على الصلة وقوله تعالى (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) مرفوع على أنه نعت للموصول الأول أو بدل منه أو بيان له أو منصوب على القطع المنبىء عن المدح ذكر أولا من أعمالهم الحسنة أعمال القلوب من الخشية والاخلاص والتوكل ثم عقب بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة (أُولَئِكَ) إشارة إلى من ذكر صفاتهم الحميدة من حيث أنهم متصفون بها وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك عمن عداهم أكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الشرف (هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا اليه مافصل من أفاضل الأعمال القلبية والقالبية وحقا صفة لمصدر محذوف أى أولئك هم المؤمنون إيمانا حقا أو مصدر مؤكد للجملة أى حق ذلك حقا كقولك هو عبدالله حقا (لَهُمْ دَرَجَاتٌ) من الكرامة والزلفى وقيل درجات عالية فى الجنة وهو اما جملة مبتدأة مبنية على سؤال نشأ من تعداد مناقبهم كأنه قيل مالهم بمقابلة هذه الخصال فقيل لهم كيت وكيت أو خبر ثان لأولئك وقوله تعالى (عِنْدَ رَبِّهِمْ) اما متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات مؤكدة لما أفاده التنوين من

الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائنة عنده تعالى أو بما تعلق به الخبر أعنى لهم من الاستقرار وفى إضافة الظرف إلى الرب المضاف إلى ضميرهم مزيد تشريف ولطف لهم وايذان بأن ما وعدلهم متيقن الثبوت والحصول مأمون الفوات (وَمَغْفِرَةٌ) لما فرط منهم (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) لا ينقضى أمده ولا ينتهى عدده وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ) الكاف فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال اخراجك يعنى أن حالهم فى كراهتهم لما رأيت مع كونه حقا كحالهم فى كراهتهم لخروجك للحرب وهو حق أو فى محل النصب على أنه صفة لمصدر مقدر فى قوله تعالى الأنفال لله أى الأنفال ثبتت لله والرسول مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات اخراج ربك اياك من بيتك فى المدينة أو من المدينة إخراجا ملتبسا بالحق (وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ) أى والحال أن فريقا منهم كارهون للخروج اما لنفرة الطبع عن القتال أو لعدم الاستعداد وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكبا منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول عيركم أموالكم ان أصابها محمد لم تفلحوا بعدها أبدا وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه رؤيا فقالت لأخيها إنى رأيت عجبا رأيت كأن ملكا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة فحدث بها العباس رضى الله عنه فقال أبو جهل ما يرضى رجالهم أن يتنبئوا حتى تتنبأ نساؤهم فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير فقيل له ان العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس إلى مكة فقال لا واللات لا يكون ذلك أبدا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا وأن محمدا لم يصب العير وأنا قد أعضضناه فمضى بهم إلى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما فى السنة فنزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير وإما قريشا فاستشار النبى عليه الصلاة والسلام أصحابه فقال ما تقولون ان القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب اليكم أم النفير فقالوا بل العير أحب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم فقال ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عندما غضب النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فأحسنا ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فامض فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار ثم قال المقداد بن عمرو رضى الله عنه يا رسول الله امض لما أمرك الله فانا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنى إسرائيل لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال أشيروا على أيها الناس وهو يريد الانصار لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة انا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فاذا وصلت الينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان النبى عليه الصلاة والسلام يتخوف أن تكون الأنصار لا ترى عليهم نصرته الا على عدو دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يا رسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وانا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد ثم قال سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله

قد وعدنى احدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم. وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شىء فناداه العباس رضى الله عنه وهو فى وثاقه لا يصلح فقال النبى عليه الصلاة والسلام لم قال لأن الله وعدك احدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك (يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ) الذى هو تلقى النفير لايثارهم عليه تلقى العير والجملة استئناف أو حال ثانية أى أخرجك فى حال مجادلتهم اياك ويجوز أن يكون حالا من الضمير فى لكارهون وقوله تعالى (بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ) منصوب بيجادلونك وما مصدرية أى بعد تبين الحق لهم باعلامك أنهم ينصرون أينما توجهوا ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب وكان ذلك لكراهتهم القتال (كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ) الكاف فى محل النصب على الحالية من الضمير فى لكارهون أى مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار إلى القتل (وَهُمْ يَنظُرُونَ) حال من ضمير يساقون أى والحال أنهم ينظرون إلى أسباب الموت ويشاهدونها عيانا وما كانت هذه المرتبة من الخوف والجزع الا لقلة عددهم وعدم تأهبهم وكونهم رجالة. روى أنه لم يكن فيهم الا فارسان (وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ) كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله عز وجل بالمؤمنين مع ما بهم من قلة الحزم ودناءة الهمة وقصور الرأى والخوف والجزع واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به المؤمنون بطريق التلوين والالتفات واحدى الطائفتين مفعول ثان ليعدكم أى اذكروا وقت وعد الله اياكم احدى الطائفتين وتذكير الوقت مع أن المقصود تذكير ما فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة فى إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها فاذا استحضر كان ما وقع فيه حاضرا مفصلا كأنه مشاهد عيانا وقرىء يعدكم بسكون الدال تخفيفا وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها وقوله تعالى (أَنَّهَا لَكُمْ) بدل اشتمال من احدى الطائفتين مبين لكيفية الوعد أى يعدكم أن احدى الطائفتين كائنة لكم مختصة بكم مسخرة لكم تتسلطون عليها تسلط الملاك وتتصرفون فيهم كيف شئتم (وَتَوَدُّونَ) عطف على يعدكم داخل تحت الأمر بالذكر أى تحبون (أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ) من الطائفتين لا ذات الشوكة وهى النفير ورئيسهم أبو جهل وهم ألف مقاتل وغير ذات الشوكة هى العير اذ لم يكن فيها إلا أربعون فارسا ورأسهم أبو سفيان والتعبير عنهم بهذا العنوان للتنبيه على سبب ودادتهم لملاقاتهم وموجب كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفير والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك وشوك القنا شباها (وَيُرِيدُ ٱللَّهُ) عطف على تودون منتظم معه فى سلك التذكير ليظهر لهم عظيم لطف الله بهم مع دناءة هممهم وقصور آرائهم أى اذكروا وقت وعده تعالى اياكم احدى الطائفتين وودادتكم لأدناهما وارادته تعالى لأعلاهما وذلك قوله تعالى (أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ) أى يثبته ويعليه (بِكَلِمَـٰتِهِ) أى بآياته المنزلة فى هذا الشأن أو بأوامره للملائكة بالامداد وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم فى قليب بدر وقرىء بكلمته (وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ) أى آخرهم ويستأصلهم بالمرة والمعنى أنتم تريدون سفساف الأمور والله عز وعلا يريد معاليها وما يرجع إلى علو كلمة الحق وسمو رتبة الدين وشتان بين المرادين وقوله تعالى (لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ) جملة مستأنفة سيقت لبيان الحكمة الداعية إلى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها مع ارادتهم لغيرها واللام متعلقة بفعل مقدر مؤخر عنها أى لهذه الغاية الجليلة فعل ما فعل لا لشىء آخر وليس فيه تكرار اذ الأول لبيان تفاوت ما بين الارادتين وهذا لبيان الحكمة الداعية إلى ما ذكر ومعنى احقاق الحق اظهار حقيته لا جعله حقا بعد أن لم يكن كذلك وكذا حال ابطال الباطل (وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ) أى المشركون ذلك أى احقاق الحق وإبطال الباطل (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ) بدل من إذ يعدكم معمول لعامله فالمراد تذكير استمدادهم

منه سبحانه والتجائهم اليه تعالى حين ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وإمداده تعالى حينئذ وقيل متعلق بقوله تعالى ليحق الحق على الظرفية وما قيل من أن قوله تعالى ليحق مستقبل لأنه منصوب بأن فلا يمكن عمله فى إذ لانه ظرف لما مضى ليس بشىء لأن كونه مستقبلا إنما هو بالنسبة إلى زمان ماهو غاية له من الفعل المقدر لا بالنسبة إلى زمان الاستغاثة حتى لا يعمل فيه بل هما فى وقت واحد وإنما عبر عن زمانها باذ نظرا إلى زمان النزول وصيغة الاستقبال فى تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل متعلق بمضمر مستأنف أى اذكروا وقت استغاثتكم وذلك أنهم لما علموا أنه لابد من القتال جعلوا يدعون الله تعالى قائلين أى رب انصرنا على عدوك ياغياث المستغيثين أغثنا وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلثمائة وبضعة عشر فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو اللهم أنجز لى ماوعدتنى اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضى الله عنه فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك (فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) عطف على تستغيثون داخل معه فى حكم التذكير لما عرفت أنه ماض وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة (أَنِّى مُمِدُّكُمْ) أى بأنى فحذف الجار وسلط عليه الفعل فنصب محله وقرىء بكسر الهمزة على إرادة القول أو على اجراء استجاب مجرى قال لأن الاستجابة من مقولة القول (بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلٰئِكَةِ مُرْدِفِينَ) أى جاعلين غيرهم من الملائكة رديفا لأنفسهم فالمراد بهم رؤساؤهم المستتبعون لغيرهم وقد اكتفى ههنا بهذا البيان الاجمالى وبين فى سورة آل عمران مقدار عددهم وقيل معناه متبعين أنفسهم ملائكة آخرين أو متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضا من أردفته إذا جئت بعده أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين أو أنفسهم المؤمنين من أردفته إياه فردفه وقرىء مردفين بفتح الدال أى متبعين أو متبعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أو ساقتهم وقرىء مردفين بكسر الراء وضمها وتشديد الدال وأصلهما مرتدفين بمعنى مترادفين فأدغمت التاء فى الدال فالتقى الساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل أو بالضم على الاتباع وقرىء بآلاف ليوافق مافى سورة آل عمران ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالألف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة أو وجوههم وأعيانهم أو من قاتل منهم واختلف فى مقاتلتهم وقد روى أخبار تدل على وقوعها (وَمَا جَعَلَهُ اللّٰهُ) كلام مستأنف سيق لبيان أن الأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وإنما التأثير مختص به عز وجل ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا من النصر عند فقدان أسبابه والجعل متعد إلى مفعول واحد هو الضمير العائد إلى مصدر فعل مقدر يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا مغنيا عن التصريح به كأنه قيل فأمدكم بهم وما جعل امدادكم بهم (إِلَّا بُشْرَىٰ) وهو استثناء مفرغ من أعم العلل أى وما جعل امدادكم بانزال الملائكة عيانا لشىء من الأشياء إلا للبشرى لكم بأنكم تنصرون (وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ) أى بالامداد (قُلُوبُكُمْ) وتسكن اليه نفوسكم كما كانت السكينة لبنى اسرائيل كذلك فكلاهما مفعول له للجعل وقد نصب الأول لاجتماع شرائطه وبقى الثانى على حاله لفقدانها وقيل للاشارة الى أصالته فى العلية وأهميته فى نفسه كما قيل فى قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وفى قصر الامداد عليهما اشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال وإنما كان امدادهم بتقوية قلوب المباشرين وتكثير سوادهم ونحوه كما هو رأى بعض السلف وقيل الجعل متعد إلى اثنين ثانيهما الا بشرى على أنه استثناء من أعم المفاعيل أى وما جعله الله شيئا من الأشياء الا بشارة لكم فاللام فى ولتطمئن متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره ولتطمئن به قلوبكم فعل ذلك لا لشىء آخر (وَمَا النَّصْرُ) أى حقيقة النصر على الاطلاق (إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ) أى الا كائن من عنده عز وجل من غير أن يكون فيه شركة من جهة الأسباب والعدد وانما هى مظاهر له بطريق جريان السنة الالهية (إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ) لا يغالب فى حكمه ولا

ينازع فى أقضيته (حَكِيمٌ) يفعل كل مايفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل لماقبلها متضمن للاشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكم البالغة (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ) أى يجعله غاشيا لكم ومحيطا بكم وهو بدل ثان من اذ يعدكم لاظهار نعمة أخرى وصيغة الاستقبال فيه وفيما عطف عليه لحكاية الحال الماضية كما فى تستغيثون أو منصوب باضمار اذكروا وقيل هو متعلق بالنصر أو بمافى من عند الله من معنى الفعل أو بالجعل وليس بواضح وقرىء يغشيكم من الاغشاء بمعنى التغشية والفاعل فى الوجهين هو البارى تعالى وقرىء يغشاكم على اسناد الفعل إلى النعاس وقوله (أَمَنَةً مِنْهُ) على القراءتين الأولين منصوب على العلية بفعل مترتب على الفعل المذكور أى يغشيكم النعاس فتنعسون أمنا كائنا من الله تعالى لا كلالا واعياء أو على أنه مصدر لفعل آخر كذلك أى فتأمنون أمنا كما فى قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا على أحد الوجهين وقيل منصوب بنفس الفعل المذكور والأمنة بمعنى الايمان وعلى القراءة الأخيرة منصوب على العلية بيغشاكم باعتبار المعنى فانه فى حكم تنعسون أو على أنه مصدر لفعل مترتب عليه كما مر وقرىء أمنة كرحمة (وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) تقديم الجار والمجرور على المفعول به لما مر مرارا من اهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فان ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة له فعند وروده يتمكن عندها فضل تمكن وتقديم عليكم لما أن بيان كون التنزيل عليهم أهم من بيان كونه من السماء وقرىء بالتخفيف من الانزال (لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ) أى من الحدث الأصغر والأكبر (وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ) الكلام فى تقديم الجار والمجرور كما مر آنفا والمراد برجز الشيطان وسوسته وتخويفه إياهم من العطش. روى أنهم نزلوا فى كثيف أعفر تسوخ فيه الاقدام على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء فتمثل لهم الشيطان فوسوس اليهم وقال أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة وقد عطشتم ولو كنتم على الحق ماغلبكم هؤلاء على الماء وماينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش فاذا قطع أعناقكم مشوا اليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا فأنزل الله عز وجل المطر فمطروا ليلا حتى جرى الوادى فاغتسلوا وتوضئوا وسقوا الركاب وتلبد الرمل الذى كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الاقدام وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس وقويت القلوب وذلك قوله تعالى (وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ) أى يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعد بمشاهدة طلائعه (وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) فلا تسوخ فى الرمل فالضمير للماء كالاول ويجوز أن يكون للربط فان القلب إذا قوى وتمكن فيه الصبر والجراءة لاتكاد تزل القدم فى معارك الحروب وقوله تعالى (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ) منصوب بمضمر مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام بطريق التجريد حسبما ينطق به الكاف لما أن المأمور به مما لا يستطيعه غيره عليه الصلاة والسلام فان الوحى المذكور قبل ظهوره بالوحى المتلو على لسانه عليه الصلاة والسلام ليس من النعم التى يقف عليها عامة الأمة كسائر النعم السابقة التى أمروا بذكر وقتها بطريق الشكر وقيل منصوب بقوله تعالى ويثبت به الأقدام فلا بد حينئذ من عود الضمير المجرور فى به إلى الربط على القلوب ليكون المعنى ويثبت أقدامكم بتقوية قلوبكم وقت إيحائه إلى الملائكة وأمره بتثبيتهم إياكم وهو وقت القتال ولا يخفى أن تقييد التثبيت المذكور بوقت مبهم عندهم ليس فيه مزيد فائدة وأما انتصابه على أنه بدل ثالث من إذ يعدكم كما قيل فيأباه تخصيص الخطاب به عليه الصلاة والسلام مع ماعرفت من أن المأمور به ليس من الوظائف العامة للكل كسائر أخواته وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من التنويه والتشريف مالا يخفى والمعنى اذكر وقت إيحائه تعالى الى الملائكة (أَنِّي مَعَكُمْ) أى بالامداد والتوفيق فى أمر التثبيت فهو مفعول يوحى وقرىء بالكسر على إرادة القول او إجراء الوحى

مجراه وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية الملائكة انما هى من حيث انهم المباشرون للتثبيت صورة فلهم الاصالة من تلك الحيثية كما فى أمثال قوله تعالى ان الله مع الصابرين والفاء فى قوله تعالى (فثبتوا الذين آمنوا) لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان امداده تعالى اياهم من أقوى موجبات التثبيت واختلفوا فى كيفية التثبيت فقالت جماعة انما أمروا بتثبيتهم بالبشارة وتكثير السواد ونحوهما مما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم ويتأكد جدهم فى القتال وهو الأنسب بمعنى التثبيت وحقيقته التى هى عبارة عن الحمل على الثبات فى موطن الحراب والجد فى مقاساة شدائد القتال وقد روى أنه كان الملك يتشبه بالرجل الذى يعرفونه بوجهه فيأتى ويقول انى سمعت المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن ويمشى بين الصفين فيقول أبشروا فان الله تعالى ناصركم وقال آخرون أمروا بمحاربة أعدائهم وجعلوا قوله تعالى (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) تفسيرا لقوله تعالى انى معكم وقوله تعالى (فاضربوا) الخ تفسيرا لقوله تعالى فثبتوا مبينا لكيفية التثبيت وقد روى عن أبى داود المازنى رضى الله عنه وكان ممن شهد بدرا أنه قال اتبعت رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه فوقعت رأسه بين يدى قبل أن يصل اليه سيفى وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أنه قال لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل اليه السيف وأنت خبير بأن قتلهم للكفرة مع عدم ملاءمته لمعنى تثبيت المؤمنين مما لا يتوقف على الامداد بالقاء الرعب فلا يتجه ترتيب الأمر به عليه بالفاء وقد اعتذر الأولون بأن قوله تعالى سألقى الخ ليس بنص فيما ذكر بل يجوز أن يكون ذلك اثر قوله تعالى فثبتوا الذين آمنوا تلقينا للملائكة ما يثبتونهم به كأنه قيل قولوا لهم قولى سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا الخ فالضاربون هم المؤمنون وأما ما قيل من أن ذلك خطاب منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين فمبناه توهم وروده قبل القتال وأنى ذلك والسورة الكريمة إنما نزلت بعد تمام الواقعة وقوله تعالى (فوق الأعناق) أى أعاليها التى هى المذابح أو الهامات (واضربوا منهم كل بنان) قيل البنان أطراف الأصابع من اليدين والرجلين وقيل هى الأصابع من اليدين والرجلين وقال أبو الهيثم البنان المفاصل وكل مفصل بنانه وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك يعنى الأطراف اى اضربوهم فى جميع الأعضاء من أعاليها إلى أسافلها وقيل المراد بالبنان الأدانى وبفوق الأعناق الأعالى والمعنى فاضربوا الصناديد والسفلة وتكرير الأمر بالضرب لمزيد التشديد والاعتناء بأمره ومنهم متعلق به أو بمحذوف وقع حالا مما بعده (ذلك) إشارة إلى ما أصابهم من العقاب وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجته فى الشدة والفظاعة والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يليق بالخطاب ومحله الرفع على الابتداء وخبره قوله تعالى (بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى ذلك العقاب الفظيع واقع عليهم بسبب مشاقتهم ومغالبتهم من لا سبيل إلى مغالبته أصلا واشتقاق المشاقة من الشق لما أن كلا من المشاقين فى شق خلاف شق الآخر كما أن اشتقاق المعاداة والمخاصمة من العدوة والخصم أى الجانب لأن كلا من المتعادين والمتخاصمين فى عدوة وخصم غير عدوة الآخر وخصمه (ومن يشاقق الله ورسوله) الاظهار فى موضع الاضمار لتربية المهابة وإظهار كمال شناعة ما اجترؤا عليه والاشعار بعلة الحكم وقوله تعالى (فإن الله شديد العقاب) إما نفس الجزاء قد حذف منه العائد إلى من عند من يلتزمه أى شديد العقاب له أو تعليل للجزاء المحذوف أى يعاقبه الله فان الله شديد العقاب وأياما كان فالشرطية تكملة لما قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهانى كأنه قيل ذلك العقاب الشديد بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله كائنا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فاذن لهم بسبب مشاقتهم لهما عقاب شديد وأما أنه وعيد لهم بما أعد لهم فى الآخرة بعد ما حاق بهم فى الدنيا كما قيل فيرده ما بعده من قوله تعالى (ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) فانه مع كونه هو المسوق

للوعيد بما ذكر ناطق بكون المراد بالعقاب المذكور ما أصابهم عاجلا سواء جعل ذلكم إشارة إلى نفس العقاب أو إلى ما تفيده الشرطية من ثبوت العقاب لهم أما على الأول فلأن الأظهر أن محله النصب بمضمر يستدعيه قوله تعالى فذوقوه والواو في قوله تعالى وأن للكافرين الخ بمعنى مع فالمعنى باشروا ذلكم العقاب الذى أصابكم فذوقوه عاجلا مع أن لكم عذاب النار آجلا فوضع الظاهر موضع الضمير لتوبيخهم بالكفر وتعليل الحكم به وأما على الثانى فلأن الأقرب أن محله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى وأن للكافرين الخ معطوف عليه والمعنى حكم الله ذلكم أى ثبوت هذا العقاب لكم عاجلا وثبوت عذاب النار آجلا وقوله تعالى فذوقوه اعتراض وسط بين المعطوفين للتهديد والضمير على الأول لنفس المشار اليه وعلى الثانى لما فى ضمنه وقد ذكر فى إعراب الآية الكريمة وجوه أخر مدار الكل على أن المراد بالعقاب ما أصابهم عاجلا والله تعالى أعلم وقرىء بكسر أن على الاستئناف (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) خطاب للمؤمنين بحكم كلى جار فيما سيقع من الوقائع والحروب جىء به فى تضاعيف القصة اظهارا للاعتناء بشأنه ومبالغة فى حقهم على المحافظة عليه (إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا) الزحف الدبيب يقال زحف الصبى زحفا إذا دب على استه قليلا قليلا سمى به الجيش الداهم المتوجه إلى العدو لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف وذلك لأن الكل يرى كجسم واحد متصل فيحس حركته بالقياس اليه فى غاية البطء وإن كانت فى نفس الأمر على غاية السرعة قال قائلهم :

وأرعن مثل الطود تحسب أنهم　　　وقوف لحاج والركاب تهملج

ونصبه اما على انه حال من مفعول لقيتم أى زاحفين نحوكم واما على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال منه أى يزحفون زحفا وأما كونه حالا من فاعله أو منه ومن مفعوله معا كما قيل فيأباه قوله تعالى (فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ) إذ لا معنى لتقييد النهى عن الادبار بتوجههم السابق إلى العدو أو بكثرتهم بل توجه العدو اليهم وكثرتهم هو الداعى إلى الادبار عادة والمحوج إلى النهى عنه وحمله على الاشعار بما سيكون منهم يوم حنين حيث تولوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثنا عشر ألفا بعيد والمعنى إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تولوهم أدباركم فضلا عن الفرار بل قابلوهم وقاتلوهم مع قلتكم فضلا عن أن تدانوهم فى العدد أو تساووهم (وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ) أى يوم اللقاء (دُبُرَهُ) فضلا عن الفرار وقرىء بسكون الباء (إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ) اما بالتوجه إلى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء واما بالفر للكر بأن يخيل عدوه أنه منهزم ليغره ويخرجه من بين أعوانه ثم يعطف عليه وحده أو مع من فى الكمين من أصحابه وهو باب من خدع الحرب ومكايدها (أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ) أى منحازا إلى جماعة أخرى من المؤمنين لينضم اليهم ثم يقاتل معهم العدو. عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ان سرية فروا وأنا معهم فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا ودخلوا البيوت فقلت يارسول الله نحن الفرارون فقال صلى الله عليه وسلم بل أنتم العكارون أى الكرارون من عكر أى رجع وأنا فئتكم وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر رضى الله عنه فقال يا أمير المؤمنين هلكت ففررت من الزحف فقال رضى الله عنه أنا فئتك ووزن متحيز متفيعل لا متفعل وإلا لكان متحوزا لأنه من حاز يحوز وانتصابهما اما على الحالية والا لغو لا عمل لها واما على الاستثناء من المولين أى ومن يولهم دبره إلا رجلا منهم متحرفا أو متحيزا (فَقَدْ بَاءَ) أى رجع (بِغَضَبٍ) عظيم لا يقادر قدره ومن فى قوله تعالى (مِّنَ اللَّهِ) متعلقة بمحذوف هو صفة لغضب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة والهول بالفخامة الاضافية أى بغضب كائن منه تعالى (وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ) أى بدل ما أراد بفراره أن يأوى اليه من مأوى ينجيه من القتل (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) فى إيقاع البوء فى موقع جواب الشرط الذى هو التولية مقرونا بذكر المأوى والمصير من الجزالة ما لا مزيد عليه . عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الفرار من الزحف من أكبر

الكبائر وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف لقوله تعالى الآن خفف الله عنكم الآية وقيل الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه فى الحرب (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ) رجوع إلى بيان بقية أحكام الوقعة وأحوالها وتقرير ماسبق منها والفاء جواب شرط مقدر يستدعيه مامر من ذكر امداده تعالى وأمره بالتثبيت وغير ذلك كأنه قيل إذا كان الأمر كذلك فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم وقدرتكم (وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ) بنصركم وتسليطكم عليهم والقاء الرعب فى قلوبهم ويجوز أن يكون التقدير إذ علمتم ذلك فلم تقتلوهم أى فاعلموا أو فاخبركم أنكم لم تقتلوهم وقيل التقدير ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم على أحد التأويلين لما روى أنهم لما انصرفوا من المعركة غالبين غانمين أقبلوا يتفاخرون يقولون قتلت وأسرت وفعلت وتركت فنزلت وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طلعت قريش من العقنقل قال هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم انى أسألك ماوعدتنى فأتاه جبريل عليه السلام فقال خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلى رضى الله تعالى عنه أعطنى قبضة من حصباء الوادى فرمى بها فى وجوههم وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه فانهزموا وذلك قوله عز وجل بطريق تلوين الخطاب (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ) تحقيقا لكون الرمى الظاهر على يده عليه الصلاة والسلام حينئذ من أفعاله عز وجل وتجريد الفعل عن المفعول به لما أن المقصود الأصلى بيان حال الرمى نفيا واثباتا إذ هو الذى ظهر منه ماظهر وهو المنشأ لتغير المرمى به فى نفسه وتكثره إلى حيث أصاب عينى كل واحد من أولئك الأمة الجمة شىء من ذلك أى ومافعلت أنت يامحمد تلك الرمية المستتبعة لهذه الآثار العظيمة حقيقة حين فعلتها صورة والالكان أثرها من جنس آثار الأفاعيل البشرية ولكن الله فعلها أى خلقها حين باشرتها لكن لاعلى نهج عادته تعالى فى خلق أفعال العباد بل على وجه غير معتاد ولذلك أثرت هذا التأثير الخارج عن طوق البشر ودائرة القوى والقدر فمدار اثباتها لله تعالى ونفيها عنه عليه الصلاة والسلام كون أثرها من أفعاله سبحانه لامن أفعاله عليه الصلاة والسلام وقرىء ولكن الله بالتخفيف والرفع فى المحلين واللام فى قوله تعالى (وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ) أى ليعطيهم من عنده تعالى (بَلَاءً حَسَنًا) أى عطاء جميلا غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره اما متعلقة بمحذوف متأخر فالواو اعتراضية أى وللاحسان اليهم بالنصر والغنيمة فعل مافعل لالشىء غير ذلك مما لايجديهم نفعا واما برمى فالواو للعطف على علة محذوفة أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى الخ وقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ) أى لدعائهم واستغاثتهم (عَلِيمٌ) أى بنياتهم وأحوالهم الداعية إلى الاجابة تعليل للحكم (ذَٰلِكُمْ) إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ) بالاضافة معطوف عليه أى المقصد ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وابطال حيلهم وقيل المشار اليه القتل والرمى والمبتدأ الأمر أى الأمر ذلكم أى القتل فيكون قوله تعالى وأن الله الآية من قبيل عطف البيان وقرىء موهن بالتنوين مخففا ومشددا ونصب كيد الكافرين (إِن تَسْتَفْتِحُوا) خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم بهم وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين أى ان تستنصروا لأعلى الجندين (فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ) حيث نصر أعلاهما وقد زعمتم أنكم الأعلى فالتهكم فى المجىء أو فقد جاءكم الهزيمة والقهر فالتهكم فى نفس الفتح حيث وضع موضع مايقابله (وَإِن تَنتَهُوا) عما كنتم عليه من الحراب ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم (فَهُوَ) أى الانتهاء (خَيْرٌ لَّكُمْ) أى من الحراب الذى ذقتم غائلته لمافيه من السلامة من القتل والأسر ومبنى اعتبار أصل الخيرية فى المفضل عليه هو التهكم (وَإِن تَعُودُوا) أى إلى حرابه عليه الصلاة والسلام (نَعُدْ) لماشاهدتموه من الفتح (وَلَن تُغْنِيَ) بالتاء الفوقانية وقرىء بالياء التحتانية لأن تأنيث الفئة

غير حقيق وللفصل أى لن تدفع أبدا (عَنكُمْ فِئَتُكُمْ) جماعتكم التى تجمعونهم وتستعينون بهم (شَيْئاً) أى من الاغناء أو من المضار وقوله تعالى (وَلَوْ كَثُرَتْ) جملة حالية وقد مر التحقيق (وأَنَّ اللهَ مَعَ المُؤْمِنِينَ) أى ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك أو والأمر أن الله مع المؤمنين ويقرب منه بحسب المعنى قراءة الكسر على الاستئناف وقيل الخطاب للمؤمنين والمعنى ان تستنصروا فقد جاءكم النصر وان تنتهوا عن التكاسل والرغبة عما رغب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو خير لكم من كل شىء لما أنه مناط لنيل سعادة الدارين وان تعودوا اليه بعد عليكم بالانكار وتهييج العدو ولن تغنى حينئذ كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر والأمر أن الله مع الكاملين فى الإيمان (يٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا) بطرح إحدى التاءين وقرىء بادغامها (عَنْهُ) أى لا تتولوا عن الرسول فان المراد هو الأمر بطاعته والنهى عن الاعراض عنه وذكر طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على أن طاعته تعالى فى طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام من يطع الرسول فقد أطاع الله وقيل الضمير للجهاد وقيل للأمر الذى دل عليه الطاعة وقوله تعالى (وأنتُمْ تَسْمَعُونَ) جملة حالية واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولى مطلقا كما فى قوله تعالى فلا تجعلوا لله اندادا وأنتم تعلمون لا لتقييد النهى عنه بحال السماع كما فى قوله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى أى لا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سماع فهم واذعان (وَلَا تَكُونُوا) تقرير للنهى السابق وتحذير عن مخالفته بالتنبيه على أنها مؤدية إلى انتظامهم فى سلك الكفرة بكون سماعهم كلا سماع أى لا تكونوا بمخالفة الأمر والنهى (كَالذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا) بمجرد الادعاء من غير فهم واذعان كالكفرة والمنافقين الذين يدعون السماع (وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) حال من ضمير قالوا أى قالوا ذلك والحال أنهم لا يسمعون حيث لا يصدقون ما سمعوه ولا يفهمونه حق فهمه فكأنهم لا يسمعونه رأسا (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ) استئناف مسوق لبيان كمال سوء حال المشبه بهم مبالغة فى التحذير وتقريرا للنهى اثر تقرير أى ان شر ما يدب على الأرض أو شر البهائم (عِندَ اللهِ) أى فى حكمه وقضائه (الصُّمُّ) الذين لا يسمعون الحق (البُكْمُ) الذين لا ينطقون به وصفوا بالصمم والبكم لأن ما خلق له الاذن واللسان سماع الحق والنطق به وحيث لم يوجد فيهم شىء من ذلك صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأسا وتقديم الصم على البكم لما أن صممهم متقدم على بكمهم فان السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من فروع سماعه ثم وصفوا بعدم التعقل فقيل (الذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) تحقيقا لكمال سوء حالهم فان الأصم الأبكم إذا كان له عقل ربما يفهم بعض الأمور ويفهمه غيره بالإشارة ويهتدى بذلك إلى بعض مطالبه وأما إذا كان فاقدا للعقل أيضا فهو الغاية فى الشرية وسوء الحال وبذلك يظهر كونهم شرا من البهائم حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها وبه يفضلون على كثير من خلق الله عز وجل فصاروا أخس من كل خسيس (وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا) شيئا من جنس الخير الذى من جملته صرف قواهم إلى تحرى الحق واتباع الهدى (لَأَسْمَعَهُمْ) سماع تفهم وتدبر ولوقفوا على حقية الرسول عليه الصلاة والسلام وأطاعوه وآمنوا به ولكن لم يعلم فيهم شيئا من ذلك لخلوهم عنه بالمرة فلم يسمعهم كذلك لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة واليه أشير بقوله تعالى (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا) أى لو أسمعهم سماع تفهم وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية لتولوا عما سمعوه من الحق ولم ينتفعوا به قط أو ارتدوا بعد ما صدقوه وصاروا كأن لم يسمعوه أصلا وقوله تعالى (وَّهُم مُّعْرِضُونَ) اما حال من ضمير تولوا أى لتولوا على ادبارهم والحال أنهم معرضون عما سمعوه بقلوبهم وما اعتراض تذييلى أى وهم قوم عادتهم الاعراض وقيل كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحى قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك ونؤمن بك فالمعنى ولو اسمعهم كلام قصى الخ وقيل هم بنو عبد الدار بن قصى لم يسلم منهم الا مصعب بن

عمير وسويد بن حرملة كانوا يقولون نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه قاتلهم الله تعالى فقتلوا جميعاً بأحد وكانوا أصحاب اللواء وعن ابن جريج أنهم المنافقون وعن الحسن رضي الله عنه أنهم أهل الكتاب (يا أيها الذين آمنوا) تكرير النداء مع وصفهم بنعت الايمان لتنشيطهم إلى الاقبال على الامتثال بما يرد بعده من الأوامر وتنبيههم على أن فيهم ما يوجب ذلك (استجيبوا لله وللرسول) بحسن الطاعة (إذا دعاكم) أى الرسول إذ هو المباشر لدعوة الله تعالى (لما يحييكم) من العلوم الدينية التي هى مناط الحياة الأبدية كما أن الجهل مدار الموت الحقيق أوهى ماء حياة القلب كما أن الجهل موجب موته وقيل لمجاهدة الكفار لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم كما فى قوله تعالى ولكم فى القصاص حياة . روى أنه عليه الصلاة والسلام مر على أبي بن كعب وهو يصلى فدعاه فعجل فى صلاته ثم جاء فقال عليه الصلاة والسلام مامنعك من اجابتي قال كنت فى الصلاة قال ألم تخبر فيما أوحى إلى استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم الخ واختلف فيه فقيل هذا من خصائص دعائه عليه الصلاة والسلام وقيل لأن إجابته عليه الصلاة والسلام لا تقطع الصلاة وقيل كان ذلك الدعاء لأمر مهم لا يحتمل التأخير وللمصلى أن يقطع الصلاة لمثله (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) تمثيل لغاية قربه تعالى من العبد كقوله تعالى ونحن أقرب إليه من حبل الوريد وتنبيه على أنه تعالى مطلع من مكنونات القلوب على ماعسى يغفل عنه صاحبها أوحث على المبادرة إلى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل إدراك المنية فإنها حائلة بين المرء وقلبه أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه بحيث يفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته ويبدله بالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً وما أشبه ذلك من الأمور المعترضة المفوتة للفرصة وقرىء بين المر بتشديد الراء على حذف الهمزة والقاء حركتها على الراء وإجراء الوصل مجرى الوقف (وأنه) أى الله عز وجل أو الشأن (إليه تحشرون) لا إلى غيره فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم فسارعوا إلى طاعته تعالى وطاعة رسوله وبالغوا فى الاستجابة لهما (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أى لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم بل يعمه وغيره كاقرار المنكر بين أظهرهم والمداهنة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل فى الجهاد على أن قوله لا تصيبن الخ إما جواب الأمر على معنى ان أصابتكم لا تصيبن الخ وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهى ساغ فيه كقوله تعالى ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم وإما صفة لفتنة ولا للنفى وفيه شذوذ لأن النون لا تدخل المنفى فى غير القسم أو للنهى على إرادة القول كقول من قال :

حتى إذا جن الظلام واختلط جاؤا بمذق هل رأيت الذئب قط

وإما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ لتصيبن وإن اختلف المعنى فيهما وقد جوز أن يكون نهياً عن التعرض للظلم بعد الأمر باتقاء الذنب فان وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه ومن فى منكم على الوجوه الأول للتبعيض وعلى الأخيرين للتبيين وفائدته التنبيه على أن الظلم منكم أقبح منه من غيركم (واعلموا أن الله شديد العقاب) ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه (واذكروا إذ أنتم قليل) أى وقت كونكم قليلاً فى العدد وإيثار الجملة الاسمية للايذان باستمرار ما كانوا فيه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف وقوله تعالى (مستضعفون) خبر ثان أو صفة لقليل وقوله تعالى (فى الأرض) أى فى أرض مكة تحت أيدى قريش والخطاب للمهاجرين أو تحت أيدى فارس والروم والخطاب للعرب كافة فانهم كانوا أذلاء تحت أيدى الطائفتين وقوله تعالى (تخافون أن يتخطفكم الناس) خبر ثالث أو صفة ثانية لقليل وصف بالجملة بعد ما وصف بالمفرد أو حال من المستكن فى مستضعفون والمراد بالناس على الأول وهو الأظهر اما كفار قريش واما كفار العرب لقربهم منهم وشدة عداوتهم لهم وعلى الثانى فارس والروم أى واذكروا وقت قلتكم وذلتكم

وهو انكم على الناس وخوفكم من اختطافهم (فآويكم) إلى المدينة أو جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم (وأيدكم بنصره) على الكفار أو بمظاهرة الأنصار أو بامداد الملائكة (ورزقكم من الطيبات) من الغنائم (لعلكم تشكرون) هذه النعم الجليلة (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) أصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام واستعماله فى ضد الأمانة لتضمنه إياه أى لا تخونوهما بتعطيل الفرائض والسنن أو بأن تضمروا خلاف ماتظهرون أو فى الغلول فى الغنائم روى أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بنى قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صالح بنى النضير على أن يسيروا إلى اخوانهم بأذرعات وأريحاء من الشام فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة وكان مناصحا لهم لما أن ماله وعياله كانا فى أيديهم فبعثه اليهم فقالوا ماترى هل تنزل على حكم سعد فأشار إلى حلقه إنه الذبح قال أبو لبابة فما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله فنزلت فشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على فمكث سبعة أيام حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فحل نفسك قال لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاءه عليه الصلاة والسلام فحله فقال إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالى فقال عليه الصلاة والسلام يجزئك الثلث ان تتصدق به (وتخونوا أماناتكم) فيما بينكم وهو مجزوم معطوف على الأول أو منصوب على الجواب بالواو (وأنتم تعلمون) أنكم تخونون أو وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) لأنها سبب الوقوع فى الاثم والعقاب أو محنة من الله عز وجل ليبلوكم فى ذلك فلا يحملنكم حبهما على الخيانة كأبى لبابة (وأن الله عنده أجر عظيم) لمن آثر رضاه تعالى عليهما وراعى حدوده فيهما فنيطوا هممكم بما يؤديكم اليه (يا أيها الذين آمنوا) تكرير الخطاب والوصف بالايمان لإظهار كمال العناية بما بعده والإيذان بأنه مما يقتضى الإيمان مراعاته والمحافظة عليه كما فى الخطابين السابقين (إن تتقوا الله) أى فى كل ماتأتون وماتذرون (يجعل لكم) بسبب ذلك (فرقانا) هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل أو نصرا يفرق بين المحق والمبطل باعزاز المؤمنين واذلال الكافرين أو مخرجا من الشبهات أو نجاة عما تحذرون فى الدارين أو ظهورا يشهر أمركم وينشر صيتكم من قولهم بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان أى الصبح (ويكفر عنكم سيئاتكم) أى يسترها (ويغفر لكم) ذنوبكم بالعفو والتجاوز عنها وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لأنها فى أهل بدر وقد غفرهما الله تعالى لهم وقوله تعالى (والله ذو الفضل العظيم) تعليل لما قبله وتنبيه على أن ماوعده الله تعالى لهم على التقوى تفضل منه وإحسان لا أنه مما يوجبه التقوى كما إذا وعد السيد عبده انعاما على عمل (وإذ يمكر بك الذين كفروا) منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم معطوف على قوله تعالى واذكروا إذ أنتم الخ مسوق لتذكير النعمة الخاصة به صلى الله عليه وسلم بعد تذكير النعمة العامة للكل أى واذكر وقت مكرهم بك (ليثبتوك) بالوثاق ويعضده قراءة من قرأ ليقيدوك أو الاثخان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبته لا حراك به ولا براح وقرىء ليثبتوك بالتشديد وليبيتوك من البيات (أو يقتلوك) أى بسيوفهم (أو يخرجوك) أى من مكة وذلك أنهم لما سمعوا باسلام الأنصار ومبايعتهم له عليه الصلاة والسلام فرقوا واجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فى أمره صلى الله عليه وسلم فدخل ابليس عليهم فى صورة شيخ وقال أنا من نجد سمعت باجتماعكم فاردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا فقال أبو البخترى رأيي أن تحبسوه فى بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه منها حتى يموت فقال الشيخ بئس الرأي يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم فقال هشام بن عمرو رأيي أن

تحملوه على جمل وتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع فقال وبئس الرأى يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه فقال صدق هذا الفتى فتفرقوا على رأيه فأتى جبريل النبى عليهما الصلاة والسلام وأخبره بالخبر وأمره بالهجرة فبيت عليا رضى الله تعالى عنه على مضجعه وخرج هو مع أبى بكر رضى الله عنه إلى الغار (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ) أى يرد مكرهم عليهم أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين وذلك بأن أخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا منهم ما لقوا (وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) لا يعبأ بمكرهم عند مكره وإسناد أمثال هذا اليه سبحانه مما يحسن للمشاكلة ولا مساغ له ابتداء لما فيه من ايهام ما لا يليق به سبحانه (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا) التى حقها أن يخر لها صم الجبال (قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا) قاله اللعين النضر بن الحرث وإسناده إلى الكل لما أنه كان رئيسهم وقاضيهم الذى يقولون بقوله ويأخذون برأيه وقيل قاله الذين ائتمروا فى أمره صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة وهذا كما ترى غاية المكابرة ونهاية العناد كيف لا ولو استطاعوا شيئا من ذلك فما الذى كان يمنعهم من المشيئة وقد تحدوا عشر سنين وقرعوا على العجز وذاقوا من ذلك الأمرين ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوا بما سواه مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا لا سيما فى باب البيان (إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أى ما يسطرونه من القصص (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)هذا أيضا من أباطيل ذلك اللعين . روى أنه لما قال ان هذا إلا أساطير الأولين قال له النبى صلى الله عليه وسلم ويلك انه كلام الله تعالى فقال ذلك والمعنى أن القرآن إن كان حقا منزلا من عندك فأمطر علينا الحجارة عقوبة على انكارنا أو ائتنا بعذاب أليم سواه والمراد منه التهكم واظهار اليقين والجزم التام على أنه ليس كذلك وحاشاه وقرىء الحق بالرفع على أن هو مبتدأ لا فصل وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقا على الوجه الذى يدعيه صلى الله عليه وسلم وهو تنزيله لا الحق مطلقا لتجويزهم أن يكون مطابقا للواقع غير منزل كالأساطير (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للموجب لامهالهم والتوقف فى إجابة دعائهم واللام لتأكيد النفى والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبى عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم خارج عن عادته تعالى غير مستقيم فى حكمه وقضائه والمراد باستغفارهم فى قوله تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) اما استغفار من بقى منهم من المؤمنين أو قولهم اللهم اغفر أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله تعالى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ) بيان لاستحقاقهم العذاب بعد بيان أن المانع ليس من قبلهم أى وما لهم مما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لا يعذبون (وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أى وحالهم ذلك ومن صدهم عنه الجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة واحصارهم عام الحديبية (وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ) حال من ضمير يصدون مفيدة لكمال قبح ما صنعوا من الصد فان مباشرتهم للصد عنه مع عدم استحقاقهم لولاية أمره فى غاية القبح وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء (إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره تعالى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أنه لا ولاية لهم عليه وفيه اشعار بأن منهم من يعلم ذلك ولكنه يعاند وقيل أريد بأكثرهم كلهم كما يراد بالقلة العدم (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ) أى دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة أو ما يضعون موضعها (إِلَّا مُكَاءً) أى صفيرا فعالا من مكا يمكو اذا صفر وقرىء بالقصر كالبكى (وَتَصْدِيَةً) أى تصفيقا تفعلة من الصدى أو من الصد على ابدال أحد حرفى التضعيف بالياء وقرىء صلاتهم بالنصب على أنه الخبر

لكان ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فانها لا تليق بمن هذه صلاته . روى أنهم كانوا يطوفون عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون وقيل كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي يخلطون عليه ويرون أنهم يصلون أيضا (فذوقوا العذاب) أى القتل والاسر يوم بدر وقيل عذاب الآخرة واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود ائتنا بعذاب أليم (بما كنتم تكفرون) اعتقادا وعملا (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر أو فى أبي سفيان استأجر ليوم أحد ألفين سوى من استجاش من العرب وأنفق فيهم أربعين أوقية أو فى أصحاب العير فانه لما أصيب قريش يوم بدر قيل لهم أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك ثأرنا منه ففعلوا والمراد بسبيل الله دينه واتباع رسوله (فسينفقونها) بتمامها ولعل الأول اخبار عن انفاقهم فى تلك الحال وهو انفاق يوم بدر والثانى اخبار عن انفاقهم فيما يستقبل وهو انفاق يوم أحد ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الأول لبيان الغرض من الانفاق ومساق الثانى لبيان عاقبته وأنه لم يقع بعد (ثم تكون عليهم حسرة) ندما وغما لفواتها من غير حصول المقصود جعل ذاتها حسرة وهى عاقبة انفاقها مبالغة (ثم يغلبون) آخر الامر وإن كان الحرب بينهم سجالا قبل ذلك (والذين كفروا) أى ثبتوا على الكفر وأصروا عليه (إلى جهنم يحشرون) أى يساقون لا إلى غيرها (ليميز الله الخبيث من الطيب) أى الكافر من المؤمن أو الفساد من الصلاح واللام متعلقة بيحشرون أو بيبلغون أو ما أنفقه المشركون فى عداوته صلى الله عليه وسلم مما أنفقه المسلمون فى نصرته واللام متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة وقرىء ليميز بالتشديد للمبالغة (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا) أى يضم بعضه إلى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم فيجمعه أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كمال الكافرين (فيجعله فى جهنم) كله (أولئك) إشارة إلى الخبيث إذ هو عبارة عن الفريق أو إلى المنفقين وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى الخبث (هم الخسرون) الكاملون فى الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم (قل للذين كفروا) هم أبو سفيان وأصحابه أى قل لأجلهم (إن ينتهوا) عما هم فيه من معاداة النبى صلى الله عليه وسلم بالدخول فى الإسلام (يغفر لهم ما قد سلف) من الذنوب وقرىء ان تنتهوا يغفر لكم ويغفر لكم على البناء للفاعل وهو الله تعالى (وإن يعودوا) إلى قتاله (فقد مضت سنت الأولين) الذين تحزبوا على الأنبياء عليهم السلام بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك (وقاتلوهم) عطف على قل وقد عمم الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين فى القتال لتحقيق ما يتضمنه قوله تعالى فقد مضت سنة الأولين من الوعيد (حتى لا تكون فتنة) أى لا يوجد منهم شرك (ويكون الدين كله لله) وتضمحل الأديان الباطلة اما باهلاك أهلها جميعا أو برجوعهم عنها خشية القتل (فإن انتهوا) عن الكفر بقتالكم (فإن الله بما يعملون بصير) فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم وقرىء بتاء الخطاب أى بما تعملون من الجهاد المخرج لهم إلى الإسلام وتعليقه بانتهائهم للدلالة على أنهم يثابون بالسببية كما يثاب المباشرون بالمباشرة (وإن تولوا) ولم ينتهوا عن ذلك (فاعلموا أن الله مولكم) ناصركم فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم (نعم المولى) لا يضيع من تولاه (ونعم النصير) لا يغلب من نصره (واعلموا أنما غنمتم) عن الكلبي أنها نزلت ببدر وقال الواقدى كان الخمس فى غزوة بنى قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة وما موصولة وعائدها محذوف أى الذى أصبتموه من الكفار عنوة وأصل الغنيمة إصابة الغنم من العدو ثم اتسع وأطلق على كل ما أصيب منهم كائنا ما كان وقوله تعالى (من شىء) بيان للموصول

محله النصب على أنه حال من عائد الموصول قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة وأن لا يشذ عنها شيء أى ما غنمتموه كائنا مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيط خلا أن سلب المقتول للقاتل إذا نفله الامام وأن الاسارى يخير فيها الامام وكذا الاراضى المغنومة وقوله تعالى ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مبتدأ خبره محذوف أى فحق أو واجب أن له تعالى خمسه وهذه الجملة خبر لأنما الخ وقرىء بالكسر والأولى آكد وأقوى فى الايجاب لما فيه من تكرر الاسناد كأنه قيل فلابد من ثبات الخمس ولا سبيل الى الاخلال به وقرىء فلله خمسه وقرىء خمسه بسكون الميم والجمهور على أن ذكر الله تعالى للتعظيم كما فى قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وأن المراد قسمة الخمس على المعطوفين عليه بقوله تعالى ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وإعادة اللام فى ذى القربى دون غيرهم من الأصناف الثلاثة لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى صلى الله عليه وسلم لمزيد اتصالهم به عليه الصلاة والسلام وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون بنى عبد شمس وبنى نوفل لما روى عن عثمان وجبير بن مطعم رضى الله عنهما أنهما قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء اخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذى جعلك الله منهم أرأيت اخواننا بنى المطلب أعطيتهم وحرمتنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة فقال صلى الله عليه وسلم انهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا اسلام إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبك بين أصابعه وكيفية قسمتها عندنا أنها كانت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم سهم له عليه الصلاة والسلام وسهم للذكورين من ذوى قرباه وثلاثة أسهم للاصناف الثلاثة الباقية وأما بعده صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط وكذا سهم ذوى القربى وإنما يعطون لفقرهم فهم أسوة لسائر الفقراء ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على الأصناف الثلاثة ويؤيده ماروى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه منع بنى هاشم الخمس وقال انما لكم أن يعطى فقيركم وتزوج أيمكم ويخدم من لاخادم له منكم ومن عداهم فهو بمنزلة ابن السبيل الغنى لا يعطى من الصدقة شيأ وعن زيد بن على مثله قال ليس لنا أن نبنى منه قصورا ولا نركب منه البراذين وقيل سهم الرسول صلى الله عليه وسلم لولى الأمر بعده وأما عند الشافعى رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف إلى ما كان يصرفه عليه الصلاة والسلام من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من الكراع والسلاح ونحو ذلك وسهم لذوى القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم للذكر مثل حظ الانثيين والباقى للفرق الثلاث وعند مالك رحمه الله الامر فيه مفوض إلى اجتهاد الامام ان رأى قسمه بين هؤلاء وان رأى أعطاه بعضا منهم دون بعض وان رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم وتعلق أبو العالية بظاهر الآية الكريمة فقال يقسم ستة أسهم ويصرف سهم الله تعالى إلى رتاج الكعبة لما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ منه قبضة فيجعلها لمصالح الكعبة ثم يقسم ما بقى على خمسة أسهم وقيل سهم الله لبيت المال وقيل هو مضموم إلى إلى سهم الرسول عليه الصلاة والسلام هذا شأن الخمس وأما الاخماس الاربعة فتقسم بين الغانمين للراجل سهم وللفارس سهمان عند أبى حنيفة رضى الله عنه وثلاثة أسهم عندهما رحمهما الله . قال القرطبى لما بين الله تعالى حكم الخمس وسكت عن الباقى دل ذلك على أنه ملك للغانمين وقوله تعالى ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف ينبىء عنه المذكور أى ان كنتم آمنتم به تعالى فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به إلى الله تعالى فاقطعوا أطماعكم منه واقتنعوا بالاخماس الأربعة وليس المراد به مجرد العلم بذلك بل العلم المشفوع بالعمل والطاعة لأمره تعالى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ عطف على اسم الجليل أى ان كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وقرىء عبدنا وهو اسم جمع أريد به الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنون فإن بعض ما نزل نازل عليهم بالذات كما ستعرفه ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر سمى به لفرقه بين الحق والباطل وهو منصوب بأنزلنا أو بآمنتم ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أى الفريقان من المؤمنين والكافرين

وهو بدل من يوم الفرقان أو منصوب بالفرقان والمراد ما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام يومئذ من الوحى والملائكة والفتح على أن المراد بالانزال مجرد الايصال والتيسير فينتظم الكل انتظاما حقيقيا وجعل الايمان بانزال هذه الأشياء من موجبات العلم بكون الخمس لله تعالى على الوجه المذكور من حيث أن الوحى ناطق بذلك وان الملائكة والفتح لما كانا من جهته تعالى وجب أن يكون ما حصل بسببهما من الغنيمة مصروفة إلى الجهات التى عينها الله تعالى (وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) يقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم (إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا) بدل ثان من يوم الفرقان والعدوة بالضم شط الوادى وكذا بالفتح والكسر وقد قرىء بهما أيضا (وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى) أى البعدى من المدينة وهى تأنيث الأقصى وكان القياس قلب الواو ياء كالدنيا والعليا مع كونهما من بنات الواو ولكنها جاءت على الأصل كالقود واستصوب وهو أكثر استعمالا من القصيا (وَالرَّكْبُ) أى العير أو قوادها (أَسْفَلَ مِنكُمْ) أى فى مكان أسفل من مكانكم يعنى الساحل وهو نصب على الظرفية واقع موقع الخبر والجملة حال من الظرف قبله وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على أن لا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى جهدهم وضعف شأن المسلمين والتياث أمرهم واستبعاد غلبتهم عادة وكذا ذكر مراكز الفريقين فان العدوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الارجل ولا يمشى فيها إلا بتعب ولم يكن فيهما ماء بخلاف العدوة القصوى وكذا قوله تعالى (وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى الْمِيعَادِ) أى لو تواعدتم أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم فى الميعاد هيبة منهم ويأسا من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعا من الله عز وجل خارقا للعادات فيزدادوا ايمانا وشكرا وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس (وَلَـٰكِن) جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد (لِيَقْضِىَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وقهر أعدائه أو مقدرا فى الازل وقوله تعالى (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَن بَيِّنَةٍ) بدل منه أو متعلق بمفعولا أى ليموت من يموت عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن بينة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة فان وقعة بدر من الآيات الواضحة أو ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والايمان والمراد بمن هلك ومن حى المشارف للهلاك والحياة أو من حاله فى علم الله تعالى الهلاك والحياة وقرىء ليهلك بالفتح وحيى بفك الادغام حملا على المستقبل (وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) أى بكفر من كفر وعقابه وإيمان من آمن وثوابه ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا) منصوب باذكر أو بدل آخر من يوم الفرقان أو متعلق بعليم أى يعلم المصالح إذ يقللهم فى عينك فى رؤياك وهو أن تخبر به أصحابك فيكون تثبيتا لهم وتشجيعا على عدوهم (وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ) أى لجبنتم وهبتم الاقدام (وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ)أى أمر القتال وتفرقت آراؤكم فى الثبات والفرار (وَلَـٰكِنَّ اللهَ سَلَّمَ) أى أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع ولذلك دبر ما دبر (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا) منصوب بمضمر خوطب به الكل بطريق التلوين والتعميم معطوف على المضمر السابق والضميران مفعولا يرى وقليلا حال من الثانى وإنما قللهم فى أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضى الله عنه لمن إلى جنبه أتراهم سبعين فقال أراهم مائة تثبيتا لهم وتصديقا لرؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم (وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ) حتى قال أبو جهل انما أصحاب محمد أكلة جزور وقللهم فى أعينهم قبل التحام القتال ليجترئوا عليهم ولا يستعدوا لهم ثم كثرهم حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وهذه من عظائم آيات تلك الوقعة فان البصر قد يرى الكثير قليلا والقليل كثيرا لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد وإنما ذلك بصد الله تعالى الابصار عن

ابصار بعض دون بعض مع التساوى فى الشرائط (لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) كرر لاختلاف الفعل المعلل به أو لأن المراد بالأمر ثمة الالتقاء على الوجه المذكور وههنا إعزاز الاسلام وأهله وإذلال الكفر وحزبه (وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) كلها يصرفها كيفما يريد لا راد لأمره ولا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) صدر الخطاب بحرفى النداء والتنبيه إظهارا لكمال الاعتناء بمضمون ما بعده (إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً) أى حاربتم جماعة من الكفرة وإنما لم يوصفوا بالكفر لظهور أن المؤمنين لا يحاربون إلا الكفرة واللقاء مما غلب فى القتال (فَاثْبُتُوا) أى للقائهم فى مواطن الحرب (وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا) أى فى تضاعيف القتال مستمدين منه مستعينين به مستظهرين بذكره مترقبين لنصره (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أى تفوزون بمرامكم وتظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه تنبيه على أن العبد ينبغى أن لا يشغله شىء عن ذكر الله تعالى وأن يلتجىء اليه عند الشدائد ويقبل اليه بكليته فارغ البال واثقا بأن لطفه لا ينفك عنه فى حال من الأحوال (وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ) فى كل ما تأتون وما تذرون فيندرج فيه ما أمروا به ههنا اندراجا أوليا (وَلَا تَنَازَعُوا) باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر أو أحد (فَتَفْشَلُوا) جواب للنهى وقيل عطف عليه (وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) بالنصب عطف على جواب النهى وقرىء بالجزم على تقدير عطف فتفشلوا على النهى أى تذهب دولتكم وشوكتكم فانها مستعارة للدولة من حيث أنها فى تمشى أمرها ونفاذه مشبهة بها فى هبوبها وجريانها وقيل المراد بها الحقيقة فان النصرة لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى وفى الحديث نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور (وَاصْبِرُوا) على شدائد الحرب (إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) بالنصرة والكلاءة وما يفهم من كلمة مع من أصالتهم إنما هى من حيث انهم المباشرون للصبر فهم متبعون من تلك الحيثية ومعيته تعالى إنما هى من حيث الامداد والإعانة (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ) بعد ما أمروا بما أمروا به من أحاسن الأعمال ونهوا عما يقابلها من قبائحها والمراد بهم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير (بَطَرًا) أى فخرا وأشرا (وَرِئَاءَ النَّاسِ) ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك أنهم لما بلغوا جحفة أتاهم رسول أبى سفيان وقال ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبوا الا اظهار آثار الجلادة فلقوا ما لقوا حسبما ذكر فى أوائل السورة الكريمة فنهى المؤمنون أن يكونوا أمثالهم مرائين بطرين وأمروا بالتقوى والاخلاص من حيث أن النهى عن الشىء مستلزم للأمر بضده (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) عطف على بطرا ان جعل مصدرا فى موضع الحال وكذا إن جعل مفعولا له لكن على تأويل المصدر (وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) فيجازيهم عليه (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) منصوب بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أى واذكر وقت تزيين الشيطان أعمالهم فى معاداة المؤمنين وغيرها بأن وسوس اليهم (وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ) أى ألقى فى روعهم وخيل اليهم انهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم حتى قالوا اللهم انصر إحدى الفئتين وأفضل الدينين ولكم خبر لا غالب أو صفته وليس صلته وإلا لانتصب كقولك لا ضاربا زيدا عندنا (فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ) أى تلاقى الفريقان (نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ) رجع القهقرى أى بطل كيده وعاد ما خيل اليهم أنه مجيرهم سببا لهلاكهم (وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ) أى تبرأ منهم وخاف عليهم ويئس من حالهم لما رأى امداد الله تعالى للمسلمين بالملائكة وقيل لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الاحنة فكاد ذلك يثنيهم فتمثل لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك الكنانى وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى مجيركم من كنانة فلما رأى الملائكة تنزل نكص وكان يده فى يد الحرث ابن هشام فقال له إلى أين أتخذلنا فى هذه الحالة فقال إنى أرى ما لا ترون ودفع فى صدر الحرث وانطلق فانهزموا

فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ماشعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله إني أخاف الله أخافه أن يصيبني بمكروه من الملائكة أو يهلكني ويكون الوقت هو الوقت الموعود إذ رأى فيه مالم يره قبله والأول ماقاله الحسن واختاره ابن بحر (وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) يجوز أن يكون من كلامه أو مستأنفا من جهة الله عز وجل (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ) منصوب بزين أو بنكص أو بشديد العقاب (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي الذين لم تطمئن قلوبهم بالايمان بعد وبقي فيها نوع شبهة وقيل هم المشركون وقيل هم المنافقون في المدينة والعطف لتغاير الوصفين كما في قوله :

يالهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآيب

(غَرَّ هَؤُلَاءِ) يعنون المؤمنين (دِينُهُمْ) حتى تعرضوا لما لاطاقة لهم به فخرجوا وهم ثلثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ) جواب لهم من جهته تعالى ورد لمقالتهم (فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ) غالب لايذل من توكل عليه واستجار به وإن قل (حَكِيمٌ) يفعل بحكمته البالغة ماتستبعده العقول وتحار في فهمه ألباب الفحول وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه (وَلَوْ تَرَى) أي ولو رأيت فان لو الامتناعية ترد المضارع ماضيا كما أن إن ترد الماضي مضارعا والخطاب إما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقد مر تحقيقه في قوله تعالى ولو ترى إذ وقفوا على النار وكلمة إذ في قوله تعالى (إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ) ظرف لترى والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو حال الكفرة حين يتوفاهم الملائكة ببدر وتقديم المفعول للاهتمام به وقيل الفاعل ضمير عائد إلى الله عز وجل والملائكة مبتدأ وقوله تعالى (يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ) خبره والجملة حال من الموصول قد استغنى فيها بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منه أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على ضميريهما (وَأَدْبَارَهُمْ) أي وأستاههم أو ما أقبل منهم وما أدبر من الأعضاء (وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) على إرادة القول معطوفا على يضربون أو حالا من فاعله أي ويقولون أو قائلين ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا التهبت النار منها وجواب لو محذوف للايذان بخروجه عن حدود البيان أي لرأيت امرا فظيعا لايكاد يوصف (ذَلِكَ) إشارة إلى ماذكر من الضرب والعذاب ومافيه من معنى البعد للاشعار بكونهما في الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ) أي ذلك الضرب والعذاب واقع بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي ومحل أن في قوله (وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعا على ماتقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا قد مر تحقيقه في سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ماقبلها واما ماقيل من أنها معطوفة على ما للدلالة على أن سببيته مقيدة بانضمامه اليه إذ لولاه لأمكن ان يعذبهم بغير ذنوبهم فليس بسديد لما ان امكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لاينافي كون تعذيب هؤلاء الكفرة المعينة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج إلى اعتبار عدمه معه نعم لوكان المدعى كون جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين لاحتيج إلى ذلك (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ) في محل الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان ان ماحل بهم من العذاب بسبب كفرهم لابشيء آخر من جهة غيرهم بتشبيه حالهم بحال المعروفين بالاهلاك بسبب جرائمهم لزيادة تقبيح حالهم وللتنبيه على ان ذلك سنة مطردة فيمابين الأمم المهلكة اى شأنهم الذي استمروا عليه مما فعلوا وفعل بهم من الاخذ كدأب آل فرعون المشهورين بقباحة الاعمال وفظاعة العذاب والنكال (وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أي من قبل آل فرعون من الأمم التي

فعلوا من المعاصي مافعلوا ولقوا من العقاب مالقوا كقوم نوح وعاد وأضرابهم من أهل الكفر والعناد وقوله تعالى (كفروا بآيات الله) تفسير لدأبهم الذي فعلوه لالدأب آل فرعون ونحوهم كما قيل فان ذلك معلوم منه بقضية التشبيه وقوله تعالى (فأخذهم الله) تفسير لدأبهم الذي فعل بهم والفاء لبيان كونه من لوازم جناياتهم وتبعاتها المتفرعة عليها وقوله تعالى (بذنوبهم) لتأكيد ما أفاده الفاء من السببية مع الإشارة إلى أن لهم مع كفرهم ذنوبا أخر لها دخل فى استتباع العقاب ويجوز أن يكون المراد بذنوبهم معاصيهم المتفرعة على كفرهم فتكون الباء للملابسة أى فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها فدأبهم مجموع ما فعلوا وفعل بهم لا ما فعلوه فقط كما قيل قال ابن عباس رضى الله عنهما إن آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبى الله فكذبوه كذلك هؤلاء جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق فكذبوه فأنزل الله تعالى بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون وجعل العذاب من جملة دأبهم مع أنه ليس مما يتصور مداومتهم عليه واعتيادهم إياه كما هو المعتبر فى مدلول الدأب إما للتغليب مافعلوه على مافعل بهم أو لتنزيل مداومتهم على ما يوجبه من الكفر والمعاصى منزلة مداومتهم عليه لما بينهما من الملابسة التامة وقوله تعالى (إن الله قوى شديد العقاب) اعتراض مقرر لمضمون ماقبله من الأخذ وقوله تعالى (ذلك) الخ استئناف مسوق لتعليل مايفيده النظم الكريم من كون ماحل بهم من العذاب منوطا بأعمالهم السيئة غير واقع بلا سابقة ما يقتضيه وهو المشار إليه لا نفس ماحل بهم من العذاب والانتقام كما قيل فانه مع كونه معللا بماذكر من كفرهم وذنوبهم لا يتصور تعليله بجريان عادته تعالى على عدم تغيير نعمته على قوم قبل تغييرهم لحالهم وتوهم أن السبب ليس ماذكر كما هو منطوق النظم الكريم بل ما يستفاد من مفهوم الغاية من جريان عادته تعالى على تغيير نعمتهم عند تغيير حالهم بناء على تخيل أن المعلل ترتب عقابهم على كفرهم من غير تخلف عنه ركوب شطط هائل وابتعاد عن الحق بمراحل وتهوين لأمر الكفر بآيات الله وإسقاط له عن رتبة إيجاب العقاب فى مقام تهويله والتحذير منه فالمعنى ذلك أى ترتب العقاب على أعمالهم السيئة دون أن يقع ابتداء مع قدرته تعالى على ذلك (بأن الله) أى بسبب أنه تعالى (لم يك) فى حد ذاته (مغيرا نعمة أنعمها) أى لم ينبغ له سبحانه ولم يصح فى حكمته أن يكون بحيث يغير نعمة أنعم بها (على قوم) من الأقوام أى نعمة كانت جلت أو هانت (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الأعمال والأحوال التى كانوا عليها وقت ملابستهم بالنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة مرضية صالحة أو قريبة من الصلاح بالنسبة إلى الحادثة كدأب هؤلاء الكفرة حيث كانوا قبل البعثة كفرة عبدة أصنام مستمرين على حالة مصححة لإفاضة نعمة الامهال وسائر النعم الدنيوية عليهم فلما بعث اليهم النبى صلى الله عليه وسلم بالبينات غيروها إلى أسوأ منها وأسخط حيث كذبوه عليه الصلاة والسلام وعادوه ومن تبعه من المؤمنين وتحزبوا عليهم يبغونهم الغوائل فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الامهال وعاجلهم بالعذاب والنكال وأصل يك يكن فحذفت النون تخفيفا لشبهها بالحروف اللينة (وأن الله سميع عليم) عطف على أن الله الخ داخل معه فى حيز التعليل أى وبسبب أنه تعالى سميع عليم يسمع ويعلم جميع ما يأتون وما يذرون من الأقوال والأفعال السابقة واللاحقة فيرتب على كل منها ما يليق بها من إبقاء النعمة وتغييرها وقرىء وإن الله بكسر الهمزة فالجملة حينئذ استئناف مقرر لمضمون ما قبلها وقوله تعالى (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم) فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى حتى يغيروا ما بأنفسهم تغييرا كائنا كدأب آل فرعون أى كتغييرهم على أن دأبهم عبارة عما فعلوه فقط كما هو الأنسب بمفهوم الدأب وقوله تعالى (كذبوا بآيات ربهم) تفسير له بتمامه وقوله تعالى (فأهلكناهم) اخبار بترتب العقوبة عليه لا أنه من تمام تفسيره ولا ضير فى توسط قوله تعالى وإن الله سميع عليم بينهما كما مر نظيره فى سورة آل عمران حيث

جوزوا انتصاب محل الكاف بلن تغنى مع ما بينهما من قوله تعالى وأولئك هم وقود النار وهذا على تقدير عطف الجملة على ماقبلها وأما على تقدير كونها اعتراضا فلا غبار فى توسطها قطعاً وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف كما قبله فالجملة حينئذ استئناف آخر مسوق لتقرير ماسيق له الاستئناف الأول بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين لكن لا بطريق التكرير المحض بل بتغيير العنوان وجعل الدأب فى الجانبين عبارة عما يلازم معناه الأول من تغيير الحال وتغيير النعمة أخذا مما نطق به قوله تعالى ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة الآية أى دأب هؤلاء وشأنهم الذى هو عبارة عن التغييرين المذكورين كدأب أولئك حيث غيروا حالهم فغير الله تعالى نعمته عليهم فقوله تعالى كذبوا بآيات ربهم تفسير لدأبهم الذى فعلوه من تغييرهم لحالهم وقوله تعالى فأهلكناهم تفسير لدأبهم الذى فعل بهم من تغييره تعالى مابهم من نعمته وأما دأب قريش فمستفاد منه بحكم التشبيه فلله در شأن التنزيل حيث اكتفى فى كل من التشبيهين بتفسير أحد الطرفين وإضافة الآيات إلى الرب المضاف إلى ضميرهم لزيادة تقبيح مافعلوا بها من التكذيب والالتفات إلى نون العظمة فى أهلكنا جريا على سنن الكبرياء لتهويل الخطب والكلام فى الفاء وفى قوله تعالى (بِذُنُوبِهِمْ) كالذى مر وعطف قوله تعالى (وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ) على أهلكنا مع اندراجه تحته للايذان بكمال هول الاغراق وفظاعته كعطف جبريل عليه السلام على الملائكة (وَكُلٌّ) أى وكل من الفرق المذكورين أو كل من هؤلاء وأولئك أو كل من غرقى القبط وقتلى قريش (كَانُوا ظَـٰلِمِينَ) أى أنفسهم بالكفر والمعاصى حيث عرضوها للهلاك أو واضعين للكفر والتكذيب مكان الايمان والتصديق ولذلك أصابهم ما أصابهم (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ) بعدما شرح أحوال المهلكين من شرار الكفرة شرع فى بيان أحوال الباقين منهم وتفصيل أحكامهم وقوله تعالى (عِندَ اللهِ) أى فى حكمه وقضائه (الَّذِينَ كَفَرُوا) أى أصروا على الكفر ولجوا فيه جعلوا شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى أنهم بمعزل من مجانستهم وإنما هم من جنس الدواب ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل وقوله تعالى (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) حكم مترتب على تماديهم فى الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أصل الطبع لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف أصلا جىء به على وجه الاعتراض لا أنه عطف على كفروا داخل معه فى حيز الصلة التى لا حكم فيها بالفعل وقوله تعالى (الَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ) بدل من الموصول الأول أو عطف بيان له أو نصب على الذم أى عاهدتهم ومن للايذان بأن المعاهدة التى هى عبارة عن اعطاء العهد وأخذه من الجانبين معتبرة ههنا من حيث أخذه عليه الصلاة والسلام عهدهم إذ هو المناط لقباحة مانعى عليهم من النقض لا اعطاؤه عليه الصلاة والسلام إياهم عهده كأنه قيل الذين أخذت منهم عهدهم وقيل هى للتبعيض لأن المباشر بالذات للعهد بعضهم لا كلهم (ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ) عطف على عاهدت داخل معه فى حكم الصلة وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض وتعدده وكونهم على نيته فى كل حال أى ينقضون عهدهم الذى أخذته منهم (فِى كُلِّ مَرَّةٍ) أى من مرات المعاهدة إذ هى التى يتوقع فيها عدم النقض ويستقبح وجوده لا من مرات المحاربة كما قيل إذ لا يتوقع فيها عدم النقض بل لا يتصور أصلا حتى يستقبح فيها وجوده لكونها مظنة لعدمه فلا فائدة فى تقييد النقض بالوقوع فى كل مرة من مراتها بل لا صحة له قطعا لأن النقض لا يتحقق إلا فى المرة الواردة على المعاهدة لا فى المرات الواقعة بعدها بلا معاهدة ولئن سلم أن المراد هى المرات الواقعة اثر المعاهدة يبقى النقض الواقع بلا محاربة كبيع السلاح ونحوه خارجا من البيان ولئن عد ذلك من المحاربة فلا محيص من لزوم خلو الكلام عن الفائدة بالمرة لأن المحاربة بهذا المعنى عين النقض فيؤول الأمر إلى أن يقال ينقضون عهدهم فى كل مرة من مرات النقض وحمل المحاربة على محاربة غيرهم ليكون المعنى ينقضون عهدهم فى كل مرة من مرات

محاربة الأعداء مع كونه فى غاية البعد والركاكة يستلزم خروج بدئهم بالنقض من البيان (وَهُمْ لا يَتَّقُونَ) حال من فاعل ينقضون أى يستمرون على النقض والحال أنهم لا يتقون سبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار وقوله تعالى (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ) شروع فى بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم والفاء لترتيب ما بعدها على ماقبلها أى فاذا كان حالهم كما ذكر فاما تصادفنهم وتظفرن بهم (فى الحَرْبِ) أى فى تضاعيفها (فَشَرِّدْ بِهِمْ) أى ففرق عن مناصبتك تفريقا عنيفا موجبا للاضطرار والاضطراب ونكل عنها بأن تفعل بهم من النكاية والتعذيب ما يوجب أن تنكل (مَنْ خَلْفَهُمْ) أى من وراءهم من الكفرة وفيه ايماء إلى أنهم بصدد الحرب قريب من هؤلاء وقرىء شرذ بالذال المعجمة ولعله مقلوب شذر بمعنى فرق وقرىء من خلفهم أى افعل التشريد من وراءهم والمعنى واحد لأن ايقاع التشريد فى الوراء لايتحقق الا بتشريد من وراءهم (لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) يتعظون بما شاهدوا مما نزل بالناقضين فيرتدعوا عن النقض أو عن الكفر وقوله تعالى (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً) بيان لأحكام المشرفين إلى نقض العهد اثر بيان أحكام الناقضين له بالفعل والخوف مستعار للعلم أى واما تعلمن من قوم من المعاهدين نقض عهد فيما سيأتى بما لاح لك منهم من دلائل الغدر ومخايل الشر (فَانبِذْ إِلَيْهِمْ) أى فاطرح اليهم عهدهم (عَلَىٰ سَوَاءٍ) على طريق مستو قصد بأن تظهر لهم النقض وتخبرهم اخبارا مكشوفا بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد كيلا يكون من قبلك شائبة خيانة أصلا فالجار متعلق بمحذوف هو حال من النابذ أى فانبذ اليهم ثابتا على سواء وقيل على استواء فى العلم بنقض العهد بحيث يستوى فيه أقصاهم وأدناهم أو تستوى فيه أنت وهم فهو على الأول حال من المنبوذ اليهم وعلى الثانى من الجانبين (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) تعليل للأمر بالنبذ اما باعتبار استلزامه للنهى عن المناجزة التى هى خيانة فيكون تحذيرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها واما باعتبار استتباعه للقتال بالآخرة فيكون حثا له عليه الصلاة والسلام على النبذ أولا وعلى قتالهم ثانيا كأنه قيل واما تعلمن من قوم خيانة فانبذ اليهم ثم قاتلهم ان الله لايحب الخائنين وهم من جملتهم لما علمت من حالهم (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى أنفسهم فحذف للتكرار وقوله تعالى (سَبَقُوا) أى فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم مفعول ثان ليحسبن والمراد اقناطهم من الخلاص وقطع اطماعهم الفارغة من الانتفاع بالنبذ والاقتصار على دفع هذا التوهم مع أن مقاومة المؤمنين بل الغلبة عليهم أيضا مما تتعلق به أمانيهم الباطلة للتنبيه على أن ذلك مما لايحوم حوله وهمهم وحسبانهم وإنما الذى يمكن أن يدور فى خلدهم حسبان المناص فقط وقيل الفعل مسند إلى أحد أو إلى من خلفهم والمفعول الأول الموصول المتناول لهم أيضا وقيل هو الفاعل وأن محذوفة من سبقوا وهى مع مافى حيزها سادة مسد المفعولين والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا ويعضده قراءة من قرأ أنهم سبقوا ونظيره فى الحذف قوله تعالى ومن آياته يريكم البرق خوفا وقوله تعالى أغير الله تأمرونى أعبد الآية قاله الزجاج وقرىء بالتاء على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى قراءة واضحة وقرىء ولاتحسب الذين بكسر الباء وبفتحها على حذف النون الخفيفة وقوله تعالى (إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ) أى لايفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن ادراكهم تعليل للنهى على طريقة الاستئناف وقرىء بفتح الهمزة على حذف لام التعليل وقيل الفعل واقع عليه ولا زائدة وسبقوا حال بمعنى سابقين أى مفلتين هاربين وهذا على قراءة الخطاب لازاحة ماعسى يحذر من عاقبة النبذ لما أنه إيقاظ للعدو وتمكين لهم من الهرب والخلاص من أيدى المؤمنين وفيه نفى لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجه وآكده كما أشير اليه وقيل نزلت فيمن أفلت من فل المشركين وقرىء لايعجزون بكسر النون ولا يعجزون بالتشديد (وَأَعِدُّوا لَهُمْ) توجيه الخطاب إلى كافة المؤمنين لما أن

المأمور به من وظائف الكل كما أن توجيهه فيما سبق وما لحق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكون ما في حيزه من وظائفه عليه الصلاة والسلام أى أعدوا لقتال الذين نبذ اليهم العهد وهيئوا لحرابهم أو لقتال الكفار على الاطلاق وهو الأنسب بسياق النظم الكريم (مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) من كل ما يتقوى به فى الحرب كائنا ما كان وعن عقبة ابن عامر رضى الله عنه سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر ألا ان القوة الرمى قالها ثلاثا ولعل تخصيصه عليه الصلاة والسلام إياه بالذكر لانافته على نظائره من القوى (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) الرباط اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله تعالى فعال بمعنى مفعول أو مصدر سميت هى به يقال ربط ربطا ورباطا ورابط مرابطة ورباطا أو جمع ربيط كفصيل وفصال أو جمع ربط ككعب وكعاب وكلب وكلاب وقرىء ربط الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط وعطفها على القوة مع كونها من جملتها للايذان بفضلها على بقية أفرادها كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة (تُرْهِبُونَ بِهِ) أى تخوفون وقرىء ترهبون بالتشديد وقرىء تخزون به والضمير لما استطعتم أو للاعداد وهو الأنسب ومحل الجملة النصب على الحالية من فاعل أعدوا أى أعدوا مرهبين به أو من الموصول أو من عائده المحذوف أى أعدوا ما استطعتموه مرهبا به (عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) وهم كفار مكة خصوا بذلك من بين الكفار مع كون الكل كذلك لغاية عتوهم ومجاوزتهم الحد فى العداوة (وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ) من غيرهم من الكفرة وقيل هم اليهود وقيل المنافقون وقيل الفرس (لَا تَعْلَمُونَهُمُ) أى لا تعرفونهم بأعيانهم أو لا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة وهو الأنسب بقوله تعالى (اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) أى لا غيره فان أعيانهم معلومة لغيره تعالى أيضا (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ) لاعداد العتاد قل أو جل (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) الذى أوضحه الجهاد (يُوَفَّ إِلَيْكُمْ) أى جزاؤه كاملا (وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) بترك الاثابة أو بنقص الثواب والتعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه تعالى كما مر فى تفسير قوله تعالى فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم (وَإِنْ جَنَحُوا) الجنوح الميل ومنه الجناح ويعدى باللام وبالى أى ان مالوا (لِلسَّلْمِ) أى للصلح بوقوع الرهبة فى قلوبهم بمشاهدة ما بكم من الاستعداد واعتاد العتاد (فَاجْنَحْ لَهَا) أى للسلم والتأنيث لحمله على نقيضه قال:

السلم تأخذ منها ما رضيت به ... والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وقرىء فاجنح بضم النون (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) ولا تخف أن يظهروا لك السلم وجوانحهم مطوية على المكر والكيد (إِنَّهُ) تعالى (هُوَ السَّمِيعُ) فيسمع ما يقولون فى خلواتهم من مقالات الخداع (الْعَلِيمُ) فيعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه ويرد كيدهم فى نحرهم والآية خاصة باليهود وقيل عامة نسختها آية السيف (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ) باظهار السلم وابطال الحراب (فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ) أى فاعلم بأن محسبك الله من شرورهم وناصرك عليهم (هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ) تعليل لكفايته تعالى إياه عليه الصلاة والسلام بطريق الاستئناف فان تأييده تعالى إياه عليه الصلاة والسلام فيما سلف على ما ذكر من الوجه البعيد من الوقوع من دلائل تأييده تعالى فيما سيأتى أى هو الذى أيدك بامداد من عنده بلا واسطة كقوله تعالى وما النصر الا من عند الله أو بالملائكة مع خرقه للعادات (وَبِالْمُؤْمِنِينَ) من المهاجرين والانصار (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) مع ما كان بينهم قبل ذلك من العصبية والضغينة والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة وهذا من أبهر معجزاته عليه الصلاة والسلام (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) أى لتأليف ما بينهم (مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) استئناف مقرر لما قبله ومبين لعزة

المطاب وصعوبة المأخذ أى تناهى التعادى فيما بينهم إلى حد لو أنفق منفق فى إصلاح ذات البين جميع ما فى الأرض من الأموال والذخائر لم يقدر على التأليف والاصلاح وذكر القلوب للاشعار بأن التأليف بينها لا يتسنى وإن أمكن التأليف ظاهرا (ولـٰكنّ الله ألّفَ بينَهُم) قلبا وقالبا بقدرته الباهرة (إنهُ عزيزٌ) كامل القدرة والغلبة لا يستعصى عليه شىء مما يريده (حكيمٌ) يعلم كيفية تسخير ما يريده وقيل الآية فى الأوس والخزرج كان بينهم إحن لا أمد لها ووقائع أفنت ساداتهم وأعاظمهم ودقت أعناقهم وجماجمهم فأنسى الله عز وجل جميع ذلك وألف بينهم بالاسلام حتى تصافوا وأصبحوا يرمون عن قوس واحدة وصاروا أنصارا (يا أيها النبىُّ) شروع فى بيان كفايته تعالى إياه عليه الصلاة والسلام فى جميع أموره وأمور المؤمنين أو فى الأمور الواقعة بينهم وبين الكفرة كافة اثر بيان كفايته تعالى إياه عليه الصلاة والسلام فى مادة خاصة وتصدير الجملة بحرفى النداء والتنبيه للتنبيه على مزيد الاعتناء بمضمونها وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة للاشعار بعليتها للحكم (حسبُكَ اللهُ) أى كافيك فى جميع أمورك أو فيما بينك وبين الكفرة من الحراب (ومَن اتّبعَكَ من المؤمنين) فى محل النصب على أنه مفعول معه أى كفاك وكفى أتباعك الله ناصرا كما فى قول من قال: فحسبك والضحاك عضب مهند وقيل فى موضع الجر عطفا على الضمير كما هو رأى الكوفيين أى كافيك وكافيهم أو فى محل الرفع عطفا على اسم الله تعالى أى كفاك الله والمؤمنون والآية نزلت فى البيداء فى غزوة بدر قبل القتال وقيل أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر رضى الله عنه فنزلت ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى اسلام عمر رضى الله عنه (يا أيها النبىُّ) بعد ما بين كفايته اياهم بالنصر والامداد أمر عليه الصلاة والسلام بترتيب مبادى نصره وامداده وتكرير الخطاب على الوجه المذكور لإظهار كمال الاعتناء بشأن المأمور به (حرّضِ المؤمنين على القتالِ) أى بالغ فى حثهم عليه وترغيبهم فيه بكل ما أمكن من الأمور المرغبة التى أعظمها تذكير وعده تعالى بالنصر وحكمه بكفايته تعالى أو بكفايتهم وأصل التحريض الحرض وهو أن ينهكه المرض حتى يشفى على الموت وقال الراغب كأنه فى الأصل ازالة الحرض وهو ما لا خير فيه ولا يعتد به قلت فالأوجه حينئذ أن يجعل الحرض عبارة عن ضعف القلب الذى هو من باب نهك المرض وقيل معنى تحريضهم تسميتهم حرضا بأن يقال انى أراك فى هذا الأمر حرضا أى محرضا فيه لتهيجه إلى الاقدام وقرىء حرص بالصاد المهملة وهو واضح (إن يكن منكم عشرونَ صابرونَ يغلبوا مائتين) وعد كريم منه تعالى بتغليب كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم بطريق الاستئناف بعد الأمر بتحريضهم وقوله تعالى (وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفا) مع انفهام مضمونه مما قبله لكون كل منهما عدة بتأييد الواحد على العشرة لزيادة التقرير المفيدة لزيادة الاطمئنان على أنه قد يجرى بين الجمعين القليلين ما لا يجرى بين الجمعين الكثيرين مع أن التفاوت فيما بين كل من الجمعين القليلين والكثيرين على نسبة واحدة فبين أن ذلك لا يتفاوت فى الصورتين وقوله تعالى (من الذين كفروا) بيان للألف وهذا القيد معتبر فى المائتين أيضا وقد ترك ذكره تعويلا على ذكره ههنا كما ترك قيد الصبر ههنا مع كونه معتبرا حتما ثقة بذكره هناك (بأنهم قومٌ لا يفقهونَ) متعلق بيغلبوا أى بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى وباليوم الآخر لا يقاتلون احتسابا وامتثالا بأمر الله تعالى واعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعله المؤمنون وانما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان وإثارة ثائرة البغى والعدوان فلا يستحقون إلا القهر والخذلان وأما ما قيل من أن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر لا يؤمن بالميعاد فالسعادة عنده ليست إلا هذه الحياة الدنيوية فيشح بها ولا يعرضها للزوال بمزاولة الحروب واقتحام موارد الخطوب فيميل إلى ما فيه السلامة فيفر فيغلب وأما من اعتقد أن لا سعادة فى هذه الحياة الفانية وإنما

السعادة هي الحياة الباقية فلا يبالي بهذه الحياة الدنيا ولا يقيم لها وزنا فيقدم على الجهاد بقلب قوي وعزم صحيح فيقوم الواحد من مثله مقام الكثير فكلام حق لكنه لا يلائم المقام (الْـٰٔنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً) لما كان الوعد السابق متضمنا لايجاب مقاومة الواحد للعشرة وثباته لهم كما نقل عن ابن جريج أنه كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد للعشرة وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة في ثلاثين راكبا فلقي أبا جهل في ثلثمائة راكب فهزمهم ثقل عليهم ذلك وضجوا منه بعد مدة فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين وقيل كان فيهم قلة في الابتداء ثم لما كثروا نزل التخفيف والمراد بالضعف ضعف البدن وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين في الاهتداء إلى القتال لا الضعف في الدين كما قيل وقرىء ضعفا بضم الضاد وهي لغة فيه كالفقر والفقر والمكث والمكث وقيل الضعف بالفتح ما في الرأي والعقل وبالضم ما في البدن وقرىء ضعفاء جمع ضعيف والمراد بعلمه تعالى بضعفهم علمه تعالى به من حيث هو متحقق بالفعل لا علمه تعالى به مطلقا كيف لا وهو ثابت في الأزل وقوله تعالى (فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) تفسير للتخفيف وبيان لكيفيته وقرىء تكن ههنا وفيما سبق بالتاء الفوقانية (وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ) أي بتيسيره وتسهيله وهذا القيد معتبر فيما سبق من غلبة المائة المائتين والألف وغلبة العشرين المائتين كما أن قيد الصبر معتبر ههنا وإنما ترك ذكره ثقة بما مر وبقوله تعالى (وَاللهُ مَعَ الصَّٰبِرِينَ) فانه اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله والمراد بالمعية معية نصره وتأييده ولم يتعرض ههنا لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين مع أن مدار الغلبة في الصورتين مجموع الأمرين أعني نصر المؤمنين وخذلان الكفرة اكتفاء بما ذكر في كل مقام عما ترك في المقام الآخر وما تشعر به كلمة مع من متبوعية مدخولها لاصالتهم من حيث أنهم المباشرون للصبر كما مر مرارا (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ) وقرىء للنبي على العهد والأول أبلغ لما فيه من بيان أن ما يذكر سنة مطردة فيما بين الانبياء عليهم الصلاة والسلام أي ما صح وما استقام لنبي من الانبياء عليهم السلام (أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ) وقرىء بتأنيث الفعل وأسارى أيضا (حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) أي يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الاسلام ويستولي أهله من أثخنه المرض والجرح إذا أثقله وجعله بحيث لا حراك به ولا براح وأصله الثخانة التي هي الغلظ والكثافة وقرىء بالتشديد للمبالغة (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا) استئناف مسوق للعتاب أي تريدون حطامها بأخذكم الفداء وقرىء يريدون بالياء (وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) أي يريد لكم ثواب الآخرة الذي لا مقدار عنده للدنيا وما فيها أو يريد سبب نيل الآخرة من اعزاز دينه وقمع أعدائه وقرىء بجر الآخرة على اضمار المضاف كما في قوله :

أكل امرىء تحسبين امرأ ونار توقد بالليل نارا

(وَاللهُ عَزِيزٌ) يغلب أولياءه على أعدائه (حَكِيمٌ) يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها كما أمر بالاثخان ونهى عن أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بينه وبين المن بقوله تعالى فاما منا بعد واما فداء لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسبعين أسيرا فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشار فيهم فقال أبو بكر قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي أصحابك وقال عمر اضرب أعناقهم فانهم أئمة الكفر والله أغناك عن الفداء مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكني من فلان نسيب له فلنضرب أعناقهم فقال عليه الصلاة والسلام ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ومثلك يا عمر مثل نوح قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا فخير أصحابه فأخذوا الفداء فنزلت فدخل

عمر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يارسول الله أخبرنى فان وجدت بكاء بكيت والا تباكيت فقال أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لو نزل عذاب من السماء لما نجا غير عمر وسعد بن معاذ وكان هو أيضا ممن أشار بالاثخان (لَوْلا كِتَٰبٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ) أى لولا حكم منه تعالى سبق اثباته فى اللوح المحفوظ وهو أن لا يعاقب المخطىء فى اجتهاده أو أن لا يعذب أهل بدر أو قوما لم يصرح لهم بالنهى وأما أن الفدية التى أخذوها استحل لهم فلا يصلح أن يعد من موانع مساس العذاب فان الحل اللاحق لا يرفع حكم الحرمة السابقة كما أن الحرمة اللاحقة كما فى الخمر مثلا لا ترفع حكم الاباحة السابقة على أنه قادح فى تهويل مانعى عليهم من أخذ الفداء (لَمَسَّكُمْ) أى لأصابكم (فِيمَا أَخَذْتُمْ) أى لأجل ما أخذتم من الفداء (عَذَابٌ عَظِيمٌ) لا يقادر قدره (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ) روى أنهم أمسكوا عن الغنائم فنزلت قالوا الفاء لترتيب ما بعدها على سبب محذوف أى قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم والأظهر أنها للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى دعوه فكلوا مما غنمتم وقيل ما عبارة عن الفدية فانها من جملة الغنائم ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه (حَلَٰلًا) حال من المغنوم أو صفة للمصدر أى أكلا حلالا وفائدته الترغيب فى أكلها وقوله تعالى (طَيِّبًا) صفة لحلالا مفيدة لتأكيد الترغيب (وَاتَّقُوا اللَّهَ) أى فى مخالفة أمره ونهيه (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) فيغفر لكم ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل ورود الاذن فيه ويرحمكم ويتوب عليكم إذا اتقيتموه (يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِى أَيْدِيكُم) أى فى ملكتكم كأن أيديكم قابضة عليهم (مِّنَ الْأَسْرَىٰ) وقرىء من الأسارى (إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا) خلوص إيمان وصحة نية (يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ) من الفداء وقرىء أخذ على البناء للفاعل. روى أنها نزلت فى العباس كلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفدى ابنى أخيه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث فقال يا محمد تركتنى أتكفف قريشا ما بقيت فقال له عليه الصلاة والسلام فاين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها ما أدرى ما يصيبنى فى وجهى هذا فان حدث بى حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل فقال العباس ما يدريك فقال أخبرنى به ربى قال العباس فانا أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته اليها فى سواد الليل ولقد كنت مرتابا فى أمرك فاما إذا أخبرتنى بذلك فلا ريب قال العباس بعد حين فأبدلنى الله خيرا من ذلك لى الآن عشرون عبدا وان أدناهم ليضرب فى عشرين ألفا وأعطانى زمزم ما أحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربى يتأول به ما فى قوله تعالى (وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) فانه وعد بالمغفرة مؤكد بما بعده من الاعتراض التذييلى (وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ) أى نكث ما بايعوك عليه من الإسلام وهذا كلام مسوق من جهته تعالى لتسليته عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد له والوعيد لهم (فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ) بكفرهم ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه (فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ) أى أقدرك عليهم حسبما رأيت يوم بدر فان أعادوا الخيانة فاعلم أنه سيمكنك منهم أيضا وقيل المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء وهو بعيد (وَاللَّهُ عَلِيمٌ) فيعلم ما فى نياتهم وما يستحقونه من العقاب (حَكِيمٌ) يفعل كل ما يفعله حسبما تقتضيه حكمته البالغة (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا) هم المهاجرون هاجروا أوطانهم حبا لله تعالى ولرسوله (وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ) بأن صرفوها إلى الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاويج (وَأَنفُسِهِمْ) بمباشرة القتال واقتحام المعارك والخوض فى المهالك (فِى سَبِيلِ اللَّهِ) متعلق بجاهدوا قيد لنوعى الجهاد ولعل تقديم الأموال على الأنفس لما أن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعا وأتم دفعا للحاجة حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال (وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا) هم الأنصار آووا المهاجرين

وأنزلوهم منازلهم وبذلوا اليهم أموالهم وآثروهم على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ونصروهم على أعدائهم (أولٰئك) إشارة إلى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضيلة وهو مبتدأ وقوله تعالى (بعضهم) امابدل منه وقوله تعالى (أولياء بعض) خبره واما مبتدأ ثان وأولياء بعض خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول أى بعضهم أولياء بعض فى الميراث وقد كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله تعالى وأولو الأرحام الآية وقيل فى النصرة والمظاهرة ويرده قوله تعالى فعليكم النصر بعد نفى موالاتهم (والذين ءامنوا ولم يهاجروا) كسائر المؤمنين (مالكم من ولٰيتهم من شىء) أى من توليهم فى الميراث وإن كانوا من أقرب أقاربكم (حتى يهاجروا) وقرىء بكسر الواو تشبيها بالعمل والصناعة كالكتابة والامارة (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر) فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين (إلا على قوم) منهم (بينكم وبينهم ميثٰق) معاهدة فانه لايجوز نقض عهدهم بنصرهم عليهم (والله بما تعملون بصير) فلاتخالفوا أمره كيلا يحل بكم عقابه (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) آخر منهم أى فى الميراث أو فى الموازرة وهذا بمفهومه مقيد لنفى الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وإيجاب المباعدة والمصارمة وإن كانوا أقارب (إلا تفعلوه) أى ماأمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم بعضا حتى التوارث ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار (تكن فتنة فى الأرض) أى تحصل فتنة عظيمة فيها وهى ضعف الايمان وظهور الكفر (وفساد كبير) فى الدارين وقرىء كثير (والذين ءامنوا وهاجروا وجٰهدوا فى سبيل الله والذين ءاووا ونصروا أولٰئك هم المؤمنون حقا) كلام مسوق للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الايمان مع الوعد الكريم بقوله تعالى (لهم مغفرة ورزق كريم) لاتبعة له ولا منة فيه فلا تكرار لما أن مساق الأول لايجاب التواصل بينهم (والذين ءامنوا من بعد وهاجروا) بعد هجرتكم (وجٰهدوا معكم) فى بعض مغازيكم (فأولٰئك منكم) أى من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار وهم الذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ألحقهم الله تعالى بالسابقين وجعلهم منهم تفضلا منه وترغيبا فى الايمان والهجرة وفى توجيه الخطاب اليهم بطريق الالتفات من تشريفهم ورفع محلهم مالا يخفى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) آخر منهم فى التوارث من الأجانب (فى كتٰب الله) أى فى حكمه أو فى اللوح أو فى القرآن واستدل به على توريث ذوى الأرحام (إن الله بكل شىء عليم) ومن جملته مافى تعليق التوارث بالقرابة الدينية أولا وبالقرابة النسبية آخرا من الحكم البالغة. عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه برىء من النفاق وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته والله تعالى أعلم.

سورة براءة

(مدنية. وهى مائة وثلاثون آية)

ولها أسماء أخر: سورة التوبة والمقشقشة والبحوث والمنقرة والمبعثرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكلة والمشردة والمدمدمة وسورة العذاب لمافيها من ذكر التوبة ومن التبرئة من النفاق والبحث والتنقير عن حال المنافقين وإثارتها والحفر عنها ومايخزيهم ويشردهم ويدمدم عليهم واشتهارها بهذه الأسماء يقضى بأنها سورة مستقلة وليست بعضا من سورة الأنفال وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها خلاف الظاهر فيكون حكمة ترك التسمية عند النزول

نزولها فى رفع الأمان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعا بوصف الرحمة كما روى عن ابن عيينة رضى الله عنه لا الاشتباه فى استقلالها وعدمه كما يحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما ولا رعاية ما وقع بين الصحابة رضى الله عنهم من الاختلاف فى ذلك على أن ذلك ينزع إلى القول بأن التسمية ليست من القرآن وإنما كتبت للفصل بين السور كما نقل عن قدماء الحنفية وأن مناط إثباتها فى المصاحف وتركها إنما هو رأى من تصدى لجمع القرآن دون التوقيف ولا ريب فى أن الصحيح من المذهب أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها وأن لا مدخل لرأى أحد فى الاثبات والترك وإنما المتبع فى ذلك هو الوحى والتوقيف ولا مرية فى عدم نزولها ههنا وإلا لامتنع أن يقع فى الاستقلال اشتباه أو اختلاف فهو إما لاتحاد السورتين أو لما ذكرنا لا سبيل إلى الأول وإلا لبينه عليه الصلاة والسلام لتحقق مزيد الحاجة إلى البيان لتعاضد أدلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولهما فحيث لم يبينه عليه الصلاة والسلام تعين الثانى لأن عدم البيان من الشارع فى موضع البيان بيان للعدم .

(بَرَاءَةٌ) خبر مبتدا محذوف وتنوينه للتفخيم وقرىء بالنصب أى اسمعوا براءة ومن فى قوله تعالى (مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لها ليفيدها زيادة تفخيم وتهويل أى هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله واصلة (إِلَى الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ) وإنما لم يذكر ما تعلق به البراءة حسبما ذكر فى قوله تعالى إن الله برىء من المشركين اكتفاء بما فى حيز الصلة فانه منبىء عنه انباء ظاهرا واحترازا عن تكرير لفظة من وقيل هى مبتدأ لتخصصها بالصفة وخبره إلى الذين الخ والذى تقتضيه جزالة النظم هو الأول لان هذه البراءة أمر حادث لم يعهد عند المخاطبين ذاتها ولا عنوان ابتدائها من الله تعالى ورسوله حتى يخرج ذلك العنوان مخرج الصفة لها ويجعل المقصود بالذات والعمدة فى الاخبار شيئاً آخر هو وصولها إلى المعاهدين وإنما الحقيق بأن يعتنى بافادته حدوث تلك البراءة من جهته تعالى ووصولها اليهم فان حق الصفات قبل علم المخاطب بثبوتها لموصوفاتها أن تكون أخبارا وحق الاخبار بعد العلم بثبوتها لما هى له أن تكون صفات كما حقق فى موضعه وقرىء من الله بكسر النون على أن الاصل فى تحريك الساكن الكسر ولكن الوجه هو الفتح فى لام التعريف خاصة لكثرة الوقوع والعهد العقد الموثق باليمين والخطاب فى عاهدتم للمسلمين وقد كانوا عاهدوا مشركى العرب من أهل مكة وغيرهم باذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم فنكثوا إلا بنى ضمرة وبنى كنانة فأمر المسلمون بنبذ العهد إلى الناكثين وأمهلوا أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤوا وإنما نسبت البراءة إلى الله ورسوله مع شمولها للمسلمين واشتراكهم فى حكمها ووجوب العمل بموجبها وعلقت المعاهدة بالمسلمين خاصة مع كونها باذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم للانباء عن تنجزها وتحتمها من غير توقف على رأى المخاطبين لانها عبارة عن انهاء حكم الامان ورفع الخطر المترتب على العهد السابق عن التعرض للكفرة وذلك منوط بجناب الله عز وجل لانه أمر كسائر الأوامر الجارية على حسب حكمة تقتضيها وداعية تستدعيها تترتب عليها آثارها من غير توقف على شىء أصلا واشتراك المسلمين فى حكمها ووجوب العمل بموجبها إنما هو على طريقة الامتثال بالأمر لا على أن يكون لهم مدخل فى إتمامها أو فى ترتب أحكامها عليها وأما المعاهدة فحيث كانت عقدا كسائر العقود الشرعية لا تتحصل فى نفسها ولا تترتب عليها أحكامها إلا بمباشرة المتعاقدين على وجوه مخصوصة اعتبرها الشرع لم يتصور صدورها عنه سبحانه وإنما الصادر عنه فى شأنها هو الاذن فيها وإنما الذى يباشرها ويتولى أمرها المسلمون ولا يخفى أن البراءة إنما تتعلق بالعهد لا بالاذن فيه فنسبت كل واحدة منهما إلى من هو أصل فيها على أن فى ذلك تفخيما لشأن البراءة وتهويلا لأمرها وتسجيلا على الكفرة بغاية الذل والهوان ونهاية الخزى والخذلان وتنزيها لساحة السبحان والكبرياء عما يوهم شائبة النقص والبداء تعالى عن ذلك

علوا كبيرا وإدراجه عليه الصلاة والسلام فى النسبة الأولى وإخراجه عن الثانية لتنويه شأنه الرفيع وإجلال قدره المنيع فى كلا المقامين صلى الله عليه وسلم وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية كأن يقال قد برىء الله ورسوله من الذين أو نحو ذلك للدلالة على دوامها واستمرارها وللتوسل إلى تهويلها بالتنوين التفخيمى كما أشير إليه (فَسِيحُوا) السياحة والسيح الذهاب فى الأرض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ماليس فى سيروا ونظائره وزيادة قوله عز وجل (فِى الأَرْضِ) لقصد التعميم لأقطارها من دار السلام وغيرها والمراد إباحة ذلك لهم وتخليتهم وشأنهم من الاستعداد للحرب أو تحصين الاهل والمال وتحصيل المهرب أو غير ذلك لا تكليفهم بالسياحة فيها وتلوين الخطاب بصرفه عن المسلمين وتوجيهه إليهم مع حصول المقصود بصيغة أمر الغائب أيضا للمبالغة فى الاعلام بالامهال حسما لمادة تعللهم بالغفلة وقطعا لشأفة اعتذارهم بعدم الاستعداد وإيثار صيغة الامر مع تسنى إفادة ذلك المعنى بطريق الاخبار أيضا كأن يقال مثلا فلكم أن تسيحوا أو نحو ذلك لاظهار كمال القوة والغلبة وعدم الاكتراث لهم ولاستعدادهم فكأن ذلك أمر مطلوب منهم والفاء لترتيب الامر بالسياحة ومايعقبه على ماتؤذن به البراءة المذكورة من الحراب على أن الأول مترتب على نفسه والثانى بكلا متعلقيه على عنوان كونه من الله العزيز لا لترتيب الاول عليه والثانى على الأول كما فى قوله تعالى قل سيروا فى الارض فانظروا الخ كأنه قيل هذه براءة موجبة لقتالكم فاسعوا فى تحصيل العدد والاسباب وبالغوا فى إعتاد العتاد من كل باب (أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ) بسياحتكم فى أقطار الارض فى العرض والطول وإن ركبتم متن كل صعب وذلول (غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ) أى لا تفوتونه بالهرب والتحصن (وَأَنَّ اللهَ) وضع الاسم الجليل موضع المضمر لتربية المهابة وتهويل أمر الاخزاء وهو الاذلال بما فيه فضيحة وعار (مُخْزِى الكَافِرِينَ) أى مخزيكم ومذلكم فى الدنيا بالقتل والأسر وفى الآخرة بالعذاب وإيثار الاظهار على الاضمار لذمهم بالكفر بعد وصفهم بالاشراك وللاشعار بأن علة الاخزاء هى كفرهم ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوليا والمراد بالأشهر الأربعة هى الأشهر الحرم التى علق القتال بانسلاخها فقيل هى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقيل هى عشرون من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر وجعلت حرما لحرمة قتالهم فيها أو لتغليب ذى الحجة والمحرم على البقية وقيل من عشر ذى القعدة إلى عشر من شهر ربيع الأول لأن الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت للنسىء الذى كان فيهم ثم صار فى العام القابل فى ذى الحجة وذلك قوله عليه الصلاة والسلام إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . روى أنه عليه الصلاة والسلام أمر أبا بكر رضى الله تعالى عنه على موسم سنة تسع ثم أتبعه عليا رضى الله تعالى عنه على العضباء ليقرأها على أهل الموسم فقيل له عليه الصلاة والسلام لو بعثت بها الى أبى بكر فقال صلى الله عليه وسلم لا يؤدى عنى إلا رجل منى وذلك لأن عادة العرب أن لا يتولى أمر العهد والنقض على القبيلة إلا رجل منها فلما دنا على سمع أبو بكر الرغاء فوقف فقال هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال أمير أو مأمور قال مأمور فمضيا فلما كان قبل يوم التروية خطب أبو بكر رضى الله عنه وحدثهم عن مناسكهم وقام على رضى الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال يا أيها الناس إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال أمرت بأربع أن لا يقرب البيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده (وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) أى إعلام منهما فعال بمعنى الافعال كالعطاء بمعنى الاعطاء ورفعه كرفع براءة والجملة معطوفة على مثلها وإنما قيل (إِلَى النَّاسِ) أى كافة لأن

الأذان غير مختص بقوم دون آخرين كالبراءة الخاصة بالناكثين بل هو شامل لعامة الكفرة وللمؤمنين أيضا (يَوْمَ الحَجِّ الأكبرِ) هو يوم العيد لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله ولأن الاعلام كان فيه ولما روى أنه عليه الصلاة والسلام وقف يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع فقال هذا يوم الحج الأكبر وقيل يوم عرفة لقوله عليه الصلاة والسلام الحج عرفة ووصف الحج بالاكبر لأن العمرة تسمى الحج الاصغر أو لأن المراد بالحج مايقع فى ذلك اليوم من أعماله فانه أكبر من باقى الأعمال أو لان ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون أو لأنه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين (أنَّ اللهَ) أى بأن الله وقرىء بالكسر لما أن الأذان فيه معنى القول (بَرِىءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ) أى المعاهدين الناكثين (ورَسولُهُ) عطف على المستكن فى برىء أو على محل ان واسمها على قراءة الكسر وقرىء بالنصب عطفا على اسم أن أو لان الواو بمعنى مع أى برىء معه منهم وبالجر على الجوار وقيل على القسم (فإن تُبْتُمْ) من الشرك والغدر التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد والفاء لترتيب مقدم الشرطية على الاذان بالبراءة المذيلة بالوعيد الشديد المؤذن بلين عريكتهم وانكسار شدة شكيمتهم (فهُوَ) أى فالتوب (خَيرٌ لَكُمْ) فى الدارين (وإن تَوَلَّيتُمْ) عن التوبة أو ثبتم على التولى عن الاسلام والوفاء (فاعْلَموا أنَّكُمْ غيرُ مُعجِزِى اللهِ) غير سابقين ولا فائتين (وبَشِّرِ الذينَ كفَرُوا) تلوين للخطاب وصرف له عنهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن البشارة (بعَذابٍ أليمٍ) وان كانت بطريق التهكم انما تليق بمن يقف على الاسرار الالهية (إلاَّ الذينَ عاهَدتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ) استدراك من النبذ السابق الذى أخر فيه القتال أربعة أشهر كأنه قيل لاتمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر لكن الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين فى المسارعة إلى قتالهم بل أتموا اليهم عهدهم ولا يضر فى ذلك تخلل الفاصل بقوله تعالى وأذان من الله ورسوله الخ لأنه ليس بأجنبى بالكلية بل هو أمر باعلام تلك البراءة كأنه قيل واعلموها وقيل هو استثناء متصل من المشركين الأول ويرده بقاء الثانى على العموم مع كونهما عبارة عن فريق واحد وجعله استثناء من الثانى يأباه بقاء الأول كذلك وقيل هو استدراك من المقدر فى فسيحوا أى فقولوا لهم سيحوا أربعة أشهر لكن الذين عاهدتم منهم (ثُمَّ لمْ يَنقُصُوكُمْ شيئاً) من شروط الميثاق ولم يقتلوا منكم أحدا ولم يضروكم قط وقرىء بالمعجمة أى لم ينقضوا عهدكم شيئا من النقض وكلمة ثم للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة (ولمْ يُظاهِروا) أى لم يعاونوا (عَليكُمْ أحداً) من أعدائكم كما عدت بنو بكر على خزاعة فى غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح (فأتِمُّوا إليهِمْ عَهدَهُمْ) أى أدوه اليهم كملا (إلى مُدَّتِهِمْ) ولا تفاجئوهم بالقتال عند مضى الاجل المضروب للناكثين ولا تعاملوهم معاملتهم قال ابن عباس رضى الله عنهما بقى لحى من بنى كنانة من عهدهم تسعة أشهر فأتم اليهم عهدهم (إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِين) تعليل لوجوب الامتثال وتنبيه على أن مراعاة حقوق العهد من باب التقوى وأن التسوية بين الوفى والغادر منافية لذلك وان كان المعاهد مشركا (فإذا انسَلَخَ) أى انقضى استعير له من الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده والاغلب اسناده إلى الجلد والمعنى اذا انقضى (الأشهُرُ الحُرُمُ) وانفصلت عما كانت مشتملة عليه ساترة له انفصال الجلد عن الشاة وانكشفت عنه انكشاف الحجاب عما وراءه كما ذكره أبو الهيثم من أنه يقال أهللنا شهر كذا أى دخلنا فيه ولبسناه فنحن نزداد كل ليلة لباسا منه إلى مضى نصفه ثم نسلخه عن أنفسنا جزءا جزءا حتى نسلخه عن أنفسنا كله فينسلخ وأنشد :

إذا ماسلخت الشهر أهللت مثله كفى قاتلا سلخى الشهور واهلالى

وتحقيقه أن الزمان محيط بمافيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد للحيوان وكذا كل جزء من أجزائه الممتدة من

الأيام والشهور والسنين فاذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه وفيه مزيد لطف لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر كانت حرزا لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدى المسلمين فنيط قتالهم بزوالها والمراد بها ما مر من الأشهر الاربعة فقط ووضع المظهر موضع المضمر ليكون ذريعة إلى وصفها بالحرمة تأكيدا لما ينبىء عنه اباحة السياحة من حرمة التعرض لهم مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأنها أو هى مع ما فهم من قوله تعالى فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم من تتمة مدة بقيت لغير الناكثين فعلى الأول يكون المراد بالمشركين فى قوله تعالى (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) الناكثين خاصة فلا يكون قتال الباقين مفهوما من عبارة النص بل من دلالته وعلى الثانى مفهوما من العبارة الا أنه يكون الانسلاخ وما نيط به من القتال حينئذ شيأ فشيأ لا دفعة واحدة كأنه قيل فاذا تم ميقات كل طائفة فاقتلوهم وحملها على الأشهر المعهودة الدائرة فى كل سنة لا يساعده النظم الكريم وأما أنه يستدعى بقاء حرمة القتال فيها اذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها فلا اعتداد به لا لانها نسخت بقوله تعالى وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة كما توهم فانه رجم بالغيب لانه ان أريد به ما فى سورة الانفال فانه نزل عقيب غزوة بدر وقد صح أن المراد بالذين كفروا فى قوله تعالى قل للذين كفروا الخ أبو سفيان وأصحابه وقد أسلم فى أواسط رمضان عام الفتح سنة ثمان وسورة التوبة انما نزلت فى شوال سنة تسع وان أريد ما فى سورة البقرة فانه أيضا نزل قبل الفتح كما يعرب عنه ما قبله من قوله تعالى وأخرجوهم من حيث أخرجوكم أى من مكة وقد فعل ذلك يوم الفتح فكيف ينسخ به ما نزل بعده بل لان انعقاد الاجماع على انتساخها كاف فى الباب من غير حاجة إلى كون سنده منقولا الينا وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم (حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) من حل وحرم (وَخُذُوهُمْ) أى أيسروهم والاخيذ الاسير (وَاحْصُرُوهُمْ) أى قيدوهم أو امنعوهم من التقلب فى البلاد. قال ابن عباس رضى الله عنهما حيلوا بينهم وبين المسجد الحرام (وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) أى كل ممر ومجاز يجتازون منه فى أسفارهم وانتصابه على الظرفية أى أرصدوهم وارقبوهم حتى لا يمروا به وفائدته على التفسير الثانى دفع احتمال أن يراد بالحصر المحاصرة المعهودة (فَإِنْ تَابُوا) عن الشرك بالايمان بعد ما اضطروا بما ذكر من القتل والاسر والحصر (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ) تصديقا لتوبتهم وايمانهم واكتفى بذكرهما عن ذكر بقية العبادات لكونهما رأسى العبادات البدنية والمالية (فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) فدعوهم وشأنهم ولا تتعرضوا لهم بشىء مما ذكر (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر ويثيبهم بايمانهم وطاعاتهم وهو تعليل للامر بتخلية السبيل (وَإِنْ أَحَدٌ) شروع فى بيان حكم المتصدين لمبادى التوبة من سماع كلام الله تعالى والوقوف على شعائر الدين اثر بيان حكم التائبين عن الكفر والمصرين عليه وهو مرتفع بشرط مضمر يفسره الظاهر لا بالابتداء لان ان لا تدخل الا على الفعل (مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ) بعد انقضاء الاجل المضروب أى سألك أن تؤمنه وتكون له جارا (فَأَجِرْهُ) أى أمنه (حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) ويتدبره ويطلع على حقيقة ما تدعو اليه والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شىء آخر فى الفهم لكونهم من أهل اللسن والفصاحة وحتى سواء كانت للغاية أو للتعليل متعلقة بما بعدها لا بقوله تعالى استجارك لانه يؤدى إلى أعمال حتى فى المضمر وذلك مما لا يكاد يرتكب فى غير ضرورة الشعر كما فى قوله :

فلا والله لا يلفى أناس فتى حتاك يا ابن أبى يزيد

كذا قيل الا أن تعلق الاجارة بسماع كلام الله تعالى بأحد الوجهين يستلزم تعلق الاستجارة أيضا بذلك أو بما فى معناه من أمور الدين وما روى عن على رضى الله عنه أنه أتاه رجل من المشركين فقال ان أراد الرجل منا أن يأتى محمدا بعد انقضاء هذا الاجل لسماع كلام الله تعالى أو لحاجة قتل قال لا لان الله تعالى يقول وان أحد من المشركين استجارك فأجره الخ فالمراد بما فيه من الحاجة هى الحاجة المتعلقة بالدين لا ما يعمها وغيرها من الحاجات الدنيوية كما ينبىء عنه قوله أن يأتى

محمدا فان من يأتيه عليه السلام إنما يأتيه للأمور المتعلقة بالدين (ثُمَّ أَبْلِغْهُ) بعد استماعه له إن لم يؤمن (مَأْمَنَهُ) أى مسكنه الذى يأمن فيه وهو دار قومه (ذَٰلِكَ) يعنى الامر بالاجارة وابلاغ المأمن (بِأَنَّهُمْ) بسبب أنهم (قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) ما الاسلام وما حقيقته أو قوم جهلة فلابد من اعطاء الامان حتى يفهموا الحق ولا يبقى لهم معذرة أصلا (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ) شروع فى تحقيق حقية ماسبق من البراءة وأحكامها المتفرعة عليها وتبيين الحكمة الداعية إلى ذلك والمراد بالمشركين الناكثون لأن البراءة إنما هى فى شأنهم والاستفهام انكارى لا بمعنى انكار الواقع كما فى قوله تعالى كيف تكفرون بالله الخ بمعنى انكار الوقوع ويكون من الكون التام وكيف فى محل النصب على التشبيه بالحال أو الظرف وقيل من الكون الناقص وكيف خبر يكون قدم على اسمه وهو عهد لاقتضائه الصدارة وللمشركين متعلق بمحذوف وقع حالا من عهد ولو كان مؤخرا لكان صفة له أو بيكون عند من يجوز عمل الأفعال الناقصة فى الظروف وعند متعلق بمحذوف وقع صفة لعهد أو بنفسه لأنه مصدر أو بيكون كما مر ويجوز أن يكون الخبر للمشركين وعند كما ذكر أو متعلق بالاستقرار الذى تعلق به للمشركين ويجوز أن يكون الخبر عند الله وللمشركين اما تبيين وأما حال من عهد واما متعلق بيكون أو بالاستقرار الذى تعلق به الخبر ولا يبالى بتقديم معمول الخبر على الاسم لكونه حرف جر وكيف على الوجهين الأخيرين نصب على التشبيه بالظرف أو الحال كما فى صورة الكون التام وهو الأولى لأن فى انكار ثبوت العهد فى نفسه من المبالغة ماليس فى انكار ثبوته للمشركين لأن ثبوته الرابطى فرع ثبوته العينى فانتفاء الأصل يوجب انتفاء الفرع رأسا وفى توجيه الانكار إلى كيفية ثبوت العهد من المبالغة ماليس فى توجيهه إلى ثبوته لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى أى على أى أو فى أى حال يوجد لهم عهد معتد به (عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ) يستحق أن يراعى حقوقه ويحافظ عليه إلى اتمام المدة ولا يتعرض لهم بحسبه قتلا ولا أخذا وأما أن يأمنوا به من عذاب الآخرة كما قيل فلا سبيل إلى اعتباره أصلا إذ لا دخل لعهدهم فى ذلك الأمن قطعا وإن كان مرعيا عند الله تعالى وعند رسوله كعهد غير الناكثين وتكرير كلمة عند للايذان بعدم الاعتداد به عند كل منهما على حدة (إِلَّا الَّذِينَ) استدراك من النفى المفهوم من الاستفهام المتبادر شموله لجميع المعاهدين أى لكن الذين (عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) وهم المستثنون فيما سلف والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها والاشعار بسبب وكادتها ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) والفاء لتضمنه معنى الشرط وما اما مصدرية منصوبة المحل على الظرفية بتقدير المضاف أى فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم واما شرطية منصوبة المحل على الظرفية الزمانية أى أى زمان استقاموا لكم فاستقيموا لهم أو مرفوعة على الابتداء والعائد محذوف أى أى زمان استقاموا لكم فيه فاستقيموا لهم فيه وقيل الاستثناء متصل محله النصب على الأصل أو الجر على البدل من المشركين والمراد بهم الجنس لا المعهود وأيا ما كان فحكم الأمر بالاستقامة ينتهى بانتهاء مدة العهد لأن استقامتهم التى وقت بوقتها الاستقامة المأمور بها عبارة عن مراعاة حقوق العهد وبعد انقضاء مدته لا عهد ولا استقامة فصار عين الأمر الوارد فيما سلف حيث قيل فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم خلا أنه قد صرح ههنا بما لم يصرح به هناك مع كونه معتبرا قطعا وهو تقييد الاتمام المأمور به ببقائهم على ما كانوا عليه من الوفاء (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) تعليل للأمر بالاستقامة واشعار بأن القيام بموجب العهد من أحكام التقوى كما مر (كَيْفَ) تكرير لاستنكار مامر من أن يكون للمشركين عهد حقيق بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسوله صلى الله عليه وسلم وأما ماقيل من أنه لاستبعاد ثباتهم على العهد فكما

ترى لأن مايذكر بصدد التعليل للاستبعاد عين عدم ثباتهم على العهد لأنه شيء يستدعيه وإنما أعيد الاستنكار والاستبعاد تأكيدا لها وتمهيدا لتعداد العلل الموجبة لها لاخلال تخلل مافى البين من الارتباط والتقريب وحذف الفعل المستنكر للايذان بأن النفس مستحضرة مترقبة لورود مايوجب استنكاره لالمجرد كونه معلوما كما فى قوله :

وخبرتمانى أنما الموت بالقرى فكيف وهاتا هضبة وقليب

فانه علة مصححة لامرجحة أى كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم (وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) أى وحالهم أنهم ان يظهروا عليكم أى يظفروا بكم (لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ) أى لايراعوا فى شأنكم وأصل الرقوب النظر بطريق الحفظ والرعاية ومنه الرقيب ثم استعمل فى مطلق الرعاية والمراقبة أبلغ منه كالمراعاة وفى نفى الرقوب من المبالغة ماليس فى نفيها (إِلًّا وَلَا ذِمَّةً) أى حلفا وقيل قرابة ولا عهدا أو حقا يعاب على اغفاله مع ماسبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق يعنى أن وجوب مراعاة حقوق العهد على كل من المتعاهدين مشروط بمراعاة الآخر لها فاذا لم يراعها المشركون فكيف تراعونها على منوال قول من قال :

علام تقبل منهم فدية وهم لافضة قبلوا منا ولا ذهبا

وقيل الال من أسماء الله عز وجل أى لايراعوا حق الله تعالى وقيل الجوار ومآله الحلف لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم لتشهيره ولما كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر موهما للرعاية عند عدمه كشف عن حقيقة شئونهم الجلية والخفية بطريق الاستئناف وبين أنهم فى حالة العجز أيضا ليسوا من الوفاء فى شىء وأن مايظهرونه مداهنة لامهادنة فقيل (يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ) حيث يظهرون الوفاء والمصافاة ويعدون لكم بالايمان والطاعة ويؤكدون ذلك بالأيمان الفاجرة ويتعللون عند ظهور خلافه بالمعاذير الكاذبة ونسبة الارضاء إلى الأفواه للايذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق فى قلوبهم (وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ) مايفيده كلامهم (وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ) خارجون عن الطاعة فان مراعاة حقوق العهد من باب الطاعة متمردون ليست لهم مروءة رادعة ولا عقيدة وازعة ولا يتسترون كما يتعاطاه بعضهم ممن يتفادى عن الغدر ويتعفف عما يجر أحدوثة السوء (اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ) بآياته الآمرة بالإيفاء بالعهود والاستقامة فى كل أمر أو بجميع آياته فيدخل فيها ماذكر دخولا أوليا أى تركوها وأخذوا بدلها (ثَمَنًا قَلِيلًا) أى شيئا حقيرا من حطام الدنيا وهو أهواؤهم وشهواتهم التى اتبعوها أو ما أنفقه أبو سفيان من الطعام وصرفه إلى الاعراب (فَصَدُّوا) أى عدلوا ونكبوا من صد صدودا أو صرفوا غيرهم من صد صدا والفاء للدلالة على سببية الاشتراء لذلك (عَن سَبِيلِهِ) أى الدين الحق الذى لامحيد عنه والاضافة للتشريف أو سبيل بيته الحرام حيث كانوا يصدون الحجاج والعمار عنه (إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى بئس ماكانوا يعملونه أو عملهم المستمر والمخصوص بالذم محذوف وقد جوز أن تكون كلمة ساء على أصلها من التصرف لازمة بمعنى قبح أو متعدية والمفعول محذوف أى ساءهم الذى يعملونه أو عملهم وقوله عز وعلا (لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً) ناع عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين على الاطلاق فلا تكرار وقيل هذا فى اليهود وفى الاعراب المذكورين ومن يحذو حذوهم وأما ماقيل من أنه تفسير لقوله تعالى يعملون أو دليل على ماهو مخصوص بالذم فمشعر باختصاص الذم والسوء بعملهم هذا دون غيره (وَأُولَٰئِكَ) الموصوفون بما عدد من الصفات السيئة (هُمُ الْمُعْتَدُونَ) المجاوزون الغاية القصوى من الظلم والشرارة (فَإِن تَابُوا) أى عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم والفاء للايذان بأن تقريعهم بما نعى عليهم من مساوى أعمالهم مزجرة عنها ومظنة للتوبة (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ) أى التزموهما وعزموا على إقامتهما (فَإِخْوَانُكُمْ) أى فهم إخوانكم

وقوله تعالى (فِى الدِّينِ) متعلق باخوانكم لما فيه من معنى الفعل أى لهم مالكم وعليهم ما عليكم فعاملوهم معاملة الاخوان وفيه من استمالتهم واستجلاب قلوبهم مالا مزيد عليه والاختلاف بين جواب هذه الشرطية وجواب التى مرت من قبل مع اتحاد الشرط فيهما لما أن الأولى سيقت اثر الأمر بالقتل ونظائره فوجب أن يكون جوابها أمراً بخلاف ذلك وهذه سيقت بعد الحكم عليهم بالاعتداء وأشباهه فلابد من كون جوابها حكماً بخلافه البتة (وَنُفَصِّلُ الْآيٰتِ) أى نبينها والمراد بها اما ما مر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين من الناكثين وغيرهم وأحكامهم حالتى الكفر والإيمان وإما جميع الآيات فيندرج فيها تلك الآيات اندراجاً أولياً (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أى ما فيها من الأحكام أو لقوم عالمين وهو اعتراض للحث على التأمل فى الأحكام المندرجة فى تضاعيفها والمحافظة عليها (وَإِنْ نَكَثُوا) عطف على قوله تعالى فان تابوا أى وإن لم يفعلوا ذلك بل نقضوا (أَيْمٰنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ) الموثق بها وأظهروا ما فى ضمائرهم من الشر وأخرجوه من القوة إلى الفعل حسبما ينبىء عنه قوله تعالى وان يظهروا عليكم لا يرقبوا الآية أو ثبتوا على ما هم عليه من النكث لا أنهم ارتدوا بعد الايمان كما قيل (وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ) قدحوا فيه بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام (فَقٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ) أى فقاتلوهم وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم للايذان بأنهم صاروا بذلك ذوى رياسة وتقدم فى الكفر أحقاء بالقتل والقتال وقيل المراد بأئمتهم رؤساؤهم وصناديدهم وتخصيصهم بالذكر إما لأهمية قتلهم أو للمنع من مراقبتهم لكونهم مظنة لها أو للدلالة على استئصالهم فان قتلهم غالباً يكون بعد قتل من دونهم وقرىء أئمة بتحقيق الهمزتين على الأصل والأفصح إخراج الثانية بين بين وأما التصريح بالياء فلحن ظاهر عند القراء (إِنَّهُمْ لَا أَيْمٰنَ لَهُمْ) أى على الحقيقة حيث لا يراعونها ولا يعدون نقضها محذوراً وإن أجروها على ألسنتهم وإنما علق النفى بها كالنكث فيما سلف لا بالعهد المؤكد بها لأنها العمدة فى المواثيق وجعل الجملة تعليلا للأمر بالقتال لا يساعده تعليقه بالنكث والطعن لأن حالهم فى أن لا أيمان لهم حقيقة بعد النكث والطعن كحالهم قبل ذلك وحمله على معنى عدم بقاء أيمانهم بعد النكث والطعن مع أنه لا حاجة إلى بيانه خلاف الظاهر ولعل الأولى جعلها تعليلا لمضمون الشرط كأنه قيل وإن نكثوا وطعنوا كما هو المتوقع منهم إذ لا أيمان لهم حقيقة حتى لا ينكثوها أو لاستمرار القتال المأمور به المستفاد من سياق الكلام كأنه قيل فقاتلوهم إلى أن يؤمنوا انهم لا أيمان لهم حتى يعقد معهم عهد آخر وقرىء بكسر الهمزة على أنه مصدر بمعنى اعطاء الأمان أى لا سبيل إلى أن تعطوهم أماناً بعد ذلك أبداً وأما العكس كما قيل فلا وجه له لاشعاره بأن معاهدتهم معنا على طريقة أن يكون اعطاء الأمان من قبلهم وذلك بين البطلان أو بمعنى الإسلام ففى كونه تعليلا للامر بالقتال إشكال بل استحالة لأنه إن حمل على انتفاء الإسلام مطلقاً فهو بمعزل عن العلية للقتال أو للامر به كما قبل النكث والطعن وإن حمل على انتفائه فيما سيأتى فلا يلائم جعل الانتهاء غاية للقتال فيما سيجىء فالوجه أن يجعل تعليلا لما ذكر من مضمون الشرط كأنه قيل ان نكثوا وطعنوا وهو الظاهر من حالهم لأنه لا إسلام لهم حتى يرتدعوا عن نقض جنس أيمانهم وعن الطعن فى دينكم (لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) متعلق بقوله تعالى فقاتلوهم أى قاتلوهم إرادة أن ينتهوا أى ليكن غرضكم من القتال انتهاءهم عما هم عليه من الكفر وسائر العظائم التى يرتكبونها لا ايصال الأذية بهم كما هو ديدن المؤذين (أَلَا تُقٰتِلُونَ) الهمزة الداخلة على انتفاء مقاتلتهم للانكار والتوبيخ تدل على تحضيضهم على المقاتلة بطريق حملهم على الاقرار بانتفائها كأنه أمر لا يمكن أن يعترف به طائعاً لكمال شناعته فيلجئون إلى ذلك ولا يقدرون على الاقرار به فيختارون المقاتلة (قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمٰنَهُمْ) التى حلفوها عند المعاهدة على أن لا يعاونوا عليهم فعاونوا بنى بكر على خزاعة (وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ) من مكة حين تشاوروا

فى أمره بدار الندوة حسبما ذكر فى قوله تعالى وإذ يمكر بك الذين كفروا فيكون نعيا عليهم جنايتهم القديمة وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وهموا بإخراجه من المدينة (وَهُمْ بَدَءُوكُمْ) بالمعاداة والمقاتلة (أَوَّلَ مَرَّةٍ) لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولا بالكتاب المبين وتحداهم به فعدلوا عن المحاجة لعجزهم عنها إلى المقاتلة أو بدءوا بقتال خزاعة حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم لأن اعانة بنى بكر عليهم قتال معهم (أَتَخْشَوْنَهُمْ) أى أتخشون أن ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا قتالهم وبخهم أولا بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الرغبة فيها ويحقق أن من كان على تلك الصفات السيئة حقيق بأن لا تترك مصادمته ويوبخ من فرط فيها (فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ) بمخالفة أمره وترك قتال أعدائه (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فان قضية الايمان تخصيص الخشية به تعالى وعدم المبالاة بمن سواه وفيه من التشديد ما لا يخفى (قَاتِلُوهُمْ) تجريد للامر بالقتال بعد التوبيخ على تركه ووعد بنصرهم وبتعذيب أعدائهم واخزائهم وتشجيع لهم (يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ) قتلا وأسرا (وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ) أى يجعلكم جميعا غالبين عليهم أجمعين ولذلك أخر عن التعذيب والاخزاء (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) ممن لم يشهد القتال وهم خزاعة قال ابن عباس رضى الله عنهما هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرا فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه فقال عليه السلام أبشروا فان الفرج قريب (وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) بما كابدوا من المكاره والمكايد ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون فكان اخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة (وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ) كلام مستأنف ينبىء عما سيكون من بعض أهل مكة من التوبة المقبولة بحسب مشيئته تعالى المبنية على الحكم البالغة فكان كذلك حيث أسلم ناس منهم وحسن اسلامهم وقرىء بالنصب باضمار أن ودخول التوبة فى جملة ما أجيب به الأمر بحسب المعنى فان القتال كما هو سبب لفل شوكتهم وإلانة شكيمتهم فهو سبب للتدبر فى أمرهم وتوبتهم من الكفر والمعاصى وللاختلاف فى وجه السببية غير السبك والله تعالى أعلم (وَاللَّهُ) ايثار إظهار الجلالة على الاضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة (عَلِيمٌ) لا يخفى عليه خافية (حَكِيمٌ) لا يفعل ولا يأمر إلا بما فيه حكمة ومصلحة (أَمْ حَسِبْتُمْ) أم منقطعة جىء بها للدلالة على الانتقال من التوبيخ السابق إلى آخر وما فيها من همزة الاستفهام الانكارى توبيخ لهم على الحسبان المذكور أى بل أحسبتم (أَنْ تُتْرَكُوا) على ما أنتم عليه ولا تأمروا بالجهاد ولا تبتلوا بما يمحصكم والخطاب إما لمن شق عليهم القتال من المؤمنين أو للمنافقين (وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) الواو حالية ولما للنفى مع التوقع والمراد من نفى العلم نفى المعلوم بالطريق البرهانى إذ لو شم رائحة الوجود لعلم قطعا فلما لم يعلم لزم عدمه قطعا أى أم حسبتم أن تتركوا والحال أنه لم يتبين الخلص من المجاهدين منكم من غيرهم وما فى لما من التوقع منبه على أن ذلك سيكون وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقا للعلم ومدارا للثواب وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت إرادة أكرم الأكرمين (وَلَمْ يَتَّخِذُوا) عطف على جاهدوا داخل فى حيز الصلة أو حال من فاعله أى جاهدوا حال كونهم غير متخذين (مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً) أى بطانة وصاحب سر وهو الذى تطلعه على ما فى ضميرك من الأسرار الخفية من الولوج وهو الدخول ومن دون الله متعلق بالاتخاذ ان أبقى على حاله أو مفعول ثان له ان جعل بمعنى التصيير (وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى بجميع أعمالكم وقرىء على الغيبة وهو تذييل يزيح ما يتوهم من ظاهر قوله تعالى ولما يعلم الخ أو حال متداخلة من فاعله أو من مفعوله والمعنى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم

والحال أنه يعلم جميع أعمالكم لايخفى عليه شيء منها (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ) أى ماصح وما استقام لهم على معنى نفى الوجود والتحقق لانفى الجواز كما فى قوله تعالى أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين أى ماوقع وماتحقق لهم (أَنْ يَعْمُرُوا) عمارة معتدا بها (مَسْجِدَ اللهِ) أى المسجد الحرام وإنما جمع لأنه قبلة المساجد وامامها فعامره كعامرها أو لأن كل ناحية من نواحيه المختلفة الجهات مسجد على حياله بخلاف سائر المساجد إذ ليس فى نواحيها اختلاف الجهة ويؤيده القراءة بالتوحيد وقيل ماكان لهم أن يعمروا شيئا من المساجد فضلا عن المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس ويأباه أنهم لايتصدون لتعمير سائر المساجد ولايفتخرون بذلك على أنه مبنى على كون النفى بمعنى نفى الجواز واللياقة دون نفى الوجود (شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ) أى باظهار آثار الشرك من نصب الأوثان حول البيت والعبادة لها فان ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر وان أبوا أن يقولوا نحن كفار كما نقل عن الحسن رضى الله عنه وهو حال من الضمير فى يعمروا أى محال أن يكون ماسموه عمارة عمارة بيت الله مع ملابستهم لما ينافيها ويحبطها من عبادة غيره تعالى فانها ليست من العمارة فى شيء وأما ماقيل من أن المعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله تعالى وعبادة غيره تعالى فليس بمعرب عن كنه المرام فان عدم استقامة الجمع بين المتنافيين إنما يستدعى انتفاء أحدهما لابعينه لانتفاء العمارة الذى هو المقصود . روى أن المهاجرين والأنصار أقبلوا على أسارى بدر يعيرونهم بالشرك وطفق على رضى الله تعالى عنه يوبخ العباس بقتال النبى صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم وأغلظ له فى القول فقال العباس تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقال ولكم محاسن قالوا نعم انا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العانى فنزلت (أُولَٰئِكَ) الذين يدعون عمارة المسجد ومايضاهيها من أعمال البر مع ماهم من الكفر (حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) التى يفتخرون بها بما قارنها من الكفر فصارت هباء منثورا (وَفِى النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ) لكفرهم ومعاصيهم وايراد الجملة الاسمية للمبالغة فى الدلالة على الخلود والظرف متعلق بالخبر قدم عليه للاهتمام به ومراعاة الفاصلة وكلتا الجملتين مستأنفة لتقرير النفى السابق . الأولى من جهة نفى استتباع الثواب والثانية من جهة نفى استدفاع العذاب (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ) الكلام فى ايراد صيغة الجمع كما مر فيما مر خلا أن ارادة جميع المساجد وادراج المسجد الحرام فى ذلك غير مخالفة لمقتضى الحال فان الايجاب ليس كالسلب وقد قرىء بالافراد أيضا والمراد ههنا أيضا قصر تحقق العمارة ووجودها على المؤمنين لاقصر جوازها ولياقتها أى إنما يصح ويستقيم أن يعمرها عمارة يعتد بها (مَنْ آمَنَ بِاللهِ) وحده (وَالْيَوْمِ الآخِرِ) بما فيه من البعث والحساب والجزاء حسبما نطق به الوحى (وَأَقَامَ الصَّلٰوةَ وَآتَى الزَّكٰوةَ) على ماعلم من الدين فيندرج فيه الإيمان بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم حتما وقيل هو مندرج تحت الإيمان بالله خاصة فان أحد جزأى كلمتى الشهادة علم للكل أى إنما يعمرها من جمع هذه الكمالات العلمية والعملية والمراد بالعمارة مايعم مرمة مااسترم منها وقمها وتنظيفها وتزيينها بالفرش وتنويرها بالسرج وادامة العبادة والذكر ودراسة العلوم فيها ونحو ذلك وصيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش وقال عليه الصلاة والسلام قال الله تعالى ان بيوتى فى أرضى المساجد وان زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور أن يكرم زائره وعنه عليه الصلاة والسلام من ألف المسجد ألفه الله تعالى وقال عليه الصلاة والسلام إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان وعن أنس رضى الله عنه من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له مادام فى ذلك المسجد ضوؤه (وَلَمْ يَخْشَ) فى أمور الدين (إِلَّا اللهَ) فعمل بموجب أمره ونهيه غير آخذ له فى الله لومة لائم ولاخشية ظالم فيندرج

فيه عدم الخشية عند القتال ونحو ذلك وأما الخوف الجبلى من الأمور المخوفة فليس من هذا الباب ولا مما يدخل تحت التكليف والخطاب وقيل كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد نفى تلك الخشية عنهم (فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ) المنعوتون بتلك النعوت الجميلة (أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) إلى مباغيهم من الجنة وما فيها من فنون المطالب العلية وابراز اهتدائهم مع مابهم من الصفات السنية فى معرض التوقع لقطع أطماع الكفرة عن الوصول إلى مواقف الاهتداء والانتفاع بأعمالهم التى يحسبون أنهم فى ذلك محسنون ولتوبيخهم بقطعهم بأنهم مهتدون فان المؤمنين مع ما بهم من هذه الكمالات إذا كان أمرهم دائرا بين لعل وعسى فما بال الكفرة وهم هم وأعمالهم أعمالهم وفيه لطف للمؤمنين وترغيب لهم فى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء ورفض الاعتذار بالله تعالى (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أى فى الفضيلة وعلو الدرجة (كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) السقاية والعمارة مصدران لا يتصور تشبيههما بالاعيان فلا بد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين أى أجعلتم أهلهما كمن آمن بالله الخ ويؤيده قراءة من قرأ سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام أو أجعلتموهما كايمان من آمن الخ وعلى التقديرين فالخطاب اما للمشركين على طريقة الالتفات وهو المتبادر من تخصيص ذكر الإيمان بجانب المشبه به واما لبعض المؤمنين المؤثرين للسقاية والعمارة ونحوهما على الهجرة والجهاد ونظائرهما وهو المناسب للاكتفاء فى الرد عليهم ببيان عدم مساواتهم عند الله للفريق الثانى وبيان أعظمية درجتهم عند الله تعالى على وجه يشعر بعدم حرمان الأولين بالكلية وجعل معنى التفضيل بالنسبة إلى زعم الكفرة لا يجدى كثير نفع لأنه ان لم يشعر بعدم الحرمان فليس بشعر بالحرمان أيضا أما على الأول فهو توبيخ للمشركين ومداره على انكار تشبيه أنفسهم من حيث اتصافهم بوصفيهم المذكورين مع قطع النظر عماهم عليه من الشرك بالمؤمنين من حيث اتصافهم بالإيمان والجهاد أو على إنكار تشبيه وصفيهم المذكورين فى حد ذاتهما مع الاغماض عن مقارنتهما للشرك بالإيمان والجهاد وأما اعتبار مقارنتهما له كما قيل فيأباه المقام كيف لا وقد بين آنفا حبوط أعمالهم بذلك الاعتبار بالمرة وكونها بمنزلة العدم فتوبيخهم بعد ذلك على تشبيههما بالإيمان والجهاد ثم رد ذلك بما يشعر بعدم حرمانهم عن أصل الفضيلة بالكلية كما أشير اليه مما لا يساعده النظم التنزيلى ولو اعتبر ذلك لما احتيج إلى تقرير إنكار التشبيه وتأكيده بشىء آخر إذ لا شىء أظهر بطلانا من تشبيه المعدوم بالموجود فالمعنى أجعلتم أهل السقاية والعمارة فى الفضيلة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيله أو أجعلتموهما فى ذلك كالإيمان والجهاد وشتان بينهما فان السقاية والعمارة وان كانتا فى أنفسهما من أعمال البر والخير لكنهما وان خلتا عن القوادح بمعزل عن صلاحية أن يشبه أهلهما بأهل الإيمان والجهاد أو يشبه نفسهما بنفس الإيمان والجهاد وذلك قوله عز وجل (لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ) أى لا يساوى الفريق الأول الثانى من حيث اتصاف كل منهما بوصفيهما ومن ضرورته عدم التساوى بين الوصفين الأولين وبين الآخرين لأنه المدار فى التفاوت بين الموصوفين واسناد عدم الاستواء إلى الموصوفين لأن الأهم بيان تفاوتهم وتوجيه النفى ههنا والانكار فيما سلف إلى الاستواء والتشبيه مع أن دعوى المفتخرين بالسقاية والعمارة من المشركين والمؤمنين إنما هى الافضلية دون التساوى والتشابه للمبالغة فى الرد عليهم فان نفى التساوى والتشابه نفى للافضلية بالطريق الأولى والجملة استئناف لتقرير الانكار المذكور وتأكيده أو حال من مفعولى الجعل والرابط هو الضمير كأنه قيل أسويتم بينهم حال كونهم متفاوتين عنده تعالى وقوله تعالى (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) حكم عليهم بأنهم مع ظلمهم بالاشراك ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ضالون فى هذا الجعل غير مهتدين إلى طريق معرفة الحق وتمييز الراجح من المرجوح وظالمون بوضع كل منهما موضع الآخر وفيه زيادة تقرير لعدم التساوى بينهم وقوله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي

سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ) استئناف لبيان مراتب فضلهم إثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم وزيادة الهجرة وتفصيل نوعى الجهاد للايذان بأن ذلك من لوازم الجهاد لا أنه اعتبر بطريق التدارك أم لم يعتبر فيما سلف أى هم باعتبار اتصافهم بهذه الأوصاف الجميلة (أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ) أى أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم يتصف بها كائنا من كان وإن حاز جميع ما عداها من الكمالات التى من جملتها السقاية والعمارة (وَأُولٰئِكَ) أى المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم فى الرفعة (هُمُ الفَائِزُونَ) المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم وأما على الثانى فهو توبيخ لمن يؤثر السقاية والعمارة من المؤمنين على الهجرة والجهاد روى أن عليا قال للعباس رضى الله عنهما بعد إسلامه يا عم ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألست فى أفضل من الهجرة أسقى حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام فلما نزلت قال ما أرانى إلا تارك سقايتنا فقال عليه السلام أقيموا على سقايتكم فان لكم فيها خيرا وروى النعمان بن بشير قال كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد أن أسقى الحاج وقال آخر ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن إذا صليتم استفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفتم فيه فدخل فأنزل الله عز وجل هذه الآية والمعنى أجعلتم أهل السقاية والعمارة من المؤمنين فى الفضيلة والرفعة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيله أو أجعلتموهما كالايمان والجهاد وانما لم يذكر الايمان فى جانب المشبه مع كونه معتبرا فيه قطعا تعويلا على ظهور الأمر وإشعارا بأن مدار انكار التشبيه هو السقاية والعمارة دون الايمان وإنما لم يترك ذكره فى جانب المشبه به أيضا تقوية للانكار وتذكيرا لأسباب الرجحان ومبادى الأفضلية وايذانا بكمال التلازم بين الايمان وما تلاه ومعنى عدم الاستواء عند الله تعالى على هذا التقدير ظاهر وكذا أعظمية درجة الفريق الثانى وأما قوله تعالى والله لا يهدى القوم الظالمين فالمراد به عدم هدايته تعالى لهم إلى معرفة الراجح من المرجوح وظلمهم بوضع كل منهما موضع الآخر لا عدم الهداية مطلقا ولا الظلم عموما والقصر فى قوله تعالى وأولئك هم الفائزون بالنسبة إلى درجة الفريق الثانى أو إلى الفوز المطلق ادعاء كما مر والله أعلم (يُبَشِّرُهُمْ) وقرىء بالتخفيف (رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ) عظيمة (مِنْهُ وَرِضْوٰنٍ) كبير (وَجَنّٰتٍ) عالية (لَهُمْ فِيهَا) فى تلك الجنات (نَعِيمٌ مُّقِيمٌ) نعم لا نفاد لها وفى التعرض لعنوان الربوبية تأكيد للمبشر به وتربية له (خٰلِدِينَ فِيهَا) أى فى الجنات (أَبَدًا) تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد به إذ قد يراد به المكث الطويل (إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) لا قدر عنده لأجور الدنيا أو للأعمال التى فى مقابلته والجملة استئناف وقع تعليلا لما سبق (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوٰنَكُمْ أَوْلِيَاءَ) نهى لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة فرد من المشركين بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجبة لانقسام الآحاد إلى الآحاد كما فى قوله عز وجل وما للظالمين من أنصار لا عن موالاة طائفة منهم فان ذلك مفهوم من النظم دلالة لا عبارة والآية نزلت فى المهاجرين فانهم لما أمروا بالهجرة قالوا ان هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا وذهبت تجاراتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا وبقينا ضائعين فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت اليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ثم رخص لهم فى ذلك وقيل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة نهيا عن موالاتهم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا يطعم أحدكم طعم الايمان حتى يحب فى الله ويبغض فى الله حتى يحب فى الله أبعد الناس منه ويبغض فى الله أقرب الناس اليه (إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ) أى اختاروه (عَلَى الْإِيمٰنِ) وأصروا عليه إصرارا

لا يرجى معه الاقلاع عنه أصلا وتعليق النهي عن الموالاة بذلك لما أنها قبل ذلك ربما تؤدي بهم إلى الاسلام بسبب شعورهم بمحاسن الدين (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ) أى واحدا منهم كما أشير اليه وإفراد الضمير فى الفعل لمراعاة لفظ الموصول وللايذان باستقلال كل واحد منهم فى الاتصاف بالظلم لأن المراد تولى فرد واحد وكلمة من فى قوله تعالى (مِنكُمْ) للجنس لا للتبعيض (فَأُولَٰئِكَ) أى أولئك المتولون (هُمُ الظَّالِمُونَ) بوضعهم الموالاة فى غير موضعها كأن ظلم غيرهم كلا ظلم عند ظلمهم (قُلْ) تلوين للخطاب وأمر له عليه الصلاة والسلام بأن يثبت المؤمنين ويقوى عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه من موالاة الآباء والإخوان ويزهدهم فيهم وفيمن يجرى مجراهم من الأبناء والأزواج ويقطع علائقهم عن زخارف الدنيا وزينتها على وجه التوبيخ والترهيب (إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ) لم يذكر الابناء والأزواج فيما سلف لأن موالاة الأبناء والأزواج غير معتادة بخلاف المحبة (وَعَشِيرَتُكُمْ) أى أقرباؤكم مأخوذ من العشرة أى الصحبة وقيل من العشرة فانهم جماعة ترجع إلى عقد كعقد العشرة وقرىء عشيراتكم وعشائركم (وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا) أى اكتسبتموها وإنما وصفت بذلك ايماء إلى عزتها عندهم لحصولها بكد اليمين (وَتِجَارَةٌ) أى أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح (تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا) بفوات وقت رواجها بغيبتكم عن مكة المعظمة فى أيام الموسم (وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا) أى منازل تعجبكم الإقامة فيها من الدور والبساتين والتعرض للصفات المذكورة للايذان بأن اللوم على محبة ما ذكر من زينة الحياة الدنيا ليس لتناسى ما فيها من مبادى المحبة وموجبات الرغبة فيها وأنها مع ما لها من فنون المحاسن بمعزل عن أن يؤثر حبها على حبه تعالى وحب رسوله عليه الصلاة والسلام كما فى قوله عز وجل ما غرك بربك الكريم (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) بالحب الاختيارى المستتبع لأثره الذى هو الملازمة وعدم المفارقة لا الحب الجبلى الذى لا يخلو عنه البشر فانه غير داخل تحت التكليف الدائر على الطاقة (وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ) نظم حبه فى سلك حب الله عز وجل وحب رسوله صلى الله عليه وسلم تنويها لشأنه وتنبيها على أنه مما يجب أن يحب فضلا عن أن يكره وإيذانا بأن محبته راجعة إلى محبتهما فان الجهاد عبارة عن قتال أعدائهما لأجل عداوتهم فمن يحبهما يجب أن يحب قتال من لا يحبهما (فَتَرَبَّصُوا) أى انتظروا (حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه فتح مكة وقيل هى عقوبة عاجلة أو آجلة (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) الخارجين عن الطاعة فى موالاة المشركين أو القوم الفاسقين كافة فيدخل فى زمرتهم هؤلاء دخولا أوليا أى لا يرشدهم إلى ما هو خير لهم وفى الآية الكريمة من الوعيد ما لا يكاد يتخلص منه إلا من تداركه لطف من ربه والله المستعان (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ) الخطاب للمؤمنين خاصة (فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ) من الحروب وهى مواقعها ومقاماتها والمراد بها وقعات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ) عطف على محل فى مواطن بحذف المضاف فى أحدهما أى وموطن يوم حنين أو فى أيام مواطن كثيرة ويوم حنين ولعل التغيير للايماء إلى ما وقع فيه من قلة الثبات من أول الأمر وقيل المراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين وقيل يوم حنين منصوب بمضمر معطوف على نصركم أى ونصركم يوم حنين (إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ) بدل من يوم حنين ولا منع فيه من عطفه على محل الظرف بناء على أنه لم يكن فى المعطوف عليه كثرة ولا إعجاب إذ ليس من قضية العطف مشاركة المعطوفين فيما أضيف اليه المعطوف أو منصوب باضمار اذكر وحنين واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفا عشرة آلاف منه من شهد فتح مكة من المهاجرين والأنصار وألفان من الطلقاء وبين هوازن وثقيف وكانوا أربعة آلاف فيمن ضامهم من امداد سائر العرب وكانوا الجم الغفير فلما التقوا قال رجل من المسلمين اسمه سلمة بن سلامة الأنصارى

لن نغلب اليوم من قلة فساءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المشركون وخلوا الذرارى فأكب المسلمون على الغنائم فتنادى المشركون ياحماة السوء اذكروا الفضائح فتراجعوا فأدركت المسلمين كلمة الاعجاب فانكشفوا وذلك قوله عز وجل (فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا) والاغناء اعطاء مايدفع به الحاجة أى لم تعط كم تلك الكثرة ماتدفعون به حاجتكم شيئا من الاغناء (وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) أى برحبها وسعتها على أن مامصدرية والباء بمعنى مع أى لاتجدون فيها مفرا تطمئن اليه نفوسكم من شدة الرعب ولاتثبتون فيها كمن لايسعه مكان (ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ) روى أنه بلغ فلهم مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ليس معه إلا عمه العباس آخذا بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن الحرث آخذا بركابه وهو يركض البغلة نحو المشركين وهو يقول أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب . روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يحمل على الكفار فيفرون ثم يحملون عليه فيقف لهم فعل ذلك بضع عشرة مرة قال العباس كنت أكف البغلة لئلا تسرع به نحو المشركين وناهيك بهذه الواحدة شهادة صدق على أنه عليه الصلاة والسلام كان فى الشجاعة ورباطة الجأش سباقا للغايات القاصية وما كان ذلك إلا لكونه مؤيدا من عند الله العزيز الحكيم فعند ذلك قال يارب ائتنى بما وعدتنى وقال العباس وكان صيتا صح بالناس فنادى الأنصار فخذا فخذا ثم نادى ياأصحاب الشجرة ياأصحاب سورة البقرة فكروا وعنقوا واحدا وهم يقولون لبيك لبيك وذلك قوله تعالى (ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ) أى رحمته التى تسكن بها القلوب وتطمئن اليها اطمئنانا كليا مستتبعا للنصر القريب وأما مطلق السكينة فقد كانت حاصلة له عليه الصلاة والسلام قبل ذلك أيضا (وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) عطف على رسوله وتوسيط الجار بينهما للدلالة على ما بينهما من التفاوت أى المؤمنين الذين انهزموا وقيل على الذين ثبتوا مع النبى صلى الله عليه وسلم أو على الكل وهو الأنسب ولاضير فى تحقق أصل السكينة فى الثابتين من قبل والتعرض لوصف الايمان للاشعار بعلية الانزال (وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) أى بأبصاركم كما يرى بعضكم بعضا وهم الملائكة عليهم السلام عليهم البياض على خيول بلق فنظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى قتال المسلمين فقال هكذا حين حمى الوطيس فأخذ كفا من التراب فرمى به نحو المشركين وقال شاهت الوجوه فلم يبق منهم أحد إلا امتلأت به عيناه ثم قال عليه الصلاة والسلام انهزموا ورب الكعبة واختلفوا فى عدد الملائكة يومئذ فقيل خمسة آلاف وقيل ثمانية آلاف وقيل ستة عشر ألفا وفى قتالهم أيضا فقيل قاتلوا وقيل لم يقاتلوا إلا يوم بدر وإنما كان نزولهم لتقوية قلوب المؤمنين بالقاء الخواطر الحسنة وتأييدهم بذلك وإلقاء الرعب فى قلوب المشركين . قال سعيد بن المسيب حدثنى رجل كان فى المشركين يوم حنين قال لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم فلما انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء تلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا (وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا) بالقتل والأسر والسبى (وَذَٰلِكَ) أى مافعل بهم بما ذكر (جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) لكفرهم فى الدنيا (ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ) أن يتوب عليه منهم لحكمة تقتضيه أى يوفقه للاسلام (وَاللَّهُ غَفُورٌ) يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصى (رَّحِيمٌ) يتفضل عليهم ويثيبهم روى أن ناسا منهم جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الاسلام وقالوا يارسول الله أنت خير الناس وأبر الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا . قيل سبى يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الابل والغنم مالا يحصى فقال عليه الصلاة والسلام إن عندى ماترون إن خير القول أصدقه اختاروا إما ذراريكم ونساءكم وإما أموالكم قالوا ما كنا نعدل بالاحسان شيئا فقام النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن هؤلاء جاءونا مسلمين وانا خيرناهم بين الذرارى والأموال فلم يعدلوا بالإحسان شيئا فمن كان بيده سبى وطابت نفسه أن يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب

شيئاً فنعطيه مكانه قالوا قد رضينا وسلمنا فقال عليه الصلاة والسلام إنا لاندرى لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) وصفوا بالمصدر مبالغة كأنهم عين النجاسة أوهم ذوو نجس لخبث باطنهم أو لأن معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس أو لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم . عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وعن الحسن من صافح مشركا توضأ وأهل المذاهب على اختلاف هذين القولين وقرىء نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف نجس ككبد فى كبد كأنه قيل إنما المشركون جنس نجس أو ضرب نجس وأكثر ماجاء تابعا لرجس (فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ) تفريع على نجاستهم وإنما نهى عن القرب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم وهو مذهب عطاء وقيل المراد به النهى عن الدخول مطلقا وقيل المراد المنع عن الحج والعمرة وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله تعالى ويؤيده قوله عز وجل (بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا) فان تقييد النهى بذلك يدل على اختصاص المنهى عنه بوقت من أوقات العام أى لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسعة من الهجرة حين أمر أبو بكر رضى الله عنه على الموسم ويدل عليه قول على رضى الله عنه حين نادى ببراءة ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عنده وعند الشافعى يمنعون من المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون من جميع المساجد ونهى المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم من ذلك وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً) أى فقرا بسبب منعهم من الحج وانقطاع ما كانوا يجلبونه اليكم من الارفاق والمكاسب وقرىء عائلة على أنها مصدر كالعافية أو حال عائلة (فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) من عطائه أو من تفضله بوجه آخر فأرسل الله تعالى السماء عليهم مدرارا أغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا إلى مكة الطعام ومايعاش به فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه اليهم الناس من أقطار الأرض (إِنْ شَاءَ) أن يغنيكم مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها وإنما قيد ذلك بها لتنقطع الآمال إلى الله تعالى ولأن الاغناء ليس مطردا بحسب الأفراد والأحوال والأوقات (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ) بمصالحكم (حَكِيمٌ) فيما يعطى ويمنع (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ) أمرهم بقتال أهل الكتابين اثر أمرهم بقتال المشركين وبمنعهم من أن يحوموا حول ما كانوا يفعلونه من الحج والعمرة غير خائفين من الفاقة المتوهمة من انقطاعهم ونبههم فى تضاعيف ذلك على بعض طرق الاغناء الموعود على الوجه الكلى وأرشدهم إلى سلوكه ابتغاء لفضله واستنجازا لوعده والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية ما فى حيز الصلة للامر بالقتال وبانتظامهم بسبب ذلك فى سلك المشركين فان اليهود مثنية والنصارى مثلثة فهم بمعزل من أن يؤمنوا بالله سبحانه ولا باليوم الآخر فان علمهم بأحوال الآخرة كلا علم فايمانهم المبنى عليه ليس بايمان به (وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) أى ماثبت تحريمه بالوحى متلوا أو غير متلو وقيل المراد برسوله الرسول الذى يزعمون اتباعه أى يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقادا وعملا (وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ) الثابت الذى هو ناسخ لسائر الأديان وهو دين الاسلام وقيل دين الله (مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) من التوراة والانجيل فمن بيانية لا تبعيضية حتى يكون بعضهم على خلاف ما نعت (حَتَّىٰ يُعْطُوا) أى يقبلوا أن يعطوا (الْجِزْيَةَ) أى ما تقرر عليهم أن يعطوه مشتق من جزى دينه أى قضاه أو لأنهم يجزون بها من من عليهم بالاعفاء عن القتل (عَنْ يَدٍ) حال من الضمير فى يعطوا أى عن يد مؤاتية مطيعة بمعنى منقادين أو من يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدى غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه أو عن غنى ولذلك لم تجب الجزية على الفقير العاجز أو عن

يد قاهرة عليهم أى بسبب يد بمعنى عاجزين أذلاء أو عن انعام عليهم فان ابقاء مهجتهم بما بذلوا من الجزية نعمة عظيمة عليهم أو من الجزية أى نقدا مسلمة عن يد إلى يد وغاية القتال ليست نفس هذا الاعطاء بل قبوله كما أشير اليه (وَهُمْ صَاغِرُونَ) أى أذلاء وذلك بأن يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ويؤخذ بتلبيبه ويقال له أد الجزية وان كان يؤديها وهى تؤخذ عند أبى حنيفة رضى الله عنه من أهل الكتاب مطلقا ومن مشركى العجم لا من مشركى العرب وعند أبى يوسف رضى الله عنه لا تؤخذ من العربى كتابيا كان أو مشركا وتؤخذ من الأعجمى كتابيا كان أو مشركا وعند الشافعى رضى الله عنه تؤخذ من أهل الكتاب عربيا أو أعجميا ولا تؤخذ من أهل الأوثان مطلقا وذهب مالك والأوزاعى إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار وأما المجوس فقد اتفقت الصحابة رضى الله عنهم على أخذ الجزية منهم لقوله عليه الصلاة والسلام سنوا بهم سنة أهل الكتاب وروى عن على رضى الله عنه أنه كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد أسرى على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبيحتهم ومناكحتهم لقوله عليه الصلاة والسلام فى آخر ما نقل من الحديث غير ناكحى نسائهم وآكلى ذبيحتهم ووقت الأخذ عند أبى حنيفة رضى الله عنه أول السنة وتسقط بالموت والاسلام ومقدارها على الفقير المعتمل اثنا عشر درهما وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهما وعلى الغنى ثمانية وأربعون درهما ولا جزية على فقير عاجز عن الكسب ولا على شيخ فان أو زمن أو صبى أو امرأة وعند الشافعى رضى الله عنه تؤخذ فى آخر السنة من كل واحد دينار غنيا كان أو فقيرا كان له كسب أو لم يكن (وَقَالَتِ الْيَهُودُ) جملة مبتدأة سيقت لتقرير مامر من عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه وانتظامهم بذلك فى سلك المشركين (عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ) مبتدأ وخبر وقرىء بغير تنوين على أنه اسم أعجمى كعازر وعزار غير منصرف للعجمة والتعريف وأما تعليله بالتقاء الساكنين أو بجعل الابن وصفا على أن الخبر محذوف فتعسف مستغنى عنه قيل هو قول قدمائهم ثم انقطع فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولا عبرة بانكار اليهود وقيل قول بعض ممن كان بالمدينة . عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس منهم وهم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا ذلك وقيل قاله فنحاص بن عازوراء وهو الذى قال ان الله فقير ونحن أغنياء وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله تعالى عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم فخرج عزير وهو غلام يسيح فى الأرض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له أين تذهب قال أطلب العلم فحفظه التوراة فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفا فقالوا ما جمع الله التوراة فى صدره وهو غلام إلا أنه ابنه قال الامام الكلبى لما قتل بخت نصر علماءهم جميعا وكان عزير إذ ذاك صغيرا فاستصغره ولم يقتله فلما رجع بنو اسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون آية بعد ما أماته مائة عام يقال أنه أتاه ملك باناء فيه ماء فسقاه فمثلت فى صدره فلما أتاهم فقال لهم إنى عزير كذبوه فقالوا إن كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة ففعل فقالوا إن الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب رجل إلا لأنه ابنه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فأنساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم ورفع التابوت فتضرع عزير إلى الله تعالى وابتهل اليه فعاد حفظ التوراة إلى قلبه فأنذر قومه به ثم ان التابوت نزل فعرضوا ما تلاه عزير على ما فيه فوجدوه مثله فقالوا ما قالوا (وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ) هو أيضا قول بعضهم وإنما قالوه استحالة لأن يكون ولد بغير أب أو لأن يفعل ما فعله من ابراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى من لم يكن الها (ذَلِكَ) إشارة إلى ما صدر عنهم من العظيمتين وما فيه من معنى البعد للدلالة على بعد درجة المشار اليه فى الشناعة والفظاعة (قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) إما تأكيد لنسبة القول المذكور اليهم ونفى التجوز عنها أو اشعار بأنه قول مجرد

عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الموجود فى الأفواه من غير أن يكون له مصداق فى الخارج (يُضٰهِئُونَ) أى فى الكفر والشناعة وقرىء بغير همز (قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى يشابه قولهم على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه عند انقلابه مرفوعا قول الذين كفروا (مِنْ قَبْلُ) أى من قبلهم وهم المشركون الذين يقولون الملائكة بنات الله أو اللات والعزى بنات الله لا قدماؤهم كما قيل إذ لا تعدد فى القول حتى يتأتى التشبيه وجعله بين قولى الفريقين مع اتحاد المقول ليس فيه مزيد مزية وقيل الضمير للنصارى أى يضاهى قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير الخ لأنهم أقدم منهم وهو أيضا كما ترى فانه يستدعى اختصاص الرد والابطال بقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم بقول النصارى (قَاتَلَهُمُ اللّٰهُ) دعاء عليهم جميعا بالاهلاك فان من قاتله الله هلك أو تعجب من شناعة قولهم (أَنّٰى يُؤْفَكُونَ) كيف يصرفون من الحق إلى الباطل والحال أنه لا سبيل اليه أصلا (اتَّخَذُوا) زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى (أَحْبَارَهُمْ) وهم علماء اليهود واختلف فى واحده قال الأصمعى لا أدرى أهو حبر أم حبر وقال أبو الهيثم بالفتح لا غير وكان الليث وابن السكيت يقولان حبر وحبر للعالم ذميا كان أو مسلما بعد أن كان من أهل الكتاب (وَرُهْبَانَهُمْ) وهم علماء النصارى من أصحاب الصوامع أى اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم لا الكل الكل (أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللّٰهِ) بأن أطاعوهم فى تحريم ما أحله الله تعالى وتحليل ما حرمه أو بالسجود لهم ونحوه تسمية اتباع الشيطان عبادة له فى قوله تعالى يا أبت لا تعبد الشيطان وقوله تعالى بل كانوا يعبدون الجن. قال عدى بن حاتم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب وكان إذ ذاك على دين يسمى الركوسية فريق من النصارى وهو يقرأ سورة براءة فقال يا عدى اطرح هذا الوثن فطرحته فلما انتهى إلى قوله تعالى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قلت يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه الصلاة والسلام أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه فقلت بلى قال ذلك عبادتهم قال الربيع قلت لأبى العالية كيف كانت تلك الربوبية فى بنى اسرائيل قال إنهم ربما وجدوا فى كتاب الله تعالى ما يخالف أقوال الأحبار فكانوا يأخذون بأقوالهم ويتركون حكم كتاب الله (وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ) عطف على رهبانهم أى اتخذه النصارى ربا معبودا بعد ما قالوا إنه ابنه تعالى عن ذلك علوا كبيرا وتخصيص الاتخاذ به يشير إلى أن اليهود ما فعلوا ذلك بعزير وتأخيره فى الذكر مع اتخاذهم له عليه الصلاة والسلام ربا معبودا أقوى من مجرد الاطاعة فى أمر التحليل والتحريم كما هو المراد باتخاذهم الاحبار والرهبان أربابا لانه مختص بالنصارى ونسبته عليه الصلاة والسلام إلى أمه من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية للايذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة (وَمَا أُمِرُوا) أى والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا فى كتابيهم (إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهًا وَاحِدًا) عظيم الشأن هو الله سبحانه وتعالى ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه فان ذلك مخل بعبادته تعالى فان جميع الكتب السماوية متفقة على ذلك قاطبة وقد قال المسيح عليه السلام إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وأما طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر من أمر الله تعالى بطاعته فهى فى الحقيقة اطاعة لله عز وجل أو وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أربابا من المسيح والاحبار والرهبان إلا ليوحدوا الله تعالى فكيف يصح أن يكونوا أربابا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم ولا يقدح فى ذلك كون ربوبية الاحبار والرهبان بطريق الاطاعة فان تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق إلا بتخصيص الطاعة أيضا به تعالى وحيث لم يخصوها به تعالى لم يخصوا العبادة به سبحانه (لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ) صفة ثانية لالها أو استئناف مقرر للتوحيد (سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) عن الاشراك به فى العبادة والطاعة (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللّٰهِ) اطفاء النار عبارة عن إزالة لهبها الموجبة لزوال نورها لا عن إزالة نورها كما قيل لكن لما كان الغرض من اطفاء نار لا يراد

بها إلا النور كالمصباح إزالة نورها جعل اطفاؤها عبارة عنها ثم شاع ذلك حتى كان عبارة عن مطلق إزالة النور وإن كان لغير النار والسر فى ذلك انحصار امكان الإزالة فى نورها والمراد بنور الله سبحانه اماحجته النيرة الدالة على وحدانيته وتنزهه عن الشركاء والأولاد أو القرآن العظيم الناطق بذلك أى يريد أهل الكتابين أن يردوا القرآن ويكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والأولاد والشرائع التى من جملتها ماخالفوه من أمر الحل والحرمة (بأفوٰهِهِم) بأقاويلهم الباطلة الخارجة منها من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه أو أصل تستند اليه حسبما حكى عنهم وقيل المراد به نبوة النبى صلى الله عليه وسلم هذا وقد قيل مثلت حالهم فيما ذكر بحال من يريد طمس نور عظيم منبث فى الآفاق بنفخه (وَيأبَى اللهُ) أى لا يريد (إلا أنْ يُتِمَّ نورَهُ) باعلاء كلمة التوحيد واعزاز دين الإسلام وإنما صح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه بمعنى النفى كما أشير اليه لوقوعه فى مقابلة قوله تعالى يريدون وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ماليس فى نفى الارادة أى لا يريد شيئا من الأشياء إلا إتمام نوره فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ماكان عليه فضلا عن الاطفاء وفى اظهار النور فى مقام الاضمار مضافا إلى ضميره عز وجل زيادة اعتناء بشأنه وتشريف له على تشريف واشعار بعلة الحكم (وَلَوْ كَرِهَ الكٰفِرُونَ) جواب لو محذوف لدلالة ماقبله عليه والجلة معطوفة على جملة قبلها مقدرة وكلتاهما فى موقع الحال أن لا يريد الله إلا إتمام نوره لو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوه أى على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطرداً لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة لأن الشىء إذا تحقق عند المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذا السر يدور ما فى أن ولو الوصليتين من التأكيد وقد مر زيادة تحقيق لهذا مرارا (هُوَ الذِى أرْسَلَ رَسُولَهُ) ملتبسا (بِالهُدَىٰ) أى القرآن الذى هو هدى للمتقين (وَدِينِ الحَقِّ) الثابت وهو دين الإسلام (لِيُظهِرَهُ) أى رسوله (عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) أى على أهل الأديان كلهم أو ليظهر الدين الحق على سائر الأديان بنسخه إياها حسبما تقتضيه الحكمة والجلة بيان وتقرير لمضمون الجلة السابقة والكلام فى قوله عز وجل (وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ) كما فيما سبق خلا أن وصفهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الكفر بالله (يٰأيُّها الذِينَ ءَامَنُوا) شروع فى بيان حال الأحبار والرهبان فى اغوائهم لأراذلهم اثر بيان سوء حال الاتباع فى اتخاذهم لهم أربابا يطيعونهم فى الأوامر والنواهى واتباعهم لهم فيما يأتون ومايذرون (إنَّ كَثِيراً مِنَ الأحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأكُلُونَ أمْوٰلَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ) يأخذونها بطريق الرشوة لتغيير الأحكام والشرائع والتخفيف والمسامحة فيها وإنما عبر عن ذلك بالأكل بناء على أنه معظم الغرض منه وتقبيحا لحالهم وتنفيراً للسامعين عنهم (وَيَصُدُّونَ) الناس (عَنْ سَبِيلِ اللهِ) عن دين الإسلام أو عن المسلك المقرر فى التوراة والإنجيل إلى ما افتروه وحرفوه بأخذ الرشا أو يصدون عنه بأنفسهم بأكلهم الأموال بالباطل (وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ) أى يجمعونهما ويحفظونهما سواء كان ذلك بالدفن أو بوجه آخر والموصول عبارة اما عن الكثير من الأحبار والرهبان فيكون مبالغة فى الوصف بالحرص والضن بهما بعد وصفهم بما سبق من أخذ الرشا والبراطيل فى الأباطيل واما عن المسلمين الكانزين غير المنفقين وهو الأنسب بقوله عز وجل (وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ) فيكون نظمهم فى قرن المرتشين من أهل الكتاب تغليظا ودلالة على كونهم أسوة لهم فى استحقاق البشارة بالعذاب الأليم فالمراد بالانفاق فى سبيل الله الزكاة لما روى أنه نزل كبر ذلك على المسلمين فذكر عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تعالى لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم ولقوله عليه الصلاة والسلام ما أدى زكاته فليس بكنز أى بكنز أوعد عليه فان الوعيد عليه مع عدم الانفاق فيما أمر الله بالانفاق فيه وأما قوله عليه الصلاة والسلام من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها

ونحوه فالمراد بها مالم يؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام مامن صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) خبر للموصول والفاء لتضمنه معنى الشرط ويجوز أن يكون الموصول منصوبا بفعل يفسره فبشرهم (يَوْمَ) منصوب بعذاب أليم أو بمضمر يدل عليه ذلك أى يعذبون أو باذكر (يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ) أى يوم توقد النار ذات حمى شديد عليها وأصله تحمى النار فجعل الاحماء للنار مبالغة ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيها على المقصود فانتقل من صيغة التأنيث إلى التذكير كما تقول رفعت القصة إلى الأمير فان طرحت القصة قلت رفع إلى الأمير وإنما قيل عليها والمذكور شيآن لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة كما قال على رضى الله عنه أربعة آلاف ومادونها نفقة ومافوقها كنز وكذا الكلام فى قوله تعالى ولا ينفقونها وقيل الضمير للاموال والكنوز فان الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لأنهما قانون التمول أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب كذلك بل أولى (فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ) لأن جمعهم لها وامساكهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية أو لأنهم ازوروا عن السائل وأعرضوا عنه وولوه ظهورهم أو لأنها أشرف الاعضاء الظاهرة فانها المشتملة على الأعضاء الرئيسية التى هى الدماغ والقلب والكبد أو لأنها أصول الجهات الأربعة التى هى مقاديم البدن ومآخره وجنباه (هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ) على إرادة القول (لِأَنْفُسِكُمْ) لمنفعتها فكان عين مضرتها وسبب تعذيبها (فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) أى وبال كنزكم أو ماتكنزونه وقرىء بضم النون (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ) أى عددها (عِنْدَ اللَّهِ) أى فى حكمه وهو معمول لها لأنها مصدر (اثْنَا عَشَرَ) خبر لأن (شَهْرًا) تميز مؤكد كما فى قولك عندى من الدنانير عشرون دينارا والمراد الشهور القمرية إذ عليها يدور فلك الأحكام الشرعية (فِي كِتَابِ اللَّهِ) فى اللوح المحفوظ أو فيما أثبته وأوجبه وهو صفة اثنا عشر أى اثنا عشر شهرا مثبتا فى كتاب الله وقوله عز وجل (يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) متعلق بما فى الجار والمجرور من معنى الاستقرار أو بالكتاب على أنه مصدر والمعنى أن هذا أمر ثابت فى نفس الامر منذ خلق الله تعالى الاجرام والحركات والازمنة (مِنْهَا) أى من تلك الشهور الاثنى عشر (أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جماد وشعبان والمعنى رجعت الاشهر إلى ما كانت عليه من الحل والحرمة وعاد الحج إلى ذى الحجة بعد ما كانوا أزالوه عن محله بالنسىء الذى أحدثوه فى الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة (ذَٰلِكَ) أى تحريم الاشهر الاربعة المعينة المعدودة وما فى ذلك من معنى البعد لتفخيم المشار اليه هو (الدِّينُ الْقَيِّمُ) المستقيم دين ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما وكانوا يعظمون الاشهر الحرم ويكرهون القتال فيها حتى أنه لو لقى رجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه وسموا رجبا الاصم ومنصل الاسنة حتى أحدثوا النسىء فغيروا (فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ) بهتك حرمتهن وارتكاب ماحرم فيهن والجمهور على أن حرمة القتال فيهن منسوخة وأن الظلم ارتكاب المعاصى فيهن فانه أعظم وزرا كارتكابها فى الحرم وعن عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم الا أن يقاتلوا وما نسخت ويؤيد الأول أنه عليه الصلاة والسلام حصر طائفا وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) أى جميعا وهو مصدر كف عن الشيء فان الجميع مكفوف عن الزيادة وقع موقع الحال (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

أى معكم بالنصر والامداد فيما تباشرونه من القتال وإنما وضع المظهر موضعه مدحا لهم بالتقوى وحثا للقاصرين عليه وإيذانا بأنه المدار فى النصر وقيل هى بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم (إنما النسىء) هو مصدر نسأه إذا أخره نسأ ونساء ونسيئا نحو مس مسا ومساسا ومسيسا وقرىء بهن جميعا وقرىء بقلب الهمزة ياء وتشديد الياء الأولى فيها كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر حتى رفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرد العدد وربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حرما ولذلك نص على العدد المعين فى الكتاب والسنة أى إنما تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر (زيادة فى الكفر) لأنه تحليل ما حرمه الله وتحريم ما حلله فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم (يضل به الذين كفروا) ضلالا على ضلالهم القديم وقرىء على البناء للفاعل من الأفعال على أن الفعل لله سبحانه أى يخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه وأسبابه وهو المعنى على القراءة الأولى أيضا وقيل المضلون حينئذ رؤساؤهم والموصول عبارة عن أتباعهم وقرىء يضل بفتح الياء والضاد من ضلل يضلل ونضل بنون العظمة (يحلونه) أى الشهر المؤخر (عاما) من الأعوام ويحرمون مكانه شهرا آخر مما ليس بحرام (ويحرمونه) أى يحافظون على حرمته كما كانت والتعبير عن ذلك بالتحريم باعتبار احلالهم له فى العام الماضى أو لاسنادهم له إلى آلهتهم كما سيجىء (عاما) آخر إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم قال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان اذاهم الناس بالصدر من الموسم يقوم فيخطب ويقول لامرد لما قضيت وأنا الذى لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيقول إن صفر العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة وإن قال حلال عقدوا الأوتار وشدوا الأزجة وأغاروا وقيل هو جنادة بن عوف الكنانى وكان مطاعا فى الجاهلية كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى بأعلى صوته إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ثم يقوم فى العام القابل فيقول إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه وقيل هو رجل من كنانة يقال له القلمس قال قائلهم : ومنا ناسىء الشهر القلمس وعن ابن عباس رضى الله عنهما أول من سن النسىء عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف والجملتان تفسير للضلال أو حال من الموصول والعامل عامله (ليواطئوا) أى ليوافقوا (عدة ما حرم الله) من الأشهر الأربعة واللام متعلقة بالفعل الثانى أو بما يدل عليه مجموع الفعلين (فيحلوا ما حرم الله) بخصوصه من الأشهر المعينة (زين لهم سوء أعمالهم) وقرىء على البناء للفاعل وهو الله سبحانه والمعنى جعل أعمالهم مشتهاة للطبع محبوبة للنفس وقيل خذلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا فاستمروا على ذلك (والله لا يهدى القوم الكافرين) هداية موصلة إلى المطلوب البتة وإنما يهديهم إلى ما يوصل اليه عند سلوكه وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم فتاهوا فى تيه الضلال (يا أيها الذين آمنوا) رجوع إلى حث المؤمنين وتجريد عزائمهم على قتال الكفرة إثر بيان طرف من قبائحهم الموجبة لذلك (ما لكم) استفهام فيه معنى الانكار والتوبيخ (إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم) تباطأتم وتقاعستم أصله تثاقلتم وقد قرىء كذلك أى أى شىء حصل أو حاصل لكم أو ما تصنعون حين قال لكم النبى صلى الله عليه وسلم انفروا أى اخرجوا إلى الغزو فى سبيل الله متثاقلين على أن الفعل ماض لفظا مضارع معنى كأنه قيل تتثاقلون فالعامل فى الظرف الاستقرار المقدر فى لكم أو معنى الفعل المدلول عليه بذلك ويجوز أن يعمل فيه الحال أى ما لكم متثاقلين حين قيل لكم انفروا وقرىء أثاقلتم على الاستفهام الانكارى التوبيخى فالعامل فى الظرف حينئذ إنما هو الأول (إلى الأرض) متعلق باثاقلتم على تضمينه معنى الميل والاخلاد أى اثاقلتم مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل وكرهتم مشاق الغزو ومتاعبه المستتبعة للراحة الخالدة كقوله تعالى

أخلد إلى الأرض واتبع هواه أو إلى الإقامة بأرضكم ودياركم وكان ذلك فى غزوة تبوك فى سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف استنفروا فى وقت عسرة وقحط وقيظ وقد أدركت ثمار المدينة وطابت ظلالها مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك وقيل ماخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها إلا ورى بغيرها إلا فى غزوة تبوك فانه عليه الصلاة والسلام بين لهم المقصد فيها ليستعدوا لها (أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا) وغرورها (مِنَ الْآخِرَةِ) أى بدل الآخرة ونعيمها الدائم (فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا) أظهر فى مقام الإضمار لزيادة التقرير أى فما التمتع بها وبلذائذها (فِى الْآخِرَةِ) أى فى جنب الآخرة (إِلَّا قَلِيلٌ) أى مستحقر لا يؤبه له وفى ترشيح الحياة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ويستدعى الرغبة فيها وتجريد الآخرة عن مثل ذلك مبالغة فى بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة وعلوها (إِلَّا تَنفِرُوا) أى ان لا تنفروا إلى ما استنفرتم اليه (يُعَذِّبْكُمْ) أى الله عز وجل (عَذَابًا أَلِيمًا) أى يهلككم بسبب فظيع هائل كقحط ونحوه (وَيَسْتَبْدِلْ) بكم بعد اهلاككم (قَوْمًا غَيْرَكُمْ) وصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد فى التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية المستلزمة للاستئصال أى قوما مطيعين مؤثرين الآخرة على الدنيا ليسوا من أولادكم ولا أرحامكم كأهل اليمن وأبناء فارس وفيه من الدلالة على شدة السخط مالا يخفى (وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا) أى لا يقدح تثاقلكم فى نصرة دينه أصلا فانه الغنى عن كل شىء فى كل شىء وقيل الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم فان الله عز وجل وعده بالعصمة والنصرة وكان وعده مفعولا لامحالة (وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) فيقدر على اهلاككم والإتيان بقوم آخرين (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) أى إن لم تنصروه فسينصره الله الذى قد نصره فى وقت ضرورة أشد من هذه المرة فحذف الجزاء وأقيم سببه مقامه أو إن لم تنصروه فقد أوجب له النصرة حتى نصره فى مثل ذلك الوقت فلن يخذله فى غيره (إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى تسببوا لخروجه حيث اذن له عليه الصلاة والسلام فى ذلك حين هموا بإخراجه (ثَانِىَ اثْنَيْنِ) حال من ضميره عليه الصلاة والسلام وقرىء بسكون الياء على لغة من يجرى الناقص مجرى المقصور فى الإعراب أى أحد اثنين من غير اعتبار كونه عليه الصلاة والسلام ثانيا فان معنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الأعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع الجمهور أن ينصب ما بعده بأن يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة وقد مر فى قوله تعالى لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة من سورة المائدة وجعله عليه الصلاة والسلام ثانيهما لمشى الصديق أمامه ودخوله فى الغار أولا لكنسه وتسوية البساط كما ذكر فى الأخبار تمحل مستغنى عنه (إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ) بدل من إذ أخرجه بدل البعض إذ المراد به زمان متسع والغار ثقب فى أعلى ثور وهو جبل فى يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثا (إِذْ يَقُولُ) بدل ثان أو ظرف لثانى (لِصَٰحِبِهِ) أى الصديق (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) بالعون والعصمة والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لا تحوم حول صاحبها شائبة شىء من الحزن وما هو المشهور من اختصاص مع بالمتبوع فالمراد بما فيه من المتبوعية هو المتبوعية فى الأمر المباشر. روى أن المشركين طلعوا فوق الغار فاشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان نصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه الصلاة والسلام ماظنك باثنين الله ثالثهما وقيل لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا فى أسفله والعنكبوت فنسجت عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أعم أبصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله تعالى أبصارهم عنه وفيه من الدلالة على علو طبقة الصديق رضى الله عنه وسابقة صحبته مالا يخفى ولذلك قالوا من أنكر صحبة أبى بكر رضى الله عنه فقد كفر لإنكاره كلام الله سبحانه وتعالى (فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ) أمنته التى تسكن عندها القلوب (عَلَيْهِ) على النبى صلى الله عليه وسلم فالمراد بها ما لا يحوم حوله شائبة الخوف

أصلا أو على صاحبه إذ هو المنزعج وأما النبي صلى الله عليه وسلم فكان على طمأنينة من أمره (وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) عطف على نصره الله والجنود هم الملائكة النازلون يوم بدر والأحزاب وحنين وقيل هم الملائكة أنزلهم الله ليحرسوه في الغار ويأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم وقوله عز وعلا (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى) يعني الشرك او دعوة الكفر فان ذلك الجعل لا يتحقق بمجرد الانجاء بل بالقتل والاسر ونحو ذلك (وَكَلِمَةُ اللَّهِ) أي التوحيد أو دعوة الإسلام (هِيَ الْعُلْيَا) لا يدانيها شيء وتغيير الأسلوب للدلالة على أنها في نفسها كذلك لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها دون غيرها من الكلم ولذلك وسط ضمير الفصل وقرىء بالنصب عطفا على كلمة الذين (وَاللَّهُ عَزِيزٌ) لا يغالب (حَكِيمٌ) في حكمه وتدبيره (انْفِرُوا) تجريد للامر بالنفور بعد التوبيخ على تركه والانكار على المساهلة فيه وقوله تعالى (خِفَافاً وَثِقَالاً) حالان من ضمير المخاطبين أي على أي حال كان من يسر وعسر حاصلين بأي سبب كان من الصحة والمرض أو الغنى والفقر أو قلة العيال وكثرتهم أو غير ذلك مما ينتظمه مساعدة الاسباب وعدمها بعد الامكان والقدرة في الجملة وما ذكر في تفسيرهما من قولهم خفافا لقلة عيالكم وثقالا لكثرتها أو خفافا من السلاح وثقالا منه أو ركبانا ومشاة أو شبانا وشيوخا أو مهازيل وسمانا أو صحاحا ومراضا ليس لتخصيص الأمرين المتقابلين بالارادة من غير مقارنة للباقي. عن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلى أن أنفر قال عليه الصلاة والسلام نعم حتى نزل ليس على الأعمى حرج. وعن ابن عباس رضي الله عنهما نسخت بقوله عز وجل ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إيجاب للجهاد بهما ان أمكن وبأحدهما عند إمكانه واعوازالآخر حتى ان من ساعده النفس والمال يجاهد بهما ومن ساعده المال دون النفس يغزى مكانه من حاله على عكس حاله إلى هذا ذهب كثير من العلماء وقيل هو إيجاب للقسم الأول فقط (ذَلِكُمْ) أي ما ذكر من النفير والجهاد وما في اسم الإشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلته في الشرف (خَيْرٌ لَكُمْ) أي خير عظيم في نفسه أو خير مما يبتغى بتركه من الراحة والدعة وسعة العيش والتمتع بالأموال والأولاد (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي تعلمون الخير علمتم أنه خير أو ان كنتم تعلمون أنه خير إذ لا احتمال لغير الصدق في أخبار الله تعالى فبادروا اليه (لَوْ كَانَ) صرف للخطاب عنهم وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعديدا لما صدر عنهم من الهنات قولا وفعلا على طريق المباثة وبيانا لدناءة هممهم وسائر رذائلهم أي لو كان ما دعوا اليه (عَرَضاً قَرِيباً) العرض ما عرض لك من منافع الدنيا أي لو كان ذلك غنما سهل المأخذ قريب المنال (وَسَفَراً قَاصِداً) ذا قصد بين القريب والبعيد (لَاتَّبَعُوكَ) في النفير طمعا في الفوز بالغنيمة وتعليق الاتباع بكلا الأمرين يدل على عدم تحققه عند توسط السفر فقط (وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ) أي المسافة الشاطة الشاقة التي تقطع بمشقة وقرىء بكسر العين والشين (وَسَيَحْلِفُونَ) أي المتخلفون عن الغزو وقوله تعالى (بِاللَّهِ) اما متعلق بسيحلفون أو هو من جملة كلامهم والقول مراد على الوجهين أي سيحلفون بالله اعتذارا عند قفولك قائلين (لَوِ اسْتَطَعْنَا) أو سيحلفون قائلين بالله لو استطعنا الخ أي لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتهما جميعا حسبما عن لهم من الكذب والتعلل وعلى كلا التقديرين فقوله تعالى (لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ) ساد مسد جوابي القسم والشرط جميعا أما على الثاني فظاهر وأما على الأول فلان قولهم لو استطعنا في قوة بالله لو استطعنا لأنه بيان لقوله تعالى سيحلفون بالله وتصديق له والاخبار بما سيكون منهم بعد القفول وقد وقع حسبما أخبر به من جملة المعجزات الباهرة وقرىء لو استطعنا بضم الواو تشبيها لها بواو الجمع كما في قوله عز وجل فتمنوا الموت (يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ) بدل من سيحلفون لان الحلف الكاذب اهلاك للنفس ولذلك قال عليه الصلاة والسلام اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع

أو حال من فاعله أى مهلكين أنفسهم أو من فاعل خرجنا جىء به على طريقة الاخبار عنهم كأنه قيل نهلك أنفسنا أى لخرجنا معكم مهلكين أنفسنا كما فى قولك حلف ليفعلن مكان لأفعلن (وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ) أى فى مضمون الشرطية وفيما ادعوا ضمنا من انتفاء تحقق المقدم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا (عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ) صريح فى أنه سبحانه وتعالى قد عفا عنه عليه الصلاة والسلام ما وقع منه عند استئذان المتخلفين فى التخلف معتذرين بعدم الاستطاعة واذنه اعتمادا على أيمانهم ومواثيقهم لخلوها عن المزاحم من ترك الأولى والأفضل الذى هو التأنى والتوقف إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال وقوله عز وجل (لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ) أى لأى سبب أذنت لهم فى التخلف حين اعتلوا بعللهم بيان لما أشير اليه بالعفو من ترك الأولى واشارة إلى أنه ينبغى أن تكون أموره عليه الصلاة والسلام منوطة بأسباب قوية موجبة لها أو مصححة وأن ما أبرزوه فى معرض التعلل والاعتذار مشفوعا بالأيمان كان بمعزل من كونه سببا للاذن قبل ظهور صدقه وكلتا اللامين متعلقة بالاذن لاختلافهما فى المعنى فان الأولى للتعليل والثانية للتبليغ والضمير المجرور لجميع المستأذنين وتوجه الانكار إلى الاذن باعتبار شموله للكل لا باعتبار تعلقه بكل فرد فرد لتحقق عدم استطاعة بعضهم كما ينبىء عنه قوله سبحانه (حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟) أى فيما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة من جهة المال أو من جهة البدن أو من جهتهما معا حسبما عن لهم هناك (وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ) فى ذلك فتعامل كلا من الفريقين بما يستحقه وهو بيان لذلك الأولى الأفضل وتحضيض له عليه الصلاة والسلام عليه فان كلمة حتى سواء كانت بمعنى اللام أو بمعنى إلى لا يمكن تعلقها بقوله تعالى لم أذنت لاستلزامه أن يكون اذنه عليه الصلاة والسلام لهم معللا أو مغيا بالتبين والعلم ويكون توجه الاستفهام اليه من تلك الحيثية وذلك بين الفساد بل بما يدل عليه ذلك كأنه قيل لم سارعت إلى الاذن لهم وهلا تأنيت حتى ينجلى الأمر كما هو قضية الحزم . قال قتادة وعمرو بن ميمون اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشىء اذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الاسارى فعاتبه الله تعالى كما تسمعون وتغيير الاسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول الذى صلته فعل دال على الحدوث وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام للايذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين وأن ما صدر من الآخرين وان كان كذبا حادثا متعلقا بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ناشىء عن رسوخهم فى الكذب والتعبير عن ظهور الصدق بالتبين وعما يتعلق بالكذب بالعلم لما هو المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلى فظهور صدقه إنما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه بعد ما كان محتملا له احتمالا عقليا وأما كذبه فأمر حادث لا دلالة للخبر عليه فى الجملة حتى يكون ظهوره تبينا له بل هو نقيض لمدلوله فما يتعلق به يكون علما مستأنفا وإسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لا إلى المعلومين ببناء الفعل للمفعول مع إسناد التبين إلى الأولين لما أن المقصود ههنا علمه عليه الصلاة والسلام بهم ومؤاخذتهم بموجبه بخلاف الأولين حيث لا مؤاخذة عليهم ومن لم يتنبه لهذا قال حتى يتبين لك من صدق فى عذره ممن كذب فيه وإسناد التبين إلى الأولين وتعليق العلم بالآخرين مع أن مدار الاسناد والتعلق أولا وبالذات هو وصف الصدق والكذب كما أشير اليه لما أن المقصد هو العلم بكلا الفريقين باعتبار اتصافهما بوصفيهما المذكورين ومعاملتهما بحسب استحقاقهما لا العلم بوصفيهما بذاتيهما أو باعتبار قيامهما بموصوفيهما هذا وفى تصدير فاتحة الخطاب ببشارة العفو دون ما يوهم العتاب من مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام وتعهده بحسن المفاوضة ولطف المراجعة ما لا يخفى على أولى الالباب . قال سفيان بن عيينة انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو ولقد أخطأ وأساء الادب وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية وأن معناه أخطأت وبئسما فعلت هب أنه كناية أليس ايثارها على التصريح

بالجناية للتلطيف فى الخطاب والتخفيف فى العتاب وهب أن العفو مستلزم للخطأ فهل هو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء أو يسوغ انشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح إلى رتبة يتعجب منها ولا يخفى أنه لم يكن فى خروجهم مصلحة للدين أو منفعة للمسلمين بل كان فيه فساد وخبال حسبما نطق به قوله عز وجل لو خرجوا الخ وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى ولكن كره الله انبعاثهم الآية . نعم كان الأولى تأخير الاذن حتى يظهر كذبهم آثر ذى أثير ويفتضحوا على رؤس الاشهاد ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم بأنهم غروه عليه الصلاة والسلام وأرضوه بالاكاذيب على أنهم لم يهنأ لهم عيش ولا قرت لهم عين إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان (لَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) تنبيه على أنه كان ينبغى أن يستدل باستئذانهم على حالهم ولا يؤذن لهم أى ليس من عادة المؤمنين أى يستأذنوك فى (أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) وأن الخلص منهم يبادرون اليه من غير توقف على الاذن فضلا عن أن يستأذنوك فى التخلف وحيث استأذنك هؤلاء فى التخلف كان ذلك مظنة للتأنى فى أمرهم بل دليلا على نفاقهم وقيل المستأذن فيه محذوف ومعنى قوله تعالى أن يجاهدوا كراهة أن يجاهدوا ثم قيل المحذوف هو التخلف والمعنى لا يستأذنك المؤمنون فى التخلف كراهة الجهاد فيتوجه النفى إلى القيد وبه يمتاز المؤمن من المنافق وهو وان كان فى نفسه أمرا خفيا لا يوقف عليه بادىء الأمر لكن عامة أحوالهم لما كانت منبئة عن ذلك جعل أمرا ظاهرا مقررا وقيل هو الجهاد أى لا يستأذنك المؤمنون فى الجهاد كراهة أن يجاهدوا بناء على أن الاستئذان فى الجهاد ربما يكون لكراهته ولا يخفى أن الاستئذان فى الشىء لكراهته مما لا يقع بل لا يعقل ولو سلم وقوعه فالاستئذان لعلة الكراهة مما لا يمتاز بحسب الظاهر من الاستئذان لعلة الرغبة ولو سلم فالذى نفى عن المؤمنين يجب أن يثبت للمنافقين وظاهر أنهم لم يستأذنوا فى الجهاد لكراهتهم له بل انما استأذنوا فى التخلف (وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) شهادة لهم بالانتظام فى سلك المتقين وعدة لهم بأجزل الثواب وتقرير لمضمون ما سبق كأنه قيل والله عليم بأنهم كذلك واشعار بأن ما صدر عنهم معلل بالتقوى (إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ) أى فى التخلف مطلقا على الأول أو لكراهة الجهاد على الثانى (الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) تخصيص الايمان بهما فى الموضعين للايذان بأن الباعث على الجهاد يبذل النفس والمال إنما هو الايمان بهما اذ به يتسنى للمؤمنين استبدال الحياة الأبدية والنعيم المقيم الخالد بالحياة الفانية والمتاع الكاسد (وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ) عطف على الصلة وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الريب وتقرره (فَهُمْ) حال كونهم (فِى رَيْبِهِمْ) وشكهم المستقر فى قلوبهم (يَتَرَدَّدُونَ) أى يتحيرون فان التردد ديدن المتحير كما أن الثبات ديدن المستبصر والتعبير عنه به مما لا يخفى حسن موقعه (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ) يدل على أن بعضهم قالوا عند الاعتذار كنا نريد الخروج لكن لم نتهيأ له وقد قرب الرحيل بحيث لا يمكننا الاستعداد فقيل تكذيبا لهم لو أرادوه (لَأَعَدُّوا لَهُ) أى للخروج فى وقته (عُدَّةً) أى أهبة من الزاد والراحلة والسلاح وغير ذلك مما لا بد منه للسفر وقرىء عده بحذف التاء والاضافة إلى ضمير الخروج كما فعل بالعدة من قال: وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا أى عدته وقرىء عده بكسر العين وعدة بالاضافة (وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ) أى نهوضهم للخروج . قيل هو استدراك عما يفهم من مقدم الشرطية فان انتفاء ارادتهم للخروج يستلزم انتفاء خروجهم وكراهة الله تعالى انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج فكأنه قيل ما خرجوا ولكن تثبطوا والاتفاق فى المعنى لا يمنع الوقوع بين طرفى لكن بعد تحقق الاختلاف نفيا واثباتا فى اللفظ كقولك ما أحسن إلى زيد ولكن أساء والأظهر أن يكون استدراكا من نفس المقدم على نهج ما فى الأقيسة الاستثنائية والمعنى لو أرادوا

الخروج لاعدواله عدة ولكن ماأرادوه لما أنه تعالى كره انبعاثهم لما فيه من المفاسد التى ستبين (فثبّطهم) أى حبسهم بالجبن والكسل فتثبطوا عنه ولم يستعدوا له (وقيل اقعدوا مع القٰعدين) تمثيل لالقاء الله تعالى كراهة الخروج فى قلوبهم أو لوسوسة الشيطان بالأمر بالقعود أو هو حكاية قول بعضهم لبعض أو هو اذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم فى القعود والمراد بالقاعدين اما المعذورون أو غيرهم وأيا ما كان فغير خال عن الذم (لو خرجوا فيكم) بيان لسر كراهته تعالى لانبعاثهم أى لو خرجوا مخالطين لكم (ما زادوكم) أى ما أورثوكم شيئا من الأشياء (إلا خبالا) أى فسادا وشرا فالاستثناء مفرغ متصل وقيل منقطع وليس بذلك (ولأوضعوا خلٰلكم) أى ولسعوا فيما بينكم بالنمائم والتضريب وإفساد ذات البين من وضع البعير وضعا إذا أسرع وأوضعته أنا أى حملته على الاسراع والمعنى لأوضعوا ركائبهم بينكم والمراد به المبالغة فى الاسراع بالنمائم لأن الراكب أسرع من الماشى وقرىء ولأرقصوا من رقصت الناقة أسرعت وأرقصتها أنا وقرىء ولأوفضوا أى أسرعوا (يبغونكم الفتنة) يحاولون أن يفتنوكم بايقاع الخلاف فيما بينكم والقاء الرعب فى قلوبكم وافساد نياتكم والجملة حال من ضمير أوضعوا أو استئناف (وفيكم سمّٰعون لهم) أى نمامون يسمعون حديثكم لاجل نقله اليهم أو فيكم قوم ضعفة يسمعون للمنافقين أى يطيعونهم والجملة حال من مفعول يبغونكم أو من فاعله لاشتمالها على ضميريهما أو مستأنفة ولعلهم لم يكونوا فى كمية العدد وكيفية الفساد بحيث يخل مكانهم فيما بين المؤمنين بأمر الجهاد اخلالا عظيما ولم يكن فساد خروجهم معادلا لمنفعته ولذلك لم تقتض الحكمة عدم خروجهم نخرجوا مع المؤمنين ولكن حيث كان انضمام المنافقين القاعدين اليهم مستتبعا الخلل كلى كره الله انبعاثهم فلم يتسن اجتماعهم فاندفع فسادهم ووجه العتاب على الاذن فى قعودهم مع تقرره لامحالة وتضمن خروجهم لهذه المفاسد أنهم لو قعدوا بغير إذن منه عليه الصلاة والسلام لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الامر ولم يقدروا على مخالطتهم والسعى فيما بينهم بالأراجيف ولم يتسن لهم التمتع بالعيش إلى أن يظهر حالهم بقوارع الآيات النازلة (والله عليم بالظٰلمين) علما محيطا بضمائرهم وظواهرهم ومافعلوا فيما مضى وما يتأتى منهم فيما سيأتى ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد فى الوعيد والاشعار بترتبه على الظلم ولعله شامل للفريقين السماعين والقاعدين (لقد ابتغوا الفتنة) تشتيت شملك وتفريق أصحابك منك (من قبل) أى يوم أحد حين انصرف عبدالله بن أبى بن سلول المنافق بمن معه وقد تخلف بمن معه عن تبوك أيضا بعد ماخرج مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذى جدة أسفل من ثنية الوداع وعن ابن جريج رضى الله عنه وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلا من المنافقين ليفتكوا به عليه الصلاة والسلام فردهم الله تعالى خاسئين (وقلّبوا لك الأمور) تقليب الأمر تصريفه من وجه الى وجه وترديده لأجل التدبير والاجتهاد فى المكر والحيلة يقال للرجل المتصرف فى وجوه الحيل حول وقلب أى اجتهدوا ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء فى إبطال أمرك وقرىء بالتخفيف (حتى جآء الحق) أى النصر والتأييد الإلهى (وظهر أمر الله) غلب دينه وعلا شرعه (وهم كٰرهون) والحال أنهم كارهون لذلك أى على رغم منهم والآيتان لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيان ماثبطهم الله تعالى لاجله وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وإزاحة أعذارهم تداركا لما عسى يفوت بالمبادرة إلى الاذن وإيذانا بأن مافات بها ليس مما لايمكن تلافيه تهوينا للخطب (ومنهم من يقول ائذن لى) فى القعود (ولا تفتنّى) أى لاتوقعنى فى الفتنة وهى المعصية والاثم يريد انى متخلف لامحالة أذنت أو لم تأذن فائذن لى حتى لا أقع فى المعصية بالمخالفة أو لاتلقنى فى الهلكة فانى ان خرجت معك هلك مالى وعيالى لعدم من يقوم بمصالحهم

وقيل قال الجد بن قيس قد علمت الأنصار أنى مشتهر بالنساء فلا تفتنى ببنات الأصفر يعنى نساء الروم ولكن أعينك بمالى فاتركنى وقرىء ولا تفتنى من أفتنه بمعنى فتنه (ألا فى الفتنة) أى فى عينها ونفسها وأكمل أفرادها الغنى عن الوصف بالكمال الحقيق باختصاص اسم الجنس به (سقطوا) لا فى شىء مغاير لها فضلا عن أن يكون مهربا ومخلصاً عنها وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف والجراءة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة ومن القعود بالاذن المبنى عليه وعلى الاعتذارات الكاذبة وقرىء بافراد الفعل محافظة على لفظ من وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه مع تقديم الظرف إيذان بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة زعماً منهم أن الفتنة إنما هى التخلف بغير اذن وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم فى دركات الردى أسفل سافلين وقوله عز وجل (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وعيد لهم على ما فعلوا معطوف على الجملة السابقة داخل تحت التنبيه أى جامعة لهم يوم القيامة من كل جانب وإيثار الجملة الإسمية للدلالة على الثبات والاستمرار أو محيطة بهم الآن تنزيلا لشىء سيقع عن قريب منزلة الواقع أو وضعا لأسباب الشىء موضعه فان مبادى إحاطة النار بهم من الكفر والمعاصى محيطة بهم الآن من جميع الجوانب ومن جملتها ما فروا منه وما سقطوا فيه من الفتنة وقيل تلك المبادى المتشكلة بصور الأعمال والأخلاق هى النار بعينها ولكن لا يظهر ذلك فى هذه النشأة وإنما يظهر عند تشكلها بصورها الحقيقية فى النشأة الآخرة والمراد بالكافرين اما المنافقون وإيثار وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر والإشعار بأنه معظم أسباب الإحاطة المذكورة واما جميع الكافرين الشاملين للمنافقين شمولا أوليا (إن تصبك) فى بعض مغازيك (حسنة) من الظفر والغنيمة (تسؤهم) تلك الحسنة أو تورثهم مساءة لفرط حسدهم وعداوتهم لك (وإن تصبك) فى بعضها (مصيبة) من نوع شدة (يقولوا) متبجحين بما صنعوا حامدين لآرائهم (قد أخذنا أمرنا) أى تلافينا ما يهمنا من الأمر يعنون به الاعتزال عن المسلمين والقعود عن الحرب والمداراة مع الكفرة وغير ذلك من أمور الكفر والنفاق قولا وفعلا (من قبل) أى من قبل إصابة المصيبة فى وقت تداركه يشيرون بذلك إلى أن المعاملة المذكورة إنما تروج عند الكفرة بوقوعها حال قوة الإسلام لا بعد إصابة المصيبة (ويتولوا) عن مجلس الاجتماع والتحدث إلى أهاليهم أو يعرضوا عن النبى صلى الله عليه وسلم (وهم فرحون) بما صنعوا من أخذ الأمر وبما أصابه عليه الصلاة والسلام والجملة حال من الضمير فى يقولوا ويتولوا لا فى الأخير فقط لمقارنة الفرح لهما معا وإيثار الجملة الإسمية للدلالة على دوام السرور وإسناد المساءة إلى الحسنة والمسرة إلى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال وان تصبك مصيبة تسرهم للايذان باختلاف حاليهم حالتى عروض المساءة والمسرة بأنهم فى الأولى مضطرون وفى الثانية مختارون (قل) بيان لبطلان ما بنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد (لن يصيبنا) أبداً وقرىء هل يصيبنا وهل يصيبنا من فيعل لا من فعل لأنه واوى يقال صاب السهم يصوب واشتقاقه من الصواب (إلا ما كتب الله لنا) أى أثبته لمصلحتنا الدنيوية أو الأخروية من النصرة عليكم أو الشهادة المؤدية إلى النعيم الدائم (هو مولانا) ناصرنا ومتولى أمورنا (وعلى الله) وحده (فليتوكل المؤمنون) التوكل تفويض الأمر إلى الله والرضا بما فعله وإن كان ذلك بعد ترتيب المبادى العادية والفاء للدلالة على السببية والأصل ليتوكل المؤمنون على الله قدم الظرف على الفعل لافادة القصر ثم أدخل الفاء للدلالة على استيجابه تعالى للتوكل عليه كما فى قوله تعالى وإياى فارهبون والجملة إن كانت من تمام الكلام المأمور به فاظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار لاظهار التبرك والتلذذ به وإن كانت مسوقة من قبله تعالى أمر للمؤمنين بالتوكل اثر أمره عليه الصلاة والسلام بما ذكر فالأمر ظاهر وكذا إعادة الأمر فى قوله عز وجل

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا) لانقطاع حكم الأمر الأول بالثانى وإن كان أمر الغائب وأما على الوجه الأول فهى لابراز كمال العناية بشأن المأمور به والإشعار بما بينه وبين ما أمر به أولا من الفرق فى السياق والتربص التمكث مع انتظار مجىء شىء خيرا كان أو شرا والباء للتعدية وإحدى التاءين محذوفة أى ما تنتظرون بنا (إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ) أى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسنى العواقب وهما النصر والشهادة وهذا نوع بيان لما أبهم فى الجواب الأول وكشف لحقيقة الحال باعلام أن ما يزعمونه مضرة للمسلمين من الشهادة أنفع مما يعدونه منفعة من النصر والغنيمة (وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ) إحدى السوأيين من العواقب اما (أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ) كما أصاب من قبلكم من الأمم المهلكة والظرف صفة عذاب ولذلك حذف عامله وجوبا (أَوْ) بعذاب (بِأَيْدِينَا) وهو القتل على الكفر (فَتَرَبَّصُوا) الفاء فصيحة أى إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا (إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ) ما هو عاقبتكم فاذا لقى كل منا ومنكم ما يتربصه لاتشاهدون إلا ما يسرنا ولا نشاهد إلا ما يسوؤكم (قُلْ أَنْفِقُوا) أموالكم فى سبيل الله (طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) مصدران وقعا موقع الفاعل أى طائعين أو كارهين وهو أمر فى معنى الخبر كقوله تعالى استغفر لهم أولا تستغفر لهم والمعنى أنفقتم طوعا أو كرها (لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ) ونظم الكلام فى سلك الأمر للمبالغة فى بيان تساوى الأمرين فى عدم القبول كأنهم أمروا بأن يمتحنوا الحال فينفقوا على الحالين فينظروا هل يتقبل منهم فيشاهدوا عدم القبول وهو جواب قول جد بن قيس ولكن أعينك بمالى ونفى التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذ منهم وأن يكون بمعنى عدم الاثابة عليه وقوله عز وجل (إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ) أى عاتين متمردين تعليل لرد انفاقهم (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ) وقرىء بالتحتانية (نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ) استثناء من أعم الأشياء أى ما منعهم قبول نفقاتهم منهم شىء من الأشياء إلا كفرهم وقرىء يقبل على البناء للفاعل وهو الله تعالى (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ) أى لا يأتونها فى حال من الأحوال إلا حال كونهم متثاقلين (وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) لأنهم لا يرجون بهما ثوابا ولا يخافون على تركهما عقابا فقوله تعالى طوعا أى من غير الزام من جهته عليه الصلاة والسلام لا رغبة أو هو فرضى لتوسيع الدائرة (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) فان ذلك استدراج لهم ووبال عليهم حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا) بما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يقاسون فيها من الشدائد والمصائب (وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر فى العاقبة فيكون ذلك لهم نقمة لا نعمة وأصل الزهوق الخروج بصعوبة (وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ) فى الدين والاسلام (وَمَا هُمْ مِنْكُمْ) فى ذلك (وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ) يخافون أن يفعل بهم ما يفعل بالمشركين فيظهرون الاسلام تقية ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة (لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً) استئناف مقرر لمضمون ما سبق من أنهم ليسوا من المسلمين وأن التجاءهم إلى الانتماء اليهم إنما هو للتقية اضطرارا حتى انهم لو وجدوا غير ذلك ملجأ أى مكانا حصينا يلجأون اليه من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة وإيثار صيغة الاستقبال فى الشرط وإن كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم الوجدان فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس نصا فى افادة انتفاء استمرار الفعل كما هو الظاهر بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا حسبما يقتضيه المقام فان معنى قولك لو تحسن إلى لشكرتك أن انتفاء الشكر بسبب استمرار انتفاء الاحسان لا أنه بسبب انتفاء استمرار الاحسان فان الشكر يتوقف على وجود الاحسان لا على استمراره كما حقق فى موضعه (أَوْ مَغَارَاتٍ) أى غيرانا وكهوفا يخفون فيها أنفسهم وقرىء بضم الميم من أغار الرجل إذا دخل الغور وقيل هو متعد من غار إذا دخل الغور أى أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم وأهليهم ويجوز أن يكون من

أغار الثعلب بمعنى مهارب ومفار (أَوْ مُدَّخَلًا) أى نفقا ينذسون فيه وينجحرون وهو مفتعل من الدخول وقرىء مدخلا من الدخول ومدخلا من الادخال أى مكانا يدخلون فيه أنفسهم وقرىء متدخلا ومندخلا من التدخل والاندخال (لَوَلَّوْا) أى لصرفوا وجوههم وأقبلوا وقرىء لوالوا أى لالتجأوا (إِلَيْهِ) أى إلى أحد ماذكر (وَهُمْ يَجْمَحُونَ) أى يسرعون بحيث لايردهم شىء من الفرس الجموح وهو الذى لايثنيه اللجام وفيه اشعار بكمال عتوهم وطغيانهم وقرىء يجمزون بمعنى يجمحون ويشتدون ومنه الجمازة (وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ) بكسر الميم وقرىء بضمها أى يعيبك سرا وقرىء يلمزك ويلامزك مبالغة (فِى الصَّدَقَاتِ) أى فى شأنها وقسمتها (فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا) بيان لفساد لمزهم وأنه لامنشأ له سوى حرصهم على حطام الدنيا أى إن أعطوا منها قدر مايريدون (رَضُوا) بما وقع من القسمة واستحسنوها (وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا) ذلك المقدار (إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) أى يفاجئون السخط وإذا نائب مناب فاء الجزاء . قيل نزلت الآية فى أبى الجواظ المنافق حيث قال ألاترون إلى صاحبكم يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل وقيل فى ابن ذى الخويصرة واسمه حرقوص بن زهير التميمى رأس الخوارج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال اعدل يارسول الله فقال عليه الصلاة والسلام ويلك إن لم أعدل فمن يعدل وقيل هم المؤلفة قلوبهم والأول هو الأظهر (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) أى ما أعطاهم الرسول صلى الله عليه وسلم من الصدقات طيبى النفوس به وإن قل وذكر الله عز وجل للتعظيم والتنبيه على أن مافعله الرسول صلى الله عليه وسلم كان بأمره سبحانه (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ) أى كفانا فضله وصنعه بنا وماقسمه لنا (سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ) بعد هذا حسبما نرجو ونؤمل (إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) فى أن يخولنا فضله والآية بأسرها فى حيز الشرط والجواب محذوف بناء على ظهوره أى لكان خيرا لهم (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ) شروع فى تحقيق حقية ماصنعه الرسول صلى الله عليه وسلم من القسمة ببيان المصارف ورد لمقالة القالة فى ذلك وحسم لأطماعهم الفارغة المبنية على زعمهم الفاسد ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق أى جنس الصدقات المشتملة على الأنواع المختلفة (لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ) أى مخصوصة بهؤلاء الأصناف الثمانية الآتية لاتتجاوزهم إلى غيرهم كأنه قيل إنما هى لهم لالغيرهم فالذين لاعلاقة بينها وبينهم يقولون فيها مايقولون وماسوغهم أن يتكلموا فيها وفى قاسمها والفقير من له أدنى شىء والمسكين من لاشىء له هو المروى عن أبى حنيفة رضى الله عنه وقد قيل على العكس ولكل منهما وجه يدل عليه (وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا) الساعين فى جمعها وتحصيلها (وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ) هم أصناف فمنهم أشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم ليسلموا فيرضخ لهم ومنهم قوم أسلموا ونياتهم ضعيفة فيؤلف قلوبهم بأجزال العطاء كعيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس ابن مرداس ومنهم من يترقب باعطائهم اسلام نظرائهم ولعل الصنف الأول كان يعطيهم الرسول صلى الله عليه وسلم من خمس الخمس الذى هو خالص ماله وقد عد منهم من يؤلف قلبه بشىء منها على قتال الكفار ومانعى الزكاة وقد سقط سهم هؤلاء بالاجماع لما أن ذلك كان لتكثير سواد الاسلام فلما أعزه الله عز وعلا وأعلى كلمته استغنى عن ذلك (وَفِى الرِّقَابِ) أى وللصرف فى فك الرقاب بأن يعان المكاتبون بشىء منها على أداء نجومهم وقيل بأن يفدى الاسارى وقيل بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق وأيا ما كان فالعدول عن اللام لعدم ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية والاختصاص كالذين من قبلهم أو للايذان بعدم قرار ملكهم فيما أعطوا كما فى الوجهين الأولين أو بعدم ثبوته رأسا كما فى الوجه الأخير أو للاشعار برسوخهم فى استحقاق الصدقة لما أن فى للظرفية المنبئة عن إحاطتهم بها وكونهم محلها ومركزها (وَالْغَارِمِينَ) أى الذين تداينوا لأنفسهم فى غير معصية إذا لم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم وكذلك عند الشافعى

رضى الله عنه من غرم لاصلاح ذات البين واطفاء النائرة بين القبيلتين وإن كانوا أغنياء (وَفِى سَبِيلِ اللهِ) أى فقراء الغزاة والحجيج المنقطع بهم (وَابْنِ السَّبِيلِ) أى المسافر المنقطع عن ماله وتكرير الظرف فى الأخيرين للايذان بزيادة فضلهما فى الاستحقاق أو لما ذكر من إرادهما بعنوان غير مصحح للمالكية والاختصاص فهذه مصارف الصدقات فللمتصدق أن يدفع صدقته إلى كل واحد منهم وأن يقتصر على صنف منهم لأن اللام لبيان أنهم مصارف لا تخرج عنهم لا لاثبات الاستحقاق وقد روى ذلك عن عمر وابن عباس وحذيفة رضى الله عنهم وعند الشافعى لا يجوز إلا أن يصرف إلى ثلاثة من تلك الأصناف (فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ) مصدر مؤكد لما دل عليه صدر الآية أى فرض لهم الصدقات فريضة ونقل عن سيبويه أنه منصوب بفعله مقدرا أى فرض الله ذلك فريضة أو حال من الضمير المستكن فى قوله للفقراء أى إنما الصدقات كائنة لهم حال كونها فريضة أى مفروضة (وَاللهُ عَلِيمٌ) بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم (حَكِيمٌ) لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التى من جملتها سوق الحقوق إلى مستحقيها (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِىَّ) نزلت فى فرقة من المنافقين قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام ما لا ينبغى فقال بعضهم لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ذلك فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول إنما محمد أذن سامعة وذلك قوله عز وجل (وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ) أى يسمع كل ما قيل من غير أن يتدبر فيه ويميز بين ما يليق بالقبول لمساعدة أمارات الصدق له وبين ما لا يليق به وإنما قالوه لأنه عليه الصلاة والسلام كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ويصفح عنهم حلما وكرما فحملوه على سلامة القلب وقالوا ما قالوا (قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ) من قبيل رجل صدق فى الدلالة على المبالغة فى الجودة والصلاح كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الأذن ويجوز أن يكون المراد أذنا فى الخير والحق وفيما ينبغى سماعه وقبوله لا فى غير ذلك كما يدل عليه قراءة رحمة بالجر عطفا عليه أى هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله وقرىء أذن بسكون الذال فيهما وقرىء أذن خير على أنه صفة أو خبر ثان وقوله عز وجل (يُؤْمِنُ بِاللهِ) تفسير لكونه أذن خير لهم أى يصدق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة الموجبة له وكون ذلك خيرا للمخاطبين كما أنه خير للعالمين مما لا يخفى (وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) أى يصدقهم لما علم فيهم من الخلوص واللام مزيدة للتفرقة بين الايمان المشهور وبين الايمان بمعنى التسليم والتصديق كما فى قوله تعالى أنؤمن لك الخ وقوله تعالى فما آمن لموسى الخ (وَرَحْمَةٌ) عطف على أذن خير أى وهو رحمة بطريق اطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة (لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ) أى للذين أظهروا الايمان منكم حيث يقبله منهم لكن لا تصديقا لهم فى ذلك بل رفقا بهم وترحما عليهم ولا يكشف أسرارهم ولا يهتك أستارهم وإسناد الايمان اليهم بصيغة الفعل بعد نسبته إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار للايذان بأن ايمانهم أمر حادث ماله من قرار وقرىء بالنصب على أنها علة لفعل دل عليه أذن خير أى يأذن لكم رحمة (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ) بما نقل عنهم من قولهم هو أذن ونحوه وفى صيغة الاستقبال المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه اشعار بقبول توبتهم كما أفصح عنه قوله تعالى فيما سيأتى فان يتوبوا يك خيرا لهم (لَهُمْ) بما يجترئون عليه من أذيته عليه الصلاة والسلام كما ينبىء عنه بناء الحكم على الموصول (عَذَابٌ أَلِيمٌ) وهذا اعتراض مسوق من قبله عز وجل على نهج الوعيد غير داخل تحت الخطاب وفى تكرير الاسناد باثبات العذاب الأليم لهم ثم جعل الجملة خبرا للموصول ما لا يخفى من المبالغة وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة مضافا إلى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته راجعة إلى جنابه عز وجل موجبة لكمال السخط والغضب (يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ) الخطاب للمؤمنين خاصة وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن ثم يأتونهم فيعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم

بالايمان ليعذروهم ويرضوا عنهم أى يحلفون لكم أنهم ماقالوا مانقل اليهم مما يورث أذاة النبى صلى الله عليه وسلم وأما التخلف عن الجهاد فليس بداخل فى هذا الاعتذار (ليرضوكم) بذلك وافراد ارضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم ارضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قبل عليه الصلاة والسلام ذلك منهم ولم يكذبهم للايذان بأن ذلك بمعزل من أن يكون وسيلة إلى ارضائه عليه الصلاة والسلام وأنه صلى الله عليه وسلم إنما لم يكذبهم رفقاً بهم وستراً لعيوبهم لاعن رضا بما فعلوا كما أشير اليه (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أى أحق بالارضاء ولا يتسنى ذلك الا بالطاعة والمتابعة وايفاء حقوقه عليه الصلاة والسلام فى باب الاجلال والاعظام مشهدا ومغيبا وأما ما أتوا به من الإيمان الفاجرة فانما يرضى به من انحصر طريق علمه فى الاخبار إلى أن يجىء الحق ويزهق الباطل والجملة نصب على الحالية من ضمير يحلفون أى يحلفون لكم لارضائكم والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالارضاء منكم أى يعرضون عما يهمهم ويجديهم ويشتغلون بما لا يعنيهم وافراد الضمير فى يرضوه اما للايذان بأن رضاه عليه الصلاة والسلام مندرج تحت رضاه سبحانه وارضاؤه عليه الصلاة والسلام ارضاء له تعالى لقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله واما لانه مستعار لاسم الإشارة الذى يشار به إلى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور كما فى قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأن ذلك لا يقال أى حاجة إلى الاستعارة بعد التأويل المذكور لأنا نقول لولا الاستعارة لم يتسن التأويل لما أن الضمير لا يتعرض الا لذات مايرجع اليه من غير تعرض لوصف من أوصافه التى من جملتها المذكورية وإنما المتعرض لها اسم الإشارة واما لأنه عائد إلى رسوله والكلام جملتان حذف خبر الأولى لدلالة خبر الثانية عليه كما ذهب اليه سيبويه ومنه قول من قال : نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف أو إلى الله على أن المذكور خبر الجملة الأولى وخبر الثانية محذوف كما هو رأى المبرد (إن كانوا مؤمنين) جوابه محذوف تعويلا على دلالة ماسبق عليه أى ان كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله بما ذكر فانهما أحق بالارضاء (ألم يعلموا) أى أولئك المنافقون والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتها وقرىء بالتاء على الالتفات لزيادة التقريع والتوبيخ أى ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من فنون القوارع والانذارات (أنه) أى الشأن (من يحادد الله ورسوله) المحادة من الحد كالمشاقة من الشق والمعاداة من العدوة بمعنى الجانب فان كل واحد من مباشرى كل من الأفعال المذكورة فى محل غير محل صاحبه ومن شرطية جوابها قوله تعالى (فأن له نار جهنم) على أن خبره محذوف أى فحق أن له نار جهنم وقرىء بكسر الهمزة والجملة الشرطية فى محل الرفع على أنها خبر لأن وهى مع خبرها سادة مسد مفعولى يعلموا وقيل المعنى فله وأن تكرير للأولى تأكيدا لطول العهد لامن باب التأكيد اللفظى المانع للأولى من العمل ودخول الفاء كما فى قول من قال :

لقد علم الحى اليمانون أننى إذا قلت أما بعد أنى خطيبها

وقد جوز أن يكون فأن له معطوفا على أنه وجواب الشرط محذوف تقديره ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فأن له الخ ورد بأن ذلك إنما يجوز عند كون فعل الشرط ماضيا أو مضارعا مجزوما بلم (خالداً فيها) حال مقدرة من الضمير المجرور ان اعتبر فى الظرف ابتداء الاستقرار وحدوثه وان اعتبر مطلق الاستقرار فالأمر ظاهر (ذلك) أشير إلى ماذكر من العذاب الخالد بذلك إيذانا ببعد درجته فى الهول والفظاعة (الخزى العظيم) الخزى الذل والهوان المقارن للفضيحة والندامة وهى ثمرات نفاقهم حيث يفتضحون على رءوس الاشهاد بظهورها ولحوق العذاب الخالد

بهم والجملة تذييل لما سبق (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ) فى شأنهم فان ما نزل فى حقهم نازل عليهم (سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ) من الأسرار الخفية فضلا عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من أقاويل الكفر والنفاق ومعنى تنبئتها إياهم بما فى قلوبهم مع أنه معلوم لهم وأن المحذور عندهم اطلاع المؤمنين على أسرارهم لا اطلاع أنفسهم عليها أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم فتنتشر فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة فكأنها تخبرهم بها أو المراد بالتنبئة المبالغة فى كون السورة مشتملة على أسرارهم كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه فتنبئهم بها وتنعى عليهم قبائحهم وقيل معنى يحذر ليحذر وقيل الضميران الأولان للمؤمنين والثالث للمنافقين ولا يبالى بالتفكيك عند ظهور الأمر بعود المعنى اليه أى يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوب المنافقين وتهتك عليهم أستارهم قال أبو مسلم كان اظهار الحذر منهم بطريق الاستهزاء فانهم كانوا إذا سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر كل شىء ويقول انه بطريق الوحى يكذبونه ويستهزئون به ولذلك قيل (قُلِ اسْتَهْزِءُوا) أى افعلوا الاستهزاء وهو أمر تهديد (إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ) أى من القوة إلى الفعل أو من الكمون إلى البروز (مَّا تَحْذَرُونَ) أى ما تحذرونه من انزال السورة ومن مخازيكم ومثالبكم المستكنة فى قلوبكم الفاضحة لكم على ملا الناس والتأكيد لدفع انكارهم بذلك لا لدفع ترددهم فى وقوع المحذور إذ ليس حذرهم بطريق الحقيقة (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ) عما قالوا (لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسير فى غزوة تبوك وبين يديه ركب من المنافقين يستهزئون بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم ويقولون انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح حصون الشام وقصورها هيهات هيهات فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبى الله لا والله ما كنا فى شىء من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا فى شىء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر (قُلْ) غير ملتفت إلى اعتذارهم ناعيا عليهم جناياتهم منزلا لهم منزلة المعترف بوقوع الاستهزاء موبخا لهم على أخطائهم موقع الاستهزاء (أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ) حيث عقب حرف التقرير بالمستهزأ به ولا يستقيم ذلك الا بعد تحقق الاستهزاء وثبوته (لَا تَعْتَذِرُوا) لا تشتغلوا بالاعتذار وهو عبارة عن محو أثر الذنب فانه معلوم الكذب بين البطلان (قَدْ كَفَرْتُم) أظهرتم الكفر بايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم والطعن فيه (بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) بعد اظهاركم له (إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ) لتوبتهم واخلاصهم أو تجنبهم عن الايذاء والاستهزاء وقرىء ان يعف على اسناد الفعل إلى الله سبحانه وقرىء على البناء للمفعول مسندا إلى الظرف بتذكير الفعل وبتأنيثه أيضا ذهابا إلى المعنى كأنه قيل ان ترحم طائفة (نُعَذِّبْ) بنون العظمة وقرىء بالياء على البناء للفاعل وبالتاء على البناء للمفعول مسندا إلى ما بعده (طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) مصرين على الاجرام وهو غير التائبين أو مباشرين له وهم غير المجتنبين قال محمد بن اسحق الذى عفى عنه رجل واحد هو يحيى بن حمير الاشجعى لما نزلت هذه الآية تاب عن نفاقه وقال اللهم انى لا أزال أسمع آية تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة فما أحد من المسلمين الا عرف مصرعه غيره (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ) التعرض لأحوال الاناث للايذان بكمال عراقتهم فى الكفر والنفاق (بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ) أى متشابهون فى النفاق والبعد عن الإيمان كأبعاض الشىء الواحد بالشخص وقيل أريد به نفى أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم فى حلفهم بالله انهم لمنكم وتقرير لقوله تعالى وما هم منكم وقوله تعالى (يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ) أى بالكفر والمعاصى (وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ) أى عن الإيمان والطاعة استئناف مقرر لمضمون ما سبق ومفصح عن مضادة حالهم لحال المؤمنين أو خبر

ثان (ويقبضون أيديهم) أى عن المبرات والانفاق فى سبيل الله فان قبض اليد كناية عن الشح (نسوا الله) أغفلوا ذكره (فنسيهم) فتركهم من رحمته وفضله وخذلهم والتعبير عنه بالنسيان للمشاكلة (إن المنافقين هم الفاسقون) الكاملون فى التمرد والفسق الذى هو الخروج عن الطاعة والانسلاخ عن كل خير والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير كما فى قوله تعالى (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار) أى المجاهرين (نار جهنم خالدين فيها) مقدرين الخلود فيها (هى حسبهم) عقابا وجزاء وفيه دليل على عظم عقابها وعذابها (ولعنهم الله) أى أبعدهم من رحمته وأهانهم وفى اظهار الاسم الجليل من الايذان بشدة السخط ما لا يخفى (ولهم عذاب مقيم) أى نوع من العذاب غير عذاب النار دائم لا ينقطع أبدا أو لهم عذاب مقيم معهم فى الدنيا لا ينفك عنهم وهو ما يقاسونه من تعب النفاق الذى هم منه فى بلية دائمة لا يأمنون ساعة من خوف الفضيحة ونزول العذاب ان اطلع عن أسرارهم (كالذين من قبلكم) التفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد والكاف فى محل الرفع على الخبرية أى أنتم مثل الذين من قبلكم من الأمم المهلكة أو فى حيز النصب بفعل مقدر أى فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم (كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا) تفسير وبيان لشبههم بهم وتمثيل لحالهم بحالهم (فاستمتعوا) تمتعوا وفى صيغة الاستفعال ما ليس فى صيغة التفعل من الاستزادة والاستدامة فى التمتع (بخلاقهم) بنصيبهم من ملاذ الدنيا واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير وهو ما قدر لصاحبه (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع) الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى استمتاعا كاستمتاع (الذين من قبلكم بخلاقهم) ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية والتهائهم بها عن النظر فى العواقب الحقة واللذائذ الحقيقية تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم إياهم واقتفائهم أثرهم (وخضتم) أى دخلتم فى الباطل (كالذى خاضوا) أى كالذين باسقاط النون أو كالفوج الذى أو كالخوض الذى خاضوه (أولئك) إشارة إلى المتصفين بالأوصاف المعدودة من المشبهين والمشبه بهم لا إلى الفريق الأخير فقط فان ذلك يقتضى أن يكون حبوط أعمال المشبهين وخسرانهم مفهومين ضمنا لا صريحا ويؤدى إلى خلو تلوين الخطاب عن الفائدة إذ الظاهر حينئذ أولئكم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للخطاب أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذميمة (حبطت أعمالهم) ليس المراد بها أعمالهم المعدودة كما يشعر به التعبير عنهم باسم الإشارة فان غائلتها غنية عن البيان بل أعمالهم التى كانوا يستحقون بها أجورا حسنة لو قارنت الإيمان أى ضاعت وبطلت بالكلية ولم يترتب عليها أثر (فى الدنيا والآخرة) بطريق المثوبة والكرامة أما فى الآخرة فظاهر وأما فى الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ليس ترتبه عليها على طريقة المثوبة والكرامة بل بطريق الاستدراج (وأولئك) أى الموصوفون بحبوط الاعمال فى الدارين (هم الخاسرون) الكاملون فى الخسران فى الدارين الجامعون لمباديه وأسبابه طرا فانه قد ذهبت رؤس أموالهم التى هى أعمالهم فيما ضرهم ولم ينفعهم قط ولو أنها ذهبت فيما لا يضرهم ولا ينفعهم لكفى به خسرانا وايراد اسم الاشارة فى الموضعين للاشعار بعلية الأوصاف المشار اليها للحبوط والخسران (ألم يأتهم) أى المنافقين (نبأ الذين من قبلهم) أى خبرهم الذى له شأن وهو ما فعلوا وما فعل بهم والاستفهام للتقرير والتحذير (قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب (والمؤتفكات) قريات قوم لوط ائتفكت بهم أى انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل وقيل قريات المكذبين وائتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر (أتتهم رسلهم بالبينات) استئناف لبيان نبئهم (فما كان الله)

لِيَظْلِمَهُمْ) الفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام أى فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى فما ظلمهم بذلك وإيثار ما عليه النظم الكريم للمبالغة فى تنزيه ساحة السبحان عن الظلم أى ما صح وما استقام له أن يظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى قوله عز وجل (وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) للدلالة على استمرار ظلمهم حيث لم يزالوا يعرضونها للعقاب بالكفر والتكذيب وتقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد إلى قصر المظلومية عليهم على رأى من لا يرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما فى قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم من غير قصر للظلم على الفاعل أو المفعول وسيجىء لهذا مزيد بيان فى قوله سبحانه إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات حالا ومآلا اثر بيان قبح حال أضدادهم عاجلا وآجلا والتعبير عن نسبة هؤلاء بعضهم إلى بعض بالولاية وعن نسبة أولئك بمن الاتصالية للايذان بأن نسبة هؤلاء بطريق القرابة الدينيه المبنية على المعاقدة المستتبعة للآثار من المعونة والنصرة وغير ذلك ونسبة أولئك بمقتضى الطبيعة والعادة (يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) أى جنس المعروف والمنكر المنتظمين لكل خير وشر (وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو فى مقابلة ما سبق من قوله تعالى نسوا الله (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) بمقابلة قوله تعالى ويقبضون أيديهم (وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أى فى كل أمر ونهى وهو بمقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة (أُولَٰئِكَ) إشارة إلى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات الفاضلة وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد درجتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة (سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ) أى يفيض عليهم آثار رحمته من التأييد والنصرة البتة فان السين مؤكدة للوقوع كما فى قولك سأنتقم منك (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ) تعليل للوعد أى قوى قادر على إعزاز أوليائه وقهر أعدائه (حَكِيمٌ) يبنى أحكامه على أساس الحكمة الداعية إلى إيصال الحقوق من النعمة والنقمة إلى مستحقيها من أهل الطاعة وأهل المعصية وهذا وعد للمؤمنين متضمن لوعيد المنافقين كما أن ما سبق فى شأن المنافقين من قوله تعالى فنسيهم وعيد لهم متضمن لوعد المؤمنين فان منع لطفه تعالى عنهم لطف فى حق المؤمنين (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) تفصيل لآثار رحمته الأخروية اثر ذكر رحمته الدنيوية والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بعلية وصف الإيمان لحصول ما تعلق به الوعد وعدم التعرض لذكر ما مر من الأمر بالمعروف وغير ذلك للايذان بأنه من لوازمه ومستتبعاته أى وعدهم وعدا شاملا لكل أحد منهم على اختلاف طبقاتهم فى مراتب الفضل كيف وكلا (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا) فان كل أحد منهم فائز بها لا محالة (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً) أى وعد بعض الخواص الكمل منهم منازل تستطيبها النفوس او يطيب فيها العيش. فى الخبر أنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر (فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) هى أبهى أماكن الجنات وأسناها . عن النبى صلى الله عليه وسلم عدن دار الله لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج وله خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حوراء لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد وعن ابن مسعود رضى الله عنه هى بطنان الجنة وسرتها فعدن على هذا علم وقيل هو بمعناه اللغوى أعنى الإقامة والخلود فمرجع العطف إلى اختلاف الوصف وتغايره فكأنه وصفه أولا بأنه من جنس ما هو أشرف الأماكن المعروفة عندهم من الجنات ذات الانهار الجارية لتميل اليها طباعهم أول ما يقرع أسماعهم ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التى لا تكاد تخلو عنها أماكن الدنيا وفيها ما تشتهى

الأنفس وتلذ الأعين ثم وصفه بأنه دار اقامة وثبات فى جوار العليين لا يعتريهم فيها فناء ولا تغير ثم وعدهم بما هو أعلى من ذلك كله فقال (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ) أى وشىء يسير من رضوانه تعالى (أَكْبَرُ) إذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة وبه يناط نيل كل شرف وسيادة ولعل عدم نظمه فى سلك الوعد مع عزته فى نفسه لانه متحقق فى ضمن كل موعود ولانه مستمر فى الدارين. روى أنه تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم فيقولون مالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا وأى شىء أفضل من ذلك قال أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا (ذَٰلِكَ) إشارة إلى ماسبق ذكره ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجته فى العظم والفخامة (هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) دون مايعده الناس فوزا من حظوظ الدنيا فانها مع قطع النظر عن فنائها وتغيرها وتنغصها وتكدرها ليست بالنسبة إلى أدنى شىء من نعيم الآخرة بمثابة جناح البعوض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء ونعما قال من قال :

تالله لو كانت الدنيا بأجمعها ... تبقى علينا ويأتى رزقها رغدا
ماكان من حق حر أن يذل بها ... فكيف وهى متاع يضمحل غدا

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ) أى المجاهرين منهم بالسيف (وَالْمُنَافِقِينَ) بالحجة وإقامة الحدود (وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) فى ذلك ولا تأخذك بهم رأفة قال عطاء نسخت هذه الآية كل شىء من العفو والصفح (وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) جملة مستأنفة لبيان آجل أمرهم إثر بيان عاجله وقيل حالية (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) تذييل لما قبله والمخصوص بالذم محذوف (يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا) استئناف لبيان ماصدر عنهم من الجرائم الموجبة لما مر من الأمر بالجهاد والغلظة عليهم ودخول جهنم روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمعه من كان منهم معه عليه الصلاة والسلام فقال الجلاس بن سويد منهم لئن كان مايقول محمد حقا لاخواننا الذين خلفناهم وهم سادتنا وأشرافنا فنحن شر من الحمير فقال عامر بن قيس الأنصارى للجلاس أجل والله إن محمدا لصادق وأنت شر من الحمار فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر فحلف بالله ماقال فرفع عامر يده فقال اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق فنزل وإيثار صيغة الاستقبال فى يحلفون لاستحضار الصورة أو للدلالة على تكرير الحلف وصيغة الجمع فى قالوا مع أن القائل هو الجلاس للايذان بأن بقيتهم برضاهم بقوله صاروا بمنزلة القائل (وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ) هى ما حكى آنفا والجملة مع ماعطف عليها اعتراض (وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ) أى وأظهروا مافى قلوبهم من الكفر بعد إظهارهم الإسلام (وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) هو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه توافق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عليه الصلاة والسلام عن راحلته إذا تسنم العقبة بالليل وكان عمار بن ياسر آخذا بخطام راحلته يقودها وحذيفة بن اليمان خلفها يسوقها فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الابل وبقعقعة السلاح فالتفت فاذا قوم متلثمون فقال اليكم اليكم يا أعداء الله فهربوا وقيل هم المنافقون بقتل عامر لرده على الجلاس وقيل أرادوا أن يتوجوا عبدالله بن أبى بن سلول وإن لم يرض به رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَمَا نَقَمُوا) أى وما أنكروا وما عابوا أو وما وجدوا مايورث نقمتهم (إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) سبحانه وتعالى وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فى غاية مايكون من ضنك العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألف درهم فاستغنى والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو من أعم العلل أى وما أنكروا شيئا من الأشياء إلا اغناء الله تعالى إياهم أو وما أنكروا ما أنكروا والعلة من العلل إلا لاغناء الله إياهم (فَإِنْ

يتوبوا) عما هم عليه من الكفر والنفاق (يك خيراً لهم) فى الدارين. قيل لما تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الجلاس يا رسول الله لقد عرض الله على التوبة والله لقد قلت وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته (وإن يتولوا) أى استمروا على ما كانوا عليه من التولى والاعراض عن الدين أو أعرضوا عن التوبة بعد هذا العرض (يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا) بالقتل والأسر والنهب وغير ذلك من فنون العقوبات (والآخرة) بالنار وغيرها من أفانين العقاب (وما لهم فى الأرض) من سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها المصححة لوجدان ما نفى بقوله عز وجل (من ولى ولا نصير) ينقذهم من العذاب بالشفاعة أو المدافعة (ومنهم) بيان لقبائح بعض آخر منهم (من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) لنؤتين الزكاة وغيرها من الصدقات (ولنكونن من الصالحين) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد الحج، وقرىء بالنون الخفيفة فيهما قيل نزلت فى ثعلبة بن حاطب أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال عليه الصلاة السلام يا ثعلبة قليل تؤدى حقه خير من كثير لا تطيقه فراجعه وقال والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه فدعا له فاتخذ غنماً فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال يا ويح ثعلبة فبعث مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيه الفرائض فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية وقال ارجعا حتى أرى رأيى وذلك قوله عز وجل (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) أى منعوا حق الله منه (وتولوا) أى أعرضوا عن طاعة الله سبحانه فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه يا ويح ثعلبة مرتين فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال عليه الصلاة والسلام إن الله منعنى أن أقبل منك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال عليه الصلاة والسلام هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى فقبض عليه الصلاة والسلام فجاء بها إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها وجاء بها عمر رضى الله عنه فى خلافته فلم يقبلها وهلك فى خلافة عثمان رضى الله عنه وقيل نزلت فيه وفى سهل بن الحرث وجد بن قيس ومعتب بن قشير والأول هو الأشهر (وهم معرضون) جملة معترضة أى وهم قوم عادتهم الاعراض أو حالية أى تولوا بأجرامهم وهم معرضون بقلوبهم (فأعقبهم) أى جعل الله عاقبة فعلهم ذلك (نفاقاً) راسخاً (فى قلوبهم إلى يوم يلقونه) إلى يوم موتهم الذى يلقون الله تعالى عنده أو يلقون فيه جزاء عملهم وهو يوم القيامة وقيل فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً فى قلوبهم ولا يلائمه قوله عز وجل (بما أخلفوا الله ما وعدوه) أى بسبب اخلافهم ما وعدوه تعالى من التصدق والصلاح (وبما كانوا يكذبون) أى وبكونهم مستمرين على الكذب فى جميع المقالات التى من جملتها وعدهم المذكور وتخصيص الكذب به يؤدى إلى تخلية الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل عن المزية فإن تسبب الاعقاب المذكور بالاخلاف والكذب يقضى باسناده إلى الله عز وجل إذ لا معنى لكونهما سببين لاعقاب البخل النفاق والتحقيق أنه لما كانت الفاء الدالة على الترتيب والتفريع منبئة عن ترتب اعقاب النفاق المخلد على أفعالهم المحكية عنهم من المعاهدة بالتصدق والصلاح والبخل والتولى والاعراض وفيها ما لا دخل له فى الترتب المذكور كالمعاهدة أزيح ما فى ذلك من الابهام بتعيين ما هو المدار فى ذلك والله تعالى أعلم وقرىء بتشديد الذال (ألم يعلموا) أى المنافقون أو من عاهد الله وقرىء بالتاء الفوقانية خطاباً للمؤمنين فالهمزة على الأول للانكار والتوبيخ والتهديد أى ألم يعلموا (أن الله يعلم سرهم ونجواهم) أى ما أسروا به فى أنفسهم وما تناجوا به فيما بينهم من المطاعن وتسمية الصدقة جزية وغير ذلك مما لا خير فيه وسر تقديم السر على النجوى سيظهر فى قوله سبحانه وستردون إلى عالم الغيب والشهادة (وأن الله علام الغيوب) فلا يخفى عليه شىء من الأشياء

حتى اجترؤا على ما اجترؤا عليه من العظائم وإظهار اسم الجلالة فى الموقعين لالقاء الروعة وتربية المهابة وفى إيراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة الدائمة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة ما لا يخفى وعلى الثانى لتقرير علم المؤمنين بذلك وتنبيههم على أنه تعالى مؤاخذهم ومجازيهم بما علم من أعمالهم (الذين يَلْمِزُونَ) نصب أو رفع على الذم ويجوز جره على البدلية من الضمير فى سرهم ونجواهم وقرىء بضم الميم وهى لغة أى يعيبون (المُطَّوِّعِينَ) أى المتطوعين المتبرعين (مِنَ المُؤْمِنِينَ) حال من المطوعين وقوله تعالى (فى الصَّدَقاتِ) متعلق بيلمزون . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة فأتى عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب وقيل بأربعة آلاف درهم وقال كان لى ثمانية آلاف فأقرضت ربى أربعة وأمسكت لعيالى أربعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك له حتى صولحت تماضر رابعة نسائه عن ربع الثمن على ثمانين ألفا وتصدق عاصم بن عدى بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصارى بصاع من تمر فقال بت ليلتى أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالى وجئت بصاع فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره على الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت (والذِينَ لا يَجِدُونَ إلا جُهْدَهُمْ) عطف على المطوعين أى ويلمزون الذين لا يجدون إلا طاقتهم وقرىء بفتح الجيم وهو مصدر جهد فى الأمر إذا بالغ فيه وقيل هو بالضم الطاقة وبالفتح المشقة (فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ) عطف على يلمزون أى يهزؤون بهم والمراد بهم الفريق الأخير (سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ) اخبار بمجازاته تعالى إياهم على ما فعلوا من السخرية والتعبير عنها بذلك للمشاكلة (ولَهُمْ) أى ثابت لهم (عَذابٌ أليمٌ) التنوين للتهويل والتفخيم وإيراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار (استَغْفِرْ لهُمْ أوْ لا تَسْتَغْفِرْ لهم) اخبار باستواء الأمرين الاستغفار لهم وتركه فى استحالة المغفرة وتصويره بصورة الأمر للمبالغة فى بيان استوائهما كأنه عليه الصلاة والسلام أمر بامتحان الحال بأن يستغفر تارة ويترك أخرى ليظهر له جلية الأمر كما مر فى قوله عز وجل قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم (إنْ تَسْتَغْفِرْ لهُمْ سَبعِينَ مَرَّةً فلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لهمْ) بيان لاستحالة المغفرة بعد المبالغة فى الاستغفار اثر بيان الاستواء بينه وبين عدمه روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبى وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض أبيه أن يستغفر له ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام محافظة على ما هو الأصل من أن مراتب الأعداد حدود معينة يخالف حكم كل منها حكم ما فوقها إن الله قد رخص لى فسأزيد على السبعين فنزلت سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة فى مطلق التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنها العدد بأسره وقيل هى أكمل الأعداد لجمعها معانيها ولأن الستة أول عدد تام لتعادل أجزائها الصحيحة إذ نصفها ثلاثة وثلثها اثنان وسدسها واحد وجملتها ستة وهى مع الواحد سبعة فكانت كاملة إذ لا مرتبة بعد التمام إلا الكمال ثم السبعون غاية الكمال إذ الآحاد غايتها العشرات والسبعمائة غاية الغايات (ذلِكَ) إشارة إلى امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة فى الاستغفار أى ذلك الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل (بأنَّهمْ) أى بسبب أنهم (كفَرُوا باللهِ ورَسُولِهِ) كفرا متجاوزا عن الحد كما يلوح به وصفهم بالفسق فى قوله عز وجل (واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الفٰسِقِينَ) فان الفسق فى كل شىء عبارة عن التمرد والتجاوز عن حدوده أى لا يهديهم هداية موصلة إلى المقصد البتة لمخالفة ذلك للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وأما الهداية بمعنى الدلالة على ما يوصل اليه فهى متحققة

لامحالة ولكنهم بسوء اختيارهم لم يقبلوها فوقعوا فيما وقعوا وهو تذييل مؤكد لما قبله من الحكم فان مغفرة الكافر انما هي بالاقلاع عن الكفر والاقبال إلى الحق والمنهمك فيه المطبوع عليه بمعزل من ذلك وفيه تنبيه على عذر النبي صلى الله عليه وسلم في استغفاره لهم وهو عدم يأسه من إيمانهم حيث لم يعلم أنهم مطبوعون على الغي والضلال إذ الممنوع هو الاستغفار لهم بعد تبين حالهم كما سيتلى من قوله عز وجل ما كان للنبي الآية (فَرِحَ المُخَلَّفُونَ) أي الذين خلفهم النبي صلى الله عليه وسلم بالاذن لهم في القعود عند استئذانهم أو خلفهم الله بتثبيطه اياهم لما علم في ذلك من الحكمة الخفية أو خلفهم كسلهم أو نفاقهم (بِمَقْعَدِهِمْ) متعلق بفرح أي بقعودهم وتخلفهم عن الغزو (خِلَافَ رَسُولِ اللهِ) أي خلفه وبعد خروجه حيث خرج ولم يخرجوا يقال أقام خلاف الحي أي بعدهم ظعنوا أو لم يظعنوا ويؤيده قراءة من قرأ خلف رسول الله فانتصابه على أنه ظرف لمقعدهم إذ لا فائدة في تقييد فرحهم بذلك وقيل هو بمعنى المخالفة ويعضده قراءة من قرأ خلف رسول الله بضم الخاء فانتصابه على أنه مفعول له والعامل إما فرح أي فرحوا لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام بالقعود واما مقعدهم أي فرحوا بقعودهم لاجل مخالفته عليه الصلاة والسلام أو على أنه حال والعامل أحد المذكورين أي فرحوا مخالفين له عليه الصلاة والسلام أو فرحوا بالقعود مخالفين له عليه الصلاة والسلام (وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ) لا ايثار اللدعة والخفض على طاعة الله تعالى فقط بل مع ما في قلوبهم من الكفر والنفاق فان إيثار أحد الأمرين قد يتحقق بأدنى رجحان منه من غير أن يبلغ الآخر مرتبة الكراهية وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو وإيذانا بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب وأشرف المطالب التي يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه كما فرحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَقَالُوا) أي لاخوانهم تثبيتا لهم على التخلف والقعود وتواصيا فيما بينهم بالشر والفساد أو للمؤمنين تثبيطا لهم عن الجهاد ونهيا عن المعروف وإظهارا لبعض العلل الداعية لهم إلى ما فرحوا به من القعود فقد جمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر والضلال الفرح بالقعود وكراهية الجهاد ونهي الغير عن ذلك (لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ) فانه لا يستطاع شدته (قُلْ) ردا عليهم وتجهيلا لهم (نَارُ جَهَنَّمَ) التي ستدخلونها بما فعلتم (أَشَدُّ حَرًّا) مما تحذرون من الحر المعهود وتحذرون الناس منه فما لكم لا تحذرونها وتعرضون أنفسكم لها بايثار القعود على النفير (لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) اعتراض تذييلي من جهته سبحانه وتعالى غير داخل تحت القول المأمور به مؤكد لمضمونه وجواب لو اما مقدر أي لو كانوا يفقهون أنها كذلك أو كيف هي أو أن مآلهم اليها لما فعلوا ما فعلوا أو لتأثروا بهذا الالزام واما غير منوي على أن لو لمجرد التمني المنبيء عن امتناع تحقق مدخولها أي لو كانوا من أهل الفطانة والفقه كما في قوله عز وجل قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا) اخبار عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل والبكاء الطويل المؤدي اليه أعمالهم السيئة التي من جملتها ما ذكر من الفرح والفاء لسببية ما سبق للاخبار بما ذكر من الضحك والبكاء لا لنفسهما إذ لا يتصور السببية في الأول أصلا وقليلا وكثيرا منصوبان على المصدرية أو الظرفية أي ضحكا قليلا وبكاء كثيرا أو زمانا قليلا وزمانا كثيرا واخراجه في صورة الأمر للدلالة على تحتم وقوع المخبر به فان أمر الآمر المطاع مما لا يكاد يتخلف عنه المأمور به خلا أن المقصود افادته في الأول هو وصف القلة فقط وفي الثاني وصف الكثرة مع الموصوف . يروى أن أهل النفاق يكونون في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ويجوز أن يكون الضحك كناية عن الفرح والبكاء عن الغم وأن تكون القلة عبارة عن العدم والكثرة عن الدوام (بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) من فنون المعاصي والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددي ما داموا في الدنيا

وجزاء مفعول له للفعل الثانى أى ليبكوا جزاء أو مصدر حذف ناصبه أى يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء بما كسبوا من المعاصى المذكورة (فإن رجعك الله) الفاء لتفريع الأمر الآتى على ما بين من أمرهم والفعل من الرجع المتعدى دون الرجوع اللازم أى فان ردك الله تعالى (إلى طائفة منهم) أى إلى المنافقين من المتخلفين فى المدينة فان تخلف بعضهم إنما كان لعذر عائق مع الاسلام أو إلى من بقى من المنافقين المتخلفين بأن ذهب بعضهم بالموت أو بالغيبة عن البلد أو بأن لم يستأذن البعض . عن قتادة أنهم كانوا اثنى عشر رجلا قيل فيهم ما قيل (فاستأذنوك للخروج) معك إلى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه (فقل) اخراجا لهم عن ديوان الغزاة وإبعادا لمحلهم عن محفل صحبتك (لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا) من الاعداء وهو إخبار فى معنى النهى للمبالغة وقد وقع كذلك (إنكم) تعليل لما سلف أى لأنكم (رضيتم بالقعود) أى عن الغزو وفرحتم بذلك (أول مرة) هى غزوة تبوك (فاقعدوا) الفاء لتفريع الأمر بالقعود بطريق العقوبة على ما صدر عنهم من الرضا بالقعود أى إذا رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا من بعد (مع الخالفين) أى المتخلفين الذين ديدنهم القعود والتخلف دائما وقرىء الخلفين على القصر فكان محو أساميهم من دفتر المجاهدين ولزهم فى قرن الخالفين عقوبة لهم أى عقوبة وتذكير اسم التفضيل المضاف إلى المؤنث هو الأكثر الدائر على الألسنة فانك لا تكاد تسمع قائلا يقول هى كبرى امرأة أو أولى مرة (ولا تصل على أحد منهم مات) صفة لأحد وإنما جىء بصيغة الماضى تنبيها على تحقق الوقوع لا محالة (أبدا) متعلق بالنهى أى لا تدع ولا تستغفر لهم أبدا (ولا تقم على قبره) أى لا تقف عليه للدفن أو للزيارة والدعاء . روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم فلما مرض رأس النفاق عبدالله بن أبى بن سلول بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيه فلما دخل عليه قال عليه السلام أهلكك حب اليهود فقال يا رسول الله بعثت اليك لتستغفر لى لا لتؤنبنى وسأله أن يكفنه فى شعاره الذى يلى جلده ويصلى عليه فلما مات دعاه ابنه وكان مؤمنا صالحا فأجابه عليه السلام تسلية له ومراعاة لجانبه وأرسل اليه قميصه فكفن فيه فلما هم بالصلاة أو صلى نزلت . وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لما هلك عبدالله بن أبى ووضعناه ليصلى عليه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أتصلى على عدو الله القائل يوم كذا كذا وكذا والقائل يوم كذا كذا وكذا وعددت أيامه الخبيثة فتبسم عليه السلام وصلى عليه ثم مشى معه وقام على حفرته حتى دفن فوالله ما لبث إلا يسيرا حتى نزل ولا تصل الخ فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره وإنما لم ينه عن التكفين بقميصه صلى الله عليه وسلم لأن الضنة بالقميص كانت مظنة الاخلال بالكرم على أنه كان مكافأة لقميصه الذى كان ألبسه العباس رضى الله تعالى عنه حين أسر ببدر والخبر مشهور (إنهم كفروا بالله ورسوله) تعليل للنهى على معنى أن الاستغفار للميت والوقوف على قبره انما يكون لاستصلاحه وذلك مستحيل فى حقهم لأنهم استمروا على الكفر بالله ورسوله مدة حياتهم (وماتوا وهم فاسقون) أى متمردون فى الكفر خارجون عن حدوده كما بين من معنى الفسق (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم) تكرير لما سبق وتقرير لمضمونه بالاخبار بوقوعه ويجوز أن يكون هذا فى حق فريق غير الفريق الأول وتقديم الأموال فى أمثال هذه المواقع على الأولاد مع كونهم أعز منها اما لعموم مساس الحاجة اليها بحسب الذات وبحسب الافراد والأوقات فانها مما لا بد منه لكل أحد من الآباء والأمهات والأولاد فى كل وقت وحين حتى أن من له أولاد ولا مال له فهو وأولاده فى ضيق ونكال وأما الأولاد فانما يرغب فيهم من بلغ مبلغ الأبوة واما لأن المال مناط لبقاء النفس والأولاد لبقاء النوع واما لأنها أقدم فى الوجود من الأولاد لأن الاجزاء المنوية انما تحصل من الأغذية كما سيأتى فى سورة الكهف (إنما يريد الله)

بما متعهم به من الأموال والأولاد (أن يعذبهم بها في الدنيا) بسبب معاناتهم المشاق ومكابدتهم الشدائد في شأنها (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) أي فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها والالتهاء عن النظر والتدبر في العواقب (وإذا أنزلت سورة) من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها (أن ءامنوا بالله) أن مفسرة لما في الانزال من معنى القول والوحي أو مصدرية حذف عنها الجار أي بأن آمنوا (وجاهدوا مع رسوله) لإعزاز دينه وإعلاء كلمته (استأذنك أولوا الطول منهم) أي ذووا الفضل والسعة والقدرة على الجهاد بدناً ومالا (وقالوا) عطف تفسيري لاستأذنك مغن عن ذكر ما استأذنوا فيه يعني القعود (ذرنا نكن مع القاعدين) أي الذين قعدوا عن الغزو لما بهم من عذر (رضوا) استئناف لبيان سوء صنيعهم وعدم امتثالهم لكلا الأمرين وإن لم يردوا الاول صريحا (بأن يكونوا مع الخوالف) مع النساء اللاتي شأنهن القعود ولزوم البيوت جمع خالفة وقيل الخالفة من لا خير فيه (وطبع على قلوبهم فهم) بسبب ذلك (لا يفقهون) ما في الايمان بالله وطاعته في أوامره ونواهيه واتباع رسوله عليه السلام والجهاد من السعادة وما في أضداد ذلك من الشقاوة (لكن الرسول والذين ءامنوا معه) بالله وبما جاء من عنده تعالى وفيه ايذان بانهم ليسوا من الايمان بالله في شيء وإن لم يعرضوا عنه صريحا اعراضهم عن الجهاد باستئذانهم في القعود (جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أي ان تخلف هؤلاء عن الغزو فقد نهد إليه ونهض له من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقدا وأقاموا أمر الجهاد بكلا نوعيه كقوله تعالى فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين (وأولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة (لهم) بواسطة نعوتهم المزبورة (الخيرات) أي منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في العقبى وقيل الحور كقوله عز قائلا فيهن خيرات حسان وهي جمع خيرة تخفيف خيرة (وأولئك هم المفلحون) أي الفائزون بالمطلوب لا من حاز بعضا من الحظوظ الفانية عما قليل وتكرير اسم الاشارة تنويه لشأنهم ورب لمكانهم (أعد الله لهم) استئناف لبيان كونهم مفلحين أي هيأ لهم في الآخرة (جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) حال مقدرة من الضمير المجرور والعامل أعد (ذلك) اشارة إلى ما فهم من اعداد الله سبحانه لهم الجنات المذكورة من نيل الكرامة العظمى (الفوز العظيم) الذي لا فوز وراءه (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم) شروع في بيان أحوال منافقي الاعراب اثر بيان منافقي أهل المدينة والمعذرون من عذر في الامر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد وحقيقته أن يوهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له أو المعتذرون بادغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين وهم المعتذرون بالباطل وقرىء المعذرون من الاعذار وهو الاجتهاد في العذر والاحتشاد فيه قيل هم أسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا الجهد فائذن لنا في التخلف وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا إن غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهالينا ومواشينا فقال عليه السلام سيغنيني الله تعالى عنكم وعن مجاهد نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله سبحانه وعن قتادة اعتذروا بالكذب وقرىء المعذرون بتشديد العين والذال من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن إذ التاء لا تدغم في العين ادغامها في الطاء والزاء والصاد في المطوعين وازكى واصدق وقيل أريد بهم المعتذرون بالصحة وبه فسر المعذرون والمعذرون أي الذين لم يفرطوا في العذر (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) وهم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا وأظهر أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان والطاعة (سيصيب الذين كفروا منهم) أي من الاعراب أو من المعذرين فان منهم من اعتذر لكسله لا لكفره (عذاب أليم) بالقتل والاسر في الدنيا والنار في الآخرة (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) كالهرمى والزمنى (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) لفقرهم كمزينة وجهينة وبني عذرة (حرج) اثم في التخلف (إذا نصحوا لله ورسوله) وهو عبارة عن الإيمان بهما والطاعة لهما في السر

والعلن وتوليهما فى السراء والضراء والحب فيهما والبغض فيهما كما يفعل المولى الناصح بصاحبه (ما عَلى المُحْسِنينَ مِنْ سبيل) استئناف مقرر لمضمون ما سبق أى ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل ومن مزيدة للتأكيد ووضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على انتظامهم بنصحهم لله ورسوله فى سلك المحسنين أو تعليل لنفى الحرج عنهم أى ما على جنس المحسنين من سبيل وهم من جملتهم (واللهُ غفورٌ رحيمٌ) تذييل مؤيد لمضمون ما ذكر مشير إلى أن بهم حاجة إلى المغفرة وان كان تخلفهم بعذر (ولا على الذينَ إذا ما أتوكَ لِتَحمِلَهُمْ) عطف على المحسنين كما يؤذن به قوله عز وجل فيما سيأتى إنما السبيل الآية وقيل عطف على الضعفاء وهم البكاؤن سبعة من الانصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن معقل وعلبة بن زيد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغز معك فقال عليه السلام لا أجد فتولوا وهم يبكون وقيل هم بنو مقرن معقل وسويد ونعمان وقيل أبو موسى الاشعرى وأصحابه رضى الله تعالى عنهم (قلتَ لا أجِدُ ما أحمِلُكُمْ عليهِ) حال من الكاف فى أتوك باضمار قد وما عامة لما سألوه عليه السلام وغيره مما يحمل عليه عادة وفى ايثار لا أجد على ليس عندى من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين ما لا يخفى كأنه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده (تولَّوْا) جواب إذا (وأعيُنُهم تفيضُ) أى تسيل بشدة (مِنَ الدَّمعِ) أى دمعا فمن البيانية مع مجرورها فى حيز النصب على التمييز وهو أبلغ من يفيض دمعها لافادتها أن العين بعينها صارت دمعا فياضا والجملة حالية وقوله عز اسمه (حَزَنًا) نصب على العلية أو الحالية أو المصدرية لفعل دل عليه ما قبله أى تفيض للحزن فان الحزن يسند إلى العين مجازا كالفيض أو تولوا له أو حزنين أو يحزنون حزنا فتكون هذه الجملة حالا من الضمير فى تفيض (ألا يَجِدُوا) على حذف لام متعلقة بحزنا أو تفيض أى لئلا يجدوا (ما ينفِقُونَ) فى شراء ما يحتاجون اليه إذ لم يجدوه عندك (إنما السَّبيلُ) بالمعاتبة (على الذينَ يَستَئذِنُونَكَ) فى التخلف (وهُمْ أغنِياءُ) واجدون لأهبة الغزو مع سلامتهم (رَضُوا) استئناف تعليلى لما سبق كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا (بأنْ يكُونوا معَ الخَوالِفِ) الذين شأنهم الضعة والدناءة (وطَبَعَ اللهُ على قلُوبِهِمْ) أى خذلهم فغفلوا عن وخامة العاقبة (فهُمْ) بسبب ذلك (لا يعلَمُونَ) أبدا غائلة ما رضوا به وما يستتبعه آجلا كما لم يعلموا بخساسة شأنه عاجلا (يَعتَذِرُونَ إليكُمْ) استئناف لبيان ما يتصدون له عند القفول اليهم . روى أنهم كانوا بضعة وثمانين رجلا فلما رجع عليه السلام اليهم جاؤا يعتذرون اليه بالباطل والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانهم كانوا يعتذرون اليهم أيضا لا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط أى يعتذرون اليكم فى التخلف (إذا رجَعتُمْ) من الغزو منتهين (إليهِمْ) وإنما لم يقل إلى المدينة ايذانا بأن مدار الاعتذار هو الرجوع اليهم لا الرجوع إلى المدينة فلعل منهم من بادر إلى الاعتذار قبل الرجوع اليها (قُلْ) تخصيص هذا الخطاب برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه فيما سبق لاصحابه أيضا لما أن الجواب وظيفته عليه السلام وأما اعتذارهم فكان شاملا للمسلمين شمول الرجوع لهم (لا تعتَذِرُوا) أى لا تفعلوا الاعتذار كقوله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون أو لا تعتذروا بما عندكم من المعاذير وأما التعرض لعنوان كذبها فلا يساعده قوله تعالى (لنْ نؤمِنَ لكُمْ) أى لن نصدقكم فى ذلك أبدا فانه استئناف تعليلى للنهى مبنى على سؤال نشأ من قبلهم متفرع على ادعاء الصدق فى الاعتذار كأنهم قالوا لم لا نعتذر فقيل لأنا لا نصدقكم أبدا فيكون عبثا إذ لا يترتب عليه غرض المعتذر وقوله عز وجل (قد نَبَّأنا اللهُ مِنْ أخبارِكُمْ) تعليل لانتفاء التصديق أى أعلمنا بالوحى بعض أخباركم المنافية للتصديق مما باشرتموه من الشر والفساد وأضمرتموه فى ضمائركم وهيأتموه للابراز فى معرض الاعتذار من

وما لا وأن ذكر اتخاذه ذريعة إلى القربات والصلوات مغن عن التصريح بذلك لكمال العناية بإيمانهم وبيان اتصافهم به وزيادة الاعتناء بتحقيق الفرق بين الفريقين من أول الأمر وأما الفريق الأول فاتصافهم بالكفر والنفاق معلوم من سياق النظم الكريم صريحا (أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ) شهادة لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه وتصديق لرجائهم والضمير لما ينفق والتأنيث باعتبار الخبر مع ما مر من تعدده بأحد الوجهين والتنكير للتفخيم المغنى عن الجمع أى قربة عظيمة لا يكتنه كنهها وفى إيراد الجملة اسمية وتصديرها بحرفى التنبيه والتحقيق من الجزالة ما لا يخفى والاقتصار على بيان كونها قربة لهم لأنها الغاية القصوى وصلوات الرسول من ذرائعها وقوله تعالى (سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ) وعد لهم بإحاطة رحمته الواسعة بهم وتفسير للقربة كما أن قوله عز وعلا والله سميع عليم وعيد للأولين عقيب الدعاء عليهم والسين للدلالة على تحقق ذلك وتقرره البتة وقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) تعليل لتحقق الوعد على نهج الاستئناف التحقيقى قيل هذا فى عبد الله ذى البجادين وقومه وقيل فى بنى مقرن من مزينة وقيل فى أسلم وغفار وجهينة وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم وغفار وشىء من جهينة ومزينة خير عند الله يوم القيامة من تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وغطفان (وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ) بيان لفضائل أشراف المسلمين إثر بيان فضيلة طائفة منهم والمراد بهم الذين صلوا إلى القبلتين أو الذين شهدوا بدرا أو الذين أسلموا قبل الهجرة (وَالْأَنصَارِ) أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة نفر وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا سبعين رجلا والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير وقرىء بالرفع عطفا على والسابقون (وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ) أى ملتبسين به والمراد به كل خصلة حسنة وهم اللاحقون بالسابقين من الفريقين على أن من تبعيضية أو الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة فالمراد بالسابقين جميع المهاجرين والأنصار ومن بيانية (رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ) خبر للمبتدأ أى رضى الله عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم (وَرَضُوا عَنْهُ) بما نالوه من رضاه المستتبع لجميع المطالب طرا (وَأَعَدَّ لَهُمْ) فى الآخرة (جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ) وقرىء من تحتها كما فى سائر المواقع (خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) من غير انتهاء (ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الذى لا فوز وراءه وما فى اسم الإشارة من معنى البعد لبيان بعد منزلتهم فى مراتب الفضل وعظم الدرجة من مؤمنى الأعراب (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ) شروع فى بيان أحوال منافقى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيان حال أهل البادية منهم أى ممن حول بلدتكم (مُنَٰفِقُونَ) وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها (وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ) عطف على ممن حولكم عطف مفرد على مفرد وقوله تعالى (مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ) إما جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مسوقة لبيان غلوهم فى النفاق إثر بيان اتصافهم به وإما صفة للمبتدأ المذكور فصل بينها وبينه بما عطف على خبره وإن صفة لمحذوف أقيمت هى مقامه وهو مبتدأ خبره من أهل المدينة كما فى قوله: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا والجملة عطف على الجملة السابقة أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق أى تمهروا فيه من مرن فلان على عمله ومرد عليه إذا درب به وضرى حتى لان عليه ومهر فيه غير أن مرد لا يكاد يستعمل إلا فى الشر فالتمرد على الوجهين الأولين شامل للفريقين حسب شمول النفاق وعلى الوجه الأخير خاص بمنافقى أهل المدينة وهو الأظهر والأنسب بذكر منافقى أهل البادية أولا ثم ذكر منافقى الأعراب المجاورين للمدينة ثم ذكر منافقى أهلها والله تعالى أعلم وقوله عز شأنه (لَا تَعْلَمُهُمْ) بيان لتمردهم أى لا تعرفهم أنت لكن بأعيانهم وأسمائهم وأنسابهم بل بعنوان نفاقهم يعنى أنهم بلغوا من المهارة فى النفاق والتنوق فى مراعاة التقية والتحامى عن مواقع التهم إلى مبلغ يخفى عليك حالهم مع ما أنت عليه من علو الكعب وسمو الطبقة فى كمال الفطنة وصدق الفراسة وفى تعليق نفى العلم بهم مع أنه متعلق بحالهم مبالغة فى ذلك

وإيماء إلى أن ما هم فيه من صفة النفاق لعراقتهم ورسوخهم فيها صارت بمنزلة ذاتياتهم أو مشخصاتهم بحيث لا يعدمن لا يعرفهم بتلك الصفة عالما بهم وحل عدم علمه عليه الصلاة والسلام بأعيانهم على عدم علمه عليه الصلاة والسلام بعد مجيء هذا البيان على أنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن فيهم منافقين لكن لا يعلمهم بأعيانهم مع كونه خلاف الظاهر عار عما ذكر من المبالغة وقوله عز وجل (نحن نعلمهم) تقرير لما سبق من مهارتهم فى فن النفاق أى لا يقف على سرائرهم المركوزة فى ضمائرهم إلا من لا تخفى عليه خافية لما هم عليه من شدة الاهتمام بابطان الكفر وإظهار الاخلاص وفى تعليق العلم بهم مع أن المقصود بيان تعلقه بحالهم ما مر فى تعليق نفيه بهم وقوله عز شأنه (سنعذبهم) وعيد لهم وتحقيق لعذابهم حسبما علم الله فيهم من موجبانه والسين للتأكيد (مرتين) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قام خطيبا يوم الجمعة فقال أخرج يافلان فانك منافق أخرج يافلان فانك منافق فأخرج ناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الأول والثانى إما القتل وإما عذاب القبر أو الأول هو القتل والثانى عذاب القبر أو الأول أخذ الزكاة لما أنهم يعدونها مغرما بحتا والثانى نهك الأبدان واتعابها بالطاعات الفارغة عن الثواب ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير كما فى قوله تعالى فارجع البصر كرتين أى كرة بعد أخرى (ثم يردون) يوم القيامة (إلى عذاب عظيم) هو عذاب النار وفى تغيير السبك باسناد عذابهم السابق إلى نون العظمة حسب اسناد ماقبله من العلم وإسناد ردهم إلى العذاب اللاحق إلى أنفسهم ايذان باختلافهما حالا وأن الأول خاص بهم وقوعا وزمانا يتولاه سبحانه وتعالى والثانى شامل لعامة الكفرة وقوعا وزمانا وإن اختلفت طبقات عذابهم (وآخرون) بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم فى أمور الدين وهو عطف على منافقون أى ومنهم يعنى وممن حولكم ومن أهل المدينة قوم آخرون (اعترفوا بذنوبهم) التى هى تخلفهم عن الغزو وإيثار الدعة عليه والرضا بسوء جوار المنافقين وندموا على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة ولم يخفوا ما صدر عنهم من الأعمال السيئة كما فعله من اعتاد اخفاء مافيه وإبراز ما ينافيه من المنافقين الذين اعتذروا بما الاخير فيه من المعاذير المؤكدة بالأيمان الفاجرة حسب ديدنهم المألوف وهم رهط من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد عندما بلغهم مانزل فى المتخلفين فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين حسب عادته الكريمة ورآهم كذلك فسأل عن شأنهم فقيل إنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى تحلهم فقال عليه الصلاة والسلام وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت (خلطوا عملا صالحا) هو ماسبق منهم من الأعمال الصالحة والخروج إلى المغازى السابقة وغيرها وما لحق من الاعتراف بذنوبهم فى التخلف عن هذه المرة وتذممهم وندامتهم على ذلك وتخصيصه بالاعتراف لا يناسب الخلط لاسيما على وجه يؤذن بتوارد المختلطين وكون كل منهما مخلوطا ومخلوطا به كما يؤذن به تبديل الواو بالباء فى قوله تعالى (وآخر سيئا) فان قولك خلطت الماء باللبن يقتضى إيراد الماء على اللبن دون العكس وقولك خلطت الماء واللبن معناه إيقاع الخلط بينهما من غير دلالة على اختصاص أحدهما بكونه مخلوطا والآخر بكونه مخلوطا به وترك تلك الدلالة للدلالة على جعل كل منهما متصفا بالوصفين جميعا وذلك فيما نحن فيه بورود كل من العملين على الآخر مرة بعد أخرى والمراد بالعمل السيء ماصدر عنهم من الأعمال السيئة أولا وآخرا وعن الكلبى التوبة والاثم وقيل الواو بمعنى الباء كما فى قولهم بعت الشاء شاة ودرهما بمعنى شاة بدرهم (عسى الله أن يتوب عليهم) أى يقبل توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم (إن الله غفور رحيم) يتجاوز عن سيئات التائب ويتفضل عليه وهو تعليل لما تفيده كلمة عسى من وجوب القبول فانها للاطماع الذى هو من أكرم الأكرمين إيجاب وأى إيجاب (خذ من أموالهم صدقة) روى أنهم لما

أطلقوا قالوا يارسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا فقال عليه الصلاة والسلام ماأمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزلت فليست هى الصدقة المفروضة لكونها أمورا بها ولماروى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ منهم الثلث وترك لهم الثلثين فوقع ذلك بيانا لما فى صدقة من الاجمال وإنما هى كفارة لذنوبهم حسبما ينبىء عنه قوله عزوجل (تطهرهم) أى عما تلطخوا به من أوضار التخلف والتاء للخطاب والفعل مجزوم على أنه جواب للأمر وقرىء بالرفع على أنه حال من ضمير المخاطب فى خذ أوصفة لصدقة والتاء للخطاب أو للصدقة والعائد على الأول محذوف ثقة بما بعده وقرىء تطهرهم من أطهره بمعنى طهره (وتزكيهم بها) باثبات الياء وهو خبر لمبتدا محذوف والجملة حال من الضمير فى الأمر أو فى جوابه أى وأنت تزكيهم بها أى تنمى بتلك الصدقة حسناتهم إلى مراتب المخلصين أو أموالهم أو تبالغ فى تطهيرهم هذا على قراءة الجزم فى تطهرهم وأما على قراءة الرفع فسواء جعلت التاء للخطاب أو للصدقة وكذا إذا جعلت الجملة الأولى حالا من ضمير المخاطب أوصفة للصدقة على الوجهين فالثانية عطف على الأولى حالا وصفة من غير حاجة إلى تقدير المبتدا لتوجيه دخول الواو فى الجملة الحالية (وصل عليهم) أى واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم (إن صلواتك) وقرىء صلواتك مراعاة لتعدد المدعو لهم (سكن لهم) تسكن نفوسهم اليها وتطمئن قلوبهم بها ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتهم والجملة تعليل للأمر بالصلاة عليهم (والله سميع) يسمع ماصدر عنهم من الاعتراف بالذنب والتوبة والدعاء (عليم) بمافى ضمائرهم من الندم والغم لمافرط منهم ومن الاخلاص فى التوبة والدعاء أوسميع يجيب دعاءك لهم عليم بماتقتضيه الحكمة والجملة حينئذ تذييل للتعليل مقرر لمضمونه وعلى الأول تذييل لماسبق من الآيتين محقق لمافيهما (ألم يعلموا) وقرىء بالتاء والضمير اما للتائبين فهو تحقيق لماسبق من قبول توبتهم وتطهير الصدقة وتزكيتها لهم وتقرير لذلك وتوطين لقلوبهم ببيان أن المتولى لقبول توبتهم وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه وإن أسند الأخذ والتطهير والتزكية اليه عليه الصلاة والسلام أى ألم يعلم أولئك التائبون (أن الله هو يقبل التوبة) الصحيحة الخالصة (عن عباده) المخلصين فيها ويتجاوز عن سيئاتهم كما يفصح عنه كلمة عن والمراد بهم اما أولئك التائبون ووضع المظهر فى موضع المضمر للاشعار بعلية العبادة لقبولها واما كافة العباد وهم داخلون فى ذلك دخولا أوليا (ويأخذ الصدقات) أى يقبل صدقاتهم على أن اللام عوض عن المضاف اليه أو جنس الصدقات المندرج تحته صدقاتهم اندراجا أوليا أى هو الذى يتولى قبول التوبة وأخذ الصدقات ومايتعلق بها من التطهير والتزكية وإن كنت أنت المباشر لها ظاهرا وفيه من تقرير ماذكر ورفع شأن النبى صلى الله عليه وسلم على نهج قوله تعالى إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله مالايخفى (وأن الله هو التواب الرحيم) تأكيد لما عطف عليه وزيادة تقرير لمايقرره مع زيادة معنى ليس فيه أى ألم يعلموا أنه المختص المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التوبة والرحمة وأن ذلك سنة مستمرة له وشأن دائم والجملتان فى حيز النصب بيعلموا بسد كل واحدة منهما مسد مفعوليه واما للغير التائبين من المؤمنين فقد روى أنهم قالوا ماتيب على الأولين هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لايكلمون ولايجالسون فمالهم فنزلت أى ألم يعلموا اما للتائبين من الخصال الداعية إلى التكرمة والتقريب والانتظام فى سلك المؤمنين والتلقى بحسن القبول والمجالسة فهو ترغيب لهم فى التوبة والصدقة وقوله تعالى (وقل اعملوا) زيادة ترغيب لهم فى العمل الصالح الذى من جملته التوبة للأولين فى الثبات على ماهم عليه أى قل لهم بعد مابان لهم شأن التوبة اعملوا ماتشاؤن من الأعمال فظاهره ترخيص وتخيير وباطنه ترغيب وترهيب وقوله عز وجل (فسيرى الله عملكم) أى خيرا كان أو شرا تعليل لما قبله وتأكيد للترغيب والترهيب والسين للتأكيد (ورسوله) عطف على الاسم الجليل وتأخيره عن المفعول للاشعار بما

بين الرؤيتين من التفاوت (والمؤمنون) فى الخبر لو أن رجلا عمل فى صخرة لاباب لها ولاكوة لخرج عمله إلى الناس كائنا ماكان والمعنى ان أعمالكم غير خافية عليهم كما رأيتم وتبين لكم ثم ان كان المراد بالرؤية معناها الحقيقى فالأمر ظاهر وان أريد بها مآلها من الجزاء خيرا أوشرا فهو خاص بالدنيوى من اظهار المدح والثناء والذكر الجميل والاعزاز ونحو ذلك من الأجزية وأضدادها (وستردون) أى بعد الموت (إلى عالم الغيب والشهادة) فى وضع الظاهر موضع المضمر من تهويل الأمر وتربية المهابة مالايخفى ووجه تقديم الغيب فى الذكر لسعة عالمه وزيادة خطره على الشهادة غنى عن البيان وقيل ان الموجودات الغائبة عن الحواس علل أو كالعلل للموجودات المحسوسة والعلم بالعلل علة للعلم بالمعلولات فوجب سبق العلم بالغيب على العلم بالشهادة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيب مايسرونه من الأعمال والشهادة مايظهرونه كقوله تعالى يعلم مايسرون ومايعلنون فالتقديم حينئذ لتحقيق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة على أبلغ وجه وآكده لا لايهام أن علمه سبحانه بمايسرونه أقدم منه بما يعلنونه كيف لاوعلمه سبحانه بمعلوماته منزه عن أن يكون بطريق حصول الصورة بل وجود كل شيء وتحققه فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لايختلف الحال بين الأمور البارزة والكامنة واما للايذان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلن اذ مامن شيء يعلن الا وهو أومباديه القريبة أو البعيدة مضمر قبل ذلك فى القلب فتعلق علمه تعالى به فى حالته الأولى متقدم على تعلقه به فى حالته الثانية (فينبئكم) عقيب الرد الذى هو عبارة عن الأمر الممتد إلى يوم القيامة (بما كنتم تعملون) قبل ذلك فى الدنيا والمراد بالتنبئة بذلك الجزاء بحسبه ان خيرا فخير وان شرا فشر فهو وعد ووعيد (وآخرون) عطف على آخرون قبله أى ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب قوم آخرون غير المعترفين المذكورين (مرجون) وقرىء مرجئون من أرجيته وأرجأته أى أخرته ومنه المرجئة الذين لايقطعون بقبول التوبة (لأمر الله) فى شأنهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السوارى واظهار الغم والجزع والندم على مافعلوا فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أصحابه عن أن يسلموا عليهم ويكلموهم وكانوا من أصحاب بدر فهجروهم والناس فى شأنهم على اختلاف فمن قائل هلكوا وقائل عسى الله أن يغفر لهم فصاروا عندهم مرجئين لأمره تعالى (إما يعذبهم) ان بقوا على ماهم عليه من الحال وقيل ان أصروا على النفاق وليس بذاك فان المذكورين ليسوا من المنافقين (وإما يتوب عليهم) ان خلصت نيتهم وصحت توبتهم والجملة فى محل النصب على الحالية أى منهم هؤلاء امامعذبين وامامتوبا عليهم وقيل آخرون مبتدأ ومرجون صفته وهذه الجملة خبره (والله عليم) بأحوالهم (حكيم) فيما فعل بهم من الارجاء وما بعده وقرىء والله غفور رحيم (والذين اتخذوا مسجدا) عطف على ماسبق أى ومنهم الذين أونصب على الذم وقرىء بغير واو لأنها قصة على حيالها (ضرارا) أى مضارة للمؤمنين وانتصابه على أنه مفعول له أومفعول ثان لاتخذوا أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر منصوب على الحالية أى يضارون بذلك ضرارا أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا من ضمير اتخذوا أى مضارين للمؤمنين . روى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فيصلى بهم فى مسجدهم فلما فعله عليه الصلاة والسلام حسدتهم اخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا نبنى مسجدا ونرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ويصلى فيه أبو عامر الراهب أيضا إذا قدم من الشام وهو الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق وقد كان قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لا أجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم فلم يزل يفعل ذلك

إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هاربا إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فانى ذاهب إلى قيصر وآت بجنود فمخرج محمدا وأصحابه من المدينة فبنوا مسجدا إلى جنب مسجد قباء وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة فقال عليه الصلاة والسلام انى على جناح سفر وحال شغل وإذا قدمنا ان شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قفل عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوك سألوه اتيان المسجد فنزلت عليه فدعا بمالك ابن الدخشم ومعن بن عدى وعامر ابن السكن ووحشى فقال لهم انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة وهلك أبو عامر الفاسق بالشام بقنسرين (وَكُفْرًا) تقوية للكفر الذى يضمرونه (وتفريقاً بينَ المؤمنينَ) الذين كانوا يصلون فى مسجد قباء مجتمعين فيغص بهم فأرادوا أن يتفرقوا وتختلف كلمتهم (وَإرْصاداً) اعدادا وانتظارا وترقبا (لِمَنْ حارَبَ اللهَ ورسُولَهُ) وهو الراهب الفاسق أى لأجله حتى يجىء فيصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم (مِن قَبْلُ) متعلق باتخذوا أى اتخذوه من قبل أن ينافقوا بالتخلف حيث كانوا بنوه قبل غزوة تبوك أو بحارب أى حاربهما قبل اتخاذ هذا المسجد (وَلَيَحْلِفنّ إنْ أرَدْنا) أى ما أردنا ببناء هذا المسجد (إلا الحسْنىٰ) الا الخصلة الحسنى وهى الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين أو الا الارادة الحسنى (واللهُ يشهدُ إنهمْ لكَـٰذِبُونَ) فى حلفهم ذلك (لا تَقُمْ) للصلاة (فيهِ) فى ذلك المسجد حسبما دعوك اليه (أبداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ) أى بنى أصله (على التّقْوَىٰ) يعنى مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة وقيل هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وعن أبى سعيد رضى الله عنه سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذى أسس على التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال مسجدكم هذا مسجد المدينة واللام اما للابتداء أو للقسم المحذوف أى والله لمسجد وعلى التقديرين فمسجد مبتدأ وما بعده صفته وقوله تعالى (مِنْ أوّلِ يَوْمٍ) أى من أيام تأسيسه متعلق بأسس وقوله تعالى (أحقُّ أن تقومَ فِيهِ) أى للصلاة وذكر الله تعالى خبره وقوله تعالى (فِيهِ رِجَالٌ) جملة مستأنفة مبينة لأحقيته لقيامه عليه الصلاة والسلام فيه من جهة الحال بعد بيان أحقيته له من حيث المحل أو صفة أخرى للمبتدا أو حال من الضمير فى ففيه وعلى كل حال ففيه تحقيق وتقرير لاستحقاقه القيام فيه والمراد بكونه أحق نفس كونه حقيقا به إذ لا استحقاق فى مسجد الضرار رأسا وإنما عبر عنه بصيغة التفضيل لفضله وكماله فى نفسه أو الأفضلية فى الاستحقاق المتناول لما يكون باعتبار زعم البانى ومن يشايعه فى الاعتقاد وهو الأنسب بما سيأتى (يحبُّونَ أن يَتطهّرُوا) من المعاصى والخصال الذميمة لمرضاة الله سبحانه وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها (واللهُ يحبُّ المطّهّرِينَ) أى يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه ادناء المحب حبيبه. قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فاذا الأنصار جلوس فقال أمؤمنون أنتم فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر رضى الله تعالى عنه يارسول الله انهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه الصلاة والسلام أترضون بالقضاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام أتصبرون على البلاء قالوا نعم قال أتشكرون فى الرخاء قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام مؤمنون ورب الكعبة فجلس ثم قال يامعشر الأنصار ان الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط فقالوا نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء فتلا النبى عليه الصلاة والسلام فيه رجال يحبون أن يتطهروا وقرىء أن يطهروا بالادغام وقيل هو عام فى التطهر عن النجاسات كلها وكانوا يتبعون الماء اثر البول وعن الحسن رضى الله عنه هو التطهر عن

الذنوب بالتوبة وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ) على بناء الفعل للفاعل والنصب وقرىء على البناء للمفعول والرفع وقرىء أسس بنيانه على الاضافة جمع اساس وأساس بالفتح والكسر جمع اس وقرىء اساس بنيانه جمع اس أيضا واس بنيانه وهى جملة مستأنفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين من أهل مسجد الضرار والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر أى أبعد ما علم حالهم من أسس بنيان دينه (عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ) أى على قاعدة محكمة هى التقوى من الله وابتغاء مرضاته بالطاعة والمراد بالتقوى درجتها الثانية التى هى التوقى عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك وقرىء تقوى بالتنوين على أن الألف للالحاق دون التأنيث (خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ) ترك الاضمار للايذان باختلاف البنيانين ذاتا مع اختلافهما وصفا وإضافة (عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ) الشفا الحرف والشفير والجرف ماجرفه السيل أى استأصله واحتفر ماتحته فبقى واهيا يريد الانهدام والهار الهائر المتصدع المشرف إلى السقوط من هار يهور ويهار أو هار يهير قدمت لامه على عينه فصار كغاز ورام وقيل حذفت عينه اعتباطا أى بغير موجب فجرى وجوه الاعراب على لامه (فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ) مثل ما بنوا عليه أمر دينهم فى البطلان وسرعة الانطماس بما ذكر ثم رشح بانهياره فى النار ووضع بمقابلة الرضوان تنبيها على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله إلى الرضوان ومقتضياته التى أدناها الجنة وتأسيس هذا على ما هو بصدد الوقوع فى النار ساعة فساعة ثم مصيرهم اليها لا محالة وقرىء جرف بسكون الراء (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أى لانفسهم أو الواضعين للأشياء فى غير مواضعها أى لا يرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وصلاحهم ارشادا موجبا له لا محالة وأما الدلالة على ما يرشدهم اليه ان استرشدوا به فهو متحقق بلا اشتباه (لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا) البنيان مصدر أريد به المفعول ووصفه بالموصول الذى صلته فعله للايذان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على أوهن قاعدة وأوهى أساس وللاشعار بعلة الحكم أى لا يزال مسجدهم ذلك مبنيا ومهدوما (رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ) أى سبب ريبة وشك فى الدين كانه نفس الريبة أما حال بنيانه فظاهر لما أن اعتزالهم من المؤمنين واجتماعهم فى مجمع على حياله يظهرون فيه ما فى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون فيه أمورهم ويتشاورون فى ذلك ويلقى بعضهم إلى بعض ما سمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين وأما حال هدمه فلما أنه رسخ به ما كان فى قلوبهم من الشر وتضاعفت آثاره وأحكامه أو سبب ريبة فى أمرهم حيث ضعفت قلوبهم ووهى اعتقادهم بخفاء أمرهم على المؤمنين لانهم أظهروا من أمرهم بعد البناء أكثر مما كانوا يظهرونه قبل ذلك وقت اختلاطهم بالمؤمنين وساءت ظنونهم بأنفسهم فلما هدم بنيانهم تضاعف ذلك الضعف وتقوى وصاروا مرتابين فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يتركهم على ما كانوا عليه من قبل أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم وقال الكلبى معنى ريبة حسرة وندامة وقال السدى وحبيب والمبرد لا يزال هدم بنيانهم حزازة وغيظا فى قلوبهم (إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ) من التفعل بحذف احدى التاءين أى الا أن تتقطع (قُلُوبُهُمْ) قطعا وتتفرق أجزاء بحيث لا يبقى لها قابلية ادراك واضمار قطعا وهو استثناء من أعم الاوقات أو أعم الاحوال ومحله النصب على الظرفية أى لا يزال بنيانهم ريبة فى كل الاوقات أو كل الاحوال الا وقت تقطع قلوبهم أو حال تقطع قلوبهم فحينئذ يسلون عنها وأما ما دامت سالمة فالريبة باقية فيها فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم ويجوز أن يكون المراد حقيقة تقطعها عند قتلهم أو فى القبور أو فى النار وقرىء تقطع على بناء المجهول من التفعيل وعلى البناء للفاعل منه على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم أى الا أن تقطع أنت قلوبهم بالقتل وقرىء على البناء للمجهول من الثلاثى مذكرا ومؤنثا وقرىء إلى أن تقطع قلوبهم وإلى أن تقطع قلوبهم على الخطاب وقرىء ولو قطعت قلوبهم على اسناد الفعل مجهولا إلى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم على الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم

أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وقيل إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم (والله عليم) بجميع الأشياء التى من جملتها ما ذكر من أحوالهم (حكيم) فى جميع أفعاله التى من زمرتها أمره الوارد فى حقهم (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) ترغيب المؤمنين فى الجهاد ببيان فضيلته اثر بيان حال المتخلفين عنه ولقد بولغ فى ذلك على وجه لا مزيد عليه حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله تعالى واثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ثم جعل المبيع الذى هو العمدة والمقصد فى العقد أنفس المؤمنين وأموالهم والثمن الذى هو الوسيلة فى الصفقة الجنة ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال ان الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصد فى العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون فى مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة اليها إيذانا بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم ثم أنه لم يقل بالجنة بل قيل (بأن لهم الجنة) مبالغة فى تقرير وصول الثمن اليهم واختصاصه بهم كأنه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم وأما ما يقال من أن ذلك لمدح المؤمنين بأنهم بذلوا أنفسهم وأموالهم بمجرد الوعد لكمال ثقتهم بوعده تعالى وأن تمام الاستعارة موقوف على ذلك إذ لو قيل بالجنة لاحتمل كون الشراء حقيقة لأنها صالحة للعوضية بخلاف الوعد بها فليس بشىء لأن مناط دلالة ما عليه النظم الكريم على الوعد ليس كونه جملة ظرفية مصدرة بأن فان ذلك بمعزل من الدلالة على الاستقبال بل هو الجنة التى يستحيل وجودها فى الدنيا ولو سلم ذلك يكون العوض الجنة الموعود بها لا الوعد بها (يقاتلون فى سبيل الله) استئناف لكن لا لبيان ما لاجله الشراء ولا لبيان نفس الاشتراء لأن قتالهم فى سبيل الله تعالى ليس باشتراء الله تعالى منهم أنفسهم وأموالهم بل هو بذل لها فى ذلك بل لبيان البيع الذى يستدعيه الاشتراء المذكور كأنه قيل كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة فقيل يقاتلون فى سبيل الله وهو بذل منهم لأنفسهم وأموالهم إلى جهة الله سبحانه وتعريض لهما للهلاك وقوله تعالى (فيقتلون ويقتلون) بيان لكون القتال فى سبيل الله بذلا للنفس وأن المقاتل فى سبيله باذل لها وان كانت سالمة غانمة فان الاسناد فى الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف بأحدهما البتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض فانه يتحقق القتال من الكل سواء وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وان لم يصدر منهم أحدهما أيضا كما إذا وجدت المضاربة ولم يوجد القتل من أحد الجانبين أو لم توجد المضاربة أيضا فانه يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد وتقديم حالة القاتلية على حالة المقتولية للايذان بعدم الفرق بينهما فى كونهما مصداقا لكون القتال بذلا للنفس وقرىء بتقديم المبنى للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة فى الباب وإيذانا بعدم مبالاتهم بالموت فى سبيل الله تعالى بل بكونه أحب اليهم من السلامة كما قيل فى حقهم :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم ... قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

لا يقطع الطعن الا فى نحورهم ... وما لهم عن حياض الموت تهليل

وقيل فى يقاتلون الخ معنى الأمر كما فى قوله تعالى تجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم (وعدا عليه) مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلا (حقا) نعت لوعدا والظرف حال منه لأنه لو تأخر لكان صفة له وقوله تعالى (فى التوراة والانجيل والقرآن) متعلق بمحذوف وقع صفة لوعدا أى وعدا مثبتا فى التوراة والانجيل كما هو مثبت فى القرآن (ومن أوفى بعهده من الله) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة فى كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل واف فان اخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع إمكان صدوره عنهم فكيف بجناب الخلاق الغنى عن العالمين جل جلاله وسبك التركيب وان كان على انكار أن يكون أحد أوفى بالعهد منه تعالى من غير تعرض

لإنكار المساواة ونفيها لكن المقصود به قصدا مطردا إنكار المساواة ونفيها قطعا فإذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل (فَاسْتَبْشِرُوا) التفات إلى الخطاب تشريفا لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرور والاستبشار إظهار السرور والسين فيه ليس للطلب كاستوقدوا وأوقدوا والفاء لترتيب الاستبشار أو الأمر به على ما قبله أى فإذا كان كذلك فسروا نهاية السرور وافرحوا غاية الفرح بما فزتم به من الجنة وإنما قيل (بِبَيْعِكُمُ) مع أن الابتهاج به باعتبار أدائه إلى الجنة لأن المراد ترغيبهم فى الجهاد الذى عبر عنه بالبيع وإنما لم يذكر العقد بعنوان الشراء لأن ذلك من قبل الله سبحانه لا من قبلهم والترغيب إنما يكون فيما يتم من قبلهم وقوله تعالى (الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ) لزيادة تقرير بيعهم وللإشعار بكونه مغايرا لسائر البياعات فإنه بيع للفانى بالباقى ولأن كلا البدلين له سبحانه وتعالى . عن الحسن رضى الله عنه أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها . روى أن الأنصار لما بايعوه عليه الصلاة والسلام على العقبة قال عبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنه اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال عليه الصلاة والسلام أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم قال فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال لكم الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابى وهو يقرؤها قال كلام من قال كلام الله عز وجل قال بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج إلى الغزو واستشهد (وَذَٰلِكَ) أى الجنة التى جعلت ثمنا بمقابلة ما بذلوا من أنفسهم وأموالهم (هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الذى لا فوز أعظم منه وما فى ذلك من معنى البعد إشارة إلى بعد منزلة المشار إليه وسمو رتبته فى الكمال ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى البيع الذى أمروا بالاستبشار به ويجعل ذلك كأنه نفس الفوز العظيم أو يجعل فوزا فى نفسه فالجملة على الأول تذييل للآية الكريمة وعلى الثانى لقوله تعالى فاستبشروا مقرر لمضمونه (التَّائِبُونَ) رفع على المدح أى هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين كما يدل عليه القراءة بالياء نصبا على المدح ويجوز أن يكون مجرورا على أنه صفة للمؤمنين وقد جوز الرفع على الابتداء والخبر محذوف أى التائبون من أهل الجنة أيضا وإن لم يجاهدوا كقوله تعالى وكلا وعد الله الحسنى ويجوز أن يكون خبره قوله تعالى (الْعَابِدُونَ) وما بعده خبر بعد خبر أى التائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه النعوت الفاضلة أى المخلصون فى عبادة الله تعالى (الْحَامِدُونَ) لنعمائه أو لما نابهم من السراء والضراء (السَّائِحُونَ) الصائمون لقوله عليه الصلاة والسلام سياحة أمتى الصوم شبه بها لأنه عائق عن الشهوات أو لأنه رياضة نفسانية يتوسل بها إلى العثور على خفايا الملك والملكوت وقيل هم السائحون فى الجهاد وطلب العلم (الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ) فى الصلاة (الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) بالإيمان والطاعة (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ) عن الشرك والمعاصى والعطف فيه للدلالة على أن المتعاطفين بمنزلة خصلة واحدة وأما قوله تعالى (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ) أى فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع عملا وحملا للناس عليه فلئلا يتوهم اختصاصه بأحد الوجهين (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) أى الموصوفين بالنعوت المذكورة ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الإيمان وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به للإيذان بخروجه عن حد البيان وفى تخصيص الخطاب بالأولين إظهار زيادة اعتناء بأمرهم من الترغيب والتسلية (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا) بالله وحده أى ما صح لهم فى حكم الله عز وجل وحكمته وما استقام (أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) به سبحانه (وَلَوْ كَانُوا) أى المشركون (أُولِي قُرْبَىٰ) أى ذوى قرابة لهم وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة أخرى قبلها محذوفة حذفا مطردا كما بين فى قوله تعالى ولو كره الكافرون ونظائره . روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لعمه أبى طالب لما حضرته الوفاة يا عم قل كلمة أحاج

لك بها عند الله فأبى فقال عليه الصلاة والسلام لا أزال أستغفر لك مالم أنه عنه فنزلت وقيل لما افتتح مكة خرج إلى الابواء فزار قبر أمه ثم قام مستعبرا فقال إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي وأنزل على الآيتين (مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ) أي للنبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (أَنَّهُمْ) أي المشركين (أَصْحٰبُ الْجَحِيمِ) بأن ماتوا على الكفر أو نزل الوحي بأنهم يموتون على ذلك (وما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْرٰهِيمَ لِأَبِيهِ) بقوله واغفر لأبي أي بأن توفقه للايمان وتهديه اليه كما يلوح به تعليله بقوله انه كان من الضالين والجملة استئناف مسوق لتقرير ما سبق ودفع ما يتراءى بحسب الظاهر من المخالفة وقرىء وما استغفر ابراهيم لأبيه وقرىء ومايستغفر ابراهيم على حكاية الحال الماضية وقوله تعالى (إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ) استثناء مفرغ من أعم العلل أي لم يكن استغفاره عليه السلام لأبيه آزر ناشئا عن شيء من الأشياء إلا عن موعدة (وَعَدَها) ابراهيم عليه الصلاة والسلام (إِيّاهُ) أي اباه وقد قرىء كذلك بقوله لأستغفرن لك وقوله سأستغفر لك ربي بناء على رجاء ايمانه لعدم تبين حقيقة أمره وإلا لما وعدها اياه كأنه قيل وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة مبنية على عدم تبين أمره كما ينبىء عنه قوله تعالى (فَلَمّا تَبَيَّنَ لَهُ) أي لإبراهيم بأن أوحي اليه أنه مصر على الكفر غير مؤمن أبدا وقيل بأن مات على الكفر والأول هو الأنسب بقوله تعالى (أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ) فان وصفه بالعداوة مما يأباه حالة الموت (تَبَرَّأَ مِنْهُ) أي تنزه عن الاستغفار له وتجانب كل التجانب وفيه من المبالغة ما ليس في تركه ونظائره (إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لَأَوّٰهٌ) لكثير التأوه وهو كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب (حَلِيمٌ) صبور على الأذية والمحنة وهو استئناف لبيان ما كان يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى ما صدر عنه من الاستغفار وفيه ايذان بأن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان أواها حليما فلذلك صدر عنه ما صدر من الاستغفار قبل التبين فليس لغيره أن يأتسي به في ذلك وتأكيد لوجوب الاجتناب عنه بعد التبين بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ منه بعد التبين وهو في كمال رقة القلب والحلم فلا بد أن يكون غيره أكثر منه اجتنابا وتبرؤا وأما أن الاستغفار قبل التبين لو كان غير محظور لما استثنى من الائتساء به في قوله تعالى إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك فقد حقق في سورة مريم باذن الله تعالى (وما كانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا) أي ليس من عادته أن يصفهم بالضلال عن طريق الحق ويجري عليهم أحكامه (بَعْدَ إِذْ هَدٰهُمْ) للاسلام (حَتّى يُبَيِّنَ لَهُمْ) بالوحي صريحا أو دلالة (ما يَتَّقُونَ) أي ما يجب اتقاؤه من محظورات الدين فلا ينزجروا عما نهوا عنه وأما قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالا ولا يؤاخذون به فكأنه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك وفيه دليل على أن الغافل غير مكلف بما لا يستبد بمعرفته العقل (إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) تعليل لما سبق أي أنه تعالى عليم بجميع الأشياء التي من جملتها حاجتهم إلى بيان قبح ما لا يستقل العقل في معرفته فيبين لهم ذلك كما فعل ههنا (إِنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ) من غير شريك له فيه (يُحْيِي وَيُمِيتُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) لما منعهم من الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وضمن ذلك التبرؤ منهم رأسا بين لهم أن الله تعالى مالك كل موجود ومتولي أموره والغالب عليه ولا يتأتى لهم نصر ولا ولاية إلا منه تعالى ليتوجهوا اليه بشراشرهم متبرئين عما سواه غير قاصدين إلا اياه (لَقَدْ تابَ اللّهُ عَلَى النَّبِيِّ) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هو العفو عن اذنه للمنافقين في التخلف عنه (وَالْمُهٰجِرِينَ وَالْأَنْصارِ) قيل هو في حق زلات سبقت منهم يوم أحد ويوم حنين وقيل المراد بيان فضل التوبة وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج اليها حتى النبي صلى الله عليه وسلم لما صدر عنه في بعض الأحوال من ترك الأولى (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ) ولم يتخلفوا عنه ولم يخلوا بأمر من أوامره (فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ) أي في وقتها والتعبير عنه بالساعة لزيادة تعيينه وهي حالهم في غزوة

تبوك كانوا فى عسرة من الظهر يعتقب عشرة على بعير واحد ومن الزاد تزود والتمر المدود والشعير المسوس والإهالة الزنخة وبلغت بهم الشدة إلى أن اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء المتغير وفى عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها وفى شدة زمان من حمارة القيظ ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة ووصف المهاجرين والأنصار بما ذكر من اتباعهم له عليه الصلاة والسلام فى مثل هاتيك المراتب من الشدة للمبالغة فى بيان الحاجة إلى التوبة فإن ذلك حيث لم يغنهم عنها فلأن لا يستغنى عنها غيرهم أولى وأحرى (مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ) بيان لتناهى الشدة وبلوغها إلى ما لا غاية وراءها وهو إشراف بعضهم على أن يميلوا الى التخلف عن النبي عليه الصلاة والسلام وفى كاد ضمير الشأن أو ضمير القوم الراجع اليه الضمير فى منهم وقرىء بتأنيث الفعل وقرىء من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم يعنى المتخلفين من المؤمنين كأبى لبابة وأضرابه (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ) تكرير للتأكيد وتنبيه على أنه يتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة والمراد أنه تاب عليهم لكيدودتهم (إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) استئناف تعليلى فإن صفة الرأفة والرحمة من دواعى التوبة والعفو ويجوز كون الأول عبارة عن إزالة الضرر والثانى عن عن إيصال المنفعة وأن يكون أحدهما للسوابق والآخر للواحق (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا) أى وتاب الله على الثلاثة الذين أخر أمرهم عن أمر أبى لبابة وأصحابه حيث لم يقبل معذرتهم مثل أولئك ولا ردت ولم يقطع فى شأنهم بشىء إلى أن نزل فيهم الوحى وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وقرىء خلفوا أى خلفوا الغازين بالمدينة أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم وقرىء على المخلفين والأول هو الأنسب لأن قوله تعالى (حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ) غاية للتخليف ولا يناسبه إلا المعنى الأول أى خلفوا وأخر أمرهم أن ضاقت عليهم الارض (بِمَا رَحُبَتْ) أى برحبها وسعتها لإعراض الناس عنهم وانقطاعهم عن مفاوضتهم وهو مثل لشدة الحيرة كأنه لا يستقر به قرار ولا تطمئن له دار (وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ) أى اذا رجعوا إلى أنفسهم لا يطمئنون بشىء لعدم الانس والسرور واستيلاء الوحشة والحيرة (وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ) أى علموا أنه لا ملجأ من سخطه تعالى الا الى استغفاره (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ) أى وفقهم للتوبة (لِيَتُوبُوا) أو أنزل قبول توبتهم ليصيروا من جملة التوابين أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم (إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ) المبالغ فى قبول التوبة كما وكيفا وإن كثرت الجنايات وعظمت (الرَّحِيمُ) المتفضل عليهم بفنون الآلاء مع استحقاقهم لأفانين العقاب . روى أن ناسا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به عليه الصلاة والسلام . عن الحسن رضى الله عنه أنه قال بلغنى أنه كان لأحدهم حائط كان خيرا من مائة ألف درهم فقال يا حائطاه ما خلفنى إلا ظلك وانتظار ثمارك اذهب فأنت فى سبيل الله ولم يكن لآخر الا أهله فقال يا أهلاه ما بطأنى ولا خلفنى إلا الفتن بك فلاجرم والله لأكابدن الشدائد حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فتأبط زاده ولحق به عليه الصلاة والسلام قال الحسن رضى الله عنه كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها وعن أبى ذر الغفارى أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيا فقال عليه الصلاة والسلام لما رأى سواده كن أبا ذر فقال الناس هو ذاك فقال عليه الصلاة والسلام رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده وعن أبى خيثمة أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له فى الظل وبسطت له الحصير وقربت اليه الرطب والماء البارد فنظر فقال ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح والريح ما هذا بخير فقام ورحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال كن أبا خيثمة فكانه ففرح به رسول الله صلى الله عليه

وسلم واستغفر له ومنهم من بقى لم يلحق به عليه الصلاة والسلام منهم الثلاثة . قال كعب رضى الله عنه لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد على كالمغضب بعد ما ذكرنى وقال ياليت شعرى ما خلف كعبا فقيل له ما خلفه الا حسن برديه والنظر فى عطفيه فقال عليه الصلاة والسلام ما أعلم إلا فضلا وإسلاما ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلع أبشر يا كعب بن مالك فخررت لله ساجدا وكنت كما وصفنى ربى وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وتتابعت البشارة فلبست ثوبى وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول إلى حتى صافحنى وقال لتهنك توبة الله عليك فلن أنساها لطلحة رضى الله عنه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر أبشر يا كعب بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية وعن أبى بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ خطاب عام يندرج فيه التائبون اندراجا أوليا وقيل لمن تخلف عليه من الطلقاء عن غزوة تبوك خاصة ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه المعاملة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر المغازى دخولا أوليا ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ ﴾ فى أيمانهم وعهودهم أو فى دين الله نية وقولا وعملا أو فى كل شأن من الشئون فيدخل ما ذكر أو فى توبتهم وإنابتهم فيكون المراد بهم حينئذ هؤلاء الثلاثة وأضرابهم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه خطاب لمن آمن من أهل الكتاب أى كونوا مع المهاجرين والأنصار وانتظموا فى سلكهم فى الصدق وسائر المحاسن وقرىء من الصادقين ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ ما صح وما استقام لهم ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ ﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأضرابهم ﴿ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ﴾ عند توجهه عليه الصلاة والسلام إلى الغزو ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا ﴾ نصب وقد جوز الجزم ﴿ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أى لا يصرفوها عن نفسه الكريمة ولا يصونوها عما لم يصن عنه نفسه بل يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب والكلام فى معنى النهى وإن كان على صورة الخبر ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما دل عليه الكلام من وجوب المشايعة ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ أى عطش يسير ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ ولا تعب ما ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ أى مجاعة ما لا يستباح عنده المحرمات من مراتبها فان الظمأ والنصب اليسيرين حين لم يخلوا من الثواب فلأن لا يخلو ذلك منه أولى فلا حاجة إلى تأكيد النفى بتكرير كلمة لا ويجوز أن يراد بها تلك المرتبة ويكون الترتيب بناء على كثرة الوقوع وقلته فان الظمأ أكثر وقوعا من النصب الذى هو أكثر وقوعا من المخمصة بالمعنى المذكور فتوسيط كلمة لا حينئذ ليس لتأكيد النفى بل للدلالة على استقلال كل واحد منها بالفضيلة والاعتداد به ﴿ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ واعلاء كلمته ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ أى لا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم دوسا أو مكانا يداس ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾ مصدر كالقتل والأسر والنهب أو مفعول أى شيئا ينال من قبلهم ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ ﴾ أى بكل واحد من الأمور المعدودة ﴿ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ وحسنة مقبولة مستوجبة بحكم الوعد الكريم للثواب الجليل ونيل الزلفى والتنوين للتفخيم وكون المكتوب عين ما فعلوه من الأمور لا يمنع دخول الباء فان اختلاف العنوان كاف فى ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ على إحسانهم تعليل لما سلف من الكتب والمراد بالمحسنين إما المبحوث عنهم ووضع المظهر موضع المضمر لمدحهم والشهادة عليهم بالانتظام فى سلك المحسنين وأن أعمالهم من قبيل الإحسان وللاشعار بعلية المأخذ للحكم واما جنس المحسنين وهم داخلون فيه دخولا أوليا ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ﴾ ولو تمرة أو علاقة سوط ﴿ وَلَا كَبِيرَةً ﴾ كما أنفق عثمان رضى الله عنه

والترتيب باعتبار ماذكر من كثرة الوقوع وقلته وتوسيط لا للتنصيص على استبداد كل منهما بالكتب والجزاء لا لتأكيد النفى كما فى قوله عز وجل (وَلَا يَقْطَعُونَ) أى لا يجتازون فى مسيرهم (وَادِيًا) وهو فى الأصل كل منفرج من الجبال والآكام يكون منفذا للسيل اسم فاعل من ودى إذا سال ثم شاع فى الأرض على الإطلاق (إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ) أى أثبت لهم ذلك الذى فعلوه من الانفاق والقطع (لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ) بذلك (أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أحسن جزاء أعمالهم أو جزاء أحسن أعمالهم (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً) أى ماصح وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا جميعا فان ذلك مخل بأمر المعاش (فَلَوْلَا نَفَرَ) فهلا نفر (مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ) أى طائفة كثيرة (مِنْهُمْ) كأهل بلدة أو قبيلة عظيمة (طَائِفَةٌ) أى جماعة قليلة (لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) أى يتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا مشاق تحصيلها (وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ) أى وليجعلوا غاية سعيهم ومرمى غرضهم من ذلك إرشاد القوم وإنذارهم (إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ) وتخصيصه بالذكر لأنه أهم وفيه دليل على أن التفقه فى الدين من فروض الكفاية وأن يكون غرض المتعلم الاستقامة والاقامة لا الترفع على العباد والتبسط فى البلاد كما هو ديدن أبناء الزمان والله المستعان (لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) إرادة أن يحذروا عما ينذرون واستدل به على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضى أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة إلى التفقه لتنذر فرقتها كى يتذكروا ويحذروا فلو لم يعتبر الاخبار مالم يتواتر لم يفد ذلك وقد قيل للآية وجه آخر وهو أن المؤمنين لما سمعوا ما نزل فى المتخلفين سارعوا إلى النفير رغبة ورهبة وانقطعوا عن التفقه فأمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع الفقه الذى هو الجهاد الأكبر لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فالضمير فى ليتفقهوا ولينذروا لبواقى الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو وفى رجعوا للطوائف أى ولينذر البواقى قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم بما حصلوا فى أيام غيبتهم من العلوم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب كما أمر عليه الصلاة والسلام أولا بانذار عشيرته فان الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح قيل هم اليهود حوالى المدينة كبنى قريظة والنضير وخيبر وقيل الروم فانهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة بالنسبة إلى العراق وغيره (وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) أى شدة وصبرا على القتال وقرىء بفتح الغين كسخطة وبضمها وهما لغتان فيها (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) بالعصمة والنصرة والمراد بهم اما المخاطبون ووضع الظاهر موضع الضمير للتنصيص على أن الإيمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى والشهادة بكونهم من زمرة المتقين واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والمراد بالمعية الولاية الدائمة وقد ذكر وجه دخول مع على المتبوع فى قوله تعالى ان الله معنا (وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ) من سور القرآن (فَمِنْهُمْ) أى من المنافقين (مَنْ يَقُولُ) لإخوانه ليثبتهم على النفاق أو لعوام المؤمنين وضعفتهم ليصدهم عن الإيمان (أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ) السورة (إِيمَانًا) وقرىء بنصب أيكم على تقدير فعل يفسره المذكور أى أيكم زادت زادته هذه الخ وإيراد الزيادة مع أنه لا إيمان فيهم أصلا باعتبار اعتقاد المؤمنين حسبما نطق به قوله تعالى انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا) جواب من جهته سبحانه وتحقيق للحق وتعيين لحالهم عاجلا وآجلا أى فأما الذين آمنوا بالله تعالى وبما جاء من عنده (فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا) بزيادة العلم اليقينى الحاصل من التدبر فيها والوقوف على ما فيها من الحقائق وانضمام ايمانهم بما فيها بايمانهم السابق (وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) بنزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أى كفر وسوء عقيدة (فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ) أى كفرا بها مضموما إلى الكفر بغيرها وعقائد باطلة

وأخلاقا ذميمة كذلك (ومَاتُوا وَهم كٰفِرُونَ) واستحكم ذلك إلى أن يموتوا عليه (أوَلَا يَرَوْنَ) الهمزة للانكار والتوبيخ والواو للعطف على مقدر أى ألا ينظرون ولا يرون (أنهُمْ) أى المنافقين (يفْتَنُونَ فِى كل عامٍ) من الأعوام (مَرّةً أوْ مَرّتَيْنِ) والمراد مجرد التكثير لا بيان الوقوع حسب العدد المزبور أى يبتلون بأفانين البليات من المرض والشدة وغير ذلك مما يذكر الذنوب والوقوف بين يدى رب العزة فيؤدى إلى الايمان به تعالى أو بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاينون ما ينزل عليه من الآيات لاسيما القوارع الزائدة للايمان الناعية عليهم ما فيهم من القبائح المخزية لهم (ثمّ لا يَتُوبونَ) عطف على لا يرون داخل تحت الانكار والتوبيخ وكذا قوله تعالى (وَلاهمْ يذّكّرُونَ) والمعنى أو لا يرون افتتانهم الموجب لايمانهم ثم لا يتوبون عما هم عليه من النفاق ولاهم يتذكرون بتلك الفتن الموجبة للتذكر والتوبة وقرىء بالتاء والخطاب للمؤمنين والهمزة للتعجيب أى ألا تنظرون ولا ترون أحوالهم العجيبة التى هى افتتانهم على وجه التتابع وعدم التنبه لذلك فقوله تعالى ثم لا يتوبون وما عطف عليه معطوف على يفتنون (وَإذَا مَا أنزلتْ سورَةٌ) بيان لأحوالهم عند نزولها وهم فى محفل تبليغ الوحى كما أن الأول بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه (نظَرَ بعْضُهمْ إلى بعْض) تغامزوا بالعيون انكارا لها أو سخرية بها أو غيظا لما فيها من مخازيهم (هلْ يَرٰيكم مِنْ أحَد) أى قائلين هل يراكم أحد من المسلمين لننصرف مظهرين أنهم لا يصطبرون على استماعها ويغلب عليهم الضحك فيفتضحون أو ترامقوا يتشاورون فى تدبير الخروج والانسلال لواذا يقولون هل يراكم من أحد إن قمتم من المجلس وايراد ضمير الخطاب لبعث المخاطبين على الجد فى انتهاز الفرصة فان المرء بشأنه أكثر اهتماما منه بشأن أصحابه كما فى قوله تعالى وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا وقيل المعنى وإذا ما أنزلت سورة فى عيوب المنافقين (ثمّ انصَرفوا) عطف على نظر بعضهم والتراخى باعتبار وجدان الفرصة والوقوف على عدم رؤية أحد من المؤمنين أى انصرفوا جميعا عن محفل الوحى خوفا من الافتضاح أو غير ذلك (صَرَفَ اللهُ قلُوبَهمْ) أى عن الايمان حسب انصرافهم عن المجلس والجلة اخبارية أو دعائية (بأنهُمْ) أى بسبب أنهم (قومٌ لايفْقَهُونَ) لسوء الفهم أو لعدم التدبر (لقدْ جاءَكُمْ) الخطاب للعرب (رَسولٌ) أى رسول رسول عظيم الشأن (مِنْ أنفسِكمْ) من جنسكم عربى قرشى مثلكم وقرىء بفتح الفاء أى أشرفكم وأفضلكم (عَزيزٌ عَليْهِ مَا عَنِتُّمْ) أى شاق شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع فى العذاب وهذا من نتائج ما سلف من المجانسة (حَريصٌ عَليْكُمْ) فى ايمانكم وصلاح حالكم (بالمُؤمنينَ) منكم ومن غيركم (رَءُوفٌ رّحِيمٌ) قدم الأبلغ منهما وهى الرأفة التى هى عبارة عن شدة الرحمة محافظة على الفواصل (فإنْ توَلّوْا) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى النبى صلى الله عليه وسلم تسلية له أى ان أعرضوا عن الايمان بك (فقُلْ حَسْبِىَ اللهُ) فانه يكفيك وبعينك عليهم (لا إلٰهَ إلا هو) استئناف مقرر لمضمون ما قبله (عَليْهِ توَكّلْتُ) فلا أرجو ولا أخاف إلا منه (وَهوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمُ) أى الملك العظيم او الجسم الأعظم المحيط الذى تنزل منه الأحكام والمقادير وقرىء العظيم بالرفع وعن أبى أن آخر ما نزل هاتان الآيتان. وعن النبى صلى الله عليه وسلم ما نزل القرآن علىّ الا آية آية وحرفا حرفا ما خلا سورة براءة وسورة قل هو الله أحد فانهما أنزلتا علىّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة.

سورة يونس عليه السلام

(مكية وآياتها مائة وتسع آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر) بتفخيم الراء المفتوحة وقرىء بالإمالة إجراء للأصلية مجرى المنقلبة عن الياء وقرىء بين بين وهو إما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الإعراب واما اسم للسورة كما عليه اطباق الأكثر فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى هذه السورة مسماة بالر وهو أظهر من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلم بالتسمية بعد فحقها الاخبار بها لا جعلها عنوان الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بالانتساب كما مر . والاشارة اليها قبل جريان ذكرها لما أنها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده صارت فى حكم الحاضر كما يقال هذا ما اشترى فلان أو النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر أو اقرأ وكلمة (تلك) إشارة اليها أما على تقدير كون الر مسرودة على نمط التعديد فقد نزل حضور مادتها التى هى الحروف المذكورة منزلة ذكرها فأشير اليها كأنه قيل هذه الكلمات المؤلفة من جنس هذه الحروف المبسوطة الخ وأما على تقدير كونه اسما للسورة فقد نوهت بالاشارة اليها بعد تنويهها بتعيين اسمها أو الأمر بذكرها أو بقراءتها وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتها فى الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره قوله تعالى (آيات الكتاب) وعلى تقدير كون الر مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الأول والمعنى هى آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمقصود ببيان بعضيتها منه وصفها بما اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة والصفات الكاملة والمراد بالكتاب إما جميع القرآن العظيم وإن لم ينزل الكل حينئذ اما باعتبار تعينه وتحققه فى علم الله عز وعلا أو فى اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة إلى السماء الدنيا كما هو المشهور فان فاتحة الكتاب كانت مسماة بهذا الاسم وبأم القرآن فى عهد النبوة ولما يحصل المجموع الشخصى إذ ذاك فلا بد من ملاحظة كل من الكتاب والقرآن باحد الاعتبارات المذكورة وإما جميع القرآن النازل وقتئذ المتفاهم بين الناس إذ ذاك فانه كما يطلق على المجموع الشخصى يطلق على مجموع ما نزل فى كل عصر ألا يرى إلى ما روى عن جابر رضى الله عنه أنه قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد فى ثوب واحد ثم يقول أيهم أكثر أخذاً للقرآن فاذا أشير له إلى أحدهما قدمه فى اللحد فان ما يفهمه الناس من القرآن فى ذلك الوقت ويحافظون على التفاوت فى أخذه إنما هو المجموع النازل حينئذ من غير ملاحظة لتحقق المجموع الشخصى فى علم الله سبحانه أو فى اللوح ولا لنزوله جملة إلى السماء الدنيا (الحكيم) ذى الحكمة وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة ونطقه بها أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه أو من باب الاستعارة المكنية المبنية على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة هذا وقد جعل الكتاب عبارة عن نفس السورة وكلمة تلك إشارة إلى ما فى ضمنها من الآى فانها فى حكم الحاضر لا سيما بعد ذكر ما يتضمنها من السورة عند بيان اسمها أو الأمر بذكرها أو بقراءتها وينبغى أن يكون المشار اليه حينئذ كل واحدة منها لا جميعها من حيث هو جميع لأنه عين السورة فلا يكون للاضافة وجه ولا لتخصيص الوصف بالمضاف اليه حكمة فلا يتأتى ما قصد من مدح المضاف بما للمضاف اليه من صفات الكمال ولأن فى بيان اتصاف كل منها بالكمال من المبالغة ما ليس فى بيان اتصاف الكل بذلك والمتبادر من الكتاب عند الاطلاق وإن كان كله بأحد الوجهين المذكورين لكن صحة اطلاقه على بعضه أيضا مما لا ريب فيها والمعهود المشهور وإن كان اتصاف الكل بأحد الاعتبارين

بما ذكر من نعوت الكمال الا أن شهرة اتصاف كل سورة منه بما اتصف به الكل مما لا ينكر وعليه يدور تحقق مدح السورة بكونها بعضا من القرآن الكريم إذ لولا أن بعضه منعوت بنعت كله داخل تحت حكمه لما تسنى ذلك وفيه ما لا يخفى من التكلف والتعسف (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً) الهمزة لإنكار تعجبهم ولتعجيب السامعين منه لكونه فى غير محله والمراد بالناس كفار مكة وإنما عبر عنهم باسم الجنس من غير تعرض لكفرهم مع أنه المدار لتعجبهم كما تعرض له فى قوله عز وجل قال الكافرون الخ لتحقيق ما فيه الشركة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعيين مدار التعجب فى زعمهم ثم تبيين خطئهم وإظهار بطلان زعمهم بايراد الانكار والتعجيب واللام متعلقة بمحذوف وقع حالا من عجبا وقيل بعجبا على التوسع المشهور فى الظروف وقيل المصدر إذا كان بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول جاز تقديم معموله عليه وقيل متعلقة بكان وهو مبنى على دلالة كان الناقصة على الحدث (أَنْ أَوْحَيْنَا) اسم كان قدم عليه خبرها اهتماما بشأنه لكونه مدار الانكار والتعجيب وتشويقا إلى المؤخر ولأن فى الاسم ضرب تفصيل ففى مراعاة الأصل نوع إخلال بتجاوب أطراف الكلام وقرىء برفع عجب على أنه الاسم وهو نكرة والخبر أن أوحينا وهو معرفة لأن أن مع الفعل فى تأويل المصدر المضاف إلى المعرفة البتة والمختار حينئذ أن تجعل كان تامة وأن أوحينا متعلقا بعجب على حذف حرف التعليل أى أحدث للناس عجب لأن أوحينا أو من أن أوحينا أو بدلا من عجب لكن لا على توجيه الانكار والتعجيب إلى حدوثه بل إلى كونه عجبا فان كون الابدال فى حكم تنحية المبدل منه ليس معناه إهداره بالمرة وإنما قيل للناس لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم وفيه من زيادة تقبيح حالهم ما لا يخفى (إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ) أى إلى بشر من جنسهم كقولهم أبعث الله بشرا رسولا أو من أفنائهم من حيث المال لا من عظمائهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وكلا الوجهين من ظهور البطلان بحيث لا مزيد عليه . أما الأول فلأن بعث الملك إنما يكون عند كون المبعوث إليهم ملائكة كما قال سبحانه قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية كيف لا وهى منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك إليهم مزاحم للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وإنما الذى تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك من بينهم إلى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا إلى جانب . وأما الثانى فلما أن مناط الاصطفاء للنبوة والرسالة هو التقدم فى الاتصاف بما ذكر من النعوت الجميلة والصفات الجليلة والسبق فى إحراز الفضائل العلية وحيازة الملكات السنية جبلة واكتسابا ولا ريب لأحد منهم فى أنه عليه الصلاة والسلام فى ذلك الشأن فى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية وأما التقدم فى الرياسات الدنيوية والسبق فى نيل الحظوظ الدنية فلا دخل له فى ذلك قطعا بل له إخلال به غالبا قال عليه الصلاة والسلام لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء (أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) أن مصدرية لجواز كون صلتها أمرا كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك وذلك لأن الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر سيان فساغ وقوع الأمر والنهى صلة حسب وقوع الفعل فليجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال ووجوب كون الصلة فى الموصول الاسمى خبرية إنما هو للتوصل بها إلى وصف المعارف بالجمل لا لقصور فى دلالة الانشاء على المصدر أو مفسرة إذ الايحاء فيه معنى القول وقد جوز كونها مخففة من المثقلة على حذف ضمير الشأن والقول من الخبر والمعنى أن الشأن قولنا أنذر الناس والمراد به جميع الناس كافة لا ما أريد بالأول وهو النكتة فى إيثار الاظهار على الاضمار وكون الثانى عين الأول عند إعادة المعرفة ليس على الاطلاق (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا) بما أوحيناه

وصدقوه (أنّ لهم) أى بأن لهم (قدمَ صِدقٍ) أى سابقة ومنزلة رفيعة (عِندَ ربهم) وإنما عبر عنها بها إذ بها يحصل السبق والوصول إلى المنازل الرفيعة كما يعبر عن النعمة باليد لأنها تعطى بها وقيل مقام صدق والوجه أن الوصول إلى المقام إنما يحصل بالقدم وإضافتها إلى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها وللتنبيه على أن مدار نيل ما نالوه من المراتب العلية هو صدقهم فان التصديق لا ينفك عن الصدق (قالَ الكـٰفرُون) هم المتعجبون وإيرادهم ههنا بعنوان الكفر مما لا حاجة إلى ذكر سببه وترك العاطف لجريانه مجرى البيان للجملة التى دخلت عليها همزة الانكار أو لكونه استئنافا مبنيا على السؤال كأنه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب هل بقوا على التردد والاستبعاد أو قطعوا فيه بشىء فقيل قال الكافرون على طريقة التأكيد (إنّ هـٰذا) يعنون به ما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن الحكيم المنطوى على الانذار والتبشير (لسِحرٌ مُبين) أى ظاهر وقرىء لساحر على أن الاشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء ما هذا إلا سحر مبين وهذا اعتراف من حيث لا يشعرون بأن ما عاينوه خارج عن طوق البشر نازل من جناب خلاق القوى والقدر ولكنهم سموه بما قالوا تماديا فى العناد كما هو ديدن المكابر اللجوج ودأب المفحم المحجوج (إنّ ربكمُ) كلام مستأنف سيق لإظهار بطلان تعجبهم المذكور وما بنوا عليه من المقالة الباطلة غب الاشارة إليه بالانكار والتعجيب وحقق فيه حقية ما تعجبوا منه وصحة ما أنكروه بالتنبيه الاجمالى على بعض ما يدل عليها من شئون الخلق والتقدير وأحوال التكوين والتدبير ويرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير لاعترافهم به من غير نكير لقوله تعالى قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون وقوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والأرض إلى قوله تعالى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله أى إن ربكم ومالك أمركم الذى تتعجبون من أن يرسل إليكم رجلا منكم بالانذار والتبشير وتعدون ما أوحى إليه من الكتاب الحكيم سحرا هو (اللهُ الذى خلقَ السمٰوٰتِ والأرضَ) وما فيهما من أصول الكائنات (فى ستةِ أيامٍ) أى فى ستة أوقات أو فى مقدار ستة أيام معهودة فان نفس اليوم الذى هو عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأرض مما لا يتصور تحققه حين لا أرض ولا سماء وفى خلقها مدرجا مع القدرة التامة على ابداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار وحث لهم على التأنى فى الأحوال والأطوار وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر قد استأثر بعلم ما يستدعيه علام الغيوب جلت قدرته ودقت حكمته وإيثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الايذان بأنها أجرام مختلفة الطباع متباينة الآثار والأحكام (ثمّ استوىٰ على العرشِ) العرش هو الجسم المحيط بسائر الأجسام سمى به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فان الأوامر والتدابير منه تنزل وقيل هو الملك ومعنى استوائه سبحانه عليه استيلاؤه عليه أو استواء أمره وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف والمعنى أنه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذى عناه منزها عن التمكن والاستقرار وهذا بيان لجلالة ملكه وسلطانه بعد بيان عظمة شأنه وسعة قدرته بما مر من خلق هاتيك الاجرام العظام (يُدبِّرُ الأمرَ) التدبير النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود والمراد ههنا التقدير على الوجه الأتم الأكمل والمراد بالأمر أمر ملكوت السموات والأرض والعرش وغير ذلك من الجزئيات الحادثة شيئا فشيئا على أطوار شتى وأنحاء لا تكاد تحصى من المناسبات والمباينات فى الذوات والصفات والأزمنة والأوقات أى يقدر ما ذكر من أمر الكائنات الذى ما تعجبوا منه من أمر البعث والوحى فرد من جملته وشعبة من دوحته ويهيء أسباب كل منها حدوثا وبقاء فى أوقاتها المعينة ويرتب مصالحها على الوجه الفائق والنمط اللائق حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير استوى وقد جوز كونها خبرا ثانيا لأن أو مستأنفة لا محل لها من الإعراب مبنية على سؤال نشأ من ذكر الاستواء على العرش المنبىء

عن اجراء أحكام الملك وعلى كل حال فإيثار صيغة المضارع للدلالة على تجدد التدبير واستمراره وقوله عز وجل (مامِنْ شفيعٍ) بيان لاستبداده سبحانه فى التقدير والتدبير ونفى الشفاعة على أبلغ الوجوه فان نفى جميع أفراد الشفيع بمن الاستغراقية يستلزم نفى الشفاعة على أتم الوجوه كما فى قوله تعالى لاعاصم اليوم من أمر الله وهذا بعد قوله تعالى يدبر الأمر جار مجرى قوله تعالى وهو يجير ولا يجار عليه عقيب قوله تعالى قل من بيده ملكوت كل شىء وقوله تعالى (إلَّا مِن بعدِ إذنهِ) استثناء مفرغ من أعم الأوقات أى مامن شفيع يشفع لأحد فى وقت من الأوقات إلا بعد إذنه المبنى على الحكمة الباهرة وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة كقوله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا وفيه من الدلالة على عظمة جلاله سبحانه مالا يخفى (ذٰلِكم) إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة أى ذلكم العظيم الشأن المنعوت بما ذكر من نعوت الكمال التى عليها يدور استحقاق الألوهية (اللهُ) وقوله تعالى (رَبكمْ) بيان له أو بدل منه أو خبر ثان لاسم الاشارة وهذا بعد بيان أن ربهم الله الذى خلق السموات والأرض الخ لزيادة التقرير والمبالغة فى التذكير ولتفريع الأمر بالعبادة عليه بقوله تعالى (فاعبُدوهُ) أى وحدوه من غير أن تشركوا به شيئاً من ملك أو نبى فضلا عن جماد لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وآمنوا بما أنزله إليكم (أفلا تذَكّرونَ) أى أتعلمون أن الأمر كما فصل فلا تتذكرون ذلك حتى تقفوا على فساد ما أنتم عليه فترتدعوا عنه (إليهِ) لا إلى أحد سواه استقلالا أو اشتراكا (مَرجعُكمْ) أى بالبعث كما ينبىء عنه قوله تعالى (جَميعاً) فانه حال من الضمير المجرور لكونه فاعلا فى المعنى أى اليه رجوعكم مجتمعين والجملة كالتعليل لوجوب العبادة (وَعدَ اللهِ) مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله عز وجل اليه مرجعكم وعد منه سبحانه بالبعث أو لفعل مقدر أى وعد الله وأيا ما كان فهو دليل على أن المراد بالمرجع هو الرجوع بالبعث لأن ما بالموت بمعزل من الوعد كما أنه بمعزل من الاجتماع وقرىء بصيغة الفعل (حَقاً) مصدر آخر مؤكد لما دل عليه الأول (إنهُ يَبدؤُ الخلقَ) وقرىء يبدىء (ثمّ يعيدُهُ) وهو استئناف علل به وجوب المرجع اليه سبحانه وتعالى فان غاية البدء والإعادة هو جزاء المكلفين بأعمالهم حسنة أو سيئة وقرىء بالفتح أى لأنه ويجوز كونه منصوبا بما نصب وعد الله أى وعد الله وعد بدء الخلق ثم اعادته ومرفوعا بما نصب حقا أى حق حقا بدء الخلق الخ (لِيَجزِيَ الذِينَ ءَامَنوا وعمِلوا الصّٰلحٰتِ بالقِسطِ) أى بالعدل وهو حال من فاعل يجزى أى ملتبسا بالعدل أو متعلق بيجزى أى ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم وإنما أجمل ذلك إيذانا بأنه لا يفى به الحصر أو بقسطهم وعدلهم عند إيمانهم ومباشرتهم للأعمال الصالحة وهو الانسب بقوله عز وجل (والذِينَ كفَرُوا لهمْ شرَابٌ مِّنْ حَميمٍ وَعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرُونَ) فان معناه ويجزى الذين كفروا بسبب كفرهم وتكرير الاسناد بجعل الجملة الظرفية خبرا للموصول لتقوية الحكم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على مواظبتهم على الكفر وتغيير النظم الكريم للايذان بكمال استحقاقهم للعقاب وأن التعذيب بمعزل عن الانتظام فى سلك العلة الغائية للخلق بدءا أو اعادة وإنما يحيق ذلك بالكفرة على موجب سوء اختيارهم وأما المقصود الأصلى من ذلك فهو الاثابة (هُوَ الذِى جَعَلَ الشّمسَ ضياءً) تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته بآثار صنعه فى النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بما مر من ابداع السموات والأرض والاستواء على العرش وغير ذلك وبيان لبعض أفراد التدبير الذى أشير اليه إشارة إجمالية وإرشاد إلى أنه حيث دبرت أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بالمعاد بارسال الرسول وانزال الكتاب وتبيين طرائق الهدى وتعيين مهاوى الردى أولى وأحرى والجعل ان جعل بمعنى الانشاء والابداع فضياء حال من مفعوله أى خلقها حال كونها

ذات ضياء على حذف المضاف أو ضياء محضا للمبالغة وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعول له الثانى أى جعلها ضياء على أحد الوجهين المذكورين لكن لا بعد أن كانت خالية عن تلك الحالة بل أبدعها كذلك كما فى قولهم ضيق فم الركية ووسع أسفلها والضياء مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وسوط وياؤه منقلبة من الواو لانكسار ما قبلها وقرئ ضئاء بهمزتين بينهما ألف بتقديم اللام على العين (وَالْقَمَرَ نُوراً) الكلام فيه كالكلام فى الشمس والضياء أقوى من النور وقيل ما بالذات ضوء وما بالعرض نور ففيه اشعار بأن نوره مستفاد من الشمس (وقدره) أى قدر له وهيأ (منازل) أو قدر مسيره فى منازل أو قدره ذا منازل على تضمين التقدير معنى التصيير وتخصيص القمر بهذا التقدير لسرعة سيره ومعاينة منازله وتعلق أحكام الشريعة به وكونه عمدة فى تواريخ العرب وقد جعل الضمير لكل منهما وهى ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين فاذا كان فى آخر منازله دق واستقوس ثم يستسر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ويكون مقام الشمس فى كل منزلة منها ثلاثة عشر يوما وهذه المنازل هى مواقع النجوم التى نسبت اليها العرب الانواء المستمطرة وهى الشرطان والبطين والثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك الغفر الزبانى الاكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت (لِتَعْلَمُوا) اما بتعاقب الليل والنهار المنوطين بطلوع الشمس وغروبها أو باعتبار نزول كل منهما فى تلك المنازل (عَدَدَ السِّنِينَ) التى يتعلق بها غرض على لاقامة مصالحكم الدينية والدنيوية (وَالْحِسَابَ) أى حساب الأوقات من الاشهر والأيام والليالى وغير ذلك مما نيط به شىء من المصالح المذكورة وتخصيص العدد بالسنين والحساب بالأوقات لما أنه لم يعتبر فى السنين المعدودة معنى مغاير لمراتب الأعداد كما اعتبر فى الأوقات المحسوبة وتحقيقه أن الحساب إحصاء ماله كمية انفصالية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل كالسنة المتحصلة من اثنى عشر شهرا قد تحصل كل من ذلك من ثلاثين يوما قد تحصل كل من ذلك من أربع وعشرين ساعة مثلا والعدد مجرد إحصائه بتكرير امثاله من غير اعتبار أن يتحصل بذلك شىء كذلك ولما لم يعتبر فى السنين المعدودة تحصل حد معين له اسم خاص غير أسامى مراتب الاعداد وحكم مستقل أضيف اليها العدد وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والألوف اعتبارى لا يجدى فى تحصل المعدود نفعا وحيث اعتبر فى الأوقات المحسوبة تحصل ما ذكر من المراتب التى لها أسام خاصة وأحكام مستقلة علق بها الحساب المنبىء عن ذلك والسنة من حيث تحققها فى نفسها مما يتعلق به الحساب وإنما الذى يتعلق به العد طائفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة من تلك الطائفة ليس من الحيثية المذكورة أعنى حيثية تحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث أنها فرد من تلك الطائفة المعدودة من غير أن يعتبر معها شىء غير ذلك وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالى بما تعلق به الحساب تفصيلا وان لم تتحد الجهة أو لأن العدد من حيث أنه لم يعتبر فيه تحصل أمر آخر حسبما حقق آنفا نازل من الحساب الذى اعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب (مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ) أى ما ذكر من الشمس والقمر على ما حكى من الأحوال وفيه ايذان بأن معنى جعلهما على تلك الأحوال والهيئات ليس الا خلقهما كذلك كما أشير اليه ولا يقدح فى ذلك أن استفادة القمر النور من الشمس أمر حادث فان المراد بجعله نورا إنما هو جعله بحيث يتصف بالنور عند وجود شرائط الاتصاف به بالفعل (إِلَّا بِالْحَقِّ) استثناء مفرغ من أعم أحوال الفاعل

أو المفعول أى ماخلق ذلك ملتبسا بشىء من الأشياء الاملتبسا بالحق مراعيا المقتضى الحكمة البالغة أو مراعى فيه ذلك وهو ماأشير اليه اجمالا من العلم بأحوال السنين والأوقات المنوط به أمور معاملاتهم وعباداتهم (يُفَصِّلُ الْآيَٰتِ) أى الآيات التكوينية المذكورة أو جميع الآيات فيدخل فيها الآيات المذكورة دخولا أوليا أو يفصل الآيات التنزيلية المنبهة على ذلك وقرىء بنون العظمة (لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) الحكمة فى ابداع الكائنات فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا أو يعلمون مافى تضاعيف الآيات المنزلة فيؤمنون بها وتخصيص التفصيل بهم لأنهم المنتفعون به (إِنَّ فِى اخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ) تنبيه آخر اجمالى على ما ذكر أى فى تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السموات وسكون الأرض أو فى تفاوتهما فى أنفسهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا وبعدا بحسب الازمنة أو فى اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة امافى الطول والقصر فان البلاد القريبة من القطب الشمالى أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها وامافى أنفسهما فان كرية الأرض تقتضى أن يكون بعض الأوقات فى بعض الأماكن ليلا وفى مقابله نهارا (وما خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ) من أصناف المصنوعات (لَءَايَٰتٍ) عظيمة أو كثيرة دالة على وجود الصانع تعالى ووحدته وكمال علمه وقدرته وبالغ حكمته التى من جملة مقتضياتها ماأنكروه من إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم وانزال الكتاب والبعث والجزاء (لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ) خصهم بذلك لأن الداعى إلى النظر والتدبر انما هو تقوى الله تعالى والحزر من العاقبة فهم الواقفون على أن جميع المخلوقات ايات دون غيرهم وكأى من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) بيان لمآل أمر من كفر بالبعث وأعرض عن البينات الدالة عليه بعد تحقيق أن مرجع الكل اليه تعالى وأنه يعيدهم بعد بدئهم للجزاء ثوابا وعقابا وتفصيل بعض الآيات الشاهدة بذلك والمراد بلقائه إما الرجوع اليه تعالى بالبعث أو لقاء الحساب كما فى قوله عز وعلا انى ظننت أنى ملاق حسابيه وأيا ما كان ففيه مع الالتفات إلى ضمير الجلالة من تهويل الأمر مالايخفى والمراد بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقا المنتظم لعدم الأمل وعدم الخوف فان عدمهما لايستدعى عدم اعتقاد وقوع المأمول والمخوف أى لايتوقعون الرجوع الينا أو لقاء حسابنا المؤدى اما إلى حسن الثواب أو إلى سوء العذاب فلا يأملون الأول واليه أشير بقوله عز وجل (وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا) فانه منبىء عن إيثار الأدنى الخسيس على الأعلى النفيس كقوله تعالى أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ولايخافون الثانى واليه أشير بقوله تعالى (وَاطْمَأَنُّوا بِهَا) أى سكنوا فى سكون من لابراح له منها آمنين من اعتراء المزعجات غير مخطرين ببالهم مايسوؤهم من عذابنا وقيل المراد بالرجاء معناه الحقيقى وباللقاء حسن اللقاء أى لايأملون حسن لقائنا بالبعث والاحياء بالحياة الأبدية ورضوا بدلا منها وبما فيها من فنون الكرامات السنية بالحياة الدنيا الدنية الفانية واطمأنوا بها أى سكنوا اليها مكبين عليها قاصرين مجامع هممهم على لذائذها وزخارفها من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم وإيثار الباء على كلمة إلى المنبئة عن مجرد الوصول والانتهاء للايذان بتمام الملابسة ودوام المصاحبة والمؤانسة وحمل الرجاء على الخوف فقط يأباه كلمة الرضا بالحياة الدنيا فانها منبئة عما ذكر من ترك الأعلى وأخذ الأدنى واختيار صيغة الماضى فى الصلتين الاخيرتين للدلالة على التحقق والتقرر كما أن اختيار صيغة المستقبل فى الأولى للايذان باستمرار عدم الرجاء (وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا) المفصلة فى صحائف الأكوان حسبما أشير إلى بعضها أو آياتنا المنزلة المنبهة على الاستشهاد بها المتفقة معها فى الدلالة على حقية مالايرجونه من اللقاء المترتب على البعث وعلى بطلان مارضوا به واطمأنوا اليه من الحياة الدنيا (غَٰفِلُونَ) لايتفكرون فيها أصلا وإن نبهوا على ذلك وذكروا

بأنواع القوارع لانهماكهم فيما يصدهم عنها من الاحوال المعدودة وتكرير الموصول للتوسل به إلى جعل صلته جملة إسمية منبئة عما هم عليه من استمرار الغفلة ودوامها وتنزيل التغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى إيذانا بمغايرة الوصف الاخير للاوصاف الأول واستقلاله باستتباع العذاب هذا وأما ما قيل من أن العطف إما لتغاير الوصفين والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأسا والانهماك فى الشهوات بحيث لا يخطر ببالهم الآخرة أصلا وإما لتغاير الفريقين والمراد بالاولين من أنكر البعث ولم يرد إلا الحياة الدنيا وبالآخرة من ألهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل فكلام ناء عن السداد فتأمل (أولٰئك) الموصوفون بما ذكر من صفات السوء (مأويٰهم) أى مسكنهم ومقرهم الذى لابراح لهم منه (النار) لاما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمها (بما كانوا يكسبون) من الاعمال القلبية المعدودة وما يستتبعه من أصناف المعاصى والسيئات أو بكسبهم إياها والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددى والباء متعلقة بمضمون الجملة الاخيرة الواقعة خبرا عن اسم الإشارة وهو مع خبره خبر لان فى قوله تعالى إن الذين لا يرجون لقاءنا الخ (إن الذين ءامنوا) أى فعلوا الإيمان أو آمنوا بما يشهد به الآيات التى غفل عنها الغافلون أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيندرج فيه ذلك اندراجا أوليا (وعملوا الصٰلحٰت) أى الاعمال الصالحة فى أنفسها اللائقة بالايمان وإنما ترك ذكر الموصوف لجريانها مجرى الأسماء (يهديهم ربهم) أوثر الالتفات تشريفا لهم باضافة الرب وإشعارا بعلة الهداية (بإيمٰنهم) أى يهديهم بسبب إيمانهم إلى مأواهم ومقصدهم وهى الجنة وإنما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس اليها لاسيما بملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة وما آواهم اليه من أعمالهم السيئة ومشاهدة ما لحق من التلويح والتصريح وفى النظم الكريم إشعار بأن مجرد الايمان والعمل الصالح لا يكفى فى الوصول إلى الجنة بل لابد بعد ذلك من الهداية الربانية وأن الكفر والمعاصى كافية فى دخول النار ثم أنه لانزاع فى أن المراد بالايمان الذى جعل سببا لتلك الهداية هو إيمانهم الخاص المشفوع بالاعمال الصالحة لا الايمان المجرد عنها ولا ما هو أعم منهما إلا أن ذلك بمعزل عن الدلالة على خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الايمان الخالى عن العمل الصالح يفضى إلى الجنة فى الجملة ولا يخلد صاحبه فى النار فان منطوق الآية الكريمة أن الايمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية إلى الجنة وأما أن كل ما هو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه قطعا كيف لا وقوله عز وجل الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون مناد بخلافه فان المراد بالظلم هو الشرك كما أطبق عليه المفسرون والمعنى لم يخلطوا إيمانهم بشرك ولئن حمل على ظاهره أيضا يدخل فى الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحا ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرام أو بترك واجب (تجرى من تحتهم الأنهٰر) أى بين أيديهم كقوله سبحانه وهذه الانهار تجرى من تحتى أو تجرى وهم على سرر مرفوعة وأرائك مصفوفة والجملة مستأنفة أو خبر ثان لان أو حال من مفعول يهديهم على تقدير كونه المهدى اليه ما يريدونه فى الجنة كما قيل وقيل يهديهم ويسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدى إلى الثواب والجنة وقوله تجرى من تحتهم الانهار جار مجرى التفسير والبيان فان التمسك بحبل السعادة فى حكم الوصول اليها وقيل يهديهم إلى إدراك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية كما قال عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم (فى جنٰت النعيم) خبر آخر أو حال أخرى منه أو من الانهار أو متعلق بتجرى أو بيهدى فالمراد بالمهدى اليه إما منازلهم فى الجنة أو ما يريدونه فيها (دعوٰهم) أى دعاؤهم وهو مبتدأ وقوله عز وجل (فيها) متعلق به وقوله تعالى (سبحٰنك اللهم) خبره أى دعاؤهم هذا الكلام وهو معمول لمقدر لا يجوز إظهاره والمعنى اللهم إنا نسبحك تسبيحا ولعلهم يقولونه عند ما عاينوا فيها من تعاجيب آثار قدرته تعالى ونتائج

رحمته ورأفته مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر تقديسا لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصان وتنزيها لوعده الكريم عن سمات الخلف (وتحيتهم فيها) التحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياك الله حياة طيبة أى ما يحيى به بعضهم بعضا أو تحية الملائكة اياهم كما فى قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام أو تحية الله عز وجل لهم كما فى قوله تعالى سلام قولا من رب رحيم (سلم) أى سلامة عن كل مكروه (وءاخر دعويهم) أى خاتمة دعائهم (أن الحمد لله رب العلمين) أى أن يقولوا ذلك نعتاله عز وجل بصفات الإكرام اثر نعته تعالى بصفات الجلال أى دعاؤهم منحصر فيما ذكر إذ ليس لهم مطلب مترقب حتى ينظموه فى سلك الدعاء وأن هى المخففة من أن المثقلة أصله أنه الحمد لله فحذف ضمير الشأن كما فى قوله: أن هالك كل من يحفى وينتعل وقرىء أن الحمد لله بالتشديد ونصب الحمد ولعل توسيط ذكر تحيتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمته للتوسل إلى ختم الحكاية بالتحميد تبركا مع أن التحية ليست بأجنبية على الاطلاق ودعوى كون ترتيب الوقوع أيضا كذلك بأن كانوا حين دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة من الآفات والفوز بأصناف الكرامات أو حياهم بذلك رب العزة فحمدوه تعالى وأثنوا عليه يأباها إضافة الآخر إلى دعواهم وقد جوز أن يكون المراد بالدعاء العبادة كما فى قوله تعالى وأعتزلكم وما تدعون الخ ايذانا بأن لا تكليف فى الجنة أى ما عبادتهم إلا أن يسبحوه ويحمدوه وليس ذلك بعبادة انما يلهمونه وينطقون به تلذذا ولا يساعده تعيين الخاتمة (ولو يعجل الله للناس) هم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى لإنكارهم البعث وما يترتب عليه من الحساب والجزاء أشير إلى بعض من عظائم معاصيهم المتفرعة على ذلك وهو استعجالهم بما أوعدوا به من العذاب تكذيبا واستهزاء وايرادهم باسم الجنس لما أن تعجيل الخير لهم ليس دائرا على وصفهم المذكور إذ ليس كل ذلك بطريق الاستدراج أى لو يعجل الله لهم (الشر) الذى كانوا يستعجلون به فانهم كانوا يقولون اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ونحو ذلك وقوله تعالى (استعجالهم بالخير) نصب على أنه مصدر تشبيهى وضع موضع مصدر ناصبه دلالة على اعتبار الاستعجال فى جانب المشبه كاعتبار التعجيل فى جانب المشبه به واشعارا بسرعة اجابته تعالى لهم حتى كان استعجالهم بالخير نفس تعجيله لهم والتقدير ولو يعجل الله لهم الشر عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به فحذف ما حذف تعويلا على دلالة الباقى عليه (لقضى إليهم أجلهم) لأدى إليهم الاجل الذى عين لعذابهم وأميتوا وأهلكوا بالمرة وما أمهلوا طرفة عين وفى إيثار صيغة المبنى للمفعول جرى على سنن الكبرياء مع الايذان بتعين الفاعل وقرىء على البناء للفاعل كما قرىء لقضينا واختيار صيغة الاستقبال فى الشرط وإن كان المعنى على المضى لإفادة أن عدم قضاء الاجل لاستمرار عدم التعجيل فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى افادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام كما حقق فى موضعه واعلم أن مدار الإفادة فى الشرطية أن يكون التالى أمرا مغايرا للمقدم فى نفسه مترتبا عليه فى الوجود كما فى قوله عز وجل لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم فان العنت أى الوقوع فى المشقة والهلاك أمر مغاير لطاعته عليه الصلاة والسلام لهم مترتب عليها فى الوجود أو يكون فردا كاملا من أفراده ممتازا عن البقية بأمر يخصه كما فى الاجوبة المحذوفة فى مثل قوله تعالى ولو ترى إذ وقفوا على ربهم وقوله تعالى ولو ترى إذ وقفوا على النار وقوله تعالى ولو ترى إذ المجرمون ونظائرها أى لرأيت أمرا هائلا فظيعا أو نحو ذلك وكما فى قوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة إذ فسر الجواب بالاستئصال فانه فرد كامل من أفراد مطلق المؤاخذة قد عبر عنه بما لا مزيد عليه فى الدلالة على الشدة والفظاعة فحسن موقعه فى معرض التالى للمؤاخذة المطلقة وأما

مانحن فيه من القضاء فليس بأمر مغاير لتعجيل الشر فى نفسه وهو ظاهر بل هو إما نفسه أو جزئى منه كسائر جزئياته من غير مزية له على البقية إذ لم يعتبر فى مفهومه ماليس فى مفهوم تعجيل الشر من الشدة والهول فلا يكون فى ترتبه عليه وجودا أو عدما مزيد فائدة مصححة لجعله تاليا له فالحق أن المقدم ليس نفس التعجيل المذكور بل هو إرادته المستتبعة للقضاء المذكور وجودا وعدما كما فى قوله تعالى لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب أى لو يريد مؤاخذتهم فان تعجيل العذاب لهم نفس المؤاخذة أو جزئى من جزئياتها غير ممتاز عن البقية فليس فى بيان ترتبه عليها وجودا أو عدما مزيد فائدة وإنما الفائدة فى بيان ترتبه على إرادتها حسبما ذكر وأيضا فى ترتب التالى على إرادة المقدم ماليس فى ترتبه على نفسه من الدلالة على المبالغة وتهويل الأمر والدلالة على أن الأمور منوطة بإرادته تعالى المبنية على الحكم البالغة (فنذرُ الذينَ لا يرجُونَ لقاءَنا) بنون العظمة الدالة على التشديد فى الوعيد وهو عطف على مقدر تنبىء عنه الشرطية كأنه قيل لكن لا نفعل ذلك لما تقتضيه الحكمة فنتركهم إمهالا واستدراجا (فى طُغيانهم) الذى هو عدم رجاء اللقاء وإنكار البعث والجزاء وما يتفرع على ذلك من أعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة (يعمهُونَ) أى يترددون ويتحيرون ففى وضع الموصول موضع الضمير نوع بيان للطغيان بما فى حيز الصلة وإشعار بعليته للترك والاستدراج (وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ) أى أصابه جنس الضر من مرض وفقر وغيرهما من الشدائد إصابة يسيرة (دَعانا) لكشفه وإزالته (لجنبِهِ) حال من فاعل دعا بشهادة ما عطف عليه من الحالين واللام بمعنى على كما فى قوله تعالى يخرون للاذقان أى دعانا كائنا على جنبه أى مضطجعا (أو قاعداً أو قائماً) أى فى جميع الاحوال بما ذكر ومالم يذكر وتخصيص المعدودات بالذكر لعدم خلو الإنسان عنها عادة أو دعانا فى جميع أحوال مرضه على أنه المراد بالضر خاصة مضطجعا عاجزا عن القعود وقاعدا غير قادر على النهوض وقائما لا يستطيع الحراك (فلمّا كشفْنا عنهُ ضُرَّهُ) الذى مسه غب مادعانا حسبما ينبىء عنه الفاء (مَرَّ) أى مضى واستمر على طريقته التى كان ينتحيها قبل مساس الضر ونسى حالة الجهد والبلاء أو مر عن موقف الضراعة والابتهال ونأى بجانبه (كأن لمْ يدعُنا) أى كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن كما فى قوله كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا والجملة التشبيهية فى محل النصب على الحالية من فاعل مر أى مر مشبها بمن لم يدعنا (إلى ضُرٍّ) أى إلى كشف ضر (مَسَّهُ) وهذا وصف للجنس باعتبار حال بعض أفراده ممن هو متصف بهذه الصفات (كذلكَ) نصب على المصدرية وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الآتى ومافيه من معنى البعد للتفخيم والكاف مقحمة للدلالة على زيادة فخامة المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل مكان أنت لا تبخل أى مثل ذلك التزيين العجيب (زُيِّنَ للمُسرفينَ) أى للموصوفين بما ذكر من الصفات الذميمة وإسرافهم لما أن الله تعالى إنما أعطاهم القوى والمشاعر ليصرفوها إلى مصارفها ويستعملوها فيما خلقت له من العلوم والأعمال الصالحة فلما صرفوها إلى ما لا ينبغى وهى رأس مالهم فقد أتلفوها وأسرفوا إسرافا ظاهرا والتزيين إما من جهة الله سبحانه على طريقة التخلية والخذلان أو من الشيطان بالوسوسة والتسويل (ما كانُوا يعملُونَ) من الاعراض عن الذكر والدعاء والانهماك فى الشهوات وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث إن فى كل منهما املاء للكفرة على طريقة الاستدراج بعد الانقاذ من الشر المقدر فى الأولى ومن الضر المقرر فى الأخرى (ولقدْ أهلكْنا القرُونَ) أى القرون الخالية مثل قوم نوح وعاد وأضرابهم ومن قوله تعالى (مِن قبْلِكُمْ) متعلقة بأهلكنا أى أهلكناهم من قبل زمانكم والخطاب لأهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة فى تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمى (لمّا ظلمُوا) ظرف للاهلاك أى أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتمادى فى الغى والضلال من غير تأخير وقوله تعالى

(وجاءتهم رسلهم) حال من ضمير ظلموا باضمار قد وقوله تعالى (بالبينات) متعلق بجاءتهم على أن الباء للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من رسلهم دالة على افراطهم فى الظلم وتناهيهم فى المكابرة أى ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينة الدالة على صدقهم أو ملتبسين بها حين لا مجال للتكذيب وقد جوز أن يكون قوله تعالى وجاءتهم عطفا على ظلموا فلا محل له من الاعراب عند سيبويه وعند غيره محله الجر لأنه معطوف على ما هو مجرور باضافة الظرف اليه وليس الظلم منحصرا فى التكذيب حتى يحتاج إلى الاعتذار بأن الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى كما فى قوله تعالى ورفع أبويه على العرش وخروا له الخ بل هو محمول على سائر أنواع الظلم والتكذيب مستفاد من قوله تعالى (وما كانوا ليؤمنوا) على أبلغ وجه وآكده فان اللام لتأكيد النفى أى وما صح وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله تعالى إياهم لعلمه بأن الالطاف لا تنجع فيهم والجملة على الأول عطف على ظلموا لأنه اخبار باحداث التكذيب وهذا بالاصرار عليه وعلى الثانى عطف على ما عطف عليه وقيل اعتراض بين الفعل وما يجرى مجرى مصدره التشبيهى أعنى قوله تعالى (كذلك) فان الجزاء المشار اليه عبارة عن مصدره أى مثل ذلك الجزاء الفظيع أى الاهلاك الشديد الذى هو الاستئصال بالمرة (نجزى القوم المجرمين) أى كل طائفة مجرمة وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لأهل مكة لاشتراكهم لأولئك المهلكين فى الجرائم والجرائر التى هى تكذيب الرسول والاصرار عليه وتقرير لمضمون ما سبق من قوله تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير وقرىء بالياء على الالتفات إلى الغيبة وقد جوز أن يكون المراد بالقوم المجرمين أهل مكة على طريقة وضع الظاهر موضع ضمير الخطاب ايذانا بأنهم أعلام فى الاجرام ويأباه كل الاباء قوله عز وجل (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم) فانه صريح فى أنه ابتداء تعرض لأمورهم وأن ما بين فيه إنما هو مبادى أحوالهم لاختبار كيفيات أعمالهم على وجه يشعر باستمالتهم نحو الايمان والطاعة فمحال أن يكون ذلك اثر بيان منتهى أمرهم وخطابهم ببت القول باهلاكهم لكمال اجرامهم والمعنى ثم استخلفناكم فى الأرض من بعد إهلاك أولئك القرون التى تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها استخلاف من يختبر (لننظر) أى لنعامل معاملة من ينظر (كيف تعملون) فهى استعارة تمثيلية وكيف منصوب على المصدرية بتعملون لا بننظر فان ما فيه من معنى الاستفهام مانع من تقدم عامله عليه أى أى عمل أو على الحالية أى على أى حال تعملون الاعمال اللائقة بالاستخلاف من أوصاف الحسن كقوله عز وعلا ليبلوكم أيكم أحسن عملا ففيه إشعار بأن المراد بالذات والمقصود الاصلى من الاستخلاف إنما هو ظهور الكيفيات الحسنة للأعمال الصالحة وأما الاعمال السيئة فبمعزل من أن تصدر عنهم لا سيما بعد ما سمعوا أخبار القرون المهلكة وشاهدوا آثار بعضها فضلا عن أن ينظم ظهورها فى سلك العلة الغائية للاستخلاف وقيل منصوب على أنه مفعول به أى أى عمل تعملون أخيرا أم شرا فنعاملكم بحسبه فلا يكون فى كلمة كيف حينئذ دلالة على أن المعتبر فى الجزاء جهات الاعمال وكيفياتها لا ذواتها كما هو رأى القائل بل تكون حينئذ مستعارة لمعنى أى شىء (وإذا تتلى عليهم) التفات من خطابهم إلى الغيبة اعراضا عنهم وتوجيها للخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديد جناياتهم المضادة لما أريد منهم بالاستخلاف من تكذيب الرسول والكفر بالآيات البينات وغير ذلك كدأب من قبلهم من القرون المهلكة وصيغة المضارع للدلالة على تجدد جوابهم الآتى حسب تجدد التلاوة (آياتنا) الدالة على حقية التوحيد وبطلان الشرك والإضافة لتشريف المضاف والترغيب فى الإيمان به والترهيب عن تكذيبه (بينات) حال كونها واضحات الدلالة على ذلك وإيراد فعل التلاوة مبنيا للمفعول مسندا إلى الآيات دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنائه للفاعل للاشعار بعدم الحاجة لتعين التالى وللايذان بأن كلامهم فى نفس المتلو دون التالى

(قال الذين لا يرجون لقاءنا) وضع الموصول موضع الضمير اشعارا بعلية ما فى حيز الصلة للعظيمة المحكية عنهم وأنهم انما اجترؤا عليها لعدم خوفهم من عقابه تعالى يوم اللقاء لانكارهم له ولما هو من مباديه من البعث وذما لهم بذلك أى قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما لم يذكر ايذانا بتعينه (ائت بقرءان غير هذا) أشاروا بهذا إلى القرآن المشتمل على تلك الآيات لا إلى نفسها فقط قصدا إلى إخراج الكل من البين أى ائت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والحساب والجزاء وما نكرهه من ذم آلهتنا ومعايبها والوعيد على عبادتها (أو بدله) بتغيير ترتيبه بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى خالية عنها وإنما قالوه كيدا وطمعا فى المساعدة ليتوسلوا به إلى الالزام والاستهزاء به (قل) لهم (ما يكون لى) أى ما يصح وما يستقيم لى ولا يمكننى أصلا (أن أبدله من تلقاءى نفسى) أى من قبل نفسى وهو مصدر استعمل ظرفا وقرى بفتح التاء وقصر الجواب ببيان امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثانى للايذان بأن استحالة ما اقترحوه أولا من الظهور بحيث لا حاجة الى بيانها وأن التصدى لذلك مع كونه ضائعا ربما يعد من قبيل المجاراة مع السفهاء إذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء ولان ما يدل على استحالة الثانى يدل على استحالة الاول بالطريق الأولى (إن أتبع) أى ما اتبع فى شىء مما آتى وأذر (إلا ما يوحى إلى) من غير تغيير له فى شىء أصلا على معنى قصر حاله عليه السلام على اتباع ما يوحى اليه لا قصر اتباعه على ما يوحى اليه كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل ما أفعل الا اتباع ما يوحى إلى وقد مر تحقيق المقام فى سورة الأنعام وهو تعليل لصدر الكلام فان من شأنه اتباع الوحى على ما هو عليه لا يستبد بشىء دونه قطعا وفيه جواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ورد لما عرضوا به عليه الصلاة والسلام بهذا السؤال من أن القرآن كلامه عليه الصلاة والسلام ولذلك قيد التبديل فى الجواب بقوله من تلقاء نفسى وسماه عصيانا عظيما مستتبعا لعذاب عظيم بقوله تعالى (إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) فانه تعليل لمضمون ما قبله من امتناع التبديل واقتصار أمره عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى أى أخاف ان عصيته تعالى بتعاطى ما ليس لى من التبديل من تلقاء نفسى والاعراض عن اتباع الوحى عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة أو يوم اللقاء الذى لا يرجونه وفيه اشعار بأنهم استوجبوه بهذا الاقتراح والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميره عليه السلام لتهويل أمر العصيان واظهار كمال نزاهته عليه السلام عنه وإيراد اليوم بالتنوين التفخيمى ووصفه بالعظم لتهويل ما فيه من العذاب وتفظيعه ولا مساغ لحمل مقترحهم على التبديل والاتيان بقرآن آخر من جهة الوحى بتفسير قوله تعالى ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى بأنه لا يتسهل لى أن أبدله بالاستدعاء من جهة الوحى ما أتبع الا ما يوحى إلى من غير صنع ما من الاستدعاء وغيره من قبلى لأنه يرده التعليل المذكور لا لأن المقترح حينئذ ليس فيه معصية أصلا كما توهم فان استدعاء تبديل الآيات النازلة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بعضها ببعض لاسيما بموجب اقتراح الكفرة مما لاريب فى كونه معصية بل لأنه ليس فيه معصية الافتراء مع أنها المقصودة بما ذكر فى التعليل ألا يرى إلى ما بعده من الآيتين الكريمتين فانه صريح فى أن مقترحهم الاتيان بغير القرآن وتبديله بطريق الافتراء وأن زعمهم فى الأصل أيضا كذلك وقوله عز وجل (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم) تحقيق لحقية القرآن وكونه من عند الله تعالى اثر بيان بطلان ما اقترحوا الاتيان به واستحالته عبارة ودلالة وإنما صدر بالأمر المستقبل مع كونه داخلا تحت الامر السابق اظهارا لكمال الاعتناء بشأنه وإيذانا باستقلاله مفهوما وأسلوبا فانه برهان دال على كونه بأمر الله تعالى ومشيئته كما سيأتى وما سبق مجرد اخبار باستحالة ما اقترحوه ومفعول شاء محذوف ينبىء عنه الجزاء لا غير ذلك كما قيل فان مفعول المشيئة إنما يحذف إذا وقعت شرطا وكان مفعولها مضمون الجزاء ولم يكن فى تعلقها به غرابة

كما في قوله : ولو شئت أن أبكى دما لبكيته حيث لم يحذف لفقدان الشرط الاخير ولان المستلزم للجزاء أعنى عدم تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن عليهم إنما هو مشيئته تعالى له لا مشيئته لغير القرآن والمعنى أن الأمر كله منوط بمشيئته تعالى وليس لى منه شىء قط ولو شاء عدم تلاوتى له عليكم لا بأن شاء عدم تلاوتى له من تلقاء نفسى بل بأن لم ينزله على ولم يأمرنى بتلاوته كما ينبىء عنه ايثار التلاوة على القراءة ما تلوته عليكم (وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ) أى ولا أعلمكم به بواسطتى والتالى وهو عدم التلاوة والادراء منتف فينتفى المقدم أعنى مشيئته عدم التلاوة ولا يخفى أنها مستلزمة لعدم مشيئته التلاوة قطعا فانتفاؤها مستلزم لانتفائه حتما وانتفاء عدم مشيئة التلاوة إنما يكون بتحقق مشيئة التلاوة فثبت أن تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن بمشيئته تعالى وأمره وإنما قيدنا الادراء بكونه بواسطته عليه الصلاة والسلام لأن عدم الاعلام مطلقا ليس من لوازم الشرط الذى هو مشيئة عدم تلاوته عليه السلام فلا يجوز نظمه فى سلك الجزاء وفى اسناد عدم الادراء اليه تعالى المنبىء عن استناد الادراء اليه تعالى إيذان بأن لا دخل له عليه السلام فى ذلك حسبما يقتضيه المقام وقرىء ولا أدرأتكم ولا أدرأكم بالهمزة فيهما على لغة من يقول أعطأت وأرضأت فى أعطيت وأرضيت أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أى ولا جعلتكم بتلاوته عليكم خصماء تدرؤننى بالجدال وقرىء ولا أنذرتكم به وقرىء لأدراكم بلام الجواب أى لو شاء الله ما تلوته عليكم أنا ولأعلمكم به على لسان غيرى على معنى انه الحق الذى لا محيص عنه لو لم أرسل به أنا لأرسل به غيرى البتة أو على معنى أنه تعالى يمن على من يشاء فخصنى بهذه الكرامة (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا) تعليل للملازمة المستلزمة لكون تلاوته بمشيئة الله تعالى وأمره حسبما بين آنفا لكن لا بطريق الاستدلال عليها بعدم تلاوته عليه الصلاة والسلام فيما سبق بسبب مشيئته تعالى إياه بل بطريق الاستشهاد عليها بما شاهدوا منه عليه الصلاة والسلام فى تلك المدة الطويلة من الأمور الدالة على استحالة كون التلاوة من جهته عليه الصلاة والسلام بلا وحى وعمرا نصب على التشبيه بظرف الزمان والمعنى قد أقمت فيما بينكم دهرا مديدا مقدار أربعين سنة تحفظون تفاصيل أحوالى طرا وتحيطون بما لدى خبرا (مِّن قَبْلِهِ) أى من قبل نزول القرآن لا أتعاطى شيأ مما يتعلق به لا من حيث نظمه المعجز ولا من حيث معناه الكاشف عن أسرار الحقائق وأحكام الشرائع (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أى ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون امتناع صدوره عن مثلى ووجوب كونه منزلا من عند الله العزيز الحكيم فانه غير خاف على من له عقل سليم والحق الذى لا محيط عنه أن من له أدنى مسكة من العقل إذا تأمل فى أمره عليه الصلاة والسلام وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل من غير مصاحبة العلماء فى شأن من الشئون ولا مراجعة اليهم فى فن من الفنون ولا مخالطة البلغاء فى المفاوضة والحوار ولا خوض معهم فى إنشاء الخطب والاشعار ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته كل فصيح فائق وبذت بلاغته كل بليغ رائق وعلا نظمه كل منثور ومنظوم وحوى فحواه بدائع أصناف العلوم كاشف عن أسرار الغيب من وراء أستار الكمون ناطق بأخبار ما قد كان وما سيكون مصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة مهيمن عليها فى أحكامها المجملة والمفصلة لا يبقى عنده شائبة اشتباه فى أنه وحى منزل من عند الله هذا هو الذى اتفقت عليه كلمة الجمهور ولكن الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم واقتصار حاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى وامتناع الاستبداد بالرأى من غير تعرض هناك ولا ههنا لكون القرآن فى نفسه أمرا خارجا عن طوق البشر ولا لكونه عليه الصلاة والسلام غير قادر على الاتيان بمثله أن يستشهد ههنا على المطلب بما يلائم ذلك من أحواله المستمرة فى تلك المدة المتطاولة من كمال نزاهته عليه الصلاة السلام عما يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه فى حق أحد كائنا من كان كما ينبىء عنه تعقيبه بتظليم

المفترى على الله تعالى والمعنى قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحى لا أتعرض لأحد قط بتحكم ولا جدال ولا أحوم حول مقال فيه شائبة شبهة فضلا عما فيه كذب أو افتراء ألا تلاحظون فلا تعقلون أن من هذا شأنه المطرد فى هذا العهد البعيد مستحيل أن يفترى على الله عز وجل ويتحكم على كافة الخلق بالأوامر والنواهى الموجبة لسلب الأموال وسفك الدماء ونحو ذلك وأن ما أوتى به وحى مبين تنزيل من رب العالمين وقوله عز وجل (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) استفهام إنكارى معناه الجحد أى لا أحد أظلم منه على معنى أنه أظلم من كل ظالم وإن كان سبك التركيب مفيدا لانكار أن يكون أحد أظلم منه من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها فانه إذا قيل من أفضل من فلان أو لا أعلم منه يفهم منه حتما أنه أفضل من كل فاضل وأعلم من كل عالم وزيادة قوله تعالى كذبا مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك للايذان بأن ما أضافوه اليه ضمنا وحملوه عليه الصلاة والسلام عليه صريحا مع كونه افتراء على الله تعالى كذب فى نفسه فرب افتراء يكون كذبه فى الاسناد فقط كما إذا أسند ذنب زيد إلى عمرو وهذا للمبالغة منه عليه الصلاة والسلام فى التفادى عما ذكر من الافتراء على الله سبحانه (أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) فكفر بها وهذا تظليم للمشركين بتكذيبهم للقرآن وحملهم على أنه من جهته عليه الصلاة السلام والفاء لترتيب الكلام على ما سبق من بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره فلا مجال لحمل الافتراء على الافتراء باتخاذ الولد والشريك أى وإذا كان الأمر كذلك فمن افترى عليه تعالى بأن يختلق كلاما فيقول هذا من عند الله أو يبدل بعض آياته تعالى ببعض كما تجوزون ذلك فى شأنى وكذلك من كذب بآياته تعالى كما تفعلونه أظلم من كل ظالم (إِنَّهُ) الضمير للشأن وقع اسما لأن والخبر ما يعقبه من الجملة ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصديرها به الايذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الأمر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده عليه فضل تمكن فكأنه قيل إن الشأن هذا أى (لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) أى لا ينجون من محذور ولا يظفرون بمطلوب والمراد جنس المجرمين فيندرج فيه المفترى والمكذب اندراجا أوليا (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) حكاية لجناية أخرى لهم نشأت عنها جنايتهم الأولى معطوفة على قوله تعالى وإذا تتلى عليهم الآية عطف قصة على قصة ومن دون متعلق بيعبدون ومحله النصب على الحالية من فاعله أى متجاوزين الله سبحانه لا بمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلها قرينا لعبادة الأصنام كما يفصح عنه سياق النظم الكريم (مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ) أى ما ليس من شأنه الضر والنفع من الأصنام التى هى جمادات وما موصولة أو موصوفة وتقديم نفى الضرر لأن أدنى أحكام العبادة دفع الضرر الذى هو أول المنافع والعبادة أمر حادث مسبوق بالعدم الذى هو مظنة الضرر فحيث لم تقدر الأصنام على الضرر لم يوجد لاحداث العبادة سبب وقيل لا يضرهم ان تركوا عبادتها ولا ينفعهم إن عبدوها . كان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة عزى ومناة وهبل واسافا ونائلة (وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) عن النضر ابن الحرث إذا كان يوم القيامة يشفع لى اللات قيل إنهم كانوا يعتقدون أن المتولى لكل اقليم روح معين من أرواح الافلاك فعينوا لذلك الروح صنما معينا من الأصنام واشتغلوا بعبادته ومقصودهم ذلك الروح ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عند الاله الأعظم مشتغلا بعبوديته وقيل إنهم كانوا يعبدون الكواكب فوضعوا لها أصناما معينة واشتغلوا بعبادتها قصدا إلى عبادة الكواكب وقيل انهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الاصنام ثم تقربوا اليها وقيل إنهم وضعوا هذه الاصنام على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان أولئك الاكابر يشفعون لهم عند الله تعالى (قُلْ) تبكيتا لهم (أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ) أى أتخبرونه بما لا وجود له أصلا وهو كون الاصنام

شفعاءهم عند الله تعالى إذ لولاه لعلمه علام الغيوب وفيه تقريع لهم وتهكم بهم بما يدعونه من المحال الذى لا يكاد يدخل تحت الصحة والإمكان وقرىء أتنبئون بالتخفيف وقوله تعالى (فى السموات ولا فى الأرض) حال من العائد المحذوف فى يعلم مؤكدة للنفى لان ما لا يوجد فيهما فهو منتف عادة (سبحانه وتعالى عما يشركون) عن إشراكهم المستلزم لتلك المقالة الباطلة أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءهم عند الله تعالى وقرىء تشركون بتاء الخطاب على أنه من جملة القول المأمور به وعلى الاول هو اعتراض تذييلى من جهته سبحانه وتعالى (وما كان الناس إلا أمة واحدة) بيان لان التوحيد والاسلام ملة قديمة أجمعت عليها الناس قاطبة فطرة وتشريعا وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة خلافا للجمهور وشقا لعصا الجماعة وأما حمل اتحادهم على الاتفاق على الضلال عند الفترة واختلافهم على ما كان منهم من الاتباع والاصرار فما لا احتمال له أى وما كان الناس كافة من أول الامر إلا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلاف وذلك من عهد آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن قتل قابيل هابيل وقيل إلى زمن إدريس عليه السلام وقيل إلى زمن نوح عليه السلام وقيل من حين الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا إلى أن ظهر فيما بينهم الكفر وقيل من لدن ابراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أن أظهر عمرو بن لحى عبادة الاصنام فالمراد بالناس العرب خاصة وهو الانسب بايراد الآية الكريمة اثر حكاية ما حكى عنهم من الهنات وتنزيه ساحة الكبرياء عن ذلك (فاختلفوا) بأن كفر بعضهم وثبت آخرون على ما هم عليه فخالف كل من الفريقين الآخر لأن كلا منهما أحدث ملة على حدة من ملل الكفر مخالفة لملة الآخر فان الكلام ليس فى ذلك الاختلاف إذ كل منهما مبطل حينئذ فلا يتصور أن يقضى بينهما بابقاء المحق وإهلاك المبطل والفاء التعقيبية لا تنافى امتداد زمان الاتفاق اذ المراد بيان وقوع الاختلاف عقيب انصرام مدة الاتفاق لا عقيب حدوث الاتفاق (ولولا كلمة سبقت من ربك) بتأخير القضاء بينهم أو بتأخير العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة فانه يوم الفصل (لقضى بينهم) عاجلا (فيما فيه يختلفون) بتمييز الحق من الباطل بابقاء المحق وإهلاك المبطل وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية وللدلالة على الاستمرار (ويقولون) حكاية لجناية أخرى لهم معطوفة على قوله تعالى يعبدون وصيغة المضارع لاستحضار صورة مقالتهم الشنعاء والدلالة على الاستمرار والقائلون أهل مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) أرادوا آية من الآيات التى اقترحوها كأنهم لفرط العتو والفساد ونهاية التمادى فى المكابرة والعناد لم يعدوا البينات النازلة عليه عليه الصلاة والسلام من جنس الآيات واقترحوا غيرها مع أنه قد أنزل عليه من الآيات الباهرة والمعجزات المتكاثرة ما يضطرهم إلى الانقياد والقبول لو كانوا من أرباب العقول (فقل) لهم فى الجواب (إنما الغيب لله) اللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فان الغيب والشهادة فى ذلك الاختصاص سيان والمعنى أن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم إيمانكم بنزوله من الغيوب المختصة بالله تعالى لا وقوف لى عليه (فانتظروا) نزوله (إنى معكم من المنتظرين) أى لما يفعل الله بكم لاجترائكم على مثل هذه العظيمة من جحود الآيات واقتراح غيرها وجعل الغيب عبارة عن الصارف عن انزال الآيات المقترحة يأباه ترتيب الأمر بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة) صحة وسعة (من بعد ضراء مستهم) أى خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم واسناد المساس الى الضراء بعد اسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية كما فى قوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين ونظائره . قيل سلط الله تعالى على أهل مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحيا فطفقوا يطعنون فى آياته تعالى ويعادون رسوله عليه الصلاة والسلام ويكيدونه وذلك قوله تعالى (إذا لهم مكر فى آياتنا) أى بالطعن فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال فى دفعها واذا الأولى شرطية والثانية جوابها كأنه

قيل فاجؤوا وقوع المكر منهم وتنكير مكر للتفخيم وفى متعلقة بالاستقرار الذى يتعلق به اللام (قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً) أى أعجل عقوبة أى عذابه أسرع وصولا إليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق وتسمية العقوبة بالمكر لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجوداً أو ذكراً (إِنَّ رُسُلَنَا) الذين يحفظون أعمالكم والاضافة للتشريف (يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) أى مكركم أو ما تمكرونه وهو تحقيق للانتقام منهم وتنبيه على أن ما دبروا فى اخفائه غير خاف على الحفظة فضلا عن العليم الخبير وصيغة الاستقبال فى الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددى والجملة تعليل من جهته تعالى لأسرعية مكره سبحانه غير داخل فى الكلام الملقن كقوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا فان كتابة الرسل لما يمكرون من مبادى بطلان مكرهم وتخلف أثره عنه بالكلية وفيه من المبالغة ما لا يوصف وتلوين الخطاب بصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم للتشديد فى التوبيخ وقرىء على لفظ الغيبة فيكون حينئذ تعليلا للمأمور أو للأمر (هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ) كلام مستأنف مسوق لبيان جناية أخرى لهم مبنية على ما مر آنفاً من اختلاف حالهم حسب اختلاف ما يعتريهم من السراء والضراء أى يمكنكم من السير تمكينا مستمرا عند الملابسة به وقبلها (فِى الْبَرِّ) مشاة وركبانا وقرىء ينشركم من النشر ومنه قوله عز وجل بشر تنتشرون (وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ) أى السفن فانه جمع فلك على زنة أسد جمع أسد لا على وزن قفل وغاية التسيير ليست ابتداء ركوبهم فيها بل مضمون الشرطية بتمامه كما ينبىء عنه إيثار الكون المؤذن بالدوام على الركوب المشعر بالحدوث (وَجَرَيْنَ) أى السفن (بِهِمْ) بالذين فيها والالتفات إلى الغيبة للايذان بما لهم من سوء الحال الموجب للاعراض عنهم كأنه يذكر لغيرهم مساوى أحوالهم ليعجبهم منها ويستدعى منه الانكار والتقبيح وقيل ليس فيه التفات بل معنى قوله تعالى حتى إذا كنتم فى الفلك إذا كان بعضكم فيها إذ الخطاب للكل ومنهم المسيرون فى البر فالضمير الغائب عائد إلى ذلك المضاف المقدر كما فى قوله تعالى أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه أى أو كذى ظلمات يغشاه موج (بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) لينة الهبوب موافقة لمقصدهم (وَفَرِحُوا بِهَا) بتلك الريح لطيبها وموافقتها (جَاءَتْهَا) جواب إذا والضمير المنصوب للريح الطيبة أى تلقتها واستولت عليها من طرف مخالف لها فان الهبوب على وفقها لا يسمى مجيئا لريح أخرى عادة بل هو اشتداد للريح الأولى وقيل للفلك والأول أظهر لاستلزامه للثانى من غير عكس لأن الهبوب على طريقة الريح اللينة يعد مجيئا بالنسبة إلى الفلك دون الريح اللينة مع أنه لا يستتبع تلاطم الأمواج الموجب لمجيئها من كل مكان ولأن التهويل فى بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلقوا به حبال رجائهم أكثر (رِيحٌ عَاصِفٌ) أى ذات عصف وقيل العصوف مختص بالريح فلا حاجة إلى الفارق وقيل الريح قد يذكر (وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ) فى الفلك (مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) أى من أمكنة مجىء الموج عادة ولا بعد فى مجيئه من جميع الجوانب أيضا إذ لا يجب أن يكون مجيئه من جهة هبوب الريح فقط بل قد يكون من غيرها بحسب أسباب تتفق له (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) أى هلكوا فان ذلك مثل فى الهلاك أصله احاطة العدو بالحى أو سدت عليهم مسالك الخلاص (دَعَوُا اللهَ) بدل من ظنوا بدل اشتمال لما بينهما من الملابسة والتلازم أو استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الأذهان كأنه قيل فماذا صنعوا فقيل دعوا الله (مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) من غير أن يشركوا به شيئاً من آلهتهم لا مخصصين للدعاء به تعالى فقط بل للعبادة أيضا فانهم بمجرد تخصيص الدعاء به تعالى لا يكونون مخلصين له الدين (لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا) اللام موطئة للقسم على إرادة القول أى قائلين والله لئن أنجيتنا (مِنْ هٰذِهِ) الورطة (لَنَكُونَنَّ) البتة بعد ذلك أبدا (مِنَ الشَّاكِرِينَ) لنعمك التى من جملتها هذه النعمة المسئولة وقيل الجملة مفعول دعوا لأن الدعاء من قبيل القول والأول هو الأولى لاستدعاء الثانى لاقتصار دعائهم على ذلك فقط وفى قوله لنكونن من الشاكرين من المبالغة فى الدلالة على كونهم ثابتين فى الشكر مثابرين عليه منتظمين فى سلك المنعوتين

بالشكر الراسخين فيه ماليس فى أن يقال لنشكرن (فلما أنجاهم) مما غشيهم من الكربة والفاء للدلالة على سرعة الإجابة (إذا هم يبغون فى الأرض) أى فاجؤا الفساد فيها وسارعوا اليه متراقين فى ذلك متجاوزين عما كانوا عليه من حدود العيث من قولهم بغى الجرح إذا ترامى فى الفساد وزيادة فى الارض للدلالة على شمول بغيهم لاقطارها وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقوله تعالى (بغير الحق) تأكيد لما يفيده البغى أو معناه أنه بغير الحق عندهم أيضا بأن يكون ذلك ظلما ظاهرا لايخفى قبحه على أحد كما فى قوله تعالى ويقتلون النبيين بغير الحق وأما ماقيل من أنه للاحتراز عن البغى بحق كتخريب الغزاة ديار الكفرة وقطع أشجارهم واحراق زرعهم فلا يساعده النظم الكريم لابتنائه على كون البغى بمعنى افساد صورة الشىء وابطال منفعته دون ماذكر من المعنى اللائق بحال المفسدين (ياأيها الناس) توجيه للخطاب إلى أولئك الباغين للتشديد فى التهديد والمبالغة فى الوعيد (إنما بغيكم) الذى تتعاطونه وهو مبتدأ وقوله تعالى (على أنفسكم) خبره أى عليكم فى الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وان ظن كذلك وقوله تعالى (متاع الحيوة الدنيا) بيان لكون مافيه من المنفعة العاجلة شيأ غير معتد به سريع الزوال دائم الوبال وهو نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستئناف أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا وقيل على أنه مصدر وقع موقع الحال أى متمتعين بالحياة الدنيا والعامل هو الاستقرار الذى فى الخبر لا نفس البغى لأنه يؤدى إلى الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر ولا يخبر عن الموصول إلا بعد تمام صلته وأنت خبير بأنه ليس فى تقييد كون بغيهم على أنفسهم بحال تمتعهم بالحياة الدنيا معنى يعتد به وقيل على أنه ظرف زمان نحو مقدم الحاج أى زمن متاع الحياة الدنيا وفيه مامر بعينه وقيل على أنه مفعول لفعل دل عليه المصدر أى تبغون متاع الحياة الدنيا ولا يخفى أنه لا يدل على البغى بمعنى الطلب وجعل المصدر أيضا بمعناه مما يخل بجزالة النظم الكريم لأن الاستئناف لبيان سوء عاقبة ماحكى عنهم من البغى المفسر بالافساد المفرط اللائق بحالهم فأى مناسبة بينه وبين البغى بمعنى الطلب وجعل الأول أيضا بمعناه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه وقيل على أنه مفعول له أى لأجل متاع الحياة الدنيا والعامل ماذكر من الاستقرار وفيه أن المعلل بماذكر نفس البغى لا كونه على أنفسهم وقيل العامل فيه فعل مدلول عليه بالمصدر أى تبغون لأجل متاع الحياة الدنيا على أن الجملة مستأنفة وقيل على أنه مفعول صريح للمصدر وعلى أنفسكم ظرف لغو متعلق به والمراد بالأنفس الجنس والخبر محذوف لطول الكلام والتقدير إنما بغيكم على أبناء جنسكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ظاهر الفساد أو نحو ذلك وفيه مامر من ابتنائه على مالا يليق بالمقام من كون البغى بمعنى الطلب نعم لو جعل نصبه على العلة أى إنما بغيكم على أبناء جنسكم لأجل متاع الحياة الدنيا محذور كما اختاره بعضهم لكان له وجه فى الجملة لكن الحق الذى تقتضيه جزالة التنزيل إنما هو الأول وقرىء متاع بالرفع على أنه الخبر والظرف صلة للمصدر أو خبر ثان أو خبر لمبتدإ محذوف أى هو متاع الخ كما فى قوله تعالى إلا ساعة من نهار بلاغ أى هذا بلاغ فالمراد بأنفسهم على الوجه الأول أبناء جنسهم وإنما عبر عنهم بذلك هزا لشفقتهم عليهم وحثا لهم على ترك ايثار التمتع المذكور على حقوقهم ولا مجال للحمل على الحقيقة لان كون بغيهم وبالا عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ماحكى عنهم ولم يخبر به بعد حتى يجعل من تتمة الكلام ويجعل كونه متاعا مقصود الإفادة على أن عنوان كونه وبالا عليهم قادح فى كونه متاعا فضلا عن كونه من مبادى ثبوته للمبتدا كما هو المتبادر من السوق وأما كون البغى على أبناء الجنس فمعلوم الثبوت عندهم ومتضمن لمبادى التمتع من أخذ المال والاستيلاء على الناس وغير ذلك وأما على الوجهين الاخيرين فلا موجب للعدول عن الحقيقة فان المبتدا اما نفس البغى أو الضمير العائد اليه من حيث هو هو لا من حيث كونه وبالا عليهم كما فى صورة كون

الظرف صلة للمصدر فتدبر وقرىء متاعا الحياة الدنيا أما نصب متاعا فعلى مامر وأما نصب الحياة فعلى أنه بدل من متاعا بدل اشتمال وقيل على أنه مفعول به لمتاعا إذا لم يكن انتصابه على المصدرية لأن المصدر المؤكد لا يعمل . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتمكر ولاتعن ماكراً ولاتبغ ولاتعن باغيا ولاتنكث ولاتعن ناكثا وكان يتلوها وقال محمد ابن كعب ثلاث من كن فيه كن عليه البغي والنكث والمكر قال تعالى إنما بغيكم على أنفسكم ومايمكرون إلا بأنفسهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه وعنه عليه الصلاة والسلام أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله تعالى فى الدنيا البغي وعقوق الوالدين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لوبغى جبل على جبل لدك الباغى (ثُمَّ إلَيْنَا مَرْجِعُكُم) عطف على مامر من الجملة المستأنفة المقدرة كأنه قيل تتمتعون متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا وإنما غير السبك إلى الجملة الاسمية مع تقديم الجار والمجرور للدلالة على الثبات والقصر (فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ) فى الدنيا على الاستمرار من البغي وهو وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة خفية مبنية على حكمة أبية وهى أن كل مايظهر فى هذه النشأة من الأعيان والاعراض فانما يظهر بصورة مغايرة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة فان المعاصى مثلا سموم قاتلة قد برزت فى الدنيا بصور تستحسنها نفوس العصاة وكذا الطاعات مع كونها أحسن الأحاسن قد ظهرت عندهم بصور مكروهة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات فالبغى فى هذه النشأة وان برز بصورة تشتهيها البغاة وتستحسنها الغواة لتمتعهم به من حيث أخذ المال والتشفى من الأعداء ونحو ذلك لكن ذلك ليس بتمتع فى الحقيقة بل هو تضرر من حيث لايحتسبون وإنما يظهر لهم ذلك عند ابراز ما كانوا يعملونه من البغي بصورته الحقيقية المضادة لما كانوا يشاهدونه على ذلك من الصورة وهو المراد بالتنبئة المذكورة والله سبحانه وتعالى أعلم (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا) كلام مستأنف مسوق لبيان شأن الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود وقد شبه حالها العجيبة الشأن البديعة المثال المنتظمة لغرابتها فى سلك الأمثال فى سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غب اقبالها واغترار الناس بها بحال ماعلى الأرض من أنواع النبات فى زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاما لم يبق لها أثر أصلا بعد ما كانت غضة طرية قد التف بعضها ببعض وزينت الأرض بألوانها وتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجوائح وليس المشبه به مادخله الكاف فى قوله عز وجل (كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) بل مايفهم من الكلام فانه من التشبيه المركب (مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ) من البقول والزروع والحشيش (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا) جعلت الأرض فى تزينها بما عليها من أصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة المونقة آخذة زخرفها على طريقة التمثيل بالعروس التى قد أخذت من ألوان الثياب والزين فتزينت بها (وَازَّيَّنَتْ) أصله تزينت فأدغم وقرىء على الأصل وقرىء وأزينت كأغيلت من غير اعلال والمعنى صارت ذات زينة وازيانت كابياضت (وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) متمكنون من حصدها ورفع غلتها (أَتَاهَا أَمْرُنَا) جواب إذا أى ضرب زرعها مايجتاحه من الآفات والعاهات (لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا) أى زرعها وسا ماعليها (حَصِيدًا) أى شبيها بما حصد من أصله (كَأَن لَّمْ تَغْنَ) كأن لم يغن زرعها والمضاف محذوف للمبالغة وقرىء بتذكير الفعل (بِالْأَمْسِ) أى فيما قبل بزمان قريب فان الأمس مثل فى ذلك كأنه قيل لم تغن آنفا (كَذَٰلِكَ) أى مثل ذلك التفصيل البديع (نُفَصِّلُ الْآيَاتِ) أى الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أى نوضحها ونبينها (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فى تضاعيفها ويقفون على معانيها وتخصيص تفصيلها بهم

لأنهم المنتفعون بها ويجوز أن يراد بالآيات ماذكر فى أثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات وبتفصيلها تصريفها على الترتيب المحكى إيجادا وإعداما فإنها آيات وعلامات يستدل بها من يتفكر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالا ومآلا (واللهُ يدعُو إلى دَارِ السَّلَـٰمِ) ترغيب للناس فى الحياة الأخروية الباقية إثر ترغيبهم عن الحياة الدنيوية الفانية أى يدعو الناس جميعا إلى دار السلامة عن كل مكروه وآفة وهى الجنة وإنما ذكرت بهذا الاسم لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضا للآفات أو إلى دار الله تعالى وتخصيص الاضافة التشريفية بهذا الاسم الكريم للتنبيه على ذلك أو إلى دار يسلم الله أو الملائكة فيها على من يدخلها أو يسلم بعضهم على بعض (ويَهدِى مَن يشَاءُ) هدايته منهم (إلى صرٰطٍ مُّستقِيمٍ) موصل إليها وهو الاسلام والتزود بالتقوى وفى تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الارادة وأن من أصر على الضلالة لم يرد الله رشده (للَّذِينَ أحسنُوا) أى أعمالهم أى عملوها على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (الحسنَىٰ) أى المثوبة الحسنى (وزيادةٌ) أى وما يزيد على تلك المثوبة تفضلا لقوله عز اسمه ويزيدهم من فضله وقيل الحسنى مثل حسناتهم والزيادة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان وقيل الحسنى الجنة والزيادة اللقاء (ولا يَرهقُ وُجُوهَهُمْ) أى لا يغشاها (قتَرٌ) غبرة فيها سواد (ولا ذلةٌ) أى أثر هوان وكسوف بال والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من الحزن وسوء الحال والتنكير للتحقير أى شىء منهما والجملة مستأنفة لبيان أمنهم من المكاره إثر بيان فوزهم بالمطالب والثانى وان اقتضى الأول إلا أنه ذكر إذكارا بما ينقذهم الله تعالى منه برحمته وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف أعضائهم وللتشويق إلى المؤخر فان ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة لوروده فعند وروده عليها يتمكن عندها فضل تمكن ولأن فى الفاعل ضرب تفصيل كما فى قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وقوله عز وجل وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين (أولـٰئكَ) إشارة إلى المذكورين باعتبار اتصافهم بالصفات المذكورة وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم أى أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجليلة الفائزون بالمثوبات الناجون عن المكاره (أصحٰبُ الجنةِ هُمْ فِيها خٰلِدُونَ) بلا زوال دائمون بلا انتقال (والذِينَ كسبُوا السّيئَاتِ) أى الشرك والمعاصى وهو مبتدأ بتقدير المضاف خبره قوله تعالى (جَزَاءُ سيِّئَةٍ بمِثلِها) أى جزاء الذين كسبوا السيئات أن يجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها كما يزاد فى الحسنة وتغيير السبك حيث لم يقل وللذين كسبوا السيئات السوأى لمراعاة ما بين الفريقين من كمال التنافى والتباين وإيراد الكسب للايذان بأن ذلك إنما هو لسوء صنيعهم وبسبب جنايتهم على أنفسهم أو الموصول معطوف على الموصول الأول كأنه قيل وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها كقولك فى الدار زيد والحجرة عمرو وفيه دلالة على أن المراد بالزيادة الفضل (وترهَقُهُمْ ذِلةٌ) وأى ذلة كما ينبىء عنه التنوين التفخيمى وفى اسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم إيذان بأنها محيطة بهم غاشية لهم جميعا وقرىء يرهقهم بالياء التحتانية (مَّا لهُم مِنَ اللهِ مِن عاصِمٍ) أى لا يعصمهم أحد من سخطه وعذابه تعالى أو ما لهم من عنده تعالى من يعصمهم كما يكون للمؤمنين وفى نفى العاصم من المبالغة فى نفى العصمة ما لا يخفى والجملة مستأنفة أو حال من ضمير ترهقهم (كأنمَا أغشِيَتْ وُجُوهُهُم قِطعاً منَ الليلِ) لفرط سوادها وظلمتها (مُظلِماً) حال من الليل والعامل فيه أغشيت لأنه العامل فى قطعا وهو موصوف بالجار والمجرور والعامل فى الموصوف عامل فى الصفة أو معنى الفعل فى من الليل وقرىء قطعا بسكون الطاء وهو طائفة من الليل قال: افتحى الباب وانظرى فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

فيجوز كون مظلما صفة له أو حالا منه وقرىء كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم والجملة كما قبلها مستأنفة أو حال من ضمير ترهقهم (أولئك) أى الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة (أصحاب النار هم فيها خالدون) وحيث كانت الآية الكريمة فى حق الكفار بشهادة السياق والسباق لم يكن فيها تمسك للوعيدية (ويوم نحشرهم) كلام مستأنف مسوق لبيان بعض آخر من أحوالهم الفظيعة وتأخيره فى الذكر مع تقدمه فى الوجود على بعض أحوالهم المحكية سابقا للايذان باستقلال كل من السابق واللاحق بالاعتبار ولو روعى الترتيب الخارجى لعد الكل شيأ واحدا كما مر فى قصة البقرة ولذلك فصل عما قبله ويوم منصوب على المفعولية بمضمر أى أنذرهم أو ذكرهم وضمير نحشرهم لكلا الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات لأنه المتبادر من قوله تعالى (جميعاً) ومن أفراد الفريق الثانى بالذكر فى قوله تعالى (ثم نقول للذين أشركوا) أى نقول للمشركين من بينهم ولأن توبيخهم وتهديدهم على رؤس الأشهاد أفظع والاخبار بحشر الكل فى تهويل اليوم أدخل وتخصيص وصف إشراكهم بالذكر فى حيز الصلة من بين سائر ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع ما فيه من الايذان بكونه معظم جناياتهم وعمدة سيئاتهم وقيل للفريق الثانى خاصة فيكون وضع الموصول موضع الضمير لما ذكر آنفا (مكانكم) نصب على أنه فى الأصل ظرف لفعل أقيم مقامه لا على أنه اسم فعل وحركته حركة بناء كما هو رأى الفارسى أى ألزموه حتى تنظروا ما يفعل بكم (أنتم) تأكيد للضمير المنتقل اليه من عامله لسده مسده (وشركاؤكم) عطف عليه وقرىء بالنصب على أن الواو بمعنى مع (فزيلنا) من زلت الشىء عن مكانه أزيله أى أزلته والتضعيف للتكثير لا للتعدية وقرىء فزايلنا بمعناه نحو كلمته وكالمته وهو معطوف على نقول وإيثار صيغة الماضى للدلالة على التحقق المورث لزيادة التوبيخ والتحسير والفاء للدلالة على وقوع التزييل ومباديه عقيب الخطاب من غير مهلة إيذانا بكمال رخاوة ما بين الفريقين من العلاقة والوصلة أى ففرقنا (بينهم) وقطعنا أقرانهم والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا لكن لا من الجانبين بل من جانب العبدة فقط لعدم احتمال شمول الشركاء للشياطين كما سيجىء فخابت آمالهم وانصرمت عرى أطماعهم وحصل لهم اليأس الكلى من حصول ما كانوا يرجونه من جهتهم والحال وإن كانت معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب لكن هذه المرتبة من اليقين إنما حصلت عند المشاهدة والمشافهة وقيل المراد بالتزييل التفريق الحسى أى فباعدنا بينهم بعد الجمع فى الموقف وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم كما فى قوله تعالى أينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا فالواو حينئذ فى قوله تعالى (وقال شركاؤهم) حالية بتقدير كلمة قد عند من يشترطها وبدونه عند غيره لا عاطفة كما فى التفسير الأول لاستدعاء المحاورة المحاضرة الفائتة بالمباعدة وليس فى ترتيب التزييل بهذا المعنى على الأمر بلزوم المكان ما فى ترتيبه عليه بالمعنى الأول من النكتة المذكورة ليصار لأجل رعايتها إلى تغيير الترتيب الخارجى فان المباعدة بعد المحاورة حتما وأما قطع الأقران والعلائق فليس كذلك بل ابتداؤه حاصل من حين الحشر بل بعض مراتبه حاصل قبله أيضا وإنما الحاصل عند المحاورة أقصاها كما أشير اليه فلا اعتداد بما فى تقديمه من التغيير لا سيما مع رعاية ما ذكر من النكتة ولو سلم تأخر جميع مراتبه عن المحاورة فرعاية تلك النكتة كافية فى استدعاء تقديمه عليها ويجوز أن تكون حالية على هذا التقدير أيضا والمراد بالشركاء قيل الملائكة وعزير والمسيح وغيرهم ممن عبدوه من أولى العلم ففيه تأييد لرجوع الضمير إلى الكل وقولهم (ما كنتم إيانا تعبدون) عبارة عن تبرئهم من عبادتهم وأنهم إنما عبدوا فى الحقيقة أهواءهم وشياطينهم الذين أغووهم لأنها الآمرة لهم بالاشراك دونهم كقولهم سبحانك انت ولينا من دونهم الآية وقيل الأصنام ينطقها الله الذى أنطق كل شىء فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها (فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم) فانه العليم الخبير (إن كنا عن

عبادتكم لغفلين) أى عن عبادتكم لنا وتركه للظهور وللايذان بكمال الغفلة عنها والغفلة عبارة عن عدم الارتضاء والا فعدم شعور الملائكة بعبادتهم لهم غير ظاهر وهذا يقطع احتمال كون المراد بالشركاء الشياطين كما قيل فان ارتضاءهم باشراكهم مما لاريب فيه وإن لم يكونوا مجبرين لهم على ذلك وأن مخففة من أن واللام فارقة (هنالك) أى فى ذلك المقام الدهش أو فى ذلك الوقت على استعارة ظرف المكان للزمان (تبلوا) أى تختبر وتذوق (كل نفس) مؤمنة كانت أو كافرة سعيدة أو شقية (مّا أسلفت) من العمل وتعاينه بكنهه مستتبعا لآثاره من نفع أوضر وخير او شر وأما ما علمت من حالها من حين الموت والابتلاء بالعذاب فى البرزخ فأمر مجمل وقرىء نبلو بنون العظمة ونصب كل وإبدال ما منه أى نعاملها معاملة من يبلوها ويتعرف أحوالها من السعادة والشقاوة باختبار ما أسلفت من العمل ويجوز أن يراد مصيب بالبلاء أى العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فيكون ما منصوبة بنزع الخافض وقرىء تتلو أى تتبع لأن عملها هو الذى يهديها إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار أو تقرأ فى صحيفة أعمالها ما قدمت من خير أو شر (وردّوا) الضمير للذين أشركوا على أنه معطوف على زيلنا وما عطف عليه وقوله عز وجل هنالك تبلو الخ اعتراض فى أثناء الحكاية مقرر لمضمونها (إلى الله) أى إلى جزائه وعقابه (مولىٰهم) ربهم (الحقّ) أى المتحقق الصادق ربوبيته لا ما اتخذوه ربا باطلا وقرىء الحق بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله أهل الحمد أو على المصدر المؤكد (وضلّ عنهم) وضاع أى ظهر ضياعه وضلاله لا أنه كان قبل ذلك غير ضال أو ضل فى اعتقادهم أيضا (مّا كانوا يفترون) من أن آلهتهم تشفع لهم أو ما كانوا يدعون أنها آلهة هذا وجعل الضمير فى ردوا للنفوس المدلول عليها بكل نفس على أنه معطوف على تبلو وأن العدول إلى الماضى للدلالة على التحقق والتقرر وأن ايثار صيغة الجمع للايذان بأن ردهم إلى الله يكون على طريقة الاجتماع لا يلائمه التعرض لوصف الحقية فى قوله تعالى مولاهم الحق فانه للتعريض بالمردودين حسبما أشير اليه ولئن اكتفى فيه بالتعريض ببعضهم أو حمل الحق على معنى العدل فى الثواب والعقاب فقوله عز وجل وضل عنهم ما كانوا يفترون مما لا مجال فيه للتدارك قطعا فان ما فيه من الضمائر الثلاثة للمشركين فيلزم التفكيك حتما وتخصيص كل نفس بالنفوس المشركة مع عموم البلوى للكل يأباه مقام تهويل المقام والله تعالى أعلم (قل) أى لأولئك المشركين الذين حكيت أحوالهم وبين ما يؤدى اليه أعمالهم احتجاجا على حقية التوحيد وبطلان ما هم عليه من الإشراك (من يرزقكم مّن السّماء والأرض) أى منهما جميعا فان الارزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية أو من كل واحدة منهما توسعة عليكم وقيل من لبيان كلمة من على حذف المضاف أى من أهل السماء والأرض (أمّن يملك السّمع والأبصٰر) أم منقطعة وما فيها من كلمة بل للاضراب عن الاستفهام الأول لكن لا على طريقة الابطال بل على وجه الانتقال وصرف الكلام عنه إلى استفهام آخر تنبيها على كفايته فيما هو المقصود أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالها من أدنى شىء يصيبهما (ومن يخرج الحىّ من الميّت ويخرج الميّت من الحىّ) أى ومن يحيى ويميت أو ومن ينشىء الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان (ومن يدبّر الأمر) أى ومن يلى تدبير أمر العالم جميعا وهو تعميم بعد تخصيص بعض ما اندرج تحته من الأمور الظاهرة بالذكر (فسيقولون) بلا تلعثم ولا تأخير (الله) إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه والخبر محذوف أى الله يفعل ما ذكر من الأفاعيل لا غيره (فقل) عند ذلك تبكيتا لهم (أفلا تتّقون) الهمزة لإنكار عدم الاتقاء بمعنى انكار الواقع كما فى أتضرب أباك لا بمعنى انكار الوقوع كما فى أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى أتعلمون ذلك فلا تتقون أنفسكم عذابه الذى ذكر لكم بما تتعاطونه من إشراككم به

مالايشاركه فى شىء مماذكر من خواص الالهية (فذلكم) فذلكم اشارة لما تقدم أى ذلكم الذى اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة وهو مبتدأ وقوله تعالى (الله) خبره وقوله تعالى (ربكم) أى مالككم ومتولى أموركم على الاطلاق بدل منه أو بيان له وقوله تعالى (الحق) صفة له أى ربكم الثابت ربوبيته والمتحقق ألوهيته تحققا لاريب فيه (فماذا) يجوز أن يكون الكل اسما واحدا قد غلب فيه الاستفهام على اسم الاشارة وأن يكون ذاموصولا بمعنى الذى أى ما الذى (بعد الحق) أى غيره بطريق الاستعارة واظهار الحق إما لأن المراد به غير الأول واما لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال والاستفهام انكارى بمعنى إنكار الوقوع ونفيه أى ليس غير الحق (إلا الضلال) الذى لايختاره أحد فحيث ثبت أن عبادة من هو منعوت بما ذكر من النعوت الجليلة حق ظهر أن ماعداها من عبادة الأصنام ضلال محض إذ لاواسطة بينهما وإنما سميت ضلالا مع كونها من أعمال الجوارح باعتبار ابتنائها على ماهو ضلال من الاعتقاد والرأى هذا على تقدير كون الحق عبارة عن التوحيد وأما على تقدير كونه عبارة عن الأول فالمراد بالضلال هو الأصنام لاعبادتها والمعنى فماذا بعد الرب الحق الثابت ربوبيته إلا الضلال أى الباطل الضائع المضمحل وإنما سمى بالمصدر مبالغة كأنه نفس الضلال والضياع وهذا أنسب بقوله تعالى وضل عنهم ماكانوا يفترون على التفسير الثانى (فأنى تصرفون) استفهام انكارى بمعنى انكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه وفيه من المبالغة ماليس فى توجيه الانكار إلى نفس الفعل لأن كل موجود لابد من أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى كما مر مرارا والفاء لترتيب الانكار على ماقبله أى كيف تصرفون من الحق الذى لامحيد عنه وهو التوحيد إلى الضلال عن السبيل المستبين وهو الاشراك وعبادة الاصنام أو من عبادة ربكم الحق الثابت ربوبيته إلى عبادة الباطل الذى سمعتم ضلاله وضياعه فى الآخرة وفى إيثار صيغة المبنى للمفعول ايذان بأن الانصراف من الحق إلى الضلال مما لايصدر عن العاقل بارادته وإنما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة صارف خارجى (كذلك) أى كما حقت الربوبية لله تعالى أو كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال أو أنهم مصروفون عن الحق (حقت كلمت ربك) وحكمه وقضاؤه (على الذين فسقوا) أى تمردوا فى الكفر وخرجوا من أقصى حدوده (أنهم لايؤمنون) بدل من الكلمة أو تعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب (قل هل من شركائكم) احتجاج آخر على حقية التوحيد وبطلان الاشراك باظهار كون شركائهم بمعزل من استحقاق الالهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق وإعادته به سبحانه وتعالى وإنما لم يعطف على ماقبله إيذانا باستقلاله فى إثبات المطلوب والسؤال للتبكيت والالزام وقد جعلت هلية الاعادة وتحققها لوضوح مكانها وسنوح برهانها بمنزلة بدء الخلق فنظمت فى سلكه حيث قيل (من يبدؤا الخلق ثم يعيده) إيذانا بتلازمهما وجودا وعلما يستلزم الاعتراف بها وإن صدهم عن ذلك مابهم من المكابرة والعناد ثم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك فقيل له (قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده) أى هو يفعلهما لاغير كائنا ما كان لا بأن ينوب عليه الصلاة والسلام عنهم فى ذلك كما قيل لأن القول المأمور به غير ما أريد منهم من الجواب وإن كان مستلزما له إذ ليس المسؤل عنه من يبدأ الخلق ثم يعيده كما فى قوله تعالى قل من رب السموات والأرض قل الله حتى يكون القول المأمور به عين الجواب الذى أريد منهم ويكون عليه الصلاة والسلام نائبا عنهم فى ذلك بل إنما هو وجود من يفعل البدء والاعادة من شركائهم فالجواب المطلوب منهم لالاغير نعم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يضمنه مقالته ايذانا بتعينه وتحققه وإشعارا بأنهم لايجترئون على التصريح به مخافة التبكيت والقام الحجر لامكابرة ولجاجا فتدبر وإعادة الجملة فى الجواب بتمامها غير محذوفة الخبر كما فى الجواب السابق لمزيد التأكيد

والتحقيق (فأنى تؤفكون) الافك الصرف والقلب عن الشيء وقد يخص بالقلب عن الرأى وهو الأنسب بالمقام أى كيف تقلبون من الحق إلى الباطل والكلام فيه كما ذكر فى تصرفون (قل هل من شركائكم) احتجاج آخر على ماذكر جيء به الزاما لهم غب الزام والخاما اثر الخام وفصله عما قبله لما ذكر من الدلالة على استقلاله (من يهدى إلى الحق) أى بوجه من الوجوه فان أدنى مراتب المعبودية هداية المعبود لعبدته إلى ما فيه صلاح أمرهم وأما تعيين طريق الهداية وتخصيصه بنصب الحجج وإرسال الرسل والتوفيق للنظر والتدبر كما قيل فمخل بما يقتضيه المقام من كمال التبكيت والالزام فان العجز عن الهداية على وجه خاص لا يستلزم العجز عن مطلق الهداية وهدى كما يستعمل بكلمة إلى لتضمنه معنى الانتهاء يستعمل باللام للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك استعمل بها ما أسند إلى الله تعالى حيث قيل (قل الله يهدى للحق) أى هو يهدى له دون غيره وذلك بما ذكر من نصب الأدلة والحجج وإرسال الرسل وانزال الكتب والتوفيق للنظر والتدبر وغير ذلك من فنون الهدايات والكلام فى الأمر بالسؤال والجواب كما مر فيما مر (أفمن يهدى إلى الحق) وهو الله عز وجل (أحق أن يتبع أمن لا يهدى) بكسر الهاء أصله يهتدى فأدغم وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين وقرىء بكسر الياء اتباعا لها لحركة الهاء وقرىء بفتح الهاء نقلا لحركة التاء اليها أى لا يهتدى بنفسه فضلا عن هداية غيره وفيه من المبالغة ما لا يخفى وإنما نفى عنه الاهتداء مع أن المفهوم مما سبق نفى الهداية لما أن نفيها مستتبع لنفيه غالبا فان من اهتدى إلى الحق لا يخلو عن هداية غيره فى الجملة وأدناها كونه قدوة له بأن يراه فيسلك مسلكه من حيث لا يدرى والفاء لترتيب الاستفهام على ما سبق من تحقق هدايته تعالى صريحا وعدم هداية شركائهم المفهوم من القصر ومن عدم الجواب المنبىء عن الجواب بالعدم فان ذلك مما يضطرهم إلى الجواب الحق لا لتوجيه الاستفهام إلى الترتيب كما يقع فى بعض المواقع فان ذلك مختص بالانكارى كما فى قوله تعالى أفمن اتبع رضوان الله الخ ونحوه والهمزة متأخرة فى الاعتبار وإنما تقديمها فى الذكر لاظهار عراقتها فى اقتضاء الصدارة كما هو رأى الجمهور حتى لو كان السؤال بكلمة أى لأخرت حتما ألا يرى إلى قوله تعالى فأى الفريقين أحق بالأمن اثر تقدير ما يلجىء المشركين إلى الجواب من حالهم وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء لا يهدى بمعنى لا يهتدى لمجيئه لازما أو لا يهدى غيره وصيغة التفضيل اما على حقيقتها والمفضل عليه محذوف كما اختاره مكى والتقدير أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع ممن لا يهدى أم من لا يهدى أحق الخ واما بمعنى حقيق كما اختاره أبو حيان وأيا ما كان فالاستفهام للالزام وأن يتبع فى حيز النصب أو الجر بعد حذف الجار على الخلاف المعروف أى بأن يتبع (إلا أن يهدى) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا يهتدى أو لا يهدى غيره فى حال من الأحوال إلا حال هدايته تعالى له إلى الاهتداء أو إلى هداية الغير وهذا حال إشراف شركائهم من الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام وقيل المعنى أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينتقل اليه إلا أن ينقل اليه أو إلا أن ينقله الله تعالى من حاله إلى أن يجعله حيوانا مكلفا فيهديه وقرىء إلا أن يهدى من التفعيل للمبالغة (فما لكم) أى أى شىء لكم فى اتخاذكم هؤلاء شركاء لله سبحانه وتعالى والاستفهام للانكار التوبيخى وفيه تعجيب من حالهم وقوله تعالى (كيف تحكمون) أى بما يقضى صريح العقل ببطلانه انكار لحكمهم الباطل وتعجب منه وتشنيع لهم بذلك والفاء لترتيب كلا الانكارين على ما ظهر من وجوب اتباع الهادى إلى الحق ان قلت التبكيت بالاستفهام السابق إنما يظهر فى حق من يعكس جوابه الصحيح فيحكم بأحقية من لا يهدى بالاتباع دون من يهدى وهم ليسوا حاكمين بأحقية شركائهم لذلك دون الله سبحانه وتعالى بل باستحقاقهما جميعا مع رجحان جانبه تعالى حيث يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قلت حكمهم باستحقاقه تعالى للاتباع بطريق الاشتراك حكم منهم

بعدم استحقاقه تعالى لذلك بطريق الاستقلال فصاروا حاكمين باستحقاق شركائهم له دون الله تعالى من حيث لا يحتسبون (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ) كلام مبتدأ غير داخل فى حيز الأمر مسوق من قبله تعالى لبيان عدم فهمهم لمضمون ما أفحمهم وألقمهم الحجر من البرهان النير الموجب لاتباع الهادى إلى الحق الناعى عليهم بطلان حكمهم وعدم تأثرهم من ذلك لعدم اهتدائهم إلى طريق العلم أصلا أن مايتبع أكثرهم فى معتقداتهم ومحاوراتهم (إلا ظنًّا) واهيا من غير التفات إلى فرد من أفراد العلم فضلا عن أن يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية إلى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الحقة فيفهموا مضمونها ويقفوا على صحتها وبطلان مايخالفها من أحكامهم الباطلة فيحصل التبكيت والالزام فالمراد بالاتباع مطلق الاعتقاد الشامل لما يقارن القبول والانقياد ومالا يقارنه وبالقصر ما أشير إليه من أن لا يكون لهم فى أثنائه اتباع لفرد من أفراد العلم والتفات اليه ووجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم الاشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقية التوحيد وبطلان الشرك لكن لا يقبلونه مكابرة وعنادا فيحصل بالنسبة اليهم التأثر من البرهان المزبور وإن لم يظهروه وكونهم أشد كفرا وأكثر عذابا من الفريق الأول لا يقدح فيما يفهم من فحوى الكلام عرفا من كون أولئك أسوأ حالا من غيرهم إذ المعتبر سوء الحال من حيث الفهم والإدراك لا من حيث الكفر والعذاب أو ومايتبع أكثرهم مدة عمرهم إلا ظنا ولا يتركونه أبدا فان حرف النفى الداخل على المضارع يفيد استمرار النفى بحسب المقام فالمراد بالاتباع حينئذ هو الاذعان والانقياد والقصر باعتبار الزمان ووجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم مع مشاركة المعاندين لهم فى ذلك التلويح بما سيكون من بعضهم من اتباع الحق والتوبة كما سيأتى هذا وقد قيل المعنى ومايتبع أكثرهم فى اقرارهم بالله تعالى إلا ظنا غير مستند إلى برهان عندهم وقيل ومايتبع أكثرهم فى قولهم للاصنام انها آلهة إلا ظنا والمراد بالأكثر الجميع فتأمل وقيل الضمير فى أكثرهم للناس فلا حاجة إلى التكلف (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ) من العلم اليقينى والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع (شَيْئًا) من الاغناء ويجوز أن يكون مفعولا به ومن الحق حالا منه والجملة استئناف ببيان شأن الظن وبطلانه وفيه دلالة على وجوب العلم فى الأصول وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) وعيد لهم على أفعالهم القبيحة فيندرج تحتها ماحكى عنهم من الاعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجا أوليا وقرىء تفعلون بالالتفات إلى الخطاب لتشديد الوعيد (وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ) شروع فى بيان ردهم للقرآن الكريم اثر بيان ردهم للادلة العقلية المندرجة فى تضاعيفه أى وماصح ومااستقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع التى من جملتها هاتيك الحجج البينة الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك (أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى افتراء من الخلق أى مفترى منهم سمى بالمصدر مبالغة (وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) من الكتب الالهية المشهود على صدقها أى مصدقا لها كيف لا وهو لكونه معجزا دونها عيار عليها شاهد بصحتها ونصبه بأنه خبر كان مقدرا وقد جوز كونه علة لفعل محذوف تقديره لكن أنزله الله تصديق الخ وقرىء بالرفع على تقدير المبتدأ أى ولكن هو تصديق الخ (وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ) عطف عليه نصبا ورفعا أى وتفصيل ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع (لَا رَيْبَ فِيهِ) خبر ثالث داخل فى حكم الاستدراك أى منتفيا عنه الريب أو حال من الكتاب وإن كان مضافا اليه فانه مفعول فى المعنى أو استئناف لا محل له من الاعراب (مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) خبر آخر أى كائنا من رب العالمين أو متعلق بتصديق أو بتفصيل أو بالفعل المعلل بهما ولا ريب فيه اعتراض كما فى قولك زيد لا شك فيه كريم أو حال من الكتاب أو من الضمير فى فيه ومساق الآية الكريمة بعد المنع عن اتباع الظن لبيان مايجب اتباعه (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) أى بل أيقولون افتراه محمد عليه الصلاة والسلام والهمزة لانكار الواقع

واستبعاده (قُلْ) تبكيتالهم وإظهارا لبطلان مقالتهم الفاسدة إن كان الأمر كما تقولون (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) أى فى البلاغة وحسن الصياغة وقوة المعنى على وجه الافتراء فانكم مثلى فى العربية والفصاحة وأشد تمرنا منى فى النظم والعبارة وقرىء بسورة مثله على الإضافة أى بسورة كتاب مثله (وَادْعُوا) للمظاهرة والمعاونة (مَنِ اسْتَطَعْتُمْ) دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون أنها ممدة لكم فى المهمات والملمات ومدارهكم الذين تلجؤن إلى آرائهم فى كل ما تأتون وما تذرون (مِنْ دُونِ اللهِ) متعلق بادعوا ودون جار مجرى أداة الاستثناء وقد مر تفصيله فى قوله تعالى وادعوا شهداءكم من دون الله أى ادعوا سواه تعالى من استطعتم من خلقه فانه لا يقدر عليه أحد واخراجه سبحانه من حكم الدعاء للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونهم فى عدوة المضادة والمشاقة لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كلفوه فان ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم اليه (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أى فى انى افتريته فان ذلك مستلزم لامكان الاتيان بمثله وهو أيضا مستلزم لقدرتكم عليه والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) اضراب وانتقال عن اظهار بطلان ماقالوا فى حق القرآن العظيم بالتحدى إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشىء عن جهلهم بشأنه الجليل فما عبارة عن كله لا عما فيه من ذكر البعث والجزاء وما يخالف دينهم كما قيل فانه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن مثله أى سارعوا إلى تكذيبه آثر ذى أثير من غير أن يتدبروا فيه ويقفوا على مافى تضاعيفه من الشواهد الدالة على كونه كما وصف آنفا ويعلموا أنه ليس مما يمكن أن يكون له نظير يقدر عليه المخلوق والتعبير عنه بما لم يحيطوا بعلمه دون أن يقال بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للايذان بكمال جهلهم به وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم علمهم به لما أن ادارة الحكم على الموصول مشعرة بعلية ما فى حيز الصلة له (وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) عطف على الصلة أو حال من الموصول أى ولم يقفوا بعد على تأويله ولم يبلغ أذهانهم معانيه الرائقة المنبئة عن علو شأنه والتعبير عن ذلك باتيان التأويل للاشعار بأن تأويله متوجه إلى الأذهان منساق اليها بنفسه أو لم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب حتى يتبين أنه صدق أم كذب والمعنى أن القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ومن جهة الاخبار بالغيب وهم قد فاجؤا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفكروا فى معناه أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلة ونفى إتيان التأويل بكلمة لما الدالة على التوقع بعد نفى الاحاطة بعلمه بكلمة لم لتأكيد الذم وتشديد التشنيع فان الشناعة فى تكذيب الشىء قبل علمه المتوقع إتيانه أفحش منها فى تكذيبه قبل علمه مطلقا والمعنى أنه كان يجب عليهم أن يتوقفوا إلى زمان وقوع المتوقع فلم يفعلوا وأما أن المتوقع قد وقع بعد وأنهم استمروا عند ذلك أيضا على ما هم عليه أولا فلا تعرض له ههنا والاستشهاد عليه بعدم انقطاع الذم أو ادعاء أن قولهم افتراه تكذيب بعد التدبر ناشىء من عدم التدبر فتدبر كيف لا وهم لم يقولوه بعد التحدى بل قبله وادعاء كونه مسبوقا بالتحدى الوارد فى سورة البقرة يرده أنها مدنية وهذه مكية وإنما الذى يدل عليه ما سيتلى عليك من قوله تعالى ومنهم من يؤمن به ومنهم الخ وقوله تعالى (كَذَلِكَ) الخ وصف لحالهم المحكى وبيان لما يؤدى اليه من العقوبة أى مثل ذلك التكذيب المبنى على بادى الرأى والمجازفة من غير تدبر وتأمل (كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى فعلوا التكذيب أو كذبوا ما كذبوا من المعجزات التى ظهرت على أيدى أنبيائهم أو كذبوا أنبياءهم (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) وهم الذين من قبلهم من المكذبين وإنما وضع المظهر موضع المضمر للايذان بكون التكذيب ظلما أو بعليته لاصابة ما أصابهم من سوء العاقبة وبدخول هؤلاء الظالمين فى زمرتهم جرما ووعيدا دخولا أوليا وقوله عز وجل (وَمِنْهُمْ) الخ وصف لحالهم بعد إتيان التأويل المتوقع إذ حينئذ يمكن تنويعهم إلى المؤمن به وغير المؤمن ضرورة امتناع الايمان بشىء من غير علم به واشتراك الكل فى

التكذيب والكفر به قبل ذلك حسبما أفاده قوله تعالى بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه أى ومن هؤلاء المكذبين (من يؤمن به) عند الاحاطة بعلمه وإتيان تأويله وظهور حقيته بعد ماسعوا فى المعارضة ورازوا قواهم فيها فتضاءلت دونها أو بعد ماشاهدوا وقوع ماأخبر به كما أخبر به مرارا ومعنى الايمان به إما الاعتقاد بحقيته فقط أى يصدق به فى نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند ويكابر وهؤلاء هم الذين أشير بقصر اتباع الظن على أكثرهم إلى أنهم يعلمون الحق على التفسير الأول كما أشير اليه فيما سلف وإما الايمان الحقيقى أى سيؤمن به ويتوب عن الكفر وهم الذين أشير بالقصر المذكور على التفسير الثانى إلى أنهم سيتبعون الحق كما مر (وَمِنهُم مَّن لَّا يُؤمِنُ بِهِ) أى لا يصدق به فى نفسه كما لا يصدق به ظاهرا لفرط غباوته المانعة عن الاحاطة بعلمه كما ينبغى وإن كان فوق مرتبة عدم الاحاطة به أصلا أو لسخافة عقله واختلال تمييزه وعجزه عن تخليص علومه عن مخالطة الظنون والأوهام التى ألفها فيبقى على ما كان عليه من الشك وهذا القدر من الاحاطة وإتيان التأويل كاف فى مقابلة ماسبق من عدم الاحاطة بالمرة وهؤلاء هم الذين أريدوا فيما سلف بقوله عز وجل وما يتبع أكثرهم إلا ظنا على التفسير الأول أو لا يؤمن به فيما سيأتى بل يموت على كفره معاندا كان أو شاكا وهم المستمرون على اتباع الظن على التفسير الثانى من غير اذعان للحق وانقياد له (وَرَبُّكَ أَعلَمُ بِالمُفسِدِينَ) أى بكلا الفريقين على الوجه الأول لا بالمعاندين فقط كما قيل لاشتراكهما فى أصل الافساد المستدعى لاشتراكهما فى الوعيد أو بالمصرين الباقين على الكفر على الوجه الثانى من المعاندين والشاكين (وَإِن كَذَّبُوكَ) أى إن تموا على تكذيبك وأصروا عليه حسبما أخبر عنهم بعد الزام الحجة بالتحدى (فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُم عَمَلُكُم) أى تبرأ منهم فقد أعذرت كقوله تعالى فان عصوك فقل إنى برىء والمعنى لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا وتوحيد العمل المضاف اليهم باعتبار الاتحاد النوعى ولمراعاة كمال المقابلة (أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعمَلُونَ) تأكيد لما أفادته لام الاختصاص من عدم تعدى جزاء العمل إلى غير عامله أى لا تؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم ولما فيه من إيهام المتاركة وعدم التعرض لهم قيل إنه منسوخ بآية السيف (وَمِنهُم مَّن يَستَمِعُونَ إِلَيكَ) بيان لكونهم مطبوعا على قلوبهم بحيث لا سبيل إلى إيمانهم وإنما جمع الضمير الراجع إلى كلمة من رعاية لجانب المعنى كما أفرد فيما سيأتى محافظة على ظاهر اللفظ ولعل ذلك للايماء إلى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب والظلمة أى ومنهم ناس يستمعون اليك عند قراءتك القرآن وتعليمك الشرائع (أَفَأَنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ) همزة الاستفهام انكارية والفاء عاطفة وليس الجمع بينهما لترتيب إنكار الاسماع على الاستماع كما هو رأى سيبويه والجمهور على أن يجعل تقديم الهمزة على الفاء لاقتضائها الصدارة كما تقرر فى موضعه بل لانكار ترتبه عليه حسبما هو المعتاد لكن لا بطريق العطف على الفعل المذكور لأدائه إلى اختلال المعنى لأنه إما صلة أو صفة وأياما كان فالعطف عليه يستدعى دخول المعطوف فى حيزه وتوجه الانكار اليه من تلك الحيثية ولاريب فى فساده بل بطريق العطف على مقدر مفهوم من فحوى النظم كأنه قيل أيستمعون اليك فأنت تسمعهم لا لإنكار استماعهم فانه أمر محقق بل لإنكار الوقوع الاسماع عقيب ذلك وترتبه عليه حسب العادة الكلية بل نفيا لامكانه أيضا كما ينبىء عنه وضع الصم موضع ضميرهم ووصفهم بعدم العقل بقوله تعالى (وَلَو كَانُوا لَا يَعقِلُونَ) أى ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم لأن الأصم العاقل ربما تفرس إذا وصل إلى صماخه صوت وأما إذا اجتمع فقدان السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر (وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيكَ) ويعاين دلائل نبوتك الواضحة (أَفَأَنتَ) أى أعقيب ذلك أنت تهديهم وإنما قيل (تَهدِى العُمىَ) تربية لانكار هدايتهم وإبرازا لوقوعها فى معرض الاستحالة وقد أكد ذلك حيث قيل (وَلَو كَانُوا لَا يُبصِرُونَ) أى ولو انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة فان المقصود من

الابصار الاعتبار والاستبصار والعمدة فى ذلك هى البصيرة ولذلك يحدس الاعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق بحيث اجتمع فيهم الحمق والعمى فقد انسد عليهم باب الهدى وجواب لو فى الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى تسمع الصم تهدى العمى عليه وكل منهما معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها فى الفحوى كلتاهما فى موضع الحال من مفعول الفعل السابق أى أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون أفأنت تهدى العمى لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون أى على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فان الشىء إذا تحقق عند تحقق المانع أو المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أو عند تحقق المانع الضعيف أولى وعلى هذه النكتة يدور مافى لو وإن الوصليتين من التأكيد وقد مر الكلام فى قوله تعالى ولو كره الكافرون ونظائره مرارا (إِنَّ اللّٰهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ) اشارة إلى أن ما حكى عنهم من عدم اهتدائهم إلى طريق الحق وتعطل مشاعرهم من الإدراك ليس لأمر مستند إلى الله عز وجل من خلقهم مؤفى المشاعر ونحو ذلك بل إنما هو من قبلهم أى لا ينقصهم (شَيْئًا) مما نيط به مصالحهم الدينية والدنيوية وكمالاتهم الأولوية والأخروية من مبادى إدراكاتهم وأسباب علومهم من المشاعر الظاهرة والباطنة والارشاد إلى الحق بإرسال الرسل وإنزال الكتب بل يوفيهم ذلك من غير إخلال بشىء أصلا (وَلٰكِنَّ النَّاسَ) وقرىء بالتخفيف ورفع الناس ووضع الظاهر موضع الضمير لزيادة تعيين وتقرير أى لكنهم بعدم استعمال مشاعرهم فيما خلقت له وإعراضهم عن قبول دعوة الحق وتكذيبهم للرسل والكتب (أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) أى ينقصون ما ينقصون مما يخلون به من مبادى كمالهم وذرائع اهتدائهم وإنما لم يذكر لما أن مرمى الغرض إنما هو قصر الظلم على أنفسهم لا بيان ما يتعلق به الظلم والتعبير عن فعلهم بالنقص مع كونه تفويتا بالكلية وإبطالا بالمرة لمراعاة جانب قرينته وقوله عز وجل أنفسهم إما تأكيد للناس فيكون بمنزلة ضمير الفصل فى قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين فى قصر الظالمية عليهم وإما مفعول ليظلمون حسبما وقع فى سائر المواقع وتقديمه عليه لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم على رأى من لا يرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما فى قوله تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم من غير قصر للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول وأما على رأى من يراه موجبا له فلعل ايثار قصرها دون قصر الظالمية عليهم للمبالغة فى بيان بطلان أفعالهم وسخافة عقولهم لما أن أقبح الأمرين عند اتحاد الفاعل والمفعول وأشدهما انكارا عند العقل ونفرة لدى الطبع وأوجبهما حذرا منه عند كل أحد هو المظلومية لا الظالمية على أن قصر الأولى عليهم مستلزم لما يقتضيه ظاهر الحال من قصر الثانية عليهم ضرورة أنه اذا لم يظلم أحد من الناس الا نفسه يلزم أن لا يظلمه الا نفسه اذ لو ظلمه غيره يلزم كون ذلك الغير ظالما لغير نفسه والمفروض أن لا يظلم أحد الا نفسه فاكتفى بالقصر الأول عن الثانى مع رعاية ماذكر من الفائدة وصيغة المضارع للاستمرار نفيا واثباتا فان حرف النفى اذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقام استمرار النفى لا نفى الاستمرار ألا يرى أن قولك ما زيد اضربت يدل على اختصاص النفى لا على نفى الاختصاص ومساق الآية الكريمة لالزام الحجة ويجوز أن يكون للوعيد فالمضارع المنفى للاستقبال والمثبت للاستمرار والمعنى أن الله لا يظلمهم بتعذيبهم يوم القيامة شيئا من الظلم ولكنهم أنفسهم يظلمون ظلما مستمرا فان مباشرتهم المستمرة للسيئات الموجبة للتعذيب عين ظلمهم لأنفسهم وعلى الوجهين فالآية الكريمة تذييل لما سبق (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ) منصوب بمضمر وقرىء بالنون على الالتفات أى أذكر لهم أو أنذرهم يوم يحشرهم (كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا) أى كأنهم لم يلبثوا (إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ) أى شيئا قليلا منه فانها مثل فى غاية القلة وتخصيصها بالنهار لأن ساعاته أعرف حالا من ساعات الليل والجملة فى موقع الحال من ضمير المفعول أى

يحشرهم مشبهين فى أحوالهم الظاهرة للناس بمن لم يلبث فى الدنيا ولم يتقلب فى نعيمها إلا ذلك القدر اليسير فان من أقام بها دهرا وتمتع بمتاعها لايخلو عن بعض اثار نعمة وأحكام بهجة منافية لما بهم من رثاثة الهيئة وسوء الحال أو بمن لم يلبث فى البرزخ إلا ذلك المقدار ففائدة التقييد بيان كمال يسر الحشر بالنسبة إلى قدرته تعالى ولو بعد دهر طويل وإظهار بطلان استبعادهم وإنكارهم بقولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ونحو ذلك أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين فى الأشكال والصور فان قلة اللبث فى البرزخ من موجبات عدم التبدل والتغير فيكون قوله عز وعلا (يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) بيانا وتقريرا له لأن التعارف مع طول العهد ينقلب تناكرا وعلى الأول يكون استئنافا أى يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلا وذلك أول ماخرجوا من القبور إذهم حينئذ على ماكانوا عليه من الهيئة المتعارفة فيما بينهم ثم ينقطع التعارف بشدة الأهوال المذهلة واعتراء الأحوال المعضلة المغيرة للصور والأشكال المبدلة لها من حال إلى حال (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ) شهادة من الله سبحانه وتعالى على خسرانهم وتعجب منه وقيل حال من ضمير يتعارفون على إرادة القول والتعبير عنهم بالموصول مع كون المقام مقام اضمار لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعليته لما أصابهم والمراد بلقاء الله إن كان مطلق الحساب والجزاء أو حسن اللقاء فالمراد بالخسران الوضيعة والمعنى وضعوا فى تجاراتهم ومعاملاتهم واشترائهم الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى ومعنى قوله تعالى (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) ماكانوا عارفين بأحوال التجارة مهتدين لطرقها وإن كان سوء اللقاء فالخسار الهلاك والضلال أى قد ضلوا وهلكوا بتكذيبهم وماكانوا مهتدين إلى طريق النجاة (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ) أصله نرك ومامزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة أكد الفعل بالنون أى بنصرتك بأن نظهرلك (بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ) أى وعدناهم من العذاب ونعجله فى حياتك فتراه والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار أى نعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من إنذار غب انذار وفى تخصيص البعض بالذكر رمز إلى العدة باراءة بعض الموعود وقد أراه يوم بدر (أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ) قبل ذلك (فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) أى كيفما دارت الحال أريناك بعض ماوعدناهم أولا فالينا مرجعهم فى الدنيا والآخرة فننجز ماوعدناهم البتة وقيل المذكور جواب للشرط الثانى كأنه قيل فالينا مرجعهم فنريكه فى الآخرة وجواب الأول محذوف لظهوره أى فذاك (ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ) من الأفعال السيئة التى حكيت عنهم والمراد بالشهادة إما مقتضاها ونتيجتها وهى معاقبته تعالى اياهم وإما إقامتها وأداؤها بانطاق الجوارح واظهار اسم الجلالة لإدخال الروعة وتربية المهابة وتأكيد التهديد وقرىء ثمة أى هناك (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ) من الأمم الخالية (رَسُولٌ) يبعث اليهم بشريعة خاصة مناسبة لأحوالهم ليدعوهم إلى الحق (فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ) فبلغهم ما أرسل به فكذبوه وخالفوه (قُضِيَ بَيْنَهُمْ) أى بين كل أمة ورسولها (بِالْقِسْطِ) بالعدل وحكم بنجاة الرسول والمؤمنين به وهلاك المكذبين كقوله تعالى وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) فى ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم لأنه من نتائج أعمالهم أو ولكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب اليه وتدعى به فاذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والايمان كقوله عز وجل وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ) استعجالا لما وعدوا من العذاب على طريقة الاستهزاء به والانكار حسبما يرشد اليه الجواب لاطلبا لتعيين وقت مجيئه على وجه الالزام كما فى سورة الملك (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أى فى أنه يأتينا والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآيات المتضمنة للوعد المذكور وجواب الشرط محذوف اعتمادا على ماتقدم حسبما حذف فى مثل قوله تعالى فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فان الاستعجال فى قوة الامر بالإتيان عجلة كأنه قيل

فليأتنا عجلة إن كنتم صادقين ولما فيه من الاشعار بكون اتيانه بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم قيل (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً) أي لا أقدر على شيء منهما بوجه من الوجوه وتقديم الضر لما أن مساق النظم لاظهار العجز عنه وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملة للعجز وما وقع في سورة الاعراف من تقديم النفع للاشعار بأهميته والمقام مقامه والمعنى إني لا أملك شيأ من شئوني رداوايرادا مع أن ذلك أقرب حصولا فكيف أملك شئونكم حتى أتسبب في اتيان عذابكم الموعود (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) استئناف منقطع أي ولكن ماشاء الله كائن وحمله على الاتصال على معنى إلا ماشاء الله أن أملكه يأباه مقام التبرؤ من أن يكون له عليه السلام دخل في اتيان الوعد فان ذلك يستدعي بيان كون المتنازع فيه مما يشاء الله أن يملكه عليه السلام وجعل ماعبارة عن بعض الاحوال المعهودة المنوطة بالافعال الاختيارية المفوضة إلى العباد على أن يكون المعنى لا أملك لنفسي شيأ من الضر والنفع إلا ماشاء الله أن أملكه منهما من الضر والنفع المترتبين على أفعالي الاختيارية كالضر والنفع المترتبين على الاكل والشرب عدما ووجودا تعسف ظاهر وقوله تعالى (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) بيان لما أبهم في الاستثناء وتقييد لما في القضاء السابق من الاطلاق المشعر بكون المقضى به أمرا منجزا غير متوقف على شيء غير مجيء الرسول وتكذيب الامة أي لكل أمة أمة ممن قضى بينهم وبين رسولهم أجل معين خاص بهم لا يتعدى إلى أمة أخرى مضروب لعذابهم يحل بهم عند حلوله (إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ) إن جعل الاجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر وان أريد به ما امتد اليه من الزمان فمجيؤه عبارة عن انقضائه إذ هناك يتحقق مجيؤه بتمامه والضمير ان جعل للامم المدلول عليها بكل أمة فاظهار الاجل مضافا اليه لافادة المعنى المقصود الذي هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيؤه اياها بعينها من بين الامم بواسطة اكتساب الاجل بالإضافة عموما يفيده معنى الجمعية كأنه قيل إذا جاءهم آجالهم بأن يجيء كل واحدة من تلك الامم أجلها الخاص بها وإن جعل لكل أمة خاصة كما هو الظاهر فالاظهار في موقع الاضمار لزيادة التقرير والإضافة إلى الضمير لإفادة كمال التعيين أي اذا جاءها أجلها الخاص بها (فَلا يَسْتَأْخِرُونَ) عن ذلك الأجل (ساعَةً) أي شيأ قليلا من الزمان فانها مثل في غاية القلة منه أي لا يتأخرون عنه أصلا وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له (وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) أي لا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع امكانه في نفسه كالتأخر بل للمبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلا كما في قوله سبحانه وتعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع ظهور أن لا توبة له رأسا قد نظم في عدم قبول التوبة في سلك من سوفها إلى حضور الموت ايذانا بتساوي وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة كما مر في سورة الأعراف وقد جوز أن يراد بمجيء الأجل دنوه بحيث يمكن التقدم في الجملة كمجيء اليوم الذي ضرب لهلاكهم ساعة معينة منه لكن ليس في تقييد عدم الاستئخار بدنوه مزيد فائدة وتقديم بيان انتفاء الاستئخار على بيان انتفاء الاستقدام لأن المقصود الاهم بيان عدم خلاصهم من العذاب ولو ساعة وذلك بالتأخر وأما في قوله تعالى ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون من سبق السبق في الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم له حسبما ينبيء عنه قوله عز وجل ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون فالاهم اذ ذاك بيان انتفاء السبق كما ذكر هناك (قُلْ) لهم غب ما بينت كيفية جريان سنة الله عز وجل فيما بين الامم على الإطلاق ونبهتهم على أن عذابهم أمر مقرر محتوم لا يتوقف الا على مجيء أجله المعلوم ايذانا بكمال دنوه وتنزيلا له منزلة اتيانه حقيقة (أَرَأَيْتُمْ) أي أخبروني (إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ) الذي تستعجلون به (بَياتاً) أي وقت بيات واشتغال بالنوم (أَوْ نَهاراً) أي عند اشتغالكم بمشاغلكم حسبما عين لكم من الأجل بمقتضى المشيئة

التابعة للحكمة كما عين اسائر الأمم المهلكة وقوله عز وجل (ماذا يستعجل منه المجرمون) جواب للشرط بحذف الفاء كما فى قولك ان أتيتك ماذا تطعمنى والمجرمون موضوع موضع المضمر لتأكيد الإنكار ببيان مباينة حالهم للاستعجال فان حق المجرم أن يهلك فزعا من إتيان العذاب فضلا عن استعجاله والجملة الشرطية متعلقة بأرأيتم والمعنى أخبرونى إن أتاكم عذابه تعالى أى شىء تستعجلون منه سبحانه والشىء لا يمكن استعجاله بعد إتيانه والمراد به المبالغة فى إنكار استعجاله باخراجه عن حيز الامكان وتنزيله فى الاستحالة منزلة استعجاله بعد إتيانه بناء على تنزيل تقرر إتيانه ودنوه منزلة إتيانه حقيقة كما أشير اليه وهذا الإنكار بمنزلة النهى فى قوله عز وعلا أتى أمر الله فلا تستعجلوه خلا أن التنزيل هناك صريح وهنا ضمنى كما فى قول من قال لغريمه الذى يتقاضاه حقه أرأيت ان أعطيتك حقك فماذا تطلب منى يريد المبالغة فى إنكار التقاضى بنظمه فى سلك التقاضى بعد الاعطاء بناء على تنزيل تقرره منزلة نفسه وقوله عز وجل (أثم إذا ما وقع آمنتم به) إنكار لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقة داخل مع ماقبله من إنكار استعجالهم به بعد إتيانه حكما تحت القول المأمور به أى أبعد ما وقع العذاب وحل بكم حقيقة آمنتم به حين لا ينفعكم الإيمان إنكار التأخيره إلى هذا الحد وإيذانا باستتباعه للندم والحسرة ليقلعوا عما هم عليه من العناد ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الوقت فتقديم الظرف للقصر وقيل ماذا يستعجل منه متعلق بأرأيتم وجواب الشرط محذوف أى تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه والشرطية اعتراض مقرر لمضمون الاستخبار وقيل الجواب قوله تعالى أثم إذا ما وقع الخ والاستفهامية الأولى اعتراض والمعنى أخبرونى ان أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ثم جىء بكلمة التراخى دلالة على الاستبعاد ثم زيد أداة الشرط دلالة على استقلاله بالاستبعاد وعلى أن الأول كالتمهيد له وجىء باذا مؤكدا بما ترشيحا لمعنى الوقوع وزيادة للتجهيل وأنهم لم يؤمنوا إلا بعد أن لم ينفعهم الإيمان البتة وقوله تعالى (آلآن) استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت القول الملقن مسوق لتقرير مضمون ماسبق على ارادة القول أى قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به إنكار اللتأخير وتوبيخا عليه ببيان أنه لم يكن ذلك لعدم سبق الانذار به ولا للتأمل والتدبر فى شأنه ولا لشىء آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير بل كان ذلك على طريق التكذيب والاستعجال به على وجه الاستهزاء وقرىء آلان بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وقوله تعالى (وقد كنتم به تستعجلون) أى تكذيبا واستهزاء جملة وقعت حالا من فاعل آمنتم المقدر لتشديد التوبيخ والتقريع وزيادة التنديم والتحسير وتقديم الجار والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصل دون القصر وقوله تعالى (ثم قيل) الخ تأكيد للتوبيخ والعتاب بوعيد العذاب والعقاب وهو عطف على ماقدر قبل آلآن (للذين ظلموا) أى وضعوا الكفر والتكذيب موضع الإيمان والتصديق أو ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب والهلاك ووضع الموصول موضع الضمير لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعليته لاصابة ما أصابهم (ذوقوا عذاب الخلد) المؤلم على الدوام (هل تجزون) اليوم (إلا بما كنتم تكسبون) فى الدنيا من أصناف الكفر والمعاصى التى من جملتها مامر من الاستعجال (ويستنبئونك) أى يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء أو الانكار (أحق هو) أحق خبر قدم على المبتدا الذى هو الضمير للاهتمام به ويؤيده قوله تعالى انه لحق أو مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر والجملة فى موقع النصب بيستنبئونك وقرىء آلحق هو تعريضا بأنه باطل كأنه قيل أهو الحق لا الباطل أو أهو الذى سميتموه الحق (قل) لهم غير ملتفت إلى استهزائهم مغضيا عما قصدوا وبانيا للأمر على أساس الحكمة (إى وربى) إى من حروف الايجاب بمعنى نعم فى القسم خاصة كما أن هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة ولذلك يوصل بواوه (إنه) أى العذاب الموعود (لحق) لثابت البتة أكد الجواب بأتم وجوه التأكيد حسب شدة إنكارهم وقوته وقد زيد تقريرا

وتحقيقا بقوله عز اسمه (وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ) أى بفائتين العذاب بالهرب وهو لاحق بكم لامحالة وهو اما معطوف على
جواب القسم أو مستأنف سيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع مافيه من التقرير المذكور (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ)
بالشرك أو التعدى على الغير أو غير ذلك من أصناف الظلم ولو مرة حسبما يفيده كون الصفة فعلا (مَا فِى الْأَرْضِ)
أى مافى الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة بما كثرت (لَافْتَدَتْ بِهِ) أى لجعلته فدية لها من العذاب من
افتداه بمعنى فداه (وَأَسَرُّوا) أى النفوس المدلول عليها بكل نفس والعدول إلى صيغة الجمع مع تحقق العموم فى
صورة الافراد أيضا لإفادة تهويل الخطب بكون الاسرار بطريق المعية والاجتماع وانما لم يراع ذلك فيما سبق لتحقيق
مايتوخى من فرض كون جميع مافى الارض لكل واحدة من النفوس وايثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على
الشخص أو لتغليب ذكور مدلوله على اناثه (النَّدَامَةَ) على مافعلوا من الظلم أى أخفوها ولم يظهروها لكن لا للاصطبار
والتجلد هيهات ولات حين اصطبار بل لأنهم بهتوا (لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) أى عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدة
الاهوال مالم يكونوا يحتسبون فلم يقدروا على أن ينطقوا بشىء فلما بمعنى حين منصوب بأسروا أو حرف شرط حذف
جوابه لدلالة ماتقدم عليه وقيل أسرها رؤساؤهم ممن أضلوهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم ولكن الأمر أشد من أن
يعتريهم هناك شىء غير خوف العذاب وقيل أسروا الندامة أخلصوها لأن اسرارها اخلاصها أو لأن سر الشىء خالصته
حيث تخفى ويضن بها ففيه تهكم بهم وقيل أظهروا الندامة من قولهم أسر الشىء وأشره إذا أظهره حين عيل صبره وفنى
تجلده (وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ) أى أوقع القضاء بين الظالمين من المشركين وغيرهم من أصناف أهل الظلم بأن أظهر الحق سواء
كان من حقوق الله سبحانه أو من حقوق العباد من الباطل وعومل أهل كل منهما بمايليق به (بِالْقِسْطِ) بالعدل
وتخصيص الظلم بالتعدى وحمل القضاء على مجرد الحكومة بين الظالمين والمظلومين من غير أن يتعرض لحال المشركين
وهم أظلم الظالمين لايساعده المقام فان مقتضاه اما كون الظلم عبارة عن الشرك أو عما يدخل فيه دخولا أوليا (وَهُمْ)
أى الظالمون (لَا يُظْلَمُونَ) فيما فعل بهم من العذاب بل هو من مقتضيات ظلمهم ولوازمه الضرورية (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ
مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ) أى ماوجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما وكلمة ما لتغليب غير
العقلاء على العقلاء فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الاشياء وبيان لاندراج الكل تحت ملكوته يتصرف فيه
كيفما يشاء إيجادا واعداما وإثابة وعقابا (أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ) اظهار الاسم الجليل لتفخيم شان الوعد والاشعار بعلة
الحكم وهو إما بمعنى الموعود أى جميع ماوعد به كائنا ما كان فيندرج فيه العذاب الذى استعجلوه وماذكر فى أثناء بيان
حاله اندراجا أوليا أو بمعناه المصدرى أى وعده بجميع ماذكر فمعنى قوله تعالى (حَقٌّ) على الأول ثابت واقع لامحالة
وعلى الثانى مطابق للواقع وتصدير الجملتين بحرفى التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقق مضمونهما المقرر لمضمون ماسلف
من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضاره والمحافظة عليه (وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ) لقصور عقولهم واستيلاء
الغفلة عليهم والفهم بالأحوال المحسوسة المعتادة (لَا يَعْلَمُونَ) ذلك فيقولون مايقولون ويفعلون مايفعلون
(هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ) فى الدنيا من غير دخل لأحد فى ذلك (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فى الآخرة بالبعث والحشر (يَا أَيُّهَا
النَّاسُ) التفات ورجوع إلى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم إلى قبوله واتباعه غب تحذيرهم من غوائل الضلال بما
تلى عليهم من القوارع الناعية عليهم سوء عاقبتهم وإيذان بأن جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم (قَدْ جَاءَتْكُمْ
مَوْعِظَةٌ) هى والوعظ والعظة التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر والترهيب أو بالاستمالة والترغيب وكلمة من فى
قوله تعالى (مِنْ رَبِّكُمْ) ابتدائية متعلقة بجاءتكم أو تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لموعظة أى موعظة كائنة من

مواعظ ربكم وفى التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع مالا يخفى (وَشِفاءٌ لِما فى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلمُؤْمِنينَ) أى كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع فانه كاشف عن أحوال الأعمال حسناتها وسيئاتها مرغب فى الأولى ورادع عن الأخرى ومبين للمعارف الحقة التى هى شفاء لما فى الصدور من الأدواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة وهاد إلى طريق الحق واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والأنفس وفى مجيئه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وتخلصوا من دركات النيران وارتقوا إلى درجات الجنان والتنكير فى الكل للتفخيم (قُلْ) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأمر الناس بأن يغتنموا مافى مجيء القرآن العظيم من الفضل والرحمة (بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ) المراد بهما اما ما فى مجيء القرآن من الفضل والرحمة واما الجنس وهما داخلان فيه دخولا أوليا والباء متعلقة بمحذوف وأصل الكلام ليفرحوا بفضل الله وبرحمته وتكرير الباء فى رحمته للايذان باستقلالها فى استيجاب الفرح ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لافادة القصر ثم أدخل عليه الفاء لإفادة معنى السببية فصار بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ثم قيل (فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا) للتأكيد والتقرير ثم حذف الفعل الأول لدلالة الثانى عليه والفاء الأولى جزائية والثانية للدلالة على السببية والأصل ان فرحوا بشيء فبذلك ليفرحوا لابشيء آخر ثم أدخل الفاء للدلالة على السببية ثم حذف الشرط ومعنى البعد فى اسم الإشارة للدلالة على بعد درجة فضل الله تعالى ورحمته ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا ويجوز أن يتعلق الباء بجاءتكم أى جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك أى فبمجيئها فليفرحوا وقريء فلتفرحوا وقرأ أبى فافرحوا وعن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والإسلام وقيل فضله الاسلام ورحمته ماوعد عليه (هُوَ) أى ماذكر من فضل الله ورحمته (خَيْرٌ مِما يَجْمَعُونَ) من حطام الدنيا وقريء تجمعون أى فبذلك فليفرح المؤمنون هو خير مما تجمعون أيها المخاطبون (قُلْ أَرَأَيْتُمْ) أى أخبرونى (ما أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ) ما منصوبة المحل بما بعدها أو بما قبلها واللام للدلالة على أن المراد بالرزق ما حل لهم وجعله منزلا لأنه مقدر فى السماء محصل هو أو مايتوقف عليه وجودا أو بقاء بأسباب سماوية من المطر والكواكب فى الانضاج والتلوين (فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ) أى جعلتم بعضه (حَرامًا) أى حكمتم بأنه حرام (وَحَلالًا) أى وجعلتم بعضه حلالا أى حكمتم بحله مع كون كله حلالا وذلك قولهم هذه أنعام وحرث حجر الآية وقولهم مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ونحو ذلك وتقديم الحرام لظهور أثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه (قُلْ) تكرير لتأكيد الأمر بالاستخبار أى أخبرونى (آللهُ أَذِنَ لَكُمْ) فى ذلك الجعل فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى (أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ) أم متصلة والاستفهام للتقرير والتبكيت لتحقق العلم بالشق الأخير قطعا كأنه قيل أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه فأظهر الاسم الجليل وقدم على الفعل دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيدا للتبكيت اثر تأكيد مع مراعاة الفواصل ويجوز أن يكون الاستفهام للانكار وأم منقطعة ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من التوبيخ والزجر بانكار الاذن إلى ماتفيده همزتها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريره وتقديم الجار والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر كأنه قيل بل أعلى الله تعالى خاصة تفترن (وَما ظَنُّ الَّذينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) كلام مسوق من قبله تعالى لبيان هول ما سيلقونه غير داخل تحت القول المأمور به والتعبير عنهم بالموصول فى موقع الاضمار لقطع احتمال الشق الأول من الترديد والتسجيل عليهم بالافتراء وزيادة الكذب مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لاظهار كمال قبح مافعلوا وكونه كذبا فى اعتقادهم أيضا وكلمة ما استفهامية وقعت مبتدأ وظن خبرها ومفعولاه

محذوفان وقوله عز وجل (يوم القيامة) طرف لنفس الظن أى أى شىء ظنهم فى ذلك اليوم يوم عرض الأفعال والأقوال والمجازاة عليها مثقالا بمثقال والمراد تهويله وتفظيعه بهول مايتعلق به مما يصنع بهم يومئذ وقيل هو ظرف لما يتعلق به ظنهم اليوم من الأمور التى ستقع يوم القيامة تنزيلا له ولما فيه من الأحوال الكمال وضوح أمره فى التقرر والتحقق منزلة المسلم عندهم أى أى شىء ظنهم لما سيقع يوم القيامة أيحسبون أنهم لا يسألون عن افترائهم أو لا يجازون عليه أو يجازون جزاء يسيرا ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون كلا انهم لفى أشد العذاب لأن معصيتهم أشد المعاصى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا وقرىء على لفظ الماضى أى أى ظن ظنوا يوم القيامة وإيراد صيغة الماضى لأنه كائن فكأنه قد كان (إن الله لذو فضل) أى عظيم لا يكتنه كنهه (على الناس) أى جميعا حيث أنعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ورحمهم بانزال الكتب وإرسال الرسل وبين لهم الاسرار التى لا تستقل العقول فى ادراكها وأرشدهم إلى ما يهمهم من أمر المعاش والمعاد (ولكن أكثرهم لا يشكرون) تلك النعمة الجليلة فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم إلى ما خلقت له ولا يتبعون دليل العقل فيما يستبد به ولا دليل الشرع فيما لا يدرك إلا به وقد تفضل عليهم ببيان ما سيلقونه يوم القيامة فلا يلتفتون اليه فيقعون فيما يقعون فهو تذييل لما سبق مقرر لمضمونه (وما تكون فى شأن) أى فى أمر من شأنت شأنه أى قصدت قصده مصدر بمعنى المفعول (وما تتلوا منه) الضمير للشأن والظرف صفة لمصدر محذوف أى تلاوة كائنة من الشأن اذ هى معظم شؤنه عليه السلام أو للتنزيل والاضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ومن ابتدائية أو تبعيضية أو لله عز وجل ومن ابتدائية والتى فى قوله تعالى (من قرءان) مزيدة لتأكيد النفى أو ابتدائية على الوجه الأول وبيانية أو تبعيضية على الثانى والثالث (ولا تعملون من عمل) تعميم للخطاب اثر تخصيصه بمقتدى الكل وقد روعى فى كل من المقامين ما يليق به حيث ذكر أولا من الأعمال ما فيه فخامة وجلالة وثانيا ما يتناول الجليل والحقير (إلا كنا عليكم شهودا) استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة أى ما تلابسون بشىء منها فى حال من الأحوال إلا حال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له (إذ تفيضون فيه) أى تخوضون وتندفعون فيه وأصل الافاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة وحيث أريد بالافعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة للزمان الماضى ايضا أوثر فى الاستثناء صيغة الماضى وفى الظرف كلمة إذ التى تفيد المضارع معنى الماضى (وما يعزب عن ربك) أى لا يبعد ولا يغيب على علمه الشامل وفى التعرض لعنوان الربوبية من الاشعار باللطف ما لا يخفى وقرىء بكسر الزاء (من مثقال ذرة) كلمة من مزيدة لتأكيد النفى أى ما يعزب عنه ما يساوى فى الثقل نملة صغيرة أو هباء (فى الأرض ولا فى السماء) أى فى دائرة الوجود والامكان فان العامة لا تعرف سواهما ممكنا ليس فى أحدهما أو متعلقا بهما وتقديم الأرض لأن الكلام فى حال أهلها والمقصود إقامة البرهان على احاطة علمه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) كلام برأسه مقرر لما قبله ولا نافية للجنس وأصغر اسمها وفى كتاب خبرها وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر ومن عطف على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعا كأنه قيل لا يعزب عن ربك شىء ما لكن جميع الاشياء فى كتاب مبين فكيف يعزب عنه شىء منها وقيل يجوز أن يكون الاستثناء متصلا ويعزب بمعنى يبين ويصدر والمعنى لا يصدر عنه تعالى شىء الا وهو فى كتاب مبين والمراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ (ألا إن أولياء الله) بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين وغاية لما ذكر قبله من كونه تعالى مهيمنا على نبيه عليه السلام وأمته فى كل ما يأتون وما يذرون واحاطة علمه سبحانه بجميع ما فى السماء والأرض وكون الكل مثبتا فى الكتاب المبين بعد ما أشير إلى فظاعة حال المفترين على الله

تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم من الهول إشارة إجمالية على طريق التهديد والوعيد وصدرت الجملة بحرفى التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها والولى لغة القريب والمراد بأولياء الله خلص المؤمنين لقربهم الروحانى منه سبحانه وتعالى كما سيفصح عنه تفسيرهم (لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) فى الدارين من لحوق مكروه (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) من فوات مطلوب أى لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ولا أنه لا يعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى إقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا من أن النفى وإن دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام وإنما لا يعتريهم ذلك لأن مقصدهم ليس إلا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى وذلك مما لاريب فى حصوله ولا احتمال بفواته بموجب الوعد بالنسبة اليه تعالى وأما ماعدا ذلك من الأمور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهى بمعزل من الانتظام فى سلك مقصدهم وجودا وعدما حتى يخافوا من حصول ضارها أو يحزنوا بفوات نافعها وقوله عز وجل (الَّذِينَ آمَنُوا) أى بكل ما جاء من عند الله تعالى (وَكَانُوا يَتَّقُونَ) أى يقون أنفسهم عما يحق وقايتها عنه من الافعال والتروك وقاية دائمة حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل بيان وتفسير لهم وإشارة إلى ما به نالوا ما نالوا على طريقة الاستئناف المبنى على السؤال ومحل الموصول الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف كأنه قيل من أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة فقيل هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيين إلى كل خير المنجيين عن كل شر وقيل محله النصب أو الرفع على المدح أو على أنه وصف مادح للأولياء ولا يقدح فى ذلك توسط الخبر والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك التى يفيدها الإيمان أيضا ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك أعنى تنزه الإنسان عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل اليه بالكلية وهى التقوى الحقيقى المأمور به فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وبه يحصل الشهود والحضور والقرب الذى عليه يدور إطلاق الاسم عليه وهكذا كان حال كل من دخل معه عليه السلام تحت الخطاب بقوله عز وجل ولا تعملون من عمل خلا أن لهم فى شأن التبتل والتنزه درجات متفاوتة حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الآبية أقصاها ما انتهى اليه همم الأنبياء عليهم السلام حتى جمعوا بذلك بين رياستى النبوة والولاية ولم يعقهم التعلق بعالم الأشباح عن الاستغراق فى عالم الأرواح ولم تصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن التبتل إلى جناب الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية فملاك أمر الولاية هو التقوى المذكور فأولياء الله هم المؤمنون المتقون ويقرب منه ما قيل من أنهم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه ولا يخالفه ما قيل من أنهم الذين يذكر الله برؤيتهم لما روى عن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم أى بسمتهم وإخباتهم وسكينتهم ولا ما قيل من أنهم المتحابون فى الله لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول إن من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله غير أرحام منهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس فان ما ذكر من حسن السمت والسكينة المذكرة لله تعالى والتحاب فى الله سبحانه من الأحكام الدنيوية اللازمة للإيمان والتقوى والآثار الخاصة بهما

الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها وقربها من أفهام الناس قد أورد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من ذلك حسبما يقتضيه مقام الارشاد والتذكير ترغيبا للسائلين أو غيرهم من الحاضرين فيما خصه بالذكر هناك من أحكامهما فلعل الحاضرين أولا كانوا محتاجين إلى اصلاح الحال من جهة الأقوال والأفعال والملابس ونحو ذلك والحاضرين ثانيا مفتقرين إلى تأليف قلوبهم وعطفها نحو المؤمنين الذين لا علاقة بينهم وبينهم من جهة النسب والقرابة وتأكيد ما بينهم من الأخوة الدينية ببيان عظم شأنها ورفعة مكانتها وحسن عاقبتها ليراعوا حقوقها ويهجروا من لا يوافقهم فى الدين من أرحامهم وأما ما ذكر من أنه يغبطهم الأنبياء فتصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل قال الكواشى وهذا مبالغة والمعنى لو فرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء وقيل أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وجعل عز وجل الذين آمنوا وكانوا يتقون تفسيرا لتوليهم اياه تعالى وقوله عز وجل (لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ) تفسيرا لتوليه تعالى اياهم ولا ريب فى أن اعتبار القيد الأخير فى مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيلها والثبات عليها وبشارتهم بآثارها ونتائجها بل مخل بذلك اذ التحصيل انما يتعلق بالمقدور والاستبشار لا يحصل إلا بما علم وجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم ويستبشروا بمحاسن آثارها بل التولى بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره فى عنوان الموضوع ثم الاخبار بعدم الخوف والحزن مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل فالذى يقتضيه النظم الكريم أن الأول تفسير للأولياء حسبما شرح والثانى بيان لما أولاهم من خيرات الدارين بعد بيان انجائهم من شرورهما ومكارههما والجملة مستأنفة كما سبق كأنه قيل هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة فقيل لهم ما يسرهم فى الدارين وتقديم الأول لما أن التخلية سابقة على التحلية مع ما فيه من مراعاة حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل ادخال المسرة بتبشير الخلاص عن الأهوال وتوسيط البيان السابق بين بشارة الخلاص عن المحذور وبشارة الفوز بالمطلوب لإظهار كمال العناية بتفسير الأولياء مع الايذان بأن انتفاء الخوف والحزن لاتقائهم عما يؤدى اليهما من الأسباب والبشرى مصدر أريد به المبشر به من الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك والآجلة الغنية عن البيان وايثار الابهام والاجمال للايذان بكونه وراء البيان والتفصيل والظرفان فى موقع الحال منه والعامل ما فى الخبر من معنى الاستقرار أى لهم البشرى حال كونها فى الحياة الدنيا وحال كونها فى الآخرة أى عاجلة وآجلة أو من الضمير المجرور أى حال كونهم فى الحياة الخ ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن والذكر الجميل ومحبة الناس . عن أبى ذر رضى الله عنه قلت يا رسول الله الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال عليه السلام تلك عاجل بشرى المؤمن هذا وقيل البشرى مصدر والظرفان متعلقان به . أما البشرى فى الدنيا فهى البشارات الواقعة للمؤمنين المتقين فى غير موضع من الكتاب المبين وعن النبى صلى الله عليه وسلم هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له وعنه عليه الصلاة والسلام ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وعن عطاء لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة . وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرؤن منها وغير ذلك من البشارات فتكون هذه بشارة بما سيقع من البشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها ولا يخفى أن صرف البشارة الناجزة عن المقاصد بالذات إلى وسائلها مما لا يساعده جلالة شأن التنزيل الكريم (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ اللَّهِ) لا تغيير لأقواله التى من جملتها مواعيده الواردة ببشارة المؤمنين المتقين فيدخل فيها البشارات الواردة ههنا دخولا أوليا ويثبت امتناع الاخلاف فيها ثبوتا قطعيا وعلى تقدير كون

المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم الخلف بينها وبين نتائجها الدنيوية والأخروية بل عدم الخلف بينها وبين مادل على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتى بطريق الوعد من قوله تعالى لهم البشرى فتدبر (ذٰلِكَ) إشارة إلى ماذكر من أن لهم البشرى فى الدارين (هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ) الذى لافوز وراءه وفيه تفسير لما أبهم فيما سبق وهاتيك الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه أن يكون بعده كلام متصل بما قبله أو هذه تذييل والسابقة اعتراض (وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ) تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الأذية الناشئة عن مقالاتهم الموحشة وتبشير له عليه الصلاة والسلام بأنه عز وجل ينصره ويعزه عليهم إثر بيان أن له ولأتباعه أمنا من كل محذور وفوزا بكل مطلوب وقرىء ولايحزنك من أحزنه وهى فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن الحزن كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بتكذيبهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وإبطال أمرك وسائر مايتفوهون به فى شأنك مما لاخير فيه وإنما وجه النهى إلى قولهم للمبالغة فى نهيه عليه السلام عن الحزن لما أن النهى عن التأثير نهى عن التأثر بأصله ونفى له بالمرة وقد يوجه النهى إلى اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك لا أرينك ههنا وتخصيص النهى عن الحزن بالايراد مع شمول النفى السابق للحزن أيضا لما أنه لم يكن فيه عليه السلام شائبة خوف حتى ينهى عنه وربما كان يعتريه عليه السلام فى بعض الأوقات نوع حزن فسلى عن ذلك وقوله تعالى (إِنَّ العِزَّةَ) تعليل للنهى عن طريقة الاستئناف أى الغلبة والقهر (لِلّٰهِ جَمِيعاً) أى فى ملكته وسلطانه لا يملك أحدشيئا منها أصلالاهم ولا غيرهم فهو يقهرهم ويعصمك منهم وينصرك عليهم وقد كان كذلك فهى من جملة المبشرات العاجلة وقرىء بفتح أن على صريح التعليل أى لأن العزة لله (هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) يسمع مايقولون فى حقك ويعلم مايعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك (أَلَا إِنَّ لِلّٰهِ مَنْ فِى السَّمٰوٰاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ) أى العقلاء من الملائكة والثقلين وتخصيصهم بالذكر للايذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم فانهم مع شرفهم وعلو طبقتهم إذا كانوا عبيدا له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فما عداهم من الموجودات أولى بذلك وهو مع مافيه من التأكيد لما سبق من اختصاص العزة بالله تعالى الموجب لسلوته عليه السلام وعدم مبالاته بالمشركين وبمقالاتهم تمهيد لما لحق من قوله تعالى (وما يَتَّبِعُ الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ) وبرهان على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنية عليها وما إمانافية وشركاء مفعول يتبع ومفعول يدعون محذوف لظهوره أى مايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فى الحقيقة وإن سموها شركاء فاقتصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون ويكون مفعول يتبع محذوفا لانفهامه من قوله تعالى (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) أى مايتبعون يقينا إنما يتبعون ظنهم الباطل وإما موصولة معطوفة على من كأنه قيل ولله مايتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أى وله شركاؤهم وتخصيصهم بالذكر مع دخولهم فيما سبق عبارة أو دلالة للمبالغة فى بيان بطلان اتباعهم وفساد مابنوه عليه من ظنهم شركاءهم معبودين مع كونهم عبيدا له سبحانه وإما استفهامية أى وأى شىء يتبعون أى لايتبعون شيئا مايتبعون إلا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها الخ وقرىء تدعون بالتاء فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ كأنه قيل وأى شىء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين تقريرا لكونهم متبعين لله تعالى مطيعين له وتوبيخا لهم على عدم اقتدائهم بهم فى ذلك كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقيل ان يتبع هؤلاء المشركون الا الظن ولا يتبعون مايتبعه الملائكة والنبيون من الحق (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) لايكذبون فيما ينسبونه اليه سبحانه ويحزرون ويقدرون انهم شركاء تقديرا باطلا (هُوَ الذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً) تنبيه

على تفرده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليدلهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة وتقرير لما سلف من كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكته المفصح عن اختصاص العزة به سبحانه والجعل إن كان بمعنى الابداع والخلق فمبصرا حال وإلا فلكم مفعوله الثانى أو هو حال كما فى الوجه الأول والمفعول الثانى لتسكنوا فيه أو هو محذوف يدل عليه المفعول الثانى من الجملة الثانية كما أن العلة الغائية منها محذوفة اعتمادا على ما فى الأول والتقدير هو الذى جعل الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لمصالحكم كما سيجىء نظيره فى قوله تعالى وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلاراد لفضله الآية فحذف فى كل واحد من الجانبين ماذكر فى الآخر اكتفاء بالمذكور عن المتروك وإسناد الأبصار إلى النهار مجازى كالذى فى نهاره صائم (إِنَّ فى ذَٰلِكَ) أى فى جعل كل منهما كما وصف أو فيهما ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلة الاشارة اليه وعلو رتبته (لَآيَـٰتٍ) عجيبة كثيرة أو آيات أخر غير ما ذكر (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) أى هذه الآيات المتلوة ونظائرها المنبهة على تلك الآيات التكوينية الآمرة بالتأمل فيها سماع تدبر واعتبار فيعلمون بمقتضاها وتخصيص الآيات بهم مع أنها منصوبة لمصلحة الكل لما أنهم المنتفعون بها (قالوا) شروع فى ذكر ضرب آخر من أباطيلهم وبيان بطلانه (اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) أى تبناه (سُبْحَـٰنَهُ) تنزيه وتقديس له عما نسبوا اليه وتعجيب من كلمتهم الحمقاء (هُوَ الغَنِىُّ) على الاطلاق عن كل شىء فى كل شىء وهو علة لتنزيهه سبحانه وإيذانا بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة وقوله عز وجل (لَهُ ما فى السَّمَـٰوَٰتِ وَما فى الأَرْضِ) أى من العقلاء وغيرهم تقرير لغناه وتحقيق لمالكيته تعالى لكل ماسواه وقوله تعالى (إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ) أى حجة (بِهَـٰذَا) أى بما ذكر من قولهم الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض فمن فى قوله تعالى من سلطان زائدة لتأكيد النفى وهو مبتدأ والظرف المقدم خبره أو مرتفع على أنه فاعل للظرف لاعتماده على النفى وبهذا متعلق إما بسلطان لأنه بمعنى الحجة والبرهان وإما بمحذوف وقع صفة له وإما بما فى عندكم من معنى الاستقرار كأنه قيل إن عندكم فى هذا القول من سلطان والالتفات إلى الخطاب لمزيد المبالغة فى الالزام والافحام وتأكيد مافى قوله تعالى (أَتَقُولُونَ عَلى اللهِ مالا تَعْلَمُونَ) من التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلافهم وفيه تنبيه على أن كل مقالة لادليل عليها فهى جهالة وأن العقائد لابد لها من برهان قطعى وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به (قُلْ) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم سوء مغبتهم ووخامة عاقبتهم (إِنَّ الذينَ يَفْتَرُونَ عَلى اللهِ الكَذِبَ) أى فى كل أمر فيدخل مانحن بصدده من الافتراء بنسبة الولد والشريك اليه سبحانه دخولا أوليا (لايُفْلِحُونَ) أى لاينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلا وتخصيص عدم النجاة والفوز بمايندرج فى ذلك من عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة لايناسب مقام المبالغة فى الزجر عن الافتراء عليه سبحانه (مَتَـٰعٌ فى الدُّنْيا) كلام مستأنف سيق لبيان أن مايتراءى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيوية على الاطلاق أو فى ضمن افترائهم بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح كأنه قيل كيف لايفلحون وهم فى غبطة ونعيم فقيل هو متاع يسير فى الدنيا وليس بفوز المطلوب ثم أشير إلى انتفاء النجاة عن المكروه أيضا بقوله عز وعلا (ثم إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ) أى بالموت (ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ) فيبقون فى الشقاء المؤبد بسبب كفرهم المستمر أو بكفرهم فى الدنيا فأين هم من الفلاح وقيل المبتدأ المحذوف حياتهم أو تقلبهم وقد قيل إنه افتراؤهم ولا يخفى أن المتاع إنما يطلق على مايكون مطبوعا عند النفس مرغوبا فيه فى نفسه يتمتع وينتفع به وإنما عدم الاعتداد به لسرعة زواله ونفس الافتراء عليه سبحانه أقبح القبائح عند النفس فضلا عن أن يكون مطبوعا عندها وعده كذلك باعتبار

اجراء حكم ما يؤدى اليه من رياستهم عليه مما لا وجه له فالوجه ما ذكر أولا وليس ببعيد ما قيل أن المحذوف هو الخبر أى لهم متاع والآية إما مسوقة من جهة الله تعالى لتحقيق عدم إفلاحهم غير داخلة فى الكلام المأمور به كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى ثم الينا وقوله تعالى ثم نذيقهم وإما داخلة فيه على أن النبى عليه الصلاة والسلام مأمور بنقله وحكايته عنه عز وجل (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ) أى على المشركين من أهل مكة وغيرهم لتحقيق ما سبق من أنهم لا يفلحون وأن ما يتمتعون به على جناح الفوات وأنهم مشرفون على العذاب الخالد (نَبَأَ نُوحٍ) أى خبره الذى له شأن وخطر مع قومه الذين هم أضراب قومك فى الكفر والعناد ليتدبروا ما فيه من زوال ما تمتعوا به من النعيم وحلول عذاب الغرق الموصول بالعذاب المقيم لينزجروا بذلك عما هم عليه من الكفر أو تنكسر شدة شكيمتهم أو يعترف بعضهم بصحة نبوتك بأن عرفوا أن ما تتلوه موافقا لما ثبت عندهم من غير مخالفة بينهما أصلا مع علمهم بأنك لم تسمع ذلك من أحد ليس إلا بطريق الوحى وفيه من تقرير ما سبق من كون الكل لله سبحانه واختصاص العزة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن عن أوليائه عز وعلا قاطبة وتشجيع النبى صلى الله عليه وسلم وحمله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم ما لا يخفى (إِذْ قَالَ) معمول لنبأ أو بدل منه بدل اشتمال وأياما كان فالمراد بعض نبئه عليه السلام لا كل ما جرى بينه وبين قومه واللام فى قوله تعالى (لِقَوْمِهِ) للتبليغ (يٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ) أى عظم وشق (عَلَيْكُمْ مَقَامِى) أى نفسى كما يقال فعلته لمكان فلان أى لفلان ومنه قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه أى خاف ربه أو قيامى ومكثى بين ظهرانيكم مدة طويلة أو قيامى (وَتَذْكِيرِى بِآيٰتِ اللهِ) فانهم كانوا إذا وعظوا الجماعة يقومون على أرجلهم والجماعة قعود ليظهر حالهم ويسمع مقالهم (فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ) جواب للشرط أى دمت على تخصيص التوكل به تعالى ويجوز أن يراد به إحداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ) عطف على الجواب والفاء لترتيب الأمر بالاجماع على التوكل لا لترتيب نفس الاجماع عليه أو هو الجواب وما سبق جملة معترضة والاجماع العزم قيل هو متعد بنفسه وقيل فيه حذف وإيصال قال السدوسى أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه وقال أبو الهيثم أجمع أمره جعله مجموعا بعد ما كان متفرقا وتفرقه أنه يقول مرة أفعل كذا وأخرى أفعل كذا وإذا عزم على أمر واحد فقد جمعه أى جعله جميعا (وَشُرَكَاءَكُمْ) بالنصب على أن الواو بمعنى مع كما تدل عليه القراءة بالرفع عطفا على الضمير المتصل تنزيلا للفصل منزلة التأكيد وإسناد الاجماع إلى الشركاء على طريقة التهكم وقيل إنه عطف على أمركم بحذف المضاف أى أمر شركائكم وقيل منصوب بفعل محذوف أى وادعوا شركاءكم وقد قرىء كذلك وقرىء فاجمعوا من الجمع أى فاعزموا على أمركم الذى تريدون بى من السعى فى إهلاكى واحتشدوا فيه على أى وجه يمكنكم (ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ) ذلك (عَلَيْكُمْ غُمَّةً) أى مستورا من غمه إذا ستره بل مكشوفا مشهورا تجاهروننى به فان السر إنما يصار اليه لسد باب تدارك الخلاص بالهرب أو نحوه فحيث استحال ذلك فى حقى لم يكن للسر وجه وإنما خاطبهم عليه السلام بذلك اظهارا لعدم المبالاة بهم وأنهم لم يجدوا اليه سبيلا وثقة بالله سبحانه وبما وعده من عصمته وكلاءته فكلمة ثم للتراخى فى الرتبة وإظهار الأمر فى موقع الاضمار لزيادة تقرير يقتضيها مقام الأمر بالاظهار الذى يستلزمه النهى عن التستر والاسرار وقيل المراد بأمرهم ما يعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم والغمة والغم كالكربة والكرب وثم للتراخى الزمانى والمعنى لا يكن حالكم عليكم غمة وتخلصوا باهلاكى من ثقل مقامى وتذكيرى ولا يخفى أنه لا يساعده قوله عز وجل (ثُمَّ اقْضُوا إِلَىَّ وَلَا تُنْظِرُونِ) أى أدوا الى أى أحكموا ذلك الأمر الذى تريدون بى ولا تمهلونى كقوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أو أدوا إلى ما هو حق عليكم عندكم من إهلاكى كما يقضى الرجل غريمه فان توسيط ما يحصل بعد الإهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه وبين الأمر بقضائه من قبيل

الفصل بين الشجر ولحائه وقرىء أفضوا بالفاء أى انتهوا إلى بشركم أو ابرزوا إلى من أفضى إذا خرج إلى الفضاء (فإنْ تولَّيتمْ) الفاء لترتيب التولى على ما سبق فالمراد به اما الاستمرار عليه وإما احداث التولى المخصوص أى إن أعرضتم عن نصيحتى وتذكيرى اثر ماشاهدتم منى من مخايل صحة ماأقول ودلائلها التى من جملتها دعوتى إياكم جميعا إلى تحقيق ماتريدون بى من السوء غير مبال بكم وبما يأتى منكم واحجامكم من الاجابة علما منكم بأنى على الحق المبين مؤيد من عند الله العزيز (فما سألتُكمْ) بمقابلة وعظى وتذكيرى (مِنْ أجرٍ) تؤدونه إلى حتى يؤدى ذلك إلى توليكم اما لاتهامكم اياى بالطمع والسؤال واما لثقل دفع المسئول عليكم أو حتى يضرنى توليكم المؤدى إلى الحرمان فالأول لاظهار بطلان التولى ببيان عدم مايصححه والثانى لاظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه وعلى التقديرين فالفاء الجزائية لسببية الشرط لاعلام مضمون الجزاء لا لنفسه والمعنى أن توليتم فاعلموا أن ليس فى مصحح له ولا تأثر منه وقوله عزوجل (إنْ أجرِىَ إلاّ على اللهِ) ينتظم المعنيين جميعا خلا انه على الأول تأكيد وعلى الثانى تعليل لاستغنائه عليه السلام عنهم أى ماثوابى على العظة والتذكير الا عليه تعالى يثيبنى به آمنتم أو توليتم (وأُمرْتُ أنْ أكونَ من المُسْلمينَ) المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره أو المستسلمين لكل مايصيب من البلاء فى طاعة الله تعالى (فكذّبوهُ) فأصروا على ماهم عليه من التكذيب بعد ماألزمهم الحجة وبين لهم المحجة وحقق أن توليهم ليس له سبب غير التمرد والعناد فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب (فنجّيناهُ ومَنْ مَعهُ فى الفُلْكِ) من المسلمين وكانوا ثمانين (وجَعلْناهُمْ خَلائفَ) من الهالكين (وأغرقْنا الذينَ كذّبوا بآياتِنا) أى بالطوفان وتأخير ذكره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع فى قوله عزوعلا ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة وغير ذلك من الآيات الكريمة لاظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللايذان بسبق الرحمة التى هى من مقتضيات الربوبية على الغضب الذى هو من مستتبعات جرائم المجرمين (فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المُنذَرينَ) تهويل لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول عليه الصلاة والسلام وتسلية له عليه السلام (ثم بَعثْنا) أى أرسلنا (مِنْ بعْدِهِ) أى من بعد نوح عليه السلام (رُسُلاً) التنكير للتفخيم ذاتا ووصفا أى رسلا كراما ذوى عدد كثير (إلىَ قومِهمْ) أى إلى أقوامهم لكن لا بأن أرسلنا كل رسول منهم إلى أقوام الكل أو إلى قوم ما أى قوم كانوا بل كل رسول إلى قومه خاصة مثل هود إلى عاد وصالح إلى ثمود وغير ذلك ممن قص منهم ومن لم يقص (فجاءُوهُمْ) أى جاء كل رسول قومه المخصوصين به (بالبيّناتِ) أى المعجزات الواضحة الدالة على صدق ماقالوا والباء إما متعلقة بالفعل المذكور على أنها للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من ضمير جاءوا أى ملتبسين بالبينات لكن لا بأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل بينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد إنما هى فيما بين ضميرى جاءوهم كما أشير اليه (فما كانوا ليؤْمنوا) بيان لاستمرار عدم إيمانهم فى الزمان الماضى لا لعدم استمرار إيمانهم كما مر مثله فى هذه السورة الكريمة غير مرة أى فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوام فى وقت من الأوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم لشدة شكيمتهم فى الكفر والعناد ثم إن كان المحكى آخر حال كل قوم حسبما يدل عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم إيمانهم المذكور ههنا إصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتى وبما أشير اليه فى قوله عزوجل (بما كذّبوا بهِ مِنْ قبلُ) تكذيبهم من حين مجىء الرسل إلى زمان الاصرار والعناد وإنما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالأول حيث جعل صلة للموصول إيذانا بأنه بين بنفسه غنى عن البيان وإنما المحتاج إلى ذلك عدم إيمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التى كانت تضطرهم إلى القبول لو كانوا من أصحاب العقول

والموصول الذى تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وإيجابا عبارة عن جميع الشرائع التى جاء بها كل رسول أصولها وفروعها وإن كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجىء الرسل إلى آخره وبما أشير إليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلابد من كون الموصول المذكور عبارة عن أصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم اليها آثر ذى أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجىء رسلهم أنهم ماكانوا فى زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كل قوم من أولئك الأقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كثمود من بقايا عاد وعاد من بقايا قوم نوح عليه السلام فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجىء الرسل كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث إليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الأصول لظهور حال الباقى بدلالة النص فانهم حيث لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أن ماعليه يدور أمر العذاب والعقاب عند اجتماع المكذبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وإنما ذكر ماوقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع إلى قوم نوح عليه السلام والمعنى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب بمثله قوم نوح ولا يخفى مافيه من التعسف وقيل الباء للسببية أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يخفى أن ذلك يؤدى إلى مخالفة الجمهور من جعل ما المصدرية من قبيل الأسماء كما هو رأى الأخفش وابن السراج ليرجع اليها الضمير وفى إرجاعه إلى الحق بادعاء كونه مركوزا فى الأذهان مالايخفى من التعسف (كَذَٰلِكَ) أى مثل ذلك الطبع المحكم (نَطْبَعُ) بنون العظمة وقرىء بالياء على أن الضمير لله سبحانه (عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) المتجاوزين عن الحدود المعهودة فى الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم لانهماكهم فى الغى والضلال وفى أمثال هذا دلالة على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد (ثُمَّ بَعَثْنَا) عطف على قوله تعالى ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم عطف قصة على قصة (مِن بَعْدِهِم) أى من بعد أولئك الرسل عليهم السلام (مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ) خصت بعثتهما عليهما السلام بالذكر ولم يكتف باندراج خبرهما فيما أشير إليه إشارة اجمالية من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وأوثر فى ذلك ضرب تفصيل إيذانا بخطر شأن القصة وعظم وقعها كما فى نبأ نوح عليه السلام (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ) أى أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر لاصالتهم فى إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل اليهم فى النوازل والملمات (بِآيَاتِنَا) أى ملتبسين بها وهى الآيات المفصلات فى الأعراف (فَاسْتَكْبَرُوا) الاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة أى فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعهما وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين الخ (وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) اعتراض مقرر لمضمون ماقبله أى كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العظام فان الاجرام مؤذن بعظم الذنب ومنه الجرم أى الجثة فلذلك اجترؤا على مااجترؤا عليه من الاستهانة برسالة الله تعالى وحمل الاستكبار على الامتناع عن قبول الآيات لايساعده قوله عز وعلا (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ) فانه صريح فى أن المراد باستكبارهم ماوقع منهم قبل مجىء الحق الذى سموه سحرا أعنى العصا واليد البيضاء كما ينبىء عنه سياق النظم الكريم وذلك أول ماأظهره عليه السلام من الآيات العظام والفاء فيه أيضا فصيحة معربة عما صرح به فى مواضع أخر كأنه قيل قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم إلى قوله تعالى فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا

هى بيضاء للناظرين فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه قالوا من فرط عتوهم وعنادهم ان هذا السحر مبين أى ظاهر كونه سحرا أو فائق فى بابه واضح فيما بين أضرابه وقرىء لساحر (قالَ مُوسىٰ) استئناف مبنى على سؤال تنساق اليه الأذهان كأنه قيل فماذا قال لهم موسى حينئذ فقيل قال على طريقة الاستفهام الانكارى التوبيخى (أتقُولونَ لِلحقِّ) الذى هو أبعد شىء من السحر الذى هو الباطل البحت (لمّا جاءَكُمْ) أى حين مجيئه إياكم ووقوفكم عليه أو من أول الأمر من غير تأمل وتدبر وكلا الحالين مما ينافى القول المذكور والمقول محذوف ثقة بدلالة ما قبله وما بعده عليه وإيذانا بأنه مما لا ينبغى أن يتفوه به ولو على نهج الحكاية أى أتقولون له ما تقولون من أنه سحر يعنى به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائل ويتكلم به متكلم أو القول بمعنى العيب والطعن من قولهم فلان يخاف القالة وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه ونظيره الذكر فى قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ فيستغنى عن المفعول أى أتعيبونه وتطعنون فيه وعلى الوجهين فقوله عز وجل (أَسِحْرٌ هـٰذا) انكار مستأنف من جهته عليه السلام لكونه سحرا وتكذيب لقولهم وتوبيخ لهم على ذلك اثر توبيخ وتجهيل بعد تجهيل أما على الأول فظاهر وأما على الثانى فوجه إيثار انكار كونه سحرا على انكار كونه معيبا بأن يقال مثلا أفيه عيب حسبما يقتضيه ظاهر الانكار السابق التصريح بالرد عليهم فى خصوصية ما عابوه به بعد التنبيه بالانكار السابق على أنه ليس فيه شائبة عيب ما ومافى هذا من معنى القرب لزيادة تعيين المشار اليه واستحضار ما فيه من الصفات الدالة على كونه آية باهرة من آيات الله المنادية على امتناع كونه سحرا أى أسحر هذا الذى أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة وتقديم الخبر للايذان بأنه مصب الانكار ولما استلزم كونه سحرا كون من أتى به ساحرا أكد الانكار السابق ومافيه من التوبيخ والتجهيل بقوله عز وجل (وَلا يُفلِحُ السّـٰحِرُونَ) وهو جملة حالية من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو بلا ضمير كما فى قول من قال :

جاء الشتاء ولست أملك عدة   وقولك جاء زيد ولم تطلع الشمس أى أتقولون للحق أنه سحر والحال أنه لا يفلح فاعله أى لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه فكيف يمكن صدوره من مثلى من المؤيدين من عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكل مطالب الناجين من كل محذور وقوله تعالى أسحر هذا جملة معترضة بين الحال وصاحبها أكد بها الانكار السابق ببيان استحالة كونه سحرا بالنظر إلى ذاته قبل بيان استحالته بالنظر إلى صدوره عنه عليه السلام هذا وأما تجويز أن يكون الكل مقول القول على أن المعنى أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون فمما لا يساعده النظم الكريم أصلا أما أولا فلأن ماقالوا هو الحكم بأنه سحر من غير أن يكون فيه دلالة على ما تعسف فيه من المعنى بوجه من الوجوه فصرف جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به إلى ما لا يفهم منه أصلا مما يجب تنزيه النظم التنزيلى عن الحمل على أمثاله وأما ثانيا فلأن التعرض لعدم افلاح السحرة على الاطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبين دون الكفرة المتشبثين بأذيال بعض منهم فى معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيص عدم الافلاح بمن زعموه ساحرا بناء على غلبة من يأتون به من السحرة وأما ثالثا فلأن قوله عز وجل (قالُوا أجِئتَنا) الخ مسوق لبيان أنه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن الاتيان بكلام له تعلق بكلامه عليه السلام فضلا عن الجواب الصحيح واضطروا إلى التشبث بذيل التقليد الذى هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معاند لجوج على أنه استئناف وقع جوابا عما قبله من كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى قال موسى الخ حسبما أشير اليه كأنه قيل فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم فقيل قالوا عاجزين عن المحاجة أجئتنا (لِتَلفِتَنا) أى لتصرفنا فان الفتل واللفت أخوان (عمّا وَجَدنا عَلَيهِ ءَاباءَنا) أى من عبادة الأصنام ولاريب فى أن ذلك إنما يتسنى بكون ماذكر من تتمة

كلامه عليه السلام على الوجه الذى شرح إذ على تقدير كونه محكيا من قبلهم يكون جوابه عليه السلام خاليا عن التبكيت الملجىء لهم إلى العدول عن سنن المحاجة ولا ريب فى أنه لا علاقة بين قولهم أجئتنا الخ وبين إنكاره عليه السلام لما حكى عنهم مصححة لكونه جوابا عنه (وتكون لكما الكبرياء) أى الملك أو التكبر على الناس باستتباعهم وقرىء ويكون بالياء التحتانية وكلمة فى فى قوله تعالى (فى الأرض) أى أرض مصر متعلقة بتكون أو بالكبرياء أو بالاستقرار فى لكما لوقوعه خبرا أو بمحذوف وقع حالا من الكبرياء أو من الضمير فى لكما لتحمله إياه (وما نحن لكما بمؤمنين) أى بمصدقين فيما جئتما به وتثنية الضمير فى هذين الموضعين بعد افراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر وأما اللفت والمجىء له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصة (وقال فرعون) توحيد الفعل لأن الأمر من وظائف فرعون أى قال لملئه يأمرهم بترتيب مبادى الزامهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأس من الزامهما بالقول (ائتونى بكل ساحر عليم) بفنون السحر حاذق ماهر فيه وقرىء سحار (فلما جاء السحرة) عطف على مقدر يستدعيه المقام قد حذف ايذانا بسرعة امتثالهم لأمر فرعون كما هو شأن الفاء الفصيحة فى كل مقام أى فأتوا به فلما جاؤا (قال لهم موسى) لكن لا فى ابتداء مجيئهم بل بعدما قالوا له عليه السلام ما حكى عنهم فى السور الأخر من قولهم اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين ونحو ذلك (ألقوا ما أنتم ملقون) أى ملقون له كائنا ما كان من أصناف السحر (فلما ألقوا) ما ألقوا من العصى والحبال واسترهبوا الناس وجاؤا بسحر عظيم (قال) لهم (موسى) غير مكترث بهم وبما صنعوا (ما جئتم به السحر) ما موصولة وقعت مبتدأ والسحر خبره أى هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه من آيات الله سبحانه أو هو من جنس السحر يريهم أن حاله بين لا يعبأ به كأنه قال ما جئتم به مما لا ينبغى أن يجاء به وقرىء آلسحر على الاستفهام فما استفهامية أى أى شىء جئتم به أهو السحر الذى يعرف حاله كل أحد ولا يتصدى له عاقل وقرىء ما جئتم به سحر وقرىء ما أتيتم به سحر ودلالتهما على المعنى الثانى فى القراءة المشهورة أظهر (إن الله سيبطله) أى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدى من المعجزة فلا يبقى له أثر أصلا أو سيظهر بطلانه للناس والسين للتأكيد (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) أى عمل جنس المفسدين على الاطلاق فيدخل فيه السحر دخولا أوليا أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم وليس المراد بعدم اصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحا بل عدم إثباته وإتمامه أى لا يثبته ولا يكمله ولا يديمه بل يمحقه ويهلكه ويسلط عليه الدمار والجملة تعليل لما سبق من قوله ان الله سيبطله والكل اعتراض تذييلى وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لا حقيقة له (ويحق الله الحق) عطف على قوله سيبطله أى يثبته ويقويه واظهار الاسم الجليل فى المقامين الأخيرين لالقاء الروعة وتربية المهابة (بكلماته) بأوامره وقضاياه وقرىء بكلمته (ولو كره المجرمون) ذلك والمراد بهم كل من اتصف بالاجرام من السحرة وغيرهم (فما آمن لموسى) معطوف على مقدر قد فصل فى مواقع أخر أى فألقى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون الخ وإنما لم يذكر تعويلا على ذلك وايثارا للايجاز وايذانا بأن قوله تعالى ان الله سيبطله مما لا يحتمل الخلف أصلا وعطفه على ذلك بالفاء مع كونه عدما مستمرا من قبيل ما فى قوله عز وجل فاتبعوا أمر فرعون وما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر والسر فى ذلك أن الاتيان بالشىء بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث أى فما آمن له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة (إلا ذرية من قومه) أى الا أولاد من أولاد قومه بنى إسرائيل حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وأجابته طائفة من شبانهم وقيل الضمير

لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به عليه السلام أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وامرأته وماشطته وهو بعيد (عَلَى خَوْفٍ) أي كائنين على خوف عظيم (مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ) الضمير لفرعون والجمع لما هو المعتاد في ضمائر العظماء ولا يأباه مقام بيان علوه في الفساد وغلوه في الشر والتسلط على العباد أو لأن المراد به آله كما يقال ربيعة ومضر أو للذرية أو للقوم أي على خوف من فرعون ومن أشراف بني إسرائيل حيث كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم (أَنْ يَفْتِنَهُمْ) أي يعذبهم وهو بدل اشتمال أو مفعول خوف فان أعمال المصدر المنكر كثير كما في قوله عز وجل أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما أو مفعول له بعد حذف اللام واسناد الفعل إلى فرعون خاصة لأنه الآمر بالتعذيب (وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ) لغالب في أرض مصر (وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ) في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء والجملتان اعتراض تذييلي مؤكد لمضمون ما سبق (وَقَالَ مُوسَى) لما رأى تخوف المؤمنين منه (يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ) أي صدقتم به وبآياته (فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا) وبه ثقوا ولا تخافوا أحدا غيره فانه كافيكم كل شر وضر (إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين فان المعلق بالإيمان وجوب التوكل عليه تعالى فانه المقتضى له والمشروط بالاسلام وجوده فانه لا يتحقق مع التخليط ونظيره ان أحسن اليك زيد فأحسن اليه ان قدرت عليه (فَقَالُوا) مجيبين له عليه السلام من غير تلعثم في ذلك (عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا) لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ثم دعوا ربهم قائلين (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً) أي موقع فتنة (لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أي لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يفتتنوا بنا ويقولوا لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا وقوله تعالى (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) دعاء منهم بالانجاء من سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم بعد الانجاء من ظلمهم ولذلك عبر عنهم بالكفر بعدما وصفوا بالظلم وفي ترتيب الدعاء على التوكل تلويح بأن الداعي حقه أن يبني دعاءه على التوكل على الله تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ) أن مفسرة لأن في الوحي معنى القول أي اتخذا مباءة (لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا) تسكنون فيها وترجعون اليها للعبادة (وَاجْعَلُوا) أنتما وقومكما (بُيُوتَكُمْ) تلك (قِبْلَةً) مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعني الكعبة فان موسى عليه السلام كان يصلي اليها (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) أي فيها أمروا بذلك في أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) بالنصرة في الدنيا اجابة لدعوتهم والجنة في العقبى وإنما ثنى الضمير أولا لأن التبوأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم بتشاور ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل أحد ثم وحد لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالإيمان وللاشعار بأنه المدار في التبشير (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً) أي ما يتزين به من اللباس والمراكب ونحوها (وَأَمْوَالًا) وأنواعا كثيرة من المال (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ) دعاء عليهم بلفظ الأمر بما علم بممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره كقولك لعن الله إبليس وقيل اللام للعاقبة وهي متعلقة بآتيت أو للعلة لأن ايتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال ولأنهم لما جعلوها ذريعة إلى الضلال فكأنهم أوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريرا للأول تأكيدا أو تنبيها على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم تقدمة لقوله تعالى (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ) الطمس المحو وقرىء بضم الميم أي أهلكها (وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ) أي اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لا تنشرح للايمان كما هو قضية شأنهم (فَلَا يُؤْمِنُوا) جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهي أو عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض (حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

أى يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا) يعنى موسى وهرون عليهما السلام لأنه كان يؤمن كما يشعر به إضافة الرب إلى ضمير المتكلم مع الغير فى المواقع الثلاثة (فَاسْتَقِيمَا) فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزام الحجة ولا تستعجلا فان ما طلبتما كائن فى وقته لا محالة . روى أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة (وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) أى بعادات الله سبحانه فى تعليق الأمور بالحكم والمصالح أو سبيل الجهلة فى الاستعجال أو عدم الوثوق بوعد الله تعالى وقرىء بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ولا تتبعان من تبع ولا تتبعان أيضا (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ) هو من جاوز المكان إذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية أى جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه يبسا وحفظناهم حتى بلغوا الشط وقرىء جوزنا وهو من التجويز المرادف للمجاوزة لا لما هو بمعنى التنفيذ نحو ما وقع فى قول الأعشى كما جوز السكى فى الباب فيتق والا قيل وجوزنا بنى إسرائيل فى البحر ولخلا النظم الكريم عن الايذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العناية الالهية لهم عند الجواز كما هو المشهور فى الفرق بين أذهبه وذهب به (فَأَتْبَعَهُمْ) يقال تبعته حتى اتبعته إذا كان سبقك فلحقته أى أدركهم ولحقهم (فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ) حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان (بَغْيًا وَعَدْوًا) ظلما واعتداء أى باغين وعادين أو للبغى والعدوان وقرىء وعدوا وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببنى إسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم ووصل إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ومسلكهم باق على حاله يبسا فسلكه بجنوده أجمعين فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج غشيهم من اليم ما غشيهم (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ) أى لحقه وألجمه (قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ) أى بأنه والضمير للشأن وقرىء انه على الاستئناف بدل من آمنت وتفسير آله (لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ) لم يقل كما قاله السحرة آمنا برب العالمين رب موسى وهرون بل عبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته إيمان بنى اسرائيل به تعالى للاشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعا فى القبول والانتظام معهم فى سلك النجاة (وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أى الذين أسلموا نفوسهم لله أى جعلوها سالمة خالصة له تعالى وأراد بهم اما بنى إسرائيل خاصة واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة على الأول عطف على آمنت وإيثار الاسمية لادعاء الدوام والاستمرار وعلى الثانى يحتمل الحالية أيضا من ضمير المتكلم أى آمنت مخلصا لله منتظما فى سلك الراسخين فيه ولقد كرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصا على القبول المفضى إلى النجاة وهيهات هيهات بعد ما فات ما فات وأتى ما هو آت وقوله عز وجل (آلْآنَ) مقول لقول مقدر معطوف على قال أى فقيل آ الآن وهو إلى قوله تعالى آية حكاية لما جرى منه سبحانه من الغضب على المخذول بمقابلة ما أظهره بالرد على وجه الانكار التوبيخى على تأخيره وتقريعه بالعصيان والافساد وغير ذلك وفى حذف الفعل المذكور وابراز الخبر المحكى فى صورة الانشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب ما لا يخفى كما يفصح عنه ما روى من أن جبريل دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فانه تأكيد للرد القولى بالرد الفعلى ولا ينافيه تعليله بمخافة ادراك الرحمة فيما نقل أنه قال للنبى عليهما السلام فلو رأيتنى يا محمد وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة إذ المراد بها الرحمة الدنيوية أى النجاة التى هى طلبة المخذول وليس من ضرورة ادراكها صحة الايمان كما فى إيمان قوم يونس عليه السلام حتى يلزم من كراهته ما لا يتصور فى شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر اذ لا استحالة فى ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه بكلمة الإيمان وإن كان ذلك فى حالة البأس واليأس فيحمل دسه عليه السلام على سد باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدة الحرد فتدبر والله الموفق وحق العامل فى الظرف أن يقدر مؤخرا ليتوجه الانكار والتوبيخ إلى تأخير الايمان إلى حد يمتنع قبوله فيه أى آلآن تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات وقوله عز وعلا (وَقَدْ عَصَيْتَ

قبلُ) حال من فاعل الفعل المقدر جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الايمان إلى هذا الآن ببيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة اليه ولا للتأمل والتدبر فى دلائله وآياته ولا لشيء آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير بل كان ذلك على طريقة الردو الاستعصاء والافساد فان قوله تعالى (وكنتَ مِنَ المُفسِدِينَ) عطف على عصيت داخل فى حيز الحال أى وكنت من الغالين فى الضلال والاضلال عن الإيمان كقوله تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون فهذا عبارة عن فساده الراجع إلى نفسه والسارى إلى غيره من الظلم والتعدى وصد بنى اسرائيل عن الإيمان والأول عن عصيانه الخاص به (فاليومَ نُنَجّيكَ) أى نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافيا وفى التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده بالإيمان هو النجاة كما مر وتهكم به أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك بنو اسرائيل وقرىء ننجيك من الإنجاء وننحيك بالحاء من التنحية أى نلقيك بناحية الساحل (بِبَدَنِكَ) فى موضع الحال من ضمير المخاطب اى ننجيك ملابسا ببدنك فقط لا مع روحك كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لأطماعه بالمرة أو عاريا عن اللباس أو كاملا سويا أو بدرعك وكانت له درع من الذهب يعرف بها وقرىء بأبدانك أى بأجزاء بدنك كلها كقولهم هوى باجرامه أو بدروعك كأنه كان مظاهرا بينها (لِتكونَ لِمَن خلفَكَ ءايةً) لمن وراءك علامة وهم بنو إسرائيل إذ كان فى نفوسهم من عظمته ماخيل اليهم أنه لا يهلك حتى يروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطرحا على ممرهم من الساحل أو تكون لمن يأتى بعدك من الأمم إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا من الطغيان أو حجة تدلهم على أن الإنسان وإن بلغ الغاية القصوى من عظم الشأن وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية وقرىء لمن خلفك فعلا ماضيا أى لمن خلفك من الجبابرة وقرىء لمن خلقك بالقاف أى لتكون لخالقك آية كسائر الآيات فان افراده سبحانه اياك بالالقاء إلى الساحل دليل على أنه قصد منه لكشف تزويرك وإماطة الشبهة فى أمرك وبرهان نير على كمال علمه وقدرته وحكمته وإرادته وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة أيضا وفى تعليل تنجيته بما ذكر ايذان بأنها ليست لإعزازه أو لفائدة أخرى عائدة اليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رؤس الأشهاد وزيادة تفظيع حاله كمن يقتل ثم يجر جسده فى الأسواق أو يدار برأسه فى البلاد واللام الأولى متعلقة بننجيك والثانية بمحذوف وقع حالا من آية أى كائنة لمن خلفك (وَإنّ كثيراً منَ النّاسِ عنْ ءاياتِنا لغافِلونَ) لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها وهو اعتراض تذييلى جيء به عند الحكاية تقريرا لفحوى الكلام المحكى (ولقدْ بَوّأنا بَنى إسرائيلَ) كلام مستأنف سيق لبيان النعم الفائضة عليهم اثر نعمة الإنجاء على وجه الإجمال وإخلالهم بشكرها وأداء حقوقها أى أسكناهم وأنزلناهم بعد ما أنجيناهم وأهلكنا أعداءهم (مُبَوّأ صِدقٍ) أى منزلا صالحا مرضيا وهو الشام ومصر ملكوهما بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فى نواحيهما حسبما نطق به قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها (وَرَزقناهُم مِنَ الطيّباتِ) أى اللذائذ (فمَا اختلفُوا) فى أمر دينهم (حتّىٰ جاءَهمُ العِلمُ) أى إلا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها أو فى أمر محمد عليه الصلاة والسلام إلا من بعد ما علموا صدق نبوته وتظاهر معجزاته فالمراد بالمختلفين أعقابهم الذين كانوا فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام (إنّ ربّكَ يقضى بينهُمْ يومَ القيامةِ فِيما كانُوا فيه يختلفُونَ) فيميز بين المحق والمبطل بالاثابة والتعذيب (فإنْ كنتَ فى شكٍّ) أى فى شك ما يسيرا على الفرض والتقدير فان مضمون الشرطية إنما هو تعليق شيء بشيء من غير تعرض لإمكان شيء منهما كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعا كقوله عز وجل قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين وقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك ونظائرهما (مِمّا أنزلنا إليكَ) من القصص التى من جملتها

قصة فرعون وقومه وأخبار بنى اسرائيل (فسئل الذين يقرءون الكتب من قبلك) فان ذلك محقق عندهم ثابت فى كتبهم حسبما ألقينا اليك والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة الأحبار حسبما هو المسطور فى كتبهم وإن لم يكن اليه حاجة أصلا أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ فى العلم بصحة نبوته عليه السلام أو تهييجه عليه السلام وزيادة تثبيته على ما هو عليه من اليقين لا تجويز صدور الشك منه عليه السلام ولذلك قال عليه السلام لا أشك ولا أسأل وقيل المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وتميم الدارى وكعب وأضرابهم وقيل الخطاب للنبى عليه السلام والمراد أمته أو لكل من يسمع أى ان كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا اليك على لسان نبينا وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم وقرىء فاسأل الذين يقرؤن الكتب (لقد جاءك الحق) الذى لا محيد عنه ولا ريب فى حقيته (من ربك) وظهر ذلك بالآيات القاطعة التى لا يحوم حولها شائبة الارتياب وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميره عليه السلام من التشريف مالا يخفى (فلا تكونن من الممترين) بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين ودم على ذلك كما كنت من قبل (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيت الله) من باب التهييج والالهاب والمراد به اعلام أن التكذيب من القبح والمحذورية بحيث ينبغى أن ينهى عنه من لا يتصور امكان صدوره عنه فكيف بمن يمكن اتصافه به وفيه قطع لاطماع الكفرة (فتكون) بذلك (من الخسرين) أنفسا وأعمالا (إن الذين حقت عليهم) شروع فى بيان سر اصرار الكفرة على ماهم عليه من الكفر والضلال أى ثبتت ووجبت بمقتضى المشيئة المبنية على الحكمة البالغة (كلمت ربك) حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون فى النار كقوله تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم إلى آخره (لا يؤمنون) أبدا اذ لا كذب لكلامه ولا انتقاض لقضائه أى لا يؤمنون إيمانا نافعا واقعا فى أوانه فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مثل فرعون باقيا عند الموت فيدخل فيهم المرتدون (ولو جاءتهم كل ءاية) واضحة المدلول مقبولة لدى العقول لأن سبب إيمانهم وهو تعلق إرادته تعالى به مفقود لكن فقدانه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارهم المتفرع على عدم استعدادهم لذلك (حتى يروا العذاب الأليم) كدأب آل فرعون وأضرابهم (فلولا كانت) كلام مستأنف لتقرير ما سبق من استحالة إيمان من حقت عليهم كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكنهم من التدارك فيكون الاستثناء الآتى بيانا لكون قوم يونس عليه السلام ممن لم يحق عليه الكلمة لاهتدائهم إلى التدارك فى وقته ولو لا بمعنى هلا وقرىء كذلك أى فهلا كانت (قرية) من القرى المهلكة (ءامنت) قبل معاينة العذاب ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته كما فعل فرعون وقومه (فنفعها إيمنها) بأن يقبله الله تعالى منها ويكشف بسببه العذاب عنها (إلا قوم يونس) استثناء منقطع أى لكن قوم يونس (لما ءامنوا) أول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروا إلى حلوله (كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا) بعد ما أظلهم وكاد يحل بهم ويجوز أن تكون الجملة فى معنى النفى كما يفصح عنه حرف التحضيض فيكون الاستثناء متصلا اذ المراد بالقرى أهاليها كأنه قيل ما آمنت طائفة من الأمم العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس عليه السلام فيكون قوله تعالى لما آمنوا استئنافا لبيان نفع إيمانهم ويؤيده قراءة الرفع على البدلية (ومتعنهم) بمتاع الدنيا بعد كشف العذاب عنهم (إلى حين) مقدر لهم فى علم الله سبحانه . روى أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وقيل قال لهم يونس عليه السلام أجلكم أربعون ليلة فقالوا ان رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيما

أسود هائلا يدخن دخاناشديداً ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والعجيج وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضى الله عنه بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى إن الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده إلى صاحبه وقيل خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال لهم قولوا ياحى حين لاحى وياحى محى الموتى وياحى لا إله إلا أنت فقالوها فكشف عنهم وعن الفضيل بن عياض قالوا إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا مانحن أهله (وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فى الأَرْضِ) تحقيق لدوران إيمان كافة المكلفين وجوداً وعدماً على قطب مشيئته تعالى مطلقاً إثر بيان تبعية كفر الكفرة لكلمته ومفعول المشيئة محذوف لوجود مايقتضيه من وقوعها شرطاً وكون مفعولها مضمون الجزاء وأن لايكون فى تعلقها به غرابة كما هو المشهور أى لو شاء سبحانه إيمان من فى الأرض من الثقلين لآمن (كُلُّهُمْ) بحيث لايشذ عنهم أحد (جَمِيعاً) مجتمعين على الإيمان لايختلفون فيه لكنه لايشاؤه لكونه مخالفاً للحكمة التى عليها بنى أساس التكوين والتشريع وفيه دلالة على أن من شاء الله تعالى إيمانه يؤمن لامحالة (أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ) على مالم يشأ الله منهم حسبما ينبىء عنه حرف الامتناع فى الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل أربك لا يشاء ذلك فأنت تكرههم (حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) فيكون الإنكار متوجهاً إلى ترتيب الاكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الانكار على عدم مشيئته تعالى بناء على أن الهمزة متأخرة فى الاعتبار وإنما قدمت لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وأياً ماكان فالمشيئة على إطلاقها إذ لافائدة بل لاوجه لاعتبار عدم مشيئة الالجاء خاصة فى إنكار الترتيب عليه أو ترتيب الانكار عليه وفى إيلاء الاسم حرف الاستفهام إيذان بأن الاكراه أمر ممكن لكن الشأن فى المكره من هو وما هو إلا هو وحده لايشارك فيه لأنه القادر على أن يفعل فى قلوبهم ما يضطرهم إلى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر وفيه إيذان باعتبار الالجاء فى المشيئة كما أشير اليه (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ) بيان لتبعية إيمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجوداً بعد بيان الدوران الكلى عليها وجوداً وعدماً أى ماصح وما استقام لنفس من النفوس التى علم الله تعالى أنها تؤمن (أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ) أى بتسهيله ومنحه للالطاف وإنما خصت النفس بمن ذكر ولم يجعل من قبيل قوله تعالى وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله لأن الاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أى ما كان لنفس أن تؤمن فى حال من أحوالها إلا حال كونها ملابسة باذنه تعالى فلابد من كون الايمان مما يؤول اليه حالها كما أن الموت مآل لكل نفس بحيث لامحيص لها عنه فلابد من تخصيص النفس بمن ذكر فان النفوس التى علم الله أنها لاتؤمن ليس لها حال تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الحال من غيرها (وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ) أى الكفر بقرينة ماقبله عبر عنه بالرجس الذى هو عبارة عن القبيح المستقذر المستكره لكونه علماً فى القبح والاستكراه وقيل هو العذاب أو الخذلان المؤدى اليه وقرىء بنون العظمة وقرىء بالزاى أى يجعل الكفر ويبقيه (عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) لايستعملون عقولهم بالنظر فى الحجج والآيات أو لايعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع فلايحصل لهم الهداية التى عبر عنها بالاذن فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال أو مقهورين بالعذاب والنكال والجملة معطوفة على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فيأذن لهم بمنح الالطاف ويجعل الخ (قُلِ) مخاطباً لأهل مكة بعثاً لهم على التدبر فى ملكوت السموات والأرض ومافيهما من تعاجيب الآيات الانفسية والآفاقية ليتضح لك أنهم من الذين

لا يعقلون وحقت عليهم الكلمة (انظروا) أى تفكروا وقرىء بنقل حركة الهمزة إلى لام قل (ماذا في السموات والأرض) أى أى شىء بديع فيهما من عجائب صنعه الدالة على وحدته وكمال قدرته على أن ماذا جعل بالتركيب اسما واحدا مغلبا فيه الاستفهام على اسم الإشارة فهو مبتدأ خبره الظرف ويجوز أن يكون ما مبتدأ وذا بمعنى الذى والظرف صلته والجملة خبر للمبتدا وعلى التقديرين فالمبتدا والخبر فى محل النصب باسقاط الخافض وفعل النظر معلق بالاستفهام (وما تغنى) أى ما تنفع وقرىء بالتذكير (الآيات) وهى التى عبر عنها بقوله تعالى ماذا فى السموات والأرض (والنذر) جمع نذير على أنه فاعل بمعنى منذر أو على أنه مصدر أى لا تنفع الآيات والرسل المنذرون أو الانذارات (عن قوم لا يؤمنون) فى علم الله تعالى وحكمه فما نافية والجملة إما حالية أو اعتراضية ويجوز كون ما استفهامية انكارية فى موضع النصب على المصدرية أى أى اغناء تغنى الخ فالجملة حينئذ اعتراضية (فهل ينتظرون) أى مشركو مكة وأضرابهم (إلا مثل أيام الذين خلوا) أى إلا يوما مثل أيام الذين خلوا (من قبلهم) من مشركى الأمم الماضية أى مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم إذ لا يستحقون غيره من قولهم أيام العرب لوقائعها (قل) تهديدا لهم (فانتظروا) ما هو عاقبتكم (إنى معكم من المنتظرين) لذلك (ثم ننجى رسلنا) بالتشديد وقرىء بالتخفيف وهو عطف على مقدر يدل عليه قوله مثل أيام الذين خلوا وما بينهما اعتراض جىء به مسارعة إلى التهديد ومبالغة فى تشديد الوعيد كأنه قيل أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلة اليهم (والذين آمنوا) وصيغة الاستقبال لحكاية الأحوال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورها وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الاهلاك على عكس ما فى قوله تعالى فنجيناه ومن معه فى الفلك الخ ونظائره الواردة فى مواقع عديدة ليتصل به قوله عز وجل (كذلك) أى مثل ذلك الانجاء (حقا علينا) اعتراض بين العامل والمعمول أى حق ذلك حقا وقيل بدل من المحذوف الذى ناب عنه كذلك أى انجاء مثل ذلك حقا والكاف متعلقة بقوله تعالى (ننج المؤمنين) أى من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه والمراد بالمؤمنين اما الجنس المتناول للرسل عليهم السلام والأتباع واما الاتباع فقط وإنما لم يذكر انجاء الرسل إيذانا بعدم الحاجة اليه وأيا ما كان ففيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الايمان (قل) لجمهور المشركين (يا أيها الناس) أوثر الخطاب باسم الجنس مصدرا بحرف التنبيه تعميما للتبليغ وإظهارا لكمال العناية بشأن ما بلغ إليهم (إن كنتم فى شك من دينى) الذى أتعبد الله عز وجل به وأدعوكم اليه ولم تعلموا ما هو وما صفته (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) فى وقت من الأوقات (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب أى فاعلموا أنه تخصيص العبادة به ورفض عبادة ما سواه من الأصنام وغيرها مما تعبدونه جهلا وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية كما فى كلمة التوحيد وللايذان بالمخالفة من أول الأمر أو إن كنتم فى شك من صحة دينى وسداده فاعلموا أن خلاصته اخلاص العبادة لمن بيده الايجاد والإعدام دون ما هو بمعزل منهما من الأصنام فاعرضوها على عقولكم وأجيلوا فيها أفكاركم وانظروا فيها بعين الانصاف لتعلموا أنه حق لا ريب فيه وفى تخصيص التوفى بالذكر متعلقا بهم ما لا يخفى من التهديد والتعبير عما هم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للايذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل فى هذا الباب هو الشك فى صحته وأما القطع بعدمها فمما لا سبيل اليه أو إن كنتم فى شك من ثباتى على الدين فاعلموا أنى لا أتركه أبدا (وأمرت أن أكون من المؤمنين) بما دل عليه العقل ونطق به الوحى وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد ليس بطريق العقل الصرف بل بالامداد السماوى والتوفيق الالهى وحذف حرف الجر من أن يجوز أن يكون من باب الحذف المطرد مع أن وأن وأن يكون خاصا بفعل الأمر كما فى قوله :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ) عطف على أن أكون خلا أن صلة أن محكية بصيغة الأمر ولا ضير فى ذلك لأن مناط جواز وصلها بصيغ الأفعال دلالتها على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والطلبية ووجوب كون الصلة خبرية فى الموصول الاسمى إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجمل وهى لا توصف إلا بالجمل الخبرية وليس الموصول الحرفى كذلك أى وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه بأداء المأمور به والانتهاء عن المنهى عنه أو باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم الالتفات إلى اليمين والشمال (حَنِيفاً) حال من الدين أو الوجه أى مائلا عن الأديان الباطلة (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) عطف على أقم داخل تحت الأمر أى لا تكونن منهم اعتقادا ولا عملا وقوله عز وعلا (وَلَا تَدْعُ) عطف على قوله تعالى قل يا أيها الناس غير داخل تحت الأمر وقيل على ماقبله من النهى والوجه هو الأول لأن ما بعده من الجمل إلى آخر الآيتين متسقة لا يمكن فصل بعضها عن بعض كما ترى ولا وجه لادراج الكل تحت الأمر وهو تأكيد للنهى المذكور وتفصيل لما أجمل فيه اظهارا لكمال العناية بالأمر وكشفا عن وجه بطلان ما عليه المشركون أى لا تدع (مِنْ دُونِ اللهِ) استقلالا ولا اشتراكا (مَا لَا يَنْفَعُكَ) إذا دعوته بدفع مكروه أو جلب محبوب (وَلَا يَضُرُّكَ) إذا تركته بسلب المحبوب دفعا أو رفعا أو بايقاع المكروه وتقديم النفع على الضرر غنى عن بيان السبب (فَإِنْ فَعَلْتَ) أى ما نهيت عنه من دعاء ما لا ينفع ولا يضر كنى به عنه تنويها لشأنه عليه السلام وتنبيها على رفعة مكانه من أن ينسب اليه عبادة غير الله سبحانه ولو فى ضمن الجملة الشرطية (فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) جزاء للشرط وجواب لسؤال من يسأل عن تبعة ما نهى عنه (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ) تقرير لما أورد فى حيز الصلة من سلب النفع من الأصنام وتصوير لاختصاصه به سبحانه (فَلَا كَاشِفَ لَهُ) عنك كائنا من كان وما كان (إِلَّا هُوَ) وحده فيثبت عدم كشف الأصنام بالطريق البرهانى وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزم لعدم النفع بجلب المحبوب استلزاما ظاهرا فان رفع المكروه أدنى مراتب النفع فاذا انتفى انتفى النفع بالكلية (وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ) تحقيق لسلب الضرر الوارد فى حيز الصلة أى ان يرد أن يصيبك بخير (فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) الذى من جملته ما أرادك به من الخير فهو دليل على جواب الشرط لا نفس الجواب وفيه ايذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل من غير استحقاق عليه سبحانه أى لا أحد يقدر على رده كائنا ما كان فيدخل فيه الأصنام دخولا أوليا وهو بيان لعدم ضرها بدفع المحبوب قبل وقوعه المستلزم لعدم ضرها برفعه أو بايقاع المكروه استلزاما جليا ولعل ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الأمرين للايذان بأن الخير مراد بالذات وأن الضر إنما يمس من يمسه لما يوجبه من الدواعى الخارجية لا بالقصد الأولى أو أريد معنى الفعلين فى كل من الضر والخير وأنه لا راد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بأن ذكر فى أحدهما المس وفى الآخر الارادة ليدل بما ذكر فى كل جانب على ما ترك فى الجانب الآخر على أنه قد صرح بالاصابة حيث قيل (يُصِيبُ بِهِ) اظهارا لكمال العناية بجانب الخير كما ينبىء عنه ترك الاستثناء فيه أى يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير وجعل الفضل عبارة عن ذلك الخير بعينه على أن يكون من باب وضع المظهر فى موضع المضمر لما ذكر من الفائدة يأباه قوله عز وجل (مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) فان ذلك ينادى بعموم الفضل وقوله عز قائلا (وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) تذييل لقوله تعالى يصيب به الخ مقرر لمضمونه والكل تذييل للشرطية الأخيرة محقق لمضمونها (قُلْ) مخاطبا لأولئك الكفرة بعدما بلغتهم ما أوحى اليك (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ) وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام التى من جملتها ما مر آنفا من أصول الدين واطلعتم على ما فى تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبق لكم عذر (فَمَنِ اهْتَدَى) بالايمان به والعمل بما فى

مطاوبه (فإنما يهتدي لنفسه) أى منفعة اهتدائه لها خاصة (ومن ضل) بالكفر به والإعراض عنه (فإنما يضل عليها) أى فوبال الضلال مقصور عليها والمراد تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد اليه عليه السلام من جلب نفع أو دفع ضر كما يلوح به اسناد المجيء إلى الحق من غير اشعار بكون ذلك بواسطته (وما أنا عليكم بوكيل) بحفيظ موكول إلى أمركم وإنما أنا بشير ونذير (واتبع) اعتقادا وعملا وتبليغا (ما يوحى إليك) على نهج التجدد والاستمرار من الحق المذكور المتأكد يوما فيوما وفى التعبير عن بلوغه اليهم بالمجيء واليه عليه السلام بالوحى تنبيه على مابين المرتبتين من التنائى (واصبر) على مايعتريك من مشاق التبليغ (حتى يحكم الله) بالنصرة عليهم أو بالأمر بالقتال (وهو خير الحاكمين) إذ لايمكن الخطأ فى حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطى له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون والحمد لله وحده .

تم بحمد الله تعالى طبع الجزء الثانى من تفسير العلامة أبي السعود

ويليه الجزء الثالث وأوله سورة هود عليه السلام

صحيفة	
٢	﴿ســورة المائدة﴾
١٠	تفسير قوله تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل)
١٩	تفسير قوله تعالى (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق)
٢٦	تفسير قوله تعالى (ياأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر)
٣٥	تفسير قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء)
٤٥	تفسير قوله تعالى (ياأيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك)
٥٢	﴿الجزء السابع﴾
٥٢	تفسير قوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)
٦١	تفسير قوله تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس)
٦٩	تفسير قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم)
٧٧	﴿ســورة الأنعام﴾
٨٦	تفسير قوله تعالى (وله ماسكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم)
٩٦	تفسير قوله تعالى (انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله)
١٠٦	تفسير قوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو)
١١١	تفسير قوله تعالى (واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة)
١٢١	تفسير قوله تعالى (ان الله فالق الحب والنوى)
١٢٨	﴿الجزء الثامن﴾
١٢٨	تفسير قوله تعالى (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة)
١٣٦	تفسير قوله تعالى (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون)
١٤١	تفسير قوله تعالى (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات)
١٤٥	تفسير قوله تعالى (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئاً)
١٥٣	﴿سورة الأعراف﴾
١٦٤	تفسير قوله تعالى (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا)
١٦٨	تفسير قوله تعالى (واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين)
١٧٢	تفسير قوله تعالى (والى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره)
١٨٠	﴿الجزء التاسع﴾
١٨٠	تفسير قوله تعالى (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا)
١٨٩	تفسير قوله تعالى (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف مايأفكون)
١٩٤	تفسير قوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة)
٢٠٠	تفسير قوله تعالى (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك)
٢٠٨	تفسير قوله تعالى (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه)
٢١٨	تفسير قوله تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها)

صحيفة

٢٢٤ ﴿ ســـورة الأنفال ﴾
٢٣٤ تفسير قوله تعالى (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون)
٢٣٨ ﴿ الجزء العاشر ﴾
٢٣٨ تفسير قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)
٢٤٦ تفسير قوله تعالى (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم)
٤٥٠ ﴿ ســـورة براءة ﴾
٢٦٠ تفسير قوله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله)
٢٦٨ تفسير قوله تعالى (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم)
٢٧٣ تفسير قوله تعالى (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم)
٢٧٧ تفسير قوله تعالى (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل)
٢٨٤ تفسير قوله تعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين)
٢٨٩ ﴿ الجزء الحادى عشر ﴾
٢٨٩ تفسير قوله تعالى (انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف)
٢٩٨ تفسير قوله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)
٣٠٥ ﴿ سورة يونس عليه السلام ﴾
٣١٧ تفسير قوله تعالى (ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم)
٣٢٤ تفسير قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار)
٣٣٣ تفسير قوله تعالى (ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى انه لحق وما أنتم بمعجزين)
٣٤١ تفسير قوله تعالى (واتل عليهم نبأ نوح اذقال لقومه ياقوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت)
٣٤٧ تفسير قوله تعالى (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا)

تم فهرس الجزء الثانى من تفسير أبى السعود

تفسير أبي السعود

المسمى

ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

لخاتمة المحققين وامام المدققين قاضي القضاة

أبي السعود محمد بن محمد العمادي

ولد رحمه الله تعالى سنة ٨٩٦ هجرية وتوفي سنة ٩٥١

الجزء الثالث

صححت هذه الطبعة بمعرفة بعض أفاضل العلماء وقوبلت على عدة نسخ

باشراف

محمد عبد اللطيف

يطلب من

مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده

بميدان الأزهر بمصر . ت ٤٨٥٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ســورة هود عليه السلام

(مكية وهى مائة وثلاث وعشرون آية)

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

(الر) محله الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف وقيل على أنه مبتدأ والأول هو الأظهر كما أشير اليه فى سورة يونس أو النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر أو اقرأ على تقدير كونه اسما للسورة على ماعليه اطباق الأكثر أو لامحل له من الاعراب مسرود على نمط التعديد حسبما فصل فى أخواته وقوله تعالى (كِتَٰبٌ) خبر له على الوجه الثانى ولمبتدا محذوف على الوجوه الباقية (أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ) نظمت نظما متقنا لايعتريه خلل بوجه من الوجوه أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها أو منعت من النسخ بمعنى التغيير مطلقا أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله عز وجل أو على ثبوت مدلولاتها فالمراد بالآيات جميعها أو على حقية ماتشتمل عليه من الأحكام الشرعية فالمراد بها بعضها المشتمل عليها كما إذا فسر الأحكام بالمنع من النسخ بمعنى تبديل الحكم الشرعى خاصة وأما تفسيره بالمنع من الفساد أخذا من قولهم أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ففيه إيهام مالايكاد يليق بشأن الآيات الكريمة من التداعى إلى الفساد لولا المانع وفى إسناد الاحكام على الوجوه المذكورة إلى آيات الكتاب دون نفسه لاسيما على الوجوه الشاملة لكل آية آية منه من حسن الموقع والدلالة على كونه فى أقصى غاية منه مالا يخفى (ثُمَّ فُصِّلَتْ) أى جعلت فصولا من الأحكام والدلائل والمواعظ والقصص أو فصل فيها مهمات العباد فى المعاش والمعاد على الاسناد المجازى والتفسير بجعلها آية آية لايساعده المقام لأن ذلك من الأوصاف الأولية فلا يناسب عطفه على أحكامها بكلمة التراخى وأما المعنيان الأولان فهما وإن كانا مع الاحكام زمانا حيث لم تزل الآيات محكمة مفصلة لا أنها أحكمت أو فصلت بعد أن لم تكن كذلك إذ الفعلان من قبيل قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل إلا أنهما حيث كانا من صفات الآيات باعتبار نسبة بعضها إلى بعض على وجه يستتبع أحكاما مخصوصة وآثارا معتدا بها وبملاحظة مصالح العباد ناسب أن يشار إلى تراخى رتبتهما عن رتبة الأحكام وإن حمل جعلها آية آية على معنى تفريق بعضها عن بعض يكون من هذا القبيل إلا أنه ليس فى مثابته فى استتباع مايستتبعه من الأحكام والآثار أو فرقت فى التنزيل منجمة بحسب المصالح فان أريد تنزيلها المنجم بالفعل فالتراخى زمانى وإن أريد جعلها فى نفسها بحيث يكون نزولها منجما حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو رتبى لأن ذلك وصف لازم لها حقيق بأن يرتب على وصف أحكامها وقرىء أحكمت آياته ثم فصلت على صيغة التكلم وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت أى فرقت بين الحق والباطل (مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) صفة للكتاب وصف بها بعد ماوصف بأحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو رتبته من حيث الذات إبانة لجلالة شأنه من حيث الاضافة أو خبر بعد خبر للمبتدا المذكور أو المحذوف أو صلة للفعلين وفى بنائهما للمفعول ثم إيراد الفاعل بعنوان الحكمة البالغة والاحاطة بجلائلها ودقائقها منكرا بالتنكير التفخيمى وربطهما به لا على النهج المعهود فى إسناد الأفاعيل إلى فواعلها مع رعاية حسن الطباق من الجزالة والدلالة على فخامتهما وكونهما على أكمل مايكون

مالا يكتنه كنهه (ألا تعبدوا إلا الله) مفعول له حذف عنه اللام مع فقدان الشرط أعنى كونه فعلا لفاعل الفعل المعلل جريا على سنن القياس المطرد فى حذف حرف الجر مع أن المصدرية كانه قيل كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله أى لتتركوا عبادة غير الله عز وجل وتتمحضوا فى عبادته فان الاحكام والتفصيل على مافصل من المعانى مما يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد ومايتفرع عليه من الطاعات قاطبة وقيل أن مفسرة لما فى التفصيل من معنى القول أى قيل لاتعبدوا الا الله (إننى لكم منه) من جهة الله تعالى (نذير) أنذركم عذابه ان لم تتركوا ماأنتم عليه من الكفر وعبادة غير الله تعالى (وبشير) أبشركم بثوابه ان آمنتم به وتمحضتم فى عبادته ولما ذكر شئون الكتاب من احكام آياته وتفصيلها وكون ذلك من قبل الله تعالى وأورد معظم ما انتظم فى سلك الغاية والأمر من التوحيد وترك الاشراك وسط بينه وبين قرينيه اعنى الاستغفار والتوبة ذكر أن من نزل عليه ذلك الكتاب مرسل من عند الله تعالى لتبليغ أحكامه وترشيحها بالمؤيدات من الوعد والوعيد للايذان بأن التوحيد فى أقصى مراتب الاهمية حتى أفرد بالذكر وأيد إيجابه بالخطاب غب الكتاب مع تلويح بأنه كما لايتحقق فى نفسه الا مقارنا للحكم برسالته عليه السلام كذلك فى الذكر لاينفك أحدهما عن الآخر وقد روعى فى سوق الخطاب بتقديم الانذار على التبشير ماروعى فى الكتاب من تقديم النفى على الاثبات والتخلية على التحلية ليتجاوب أطراف الكلام ويجوز أن يكون قوله تعالى ألا تعبدوا إلا الله كلاما منقطعا عما قبله واردا على لسانه عليه السلام اغراء لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كأنه عليه السلام قال ترك عبادة غير الله أى الزموه على معنى اتركوا عبادة غير الله تركا مستمرا اننى لكم من جهة الله تعالى نذير وبشير أى نذير أنذركم من عقابه على تقدير استمراركم على الكفر وبشير أبشركم بثوابه على تقدير تركه لوحيدكم ولما سيق اليهم حديث التوحيد وأكد ذلك بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الانذار والتبشير شرع فى ذكر ماهو من تتماته على وجه يتضمن تفصيل ماأجمل فى وصف البشير والنذير فقيل (وأن استغفروا ربكم) وهو معطوف على أن لاتعبدوا على ماذكر من الوجهين فعلى الأول أن مصدرية لجواز كون صلتها أمرا أو نهيا كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك للدين حنيفا لأن مدار جواز كونها فعلا إنما هو دلالته على المصدر وهو موجود فيهما ووجوب كونها خبرية فى صلة الموصول الاسمى إنما هو للتوصل إلى وصف المعارف بالجمل وهى لاتوصف بها إلا إذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفى فليس كذلك ولما كان الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الأمر والنهى صلة حسبما ساغ وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الأمر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال (ثم توبوا إليه) عطف على استغفروا والكلام فيه كالكلام فيه والمعنى فعل مافعل من الاحكام والتفصيل لتخصوا الله تعالى بالعبادة وتطلبوا منه ستر مافرط منكم من الشرك ثم ترجعوا اليه بالطاعة أو تستمروا على ماأنتم عليه من التوحيد والاستغفار أو تستغفروا من الشرك وتتوبوا من المعاصى وعلى الثانى أن مفسرة أى قيل فى أثناء تفصيل الآيات لاتعبدوا الا الله واستغفروه ثم توبوا اليه والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وإرشاد لهم إلى طريق الابتهال فى السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع وإيتاء الفضل بقوله تعالى (يمتعكم متاعا حسنا) أى تمتيعا وانتصابه على أنه مصدر حذف منه الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الأرض نباتا أو على أنه مفعول به وهو اسم لما يتمتع به من منافع الدنيا من الأموال والبنين وغير ذلك والمعنى يعشكم عيشا مرضيا لايفوتكم فيه شىء مما تشتهون ولا ينغصه شىء من المكدرات (إلى أجل مسمى) مقدر عند الله عز وجل وهو آخر أعماركم ولما كان ذلك غاية لايطمح وراءها طامح جرى التمتيع اليها مجرى التأبيد عادة ولا يهلككم بعذاب الاستئصال (ويؤت كل ذى فضل) فى الطاعة والعمل (فضله) جزاء فضله اما فى الدنيا أو فى الآخرة

وهذه تكملة لما أجمل من التمتيع إلى أجل مسمى وتبيين لما عسى يعسر فهم حكمته من بعض ما يتفق فى الدنيا من تفاوت الحال بين العاملين فرب إنسان له فضل طاعة وعمل لا يمتع فى الدنيا أكثر مما متع آخر دونه فى الفضل وربما يكون المفضول أكثر تمتيعا فقيل ويعط كل فاضل جزاء فضله إما فى الدنيا كما يتفق فى بعض المواد واما فى الآخرة وذلك مما لا مرد له وهذا ضرب تفصيل لما أجمل فيما سبق من البشارة ثم شرع فى الانذار فقيل ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى تتولوا عما ألقى اليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة وإنما أخر عن البشارة جريا على سنن تقدم الرحمة على الغضب أو لأن العذاب قد علق بالتولى عما ذكر من التوحيد والاستغفار والتوبة وذلك يستدعى سابقة ذكره وقرىء تولوا من ولى ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ بموجب الشفقة والرأفة أو أتوقع ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم فى قوله تعالى ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم إما لكونه كذلك فى نفسه أو وصف بوصف ما يكون فيه كما وصف بالثقل فى قوله تعالى ثقلت فى السموات والأرض وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بقحط أكلوا فيه الجيف وأيا ما كان ففى إضافة العذاب اليه تهويل وتفظيع له ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء فى مثل ذلك اليوم لا إلى غيره ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيندرج فى تلك الكلية قدرته على اماتتكم ثم بعثكم وجزائكم فيعذبكم بأفانين العذاب وهو تقرير لما سلف من كبر اليوم وتعليل للخوف ولما ألقى اليهم فحوى الكتاب على لسان النبى صلى الله عليه وسلم وسيق اليهم ما ينبغى أن يساق من الترغيب والترهيب ووقع فى ذهن السامع أنهم بعد ما سمعوا مثل هذا المقال الذى تخر له صم الجبال هل قابلوه بالاقبال أم تمادوا فيما كانوا عليه من الاعراض والضلال فقيل مصدرا بكلمة التنبية إشعارا بأن ما يعقبها من هناتهم أمر يجب أن يفهم ويتعجب منه ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ يزورون عن الحق وينحرفون عنه أى يستمرون على ما كانوا عليه من التولى والاعراض لأن من أعرض عن شىء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وهذا معنى جزل مناسب لما سبق وقد نحا نحوه العلامة الزمخشرى ولكن لم يصلح التولى سببا للاستخفاء فى قوله عز وجل ﴿ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ التجأ إلى اضمار الارادة حيث قال ويريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين على إعراضهم وجعله فى قود المعنى اليه من قبيل الاضمار فى قوله تعالى اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فضرب فانفلق ولا يخفى أن انسياق الذهن إلى توسيط الارادة بين ثنى الصدور وبين الاستخفاء ليس كانسياقه إلى توسيط الضرب بين الأمر به وبين الانفلاق ولعل الأظهر أن معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك مخفيا مستورا فيها كما تعطف الثياب على ما فيها من الاشياء المستورة وإنما لم يذكر ذلك استهجانا بذكره أو ايماء الى أن ظهوره مغن عن ذكره أو ليذهب ذهن السامع الى كل ما لا خير فيه من الأمور المذكورة فيدخل فيه ما ذكر من توليهم عن الحق الذى ألقى اليهم دخولا أوليا فحينئذ يظهر وجه كون ذلك سببا للاستخفاء ويؤيده ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة ويضمر فى قلبه ما يضادها وقال ابن شداد أنها نزلت فى بعض المنافقين كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كيلا يراه النبى صلى الله عليه وسلم فكأنه انما كان يصنع ما يصنع لأنه لو رآه النبى صلى الله عليه وسلم لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه والمصاحبة معه وربما يؤدى ذلك الى ظهور ما فى قلبه من الكفر والنفاق وقرىء يثنونى صدورهم بالياء والتاء من اثنونى افعوعل من الثنى كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة وعن ابن عباس رضى الله عنهما لتثنونى وقرىء تثنون وأصله تثنونن من تفعوعل من الثن وهو ما هش من الكلأ وضعف يريد مطاوعة صدورهم

للثنى كمايثنى الهش من النبات أو أراد ضعف إيمانهم ورخاوة قلوبهم وقرىء تثنئن من اثنان افعال منه ثم همز كماقيل ابيأضت وادهأمت وقرىء تثنوى بوزن ترعوى (ألاحِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ) أى يتغطون بها للاستخفاء على مانقل عن ابن شداد أوحين يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بثيابهم فان مايقع حينئذ حديث النفس عادة وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما فى قلبى (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ) أى يضمرون فى قلوبهم (وَمَايُعْلِنُونَ) أى يستوى بالنسبة إلى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ماعسى يظهرونه وإنما قدم السر على العلن نعياعليهم من أول الأمر ماصنعوا وإيذانا بافتضاحهم ووقوع مايحذرونه وتحقيقا للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه فكأن علمه بمايسرونه أقدم منه بمايعلنونه ونظيره قوله تعالى قل ان تخفوا مافى صدوركم أوتبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الاخفاء على الابداء على عكس ماوقع فى قوله تعالى وان تبدوا مافى أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله إذ لم يتعلق باشعار أن المحاسبة بمايخفونه أولى منها بما يبدونه غرض بل الأمر بالعكس وأما ههنا فقد تعلق باشعار كون تعلق علمه تعالى بما يسرونه أولى منه بما يعلنونه غرض مهم مع كونهما على السوية كيف لا وعلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول الصورة بل وجود كل شىء فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لايختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة وأما قوله تعالى وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون فحيث كان واردا بصدد الخطاب مع الملائكة عليهم السلام المنزه مقامهم عن اقتضاء التأكيد والمبالغة فى الاخبار باحاطة علمه تعالى بالظاهر والباطن لم يسلك فيه ذلك المسلك مع أنه وقع الغنية عنه بماقبله من قوله عز وجل إنى أعلم غيب السموات والأرض ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شىء يعلن إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) تعليل لماسبق وتقرير له واقع موقع الكبرى من القياس وفى صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق والتعبير عن الضمائر بعنوان صاحبيتها من البراعة مالايصفه الواصفون كأنه قيل انه مبالغ فى الاحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة فى صدورهم بحيث لاتفارقها أصلا فكيف يخفى عليه مايسرون ومايعلنون ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب من قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور والمعنى أنه عليم بالقلوب وأحوالها فلايخفى عليه سر من أسرارها (وَمَامِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) غذاؤها اللائق بها من حيث الخلق ومن حيث الإيصال اليها بطريق طبيعى أوإرادى لتكفله إياه تفضلا ورحمة وإنماجىء به على طريق الوجوب اعتبار السبق الوعد وتحقيقا لوصوله اليها البتة وحملا للمكلفين على الثقة به تعالى والاعراض عن اتعاب النفس فى طلبه (وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا) محل قرارها فى الاصلاب (وَمُسْتَوْدَعَهَا) موضعها فى الأرحام ومايجرى مجراهامن البيض ونحوها وإنما خص كل من الاسمين بماخص به من المحلين لأن النطفة بالنسبة إلى الأصلاب فى حيزها الطبيعى ومنشئها الخلقى وأما بالنسبة إلى الأرحام ومايجرى مجراها فهى مودعة فيها إلى وقت معين أومسكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ولعل تقديم محلها باعتبار حالتها الأخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان كونها دابة فى الأرض والمعنى ومامن دابة فى الأرض إلا يرزقها الله تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقه اليها ويعلم موادها المتخالفة المتدرجة فى مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطورة فى الأطوار المتباينة ومقارها المتنوعة ويفيض عليها فى كل مرتبة مايليق بها من مبادى وجودها وكمالاتها المتفرعة عليه وقد فسر المستودع بأماكنها فى الممات ولايلائمه مقام التكفل بأرزاقها (كُلٌّ) من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها (فِى كِتَابٍ مُبِينٍ)

أى مثبت فى اللوح المحفوظ البين لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام أو المظهر لما أثبت فيه للناظرين ولما انتهى الأمر إلى أنه سبحانه محيط بجميع أحوال ما فى الأرض من المخلوقات التى لاتكاد تحصى من مبدأ فطرتها إلى منتهاها اقتضى الحال التعرض لمبدأ خلق السموات والأرض والحكمة الداعية إلى ذلك فقيل (وَهوَ الذِى خَلقَ السَّمٰوٰتِ وَالأرْضَ فِى سِتَّةِ أيَّامٍ) السموات فى يومين والأرض فى يومين وما عليها من أنواع الحيوانات والنبات وغير ذلك فى يومين حسبما فصل فى سورة حم السجدة ولم يذكر خلق ما فى الأرض لكونه من تتمات خلقها وهو السر فى جعل زمان خلقه تتمة لزمان خلقها فى قوله تعالى فى أربعة أيام أى فى تتمة أربعة أيام والمراد بالأيام الأوقات كما فى قوله تعالى ومن يولهم يومئذ دبره أى فى ستة أوقات أو مقدار ستة أيام فان اليوم فى المتعارف زمان كون الشمس فوق الأرض ولا يتصور ذلك حين لاأرض ولا سماء وفى خلقها مدرجا مع القدرة التامة على خلقها دفعة دليل على أنه قادر مختار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الأمور وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر استأثر بعلم مايقتضيه علام الغيوب جلت حكمته وإيثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الإشارة إلى كونها أجراما مختلفة الطبائع ومتفاوتة الآثار والأحكام (وَكانَ عرْشُهُ) قبل خلقهما (عَلى المَاءِ) ليس تحته شىء غيره سواء كان بينهما فرجة أو كان موضوعا على متنه كما ورد فى الأثر فلا دلالة فيه على إمكان الخلاء كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على إمكانه فقط ولا على كون الماء أول ماحدث فى العالم بعد العرش وإنما يدل على أن خلقهما أقدم من خلق السموات والارض من غير تعرض للنسبة بينهما (لِيَبْلوَكمْ) متعلق بخلق أى خلق السموات والارض وما فيهما من المخلوقات التى من جملتها أنتم ورتب فيهما جميع ماتحتاجون اليه من مبادى وجودكم وأسباب معايشكم وأودع فى تضاعيفهما من تعاجيب الصنائع والعبر ماتستدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يبتليكم (أيُّكمْ أحْسَنُ عَمَلاً) فيجازيكم بالثواب والعقاب غب ماتبين المحسن من المسىء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب من الحجج والدلائل والامارات والمخايل ومراتب أعمالهم المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه السلام بقوله أيكم أحسن عقلا وأودع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فان لكل من القلب والقالب عملا مخصوصا به فكما أن الأول أشرف من الثانى فكذا الحال فى عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد آثر ذى أثير وإنما طريقها النظرى التفكر فى بدائع صنائع الملك الخلاق والتدبر فى آياته البينات المنصوبة فى الانفس والآفاق ولا طاعة بدون فهم ما فى مطاوى الكتاب الحكيم من الأوامر والنواهى وغير ذلك مما له مدخل فى الباب وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتفضلونى على يونس ابن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض قالوا وإنما كان ذلك التفكر فى أمر الله عز وجل الذى هو عمل القلب لأن أحدا لايقدر على أن يعمل فى اليوم بجوارحه مثل عمل أهل الأرض وتعليق فعل البلوى أى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذى يقتضى عدم إيراد المفعول أصلا مع اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضا لا إلى الحسن والأحسن فقط للايذان بأن المراد بالذات والمقصود الأصلى مما ذكر من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال إحسان المحسنين وأن ذلك لكونه على أتم الوجوه اللائقة وأكمل الأساليب الرائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لايحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد الى مايرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت

بينهم فى مراتبهم بحسب القوة والضعف والكثرة والقلة وأما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن أن ينتظم ظهوره فى سلك العلة الغائية لذلك الصنع البديع وإنما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب ولا يخفى مافيه من الترغيب فى الترقى إلى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها والله تعالى أعلم (وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ) على مايوجبه قضية الابتلاء ليترتب عليه الجزاء المتفرع على ظهور مراتب الأعمال (لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) ان وجه الخطاب فى قوله تعالى إنكم إلى جميع المكلفين فالموصول مع صلته للتخصيص أى ليقولن الكافرون منهم وان وجه إلى الكافرين منهم فهو وارد على طريقة الذم (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) أى مثله فى الخديعة أو البطلان وهذا إشارة إلى القول المذكور أو إلى القرآن فان الاخبار عن كونهم مبعوثين وإن لم يجب كونه بطريق الوحى المتلو إلا أنهم عند سماعهم ذلك تخاصوا إلى القرآن لانبائه عنه فى كل موضع وكونه علما عندهم فى ذلك فعمدوا إلى تكذيبه وتسميته سحرا تماديا منهم فى العناد وتفاديا عن سنن الرشاد وقيل هو إشارة إلى نفس البعث ولا يلائمه التسمية بالسحر فانه انما يطلق على شىء موجود ظاهر لا أصل له فى الحقيقة ونفس البعث عندهم معدوم بحت وتعلق الآية الكريمة بماقبلها اما من حيث أن البعث كما أشير اليه من تتمات الابتلاء المذكور فكأنه قيل الأمر كما ذكر ومع ذلك ان أخبرتهم بمقدمة فذة من مقدماته وقضية فردة من تتماته لايتلعثمون فى الرد ويعدون ذلك من قبيل مالاصحة له أصلا فضلا عن تصديق ماهذه من تتماته وأما من حيث أن البعث خلق جديد فكأنه قيل وهو الذى خلق جميع المخلوقات ابتداء لهذه الحكمة البالغة ومع ذلك ان أخبرتهم بأنه يعيدهم تارة أخرى وهو أهون عليه يقولون مايقولون فسبحان الله عما يصفون وقرأ حمزة والكسائى إلا ساحر على أن الإشارة إلى القائل أو إلى القرآن على أسلوب شعر شاعر وقرىء بالفتح على تضمين قلت معنى ذكرت أو على أن أنك بمعنى عنك فى علك أى ولئن قلت لعلكم مبعوثون على أن الرجاء والتوقع باعتبار حال المخاطبين أى توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بانكاره أو على أنه مجاراة معهم فى الكلام على نهج المساعدة لئلا يسارعوا إلى اللجاج والعناد ريثما قرع أسماعهم بت القول بخلاف ما ألفوا وألفوا عليه آباءهم من انكار البعث ويكون ذلك أدعى لهم إلى التأمل والتدبر ومافعلوه قاتلهم الله أنى يؤفكون (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ) المترتب على بعثهم أو العذاب الموعود فى قوله تعالى فان تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير وقيل عذاب يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قتل جبريل عليه السلام للمستهزئين والظاهر أن المراد به العذاب الشامل للكفرة دون مايخص ببعض منهم على أنه لم يكن موعودا يستعجل منه المجرمون (إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ) الى طائفة من الأيام قليلة لأن مايحصره العد قليل (لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ) أى أى شىء يمنعه من المجىء فكأنه يريده فيمنعه مانع وانما كانوا يقولونه بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى ما كانوا به يستهزئون ومرادهم انكار المجىء والحبس رأسا لا الاعتراف به والاستفسار عن حابسه (أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ) ذلك (لَيْسَ مَصْرُوفًا) محبوسا (عَنْهُمْ) على معنى أنه لا يرفعه رافع أبدا ان أريد به عذاب الآخرة أو لا يدفعه عنكم دافع بل هو واقع بكم ان أريد به عذاب الدنيا ويوم منصوب بخبر ليس مقدما عليه واستدل به البصريون على جواز تقديمه على ليس إذ المعمول تابع للعامل فلا يقع إلا حيث يقع متبوعه ورد بأن الظرف يجوز فيه ما لا يجوز فى غيره توسعا وبأنه قد يقدم المعمول حيث لا مجال لتقدم العامل كما فى قوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر فان اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها . قال أبو حيان وقد تتبعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بتقديم معموله إلا مادل عليه ظاهر هذه الآية

الكريمة وقول الشاعر : فيأبى فما يزداد إلا لجاجة وكنت أبياً فى الخنا لست أقدم

(وحَاقَ بِهِم) أى أحاط بهم (مَّا كانُوا بهِ يَسْتَهزِءُونَ) أى العذاب الذى كانوا يستعجلون به استهزاء وفى التعبير عنه بالموصول تهويل لمكانه وإشعار بعلية ماورد فى حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله وإحاطته والتعبير عنها بالماضى وارد على عادة الله تعالى فى اخباره لانها فى تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر وتقرير وقوع المخبر به مالايخفى (ولَئِنْ أذقنا الإنسٰنَ منَّا رَحمَةً) أى أعطيناه نعمة من صحة وأمن وجدة وغيرها وأوصلناها اليه بحيث يجد لذتها (ثُمَّ نزَعْنٰها مِنهُ) أى سلبناه اياها وإيراد النزع للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها (إنهُ لَيَؤُسٌ) شديد القنوط من روح الله قطوع رجاءه من عود أمثالها عاجلا أو آجلا بفضل الله تعالى لقلة صبره وعدم توكله عليه وثقته به (كَفورٌ) عظيم الكفران لما سلف من النعم وفيه اشارة إلى أن النزع انما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلبون فيه من نعم الله عز وجل وتأخيره عن وصف يأسهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصل على أن اليأس من فضل الله سبحانه وقطع الرجاء عن إفاضة أمثاله فى العاجل وايصال أجره فى الآجل من باب الكفران للنعمة السالفة أيضا (ولَئِنْ أذقنٰهُ نعْمآءَ بَعدَ ضرّآءَ مَسَّتهُ) كصحة بعد سقم وجدة بعد عدم وفرج بعد شدة وفى التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها فى أدنى ماينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها وإسناد الأول إلى الله عز وجل دون الثانى مالايخفى من الجزالة والدلالة على أن مراده تعالى انما هو ايصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون وأنه انما يريد بعباده اليسر دون العسر وانما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلا يسيرا كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير وأما نزع الرحمة فانما صدر عنه بقضية الحكمة الداعية إلى ذلك وهى كفرانهم بها كما سبق وتنكير الرحمة باعتبار لحوق النزع بها (لَيَقولَنَّ ذهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى) أى المصائب التى تسوؤنى ولن يعتريني بعد أمثالها كما هو شأن أولئك الأشرار فان الترقب لورود أمثالها مما يكدر السرور وينغص العيش (إنهُ لَفَرِحٌ) بطر وأشر بالنعم مغتر بها (فَخُورٌ) على الناس بما أوتى من النعم مشغول بذلك عن القيام بحقها واللام فى لئن فى الآيات الاربع موطئة للقسم وجوابه سادمسد جواب الشرط (إلاَّ الذينَ صَبَرُوا) على ما أصابهم من الضراء سابقا أولاحقا ايمانا بالله واستسلاما لقضائه (وعَمِلوا الصّٰلِحٰتِ) شكرا على آلائه السالفة والآنفة واللام فى الإنسان اما لاستغراق الجنس فالاستثناء متصل أو للعهد فمنقطع (أولٰئِكَ) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة (لهمْ مغفِرَةٌ) عظيمة لذنوبهم وإن جمعت (وأجْرٌ) ثواب أعمالهم الحسنة (كَبيرٌ) ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن من حيث ان اذاقة النعماء ومساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الاجمال الواقع فى قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا والمعنى أن كلا من اذاقة النعماء ونزعها مع كونه ابتلاء للانسان أيشكر أم يكفر لايهتدى إلى سنن الصواب بل يحيد فى كلتا الحالتين عنه إلى مهاوى الضلال فلايظهر منه حسن عمل إلا من الصابرين الصالحين أو من حيث أن انكارهم بالبعث واستهزاءهم بالعذاب بسبب بطرهم وفخرهم كأنه قيل انما فعلوا مافعلوا لان طبيعة الإنسان مجبولة على ذلك (فلَعَلَّكَ تارِكٌ بعْضَ ما يُوحَىٰ إلَيكَ) من البينات الدالة على حقية نبوتك المنادية بكونها من عند الله عز وجل لمن له أذن واعية (وضَآئِقٌ بهِ صَدرُكَ) أى عارض لك ضيق صدر بتلاوته عليهم وتبليغه اليهم فى أثناء الدعوة والمحاجة (أنْ يَقوُلوا) لان يقولوا تعاميا عن تلك البراهين التي لا تكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة وتماديا فى العناد

على وجه الاقتراح (لولا أنزل عليه كنز) مال خطير مخزون يدل على صدقه (أو جاء معه ملك) يصدقه قيل قاله عبد الله بن أمية المخزومى . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك فنزلت فكأنه عليه الصلاة والسلام لما عاين اجتراءهم على اقتراح مثل هذه العظائم غير قانعين بالبينات الباهرة التى كانت تضطرهم إلى القبول لو كانوا من أرباب العقول وشاهد ركوبهم من المكابرة متن كل صعب وذلول مسارعين إلى المقابلة بالتكذيب والاستهزاء وتسميتها سحرا مثل حاله عليه الصلاة والسلام بحال من يتوقع منه أن يضيق صدره بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم وتبليغها إليهم فحمل على الحذر منه بما فى لعل من الاشفاق فقيل (إنما أنت نذير) ليس عليك إلا الانذار بما أوحى إليك غير مبال بما صدر عنهم من الرد والقبول (والله على كل شىء وكيل) يحفظ أحوالك وأحوالهم فتوكل عليه فى جميع أمورك فإنه فاعل بهم ما يليق بحالهم والاقتصار على النذير فى أقصى غاية من اصابة المحز (أم يقولون افتراه) اضراب بأم المنقطعة عن ذكر ترك اعتدادهم بما يوحى وتهاونهم به وعدم اقتناعهم بما فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على كونه من عند الله عز وجل وعلى حقية نبوته عليه الصلاة والسلام وشروع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشد منه وأعظم وما فيها من معنى الهمزة للتوبيخ والانكار والتعجيب والضمير المستكن فى افتراه للنبى صلى الله عليه وسلم والبارز لما يوحى أى بل أيقولون افتراه وليس من عند الله (قل) إن كان الأمر كما تقولون (فأتوا) أنتم أيضا (بعشر سور مثله) فى البلاغة وحسن النظم وهو نعت لسور أى أمثاله وتوحيده إما باعتبار مماثلة كل واحدة منها أو لأن المطابقة ليست بشرط حتى يوصف المثنى بالمفرد كما فى قوله تعالى أنؤمن لبشرين مثلنا أو للايماء إلى أن وجه الشبه ومدار المماثلة فى الجميع شىء واحد هو البلاغة المؤدية إلى مرتبة الاعجاز فكأن الجميع واحد (مفتريات) صفة أخرى لسور أخرت عن وصفها بالمماثلة لما يوحى لأنها الصفة المقصودة بالتكليف إذ بها يظهر عجزهم وقعودهم عن المعارضة وأما وصف الافتراء فلا يتعلق به غرض يدور عليه شىء فى مقام التحدى وإنما ذكر على نهج المساهلة وارخاء العنان ولأنه لو عكس الترتيب لربما توهم أن المراد هو المماثلة فى الافتراء والمعنى فأتوا بعشر سور مماثلة له فى البلاغة مختلقات من عند أنفسكم إن صح أنى اختلقته من عندى فإنكم أقدر على ذلك منى لأنكم عرب فصحاء بلغاء قد مارستم مبادى ذلك من الخطب والاشعار وحفظتم الوقائع والأيام وزاولتم أساليب النظم والنثر (وادعوا) للاستظهار فى المعارضة (من استطعتم) دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون أنها ممدة لكم فى كل ما تأتون وما تذرون والكهنة ومدارهكم الذين تلجؤن إلى آرائهم فى الملمات ليسعدوكم فيها (من دون الله) متعلق بادعوا أى متجاوزين الله تعالى (إن كنتم صادقين) فى أنى افتريته فإن ذلك يستلزم امكان الإتيان بمثله وهو أيضا يستلزم قدرتكم عليه والجواب محذوف يدل عليه المذكور (فإلم يستجيبوا لكم) أى فإن لم يفعلوا ما كلفوه من الإتيان بمثله كقوله تعالى فإن لم تفعلوا وإنما عبر عنه بالاستجابة ايماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره كأن أمره لهم بالإتيان بمثله دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه والضمير فى لكم للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم كما فى قول من قال : وإن شئت حرمت النساء سواكم أو له وللمؤمنين لأنهم اتباع له عليه الصلاة والسلام فى الأمر بالتحدى وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم أن لا ينفكوا عنه عليه الصلاة والسلام ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه فى الجهاد وارشاد إلى أن ذلك مما يفيد الرسوخ فى الإيمان والطمأنينة فى الايقان ولذلك رتب عليه قوله عز وجل (فاعلموا) أى اعلموا حين ظهر لكم عجزهم عن المعارضة مع تهالكهم عليها علما يقينا متاخما لعين اليقين بحيث لا مجال معه لشائبة ريب

بوجه من الوجوه كأن ماعداه من مراتب العلم ليس بعلم لكن لا للاشعار بانحطاط تلك المراتب بل بارتفاع هذه المرتبة وبه يتضح سر إيراد كلمة الشك مع القطع بعدم الاستجابة فان تنزيل سائر المراتب منزلة العدم مستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلة الشك فيه أو اثبتوا او استمروا على ما كنتم عليه من العلم (أنما أنزل) ملتبسا (بعلم الله) المخصوص به بحيث لا تحوم حوله العقول والافهام مستبدا بخصائص الاعجاز من جهتى النظم الرائق والاخبار بالغيب (وأن لا إله إلا هو) أى واعلموا أيضا أن لا شريك له فى الألوهية وأحكامها ولا يقدر على ما يقدر عليه أحد (فهل أنتم مسلمون) أى مخلصون فى الإسلام أو ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقية إلى معارج اليقين ويجوز أن يكون الخطاب فى الكل للمشركين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا تحت الأمر بالتحدى والضمير فى لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فان لم يستجب لكم آلهتكم وسائر من اليهم تجأرون فى مهماتكم وملماتكم إلى المعاونة والمظاهرة فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر وأنه منزل من خالق القوى والقدر فايراد كلمة الشك حينئذ مع الجزم بعدم الاستجابة من جهة آلهتهم تهكم بهم وتسجيل عليهم بكمال سخافة العقل وترتيب الأمر بالعلم على مجرد عدم الاستجابة من حيث أنه مسبوق بالدعاء المسبوق بعجزهم واضطرارهم فكأنه قيل فان لم يستجيبوا لكم عند التجائكم اليهم بعد ما اضطررتم إلى ذلك وضاقت عليكم الحيل وعيت بكم العلل أو من حيث ان من يستمدون بهم أقوى منهم فى اعتقادهم فاذا ظهر عجزهم بعدم استجابتهم وان كان ذلك قبل ظهور عجز أنفسهم يكون عجزهم أظهر وأوضح واعلموا أيضا أن آلهتكم بمعزل عن رتبة الشركة فى الألوهية وأحكامها فهل أنتم داخلون فى الاسلام إذ لم يبق بعد شائبة شبهة فى حقيته وفى بطلان ما كنتم فيه من الشرك فيدخل فيه الاذعان لكون القرآن من عند الله تعالى دخولا أوليا أو منقادون للحق الذى هو كون القرآن من عند الله تعالى وتاركون لما كنتم فيه من المكابرة والعناد وفى هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واقناط من أن يجيرهم آلهتهم من بأس الله عز سلطانه هذا والأول أنسب لما سلف من قوله تعالى وضائق به صدرك ولما سيأتى من قوله تعالى فلا تك فى مرية منه وأشد ارتباطا بما يعقبه كما ستحيط به خبرا (من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها) أى ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة فى الرزق وكثرة الأولاد والرياسة وغير ذلك والمراد بالارادة ما يحصل عند مباشرة الأعمال لا مجرد الارادة القلبية لقوله تعالى (نوف إليهم أعمالهم فيها) وادخال كان عليها للدلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلا وليس المراد بأعمالهم أعمال كلهم فانه لا يجد كل متمن ما يتمناه ولا كل أحد ينال كل ما يهواه فان ذلك منوط بالمشيئة الجارية على قضية الحكمة كما نطق به قوله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ولا كل أعمالهم بل بعضها الذى يترتب عليه الأمور المذكورة بطريق الأجر والجزاء من أعمال البر وقد أطلقت وأريد بها ثمراتها فالمعنى نوصل اليهم ثمرات أعمالهم فى الحياة الدنيا كاملة وقرىء يوف على الاسناد إلى الله عز وجل وتوف بالفوقانية على البناء للمفعول ورفع أعمالهم وقرىء نوفى بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضيا كقوله :

وان أتاه خليل يوم مسغبة   يقول لا غائب مالى ولا حرم

(وهم فيها) أى فى الحياة الدنيا (لا يبخسون) أى لا ينقصون وإنما عبر عن ذلك بالبخس الذى هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التى هى اعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك بناء للأمر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة فى نفى النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلا والمعنى انهم فيها خاصة لا ينقصون ثمرات أعمالهم وأجورها نقصا

كليامطرداً ولايحرمونها حرمانا كلياً وأما فى الآخرة فهم فى الحرمان المطلق واليأس المحقق كما ينطق به قوله تعالى (أولئك) الخ فانه إشارة إلى المذكورين باعتبار إرادتهم الحياة الدنيا أو باعتبار توفيتهم أجورهم من غير بخس أو باعتبارهما معاً ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى سوء الحال أى أولئك المريدون للحياة الدنيا وزينتها الموفون فيها ثمرات أعمالهم من غير بخس (الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار) لأن همهم كانت مصروفة إلى الدنيا وأعمالهم مقصورة على تحصيلها وقد اجتنوا ثمرتها ولم يكونوا يريدون بها شيئا آخر فلاجرم لم يكن لهم فى الآخرة إلا النار وعذابها المخلد (وحبط ماصنعوا فيها) أى ظهر فى الآخرة حبوط ماصنعوه من الأعمال التى كانت تؤدى إلى الثواب لو كانت معمولة للآخرة أو حبط ماصنعوه فى الدنيا من أعمال البر إذ شرط الاعتداد بها الاخلاص (وباطل) أى فى نفسه (ما كانوا يعملون) فى أثناء تحصيل المطالب الدنيوية ولأجل أن الأول من شأنه استتباع الثواب والأجر وأن عدمه لعدم مقارنته للإيمان والنية الصحيحة وأن الثانى ليس له جهة صالحة قط علق بالأول الحبوط المؤذن بسقوط أجره بصيغة الفعل المنبىء عن الحدوث وبالثانى البطلان المفصح عن كونه بحيث لا طائل تحته أصلا بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفا لازما له ثابتا فيه وفى زيادة كان فى الثانى دون الأول إيماء إلى أن صدور أعمال البر منهم وان كان لغرض فاسد ليس فى الاستمرار والدوام كصدور الأعمال التى هى من مقدمات مطالبهم الدنية وقرىء وبطل على الفعل أى ظهر بطلانه حيث علم هناك أن ذلك ومايستتبعه من الحظوظ الدنيوية مما لا طائل تحته أو انقطع أثره الدنيوى فبطل مطلقا وقرىء وباطلا ما كانوا يعملون على أن ما ابهامية أو فى معنى المصدر كقوله ولا خارجا من فى زور كلام وعن أنس رضى الله عنه أن المراد بقوله تعالى من كان يريد الخ اليهود والنصارى ان أعطوا سائلا أو وصلوا رحما عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة فى الرزق وصحة فى البدن وقيل هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم فى الغنائم وأنت خبير بأن ذلك إنما كان بعد الهجرة والسورة مكية وقيل هم أهل الرياء يقال للقراء منهم أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك وهكذا لغيره ممن يعمل أعمال البر لا لوجه الله تعالى فعلى هذا لابد من تقييد قوله تعالى ليس لهم إلا النار بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الريائية إلا ذلك والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون فى القرآن العظيم اندراجا أوليا فانه عز وعلا لما أمر نبيه عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأن يزدادوا علما ويقينا بأن القرآن منزل بعلم الله وبأن لاقدرة لغيره على شىء أصلا وهيجهم على الثبات على الاسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة وتبين أنهم ليسوا على شىء أصلا اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شئونهم الموهمة لكونهم على شىء فى الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ولقد بين ذلك أى بيان ثم أعيد الترغيب فيما ذكر من الايمان بالقرآن والتوحيد والإسلام فقيل (أفمن كان على بينة من ربه) أى برهان نير عظيم الشأن يدل على حقية مارغب فى الثبات عليه من الإسلام وهو القرآن وباعتباره أو بتأويل البرهان ذكر الضمير الراجع اليها فى قوله تعالى (ويتلوه) أى يتبعه (شاهد) يشهد بكونه من عند الله تعالى وهو الاعجاز فى نظمه المطرد فى كل مقدار سورة منه أو ماوقع فى بعض آياته من الاخبار بالغيب وكلاهما وصف تابع له شاهد بكونه من عند الله عز وجل غير أنه على التقدير الأول يكون فى الكلام إشارة إلى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى تمسكهم بالقرآن عند تبين كونه منزلا بعلم الله بشهادة الاعجاز (منه) أى من القرآن غير خارج عنه أو من جهة الله تعالى فان كلا منهما وارد من جهته تعالى للشهادة ويجوز على هذا التقدير أن يراد بالشاهد المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان ذلك أيضا من الشواهد التابعة للقرآن

الواردة من جهته تعالى فالمراد بمن فى قوله تعالى أفمن كل من اتصف بهذه الصفة الحميدة فيدخل فيه المخاطبون بقوله تعالى فاعلموا فهل أنتم دخولا أوليا وقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم وقيل مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل المراد بالبينة دليل العقل وبالشاهد القرآن فالضمير فى منه لله تعالى أو البينة القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل أو لسان النبى صلى الله عليه وسلم على أن الضمير له أو من التلو والشاهد ملك يحفظ والأولى هو الأول ولما كان المراد بتلو الشاهد للبرهان إقامة الشهادة بصحته وكونه من عند الله تابعا له بحيث لا يفارقه فى مشهد من المشاهد فان القرآن بينة باقية على وجه الدهر مع شاهدها الذى يشهد بأمرها إلى يوم القيامة عند كل مؤمن وجاحد عطف كتاب موسى فى قوله عز قائلا (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَٰبُ مُوسَىٰ) على فاعله مع كونه مقدما عليه فى النزول فكأنه قيل أفمن كان على بينة من ربه ويشهد به شاهد منه وشاهد آخر من قبله هو كتاب موسى وإنما قدم فى الذكر المؤخر فى النزول لكونه وصفا لازما له غير مفارق عنه ولعراقته فى وصف التلو والتنكير فى بينة وشاهد للتفخيم (إِمَامًا) أى مؤتما به فى الدين ومقتدى وفى التعرض لهذا الوصف بصدد بيان تلو الكتاب ما لا يخفى من تفخيم شأن المتلو (وَرَحْمَةً) أى نعمة عظيمة على من أنزل اليهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيدة بالقرآن العظيم وهما حالان من الكتاب (أُولَٰئِكَ) الموصوفون بتلك الصفة الحميدة وهو الكون على بينة من الله ولما أن ذلك عبارة عن مطلق التمسك بها وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمن سلف من عظماء الدين من غير عثور على دقائق الحقائق وصفهم بأنهم (يُؤْمِنُونَ بِهِ) أى يصدقونه حق التصديق حسبما تشهد به الشواهد الحقة المعربة عن حقيته (وَمَن يَكْفُرْ بِهِ) أى بالقرآن ولم يصدق بتلك الشواهد الحقة (مِنَ الْأَحْزَابِ) من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم (فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) يردها لا محالة حسبما نطق به قوله تعالى ليس لهم فى الآخرة إلا النار وفى جعلها موعدا اشعار بأن له فيها ما لا يوصف من أفانين العذاب (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ) أى فى شك من أمر القرآن وكونه من عند الله عز وجل غبّ ما شهدت به الشواهد المذكورة وظهر فضل من تمسك به (إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ) الذى يربيك فى دينك ودنياك (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) بذلك إما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم وإما لعنادهم واستكبارهم فمن فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه مبتدأ حذف خبره لاغناء الحال عن ذكره وتقديره أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم وبين مصيرهم ومآلهم يعنى أن بينهما تفاوتا عظيما بحيث لا يكاد يتراءى ناراهما وإيراد الفاء بعد الهمزة لانكار ترتب توهم المماثلة على ما ذكر من صفاتهم وعد من هناتهم كأنه قيل أبعد ظهور حالهم فى الدنيا والآخرة كما وصف يتوهم المماثلة بينهم وبين من كان على أحسن ما يكون فى العاجل والآجل كما فى قوله تعالى أفاتخذتم من دونه أولياء أى أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء وقوله تعالى أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) بأن نسب اليه ما لا يليق به كقولهم للملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقولهم لآلهتهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله يعنى أنهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه كذبا وهذا التركيب وإن كان سبكه على انكار أن يكون أحد أظلم منهم من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها ولكن المقصود به قصدا مطردا انكار المساواة ونفيها وإفادة أنهم أظلم من كل ظالم كما ينبئ عنه ما سيتلى من قوله عز وجل لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد منه حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل (أُولَٰئِكَ) الموصوفون بالظلم البالغ الذى هو الافتراء على الله تعالى وبهذه الاشارة حصلت الغنية عن إسناد العرض إلى أعمالهم واكتفى باسناده اليهم حيث قيل (يُعْرَضُونَ) لأن عرضهم من تلك الحيثية وبذلك العنوان عرض لأعمالهم على وجه أبلغ

فان عرض العامل بعمله أفظع من عرض عمله مع غيبته (عَلَىٰ رَبِّهِمْ) الحق وفيه إيماء إلى بطلان رأيهم فى اتخاذهم أربابا من دون الله عز وجل (وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ) عند العرض من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم وهو جمع شاهد أو شهيد كأصحاب وأشراف (هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ) بالافتراء عليه كأن ذلك أمر واضح غنى عن الشهادة بوقوعه وانما المحتاج الى الشهادة تعيين من صدر عنه ذلك فلذلك لا يقولون هؤلاء كذبوا على ربهم ويجوز أن يكون المراد بالاشهاد الحضار وهم جميع أهل الموقف على ماقاله قتادة ومقاتل ويكون قولهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ذما لهم بذلك لا شهادة عليهم كما يشعر به قوله تعالى ويقول دون ويشهد الخ توطئة لما يعقبه من قوله تعالى (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) بالافتراء المذكور ويجوز أن يكون هذا على الوجه الأول من كلام الله تعالى وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم اللهم إنا نعوذ بك من الخزى على رؤس الأشهاد (الَّذِينَ يَصُدُّونَ) أى كل من يقدرون على صده أو يفعلون الصد (عَن سَبِيلِ اللَّهِ) عن دينه القويم (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) انحرافا أى يصفونها بذلك وهى أبعد شىء منه أو يبغون أهلها أن ينحرفوا عنها يقال بغيتك خيرا أو شرا أى طلبت لك وهذا شامل لتكذيبهم بالقرآن وقولهم إنه ليس من عند الله (وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) أى يصفونها بالعوج والحال أنهم كافرون بها لا أنهم يؤمنون بها ويزعمون أن لها سبيلا سويا يهدون الناس اليه وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به كأن كفر غيرهم ليس بشىء عند كفرهم (أُولَٰئِكَ) مع ماوصف من أحوالهم الموجبة للتدمير (لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ) الله تعالى مفلتين بأنفسهم من أخذه لو أراد ذلك (فِي الْأَرْضِ) مع سعتها وإن هربوا منها كل مهرب (وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ) ينصرونهم من بأسه ولكن أخر ذلك لحكمة تقتضيه والجمع إما باعتبار أفراد الكفرة كأنه قيل وما كان لأحد منهم من ولى أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بيانا لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية (يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ) استئناف يتضمن حكمة تأخير المؤاخذة وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالتشديد (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ) لفرط تصامهم عن الحق وبغضهم له كأنهم لا يقدرون على السمع ولما كان قبح حالهم فى عدم إذعانهم للقرآن الذى طريق تلقيه السمع أشد منه فى عدم قبولهم لسائر الآيات المنوطة بالأبصار بالغ فى نفى الأول عنهم حيث نفى عنهم الاستطاعة واكتفى فى الثانى بنفى الابصار فقال تعالى (وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) لتعاميهم عن آيات الله المبسوطة فى الأنفس والآفاق وهو استئناف وقع تعليلا لمضاعفة العذاب وقيل هو بيان لما نفى من ولاية الآلهة فان مالا يسمع ولا يبصر بمعزل من الولاية وقوله تعالى يضاعف لهم العذاب اعتراض وسط بينهما نعيا عليهم من أول الأمر سوء العاقبة (أُولَٰئِكَ) المنعوتون بما ذكر من القبائح (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله عز سلطانه (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) من الآلهة وشفاعتها أو خسروا ما بذلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة (لَا جَرَمَ) فيه ثلاثة أوجه الأول أن لا نافية لما سبق وجرم فعل بمعنى حق وأن مع ما فى حيزه فاعله والمعنى لا ينفعهم ذلك الفعل حق (أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) وهذا مذهب سيبويه والثانى جرم بمعنى كسب ومابعده مفعوله وفاعله مادل عليه الكلام أى كسب ذلك خسرانهم فالمعنى ماحصل من ذلك إلا ظهور خسرانهم والثالث أن لا جرم بمعنى لا بد أى لابد أنهم فى الآخرة هم الأخسرون وأيا ما كان فمعناه أنهم أخسر من كل خاسر فتبين أنهم أظلم من كل ظالم وهذه الآيات الكريمة كما ترى مقررة لما سبق من انكار المماثلة بين من كان على بينة من ربه وبين من كان يريد الحياة الدنيا أبلغ تقرير فانهم حيث كانوا أظلم من كل ظالم وأخسر من كل خاسر لم يتصور مماثلة بينهم وبين أحد من الظلمة الأخسرين فما ظنك بالمماثلة بينهم وبين من هو فى أعلى مدارج الكمال ولما ذكر فريق الكفار وأعمالهم

وبين مصيرهم ومآلهم شرع فى بيان حال أضدادهم أعنى فريق المؤمنين ومايؤول اليه أمرهم من العواقب الحميدة تكملة لما سلف من محاسنهم المذكورة فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه الآية ليتبين ما بينهما من التباين البين حالا ومآلا فقيل (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أى بكل مايجب أن يؤمن به فيندرج تحته مانحن بصدده من الإيمان بالقرآن الذى عبر عنه بالكون على بينة من الله وإنما يحصل ذلك باستماع الوحى والتدبر فيه ومشاهدة مايؤدى إلى ذلك فى الأنفس والآفاق أو فعلوا الإيمان كما فى يعطى ويمنع (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ) أى اطمأنوا اليه وانقطعوا إلى عبادته بالخضوع والتواضع من الخبت وهى الأرض المطمئنة ومعنى أخبت دخل فى الخبت كأتهم وأنجد دخل فى تهامة ونجد (أُولَئِكَ) المنعوتون بتلك النعوت الجليلة (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) دائمون وبعد بيان تباين حاليهما عقلا أريد بيان تباينهما حسا فقيل (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ) المذكورين أى حالهما العجيب لأن المثل لايطلق إلا على مافيه غرابة من الأحوال والصفات (كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ) أى كحال هؤلاء فيكون ذواتهم كذواتهم والكلام وإن أمكن أن يحمل على تشبيه الفريق الأول بالأعمى وبالأصم وتشبيه الفريق الثانى بالبصير وبالسميع لكن الأدخل فى المبالغة والاقرب إلى مايشير اليه لفظ المثل والانسب بماسبق من وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع وبعدم الابصار أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بمن جمع بين العمى والصمم وتشبيه الفريق الثانى بمن جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو فى قوله تعالى والاصم وفى قوله والسميع لعطف الصفة على الصفة كما فى قول من قال :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وأياما كان فالظاهر أن المراد بالحال المدلول عليها بلفظ المثل وهى التى يدور عليها أمر التشبيه مايلائم الاحوال المذكورة المعتبرة فى جانب المشبه به من تعامى الفريق الاول عن مشاهدة آيات الله المنصوبة فى العالم والنظر اليها بعين الاعتبار وتصامهم عن استماع آيات القرآن الكريم وتلقيها بالقبول حسبما ذكر فى قوله تعالى ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يبصرون وإنما لم يراع هذا الترتيب ههنا لكون الاعمى أظهر وأشهر فى سوء الحال من الاصم ومن استعمال الفريق الثانى لكل من أبصارهم وأسماعهم فيما ذكر كما ينبغى المدلول عليه بماسبق من الايمان والعمل الصالح والاخبات حسبما فسر به فيما مر فلا يكون التشبيه تمثيليا لاجميع الاحوال المعدودة لكل من الفريقين مما ذكر ومايؤدى اليه من العذاب المضاعف والخسران البالغ فى أحدهما ومن النعيم المقيم فى الآخر فان اعتبار ذلك ينزع إلى كون التشبيه تمثيليا بأن ينتزع من حال الفريق الأول فى تصامهم وتعاميهم المذكورين ووقوعهم بسبب ذلك فى العذاب المضاعف والخسران الذى لاخسران فوقه هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن فقد مشعرى البصر والسمع فتخبط فى مسلكه فوقع فى مهاوى الردى ولم يجد إلى مقصده سبيلا وينتزع من حال الفريق الثانى فى استعمال مشاعرهم فى آيات الله تعالى حسبما ينبغى وفوزهم بدار الخلود هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع يستعملهما فى مهماته فيهتدى إلى سبيله وينال مرامه (هَلْ يَسْتَوِيَانِ) يعنى الفريقين المذكورين والاستفهام إنكارى مذكر لما سبق من إنكار المماثلة فى قوله عز وجل أفمن كان على بينة الآية (مَثَلًا) أى حالا وصفة وهو تمييز من فاعل يستويان (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أى أتشكون فى عدم الاستواء ومابينهما من التباين أو أتغفلون عنه فلا تتذكرونه بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل فيكون الإنكار واردا على المعطوفين معا أو أتسمعون هذا فلا تتذكرون فيكون راجعا إلى عدم التذكر بعد تحقق مايوجب وجوده وهو المثل المضروب كما فى قوله تعالى أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم فان الفاء هناك لانكار الانقلاب بعد تحقق مايوجب عدمه من علمهم بخلو الرسل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أفلا تفعلون التذكر أو أفلا تعقلون ومعنى الهمزة انكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين وأنه ليس مما يصح أن يقع لامن

قبيل الانكار فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى هل يستويان فان ذلك لنفى المماثلة ونفى الاستواء . ولما بين من فاتحة السورة الكريمة إلى هذا المقام أنها كتاب محكم الآيات مفصلها نازل فى شأن التوحيد وترك عبادة غير الله سبحانه وأن الذى أنزل عليه نذير وبشير من جهته تعالى وقرر فى تضاعيف ذلك ماله مدخل فى تحقيق هذا المرام من الترغيب والترهيب والزام المعاندين بما يقارنه من الشواهد الحقة الدالة على كونه من عند الله تعالى وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما عراه من ضيق الصدر العارض له من اقتراحاتهم الشنيعة وتكذيبهم له وتسميتهم للقرآن تارة سحرا وأخرى مفترى وتثبيته عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على التمسك به والعمل بموجبه على أبلغ وجه وأبدع أسلوب شرع فى تحقيق ما ذكر وتقريره بذكر قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحة السورة الكريمة ليتأكد ذلك بطريقين أحدهما أن ما أمر به من التوحيد وفروعه مما أطبق عليه الانبياء قاطبة والثانى أن ذلك إنما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى فلا يبقى فى حقيته كلام أصلا وليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أممهم ومقاساتهم الشدائد من جهتهم فقيل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ الواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وحرفه الباء لا الواو كما فى سورة الاعراف لئلا يجتمع واوان ولا يكاد تطلق هذه اللام الامع قد لانها مظنة التوقع وأن المخاطب إذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن إدريس عليهما السلام وهو أول نبى بعث بعده . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره ألفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ بالكسر على ارادة القول أى فقال أو قائلا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالفتح على اضمار حرف الجر أى أرسلناه ملتبسا بذلك الكلام وهو انى لكم نذير بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى كأن والمعنى على الكسر وهو قولك ان زيدا كالأسد واقتصر على ذكر كونه عليه الصلاة والسلام نذيرا لالأن دعوته عليه الصلاة والسلام كانت بطريق الانذار فقط ألا يرى إلى قوله تعالى فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الخ بل لأنهم لم يغتنموا مغانم ابشاره عليه الصلاة والسلام ﴿ مُبِينٌ ﴾ أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص منه لأن الانذار اعلام المحذور لا لمجرد التخويف والازعاج بل للحذر منه فيتعلق صفته بكلا وصفيه ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى بأن لاتعبدوا على أن أن مصدرية والباء متعلقة بأرسلنا ولا ناهية أى أرسلناه ملتبسا بنهيهم عن الشرك الا أنه وسط بينهما بيان بعض أوصافه وأحواله عليه الصلاة والسلام وهو كونه نذيرا مبينا ليكون أدخل فى القبول ولم يفعل ذلك فى صدر السورة لئلا يفرق بين الكتاب ومضمونه بما ليس من أوصافه وأحواله أو مفسرة متعلقة به أو بنذير أو مفعول لمبين وعلى قراءة الفتح بدل من انى لكم نذير مبين وتعيين لما يوجب وقوع المحذور وتبيين لوجه الخلاص وهو عبادة الله تعالى وقوله تعالى ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ تعليل لموجب النهى وتصريح بالمحذور وتحقيق للانذار والمراد به يوم القيامة أو يوم الطوفان ووصفه بالأليم على الاسناد المجازى للمبالغة كما فى نهاره صائم وهذه المقالة وما فى معناها مما قاله عليه الصلاة والسلام فى أثناء الدعوة على ما عزى اليه فى سائر السور لم تصدر عنه عليه الصلاة والسلام مرة واحدة بل كان يكررها عليهم فى تلك المدة المتطاولة على ما نطق به قوله تعالى رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا الآيات عطف على فعل الارسال المقارن لها أو القول المقدر بعده جوابهم المتعرض لأحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا

والتى بالفاء التعقيبية فقيل (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) أى الأشراف منهم من قولهم فلان مليء بكذا أى مطيق له لأنهم ملئوا بكفايات الأمور أو لأنهم ملأوا القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لأنهم ملئوا بالاحلام والآراء الصائبة ووصفهم بالكفر لذمهم والتسجيل عليهم بذلك من أول الأمر لالأن بعض أشرافهم ليسوا بكفرة (ما نراك إلا بشرا مثلنا) مرادهم ما أنت إلا بشر مثلنا ليس فيك مزية تخصك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه لأن ذلك محتمل ولكن لانراه وكذا الحال فى قولهم (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) فالفعلان من رؤية العين وقوله تعالى الابشرا مثلنا حال من المفعول وكذا قوله اتبعك فى موضع الحال منه إما على حاله أو بتقدير قد عند من يشترط ذلك ويجوز أن يكون من رؤية القلب وهو الظاهر فهما المفعول الثانى وتعلق الرأى فى الأول بالمثلية لا بالبشرية فقط وإنما لم يبتوا القول بذلك مع جزمهم به وإصرارهم عليه ارادة بأن ذلك لم يصدر عنهم جزافا بل بعد التأمل فى الأمر والتدبر فيه ولذلك اقتصروا على ذكر الظن فيما سيأتى وتعريضا من أول الأمر برأى المتبعين فكأن قولهم ومانراك جواب عما يردعليهم من أنه عليه الصلاة والسلام ليس مثلهم حيث عاين دلائل نبوته واغتنم اتباعه من له عين تبصر وقلب يدرك فزعموا أن هؤلاء أراذلنا أى أخساؤنا وأدانينا جمع أرذل فانه صار بالغلبة جاريا مجرى الاسم كالأكبر والأكابر أو جمع أرذل جمع رذل كأكالب وأكلب وكلب يعنون أنه لاعبرة باتباعهم لك إذ ليس لهم رزانة عقل ولا إصالة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى أى ظاهره من غير تعمق من البدو أو فى أوله من البدء والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ماقبلها وقد قرأه أبو عمرو بها وانتصابه على الظرفية على حذف المضاف أى وقت حدوث بادى الرأى والعامل فيه اتبعك وانما استرذلوهم مع كونهم أولى الألباب الراجحة لفقرهم فانهم لما لم يعلموا الاظاهر الحياة الدنيا كان الأشرف عندهم الأكثر منها حظا والارذل من حرمها ولم يفقهوا أن ذلك لايزن عند الله جناح بعوضة وأن النعيم إنما هو نعيم الآخرة والأشرف من فاز به والأرذل من حرمه نعوذ بالله تعالى من ذلك (وما نرى لكم) أى لك ولمتبعيك فغلب المخاطب على الغائبين (علينا من فضل) يعنون أن اتباعهم لك لايدل على نبوتك ولا يجديهم فضيلة تستتبع اتباعنا لكم واقتصارهم ههنا على ذكر عدم رؤية الفضل بعد تصريحهم برذالتهم فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق ومرادهم أنهم كانوا أراذل قبل اتباعهم لك ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلة علينا (بل نظنكم كاذبين) جميعا لكون كلامكم واحدا ودعواكم واحدة أو اياك فى دعوى النبوة وإياهم فى تصديقك واقتصارهم على الظن احتراز منهم عن نسبتهم إلى المجازفة ومجاراة معه عليه الصلاة والسلام بطريق الاراءة على نهج الانصاف (قال يا قوم أرأيتم) أى أخبرونى وفيه ايماء إلى ركاكة رأيهم المذكور (إن كنت على بينة) برهان ظاهر (من ربى) وشاهد يشهد بصحة دعواى (وآتانى رحمة من عنده) هى النبوة ويجوز أن تكون هى البينة نفسها جيء بها إيذانا بأنها مع كونها بينة من الله تعالى رحمة ونعمة عظيمة من عنده فوجه افراد الضمير فى قوله تعالى (فعميت عليكم) حينئذ ظاهر وان أريد بها النبوة وبالبينة البرهان الدال على صحتها فالافراد لارادة كل واحدة منهما أو لكون الضمير للبينة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفائها خفاء النبوة أو لتقدير فعل آخر بعد البينة ومعنى عميت أخفيت وقرىء عميت ومعناه خفيت وحقيقته أن الحجة كما تجعل مبصرة وبصيرة تجعل عمياء لأن الأعمى لايهتدى ولا يهدى غيره وفى قراءة أبى فعماها عليكم على الاسناد إلى الله عز وجل (أنلزمكموها) أى أنكرهكم على الاهتداء بها وهو جواب أرأيتم وساد مسد جواب الشرط وقرأ أبو عمرو باخفاء حركة الميم وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قدم أعرفهما جاز فى الثانى الوصل والفصل فوصل كما فى قوله تعالى فسيكفيكهم الله (وأنتم لها كارهون)

لاتختارونها ولاتتأملون فيها وحصول الجواب أخبرونى ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواى إلا أنها خافية عليكم غير مسلمة عندكم أيمكننا أن نكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين فيها أى لايكون ذلك وظاهره مشعر بصدوره عنه عليه الصلاة والسلام بطريق اظهار اليأس عن الزامهم والقعود عن محاجتهم كقوله تعالى ولا ينفعكم نصحى الخ لكنه محمول على أن مراده عليه الصلاة والسلام ردهم عن الإعراض عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الانكار إلى الالزام حال كراهتهم لها لا إلى الالزام مطلقا هذا ويجوز أن يكون المراد بالبينة دليل العقل الذى هو ملاك الفضل وبحسبه يمتاز أفراد البشر بعضها من بعض وبه يناط الكرامة عند الله عز وجل والاجتباء للرسالة وبالكون عليها التمسك به والثبات عليه وبخفائها على الكفرة على أن الضمير للبينة عدم إدراكهم لكونه عليه الصلاة والسلام عليها وبالرحمة النبوة التى أنكروا اختصاصه عليه السلام بها بين ظهرانيهم والمعنى أنكم زعمتم أن عهد النبوة لايناله إلا من له فضيلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم أخبرونى ان امتزت عنكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربى وآتانى بحسبها نبوة من عنده فخفيت عليكم تلك البينة ولم تصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتى لها وكونى عليها إلى الآن حتى زعمتم أنى مثلكم وهى متحققة فى نفسها أنلزمكم قبول نبوتى التابعة لها والحال أنكم كارهون لذلك فيكون الاستفهام للحمل على الاقرار وهو الأنسب بمقام المحاجة وحينئذ يكون كلامه عليه الصلاة والسلام جوابا عن شبههم التى أدرجوها فى خلال مقالهم من كونه عليه السلام بشرا قصارى أمره أن يكون مثلهم من غير فضل له عليهم وقطعا لشأفة آرائهم الركيكة (وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ) أى على ماقلته فى أثناء دعوتكم (مَالًا) تؤدونه إلى بعد إيمانكم واتباعكم لى فيكون ذلك أجرا لى فى مقابلة اهتدائكم (إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ) الذى يثيبنى فى الآخرة وفى التعبير عنه حين نسب اليهم بالمال مالايخفى من المزية (وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟) جواب عما لوحوا به بقولهم ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا من أنه لو اتبعه الأشراف لوافقوهم وأن اتباع الفقراء مانع لهم عن ذلك كما صرحوا به فى قولهم أنؤمن لك واتبعك الأرذلون فكان ذلك التماسا منهم لطردهم وتعليقا لإيمانهم به عليه الصلاة والسلام بذلك أنفة من الانتظام معهم فى سلك واحد (إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ) تعليل لامتناعه عليه السلام عن طردهم أى انهم فائزون فى الآخرة بلقاء الله عز وجل كأنه قيل لاأطردهم ولا أبعدهم عن مجلسى لأنهم مقربون فى حضرة القدس والتعرض لوصف الربوبية لتربية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم أو مصدقون فى الدنيا بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لامحالة فكيف أطردهم وحمله على معنى أنهم يلاقونه فيجازيهم على مافى قلوبهم من إيمان صحيح ثابت كما ظهر لى أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء إيمانهم على بادى الرأى من غير نظر وتفكر وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم ان كان الأمر كما تزعمون يأباه الجزم بترتب غضب الله عز وجل على طردهم كما سيأتى وأيضا فهم إنما قالوا ان اتباعهم لك انما هو بحسب بادى الرأى بلا تأمل وتفكر وهذا لايكاد يصلح مدارا للطرد فى الدنيا ولا للمؤاخذة فى الآخرة غايته أن لايكونوا فى مرتبة الموقنين وادعاء أن بناء الإيمان على ظاهر الرأى يؤدى إلى الرجوع عنه عند التأمل فكأنهم قالوا انهم اتبعوك بلا تأمل فلا يثبتون على دينك بل يرتدون عنه تعسف لايخفى (وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) بكل ماينبغى أن يعلم ويدخل فيه جهلهم بلقاء الله عز وجل وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طردهم لغضب الله كما سيأتى وبركاكة رأيهم فى التماس ذلك وتوقيف إيمانهم عليه أنفة عن الانتظام معهم فى سلك واحد وزعما منهم أن الرذالة بالفقر والشرف بالغنى وإيثار صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار أو تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة (وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ) يدفع حلول سخطه عنى

(إِن طَرَدتُّهُمْ) فان ذلك أمر لامرد له لكون الطرد ظلما موجبا لحلول السخط قطعا وإنما لم يصرح به إشعارا بأنه غنى عن البيان لاسيما غب ما قدم ما يلوح به من أحوالهم فكأنه قيل من يدفع عنى غضب الله تعالى ان طردتهم وهم بتلك المثابة من الكرامة والزلفى كما ينبىء عنه قوله تعالى (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) أى أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل المذكور فلا تتذكرون ما ذكر من حالهم حتى تعرفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب ولكون هذه العلة مستقلة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد أفردت عن التعليل السابق وصدرت بياقوم (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ) حين أدعى النبوة (عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ) أى رزقه وأمواله حتى تستدلوا بعدمها على كذبى بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فان النبوة أعز من أن تنال بأسباب دنيوية ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه (وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) أى لا أدعى فى قولى انى لكم نذير مبين إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم علم الغيب حتى تسارعوا الى الانكار والاستبعاد (وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ) حتى تقولوا ما نراك إلا بشرا مثلنا فان البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها يعنى انكم اتخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة الى تكذيبى والحال أنى لا أدعى شيأ من ذلك ولا الذى أدعيه يتعلق بشىء منها وإنما يتعلق بالفضائل النفسانية التى بها تتفاوت مقادير البشر (وَلَا أَقُولُ) مساعدة لكم كما تقولون (لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ) أى تقتحمهم وتحتقرهم من زراه إذا عابه وإسناد الازدراء إلى أعينهم بالنظر إلى قولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا واما للاشعار بأن ذلك لقصور نظرهم ولو تدبروا فى شأنهم مافعلوا ذلك أى لا أقول فى شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين (لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا) فى الدنيا أو فى الآخرة فعسى الله أن يؤتيهم خيرى الدارين إن قلت هذا القول ليس مما تستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه عليه السلام أصالة أو استتباعا كادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن مما نفاه عليه الصلاة والسلام عن نفسه بطريق التبرؤ والتنزه عنه فمن أى وجه عطف نفيه على نفيها قلت من جهة أن كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذى تمسكوا به فيما سلف فانهم زعموا أن النبوة تستتبع الأمور المذكورة وأنها لا تتسنى ممن ليس على تلك الصفات فان العثور على مكانها واغتنام مغانمها ليس من دأب الأراذل فأجاب عليه الصلاة والسلام بنفى ذلك جميعا فكأنه قال لا أقول وجود تلك الأشياء من مواجب النبوة ولا عدم المال والجاه من موانع الخير (اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ) من الإيمان وانما اقتصر على نفى القول المذكور مع أنه عليه الصلاة والسلام جازم بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيرا عظيما فى الدارين وأنهم على يقين راسخ فى الإيمان جريا على سنن الانصاف مع القوم واكتفاء بمخالفة كلامهم وارشادا لهم إلى مسلك الهداية بأن اللائق لكل أحد لا يبت القول إلا فيما يعلمه يقينا ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة (إِنِّى إِذًا) أى إذا قلت ذلك (لَّمِنَ الظَّالِمِينَ) لهم بحط مرتبتهم ونقص حقوقهم أو من الظالمين لأنفسهم بذلك فان وباله راجع الى أنفسهم وفيه تعريض بأنهم ظالمون فى ازدرائهم واسترذالهم وقيل إذا قلت شيأ مما ذكر من ادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن وهو بعيد لأن تبعة تلك الأقوال مغنية عن التعليل بلزوم الانتظام فى زمرة الظالمين (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا) خاصمتنا (فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) أى أطلته أو أتيته بأنواعه فان اكثار الجدال يتحقق بعد وقوع أصله فلذلك عطف عليه بالفاء أو أردت ذلك فأكثرته كما فى قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ولما حجهم عليه الصلاة والسلام وأبرز لهم بينات واضحة المدلول وحججا تتلقاها العقول بالقبول وألقمهم الحجر بردشبههم الباطلة ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وقالوا (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) من العذاب المعجل أو العذاب الذى أشير اليه فى قوله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم على تقدير أن لا يكون المراد باليوم يوم القيامة (إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فيما تقول (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم

بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ) يعني أن ذلك ليس موكولا إلى ولا هو مما يدخل تحت قدرتى وإنما يتولاه الله الذى كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلا أو آجلا إن تعلق به مشيئته التابعة للحكمة وفيه مالا يخفى من تهويل الموعود فكأنه قيل الاتيان به أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وإنما يفعله الله عز وجل (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) بالهرب أو بالمدافعة كما تدافعونني فى الكلام (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي) النصح كلمة جامعة لكل مايدور عليه الخير من قول أو فعل وحقيقته امحاض ارادة الخير والدلالة عليه ونقيضه الغش وقيل هو إعلام موقع الغى ليتقى وموضع الرشد ليقتفى (إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ) شرط حذف جوابه لدلالة ماسبق عليه والتقدير ان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى وهذه الجملة دليل على ماحذف من جواب قوله تعالى (إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) والتقدير إن كان الله يريد أن يغويكم فان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى هذا على ماذهب اليه البصريون من عدم تقديم الجزاء على الشرط وأما على ماذهب اليه الكوفيون من جوازه فقوله عز وعلا ولا ينفعكم نصحى جزاء للشرط الأول والجملة جزاء للشرط الثانى وعلى التقديرين فالجزاء متعلق بالشرط الأول وتعلقه به معلق بالشرط الثانى وهذا الكلام متعلق بقولهم قد جادلتنا فأكثرت جدالنا صدر عنه عليه الصلاة والسلام اظهارا للعجز عن إلزامهم بالحجج والبينات لتماديهم فى العناد وإيذانا بأن ماسبق منه ليس بطريق الجدال والخصام بل بطريق النصيحة لهم والشفقة عليهم وبأنه لم يأل جهدا فى إرشادهم إلى الحق وهدايتهم إلى سبيله المستبين وامحاض النصح لهم ولكن لا ينفعهم ذلك عند إرادة الله تعالى لإغوائهم وتقييد عدم نفع النصح بإرادته مع أنه محقق لا محالة للايذان بأن ذلك النصح منه مقارن للارادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ماوقع بازائه من إرادته تعالى لاغوائهم وإنما اقتصر فى ذلك على مجرد إرادة الإغواء دون نفسه حيث لم يقل ان كان الله يغويكم مبالغة فى بيان غلبة جنابه عز وعلا حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد ارادة الله سبحانه لإغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم وزيادة كان للاشعار بتقدم إرادته تعالى زمانا كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها وإنما قدم على هذا الكلام مايتعلق بقولهم فأتنا بما تعدنا من قوله تعالى انما يأتيكم به الله إن شاء رداعليهم من أول الأمر وتسجيلا عليهم بحلول العذاب مع ما فيه من اتصال الجواب بالسؤال وفيه دليل على أن إرادته تعالى يصح تعلقها بالاغواء وأن خلاف مراده غير واقع وقيل معنى أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى إذا بشم وهلك (هُوَ رَبُّكُمْ) خالقكم ومالك أمركم (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فيجازيكم على أعمالكم لا محالة (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى نوحا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول قوم نوح ان نوحا افترى ماجاء به مسندا إلى الله عز وجل (قُلْ) يا نوح (إِنِ افْتَرَيْتُهُ) بالفرض البحت (فَعَلَيَّ إِجْرَامِي) اثمى ووبال إجرامى وهو كسب الذنب وقرىء بلفظ الجمع وينصره أن فسره الأولون بآثامى (وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ) من إجرامكم فى إسناد الافتراء إلى فلا وجه لإعراضكم عنى ومعاداتكم لى وقال مقاتل يعنى محمدا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول مشركو مكة افترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نوح فكأنه إنما جىء به فى تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقا لحقيتها وتأكيدا لوقوعها وتشويقا للسامعين إلى استماعها لاسيما وقد قص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام وبين قومه من المحاجة وبقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ) أى المصرين على الكفر وهو إقناط له عليه السلام من إيمانهم وإعلام لكونه كالمحال الذى لا يصح توقعه (إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) إلا من قد وجد منه ماكان يتوقع من إيمانه وهذا الاستثناء على طريقة قوله تعالى إلا ماقد سلف (فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) أى لا تحزن حزن بائس مستكين ولا تغتم بما

كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والايذاء فى هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم (وَاصْنَعِ الفُلْكَ) ملتبسا (بِأَعْيُنِنَا) أى بحفظنا وكلاءتنا كأن معه من الله عز وجل حفاظا وحراسا يكلؤنه بأعينهم من التعدى من الكفرة ومن الزيغ فى الصنعة (وَوَحْيِنَا) اليك كيف تصنعها وتعليمنا وإلهامنا. عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله تعالى اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر والأمر للوجوب اذ لا سبيل إلى صيانة الروح من الغرق إلا به فيجب كوجوبها واللام اما للعهد بأن يحمل على أن هذا مسبوق بوحى الله تعالى اليه عليه السلام أنه سيهلكهم بالغرق وينجيه ومن معه بشىء سيصنعه بأمره تعالى ووحيه من شأنه كيت وكيت واسمه كذا واما للجنس. قيل صنعها عليه الصلاة والسلام فى سنتين وقيل فى أربعمائة سنة وكانت من خشب الساج وجعلت ثلاثة بطون حمل فى البطن الأول الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الأوسط الدواب والأنعام وفى البطن الأعلى جنس البشر هو ومن معه مع ما يحتاجون اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه الصلاة والسلام وقيل جعل فى الأول الدواب والوحوش وفى الثانى الإنس وفى الأعلى الطير قيل كان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا وسمكها ثلاثين ذراعا وقال الحسن كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل إن الحواريين قالوا لعيسى عليه الصلاة والسلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب بن حام قال فضرب بعصاه فقال قم باذن الله فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام أهكذا هلكت قال لا مت وأنا شاب ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثمة شبت فقال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات للدواب والوحش وطبقة للإنس وطبقة للطير ثم قال عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا (وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى لا تراجعنى فيهم ولا تدعنى باستدفاع العذاب عنهم وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل ولا تدعنى فيهم وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية أكد التعليل فقيل (إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) أى محكوم عليهم بالإغراق قد مضى به القضاء وجف القلم فلا سبيل إلى كفه ولزمتهم الحجة فلم يبق إلا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ومثلا للآخرين (وَيَصْنَعُ الفُلْكَ) حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل تقديره وأخذ يصنع الفلك أو أقبل يصنعها فاقتصر على يصنع وأيا ما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالا من ضميره أعنى قوله تعالى (وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) استهزؤا به لعمله السفينة اما لأنهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه واما لأنه كان يصنعها فى برية بهماء فى أبعد موضع من الماء وفى وقت عزته عزة شديدة وكانوا يتضاحكون ويقولون يا نوح صرت نجارا بعد ما كنت نبيا وقيل لأنه عليه الصلاة والسلام كان ينذرهم الغرق فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عينا ولا أثرا عدوه من باب المحال ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا ما فعلوا ومدار الجميع إنكار أن يكون لعمله عليه الصلاة والسلام عاقبة حميدة مع ما فيه من تحمل المشاق العظيمة التى لا تكاد تطاق واستجهاله عليه السلام فى ذلك (قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا) مستجهلين لنا فيما نحن فيه (فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ) أى نستجهلكم فيما أنتم عليه وإطلاق السخرية عليه للمشاكلة وجمع الضمير فى منا إما لأن سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام سخرية من المؤمنين أيضا أو لأنهم كانوا يسخرون منهم أيضا إلا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة فى قوله تعالى فانا نسخر منكم الخ فتكافأ الكلام من الجانبين وتعليق استجهاله عليه الصلاة والسلام اياهم بما فعلوا من

السخرية باعتبار اظهاره ومشافهته عليه الصلاة والسلام إياهم بذلك وإلا فعده عليه الصلاة والسلام إياهم جاهلين فيما يأتون ويذرون أمر مطرد لا تعلق له بسخريتهم منهم لكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتصدى لاظهاره جريا على نهج الأخلاق الحميدة وإنما أظهره جزاء بما صنعوا بعد اللتيا والتى فان سخريتهم كانت مستمرة ومتجددة حسب تجدد مرورهم عليه ولم يكن يجيبهم فى كل مرة وإلا لقيل ويقول ان تسخروا منا الخ بل إنما أجابهم بعد بلوغ أذاهم الغاية كما يؤذن به الاستئناف فكأن سائلا سأل فقال فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ فقيل قال ان تسخروا منا أى ان تنسبونا فيما نحن بصدده من التأهب والمباشرة لأسباب الخلاص من العذاب إلى الجهل وتسخروا منا لأجله فانا ننسبكم إليه فيما أنتم فيه من الاعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصى والتعرض لأسباب حلول سخط الله تعالى التى من جملتها استجهالكم إيانا وسخريتكم منا والتشبيه فى قوله تعالى (كَمَا تَسْخَرُونَ) إما فى مجرد التحقق والوقوع أو فى التجدد والتكرر حسبما صدر عن ملأ غب ملأ لا فى الكيفيات والأحوال التى لا تليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام فكلا الأمرين واقع فى الحال وقيل نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة ولعل مراده نعاملكم معاملة من يفعل ذلك لأن نفس السخرية مما لا يكاد يليق بمنصب النبوة ومع ذلك لا سداد له لأن حالهم إذ ذاك ليس مما يلائمه السخرية أو ما يجرى مجراها فتأمل (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) وهو عذاب الغرق (وَيَحِلُّ عَلَيْهِ) حلول الدين المؤجل (عَذَابٌ مُقِيمٌ) هو عذاب النار الدائم وهو تهديد بليغ ومن عبارة عنهم وهى اما استفهامية فى حيز الرفع أو موصولة فى محل النصب بتعلمون وما فى حيزها ساد مسد مفعولين أو مفعول واحد ان جعل العلم بمعنى المعرفة ولما كان مدار سخريتهم استجهالهم إياه عليه الصلاة والسلام فى مكابدة المشاق الفادحة لدفع ما لا يكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاساة الشدائد فى بناء السفينة وكانوا يعدونه عذابا قيل بعد استجهالهم فسوف تعلمون من يأتيه العذاب يعنى أن ما أباشره ليس فيه عذاب لاحق بى فسوف تعلمون من المعذب ولقد أصاب العلم بعد استجهالهم محزه ووصف العذاب بالاخزاء لما فى الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزى والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة فى التهديد وتخصيصه بالمؤجل وإيراد الاول بالاتيان فى غاية الجزالة (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا) حتى هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لقوله ويصنع وما بينهما حال من الضمير فيه وسخروا منه جواب لكلما وقال استئناف على تقدير سؤال سائل كما ذكرناه وقيل هو الجواب وسخروا منه بدل من مر أو صفة لملأ وقد عرفت أن الحق هو الأول لأن المقصود بيان تناهيهم فى إيذائه عليه الصلاة والسلام وتحمله لأذيتهم لا مسارعته عليه الصلاة والسلام إلى جوابهم كلما وقع منهم ما يؤذيه من الكلام (وَفَارَ التَّنُّورُ) نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها والتنور تنور الخبز وهو قول الجمهور . روى أنه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم عليه الصلاة والسلام وكان من حجارة فصار إلى نوح وإنما نبع منه وهو أبعد شىء من الماء على خرق العادة وكان فى الكوفة فى موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان عمل السفينة فى ذلك الموضع أو فى الهند أو فى موضع بالشام يقال له عين وردة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعكرمة والزهرى أن التنور وجه الأرض وعن قتادة أشرف موضع فى الأرض أى أعلاه وعن على رضى الله تعالى عنه فار التنور طلع الفجر (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا) أى فى السفينة وهو جواب إذا (مِنْ كُلٍّ) أي من كل نوع لابد منه فى الأرض (زَوْجَيْنِ) الزوج ماله مشاكل من نوعه فالذكر زوج للأنثى

كما هى زوج له وقد يطلق على مجموعهما فيقابل الفرد ولإزالة ذلك الاحتمال قيل (اثْنَيْنِ) كل منهما زوج للآخر وقرىء على الاضافة وإنما قدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لكونه عريقا فيما أمر به من الحمل لأنه يحتاج إلى مزاولة الأعمال منه عليه الصلاة والسلام فى تمييز بعضه من بعض وتعيين الأزواج فانه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير وغيرها فجعل يضرب بيديه فى كل جنس فيقع الذكر فى يده اليمنى والأنثى فى اليسرى فيجعلهما فى السفينة وأما البشر فانما يدخل الفلك باختياره فيخف فيه معنى الحمل أو لأنها إنما تحمل مباشرة البشر وهم إنما يدخلونها بعد حملهم إياها (وَأَهْلَكَ) عطف على زوجين أو على اثنين والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) بأنه من المغرقين بسبب ظلمهم فى قوله تعالى ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا الآية والمراد به ابنه كنعان وأمه واعلة فانهما كانا كافرين والاستثناء منقطع ان أريد بالأهل الاهل إيمانا وهو الظاهر كما ستعرفه أو متصل ان أريد به الاهل قرابة ويكفى فى صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة إلى أحوالهم والتفحص عن أعمالهم وجىء بعلى لكون السابق ضارا لهم كما جىء باللام فيما هو نافع لهم من قوله عز وجل ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين وقوله إن الذين سبقت لهم منا الحسنى (وَمَنْ آمَنَ) من غيرهم وافراد الاهل منهم للاستثناء المذكور وإيثار صيغة الافراد فى آمن محافظة على لفظ من للايذان بقلتهم كما أعرب عنه قوله عز قائلا (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) قيل كانوا ثمانية نوح عليه الصلاة والسلام وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم وعن ابن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وعنه أيضا أنهم كانوا عشرة سوى نسائهم وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء واعتبار المعية فى إيمانهم للايماء إلى المعية فى مقر الامان والنجاة (وَقَالَ) أى نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبىء عنه قوله تعالى ان ربى لغفور رحيم ولو رجع الضمير إلى الله تعالى لناسب أن يقال ان ربكم ولعل ذلك بعد ادخال ما أمر بحمله فى الفلك من الازواج كأنه قيل فحمل الازواج أو أدخلها فى الفلك وقال للمؤمنين (ارْكَبُوا فِيهَا) كما سيأتى مثله فى قوله تعالى وهى تجرى بهم والركوب العلو على شىء متحرك ويتعدى بنفسه واستعماله ههنا بكلمة فى ليس لأن المأمور به كونهم فى جوفها لا فوقها كما ظن فان أظهر الروايات أنه عليه السلام جعل الوحوش ونظائرها فى البطن الأسفل والأنعام فى الاوسط وركب هو ومن معه فى الأعلى بل لرعاية جانب المحلية والمكانية فى الفلك والسر فيه أن معنى الركوب العلو على شىء له حركة إما ارادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما فاذا استعمل فى الأول يوفر له حظ الاصل فيقال ركبت الفرس وعليه قوله عز من قائل والخيل والبغال والحمير لتركبوها وان استعمل فى الثانى يلوح بمحلية المفعول بكلمة فى فيقال ركبت فى السفينة وعليه الآية الكريمة وقوله عز قائلا فاذا ركبوا فى الفلك وقوله تعالى فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها (بِسْمِ اللَّهِ) متعلق باركبوا حال من فاعله أى اركبوا مسمين الله تعالى أو قائلين بسم الله (مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) نصب على الظرفية أى وقت اجرائها وإرسائها على أنهما اسما زمان أو مصدران كالاجراء والإرساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسما مكان انتصابهما فى بسم الله من معنى الفعل أو ارادة القول ويجوز أن يكون بسم الله مجريها ومرساها مستقلة من مبتدا وخبر فى موضع الحال من ضمير الفلك أى اركبوا فيها مجراة ومرساة باسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى ادخلوها خالدين أو جملة مقتضية على أن نوحا أمرهم بالركوب فيها ثم أخبرهم بأن اجراءها وارساءها باسم الله تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام قيل كان عليه السلام إذا أراد أن يجريها يقول بسم الله فتجرى وإذا أراد أن يرسيها يقول بسم الله فترسو ويجوز أن يكون الاسم مقحما كما فى قوله :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ويراد بالله إجراؤها وإرساؤها أى بقدرته وأمره وقرىء مجريها ومرسيها على صيغة الفاعل مجرورى المحل صفتين لله عز وجل ومجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين من جرى ورسا (إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ) للذنوب والخطايا (رَّحِيمٌ) لعباده ولذلك نجاكم من هذه الطامة والداهية العامة ولولا ذلك لما فعله وفيه دلالة على أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه ورحمته على ما عليه رأى أهل السنة (وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ) متعلق بمحذوف دل عليه الأمر بالركوب أى فركبوا فيها مسمين وهى تجرى ملتبسة بهم (فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ) وهو ما ارتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة من ذلك كجبل فى ارتفاعها وتراكمها وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كالحوت فغير ثابت والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا أو أربعين ذراعا ولئن صح ذلك فهذا الجريان إنما هو قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله تعالى (وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ) فان ذلك إنما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر إذ حينئذ يمكن جريان ما جرى بين نوح عليه الصلاة والسلام وبين ابنه من المفاوضة بالاستدعاء إلى السفينة والجواب بالاعتصام بالجبل وقرىء ابنها وابنه بحذف الألف على أن الضمير لامرأته وكان ربيبه وما يقال من أنه كان لغير رشدة لقوله تعالى فخانتاهما فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها فان جناب الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه أرفع من أن يشار اليه بأصبع الطعن وإنما المراد بالخيانة الخيانة فى الدين وقرىء ابناه على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف حرفها وأنت خبير بأنه لا يلائمه الاستدعاء إلى السفينة فانه صريح فى أنه لم يقع فى حياته يأس بعد (وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ) أى فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه واخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا واحتاج إلى النداء المذكور وقيل فى معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه إلى السفينة وقيل كان ينافق أباه فظن أنه مؤمن وقيل كان يعلم أنه كافر إلى ذلك الوقت لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الأهوال ينزجر عما كان عليه ويقبل الايمان وقيل لم يكن الذى تقدم من قوله تعالى إلا من سبق عليه القول نصاً فى كون ابنه داخلا تحته بل كان كالمجمل فحملته شفقة الأبوة على ذلك (يَٰبُنَىَّ) بفتح الياء اقتصارا عليه من الألف المبدلة من ياء الاضافة فى قولك يا بنيا وقرىء بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة أو سقطت الياء والالف لالتقاء الساكنين لان الراء بعدهما ساكنة (ارْكَبْ مَّعَنَا) قرأ أبو عمرو والكسائى وحفص بادغام الباء فى الميم لتقاربهما فى المخرج وإنما أطلق الركوب عن ذكر الفلك لتعينها وللايذان بضيق المقام حيث حال الجريض دون القريض مع اغناء المعية عن ذلك (وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَٰفِرِينَ) أى فى المكان وهو وجه الارض خارج الفلك لا فى الدين وإن كان ذلك مما يوجبه كما يوجب ركوبه معه عليه الصلاة والسلام كونه معه فى الايمان لانه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهى عن الكفر (قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ) من الجبال (يَعْصِمُنِى) بارتفاعه (مِنَ الْمَآءِ) زعما منه أن ذلك كسائر المياه فى أزمنة السيول المعتادة التى ربما يتقى منها بالصعود إلى الربا وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى وجهلا بأن ذلك إنما كان لاهلاك الكفرة وأن لا محيص من ذلك سوى الالتجاء إلى ملجأ المؤمنين فلذلك أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين له حقيقة الحال ويصرفه عن ذلك الفكر المحال وكان مقتضى الظاهر أن يجيب بما ينطبق عليه كلامه ويتعرض لنفى ما أثبته للجبل من كونه عاصما له من الماء بأن يقول لا يعصمك منه مفيدا النفى وصف العصمة عنه فقط من غير تعرض لنفيه عن غيره ولا لنفى الموصوف أصلا لكنه عليه الصلاة والسلام حيث (قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) سلك طريقة نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد العاصم ذاتا وصفة كما فى قولهم ليس فيه داع ولا مجيب أى أحد من الناس للمبالغة فى نفى كون

الجبل عاصما بالوجهين المذكورين وزاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التى تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التى ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية وعبر عن الماء فى محل اضماره بأمر الله أى عذابه الذى أشير اليه حيث قيل حتى إذا جاء أمرنا تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره وتنبيها لابنه على خطئه فى تسميته ماء ويوهم أنه كسائر المياه التى يتفصى منها بالهرب إلى بعض المهارب المعهودة وتعليلا للنفى المذكور فان أمر الله لايغالب وعذابه لايرد وتمهيدا لحصر العصمة فى جناب الله عز جاره بالاستثناء كأنه قيل لاعاصم من أمر الله إلا هو وإنما قيل (إلاَّ مَنْ رَحِمَ) تفخيما لشأنه الجليل بالابهام ثم التفسير وبالاجمال ثم التفصيل وإشعارا بعلية رحمته فى ذلك بموجب سبقها على غضبه وكل ذلك لكمال عنايته عليه الصلاة والسلام بتحقيق مايتوخاه من نجاة ابنه ببيان شأن الداهية وقطع أطماعه الفارغة وصرفه عن التعلل بما لايغنى عنه شيئا وارشاده إلى العياذ بالمعاذ الحق عز حماه وقيل لامكان يعصم من أمر الله الامكان من رحمه الله وهو الفلك وقيل معنى لاعاصم لاذا عصمة إلا من رحمه الله تعالى (وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ) أى بين نوح وبين ابنه فانقطع مابينهما من المجاوبة لا بين ابنه وبين الجبل لقوله تعالى (فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) إذ هو إنما يتفرع على حيلولة الموج بينه عليه الصلاة والسلام وبين ابنه لا بينه وبين الجبل لانه بمعزل من كونه عاصما وان لم يحل بينه وبين الملتجىء اليه موج وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه فكان ذلك أمرا مقرر الوقوع غير مفتقر إلى البيان وفى ايراد كان دون صار مبالغة فى كونه منهم (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى) أى انشفى استعير له من ازدراد الحيوان ما يأكله للدلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد التدريجى (مَاءَكِ) أى ما على وجهك من ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيها من العيون والأنهار وعبر عنه بالماء بعد ما عبر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى لأن المقام مقام النقص والتقليل لامقام التفخيم والتهويل (وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى) أى أمسكى عن ارسال المطر يقال أقلعت السماء اذا انقطع مطرها وأقلعت الحمى أى كفت (وَغِيضَ الْمَاءُ) أى نقص ما بين السماء والأرض من الماء (وَقُضِىَ الْأَمْرُ) أى أنجز ما وعد الله تعالى نوحا من اهلاك قومه وانجائه بأهله أو أتم الأمر (وَاسْتَوَتْ) أى استقرت الفلك (عَلَى الْجُودِىِّ) هو جبل بالموصل أو بالشام أو بآمل. روى أنه عليه الصلاة والسلام ركب فى الفلك فى عاشر رجب ونزل عنها فى عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكرا فصار سنة (وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أى هلاكا لهم والتعرض لوصف الظلم للاشعار بعليته للهلاك ولتذكير ما سبق من قوله تعالى ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا أنهم مغرقون ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الاعجاز قاصيتها وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى لتفصيلها المهرة المتقنون ولعمرى ان ذلك فوق مايصفه الواصفون لحرى بنا أن نوجز الكلام فى هذا الباب ونفوض الأمر إلى تأمل أولى الألباب والله عنده علم الكتاب (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ) أى أراد ذلك بدليل الفاء فى قوله تعالى (فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى) وقد وعدتنى انجاءهم فى ضمن الأمر بحملهم فى الفلك أو النداء على الحقيقة والفاء لتفصيل مافيه من الاجمال (وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ) أى وعدك ذلك أو ان كل وعد تعده حق لايتطرق اليه خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولا أوليا (وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) لانك أعلمهم وأعدلهم أو أنت أكثر حكمة من ذوى الحكم على أن الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع وهذا الدعاء منه عليه الصلاة والسلام على طريقة دعاء أيوب عليه الصلاة والسلام اذ نادى ربه انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين (قَالَ يَا نُوحُ) لما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام بتذكير وعده جل ذكره مبنيا على كون كنعان من أهله نفى أولا كونه منهم بقوله تعالى (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) أى ليس منهم أصلا لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية ولا علاقة بين المؤمن والكافر أو ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم فى الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء وعلى

التقديرين ليس هو من الذين وعد بانجائهم ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقي بقوله تعالى (إنه عمل غير صالح) أصله انه ذو عمل غير صالح فجعل نفس العمل مبالغة كما فى قول الخنساء فانما هى اقبال وادبار وايثار غير صالح على فاسد اما لأن الفاسد ربما يطلق على مافسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون نصاً فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالقتل والمظالم واما للتلويح بأن نجاة من نجا إنما هى لصلاحه وقرأ الكسائى ويعقوب انه عمل غير صالح أى عملا غير صالح ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنيا على ماذكر من اعتقاد كون كنعان من أهله وقد نفى ذلك وحقق ببيان علته فرع على ذلك النهى عن سؤال انجائه الا أنه جىء بالنهى على وجه عام يندرج فيه ذلك اندراجا أوليا فقيل (فلا تسئلن) أى إذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب منى (ما ليس لك به علم) أى مطلبا لاتعلم يقينا أن حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون ما عبارة عن المسئول الذى هو مفعول للسؤال أو طلبا لاتعلم أنه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذى هو مفعول مطلق فيكون النهى واردا بصريحه فى كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال ويجوز أن يكون المعنى ماليس لك علم بأنه صواب أو غير صواب فيكون النهى واردا فى مشتبه الحال ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الأولى وعلى التقديرين فهو عام يندرج تحته مانحن فيه كما ذكرناه وهذا كما ترى صريح فى أن نداءه عليه الصلاة والسلام ربه عز وعلا ليس استفسارا عن سبب عدم انجاء ابنه مع سبق وعده بانجاء أهله وهو منهم كما قيل فان النهى عن استفسار مالم يعلم غير موافق للحكمة إذ عدم العلم بالشىء داع إلى الاستفسار عنه لا إلى تركه بل هو دعاء منه لانجاء ابنه حين حال الموج بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد إما بتقريبه إلى الفلك بتلاطم الأمواج أو بتقريبها اليه وقيل أو بانجائه فى قلة الجبل ويأباه تذكير الوعد فى الدعاء فانه مخصوص بالانجاء فى الفلك وقوله تعالى لاعاصم اليوم من أمر الله الامن رحم ومجرد حيلولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلا عن العلم به لظهور إمكان عصمة الله تعالى إياه برحمته وقد وعد بانجاء أهله ولم يكن ابنه مجاهرا بالكفر كما ذكرناه حتى لا يجوز عليه عليه السلام أن يدعوه إلى الفلك أو يدعو ربه لانجائه واعتزاله عنه عليه الصلاة والسلام وقصده الالتجاء إلى الجبل ليس بنص فى الاصرار على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة فى الفلك وزعمه أن الجبل أيضا يجرى مجراه أو لكراهة الاحتباس فى الفلك بل قوله سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء بعد ما قال له نوح عليه الصلاة والسلام ولا تكن مع الكافرين ربما يطمعه عليه السلام فى إيمانه حيث لم يقل أكون معهم أو سناوى أو يعصمنا فان افراد نفسه بنسبة الفعلين المذكورين ربما يشعر بانفراده من الكافرين واعتزاله عنهم وامتثاله ببعض ما أمره به نوح عليه الصلاة والسلام إلا أنه عليه الصلاة والسلام لو تأمل فى شأنه حق التأمل وتفحص عن أحواله فى كل ما يأتى ويذر لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه المستثنى من أهله ولذلك قيل (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) فعبر عن ترك الأولى بذلك وقرىء فلاتسألن بغير ياء الاضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء (قال رب إنى أعوذ بك أن أسئلك) أى أطلب منك من بعد (ماليس لى به علم) أى مطلوبا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة أو طلبا لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال أو لا أعلم أنه صواب أو غير صواب على مامر وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه وإنما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة فى التوبة واظهار للرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى وهو أبلغ من أن يقول أتوب اليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمراهائلا محذورا لامحيص منه الا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره الا بذلك (وإلا تغفر لى) ما صدر عنى من السؤال المذكور (وترحمنى) بقبول توبتى (أكن من الخاسرين) أعمالا بسبب ذلك فان الذهول عن شكر الله تعالى لاسيما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة

التى هى النجاة وهلاك الأعداء والإشتغال بما لا يعنى خصوصا بمبادى خلاص من قيل فى شأنه انه عمل غير صالح والتضرع إلى الله تعالى فى أمره معاملة غير رابحة وخسران مبين وتأخير ذكر هذا النداء عن حكاية الأمر الوارد على الأرض والسماء ومايتلوه من زوال الطوفان وقضاء الأمر واستواء الفلك على الجودى والدعاء بالهلاك على الظالمين مع أن حقه أن يذكر عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين حسبما وقع فى الخارج إذ حينئذ يتصور الدعاء بالانجاء لابعد العلم بالهلاك ليس لما قيل من استقلاله بغرض مهم هو جعل قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن لايقدم فى الأمور الدينية الاصولية الابعد اليقين قياسا على ماوقع فى قصة البقرة من تقديم ذكر الأمر بذبحها على ذكر القتيل الذى هو أول القصة وكان حقها أن يقال وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها كما قرر فى موضعه فان تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتهم المتنوعة وتثنية التقريع عليهم بكل نوع على حدة فقوله تعالى وإذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة الخ لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى وإذ قتلتم نفسا الخ للتقريع على قتل النفس المحرمة ومايتبعه من الأمور العظيمة ولو قصت القصة على ترتيبها لفات الغرض الذى هو تثنية التقريع ولظن أن المجموع تقريع واحد وأما مانحن فيه فليس مما يمكن أن يراعى فيه مثل تلك النكتة أصلا وما ذكر من جعل القرابة الدينية غامرة للقرابة النسبية الخ لايفوت على تقدير سوق الكلام على ترتيب الوقوع أيضا بل لأن ذكر هذا النداء كما ترى مستدع لذكر مامر من الجواب المستدعى لذكر مامر من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدى ذكرها إلى ذكر قبولها فى ضمن الأمر الوارد بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركات الفائضة عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجىء مفصلا ولا ريب فى أن هذه المعانى آخذ بعضها بحجزة بعض بحيث لايكاد يفرق الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضها من بعض وأن ذلك إنما يتم بتمام القصة ولا ريب أن ذلك إنما يكون بتمام الطوفان فلاجرم اقتضى الحال ذكر تمامها قبل هذا النداء وذلك إنما يكون عند ذكر كون كنعان من المغرقين ولهذه النكتة ازداد حسن موقع الايجاز البليغ وفيه فائدة أخرى هى التصريح بهلاكه من أول الأمر ولو ذكر النداء الثانى عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين لربما توهم من أول الأمر إلى أن يرد قوله انه ليس من أهلك أنه ينجو بدعائه عليه الصلاة والسلام فنص على هلاكه من أول الأمر ثم ذكر الأمر الوارد على الأرض والسماء الذى هو عبارة عن تعلق الارادة الربانية الازلية بما ذكر من الغيض والاقلاع وبين بلوغ أمر الله محله وجريان قضائه ونفوذ حكمه عليهم بهلاك من هلك ونجاة من نجا بتمام ذلك الطوفان واستواء الفلك على الجودى فقصت القصة إلى هذه المرتبة وبين ذلك أى بيان ثم تعرض لما وقع فى تضاعيف ذلك بما جرى بين نوح عليه السلام وبين رب العزة جلت حكمته فذكر بعد توبته عليه الصلاة والسلام قبولها بقوله (قِيلَ يَٰنُوحُ اهْبِطْ) أى انزل من الفلك وقرىء بضم الباء (بِسَلَٰمٍ) ملتبسا بسلامة من المكاره كائنة (مِنَّا) أو بسلام وتحية منا عليك كما قال سلام على نوح فى العالمين (وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ) أى خيرات نامية فى نسلك ومايقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الارزاق وقرىء بركة وهذا اعلام وبشارة من الله تعالى بقبول توبته وخلاصه من الخسران بفيضان أنواع الخيرات عليه فى كل ما يأتى ومايذر (وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ) ناشئة (مِّمَّن مَّعَكَ) إلى يوم القيامة متشعبة منهم فمن ابتدائية والمراد الامم المؤمنة المتناسلة ممن معه إلى يوم القيامة (وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ) أى ومنهم على أنه خبر حذف لدلالة ما سبق عليه فان ايراد الامم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على أن بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم يعنى ليس جميع من تشعب منهم مسلما ومباركا عليه بل منهم أمم ممتعون فى الدنيا معذبون فى الآخرة وعلى هذا لا يكون الكائنون مع نوح عليه السلام مسلما ومباركا

عليهم صريحا وإنما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص ويجوز أن تكون من بيانية أى وعلى أمم هم الذين معك وانما سموا أمما لأنهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة أو لأن جميع الأمم إنما تشعبت منهم فحينئذ يكون المراد بالأمم المشار اليهم فى قوله تعالى وأمم سنمتعهم بعض الأمم المتشعبة منهم وهى الأمم الكافرة المتناسلة منهم إلى يوم القيامة ويبقى أمر الأمم المؤمنة الناشئة منهم مبهما غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك ففى دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء لأن من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية أو ابتدائية فتأمل (ثُمَّ يَمَسُّهُمْ) اما فى الآخرة أو فى الدنيا أيضا (مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) عن محمد بن كعب القرظى دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وعن ابن زيد هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل المراد بالأمم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وبالعذاب ما نزل بهم (تِلْكَ) إشارة إلى ما قص من قصة نوح عليه الصلاة والسلام إما لكونها بتقضيها فى حكم البعيد أو للدلالة على بعد منزلتها وهى مبتدأ خبره (مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ) أى من جنسها أى ليست من قبيل سائر الأنبياء بل هى نسيج وحدها منفردة عما عداها أو بعضها (نُوحِيهَا إِلَيْكَ) خبر ثان والضمير لها أى موحاة اليك أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة أو حال من أنباء الغيب أى موحاة اليك (مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ) خبر آخر أى مجهولة عندك وعند قومك (مِنْ قَبْلِ هَذَا) أى من قبل ايحائنا اليك واخبارك بها أو من قبل هذا العلم الذى كسبته بالوحى أو من قبل هذا الوقت أو حال من الهاء فى نوحيها أو الكاف فى اليك أى جاهلا أنت وقومك بها وفى ذكر جهلهم تنبيه على أنه عليه الصلاة والسلام لم يتعلمه إذ لم يخالط غيرهم وانهم مع كثرتهم لما لم يعلموه فكيف بواحد منهم (فَاصْبِرْ) متفرع على الايحاء أو العلم المستفاد منه المدلول عليه بقوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا أى وإذ قد أوحيناها اليك أو علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح على ما سمعته من أنواع البلايا فى هذه المدة المتطاولة وهذا ناظر إلى ما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك الخ (إِنَّ الْعَاقِبَةَ) بالظفر فى الدنيا وبالفوز فى الآخرة (لِلْمُتَّقِينَ) كما شاهدته فى نوح عليه الصلاة والسلام وقومه ولك فيه أسوة حسنة فهى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليل للأمر بالصبر فان كون العاقبة الحميدة للمتقين وهو فى أقصى درجات التقوى والمؤمنون كلهم متقون مما يسليه عليه الصلاة والسلام ويهون عليه الخطوب ويذهب عنه ما عسى يعتريه من ضيق صدره وهذا على تقدير أن يراد بالتقوى الدرجة الأولى منه أعنى التوقى من العذاب المخلد بالتبرؤ من الشرك وعليه قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى ويجوز أن يراد الدرجة الثالثة منه وهى أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل اليه بشراشره وهو التقوى الحقيقى المطلوب بقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته فان التقوى بهذا المعنى منطو على الصبر المذكور فكأنه قيل فاصبر فان العاقبة للصابرين (وَإِلَى عَادٍ) متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا فى قصة نوح وهو الناصب لقوله تعالى (أَخَاهُمْ) أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم أى واحدا منهم فى النسب كقولهم يا أخا العرب وتقديم المجرور على المنصوب ههنا للحذار عن الإضمار قبل الذكر وقيل متعلق بالفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا وقد مر فى سورة الأعراف وقوله تعالى (هُودًا) عطف بيان لأخاهم وكان عليه الصلاة والسلام من جملتهم فانه هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود ابن العوص بن ارم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هو هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن عم أبى عاد وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله وأرغب فى اقتفائه (قَالَ) لما كان ذكر إرساله عليه الصلاة والسلام اليهم مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم اليه أجيب عنه بطريق الاستئناف فقيل قال (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ) أى وحده كما ينبئ

عنه قوله تعالى (ما لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غيرُهُ) فانه استئناف يجرى مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل للأمر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئا إذ ليس لكم من إله سواه وغيره بالرفع صفة لإله باعتبار محله وقرىء بالجر حملا له على لفظه (إنْ أنتمْ) ما أنتم باتخاذكم الأصنام شركاء له أو بقولكم ان الله أمرنا بعبادتها (إلا مُفْتَرُونَ) عليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا (يقومْ لا أسْئلُكُمْ عَلَيْهِ أجراً إنْ أجرىَ إلا عَلَى الذى فطَرَنى) خاطب به كل نبى قومه ازاحة لما عسى يتوهمونه وامحاضا للنصيحة فانها ما دامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير وإيراد الموصول للتفخيم وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذى لا يتأتى إلا بالجريان على موجب أمره الغالب معرضا عن المطالب الدنيوية التى من جملتها الأجر (أفلا تعقِلونَ) أى أتغفلون عن هذه القضية أو ألا تتفكرون فيها فلا تعقلونها أو أتجهلون كل شىء فلا تعقلون شيأ أصلا فان هذا مما لا ينبغى أن يخفى على أحد من العقلاء (وَيقومْ استغفِروا ربكمْ) أى اطلبوا مغفرته لما سلف منكم من الذنوب بالإيمان والطاعة (ثمّ توبُوا إليهِ) أى توسلوا اليه بالتوبة وأيضا التبرؤ من الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده (يرْسِلِ السَّماءَ) أى المطر (عليكُمْ مِدْراراً) أى كثير الدرور (وَيَزِدْكُمْ قوَّةً) مضافة ومنضمة (إلىٰ قوَّتكمْ) أى يضاعفها لكم وإنما رغبهم بكثرة المطر لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات وقيل حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم عليه الصلاة والسلام كثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل على الايمان والتوبة (وَلا تتوَلّوْا) أى لا تعرضوا عما دعوتكم اليه (مجْرِمينَ) مصرين على ما كنتم عليه من الإجرام (قالوُا يٰهُودُ ما جئتَنا ببيِّنةٍ) أى بحجة تدل على صحة دعواك وإنما قالوه لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات الفائتة للحصر (ومَا نحنُ بتاركِى ءَالهتِنا) أى بتاركى عبادتها (عَنْ قوْلِكَ) أى صادرين عنه أى صادرا تركنا عن ذلك باسناد حال الوصف إلى الموصوف ومعناه التعليل على أبلغ وجه لدلالته على كونه علة فاعلية ولا يفيده الباء واللام وهذا كقولهم المنقول عنهم فى سورة الأعراف أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا (وَما نحنُ لكَ بمؤْمِنينَ) أى بمصدقين فى شىء مما تأتى وتذر فيندرج تحته ما دعاهم اليه من التوحيد وترك عبادة الآلهة وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة وتجاوز الحد فى العتو ما لا يخفى (إنْ نقولُ إلا اعتراكَ) أى ما نقول إلا قولنا اعتراك أى أصابك (بعضُ ءَالهتِنا بسُوءٍ) بجنون لسبك إياها وصدك عن عبادتها وحطك لها عن رتبة الألوهية والمعبودية بما مر من قولك ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون والتنكير فى سوء للتقليل كأنهم لم يبالغوا فى السوء كما ينبىء عنه نسبة ذلك إلى بعض آلهتهم دون كلها والجملة مقول القول وإلا لغو لأن الاستثناء مفرغ وهذا الكلام مقرر لما مر من قولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين فان اعتقادهم بكونه عليه الصلاة والسلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله وعده من قبيل الخرافات فضلا عن التصديق والعمل بمقتضاه يعنون انا لا نعد كلامك إلا من قبيل ما لا يحتمل الصدق والكذب من الهذيانات الصادرة عن المجانين فكيف نصدقه ونؤمن به ونعمل بموجبه ولقد سلكوا فى طريقة المخالفة والعناد إلى سبيل الترقى من الأدنى إلى الأعلى حيث أخبروا أولا عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به عليه الصلاة والسلام حجة فى نفسه وإن لم تكن واضحة الدلالة على المراد وثانيا عن ترك الامتثال بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك مع إمكان تحقق ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام فى كلامه ثم نفوا تصديقهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن لك بمؤمنين مع كون كلامه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديق ثم نفوا عنه تلك

المرتبة أيضا حيث قالوا ما قالوا قاتلهم الله أنى يؤفكون (قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه) أي من اشراككم من دون الله أي من غير أن ينزل به سلطانا كما قال في سورة الأعراف أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان أو مما تشركونه من آلهة غير الله أجاب به عن مقالتهم الحمقاء المبنية على اعتقاد كون آلهتهم مما يضر أو ينفع وأنها بمعزل من ذلك ولما كان ما وقع أولا منه عليه الصلاة والسلام في حق آلهتهم من كونها بمعزل عن الألوهية إنما وقع في ضمن الأمر بعبادة الله تعالى واختصاصه بها وقد شق عليهم ذلك وعدوه مما يورث شينا حتى زعموا أنها تصيبه عليه الصلاة والسلام بسوء مجازاة لصنيعه معها صرح عليه الصلاة والسلام بالحق وصدع به حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدرة بان وأشهد الله على ذلك وأمرهم بأن يسمعوا ذلك ويشهدوا به استهانة بهم ثم أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعا دون بعض منها حسبما يشعر به قولهم بعض آلهتنا والتعاون في إيصال الكيد اليه عليه الصلاة والسلام ونهاهم عن الانظار والامهال في ذلك فقال (فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون) أي إن صح ما لوحتم به من كون آلهتكم مما يقدر على إضرار من ينال منها أو يصد عن عبادتها ولو بطريق ضمني فاني بريء منها فكونوا أنتم معها جميعا وباشروا كيدي ثم لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا وعلى البراءة كليهما وهذا من أعظم المعجزات فانه عليه الصلاة والسلام كان رجلا مفردا بين الجم الغفير والجمع الكثير من عتاة عاد الغلاظ الشداد وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على مباشرة مبادي المضادة والمضارة وحثهم على التصدي لأسباب المعازة والمعارة فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهورا بينا كيف لا وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال (إني توكلت على الله ربي وربكم) يعني إنكم وإن بذلتم في مضارتي مجهودكم لا تقدرون على شيء مما تريدون بي فاني متوكل على الله تعالى وإنما جيء بلفظ الماضي لكونه أدل على الانشاء المناسب للمقام وواثق بكلاءتي وحفظي عن غوائلكم وهو مالكي ومالككم لا يصدر عنكم شيء ولا يصيبني أمر إلا بارادته ومشيئته ثم برهن عليه بقوله (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) أي إلا هو مالك لها قادر عليها يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه فان الأخذ بالناصية تمثيل لذلك (إن ربي على صراط مستقيم) تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على إضراره أي هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم علي إذ لا يضيع عنده معتصم ولا يفتات عليه ظالم والاقتصار على إضافة الرب إلى نفسه إما بطريق الاكتفاء لظهور المراد وإما لأن فائدة كونه تعالى مالكا لهم أيضا راجعة اليه عليه الصلاة والسلام (فإن تولوا) أي تتولوا بحذف إحدى التاءين أي ان تستمروا على ما كنتم عليه من التولي والاعراض (فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) أي لم أعاتب على تفريط في الابلاغ وكنتم محجوجين بأن بلغكم الحق فأبيتم إلا التكذيب والجحود (ويستخلف ربي قوما غيركم) استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف في ديارهم وأموالهم قوما آخرين أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه بالجزم عطفا على الموضع كأنه قيل فان تولوا يعذرني ويهلككم ويستخلف مكانكم آخرين وفي اقتصار اضافة الرب عليه عليه السلام رمز إلى اللطف به والتدمير للمخاطبين (ولا تضرونه) بتوليكم (شيئا) من الضرر لاستحالة ذلك عليه ومن جزم ويستخلف أسقط منه النون (إن ربي على كل شيء حفيظ) أي رقيب مهيمن فلا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم بحسبها أو حافظ مستول على كل شيء فكيف يضره شيء وهو الحافظ للكل (ولما جاء أمرنا) أي نزل عذابنا وفي التعبير عنه بالأمر مضافا إلى ضميره جل جلاله وعن نزوله بالمجيء ما لا يخفى من التفخيم والتهويل أو ورد أمرنا بالعذاب (نجينا هودا والذين

ءَامَنُوا مَعَهُ) وكانوا أربعة آلاف (برَحمة) عظيمة كائنة لهم (منَّا) وهي الايمان الذي أنعمنا به عليهم بالتوفيق له والهداية اليه (ونجيناهُم من عذاب غليظ) أي كانت تلك التنجية تنجية من عذاب غليظ وهي السموم التي كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم إربا إربا وقيل أريد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه وأشد وهذه التنجية وإن لم تكن مقيدة بمجيء الأمر لكن جيء بها تكملة للنعمة عليهم وتعريضا بأن المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ (وتلكَ عادٌ) أنث اسم الاشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم (جَحَدُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ) كفروا بها بعدما استيقنوها (وعَصَوْا رُسُلَهُ) جمع الرسل مع أنه لم يرسل اليهم غير هود عليه الصلاة والسلام تفظيعا لحالهم وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم ببيان أن عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لا نفرق بين أحد من رسله فيجوز أن يراد بالآيات ما أتى به هود وغيره من الأنبياء عليهم السلام وفيه زيادة ملاءمة لما تقدم من جميع الآيات وما تأخر من قوله (واتَّبَعُوا أمْرَ كلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) من كبرائهم ورؤسائهم الدعاة إلى الضلال وإلى تكذيب الرسل فكأنه قيل عصوا كل رسول واتبعوا أمر كل جبار وهذا الوصف ليس كما سبق من جحود الآيات وعصيان الرسل في الشمول لكل فرد فرد منهم فان الاتباع للأمر من أوصاف الأسافل دون الرؤساء وعنيد فعيل من عند عند وعند إذا طغا والمعنى عصوا من دعاهم إلى الهدى وأطاعوا من حداهم إلى الردى (وأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنيا لعْنَةً) إبعاداً عن الرحمة وعن كل خير أي جعلت اللعنة لازمة لهم وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة فكأنها لا تفارقهم وان ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولوقوعه في صحبة اتباعهم رؤساءهم يعني أنهم لما اتبعوهم اتبعوا ذلك جزاء لصنيعهم جزاء وفاقا (ويَومَ القِيامَةِ) أي اتبعوا يوم القيامة أيضا لعنة وهي عذاب النار المخلد حذفت لدلالة الأولى عليها وللايذان بكون كل من اللعنتين نوعا برأسه لم يجتمعا في قرن واحد بأن يقال وأتبعوا في هذه الدنيا ويوم القيامة لعنة كما في قوله تعالى واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إيذانا باختلاف نوعي الحسنتين فان المراد بالحسنة الدنيوية نحو الصحة والكفاف والتوفيق للخير وبالحسنة الأخروية الثواب والرحمة (ألا إنّ عاداً كفَرُوا رَبَّهُمْ) أي بربهم أو نعمة ربهم حملا له على نقيضه الذي هو الشكر أو جحدوه (ألا بُعْداً لِعَادٍ) دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أي هلاك تسجيلا عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب الدمار وتكرير حرف التنبيه وإعادة عاد للمبالغة في تفظيع حالهم والحث على الاعتبار بقصتهم (قومِ هُودٍ) عطف بيان لعاد فائدته التمييز عن عاد الثانية عاد ارم والإيماء الى أن استحقاقهم للبعد بسبب ما جرى بينهم وبين هود عليه الصلاة والسلام وهم قومه (وَإلى ثَمُودَ أخاهُمْ صَالحاً) عطف على ما سبق من قوله تعالى وإلى عاد أخاهم هودا وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن ارم بن سام وقيل إنما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابن عبيد بن اسف بن ماشج ابن عبيد بن جادر بن ثمود ولما كان الاخبار بارساله اليهم مظنة لأن يسأل ويقال ماذا قال لهم قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف (قالَ يَقَوْمِ اعبُدوا اللهَ) أي وحده وعلل ذلك بقوله (مَالَكُمْ من إلٰهٍ غَيرُهُ) ثم زيد فيما يبعثهم على الإيمان والتوحيد ويحثهم على زيادة الإخلاص فيه بقوله (هوَ أنشأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ) أي هو كونكم وخلقكم منها لا غيره قصر قلب أو قصر افراد فان خلق آدم عليه الصلاة والسلام منها خلق لجميع أفراد البشر منها لما مر مرارا من أن خلقته عليه الصلاة والسلام لم تكن مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على خلق جميع ذرياته التي ستوجد إلى يوم القيامة انطواء اجماليا وقيل إن خلق آدم عليه الصلاة والسلام وإنشاء مواد النطف التي منها خلق نسله من التراب

انشاء لجميع الخلق من الأرض فتدبر (واستعمركم) من العمر أى عمركم واستبقاكم (فيها) أو من العمارة أى أقدركم على عمارتها أو أمركم بها وقيل هو من العمرى بمعنى أعمركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لمثلكم (فاستغفروه ثم توبوا إليه) فان ما فصل من فنون الاحسان داع إلى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح وقد زيد فى بيان ما يوجب ذلك فقيل (إن ربى قريب) أى قريب الرحمة كقوله تعالى إن رحمة الله قريب من المحسنين (مجيب) لمن دعاه وسأله وقد روعى فى النظم الكريم نكتة حيث قدم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الأمر بالاستغفار والتوبة وأخر عنه ذكر الغائية المتأخرة عنهما فى الوجود أعنى الاجابة (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا) أى كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد أن تكون لنا سيدا أو مستشارا فى الأمور وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فاضلا خيرا نقدمك على جميعنا وقيل كنا نرجو أن تدخل فى ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه (قبل هذا) الذى باشرته من الدعوة إلى التوحيد وترك عبادة الآلهة أو قبل هذا الوقت فكأنهم لم يكونوا إلى الآن على يأس من ذلك ولو بعد الدعوة إلى الحق فالآن قد انصرم عنك رجاؤنا وقرأ طلحة مرجوءا بالمد والهمزة (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) أى عبدوه والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (وإننا لفى شك مما تدعونا إليه) من التوحيد وترك عبادة الاوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة (مريب) أى موقع فى الريبة من أرابه أى أوقعه فى الريبة أى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة أو من أراب إذا كان ذا ريبة وأيهما كان فالاسناد مجازى والتنوين فيه وفى شك للتفخيم (قال يا قوم أرأيتم) أى أخبرونى (إن كنت) فى الحقيقة (على بينة) أى حجة ظاهرة وبرهان وبصيرة (من ربى) مالكى ومتولى أمرى (وآتانى منه) من جهته (رحمة) نبوة وهذه الأمور وإن كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا لحال المخاطبين ورعاية لحسن المحاورة لاستنزالهم عن المكابرة (فمن ينصرنى من الله) أى ينجينى من عذابه والعدول إلى الاظهار لزيادة التهويل والفاء لترتيب انكار النصرة على ما سبق من ايتاء النبوة وكونه على بينة من ربه على تقدير العصيان حسبما يعرب عنه قوله تعالى (إن عصيته) أى بالمساهلة فى تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون فان العصيان ممن ذلك شأنه أبعد والمؤاخذة عليه ألزم وانكار نصرته أدخل (فما تزيدوننى) اذن باستتباعكم اياى كما ينبىء عنه قولهم قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أى لا تفيدوننى إذ لم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه (غير تخسير) أى غير أن تجعلونى خاسرا بابطال أعمالى وتعريضى لسخط الله تعالى أو فما تزيدوننى بما تقولون غير أن أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم إنكم لخاسرون فالزيادة على معناه والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من انكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه وإيتائه النبوة (ويا قوم هذه ناقة الله) الاضافة للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر ما يجانسها من حيث الخلقة ومن حيث الخلق (لكم آية) معجزة دالة على صدق نبوتى وهى حال من ناقة الله والعامل ما فى هذه من معنى الفعل ولكم حال من آية متقدمة عليها لكونها نكرة ولو تأخرت لكانت صفة لها ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أو عطف بيان ولكم خبرا وعاملا فى آية (فذروها) خلوها وشأنها (تأكل فى أرض الله) ترع نباتها وتشرب ماءها واضافة الأرض إلى الله تعالى لتربية استحقاقها لذلك وتعليل الأمر بتركها وشأنها (ولا تمسوها بسوء) بولغ فى النهى عن التعرض لها بما يضرها حيث نهى عن المس الذى هو من مبادى الاصابة ونكر السوء أى لا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوها بشىء من السوء فضلا عن عقرها وقتلها (فيأخذكم عذاب قريب) أى قريب النزول . روى أنهم طلبوا منه أن يخرج من صخرة تسمى الكاتبة ناقة عشراء

مخترجة جوفاء وبراء وقالوا ان فعلت ذلك صدقناك فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام عليهم مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء كما وصفوا وهم ينظرون ثم أنتجت ولداً مثلها فى العظم فآمن به جندع بن عمرو فى جماعة ومنع الباقين من الإيمان دواب بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم ورباب كاهنهم فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبا فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل مافيها ثم تتفحج فيحلبون ماشاؤا حتى تمتلىء أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق عليهم ذلك (فعقروها) قيل زينت عقرها لهم عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار فعقروها واقتسموا لحمها فرقى سقبها جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا فقال صالح لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها (فقال) لهم صالح (تمتعوا) أى عيشوا (فى داركم) أى فى منازلكم أو فى الدنيا (ثلاثة أيام) قيل قال لهم تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب (ذلك) إشارة الى مايدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقيبها والمراد بما فيه من معنى البعد تفخيمه (وعد غير مكذوب) أى غير مكذوب فيه فحذف الجار للاتساع المشهور كقوله: ويوم شهدناه سليما وعامراً أو غير مكذوب كأن الواعد قال له أفى بك فان وفى به صدقه وإلا كذبه أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول (فلما جاء أمرنا) أى عذابنا أو أمرنا بنزوله وفيه مالايخفى من التهويل (نجينا صالحاً والذين آمنوا معه) متعلق بنجينا أو بآمنوا (برحمة) بسبب رحمة عظيمة (منا) وهى بالنسبة إلى صالح النبوة والى المؤمنين الإيمان كما مر أو ملتبسين برحمة ورأفة منا (ومن خزى يومئذ) أى ونجيناهم من خزى يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ على معنى أنه كانت تلك التنجية تنجية من خزى يومئذ أى من ذلته ومهانته أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة كما فسر به العذاب الغليظ فيما سبق فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا اياهم من عذاب الدنيا وعن نافع بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف اليه هنا وفى المعارج فى قوله تعالى من عذاب يومئذ وقرىء بالتنوين ونصب يومئذ (إن ربك) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (هو القوى العزيز) القادر على كل شىء والغالب عليه لاغيره ولكون الاخبار بتنجية الأولياء لاسيما عند الانباء بحلول العذاب أهم ذكرها أولا ثم أخبر بهلاك الأعداء فقال (وأخذ الذين ظلموا) عدل عن المضمر إلى المظهر تسجيلا عليهم بالظلم وإشعارا بعليته لنزول العذاب بهم (الصيحة) أى صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء فى الأرض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وفى سورة الأعراف فأخذتهم الرجفة ولعلها وقعت عقيب الصيحة المستتبعة لتموج الهواء (فأصبحوا) أى صاروا (فى ديارهم) أى بلادهم أو مساكنهم (جاثمين) هامدين موتى لايتحركون والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب وحركة كما يكون ذلك عند الموت المعتاد ولايخفى مافيه من الدلالة على شدة الأخذ وسرعته اللهم إنا نعوذ بك من حلول غضبك. قيل لما رأوا العلامات التى بينها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا الى قتله عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنطوا وتكفنوا بالانطاع فأتتهم الصيحة فتقطعت قلوبهم فهلكوا (كأن لم يغنوا) أى كأنهم لم يقيموا (فيها) فى بلادهم أو فى مساكنهم وهو فى موقع الحال أى أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم فى مقام قط (ألا إن ثمودا) وضع موضع الضمير لزيادة البيان ونونه أبو بكر هنا وفى النجم وقرأ حفص هنا وفى الفرقان والعنكبوت بغير تنوين

(كَفَرُوا رَبَّهُمْ) صرح بكفرهم مع كونه معلوما مما سبق من أحوالهم تقبيحا لحالهم وتعليلا لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاك فى قوله تعالى (أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ) وقرأ الكسائى بالتنوين (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ) وهم الملائكة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم جبريل وملكان وقيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن محمد بن كعب جبريل ومعه سبعة وعن السدى أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل كانوا اثنى عشر ملكا وإنما أسند اليهم مطلق المجىء بالبشرى دون الإرسال لأنهم لم يكونوا مرسلين اليه عليه السلام بل إلى قوم لوط لقوله تعالى انا أرسلنا إلى قوم لوط وإنما جاؤه لداعية البشرى ولما كان المقصود فى السورة الكريمة ذكر سوء صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسلة إليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذاب بل إنما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الأسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى وإلى عاد أخاهم هودا وإلى ثمود أخاهم صالحا ثم رجع اليه حيث قيل وإلى مدين أخاهم شعيبا (بِالْبُشْرَى) أى ملتبسين بها قيل هى مطلق البشرى المنتظمة للبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى فبشرناها باسحق الآية وقوله تعالى وبشرناه بغلام حليم وقوله وبشروه بغلام عليم وللبشارة بعدم لحوق الضرر به لقوله تعالى فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى لظهور تفرع المجادلة على مجيئها كما سيأتى وقيل هى البشارة بهلاك قوم لوط ويأباه مجادلته عليه الصلاة والسلام فى شأنهم والأظهر أنها البشارة بالولد وستعرف سر تفرع المجادلة على ذلك لما كان الاخبار بمجيئهم بالبشرى مظنة لسؤال السامع بأنهم ماقالوا أجيب بأنهم (قَالُوا سَلَامًا) أى سلمنا أو نسلم عليك سلاما ويجوز أن يكون نصبه بقالوا أى قالوا قولا ذا سلام أو ذكروا سلاما (قَالَ سَلَامٌ) أى عليكم سلام أو سلام عليكم حياهم بأحسن من تحيتهم وقرىء سلم كحرم فى حرام وقرأ ابن أبى عبلة قال سلاما وعنه أنه قرأ بالرفع فيهما (فَمَا لَبِثَ) أى ابراهيم (أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ) أى فى المجىء به أو ما لبث مجيئه بعجل (حَنِيذٍ) أى مشوى بالرضف فى الاخدود وقيل سمين يقطر ودكه لقوله بعجل سمين من حنذت الفرس إذا عرقته بالجلال (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ) لايمدون اليه أيديهم للأكل (نَكِرَهُمْ) أى أنكرهم يقال نكره وأنكره واستنكره بمعنى وإنما أنكرهم لأنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجىء بخير وقد روى أنهم كانوا ينكتون بقداح كانت فى أيديهم فى اللحم ولا تصل إليه أيديهم وهذا الانكار منه عليه الصلاة والسلام راجع إلى فعلهم المذكور وأما انكاره المتعلق بأنفسهم فلا تعلق له برؤية عدم أكلهم وإنما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونهم من جنس ما كان يعهده من الناس ألا يرى إلى قوله تعالى فى سورة الذاريات سلام قوم منكرون (وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ) أى أحس أو أضمر من جهتهم (خِيفَةً) لما ظن أن نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه أو لتعذيب قومه وإنما أخر المفعول الصريح عن الظرف لأن المراد الاخبار بأنه عليه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم شيئا هو الخيفة لا أنه أوجس الخيفة من جهتهم لا من جهة غيرهم وتحقيقه أن تأخير ماحقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (قَالُوا لَا تَخَفْ) ماقالوه بمجرد مارأوا منه مخايل الخوف إزالة له منه بل بعد اظهاره عليه الصلاة والسلام له قال تعالى فى سورة الحجر قال انا منكم وجلون ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بذلك (إِنَّا أُرْسِلْنَا) ظاهره أنه استئناف فى معنى التعليل للنهى المذكور كما أن قوله تعالى انا نبشرك تعليل لذلك فان ارسالهم إلى قوم آخرين يوجب أمنهم من الخوف أى أرسلنا بالعذاب (إِلَى قَوْمِ لُوطٍ) خاصة إلا أنه ليس كذلك فان قوله تعالى قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا إلى قوم مجرمين صريح فى أنهم قالوه جوابا عن سؤاله عليه الصلاة والسلام وقد أوجز الكلام اكتفاء بذلك (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ) وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم أو على رؤسهم للخدمة حسبما هو المعتاد والجملة حال

من ضمير قالوا أى قالوه وهى قائمة تسمع مقالتهم (فَضَحِكَتْ) سروراً بزوال الخوف أو بهلاك أهل الفساد أو بهما جميعاً وقيل بوقوع الأمر حسبما كانت تقول فيما سلف فإنها كانت تقول لابراهيم اضمم اليك لوطاً فانى أرى أن العذاب نازل بهؤلاء القوم وقيل ضحكت حاضت ومنه ضحكت الشجرة إذا سال صمغها وهو بعيد وقرىء بفتح الحاء (فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ) أى عقبنا سرورها بسرور أتم منه على ألسنة رسلنا (وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) بالنصب على أنه مفعول لما دل عليه قوله بشرناها أى ووهبنا لها من وراء اسحق يعقوب وقرىء بالرفع على الابتداء خبره الظرف أى من بعد اسحق يعقوب مولود أو موجود وكلا الاسمين داخل فى البشارة كيحيى أو واقع فى الحكاية بعد أن ولدا فسميا بذلك وتوجيه البشارة ههنا اليها مع أن الأصل فى ذلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقد وجهت اليه حيث قيل وبشرناه بغلام حليم وبشروه بغلام عليم للايذان بأن ما بشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد (قَالَتْ) استئناف وردجوابا عن سؤال من سأل وقال فما فعلت إذ بشرت بذلك فقيل قالت (يَا وَيْلَتَى) أصل الويل الخزى ثم شاع فى كل أمر فظيع والألف مبدلة من ياء الإضافة كما فى يا لهفا ويا عجبا وقرأ الحسن على الأصل وأمالها أبو عمرو وعاصم فى رواية ومعناه يا ويلتى احضرى فهذا أوان حضورك وقيل هى ألف الندبة ويوقف عليها بهاء السكت (ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ) بنت تسعين أو تسع وتسعين سنة (وَهَـٰذَا) الذى تشاهدونه (بَعْلِى) أى زوجى وأصل البعل القائم بالأمر (شَيْخاً) وكان ابن مائة وعشرين سنة ونصبه على الحال والعامل معنى الإشارة وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى هو شيخ أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وبعلى بدل من اسم الإشارة أو بيان له وكلتا الجملتين وقعت حالا من الضمير فى أألد لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليله أى أألد وكلانا على حالة منافية لذلك وإنما قدمت بيان حالها على بيان حاله عليه الصلاة والسلام لأن مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر إذ ربما يولد للشيوخ من الشواب أما العجائز داؤهن عقام ولأن البشارة متوجهة اليها صريحا ولأن العكس فى البيان ربما يوهم من أول الأمر نسبة المانع من الولادة إلى جانب ابراهيم عليه الصلاة والسلام وفيه ما لا يخفى من المحذور واقتصارها الاستبعاد على ولادتها من غير تعرض لحال النافلة لأنها المستبعد وأما ولادة ولدها فلا يتعلق بها استبعاد (إِنَّ هَـٰذَا) أى ما ذكر من حصول الولد من هرمين مثلنا (لَشَىْءٌ عَجِيبٌ) بالنسبة إلى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده وهذه الجملة لتعليل الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيقى ومقصدها استعظام نعمة الله تعالى عليها فى ضمن الاستعجاب العادى لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه وتعالى (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) أى قدرته وحكمته أو تكوينه أو شأنه أنكروا عليها تعجبها من ذلك لأنها كانت ناشئة فى بيت النبوة ومهبط الوحى والآيات ومظهر المعجزات والأمور الخارقة للعادات فكان حقها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء من أمثال هذه الخوارق من ألطاف الله تعالى الخفية ولطائف صنعه الفائضة على كل أحد مما يتعلق بذلك مشيئته الأزلية لا سيما على أهل بيت النبوة الذين ليست مرتبتهم عند الله سبحانه كمراتب سائر الناس وأن تسبح الله تعالى وتحمده وتمجده وإلى ذلك أشاروا بقوله تعالى (رَحْمَتُ اللَّهِ) التى وسعت كل شىء واستتبعت كل خير وإنما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها (وَبَرَكَاتُهُ) أى خيراته النامية المتكاثرة فى كل باب التى من جملتها هبة الأولاد وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بنى اسرائيل لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد ابراهيم عليه الصلاة والسلام (عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) نصب على المدح أو الاختصاص لأنهم أهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى جمع المذكر لتعميم حكمه لابراهيم عليه الصلاة والسلام أيضا ليكون جوابهم لها جوابا له أيضا ان خطر بباله مثل ما خطر ببالها والجملة كلام مستأنف علل به

إنكار تعجبها كأنه قيل ليس المقام مقام التعجب فان الله تعالى على كل شيء قدير ولستم بأهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف بل رحمته المستتبعة لكل خير الواسعة لكل شيء وبركاته أي خيراته النامية الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم (إنه حميد) فاعل ما يستوجب الحمد (مجيد) كثير الخير والاحسان إلى عباده والجملة لتعليل ماسبق من قوله رحمة الله وبركاته عليكم (فلما ذهب عن إبراهيم الروع) أي ما أوجس منهم من الخفية واطمأن قلبه بعرفانهم وعرفان سبب مجيئهم والفاء لربط بعض أحوال ابراهيم عليه الصلاة والسلام ببعض غب انفصالها بما ليس بأجنبي من كل وجه بل له مدخل تام فى السباق والسياق وتأخير الفاعل عن الظرف لأنه مصب الفائدة فان بتأخير ماحقه التقديم تبقى النفس منتظرة إلى وروده فيتمكن فيها عند وروده اليها فضل تمكن (وجاءته البشرى) ان فسرت البشرى بقولهم لاتخف فسببية ذهاب الخوف ومجيء السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى (يجادلنا فى قوم لوط) أي جادل رسلنا فى شأنهم وعدل إلى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها أو طفق يجادلنا ظاهرة وأما ان فسرت ببشارة الولد أو بما يعمها فلعل سببيتها لها من حيث انها تفيد زيادة اطمئنان قلب بسلامته وسلامة أهله كافة ومجادلته إياهم أنه قال لهم حين قالوا له انا مهلكو أهل هذه القرية أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ان قيل المتبادر من هذا الكلام أن يكون ابراهيم عليه السلام قد علم أنهم مرسلون لاهلاك قوم لوط قبل ذهاب الروع عن نفسه ولكن لم يقدر على مجادلتهم فى شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه فلما ذهب عنه الروع فرغ لها مع أن ذهاب الروع إنما هو قبل العلم بذلك لقوله تعالى قالوا لاتخف انا أرسلنا إلى قوم لوط قلنا كان لوط عليه السلام على شريعة ابراهيم عليه السلام وقومه مكلفين بها فلما رأى من الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافة أمته التى من جملتهم قوم لوط ولا ريب فى تقدم هذا الخوف على قولهم لاتخف وأما الذى علمه عليه السلام بعد النهى عن الخوف فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لادخولهم تحت العموم فتأمل والله الموفق (إن إبراهيم لحليم) غير عجول على الانتقام ممن أساء اليه (أواه) كثير التأوه على الذنوب والتأسف على الناس (منيب) راجع إلى الله تعالى والمقصود بتعداد صفاته الجليلة المذكورة بيان ماحمله عليه السلام على ماصدر عنه من المجادلة (يا إبراهيم) أي قالت الملائكة يا ابراهيم (أعرض عن هذا) الجدال (إنه) أي الشأن (قد جاء أمر ربك) أي قدره الجاري على وفق قضائه الازلى الذى هو عبارة عن الارادة الازلية والعناية الالهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص حسب تعلقها بالأشياء فى أوقاتها وهو المعبر عنه بالقدر (وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) لا بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما (ولما جاءت رسلنا لوطا) قال ابن عباس رضى الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم عليه السلام إلى لوط عليه السلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه فى صور غلمان مرد حسان الوجوه فلذلك (سيء بهم) أي ساءه مجيئهم لظنه أنهم أناس يخاف أن يقصدهم قومه ويعجز عن مدافعتهم وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو عمرو سيء وسيئت باشمام السين الضم . روى أن الله تعالى قال للملائكة لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم إلى منزله قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرها قال أشهد بالله انها لشر قرية فى الأرض عملا يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت به قومها وقالت ان فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط (وضاق بهم ذرعا) أي ضاق بمكانهم صدره أو قلبه أو وسعه وطاقته وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه وقيل ضاقت

نفسه عن هذا الحادث وذكر الذرع مثل وهو المساحة وكأنه قدر البدن مجازا أى ان بدنه ضاق قدره من احتمال ما وقع
وقيل الذراع اسم للجارحة من المرفق إلى الانامل والذرع مدها ومعنى ضيق الذرع فى قوله تعالى ضاق بهم ذرعا قصرها
كما أن معنى سعتها وبسطها طولها ووجه التمثيل بذلك أن القصير الذراع إذا مدها ليتناول ما يتناول الطويل الذراع
تقاصر عنه وعجز عن تعاطيه فضرب مثلا للذى قصرت طاقته دون بلوغ الأمر (وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) شديد
من عصبه إذا شده (وَجَآءَهُ) أى لوطا وهو فى بيته مع أضيافه (قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) أى يسرعون كأنما
يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه والجملة حال من قومه وكذا قوله تعالى (وَمِن قَبْلُ) أى من قبل هذا
الوقت (كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أى جاءوا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين فى عمل السيئات فضروا
بها وتمرنوا فيها حتى لم يبق عندهم قباحتها ولذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين (قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰؤُلَآءِ
بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعيته فان
تزويج المسلمات من الكفار كان جائزا وقد زوج النبى عليه الصلاة والسلام ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن
الربيع قبل الوحى وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه وأياما كان فقد أراد به وقاية
ضيفه وذلك غاية الكرم وقيل ما كان ذلك القول منه مجرى على الحقيقة من ارادة النكاح بل كان ذلك مبالغة فى التواضع
لهم واظهاراً لشدة امتعاضه مما أوردوا عليه طمعا فى أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك فينزجروا عما أقدموا
عليه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم جميعا بأن لا مناكحة بينهم وهو الأنسب بقولهم لقد علمت ما لنا فى
بناتك من حق كما ستقف عليه (فَاتَّقُوا اللَّهَ) بترك الفواحش أو بايثارهن عليهم (وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى) أى
لا تفضحونى فى شأنهم فان اخزاء ضيف الرجل وجاره اخزاء له أو لا تخجلونى من الخزاية وهى الحياء (أَلَيْسَ مِنكُمْ
رَجُلٌ رَّشِيدٌ) يهتدى إلى الحق الصريح ويرعوى عن الباطل القبيح (قَالُوا) معرضين عما نصحهم به من الأمر
بتقوى الله والنهى عن اخزائه مجيبين عن أول كلامه (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ) مستشهدين بعلمه بذلك
يعنون انك قد علمت أن لا سبيل إلى المناكحة بيننا وبينك وما عرضك الاعرض سابرى ولا مطمع لنا فى ذلك
(وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) من إتيان الذكران ولما يئس عليه السلام من ارعوائهم عما هم عليه من الغى (قَالَ لَوْ أَنَّ لِى
بِكُمْ قُوَّةً) أى لفعلت بكم ما فعلت وصنعت ما صنعت كقوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض
أو كلم به الموتى (أَوْ ءَاوِى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ) عطف على أن لى بكم إلى آخره لما فيه من معنى الفعل أى لو قويت على
دفعكم بنفسى أو أويت إلى ناصر عزيز قوى أتمنع به عنكم شبهه بركن الجبل فى الشدة والمنعة وروى عن النبى صلى الله
عليه وسلم رحم الله أخى لوطا كان يأوى إلى ركن شديد .روى أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم
من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب (قَالُوا) أى الرسل لما شاهدوا عجزه
عن مدافعة قومه (يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ) بضرر ولا مكروه فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب
فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه رب العزة جل جلاله فى عقوبتهم فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها
فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم
وأعماهم كما قال عز وعلا فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان فى بيت لوط
قوما سحرة (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) بالقطع من الاسراء وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء فى القرآن من السرى والفاء
لترتيب الأمر بالاسراء على الاخبار برسالتهم المؤذنة بورود الأمر والنهى من جنابه عز وجل اليه عليه السلام (بِقِطْعٍ

مّن ٱلَّيۡلِ) بطائفة منه (وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ) أى لا يتخلف أو لا ينظر إلى ورائه (أَحَدٌ) منك ومن أهلك وإنما نهوا عن ذلك ليجدوا فى السير فان من يلتفت إلى ماوراءه لايخلو عن أدنى وقفة أو لئلا يروا ماينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم (إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ) استثناء من قوله تعالى فأسر بأهلك ويؤيده أنه قرىء فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك وقرىء بالرفع على البدل من أحد فالالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف كيلا يلزم التناقض بين القراءتين المتواترتين فان النصب يقتضى كونه عليه السلام غير مأمور بالاسراء بها والرفع كونه مأمورا بذلك والاعتذار بأن مقتضى الرفع انما هو مجرد كونها معهم وذلك لا يستدعى الأمر بالإسراء بها حتى يلزم المناقضة لجواز أن تسرى هى بنفسها كما يروى أنه عليه السلام لما أسرى بأهله تبعتهم فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت ياقوماه فأدركها حجر فقتلها وأن يسرى بها عليه السلام من غير أمر بذلك إذ موجب النصب إنما هو عدم الأمر بالإسراء بها لا النهى عن الاسراء بها حتى يكون عليه السلام بالاسراء بها مخالفا للنهى لا يجدى نفعا لأن انصراف الاستثناء إلى الالتفات يستدعى بقاء الأهل على العموم فيكون الإسراء بها مأمورا به قطعا وفى حمل الأهلية فى إحدى القراءتين على الأهلية الدينية وفى الأخرى على النسبية مع أن فيه مالا يخفى من التحكم والاعتساف كر على مافر منه من المناقضة فالأولى حينئذ جعل الاستثناء على القراءتين من قوله لا يلتفت مثل الذى فى قوله تعالى مافعلوه إلا قليل منهم فان ابن عامر قرأه بالنصب وإن كان الأفصح الرفع على البدل ولا بعد فى كون أكثر القراء على غير الأفصح ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله على طريقة الاستئناف بقوله (إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ) من العذاب وهو امطار الأحجار وإن لم يصبها الخسف والضمير فى انه للشأن وقوله تعالى مصيبها خبر وقوله ما أصابهم مبتدأ والجملة خبر لان الذى اسمه ضمير الشأن وفيه مالا يخفى من تفخيم شأن ما أصابهم ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعا على قراءة الرفع (إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ) أى موعد عذابهم وهلاكهم تعليل للأمر بالإسراء والنهى عن الالتفات المشعر بالحث على الإسراع (أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ) تأكيد للتعليل فان قرب الصبح داع إلى الإسراع فى الإسراء للتباعد عن مواقع العذاب وروى أنه قال للملائكة متى موعد هلاكهم قالوا الصبح قال أريد أسرع من ذلك فقالوا ذلك وإنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لانه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين (فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا) أى وقت عذابنا وموعده وهو الصبح (جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا) أى عالى قرى قوم لوط وهى التى عبر عنها بالمؤتفكات وهى خمس مدائن فيها أربعمائة ألف ألف (سَافِلَهَا) أى قلبناها على تلك الهيئة وجعل عاليها مفعولا أول للجعل وسافلها مفعولا ثانيا له وإن تحقق القلب بالعكس أيضا لتهويل الامر وتفظيع الخطب لأن جعل عاليها الذى هو مقارهم ومساكنهم سافلها أشد عليهم وأشق من جعل سافلها عاليها وإن كان مستلزما له. روى أنه جعل جبريل عليه السلام جناحه فى أسفلها ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم وإسناد الجعل والامطار إلى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبب لتفخيم الأمر وتهويل الخطب (وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا) على أهل المدائن أو شذاذهم (حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ) من طين متحجر كقوله حجارة من طين وأصله سنك كل فعرب وقيل هو من أسجله إذا أرسله أو أدر عطيته والمعنى من مثل الشىء المرسل أو مثل العطية فى الادرار أو من السجل أى مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين أى من جهنم فأبدلت نونه لاما (مَّنضُودٖ) نضد فى السماء نضدا معدا للعذاب وقيل يرسل بعضه اثر بعض كقطار الامطار (مُّسَوَّمَةً) معلمة للعذاب وقيل معلمة ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الارض أو باسم من ترمى به (عِندَ

رَبِّكَ) فى خزائنه التى لا يتصرف فيها غيره عز وجل (وَمَا هِيَ) أى الحجارة الموصوفة (مِنَ الظَّـٰلِمِينَ) من كل ظالم (بِبَعِيدٍ) فانهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وملابسون بها وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام فقال يعنى ظالمى أمتك مامن ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة وقيل الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسايرهم وأسفارهم إلى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو إجرائه على موصوف مذكر أى بشىء بعيد أو بمكان بعيد فانها وإن كانت فى السماء وهى فى غاية البعد من الأرض إلا أنها حين هوت منها فهى أسرع شىء لحوقا بهم فكأنها بمكان قريب منهم أو لأنه على زنة المصدر كالزفير والصهيل والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ) أى أولاد مدين ابن ابراهيم عليه السلام أو جعل اسما للقبيلة بالغلبة أو أهل مدين وهو بلد بناه مدين فسمى باسمه (أَخَاهُمْ) أى نسيبهم (شُعَيْبًا) وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه والجملة معطوفة على قوله تعالى وإلى ثمود أخاهم صالحا أى وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا (قَالَ) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال كما قال من قبله من الرسل عليهم السلام (يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ) وحده ولا تشركوا به شيئا (مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ) تحقيق للتوحيد وتعليل للأمر به وبعدما أمرهم بما هو ملاك أمر الدين وأول ما يجب على المكلفين نهاهم عن ترتيب مبادى ما اعتادوه من البخس والتطفيف عادة مستمرة فقال (وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ) كى تتوسلوا بذلك إلى بخس حقوق الناس (إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ) أى ملتبسين بثروة وسعة تغنيكم عن ذلك أو بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ما تأتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكرا عليها أو أراكم بخير فلا تزيلوه بما أنتم عليه من الشر وهو على كل حال علة للنهى عقبت بعلة أخرى أعنى قوله عز وجل (وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ) إن لم تنتهوا عن ذلك (عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) لا يشذ منه شاذ منكم وقيل عذاب يوم مهلك من قوله تعالى وأحيط بثمره وأصله من إحاطة العدو والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ووصف اليوم بالاحاطة وهى حال العذاب على الإسناد المجازى وفيه من المبالغة ما لا يخفى فان اليوم زمان يشتمل على ما وقع فيه من الحوادث فاذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه ويجوز أن يكون هذا تعليلا للأمر والنهى جميعا (وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) أى بالعدل من غير زيادة ولا نقصان فان الزيادة فى الكيل والوزن وإن كان تفضلا مندوبا إليه لكنها فى الآلة محظورة كالنقص فلعل الزائد للاستعمال عند الاكتيال والناقص للاستعمال وقت الكيل وإنما أمر بتسويتهما وتعديلهما صريحا بعد النهى عن نقصهما مبالغة فى الحمل على الايفاء والمنع من البخس وتنبيها على أنه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس بل يجب عليهم إصلاح ما أفسدوه وجعلوه معيارا لظلمهم وقانونا لعدوانهم (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ) بسبب نقصهما وعدم اعتدالها (أَشْيَاءَهُمْ) التى يشترونها بهما وقد صرح بالنهى عن البخس بعد ما علم ذلك فى ضمن النهى عن نقص المعيار والأمر بايفائه اهتماما بشأنه وترغيبا فى ايفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها ويجوز أن يكون المراد بالأمر بايفاء المكيال والميزان الامر بايفاء المكيلات والموزونات ويكون النهى عن البخس عاما للنقص فى المقدار وغيره تعميما بعد التخصيص كما فى قوله تعالى (وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) فان العثى يعم نقص الحقوق وغيره من أنواع الفساد وقيل البخس المكس كأخذ العشور فى المعاملات قال زهير بن أبى سلمى : أفى كل أسواق العراق اتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم

والعثى فى الارض السرقة وقطع الطريق والغارة وفائدة الحال إخراج ما يقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام من

خرق السفينة وقتل الغلام وقيل معناه ولا تعثوا فى الأرض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم (بقيّتُ الله) أى ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن تعاطى المحرمات (خيرٌ لكم) مما تجمعون بالبخس والتطفيف فإن ذلك هباء منثورا بل شر محض وإن زعمتم أن فيه خيرا كقوله تعالى يمحق الله الربوا ويربى الصدقات (إن كنتم مؤمنين) بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان لا محالة أو إن كنتم مصدقين لى فى مقالتى لكم وقيل البقية الطاعات كقوله عز وجل والباقيات الصالحات خير عند ربك وقرىء تقية الله بالفوقانية وهى تقواه عن المعاصى (وما أنا عليكم بحفيظ) أحفظكم من القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت إذ أنذرت ولم آل فى ذلك جهداً أو ما أنا بحافظ ومستبق عليكم نعم الله تعالى إن لم تتركوا ما أنتم عليه من سوء الصنيع (قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) من الأوثان أجابوا بذلك أمره عليه السلام إياه بعبادة الله وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الأصنام ولقد بالغوا فى ذلك وبلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال حيث لم يكتفوا بإنكار الوحى الآمر بذلك حتى ادعوا أن لا آمر به من العقل واللب أصلا وأنه من أحكام الوسوسة والجنون وعلى ذلك بنوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء أصلاتك التى هى من نتائج الوسوسة وأفاعيل المجانين تأمرك بأن نترك عبادة الأوثان التى توارثناها أبا عن جد وإنما جعلوه عليه السلام مأمورا مع أن الصادر عنه إنما هو الأمر بعبادة الله تعالى وغير ذلك من الشرائع لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك من تلقاء نفسه بل من جهة الوحى وأنه كان يعلمهم بأنه مأمور بتبليغه إليهم وتخصيصهم بإسناد الأمر إلى الصلاة من بين سائر أحكام النبوة لأنه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة معروفا بذلك وكانوا إذا رأوه يصلى يتغامزون ويتضاحكون فكانت هى من بين سائر شعائر الدين ضحكة لهم وقرىء أصلواتك (أو أن نفعل فى أموالنا ما نشؤا) جواب عن أمره عليه السلام بإيفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص معطوف على ما أى أو أن نترك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء من الأخذ والاعطاء والزيادة والنقص وقرىء بالتاء فى الفعلين عطفا على مفعول تأمرك أى أصلاتك تأمرتك أن تفعل أنت فى أموالنا ما تشاء وتجويز العطف على ما قيل يستدعى أن يراد بالترك معنيان متخالفان والمراد بفعله عليه السلام إيجاب الإيفاء والعدل فى معاملاتهم لا نفس الإيفاء فإن ذلك ليس من أفعاله عليه السلام بل من أفعالهم وإنما لم نقل عطفا على أن نترك لأن الترك ليس مأمورا به على الحقيقة بل المأمور به تكليفه عليه السلام إياهم وأمره بذلك والمعنى أصلاتك تأمرك أن تكلفنا أن نترك ما يعبد آباؤنا وحمله على معنى أصلاتك تأمرك بما ليس فى وسعك وعهدتك من أفاعيل غيرك ليكون ذلك تعريضا منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاء به من تلك الجهة يأباه دخول الهمزة على الصلاة دون الأمر ويستدعى أن يصدر عنه عليه السلام فى أثناء الدعوة ما يدل على ذلك أو يوهمه وأنى ذلك فتأمل وقرىء بالنون فى الأول والتاء فى الثانى عطفا على أن نترك أى أو نفعل نحن فى أموالنا عند المعاملة ما تشاء أنت من التسوية والإيفاء (إنك لأنت الحليم الرشيد) وصفوه عليه السلام بالوصفين على طريقة التهكم وإنما أرادوا بذلك وصفه بضديهما كقول الخزنة ذق إنك أنت العزيز الكريم ويجوز أن يكون تعليلا لما سبق من استبعاد ما ذكروه على معنى إنك لأنت الحليم الرشيد على زعمك وأما وصفه بهما على الحقيقة فيأباه مقام الاستهزاء اللهم إلا أن يراد بالصلاة الدين كما قيل (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة) أى حجة واضحة وبرهان نير عبر بها عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة ردا على مقالتهم الشنعاء فى جعلهم أمره ونهيه غير مستند إلى سند (من ربى) ومالك أمورى وإيراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ما هو عليه من البينات والحجج لاعتبار حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاورة معهم كما ذكرناه فى نظائره (ورزقنى منه) أى من لدنه

(رِزْقاً حَسَناً) هو النبوة والحكمة أيضا عبر عنهما بذلك تنبيها على أنهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لا وذلك مناط الحياة الأبدية له ولأمته وجواب الشرط محذوف يدل عليه فحوى الكلام أى أتقولون فى شأنى ما تقولون والمعنى انكم نظمتمونى فى سلك السفهاء والغواة وعددتم ما صدر عنى من الأوامر والنواهى من قبيل ما لا يصح أن يتفوه به عاقل وجعلتموه من أحكام الوسوسة والجنون واستهزأتم بى وبأفعالى حتى قلتم ان ما أمرتكم به من التوحيد وترك عبادة الأصنام والاجتناب عن البخس والتطفيف ليس مما يأمر به آمر العقل ويقضى به قاضى الفطنة وإنما يأمر به صلاتك التى هى من أحكام الوسوسة والجنون فأخبرونى إن كنت من جهة ربى ومالك أمورى ثابتا على النبوة والحكمة التى ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمح لطامح ورزقنى بذلك رزقا حسنا أتقولون فى شأنى وشأن أفعالى ما تقولون مما لا خير فيه ولا شر وراءه هذا هو الجواب الذى يستدعيه السباق والسياق ويساعده النظم الكريم وأما ما قيل من أن المحذوف أيصح لى أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصى أو هل يسع لى مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون فى وحيه وأخالفه فى أمره ونهيه فبمعزل من ذلك وإنما يناسب تقديره ان حمل كلامهم على الحقيقة وأريد بالصلاة الدين على معنى أدينك يأمرك أن تكلفنا بترك عبادة آلهتنا القديمة وترك التصرف المطلق فى أموالنا وتخالفنا فى ذلك وتشق عصانا وهذا مما لا ينبغى أن يصدر عنك فانك أنت المشهور بالحلم الفاضل والرشد الكامل فيما بيننا كما كان قول قوم صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا مسرودا على ذلك النمط فأجيبوا بما أجيبوا به وعلى هذا الوجه يكون المراد بالرزق الحسن الحلال الذى آتاه الله تعالى والمعنى حينئذ أخبرونى إن كنت نبيا من عند الله تعالى ورزقنى مالا حلالا أستغنى به عن العالمين أيصح أن أخالف أمره وأوافقكم فيما تأتون وما تذرون (وَمَا أُرِيدُ) بنهيى إياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف (أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) أى أقصده بعد ما وليتم عنه واستبد به دونكم يقال خالفت زيدا الى كذا إذا قصدته وهو مول عنه وخالفته عن كذا اذا كان الأمر على العكس (إِنْ أُرِيدُ) أى ما أريد بما أباشره من الأمر والنهى (إِلَّا الْإِصْلَاحَ) الا أن أصلحكم بالنصيحة والموعظة (مَا اسْتَطَعْتُ) أى مقدار ما استطعته من الاصلاح والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالاصلاح فى الجملة لا عن إرادة ما ليس فى وسعه منه (وَمَا تَوْفِيقِي) أى كونى موفقا لتحقيق ما أنتحيه من إصلاحكم (إِلَّا بِاللَّهِ) أى بتأييده ومعونته بل الاصلاح من حيث الخلق مستند اليه سبحانه وإنما أنا من مباديه الظاهرة قاله عليه السلام تحقيقا للحق وإزاحة لما عسى يوهمه إسناد الاستطاعة اليه بإرادته من استبداده بذلك (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) فى ذلك معرضا عما عداه فانه القادر على كل مقدور وما عداه عاجز محض فى حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة الاستمداد به والاستظهار (وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) أى أرجع فيما أنا بصدده ويجوز أن يكون المراد وما كونى موفقا لاصابة الحق والصواب فى كل ما آتى وأذر الا بهدايته ومعونته عليه توكلت وهو إشارة الى محض التوحيد الذاتى والفعلى واليه أنيب أى عليه أقبل بشراشر نفسى فى مجامع أمورى وإيثار صيغة الاستقبال على الماضى الأنسب للتقرر والتحقق كما فى التوكل لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار ولا يخفى ما فى جوابه عليه السلام من مراعاة لطف المراجعة ورفق الاستنزال والمحافظة على قواعد حسن المجاراة والمحاورة وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من جناب الله تعالى والاستعانة به فى أموره وحسم أطماع الكفار واظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وأما تهديدهم بالرجوع إلى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا لان الانابة انما هى الرجوع الاختيارى بالفعل إلى الله تعالى لا الرجوع الاضطرارى للجزاء أو ما يعمه (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ) أى لا يكسبنكم من جرمته ذنبا مثل كسبته مالا (شِقَاقِي) معاداتى وأصلهما أن أحد المتعادين يكون فى عدوة وشق والآخر فى آخر (أَنْ يُصِيبَكُمْ) مفعول ثان

ليجر منكم أى لايكسبنكم معاداتكم لى أن يصيبكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من الريح (أو قوم صالح) من الصيحة والرجفة وقرأ ابن كثير بضم الياء من أجرمته ذنبا إذا جعلته جارماله أى كاسباوهو منقول من جرم المتعدى إلى مفعول واحد كما نقل أكسبه المال من كسب المال فكما لافرق بين كسبته مالا وأكسبته اياه لافرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه فى المعنى الا أن الأول أصح وأدور على ألسنة الفصحاء وقرأ أبو حيوة مثل ما أصاب بالفتح لاضافته إلى غير متمكن كقوله :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة فى غصون ذات أوقال

وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيا للشقاق عن كسب اصابة العذاب لكنه فى الحقيقة نهى للكفرة عن مشاقته عليه السلام على ألطف أسلوب وأبدعه كما مر فى سورة المائدة عند قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الآية (وما قوم لوط منكم ببعيد) زمانا أو مكانا فان لم تعتبروا بمن قبلهم من الأمم المعدودة فاعتبروا بهم فكأنه إنما غير أسلوب التحذير بهم ولم يصرح بما أصابهم بل اكتفى بذكر قربهم إيذانا بأن ذلك مغن عن ذكره لشهرة كونه منظوما فى سمط ماذكر من دواهى الأمم المرقومة أو ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمعاصى فلا يبعد أن يصيبكم مثل ما أصابهم وافراد البعيد مع تذكيره لأن المراد وما اهلاكهم على نية المضاف أو وماهم بشىء بعيد لأن المقصود افادة عدم بعدهم على الاطلاق لامن حيث خصوصية كونهم قوما أو وماهم فى زمان بعيد أو مكان بعيد ولا يبعد أن يكون ذلك لكونه على زنة المصادر كالنهيق والشهيق ولما أنذرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعهم عقبه طمعا فى ارعوائهم عما كانوا فيه يعمهون من طغيانهم بالحمل على الاستغفار والتوبة فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه) مر تفسير مثله فى أول السورة (إن ربى رحيم) عظيم الرحمة للتائبين (ودود) مبالغ فى فعل ما يفعل البليغ المودة بمن يوده من اللطف والاحسان وهذا تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة وحث عليهما (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه أى ما نفهم مرادك وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق المبين على أحسن وجه وأبلغه وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل فلم يجدوا إلى محاورته سبيلا سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك إلى سبيل الشقاء كما هو ديدن المفحم المحجوج يقابل البينات بالسب والابراق والارعاد فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل ما لا يفهم معناه ولا يدرك فحواه وأدمجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة والعقاب ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة ولذلك قالوا (وإنا لنراك فينا) فيما بيننا (ضعيفا) لاقوة لك ولاقدرة على شىء من الضر والنفع والايقاع والدفع (ولولا رهطك) لولا مراعاة جانبهم لالولاهم يمانعوننا ويدافعوننا (لرجمناك) فان ممانعة الرهط وهو اسم للثلاثة إلى السبعة أو إلى العشرة لهم وهم ألوف مؤلفة مما لايكاد يتوهم وقد أيد ذلك بقوله عز وجل (وما أنت علينا بعزيز) مكرم محترم حتى نمتنع من رجمك وإنما نكف عنه للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا وإيلاء الضمير حرف النفى وإن لم يكن الخبر فعليا غير خال عن الدلالة على رجوع النفى إلى الفاعل دون الفعل لاسيما مع قرينة قوله ولولا رهطك كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الاعزة علينا وحيث كان غرضهم من عظيمتهم هذه عائدا إلى نفى ما فيه عليه السلام من القوة والعزة الربانيتين حسبما يوجبه كونه على بينة من ربه مؤيدا من عنده ويقتضيه قضية طلب التوفيق منه والتوكل عليه والإنابة إليه وإلى إسقاط ذلك كله عن درجة الاعتداد به والاعتبار (قال) عليه السلام فى جوابهم (يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله) فان الاستهانة بمن لا يتعزز الا به عز وجل استهانة بجنابه العزيز وإنما أنكر عليهم أعزية رهطه منه

تعالى مع أن ما أثبتوه إنما هو مطلق عزة رهطه لا أعزيتهم منه عز وجل مع الاشتراك فى أصل العزة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ حيث أنكر عليهم أولا ترجيح جنبة الرهط على جنبة الله تعالى وثانيا بنفى العزة بالمرة والمعنى أرهطى أعز عليكم من الله فانه مما لا يكاد يصح والحال انكم لم تجعلوا له تعالى حظا من العزة أصلا (واتخذتموه) بسبب عدم اعتدادكم بمن لا يرد ولا يصدر إلا بأمره (وراءكم ظهريا) أى شيئا منبوذا وراء الظهر منسيا لا يبالى به منسوب إلى الظهر والكسر لتغيير النسب كالامسى فى النسبة إلى الامس (إن ربى بما تعملون) من الأعمال السيئة التى من جملتها عدم مراعاتكم لجنابه (محيط) لا يخفى عليه منها خافية وإن جعلتموه منسيا فيجازيكم عليها ويحتمل أن يكون الانكار للرد والتكذيب فانهم لما ادعوا أنهم لا يكفون عن رجمه عليه السلام لقوته وعزته بل لمراعاة جانب رهطه رد عليهم ذلك بأنكم ما قدرتم الله حق قدره العزيز ولم تراعوا جنابه القوى فكيف تراعون جانب رهطى الأذلة (ويقوم اعملوا) لما رأى عليه السلام اصرارهم على الكفر وأنهم لا يرعوون عما هم عليه من المعاصى حتى اجترؤا على العظيمة التى هى الاستهانة به والعزيمة على رجمه لولا حرمة رهطه قال لهم على طريقة التهديد اعملوا (على مكانتكم) أى على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن وإنما قاله عليه السلام ردا لما ادعوا أنهم أقوياء قادرون على رجمه وأنه ضعيف فيما بينهم لا عزة له أو على ناحيتكم وجهتكم التى أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لى وسائر ما أنتم عليه مما لا خير فيه وابذلوا جهدكم فى مضارتى وإيقاع ما فى نيتكم وإخراج ما فى أمنيتكم من القوة إلى الفعل (إنى عامل) على مكانتى حسبما يؤيدنى الله ويوفقنى بأنواع التأييد والتوفيق (سوف تعلمون) لما هددهم عليه السلام بقوله اعملوا على مكانتكم انى عامل كان مظنة أن يسأل منهم سائل فيقول فماذا يكون بعد ذلك فقيل سوف تعلمون (من يأتيه عذاب يخزيه) وصف العذاب بالاخزاء تعريضا بما أوعدوه عليه السلام به من الرجم فانه مع كونه عذابا فيه خزى ظاهر حيث لا يكون الا بجناية عظيمة توجبه (ومن هو كاذب) عطف على من يأتيه لا على أنه قسيمه بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل سوف تعلمون من المعذب ومن الكاذب وفيه تعريض بكذبهم فى ادعائهم القوة والقدرة على رجمه عليه السلام وفى نسبته إلى الضعف والهوان وفى ادعائهم الابقاء عليه لرعاية جانب الرهط والاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية لأن كذب الكاذب ليس بمرتقب كاتيان العذاب بل انما المرتقب ظهور الكذب السابق المستمر ومن اما استفهامية معلقة للعلم عن العمل كانه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه وأينا كاذب واما موصولة أى سوف تعرفون الذى يأتيه عذاب والذى هو كاذب (وارتقبوا) وانتظروا مآل ما أقول (إنى معكم رقيب) منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع وفى زيادة معكم اظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره (ولما جاء أمرنا) أى عذابنا كما ينبىء عنه قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه أو وقته فان الارتقاب مؤذن بذلك (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) وهى الايمان الذى وفقناهم له أو برحمة كائنة منا لهم وإنما ذكر بالواو كما فى قصة عاد لما أنه لم يسبقه فيها ذكر وعد يجرى مجرى السبب المقتضى لدخول الفاء فى معلوله كما فى قصتى صالح ولوط فانه قد سبق هنالك سابقة الوعد بقوله ذلك وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح (وأخذت الذين ظلموا) عدل اليه عن الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وإشعارا بأن ما أخذهم إنما أخذهم بسبب ظلمهم الذى فصل فيما سبق فنونه (الصيحة) قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة وفى سورة العنكبوت فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضى اليها كما مر فيما قبل (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ميتين لازمين لاماكنهم لا براح لهم

منها ولما لم يجعل متعلق العلم فى قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب الخ نفس مجيء العذاب بل من يجيئه ذلك جعل مجيئه بعد ذلك أمراً مسلم الوقوع غنيا عن الإخبار به حيث جعل شرطا وجعل تنجية شعيب عليه السلام وإهلاك الكفرة جوابا له ومقصودا بالافادة وإنما قدم تنجيته اهتماما بشأنها وإيذانا بسبق الرحمة التى هى مقتضى الربوبية على الغضب الذى يظهر أثره بموجب جرائرهم وجرائمهم (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا) أى لم يقيموا (فِيهَا) متصرفين فى أطرافها متقلبين فى أكنافها (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ) العدول عن الإضمار إلى الإظهار ليكون أدل على طغيانهم الذى أداهم إلى هذه المرتبة وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم أعنى ثمود وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم لأنهما أهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة غير أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم وقرىء بعدت بالضم على الأصل فان الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون سبب الهلاك والبعد مصدر لهما والبعد مصدر للمكسور (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا) وهى الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والأنفس ومنهم من جعلهما آية واحدة وعد منها إظلال الجبل وليس كذلك فانه لقبول أحكام التوراة حين أباه بنو إسرائيل والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول أرسلنا أو نعتا لمصدره المؤكد أى أرسلناه حال كونه ملتبسا بآياتنا وأرسلناه إرسالا ملتبسا بها (وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ) هو المعجزات الباهرة منها أو هو العصا والإفراد بالذكر لإظهار شرفها لكونها أبهرها أو المراد بالآيات ما عداها أو هما عبارتان عن شىء واحد أى أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وبين كونه سلطانا له على نبوته واضحا فى نفسه أو موضحا إياها من أبان لازما ومتعديا أو هو الغلبة والاستيلاء كقوله تعالى ونجعل لكما سلطانا ويجوز أن يكون المراد ما بينه عليه السلام فى تضاعيف دعوته حين قال له فرعون من ربكما فما بال القرون الأولى من الحقائق الرائقة والدقائق اللائقة وجعله عبارة عن التوراة أو إدراجها فى جملة الآيات يرده قوله عز وجل (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) فان نزولها إنما كان بعد مهلك فرعون وقومه قاطبة ليعمل بها بنو إسرائيل فيما يأتون وما يذرون وأما فرعون وقومه فانما كانوا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبارسال بنى إسرائيل من الأسر والقصر وتخصيص ملئه بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافة لاصالتهم فى الرأى وتدبير الأمور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور وإنما لم يصرح بكفر فرعون بآيات الله تعالى وانهماكه فيما كان عليه من الضلال والإضلال بل اقتصر على ذكر شأن ملئه فقيل (فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) أى أمره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للايذان بوضوح حاله فكأن كفره وأمر ملئه بذلك أمر محقق الوجود غير محتاج إلى الذكر صريحا وإنما المحتاج إلى ذلك شأن ملئه المترددين بين هاد إلى الحق وداع إلى الضلال فنعى عليهم سوء اختيارهم وإيراد الفاء فى اتباعهم المترتب على أمر فرعون المبنى على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للاشعار بمفاجأتهم فى الاتباع ومسارعة فرعون إلى الكفر وأمرهم به فكأن ذلك كله لم يتراخ عن الإرسال والتبليغ بل وقع جميع ذلك فى وقت واحد فوقع اثر ذلك اتباعهم ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه المشهور وطريقته الزائغة فيكون معنى فاتبعوا فاستمروا على الاتباع والفاء مثل ما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الإتيان بالشىء بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث فتأمل وترك الإضمار لدفع توهم الرجوع إلى موسى عليه السلام من أول الأمر ولزيادة تقبيح حال المتبعين فان فرعون علم فى الفساد والافساد والضلال والإضلال فاتباعه لفرط الجهالة وعدم الاستبصار وكذا الحال فى قوله تعالى (وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) الرشد ضد الغي وقد يراد به محمودية العاقبة فهو على الأول

بمعنى المرشد أو ذى الرشد حقيقة لغوية والإسناد مجازى وعلى الثانى مجاز والاسناد حقيق (يَقْدُمُ قَوْمَهُ) جميعاً من الاشراف وغيرهم (يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ) أى يتقدمهم من قدمه بمعنى تقدمه وهو استئناف لبيان حاله فى الآخرة أى كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه أو لتوضيح عدم صلاح مآل أمره وسوء عاقبته (فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) أى يوردهم وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع لا محالة شبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة إلى الماء وأتباعه بالواردة والنار بالماء الذى يردونه ثم قيل (وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) أى بئس الورد الذى يردونه النار لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار على ضد ذلك (وَأُتْبِعُوا) أى الملأ الذين اتبعوا أمر فرعون (فِى هَـٰذِهِ) أى الدنيا (لَعْنَةً) عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم إلى يوم القيامة (وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ) أيضا حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة فهى تابعة لهم حينما ساروا دائرة معهم أينما داروا فى الموقف فكما اتبعوا فرعون اتبعتهم اللعنة فى الدارين جزاء وفاقا واكتفى ببيان حالهم الفظيع وشأنهم الشنيع عن بيان حال فرعون إذ حين كان حالهم هكذا فما ظنك بحال من أغواهم وألقاهم فى هذا الضلال البعيد وحيث كان شأن الاتباع أن يكونوا أعوانا للمتبوع جعلت اللعنة رفدا لهم على طريقة التهكم فقيل (بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) أى بئس العون المعان وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام وأصله مايضاف إلى غيره ليعمده والمخصوص بالذم محذوف أى رفدهم وهى اللعنة فى الدارين وكونه مرفودا من حيث أن كل لعنة منها معينة وعمدة لصاحبتها ومؤيدة لها (ذَٰلِكَ) إشارة الى ماقص من أنباء الأمم وبعده باعتبار تقضيه فى الذكر والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره (مِنْ أَنبَآءِ الْقُرَىٰ) المهلكة بما جنته أيدى أهلها (نَقُصُّهُ عَلَيْكَ) خبر بعد خبر أى ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك (مِنْهَا) أى من تلك القرى (قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ) أى ومنها حصيد حذف لدلالة الأول عليه شبه مابقى منها بالزرع القائم على ساقه وما عفا وبطل بالحصيد والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب (وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ) بأن أهلكناهم (وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ) بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف مايوجبه (فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ) فما نفعتهم ولا دفعت بأس الله تعالى عنهم (ءَالِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ) أى يعبدونها (مِن دُونِ اللَّهِ) أوثر صيغة المضارع حكاية للحال الماضية أو دلالة على استمرار عبادتهم لها (مِن شَىْءٍ) فى موضع المصدر أى شيأ من الاغناء (لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ) أى حين مجىء عذابه وهو منصوب بأغنت وقرىء آلهتهم اللاتى ويدعون على البناء للمجهول (وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) أى اهلاك وتخسير فانهم انما هلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها (وَكَذَٰلِكَ) أى ومثل ذلك الاخذ الذى مر بيانه وهو رفع على الابتداء وخبره قوله (أَخْذُ رَبِّكَ) وقرىء أخذ ربك فمحل الكاف النصب على أنه مصدر مؤكد (إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ) أى أهلها وانما أسند اليها للاشعار بسريان أثره اليها حسبما ذكر وقرىء اذ أخذ (وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ) حال من القرى وهى فى الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامهم فى الأخذ أجريت الحال عليها وفائدتها الاشعار بأنهم انما أخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرة لكل ظالم (إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) وجيع صعب على المأخوذ لا يرجى منه الخلاص وفيه مالا يخفى من التهديد والتحذير (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ) أى فى أخذه تعالى للأمم المهلكة أو فى قصصهم (لَأَيَةً) لعبرة (لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ) فانه المعتبر به حيث يستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ماعملوا من السيئات على أحوال عذاب الآخرة وأما من أنكر الآخرة وأحال فناء العالم وزعم أن ليس هو ولا شىء من أحواله مستندا الى الفاعل المختار وأن مايقع فيه من الحوادث فانما يقع لأسباب تقتضيه من أوضاع فلكية تتفق فى بعض الأوقات لا لما ذكر من المعاصى التى يقترفها الأمم الهالكة فهو بمعزل من هذا الاعتبار تبا لهم ولما لهم من

الأفكار (ذٰلِكَ) إشارة إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة (يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ) أي يجمع له الناس للمحاسبة والجزاء والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع وتحقق وقوعه لا محالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو أبلغ من قوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع (وَذٰلِكَ) أي يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له (يَوْمٌ مَشْهُودٌ) أي مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السموات والأرضين فاتسع فيه باجراء الظرف مجرى المفعول به كما في قوله :

في محفل من نواصي الناس مشهود أي كثير شاهدوه ولو جعل نفس اليوم مشهوداً لفات ما هو الغرض من تعظيم اليوم وتهويله وتمييزه عن غيره فان سائر الأيام أيضا كذلك (وَمَا نُؤَخِّرُهُ) أي ذلك اليوم الملحوظ بعنواني الجمع والشهود (إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ) الا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة (يَوْمَ يَأْتِ) أي حين يأتي ذلك اليوم المؤخر بانقضاء أجله كقوله تعالى أن تأتيهم الساعة وقيل يوم يأتي الجزاء الواقع فيه وقيل أي الله عز وجل فان المقام مقام تفخيم شأن اليوم وقرىء باثبات الياء على الأصل (لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ) أي لا تتكلم بما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة وهو العامل في الظرف أو الانتهاء المحذوف في قوله تعالى الا لأجل معدود أي ينتهي الأجل يوم يأتي أو المضمر المعهود أعني اذكر (إِلَّا بِإِذْنِهِ) عز سلطانه في التكلم كقوله تعالى لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وهذا في موطن من مواطن ذلك اليوم وقوله عز وجل لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون في موقف آخر من مواقفه كما أن قوله سبحانه يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها في آخر منها أو المأذون فيه الجوابات الحقة والممنوع عنه الاعذار الباطلة نعم قد يؤذن فيها أيضا لاظهار بطلانها كما في قول الكفرة والله ربنا ما كنا مشركين ونظائره (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ) وجبت له النار بموجب الوعيد (وَسَعِيدٌ) أي ومنهم سعيد حذف الخبر لدلالة الأول عليه وهو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد والضمير لأهل الموقف المدلول عليهم بقوله لا تكلم نفس أو للناس وتقديم الشقي على السعيد لأن المقام مقام التحذير والانذار (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا) أي سبقت لهم الشقاوة (فَفِي النَّارِ) أي مستقرون فيها (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) الزفير إخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما في أول النهيق وآخره قال الشماخ يصف حمار الوحش :

بعيد مدى التطريب أول صوته زفير ويتلوه شهيق محشرج

والمراد بهما وصف شدة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرىء شقوا بالضم والجملة مستأنفة كأن سائلا قال ما شأنهم فيها فقيل لهم فيها كذا وكذا أو منصوبة المحل على الحالية من النار أو من الضمير في الجار والمجرور كقوله عز اسمه (خَالِدِينَ فِيهَا) خلا أنه ان أريد حدوث كونهم في النار فالحال مقدرة (مَا دَامَتِ السَّمٰوٰتُ وَالْأَرْضُ) أي مدة دوامها وهذا التوقيت عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع بناء على منهاج قول العرب ما دام تعار وما أقام ثبير وما لاح كوكب وما اختلف الليل والنهار وما طما البحر وغير ذلك من كلمات التأبيد لا تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والأرض فان النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما وان أريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وأرضها كما يدل على ذلك النصوص كقوله تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وقوله تعالى وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وجزم كل أحد بأن أهل الآخرة لا بد لهم من مظلة ومقلة دائمتين يكفي في تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما ولا حاجة الى الوقوف على تفاصيل أحوالهما وكيفياتهما (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى وقوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف وقوله تعالى حتى يلج الجمل في سم الخياط غير أن استحالة الأمور المذكورة معلومة بحكم العقل واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم النقل يعني انهم

مستقرون فى النار فى جميع الأزمنة إلا فى زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها اذ لا امكان لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلا امكان لانتهاء مدة قرارهم فيها ولدفع ماعسى يتوهم من كون استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) يعنى انه فى تخليد الأشقياء فى النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعال بموجب إرادته قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية إلى ترتيب الأجزية على أفعال العباد والعدول من الاضمار إلى الاظهار لتربية المهابة وزيادة التقرير وقيل هو استثناء من الخلود فى عذاب النار فانهم لايخلدون فيه بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع أخر من العذاب وبما هو اغلظ منها كلها وهو سخط الله تعالى عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم وأنت تدرى أنا وان سلمنا أن المراد بالنار ليس مطلق دار العذاب المشتملة على أنواع العذاب بل نفس النار فما خلا عذاب الزمهرير من تلك الأنواع مقارن لعذاب النار فلا مصداق فى ذلك للاستثناء ولك أن تقول انهم ليسوا بخلدين فى العذاب الجسمانى الذى هو عذاب النار بل لهم من أفانين العذاب مالا يعلمه إلا الله سبحانه وهى العقوبات والآلام الروحانية التى لايقف عليها فى هذه الحياة الدنيا المنغمسون فى أحكام الطبيعة المقصور ادراكهم على ماألفوا من الأحوال الجسمانية وليس لهم استعداد لتلق ماوراء ذلك من الأحوال الروحانية إذا ألقى اليهم ولذلك لم يتعرض لبيانه واكتفى بهذه المرتبة الاجمالية المنبئة عن التهويل وهذه العقوبات وإن كانت تعتريهم وهم فى النار لكنهم ينسون بها عذاب النار ولايحسون وهذه المرتبة كافية فى تحقيق معنى الاستثناء هذا وقد قيل إلا بمعنى سوى وهو أوفق بماذكر وقيل مابمعنى من على إرادة معنى الوصفية فالمعنى ان الذين شقوا فى النار مقدرين الخلود فيها إلا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عصاة المؤمنين (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ) الكلام فيه كالكلام فيما سبق خلا أنه لم يذكرههنا أن لهم فيها بهجة وسرورا كما ذكر فى أهل النار من أن لهم فيها زفير وشهيق لأن المقام مقام التحذير والانذار (إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ) ان حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله سبحانه (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) نصب على المصدرية من معنى الجملة لأن قوله تعالى فى الجنة خالدين فيها يقتضى اعطاء وانعاما فكأنه قيل يعطيهم عطاء وهو اما اسم مصدر هو الاعطاء أو مصدر بحذف الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الأرض نباتا وان حمل على ما أعد الله لعباده الصالحين من النعيم الروحانى الذى عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهو نصب على الحالية من المفعول المقدر للمشيئة أو تمييز فان نسبة مشيئة الخروج إلى الله تعالى يحتمل أن تكون على جهة عطاء مجذوذ وعلى جهة عطاء غير مجذوذ فهو رافع للابهام عن النسبة قال ابن زيد أخبرنا الله تعالى بالذى يشاء لأهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لأهل النار ويجوز أن يتعلق بكلا النعيمين أو بالأول دفعا لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من انقطاعه (فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ) أى فى شك والفاء لترتيب النهى على ماقص من القصص وبين تضاعيفها من العواقب الدنيوية والأخروية (مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ) أى من جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتها أو من حال مايعبدونه من الأوثان فى عدم نفعه لهم ولما كان مساق النظم الكريم قبيل الشروع فى القصص لبيان غاية سوء حال الكفرة وكمال حسن حال المؤمنين وقد ضرب لهم مثل فقيل مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون وقد قص عقيب ذلك من أنباء الأمم السالفة مع رسلهم المبعوثة اليهم مايتذكر به المتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كونه فى شك من مصير أمر هؤلاء المشركين فى العاجل والآجل ثم علل ذلك بطريق الاستئناف فقيل (مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ) الذين قصت عليك قصصهم (مِنْ قَبْلُ) أى هم وآباؤهم

سواء فى الشرك مايعبدون عبادة إلا كعبادتهم أو مايعبدون شيئا إلا مثل ماعبدوه من الأوثان والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أو مثل ماكانوا يعبدونه فحذف كان لدلالة قوله من قبل عليه ولقد بلغك ما لحق بآبائهم فسيلحقهم مثل ذلك فان تماثل الأسباب يقتضى تماثل المسببات (وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ) أى هؤلاء الكفرة (نَصِيبَهُمْ) أى حظهم المعين لهم حسب جرائمهم وجرائرهم من العذاب عاجلا وآجلا كما وفينا آباءهم أنصباءهم المقدرة لهم أو من الرزق المقسوم لهم فيكون بيانا لوجه تأخر العذاب عنهم مع تحقق مايوجبه (غَيْرَ مَنْقُوصٍ) حال مؤكدة من النصيب كقوله تعالى ثم وليتم مدبرين وفائدته دفع توهم التجوز وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصا فى حد نفسه مبنى على الذهول عن كون العامل هو التوفية فتأمل (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) أى التوراة (فَاخْتُلِفَ فِيهِ) أى فى شأنه وكونه من عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن وقولهم لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وزعمهم انك افتريته (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ) وهى كلمة القضاء بأنظارهم إلى يوم القيامة على حسب الحكمة الداعية إلى ذلك (لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) أى لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بانزال العذاب الذى يستحقه المبطلون ليتميزوا به عن المحقين وقيل بين قوم موسى وليس بذاك (وَإِنَّهُمْ) أى وان كفار قومك أريد به بعض من رجع إليهم ضمير بينهم للأمن من الالباس (لَفِي شَكٍّ) عظيم (مِنْهُ) أى من القرآن وإن لم يجر له ذكر فان ذكر إيتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لاسيما بصدد التسلية ينادى به نداء غير خفى (مُرِيبٍ) موقع فى الريبة (وَإِنَّ كُلًّا) التنوين عوض عن المضاف إليه أى وإن كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الأعمال اعتبارا للأصل (لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ) أى أجزية أعمالهم واللام الأولى موطئة للقسم والثانية جواب للقسم المحذوف ولما مركبة من من الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وأصلها لمن ما فقلبت النون ميما للادغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت أولاهن والمعنى لمن الذى أو لمن خلق أو لمن فريق والله ليوفينهم ربك وقرىء لما بالتخفيف على أن ما مزيدة للفصل بين اللامين والمعنى وان جميعهم والله ليوفينهم الآية وقرىء لما بالتنوين أى جميعا كقوله سبحانه أكلا لما وقرأ أبى وان كل لما ليوفينهم على أن ان نافية ولما بمعنى إلا وقد قرىء به (إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ) أى بما يعمله كل فرد من المختلفين من الخير والشر (خَبِيرٌ) بحيث لا يخفى عليه شىء من جلائله ودقائقه وهو تعليل لما سبق من توفية أجزية أعمالهم فان الاحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين ومايستوجبه كل عمل بمقتضى الحكمة من الجزاء المخصوص توجب توفية كل ذى حق حقه إن خيرا فخير وإن شرا فشر (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) لما بين فى تضاعيف القصص المحكية عن الأمم الماضية سوء عاقبة الكفر وعصيان الرسل وأشير إلى أن حال هؤلاء الكفرة فى الكفر والضلال واستحقاق العذاب مثل أولئك المعذبين وأن نصيبهم من العذاب واصل إليهم من غير نقص وأن تكذيبهم للقرآن مثل تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة وأنه لولم تسبق كلمة القضاء بتأخير عقوبتهم العامة ومؤاخذتهم التامة إلى يوم القيامة لفعل بهم مافعل بآبائهم من قبل وأنهم يوفون نصيبهم غير منقوص وأن كل واحد من المؤمنين والكافرين يوفى جزاء عمله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما أمر به فى العقائد والأعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمنين ولاسيما الأعمال الخاصة به عليه السلام من تبليغ الأحكام الشرعية والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة بحيث يدخل تحته ما أمر به فيما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك الآية وبالجملة فهذا الأمر منتظم لجميع محاسن الأحكام الأصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج من عهدته فى غاية مايكون من الصعوبة ولذلك

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيبتني سورة هود (وَمَنْ تَابَ مَعَكَ) أي تاب من الشرك والكفر وشاركك في الإيمان وهو المعنى بالمعية وهو معطوف على المستكن في قوله فاستقم وحسن من غير تأكيد لمكان الفاصل القائم مقامه وفي الحقيقة هو من عطف الجملة على الجملة إذ المعنى وليستقم من تاب معك وقيل هو منصوب على أنه مفعول معه كما قاله أبو البقاء والمعنى استقم مصاحبا لمن تاب معك (وَلَا تَطْغَوْا) ولا تنحرفوا عما حد لكم بافراط أو تفريط فان كلا طرفي قصد الأمور ذميم وإنما سمي ذلك طغيانا وهو تجاوز الحد تغليظا أو تغليبا لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام (إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للأمر والنهي وفي الآية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد الرأي فانه طغيان وضلال وأما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما أمر على موجب النصوص الآمرة بالاجتهاد (وَلَا تَرْكَنُوا) أي لا تميلوا أدنى ميل (إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أي إلى الذين وجد منهم الظلم في الجملة ومدار النهي هو الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين وما قيل من أن ذلك للمبالغة في النهي من حيث أن كونهم جماعة مظنة الرخصة في مداهنتهم إنما يتم أن لو كان المراد النهي عن الركون اليهم من حيث انهم جماعة وليس كذلك (فَتَمَسَّكُمُ) بسبب ذلك (النَّارُ) وإذا كان حال الميل في الجملة إلى من وجد منه ظلم ما في الافضاء إلى مساس النار هكذا فما ظنك بمن يميل إلى الراسخين في الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقي شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيي بزيهم ويمد عينيه إلى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو في الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن أن تميل إليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل فان الميل إلى أحد طرفي الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره وقرىء تركنوا على لغة تميم وتركنوا على صيغة البناء للمفعول من أركنه (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ) أي من أنصار ينقذونكم من النار والجملة نصب على الحالية من قوله فتمسكم النار ونفي الأولياء ليس بطريق نفي أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولي بل لمكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفي استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفي أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام (ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ) من جهة الله سبحانه إذ قد سبق في حكمه أن يعذبكم بركونكم اليهم ولا يبقي عليكم وثم لتراخي رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعدما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم ويجوز أن يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لا ينقذهم أنتج أنهم لا ينصرون أصلا (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ) أي غدوة وعشية وانتصابه على الظرفية لكونه مضافا إلى الوقت (وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ) أي ساعات منه قريبة من النهار فانه من أزلفه إذا قربه جمع زلفة عطف على طرفي النهار والمراد بصلاتيهما صلاة الغداة والعصر وقيل الظهر موضع العصر لأن ما بعد الزوال عشي وبصلاة الزلف المغرب والعشاء وقرىء زلفا بضمتين وضمة وسكون كبسر وبسر وزلفى بمعنى زلفة كقربى بمعنى قربة (إِنَّ الْحَسَنَاتِ) التي من جملتها بل عمدتها ما أمرت به من الصلوات (يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) التي قلما يخلو منها البشر أي يكفرنها وفي الحديث ان الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر وقيل نزلت في أبي اليسر الأنصاري إذ قبل امرأة ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل فقال عليه السلام أنتظر أمر ربي فلما صلى صلاة العصر نزلت قال عليه السلام نعم اذهب فانها كفارة لما عملت أو يمنعن من اقترافها كقوله تعالى إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر (ذَلِكَ) إشارة إلى قوله تعالى فاستقم فما بعده وقيل إلى القرآن (ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) أي عظة للمتعظين

(وَاصْبِرْ) على مشاق ما أمرت به فى تضاعيف الأوامر السابقة وأما ما نهى عنه من الطغيان والركون إلى الذين ظلموا فليس فى الانتهاء عنه مشقة فلا وجه لتعميم الصبر له اللهم إلا أن يراد به ما لا يمكن عادة خلو البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة المأمور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية إلى من وجد منه ظلم ما فان فى الاحتراز عن أمثاله من المشقة ما لا يخفى (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) أى يوفيهم أجور أعمالهم من غير بخس أصلا وإنما عبر عن ذلك بنفى الاضاعة مع أن عدم إعطاء الأجر ليس بإضاعة حقيقة كيف لا والأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه وإنما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة فائدة عامة لكل من يتصف به وهو تعليل للامر بالصبر وفيه إيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان (فَلَوْلَا كَانَ) فهلا كان (مِنَ الْقُرُونِ) الكائنة (مِنْ قَبْلِكُمْ) على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أو كائنة من قبلكم (أُولُوا بَقِيَّةٍ) من الرأى والعقل أو أولو فضل وخير وسمبا بها لأن الرجل إنما يستبقى مما يخرجه عادة أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه ما قيل فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية من التقوى أى فهلا كان منهم ذوو ابقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه ويؤيده أنه قرىء أولو بقية وهى المرة من مصدر بقاه يبقيه إذا راقبه وانتظره أى أولو مراقبة وخشية من عذاب الله تعالى كأنهم ينتظرون نزوله لاشفاقهم (يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ) الواقع منهم حسب ما حكى عنهم (إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) استثناء منقطع أى لكن قليلا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفة على أن من للبيان لا للتبعيض لأن جميع الناجين ناهون ولا صحة للاتصال على ظاهر الكلام لأنه يكون تحضيضا لأولى البقية على النهى المذكور إلا للقليل من الناجين منهم كما إذا قلت هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم مريدا لاستثناء الصلحاء من المحضضين على القراءة نعم يصح ذلك إن جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض فكأنه قيل ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلا منهم لكن الرفع هو الأفصح حينئذ على البدلية (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) بمباشرة الفساد وترك النهى عنه (مَا أُتْرِفُوا فِيهِ) أى أنعموا من الشهوات واهتموا بتحصيلها أما المباشرون فظاهر وأما المساهلون فلما لهم فى ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة وقيل المراد بهم تاركو النهى وأنت خبير بأنه يلزم منه عدم دخول مباشرى الفساد فى الظلم والاجرام عبارة (وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) أى كافرين فهو بيان لسبب استئصال الامم المهلكة وهو فشو الظلم واتباع الهوى فيهم وشيوع ترك النهى عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع عطف على مضمر دل عليه الكلام أى لم ينهوا واتبع الخ فيكون العدول إلى المظهر لادراج المباشرين معهم فى الحكم والتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب أو على استئناف يترتب على قوله إلا قليلا أى إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا من مباشرى الفساد وتاركى النهى عنه فيكون الاظهار مقتضى الظاهر وقوله وكانوا مجرمين عطف على أترفوا أى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالآثام أو أريد بالاجرام اغفالهم للشكر أو على اتبع أى اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ويجوز أن يكون اعتراضا وتسجيلا عليهم بأنهم قوم مجرمون وقرىء وأتبع أى أتبعوا جزاء ما أترفوا فتكون الواو للحال ويجوز أن يفسر به المشهور ويعضده تقدم الانجاء (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى) أى ما صح وما استقام بل استحال فى الحكمة أن يهلك القرى التى أهلكها حسبما بلغك أنباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفى وقوله (بِظُلْمٍ) أى ملتبسا به قيل هو حال من الفاعل أى ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بأن اهلاك المصلحين ظلم

عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وإلا فلا ظلم فيما يفعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة أهل السنة وقد مر تفصيله فى سورة آل عمران عند قوله تعالى وأن الله ليس بظلام للعبيد وقوله تعالى (وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقييده بما وقع حالا من فاعله أعنى بظلم لدلالته على تقييد نفى الاهلاك ظلما بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب فى فساده بل مطلقا عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية أى لا يهلك القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فسادا آخر وذلك لفرط رحمته ومسامحته فى حقوقه تعالى ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله تعالى الغنى الحميد وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم وأنت تدرى أن مقام النهى عن المنكرات التى أقبحها الاشراك بالله لا يلائمه فان الشرك داخل فى الفساد فى الأرض دخولا أوليا ولذلك كان ينهى كل من الرسل الذين قصت أنباؤهم أمته أولا عن الاشراك ثم عن سائر المعاصى التى كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصى وحمل الاصلاح على إصلاحه والاقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه وبعضهم متوجهين إلى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) مجتمعة على الحق ودين الاسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) فى الحق أى مخالفين له كقوله تعالى وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم (إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ) إلا قوما قد هداهم الله تعالى بفضله إلى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه أى لم يخالفوه وحمله على مطلق الاختلاف الشامل لما يصدر من المحق والمبطل يأباه الاستثناء المذكور (وَلِذَٰلِكَ) أى ولما ذكر من الاختلاف (خَلَقَهُمْ) أى الذين بقوا بعد الثنيا وهم المختلفون فاللام للعاقبة أو للترحم فالضمير لمن واللام فى معناها أولهما معا فالضمير للناس كافة واللام بمعنى مجازى عام لكلا المعنيين (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) أى وعيده أو قوله للملائكة (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) أى من عصاتهما أجمعين أو منهما أجمعين لا من أحدهما (وَكُلًّا) أى وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه (نَّقُصُّ عَلَيْكَ) نخبرك به وقوله تعالى (مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ) بيان لكلا وقوله تعالى (مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) بدل منه والأظهر أن يكون المضاف اليه المحذوف فى كلا المفعول المطلق لنقص أى كل اقتصاص أى كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من أنباء الرسل وقوله تعالى ما نثبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على ان المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الأمم السالفة فى تماديهم فى الضلال وما لقى الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق (وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ) السورة أو الأنباء المقصوصة عليك (الْحَقُّ) الذى لا محيد عنه (وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) أى الجامع بين كونه حقا فى نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الأول حالا له فى نفسه حلى باللام دون ما هو وصف له بالقياس إلى غيره وتقديم الظرف أعنى فى هذه على الفاعل لأن المقصود بيان منافع السورة أو الأنباء المقصوصة فيها واشتمالها على ما ذكر من المنافع المفصلة لا بيان كون ذلك فيها لا فى غيرها ولأن عند تأخير ما حقه التقديم تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولأن فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم (وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) بهذا الحق ولا يتعظون به ولا يتذكرون (اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ) على حالكم وجهتكم التى هى عدم الايمان (إِنَّا عَامِلُونَ) على حالنا وهو الايمان به والاتعاظ والتذكر به (وَانتَظِرُوا) بنا الدوائر

(إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) أن ينزل بكم نحو ما نزل بأمثالكم من الكفرة (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) فيرجع لامحالة أمرك وأمرهم إليه وقرىء على البناء للفاعل من رجع رجوعا (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) فانه كافيك والفاء لترتيب الأمر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله تعالى وفى تأخير الأمر بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعار بأنه لاينفع دونها (وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) فيجازيهم بموجبه وقرىء تعملون على تغليب المخاطب أى أنت وهم فيجازى كلا منك ومنهم بموجب الاستحقاق . عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرأ سورة هود أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق كل واحد من الأنبياء المعدودين فيها عليهم الصلاة والسلام وبعدد من كذبهم وكان يوم القيامة من السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى .

سورة يوسف عليه السلام

(وهى مائة وإحدى عشرة آية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

(الر) الكلام فيه وفى محله وفيما أريد بالإشارة والآيات والكتاب فى قوله تعالى (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) عين ما سلف فى مطلع سورة يونس (الْمُبِينِ) من أبان بمعنى بان أى الظاهر أمره فى كونه من عند الله تعالى وفى إعجازه بنوعيه لاسيما الاخبار عن الغيب أو الواضح معانيه للعرب بحيث لايشتبه عليهم حقائقه ولا يلتبس لديهم دقائقه لنزوله على لغتهم أو بمعنى بين أى المبين لما فيه من الأحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين فى الدارين وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة فابانته انباؤه عن قصة يوسف عليه السلام فانه قد روى أن أحبار اليهود قالوا لرؤساء المشركين سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم لماذا انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام ففعلوا ذلك فيكون وصف الكتاب بالإبانة من قبيل براعة الاستهلال لما سيأتى ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتى عقب ذلك بما يدل على الشرف الاضافى فقيل (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) أى الكتاب المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة فان كان عبارة عن الكل وهو الأظهر الأنسب بقوله تعالى (قُرْآنًا عَرَبِيًّا) إذ هو المشهور بهذا الاسم المعروف بهذا النعت المتسارع إلى الفهم عند إطلاقهما فالأمر ظاهر وإن جعل عبارة عن السورة فتسميتها قرآنا لما عرفته فيما سلف والسر فى ذلك أنه اسم جنس فى الأصل يقع على الكل والبعض كالكتاب أو لأنه مصدر بمعنى المفعول أى أنزلناه حال كونه مقروءا بلغتكم (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أى لكى تفهموا معانيه طرا وتحيطوا بما فيه من البدائع خبرا وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر منزل من عند خلاق القوى والقدر (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ) أى نخبرك ونحدثك واشتقاقه من قص أثره إذا اتبعه لأن من يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيأ فشيأ كما يقال تلا القرآن لأنه يتبع ما حفظ منه آية بعد آية (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) أى أحسن الاقتصاص فنصبه على المصدرية وفيه مع بيان الواقع إيهام لما فى اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل وترك المفعول إما للاعتماد على انفهامه من قوله عز وجل (بِمَا أَوْحَيْنَا) أى بايحائنا (إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ) أى هذه السورة فان كونها موحاة منبىء عن كون ما فى ضمنها مقصوصا والتعرض لعنوان قرآنيتها لتحقيق أن الاقتصاص ليس بطريق الالهام أو الوحى غير المتلو وإما لظهوره من سؤال المشركين بتلقين علماء اليهود وأحسنيته لأنه قد اقتص على أبدع الطرائق الرائعة الرائقة وأعجب الأساليب الفائقة اللائقة كما لا يكاد يخفى على من طالع القصة من كتب الأولين والآخرين وإن كان لا يميز الغث من السمين ولا يفرق بين الشمال

واليمين وفى كلمة هذا الإيماء إلى مغايرة هذا القرآن لما فى قوله تعالى قرآنا عربيا بأن يكون المراد بذلك المجموع فتأمل أو نقص عليك أحسن ما نقص من الأنباء وهو قصة آل يعقوب عليه السلام على أن القصص فعل بمعنى المفعول كالنبأ والخبر أو مصدر سمى به المفعول كالخلق والصيد ونصب أحسن على المفعولية وأحسنيتها لتضمنها من الحكم والعبر مالا يخفى كمال حسنه (وَإِنْ كُنْتَ) إن مخففة من الثقيلة وضمير الشأن الواقع اسمها محذوف واللام فارقة والجملة خبر والمعنى وإن الشأن كنت (مِنْ قَبْلِهِ) من قبل إيحائنا اليك هذه السورة (لَمِنَ الغٰفِلِينَ) عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط وهو تعليل لكونه موحى والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لاجلال شأن النبى عليه السلام وإن غفل عنه بعض الغافلين (إِذْ قَالَ يُوسُفُ) نصب باضمار اذكر وشروع فى القصة انجازا للوعد بأحسن الاقتصاص أو بدل من أحسن القصص على تقدير كونه مفعولا بدل اشتمال فان اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص من حيث اشتماله عليه اقتصاص للمقصوص ويوسف اسم عبرى لاعربى لخلوه عن سبب آخر غير التعريف وفتح السين وكسرها على بعض القراءات بناء على التلعب به لا على أنه مضارع بنى للمفعول أو الفاعل من آسف لشهادة المشهورة بعجمته (لِأَبِيهِ) يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقد روى عنه عليه السلام ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم (يٰأَبَتِ) أصله ياأبى فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة فلذلك قلبت هاء فى الوقف على قراءة ابن كثير وأبى عمرو ويعقوب وكسرتها لأنها عوض عن حرف يناسبها وفتحها ابن عامر فى كل القرآن لأنها حركة أصلها أو لأن الأصل ياأبتا فحذف الألف وبقى الفتحة وإنما لم يجز ياأبتى لأنه جمع بين العوض والمعوض وقرىء بالضم إجراء لها مجرى الألفاظ المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض وعدم تسكينها كأصلها لأنها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب (إِنِّى رَأَيْتُ) من الرؤيا لا من الرؤية لقوله لا تقصص رؤياك هذا تأويل رؤياى ولأن الظاهر أن وقوع مثل هذه الأمور البديعة فى عالم الشهادة لا يختص برؤية راء دون راء فيكون طامة كبرى لا يخفى على أحد من الناس (أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ) روى عن جابر رضى الله عنه أن يهوديا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنى يامحمد عن النجوم التى رآهن يوسف عليه السلام فسكت النبى عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه السلام إذا أخبرتك بذلك هل تسلم فقال نعم قال عليه السلام جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرع ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف عليه السلام والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودى اى والله انها لاسماؤها وقيل الشمس والقمر أبواه وقيل أبوه وخالته والكواكب اخوته وإنما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها كما فى عطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام وقد جوز أن تكون الواو بمعنى مع أى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ولا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لاخوته وعن وهب أن يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة فى الارض كهيئة الدارة وإذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لابيه فقال إياك أن تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لا تقصها عليهم فيبغوا لك الغوائل وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة وقيل ثمانون (رَأَيْتُهُمْ لِى سٰجِدِينَ) استئناف ببيان حالهم التى رآهم عليها كأن سائلا سأل فقال كيف رأيتهم فأجاب بذلك وإنما أجريت مجرى العقلاء فى الضمير لوصفها بوصف

العقلاء أعنى السجود وتقديم الجار والمجرور لاظهار العناية والاهتمام بما هو الاهم مع مافى ضمنه من رعاية الفاصلة (قالَ يٰبُنَىَّ) صغره للشفقة أولها ولصغر السن وهو أيضا استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة ولماعرف يعقوب عليه السلام من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله تعالى مبلغا جليلا من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام خاف عليه حسد الاخوة وبغيهم فقال صيانة لهم من ذلك وله من معاناة المشاق ومقاساة الاحزان وان كان واثقا بأن الله تعالى سيحقق ذلك لامحالة وطمعا فى حصوله بلا مشقة (لاتقصُص رُءْياكَ) هى ما فى المنام كما أن الرؤية مافى اليقظة فرق بينهما بحرفى التأنيث كما فى القربى والقربة وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق من المعانى الحاصلة هناك ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم إذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والا احتاجت اليه (عَلىٰ إخوتكَ فيكيدُوا) نصب باضمار أن أى فيفعلوا (لكَ) أى لاجلك ولاهلاكك (كيداً) متينا راسخا لاتقدر على التفصى عنه أو خفيا عن فهمك لاتتصدى لمدافعته وهذا أوفق بمقام التحذير وان كان يعقوب عليه السلام يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل مادلت الرؤيا على وقوعه وهذا الأسلوب آكد من أن يقال فيكيدوك كيداً إذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصود الايقاع وقد قيل إنما جىء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدى باللام ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتأكيد أى فيحتالوا لك ولاهلاكك حيلة وكيدا والمراد باخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم بنو علاته الاحد عشر وهم يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينة بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالى وجاد وآشر بنوه من سريتين زلفة وبلهة وهؤلاء هم المشار اليهم بالكواكب الاحد عشر وأما بنيامين الذى هو شقيق يوسف عليه السلام وأمهما راحيل التى تزوجها يعقوب عليه السلام بعد وفاة أختها ليا أو فى حياتها إذ لم يكن جمع الاختين إذ ذاك محرما فليس بداخل تحت هذا النهى إذ لا يتوهم مضرته ولا يخشى معرته ولم يكن معدودا معهم فى الرؤيا إذ لم يكن معهم فى السجود ليوسف والمراد نهيه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلا أو بعضا (إنَّ الشَّيطٰنَ لِلإنسٰنِ عَدُوٌّ مُّبينٌ) ظاهر العداوة فلا يألو جهدا فى اغواء اخوتك واضلالهم وحملهم على مالاخير فيه وهو استئناف كأن يوسف عليه السلام قال كيف يصدر ذلك عن اخوتى الناشئين فى بيت النبوة فقيل ان الشيطان يحملهم على ذلك ولما نبه عليهما السلام على أن لرؤياه شأنا عظيما يستتبع منافع وحذره اشاعتها المؤدية إلى أن يحول اخوته بينها وبين ظهور آثارها وحصولها أو يوعروا سبيل وصولها شرع فى تعبيرها وتأويلها على وجه اجمالى فقال (وكذٰلكَ) أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الاجرام العلوية النيرة لك وبحسبه وعلى وفقه (يجتبيكَ رَبُّكَ) يختارك لجناب كبريائه ويستنبؤك افتعال من جباه إذا جمعه ويصطفيك على أشراف الخلائق وسراة الناس قاطبة ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة حسب ماعينته من غير قصور والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحققة بين الصور المرئية فى عالم المثال وبين ماوقعت هى صورا وأشباحا له من الكائنات الظاهرة بحسبها فى عالم الشهادة أى كما سخرت لك تلك الاجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيان اطاعة ابويه واخوته له لكنه إنما لم يصرح به حذرا من اذاعته (ويُعَلِّمكَ) كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيد مقالته

وتحقيقها وتوطين نفس يوسف عليه السلام بما أخبر به على طريقة التعبير والتأويل كأنه قال وهو يعلمك (مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) أى ذلك الجنس من العلوم أو طرفا صالحا منه فتطلع على حقية ما أقول ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق والبعث على تلقى ما سيأتى بالقبول والمراد بتأويل الأحاديث تعبير الرؤيا إذ هى أحاديث الملك ان كانت صادقة أو أحاديث النفس أو الشيطان ان لم تكن كذلك والأحاديث اسم جمع للحديث كالاباطيل اسم جمع للباطل لا جمع أحدوثة وقيل كأنهم جمعوا حديثا على أحدثة ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع وأقطعة وأقاطيع وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء عليهم السلام والأول هو الأظهر وتسمية التعبير تأويلا لأنه جعل المرئى آئلا إلى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ورجعه اليه فكأنه عليه الصلاة والسلام أشار بذلك إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك وكون ذلك ذريعة إلى ما يبلغه الله تعالى اليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها باتمام النعمة وإنما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحى أو أراد كون هذه الخصلة سببا لظهور أمره عليه السلام على الاطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفته عليه السلام لذلك بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والامارات والمخايل بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لابد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها وتمييز ما هو آفاقى منها عما هو أنفسى كيف لا وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة وأقوى وقوفا على النسب الواقعة بين الصور المعاينة فى أحد ذينك العالمين وبين الكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر وأن هذا الشأن البديع لابد أن يكون انموذجا لظهور أمر من اتصف به ومدارا لجريان أحكامه فان لكل نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة بها تظهر آثاره وتجرى أحكامه (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) بأن يضم إلى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك ويجعله تتمة لها وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتباء ولرعاية ترتيب الوجود الخارجى ولما أشرنا اليه من كون أثره وسيلة إلى تمام النعمة ويجوز أن يعد نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة اليه بحسبها مصداقا لها تماما لتلك النعمة (وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ) وهم أهله من بنيه وغيرهم فان رؤية يوسف عليه السلام اخوته كواكب يهتدى بأنوارها من نعم الله تعالى عليهم لدلالتها على مصير أمرهم إلى النبوة فيقع كل ما يخرج من القوة إلى الفعل من كمالاتهم بحسب ذلك تماما لتلك النعمة لا محالة وأما إذا أريد بتمام تلك النعمة الملك فكونه كذلك بالنسبة اليهم باعتبار أنهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال (كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ) نصب على المصدرية أى ويتم نعمته عليك اتماما كائنا كاتمام نعمته على أبويك وهى نعمة الرسالة والنبوة واتمامها على ابراهيم عليه السلام باتخاذه خليلا وانجائه من النار ومن ذبح الولد وعلى اسحق بانجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم وباخراج يعقوب والاسباط من صلبه وكل ذلك نعم جليلة وقعت تتمة لنعمة النبوة ولا يجب فى تحقيق التشبيه كون ذلك فى جانب المشبه به مثل ما وقع فى جانب المشبه من كل وجه (مِنْ قَبْلُ) أى من قبل هذا الوقت أو من قبلك (إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ) عطف بيان لابويك والتعبير عنهما بالاب مع كونهما أبا جده وأبا أبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وتذكير معنى الولد سر أبيه ليطمئن قلبه بما أخبر به فى ضمن التعبير الاجمالى لرؤياه والاقتصار فى المشبه به على ذكر اتمام النعمة من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء فان اتمام النعمة يقتضى سابقة النعمة المستدعية للاجتباء لا محالة (إِنَّ رَبَّكَ) استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة أى يفعل ما ذكر لانه (عَلِيمٌ) بكل شىء فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من التعليم المذكور واتمام النعمة العامة على الوجه المذكور (حَكِيمٌ) فاعل لكل شىء حسبما تقتضيه

الحكمة والمصلحة فيفعل ما يفعل كما يفعل جريا على سنن علمه وحكمته والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين لتربية تحقق وقوع ماذكر من الأفاعيل هذا وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة أى وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس يجتبيك ربك للنبوة والملك أو لأمور عظام ويتم نعمته عليك بالنبوة أو بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم فى الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا فى الجنة كما أتمها على أبويك بالرسالة فتأمل والله الهادى (لقد كان فى يوسف وإخوته) أى فى قصتهم والمراد بهم ههنا اما جميعهم فان لبنيامين أيضا حصة من القصة أو بنو علاته المعدودون دون فيما سلف إذ عليهم يدور رحاها (ءايت) علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة (للسائلين) لكل من سأل عن قصتهم وعرفها أو الطالبين للآيات المعتبرين بها فانهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون فالمراد بالقصة نفس المقصوص أو على نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين أو اليهود عن قصتهم فأخبرهم بذلك على ماهى عليه من غير سماع من أحد ولا ممارسة شىء من الكتب فالمراد بها اقتصاصها وجمع الآيات حينئذ للاشعار بان اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية من الدلالة على نبوته عليه السلام على نحو ما ذكر فى قوله تعالى مقام ابراهيم على تقدير كونه عطف بيان لقوله تعالى آيات بينات لا لما قيل من أنه لتعدد جهة الإعجاز لفظا ومعنى وقرأ ابن كثير آية وفى بعض المصاحف عبرة وقيل إنما قص الله تعالى على النبى صلى الله عليه وسلم خبر يوسف وبغى اخوته عليه لما رأى من بغى قومه عليه ليأتسى به (إذ قالوا ليوسف وأخوه) أى شقيقه بنيامين وإنما لم يذكر باسمه تلويحا لأن مدار المحبة أخوته ليوسف من الطرفين ألا يرى إلى أنهم كيف اكتفوا باخراج يوسف من البين من غير تعرض له حيث قالوا اقتلوا يوسف (أحب إلى أبينا منا) وحد الخبر مع تعدد المبتدأ لأن أفعل من كذا لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث نعم إذا عرف وجب الفرق وإذا أضيف جاز الأمران وفائدة لام الابتداء فى يوسف تحقيق مضمون الجملة وتأكيده (ونحن عصبة) أى والحال أنا جماعة قادرون على الحل والعقد أحقاء بالمحبة والعصبة والعصابة العشرة من الرجال فصاعداً سموا بذلك لأن الأمور تعصب بهم (إن أبانا) فى ترجيحهما علينا فى المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل من كفاية الأمور بالصغر والقلة (لفى ضلل) أى ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منا منزلته (مبين) ظاهر الحال . روى أنه كان أحب اليه لما يرى فيه من مخايل الخير وكانت اخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتضاعف حسدهم حتى حملهم على مباشرة ماقص عنهم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) من جملة ما حكى بعد قوله إذ قالوا وقد قاله بعض منهم مخاطب للباقين بقضية الصيغة فكأنهم رضوا بذلك كما روى أن القائل شمعون أو دان والباقون كانوا راضين إلا من قال لا تقتلوا الخ فجعلوا كأنهم القائلون وأدرجوا تحت القول المسند إلى الجميع أو قاله كل واحد منهم مخاطباً للبقية وهو أدل على مسارعتهم إلى ذلك القول وتنكير أرضا واخلاؤها من الوصف للابهام أى أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المبهمة (يخل) بالجزم جواب للأمر أى يخلص (لكم وجه أبيكم) فيقبل عليكم بكليته ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا يساهمكم فى محبته أحد فذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم (وتكونوا) بالجزم عطفا على يخل أو بالنصب على اضمار أن والواو بمعنى مع مثل قوله وتكتموا الحق وإيثار الخطاب فى لكم وما بعده للمبالغة فى حملهم على القبول فان اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (من بعده) من بعد يوسف أى من بعد الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه (قوما صلحين) تائبين إلى الله تعالى عما

جنيتم أو صالحين مع أبيكم باصلاح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه أو صالحين فى أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلو وجه أبيكم (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ) هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيا وهو الذى قال فلن أبرح الأرض الخ وقيل روبيل وهو استئناف مبنى على سؤال من سأل وقال اتفقوا على ما عرض عليهم من خصلتى الضيع أم خالفهم فى ذلك أحد فقيل قال قائل منهم (لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ) أظهره فى مقام الاضمار استجلابا لشفقتهم عليه أو استعظاما لقتله وهو هو فانه يروى أنه قال لهم القتل عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الأخرى وأحاله على أولوية ما عرضه عليهم بقوله (وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ) أى فى قعره وغوره سمى بها لغيبته عن عين الناظر والجب البئر التى لم تطو بعد لأنها أرض جبت جبا من غير أن يزاد على ذلك شىء وقرأ نافع فى غيابات الجب فى الموضعين كأن لتلك الجب غيابات أو أراد بالجب الجنس أى فى بعض غيابات الجب وقرىء غيابات وغيبة (يَلْتَقِطْهُ) يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فان الالتقاط أخذ شىء مشرف على الضياع (بَعْضُ السَّيَّارَةِ) أى بعض طائفة تسير فى الأرض واللام فى السيارة كما فى الجب وما فيهما وفى البعض من الابهام لتحقيق ما يتوخاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذى هو تنائى يوسف عنهم بحيث لا يدرى أثره ولا يروى خبره وقرىء تلتقطه على التأنيث لأن بعض السيارة سيارة كقوله :

كما شرقت صدر القناة من الدم   ومنه قطعت بعض أصابعه

(إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) بمشورتى لم يبت القول عليهم بل إنما عرض عليهم ذلك تأليفا لقلبهم وتوجيها لهم إلى رأيه وحذرا من نسبتهم له إلى التحكم والافتيات أو ان كنتم فاعلين ما أزمعتم عليه من ازالته من عند أبيه لا محالة ولما كان هذا مظنة لسؤال سائل يقول فما فعلوا بعد ذلك هل قبلوا ذلك منه أو لا أجيب بطريق الاستئناف على وجه أدرج فى تضاعيفه قبولهم له بما سيجىء من قوله وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب فقيل (قَالُوا يَا أَبَانَا) خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه وبينهم وتذكيرا لرابطة الاخوة بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك إلى استنزاله عليه السلام عن رأيه فى حفظه منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغى فكأنهم قالوا (مَا لَكَ) أى أى شىء لك (لَا تَأْمَنَّا) أى لا تجعلنا أمناء (عَلَى يُوسُفَ) مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) مريدون له الخير ومشفقون عليه ليس فينا ما يخل بالنصيحة والمقة قط والقراءة المشهورة بالادغام والاشمام وعن نافع رضى الله عنه ترك الاشمام ومن الشواذ ترك الادغام (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا) إلى الصحراء (يَرْتَعْ) أى يتسع فى أكل الفواكه ونحوها فان الرتع هو الاتساع فى الملاذ (وَيَلْعَبْ) بالاستباق والتناضل ونظائرهما مما يعد من باب التأهب للغزو وإنما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقا لما راموه من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله عليه السلام وقرىء نرتع ونلعب بالنون وقرىء ابن كثير نرتع من ارتعى ونافع بالكسر والياء فيه وفى يلعب وقرىء يرتع من أرتع ماشيته ويرتع بكسر العين ويلعب بالرفع على الابتداء (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) من أن يناله مكروه أكدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من ايراد الجملة اسمية وتحليتها بأن واللام وإسناد الحفظ إلى كلهم وتقديم له على الخبر احتيالا فى تحصيل مقصدهم (قَالَ) استئناف مبنى على سؤال من يقول فماذا قال يعقوب عليه السلام فقيل قال (إِنِّى لَيَحْزُنُنِى) اللام للابتداء كما فى قوله عز وجل إن ربك ليحكم بينهم (أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ) لشدة مفارقته على وقلة صبرى عنه (وَ) مع ذلك (أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) لأن الأرض كانت مذأبة والحزن ألم القلب بفوت المحبوب والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك أسند الأول إلى الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف والثانى إلى ما يتوقع نزوله من أكل الذئب وقيل رأى فى المنام أنه قد شد عليه عليه السلام ذئب وكان يحذره فقال ذلك وقد لقنهم العلة ان البلاء موكل بالمنطق وقرأ ابن كثير ونافع فى رواية

البزى بالهمز على الاصل وأبو عمرو به وقفا وعاصم وابن عامر وحمزة درجا وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح إذا هاجت من كل جانب وقال الأصمعى الأمر بالعكس وهو أظهر لفظا ومعنى (وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ) لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) أى والحال أنا جماعة كثيرة جديرة بأن يعصب بنا الأمور العظام وتكفى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا واللام الداخلة على الشرط موطئة للقسم وقوله (إِنَّا إِذًا لَخَٰسِرُونَ) جواب مجزىء عن الجزاء أى لهالكون ضعفا وخورا وعجزا أو مستحقون للهلاك إذ لاغناء عندنا ولا جدوى فى حياتنا أو مستحقون لأن يدعى علينا بالخسار والدمار ويقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حيث أكل الذئب بعضهم وهم حضور وقيل إن لم نقدر على حفظه وهو أعز شىء عندنا فقد هلكت مواشينا اذن وخسرناها وإنما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لأنه السبب القوى فى المنع دون الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا) أى أزمعوا (أَن يَجْعَلُوهُ) مفعول لاجمعوا يقال أجمع الامر ومنه فأجمعوا أمركم ولا يستعمل ذلك الا فى الافعال التى قويت الدواعى إلى فعلها (فِى غَيَٰبَتِ الْجُبِّ) قيل هى بئر بأرض الاردن وقيل بين مصر ومدين وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التى هى من نواحى الاردن كما أن مدين كذلك وأما مايقال من أنها بئر بيت المقدس فيرده التعليل بالتقاط السيارة ومجيئهم أباهم عشاء ذلك اليوم فان بين منزل يعقوب عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل وجواب لما محذوف ايذانا بظهوره وإشعارا بأن تفصيله مما لايحويه فلك العبارة ومجمله فعلوا به من الاذية مافعلوا . يروى أنهم لما برزوا الى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا أما عاهدتمونى أن لاتقتلوه فأتوا به الى البئر فتعلق بثيابهم فنزعوها من يديه فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالا لأبيه فقال ياإخوتاه ردوا على قميصى أتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا تؤنسك فدلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكى فنادوه وظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه فمنعهم يهوذا وكان يأتيه بالطعام كل يوم ويروى أن ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التميمة فألبسه إياه (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ) عند ذلك تبشيرا له بما يؤول اليه أمره وإزالة لوحشته وإيناسا له قيل كان ذلك قبل إدراكه كما أوحى الى يحيى وعيسى وقيل كان اذ ذاك مدركا قال الحسن رضى الله عنه كان له سبع عشرة سنة (لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا) أى لتتخلصن مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتحدثن اخوتك بما فعلوا بك (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) بأنك يوسف لتباين حاليك حالك هذا وحالك يومئذ لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم وقيل لبعد العهد المبدل للهيئات المغير للاشكال والاول أدخل فى التسلية روى أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وكان يدنيه دونكم وأنكم انطلقتم به وألقيتموه فى غيابة الجب وقلتم لابيكم أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس ويجوز أن يتعلق وهم لايشعرون بالايحاء على معنى أنا آنسناه بالوحى وأزلنا عن قلبه الوحشة التى أورثوه وهم لايشعرون بذلك ويحسبون أنه مرهق ومستوحش لا أنيس له وقرىء لننبئنهم بالنون على أنه وعيد لهم فقوله تعالى وهم لايشعرون متعلق بأوحينا لاغير (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً) آخر النهار وقرىء عشيا وهو تصغير عشى وعشى بالضم والقصر جمع أعشى أى عشوا من البكاء (يَبْكُونَ)

متباكين . روى أنه لما سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم فزع وقال مالكم يابنى وأين يوسف (قالُوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق) أى متسابقين فى العدو والرمى وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل ونظائرهما (وتركنا يوسف عند متاعنا) أى ما نتمتع به من الثياب والازواد وغيرهما (فأكله الذئب) عقيب ذلك من غير مضى زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد وحيث لا يكاد يطرح المتاع عادة إلا فى مقام يؤمن فيه الغوائل لم يعد تركه عليه السلام عنده من باب الغفلة وترك الحفظ الملتزم لاسيما إذا لم يبرحوه ولم يغيبوا عنه فكأنهم قالوا إنا لم نقصر فى محافظته ولم نغفل عن مراقبته بل تركناه فى مأمننا ومجمعنا بمرأى منا لأن ميدان السباق لا يكون عادة إلا بحيث يتراءى غايتاه وما فارقناه إلا ساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان (وما أنت بمؤمن لنا) بمصدق لنا فى هذه المقالة الدالة على عدم تقصيرنا (ولو كنا) عندك وفى اعتقادك (صادقين) موصوفين بالصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا وكلمة لو فى أمثال هذه المواقع لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره من الأحوال بطريق الاولوية لما أن الشيء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها وقد مر تفصيله فى سورة البقرة عند قوله تعالى أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون وفى سورة الأعراف عند قوله تعالى أولو كنا كارهين (وجاءُوا على قميصه) محله النصب على الظرفية من قوله (بدم) أى جاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحمال أو على الحالية منه والخلاف فى تقدم الحال على المجرور فيما إذا لم يكن الحال ظرفا (كذب) مصدر وصف به الدم مبالغة أو مصدر بمعنى المفعول أى مكذوب فيه أو بمعنى ذى كذب أى ملابس لكذب وقرىء كذبا على أنه حال من الضمير أى جاؤا كاذبين أو مفعول له وقرأت عائشة رضى الله تعالى عنها بغير المعجمة أى كدر وقيل طرى قال ابن جنى أصله من الكدب وهو الفوف البياض الذى يخرج على أظفار الاحداث كأنه دم قد أثر فى قميصه . روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم أن يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال أين القميص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان فى قميص يوسف عليه السلام ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف عليه السلام حين قد من دبر (قال) استئناف مبنى على سؤال فكأنه قيل ماقال يعقوب هل صدقهم فيما قالوا أم لا فقيل قال لم يكن ذلك (بل سولت لكم أنفسكم) أى زينت وسهلت قاله ابن عباس رضى الله عنهما والتسويل تقدير شيء فى النفس مع الطمع فى اتمامه فقال الازهرى كأن التسويل تفعيل من سؤال الإنسان وهو أمنيته التى يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره وأصله مهموز وقيل من السول وهو الاسترخاء (أمرا) من الأمور منكرا لا يوصف ولا يعرف (فصبر جميل) أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل أو أمثل وفى الحديث الصبر الجميل الذى لا شكوى فيه أى إلى الخلق والا فقد قال يعقوب عليه السلام إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وقيل سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فقيل له ما هذا قال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله عز وجل اليه يا يعقوب أتشكونى قال يارب خطيئة فاغفرها لى وقرأ أبى فصبرا جميلا (والله المستعان) أى المطلوب منه العون وهو إنشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرة (على ما تصفون) على اظهار حال ما تصفون وبيان كونه كذبا واظهار سلامته

فانه علم في الكذب قال سبحانه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وهو الأليق بما سيجيء من قوله تعالى فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا وتفسير المستعان عليه باحتمال مايصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه يأباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك ولا تساعده الصيغة فانها قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه كما أشير اليه (وَجَاءَتْ) شروع في بيان ماجرى على يوسف في الجب بعد الفراغ من ذكر ماوقع بين إخوته وبين أبيه والتعبير بالمجيء ليس بالنسبة إلى مكانهم فان كنعان ليس بالجانب المصري من مدين بل إلى مكان يوسف وفي إيثاره على المرور أو الاتيان أو نحوهما إيماء إلى كونه عليه السلام في الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر والظاهر أن الجب كان في الأمم المتناء فان المتبادر من إسناد المجيء إلى السيارة مطلقا في قوله عز وجل وجاءت (سَيَّارَةٌ) أي رفقة تسير من جهة مدين إلى مصر وقوعه باعتبار سيرهم المعتاد وهو الذي يقتضيه قوله تعالى فيما سلف يلتقطه بعض السيارة وقد قيل إنه كان في قفرة بعيدة من العمران لم تكن إلا للرعاة فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين ألقي فيه عليه السلام (فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ) الذي يرد الماء ويستقي لهم وكان ذلك مالك بن ذعر الخزاعي وإنما لم يذكر منتهى الارسال كما لم يذكر منتهى المجيء أعني الجب للايذان بأن ذلك معهود لا يضرب عنه الذكر صفحا (فَأَدْلَى دَلْوَهُ) أي أرسلها إلى الجب والحذف لما عرفته فتدلى بها يوسف فخرج (قَالَ) استئناف مبني على سؤال يقتضيه الحال (يَا بُشْرَايَ هَذَا غُلَامٌ) كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك حيث فاز بنعمة باردة وأي نعمة مكان مايوجد مباحا من الماء وقيل هو اسم صاحب له ناداه ليعينه على إخراجه وقرأ غير الكوفيين يابشراي وأمال فتحة الراء حمزة والكسائي وقرأ ورش بين اللفظين وقرئ يابشري بالادغام وهي لغة وبشراي على قصد الوقف (وَأَسَرُّوهُ) أي أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة وقيل اخفوا أمره ووجدانهم له في الجب وقالوا له دفعه الينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لاخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلامنا أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ولا يخفى مافيه من البعد (بِضَاعَةً) نصب على الحالية أي أخفوه حال كونه بضاعة أي متاعا للتجارة فانها قطعة من المال بضعت عنه أي قطعت للتجارة (وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) وعيد لهم على ماصنعوا من جعلهم مثل يوسف وهو هو عرضة للابتذال بالبيع والشراء وما دبروا في ذلك من الحيل (وَشَرَوْهُ) أي باعوه والضمير للوارد وأصحابه (بِثَمَنٍ بَخْسٍ) زيف ناقص العيار (دَرَاهِمَ) بدل من ثمن أي لا دنانير (مَعْدُودَةٍ) أي غير موزونة فهو بيان لقلته ونقصانه مقدارا بعد بيان نقصانه في نفسه إذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العد دون الوزن فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها كانت عشرين درهما وعن السدي رضي الله عنه أنها كانت اثنين وعشرين درهما (وَكَانُوا) أي البائعون (فِيهِ) في يوسف (مِنَ الزَّاهِدِينَ) من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس وسبب ذلك أنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به أو غير واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن ويجوز أن يكون معنى شروه اشتروه من اخوته على ماحكي وهم غير راغبين في شراه خشية ذهاب مالهم لما طن في آذانهم من الاباق والعدول عن صيغة الافتعال المنبئة عن الاتخاذ لما مر من أن أخذهم إنما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء وفيه متعلق بالزاهدين إن جعل اللام للتعريف وبيان لما زهدوا فيه ان جعلت موصولة كأنه قيل في أي شيء زهدوا فقيل زهدوا فيه لأن مايتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ) وهو العزيز الذي كان على خزائنه واسمه قطفير أو اطفير وبيان كونه من مصر لتربية مايتفرع عليه من الأمور مع الاشعار بكونه غير

من اشتراه من الملتقطين بما ذكر من الثمن البخس وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليق ومات فى حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه إلى الاسلام فأبى وقيل كان الملك فى أيامه فرعون موسى عليه السلام عاش أربعمائة سنة لقوله عز وجل ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء واختلف فى مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين دينارا وزوجى نعل وثوبين أبيضين وقيل أدخلوه فى السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا ووزنه ورقا ووزنه حريرا فاشتراه قطفير بذلك المبلغ وكان سنه إذ ذاك سبع عشرة سنة وأقام فى منزله مع ما مر عليه من مدة لبثه فى السجن ثلاث عشر سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة (لِامْرَأَتِهِ) راعيل أو زليخا وقيل اسمها هو الأول والثانى لقبها واللام متعلقة بقال لا باشتراه (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) اجعلى محل إقامته كريما مرضيا والمعنى أحسنى تعهده (عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا) فى ضياعنا وأموالنا ونستظهر به فى مصالحنا (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) أى نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة ولذلك قيل أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب التى قالت يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما (وَكَذَٰلِكَ) نصب على المصدرية وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلام العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه أى مثل ذلك التمكين البديع (مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) أى جعلناه فيها مكانا يقال مكنه فيه أى أثبته فيه ومكن له فيه أى جعل له فيه مكانا ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كل منهما فى محل الآخر قال عز وجل وكم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم أى ما لم نمكنكم فيها أو مكنا لهم فى الأرض الخ والمعنى كما جعلنا له مثوى كريما فى منزل العزيز أو مكانا عليا فى قلبه حتى أمر امرأته دون سائر حواشيه باكرام مثواه جعلنا له مكانة رفيعة فى أرض مصر ولعله عبارة عن جعله وجيها بين أهلها ومحببا فى قلوبهم كافة كما فى قلب العزيز لأنه الذى يؤدى إلى الغاية المذكورة فى قوله تعالى (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) أى نوفقه لتعبير بعض المنامات التى عمدتها رؤيا الملك وصاحبى السجن لقوله تعالى ذلكما مما علمنى ربى سواء جعلناه معطوفا على غاية مقدرة ينساق اليها الكلام ويستدعيها النظام كأنه قيل ومثل ذلك التمكين مكنا ليوسف فى الأرض وجعلنا قلوب أهلها كافة محال محبته ليترتب عليه ما ترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه بعض تأويل الأحاديث وهو تأويل الرؤيا المذكورة فيؤدى ذلك إلى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف عليه للاشعار بعدم كونه مرادا بالذات أو جعلناه علة لمعلل محذوف كأنه قيل ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولا يخفى عليك أن الذى عليه تدور هذه الامور إنما هو التمكين فى جانب العزيز وأما التمكين فى جانب الناس كافة فتأديته إلى ذلك إنما هى باعتبار اشتماله على ذلك التمكين فاذن الحق أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر قوله تعالى مكنا ليوسف على أن يكون هو عبارة عن التمكين فى قلب العزيز أو فى منزله وكون ذلك تمكينا فى الارض بملابسة أنه عزيز فيها لا عن تمكين آخر يشبه به كما مر فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا من أن ذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده لا إلى جعل آخر يقصد تشبيه هذا الجعل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شأن المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل وهكذا ينبغى أن يحقق المقام واما التمكين بمعنى جعله ملكا يتصرف فى ارض مصر بالامر والنهى فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرعة عليه كما عرفته لا من مباديه المؤدية اليه فلا سبيل إلى جعله غاية له ولم يعهد منه عليه السلام فى تضاعيف قضاياه العمل بموجب المنامات المنبهة على الحوادث قبل

وقوعها عهداً مصححاً لجعله غاية لولايته وما وقع من التدارك فى أمر السنين فانما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة اللهم إلا أن يراد بتعليم تأويل الأحاديث ما سبق من تفهيم غوامض أسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الأنبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكناله فى أرض مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معانى كتب الله تعالى وأحكامها ودقائق سنن الأنبياء عليهم السلام فيقضى بها فيما بين أهلها والتعليم الإجمالى لتلك المعانى والأحكام وان كان غير متأخر عن تمكينه بذلك المعنى إلا أن تعليم كل معنى شخصى يتفق فى ضمن الحوادث والإرشاد إلى الحق فى كل نازلة من النوازل متأخر عن ذلك صالح لأن يكون غاية له (وَاللهُ غالِبٌ عَلىٰ أَمْرِهِ) لا يستعصى عليه أمر ولا يمانعه شىء بل إنما أمره لشىء إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فيدخل فى ذلك شئونه المتعلقة بيوسف دخولا أوليا أو متول على أمر يوسف لا يكله إلى غيره وقد أريد به من الفتنة ما أريد مرة غب مرة فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة (وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ) أن الأمر كذلك فيأتون ويذرون زعما منهم أن لهم من الأمر شيئا وأنى لهم ذلك وأن الأمر كله لله عز وجل أولا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله (وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ) أى منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف ما بين الثلاثين إلى الأربعين وقيل سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم والأول هو الأظهر لقوله تعالى (آتَيْناهُ حُكْماً) حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس وفقها أو نبوة (وَعِلْماً) أى تفقها فى الدين وتنكيرهما للتفخيم أى حكما وعلما لا يكتنه كنههما ولا يقادر قدرهما فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه سواء كانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس أو غيرهما كيف لا وقد جعل إيتاؤهما جزاء لعمله عليه السلام حيث قيل (وَكَذٰلِكَ) أى مثل ذلك الجزاء العجيب (نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) أى كل من يحسن فى عمله فيجب أن يكون ذلك بعد انقضاء أعماله الحسنة التى من جملتها معاناة الأحزان والشدائد وقد فسر العلم بعلم تأويل الأحاديث ولا صحة له إلا أن يخص بعلم تأويل رؤيا الملك فان ذلك حيث كان عند تناهى أيام البلاء صح أن يعد إيتاؤه من جملة الجزاء وأما رؤيا صاحبى السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها فى السجن بضع سنين وفى تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلية الإحسان له وتنبيه على أنه سبحانه إنما آتاه ما آتاه لكونه محسنا فى أعماله متقيا فى عنفوان أمره هل جزاء الاحسان إلا الاحسان (وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها) رجوع إلى شرح ما جرى عليه فى منزل العزيز بعد ما أمر امرأته باكرام مثواه وقوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف إلى هنا اعتراض جىء به أنموذجا للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن مالقيه عليه السلام من الفتن التى ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه عليه السلام محسن فى جميع أعماله لم يصدر عنه فى حالتى السراء والضراء ما يخل بنزاهته ولا يخفى أن مدار حسن التخلص إلى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة إنما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز فادراج الانجاء السابق تحت الإشارة بذلك فى قوله تعالى وكذلك مكنا كما فعله الجمهور ناء من التقريب فتأمل والمراودة المطالبة من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شىء ومنه الرائد لطالب الماء والكلا وهى مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فان هذه الأفعال وإن كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبنى على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشىء يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما فى قولهم كما تدين تدان أى كما تجزى تجزى فان فعل البادى وإن لم يكن جزاء لكنه لكونه سببا للجزاء أطلق عليه اسمه وكذلك إرادة القيام إلى الصلاة وإرادة قراءة القرآن حيث كانتا سببا للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فقيل إذا قمتم إلى الصلاة فاذا قرأت القرآن وهذه قاعدة مطردة مستمرة ولما كانت أسباب الأفعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة

عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فان مطالبة الدائن للماطلة التى هى من جانب الغريم وهى منه للمطالبة التى هى من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذى هو من جانب المريض وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالها بمنزلة صدور مسبباتها التى هى تلك الأفعال فبنى الصيغة على ذلك وروعى جانب الحقيقة بأن أسند الفعل إلى الفاعل وأوقع على صاحب السبب فتأمل ويجوز أن يراد بصيغة المغالبة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو منها الترك ويجوز أن يكون من الرويد وهو الرفق والتحمل وتعديتها بعن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته (عَنْ نَفْسِهِ) أى فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن شىء لا يريد إخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه وهى عبارة عن التمحل فى مواقعته إياها والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر أو للاستهجان بذكره وإيراد الموصول لتقرير المراودة فان كونه فى بيتها مما يدعو إلى ذلك قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لا خير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام فان عدم ميله اليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادى بكونه عليه السلام فى أعلى معارج العفة والنزاهة (وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ) قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الافعال وقيل للمبالغة فى الايثاق والاحكام (وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) قرىء بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبناؤه كبناء أين وعيط وهيت كجير وهيت كحيث اسم فعل معناه أقبل وبادر واللام للبيان أى لك أقول هذا كما فى هلم لك وقرىء هئت لك على صيغة الفعل بمعنى تهيأت يقال هاء يهىء كجاء يجىء إذا تهيأ وهيئت لك واللام صلة للفعل (قَالَ مَعَاذَ اللهِ) أى أعوذ بالله معاذا مما تدعيننى اليه وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النير على ما هو عليه فى حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء وقوله عز وجل (إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ) تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية مما عسى يكون مؤثرا عندها وداعيا لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتى الذى لا تكاد تقبله لما سولته لها نفسها والضمير للشأن ومدار وضعه موضعه إدعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل إن الشأن الخطير هذا وهو ربى أى سيدى العزيز أحسن مثواى أى أحسن تعهدى حيث أمرك باكرامى فكيف يمكن أن أسىء اليه بالخيانة فى حرمه وفيه إرشادها إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه وقيل الضمير لله عز وجل وربى خبر ان وأحسن مثواى خبر ثان أو هو الخبر والأول بدل من الضمير والمعنى أن الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل وعلى التقديرين ففى الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الامتناع عما دعته اليه ايذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية فى الدلالة على استحالته وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلا وقوله تعالى (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) تعليل للامتناع المذكور غب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء فى الخير ومعنى أفلح دخل فيه كأصبح وأخواته والمراد بالظالمين كل من ظلم كائنا من كان فيدخل فى ذلك المجازون للاحسان بالاساءة والعصاة لأمر الله تعالى دخولا أوليا وقيل الزناة لأنهم ظالمون لأنفسهم وللمزنى بأهله (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) بمخالطته إذ الهم لا يتعلق بالأعيان أى قصدتها وعزمت عليها عزما جازما لا يلويها عنه صارف بعد ما باشرت مباديها وفعلت ما فعلت من المراودة وتغليق الأبواب ودعوته عليه السلام إلى نفسها بقولها هيت لك ولعلها تصدت هنالك لأفعال أخر من بسط يدها اليه وقصد المعانقة وغير ذلك مما يضطره عليه السلام إلى الهرب نحو الباب والتأكيد لدفع

ماعسى يتوهم من احتمال اقلاعها عما كانت عليه بما فى مقالته عليه السلام من الزواجر (وَهَمَّ بِهَا) بمخالطتها أى مال اليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وقرمه ميلا جبليا لا يكاد يدخل تحت التكليف لا أنه قصدها قصدا اختياريا ألا يرى إلى ماسبق من استعصامه المنبىء عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم افلاح الظالمين وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلا محكما وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ولقد أشير إلى تباينهما حيث لم يلزا فى قرن واحد من التعبير بأن قيل ولقد هما بالمخالطة أو هم كل منهما بالآخر وصدر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمى وعقب الثانى بما يعفو أثره من قوله عز وجل (لَوْلَا أَنْ رَءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِ) أى حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى وسوء سبيله والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين الذى تتجلى هناك حقائق الأشياء بصورها الحقيقية وتنخلع عن صورها المستعارة التى بها تظهر فى هذه النشأة على ما نطق به قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه فى حد ذاته أقبح ما يكون وأوجب ما يجب أن يحذر منه ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام أى لولا مشاهدته برهان ربه فى شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلى ولكنه حيث كان مشاهدا له من قبل استمر على ما هو عليه من قضية البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعى الداخلية وترتب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية هذا وقد نص أئمة الصناعة على أن لولا فى أمثال هذه المواقع جار من حيث المعنى لا من حيث الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما فى مثل قوله تعالى إن كان ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها فلا يتحقق هناك هم أصلا وقد جوز أن يكون وهم بها جواب لولا جريا على قاعدة الكوفيين فى جواز التقديم فالهم حينئذ على معناه الحقيقى فالمعنى لولا أنه قد شاهد برهان ربه لهم بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامه وما يتفرع عليه انتفى الهم رأسا هذا وقد فسر همه عليه السلام بأنه عليه السلام حل الهميان وجلس مجلس الختان وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها ورؤيته للبرهان بأنه سمع صوتا إياك وإياها فلم يكترث ثم وثم إلى أن تمثل له يعقوب عليه السلام عاضا على أنملته وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل بدت كف فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله فلم ينجع فقال الله عز وجل لجبريل أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل وقيل ان كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والأذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها (كَذَٰلِكَ) الكاف منصوب المحل وذلك إشارة إلى الاراءة المدلول عليها بقوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه أى مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهاننا فيما قبل أو إلى التثبيت اللازم له أى مثل ذلك التثبيت ثبتناه (لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ) على الاطلاق فيدخل فيه خيانة السيد دخولا أوليا (وَالْفَحْشَآءَ) والزنى لأنه مفرط فى القبح وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه اليها قط وإلا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وإنما توجه اليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل وقرىء ليصرف على إسناد الصرف إلى ضمير الرب (إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته

بأن عصمهم عما هو قادح فيها وقرىء على صيغة الفاعل وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظم فى سلكهم داخل فى زمرتهم من أول أمره بقضية الجملة الاسمية لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ) متصل بقوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقوله كذلك إلى آخره اعتراض جىء به بين المعطوفين تقريرا لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا الباب أى تسابقا إلى الباب البرانى الذى هو المخلص ولذلك وحد بعد ما جمع فيما سلف وحذف حرف الجر وأوصل الفعل إلى المجرور نحو واذا كالوهم أو ضمن الاستبقاء معنى الابتدار وإسناد السبق فى ضمن الاستباق اليها مع أن مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب الانتهاء إلى الباب لأنها لما رأته يسرع إلى الباب ليتخلص منها أسرعت هى أيضا لتسبقه اليه وتمنعه عن الفتح والخروج أو عبر عن إسراعها أثره بذلك مبالغة (وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ) اجتذبته من ورائه فانشق طولا وهو القد كما أن الشق عرضا هو القط وقد قيل فى وصف على رضى الله عنه أنه كان إذا اعتلى قد واذا اعترض قط وإسناد القد اليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضا دخلا فيه اما لأنها الجزء الأخير للعلة التامة وإما للايذان بمبالغتها فى منعه عن الخروج وبذل مجهودها فى ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح (وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا) أى صادفا زوجها وإذ لم يكن ملكه ليوسف عليه السلام صحيحا لم يقل سيدهما قيل ألفياه مقبلا وقيل كان جالسا مع ابن عم للمرأة (لَدَا الْبَابِ) أى البرانى كما مر. روى كعب رضى الله عنه أنه لما هرب يوسف عليه السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب (قَالَتْ) استئناف مبنى على سؤال سائل يقول فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب فقيل قالت (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) من الزنى ونحوه (إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ما نافية أى ليس جزاؤه إلا السجن أو العذاب الاليم قيل المراد به الضرب بالسياط أو استفهامية أى أى شىء جزاؤه غير ذاك أو ذلك ولقد أتت فى تلك الحالة التى تدهش فيها الفطن حيث شاهدها العزيز على تلك الهيئة المريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها وعدم مواتاته على مرادها بالقاء الرعب فى قلبه من مكرها طمعا فى مواقعته لها كرها عند يأسها عن ذلك اختيارا كما قالت ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ثم انها جعلت صدور الارادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرا محققا مفروغا عنه غنيا عن الاخبار بوقوعه وأن ما هى عليه من الافاعيل لاجل تحقيق جزائها فهى تريد ايقاعه حسبما يقتضيه قانون الايالة وفى ابهام المريد تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونا مطردا فى حق كل أحد كائنا من كان وفى ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز اعظام للخطب وإغراء له على تحقيق ما تتوخاه بحكم الغضب والحمية (قَالَ) استئناف وجواب عما يقال فماذا قال يوسف حينئذ فقيل قال (هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي) أى طالبتنى للمواتاة لا انى أردت بها سوءا كما قالت وإنما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أسندته اليه من الخيانة وعدم معرفة حق السيد ودفع ما عرضته له من الأمرين الأمرين وفى التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الاشارة مراعاة لحسن الادب مع الايماء إلى الاعراض عنها (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) قيل هو ابن عمها وقيل هو الذى كان جالسا مع زوجها لدى الباب وقيل كان حكيما يرجع اليه الملك ويستشيره وقد جوز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحق وانما ألقى الله سبحانه الشهادة إلى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة وقيل كان الشاهد ابن خال لها صبيا فى المهد انطقه الله تعالى ببراءته وهو الاظهر فانه روى ان النبى صلى الله

عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى عليه السلام رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال صحيح على شرط الشيخين وذكر كونه من أهلها لبيان الواقع إذ لا يختلف الحال في هذه الصورة بين كون الشاهد من أهلها أو من غيرهم (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ) أي ان علم أنه قد من قبل من قبل ونظيره ان أحسنت إلي فقد أحسنت اليك فيما قيل فان معناه ان تعتد باحسانك إلي فأعتد باحساني السابق اليك (فَصَدَقَتْ) بتقدير قد لانها تقرب الماضي إلى الحال أي فقد صدقت وكذا الحال في قوله فكذبت وهي وان لم تصرح بأنه عليه السلام اراد بها سوءا إلا أن كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه أسند اليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار فانهما كما يعرضان للكلام باعتبار منطوقه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه وبذلك الاعتبار يعترضان للانشاءات (وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) وهذه الشرطية حيث لا ملازمة عقلية ولا عادية بين مقدمها وتاليها ليست من الشهادة في شيء وإنما ذكرت توسيعا للدائرة وارخاء للعنان إلى جانب المرأة باجراء ما عسى يحتمله الحال في الجملة بأن يقع القد من قبل بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند ارادته المخالطة والتكشف مجرى الظاهر الغالب الوقوع تقريبا لما هو المقصود باقامة الشهادة أعني مضمون الشرطية الثانية التي هي قوله عز وجل (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) إلى التسليم والقبول عند السامع لكونه أقرب إلى الوقوع وأدل على المطلوب وان لم يكن بين طرفيها أيضا ملازمة وحكاية الشرطية بعد فعل الشهادة لكونها من قبيل الأقوال أو بتقدير القول أي شهد قائلا الخ وتسميتها شهادة مع أنه لا حكم فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤداها بل لانها شهادة على الحقيقة وحكم بصدقه وكذبها أما على تقدير كون الشاهد هو الصبي فظاهر إذ هو اخبار بهما من قبل علام الغيوب والتصوير بصورة الشرطية للايذان بأن ذلك ظاهر من العلائم أيضا وأما على تقدير كونه غيره فلأن الظاهر أن صورة الحال معلومة له على ما هي عليه اما مشاهدة أو اخبارا فهو متيقن بعدم مقدم الشرطية الأولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية ومن ضرورته الجزم بانتفاء تالي الأولى وبوقوع تالي الثانية فاذن هو اخبار بكذبها وصدقه عليه السلام لكنه ساق شهادته مساقا مأمونا من الجرح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددة ظاهرا بين نفعها ونفعه وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعا لأن الشرطية الأولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالا لا محالة ومن ضرورته تقرر كذبها والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقق الوجود وهو القد من دبر فيكون محقق البتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأته زوجيني نفسك فقالت لي زوج فكذبها في ذلك فقالت ان لم يكن لي زوج فقد زوجتك نفسي فقبل الرجل فاذا لا زوج لها فهو نكاح إذ تعليق الشيء بأمر مقرر تنجيز له وقرىء من قبل ومن دبر بالضم لانهما قطعا عن الاضافة كقبل وبعد وبالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعا الصرف للتأنيث والعلمية وقرىء بسكون العين (فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ) كأنه لم يكن رأى ذلك بعد أو لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال (قَالَ إِنَّهُ) أي الأمر الذي وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن ارادة السوء التي أسندت إلى يوسف وتدبير عقوبته بقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلى آخره لكن لا من حيث صدور تلك الارادة والاسناد عنها بل مع قطع النظر عن ذلك لئلا يخلو قوله تعالى (مِنْ كَيْدِكُنَّ) أي من جنس حيلتكن ومكركن أيتها النساء لا من غيركن عن الافادة وتدبير العقوبة وان لم يمكن تجريده عن الاضافة اليها الا أنها لما صورته بصورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن افادة ظاهرة فتأمل وتعميم الخطاب للتنبيه على أن ذلك خلق لهن عريق :

ولا تحسبا هندا لها الغدر وحدها ... سجية نفس كل غانية هند

ورجع الضمير إلى قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءا فقط عدول عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاع من أن ارادة

السوء ممن هي إلى البحث عن شعبة من شعبه وجعل للسوء أو للأمر المعبر به عن طمعها في يوسف عليه السلام يا باه
اخبر فان الكيد يستدعى أن يعتبر مع ذلك هنات أخر من قبلها كما أشرنا اليه (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) فانه ألطف وأعلق
بالقلب وأشد تأثيرا فى النفس . وعن بعض العلماء انى أخاف من النساء مالا أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ان
كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء ان كيدكن عظيم ولأن الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال
(يُوسُفُ) حذف منه حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله (أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا)
أى عن هذا الأمر وعن التحديث به واكتمه فقد ظهر صدقك ونزاهتك (وَاسْتَغْفِرِي) أنت ياهذه (لِذَنْبِكِ)
الذى صدر عنك وثبت عليك (إِنَّكِ كُنْتِ) بسبب ذلك (مِنَ الْخَاطِئِينَ) من جملة القوم المتعمدين للذنب أو
من جنسهم يقال خطىء إذا أذنب عمدا وهو تعليل للامر بالاستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكان العزيز
رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وقيل كان قليل الغيرة (وَقَالَ نِسْوَةٌ) أى جماعة من النساء وكن خمسا
امرأة الساقى وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع
المرأة وتأنيثه غير حقيقى كتأنيث اللمة وهى اسم لجماعة النساء والثبة وهى اسم لجماعة الرجال ولذلك لم يلحق فعله تاء
التأنيث (فِي الْمَدِينَةِ) ظرف لقال أى أشعن الأمر فى مصر أو صفة لنسوة (امْرَأَتُ الْعَزِيزِ) أى الملك يردن
قطفير واضافتهن لها اليه بذلك العنوان دون أن يصرحن باسمها أو اسمه ليست لقصد المبالغة فى اشاعة الخبر بحكم أن
النفوس إلى سماع أخبار ذوى الأخطار أميل كما قيل إذ ليس مرادهن تفضيح العزيز بل هى لقصد الاشباع فى لومها
بقولهن (تُرَاوِدُ فَتَاهَا) أى تطالبه بمواقعته لها وتتمحل فى ذلك وتخادعه (عَنْ نَفْسِهِ) وقيل تطلب منه الفاحشة
وايثارهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة والفتى من الناس الشاب وأصله فتى لقولهم فتيان والفتوة شاذة وجمعه
فتية وفتيان ويستعار للملوك وهو المراد ههنا وفى الحديث لايقل أحدكم عبدى وأمتى وليقل فتاى وفتاتى وتعبيرهن
عن يوسف عليه السلام بذلك مضافا اليها لا إلى العزيز الذى لاتستلزم الاضافة اليه الهوان بل ربما يشعر بنوع عزة
لابانة ما بينهما من التباين البين الناشىء عن المالكية والمملوكية وكل ذلك لتربية مامر من المبالغة والاشباع فى اللوم
فان من لازوج لها من النساء أو لها زوج دنىء قد تعذر فى مراودة الأخدان لاسيما إذا كان فيهم علو الجناب وأما التى
لها زوج وأى زوج عزيز مصر فراودتها لغيره لاسيما لعبدها الذى لا كفاءة بينها وبينه أصلا وتماديها فى ذلك غاية
الغى ونهاية الضلال (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) أى شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل
إلى فؤادها وقرىء شعفها بالعين من شعف البعير إذا هنأه فأحرقه بالقطران وعن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما
الشغف الحب القاتل والشعف حب دون ذلك وكان الشعبي يقول الشغف حب والشعف جنون والجملة خبر ثان أو
حال من فاعل تراود أو من مفعوله وأياما كان فهو تكرير للوم وتأكيد للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبية كأحوالها
القالبية وجعلها تعليلا لدوام المراودة من حيث الانية مصير إلى الاستدلال على الأجلى بالأخفى ومن حيث اللمية ميل
إلى تمهيد العذر من قبلها ولسن بذلك المقام وانتصاب حبا على التمييز لنقله عن الفاعلية إذ الأصل قد شغفها حبه كما أشير
اليه (إِنَّا لَنَرَاهَا) أى نعلمها علما متاخما للمشاهدة والعيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة (فِي ضَلَالٍ)
عن طريق الرشد والصواب أو عن سنن العقل (مُبِينٍ) واضح لايخفى كونه ضلالا على أحد أو مظهر لأمرها بين الناس
فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بأنها فى أمرها على خطأ عظيم وإنما لم
يقلن انها لفى ضلال مبين اشعارا بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأى مع التلويح بأنهن متنزهات عن

أمثال ما هي عليه (فلما سمعت بمكرهن) باغتيابهن وسوء قالتهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني وهو مقتها وتسميته مكرا لكونه خفية منها كمكر الماكر وإن كان ظاهرا لغيرها وقيل استكتمتهن سرها فأفشينه عليها وقيل إنما قلن ذلك لتريهن يوسف عليه السلام (أرسلت إليهن) تدعوهن قيل دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات (وأعتدت) أى أحضرت وهيأت (لهن متكأ) أى ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد أو رتبت لهن مجلس طعام وشراب لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهى الرجل أن يأكل متكئا وقيل متكأ طعاما من قولهم اتكأنا عند فلان أى طعمنا قال جميل:

فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله

وعن مجاهد متكأ طعاما يحز حزا كأن المعنى يعتمد بالسكين عند القطع لأن القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين وقرئ بغير همز وقرئ بالمد باشباع حركة الكاف كمنتزاح فى منتزح وينباع فى ينبع وقرئ متكأ وهو الاترج وأنشدوا:

وأهدت متكة لبنى أبيها تخب بها العثمثمة الوقاح

أو ما يقطع من متك الشيء إذا بتكه ومتكأ من تكى إذا اتكى (وآتت كل واحدة منهن سكينا) لتستعمله فى قطع ما يعهد قطعه مما قدم بين أيديهن وقرب إليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متكئات وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن (وقالت) ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين وأعمالها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها والعطف بالواو ربما يشير إلى أن قولها (اخرج عليهن) أى ابرز لهن لم يكن عقيب ترتيب أمورهن ليتم غرضها من استغفالهن (فلما رأينه) عطف على مقدر يستدعيه الأمر بالخروج وينسحب عليه الكلام أى فخرج عليهن فرأينه وإنما حذف تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة فى قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك وفيه إيذان بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد مضرته من الأفاعيل (أكبرنه) عظمنه وهبن حسنه الفائق وجماله الرائع الرائق فان فضل جماله على جمال كل جميل كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى أكبرن حضن والهاء للسكت أو ضمير راجع إلى يوسف عليه السلام على حذف اللام أى حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبى:

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

(وقطعن أيديهن) أى جرحنها بما فى أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات جوارحهن عن منهاج الاختيار والاعتياد حتى لم يعلمن ما فعلن وفى التعبير عن الجرح بالقطع ما لا يخفى من الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به (وقلن حاش لله) تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع وأصله حاشا كما قرأه أبو عمرو فى الدرج فحذفت ألفه الأخيرة تخفيفا وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء فلا يستثنى به إلا ما يكون موجبا للتنزيه فوضع موضعه فمعنى حاشا الله تنزيه الله وبراءة الله وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه واللام لبيان المنزه والمبرأ كما فى سقيا لك والدليل على وضعه موضع المصدر قراءة أبى السمال حاشا بالتنوين وقراءة أبى عمرو بحذف الألف الأخيرة وقراءة الأعمش بحذف الأولى فان التصرف من خصائص الاسم فيدل تنزيله منزلته وعدم التنوين لمراعاة أصله كما فى قولك جلست من عن يمينه وقوله غدت من عليه منقلب الألف إلى الياء مع الضمير وقرئ حاش لله بسكون الشين اتباعا للفتحة الألف فى الاسقاط وحاشا الاله وقيل حاشا

فاعل من الحشا الذى هو الناحية وفاعله ضمير يوسف أى صار فى ناحية من أن يقارف مارمته به لله أى لطاعته أو لمكانه أو جانب المعصية لأجل الله (مَا هَـٰذَا بَشَرًا) على أعمال ما بمعنى ليس وهى لغة أهل الحجاز لمشاركتهما فى نفى الحال وقرىء بشر على لغة تميم وبشرى أى بعبد مشترى لئيم نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقرى الذى لم يعهد مثاله فى البشر وقصرنه على الملكية بقولهن (إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) بناء على ما ركز فى العقول من أن لا حى أحسن من الملك كما ركب فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك لا يزال يشبه بهما كل متناه فى الحسن والقبح وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال (قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ) الفاء فصيحة والخطاب للنسوة والإشارة إلى يوسف بالعنوان الذى وصفنه به الآن من الخروج فى الحسن والجمال عن المراتب البشرية والاقتصار على الملكية فاسم الاشارة مبتدأ والموصول خبره والمعنى إن كان الأمر كما قلتن فذلكن الملك الكريم النائى عن المراتب البشرية هو (الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ) أى عيرتننى فى الافتتان به حيث رأيتن بمحلى بنسبتى إلى العزيز ووضعتن قدره بكونه من المماليك أو بالعنوان الذى وصفنه به فيما سبق بقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى فهو خبر لمبتدأ محذوف أى فهو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن وقلتن فيه وفى ما قلتن فالآن قد علمتن من هو وما قولكن فينا وأما ما يقال تعنى أنكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتننى فى الافتتان به فلا يلائم المقام فان مرادها بدعوتهن وتمهيد ما مهدته لهن تبكيتهن وتنديمهن على ما صدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بما لا مزيد عليه وما ذكر من المقال لحق المعتذر قبل ظهور معذرته وقد قيل فى تعليل الملكية أن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من الخواص الملكية وهو أيضا لا يلائم قولها فذلكن الذى لمتننى فيه فان عنوان العصمة مما ينافى تمشية مرامها ثم بعد ما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها وقد أصابهن من قبله عليه السلام ما أصابها باحت لهن ببقية سرها فقالت (وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ) حسبما قلتن وسمعتن (فَاسْتَعْصَمَ) امتنع طالبا للعصمة وهو بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها كما فى استمسك واستجمع الرأى وفيه برهان نير على أنه لم يصدر عنه عليه السلام شىء مخل باستعصامه بقوله معاذ الله من الهم وغيره اعترفت لهن أولا بما كن يسمعنه من مراودتها له وأكدته إظهارا لابتهاجها بذلك ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون ولم يمل اليها قط ثم زادت عليه أيضا أنها مستمرة على ما كانت عليه غير مرعوية عنه لا بلوم العواذل ولا باعراض الحبيب فقالت (وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ) أى آمر به فيما سيأتى كما لم يفعل فيما مضى فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير كما فى أمرتك الخير فالضمير للموصول أو أمرى اياه أى موجب أمرى ومقتضاه فما مصدرية والضمير ليوسف وعبرت عن مراودتها بالأمر إظهارا لجريان حكومتها عليه واقتضاء للامتثال بأمرها (لَيُسْجَنَنَّ) بالنون المثقلة آثرت بناء الفعل للمفعول جريا على رسم الملوك أو إيهاما لسرعة ترتب ذلك على عدم امتثاله لأمرها كأنه لا يدخل بينهما فعل فاعل (وَلَيَكُونًا) بالمخففة (مِّنَ الصَّاغِرِينَ) أى الاذلاء فى السجن وقد قرىء الفعلان بالتثقيل ولكن المشهورة أولى لأن النون كتبت فى المصحف ألفا على حكم الوقف واللام الداخلة على حرف الشرط موطئة للقسم وجوابه ساد مسد الجوابين ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوى على فنون التأكيد بمحضر منهن ليعلم يوسف عليه السلام أنها ليست فى أمرها على خفية ولا خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل وتعيا به العلل وينصحن له ويرشدنه إلى موافقتها ولما كان هذا الابراق والارعاد منها مظنة لسؤال سائل يقول فما صنع يوسف حينئذ قيل (قَالَ) مناجيا لربه عز سلطانه (رَبِّ السِّجْنُ) الذى أوعدتنى بالالقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدرية (أَحَبُّ إِلَيَّ) أى آثر عندى لأنه مشقة قليلة نافذة أثرها راحات جليلة أبدية

(مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)من مؤاتاتها التى تؤدى إلى الشقاء والعذاب الأليم وهذا الكلام منه عليه السلام مبنى على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها إذ ليس له شائبة محبة لما دعته اليه وإنما هو والسجن شران أهونهما وأقربهما إلى الإيثار السجن والتعبير على الإيثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث أن الصغار من فروعه ومستتبعاته وإسناد الدعوة اليهن جميعا لأن النسوة رغبته فى مطاوعتها وخوفته من مخالفتها وقيل دعونه إلى أنفسهن وقيل إنما ابتلى عليه السلام بالسجن لقوله هذا وكان الأولى به أن يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر (وَإِلَّا تَصْرِفْ) أى إن لم تصرف (عَنِّي كَيْدَهُنَّ) فى تحبيب ذلك إلى وتحسينه لدى بأن تثبتنى على ما أنا عليه من العصمة والعفة (أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) أى أمل إلى اجابتهن أو إلى أنفسهن على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية وهذا فزع منه عليه السلام إلى ألطاف الله تعالى جريا على سنن الأنبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن باظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركنى وإلا هلكت لا انه يطلب الاجبار والالجاء إلى العصمة والعفة وفى نفسه داعية تدعوه إلى هواهن والصبوة الميل إلى الهوى ومنه الصبا لأن النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها وقرىء أصب اليهن من الصبابة وهى رقة الشوق (وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) الذين لا يعملون بما يعلمون لأن من لا جدوى لعلمه فهو والجاهل سواء أو من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى اليه من القبائح لأن الحكيم لا يفعل القبيح (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ) دعاءه الذى تضمنه قوله وإلا تصرف عنى كيدهن الخ فان فيه استدعاء لصرف كيدهن على أبلغ وجه وألطفه كما مر وفى إسناد الاستجابة إلى الرب مضافا اليه عليه السلام ما لا يخفى من إظهار اللطف (فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ) لدعاء المتضرعين اليه (الْعَلِيمُ) بأحوالهم وما يصلحهم (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ) أى ظهر للعزيز وأصحابه المتصدين للحل والعقد ريثما اكتفوا بأمر يوسف بالكتمان والإعراض عن ذلك (مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ) الصارفة لهم عن ذلك البداء وهى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدا اما مصدره أو الرأى المفهوم من السياق أو المصدر المدلول عليه بقوله (لَيَسْجُنُنَّهُ) والمعنى بدا لهم بداء أو رأى أو سجنه المحتوم قائلين والله ليسجننه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالا من ضميرهم وما كان ذلك البداء إلا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه فى الذروة والغارب وكان مطواعة لها تقوده حيث شاءت قال السدى إنها قالت للعزيز إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يخبرهم بأنى راودته عن نفسه فاما أن تأذن لى فأخرج فأعتذر إلى الناس وإما أن تحبسه فحبسه ولقد أرادت بذلك تحقيق وعيدها لتلين به عريكته وتنقاد لها قرونته لما انصرمت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها وبأعوانها وقرىء لتسجننه على صيغة الخطاب بأن خاطب بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده على وجه التعظيم أو خاطب به العزيز ومن عنده من أصحاب الرأى المباشرين للسجن والحبس (حَتَّىٰ حِينٍ) إلى حين انقطاع قالة الناس وهذا بادى الرأى عند العزيز وذويه وأما عندها فحتى يذلله السجن ويسخره لها ويحسب الناس أنه المجرم وقرىء عتى حين بلغة هذيل (وَدَخَلَ مَعَهُ) أى فى صحبته (السِّجْنَ فَتَيَانِ) من فتيان الملك ومماليكه أحدهما شرابيه والآخر خبازه . روى أن جماعة من أهل مصر ضمنوا لهما مالا ليسما الملك فى طعامه وشرابه فأجاباهم إلى ذلك ثم ان الساقى نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما حضر الطعام قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب أيها الملك فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشربه

فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بدابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أن أدخلاه معه و تأخير الفاعل عن المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكن ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح فى قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفة وتأخير السجن عن الظرف لإيهام العكس أن يكون الظرف خبرا مقدما على المبتدا وتكون الجملة حالا من فاعل دخل فتأمل (قَالَ أَحَدُهُمَآ) استئناف مبنى على سؤال من يقول ماصنعا بعدما دخلا معه السجن فأجيب بانه قال أحدهما وهو الشرابى (إِنِّىٓ أَرَىٰنِى) أى رأيتنى والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية (أَعْصِرُ خَمْرًا) أى عنبا سماه بما يؤول اليه لكونه المقصود من العصر وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه أعصر عنبا (وَقَالَ الْآخَرُ) وهو الخباز (إِنِّىٓ أَرَىٰنِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا) تأخير المفعول عن الظرف لما مر آنفا وقوله (تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ) أى تنهس منه صفة للخبز أو استئناف مبنى على السؤال (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) بتأويل ماذكر من الرؤيين أو مارئى باجراء الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة فان اسم الإشارة يشار به إلى متعدد كما فى قوله :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأن ذلك والسر فى المصير إلى إجراء الضمير مجرى اسم الإشارة مع أنه لاحاجة اليه بعد تأويل المرجع بماذكر أو بما رئى أن الضمير إنما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من أحواله فلا يتسنى تأويله بأحد الاعتبارين إلا باجرائه مجرى اسم الإشارة الذى يدل على المشار اليه بالاعتبار الذى جرى عليه فى الكلام فتأمل هذا إذا قالاه معا أو قاله أحدهما من جهتهما معا وأما إذا قاله كل منهما إثر ما قص مارآه فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة أحدهما من جهتهما ليتعدد المرجع بل عبارة كل منهما نبئنى بتأويله مستفسرا لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة فى الحكاية دون المحكى على طريقة قوله عز وجل يا أيها الرسل كلوا من الطيبات فانهم لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم فى زمانه بصيغة مفردة خاصة به (إِنَّا نَرَىٰكَ) تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارهما منه عليه السلام (مِنَ الْمُحْسِنِينَ) من الذين يجيدون عبارة الرؤيا لما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلا حسنا أو من العلماء لما سمعاه يذكر للناس مايدل على علمه وفضله أو من المحسنين إلى أهل السجن أى فأحسن الينا بكشف غمتنا إن كنت قادرا على ذلك . روى أنه عليه السلام كان إذا مرض منهم رجل قام عليه وإذا ضاق مكانه أوسع له وإذا احتاج جمع له وعن قتادة رضى الله عنه كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا فقالوا بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يافتى فقال أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ابن ذبيح الله اسحق ابن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكنى أحسن جوارك فكن فى أى بيوت السجن شئت وعن الشعبى أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابى أرانى فى بستان فاذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخباز إنى أرانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة وإذا سباع الطير تنهس منها (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ) فى مقامكما هذا حسب عادتكما المطردة (إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا يأتيكما طعام فى حال من الأحوال إلا حال ما نبأتكما به بأن بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله (قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا) وإطلاق التأويل عليه اما بطريق الاستعارة فان ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر إلى مارئى فى المنام وشبيه له واما بطريق المشاكلة حسبما وقع فى عبارتهما من قولهما نبئنا بتأويله ولا يبعد أن يراد بالتأويل الشىء الآئل لا المآل فانه فى الأصل جعل شىء آئلا

إلى شيء آخر فكما يجوز أن يراد به الثاني يجوز أن يراد به الأول فالمعنى إلا نبأتكما بما يؤول إليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجدنه كذلك ومراده عليه السلام بذلك بيان كل ما يهمهما من الأمور المترقبة قبل وقوعها وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقا في ذلك بحسب الحال مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص اليه مما استعبراه من الرؤيين المتعلقتين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير لما قصا من الرؤيين على معنى لا يأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما إلا أخبرتكما بتأويل ما قصصتما على قبل أن يأتيكما ذلك الطعام الموقت مرادا به الاخبار بالاستعجال في التنبئة وأنت خبير بأن النظم الكريم ظاهر في تعدد إتيان الطعام والاخبار بالتأويل وتجددهما وأن المقام مقام إظهار فضله في فنون العلوم بحيث يدخل في ذلك تأويل رؤياهما دخولا أوليا وإنما لم يكتف عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله لأنهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام في سمط المحسنين وانهما قد علما ذلك حيث قالا إنا نراك من المحسنين توسم عليه السلام فيهما خيرا وتوجها إلى قبول الحق فأراد أن يخرج آثر ذي أثير عما في عهدته من دعوة الخلق إلى الحق فمهد قبل الخوض في ذلك مقدمة تزيدهما علما بعظم شأنه وثقة بأمره ووقوفا على علو طبقته في بدائع العلوم توسلا بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه وقد تخلص اليها من كلامهما فكأنه قال تأويل ما قصصتماه على في طرف الثمام حيث رأيتماه في المنام وانى أبين لكما كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلة وإن لم يكن هناك مقدمة المنام حتى ان الطعام الموظف الذي يأتيكما كل يوم أبينه لكما قبل اتيانه ثم أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو فضل إلهي يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال (ذَٰلِكُمَا) أي ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ومعنى البعد في ذلك للاشارة إلى علو درجته وبعد منزلته (مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) بالوحي والإلهام أي بعض منه أو من ذلك الجنس الذي لا يحوم حول ادراكه العقول ولقد دلهما بذلك على أن له علوما جمة ما سمعاه قطعة من جملتها وشعبة من دوحتها ثم بين أن نيل تلك الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه الأنبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من قوله ذلكما مما علمني ربي وتعليلا له لا للتعليم الواقع صلة للموصول لتأديته إلى معنى أنه مما علمني ربي لهذا السبب دون غيره ولا لمضمون الجملة الخبرية لأن ما ذكر بصدد التعليل ليس بعلة لكون التأويل المذكور بعضا مما علمه ربه أو لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ما علمه فكأنه قيل لماذا علمك ربك تلك العلوم البديعة فقيل لأني تركت ملة الكفرة أي دينهم الذي اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الأوثان والمراد بتركها الامتناع عنها رأسا كما يفصح عنه قوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء لا تركها بعد ملابستها وإنما عبر عنه بذلك لكونه أدخل بحسب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الايمان به للتنصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليست بإيمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مر في قوله تعالى انه عمل غير صالح (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ) وما فيها من الجزاء (هُمْ كَافِرُونَ) على الخصوص دون غيرهم لإفراطهم في الكفر (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) يعني انه إنما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب انه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد وإنما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه في الإيمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لأن التخلية متقدمة على التحلية (مَا كَانَ) أي ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع (لَنَا) معاشر الأنبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا (أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) أي شيء كان من ملك أو جني أو انسي فضلا عن الجماد البحت (ذَٰلِكَ) أي التوحيد المدلول عليه بقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء (مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا) أي ناشيء من تأييده لنا بالنبوة وترشيحه ايانا لقيادة الأمة وهدايتهم إلى

الحق وذلك مع كونه من موجبات التوحيد ودواعيه نعمة جليلة وفضل عظيم علينا بالذات (وَعَلَى النَّاسِ) كافة بواسطتنا وحيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذى يوجبه بالشكر فقيل (وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) أى لا يوحدون فان التوحيد مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر لله عز وجل على تلك النعمة وإنما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع إلى الناس لزيادة توضيح وبيان ولقطع توهم رجوعه إلى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس أيضا ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتباعا لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين ولك أن تقول ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولا ومشاعر نستعملها فى دلائل التوحيد التى مهدها فى الأنفس والآفاق وقد أعطى سائر الناس أيضا مثلها ولكن أكثرهم لا يشكرون أى لا يصرفون تلك القوى والمشاعر إلى ما خلقت هى له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والأنفسية والعقلية والنقلية (يَـٰصَـٰحِبَىِ السِّجْنِ) أى ياصاحبى فى السجن كما تقول ياسارق الليلة ناداهما بعنوان الصحبة فى مدار الأشجان ودار الأحزان التى تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته وقد ضرب لهما مثلا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح فقال (ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ) لا ارتباط بينهما ولا اتفاق يستعبد كما كل منهم حسبما أراد غير مراقب للآخرين مع عدم استقلاله (خَيْرٌ) لكما (أَمِ اللَّهُ) المعبود بالحق (الْوَاحِدُ) المتفرد بالألوهية (الْقَهَّارُ) الغالب الذى لا يغالبه أحد وبعد ما نبههما على فساد تعدد الأرباب بين لهما سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسا فضلا عن الالوهية فقال معمما للخطاب لهما ولمن على دينهما (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ) أى من دون الله شيأ (إِلا أَسْمَاءً) فارغة لا مطابق لها فى الخارج لأن ما ليس فيه مصداق اطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلا فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط (سَمَّيْتُمُوهَا) جعلتموها أسماء وإنما لم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام من إسقاطها عن مرتبة الوجود وإيذانا بأن تسميتهم فى البطلان حيث كانت بلا مسمى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود (أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ) بمحض جهلكم وضلالتكم (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا) أى بتلك التسمية المستتبعة للعبادة (مِنْ سُلْطَانٍ) من حجة تدل على صحتها (إِنِ الْحُكْمُ) فى أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية (إِلا لِلَّهِ) عز سلطانه لأنه المستحق لها بالذات إذ هو الواجب بالذات الموجد للكل والمالك لأمره (أَمَرَ) استئناف مبنى على سؤال ناشىء من قوله إن الحكم إلا لله فكأنه قيل فماذا حكم الله فى هذا الشأن فقيل أمر على ألسنة الأنبياء عليهم السلام (أَلا تَعْبُدُوا) أى بأن لا تعبدوا (إِلا إِيَّاهُ) حسبما تقضى به قضية العقل أيضا (ذَٰلِكَ) أى تخصيصه تعالى بالعبادة (الدِّينُ الْقَيِّمُ) الثابت المستقيم الذى تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا (وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين أو لا يعلمون شيأ أصلا فيعبدون أسماء سموها من تلقاء أنفسهم معرضين عن البرهان العقلى والسلطان النقلى وبعد تحقيق الحق ودعوتهما اليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ومرتبة علمه الواسع شرع فى تفسير ما استفسراه ولكونه بحثا مغايرا لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال (يَـٰصَـٰحِبَىِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا) وهو الشرابى وإنما لم يعينه ثقة بدلالة التعبير وتوسلا بذلك إلى ابهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما يسوءه (فَيَسْقِى رَبَّهُ) أى سيده (خَمْرًا) روى انه عليه السلام قال له ما رأيت من الكرم وحسنها الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه وقرأ عكرمة فيسقى ربه على البناء للمفعول أى يسقى ما يروى به (وَأَمَّا الْآخَرُ)

وهو الخباز (فيُصْلَبُ فتأكلُ الطيرُ منْ رأسِهِ) روى أنه عليه السلام قال له مارأيت من السلال الثلاث ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل (قضيَ) أى أتم وأحكم (الأمرُ الذى فيهِ تستفتيانِ) وهو ما رأياه من الرؤيين قطعا الا ما له الذى هو عبارة عن نجاة أحدهما وهلاك الآخر كما يوهمه اسناد القضاء اليه إذ الاستفتاء إنما يكون فى الحادثة لا فى حكمها يقال استفتى الفقيه فى الحادثة أى طلب منه بيان حكمها ولا يقال استفتاه فى حكمها وكذا الافتاء فانه يقال أفتى فلان فى الواقعة الفلانية بكذا ولا يقال أفتى فى حكمها أو جوابها بكذا وبما هو علم فى ذلك قوله تعالى يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ومعنى استفتائهما فيه طلبهما لتأويله بقولهما نبئنا بتأويله وإنما عبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلا لأمره وتفخيما لشأنه إذ الاستفتاء إنما يكون فى النوازل المشكلة الحكم المبهمة الجواب وإيثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما فى ذلك لما أنهما بصدده إلى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره وإسناد القضاء اليه مع أنه من أحوال مآله لأنه فى الحقيقة عين ذلك المآل وقد ظهر فى عالم المثال بتلك الصورة وأما توحيده مع تعدد رؤياهما فوارد على حسب ما وحداه فى قولهما نبئنا بتأويله لا لأن الأمر ما اتهما به وسجنا لأجله من سم الملك فانهما لم يستفتيا فيه ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمل وإنما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقا لتعبيره وتأكيدا له وقيل لما عبر رؤياهما جحدا وقالا ما رأينا شيئا فأخبرهما ان ذلك كائن صدقتما أو كذبتما ولعل الجحود من الخباز إذ لا داعى الى جحود الشرابى الا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه (وقالَ) أى يوسف عليه السلام (لِلذِى ظنَّ أنهُ ناجٍ) أوثر على صيغة المضارع مبالغة فى الدلالة على تحقق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى قضى الأمر الذى فيه تستفتيان وهو السر فى إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال للذى ظنه ناجيا (مِنهُما) من صاحبيه وإنما ذكر بوصف النجاة تمهيدا لمناط التوصية بالذكر عند الملك وعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور وإن كان أدخل فى ذلك وأدعى الى تحقيق ما وصاه به لكنه ليس بوصف فارق يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك والظان هو يوسف عليه السلام لا صاحبه لأن التوصية المذكورة لا تدور على ظن الناجى بل على ظن يوسف وهو بمعنى اليقين كما فى قوله تعالى ظننت أنى ملاق حسابيه فالتعبير بالوحى كما ينبئ عنه قوله تعالى قضى الأمر الخ وقيل هو بمعناه والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الأمر أيضا اجتهادى (اذْكُرْنِى) بما أنا عليه من الحال والصفة (عندَ ربِّكَ) سيدك وصفنى له بصفتى التى شاهدتها (فأنساهُ الشيطانُ) أى أنسى الشرابى بوسوسته والقائه فى قلبه أشغالا تعوقه عن الذكر والا فالانساء فى الحقيقة لله عز وجل والفاء للسببية فان توصيته عليه السلام المتضمنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثة لما ذكر من الانساء (ذِكْرَ ربهِ) أى ذكر الشرابى له عليه السلام عند الملك والإضافة لادنى ملابسة أو ذكر اخبار ربه (فَلبِثَ) أى يوسف عليه السلام بسبب ذلك الانساء أو القول (فِى السجنِ بضعَ سنينَ) البضع ما بين الثلاث إلى التسع من البضع وهو القطع وأكثر الأقاويل إنه لبث فيه سبع سنين وروى عن النبى عليه السلام رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا بعد الخمس والاستعانة بالعباد وإن كانت مرخصة لكن اللائق بمناصب الأنبياء عليهم السلام الاخذ بالعزائم (وقالَ المَلِكُ) أى الريان (إنى أرَى) أى رأيت وايثار صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (سبْعَ بقراتٍ سِمانٍ) جمع سمين وسمينة ككرام فى جمع كريم وكريمة يقال رجال كرام ونسوة كرام (يأكلُهُنَّ) أى أكلهن والعدول إلى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبا والجملة حال من البقرات أو صفة لها (سبْعٌ عِجافٌ) أى سبع بقرات عجاف وهى جمع عجفاء والقياس عجف لأن فعلاء وأفعل لا يجمع على فعال ولكن عدل به عن القياس حملا لاحد النقيضين على الآخر وإنما لم يقل سبع عجاف بالاضافة لأن التمييز موضوع لبيان الجنس والصفة

ليست بصالحة لذلك فلا يقال ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ وأما قولك ثلاثة فرسان وخمسة ركبان فلجريان الفارس والراكب مجرى الاسماء روى أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وخرج عقيبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان (وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ) قد انعقد حبها (وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) أى وسبعا أخر يابسات قد أدركت والتوت على الخضر حتى غلبتها على ما روى ولعل عدم التعرض لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ) خطاب للاشراف من العلماء والحكماء (أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ) هذه أى عبروها وبينوا حكمها وما تؤل اليه من العاقبة والتعبير عن التعبير بالافتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) أى تعلمون عبارة جنس الرؤيا علما مستمرا وهى الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة فى المنام إلى ما هى صور وأمثلة لها من الأمور الآفاقية أو الانفسية الواقعة فى الخارج من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته ونحوه أولتها أى ذكرت مآلها وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيرا والجمع بين الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما أشير اليه واللام للبيان أو لتقوية العامل المؤخر لرعاية الفواصل أو لتضمين تعبرون معنى فعل متعد باللام كأنه قيل ان كنتم تنتدبون لعبارتها ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما يقال فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر (قَالُوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الملأ للملك فقيل قالوا هى (أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) أى تخاليطها جمع ضغث وهو فى الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس الشيطان وتريها فى المنام والأحلام جمع حلم وهى الرؤيا الكاذبة التى لا حقيقة لها والإضافة بمعنى من أى هى أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التى لها عاقبة تؤول اليها ويعتنى بأمرها وجمعوها وهى رؤيا واحدة مبالغة فى وصفها بالبطلان كما فى قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك إلا فرسا واحدا وعمامة فردة أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والأخر اليابسات فتأمل حسن موقع الاضغاث مع السنابل فلله در شأن التنزيل (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ) أى المنامات الباطلة التى لا أصل لها (بِعَالِمِينَ) لا لأن لها تأويلا ولكن لا نعلمه بل لأنه لا تأويل لها وإنما التأويل للمنامات الصادقة ويجوز أن يكون ذلك اعترافا منهم بقصور علمهم وأنهم ليسوا بنحارير فى تأويل الاحلام مع أن لها تأويلا كما يشعر به عدولهم عما وقع فى كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من الدال إلى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الاحلام أو عبارتها إلى التأويل المنبىء عن التصرف والتكلف فى ذلك لما بين الآئل والمآل من البعد ويؤيده قوله عز وجل أنا أنبئكم بتأويله (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا) أى من صاحبى يوسف وهو الشرابى (وَادَّكَرَ) بغير المعجمة وهو الفصيح وعن الحسن بالمعجمة أى تذكر يوسف عليه السلام وشؤونه التى شاهدها ووصيته بتقريب رؤيا الملك واشكال تأويلها على الملا (بَعْدَ أُمَّةٍ) أى مدة طويلة وقرىء أمة بالكسر وهى النعمة أى بعدما أنعم عليه بالنجاة وأمه أى نسيان والجملة حال من الموصول أو من ضميره فى الصلة وقيل معطوفة على نجا وليس بذاك لأن حق كل من الصفة والصلة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم ولذلك قيل ان الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها صفات وأنت تدرى أن تذكره بعد أمة إنما علم بهذه الجملة فلا مجال لنظمه مع نجاته المعلومة قبل فى سلك الصلة (أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ) أى أخبركم به بالتلقى عمن عنده علمه لا من تلقاء نفسى ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها وعقبه بقوله (فَأَرْسِلُونِ) أى إلى يوسف وإنما لم يذكره ثقة بما سبق من التذكر وما لحق من قوله (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ) أى أرسل اليه فأتاه فقال يا يوسف ووصفه بالمبالغة فى الصدق حسبما شاهده وذاق أحواله وجربها لكونه

بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره فهو من باب براعة الاستهلال (أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) أى فى رؤيا ذلك وإنما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ما سبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث لا امكان لوقوعه فى عالم الشهادة أى بين لنا مآلها وحكمها وحيث عاين علو رتبته عليه السلام فى الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولا نبئنا بتأويله وفى قوله أفتنا مع أنه المستفتى وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وأنه فى ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال (لعلى أرجع إلى الناس) أى إلى الملك ومن عنده أو إلى أهل البلد إن كان السجن فى الخارج كما قيل فأنبئهم بذلك (لعلهم يعلمون) ذلك ويعملون بمقتضاه أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه من الحال فتتخلص منه وإنما لم يبت القول فى ذلك مجاراة معه على نهج الأدب واحترازا عن المجازفة إذ لم يكن على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه لعل المنايا دون ما تعدانى ولا من علمهم بذلك فربما لم يعلموه (قال) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال يوسف عليه السلام فى التأويل فقيل قال (تزرعون سبع سنين دأبا) قرىء بفتح الهمزة وسكونها وكلاهما مصدر دأب فى العمل إذا جد فيه وتعب وانتصابه على الحالية من فاعل تزرعون أى دائبين أو تدأبون دأبا على أنه مصدر مؤكد لفعل هو الحال أول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة فأخبرهم بأنهم يواظبون سبع سنين على الزراعة ويبالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخصب الذى هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ودلهم فى تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال (فما حصدتم) أى فى كل سنة (فذروه فى سنبله) ولا تذروه كيلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ولعله عليه السلام استدل على ذلك بالسنبلات الخضر وإنما أمرهم بذلك إذ لم يكن معتادا فيما بينهم وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها وجعلها أمرا محقق الوقوع وتأويلا للرؤيا ومصداقا لما فيها من البقرات السمان (إلا قليلا مما تأكلون) فى تلك السنين وفيه إرشاد منه عليه السلام لهم إلى التقليل فى الأكل والاقتصار على استثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوما من قوله تزرعون سبع سنين وبعد اتمام ما أمرهم به شرع فى بيان بقية التأويل التى يظهر منها حكمة الأمر المذكور فقال (ثم يأتى) وهو عطف على تزرعون فلا وجه لجعله بمعنى الأمر حثالهم على الجد والمبالغة فى الزراعة على أنه يحصل بالاخبار بذلك أيضا (من بعد ذلك) أى من بعد السنين السبع المذكورات وإنما لم يقل من بعدهن قصداً إلى الاشارة إلى وصفهن فان الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلية (سبع شداد) أى سبع سنين صعاب على الناس (يأكلن ما قدمتم لهن) من الحبوب المتروكة فى سنابلها وفيه تنبيه على أن أمره عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة وإسناد الأكل اليهن مع أنه حال الناس فيهن مجازى كما فى نهاره صائم وفيه تلويح بأنه تأويل لأكل العجاف السمان واللام فى لهن ترشيح لذلك فكأن ما ادخر فى السنابل من الحبوب شىء قد هيىء وقدم لهن كالذى يقدم للنازل وإلا فهو فى الحقيقة مقدم للناس فيهن (إلا قليلا مما تحصنون) تحرزون مبذور الزراعة (ثم يأتى من بعد ذلك) أى من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة (عام) لم يعبر عنه بالسنة تحاشيا عن المدلول الأصلى لها من عام القحط وتنبيها من أول الأمر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق (فيه يغاث الناس) من الغيث أى يمطرون يقال غيثت البلاد إذا مطرت فى وقت الحاجة أو من الغوث يقال أغاثنا الله تعالى أى أمدنا برفع المكاره حين أظلتنا (وفيه يعصرون) أى ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه لكثرتها والتعرض لذكر العصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم فى الحبوب

اما الآن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب إذ المذكورات يتوقف صلاحها على مبادأخرى غير المطر واما المراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به بشارة له وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليبه على الناس فى القراءة بالفوقانية وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع وتكريرفيه إما للاشعار باختلاف أوقات مايقع فيه من الغيث والعصر زمانا وهو ظاهر وعنوانا فان الغيث والغوث من فضل الله تعالى والعصر من فعل الناس وإما الآن المقام مقام تعداد منافع ذلك العام ولأجله قدم فى الموضعين على الفعلين فان المقصود الأصلى بيان أنه يقع فى ذلك العام هذا النفع وذاك النفع لا بيان أنهما يقعان فى ذلك العام كما يفيده التأخير ويجوز أن يكون التقديم للقصر على معنى أن غيثهم وعصرهم فى سائر السنين بمنزلة العدم بالنسبة إلى عامهم ذلك وأن يكون ذلك فى الأخير لمراعاة الفواصل وفى الأول لرعاية حاله وقرىء يعصرون على البناء للمفعول من عصره إذا أنجاه وهو المناسب للاغاثة ويجوز أن يكون المبنى للفاعل أيضا منه كأنه قيل فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أى يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضا وقيل معنى يعصرون يمطرون من أعصرت السحابة إما بتضمين أعصرت معنى مطرت وتعديته واما بحذف الجار وإيصال الفعل على أن الأصل أعصرت عليهم وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك وإنما تلقاها عليه السلام من جهة الوحى فبشرهم بها بعدما أول الرؤيا بما أول وأمرهم بالتدبير اللائق فى شأنه إبانة لعلو كعبه ورسوخ قدمه فى الفضل وأنه محيط بمالم يخطر ببال أحد فضلا عما يرى صورته فى المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائهما فى منامهما لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله وإتماما للنعمة عليهم حث لم يشاركه عليه السلام فى العلم بوقوعها أحد ولو برؤية مايدل عليها فى المنام (وَقَالَ الْمَلِكُ) بعدما جاءه السفير بالتعبير وسمع منه ماسمع من نقير وقطمير (ائْتُونِى بِهِ) لما علم من علمه وفضله (فَلَمَّا جَاءَهُ) أى يوسف (الرَّسُولُ) واستدعاه إلى الملك (قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ) أى سيدك (فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) أى ففتشه عن شأنهن وإنما لم يقل فاسأله أن يفتش عن ذلك حثا للملك على الجد فى التفتيش ليتبين براءته ويتضح نزاهته إذ السؤال مما يهيج الانسان على الاهتمام فى البحث للتفصى عما توجه اليه وأما الطلب فمما قد يتسامح ويتساهل فيه ولا يبالى به وإنما لم يتعرض لامرأة العزيز مع مالقى منها مالقى من مقاساة الأحزان ومعاناة الأشجان محافظة على مواجب الحقوق واحترازا عن مكرها حيث اعتقدها مقيمة فى عدوة العداوة وأما النسوة فقد كان يطمع فى صدعهن بالحق وشهادتهن باقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدى ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن أطع مولاتك واكتفى بالايماء إلى ذلك بقوله (إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) مجاملة معهن واحترازا عن سوء قالتهن عند الملك وانتصابهن للخصومة مدافعة عن أنفسهن متى سمعن بنسبته لهن إلى الفساد (قَالَ) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال الملك اثرما بلغه الرسول الخبر وأحضرهن (مَا خَطْبُكُنَّ) أى شأنكن وهو الأمر الذى يحق لعظمه أن يخاطب المرء فيه صاحبه (إِذْ رَاوَدْتُّنَّ يُوسُفَ) وخادعتنه (عَنْ نَفْسِهِ) ورغبتنه فى اطاعة مولاته هل وجدتن فيه شيئا من سوء وريبة (قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ) تنزيها له وتعجبا من نزاهته وعفته (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) بالغن فى نفى جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من (قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ) وكانت حاضرة فى المجلس وقيل أقبلت النسوة عليها يقررنها وقيل خافت أن يشهدن عليها بما قالت لهن ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فأقرت قائلة (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ) أى ثبت واستقر أو تبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل وقيل هو مأخوذ من الحصة وهى القطعة من الجملة أى تبين حصة الحق من حصة الباطل كما تتبين حصص الأراضى وغيرها وقيل بان وظهر من حص شعره إذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه وقرىء على البناء للمفعول من حصحص البعير مباركه أى

ألقاها فى الأرض للاناخة قال: فحصحص فى صم الصفا ثفناته وناء بسلمى نوأة ثم صمما
والمعنى أقر الحق فى مقره ووضع فى موضعه ولم ترد بذلك مجرد ظهور ماظهر بشهادتهن من مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته فى سائر المواطن خصوصا فيما وقع فيه التشاجر بمحضر العزيز ولا بحث عن حال نفسها وماصنعت فى ذلك بل أرادت ظهور ماهو متحقق فى نفس الأمر وثبوته من نزاهته عليه السلام فى محل النزاع وخيانتها فقالت (أَنا رَاوَدتُهُ عَنْ نَفْسِهِ) لا أنه راودنى عن نفسى (وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) أى فى قوله حين افتريت عليه هى راودتنى عن نفسى وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام لا زمان شهادتهن فتأمل أيها المنصف هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها والفضل ماشهدت به الخصماء وإنما تصدى عليه السلام لتمهيد هذه المقدمة قبل الخروج ليظهر براءة ساحته مما قذف به لا سيما عند العزيز قبل أن يحل ماعقده كما يعرب عنه قوله عليه السلام لما رجع اليه الرسول وأخبره بكلامهن (ذَٰلِكَ) أى ذلك التثبيت المؤدى إلى ظهور حقيقة الحال (لِيَعْلَمَ) أى العزيز (أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ) فى حرمته كما زعمه لا علما مطلقا فان ذلك لا يستدعى تقديم التفتيش على الخروج من السجن بل قبل ماذكر من نقض ماأبرمه ولعله لمراعاة حقوق السيادة لأن المباشرة للخروج من حبسه قبل ظهور بطلان ماجعله سببا له وان كان ذلك بأمر الملك مما يوهم الافتيات على رأيه وأما أن يكون ذلك لئلا يتمكن من تقبيح أمره عند الملك تمحلا لامضاء ماقضاه فلا يليق بشأنه عليه السلام فى الوثوق بأمره والتوكل على ربه جل جلاله (بِالْغَيْبِ) أى بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول أى لم أخنه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عنى أو ظرف أى بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة وأيا ماكان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها (وَأَنَّ اللَّهَ) أى وليعلم أنه تعالى (لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) أى لا ينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه أو لا يهديهم فى كيدهم ايقاعا للفعل على الكيد مبالغة كما فى قوله تعالى يضاهئون قول الذين كفروا أى يضاهئونهم فى قولهم وفيه تعريض بامرأته فى خيانتها أمانته وبه فى خيانته أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعدمارأوا آيات نزاهته عليه السلام ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته وأنه لو كان خائنا لماهدى الله عز وجل أمره وأحسن عاقبته (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي) أى لا أنزهها عن السوء قاله عليه السلام هضما لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء وربأ بمكانها عن التزكية والاعجاب بحالها عند ظهور كمال نزاهتها على أسلوب قوله عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر أو تحديثا بنعمة الله عز وجل عليه وابرازا لسره المكنون فى شأن أفعال العباد أى لا أنزهها عن السوء من حيث هى هى ولا أسند هذه الفضيلة اليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله عز وعلا (إِنَّ النَّفْسَ) البشرية التى من جملتها نفسى فى حد ذاتها (لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) مائلة إلى الشهوات مستعملة للقوى والآلات فى تحصيلها بل إنما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المهالك ومن جملتها نفسى أو هى أمارة بالسوء فى كل وقت الا وقت رحمة ربى وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع أى لكن رحمة ربى هى التى تصرف عنها السوء كما فى قوله تعالى ولا هم ينقذون الا رحمة (إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) عظيم المغفرة لما يعترى النفوس بموجب طباعها ومبالغ فى الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك وايثار الاظهار فى مقام الاضمار مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية مبادى المغفرة والرحمة وقيل إلى هنا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك الذى قلت ليعلم يوسف عليه السلام انى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال الغيبة وجئت بما هو الحق الواقع وما أبرىء نفسى مع ذلك من الخيانة حيث قلت فى حقه ماقلت وفعلت به مافعلت ان كل نفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربى أى الا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف

ان ربى غفور لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيم له فعلى هذا يكون تأنيه عليه السلام فى الخروج من السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملك وأمره بين بين ففعل مافعل حتى يتبين نزاهته وأنه إنما سجن بظلم عظيم مع ماله من الفضل ونباهة الشأن ليتلقاه الملك بما يليق به من الاعظام والاجلال وقد وقع (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ) أجعله خالصا (لِنَفْسِى) وخاصابى (فَلَمَّا كَلَّمَهُ) أى فأتوا به فحذف للايذان بسرعة الإتيان به فكأنه لم يكن بين الأمر باحضاره والخطاب معه زمان أصلا والضمير المستكن فى كلمه ليوسف والبارز للملك أى فلما كلمه يوسف اثر ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد (قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ) ذو مكانة ومنزلة رفيعة (أَمِينٌ) مؤتمن على كل شىء واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والأمانة بل هو آن التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن احتمال كونهما بعد حين . روى أنه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من السجن ودعا لأهله واغتسل ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره وشر غيره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ماهذا اللسان قال لسان آبائى وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه فقال أحب أن أسمع منك رؤياى فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على مارآها فأجلسه على السرير وفوض اليه أمره وقيل توفى قطفير فى تلك الليالى فنصبه منصبه وزوجه راعيل فوجدها عذراء وولدت له افراييم وميشا ولعل ذلك إنما كان بعد تعيينه عليه السلام لما عين له من أمر الخزائن كما يعرب عنه قوله عز وجل (قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ) أى أرض مصر أى ولنى أمرها من الايراد والصرف (إِنِّى حَفِيظٌ) لها ممن لايستحقها (عَلِيمٌ) بوجوه التصرف فيها وفيه دليل على جواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على اقامة العدل واجراء أحكام الشريعة وان كان من يد الجائر أو الكافر وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده عليه السلام ولعل ايثاره عليه السلام لتلك الولاية خاصة إنما كان للقيام بما هو أهم أمور السلطنة إذ ذاك من تدبير أمر السنين حسبما فصل فى التأويل لكونه من فروع تلك الولاية لالمجرد عموم الفائدة وجموم العائدة كما قيل وإنما لم يذكر اجابة الملك إلى ماسأله عليه السلام من جعله على خزائن الأرض ايذانا بأن ذلك أمر لامرد له غنى عن التصريح به لاسيما بعد تقديم ماينـدرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها من قوله انك اليوم لدينا مكين أمين وللتنبيه على أن كل ذلك من الله عز وجل وإنما الملك آلة فى ذلك قيل (وَكَذَلِكَ) أى مثل ذلك التمكين البليغ (مَكَّنَّا لِيُوسُفَ) أى جعلنا له مكانا (فِى الْأَرْضِ) أى أرض مصر . روى أنها كانت أربعين فرسخا فى أربعين وفى التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين فى الأرض مسندا إلى ضميره عز سلطانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة فى كمال ولايته والاشارة إلى حصول ذلك من أول الأمر لا أنه حصل بعد السؤال مالا يخفى (يَتَبَوَّأُ مِنْهَا) ينزل من بلادها (حَيْثُ يَشَاءُ) ويتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكته وسلطانه فكأنها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل فى منزله وقرأ ابن كثير بالنون . روى أن الملك توجه وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال عليه السلام أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى فقال قد وضعته اجلالا لك واقرارا بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض اليه الملك أمره وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام فى السنة الأولى بالدنانير والدراهم وفى الثانية بالحلى والجواهر وفى الثالثة بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم جميعا فقالوا مارأينا كاليوم ملكا أجل وأعظم منه ثم أعتقهم ورد اليهم أموالهم وكان لايبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس (نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا) بعطائنا فى

الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم (مَنْ نَشَاءُ) بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة (وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) بل نوفيه بكماله وفيه إشعار بأن مدار المشيئة المذكورة احسان من تصيبه الرحمة المرقومة وأنها أجر له ولدفع توهم انحصار ثمرات الاحسان فيما ذكر من الأجر العاجل قيل على سبيل التوكيد (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ) أى أجرهم فى الآخرة فالإضافة للملابسة وهو النعيم المقيم الذى لا نفاد له (خَيْرٌ) لهم أى للمحسنين المذكورين وإنما وضع موضعه الموصول فقيل (لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) تنبيها على أن المراد بالاحسان إنما هو الإيمان والثبات على التقوى المستفاد من جمع صيغتى الماضى والمستقبل (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ) ممتارين لما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب أرض مصر وقد كان أرسلهم يعقوب عليه السلام جميعا غير بنيامين (فَدَخَلُوا عَلَيْهِ) أى على يوسف وهو فى مجلس ولايته (فَعَرَفَهُمْ) لقوة فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته إياهم وهم رجال وتشابه هيآتهم وزيهم فى الحالين ولكون همته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم لا سيما فى زمن القحط وعن الحسن ما عرفهم حتى تعرفوا له (وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) أى والحال أنهم منكرون له لطول العهد وتباين ما بين حاليه عليه السلام فى نفسه ومنزلته وزيه ولاعتقادهم أنه هلك وحيث كان انكارهم له أمرا مستمرا فى حالتى المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام إياهم (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ) أى أصلحهم بعدتهم من الزاد وما يحتاج إليه المسافر وأوقر ركائبهم بما جاؤا له من الميرة وقرىء بكسر الجيم (قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ) لم يقل بأخيكم مبالغة فى إظهار عدم معرفته لهم ولعله عليه السلام إنما قاله لما قيل من أنهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لا لما قيل من أنه لما رأوه وكلموه بالعبرية قال لهم من أنتم فانى أنكركم فقالوا له نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبى من الأنبياء اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فهلك منا واحد فقال كم أنتم ههنا قالوا عشرة قال فأين الحادى عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم أنكم لستم عيونا وأن ما تقولون حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده إذ لا يساعده ورود الأمر بالاتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بايفاء الكيل ولا الاحسان فى الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الاتيان به ولا جعل بضاعتهم فى رحالهم لأجل رجوعهم ولا عدتهم بالاتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند أبيهم إرسال أخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على أن استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال (أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ) أتمه لكم وإيثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على أن ذلك عادة له مستمرة (وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) جملة حالية أى ألا ترون أنى أوفى الكيل لكم إيفاء مستمرا والحال إنى فى غاية الاحسان فى إنزالكم وضيافتكم وقد كان الأمر كذلك وتخصيص الرؤية بالايفاء لوقوع الخطاب فى أثنائه وأما الاحسان فى الانزال فقد كان مستمرا فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به والاقتصار فى الكيل على ذكر الايفاء لأن معاملته عليه السلام معهم فى ذلك كمعاملته مع غيرهم فى مراعاة مواجب العدل وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم فى ذلك بما شاء (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي) من بعد فضلا عن إيفائه (وَلَا تَقْرَبُونِ) بدخول بلادى فضلا عن الاحسان فى الانزال والضيافة وهو إما نهى أو نفى معطوف على محل الجزاء وفيه دليل على أنهم

كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام (قالوا سنراود عنه أباه) أى سنخادعه عنه ونحتال فى انتزاعه من يده ونجتهد فى ذلك وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله (وإنا لفاعلون) ذلك غير مفرطين فيه ولا متوانين أو لقادرون عليه لا نتعانى به (وقال) يوسف (لفتيانه) غلمانه الكيالين جمع فتى وقرىء لفتيته وهى جمع قلة له (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) فانه وكل بكل رحل رجلا يعبى فيه بضاعتهم التى شروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما وإنما فعله عليه السلام تفضلا عليهم وخوفا من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه كما يأذن به قوله (لعلهم يعرفونها) أى يعرفون حق ردها والتكرم فى ذلك أو لكى يعرفوها وهو ظاهر التعلق بقوله (إذا انقلبوا إلى أهلهم) فان معرفتهم لها مقيدة بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعا وأما معرفة حق التكرم فى ردها فهى وإن كانت فى ذاتها غير مقيدة بذلك لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قيدت به (لعلهم يرجعون) حسبما أمرتهم به فان التفضل عليهم باعطاء البدلين ولاسيما عند اعواز البضاعة من أقوى الدواعى إلى الرجوع وما قيل إنما فعله عليه السلام لما لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمنا فكلام حق فى نفسه ولكن يأباه التعليل المذكور وأما أن علية الجعل المذكور للرجوع من حيث أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لأنهم لا يستحلون امساكهم فداره حسبانهم أنها بقيت فى رحالهم نسيانا وظاهر أن ذلك مما لا يخطر ببال أحد أصلا فان هيئة التعبية تنادى بأن ذلك بطريق التفضل ألا يرى أنهم كيف جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلا على التفضلات السابقة كما ستحيط به خبرا (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا) قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع (يا أبانا منع منا الكيل) أى فيما بعد وفيه ما لا يخفى من الدلالة على كون الامتيار مرة بعد مرة معهودا فيما بينهم وبينه عليه السلام (فأرسل معنا أخانا) بنيامين إلى مصر وفيه إيذان بأن مدار المنع عدم كونه معهم (نكتل) بسببه من الطعام ما نشاء وقرأ حمزة والكسائى بالياء على اسناده إلى الأخ لكونه سببا للاكتيال أو يكتل لنفسه مع اكتيالنا (وإنا له لحافظون) من أن يصيبه مكروه (قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه) يوسف (من قبل) وقد قلتم فى حقه أيضا ما قلتم ثم فعلتم به ما فعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وإنما أفوض الأمر إلى الله (فالله خير حفظا) وقرىء حفظا وانتصابهما على التمييز والحالية على القراءة الأولى توهم تقيد الخيرية بتلك الحالة (وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن يرحمنى بحفظه ولا يجمع على مصيبتين وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام إلى الاذن والارسال لما رأى فيه من المصلحة (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) أى تفضلا وقد علموا ذلك بما مر من دلالة الحال وقرىء بنقل حركة الدال المدغمة إلى الراء كما قيل فى قيل وكيل (قالوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل ماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا لأبيهم ولعله كان حاضرا عند الفتح (يا أبانا ما نبغى) إذا فسر البغى بالطلب فما اما استفهامية منصوبة به فالمعنى ماذا نبتغى وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك الينا وكرمه الداعى إلى امتثال أمره والمراجعة اليه فى الحوائج وقد كانوا أخبروه بذلك وقالوا له انا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته وقوله تعالى (هذه بضاعتنا ردت إلينا) جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الانكار من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتنا ردها الينا تفضلا من حيث لا ندرى بعد ما من علينا من المنن العظام هل من مزيد على هذا فنطلبه ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقا أو التقاعد عن طلب نظائره بل أرادوا الاكتفاء به فى استيجاب الامتثال لأمره والالتجاء اليه فى استجلاب المزيد كما أشرنا اليه وقوله تعالى ردت الينا حال من بضاعتنا والعامل معنى الاشارة وإيثار صيغة البناء للمفعول للايذان بكمال الاحسان الناشىء عن كمال الاخفاء المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله وقوله عز وجل (ونمير أهلنا) أى نجلب اليهم الطعام

من عند الملك معطوف على مقدر ينسحب عليه رد البضاعة أي فنستظهر بها و نمير أهلنا (وَنَحْفَظُ أَخَانَا) من المكاره حسبما وعدنا فما يصيبه من مكروه (وَنَزْدَادُ) أي بواسطته ولذلك وسط الإخبار بحفظه بين الأصل والمزيد (كَيْلَ بَعِيرٍ) أي وسق بعير زائدا على أوساق أباعرنا على قضية التقسيط (ذَٰلِكَ) أي ما يحمله أباعرنا (كَيْلٌ يَسِيرٌ) أي مكيل قليل لا يقوم بأودنا فهو استئناف وقع تعليلا لما سبق كأنه قيل أي حاجة إلى الازدياد فقيل ما قيل أو ذلك الكيل الزائد شيء قليل لا يضايقنا فيه الملك أو سهل عليه لا يتعاظمه أو أي مطلب نطلب من مهماتنا والجملة الواقعة بعده توضيح وبيان لما يشعر به الانكار من كونهم فائزين ببعض المطالب أو متمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها ونمير أهلنا ونحفظ أخانا فما يصيبه شيء من المكاره ونزداد بسببه غير ما نكتاله لأنفسنا كيل بعير فأي شيء نبتغي وراء هذه المباغي وقرىء ما تبغي على خطاب يعقوب عليه السلام أي أي شيء تبغي وراء هذه المباغي المشتملة على سلامة أخينا وسعة ذات أيدينا أو وراء ما فعل بنا الملك من الاحسان داعيا إلى التوجه إليه والجملة الاستئنافية موضحة لذلك أو أي شيء تبغي شاهدا على صدقنا فيما وصفنا لك من إحسانه والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الانكار وإما نافية فالمعنى ما نبغي شيأ غير ما رأينا من إحسان الملك في وجوب المراجعة إليه أو ما نبغي غير هذه المباغي وقيل ما نطلب منك بضاعة أخرى والجملة المستأنفة تعليل له وأما إذا فسر البغي بمجاوزة الحد فما نافية فقط والمعنى ما نبغي في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من احسان الملك الينا وكرمه الموجب لما ذكر والجملة المستأنفة لبيان ما ادعوا من عدم البغي وقوله ونمير أهلنا عطف على ما نبغي أي ما نبغي فيما ذكرنا من إحسانه وتحصيل أمثاله من مير أهلنا وحفظ أخينا فان ذلك أهون شيء بواسطة إحسانه وقد جوز أن يكون كلاما مبتدأ أي جملة اعتراضية تذييلية على معنى وينبغي أن نمير أهلنا وشبه ذلك بقولك سعيت في حاجة فلان ويجب أن أسعى وأنت خبير بأن شأن الجمل التذييلية أن تكون مؤكدة لمضمون الصدر ومقررة له كما في المثال المذكور وقولك فلان ينطق بالحق فالحق أبلج وإن قوله ونمير الخ وإن ساعدنا في حمله على معنى ينبغي أن نمير أهلنا بمعزل من ذلك أو ما نبغي في الرأي وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك من إرسال أخينا معنا والجمل إلى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيهم وإصابة رأيهم أي بضاعتنا حاضرة نستظهر بها ونمير أهلنا ونصنع كيت وذيت فتأمل (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ) بعد ما عاينت منكم ما عاينت (حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ) أي ما أتوثق به من جهة الله عز وجل وإنما جعله موثقا منه تعالى لأن تأكيد العهود به مأذون فيه من جهته تعالى فهو إذن منه عز وجل (لَتَأْتُنَّنِي بِهِ) جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به (إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ) أي إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا به أو إلا أن تهلكوا وأصله من إحاطة العدو فان من أحاط به العدو فقد هلك غالبا وهو استثناء من أعم الأحوال أو أعم العلل على تأويل الكلام بالنفي الذي ينساق إليه أي لتأتنني به ولا تمتنعن منه في حال من الأحوال أو لعلة من العلل إلا حال الاحاطة بكم أو لعلة الاحاطة بكم نظيره قولهم أقسمت عليك لما فعلت وإلا فعلت أي ما أريد منك إلا فعلك وقد جوز الأول بلا تأويل أيضا أي لتأتنني به على كل حال إلا حال الاحاطة بكم وأنت تدري أنه حيث لم يكن الاتيان به من الأفعال الممتدة الشاملة للأحوال على سبيل المعية كما في قولك لألزمنك إلا أن تعطيني حقي ولم يكن مراده عليه السلام مقارنته على سبيل البدل لما عدا الحال المستثناة كما إذا قلت صل إلا أن تكون محدثا بل مجرد تحققه ووقوعه من غير إخلال به كما في قولك لأحجن العام إلا أن أحصر فان مرادك إنما هو الاخبار بعدم منع ما سوى حال الاحصار عن الحج إلا الاخبار بمقارنته لتلك الأحوال على سبيل البدل كما هو مرادك في مثال الصلاة كان اعتبار الأحوال معه

من حيث عدم منعهما منه فآل المعنى إلى التأويل المذكور ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ عهدهم من الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أى على ماقلنا فى أثناء طلب الموثق وإيتائه من الجانبين وإيثار صيغة الاستقبال لاستحضار صورته المؤدى إلى تثبتهم ومحافظتهم على تذكره ومراقبته ﴿وَكِيلٌ﴾ مطلع رقيب يريد به عرض ثقته بالله تعالى وحثهم على مراعاة ميثاقهم ﴿وَقَالَ﴾ ناصحا لهم لما أزمع على إرسالهم جميعاً ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا﴾ مصر ﴿مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾ نهاهم عن ذلك حذار من إصابة العين فانهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة وقد كانوا تجملوا فى هذه الكرة أكثر مما فى المرة الأولى وقد اشتهروا فى مصر بالكرامة والزلفى لدى الملك بخلاف النوبة الأولى فكانوا مئنة لدنو كل ناظر وطموح كل طامح وإصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما ينكر وقد ورد عنه عليه السلام إن العين حق وعنه عليه السلام إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر وقد كان عليه السلام يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وكان عليه السلام يقول كان أبوكما يعوذ بها اسمعيل وإسحق عليهم السلام رواه البخارى فى صحيحه وقد شهدت بذلك التجارب ولما لم يكن عدم الدخول من باب واحد مستلزما للدخول من أبواب متفرقة وكان فى دخولهم من بابين أو ثلاثة بعض مافى الدخول من باب واحد من نوع اجتماع مصحح لوقوع المحذور قال ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ بيانا لما هو المراد بالنهى وإنما لم يكتف بهذا الأمر مع كونه مستلزما له اظهار الكمال العناية وإيذانا بأنه المراد بالأمر المذكور لا تحقيق لشىء آخر ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم﴾ أى لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيرى ﴿مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أى شيأ مما قضى عليكم فان الحذر لا يمنع القدر ولم يرد به عليه السلام الغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد قال عز قائلا ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وقال خذوا حذركم بل أراد بيان إن ماوصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير فى الجملة وإنما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير وأن ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه اليه ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ مطلقا ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شىء ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على أحد سواه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ فى كل ما آتى وأذر وفيه دلالة على أن ترتيب الأسباب غير مخل بالتوكل ﴿وَعَلَيْهِ﴾ دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جمع بين الحرفين فى عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مقيدا بالواو عطف فعل غيره من تخصيص التوكل بالله عز وجل على فعل نفسه وبالفاء سببية فعله لكونه نبيا لفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنوه دخولا أوليا وفيه مالا يخفى من حسن هدايتهم وإرشادهم إلى التوكل فيما هم بصدده على الله عز وجل غير مغترين بما وصاهم به من التدبير ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ من الأبواب المتفرقة من البلد قيل كانت له أربعة أبواب فدخلوا منها وإنما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه ﴿مَّا كَانَ﴾ ذلك الدخول ﴿يُغْنِي﴾ فيما سيأتى عند وقوع ماوقع ﴿عَنْهُم﴾ عن الداخلين لأن المقصود به استدفاع الضرر عنهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب لما ومدخوله فان عدم الاغناء بالفعل انما يتحقق عند نزول المحذور لا وقت الدخول وانما المتحقق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور من عدم كون الدخول المذكور مغنيا فيما سيأتى فتأمل ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ من جهته ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أى شيأ مما قضاه عليهم مع كونه مظنة لذلك فى بادى الرأى حيث وصاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجبه واثقين بجدواه من فضل الله تعالى فليس المراد بيان سببية الدخول المذكور لعدم الاغناء كما فى قوله تعالى فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا فان مجىء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل بيان عدم سببيته للاغناء مع كونها متوقعة فى بادى الرأى كما فى قولك حلف أن يعطينى حقى عند حلول الأجل فلما حل لم يعطنى شيئا فان المراد بيان عدم سببية حلول الأجل للاعطاء مع كونها مرجوة بموجب الحلف لا بيان سببيته لعدم

الاعطاء فالمآل بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجو الوجود لا بيان ترتب عدمه عليه ويجوز أن يراد ذلك أيضا بناء على ماذكره عليه السلام فى تضاعيف وصيته من أنه لا يغنى عنهم من الله شيأ فكأنه قيل ولما فعلوا ماوصاهم به لم يفد ذلك شيأ ووقع الأمر حسبما قال عليه السلام فلقوا مالقوا فيكون من باب وقوع المتوقع فتأمل (إلا حَاجَةً) استثناء منقطع أى ولكن حاجة وحرازة كائنة (فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا) أى أظهرها ووصاهم بها دفعا للخاطرة غير معتقد أن للتدبير تأثيرا فى تغيير التقدير وقد جعل ضمير الفاعل فى قضاها للدخول على معنى إن ذلك الدخول قضى حاجة فى نفس يعقوب وهى إرادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرقة فالمعنى ما كان ذلك الدخول يغنى عنهم من جهة الله تعالى شيأ ولكن قضى حاجة حاصلة فى نفس يعقوب بوقوعه حسب إرادته فالاستثناء منقطع أيضا وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطرة وأما إصابة العين فانما لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم لا لأنها اندفعت بذلك مع كونها مقضية عليهم (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ) جليل (لِمَا عَلَّمْنَاهُ) لتعليمنا إياه بالوحى ونصب الأدلة حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر وأن التدبير له حظ من التأثير حتى يتبين الخلل فى رأيه عند تخلف الأثر أو حيث بت القول بأنه لا يغنى عنهم من الله شيأ فكان الحال كما قال وفى تأكيد الجملة بأن واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته مالا يخفى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أسرار القدر ويزعمون أنه يغنى عنه الحذر وأما ما يقال من أن المعنى لا يعلمون إيجاب الحذر مع أنه لا يغنى شيأ من القدر فيأباه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادى (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) بنيامين أى ضمه اليه فى الطعام أو فى المنزل أو فيما روى أنهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وستجدون ذلك عندى فأكرمهم ثم أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لاجلسنى معه فقال يوسف بقى أخوكم فريدا وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ثم أنزل كل اثنين منهم بيتا فقال هذا الثانى معه فيكون معى فبات يوسف يضمه اليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده فقال لى عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لى هلك فقال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه وتعرف اليه وعند ذلك (قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ) يوسف (فَلَا تَبْتَئِسْ) أى فلا تحزن (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) بنا فيما مضى فان الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا بخير ولا تعلمهم بما أعلمتك قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعن وهب انه لم يتعرف اليه بل قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود ومعنى فلا تبتئس لا تحزن بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم وروى أنه قال له فأنا لا أفارقك قال قد علمت باغتمام والدى بى فاذا حبستك يزداد غمه ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى مالا يجمل قال لا أبالى فافعل مابدا لك قال أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بأنك سرقته ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم قال افعل (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ) أى المشربة قيل كانت مشربة جعلت صاعا يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحبوب وكانت من فضة وقيل من ذهب وقيل من فضة مموهة بالذهب وقيل كانت إناء مستطيلة تشبه المكوك الفارسى الذى يلتقى طرفاه يستعمله الأعاجم وقيل كانت مرصعة بالجواهر (فِى رَحْلِ أَخِيهِ) بنيامين وقرىء وجعل على حذف جواب لما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا (ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ) نادى مناد (أَيَّتُهَا الْعِيرُ) وهى الإبل التى عليها الأحمال لأنها تعير أى تذهب وتجىء وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل مثل سقف وسقف ففعل به ما فعل ببيض وغيد والمراد أصحابها كما فى قوله عليه السلام ياخيل الله اركبى روى أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا منزلا وقيل خرجوا من العمارة ثم أمر بهم فأدركوا ونودوا (إِنَّكُم

لَسٰرِقُونَ) هذا الخطاب ان كان بأمر يوسف فلعله أريد بالسرقة أخذهم له من أبيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب وإلا فهو من قبل المؤذن بناء على زعمه والأول هو الأظهر الأوفق للسياق وقرأ اليماني سارقون بلا لام (قالوا) أى الاخوة (وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ) جملة حالية من ضمير قالوا جىء بها للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم (مَّاذَا تَفْقِدُونَ) أى تعدمون تقول فقدت الشىء إذا عدمته بأن ضل عنك لا بفعلك والمآل ماذا ضاع عنكم وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة وقرىء تفقدون من أفقدته إذا وجدته فقيدا وعلى التقديرين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ماذا سرق منكم لبيان كمال نزاهتهم باظهار أنه لم يسرق منهم شىء فضلا أن يكونوا هم السارقين له وإنما الممكن أن يضيع منهم شىء فيسألونهم أنه ماذا وفيه إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البرآء إلى ما لا خير فيه لا سيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث (قالوا) فى جوابهم (نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ) ولم يقولوا سرقتموه أو سرق وقرىء صاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها وباهمال العين وإعجامها من الصياغة ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم وإراءة لاعتقاد أنه إنما بقى فى رحلهم اتفاقا (وَلِمَن جَاءَ بِهِ) من عند نفسه مظهرا له قبل التفتيش (حِمْلُ بَعِيرٍ) من الطعام جعلا له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من أخذ من وجد فى رحله (وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) كفيل أؤديه اليه وهو قول المؤذن (قالوا تَاللهِ) الجمهور على أن التاء بدل من الواو ولذلك لا تدخل إلا على الجلالة المعظمة أو الرب المضاف إلى الكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأيا ما كان ففيه تعجب (لَقَدْ عَلِمْتُم) علما جازما مطابقا للواقع (مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ) أى لنسرق فانه من أعظم أنواع الافساد أو لنفسد فيها أى افساد كان مما عز أوهان فضلا عما نسبتمونا اليه من السرقة ونفى المجىء للافساد وإن لم يكن مستلزما لما هو مقتضى المقام من نفى الافساد مطلقا لكنهم جعلوا المجىء الذى يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق مجيئا لغرض الافساد مفعولا لأجله ادعاء اظهاراً لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم كما قيل فى قوله تعالى ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد الدال بظاهره على نفى المبالغة فى الظلم دون نفى الظلم فى الجملة الذى هو مقتضى المقام من أن المعنى إذا عذبت من لا يستحق التعذيب كنت ظلاما مفرطا فى الظلم فكأنهم قالوا إن صدر عنا افساد كان مجيئنا لذلك مريدين به تقبيح حاله وإظهار كمال نزاهتهم عنه يعنون أنه قد شاع بينكم فى كرتى مجيئنا ما نحن عليه وقد كانوا على غاية ما يكون من الديانة والصيانة فيما يأتون ويذرون حتى روى أنهم دخلوا مصر وأفواه رواحلهم مكمومة لئلا تتناول زرعا أو طعاما لأحد وكانوا مثابرين على فنون الطاعات وعلمتم بذلك أنه لا يصدر عنا افساد (وَمَا كُنَّا سٰرِقِينَ) أى ما كنا نوصف بالسرقة قط وإنما حكموا بعلمهم ذلك لأن العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة وإنما لم يكتفوا بنفى الأمرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك الزاما للحجة عليهم وتحقيقا للتعجب المفهوم من تاء القسم (قالوا) أى أصحاب يوسف عليه السلام (فَمَا جَزٰؤُهُ) الضمير للصواع على حذف المضاف أى فما جزاء سرقته عندكم وفى شريعتكم (إِن كُنتُمْ كٰذِبِينَ) لا فى دعوى البراءة عن السرقة فانهم صادقون فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفى كون الصواع فيهم كما يؤذن به قوله عز وجل (قالوا جَزٰؤُهُ مَن وُجِدَ) أى أخذ من وجد الصواع (فِى رَحْلِهِ) حيث ذكر بعنوان الوجدان فى الرحل دون عنوان السرقة وإن كان ذلك مستلزما لها فى اعتقادهم المبنى على قواعد العادة ولذلك أجابوا بما أجابوا فان الاخذ والاسترقاق سنة إنما هو جزاء السارق دون من وجد فى يده مال غيره كيفما كان فتأمل واحمل كلام كل فريق على ما لا يزاحم رأيه فانه أقرب إلى معنى الكيد وأبعد من الافتراء وقوله تعالى (فَهُوَ جَزٰؤُهُ) تقرير لذلك الحكم أى فأخذه جزاؤه

كقولك حق الضيف أن يكرم فهو حقه ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر
مقام المضمر والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو على أن الأول لمن والثانى للظاهر الذى وضع موضعه (كَذٰلِكَ)
أى مثل ذلك الجزاء الأوفى (نَجْزِى الظّٰلِمِينَ) بالسرقة تأكيد للحكم المذكور غب تأكيد وبيان لقبح السرقة ولقد
فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون (فَبَدَأَ) يوسف بعدما رجعوا اليه للتفتيش (بِأَوْعِيَتِهِمْ)
بأوعية الاخوة العشرة أى بتفتيشها (قَبْلَ) تفتيش (وِعَاءِ أَخِيهِ) بنيامين لنفى التهمة . روى أنه لما بلغت النوبة
إلى وعائه قال ما أظن هذا أخذ شيئا فقالوا والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا (ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا)
أى السقاية أو الصواع فانه يذكر ويؤنث (مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ) لم يقل منه على رجع الضمير إلى الوعاء أو من وعائه على
رجعه إلى أخيه قصدا إلى زيادة كشف وبيان وقرىء بضم الواو وبقلبها همزة كما فى أشاح فى وشاح (كَذٰلِكَ) نصب
على المصدرية والكاف مقحمة للدلالة على فخامة المشار اليه وكذا ما فى ذلك من معنى البعد أى مثل ذلك الكيد العجيب
وهو عبارة عن إرشاد الاخوة إلى الافتاء المذكور باجرائه على ألسنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث
لم يحتسبوا فمعنى قوله عز وجل (كِدْنَا لِيُوسُفَ) صنعناله ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التى رتبها من
دس الصواع وما يتلوه فاللام ليست كما فى قوله فيكيدوا لك كيدا فانها داخلة على المتضرر على ما هو الاستعمال الشائع وقوله
تعالى (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ) استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه لاتفسير وبيان له كما قيل كأنه
قيل لماذا فعل ذلك فقيل لأنه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعله فى دين الملك فى أمر السارق أى فى سلطانه قاله ابن عباس أوفى
حكمه وقضائه قاله قتادة الابه لأن جزاء السارق فى دينه انما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ دون الاسترقاق
والاستعباد كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من أخذ أخيه بالسرقة التى نسبها اليه فى حال من
الأحوال (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ) أى إلا حال مشيئته التى هى عبارة عن إرادته لذلك الكيد أو إلا حال مشيئته للأخذ
بذلك الوجه ويجوز أن يكون الكيد عبارة عنه وعن مباديه المؤدية اليه جميعا من إرشاد يوسف وقومه إلى ما صدر منهم
من الأفعال والأقوال حسبما شرح مرتبا لكن لا على أن يكون القصر المستفاد من تقديم المجرور مأخوذا بالنسبة إلى
غيره مطلقا على معنى مثل ذلك الكيد كدنا لا كيدا آخر إذ لا معنى لتعليله بعجز يوسف عن أخذ أخيه فى دين الملك فى
شأن السارق قطعا إذ لا علاقة بين مطلق الكيد ودين الملك فى أمر السارق أصلا بالنسبة إلى بعضه على معنى مثل ذلك
الكيد البالغ إلى هذا الحد كدناله ولم نكتف ببعض من ذلك لأنه لم يكن يأخذ أخاه فى دين الملك به إلا حال مشيئتناله بايجاد
ما يجرى مجرى الجزء الصورى من العلة التامة وهو ارشاد اخوته إلى الافتاء المذكور وعلى هذا ينبغى أن يحمل القصر فى
تفسير من فسر قوله تعالى كدنا ليوسف بقوله علمناه إياه وأوحينا به اليه أى مثل ذلك التعليم المستتبع لما شرح مرتبا علمناه
دون بعض من ذلك فقط الخ وعلى كل حال فالاستثناء من اعم الأحوال كما أشير اليه ويجوز ان يكون من أعم العلل والأسباب
أى لم يكن يأخذ أخاه لعلة من العلل أو بسبب من الأسباب إلا لعلة مشيئته تعالى أو إلا بسبب مشيئته تعالى وأياما كان فهو
متصل لأن أخذ السارق إذا كان ممن يرى ذلك ويعتقده دينا لاسيما عند رضاه وإفتائه به ليس مخالفا لدين الملك وقد قيل معنى
الاستثناء إلا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك وأنت تدرى أن المراد بدينه ما عليه حينئذ فتغييره مخل
بالاتصال وارادة مطلق ما يتدين به أعم منه وبما يحدث تفضى إلى كون الاستثناء من قبيل التطبيق بالمحال اذ المقصود
بيان عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ ولم تتعلق المشيئة بالجعل المذكور إذ ذاك وارادة عجزه مطلقا تؤدى
إلى خلاف المراد فان استثناء حال المشيئة المذكورة من أحوال عجزه عليه السلام مما يشعر بعدم الحاجة إلى الكيد

المذكور فتدبر وقد جوز الانقطاع أى لكن أخذه بمشيئة الله تعالى واذنه فى دين غير دين الملك (نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ) أى رتبا كثيرة عالية من العلم وانتصابها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض أى إلى درجات والمفعول قوله تعالى (مَّن نَّشَآءُ) أى نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب (وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ) من أولئك المرفوعين (عَلِيمٌ) لا ينالون شأوه واعلم أنه إن جعل الكيد عبارة عن المعنيين الأولين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتبر فيه بالشرطية أو الشطرية من إرشاده عليه السلام إلى دس الصواع فى رحل أخيه وما يتفرع عليه من المقدمات المرتبة لاستبقاء أخيه مما يتم من قبله والمعنى أرشدنا اخوته إلى الافتاء المذكور لأنه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بدونه أو أرشدنا كلا منهم ومن يوسف وأصحابه إلى ما صدر عنهم ولم نكتف بما تم من قبل يوسف فقط لأنه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بذلك فقوله تعالى نرفع درجات إلى قوله تعالى عليم توضيح لذلك على معنى أن الرفع المذكور لا يوجب تمام مرامه إذ ليس ذلك بحيث لا يعزب عن علمه شىء بل انما نرفع كل من نرفع حسب استعداده وفوق كل واحد منهم عليم لا يقادر قدر علمه ولا يكتنه كنهه برفع كلا منهم إلى ما يليق به من معارج العلم ومدارجه وقد رفع يوسف إلى ما يليق به من الدرجات العالية وعلم أن ما حواه دائرة علمه لا يفى بمرامه فأرشد اخوته إلى الافتاء المذكور فكان ما كان وكأنه عليه السلام لم يكن على يقين من صدور الافتاء المذكور عن اخوته وإن كان على طمع منه فان ذلك إلى الله عز وجل وجودا وعلما والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية وفى صيغة المبالغة مع التنكير والالتفات إلى الغيبة من الدلالة على فخامة شأنه عز وعلا وجلالة مقدار علمه المحيط ما لا يخفى وأما ان جعل عبارة عن التعليم المستتبع للافتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم والافتاء وإن لم يكن داخلا تحت قدرته عليه السلام لكنه كان داخلا تحت علمه بواسطة الوحى والتعليم والمعنى مثل ذلك التعليم البالغ إلى هذا الحد علمناه ولم نقتصر على تعليم ما عدا الافتاء الذى سيصدر عن اخوته إذ لم يكن متمكنا من أخذ أخيه إلا بذلك فقوله نرفع درجات من نشاء توضيح لقوله كدنا وبيان لأن ذلك من باب الرفع إلى الدرجات العالية من العلم ومدح ليوسف برفعه اليها وقوله وفوق كل ذى علم عليم تذييل له أى نرفع درجات عالية من العلم من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو أعلى درجة قال ابن عباس رضى الله عنهما فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهى العلم إلى الله تعالى والمعنى أن اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء إلا أن يوسف عليه السلام أفضل منهم وقرىء درجات من نشاء بالإضافة والأول أنسب بالتذييل حيث نسب فيه الرفع إلى من نسب اليه الفوقية لا إلى درجته ويجوز أن يكون العليم فى هذا التفسير أيضا عبارة عن الله عز وجل أى وفوق كل من أولئك المرفوعين عليم يرفع كلا منهم إلى درجته اللائقة به والله تعالى أعلم (قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ) يعنون بنيامين (فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ) يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمته على ما قيل من أنها كانت تحضنه فلما شب أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها وكانت لا تصبر عنه ساعة وكانت لها منطقة ورثتها من أبيها اسحق عليه السلام فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمدت إلى المنطقة فحزمتها عليه من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة اسحق عليه السلام فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لى سلم أفعل به ما أشاء فخلاه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت وقيل كان أخذ فى صباه صنما لأبى أمه فكسره وألقاه فى الجيف وقيل دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ) أى أكن الحزازة الحاصلة مما قالوا (فِى نَفْسِهِۦ) لا أنه أسرها لبعض أصحابه كما فى قوله تعالى وأسررت لهم إسرارا (وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ)

لاقولا ولافعلا صفحا عنهم وحلما وهو تأكيد لماسبق (قالَ) أى فى نفسه وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بالاسرار المذكور كأنه قيل فماذا قال فى نفسه فى تضاعيف ذلك الاسرار فقيل قال (أنتمْ شرٌّ مَكاناً) أى منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البرىء وقيل بدل من أسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله أنتم شر مكانا (وَاللهُ أعْلَمُ بِما تَصِفونَ) أى عالم علما بالغا إلى أقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا بل إنما هو افتراء علينا فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه عز وجل على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم (قالُوا) عندما شاهدوا مخايل أخذ بنيامين مستعطفين (يٰأيُّها العَزِيزُ إنَّ لَهُ أباً) لم يريدوا بذلك الاخبار بأن له أبا فان ذلك معلوم مما سبق وإنما أرادوا الاخبار بأن له أبا (شيْخاً كَبِيراً) فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالة به يتعلل عن شقيقه الهالك (فخُذْ أحَدَنا مَكانَهُ) فلسناه عنده بمنزلته من المحبة والشفقة (إنّا نَرٰاكَ مِنَ المحْسِنِينَ) الينا فأتمم إحسانك بهذه التتمة أو المتعودين بالإحسان فلا تغير عادتك (قالَ مَعاذَ اللهِ) أى نعوذ بالله معاذا من (أنْ نأخُذَ) فحذف الفعل وأقيم مقامه المصدر مضافا إلى المفعول به بعد حذف الجار (إلاّمَنْ وَجَدْنا مَتٰاعَنا عِنْدَهُ) لأن أخذنا له إنما هو بقضية فتواكم فليس لنا الاخلال بموجبها وإيثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب من جانب اخوته على التوحيد من باب السلوك إلى سنن الملوك أو للاشعار بأن الأخذ والاعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بآراء أولى الحل والعقد وإيثار من وجدنا متاعنا عنده دون من سرق متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب فى الكلام مع تمام المرام فانهم لا يحملون وجدان الصواع فى الرحل على محمل غير السرقة (إنّا إذاً) أى إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه (لظٰالِمونَ) فى مذهبكم وما لنا ذلك وهذا المعنى هو الذى أريد بالكلام فى أثناء الحوار وله معنى باطن هو أن الله عز وجل إنما أمرنى بالوحى أن آخذ بنيامين لمصالح علمها الله فى ذلك فلو أخذت غيره كنت ظالما وعاملا بخلاف الوحى (فلمّا اسْتَيْأسُوا مِنهُ) أى يئسوا من يوسف وإجابته لهم أشد يأس بدلالة صيغة الاستفعال وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس لما شاهدوه من عوذه بالله مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده فى أقصى مراتب الكراهة وأنه مما يجب أن يحترز عنه ويعاذ منه بالله عز وجل ومن تسميته ظلما بقوله إنا إذاً لظالمون (خَلَصُوا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس (نجِيّاً) أى ذوى نجوى على أن يكون بمعنى النجوى والتناجى أو فوجا نجيا على أن يكون بمعنى المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى وقربناه نجيا ويجوز أن يقال هم نجى كما يقال هم صديق لأنه بزنة المصادر من الزفير والزئير (قالَ كَبِيرُهُمْ) فى السن وهو روبيل أو فى العقل وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون (ألمْ تعْلموا) كأنهم أجمعوا عند التناجى على الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكرا عليهم ألم تعلموا (أنَّ أباكُمْ قدْ أخَذَ عليْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ) عهدا يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه من الله لاذنه فيه وكون الحلف باسمه الكريم (وَمِنْ قبْلُ) أى ومن قبل هذا (مَا فرَّطتمْ فى يُوسفَ) قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم وقد قلتم وإنا له لناصحون وإنا له لحافظون وما مزيدة أو مصدرية ومحل المصدر النصب عطفا على مفعول تعلموا أى ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا وتفريطكم السابق فى شأن يوسف عليه السلام ولا ضير فى الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف وقد جوز النصب عطفا على اسم أن والخبر فى يوسف أو من قبل على معنى ألم تعلموا أن تفريطكم السابق وقع فى شأن يوسف عليه السلام أو أن تفريطكم الكائن أو كائنا فى شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل وفيه أن مقتضى المقام إنما هو الاخبار بوقوع ذلك التفريط لا بكون تفريطهم السابق واقعا فى شأن يوسف كما هو مفاد الأول ولا بكون تفريطهم الكائن فى شأنه واقعا من قبل كما هو مفاد

الثانى على أن الظرف المقطوع عن الاضافة لايقع خبرا ولاصفة ولاصلة ولاحالا عند البعض كما تقرر فى موضعه وقيل محله الرفع على الابتداء والخبر من قبل وفيه مافيه وقيل ماموصولة أوموصوفة ومحلها النصب أوالرفع والحق هو النصب عطفا على مفعول تعلموا أى مافرطتموه بمعنى قدمتموه فى حقه من الخيانة واما النصب عطفا على اسم أن أوالرفع على الابتداء فقد عرفت حاله (فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ) متفرع على ماذكره وذكرهم إياهم من ميثاق أبيه وقوله لتأتننى به الا أن يحاط بكم أى فلن أفارق أرض مصر جاريا على قضية الميثاق (حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي) فى البراح بالانصراف اليه وكان أيمانهم كانت معقودة على عدم الرجوع بغير إذن يعقوب عليه السلام (أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي) بالخروج منها على وجه لايؤدى إلى نقض الميثاق أوبخلاص أخى بسبب من الاسباب. روى أنهم كلموا العزيز فى اطلاقه فقال روبيل أيها الملك لتردن الينا أخانا أولأصيحن صيحة لاتبقى بمصر حامل الا ألقت ولدها ووقفت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لايطاقون خلا انه اذامس من غضب واحد منهم سكن غضبه فقال يوسف لابنه قم إلى جنبه فمسه فقال روبيل من هذا ان فى هذا البلد بذرا من بذر يعقوب (وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) إذ لايحكم إلا بالحق والعدل (ارْجِعُوا) أنتم (إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ) على ظاهر الحال وقرئ سرق أى نسب إلى السرقة (وَمَا شَهِدْنَا) عليه (إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا) وشاهدنا أن الصواع استخرجت من وعائه (وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ) أى باطن الحال (حَافِظِينَ) فماندرى أن حقيقة الأمر كما شاهدنا أم بخلافه أو وما كنا عالمين حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق أوأنا نلاقى هذا الأمر أوأنك تصاب به كما أصبت بيوسف (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) أى مصر أوقرية بقربها لحقهم المنادى عندها أى أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة (وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) أى أصحابها فان القصة معروفة فيما بينهم وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام وقيل من صنعاء (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) تأكيد فى محل القسم (قَالَ) أى يعقوب عليه السلام وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ مماسبق فكأنه قيل فماذا كان عند قول المتوقف لاخوته ماقال فقيل قال يعقوب عند مارجعوا اليه فقالوا له ماقالوا وإنما حذف للايذان بأن مسارعتهم إلى قبوله ورجوعهم به إلى أبيهم أمر مسلم غنى عن البيان وإنما المحتاج اليه جواب أبيهم (بَلْ سَوَّلَتْ) أى زينت وسهلت وهو اضراب لاعن صريح كلامهم فانهم صادقون فى ذلك بل عما يتضمنه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وأنه لم يصدر عنهم مايؤدى إلى ذلك من قول أوفعل كأنه قيل لم يكن الأمر كذلك بل زينت (لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا) من الأمور فأتيتموه يريد بذلك فتياهم بأخذ السارق بسرقته (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) أى فأمرى صبر جميل أوفصبر جميل أجمل (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا) بيوسف وأخيه والمتوقف بمصر (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ) بحالى وحالهم (الْحَكِيمُ) الذى لم يبتلى إلا لحكمة بالغة (وَتَوَلَّى) أى أعرض (عَنْهُمْ) كراهة لما سمع منهم (وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) الاسف أشد الحزن والحسرة أضافه إلى نفسه والألف بدل من الياء فناداه أى ياأسفى تعالى فهذا أوانك وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لأن رزأه كان قاعدة الارزاء غضا عنده وإن تقادم عهده آخذا بمجامع قلبه لاينساه ولانه كان واثقا بحياتهما عالما بمكانهما طامعا فى ايابهما وأما يوسف فلم يكن فى شأنه مايحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله وفى الخبر لم تعط أمة من الأمم إنا لله وإنا اليه راجعون إلا أمة محمد عليه الصلاة والسلام ألا يرى إلى يعقوب حين أصابه ماأصابه لم يسترجع بل قال ماقال والتجانس بين لفظى الاسف ويوسف مما يزيد النظم الكريم بهجة كما فى قوله عزوجل وهم ينهون عنه وينأون عنه وقوله اثاقلتم إلى الأرض ارضيتم وقوله ثم كلى من كل الثمرات وجئتك من سبأ بنبأ يقين ونظائرها (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ) الموجب للبكاء فان العبرة إذا كثرت محقت سواد

العين وقلبته إلى بياض كدر قيل قد عمى بصره وقيل كان يدرك ادراكا ضعيفا . روى انه ماجفت عينا يعقوب من يوم فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الأرض أكرم على الله عز وجل من يعقوب عليه السلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام مابلغ من وجد يعقوب عليه السلام على يوسف قال وجد سبعين ثكلى قال فما كان له من الأجر قال أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة قط وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فان الكف عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول مايسخط الرب وأنا عليك يا ابراهيم لمحزونون وإنما الذى لا يجوز مايفعله الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق الثياب وعن النبى عليه السلام انه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل يارسول الله تبكى وقد نهيتنا عن البكاء فقال مانهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين صوت عند الفرح وصوت عند الترح (فَهُوَ كَظِيمٌ) مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له فى قلبه لا يظهره فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى وهو مكظوم من كظم السقاء إذا شده على ملئه أو بمعنى فاعل كقوله والكاظمين الغيظ من كظم الغيظ إذا اجترعه وأصله كظم البعير جرته إذا ردها فى جوفه (قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا) أى لا تفتأ ولا تزال (تَذْكُرُ يُوسُفَ) تفجعا عليه فحذف حرف النفى كما فى قوله فقلت يمين الله أبرح قاعدا لعدم الالتباس بالاثبات فان القسم إذا لم يكن معه علامة الاثبات يكون على النفى البتة (حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا) مريضا مشفيا على الهلاك وقيل الحرض من أذابه هم أو مرض وهو فى الأصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع والنعت منه بالكسر كدنف وقد قرىء به وبضمتين كجنب وغرب (أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهٰلِكِينَ) أى الميتين (قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّى) البث أصعب الهم الذى لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس أى ينشره فكأنهم قالوا له ماقالوا بطريق التسلية والاشكاء فقال لهم انى لا أشكو مابى إليكم أو إلى غيركم حتى تتصدوا لتسليتى وإنما أشكو همى (وَحُزْنِى إِلَى اللهِ) تعالى ملتجئا إلى جنابه متضرعا لدى بابه فى دفعه وقرىء بفتحتين وضمتين (وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ) من لطفه ورحمته فأرجو أن يرحمنى ويلطف بى ولا يخيب رجائى أو أعلم وحيا أو الهاما من جهته مالا تعلمون من حياة يوسف . قيل رأى ملك الموت فى المنام فسأله عنه فقال هو حى وقيل علم من رؤيا يوسف عليه السلام انه يسجد له أبواه واخوته سجدا (يٰبَنِىَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا) أى تعرفوا وهو تفعل من الحس وقرىء بالجيم من الجس وهو الطلب أى تطلبوا (مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ) أى من خبرهما ولم يذكر الثالث لان غيبته اختيارية لا يعسر إزالتها (وَلَا تَايْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ) لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه وقرىء بضم الراء أى من رحمته التى يحيى بها العباد وهذا ارشاد لهم إلى بعض ما أبهم فى قوله وأعلم من الله مالا تعلمون ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله (إِنَّهُ لَا يَايْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكٰفِرُونَ) لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فان العارف لا يقنط فى حال من الأحوال (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ) أى على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر بموجب أمر أبيهم وإنما لم يذكر ذلك ايذانا بمسارعتهم إلى ما أمروا به وإشعارا بأن ذلك أمر محقق لا يفتقر إلى الذكر والبيان (قَالُوا يٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ) أى الملك القادر المتمنع (مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ) الهزال من شدة الجوع (وَجِئْنَا بِبِضٰعَةٍ مُزْجٰةٍ) مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من أزجيته إذا دفعته وطردته والريح تزجى السحاب قيل كانت بضاعتهم من متاع الأعراب صوفا وسمنا وقيل الصنوبر وحبة الخضراء وقيل سويق المقل والاقط وقيل دراهم زيوفا لا تؤخذ الا بوضيعة وانما قدموا ذلك ليكون ذريعة إلى اسعاف مرامهم ببعث الشفقة وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة المرحمة ثم قالوا (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) أى أتممه لنا (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ) برد أخينا الينا قاله الضحاك وابن جريج وهو الأنسب بحالهم

نظر إلى أمر أبيهم أو بالايفاء أو بالمساحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على مايساويها تفضلا وإنما سموه تصدقا تواضعا أو أرادوا التصدق فوق مايعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبينا عليه الصلاة والسلام وإنما لم يبدؤا بما أمروا به استجلابا للرأفة والشفقة ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو على أن ماساقوه كلام ذو وجهين فان قولهم وتصدق علينا (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) يحتمل الحمل على المحملين فلعله عليه السلام حمله على المحمل الاول ولذلك (قَالَ) مجيبا عما عرضوا به وضمنوه كلامهم من طلب رد أخيهم (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ) وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه فقط وإنما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما فان المراد بذلك افرادهم له عن يوسف واذلاله بذلك حتى كان لايستطيع أن يكلمهم الا بعجز وذلة أى هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمه (إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) بقبحه فلذلك أقدمتم على ذلك أو جاهلون عاقبته وإنما قاله نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا ويجوز أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام منقطعا عن كلامهم وتنبيها لهم على ماهو حقهم ووظيفتهم من الاعراض عن جميع المطالب والتمحض فى طلب بنيامين بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحى أو الالهام على وصية أبيه وارساله إياهم للتحسس منه ومن أخيه فلما رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ماقال وقيل أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كتب فيه كتاب من يعقوب إسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدى فشدت يداه ورجلاه فرمى به فى النار فنجاه الله تعالى وجعلت النار له بردا وسلاما وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله تعالى وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى إلى فذهب به اخوته إلى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم فقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حبسته وانا أهل بيت لانسرق ولا نلد سارقا فان رددته على والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام. فلما قرأه لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ماقال وقيل لما قرأه بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا (قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ) استفهام تقرير ولذلك أكدوه بأن واللام قالوه استغرابا وتعجبا وقرىء انك بالايجاب قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به وقيل تبسم فعرفوه بثناياه وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها وقرىء أئنك أو أنت يوسف على معنى ائنك يوسف أو أنت يوسف فحذف الاول لدلالة الثانى عليه وفيه زيادة استغراب (قَالَ أَنَا يُوسُفُ) جوابا عن مسئلتهم وقد زاد عليه قوله (وَهَٰذَا أَخِي) أى من أبوى مبالغة فى تعريف نفسه وتفخيما لشأن أخيه وتكملة لما أفاده قوله هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه حسبما يفيده قوله (قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا) فكأنه قال هل علمتم مافعلتم بنا من التفريق والاذلال فانا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والانس بعد الوحشة ولايبعد أن يكون فيه إشارة إلى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخى لا أخوكم فلا وجه لطلبكم ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلى بقوله (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ) أى يفعل التقوى فى جميع أحواله أو يق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى وعذابه (وَيَصْبِرْ) على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصى التى تستلذها النفس (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) أى أجرهم وإنما وضع المظهر موضع المضمر تنبيها على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالاحسان (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا) اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة (وَإِنْ كُنَّا) وان الشأن كنا (لَخَاطِئِينَ) لمتعمدين للذنب إذ فعلنا بك مافعلنا ولذلك أعزك وأذلنا وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار

ولذلك (قَالَ لَا تَثْرِيبَ) أى لا عتب ولا تأنيب (عَلَيْكُمُ) وهو تفعيل من الثرب وهو الشحم الغاشى للكرش ومعناه إزالته كما أن التجليد إزالة الجلد والتقريع إزالة القرع لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال فضرب مثلا للتقريع الذى يذهب بماء الوجوه وقوله عز وعلا (الْيَوْمَ) منصوب بالتثريب أو بالمقدر خبرا للا أى لا أثربكم أو لا تثريب مستقر عليكم اليوم الذى هو مظنة له فما ظنكم بسائر الأيام أو بقوله (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) لأنه حينئذ صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب بالقبول ومن كرمه عليه الصلاة والسلام أن اخوته أرسلوا اليه إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحيي منك بما فرط منا فيك فقال عليه الصلاة والسلام إن أهل مصر وإن ملكت فيهم كانوا ينظرون إلى بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت فى العيون حيث علم الناس أنكم اخوتى وأنى من حفدة إبراهيم عليه الصلاة والسلام (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا) قيل هو الذى كان عليه حينئذ وقيل هو القميص المتوارث الذى كان فى التعويذ أمره جبريل بارساله اليه وأوحى اليه أن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى إلا عوفى (فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا) يكن بصيرا أو يأت إلى بصيرا وينصره قوله (وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) أى بأبى وغيره ممن ينتظمه لفظ الأهل جميعا من النساء والذرارى. وقيل إنما حمل القميص يهوذا وقال أنا أحزنته بحمل القميص ملطخا بالدم اليه فأفرحه كما أحزنته وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ) خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا إذا انفصل منه وجاوز حيطانه وقرأ ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انفصل العير (قَالَ أَبُوهُمْ) يعقوب عليه الصلاة والسلام لمن عنده (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) أوجده الله سبحانه ما عبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخا حين أقبل به يهوذا (لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) أى تنسبونى إلى الفند وهو الخرف وإنكار العقل وفساد الرأى من هرم يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة إذ لم تكن فى شبيبتها ذات رأى فتفند فى كبرها وجواب لولا محذوف أى لصدقتمونى (قَالُوا) أى الحاضرون عنده (تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) أى ذهابك عن الصواب قدما فى إفراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقائه وكان عندهم أنه قد مات (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ) وهو يهوذا (أَلْقَاهُ) أى ألقى البشير القميص (عَلَى وَجْهِهِ) أى وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فَارْتَدَّ) عاد (بَصِيرًا) لما انتعش فيه من القوة (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ) يعنى قوله إنى لأجد ريح يوسف فالخطاب لمن كان عنده بكنعان أو قوله ولا تيأسوا من روح الله فالخطاب لبنيه وهو الأنسب بقوله (إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) فان مدار النهى المذكور إنما هو العلم الذى أوتى يعقوب من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقول القول أى ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله تعالى وأعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام. روى أنه سأل البشير كيف يوسف فقال هو ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الإسلام قال الآن تمت النعمة (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) ومن حق من اعترف بذنبه أن يصفح عنه ويستغفر له فكأنهم كانوا على ثقة من عفوه عليه الصلاة والسلام ولذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار وأدرجوا ذلك فى الاستغفار (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) وهذا مشعر بعفوه وقيل أخر الاستغفار إلى وقت السحر وقيل إلى ليلة الجمعة ليتحرى به وقت الاجابة وقيل أخره إلى أن يستحل لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم فان عفو المظلوم شرط المغفرة ويعضده أنه روي عنه انه استقبل القبلة قائما يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا

خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال ان الله قد أجاب دعوتك فى ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة فان صح ثبتت نبوتهم وان ماصدر عنهم انما صدر قبل الاستنباء وقيل المراد الاستمرار على الدعاء فقد روى أنه كان يستغفر كل جمعة فى نيف وعشرين سنة وقيل قام الى الصلاة فى وقت السحر فلما فرغ رفع يديه فقال اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لولدى ماأتوا إلى أخيهم فأوحى الله اليه إن الله قد غفر لك ولهم أجمعين (فلمّا دخلوا علىٰ يوسُفَ) روى أنه وجه يوسف إلى أبيه جهازا ومائتى راحلة ليتجهز اليه بمن معه فاستقبله يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو يمشى متوكئا على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال يايهوذا أهذا فرعون مصر قال لا بل ولدك فلما لقيه قال عليه الصلاة والسلام السلام عليك يامذهب الأحزان وقيل قال له يوسف ياأبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا فقال بلى ولكنى خشيت أن يسلب دينك فيحال بينى وبينك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون مابين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف (ءاوىٰ إليهِ أبَوَيهِ) اى اباه وخالته وتنزيلها منزلة الأم كتنزيل العم منزلة الأب فى قوله عز وجل واله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق اولأن يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد امه وقال الحسن وابن اسحق كانت امه فى الحياة فلا حاجة إلى التأويل ومعنى آوى اليه ضمهما واعتنقهما وكأنه عليه الصلاة والسلام ضرب فى الملتقى مضربا فنزل فيه فدخلوا عليه فآواهما اليه (وَقالَ ادخُلوا مِصرَ إنْ شاءَ اللهُ ءامِنينَ) من الشدائد والمكاره قاطبة والمشيئة متعلقة بالدخول على الأمن (وَرَفَعَ أبَوَيهِ) عند نزولهم بمصر (علىَ العَرْشِ) على السرير تكرمة لهما فوق مافعله لاخوته (وَخَرّوا لهُ) اى ابواه واخوته (سُجّداً) تحية له فانه كان السجود عندهم جاريا مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية فى التعظيم والتوقير وقيل ما كان ذلك إلا انحناء دون تعفير الجباه ويأباه الخرور وقيل خروا لأجله سجدا لله شكرا ويرده قوله تعالى (وَقالَ يٰاأبتِ هٰذا تأويلُ رُءْيٰىَ) التى رأيتها وقصصتها عليك (مِنْ قبلُ) فى زمن الصبا (قدْ جَعلها رَبّى حَقّاً) صدقا واقعا بعينه والاعتذار بجعل يوسف بمنزلة القبلة وجعل اللام كما فى قوله أليس اول من صلى لقبلتكم تعسف لايخفى وتأخيره عن الرفع على العرش ليس بنص فى ذلك لأن الترتيب الذكرى لايجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى فلعل تأخيره عنه ليصل به ذكر كونه تعبير الرؤيا وما يتصل به من قوله (وَقدْ أحْسَنَ بى) المشهور استعمال الاحسان بالى وقد يستعمل بالباء ايضا كما فى قوله عز اسمه وبالوالدين إحسانا وقيل هذا بتضمين لطف وهو الاحسان الخفى كما يؤذن به قوله تعالى إن ربى لطيف لما يشاء وفيه فائدة لاتخفى اى لطف بى محسنا إلى غير هذا الاحسان (إذْ أخرَجَنى مِنَ السِّجنِ) بعدما ابتليت به ولم يصرح بقصة الجب حذارا من تثريب إخوته لأن الظاهر حضورهم لوقوع الكلام عقيب خرورهم سجدا واكتفاء بما يتضمنه قوله تعالى (وَجاءَ بكمْ مِنَ البَدوِ) اى البادية (مِنْ بعْدِ أن نَزَغَ الشيْطانُ بَيْنى وَبينَ إخوَتى) اى افسد بيننا بالاغواء وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجرى يقال نزغه ونسغه اذا نخسه ولقد بالغ عليه الصلاة والسلام فى الاحسان حيث اسند ذلك الى الشيطان (إنّ رَبّى لطيفٌ لما يَشاءُ) اى لطيف التدبير لأجله رفيق حتى يجىء على وجه الحكمة والصواب مامن صعب الا وهو بالنسبة الى تدبيره سهل (إنهُ هوَ العَليمُ) بوجوه المصالح (الحكيمُ) الذى يفعل كل شىء على قضية الحكمة روى ان يوسف اخذ بيد يعقوب عليهما الصلاة والسلام فطاف به فى خزائنه فأدخله فى خزائن الورق والذهب وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح

وغير ذلك فلما أدخله خزائن القراطيس قال يابنى ماأعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى على ثمانى مراحل قال أمرنى جبريل قال أو ماتسأله قال أنت أبسط اليه منى فسأله قال جبريل الله تعالى أمرنى بذلك لقولك أخاف أن يأكله الذئب قال فهلا خفتنى وروى أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه اسحق فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة فلما تم أمره وعلم أنه لايدوم له تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال (رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ) أى بعضا منه عظيما وهو ملك مصر (وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) أى بعضا من ذلك كذلك ان أريد بتعليم تأويل الأحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالترتيب ظاهر وأما ان أريد به تعليم تعبير الرؤيا كما هو الظاهر فلعل تقديم إيتاء الملك عليه فى الذكر لأنه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه من الله سبحانه والملك أعرق فى كونه نعمة من التعليم المذكور وإن كان ذلك أيضا نعمة جليلة فى نفسه ولا يمكن تمشية هذا الاعتذار فيما سبق لأن التعليم هناك وارد على نهج العلة الغائية للتمكين فان حمل على معنى التمليك لزم تأخره عنه وأما الواقع ههنا فمجرد التأخير فى الذكر والعطف بحرف الواو ولا يستدعى ذلك الترتيب فى الوجود (فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ) مبدعهما وخالقهما نصب على أنه صفة للمنادى أو منادى آخر وصفه تعالى به بعد وصفه بالربوبية مبالغة فى ترتيب مبادى مايعقبه من قوله (أَنْتَ وَلِىِّ) مالك أمورى (فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) أو الذى يتولانى بالنعمة فيهما وإذ قد أتممت على نعمة الدنيا (تَوَفَّنِى) اقبضنى (مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصّٰلِحِينَ) من آبائى أو بعامة الصالحين فى الرتبة والكرامة فانما تتم النعمة بذلك قيل لما دعا توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر فى دفنه وتشاحوا فى ذلك حتى هموا بالقتال فرأوا أن يصنعوا له تابوتا من مرمر فجعلوه فيه ودفنوه فى النيل ليمر عليه ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعا واحدا فى التبرك به وولد له أفرايم وميشا ولافرايم نون ولنون يوشع فتى موسى عليه الصلاة والسلام ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعده مصر ولم يزل بنو اسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام (ذٰلِكَ) إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف ومافيه من معنى البعد لما مر مرارا من الدلالة على بعد منزلته أو كونه بالانقضاء فى حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره (مِنْ أَنْبَآءِ الْغَيْبِ) الذى لايحوم حوله أحد وقوله (نُوحِيهِ إِلَيْكَ) خبر بعد خبر أو حال من الضمير فى الخبر ويجوز أن يكون ذلك اسما موصولا ومن أنباء الغيب صلته ويكون الخبر نوحيه اليك (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ) يريد اخوة يوسف عليه الصلاة والسلام (إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ) وهو جعلهم إياه فى غيابة الجب (وَهُمْ يَمْكُرُونَ) به ويبغون له الغوائل حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها وتطلع على سرائرهم طرا وتحيط بما لديهم خبرا وليس المراد مجرد نفى حضوره عليه الصلاة والسلام فى مشهد اجماعهم ومكرهم فقط بل فى سائر المشاهد أيضا وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة وأخفى أحوالها كما ينبىء عنه قوله وهم يمكرون والخطاب وان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المراد الزام المكذبين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك إذ لا سبيل الى معرفتك اياه سوى ذلك اذ عدم سماعك ذلك من الغير وعدم مطالعتك للكتب امر لايشك فيه المكذبون أيضا ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما هو فتبلغه اليهم وفيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون فى ذلك فيدفع شكهم وفيه ايضا ايذان بأن ماذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع وماينقله أهل الكتاب ليس على ماهو عليه يعنى أن مثل هذا التحقيق بلا وحى لا يتصور الا بالحضور والمشاهدة واذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحى ومثله قوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم ايهم يكفل مريم

وقوله وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ) يريد به العموم أو أهل مكة (وَلَوْ حَرَصْتَ) أى على إيمانهم وبالغت فى إظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك (بِمُؤْمِنِينَ) لتصميمهم على الكفر وإصرارهم على العناد روى أن اليهود وقريشا لما سألوا عن قصة يوسف وعدوا أن يسلموا فلما أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يسلموا حزن النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له ذلك (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ) أى على الأنباء أو على القرآن (مِنْ أَجْرٍ) من جعل كما يفعله حملة الأخبار (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ) عظة من الله تعالى (لِلْعَالَمِينَ) كافة لا أن ذلك مختص بهم (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ) أى كأى عدد شئت من الآيات والعلامات الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية التى جئت بها (فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى كائنة فيهما من الاجرام الفلكية ومافيها من النجوم وتغير أحوالها ومن الجبال والبحار وسائر مافى الأرض من العجائب الفائتة للحصر (يَمُرُّونَ عَلَيْهَا) أى يشاهدونها ولا يعبؤن بها وقرىء برفع الأرض على الابتداء ويمرون خبره وقرىء بنصبها على معنى ويطؤن الأرض يمرون عليها وفى مصحف عبد الله والأرض يمشون عليها والمراد ما يرون فيهما من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من الآيات والعبر (وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) غير ناظرين اليها ولا متفكرين فيها (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ) فى اقرارهم بوجوده وخالقيته (إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) بعبادتهم لغيره أو باتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا أو بقولهم باتخاذه تعالى ولدا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا أو بالنور والظلمة وهى جملة حالية أى لا يؤمن أكثرهم إلا فى حال شركهم قيل نزلت الآية فى أهل مكة وقيل فى المنافقين وقيل فى أهل الكتاب (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ) أى عقوبة تغشاهم وتشملهم (أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً) فجأة من غير سابقة علامة (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) باتيانها غير مستعدين لها (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي) وهى الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالاخلاص وفسرها بقوله (أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ) بيان وحجة واضحة غير عمياء أو هى حال من الضمير فى سبيلى والعامل فيها معنى الاشارة (أَنَا) تأكيد للمستكن فى أدعو أو على بصيرة لأنه حال منه أو مبتدأ خبره على بصيرة (وَمَنِ اتَّبَعَنِي) عطف عليه (وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) مؤكد لما سبق من الدعوة إلى الله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا) رد لقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة (نُوحِي إِلَيْهِمْ) كما أوحينا اليك وقرىء بالياء (مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ) لأنهم أعلم وأحلم وأهل البوادى فيهم الجهل والجفاء والقسوة (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ) أى الساعة أو الحياة الآخرة (خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) الشرك والمعاصى (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة وقرىء بالياء على أنه غير داخل تحت قل (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ) غاية لمحذوف دل عليه السياق أى لا يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فان من قبلهم قد أمهلوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم فى الدنيا أو عن إيمانهم لانهماكهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا) كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم أو كذبهم رجاؤهم فانه يوصف بالصدق والكذب والمعنى ان مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله تعالى قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم فى الدنيا (جَاءَهُمْ نَصْرُنَا) فجأة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وظنوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر فان صح ذلك عنه فلعله أراد بالظن ما يخطر بالبال من شبه الوسوسة وحديث النفس وإنما عبر عنه بالظن تهويلا للخطب وأما الظن الذى هو ترجح أحد الجانبين على الآخر فلا يتصور ذلك من آحاد الأمة فما ظنك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم هم ومنزلتهم فى معرفة شئون الله سبحانه منزلتهم وقيل

الضميران للرسل إليهم وقيل الأول لهم والثانى للرسل وقرىء بالتشديد أى ظن الرسل أن القوم كذبوهم فيما وعدوهم وقرىء بالتخفيف على بناء الفاعل على أن الضميرين للرسل أى ظنوا أنهم كذبوا عندقومهم فيما حدثوا به لما تراخى عنهم ولم يروا له أثراً أو على أن الأول لقومهم (فَنُجِّىَ مَنْ نَشَآءُ) هم الرسل والمؤمنون بهم وقرىء فننجى على لفظ المستقبل بالتخفيف والتشديد وقرىء فنجا (وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) إذا نزل بهم وفيه بيان لمن تعلق بهم المشيئة (لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ) أى قصص الأنبياء وأممهم وينصره قراءة من قرأ بكسر القاف أو قصص يوسف وإخوته (عِبْرَةٌ لِّأُولِى الْأَلْبَٰبِ) لذوى العقول المبرأة عن شوائب أحكام الحس (مَا كَانَ) أى القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة (حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ) كان (تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ) من الكتب السماوية وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى ولكن هو تصديق الذى بين يديه (وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ) مما يحتاج اليه فى الدين إذ ما من أمر دينى إلا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بوسط (وَهُدًى) من الضلالة (وَرَحْمَةً) ينال بها خير الدارين (لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أى يصدقونه لأنهم المنتفعون به وأما من عداهم فلا يهتدون بهداه ولا ينتفعون بجدواه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلما .

سورة الرعد

(مدنية وقيل مكية إلا قوله ويقول الذين كفروا الآية وآيها خمس وأربعون)

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

(الٓمٓر) اسم للسورة ومحله إما الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى هذه السورة مسماة بهذا الاسم وهو أظهر من الرفع على الابتداء إذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مر مراراً وقوله تعالى (تِلْكَ) على الوجه الأول مبتدأ مستقل وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان أو بدل من الأول أشير به اليها إيذانا بفخامته وإما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اقرأ أو اذكر فتلك مبتدأ كما إذا جعل المر مسروداً على نمط التعديد أو بمعنى أنا الله أعلم وأرى على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما والخبر على التقادير قوله تعالى (ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ) أى الكتاب العجيب الكامل الغنى عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل حينئذ حسبما مر فى مطلع سورة يونس إذ هو المتبادر من مطلق الكتاب المستغنى عن النعت وبه يظهر ما أريد من وصف الآيات بوصف ما أضيفت اليه من نعوت الكمال بخلاف ما إذا جعل عبارة عن السورة فانها ليست بتلك المثابة من الشهرة فى الاتصاف بذلك المغنية عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلابد من جعل تلك اشارة إلى كل واحدة منها وفيه ما لا يخفى من التعسف الذى مر تفصيله فى سورة يونس (وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) أى الكتاب المذكور بكماله لا هذه السورة وحدها (الْحَقُّ) الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها وليس فيه ما يدل على أن ما عداه ليس بحق اصلا على ان حقيته مستتبعة لحقية سائر الكتب السماوية لكونه مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه وفى التعبير عنه بالموصول وإسناد الانزال اليه بصيغة المبنى للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافا إلى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل اليه والايماء إلى وجه بناء الخبر ما لا يخفى (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) بذلك الحق المبين لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه فعدم إيمانهم متعلق بعنوان حقيته

لأنه المرجع للتصديق والتكذيب لابعنوان كونه منزلا كما قيل ولأنه وارد على طريقة الوصف دون الاخبار (اللهُ الذِى رَفَعَ السَّمٰوٰتِ) أى خلقهن مرتفعات على طريقة قولهم سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض لا أنه رفعها بعد أن لم تكن كذلك والجملة مبتدأ وخبر كقوله وهو الذى مد الأرض (بِغَيْرِ عَمَدٍ) أى بغير دعائم جمع عماد كاهاب واهب وهو مايعمد به أى يسند يقال عمدت الحائط أى أدعمته وقرىء عمد على جمع عمود بمعنى عماد كرسل ورسول وإيراد صيغة الجمع لجمع السموات لالأن المنفى عن كل واحدة منها عمد لاعماد (تَرَوْنَهَا) استئناف استشهد به على ماذكر من رفع السموات بغير عمد وقيل صفة لعمد جىء بها إيهاما لأن لها عمدا غير مرئية هى قدرة الله تعالى (ثُمَّ اسْتَوٰى) أى استولى (عَلَى الْعَرْشِ) بالحفظ والتدبير أو استوى أمره وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله عز وجل بلا كيف وأياما كان فليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش وخلقه فلا حاجة إلى جعل كلمة ثم للتراخى فى الرتبة (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما من الحركات وغيرها (كُلٌّ) من الشمس والقمر (يَجْرِى) حسبما أريد منها (لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) لمدة معينة فيها تتم دورته كالسنة للشمس والشهر للقمر فان كلا منهما يجرى كل يوم على مدار معين من المدارات اليومية أو لمدة ينتهى فيها حركاتهما ويخرج جميع ما أريد منهما من القوة إلى الفعل أو لغاية يتم عندها ذلك والجملة بيان لحكم تسخيرهما (يُدَبِّرُ) بما صنع من الرفع والاستواء والتسخير أى يقضى ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (الْأَمْرَ) أمر الخلق كله وأمر ملكوته وربوبيته (يُفَصِّلُ الْآيٰتِ) الدالة على كمال قدرته وبالغ حكمته أى يأتى بها مفصلة وهى ماذكر من الأفعال العجيبة ومايتلوها من الأوضاع الفلكية الحادثة شيئا فشيئا المستتبعة للآثار الغريبة فى السفليات على موجب التدبر والتقدير فالجملتان إما حالان من ضمير استوى وقوله وسخر الشمس والقمر من تتمة الاستواء وإما مفسرتان له أو الأولى حال منه والثانية من الضمير فيها أو كلاهما من ضمائر الأفعال المذكورة وقوله كل يجرى لأجل مسمى من تتمة التسخير أو خبران عن قول الله خبرا بعد خبر والموصول صفة للمبتدا جىء به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه كما فى قول الفرزدق :

ان الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

(لَعَلَّكُمْ) عند معاينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها (بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ) بملاقاته للجزاء (تُوقِنُونَ) فان من تدبرها حق التدبر أيقن أن من قدر على ابداع هذه الصنائع البديعة على كل شىء قدير وأن لهذه التدبيرات المتينة عواقب وغايات لابد من وصولها وقد بينت على ألسنة الأنبياء عليهم السلام أن ذلك ابتلاء المكلفين ثم جزاؤهم حسب أعمالهم فاذن لابد من الايقان بالجزاء ولما قرر الشواهد العلوية أردفها بذكر الدلائل السفلية فقال (وَهُوَ الذِى مَدَّ الْأَرْضَ) أى بسطها طولا وعرضا قال الأصم المد هو البسط إلى مالا يدرك منتهاه ففيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها (وَجَعَلَ فِيهَا رَوٰسِىَ) أى جبالا ثوابت فى أحيازها من الرسو وهو ثبات الأجسام الثقيلة ولم يذكر الموصوف لاغناء غلبة الوصف بها عن ذلك وانحصار مجىء فواعل جمعا لفاعل فى فوارس وهوالك ونواكس إنما هو فى صفات العقلاء وأما فى غيرهم فلا يراعى ذلك أصلا كما فى قوله تعالى أياما معدودات وقوله الحج أشهر معلومات إلى غير ذلك فلا حاجة إلى أن يجعل مفردها صفة لجمع القلة أعنى أجبلا ويعتبر فى جمع الكثرة أعنى جبالا انتظامها لطائفة من جموع القلة وتنزيل كل منها منزلة مفردها كما قيل على أنه لا مجال لذلك فان جمعية كل من صيغتى الجمعين إنما هى باعتبار الافراد التى تحتها لا باعتبار انتظام جمع القلة للافراد وجمع الكثرة لجموع القلة فكل منهما جمع جبل لا أن جبالا جمع أجبل كما أن طوائف جمع طائفة ولا إلى أن يلتجأ إلى جعل الوصف المذكور بالغلبة فى عداد الأسماء التى تجمع على فواعل كما ظن على أنه لا وجه

له لما أن الغلبة إنما هى فى الجمع دون المفرد والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرع قرار الارض على ثباتها (وَأَنْهَٰرًا) مجارى واسعة والمراد ما يجرى فيها من المياه وفى نظمها مع الجبال فى معمولية فعل واحد إشارة إلى أن الجبال منشأ للانهار وبيان لفائدة أخرى للجبال غير كونها حافظة للارض عن الاضطراب المخل بثبات الاقدام وتقلب الحيوان متفرعة على تمكنه وتقلبه وهى تعيشه بالماء والكلأ (وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ) متعلق بجعل فى قوله تعالى (جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ) أى اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكد به الزوجين لئلا يفهم أن المراد بذلك الشفعان إذ يطلق الزوج على المجموع ولكن اثنينية ذلك اثنينية اعتبارية أى جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة فى الدنيا ضربين وصنفين اما فى اللون كالأبيض والأسود أو فى الطعم كالحلو والحامض أو فى القدر كالصغير والكبير أو فى الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك ويجوز أن يتعلق بجعل الأول ويكون الثانى استئنافا لبيان كيفية ذلك الجعل (يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ) استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه إزالة نور الجو بالظلمة بتغطية الأشياء الظاهرة بالاغطية أى يستر النهار بالليل والتركيب وإن احتمل العكس أيضا بالحمل على تقديم المفعول الثانى على الأول فان ضوء النهار أيضا ساتر لظلمة الليل الا أن الانسب بالليل أن يكون هو الغاشى وعد هذا فى تضاعيف الآيات السفلية وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهرا باعتبار أن ظهوره فى الأرض فان الليل انما هو ظلها وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلا ولان الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والانضاج على أنهما أيضا زوجان متقابلان مثلها وقرىء يغشى من التغشية (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ) أى فيما ذكر من مد الأرض وإيتادها بالرواسى واجراء الأنهار وخلق الثمرات واغشاء الليل النهار وفى الإشارة بذلك تنبيه على عظم شأن المشار اليه فى بابه (لَءَايَٰتٍ) باهرة وهى آثار تلك الأفاعيل البديعة جلت حكمة صانعها فى على معناها فان تلك الآثار مستقرة فى تلك الأفاعيل منوطة بها ويجوز أن يشار بذلك إلى تلك الآثار المدلول عليهما بتلك الأفاعيل ففى تجريدية (لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فان التفكر فيها يؤدى إلى الحكم بأن تكوين كل من ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب اللائق لابد له من مكون قادر حكيم يفعل ما يشاء ويختار ما يريد لا معقب لحكمه وهو الحميد المجيد (وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ) جملة مستأنفة مشتملة على طائفة أخرى من الآيات أى بقاع كثيرة مختلفة فى الاوصاف فمن طيبة إلى سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة إلى رخوة إلى غير ذلك (مُّتَجَٰوِرَٰتٌ) أى متلاصقات وفى بعض المصاحف قطعا متجاورات أى جعل فى الأرض قطعا (وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ) أى بساتين كثيرة منها (وَزَرْعٌ) من كل نوع من أنواع الحبوب وإفراده لمراعاة أصله ولعل تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لظهور حالها فى اختلافها ومباينتها لسائرها ورسوخ ذلك فيها وتأخير قوله تعالى (وَنَخِيلٌ) لئلا يقع بينها وبين صفتها وهى قوله تعالى (صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ) فاصلة والصنوان جمع صنو كقنوان وقنو وهى النخلة التى لها رأسان وأصلها واحد وقرىء بضم الصاد على لغة بنى تميم وقيس وقرىء جنات بالنصب عطفا على زوجين وبالجر على كل الثمرات فلعل عدم نظم قوله تعالى وفى الأرض قطع متجاورات فى هذا السلك مع أن اختصاص كل من تلك القطع بما لها من الأحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلت قدرته حين مد الأرض ودحاها للايماء إلى كون تلك الأحوال صفات راسخة لتلك القطع وقرىء وزرع ونخيل بالجر عطفا على أعناب أو جنات (يُسْقَىٰ) أى ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل وقرىء بالتأنيث مراعاة للفظ والأول أوفق بمقام بيان اتحاد الكل فى حالة السقى (بِمَآءٍ وَٰحِدٍ) لا اختلاف فى طبعه سواء كان السقى بماء الامطار أو بماء الانهار (وَنُفَضِّلُ) مع تآخذ أسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا (بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ) آخر منها (فِى ٱلْأُكُلِ) فيما يحصل منها من الثمر والطعم وقرىء بالياء

على بناء الفاعل رداعلى يدبر ويفصل ويغشى وعلى بناء المفعول وفيه مالايخفى من الفخامة والدلالة على أن عدم احتمال استناد الفعل إلى فاعل آخر مغن عن بناء الفعل للفاعل (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ) الذى فصل من أحوال القطع والجنات (لَآيَٰتٍ) كثيرة عظيمة ظاهرة (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) يعلمون على قضية عقولهم فان من عقل هذه الاحوال العجيبة لا يتلعثم فى الجزم بأن من قدر على إبداع هذه البدائع وخلق تلك الثمار المختلفة فى الاشكال والالوان والطعوم والروائح فى تلك القطع المتباينة المتجاورة وجعلها حدائق ذات بهجة قادر على إعادة ما أبداه بل هى أهون فى القياس وهذه الاحوال وإن كانت هى الآيات أنفسها لا انها فيها إلا أنه قد جردت عنها أمثالها مبالغة فى كونها آية ففى تجريدية مثلها فى قوله تعالى لهم فيها دار الخلد أو المشار اليه الاحوال الكلية والآيات أفرادها الحادثة شيئا فشيئا فى الازمنة وآحادها الواقعة فى الاقطار والامكنة المشاهدة لأهلها فنى على معناها وحيث كانت دلالة هذه الاحوال على مدلولاتها أظهر مما سبق علق كونها آيات بمحض التعقل ولذلك لم يتعرض لغير تفضيل بعضها على بعض فى الأكل الظاهر لكل عاقل مع تحقق ذلك فى الخواص والكيفيات مما يتوقف العثور عليه على نوع تأمل وتفكر كأنه لا حاجة فى ذلك إلى التفكر أيضا وفيه تعريض بأن المشركين غير عاقلين (وَإِنْ تَعْجَبْ) يا محمد من شىء (فَعَجَبٌ) لا أعجب منه حقيق بأن يقصر عليه التعجب (قَوْلُهُمْ) بعد مشاهدة ما عدا ذلك من الآيات الشاهدة بأنه تعالى على كل شىء قدير (أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا) على طريقة الاستفهام الانكارى المفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار وهو فى محل الرفع على البدلية من قولهم على انه بمعنى المقول أو فى محل النصب على المفعولية منه على أنه مصدر فالعجب على الأول كلامهم وعلى الثانى تكلمهم بذلك والعامل فى اذا مادل عليه قوله (أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ) وهو نبعث أو نعاد وتقديم الظرف لتقوية الانكار بالبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له وتكرير الهمزة فى قولهم أئنا لتأكيد الانكار وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين فى الخلق الجديد بالفعل عند كونهم ترابا بل كونهم بعريضة ذلك واستعدادهم له وفيه من الدلالة على عتوهم وتماديهم فى النكير مالايخفى وقيل وان تعجب من قولهم فى انكار البعث فعجب قولهم والمآل وان تعجب فقد تعجبت فى موضع التعجب وقيل وان تعجب من انكارهم البعث فعجب قولهم الدال عليه فتأمل وقد جوز كون الخطاب لكل من يصلح له أى ان تعجب يا من ينظر فى هذه الآيات من قدرة من هذه أفعاله فازدد تعجبا ممن ينكر مع هذه الدلائل قدرته تعالى على البعث وهو أهون من هذه والأنسب بقوله ويستعجلونك بالسيئة هو الأول وقوله تعالى فعجب خبر قدم على المبتدا للقصر والتسجيل من أول الامر بكون قولهم ذلك أمرا عجيبا ويجوز أن يكون مبتدأ لكونه موصوفا بالوصف المقدر كما أشير اليه فالمعنى وان تعجب فالعجب الذى لا عجب وراءه قولهم هذا فاعجب منه وعلى الأول وإن تعجب فقولهم هذا عجب لا عجب فوقه (أُولَٰئِكَ) مبتدأ والموصول خبره أى أولئك المنكرون لقدرته تعالى على البعث ريثما عاينوا ما فصل من الآيات الباهرة الملجئة لهم الى الإيمان لو كانوا يبصرون (الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ) وتمادوا فى ذلك فان انكارهم لقدرته عز وجل كفر به وأى كفر (وَأُولَٰئِكَ) مبتدأ خبره قوله (الْأَغْلَٰلُ فِى أَعْنَاقِهِمْ) اى مقيدون بقيود الضلال لا يرجى خلاصهم أو مغلولون يوم القيامة (وَأُولَٰئِكَ) الموصوفون بما ذكر من الصفات (أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) لا ينفكون عنها وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكرى البعث خاصة بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى أولئك الذين كفروا بربهم (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ) بالعقوبة التى أنذروها وذلك حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بانذاره (قَبْلَ الْحَسَنَةِ) أى العافية والإحسان اليهم بالامهال (وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَٰتُ) أى عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بها ولا يحترزون حلول مثلها بهم والجملة الحالية لبيان ركاكة رأيهم

فى الاستعجال بطريق الاستهزاء أى يستعجلونك بها مستهزئين بانذارك منكرين لوقوع ما أنذرتهم اياه والحال إنه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم من المكذبين والمستهزئين والمثلة بوزن السمرة العقوبة سميت بها لما بينها وبين المعاقب عليه من المماثلة ومنه المثال للقصاص وقرىء المثلات بضمتين باتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات جميع مثلة كركبة وركبات (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) عظيمة (لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ) أنفسهم بالذنوب والمعاصى ومحله النصب على الحالية أى ظالمين والعامل فيه المغفرة والمعنى ان ربك لغفور للناس لا يعجل لهم العقوبة وان كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها (وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخير ما استعجلوه ليس للاهمال وعنه عليه الصلاة والسلام لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا) وهم المستعجلون أيضا وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ذماً لهم ونعياً عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التى تخر لها صم الجبال حيث لم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من جنس الآيات وقالوا (لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) مثل آيات موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عنادا ومكابرة وإلا ففى أدنى آية أنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غنية وعبرة لأولى الألباب (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ) مرسل للانذار من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون كدأب من قبلك من الرسل وليس عليك إلا الاتيان بما يعلم به نبوتك وقد حصل ذلك بما لا مزيد عليه ولا حاجة إلى إلزامهم والقامهم الحجر بالاتيان بما اقترحوا من الآيات (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) معين لا بالذات بل بعنوان الهداية يعنى لكل قوم نبى مخصوص له هداية مخصوصة يقتضى اختصاص كل منهم بما يختص به حكم لا يعلمها إلا الله أو لكل قوم هاد عظيم الشأن قادر على ذلك هو الله سبحانه وما عليك إلا إنذارهم فلا يهمنك عنادهم وإنكارهم للآيات المنزلة عليك وازدراؤهم بها ثم عقبه بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح تنبيها على أن تخصيص كل قوم بنبى وكل نبى بجنس معين من الآيات إنما هو للحكم الداعية إلى ذلك إظهارا لكمال قدرته على هدايتهم لكن لا يهدى إلا من تعلق بهدايته مشيئته التابعة لحكم استأثر بعلمها فقال (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ) أى تحمله فما موصولة أريد بها ما فى بطنها من حين العلوق إلى زمن الولادة لا بعد تكامل الخلق فقط والعلم متعد إلى واحد أو أى شىء تحمل وعلى أى حال هو من الأحوال المتواردة عليه طورا فطورا فهى استفهامية معلقة للعلم أو حملها فهى مصدرية (وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) أى تنقصه وتزداده فى الجثة كالخديج والتام وفى المدة كالمولود فى أقل مدة الحمل والمولود فى أكثرها وفيما بينهما قيل إن الضحاك ولد فى سنتين وهرم بن حيان فى أربع ومن ذلك سمى هرما وفى العدد كالواحد فما فوقه يروى أن شريكا كان رابع أربعة أو يعلم نقصها وازديادها لما فيها فالفعلان متعديان كما فى قوله تعالى وغيض الماء وقوله تعالى وازدادوا تسعا وقوله ونزداد كيل بعير أو لازمان قد أسندا إلى الأرحام مجازا وهما لما فيها (وَكُلُّ شَيْءٍ) من الأشياء (عِندَهُ بِمِقْدَارٍ) بقدر لا يمكن تجاوزه عنه كقوله إنا كل شىء خلقناه بقدر فان كل حادث من الأعيان والأعراض له فى كل مرتبة من مراتب التكوين ومباديها وقت معين وحال مخصوص لا يكاد يجاوزه والمراد بالعندية الحضور العلمى بل العلم الحضورى فان تحقق الأشياء فى أنفسها فى أى مرتبة كانت من مراتب الوجود والاستعداد لذلك علم له بالنسبة إلى الله عز وجل (عَالِمُ الْغَيْبِ) أى الغائب عن الحس (وَالشَّهَادَةِ) أى الحاضر له عبر عنهما بهما مبالغة وقيل أريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود وهو خبر مبتدأ محذوف أو خبر بعد خبر وقرىء بالنصب على المدح وهذا كالدليل على ما قبله من قوله تعالى الله يعلم الخ (الْكَبِيرُ) العظيم الشأن الذى كل شىء دونه (الْمُتَعَالِ) المستعلى على كل شىء بقدرته أو المنزه

عن نعوت المخلوقات وبعدما بين سبحانه أنه عالم بجميع أحوال الانسان فى مراتب فطرته ومحيط بعالمى الغيب والشهادة بين أنه تعالى عالم بجميع ما يأتون وما يذرون من الأفعال والأقوال وأنه لا فرق بالنسبة اليه بين السر والعلن فقال (سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ) فى نفسه (وَمَن جَهَرَ بِهِ) أظهره لغيره (وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ) مبالغ فى الاختفاء كأنه مختف (بِاللَّيْلِ) وطالب للزيادة (وَسَارِبٌ) بارز يراه كل أحد (بِالنَّهَارِ) من سرب سروبا أى برز وهو عطف على من هو مستخف أو على مستخف ومن عبارة عن الاثنين كما فى قوله :

تعال فان عاهدتنى لا تخوننى نكن مثل من ياذئب يصطحبان

كأنه قيل سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار والاستواء وإن أسند إلى من أسر ومن جهر وإلى المستخفى والسارب لكنه فى الحقيقة مسند إلى ما أسره وما جهر به أو إلى الفاعل من حيث هو فاعل كما فى الأخيرين وتقديم الاسرار والاستخفاء لاظهار كمال علمه تعالى فكأنه فى التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر وإلا فنسبته إلى الكل سواء لما عرفته آنفا (لَهُ) أى لكل بمن أسر أو جهر والمستخفى أو السارب (مُعَقِّبَاتٌ) ملائكة تعتقب فى حفظه جمع معقبة من عقبه مغالبة عقبه إذا جاء على عقبه كأن بعضهم يعقب بعضا أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونه أو اعتقب فأدغمت التاء فى القاف والتاء للمبالغة أو المراد بالمعقبات الجماعات وقرىء معاقيب جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من إحدى القافين (مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) من جميع جوانبه أو من الأعمال ما قدم وأخر (يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) من بأسه حين أذنب بالاستمهال والاستغفار له أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى وقد قرىء به وقيل من بمعنى الباء وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات وقيل المعقبات الحراس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه فى توهمه من قضاء الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ) من النعمة والعافية (حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) من الأعمال الصالحة أو ملكاتها التى هى فطرة الله التى فطر الناس عليها إلى أضدادها (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا) لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك (فَلَا مَرَدَّ لَهُ) فلا رد له والعامل فى إذا ما دل عليه الجواب (وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ) يلى أمرهم ويدفع عنهم السوء الذى أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال وإيذان بأنهم بما باشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا) من الصاعقة (وَطَمَعًا) فى المطر فوجه تقديم الخوف على الطمع ظاهر لما أن المخوف عليه النفس أو الرزق العتيد والمطموع فيه الرزق المترقب وقيل الخوف أيضا من المطر لكن الخائف منه غير الطامع فيه كالخزاف والحراث ويأباه الترتيب اللهم إلا أن يتكلف ما أشير اليه من أن المخوف عتيد والمطموع فيه مترقب وانتصابهما اما على المصدرية أى فتخافون خوفا وتطمعون طمعا أو على الحالية من البرق أو المخاطبين باضمار ذوى أو بجعل المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل مبالغة أو على العلية بتقدير المضاف أى ارادة خوف وطمع أو بتأويل الاخافة والاطماع ليتحد فاعل العلة والفعل المعلل وأما جعل المعلل هى الرؤية التى تتضمنها الاراءة على طريقة قول النابغة :

وحلت بيوتى فى يفاع ممنع تخال به راعى الحمولة طائرا
حذارا على أن لا ينال معاونى ولا نسوتى حتى يمتن حرائرا

أى أحللت بيوتى حذارا فلا سبيل اليه لأن ما وقع فى معرض العلة الغائية لا سيما الخوف لا يصلح علة لرؤيتهم (وَيُنشِئُ السَّحَابَ) الغمام المنسحب فى الجو (الثِّقَالَ) بالماء وهى جمع ثقيلة وصف بها السحاب لكونها اسم جنس فى معنى

الجمع والواحدة سحابة يقال سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما يقال امرأة كريمة ونسوة كرام (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ) أى سامعوه من العباد الراجين للمطر ملتبسين (بِحَمْدِهِ) أى يضجون بسبحان الله والحمد لله وإسناده إلى الرعد لحمله لهم على ذلك أو يسبح الرعد نفسه على أن تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيته تعالى وفضله المستوجب لحمده وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول سبحان من يسبح الرعد بحمده وإذا اشتد يقول اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وعن على رضى الله عنه سبحان من سبحت له وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن اليهود سألت النبى عليه الصلاة والسلام عن الرعد فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب وعن الحسن خلق من خلق الله تعالى ليس بملك (وَالْمَلٰئِكَةُ) أى يسبح الملائكة (مِنْ خِيفَتِهِ) من هيبته وإجلاله جل جلاله وقيل الضمير للرعد (وَيُرْسِلُ الصَّوٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ) فيهلكه بذلك (وَهُمْ) أى الكفرة المخاطبون فى قوله تعالى هو الذى يريكم البرق وقد التفت إلى الغيبة إيذانا بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضا عنهم وتعديداً لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب كأنه قيل هو الذى يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة من إراءة البرق وإنشاء السحاب الثقال وإرسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته ويعقلها من يعقلها من المؤمنين أو الرعد نفسه أو الملك الموكل به والملائكة ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى وهم أى الكفرة الذين حكيت هناتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم (يُجَٰدِلُونَ فِى اللَّهِ) أى فى شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون من إنكار البعث واستعجال العذاب استهزاء واقتراح الآيات فالواو لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى هو الذى يريكم البرق الخ أو على قوله الله يعلم ما تحمل الخ وأما العطف على قوله تعالى ويقول الذين كفروا كما قيل فلا مجال له لأن قوله تعالى الله يعلم الخ استئناف لبيان بطلان قولهم ذلك ونظائره من استعجال العذاب وإنكار البعث قاطع لعطف ما بعده على ما قبله وقيل للحال أى فيصيب بالصواعق من يشاء وهم فى الجدال وقد أريد به ما أصاب أربد بن ربيعة أخا لبيد فإنه أقبل مع عامر بن الطفيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغيانه الغوائل فدخلا المسجد وهو عليه الصلاة والسلام جالس فى نفر من الأصحاب رضى الله عنهم فاستشرفوا لجمال عامر وكان من أجمل الناس وقد كان أوصى إلى أربد أنه إذا رأيتنى أكلم محمداً عليه الصلاة والسلام فدر من خلفه واضربه بالسيف فجعل يكلمه عليه الصلاة والسلام فدار أربد من خلفه عليه الصلاة والسلام فاخترط من سيفه شبراً فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سله وجعل عامر يومى إليه فرأى النبى عليه الصلاة والسلام الحال فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله عز وجل على أربد صاعقة فى يوم صحو صائف فأحرقته وولى عامر هاربا فنزل فى بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحه وتغير لونه وركب فرسه فجعل يركض فى الصحراء ويقول ابرز يا ملك الموت ويقول الشعر ويقول واللات لئن أصحر لى محمد وصاحبه يعنى ملك الموت لأنفذتهما برمحى فأرسل الله تعالى ملكا فلطمه بجناحه فأرداه فى التراب فخرجت على ركبته فى الوقت غدة عظيمة فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ثم دعا بفرسه فركبه فأجراه حتى مات على ظهره وقيل أريد به ما روى عن الحسن أنه كان رجل من طواغيت العرب فبعث النبى عليه الصلاة والسلام نفرا من أصحابه يدعونه إلى الله عز وجل فقال لهم أخبرونى عما تدعوننى إليه ما هو ومم هو من ذهب أم من فضة أم من نحاس أم من حديد أم من در فاستعظموا مقالته فرجعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا إليه فرجعوا إليه فما زاد إلا مقالته الأولى وأخبث فرجعوا إليه عليه الصلاة والسلام وأخبروه بما صنع فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا إليه فرجعوا إليه فبينما هم عنده ينازعونه إذا ارتفعت سحابة ورعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر فجاؤا يسعون

ليخبروه عليه الصلاة والسلام بالخبر فاستقبلهم الأصحاب فقالوا احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم قالوا أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم (وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) أي والحال أنه شديد المماحلة والمكابرة والمماكرة لأعدائه من محله إذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تمحل إذا تكلف استعمال الحيل وقيل هو محال من المحل بمعنى القوة وقيل محول من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على انه مفعل من حال يحول إذا احتال، ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلا فى القوة والقدرة كقولهم فساعد الله أشد وموساه أحد (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ) أى الدعوة الثابتة الواقعة فى محلها المجابة عند وقوعها والاضافة للايذان بملابستها للحق واختصاصها به وكونه بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال كما يقال كلمة الحق وقيل له دعوة الله سبحانه أى الدعوة اللائقة بحضرته كما فى قوله عليه الصلاة والسلام فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله والتعرض لوصف الحقية لتربية معنى الاستجابة والأولى هو الأول لقوله تعالى وما دعاء الكافرين الا فى ضلال وتعلق الجملتين بما قبلهما من حيث ان اهلاك أربد وعامر محال من الله تعالى واجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما ان كانت الآية نزلت فى شأنهما أو من حيث انه وعيد للكفرة على مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وتحذير لهم باجابة دعوته عليهم (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ) أى الأصنام الذين يدعوهم المشركون فحذف العائد (مِنْ دُونِهِ) من دون الله عز وجل (لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ) من طلباتهم (إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ) أى الا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد فالاستجابة مصدر من المبنى للفاعل على مايقتضيه الفعل الظاهر أعنى لا يستجيبون ويجوز أن يكون من المبنى للمفعول ويضاف إلى الباسط بناء على استلزام المصدر من المبنى للفاعل للمصدر من المبنى للمفعول وجودا وعدما فكأنه قيل لا يستجيبون لهم بشيء فلا يستجاب لهم الا استجابة كائنة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء كما فى قوله:

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال إلى مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق الا مسحت أو مجلف (لِيَبْلُغَ) أى الماء بنفسه من غير أن يؤخذ بشيء من اناء ونحوه (فَاهُ وَمَا هُوَ) أى الماء (بِبَالِغِهِ) ببالغ فيه أبدا لكونه جمادا لا يشعر بعطشه ولا ببسط يده اليه فضلا عن الاستطاعة لما أراده من البلوغ إلى فيه شبه حال المشركين فى عدم حصولهم فى دعاء آلهتهم على شيء أصلا وركاكة رأيهم فى ذلك بحال عطشان هائم لا يدرى مايفعل قد بسط كفيه من بعيد الى الماء يبغى وصوله إلى فيه من غير ملاحظة التشبيه فى جميع مفردات الاطراف فان الماء فى نفسه شيء نافع بخلاف آلهتهم والمراد نفى الاستجابة رأسا الا أنه قد أخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل لا يستجيبون لهم شيئا من الاستجابة الا استجابة كائنة فى هذه الصورة التى ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا فهو فى الحقيقة من باب التعليق بالمحال وقرىء تدعون بالتاء وكباسط بالتنوين (وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) أى ذهاب وضياع وخسارة (وَلِلَّهِ) وحده (يَسْجُدُ) يخضع وينقاد لا لشيء غيره استقلالا ولا اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) من الملائكة والثقلين (طَوْعًا وَكَرْهًا) أى طائعين وكارهين أو انقياد طوع وكره أو حال طوع وكره فان خضوع الكل لعظمة الله عز وجل وانقيادهم لاحداث ماأراده فيهم من أحكام التكوين والاعدام شاؤا أو أبوا وعدم مداخلة حكم غيره بل غير حكمه تعالى فى تلك الشؤون مما لا يخفى على أحد (وَظِلَالُهُمْ) أى وتنقاد له تعالى ظلال من له ظل منهم أعنى الانس حيث تتصرف على مشيئته وتتأتى لارادته فى الامتداد والتقلص والفىء والزوال (بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) ظرف للسجود المقدر أو حال من الظلال وتخصيص الوقتين بالذكر مع أن انقيادها متحقق فى جميع أوقات وجودها لظهور ذلك فيهما والغدو جميع غداة كقنى

في جمع فتاة والآصال جمع أصيل وقيل جمع أصل وهو جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب وقيل الغدو مصدر ويؤيده أنه قرىء والإيصال أي الدخول في الأصيل هذا وقد قيل ان المراد حقيقة السجود فان الكفرة حال الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى وكرها يخصون السجود به سبحانه قال تعالى فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاما وعقولا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلي كما قاله ابن الانباري ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعا لأصحابها وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر حالة الضرورة والشدة بالله سبحانه لا يجدي فان سجودهم لأصنامهم حالة الرخاء مخل بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور فالوجه حمل السجود على الانقياد ولأن تحقيق انقياد الكل في الابداع والاعدام له تعالى أدخل في التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضا كذلك لأنهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ) فانه لتحقيق أن خالقهما ومتولي أمرهما مع ما فيهما على الاطلاق هو الله سبحانه وقوله تعالى (قُلِ اللهُ) أمر بالجواب من قبله عليه الصلاة والسلام اشعارا بأنه متعين للجوابية فهو والخصم في تقريره سواء أو أمر بحكاية اعترافهم ايذانا بأنه أمر لابد لهم من ذلك كأنه قيل احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة وألقمهم الحجر أو أمر بتلقينهم ذلك ان تلعثموا في الجواب حذرا من الالزام فانهم لا يتمالكون إذ ذاك ولا يقدرون على انكاره (قُلْ) الزاما لهم وتبكيتا (أَفَاتَّخَذْتُمْ) لأنفسكم والهمزة لإنكار الواقع كما في قولك أضربت أباك لا لإنكار الوقوع كما في قولك أضربت أبي والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة أي أعلمتم أن ربهما هو الله الذي ينقاد لأمره من فيهما كافة فاتخذتم عقيبه (مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) عاجزين (لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا) يستجلبونه (وَلَا ضَرًّا) يدفعونه عن أنفسهم فضلا عن القدرة على جلب النفع لغيره ودفع الضرر عنه لا على أن يكون الانكار متوجها إلى المعطوفين معا كما في قوله تعالى أفلا تعقلون إذا قدر المعطوف عليه ألا تسمعون بل الى ترتب الثاني على الأول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما إذا قدر أتسمعون والمعنى أبعد أن علمتم أن ربهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياء عجزة والحال أن قضية العلم بذلك إنما هو الاقتصار على توليه فعكستم الأمر كما في قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ووصف الأولياء ههنا بعدم المالكية للنفع والضر في ترشيح الانكار وتأكيده كتقييد الاتخاذ هناك بالجملة الحالية أعني قوله تعالى وهم لكم عدو فان كلا منهما مما ينفي الاتخاذ المذكور ويؤكد انكاره (قُلْ) تصويرا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس (هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ) الذي هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها (وَالْبَصِيرُ) الذي هو الموحد العالم بذلك أو الأول عبارة عن المعبود الغافل والثاني اشارة إلى المعبود العالم بكل شيء (أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمٰتُ) التي هي عبارة عن الكفر والضلال (وَالنُّورُ) الذي هو عبارة عن التوحيد والايمان وقرىء بالياء ولما دل النظم الكريم على أن الكفرة فيما فعلوا من اتخاذ الأصنام أولياء من دون الله سبحانه في الضلال المحض والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانه على أحد وأنهم في ذلك كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيء أصلا وليس لهم في ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم وخطئهم فضلا عن الحجة أكد ذلك فقيل (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ) أي بل أجعلوا له (شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ) سبحانه والهمزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع مع وقوعه وقوله خلقوا كخلقه هو الذي يتوجه اليه الانكار وأما نفس الجعل فهو واقع لا يتعلق به الانكار بهذا المعنى والمعنى أنهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه (فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادة كما استحقها ليكون ذلك منشأ لخطئهم بل انما جعلوا له شركاء

ماهو بمعزل من ذلك بالمرة وفيه مالايخفى من التعريض بركاكة رأيهم والتهكم بهم (قل) تحقيقا للحق وإرشادا لهم اليه (الله خالق كل شىء) كافة لاخالق سواه فيشاركه فى استحقاق العبادة (وهو الواحد) المتوحد بالألوهية المتفرد بالربوبية (القهار) لكل ماسواه فكيف يتوهم أن يكون له شريك وبعد ما مثل المشرك والشرك بالأعمى والظلمات والموحد والتوحيد بالبصير والنور مثل الحق الذى هو القرآن العظيم فى فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة الاستعداد وفى جريانه عليها ملاحظة وحفظا وعلى الألسنة مذاكرة وتلاوة وفى ثباته فيها مع كونه ممدا لحياتها الروحانية ومايتلوها من الملكات السنية والأعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل فى أودية يابسة لم تجر عادتها بذلك سيلا نامقدرا بمقدار اقتضته الحكمة فى إحياء الارض وما عليها الباقى فيها حسبما يدور عليه منافع الناس وفى كونه حلية تتحلى به النفوس وتصل إلى البهجة الأبدية ومتاعا يتمتع به فى المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التى يتخذ منها أنواع الآلات والأدوات وتبقى منتفعا بها مدة طويلة ومثل الباطل الذى ابتلى به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما واخلال بصفائهما من الزبد الرابى فوقهما المضمحل سريعا فقيل (أنزل من السماء) أى من جهتها (ماء) أى كثيرا أو نوعا منه وهو ماء المطر (فسالت) بذلك (أودية) واقعة فى مواقعه لاجميع الأودية إذ الأمطار لاتستوعب الأقطار وهو جمع واد وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام على الشذوذ كناد وأندية وناج وأنجية قالوا وجهه أن فاعلا يجىء بمعنى فعيل كناصر ونصير وشاهد وشهيد وعالم وعليم وحيث جمع فعيل على أفعلة كجريب وأجربة جمع فاعل أيضا على أفعلة فان أريد بها مايسيل فيها مجازا فاسناد السيلان اليها حقيقى وان أريد معناها الحقيقى فالإسناد مجازى كما فى جرى النهر وإيثار التمثيل بها على الانهار المستمرة الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشأن مامثل بها كما أشير اليه (بقدرها) أى سالت ملتبسة بمقدارها الذى عينه الله تعالى واقتضته حكمته فى نفع الناس أو بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت محالها صغرا وكبرا لابكونها مالئة لها منطبقة عليها بل بمجرد قلتها بصغرها المستلزم لقلة موارد الماء وكثرتها بكبرها المستدعى لكثرة الموارد فان مورد السيل الجارى فى الوادى الصغير أقل من مورد السيل الجارى فى الوادى الكبير هذا إن أريد بالأودية مايسيل فيها أما إن أريد بها معناها الحقيقى فالمعنى سالت مياهها بقدر تلك الأودية على نحو ما عرفته آنفا أو يراد بضميرها مياهها بطريق الاستخدام ويراد بقدرها ماذكر أولا من المعنيين (فاحتمل السيل) الجارى فى تلك الأودية أى حمل معه (زبدا) أى غثاء ورغوة وإنما وصف ذلك بقوله تعالى (رابيا) أى عاليا منتفخا فوقه بيانا لما أريد بالاحتمال المحتمل لكون المحمول غير طاف كالأشجار الثقيلة وإنما لم يدفع ذلك الاحتمال بأن يقال فاحتمل السيل فوقه للايذان بأن تلك الفوقية مقتضى شأن الزبد لامن جهة المحتمل تحقيقا للمماثلة بينه وبين مامثل به من الباطل الذى شأنه الظهور فى بادى الرأى من غير مداخلة فى الحق (ومما يوقدون عليه فى النار) أى يفعلون الايقاد عليه كائنا فى النار والضمير للناس أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره وقرىء بالخطاب (ابتغاء حلية أو متاع) أى لطلب اتخاذ حلية وهى مايتزين ويتجمل به كالحلى المتخذة من الذهب والفضة أو اتخاذ متاع وهو مايتمتع به من الأوانى والآلات المتخذة من الرصاص والحديد وغير ذلك من الفلزات (زبد) خبث (مثله) مثل ما ذكر من زبد الماء فى كونه رابيا فوقه فقوله زبد مبتدأ خبره الظرف المقدم ومن ابتدائية دالة على مجرد كونه مبتدأ وناشئا منه لاتبعيضية معربة عن كونه بعضا منه كما قيل لاخلال ذلك بالتمثيل وفى التعبير عن ذلك بالموصول والتعرض لما فى حيز الصلة من ايقاد النار عليه جرى على سنن الكبرياء باظهار التهاون به كما فى قوله تعالى فأوقد لى ياهامان على الطين وإشارة إلى كيفية حصول الزبد منه بذوبانه

وفى زيادة فى النار إشعار بالمبالغة فى الاعتمال للاذابة وحصول الزبد كما أشير اليه وعدم التعرض لاخراجه من الأرض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف بل له اخلال بذلك (كَذَٰلِكَ) أى مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة (يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) أى مثل الحق ومثل الباطل والحذف للانباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به كأن المثل المضروب عين الحق والباطل وبعد تحقيق التمثيل مع الايماء فى تضاعيف ذلك إلى وجوه المماثلة على أبدع وجوه وآنقها حسبما أشير إليه فى مواقعها بين عاقبة كل من الممثلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة من الذهاب والبقاء تتمة للغرض من التمثيل من الحث على اتباع الحق الثابت والردع عن الباطل الزائد فقيل (فَأَمَّا الزَّبَدُ) من كل منهما (فَيَذْهَبُ جُفَاءً) أى مرميا به وقرىء جفالا والمعنى واحد (وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ) منهما كالماء الصافى والفلز الخالص (فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ) أما الماء فيثبت بعضه فى منافعه ويسلك بعضه فى عروق الأرض إلى العيون والقنا والآبار وأما الفلز فيصاغ من بعضه أنواع الحلى ويتخذ من بعضه أصناف الآلات والأدوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة فالمراد بالمكث فى الأرض ما هو أعم من المكث فى نفسها ومن البقاء فى أيدى المتقلبين فيها وتغيير ترتيب اللف الواقع فى الفذلكة الموافق للترتيب الواقع فى التمثيل لمراعاة الملاءمة بين حالتى الذهاب والبقاء وبين ذكريهما فان المعتبر إنما هو بقاء الباقى بعد ذهاب الذاهب لاقبله (كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ) أى مثل ذلك الضرب العجيب يضرب (الْأَمْثَالَ) فى كل باب إظهارا لكمال اللطف والعناية فى الارشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل إما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الأول أو بجعل ذلك إشارة اليهما جميعا وبعدما بين شأن كل من الحق والباطل حالا ومآلا أكمل بيان شرع فى بيان حال أهل كل منهما مآلا تكميلا للدعوة ترغيبا وترهيبا فقيل (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) إذ دعاهم إلى الحق بفنون الدعوة التى من جملتها ضرب الأمثال فانه ألطف ذريعة إلى تفهيم القلوب الغبية وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الأبية كيف لا وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس وإبراز لأوابد المعانى فى هيئة المأنوس فأى دعوة أولى منه بالاستجابة والقبول (الْحُسْنَىٰ) أى المثوبة الحسنى وهى الجنة (وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ) وعاندوا الحق الجلى (لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ) من أصناف الأموال (جَمِيعًا) بحيث لم يشذ منه شاذ فى أقطارها أو مجموعا غير متفرق بحسب الأزمان (وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ) أى بما فى الأرض ومثله معه جميعا ليتخلصوا عما بهم وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان فالموصول مبتدأ والشرطية كما هى خبره لكن لا على أنها وضعت موضع السوءى فوقعت فى مقابلة الحسنى الواقعة فى القرينة الأولى لمراعاة حسن المقابلة فصار كأنه قيل وللذين لم يستجيبوا له السوءى كما يوهم فان الشرطية وإن دلت على كمال سوء حالهم لكنها بمعزل من القيام مقام لفظ السوءى مصحوبا باللام الداخلة على الموصول أو ضميره وعليه يدور حصول المرام وإنما الواقع فى تلك المقابلة سوء الحساب فى قوله تعالى (أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ) وحيث كان اسم الاشارة الواقع مبتدأ فى هذه الجملة عبارة عن الموصول الواقع مبتدأ فى الجملة السابقة كان خبرها أعنى الجملة الظرفية خبرا عن الموصول فى الحقيقة ومبينا لابهام مضمون الشرطية الواقعة خبرا عنه أولا ولذلك ترك العطف فصار كأنه قيل والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب وذلك فى قوة أن يقال وللذين لم يستجيبوا له سوء الحساب مع زيادة تأكيد فتم حسن المقابلة على أبلغ وجه وآكده ثم بين مؤدى ذلك فقيل (وَمَأْوَاهُمْ) أى مرجعهم (جَهَنَّمُ) وفيه نوع تأكيد لتفسير الحسنى بالجنة (وَبِئْسَ الْمِهَادُ) أى المستقر والمخصوص بالذم محذوف وقيل اللام فى قوله تعالى للذين استجابوا لربهم متعلقة بقوله يضرب الله الأمثال أى الأمثال

السالفة وقوله الحسنى صفة للمصدر أى استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله والذين لم يستجيبوا له معطوف على الموصول الأول وقوله لو أن لهم الخ كلام مستأنف مسوق لبيان ما أعد لغير المستجيبين من العذاب والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين أى هما مثلا الفريقين وأنت خبير بأن عنوان الاستجابة وعدمها لا مناسبة بينه وبين ما يدور عليه أمر التمثيل وأن الاستعمال المستفيض دخول اللام على من يقصد تذكيره بالمثل نعم قد يستعمل فى هذا المعنى أيضا كما فى قوله سبحانه ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ونظائره على أن بعض الأمثال المضروبة لا سيما المثل الأخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين بل مثل للحق والباطل ولا مساغ لجعل الفريقين مضروبا لهم أيضا بأن يجعل فى حكم أن يقال كذلك يضرب الله الأمثال للناس إذ لا وجه حينئذ لتنويعهم إلى المستجيبين وغير المستجيبين فتأمل (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) من القرآن الذى مثل بالماء المنزل من السماء والابريز الخالص فى المنفعة والجدوى (الْحَقُّ) الذى لا حق وراءه أو الحق الذى أشير اليه بالأمثال المضروبة فيستجيب له (كَمَنْ هُوَ أَعْمَى) عمى القلب لا يشاهده وهو نار على علم ولا يقدر قدره وهو فى أقصى مراتب العلو والعظم فيبقى حائرا فى ظلمات الجهل وغياهب الضلال أو لا يتذكر بما ضرب من الأمثال أى كمن لا يعلم ذلك إلا أنه أريد زيادة تقبيح حاله فعبر عنه بالأعمى وإيراد الفاء بعد الهمزة لتوجيه الانكار إلى ترتب توهم المماثلة على ظهور حال كل منهما بما ضرب من الأمثال وبين المصير والمآل كأنه قيل أبعد ما بين حال كل من الفريقين ومآلهما يتوهم المماثلة بينهما ثم استؤنف فقيل (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ) بما ذكر من المذكرات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتنائى (أُولُو الْأَلْبَابِ) أى العقول الخالصة المبرأة من مشايعة الالف ومعارضة الوهم (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ) بما عقدوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا بلى أو ما عهد الله عليهم فى كتبه (وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ) ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الايمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد وهو تعميم بعد تخصيص وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) من الرحم وموالاة المؤمنين والايمان بجميع الأنبياء المجمعين على الحق من غير تفريق بين أحد منهم ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس بل حقوق كل ما يتعلق بهم من الهر والدجاج (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) خشية جلال وهيبة ورهبة فلا يعصونه فيما أمر به (وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا وفيه دلالة على كمال فظاعته حسبما ذكر فيما قبل (وَالَّذِينَ صَبَرُوا) على كل ما تكرهه النفس من الأفعال والتروك (ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) طلبا لرضاه خاصة من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء وسمعة ولا إلى جانب النفس زينة وعجبا وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاك الأمر فى كل ما ذكر من الصلات السابقة واللاحقة أورد على صيغة الماضى اعتناء بشأنه ودلالة على وجوب تحققه فان ذلك مما لا بد منه اما فى أنفس الصلات كما فيما عدا الأولى والرابعة والخامسة أو فى اظهار أحكامها كما فى الصلات الثلاث المذكورات فانها وان استغنت عن الصبر فى أنفسها حيث لا مشقة على النفس فى الاعتراف بالربوبية والخشية والخوف لكن إظهار أحكامها والجرى على موجبها غير خال عن الاحتياج اليه (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) المفروضة (وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) أى بعضه الذى يجب عليهم انفاقه (سِرًّا) لمن لم يعرف بالمال أو لمن لا يتهم بترك الزكاة أو عند انفاقه واعطائه من تمنعه المروءة من أخذه ظاهرا (وَعَلَانِيَةً) لمن لم يكن كما ذكر أو الأول فى التطوع والثانى فى الفرض (وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) أى يجازون الاساءة بالاحسان أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها . عن ابن عباس رضى الله عنهما يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم وعن الحسن إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا وإذ قطعوا وصلوا وعن ابن كيسان إذا أذنبوا تابوا وقيل إذا رأوا منكرا أمروا بتغييره وتقديم المجرور على المنصوب

لاظهار كمال العناية بالحسنة (أولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة والملكات الجميلة وهو مبتدأ خبره الجملة الظرفية أعنى قوله تعالى (لهم عقبى الدار) أى عاقبة الدنيا وما ينبغى أن يكون مآل أمر أهلها وهى الجنة وقيل الجار والمجرور خبر لأولئك وعقبى الدار فاعل الاستقرار وأياما كان فليس فيه قصر حتى يرد أن بعض ما فى حيز الصلة ليس من العزائم التى يخل اخلالها بالموصول إلى حسن العاقبة والجملة خبر للموصولات المتعاطفة أو استئناف لبيان ما استوجبوه بتلك الصفات ان جعلت الموصولات المتعاطفة صفات لأولى الألباب على طريقة المدح من غير أن يقصد أن يكون للصلات المذكورة مدخل فى التذكر (جنات عدن) بدل من عقبى الدار أو مبتدأ خبره (يدخلونها) والعدن الإقامة ثم صار علما للجنة من الجنات أى جنات يقيمون فيها وقيل هو بطنان الجنة (ومن صلح من آبائهم) جمع أبوى كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم (وأزواجهم وذرياتهم) وهو عطف على المرفوع فى يدخلون وإنما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى انه يلحق بهم من صلح من أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم تعظيما لشأنهم وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وان الموصوف بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة زيادة فى أنسهم وفى التقييد بالصلاح قطع للاطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الانساب (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين (سلام عليكم) بشارة لهم بدوام السلامة (بما صبرتم) متعلق بعليكم أو بمحذوف أى هذه الكرامة العظمى بما صبرتم أى بسبب صبركم أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والمعنى لئن تعبتم فى الدنيا لقد استرحتم الساعة وتخصيص الصبر بما ذكر من بين الصلات السابقة لما قدمناه من أن له دخلا فى كل منها ومزية زائدة من حيث أنه ملاك الأمر فى كل منها وإن شيئا منها لا يعتد به إلا بأن يكون لابتغاء وجه الرب تعالى وتقدس (فنعم عقبى الدار) أى فنعم عقبى الدار الجنة وقرىء بفتح النون والأصل نعم فسكن العين بنقل حركتها إلى النون تارة وبدونه أخرى وعن النبى عليه السلام انه كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وكذا عن الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم أجمعين (والذين ينقضون عهد الله) أريد بهم من يقابل الأولين ويعاندهم فى الاتصاف بنقائض صفاتهم (من بعد ميثاقه) من بعد ما أوثقوه من الاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من الإيمان بجميع الأنبياء المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم ومن حقوق الارحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك مما لا يراعون حقوقه من الأمور المعدودة فيما سلف وإنما لم يتعرض لنفى الخشية والخوف عنهم صريحا لدلالة النقض والقطع على ذلك وأما عدم التعرض لنفى الصبر المذكور فلأنه إنما اعتبر تحققه فى ضمن الحسنات المعدودة ليقع معتدا به فلا وجه لنفيه عمن بينه وبين الحسنات بعد المشرقين كما لا وجه لنفى الصلاة والزكاة ممن لا يحوم حول أصل الإيمان بالله تعالى فضلا عن فروع الشرائع وان أريد بالانفاق التطوع فنفيه مندرج تحت قطع ما أمر الله تعالى بوصله وأما درء السيئة بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهر مما سبق والحق فان من يجازى إحسانه عز وجل بنقض العهد ومخالفة الأمر ويباشر الفساد بدأ حسبما يحكيه قوله عز وعلا (ويفسدون فى الأرض) أى بالظلم وتهييج الفتن كيف يتصور منه مجازاة الاساءة بالإحسان على أن ذلك يشعر بأن له دخلا فى الافضاء إلى العقوبة التى ينبىء عنها قوله تعالى (أولئك) الخ أى أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح (لهم) بسبب ذلك (اللعنة) أى الابعاد من رحمة الله تعالى (ولهم) مع ذلك (سوء الدار) أى سوء عاقبة الدنيا أو عذاب جهنم فانها دارهم لأن ترتيب الحكم على الموصول مشعر بعلية الصلة له ولا يخفى أنه لا دخل له فى ذلك على أكثر التفاسير فان مجازاة السيئة

بمثلها أو بما أدون فيها ودفع الكلام السىء بالحسن وكذا الاعطاء عند المنع والعفو عند الظلم والوصل عند القطع ليس مما يورث تركه تبعة وأما ما اعتبر اندراجه تحت الصلة الثانية من الاخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضير فى ذلك لأن اعتباره من حيث انه من مستتبعات الاخلال بالعزائم بالكفر ببعض الأنبياء وعقوق الوالدين وترك سائر الحقوق الواجبة وتكرير لهم للتأكيد والايذان باختلافهما واستقلال كل منهما فى الثبوت (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ) أى يوسعه (لِمَنْ يشَآءُ) من عباده (وَيَقْدِرُ) أى يضيقه على من يشاء حسبما تقتضيه الحكمة من غير أن يكون لأحد مدخل فى ذلك ولا شعور بحكمته فربما يبسطه للكافر املاء واستدراجا وربما يضيقه على المؤمن زيادة لأجره فلا يغتر ببسطه الكافر كما لا يقنط بقدره المؤمن (وفرِحُوا) أى أهل مكة فرح أشر وبطر لا فرح سرور بفضل الله تعالى (بالحيوٰةِ الدُّنيَا) وما بسط لهم فيها من نعيمها (وَمَا الحيوٰةُ الدُّنيا) وما يتبعها من النعيم (فِى الآخِرةِ) أى فى جنب نعيم الآخرة (إلا متَـٰعٌ) الاشىء نزر يتمتع به كعجالة الراكب وزاد الراعى والمعنى انهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن الآخرة والحال أن ما أشروا به فى جنب ما أعرضوا عنه شىء قليل النفع سريع النفاد (وَيقـُولُ الذينَ كفرُوا) أى أهل مكة وإيثار هذه الطريقة على الاضمار مع ظهور إرادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم (لولآ أُنزِلَ عليهِ ءَايةٌ مّن رَّبِّهِ) فان ذلك فى أقصى مراتب المكابرة والعناد كأن ما أنزل عليه عليه السلام من الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتى اقترحوا ما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يبقى لأحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول ولذلك أمر فى الجواب بقوله تعالى (قُلْ إنّ اللهَ يضِلُّ من يشآءُ) إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها أى يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره إلى تحصيله ويدعه منهمكا فيه لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الارشاد كمن كان على صفتكم فى المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو فى الفساد فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءته كل آية (وَيهدِى إليـهِ) أى إلى جنابه العلى الكبير هداية موصلة اليه لا دلالة مطلقة على ما يوصل اليه فان ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشريفهم ما لا يوصف (منْ أنابَ) أقبل إلى الحق وتأمل فى تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة وحقيقة الإنابة الدخول فى نوبة الخير وإيثار إيرادها فى الصلة على إيراد المشيئة كما فى الصلة الأولى للتنبيه على الداعى إلى الهداية بل إلى مشيئتها والاشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى من المكابرة وفيه حث للكفرة على الاقلاع عما هم عليه من العتو والعناد وإيثار صيغة الماضى للايماء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة كما أن إيثار صيغة المضارع فى الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم (الذينَ ءَامَنوُا) بدل ممن أناب فان أريد بالهداية الهداية المستمرة فالأمر ظاهر لظهور كون الإيمان مؤديا اليها وإن أريد إحداثها فالمراد بالذين آمنوا الذين صار أمرهم إلى الإيمان كما فى قوله تعالى هدى للمتقين أى الصائرين إلى التقوى وإلا فالإيمان لا يؤدى إلى الهداية نفسها أو خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين آمنوا أو منصوب على المدح (وتطْمئِنُّ قلوبُهُمْ) أى تستقر وتسكن (بذِكرِ اللهِ) بكلامه المعجز الذى لا ريب فيه كقوله تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وقوله إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ويعلمون أن لا آية أعظم منه فيقترحوها والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها (ألا بذِكرِ اللهِ) وحده (تطْمَئِنُّ القلُوبُ) دون غيره من الأمور التى تميل اليها النفوس من الدنيويات هذا ظاهر وأما سائر المعجزات فالقصر من حيث أنها ليست فى إفادة الطمأنينة بالنسبة إلى من لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد فانه معجزة باقية إلى يوم القيامة يشاهدها كل أحد وتطمئن به القلوب كافة وفيه إشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها وقيل تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب

من خشيته كقوله تعالى ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته أو بذكره جل وعلا أنساً به وتبتلا اليه فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) بدل من القلوب على حذف المضاف بدل الكل حسبما رمز اليه أى قلوب الذين آمنوا وفيه إيماء إلى أن الانسان إنما هو القلب أو مبتدأ خبره الجملة الدعائية على التأويل أعنى قوله (طُوبَى لَهُمْ) أو خبر مبتدأ مضمر أو نصب على المدح فطوبى لهم حال عاملها الفعلان وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى والواو منقلبة من الياء كموقن وموسر وقرأ مكوزة الاعرابى طيبى لتسلم الياء والمعنى أصابوا خيرا ومحلها النصب كسلاما لك أو الرفع على الابتداء وإن كانت نكرة لكونها فى معنى الدعاء كسلام عليك يدل على ذلك القراءة فى قوله تعالى (وَحُسْنُ مَآبٍ) بالنصب والرفع واللام فى لهم للبيان مثلها فى سقيا لك (كَذَٰلِكَ) مثل ذلك الارسال العظيم الشأن المصحوب بهذه المعجزة الباهرة (أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ) أى مضت (مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ) كثيرة قد أرسل اليهم رسل (لِتَتْلُوَ) لتقرأ (عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) من الكتاب العظيم الشأن وتهديهم إلى الحق رحمة لهم وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الابهام ثم البيان كما فى قوله تعالى ووضعنا عنك وزرك وفيه ما لا يخفى من ترقب النفس إلى ما سيرد وحسن قبولها له عند وروده عليها (وَهُمْ) أى والحال أنهم (يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ) بالبليغ الرحمة الذى وسعت كل شىء رحمته وأحاطت به نعمته والعدول إلى المظهر المتعرض لوصف الرحمة من حيث أن الارسال ناشىء منها كما قال تعالى وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين فلم يقدروا قدره ولم يشكروا نعمه لا سيما ما أنعم به عليهم بارسال مثلك اليهم وإنزال القرآن الذى هو مدار المنافع الدينية والدنياوية عليهم وقيل نزلت فى مشركى مكة حين أمروا بالسجود فقالوا وما الرحمن (قُلْ هُوَ) أى الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته (رَبِّى) الرب فى الأصل بمعنى التربية وهى تبليغ الشىء إلى كماله شيئا فشيئا ثم وصف به مبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت أى خالق ومبلغى إلى مراتب الكمال وإيراده قبل قوله (لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) أى لا مستحق للعبادة سواه تنبيه على أن استحقاق العبادة منوط بالربوبية وقيل إن أبا جهل سمع النبى عليه السلام يقول يا الله يا رحمن فرجع إلى المشركين فقال إن محمدا يدعو الهين فنزلت ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) فى جميع أمورى لا سيما فى النصرة عليكم لا على أحد سواه (وَإِلَيْهِ) خاصة (مَتَابِ) أى توبتى كقوله تعالى واستغفر لذنبك أمر عليه السلام بذلك إبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفة الأنبياء وبعثا للكفرة على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطفه فانه عليه السلام حيث أمر بها وهو منزه عن شائبة اقتراف ما يوجبها من الذنب وإن قل فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصى مما لا بد منه أصلا وقد فسر المتاب بمطلق الرجوع فقيل مرجعى ومرجعكم وزيد فيحكم بينى وبينكم وقد قيل فيثيبنى على مصابرتكم فتأمل (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا) أى قرآنا ما وهو اسم أن والخبر قوله تعالى (سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) وجواب لو محذوف لانسياق الكلام اليه بحيث يتلقفه السامع من التالى والمقصود إما بيان عظم شأن القرآن العظيم وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلى ولم يعدوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام وإما بيان غلوهم فى المكابرة والعناد وتماديهم فى الضلال والفساد فالمعنى على الأول لو أن قرآنا سيرت به الجبال أى بانزاله أو بتلاوته عليها وزعزعت عن مقارها كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام (أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ) أى شققت وجعلت أنهارا وعيونا كما فعل بالحجر حين ضربه عليه السلام بعصاه أو جعلت قطعا متصدعة (أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ) أى بعد أن أحيى بقراءته عليها كما أحييت لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى فى الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل كقوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية

الله لافى الإعجاز إذ لامدخل له فى هذه الآثار ولافى التذكير والانذار والتخويف لاختصاصها بالعقلاء مع أنه لاعلاقة لها بتكليم الموتى واعتبار فيض العقول اليها مخل بالمبالغة المقصودة وتقديم المجرور فى المواضع الثلاثة على المرفوع لما مر غير مرة من قصد الابهام ثم التفسير لزيادة التقرير لأن بتقديم ماحقه التأخير تبقى النفس مستشرفة ومترقبة إلى المؤخر أنه ماذا فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع واقتراحهم وإن كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الأفاعيل العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآن لكن ذلك حيث كان مبنيا على عدم اشتماله فى زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به مبالغة فى بيان اشتماله عليها وأنه حقيق بأن يكون مصدراً لكل خارق وإبانة لركاكة رأيهم فى شأنه الرفيع كأنه قيل لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرها هذا القرآن الذى لم يعدوه آية وفيه من تفخيم شأنه العزيز ووصفهم بركاكة العقل مالا يخفى (بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً) أى له الأمر الذى عليه يدور فلك الأكوان وجودا وعدما يفعل مايشاء ويحكم مايريد لما يدعو اليه من الحكم البالغة وهو اضراب عما تضمنه الشرطية من معنى النفى لا بحسب منطوقه بل باعتبار موجبه ومؤداه أى لو أن قرآنا فعل به ماذكر لكان ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ماعليه الشأن الآن لأن الأمر كله له وحده فالاضراب ليس بمتوجه إلى كون الأمر لله سبحانه بل إلى مايؤدى اليه ذلك من كون الشأن على ماكان لما تقتضيه الحكمة من بناء التكليف على الاختبار (أَفَلَمْ يَايْئَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا) أى أفلم يعلموا على لغة هوازن أو قوم من النخع أو على استعمال اليأس فى معنى العلم لتضمنه له ويؤيده قراءة على وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أفلم يتبين بطريق التفسير والفاء للعطف على مقدر أى أغفلوا عن كون الأمر جميعا لله تعالى فلم يعلموا (أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ) على حذف ضمير الشأن وتخفيف أن (لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً) باظهار أمثال تلك الآثار العظيمة فالانكار متوجه إلى المعطوفين جميعا أو أعلموا كون الأمر جميعا لله فلم يعلموا مايوجبه ذلك العلم مما ذكر فهو متوجه إلى ترتب المعطوف على المعطوف عليه أى تخلف العلم الثانى عن العلم الأول وعلى التقديرين فالانكار انكار الوقوع كما فى قوله تعالى ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً لا إنكار الواقع كما فى قولك ألم تخف الله حتى عصيته ثم أن مناط الانكار ليس عدم علمهم بمضمون الشرطية فقط بل مع عدم علمهم بعدم تحقق مقدمها كأنه قيل ألم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم وأنه لم يشأها وذلك أنهم لأنهم كانوا يودون أن يظهر مااقترحوا من الآيات ليجتمعوا على الايمان وعلى الثانى لو أن قرآنا فعل به مافصل من التعاجيب لما آمنوا به كقوله تعالى ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية فالاضراب حينئذ متوجه إلى ماسلف من اقتراحهم مع كونهم فى العناد على ماشرح أى فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعا ان شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة من غير أن يكون لأحد عليه تحكم أو اقتراح واليأس بمعنى القنوط أى ألم يعلم الذين آمنوا حالهم هذه فلم يقنطوا من ايمانهم حتى أحبوا ظهور مقترحاتهم فالانكار متوجه إلى المعطوفين أو اعلموا ذلك فلم يقنطوا من إيمانهم فهو متوجه إلى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه أى الى تخلف القنوط عن العلم المذكور والانكار على التقديرين انكار الواقع كما فى قوله تعالى أفلا تتقون ونظائره لا انكار الوقوع فان عدم قنوطهم منه مما لامرد له وقوله تعالى أن لو يشاء الله الخ متعلق بمحذوف أى أفلم ييأسوا من ايمانهم علما منهم أو عالمين بأنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وأنه لم يشأ ذلك أو بآمنوا أى أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على معنى أفلم ييأس من ايمانهم المؤمنون بمضمون الشرطية وبعدم تحقق مقدمها المنفهم من مكابرتهم حسبما تحكيه كلمة لو فالوصف المذكور من دواعى انكار يأسهم وقيل ان أبا جهل

وأضرابه قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت نبيا سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا وتتخذ فيها البساتين والقطائع وقد سخرت لداود عليه السلام فلست بأهون على الله منه ان كنت نبيا كما زعمت أو سخر لنا به الريح كما سخرت لسليمان عليه السلام لنتجر عليها إلى الشام فقد شق علينا قطع الشقة البعيدة أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا فنزلت فمعنى تقطيع الأرض حينئذ قطعها بالسير ولا حاجة حينئذ إلى الاعتذار فى اسناد الأفاعيل المذكورة إلى القرآن كما احتيج اليه فى الوجهين الأولين وعن الفراء أنه متعلق بما قبله من قوله وهم يكفرون بالرحمن وما بينهما اعتراض وهو بالحقيقة دال على الجواب والتقدير ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن والتذكير فى كلم به الموتى لتغليب المذكر من الموتى على غيره (وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا) من أهل مكة (تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا) أى بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادى فيه وعدم بيانه إما للقصد إلى تهويله أو استهجانه وهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له مع ما فى صيغة الصنع من الايذان برسوخهم فى ذلك (قارِعَةٌ) داهية تقرعهم وتقلقهم وهو ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والاسر والنهب والسلب وتقديم المجرور على الفاعل لما مر مرارا من إرادة التفسير اثر الابهام لزيادة التقرير والاحكام مع ما فيه من بيان أن مدار الإصابة من جهتهم آثر ذى أثير (أَوْ تَحُلُّ) تلك القارعة (قَرِيباً) أى مكانا قريبا (مِنْ دارِهِمْ) فيفزعون منها ويتطاير اليهم شرارها شبهت القارعة بالعدو المتوجه اليهم فأسند اليها الإصابة تارة والحلول أخرى ففيه استعارة بالكناية وتخييل وترشيح (حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ) أى موتهم أو القيامة فان كلا منهما وعد محتوم لا مرد له وفيه دلالة على أن ما يصيبهم عند ذلك من العذاب فى غاية الشدة وأن ما ذكر سابقة نفحة يسيرة بالنسبة اليه ثم حقق ذلك بقوله تعالى (إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ) أى الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة لاستحالة ذلك على الله سبحانه وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها وكانوا بين اغارة واختطاف وتخويف بالهجوم عليهم فى ديارهم فالإصابة والحلول حينئذ من أحوالهم ويجوز على هذا أن يكون قوله تعالى أو تحل قريبا من دارهم خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم مرادا به حلوله الحديبية والمراد بوعد الله ما وعد به من فتح مكة (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ) كثيرة خلت (مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) أى تركتهم ملاوة من الزمان فى أمن ودعة كما يملى للبهيمة فى المرعى وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به ووعيدلهم والمعنى أن ذلك ليس مختصا بك بل هو أمر مطرد قد فعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك فأمهلت الذين فعلوه بهم والعدول فى الصلة إلى وصف الكفر ليس لان المملى لهم غير المستهزئين بل لإرادة الجمع بين الوصفين أى فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم لا باستهزائهم فقط (ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ) أى عقابى إياهم وفيه من الدلالة على تناهى كيفيته فى الشدة والفظاعة ما لا يخفى (أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ) أى رقيب مهيمن (عَلى كُلِّ نَفْسٍ) كائنة من كانت (بِما كَسَبَتْ) من خير أو شر لا يخفى عليه شىء من ذلك بل يجازى كلا بعمله وهو الله تعالى والخبر محذوف أى كمن ليس كذلك انكار الذلك وادخال الفاء لتوجيه الانكار الى توهم المماثلة غب ما علم بما فعل تعالى بالمستهزئين من الاملاء المديد والأخذ الشديد ومن كون الأمر كله لله تعالى وكون هداية الناس جميعا منوطة بمشيئته تعالى ومن تواتر القوارع على الكفرة إلى أن يأتى وعد الله كأنه قيل ألأمر كذلك فمن هذا شأنه كما ليس فى عداد الأشياء حتى تشركوه به فالانكار متوجه إلى ترتب المعطوف أعنى توهم المماثلة على المعطوف عليه المقدر أعنى كون الأمر كما ذكر كما فى قولك أتعلم الحق فلا تعمل به لا إلى المعطوفين جميعا كما إذا قلت ألا تعلمه فلا تعمل به وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلّهِ شُرَكاءَ) جملة مستقلة جىء بها للدلالة على الخبر أو حالية أى أفمن هذه

صفاته كما ليس كذلك وقد جعلوا له شركاء لا شريكا واحدا أو معطوفة على الخبر ان قدر ما يصلح لذلك أى أفمن هذا شأنه لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ووضع المظهر موضع المضمر للتنصيص على وحدانيته ذاتا واسما وللتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة مع ما فيه من البيان بعد الابهام بايراده موصولا للدلالة على التفخيم وقوله تعالى (قُلْ سَمُّوهُمْ) تبكيت لهم اثر تبكيت أى سموهم من هم وماذا أسماؤهم أو صفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة (أَمْ تُنَبِّئُونَهُ) أى بل أتنبئون الله (بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ) أى بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والأرض وقرىء بالتخفيف (أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ) أى بل أتسمونهم بشركاء بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى وحقيقة كتسمية الزنجى كافورا كقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم وهاتيك الأساليب البديعة التى وردعليها الآية الكريمة منادية على أنها خارجة عن قدرة البشر من كلام خلاق القوى والقدر فتبارك الله رب العالمين (بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) وضع الموصول موضع المضمر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالكفر (مَكْرُهُمْ) تمويههم الاباطيل أو كيدهم للاسلام بشركهم (وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ) أى سبيل الحق من صده صدا وقرىء بكسر الصاد على نقل حركة الدال اليها وقرىء بفتحها أى صدوا الناس أو من صد صدودا (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ) أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره أو يخذله (فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) يوفقه للهدى (لَهُمْ عَذَابٌ) شاق (فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) بالقتل والاسر وسائر ما يصيبهم من المصائب فانها إنما تصيبهم عقوبة على كفرهم (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ) من ذلك بالشدة والمدة (وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ) من عذابه المذكور (مِنْ وَاقٍ) من حافظ يعصمهم من ذلك فمن الأولى صلة للوقاية والثانية مزيدة للتأكيد (مَثَلُ الْجَنَّةِ) أى صفتها العجيبة الشأن التى فى الغرابة كالمثل (الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ) عن الكفر والمعاصى وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أى فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقوله تعالى (تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) تفسير لذلك المثل على أنه حال من الضمير المحذوف من الصلة العائد إلى الجنة أى وعدها وهو الخبر عند غيره كقولك شأن زيد يأتيه الناس ويعظمونه أو على حذف موصوف أى مثل الجنة جنة تجرى الخ (أُكُلُهَا) ثمرها (دَائِمٌ) لا ينقطع (وَظِلُّهَا) أيضا كذلك لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا (تِلْكَ) الجنة المنعوتة بما ذكر (عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا) الكفر والمعاصى أى مآلهم ومنتهى أمرهم (وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ) لا غير وفيه ما لا يخفى من اطماع المتقين واقناط الكافرين (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة (يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) إذ هو الكتاب الموعود فى التوراة والانجيل (وَمِنَ الْأَحْزَابِ) أى من أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الأشرف والسيد والعاقب اسقفى نجران وأتباعهما (مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ) وهو الشرائع الحادثة انشاء أو نسخا الا ما يوافق ما حرفوه والا فهى عليهم من أول الأمر أن مدار ذلك إنما هو جنايات أيديهم وأما ما يوافق كتبهم فلم ينكروه وإن لم يفرحوا به وقيل يجوز أن يراد بالموصول الأول عامتهم فانهم أيضا يفرحون به لكونه مصداقا لكتبهم فى الجملة فحينئذ يكون قوله تعالى ومن الأحزاب الخ تتمة بمنزلة أن يقال ومنهم من ينكر بعضه (قُلْ) الزاما لهم وردا لانكارهم (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ) أى شيئا من الأشياء أو لا أفعل الاشراك به والمراد قصر الأمر بالعبادة على الله تعالى لا قصر الأمر مطلقا على عبادته تعالى خاصة أى قل لهم إنما أمرت فيما أنزل إلى بعبادة الله وتوحيده وظاهر أن لا سبيل لكم إلى إنكاره لاطباق جميع الأنبياء والكتب على ذلك كقوله تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا فما لكم تشركون به عزيرا والمسيح وقرىء ولا أشرك به بالرفع

على الاستئناف أى وأنا لا أشرك به (إليه) إلى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أو إلى ما أمرت به من التوحيد (أدعوا) الناس لا إلى غيره أو لا إلى شيء آخر مما لم يطبق عليه الكتب الالهية والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فما وجه إنكاركم (وإليه) إلى الله تعالى وحده (مآب) مرجعى للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لا يجدون عنها محيصا أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك الزاما وتبكيتا لهم ثم شرع فى رد انكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة فى ذلك فقيل (وكذلك أنزلناه) أى ما أنزل اليك وذلك إشارة إلى مصدر أنزلناه أو أنزل اليك ومحله النصب على المصدرية أى مثل ذلك الانزال البديع المنتظم لاصول مجمع عليها وفروع متشعبة إلى موافقة ومخالفة حسبما تقتضيه قضية الحكمة والمصلحة أنزلناه (حكما) حاكما يحكم فى القضايا والواقعات بالحق أو يحكم به كذلك والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم لتربية وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه (عربيا) مترجما بلسان العرب والتعرض لذلك للاشارة إلى أن ذلك إحدى موادّ المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة إذ بذلك يسهل فهمه وإدراك اعجازه والاقتصار على اشتمال الانزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده قوله تعالى قل إنما أمرت أن أعبد الله الخ يأباه التعرض لاتباع أهوائهم وحديث المحو والاثبات وان لكل أجل كتابا فان المجمع عليه لا يتصور فيه الاستتباع والاتباع (ولئن اتبعت أهواءهم) التى يدعونك اليها من تقرير الأمور المخالفة لما أنزل اليك من الحق كالصلاة فى بيت المقدس بعد التحويل (بعد ما جاءك من العلم) العظيم الشأن الفائض من ذلك الحكم العربى أو العلم بمضمونه (مالك من الله) من جنابه العزيز والالتفات من التكلم إلى الغيبة وإيراد الاسم الجليل لتربية المهابة قال الأزهرى لا يكون الهاً حتى يكون معبودا وحتى يكون خالقا ورازقا ومدبرا (من ولى) يلى أمرك وينصرك على من يبغيك الغوائل (ولا واق) يقيك من مصارع السوء وحيث لم يستلزم نفى الناصر على العدو نفى الواقى من نكايته أدخل على المعطوف حرف النفى للتأكيد كقولك مالى دينار ولا درهم أو مالك من بأس الله من ناصر وواق لاتباعك أهواءهم وأمثال هاتيك القوارع إنما هى لقطع أطماع الكفرة وتهييج المؤمنين على الثبات فى الدين واللام فى لئن موطئة ومالك سادّ مسدّ جوابى الشرط والقسم (ولقد أرسلنا رسلا) كثيرة كائنة (من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) نساء وأولادا كما جعلناها لك وهو رد لما كانوا يعيبونه صلى الله عليه وسلم بالزواج والأولاد كما كانوا يقولون مالهذا الرسول يأكل الطعام الخ (وما كان لرسول) منهم أى ما صح وما استقام ولم يكن فى وسعه (أن يأتى بآية) مما اقترح عليه وحكم مما التمس منه (إلا بإذن الله) ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات لا سيما مثل هذه الأمور العظام والالتفات لما قدمناه ولتحقيق مضمون الجملة بالايماء إلى العلة (لكل أجل) أى لكل مدة ووقت من المدد والأوقات (كتاب) حكم معين يكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمة فان الشرائع كلها لاصلاح أحوالهم فى المبدأ والمعاد ومن قضية ذلك أنه يختلف حسب اختلاف أحوالهم المتغيرة حسب تغير الأوقات كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب الأوقات (يمحو الله ما يشاء) أى ينسخ ما يشاء نسخه من الأحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت (ويثبت) بدله ما فيه المصلحة أو يبقيه على حاله غير منسوخ أو يثبت ما شاء إثباته مطلقا أعم منهما ومن الانشاء ابتداء أو يمحو من ديوان الحفظة الذين ديدنهم كتب كل قول وعمل ما لا يتعلق به الجزاء ويثبت الباقى أو يمحو سيئات التائب ويثبت مكانها الحسنة أو يمحو قرنا ويثبت آخرين أو يمحو الفاسدات من العالم الجسمانى ويثبت الكائنات أو يمحو الرزق ويزيد فيه أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة وبه قال ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهم والقائلون به يتضرعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداء وهذا رواه جابر عن النبى عليه الصلاة والسلام والأنسب

تعميم كل من المحو والاثبات ليشمل الكل ويدخل فى ذلك مواد الانكار دخولا أوليا وقرىء بالتشديد (وعنده أم الكتاب) أى أصله وهو اللوح المحفوظ إذ مامن شىء من الذاهب والثابت الا وهو مكتوب فيه كما هو (وإن ما نرينك) أصله ان نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة ألحقت النون بالفعل (بعض الذى نعدهم) أى وعدناهم من انزال العذاب عليهم والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو نعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من انذار غب انذار وفى ايراد البعض رمز إلى اراءة بعض الموعود (أو نتوفينك) قبل ذلك (فإنما عليك البلغ) أى تبليغ أحكام الرسالة بتمامها لاتحقيق مضمون مابلغته من الوعيد الذى هو من جملتها (وعلينا) لا عليك (الحساب) محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها أى كيفما دارت الحال أريناك بعض ماوعدناهم من العذاب الدنيوى أولم نركه فعلينا ذلك وماعليك الاتبليغ الرسالة فلاتهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه وتتم ماوعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فان ذلك لما نعلم من المصالح الخفية ثم طيب نفسه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشيره فقال (أولم يروا) استفهام انكارى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أأنكروا نزول ماوعدناهم أو أشكوا أولم ينظروا فى ذلك ولم يروا (أنا نأتى الأرض) أى أرض الكفر (ننقصها من أطرافها) بأن نفتحها على المسلمين شيأ فشيأ ونلحقها بدار الإسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والاسر والاجلاء أليس هذا من ذلك ومثله قوله عز سلطانه أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون وقوله ننقصها حال من فاعل نأتى أو من مفعوله وقرىء ننقصها بالتشديد وفى لفظ الإتيان المؤذن بالاستواء المحتوم والاستيلاء العظيم من الفخامة مالايخفى كما فى قوله عز وجل وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (والله يحكم) مايشاء كما يشاء وقد حكم للاسلام بالعزة والاقبال وعلى الكفر بالذلة والادبار حسبما يشاهد من المخايل والآثار وفى الالتفات من التكلم الى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة مالايخفى وهى جملة اعتراضية جىء بها التأكيد فحوى ماتقدمها وقوله تعالى (لا معقب لحكمه) اعتراض فى اعتراض لبيان علو شأن حكمه جل جلاله وقيل نصب على الحاليه كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاء زيد لاعمامة على رأسه أى حاسرا والمعقب من يكر على الشىء فيبطله وحقيقته من يعقبه ويقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب (وهو سريع الحساب) فعما قليل يحاسبهم ويجازيهم فى الآخرة بافانين العذاب غب ماعذبهم بالقتل والاسر والاجلاء حسبما يرى وقال ابن عباس رضى الله عنهما سريع الانتقام (وقد مكر) الكفار (الذين) خلوا (من قبلهم) من قبل كفار مكة بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لاعبرة بمكرهم ولا تأثير بل لاوجود له فى الحقيقة ولم يصرح بذلك اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله أعنى قوله تعالى (فلله المكر) أى جنس المكر (جميعا) لاوجود لمكرهم أصلا إذ هو عبارة عن ايصال المكروه إلى الغير من حيث لايشعر به وحيث كان جميع مايأتون ومايذرون بعلم الله تعالى وقدرته وإنما لهم مجرد الكسب من غير فعل ولا تأثير حسبما يبينه قوله عز وجل (يعلم ما تكسب كل نفس) ومن قضيته عصمة أوليائه وعقاب الماكرين بهم توفية لكل نفس جزاء ما تكسبه ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة إلى من مكروا بهم عين ولا أثر وأن المكر كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصى التى من جملتها مكرهم من حيث لايحتسبون أو لله المكر الذى باشروه جميعا لالهم على معنى أن ذلك ليس مكرا منهم بالأنبياء بل هو بعينه مكر من الله تعالى بهم وهم لايشعرون حيث لايحيق المكر السيء الا بأهله (وسيعلم الكفر) حين يقضى بمقتضى علمه فيوفى كل نفس جزاء ماتكسبه (لمن عقبى

الدار) أى العاقبة الحميدة من الفريقين وإن جهلوا ذلك يومئذ وقيل السين لتأكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ وقرىء سيعلم الكافر على إرادة الجنس والكافرون والكفر أى أهله والذين كفروا وسيعلم على صيغة المجهول من الاعلام أى سيخبر (ويقولُ الذينَ كفروا لستَ مُرسَلاً) قيل قاله رؤساء اليهود وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيبا منها أو للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم (قُلْ كَفَى باللهِ شهيداً بيني وبينَكم) فانه قد أظهر على رسالتى من الحجج القاطعة والبينات الساطعة ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر (ومَن عندَه علمُ الكتابِ) أى علم القرآن وما عليه من النظم المعجز أو من هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام فى كتبهم والآية مدنية بالاتفاق أو من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه أى كفى به شاهدا بيننا بالذى يستحق العبادة فانه قد شحن كتابه بالدعوة إلى عبادته وأيدنى بأنواع التأييد وبالذى يختص بعلم ما فى اللوح من الأشياء الكائنة الثابتة التى من جملتها رسالتى وقرىء ومن عنده بالكسر وعلم الكتاب على الأول مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول أو مبتدأ خبره الظرف وهو متعين على الثانى ومن عنده علم الكتاب بالكسر وبناء المفعول ورفع الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرعد أعطى من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل والله أعلم بالصواب .

سورة ابراهيم عليه السلام

(مكية وهى إحدى وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر) مر الكلام فيه وفى محله غير مرة وقوله تعالى (كتابٌ) خبر له على تقدير كونه الر مبتدأ أو لمبتدأ مضمر على تقدير كونه خبر المبتدأ محذوف أو مسرودا على نمط التعديد ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لهذا المبتدا المحذوف وقوله تعالى (أنزلناه إليكَ) صفة له وقوله تعالى (لتُخرجَ الناسَ) متعلق بأنزلناه أى لتخرجهم كافة بما فى تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحة عن كونه من عند الله عز وجل الكاشفة عن العقائد الحقة وقرىء ليخرج الناس (مِنَ الظلماتِ) أى ليخرج به الناس من عقائد الكفر والضلال التى كلها ظلمات محضة وجهالات صرفة (إلى النورِ) إلى الحق الذى هو نور بحت لكن لا كيفما كان فانك لاتهدى من أحببت بل (بإذنِ ربهم) أى بتيسيره وتوفيقه وللانباء عن كون ذلك منوطا باقبالهم إلى الحق كما يفصح عنه قوله تعالى ويهدى إليه من أناب استعير له الاذن الذى هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود وأضيف إلى ضميرهم اسم الرب المفصح عن التربية التى هى عبارة عن تبليغ الشىء إلى كماله المتوجه اليه وشمول الاذن بهذا المعنى للكل واضح وعليه يدور كون الانزال لاخراجهم جميعا وعدم تحقق الاذن بالفعل فى بعضهم لعدم تحقق شرطه المستند إلى سوء اختيارهم غير مخل بذلك والباء متعلقة بتخرج أو بمضمر وقع حالا من مفعوله أى ملتبسين باذن ربهم وجعله حالا من فاعله يأباه إضافة الرب اليهم لا اليه وحيث كان الحق مع وضوحه فى نفسه وإيضاحه لغيره موصلا إلى الله عز وجل استعير له النور تارة والصراط أخرى فقيل (إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ) على وجه الابدال بتكرير العامل كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم وإخلال البدل والبيان بالاستعارة إنما هو فى الحقيقة لا فى المجاز كما فى قوله سبحانه حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر وقيل هو استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل إلى أى نور فقيل إلى صراط العزيز الحميد واضافة الصراط اليه تعالى لأنه مقصده أو المبين له وتخصيص الوصفين بالذكر للترغيب فى سلوكه ببيان

مافيه من الأمن والعافية الحميدة (اللهِ) بالجر عطف بيان للعزيز الحميد لجريانه مجرى الأعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحق كالنجم فى الثريا وقرىء بالرفع على هو الله أى العزيز الحميد الذى أضيف اليه الصراط الله (الذى لهُ) ملكا وملكا (مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الأَرْضِ) أى ماوجد فيهما داخلا فيهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما كما مر فى آية الكرسى ففيه على القراءتين بيان لكمال فخامة شأن الصراط وإظهار لتحتم سلوكه على الناس قاطبة وتجويز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرا مبناه الغفول عن هذه النكتة وقوله عز وجل (وَوَيْلٌ لِلْكٰفِرِينَ) وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور بالويل وهو نقيض الوال وهو النجاة وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلام عليك (مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) متعلق بويل على معنى يولولون ويضجون منه قائلين ياويلاه كقوله تعالى دعوا هنالك ثبورا (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا) أى يؤثرونها استفعال من المحبة فان المؤثر للشىء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب اليها وأفضل عندها من غيره (عَلَى الأٰخِرَةِ) أى الحياة الآخرة الأبدية (وَيَصُدُّونَ) الناس (عَنْ سَبِيلِ اللهِ) التى بين شأنها والاقتصار على الاضافة إلى الاسم الجليل المنطوى على كل وصف جميل لروم الاختصار وهو من صده صدا وقرىء يصدون من أصد المنقول من صد صدودا إذا نكب وهو غير فصيح كأوقف فان فى صده ووقفه لمندوحة عن تكلف النقل (وَيَبْغُونَهَا) أى يبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير أى يطلبون لها (عِوَجاً) أى زيغا واعوجاجا وهى أبعد شىء من ذلك أى يقولون لمن يريدون صده وإضلاله انها سبيل ناكبة وزائغة غير مستقيمة ومحل موصول هذه الصلات الجر على أنه بدل من الكافرين أو صفة له فيعتبر كل وصف من أوصافهم بازاء ما يناسبه من المعانى المعتبرة فى الصراط فالكفر المنبىء عن الستر بازاء كونه نورا واستحباب الحياة الدنيا الفانية المفصحة عن وخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمود العاقبة والصد عنه بازاء كونه مأمونا وفيه من الدلالة على تماديهم فى الغى مالا يخفى أو النصب على الذم أو الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى (أُولٰئِكَ فِى ضَلٰلٍ بَعِيدٍ) وعلى الأول جملة مستأنفة وقعت معللة لما سبق من لحوق الويل بهم تأكيدا لما أشعر به بناء الحكم على الموصول أى أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة من استحباب الحياه الدنيا على الآخرة وصد الناس عن سبيل الله المستقيمة ووصفها بالاعوجاج وهى منه بنزه فى ضلال عن طريق الحق بعيد بالغ فى ذلك غاية الغايات القاصية والبعد وإن كان من أحوال الضال إلا أنه قد وصف به وصفه مجازا للمبالغة كجد جده وداهية دهياء ويجوز أن يكون المعنى فى ضلال ذى بعد أو فيه بعد فان الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا وفى جعل الضلال محيطا بهم احاطة الظرف بما فيه مالا يخفى من المبالغة (وَمَا أَرْسَلْنَا) أى فى الأمم الخالية من قبلك كما سيذكر اجمالا (مِنْ رَسُولٍ إِلا) ملتبسا (بِلِسَانِ قَوْمِهِ) متكلما بلغة من أرسل اليهم من الأمم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم أو لا وقرىء بلسن وهو لغة فيه كريش ورياش وبلسن بضمتين وضمة وسكون كعمد وعمد (لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) ما أمروا به فيتلقوه منه بيسر وسرعة ويعملوا بموجبه من غير حاجة إلى الترجمة ممن لم يؤمر به وحيث لم يمكن مراعاة هذه القاعدة فى شأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين لعموم بعثته للثقلين كافة على اختلاف لغاتهم وكان تعدد نظم الكتاب المنزل اليه حسب تعدد ألسنة الأمم أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق أيدى التحريف مع أن استقلال بعض من ذلك بالاعجاز دون غيره مئنة لقدح القادحين واتفاق الجميع فيه أمر قريب من الالجاء وحصر البيان بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمة اتحاد النظم المنبىء عن العزة وجلالة الشأن المستتبع لفوائد غنية عن البيان على ان الحاجة الى الترجمة تتضاعف عند التعدد إذ لا بد لكل أمة من معرفة توافق الكل وتحاذيه حذو القذة بالقذة من غير مخالفة ولو فى خصلة فذة وإنما

يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدا أو متعددا وفيه من التعذر ما يتاخم الامتناع ثم لما كان أشرف الأقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومه الذين بعث فيهم ولغتهم أفضل اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربي مبين وانتشرت أحكامه فيما بين الأمم أجمعين وقيل الضمير في قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه تعالى أنزل الكتب كلها عربية ثم ترجمها جبريل عليه الصلاة والسلام أو كل من نزل عليه من الأنبياء عليهم السلام بلغة من نزل عليهم ويرده قوله تعالى ليبين لهم فانه ضمير القوم وظاهر أن جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب وفي رجعه إلى قوم كل نبي كأنه قيل وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوم محمد عليه الصلاة والسلام ليبين الرسول لقومه الذين أرسل اليهم ما لا يخفى من التكلف (فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَآءُ) اضلاله أي يخلق فيه الضلال لمباشرة أسبابه المؤدية اليه أو يخذله ولا يلطف به لما يعلم أنه لا ينجع فيه الالطاف (وَيَهْدِي) بالتوفيق ومنح الالطاف (مَنْ يَشَآءُ) هدايته لما فيه من الانابة والإقبال إلى الحق والالتفات باسناد الفعلين إلى الاسم الجليل المنطوي على الصفات لتفخيم شأنهما وترشيح مناط كل منهما والفاء فصيحة مثلها في قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق كأنه قيل فبينوه لهم فأضل الله منهم من شاء إضلاله لما لا يليق إلا به وهدى من شاء هدايته لاستحقاقه لها والحذف للايذان بأن مسارعة كل رسول إلى ما أمر به وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سننه أمر محقق غني عن الذكر والبيان والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار حسب تجدد البيان من الرسل المتعاقبة عليهم السلام وتقديم الاضلال على الهداية اما لأنه ابقاء ما كان على ما كان والهداية إنشاء ما لم يكن أو للمبالغة في بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل وأن مدار الأمر انما هو مشيئته تعالى بايهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء وهذا محقق لما سلف من تقييد الاخراج من الظلمات الى النور بإذن الله تعالى (وَهُوَ الْعَزِيزُ) فلا يغالب في مشيئته (الْحَكِيمُ) الذي لا يفعل شيئاً من الاضلال والهداية الا لحكمة بالغة وفيه أن ما فوض الى الرسل انما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحق وأما الهداية والارشاد اليه فذلك بيد الله سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ) شروع في تفصيل ما أجمل في قوله عز وجل وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم الآية (بِآيَٰتِنَا) أي ملتبسا بها وهي معجزاته التي أظهرها لبني اسرائيل (أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ) بمعنى أي أخرج لأن الارسال فيه معنى القول أو بأن أخرج كما في قوله تعالى وأن أقم وجهك فان صيغ الافعال في الدلالة على المصدر سواء وهو المدار في صحة الوصل والمراد بذلك اخراج بني اسرائيل بعد مهلك فرعون (مِنَ الظُّلُمَٰتِ) من الكفر والجهالات التي أدتهم الى أن يقولوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة (إِلَى النُّورِ) الى الايمان بالله وتوحيده وسائر ما أمروا به (وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ اللهِ) أي بنعمائه وبلائه كما ينبئ عنه قوله اذكروا نعمة الله عليكم لكن لا بما جرى عليهم فقط بل عليهم وعلى من قبلهم من الأمم في الأيام الخالية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم الآيات أو بأيامه المنطوية على ذلك كما يلوح به قوله تعالى اذ أنجاكم والالتفات من التكلم الى الغيبة باضافة الأيام الى الاسم الجليل للايذان بفخامة شأنها والاشعار بعدم اختصاص ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه كما توهمه الاضافة الى ضمير المتكلم أي عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد وقيل أيام الله وقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم وأيام العرب وقائعها وحروبها وملاحمها أي أنذرهم وقائعه التي دهمت الأمم الدارجة ويرده ما تصدى له عليه الصلاة والسلام بصدد الامتثال من التذكير بكل من السراء والضراء بما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى عليك (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ) أي في التذكير بها أو في مجموع تلك النعماء والبلاء أو في أيامها (لَأَيَٰتٍ) عظيمة أو كثيرة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته فهي على الأول عبارة عن الأيام سواء أريد بها أنفسها أو ما فيها من النعماء والبلاء ومعنى ظرفية التذكير لها كونه مناطا لظهورها وعلى الثالث عن تلك النعماء والبلاء

ومعنى الظرفية ظاهر وأما على الثانى وهو كونه إشارة إلى مجموع النعماء فمن كل واحدة من تلك النعماء والبلاء والمشار اليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموع أو كلمة فى تجريدية مثلها فى قوله تعالى لهم فيها دار الخلد (لِكُلِّ صَبَّارٍ) على بلائه (شَكُورٍ) لنعمائه وقيل لكل مؤمن والتعبير عنهم بذلك للاشعار بأن الصبر والشكر عنوان المؤمن أى لكل من يليق بكمال الصبر والشكر أو الايمان ويصير أمره اليها الالمن اتصف بها بالفعل لأنه تعليل للأمر بالتذكير المذكور السابق على التذكر المؤدى إلى تلك المرتبة فان من تذكر ما فاض أو نزل عليه أو على من قبله من النعماء والبلاء وتنبه لعاقبة الشكر والصبر أو الإيمان لا يكاد يفارقها وتخصيص الآيات بهم لأنهم المنتفعون بها لا لأنها خافية عن غيرهم فان التبيين حاصل بالنسبة إلى الكل وتقديم الصبار على الشكور لتقدم متعلق الصبر أعنى البلاء على متعلق الشكر أعنى النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ) شروع فى بيان تصديه عليه الصلاة والسلام لما أمر به من التذكير للاخراج المذكور وإذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر سره غير مرة أى اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لقومه (اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) بدأ عليه الصلاة والسلام بالترغيب لأنه عند النفس أقبل وهى اليه أميل والظرف متعلق بنفس النعمة ان جعلت مصدرا أو بمحذوف وقع حالا منها إن جعلت اسما أى اذكروا إنعامه عليكم أو اذكروا نعمته كائنة عليكم وكذلك كلمة إذ فى قوله تعالى (إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ) أى اذكروا إنعامه عليكم وقت انجائه إياكم من آل فرعون أو اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم وقت انجائه إياكم منهم أو بدل اشتمال من نعمة الله مرادا بها الانعام أو العطية (يَسُومُونَكُمْ) يبغونكم من سامه خسفا إذا أولاه ظلما وأصل السوم الذهاب فى طلب الشيء (سُوءَ الْعَذَابِ) السوء مصدر ساء يسوء والمراد به جنس العذاب السيء أو استعبادهم واستعمالهم فى الأعمال الشاقة والاستهانة بهم وغير ذلك مما لا يحصر ونصبه على أنه مفعول ليسومونكم (وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) المولودين وإنما عطفه على يسومونكم إخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد وإنما فعلوا ذلك لأن فرعون رأى فى المنام أو قال له الكهنة إنه سيولد منهم من يذهب بملكه فاجتهدوا فى ذلك فلم يغن عنهم من قضاء الله شيئا (وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) أى يبقونهن فى الحياة مع الذل والصغار ولذلك عد من جملة البلاء والجمل أحوال من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين أو منهما جميعا لأن فيها ضمير كل منهما (وَفِي ذَٰلِكُم) أى فيما ذكر من أفعالهم الفظيعة (بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ) أى ابتلاء منه لا أن البلاء عين تلك الأفعال اللهم إلا أن تجعل فى تجريدية فنسبته إلى الله تعالى إما من حيث الخلق أو الاقدار والتمكين (عَظِيمٌ) لا يطاق ويجوز أن يكون المشار اليه الانجاء من ذلك والبلاء الابتلاء بالنعمة وهو الأنسب كما يلوح به التعرض لوصف الربوبية وعلى الأول يكون ذلك باعتبار المآل الذى هو الانجاء أو باعتبار أن بلاء المؤمن تربية له (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ) من جملة مقال موسى عليه الصلاة والسلام لقومه معطوف على نعمة الله أى اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم أى آذن ايذانا بليغا لا تبقى معه شائبة شبهة لما فى صيغة التفعل من معنى التكلف المحمول فى حقه سبحانه على غايته التى هى الكمال وقيل هو معطوف على قوله تعالى إذ أنجاكم أى اذكروا نعمته تعالى فى هذين الوقتين فان هذا التأذن أيضا نعمة من الله تعالى عليهم ينالون بها خيرى الدنيا والآخرة وفى قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وإذ قال ربكم ولقد ذكرهم عليه الصلاة والسلام أولا بنعمائه تعالى عليهم صريحا وضمنه تذكير ما أصابهم قبل ذلك من الضراء ثم أمرهم ثانيا بذكر ما جرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر والوعيد بالعذاب على تقدير الكفر والمراد بتذكير الأوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث مفصلة إذ هى محيطة بذلك فاذا ذكرت ذكر ما فيها كأنه مشاهد معاين (لَئِن شَكَرْتُمْ) يابنى إسرائيل ما خولتكم

من نعمة الانجاء وإهلاك العدو وغير ذلك من النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالإيمان والطاعة (لأزيدنكم) نعمة إلى نعمة (ولئن كفرتم) ذلك وغمصتموه (إن عذابي لشديد) فعسى يصيبكم منه مايصيبكم ومن عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك بأكرم الأكرمين ويجوز أن يكون المذكور تعليلا للجواب المحذوف أى لأعذبنكم واللام فى الموضعين موطئة للقسم وكل من الجوابين سادمسد جوابى الشرط والقسم والجملة إما مفعول لتأذن لأنه ضرب من القول أو لقول مقدر بعده كأنه قيل واذ تأذن ربكم فقال الخ (وقال موسى إن تكفروا) نعمه تعالى ولم تشكروها (أنتم) يابنى إسرائيل (ومن فى الأرض) من الخلائق (جميعا فإن الله لغنى) عن شكركم وشكر غيركم (حميد) مستوجب للحمد بذاته لكثرة مايوجبه من أياديه وإن لم يحمده أحد أو محمود يحمده الملائكة بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدل على كماله سبحانه وهو تعليل لما حذف من جواب ان أى ان تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم فان الله تعالى لغنى عن شكر الشاكرين ولعله عليه الصلاة والسلام إنما قاله عند ماعاين منهم دلائل العناد ومخايل الاصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لاينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب أو قاله غب تذكيرهم بما ذكر من قول الله عز سلطانه تحقيقا لمضمونه وتحذيرا لهم من الكفر ان ثم شرع فى الترهيب بتذكير ماجرى على الأمم الخالية فقال (ألم يأتكم نبؤا الذين من قبلكم) ليتدبروا ماأصاب كل واحد من حزبى المؤمن والكافر فيقلعوا عماهم عليه من الشر وينيبوا إلى الله تعالى وقيل هو ابتداء كلام من الله تعالى خطابا للكفرة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فيختص تذكير موسى عليه الصلاة والسلام بما اختص ببنى إسرائيل من السراء والضراء والأيام بالأيام الجارية عليهم فقط وفيه مالايخفى من البعد وأيضا لايظهر حينئذ وجه تخصيص تذكير الكفرة الذين فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام بما أصاب أولئك المعدودين مع أن غيرهم أسوة لهم فى الخلو قبل هؤلاء (قوم نوح) بدل من الموصول أو عطف بيان (وعاد) معطوف على قوم نوح (وثمود والذين من بعدهم) أى من بعد هؤلاء المذكورين عطف عام على قوم نوح وماعطف عليه وقوله تعالى (لايعلمهم إلا الله) اعتراض أو الموصول مبتدأ ولا يعلمهم إلى آخره خبره والجملة اعتراض والمعنى انهم من الكثرة بحيث لايعلم عددهم إلا الله سبحانه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بين عدنان وإسمعيل ثلاثون أبا لايعرفون وكان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه إذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعنى أنهم يدعون علم الانساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد (جاءتهم رسلهم) استئناف لبيان نبئهم (بالبينات) بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة فبين كل رسول لأمته طريق الحق وهداهم اليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور (فردوا أيديهم فى أفواههم) مشيرين بذلك إلى ألسنتهم ومايصدر عنها من المقالة اعتناء منهم بشأنها وتنبيها للرسل على تلقيها والمحافظة عليها وإقناطا لهم عن التصديق والإيمان باعلام أن لاجواب لهم سواه (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) أى على زعمكم وهى البينات التى أظهروها حجة على صحة رسالاتهم كقوله تعالى ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ومرادهم بالكفر بها الكفر بدلالتها على صحة رسالاتهم أو فعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ أو وضعوها عليها تعجبا منه واستهزاء به كمن غلبه الضحك أو اسكاتا للانبياء عليهم السلام وأمرا لهم باطباق الأفواه أو ردوها فى أفواه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يمنعونهم من التكلم تحقيقا أو تمثيلا أو جعلوا أيدى الأنبياء فى أفواههم تعجبا من عتوهم وعنادهم كما ينبىء عنه تعجبهم بقولهم أفى الله شك الخ وقيل الأيدى بمعنى الأيادى عبر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التى هى مدار النعم الدينية والدنياوية لأنهم لما كذبوها فلم يقبلوها فكأنهم ردوها إلى حيث جاءت منه (وإنا لفى شك) عظيم

(مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ) من الايمان بالله والتوحيد فلاينافى شكهم فى ذلك كفرهم القطعى بما أرسل به الرسل من البينات فانهم كفروا بها قطعا حيث لم يعتدوا بها ولم يجعلوها من جنس المعجزات ولذلك قالوا فأتونا بسلطان مبين وقرىء تدعون بالإدغام (مُرِيبٍ) موقع فى الريبة من أرابه أو ذى ريبة من أراب الرجل وهى قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشىء (قَالَتْ رُسُلُهُمْ) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه المقال كأنه قيل فماذا قالت لهم رسلهم فأجيب بأنهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ) بادخال الهمزة على الظرف للايذان بأن مدار الانكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لايكاد يتوهم فيه الشك أصلا منقادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا أأنتم فى شك مريب من الله تعالى مبالغة فى تنزيه ساحة السبحان عن شائبة الشك وتسجيلا عليهم بسخافة العقول أى أفى شأنه سبحانه من وجوده ووحدته ووجوب الإيمان به وحده شك ما وهو أظهر من كل ظاهر وأجلى من كل جلى حتى تكونوا من قبله فى شك مريب وحيث كان مقصدهم الأقصى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد وكان إظهار البينات وسيلة إلى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة انا كفرنا بما أرسلتم به واقتصروا على بيان ماهو الغاية القصوى ثم عقبوا ذلك الانكار بما يوجبه من الشواهد الدالة على انتفاء المنكر فقالوا (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى مبدعهما ومافيهما من المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقق ماأنتم منه فى شك وهو صفة للاسم الجليل أوبدل منه وشك مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام وجعله مبتدأ على أن الظرف خبره يفضى إلى الفصل بين الموصوف والصفة بالاجنبى أعنى المبتدأ والفاعل ليس بأجنبى من رافعه وقد جوز ذلك أيضا (يَدْعُوكُمْ) إلى الإيمان بارساله ايانا لاأنا ندعوكم اليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعوننا اليه (لِيَغْفِرَ لَكُمْ) بسببه أو يدعوكم لأجل المغفرة كقولك دعوته ليأكل معى (مِنْ ذُنُوبِكُمْ) أى بعضها وهو ماعدا المظالم مما بينهم وبينه تعالى فان الإسلام يجبه قيل هكذا وقع فى جميع القرآن فى وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقة بين الوعدين ولعل ذلك لما أن المغفرة حيث جاءت فى خطاب الكفرة مرتبة على محض الإيمان وفى شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصى ونحو ذلك فيتناول الخروج من المظالم وقيل المعنى ليغفر لكم بدلا من ذنوبكم (وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) إلى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الإيمان (قَالُوا) استئناف كما سبق (إِنْ أَنْتُمْ) أى ما أنتم (إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) من غير فضل يؤهلكم لما تدعونه من النبوة (تُرِيدُونَ) صفة ثانية لبشر حملا على المعنى كقوله تعالى أبشر يهدوننا أو كلام مستأنف أى تريدون بما تتصدون له من الدعوة والارشاد (أَنْ تَصُدُّونَا) بتخصيص العبادة بالله سبحانه (عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) أى عن عبادة مااستمر آباؤنا على عبادته من غير شىء يوجبه والا (فَأْتُونَا) أى وإن لم يكن الأمر كما قلنا بل كنتم رسلا من جهة الله تعالى كما تدعونه فأتونا (بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) يدل على فضلكم واستحقاقكم لتلك الرتبة أو على صحة ماتدعونه من النبوة حتى نترك مالم نزل نعبده أبا عن جد ولقد كانوا آتوهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ماتخر له صم الجبال ولكنهم إنما يقولون مايقولون من العظائم مكابرة وعنادا واراءة لمن وراءهم أن ذلك ليس من جنس ماينطلق عليه السلطان المبين (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ) مجاراة معهم فى أول مقالتهم وإنما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث أريد إلزامهم بخلاف ماسلف من انكار وقوع الشك فى الله سبحانه فان ذلك عام وان اختص بهم مايعقبه (إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) كما تقولون (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ) بالنبوة (عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضل والامتنان من غير داعية توجبه قالوه تواضعا وهضما للنفس أو مانحن من الملائكة بل نحن بشر مثلكم فى الصورة أو فى الدخول تحت

الجنس ولكن الله يمن بالفضائل والكمالات والاستعدادات على من يشاء المن بها وما يشاء ذلك الا لعلمه باستحقاقه لها وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هي التي يدور عليها فلك الاصطفاء للنبوة (وَمَا كَانَ) وما صح وما استقام (لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ) أي بحجة من الحجج فضلا عن السلطان المبين بشيء من الاشياء وسبب من الأسباب (إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) فانه أمر يتعلق بمشيئته تعالى ان شاء كان والا فلا (وَعَلَى اللَّهِ) وحده دون ما عداه مطلقا (فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) أمر منهم للمؤمنين بالتوكل ومقصودهم حمل أنفسهم عليه آثر ذي أثير ألا يرى إلى قوله عز وجل (وَمَا لَنَا) أي أي عذر لنا (أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ) أي في أن لا نتوكل عليه والاظهار لاظهار النشاط بالتوكل عليه والاستلذاذ بذكر اسمه تعالى وتعليل التوكل (وَقَدْ هَدَانَا) أي والحال أنه قد فعل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث هدانا (سُبُلَنَا) أي ارشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذي شرع له وأوجب عليه سلوكه في الدين وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح في التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمي مظهرين لكمال العزيمة (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا) بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه (وَعَلَى اللَّهِ) خاصة (فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) أي فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل والمراد هو المراد مما سبق من ايجاب التوكل على أنفسهم والمراد بالمتوكلين المؤمنون والتعبير عنهم بذلك لسبق ذكر اتصافهم به ويجوز أن يراد وعليه فليتوكل من توكل دون غيره (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) لعل هؤلاء القائلين بعض المتمردين العاتين الغالين في الكفر من أولئك الأمم الكافرة التي نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب وأضرابهم ولذلك لم يقل وقالوا (لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) لم يقنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحق بعدما رأوا البينات الفائتة للحصر حتى اجترؤا على مثل هاتيك العظيمة التي لا يكاد يحيط بها دائرة الامكان لحلفوا على أن يكون أحد الحالين والعود اما بمعنى مطلق الصيرورة أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل وقد مر في الأعراف وسيأتي في الكهف (فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ) أي إلى الرسل (رَبُّهُمْ) مالك أمرهم عند تناهي كفر الكفرة وبلوغهم من العتو إلى غاية لا مطمع بعدها في إيمانهم (لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) على اضمار القول أو على إجراء الايحاء مجراه لكونه ضربا منه (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ) أي أرضهم وديارهم عقوبة لهم بقولهم لنخرجنكم من أرضنا كقوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها (مِنْ بَعْدِهِمْ) أي من بعد اهلاكهم وقرىء ليهلكن وليسكننكم بالياء اعتبارا لأوحى كقولهم حلف زيد ليخرجن غدا (ذَٰلِكَ) إشارة إلى الموحى به وهو اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم أي ذلك الأمر محقق ثابت (لِمَنْ خَافَ مَقَامِي) موقفي وهو الموقف الذي يقف فيه العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين أو قيامي عليه وحفظي لأعماله وقيل لفظ المقام مقحم (وَخَافَ وَعِيدِ) وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار والمعنى ان ذلك حق للمتقين كقوله والعاقبة للمتقين (وَاسْتَفْتَحُوا) أي استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فالضمير للرسل وقيل للكفرة وقيل للفريقين فانهم سألوا أن ينصر المحق ويهلك المبطل وهو معطوف على أوحى اليهم وقرىء بلفظ الأمر عطفا على لنهلكن الظالمين أي أوحى اليهم ربهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا (وَخَابَ) أي خسر وهلك (كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) متصف بضد ما اتصف به المتقون أي فنصروا عند استفتاحهم وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم المعاندون فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان دون الحرمان عن المطلوب أو ذلك باعتبار أنهم كانوا يزعمون أنهم على الحق أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا وإنما قيل وخاب كل جبار عنيد ذما لهم وتسجيلا عليهم بالتجبر والعناد

لأن بعضهم ليسوا كذلك وأنه لم يصبهم الخيبة أو استفتحوا جميعا فنصر الرسل وأنجز لهم الوعد وخاب كل عات متمرد فالخيبة بمعنى الحرمان غب الطلب وفى اسناد الخيبة إلى كل منهم ما لا يخفى من المبالغة (مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ) أى بين يديه فانه مرصد لها واقف على شفيرها فى الدنيا مبعوث اليها فى الآخرة وقيل من وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك (وَيُسْقَىٰ) معطوف على مقدر جوابا عن سؤال سائل كأنه قيل فماذا يكون اذن فقيل يلقى فيها ويسقى (مِن مَّاءٍ) مخصوص لا كالمياه المعهودة (صَدِيدٍ) وهو قيح أودم مختلط بمدة يسيل من الجرح قال مجاهد وغيره هو ما يسيل من أجساد أهل النار وهو عطف بيان لما أبهم أولا ثم بين بالصديد تهويلا لأمره وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه (يَتَجَرَّعُهُ) قيل هو صفة لماء أو حال منه والأظهر أنه استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يفعل به فقيل يتجرعه أى يتكلف جرعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه (وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ) أى لا يقارب أن يسيغه فضلا عن الاساغة بل يغص به فيشربه بعد اللتيا والتى جرعة غب جرعة فيطول عذابه تارة بالحرارة والعطش وأخرى بشربه على تلك الحال فان السوغ انحدار الشراب فى الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفى ما ذكر جميعا وقيل لا يكاد يدخله فى جوفه وعبر عنه بالاساغة لما أنها المعهودة فى الأشربة وهو حال من فاعل يتجرعه أو من مفعوله أو منهما جميعا (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ) أى أسبابه من الشدائد (مِن كُلِّ مَكَانٍ) ويحيط به من جميع الجهات أو من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وابهام رجله (وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) أى والحال أنه ليس بميت حقيقة كما هو الظاهر من مجىء أسبابه لا سيما من جميع الجهات حتى لا يتألم بما غشيه من أصناف الموبقات (وَمِن وَرَائِهِ) من بين يديه (عَذَابٌ غَلِيظٌ) يستقبل كل وقت عذابا أشد وأشق مما كان قبله ففيه دفع ما يتوهم من الخفة بحسب الاعتياد كما فى عذاب الدنيا وقيل هو الخلود فى النار وقيل هو حبس الانفاس وقيل المراد بالاستفتاح والخيبة استسقاء أهل مكة فى سنيهم التى أرسلها الله تعالى عليهم بدعوته عليه الصلاة والسلام وخيبتهم فى ذلك وقد وعد لهم بدل ذلك صديد أهل النار (مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ) أى صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التى هى كالمثل فى الغرابة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ) كقولك صفة زيد عرضه مهتوك وماله منهوب وهو استئناف مبنى على سؤال من قال ما بال أعمالهم التى عملوها فى وجوه البر من صلة الأرحام واعتاق الرقاب وفداء الاسارى واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم حتى آل أمرهم إلى هذا المآل فأجيب بأن ذلك كرماد (اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ) حملته وأسرعت الذهاب به (فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ) العصف اشتداد الريح وصف به زمانها مبالغة كقولك ليلة ساكرة وإنما السكور لريحها شبهت صنائعهم المعدودة لابتنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والإيمان به والتوجه بها اليه تعالى برماد طيرته الريح العاصفة أو استئناف مسوق لبيان أعمالهم للاصنام أو مبتدأ خبره محذوف كما هو رأى سيبويه أى فيما يتلى عليك مثلهم وقوله أعمالهم جملة مستأنفة مبنية على سؤال من يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كيت وكيت سواء أريد بها صنائعهم أو أعمالهم لأصنامهم وقيل أعمالهم بدل من مثل الذين وقوله كرماد خبره (لَّا يَقْدِرُونَ) أى يوم القيامة (مِمَّا كَسَبُوا) من تلك الأعمال (عَلَىٰ شَيْءٍ) ما أى لا يرون له أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور وهو فذلكة التمثيل والاكتفاء ببيان عدم رؤية الاثر لأعمالهم للاصنام مع أن لها عقوبات هائلة للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم انها شفعاء لهم عند الله تعالى وفيه تهكم بهم (ذَٰلِكَ) أى ما دل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم مع حسبانهم أنهم على شىء (هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) عن طريق الصواب أو عن نيل الثواب (أَلَمْ تَرَ) خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل أحد من الكفرة لقوله تعالى يذهبكم والرؤية رؤية القلب وقوله تعالى (أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ

السَّموٰاتِ وَالأَرْضَ) سادمسد مفعوليها أى ألم تعلم أنه تعالى خلقهما (بالحَقِّ) ملتبسة بالحكمة والوجه الصحيح الذى يحق أن تخلق عليه وقرىء خالق السموات والأرض (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ) يعدمكم بالمرة (وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) أى يخلق بدلكم خلقا آخر مستأنفا لا علاقة بينكم وبينهم رتب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السموات والأرض على هذا النمط البديع إرشاداً إلى طريق الاستدلال فان من قدر على خلق مثل هاتيك الأجرام العظيمة كان على تبديل خلق آخر بهم أقدر ولذلك قال (وَمَا ذٰلِكَ) أى اذهابكم والاتيان بخلق جديد مكانكم (عَلى اللهِ بِعَزِيزٍ) بمتعذر أو متعسر فانه قادر لذاته على جميع الممكنات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه حقيق بأن يؤمن به ويرجى ثوابه ويخشى عقابه (وَبَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعاً) أى يبرزون يوم القيامة وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه كما فى قوله سبحانه ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أو لانه لا مضى ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه والمراد بروزهم من قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته أو لله على ظنهم فانهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سراً أنها تخفى على الله سبحانه فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم (فَقَالَ الضُّعَفٰؤُا) الأتباع جمع ضعيف والمراد ضعف الرأى وإنما كتب بالواو على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة (لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم (إِنَّا كُنَّا) فى الدنيا (لَكُمْ تَبَعاً) فى تكذيب الرسل عليهم السلام والاعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كغيب فى جمع غائب أو مصدر نعت به مبالغة أو على اضمار أى ذوى تبع (فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ) دافعون (عَنَّا) والفاء للدلالة على سببية الاتباع للاغناء والمراد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت (مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ) من الأولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أى بعض الشىء الذى هو عذاب الله تعالى ويجوز كونهما للتبعيض أى بعض شىء هو بعض عذاب الله والاعراب كما سبق ويجوز أن تكون الأولى مفعولا والثانية مصدراً أى فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الاغناء ويعضد الأول قوله تعالى فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (قَالُوا) أى المستكبرون جوابا عن معاتبة الأتباع واعتذاراً عما فعلوا بهم (لَوْ هَدَانَا اللهُ) أى للايمان ووفقنا له (لَهَدَيْنَاكُمْ) ولكن ضللنا فأضللناكم أى اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناعنكم كما عرضنا كم له ولكن سد دوننا طريق الخلاص ولات حين مناص (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا) مما لقينا (أَمْ صَبَرْنَا) على ذلك أى مستو علينا الجزع والصبر فى عدم الانجاء والهمزة وأم لتأكيد التسوية كما فى قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم وإنما أسندوهما ونسبوا استواءهما إلى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضا مبالغة فى النهى عن التوبيخ باعلام أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم ويجوز أن يكون قوله سواء علينا الخ من كلام الفريقين على منوال قوله تعالى ذلك ليعلم أنى لم أخنه ويؤيده ماروى أنهم يقولون تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك ولما كان عتاب الأتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى فى ذلك فقالوا (مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ) من منجى ومهرب من العذاب من حاص الحمار إذا عدل بالفرار وهو إما اسم مكان كالمبيت والمصيف أو مصدر كالمغيب والمشيب وهى جملة مفسرة لاجمال ما فيه الاستواء فلا محل لها من الإعراب أو حال مؤكدة أو بدل منه (وَقَالَ الشَّيْطٰنُ) الذى أضل كلا الفريقين واستتبعهما عند ما عتباه بما قاله الأتباع للمستكبرين (لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ) أى أحكم وفرغ منه وهو الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيبا فى محفل الأشقياء من الثقلين (إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ) أى وعدا من حقه أن ينجز فأنجزه أو وعدا أنجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء (وَوَعَدْتُكُمْ) أى وعد الباطل وهو أن لا بعث ولا جزاء ولئن كان فالأصنام شفعاؤكم

ولم يصرح ببطلانه لما دل عليه قوله (فأخلفتكم) أى موعدى على حذف المفعول الثانى أى نقضته جعل خلف وعده كلاخلاف منه كأنه كان قادرا على انجازه وأنى له ذلك (وما كان لى عليكم من سلطان) أى تسلط أو حجة تدل على صدق (إلا أن دعوتكم) إلا دعائى إياكم إليه وتسويله وهو وإن لم يكن من باب السلطان لكنه أبرزه فى معرض وزه على طريقة تحية بينهم ضرب وجيع مبالغة فى نفى السلطان عن نفسه كأنه قال إنما يكون لى عليكم سلطان إذا كان مجرد الدعاء من بابه ويجوز كون الاستثناء منقطعا (فاستجبتم لى) فأسرعتم اجابتى (فلا تلوموني) بوعدى إياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والالجاء كما يدل عليه الفاء وقرىء بالياء على وجه الالتفات كما فى قوله تعالى حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم (ولوموا أنفسكم) حيث استجبتم لى باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل بمجرد تزيين وتسويل ولم تستجيبوا ربكم إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج وليس مراده التنصل عن توجه اللائمة اليه بالمرة بل بيان أنهم أحق بها منه وليس فيه دلالة على استقلال العبد فى افعاله كما زعمت المعتزلة بل يكفى فى ذلك أن يكون لقدرته الكاسبة التى عليها يدور فلك التكليف مدخل فيه فانه سبحانه إنما يخلق أفعاله حسبما يختاره وعليه تترتب السعادة والشقاوة وما قيل من أنه يستدعى أن يقال فلا تلومونى ولا أنفسكم فان الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه مبنى على عدم الفرق بين مذهب أهل الحق وبين مسلك الجبرية (ما أنا بمصرخكم) أى بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب (وما أنتم بمصرخى) مما أنا فيه وإنما تعرض لذلك مع أنه لم يكن فى حيز الاحتمال مبالغة فى بيان عدم اصراخه إياهم وإيذانا بأنه أيضا مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج إلى الاصراخ فكيف من اصراخ الغير ولذلك آثر الجملة الاسمية فكان ما مضى كان جوابا منه عن توبيخهم وتقريعهم وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به فى استدفاع ما دهمهم من العذاب وقرىء بكسر الياء (إنى كفرت) اليوم (بما أشركتمونى من قبل) أى باشراككم إياى بمعنى تبرأت منه واستنكرته كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم يعنى أن اشراككم لى بالله سبحانه هو الذى يطمعكم فى نصرتى لكم بأن كان لكم على حق حيث جعلتمونى معبودا وكنت أود ذلك وأرغب فيه فاليوم كفرت بذلك ولم أحمده ولم أقبله منكم بل تبرأت منه ومنكم فلم يبق بينى وبينكم علاقة أو كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه وهو الله تعالى كما فى قوله سبحان ما سخركن لنا فيكون تعليلا لعدم اصراخه فان الكافر بالله سبحانه بمعزل من الاغاثة والاعانة سواء كان ذلك بالمدافعة أو الشفاعة وأما جعله تعليلا لعدم اصراخهم إياه فلا وجه له إذ لا احتمال له حتى يحتاج إلى التعليل ولأن تعليل عدم اصراخهم بكفره يوهم أنهم بسبيل من ذلك لولا المانع من جهته (إن الظالمين لهم عذاب أليم) تتمة كلامه أو ابتداء كلام من جهة الله عز وجل وفى حكاية أمثاله لطف للسامعين وإيقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها باذن ربهم) أى بأمره أو بتوفيقه وهدايته وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة إلى ضميرهم إظهار مزيد اللطف بهم والمدخلون هم الملائكة عليهم السلام وقرىء على صيغة التكلم فيكون قوله تعالى باذن ربهم متعلقا بقوله تعالى (تحيتهم فيها سلام) أى يحييهم الملائكة بالسلام باذن ربهم (ألم تر) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وقد علق بما بعده من قوله تعالى (كيف ضرب الله مثلا) أى كيف اعتمده ووضعه فى موضعه اللائق به (كلمة طيبة) منصوب بمضمر أى جعل كلمة طيبة هى كلمة التوحيد أو كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة (كشجرة طيبة) أى حكم بأنها مثلها لأنه تعالى صيرها مثلها فى الخارج وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا كقولك شرف الأمير زيدا كساه حلة وحمله على فرس ويجوز أن يكون كلمة بدلا من مثلا وكشجرة صفتها أو خبر مبتدا محذوف أى هى كشجرة وأن يكون أول

مفعولى ضرب اجراءله مجرى جعل قد أخر عن ثانيهما أعنى مثلا لئلا يبعد عن صفته التى هى كشجرة وقد قرئت بالرفع على الابتداء (أَصْلُهَا ثَابِتٌ) أى ضارب بعروقه فى الأرض وقرأ أنس بن مالك رضى الله عنه كشجرة طيبة ثابت أصلها وقراءة الجماعة أقوى سبكا وأنسب بقرينته أعنى قوله تعالى (وَفَرْعُهَا) أى أعلاها (فِى السَّمَاءِ) فى جهة العلو ويجوز أن يراد وفروعها على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع (تُؤْتِى أُكُلَهَا) تعطى ثمرها (كُلَّ حِينٍ) وقته الله تعالى لاثمارها (بِإِذْنِ رَبِّهَا) بارادة خالقها والمراد بالشجرة المنعوتة اما النخلة كما روى مرفوعا أو شجرة فى الجنة (وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) لأن فى ضربها زيادة افهام وتذكير فانه تصوير للمعانى بصور المحسوسات (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ) هى كلمة الكفر والدعاء اليه أو تكذيب الحق أو مايعم الكل أو كل كلمة قبيحة (كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ) أى كمثل شجرة خبيثة قيل هى كل شجرة لايطيب ثمرها كالحنظل والكشوث ونحوهما وتغيير الأسلوب للايذان بأن ذلك غير مقصود الضرب والبيان وإنما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد (اجْتُثَّتْ) استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية (مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ) لكون عروقها قريبة منه (مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ) استقرار عليها (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ) الذى ثبت بالحجة عندهم وتمكن فى قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة (فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا) فلايزالون عنه إذا افتتنوا فى دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس وشمسون والذين فتنهم أصحاب الأخدود (وَفِى الآخِرَةِ) فلايتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم فى الموقف ولاتدهشهم أهوال القيامة أو عند سؤال القبر . روى أنه عليه الصلاة والسلام ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم يعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره فيقولان من ربك ومادينك ومن نبيك فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبيى محمد عليه الصلاة والسلام فينادى منادمن السماء انه صدق عبدى فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، وهذا مثال ايتاء الشجرة المذكورة أكلها كل حين قال الثعلبى فى تفسيره أخبرنى أبو القاسم بن حبيب فى سنة ست وثمانين وثلثمائة قال سمعت أبا الطيب محمد بن على الخياط يقول سمعت سهل بن عمار العملى يقول رأيت يزيد بن هرون فى منامى بعد موته فقلت مافعل الله بك قال أتانى فى قبرى ملكان فظان فقالا من ربك ومادينك ومن نبيك فأخذت بلحيتى البيضاء فقلت لهما ألمثلى يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا (وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ) أى يخلق فيهما الضلال عن الحق الذى ثبت المؤمنين عليه حسب ارادتهم واختيارهم والمراد بهم الكفرة بدليل مايقابله ووصفهم بالظلم اما باعتبار وضعهم للشىء فى غير موضعه وإما باعتبار ظلمهم لأنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها فلم يهتدوا إلى القول الثابت أو كل من ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والاعراض عن البينات الواضحة فلا يثبت فى مواقف الفتن ولايهتدى إلى الحق فالمراد بالذين آمنوا حينئذ المخلصون فى الايمان الراسخون فى الايقان كماينبىء عنه التثبيت لكنه يوهم كون كلمة التوحيد إذا كانت لاعن ايقان داخلة تحت مالاقرار له من الشجرة المضروبة مثلا (وَيَفْعَلُ اللهُ مَايَشَاءُ) من تثبيت بعض وإضلال آخرين حسبما توجبه مشيئته التابعة للحكم البالغة المقتضية لذلك وفى إظهار الاسم الجليل فى الموضعين من الفخامة وتربية المهابة مالايخفى مع مافيه من الايذان بالتفاوت فى مبدأ التثبيت والاضلال فان مبدأ صدوركل منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العلا غير ماهو مبدأ صدور الآخر (أَلَمْ تَرَ) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد مماصنع الكفرة من الأباطيل التى لاتكاد تصدر عمن له أدنى إدراك أى ألم تنظر (إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ) أى شكر نعمته تعالى بأن وضعوا موضعه (كُفْرًا) عظيما وغمطا لها أو بدلوا نفس النعمة كفرا فانهم لما كفروها سلبوها فصاروا مستبدلين بها كفرا كأهل مكة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمه الآمن الذى يجبى اليه ثمرات كل شىء وجعلهم قوام بيته وشرفهم بمحمد عليه الصلاة والسلام

فكفر واذلك فقحطوا سبع سنين وقتلوا وأسروا يوم بدر فصاروا أذلاء مسلوبي النعمة باقين بالكفر بدلها وعن عمر وعلى رضى الله عنهما هم الافجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين كأنهما بيناه ولان ماسيتلى من قوله عز وجل قل تمتعوا الآية (وَأَحلُّوا) أى أنزلوا (قَوْمَهُمْ) بارشادهم اياهم إلى طريقة الشرك والضلال وعدم التعرض لحلولهم لدلالة الاحلال عليه إذ هو فرع الحلول كقوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار (دَارَ الْبَوَارِ) دار الهلاك الذى لاهلاك وراءه (جَهَنَّمَ) عطف بيان لها وفى الابهام ثم البيان مالا يخفى من التهويل (يَصْلَوْنَهَا) حال منها أو من قومهم أى داخلين فيها مقاسين لحرها أو استئناف لبيان كيفية الحلول أو مفسر لفعل يقدر ناصبا لجهنم فالمراد بالاحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقتل والأسر لكن قوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار أنسب بالتفسير الأول (وَبِئْسَ الْقَرَارُ) على حذف المخصوص بالذم أى بئس المقر جهنم أو بئس القرار قرارهم فيها وفيه بيان أن حلولهم وصليهم على وجه الدوام والاستمرار (وَجَعَلُوا) عطف على أحلوا وما عطف عليه داخل معهما فى حيز الصلة وحكم التعجيب أى جعلوا فى اعتقادهم وحكمهم (لِلَّهِ) الفرد الصمد الذى ليس كمثله شيء وهو الواحد القهار (أَندَادًا) أشباها فى التسمية أو فى العبادة (لِيُضِلُّوا) قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا (عَنْ سَبِيلِهِ) القويم الذى هو التوحيد ويوقعوهم فى ورطة الكفر والضلال ولعل تغيير الترتيب مع أن مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الأنداد ثم اضلالهم لقومهم المؤدى إلى احلالهم دار البوار لتثنية التعجيب وتكريره والايذان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر واحلال القوم دار البوار واتخاذ الأنداد للاضلال أمر يقضى منه العجب ولو سيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجيب من مجموع الهنات الثلاث كما فى قصة البقرة وقرىء ليضلوا بالفتح وأيا ما كان فليس ذلك غرضا حقيقيا لهم من اتخاذ الأنداد لكن لما كان ذلك نتيجة له شبه بالغرض وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية (قُلْ) تهديدا لأولئك الضالين المضلين ونعيا عليهم وإيذانا بأنهم لشدة إبائهم قبول الحق وفرط انهماكهم فى الباطل وعدم ارعوائهم عن ذلك بحال أحقاء بأن يضرب عنهم صفحا ويعطف عنهم عنان العظة ويخلوا وشأنهم ولا ينهوا عنه بل يؤمروا بمباشرته مبالغة فى التخلية والخذلان ومسارعة إلى بيان عاقبته الوخيمة ويقال لهم (تَمَتَّعُوا) بما أنتم عليه من الشهوات التى من جملتها كفران النعم العظام واستتباع الناس فى عبادة الأصنام (فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) ليس إلا فلا بد لكم من تعاطى ما يوجب ذلك ويقتضيه من أحوالكم بل هى فى الحقيقة صورة لدخولها ومثال له حسبما يلوح به قوله سبحانه وأحلوا قومهم دار البوار الخ فهو تعليل للامر المأمور وفيه من تهديد الشديد والوعيد الأكيد مالا يوصف أو قل لهم تصويرا لحالهم وتعبيرا عما يلجئهم إلى ذلك تمتعوا إيذانا بأنهم لفرط انغماسهم فى التمتع بما هم فيه من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم مأمورون بذلك من قبل آمر الشهوة مذعنون لحكمه منقادون لأمره كدأب مأمور ساع فى خدمة آمر مطاع فليس قوله تعالى فان مصيركم إلى النار حينئذ تعليلا للأمر بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام كأنه قيل هذه حالكم فان دمتم عليه فان مصيركم إلى النار وفيه التهديد والوعيد لا فى الأمر (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا) خصهم بالاضافة اليه تنويها لهم وتنبيها على أنهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقوقها وترك العاطف بين الأمرين للايذان بتباين حالهما باعتبار المقول تهديدا وتشريفا والمقول ههنا محذوف دل عليه الجواب أى قل لهم أقيموا وأنفقوا (يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) أى يداوموا على ذلك وفيه ايذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم وغاية مسارعتهم إلى الامتثال بأوامره وقد جوزوا أن يكون المقول يقيموا وينفقوا بحذف لام الأمر عنهما وإنما حسن ذلك دون الحذف فى قوله :

محمد تفد نفسك كل نفس إذا ماخفت من أمر تبالا

لدلالة قل عليه وقيل هما جوابا أقيموا وأنفقوا قد أقيما مقامهما وليس بذاك (سرًّا وعلانية) منتصبان على المصدرية من الأمر المقدر لا من جواب الأمر المذكور أى أنفقوا انفاق سر وعلانية والأحب فى الانفاق اخفاء المتطوع به واعلان الواجب والمراد حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والمالية وترك التمتع بمتاع الدنيا والركون اليها كما هو صنيع الكفرة (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه) فيبتاع المقصر ما يتلافى به تقصيره أو يفتدى به نفسه والمقصود نفى عقد المعاوضة بالمرة وتخصيص البيع بالذكر للايجاز مع المبالغة فى نفى العقد إذ انتفاء البيع يستلزم انتفاء الشراء على أبلغ وجه وانتفاؤه ربما يتصور مع تحقق الايجاب من قبل البائع (ولا خلال) ولا مخالة فيشفع له خليل أو يسامحه بمال يفتدى به نفسه أو من قبل أن يأتى يوم لا اثر فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالة ولا انتفاع بذلك وإنما الانتفاع والارتفاق فيه بالانفاق لوجه الله سبحانه والظاهر أن من متعلقة بأنفقوا وتذكير اتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه كما فى سورة البقرة من حيث أن كلا من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير معاوضة وتبرعا وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين فى الدنيا وعدم الانتفاع بهما من أقوى الدواعى إلى الاتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الانفاق فى سبيل الله عز وجل أو من حيث أن ادخار المال وترك انفاقه انما يقع غالبا للتجارات والمهاداة فحيث لا يمكن ذلك فى الآخرة فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت وتخصيص التأكيد بذلك لميل الطباع إلى المال وكونها مجبولة على حبه والضنة به ولا يبعد أن يكون تأكيداً لمضمون الأمر باقامة الصلاة أيضا من حيث أن تركها كثيرا ما يكون بالاشتغال بالبياعات والمخالات كما فى قوله تعالى وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وقرىء بالفتح فيهما على إرادة النفى العام ودلالة الرفع على ذلك باعتبار خطابى هو وقوعه فى جواب هل فيه بيع أو خلال (الله) مبتدأ خبره (الذى خلق السموات) وما فيها من الأجرام العلوية (والأرض) وما فيها من أنواع المخلوقات لما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى وأمر المؤمنين باقامة مراسم الطاعة شكراً لنعمه شرع فى تفصيل ما يستوجب على كافة الانام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام والمنن الجسام حثا للمؤمنين عليها وتقريعا للكفرة المخلين بها الواضعين موضعها الكفر والمعاصى وفى جعل المبتدأ الاسم الجليل والخبر الاسم الموصول بتلك الأفاعيل العظيمة من خلق هذه الاجرام العظام وانزال الأمطار واخراج الثمرات وما يتلوها من الآثار العجيبة ما لا يخفى من تربية المهابة والدلالة على قوة السلطان (وأنزل من السماء) أى السحاب فان كل ما علاك سماء أو من الفلك فان المطر منه يبتدىء إلى السحاب ومنه إلى الأرض على ما دلت عليه ظواهر النصوص أو من أسباب سماوية تثير الأجزاء الرطبة من أعماق الأرض إلى الجو فينعقد سحابا ماطرا وأيا ما كان فمن ابتدائية (ماء) أى نوعا منه هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب اما باعتبار كونه مبدأ لنزوله أو لتشريفه كما فى قولك أعطاه السلطان من خزانته مالا أو لما مر مرارا من التشويق إلى المؤخر (فأخرج به) بذلك الماء (من الثمرات) الفائتة للحصر إما لان صيغ الجموع يتعاور بعضها موضع بعض وإما لانه أريد بمفردها جماعة الثمرة التى فى قولك أدركت ثمرة بستان فلان (رزقا لكم) تعيشون به وهو بمعنى المرزوق شامل للمطعوم والملبوس مفعول لأخرج ومن للتبيين كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج بمعنى رزق أو للتبعيض بدليل قوله تعالى فأخرجنا به ثمرات كانه قيل أنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم إذ لم ينزل من السماء كل الماء ولا أخرج بالمطر كل الثمار ولا جعل كل الرزق ثمرا وخروج الثمرات وإن كان بمشيئته عز وجل وقدرته لكن جرت عادته تعالى بافاضة صورها وكيفياتها على المواد الممتزجة من الماء والتراب أو أودع

فى الماء قوة فاعلة وفى الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو قادر على ايجاد الأشياء بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الأسباب كذلك لما أن له تعالى فى انشائها مدرجا من طور إلى طور صنائع وحكما يجدد فيها لأولى الأبصار عبرا وسكونا إلى عظيم قدرته ليس ذلك فى ابداعها دفعة وقوله لكم صفة لقوله رزقا ان أريد به المرزوق ومفعول به ان أريد به المصدر كأنه قيل رزقا إياكم (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ) بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفية ذلك (لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ) جريا تابعا لإرادتكم (بِأَمْرِهِ) بمشيئته التى نيط بها كل شىء وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يتراءى من ظاهر الحال (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) ان أريد بها المياه العظيمة الجارية فى الأنهار العظام كما يومىء اليه ذكرها عند البحر فتسخيرها جعلها معدة لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداول يسقون بها زروعهم وجناتهم وما أشبه ذلك وان أريد بها نفس الأنهار فتسخيرها تيسيرها لهم (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ) يدأبان فى سيرهما وإنارتهما أصالة وخلافة واصلاحهما لما نيط بهما صلاحه من المكونات (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وانضاجها ذكر سبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضة عليهم وأبرز كل واحدة منها فى جملة مستقلة تنويها لشأنها وتنبيها على رفعة مكانها وتنصيصا على كون كل منها نعمة جليلة مستوجبة للشكر وفى التعبير عن التصريف المتعلق بما ذكر من الفلك والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير من الاشعار بما فيهما من صعوبة المأخذ وعزة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدة المحال ما لا يخفى وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدمه من الأمور المعدودة مع ما بينه وبين خلق السموات من المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرها الذكر الأرض المستدعى لذكر انزال الماء منها اليها الموجب لذكر اخراج الرزق الذى من جملته ما يحصل بواسطة الفلك والأنهار أو للتفادى عن توهم كون الكل أعنى خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر نعمة واحدة كما مر فى قصة البقرة (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) أى أعطاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة كقوله سبحانه من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد أو آتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه ونيط به انتظام أحوالكم على الوجه المقدر فكأنكم سألتموه أو كل ما طلبتموه بلسان الاستعداد أو كل ما سألتموه على أن من للبيان وكلمة كل للتكثير كقولك فلان يعلم كل شىء وأتاه كل الناس وعليه قوله عزوجل ففتحنا عليهم أبواب كل شىء وقيل الأصل وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه فحذف الثانى لدلالة ما أبقى على ما ألقى وقرىء بتنوين كل على أن ما نافية ومحل ما سألتموه النصب على الحالية أى آتاكم من كل غير سائليه (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ) التى أنعم بها عليكم (لَا تُحْصُوهَا) لا تطيقوا بحصرها ولو اجمالا فانها غير متناهية وأصل الاحصاء أن الحاسب إذا بلغ عقدا معينا من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظ بها فيه ايذان بعدم بلوغ مرتبة معتد بها من مراتبها فضلا عن بلوغ غايتها كيف لا وما من فرد من أفراد الناس وإن كان فى أقصى مراتب الفقر والافلاس ممنوا بأصناف العنايا مبتلى بأنواع الرزايا فهو بحيث لو تأملته ألفيته متقلبا فى نعم لا تحد ومنن لا تحصى ولا تعد كأنه قد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ما حواه حيطة الامكان وإن كنت فى ريب من ذلك فقدر أنه ملك ملك أقطار العالم ودانت له كافة الامم وأذعنت لطاعته السراة وخضعت لهيبته رقاب العتاة وفاز بكل مرام ونال كل منال وحاز جميع ما فى الدنيا من أصناف الأموال من غير ند يزاحمه ولا شريك يساهمه بل قدر أن جميع ما فيها من حجر ومدر يواقيت غالية ونفائس درر ثم قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أو مطعوم فى حالة بلغت نفسه الحلقوم فهل يشترى وهو فى تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه عن رواه أو شربة ترويه من ظمأه أم يختار الهلاك

فتذهب الأموال والأملاك بغير بدل يبقى عليه ولا نفع يعود اليه كلا بل يبذل لذلك كل ماتحويه اليدان كائنا ماكان وليس فى صفقته شائبة الخسران فاذن تلك اللقمة والشربة خير مما فى الدنيا بألف رتبة مع أنهما فى طرف الثمام ينالهما متى شاء من الليالى والأيام أوقدر أنه قد احتبس عليه النفس فلا دخل منه ماخرج ولا خرج منه ماولج والحين قد حان وأتاه الموت من كل مكان أما يعطى ذلك كله بمقابلة نفس واحد بل يعطيه وهو لرأيه حامد فاذن هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها مع أنه قد أبيح له كل آن من آنات الليالى والأيام حال اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لايكاد يخفى على أحد من العقلاء وإن رمت العثور على حقيقة الحق والوقوف على كل ماجل من السرودق فاعلم أن الإنسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود ومايتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائقة بحيث لو انقطع مابينه وبين العناية الالهية من العلاقة لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار إلا فى مطمورة العدم والبوار ومهاوى الهلاك والدمار لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنه وتقدس فى كل زمان يمضى وكل آن يمر وينقضى من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية مالا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه إلا العليم الخبير وتوضيحه أنه كما لايستحق الوجود ابتداء لايستحقه بقاء وإنما ذلك من جناب المبدأ الأول عز وجل فكما لايتصور وجوده ابتداء مالم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصلى لايتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته مالم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارىء لأن الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبى وأنت خبير بأن مايتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التى هى علله وشرائطه وإن وجب كونها متناهية لوجوب تناهى مادخل تحت الوجود لكن الأمور العدمية التى لها دخل فى وجوده ليست كذلك إذ لااستحالة فى أن يكون لشىء واحد موانع غير متناهية وانما الاستحالة فى دخولها تحت الوجود فارتفاع تلك الموانع التى لاتتناهى أعنى بقاءها على العدم مع إمكان وجودها فى أنفسها فى كل آن من آنات وجوده نعم غير متناهية حقيقة لاادعاء وكذا الحال فى وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداء وبقاء وكذا فى كمالاته التابعة لوجوده فاتضح أنه يفيض عليه كل آن نعم لاتتناهى من وجوه شتى فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك لاتلاحظك العيون بأنظارها ولا تطالعك العقول بأفكارها شأنك لايضاهى وإحسانك لايتناهى ونحن فى معرفتك حائرون وفى اقامة مراسم شكرك قاصرون نسألك الهداية الى مناهج معرفتك والتوفيق لأداء حقوق نعمتك لانحصى ثناء عليك لااله الا أنت نستغفرك ونتوب اليك (إِنَّ الإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ) يظلم النعمة باغفال شكرها أو بوضعه اياها فى غير موضعها أو يظلم نفسه بتعريضها للحرمان (كَفَّارٌ) شديد الكفران وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع واللام فى الانسان للجنس ومصداق الحكم بالظلم والكفران بعض من وجدا فيه من أفراده ويدخل فى ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفرا الخ دخولا أوليا (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ) أى واذكر وقت قوله عليه الصلاة والسلام والمقصود من تذكيره تذكير ماوقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل والمراد به تأكيد ماسلف من تعجيبه عليه السلام ببيان فن آخر من جناياتهم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعدما كفروا بالنعم العامة وعصوا أباهم ابراهيم عليه السلام حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى وسأله تعالى أن يجعله بلدا آمنا ويرزقهم من الثمرات وتهوى قلوب الناس اليهم من كل أوب سحيق فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله أندادا وفعلوا مافعلوا (رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ) يعنى مكة شرفها الله سبحانه (ءَامِنًا) أى ذا أمن أو آمنا أهله بحيث لايخاف فيه على مامر فى سورة البقرة

والفرق بينه وبين ما فيها من قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا أن المسؤول هناك البلدية والامن معا وههنا الامن فقط حيث جعل هو المفعول الثانى للجعل وجعل البلد صفة للمفعول الأول فان حمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل أولا كلا الأمرين فاستجيب له فى أحدهما وتأخر الآخر إلى وقته المقدر لما يقتضيه من الحكمة الداعية اليه ثم كرر السؤال كما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال أو كان المسؤل أولا مجرد الأمن المصحح للسكن كما فى سائر البلاد وقد أجيب اليه وثانيا الامن المعهود أو كان هو المسؤل فيهما وقد أجيب اليه أيضا لكن السؤال الثانى للاستدامة والاقتصار على ذلك لأنه المقصود الأصلى أو لأن المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسؤل كلا الأمرين وقد حكى أولا واقتصر ههنا على حكاية سؤال الأمن لا لمجرد ان نعمة الأمن أدخل فى استيجاب الشكر فذكره أنسب بمقام تقريع الكفرة على إغفاله كما قيل بل لأن سؤال البلدية قد حكى بقوله تعالى فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم إذ المسؤل هويتها اليهم للمساكنة معهم لا للحج فقط وهو عين سؤال البلدية قد حكى بعبارة أخرى وكان ذلك أول ما قدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن اسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها إلى الشام تبعته هاجر وجعلت تقول إلى من تكلنا فى هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت آلله أمرك بهذا فقال نعم قالت إذا لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى إذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى فقال ربنا إنى أسكنت الآية وإنما فصل ما بينهما تثنية للامتنان وإيذانا بأن كلا منهما نعمة جليلة مستتبعة لشكر كثير كما فى قصة البقرة (وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ) بعدنى وإياهم (أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ) واجعلنا منها فى جانب بعيد أى ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الاسلام والبعد عن عبادة الأصنام وقرىء واجنبنى من الأفعال وهما لغة أهل نجد يقولون جنبنى شره وأجنبنى شره وأما أهل الحجاز فية ولون جنبنى شره وفيه دليل على أن عصمة الأنبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى والظاهر أن المراد ببنيه أولاده الصلبية فلا احتجاج به لابن عيينة رضى الله عنه على أن أحدا من أولاد اسمعيل عليه السلام لم يعبد الصنم وإنما كان لكل قوم حجر نصبوه وقالوا هو حجر والبيت حجر فكانوا يدورون به ويسمونه الدوار فاستحب أن يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت وليت شعرى كيف ذهب عليه ما فى القرآن العظيم من قوارع تنعى على قريش عبادة الأصنام على أن فيما ذكره كرا على ما فر منه (رَبِّ إِنَّهُنَّ) أى الأصنام (أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ) أى تسببن له كقوله تعالى وغرتهم الحيوة الدنيا وهو تعليل لدعائه وإنما صدره بالنداء إظهارا لاعتنائه به ورغبة فى استجابته (فَمَنْ تَبِعَنِى) منهم فيما أدعو اليه من التوحيد وملة الاسلام (فَإِنَّهُ مِنِّى) أى بعضى قاله عليه السلام مبالغة فى بيان اختصاصه به أو متصل بى لا ينفك عنى فى أمر الدين (وَمَنْ عَصَانِى) أى لم يتبعنى والتعبير عنه بالعصيان للايذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو لعصيانه لا لأنه لم يبلغه الدعوة (فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) قادر على أن تغفر له وترحمه ابتداء أو بعد توبته وفيه أن كل ذنب فلله تعالى أن يغفره حتى الشرك خلا أن الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره (رَبَّنَا) آثر عليه السلام ضمير الجماعة لا لما قيل من تقدم ذكره وذكر بنيه والإلراعاه فى قوله رب انهن الخ بل لأن الدعاء المصدر به وما أورده بصدد تمهيد مبادى إجابته من قوله (إِنِّى أَسْكَنْتُ) الآية متعلق بذريته فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل فى القبول وإجابة المسؤل (مِنْ ذُرِّيَّتِى) أى بعضهم أو ذرية من ذريتى فحذف المفعول وهو اسمعيل عليه السلام وما سيولد له فان اسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لاسكانهم روى أن هاجر أم اسمعيل عليه السلام كانت لسارة فوهبتها من ابراهيم عليه السلام فلما ولدت له اسمعيل عليه السلام غارت عليهما فناشدته أن يخرجهما

من عندها فاخرجهما إلى أرض مكة فأظهر الله تعالى عين زمزم (بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) لايكون فيه زرع أصلا وهو وادي مكة شرفها الله تعالى (عِندَ بَيْتِكَ) ظرف لأسكنت كقولك صليت بمكة عند الركن لا إنه صفة لواد أو بدل منه إذ المقصود إظهار كون ذلك الاسكان مع فقدان مباديه بالمرة لمحض التقرب إلى الله تعالى والالتجاء إلى جواره الكريم كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الحرمة المؤذن بعزة الملتجأ وعصمته عن المكاره فى قوله تعالى (المُحَرَّمِ) حيث حرم العرض له والتهاون به أولم يزل معظما ممنعا يهابه الجبابرة فى كل عصر أو منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمى عتيقا وتسميته إذ ذاك بيتا ولم يكن له بناء وإنما كان نشزا مثل الرابية تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال ليست باعتبار ماسيؤول اليه الأمر من بنائه عليه السلام فانه ينزع إلى اعتبار عنوان الحرمة أيضا كذلك بل إنما هى باعتبار ما كان من قبل فان تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لاريب فيه وإنما الاختلاف فى كمية عدده وقد ذكرناها فى سورة البقرة بفضل الله تعالى (رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلٰوةَ) متوجهين اليه متبركين به وهو متعلق بأسكنت وتخصيصها بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها وتكرير النداء وتوسيطه لاظهار كمال العناية باقامة الصلاة والاهتمام بعرض أن الغرض من اسكانهم بذلك الوادى البلقع ذلك المقصد الأقصى والمطلب الأسنى وكل ذلك لتمهيد مبادى اجابة دعائه وإعطاء مسؤله الذى لايتسنى ذلك المرام الا به ولذلك أدخل عليه الفاء فقال (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ) أى أفئدة من أفئدتهم فمن للتبعيض ولذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم وأما مازيد عليه من قولهم ولحجت اليهود والنصارى فغير مناسب للمقام إذ المسؤل توجيه القلوب اليهم للمساكنة معهم لا توجيهها إلى البيت للحج والا لقيل تهوى اليه فانه عين الدعاء بالبلدية قد حكى بعبارة أخرى كما مر أو لابتداء الغاية كقولك القلب من سقيم أى أفئدة ناس وقرىء آفدة على القلب كآدر فى أدؤر أو على أنه اسم فاعل من أفدت الرحلة أى عجلت أى جماعة من الناس وأفدة بطرح الهمزة من الافئدة أو على النعت من أفد (تَهْوِي إِلَيْهِمْ) تسرع اليهم شوقا وودادا وقرىء على البناء للمفعول من أهواه غيره وتهوى من باب علم أى تحب وتعديته بالى لتضمنه معنى الشوق والنزوع وأول آثار هذه الدعوة ماروى أنه مرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير تحوم على الجبل فقالوا إن هذا الطائر لعائف على الماء فأشرفوا فأذا هم بهاجر فقالوا لها ان شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك فأذنت لهم وكانوا معها إلى أن شب اسمعيل عليه السلام وماتت هاجر فتزوج اسمعيل منهم كما هو المشهور (وَارْزُقْهُمْ) أى ذريتى الذين أسكنتهم هناك أومع من ينحاز اليهم من الناس وإنما لم يخص الدعاء بالمؤمنين منهم كما فى قوله وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر اكتفاء بذكر اقامة الصلاة (مِّنَ الثَّمَرٰتِ) من أنواعها بأن يجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجبى اليه من الاقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى انه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد. روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا ابراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى رضى الله عنه أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم عليه السلام (لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) تلك النعمة باقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبودية وقيل اللام فى ليقيموا لام الأمر والمراد أمرهم باقامة الصلاة والدعاء من الله تعالى بتوفيقهم لها ولا يناسبه الفاء فى قوله تعالى فاجعل الخ وفى دعائه عليه السلام من مرعاة حسن الأدب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة مالايخفى فانه عليه السلام بذكر كون الوادى غير ذى زرع بين كمال افتقارهم الى المسؤل وبذكر كون اسكانهم عند البيت المحرم أشار الى أن جوار الكريم يستوجب افاضة النعيم وبعرض كون ذلك الاسكان مع

كمال اعوازمرافق المعاش لمحض إقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مهدجميع مبادى اجابة السؤال ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحسن القبول (رَبَّنا إنكَ تعلمُ مَا نخفِى وَمَا نُعلِنُ) من الحاجات وغيرها والمراد بما نخفى مايقابل ما نعلن سواء تعلق به الاخفاء أولا أى تعلم مانظهره ومالا نظهره فان علمه تعالى متعلق بما لايخطر بباله مما فيه من الأحوال الخفية فضلا عن اخفائه وتقديم مانخفى على مانعلن لتحقيق المساواة بينهما فى تعلق العلم بهما على أبلغ وجه فكأن تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن أو لأن مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شىء يعلن إلا وهو قبل ذلك خفى فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية وقصده عليه السلام أن إظهار هذه الحاجات وما هو من مباديها وتتماتها ليس لكونها غير معلومة لك بل إنما هو لإظهار العبودية والتخشع لعظمتك والتذلل لعزتك وعرض الافتقار إلى ما عندك والاستعجال لنيل أياديك وتكرير النداء للمبالغة فى الضراعة والابتهال وضمير الجماعة لأن المراد ليس مجرد علمه تعالى بسره وعلنه بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه بقوله على وجه الاعتراض (وَمَا يَخفَىٰ عَلَى اللهِ مِنْ شَىْءٍ فِى الأرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ) لما أنه العالم بالذات فما من أمر يدخل تحت الوجود كائنا كان فى زمان من الازمان الا ووجوده فى ذاته علم بالنسبة اليه سبحانه وإنما قال وما يخفى على الله الخ دون أن يقول ويعلم ما فى السموات والأرض تحقيقا لما عناه بقوله تعلم ما نخفى من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة إلى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقات وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشىء أى من شىء كائن فيهما أعم من أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما أو على وجه الجزئية منهما أو بيخفى وتقديم الأرض على السماء مع توسيط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا والالتفات من الخطاب إلى اسم الذات المستجمعة للصفات لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم على نهج قوله تعالى ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير والايذان بعمومه لأنه ليس بشأن يختص به أو بمن يتعلق به بل شامل لجميع الأشياء فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لمبدأ الكل وقيل هو من كلام الله عز وجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه وكذلك يفعلون ومن للاستغراق على الوجهين (الحَمْدُ لِلهِ الذِى وَهَبَ لِى عَلَى الكِبَرِ) أى مع كبرى ويأسى عن الولد قيد الهبة به استعظاما للنعمة وإظهارا لشكرها (إسمٰعِيلَ وَإسْحٰقَ) روى أنه ولد له إسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة أو مائة وسبع عشرة سنة (إنَّ رَبِّى) ومالك أمرى (لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) لمجيبه من قولهم سمع الملك كلامه إذا اعتد به وهى من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف إلى مفعوله أو فاعله باسناد السماع إلى دعاء الله تعالى مجازا وهو مع كونه من تتمة الحمد والشكر إذ هو وصف له تعالى بأن ذلك الجميل سنته المستمرة تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة وفيه ايذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله رب هب لى من الصالحين فاقترنت الهبة بقبول الدعوة وتوحيد ضمير المتكلم وإن كان عقيب ذكر هبتهما لما أن نعمة الهبة فائضة عليه خاصة وهما من النعم لا من المنعم عليهم (رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلٰوةِ) مثابرا عليها معدلا لها وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته أيضا حيث قال (وَمِنْ ذُرِّيَّتِى) أى بعضهم من المذكورين ومن يسير سيرتهما من أولادهما للاشعار بأن المقتدى فى ذلك وذريته أتباع له وإن ذكرهم بطريق الاستطرادكما فى قوله ربنا إنى أسكنت الخ فان إسكانه مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن أسكنه إنما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذى هو مخصوص بذريته وإنما خص هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضا منهم لا يكون مقيم الصلاة كقوله تعالى ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك (رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) أى دعائى هذا المتعلق بجعلى وجعل بعض ذريتى مقيمى الصلاة ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الأصنام ولذلك جىء

بضمير الجماعة (رَبَّنا اغْفِرْ لِي) أى مافرط منى من ترك الأولى فى باب الدين وغير ذلك مما لا يسلم منه البشر (وَلِوالِدَيَّ)
وقرىء بالتوحيد ولأبوى وهذا الاستغفار منه عليه السلام إنما كان قبل تبين الأمر له عليه السلام وقيل أراد بوالديه
آدم وحواء وقيل بشرط الاسلام ويرده قوله تعالى الاقول ابراهيم الآية وقد مر فى سورة التوبة نوع تحقيق للمقام
وسيأتى تمامه فى سورة مريم بفضل الله تعالى (وَلِلْمُؤْمِنِينَ) كافة من ذريته وغيرهم وللايذان باشتراك الكل فى الدعاء
بالمغفرة جىء بضمير الجماعة (يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ) أى يثبت ويتحقق محاسبة أعمال المكلفين على وجه العدل استعير
له من ثبوت القائم على الرجل بالاستقامة ومنه قامت الحرب على ساق والمراد ثم ويله وقيل أسند اليه قيام أهله مجازاً أو
حذف المضاف كما فى واسأل القرية واعلم أن ماحكى عنه عليه السلام من الأدعية والاذكار وما يتعلق بها ليس بصادر
عنه على الترتيب المحكى ولا على وجه المعية بل صدر عنه فى أزمنة متفرقة حكى مرتبا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد
ظهور أمره فى الملة وإرشاد الناس اليها والتضرع إلى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنياوية (وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً
عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد تثبيته على ما كان عليه من عدم حسبانه عز وجل
كذلك نحو قوله ولا تكونن من المشركين ونظائره مع ما فيه من الايذان بكونه واجب الاحتراز عنه فى الغاية حتى نهى
عنه من لا يمكن تعاطيه أو نهيه عليه السلام عن حسبانه تعالى تاركا لعقابهم على طريقة العفو والتعبير عنه بذلك للمبالغة فى
النهى والايذان بأن ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم إذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لا محالة فتركه
لو كان لكان للغفلة عما يوجبه من أعمالهم الخبيثة وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعد له أكيد ووعيد للكفرة
وسائر الظالمين شديد أو لكل أحد ممن يستعجل عذابهم أو يتوهم إهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بامهاله وقيل
معناه لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرا وقطميرا
والمراد بالظالمين أهل مكة ممن عدت مساويهم من تبديل نعمة الله تعالى كفراً واحلال قومهم دار البوار واتخاذ
الأنداد كما يؤذن به التعرض لحكمة التأخير المنبىء عنه قوله تعالى قل تمتعوا الآية أو جنس الظالمين وهم داخلون
فى الحكم دخولا أوليا (إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ) يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنياوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما
يشاهد وهو استئناف وقع تعليلا للنهى السابق أى دم على ما كنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلا عن
أعمالهم ولا تحزن بتأخير ما تستوجبه من العذاب الأليم إذ تأخيره للتشديد والتغليظ أو لا تحسبنه تعالى تاركا لعقوبتهم
لما ترى من تأخيرها إنما ذلك لأجل هذا أو لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لما ترى
من التأخير إنما هو لهذه الحكمة وقرىء بالنون وإيقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر إنما هو عذابهم لتهويل الخطب
وتفظيع الحال ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مرصدون لأمر ما لا أنهم باقون باختيارهم وللدلالة على أن
حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة وأن لا يبقى منهم فى الوجود عين ولا أثر وللايذان بأن المؤخر له من جملة
العذاب وعنوانه ولو قيل إنما يؤخر عذابهم الخ لما فيهم ذلك (لِيَوْمٍ) هائل (تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ) ترتفع أبصار
أهل الموقف فيدخل فى زمرتهم الكفرة المعهودون دخولا أوليا أى تبقى مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول
ما يرونه واعتبار عدم قرارها فى أماكنها إما باعتبار الارتفاع الحسى فى جرم العين وإما بجعل الصيغة من شخص
من بلد إلى بلد وسار فى ارتفاع (مُهْطِعِينَ) مسرعين إلى الداعى مقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع أو
مقبلين بأبصارهم عليه لا يقلعون عنه ولا يطوفون هيبة وخوفا وحيث كان ادامة النظر ههنا بالنظر إلى الداعى قيل
(مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ) أى رافعيها مع إدامة النظر من غير التفات إلى شىء قاله العتبى وابن عرفة أو ناكسيها ويقال

أقنع رأسه أى طأطأها و نكسها فهو من الاضداد وهما حالان بما دل عليه الابصار من أصحابها أو الثانى حال متداخلة من الضمير فى الأول وإضافته غير حقيقية فلا ينافى الحالية (لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) أى لا يرجع اليهم تحريك أجفانهم حسبما كان يرجع اليهم كل لحظة بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف أو لا ترجع اليهم أجفانهم التى هى آلة الطرف فيكون إسناد الرجوع إلى الطرف مجازيا أو هو نفس الجفن قال الفيروزابادى الطرف العين لا يجمع لانه مصدر فى الأصل أو اسم جامع للعين أو لا يرجع نظرهم إلى أنفسهم فضلا عن أن يرجع إلى شىء آخر فيبقون مبهوتين وهو أيضا حال أو بدل من مقنعى الخ أو استئناف والمعنى لا يزول ما اعتراهم من شخوص الأبصار وتأخيره عمن هو من تتمته من الاهطاع والاقناع مع ما بينه وبين الشخوص المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى (وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهش كأنها نفس الهواء الخالى من كل شاغل ومنه قيل للجبان والأحمق قلبه هواء أى لا قوة ولا رأى فيه واعتبار خلوها عن كل خير لا يناسب المقام وهو اما حال عاملها لا يرتد مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدم ارتداد طرفهم بلا فهم ولا اختيار أو جملة مستقلة (وَأَنْذِرِ النَّاسَ) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اعلامه أن تأخيرهم لماذا أمر له بانذارهم وتخويفهم منه والمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر اتيان العذاب والعدول اليه من الاضمار للاشعار بأن المراد بالانذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للازعاج والإيذاء فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم أو الناس جميعا فان الانذار عام للفريقين كقوله تعالى إنما تنذر من اتبع الذكر والاتيان يعمهما من حيث كونهما فى الموقف وإن كان لحوقه بالكفار خاصة أى أنذرهم وخوفهم (يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) المعهود وهو اليوم الذى وصف بما لا يوصف من الأوصاف الهائلة أعنى يوم القيامة وقيل هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ويأباه القصر السابق (فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى فيقولون والعدول عنه إلى ما عليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بأن ما لقوه من الشدة إنما هو لظلمهم وإيثاره على صيغة الفاعل حسبما ذكر أولا للايذان بأن الظلم فى الجملة كاف فى الافضاء إلى ما ذكر من الأهوال من غير حاجة إلى الاستمرار عليه كما ينبىء عنه صيغة الفاعل وعلى تقدير كون المراد بالناس من يعم المسلمين أيضا فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار أو يقول كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم من الامم الخالية فان اتيان العذاب يعمهم كما يشعر بذلك وعدهم باتباع الرسل (رَبَّنَا أَخِّرْنَا) ردنا إلى الدنيا وأمهلنا (إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) إلى أمد وحد من الزمان قريب (نُجِبْ دَعْوَتَكَ) أى الدعوة اليك وإلى توحيدك أو دعوتك لنا على ألسنة الرسل ففيه إيماء إلى أنهم صدقوهم فى أنهم مرسلون من عند الله تعالى (وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ) فيما جاؤنا به أى نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة الدعوة واتباع الرسل والجمع إما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد وكون عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصيانا لهم جميعا واما باعتبار أن المحكى كلام ظالمى الامم جميعا والمقصود بيان وعد كل أمة باتباع رسولها (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ) على اضمار القول معطوفا على فيقول أى فيقال لهم توبيخا وتبكيتا ألم تؤخروا فى الدنيا ولم تكونوا أقسمتم إذ ذاك بألسنتكم بطرا وأشرا وجهلا وسفها (مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنياوية أو بألسنة الحال حيث بنيتم مشيدا وأملتم بعيدا ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال منها إلى هذه الحالة وفيه إشعار بامتداد زمان التأخير وبعد مداه أو ما لكم من زوال من هذه الدار إلى دار أخرى للجزاء كقوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت وصيغة الخطاب فى جواب القسم لمراعاة حال الخطاب فى أقسمتم كما فى قوله حلف بالله ليخرجن وهو أدخل فى التوبيخ من أن يقال ما لنا مراعاة لحال المقسم ذكر البيهقى عن محمد بن كعب القرظى أنه قال لأهل النار

خمس دعوات يجيبهم الله تعالى فى أربع منها فاذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل فيجيبهم الله تعالى ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ثم يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون فيجيبهم الله تعالى فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا الآية ثم يقولون ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل فيجيبهم الله تعالى أولم تكونوا أقسمتم الآية ثم يقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل فيجيبهم الله تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين فيجيبهم الله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون فلا يتكلمون بعدها أبدا ان هو إلا زفير وشهيق وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم اللهم انا بك نعوذ وبكنفك نلوذ عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك (وَسَكَنتُمْ) من السكنى بمعنى التبوؤ والايطان وإنما استعمل بكلمة فى حيث قيل (فى مَسٰكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ) جريا على الأصل لأنه منقول عن مطلق السكون الذى حقه التعدية بها أو من السكون واللبث أى قررتم فى مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتهم فى الظلم بالكفر والمعاصى غير محدثين لأنفسك بما لقوا بسبب ما اجترحوا من الموبقات وفى إيقاع الظلم على أنفسهم بعد إطلاقه فيما سلف ايذان بأن غائلة الظلم آئلة إلى صاحبه والمراد بهم إما جميع من تقدم من الأمم المهلكة على تقدير اختصاص الاستمهال والخطاب السابق بالمنذرين وأما أوائلهم من قوم نوح وهود على تقدير عمومهما للكل وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم (وَتَبَيَّنَ لَكُمْ) بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار (كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ) من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد وكيف منصوب بما بعده من الفعل وليس الجملة فاعلا لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله ما دلت هى عليه دلالة واضحة أى فعلنا العجيب بهم وفيه من المبالغة ما ليس فى أن يقال ما فعلنا بهم كما مر فى قوله تعالى ليسجننه وقرىء ونبين (وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ) أى بينا لكم فى القرآن العظيم على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين أو على ألسنة الأنبياء عليهم السلام على تقدير عمومه لجميع الظالمين صفات ما فعلوا وما فعل بهم من الأمور التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم ومآلكم على مآلهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل إلى حلول العذاب الآجل فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصى أو بينا لكم أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب والجمل الثلاث فى موقع الحال من ضمير أقسمتم أى اقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم فى مساكن المهلكين بظلمهم وتبين لكم فعلنا العجيب بهم ونبهناكم على جلية الحال بضرب الأمثال وقوله عز وجل (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ) حال من الضمير الأول فى فعلنا بهم أو من الثانى أو منهما جميعا وإنما قدم عليه قوله تعالى وضربنا لكم الأمثال لشدة ارتباطه بما قبله أى فعلنا بهم ما فعلنا والحال أنهم قد مكروا فى ابطال الحق وتقرير الباطل مكرهم العظيم الذى استفرغوا فى عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لا يقدر عليه غيرهم فالمراد بيان تناهيهم فى استحقاق ما فعل بهم وقد مكروا مكرهم المذكور فى ترتيب مبادى البقاء ومدافعة أسباب الزوال فالمقصود إظهار عجزهم واضمحلال قدرتهم وحقارتها عند قدرة الله تعالى (وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ) أى جزاء مكرهم الذى فعلوه على أن المكر مضاف إلى فاعله أو أخذه تعالى بهم على أنه مضاف إلى مفعوله وتسميته مكرا لكونه بمقابلة مكرهم وجودا وذكرا أو لكونه فى صورة المكر فى الاتيان من حيث لا يشعرون وعلى التقديرين فالمراد به ما أفاده قوله عز وجل كيف فعلنا بهم لا أنه وعيد مستأنف والجملة حال من الضمير فى مكروا أى مكروا مكرهم وعند الله جزاؤه أو ما هو أعظم منه والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلا مع تحقق ما يوجب تركه (وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ) فى العظم والشدة (لِتَزُولَ

مِنهُ الجِبالُ) أى وإن كان مكرهم فى غاية المتانة والشدة وعبر عن ذلك بكونه مسوى ومعدا لإزالة الجبال عن مقارها لكونه مثلا فى ذلك والجملة المصدرة بأن الوصلية معطوفة على جملة مقدرة والمعنى وعندالله جزاء مكرهم أو المكر الذى يحيق بهم إن لم يكن مكرهم لتزول منه الجبال وإن كان الخ. قد حذف ذلك حذفا مطردا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة فان الشىء إذا تحقق عند وجود المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى ان الوصلية من التأكيد المعنوى والجواب محذوف دل عليه ما سبق وهو قوله تعالى وعندالله مكرهم وقيل ان نافية واللام لتأكيدها كما فى قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وينصره قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وما كان مكرهم فالجملة حينئذ حال من الضمير فى مكروا لا من قوله تعالى وعندالله مكرهم أى مكروا مكرهم والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال على أنها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدى الرسل السالفة عليهم السلام التى هى بمنزلة الجبال الراسيات فى الرسوخ وأما كونها عبارة عن أمر النبى صلى الله عليه وسلم وأمر القرآن العظيم كما قيل فلا مجال له اذ الماكرون هم المهلكون لا الساكنون فى مساكنهم من المخاطبين وان خص الخطاب بالمنذرين وقيل هى مخففة من أن والمعنى أنه كان مكرهم ليزول منه ما هو كالجبال فى الثبات مما ذكر من الآيات والشرائع والمعجزات والجملة كما هى حال من ضمير مكروا أى مكروا مكرهم المعهود وإن الشان كان مكرهم لإزالة الآيات والشرائع على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك وكان شأن الآيات والشرائع مانعا من مباشرة المكر لازالته وقد قرأ الكسائى لتزول بفتح اللام على أنها الفارقة والمعنى تعظيم مكرهم فالجملة حال من قوله تعالى وعندالله مكرهم أى عنده تعالى جزاء مكرهم أو المكر بهم والحال أن مكرهم بحيث تزول منه الجبال أى فى غاية الشدة وقرىء بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كى وقرىء وإن كاد مكرهم هذا هو الذى يقتضيه النظم الكريم وينساق اليه الطبع السليم وقد قيل ان الضمير فى مكروا للمنذرين والمراد بمكرهم ما أفاده قوله عز وجل وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك الآية وغيره من أنواع مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل الوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى وقد مكروا الخ حالا من القول المقدر أى فيقال لهم ما يقال والحال أنهم مع ما فعلوا من الاقسام المذكور مع ما ينافيه من السكون فى مساكن المهلكين وتبين أحوالهم وضرب الأمثال قد مكروا مكرهم العظيم أى لم يكن الصادر عنهم مجرد الاقسام الذى وبخوا به بل اجترؤا على مثل هذه العظيمة وقوله تعالى وعندالله مكرهم حال من ضمير مكروا حسبما ذكرنا من قبل وقوله تعالى وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال مسوق لبيان عدم تفاوت الحال فى تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويا أو ضعيفا كما مر هناك وعلى تقدير كون ان نافية فهو حال من ضمير مكروا والجبال عبارة عن أمر النبى صلى الله عليه وسلم أى وقد مكروا والحال أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائع والآيات التى هى فى القوة كالجبال وعلى تقدير كونها مخففة من الثقيلة واللام مكسورة يكون حالا منه أيضا على معنى أن ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرض على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك لما أن شأن الشرائع أعظم من أن يمكر بها ماكر وعلى تقدير فتح اللام فهو حال من قوله تعالى وعندالله مكرهم كما ذكرنا من قبل فليتأمل (فَلا تَحسَبَنَّ اللهَ مُخلِفَ وَعدِهِ رُسُلَهُ) لم يرد به والله سبحانه أعلم ما وعده بقوله تعالى انا لننصر رسلنا الآية وقوله كتب الله لأغلبن أنا ورسلى كما قيل فانه لا اختصاص له بالتعذيب لا سيما الأخروى بل ما سلف آنفا من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى إنما يؤخرهم الآية كما يفصح عنه الفاء الداخلة على النهى الذى أريد به تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقن بانجاز وعده المذكور المقرون بالأمر بانذارهم يوم اتيان العذاب المتضمن لذكر تعذيب الأمم السالفة بسبب كفرهم وعصيانهم رسلهم بعدما وعدهم بذلك كما فصلت قصة كل منهم فى القرآن العظيم فكأنه قيل واذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من

الشدائد وبما يسألونه من الرد إلى الدنيا وبما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم فى أحوال من سبقهم من الأمم الذين أهلكناهم
بظلمهم بعد ما وعدنا رسلهم باهلاكهم فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم اخلافنا رسلنا وعدنا (إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ) غالب
لا يماكر وقادر لا يقادر (ذُو ٱنتِقَامٍ) لأوليائه من أعدائه والجملة تعليل للنهى المذكور وتذييل له وحيث كان الوعد
عبارة عما ذكرنا من تعذيبهم خاصة لم يذيل بأن يقال ان الله لا يخلف الميعاد بل تعرض لوصف العزة والانتقام المشعرين
بذلك المراد بالانتقام ما أشير اليه بالفعل وعبر عنه بالمكر (يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ) ظرف لمضمر
مستأنف ينسحب عليه النهى المذكور أى ينجزه يوم الخ أو معطوف عليه نحو وارتقب يوم تبدل الأرض غير الأرض أو
لانتقام وهو يوم يأتيهم العذاب بعينه ولكن له أحوال جمة يذكر كل مرة بعنوان مخصوص والتقييد به مع عموم انتقامه
للأوقات كلها للافصاح عما هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخر إلى ذلك اليوم بموجب الحكمة الداعية اليه وقيل بدل
من يوم يأتيهم العذاب أو نصب باذكر أو باضمار لا يخلف وعده يوم تبدل الخ وفيه أيضا ما فى الوجه الثالث من الحاجة إلى
الاعتذار ولا يجوز أن ينتصب بقوله مخلف وعده لأن ما قبل ان لا يعمل فيما بعده وقيل هو غير مانع لان قوله تعالى ان
الله عزيز ذو انتقام جملة اعتراضية فلا يبالى بها فاصلا واعلم أن التبديل قد يكون فى الذات كما فى بدلت الدراهم دنانير
وعليه قوله عز وجل بدلناهم جلودا غيرها وقد يكون فى الصفات كما فى قولك بدلت الحلقة خاتما إذا غيرت شكلها
ومنه قوله تعالى يبدل الله سيئاتهم حسنات على بعض الأقوال والآية الكريمة ليست بنص فى أحد الوجهين فعن على
رضى الله عنه تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب وعن ابن مسعود رضى الله عنه تبدل الأرض بأرض كالفضة
بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الأرض وإنما تغير صفاتها وأنشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ... وما الدار بالدار التى كنت تعلم

وتبدل السموات بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا ويدل عليه ما روى أبو هريرة
رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال تبدل الأرض غير الأرض فتبسط وتمد مد الاديم العكاظى لا ترى فيها عوجا
ولا أمتا (وَٱلسَّمَٰوَٰتُ) أى وتبدل السموات غير السموات حسبما مر من التفصيل وتقديم تبديل الأرض لقربها منا
ولكون تبديلها أعظم أثرا بالنسبة الينا (وَبَرَزُوا) أى الخلائق أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السباق والمراد
بروزهم من أجداثهم التى فى بطون الأرض أو ظهورهم بأعمالهم التى كانوا يعملونها سرا ويزعمون أنها لا تظهر أو يعملون
عمل من يزعم ذلك ولعل اسناد البروز اليهم مع أنه لأعمالهم للايذان بتشكلهم بأشكال تناسبها وهو معطوف على تبدل
والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه أو حال من الأرض بتقدير قد والرابط بينها وبين صاحبها الواو
(لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ) للحساب والجزاء والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة واظهار بطلان الشرك وتحقيق
الانتقام فى ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفا له وتحقيق إتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلا من يوم يأتيهم العذاب
فان الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يغار وقادر لا يضار ولا يغار كان فى غاية ما يكون من الشدة والصعوبة (وَتَرَى
ٱلْمُجْرِمِينَ) عطف على برزوا والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة أو للدلالة على الاستمرار وأما البروز فهو
دفعى لا استمرار فيه وعلى تقدير حالية برزوا فهو معطوف على تبدل ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدم على تقدير
كونه ينجزه (يَوْمَئِذٍ) يوم إذ برزوا له عز وجل أو يوم إذ تبدل الأرض أو يوم إذ ينجز وعده (مُّقَرَّنِينَ) قرن بعضهم مع
بعض حسب اقترانهم فى الجرائم والجرائر أو قرنوا مع الشياطين الذين أغووهم أو قرنوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغة
والملكات الردية والأعمال السيئة غب تصور كل منها وتشكلها بما يناسبها من الصور الموحشة والاشكال الهائلة أو قرنت

أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم وهو حال من المجرمين (في الأصفاد) في القيود أو الاغلال وهو اما متعلق بقوله تعالى
مقرنين أو حال من ضميره أي مصفدين (سرابيلهم) أي قمصانهم (من قطران) جملة من مبتدا وخبر محلها النصب على
الحالية من المجرمين أو من ضميرهم في مقرنين رابطتها الضمير فقط كما في كلمته فوه إلى في أو مستأنفة والقطران ما يتحلب
من الابهل فيطبخ فتهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بما فيه من الحدة الشديدة وقد تصل حرارته إلى الجوف وهو
أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار يطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل ليجتمع عليهم الألوان الأربعة
من العذاب لذعه وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الموحش والنتن على أن التفاوت بينه وبين ما نشاهده وبين
النارين لا يكاد يقادر قدره فكأن ما نشاهده منهما أسماء مسمياتها في الآخرة فبكرمه العميم نعوذ وبكنفه الواسع نلوذ
ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الردية والهنات الوحشية فتجلب اليها الآلام والغموم
بل وان يكون القطران المذكور عين ما لابسوه في هذه النشأة وجعلوه شعارا لهم من العقائد الباطلة والأعمال السيئة
المستجلبة لفنون العذاب قد تجسدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبعة لاشتداد العذاب عصمنا الله سبحانه عن
ذلك بمنه ولطفه وقرىء من قطر آن أي نحاس مذاب متناه حره (وتغشى وجوههم النار) أي تعلوها وتحيط بها
النار التي تمس جسدهم المسربل بالقطران وتخصيص الوجوه بالحكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعز
الأعضاء الظاهرة وأشرفها كقوله تعالى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب الخ ولكونها مجمع المشاعر والحواس التي خلقت
لادراك الحق وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها في تدبره كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد ملؤها
بالجهالات ولذلك قيل تطلع على الافئدة أو لخلوها عن القطران المغني عن ذكر غشيان النار لها ولعل تخليتها عنه ليتعارفوا
عند انكشاف اللهب أحيانا ويتضاعف عذابهم بالخزي على رؤس الاشهاد وقرىء وتغشى أي تتغشى بحذف إحدى
التاءين والجملة نصب على الحالية لا على أن الواو حالية لأنه مضارع مثبت بل على أنها معطوفة على الحال قاله أبو البقاء
(ليجزي الله) متعلق بمضمر أي يفعل بهم ذلك ليجزي (كل نفس) مجرمة (ما كسبت) من أنواع الكفر
والمعاصي جزاء موافقا لعملها وفيه ايذان بأن جزاءهم مناسب لأعمالهم أو بقوله برزوا على تقدير كونه معطوفا على تبدل
والضمير للخلق وقوله ترى المجرمين الخ اعتراض بين المتعلق والمتعلق به أي برزوا للحساب ليجزي الله كل نفس
مطيعة أو عاصية ما كسبت من خير أو شر وقد اكتفى بذكر عقاب العصاة تعويلا على شهادة الحال لا سيما مع ملاحظة
سبق الرحمة الواسعة (إن الله سريع الحساب) إذ لا يشغله شأن عن شأن فيتمه في أعجل ما يكون من الزمان فيوفي
الجزاء بحسبه أو سريع المجيء يأتي عن قريب أو سريع الانتقام كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وهو
سريع الحساب (هذا) أي ما ذكر من قوله سبحانه ولا تحسبن الله غافلا إلى قوله سريع الحساب (بلاغ) كفاية
في العظة والتذكير من غير حاجة إلى ما انطوى عليه السورة الكريمة أو كل القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع
(للناس) للكفار خاصة على تقدير اختصاص الانذار بهم في قوله تعالى وأنذر الناس أو لهم وللمؤمنين كافة على تقدير
شموله لهم أيضا وان كان ما شرح مختصا بالظالمين (ولينذروا به) عطف على مقدر واللام متعلقة بالبلاغ أي كفاية
لهم في أن ينصحوا وينذروا به أو هذا بلاغ لهم ليفهموه ولينذروا به على أن البلاغ بمعنى الابلاغ كما في قوله تعالى ما على
الرسول الا البلاغ أو متعلقة بمحذوف أي ولينذروا به أنزل أو تلي وقرىء لينذروا به من نذر بالشيء إذا علمه وحذره
واستعد له (وليعلموا) بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحة التي هي اهلاك الامم واسكان آخرين مساكنهم وغيرهما
مما سبق ولحق (أنما هو إله واحد) لا شريك له وتقديم الانذار لانه الداعي إلى التأمل المؤدي إلى ما هو غاية له

من العلم المذكور والتذكر فى قوله تعالى (وَلِيَذَّكَّرَ أُولُواْ الأَلْبَٰبِ) أى ليتذكروا ما كانوا يعملونه من قبل من التوحيد وغيره من شئون الله عز وجل ومعاملته مع عباده فيرتدعوا عما يرديهم من الصفات التى يتصف بها الكفار ويتدرعوا بما يحظيهم من العقائد الحقة والأعمال الصالحة وفى تخصيص التذكر بأولى الألباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار اليه بهذا ما ذكرنا من القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها وعلى ماسيق للمؤمنين أيضا فان فيه مايفيدهم فائدة جديدة وحيث كان مايفيده البلاغ من التوحيد ومايترتب عليه من الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمرا حادثا وبالنسبة إلى أولى الألباب الثبات على ذلك حسبما أشير اليه عبر عن الأول بالعلم وعن الثانى بالتذكر وروعى ترتيب الوجود مع مافيه من الختم بالحسنى والله سبحانه أعلم ختم الله لنا بالسعادة والحسنى ورزقنا الفوز بمرضاته فى الأولى والعقبى آمين . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ابراهيم أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الاصنام ومن لم يعبد والحمد لله وحده .

سـورة الحجر

(مكية وهى تسع وتسعون آية)

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

(الٓر) قدم الكلام فيه وفى محله فى مطلع سورة الرعد وأخواتها (تِلْكَ) إشارة اليه أى تلك السورة العظيمة الشان (ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ) الكامل المعهود الغنى عن الوصف به المشهور بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به على الاطلاق أى بعض منه مترجم مستقل باسم خاص فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل إذ ذاك إذ هو المتسارع إلى الفهم حينئذ عند الاطلاق وعليه يترتب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت اليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارة عن السورة إذ هى فى الاتصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يستغنى عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك إشارة إلى كل واحدة منها وفيه من التكلف مالا يخفى كما ذكر فى سورة الرعد (وَقُرْءَانٍ) أى قرآن عظيم الشأن (مُّبِينٍ) مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والأحكام أو لسبيل الرشد والغى أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام ولقد فخم شأنه العظيم مع ماجمع فيه من وصفى الكتابية والقرآنية على الطريقتين احداهما اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الالهية فكأنه كلها والثانية طريقة كونه ممتازا عن غيره نسيج وحده بديعا فى بابه خارجا عن دائرة البيان وأخرت الطريقة الثانية لما أن الاشارة إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل فى المدح كيلا يتوهم من أول الأمر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصة به من غير اشتمال على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة وهكذا الكلام فى فاتحة سورة النمل خلا أنه قدم فيها القرآن على الكتاب لما سيذكر هناك ولما بين كون السورة الكريمة بعضا من الكتاب والقرآن لتوجيه المخاطبين إلى حسن تلقى مافيها من الأحكام والقصص والمواعظ شرع فى بيان ماتتضمنه فقيل (رُّبَمَا) بضم الراء وتخفيف الباء المفتوحة وقرىء بالتشديد وبفتح الراء مخففا وبزيادة التاء مشددا وفيه ثمان لغات فتح الراء وضمها مشددا ومخففا وبزيادة التاء أيضا مشددا ومخففا ورب حرف جر لا يدخل الا على الاسم وما كافة مصححة لدخوله على الفعل وحقه الدخول على الماضى ودخوله على قوله تعالى (يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ) لما أن المترقب فى أخباره تعالى كالماضى المقطوع فى تحقق الوقوع فكأنه قيل ربما ود الذين كفروا والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن وبكونه من عند الله تعالى

(لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) منقادين لحكمه ومذعنين لأمره وفيه إيذان بأن كفرهم إنما كان بالجحود بعد ما علموا كونه
من عند الله تعالى وتلك الودادة يوم القيامة أو عند موتهم أو عند معاينة حالهم وحال المسلمين أو عند رؤيتهم خروج
عصاة المسلمين من النار روى أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه قال النبى صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم القيامة
واجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله تعالى من أهل القبلة قال لهم الكفار ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم
إسلامكم وقد صرتم معنا إلى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغضب الله سبحانه لهم بفضل رحمته فيأمر بكل من
كان من أهل القبلة فى النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وروى مجاهد عن ابن عباس رضى
الله عنهما أنه قال لا يزال الرب يرحم ويشفع اليه حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فعند ذلك يتمنون
الاسلام والحق أن ذلك محمول على شدة ودادتهم وأما نفس الودادة فليست بمختصة بوقت دون وقت بل هى مقررة
مستمرة فى كل آن يمر عليهم وأن المراد بيان ذلك على ما هو عليه من الكثرة وإنما جىء بصيغة التقليل جريا على سنن
العرب فيما يقصدون به الافراط فيما يعكسون عنه تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب
فارس عندى أو لا تعدم عندى فارسا وعنده مقانب جمة من الكتائب وقصده فى ذلك التمارى فى تكثير فرسانه
ولكنه يريد إظهار براءته من التزيد وإبراز أنه ممن يقلل لعلو الهمة كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وهذه
طريقة إنما تسلك إذا كان الأمر من الوضوح بحيث لا يحوم حوله شائبة ريب فيصار اليه هضما للحق فدل النظم الكريم
على ودادة الكافرين للاسلام فى كل آن من آنات اليوم الآخر وأن ذلك من الظهور بحيث لا يشتبه على أحد ولو جىء
بكلام يدل على ضده وعلى أن تلك الودادة مع كثرتها فى نفسها مما يستقل بالنسبة إلى جناب الكبرياء وهذا هو الموافق
لمقام بيان حقارة شأن الكفار وعدم الاعتداد بما هم فيه من الكفر والتكذيب كما ينطق به قوله تعالى ذرهم يأكلوا
الآية أو ذهابا إلى الاشعار بان من شأن العاقل إذا عن له أمر يكون مظنون الحمد أو قليلا ما يكون كذلك أن لا يفارقه
ولا يقارف ضده فكيف إذا كان متيقن الحمد كما فى قولهم لعلك ستندم على ما فعلت وربما ندم الانسان على ما فعل فان
المقصود ليس بيان كون الندم مرجو الوجود بلا تيقن به أو قليل الوقوع بل التنبيه على أن العاقل لا يباشر ما يرجى فيه
الندم أو يقل وقوعه فيه فكيف بقطعى الوقوع وأنه يكفى قليل الندم فى كونه حاجزا عن ذلك الفعل فكيف كثيره
والمقصود من سلوك هذه الطريقة إظهار الترفع والاستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره فالمعنى لو كانوا
يودون الاسلام مرة واحدة لوجب عليهم أن لا يفارقوه فكيف وهم يودونه كل آن وهذا أوفق بمقام استنزالهم عما هم
عليه من الكفر وهذان طريقان متمايزان ذاتا ومقاما فمن ظنهما واحدا فقد نأى عن توفية المقام حقه (ذَرْهُمْ) دعهم
عن النهى عما هم عليه بالتذكرة والنصيحة إذ لا سبيل الى ارعوائهم عن ذلك وبالغ فى تخليتهم وشأنهم بل مرهم بتعاطى
ما يتعاطونه (يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا) بدنياهم وفى تقديم الأكل إيذان بان تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل
والمشارب والمراد دوامهم على ذلك لا احداثه فانهم كانوا كذلك أو تمتعهم بلا استماع ما ينغص عيشهم من القوارع
والزواجر فان التمتع على ذلك الوجه أمر حادث يصلح أن يكون مترتبا على تخليتهم وشأنهم (وَيُلْهِهِمُ) ويشغلهم عن اتباعك
أو عن التفكر فيما هم يصيرون اليه أو عن الايمان والطاعة فان الأكل والتمتع يفضيان إلى ذلك (الأَمَلُ) والتوقع لطول
الأعمار وبلوغ الأوطار واستقامة الأحوال وأن لا يلقوا فى العاقبة والمآل إلا خيرا فالأفعال الثلاثة مجزومة على الجوابية
للأمر حسبما عرفت من تضمن الأمر بالترك للأمر بها على طريقة المجاز أو على أن يكون المراد بالأفعال المرقومة مباشرتهم
لها غافلين عن وخامة عاقبتها غير سامعين لسوء مغبتها أصلا ولا ريب فى ترتب ذلك على الأمر بالترك فان النهى عما هم

عليه من ارتكاب القبائح بما يشوش عليهم تمتعهم وينغص عليهم عيشهم فأمر عليه السلام بتركه ليتمرغوا فيما هم فيه من حظوظهم فيدهمهم ما يدهمهم وهم عنه غافلون (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) سوء صنيعهم أو وخامة عاقبته أو حقيقة الحال التى ألجأتهم إلى التمنى المذكور حيث لم يعلموا ذلك من جهتك وهو مع كونه وعيداً أيما وعيد وتهديداً غب تهديد تعليل للامر بالترك فان علمهم ذلك علة لترك النهى والنصيحة لهم وفيه الزام للحجة ومبالغة فى الانذار اذ لا يتحقق الأمر بالضد إلا بعد تكرر الانذار وتقرر الجحود والانكار وكذلك ما ترتب عليه من الأكل والتمتع والالهاء (وَمَا أَهْلَكْنَا) شروع فى بيان سر تأخير عذابهم إلى يوم القيامة وعدم نظمهم فى سلك الامم الدارجة فى تعجيل العذاب أى ما أهلكنا (مِنْ قَرْيَةٍ) من القرى بالخسف بها وبأهلها كما فعل ببعضها أو باخلائها عن أهلها غب اهلاكهم كما فعل بآخرين (إِلاَّ وَلَهَا) فى ذلك الشأن (كِتَابٌ) أى أجل مقدر مكتوب فى اللوح واجب المراعاة بحيث لا يمكن تبديله لوقوعه حسب الحكمة المقتضية له (مَعْلُومٌ) لا ينسى ولا يغفل عنه حتى يتصور التخلف عنه بالتقدم والتأخر فكتاب مبتدأ خبره الظرف والجملة حال من قرية فانها لعمومها لاسيما بعد تأكده بكلمة فى حكم الموصوفة كما أشير اليه والمعنى ما أهلكنا قرية من القرى فى حال من الأحوال الا حال أن يكون لها كتاب أى أجل موقت لمهلكها قد كتبناه لا نهلكها قبل بلوغه معلوم لا يغفل عنه حتى يمكن مخالفته بالتقدم والتأخر أو مرتفع بالظرف والجملة كما هى حال أى ما أهلكنا قرية من القرى فى حال من الأحوال إلا وقد كان لها فى حق هلاكها كتاب أى أجل مقدر مكتوب فى اللوح معلوم لا يغفل عنه أو صفة لكن لا للقرية المذكورة بل للمقدرة التى هى بدل من المذكورة على المختار فيكون بمنزلة كونه صفة للمذكورة أى ما أهلكنا قرية من القرى إلا قرية لها كتاب معلوم كما فى قوله تعالى ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن فان قوله تعالى لا يسمن صفة لكن لا للطعام المذكور لأنه إنما يدل على انحصار طعامهم الذى لا يسمن فى الضريع وليس المراد ذلك بل للطعام المقدر بعد إلا أى ليس لهم طعام من شىء من الاشياء إلا طعام لا يسمن فليس فيه فصل بين الموصوف والصفة بكلمة إلا كما توهم وأما توسيط الواو بينهما وإن كان القياس عدمه فللايذان بكمال الالتصاق بينهما من حيث أن الواو شأنها الجمع والربط فان ما نحن فيه من الصفة أقوى لصوقاً بالموصوف منها به فى قوله تعالى وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون فان امتناع انفكاك الاهلاك عن الأجل المقدر عقلى وعن الانذار عادى جرى عليه السنة الإلهية ولما بين أن الامم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم وأن هلاكهم لم يكن إلا حسبما كان مكتوباً فى اللوح بين أن كل أمة من الأمم منهم ومن غيرهم لها كتاب لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فقيل (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ) من الامم المهلكة وغيرهم (أَجَلَهَا) المكتوب فى كتابها أى لا يجىء هلاكها قبل مجىء كتابها أو لا تمضى أمة قبل مضى أجلها فان السبق إذا كان واقعاً على زمانى فمعناه المجاوزة والتخليف فاذا قلت سبق زيد عمراً فمعناه أنه جاوزه وخلفه وراءه وإذا كان واقعاً على زمان كان الامر بالعكس والسر فى ذلك أن الزمان يعتبر فيه الحركة والتوجه إلى المتكلم فما سبقه يتحقق قبل تحققه وأما الزمانى فانما يعتبر فيه الحركة والتوجه إلى ما سيأتى من الزمان فالسابق ما تقدم إلى المقصد وإيراده بعنوان الأجل باعتبار ما يقتضيه من السبق كما أن إيراده بعنوان الكتاب المعلوم باعتبار ما يوجبه من الاهلاك (وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) أى وما يتأخرون وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له وإيثار صيغة المضارع فى الفعلين بعد ما ذكر نفى الاهلاك بصيغة الماضى لأن المقصود بيان دوامهما واستمرارهما فيما بين الأمم الماضية والباقية وإسنادهما إلى الأمة بعد إسناد الاهلاك إلى القرية لما أن السبق والاستئخار حال الأمة دون القرية مع ما فى الأمة من العموم لأهل تلك القرى وغيرهم ممن أخرت عقوباتهم إلى الآخرة وتأخير ذكر عدم تأخرهم عن ذكر عدم سبقهم مع كون المقام مقام

المبالغة فى بيان تحقق عذابهم اما باعتبار تقدم السبق فى الوجود واما باعتبار أن المراد بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك وإيراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل ولذلك حذف الجار والمجرور والجملة مبينة لماسبق والمعنى أن تأخير عذابهم إلى يوم القيامة حسبما أشير اليه ببيان ودادتهم للاسلام إذ ذاك وبالأمر بتركهم وشأنهم إلى أن يعلموا حقيقة الحال إنما هو لتأخر أجلهم المقدر لما يقتضيه من الحكم البالغة ومن جملتها ماعلم الله تعالى من إيمان بعض من يخرج منهم إلى يوم القيامة (وَقَالُوا) شروع فى بيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب ومايؤول اليه حالهم والقائلون مشركو مكة لغاية تماديهم فى العتو والغى (يٰأَيُّهَا الذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ) خاطبوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسليما لذلك واعتقادا له بل استهزاء به عليه الصلاة والسلام واشعارا بعلة حكمهم الباطل فى قولهم (إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) كدأب فرعون إذ قال إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون يعنون يامن يدعى مثل هذا الأمر البديع الخارق للعادات إنك بسبب تلك الدعوى أو بشهادة مايعتريك عند ماتدعى أنه ينزل عليك لمجنون وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لأن انكارهم متوجه إلى كون النازل ذكرا من الله تعالى لا إلى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما فى قوله تعالى لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فان الانكار هناك متوجه إلى كون المنزل عليه رسول الله تعالى وإيراد الفعل على صيغة المجهول لإيهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل أو لتوجيه الانكار إلى كون التنزيل عليه لا إلى استناده إلى الفاعل (لَوْ مَا تَأْتِينَا) كلمة لو عند تركبها مع ما تفيده ماتفيده عند تركبها مع لا من معنى امتناع الشىء لوجود غيره ومعنى التحضيض خلا أنه عند ارادته لا يليها إلا فعل ظاهر أو مضمر وعند ارادة المعنى الأول لا يليها إلا إسم ظاهر أو مقدر عند البصريين والمراد ههنا هو الثانى أى هلا تأتينا (بِالْمَلٰئِكَةِ) يشهدون بصحة نبوتك ويعضدونك فى الانذار كقوله تعالى لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا أو يعاقبوننا على التكذيب كما تأتى الامم المكذبة لرسلهم (إِنْ كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ) فى دعواك فان قدرة الله تعالى على ذلك مما لاريب فيه وكذا احتياجك اليه فى تمشية أمرك فانا لا نصدقك بدون ذلك أو إن كنت من جملة تلك الرسل الصادقين الذين عذبت أممهم المكذبة لهم (مَا نُنَزِّلُ المَلٰئِكَةَ) بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل وقرىء من الانزال تنزل مضارعا من التنزيل على صيغة البناء للمفعول ومن التنزيل بحذف إحدى التاءين وماضيا منه ومن التنزيل ومن الثلاثى وهو كلام مسوق إلى النبى صلى الله عليه وسلم جوابا لهم عن مقالتهم المحكية ورداً لاقتراحهم الباطل ولشدة استدعاء ذلك للجواب قدم رده على ماهو جواب عن أولها أعنى قوله إنا نحن نزلنا الذكر الآية كما فعل فى قوله تعالى قال إنما يأتيكم به الله فانه مع كونه جوابا عن قولهم فأتنا بما تعدنا قدم على قوله ولا ينفعكم نصحى الآية مع كونه جوابا عن أول كلامهم الذى هو قولهم يانوح قد جادلتنا لما ذكر من شدة اقتضائه للجواب وليكون أحد الجوابين متصلا بالسؤال وفى العكس يلزم انفصال كل من الجوابين عن سؤاله والعدول عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح وهو أن يقال ماتأتيهم بهم للايذان بأنهم قد أخطؤا فى التعبير حسبما أخطؤا فى الاقتراح وأن الملائكة لعلو رتبتهم أعلى من أن ينسب اليهم مطلق الاتيان الشامل للانتقال من أحد الأمكنة المتساوية إلى الآخر منها بل من الأسفل إلى الأعلى وأن يكون مقصد حركاتهم أولئك الكفرة وأن يدخلوا تحت ملكوت أحد من البشر وإنما الذى يليق بشأنهم النزول من مقامهم العالى وكون ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل (إِلَّا بِالْحَقِّ) أى ملتبسا بالوجه الذى يحق ملابسة التنزيل به مما تقتضيه الحكمة وتجرى به السنة الإلهية كقوله سبحانه وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق والذى اقترحوه من التنزيل لأجل الشهادة لديهم وهم هم ومنزلتهم فى الحقارة والهوان منزلتهم مما لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلا فان ذلك من باب

التنزيل بالوحي الذى لا يكاد يفتح على غير الأنبياء الكرام من أفراد كمل المؤمنين فكيف على أمثال أولئك الكفرة اللئام وإنما الذى يدخل فى حقهم تحت الحكمة فى الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال كما فعل بأضرابهم من الأمم السالفة ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة (وَمَا كَانُوا إِذاً مُنظَرِينَ) جزاء الشرط مقدر وفيه ايذان بانتاج مقدماتهم لنقيض مطلوبهم كما فى قوله تعالى وإذن لا يلبثون خلافك إلا قليلا قال صاحب النظم لفظة إذن مركبة من إذ وهو اسم بمعنى الحين تقول أتيتك إذ جئتنى أى حين جئتنى ثم ضم اليه أن فصار إذأن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فمجىء لفظة أن دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير وما كانوا إذأن كان ما طلبوه منظرين والمعنى لو نزلناهم ما كانوا مؤخرين كدأب سائر الأمم المكذبة المستهزئة ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة حسبما أجمل فى قوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل الخ وحال حائل الحكمة بينهم وبين استئصالهم لتعلق العلم والارادة بازديادهم عذابا وبايمان بعض ذراريهم وأما نظم ايمان بعضهم فى سمط الحكمة فيأباه مقام بيان تماديهم فى الكفر والفساد ولجاجهم فى المكابرة والعناد هذا هو الذى يستدعيه اعجاز التنزيل الجليل وأما ما قيل فى تعليل عدم موافقة التنزيل للحكمة من أنهم حينئذ يكونون مصدقين عن اضطرار أو أنه لا حكمة فى أن تأتيكم بصور تشاهدونها فانه لا يزيدكم إلا لبسا أو أن انزال الملائكة لا يكون إلا بالحق وحصول الفائدة بانزالهم وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل اليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم فيصير انزالهم عبثا باطلا ولا يكون حقا فمع اخلال كل من ذلك بقطعية الباقى لا يلزم من فرض وقوع شىء من ذلك تعجيل العذاب الذى يفيده قوله تعالى وما كانوا إذاً منظرين هذا على تقدير كون اقتراحهم لاتيان الملائكة لأجل الشهادة أما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى انا ما ننزل الملائكة للتعذيب الا تنزيلا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة حتما بحيث لا محيد عنه ولو نزلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيل ملتبسا بمقتضى الحكمة الموجبة لتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لا رفقا بهم بل تشديدا عليهم كما مر من قبل وحيث كان فى نسبة تنزيلهم للتعذيب إلى عدم موافقته الحكمة نوع ايهام لعدم استحقاقهم التعذيب عدل عما يقتضيه الظاهر إلى ما عليه النظم الكريم فكأنه قيل لو نزلناهم ما كانوا منظرين وذلك غير موافق للحكمة الموجبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم وقيل المراد بالحق الوحى وقيل العذاب فتدبر (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ) رد لانكارهم التنزيل واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وتسلية له أى نحن بعظم شأننا وعلو جنابنا نزلنا ذلك الذكر الذى أنكروه وأنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك إلى الجنون وعموا منزله حيث بنوا الفعل للمفعول ايماء إلى أنه أمر لا مصدر له وفعل لا فاعل له (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) من كل ما لا يليق به فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولا أوليا فيكون وعيدا للمستهزئين وأما الحفظ عن مجرد التحريف والزيادة والنقص وأمثالها فليس بمقتضى المقام فالوجه الحمل على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلة فى حقيته ويجوز أن يراد حفظه بالاعجاز دليلا على التنزيل من عنده تعالى إذ لو كان من عند غير الله لتطرق عليه الزيادة والنقص والاختلاف وفى سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل ما لا يخفى وفى إيراد الثانية بالجملة الاسمية الدالة على دوام الحفظ والله سبحانه أعلم وقيل الضمير المجرور للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى والله يعصمك من الناس وتأخير هذا الكلام وان كان جوابا عن أول كلامهم الباطل رداله لما ذكر آنفا ولارتباطه بما يعقبه من قوله تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا) أى رسلا وإنما لم يذكر لدلالة ما بعده عليه (مِنْ قَبْلِكَ) متعلق بأرسلنا أو بمحذوف هو نعت للمفعول المحذوف أى رسلا كائنة من قبلك (فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ) أى فرقهم وأحزابهم جمع شيعة وهى الفرقة المتفقة على طريقة ومذهب من شاعه إذا تبعه وإضافته إلى

الأولين من إضافة الموصوف إلى صفته عند الفراء ومن حذف الموصوف عند البصريين أى شيع الأمم الأولين ومعنى إرسالهم فيهم جعل كل منهم رسولا فيما بين طائفة منهم ليتابعوه فى كل ما يأتى ويذر من أمور الدين (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ) المراد نفى اتيان كل رسول لشيعته الخاصة به لا نفى اتيان كل رسول لكل واحدة من تلك الشيع جميعا أو على سبيل البدل وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل فى الأغلب على مضارع إلا وهو فى معنى الحال ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال أى ما أتى شيعة من تلك الشيع رسول خاص بها (إلا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) كما يفعله هؤلاء الكفرة والجملة فى محل النصب على أنها حال مقدرة من ضمير المفعول فى يأتيهم اذا كان المراد بالاتيان حدوثه أو فى محل الرفع على أنها صفة رسول فان محله الرفع على الفاعلية أى إلا رسول كانوا به يستهزؤن وأما الجر على أنها صفة باعتبار لفظه فيفضى إلى زيادة من الاستغراقية فى الاثبات ويجوز أن يكون منصوبا على الوصفية بأن يقدر الموصوف منصوبا على الاستثناء وإن كان المختار الرفع على البدلية وهذا كما ترى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذه عادة الجهال مع الأنبياء عليهم السلام وحيث كان الرسول مصحوبا بكتاب من عند الله تعالى تضمن ذكر استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب ولذلك قيل (كَذَلِكَ) اشارة إلى ما دل عليه الكلام السابق من القاء الوحى مقرونا بالاستهزاء أى مثل ذلك السلك الذى سلكناه فى قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤا به من الكتب (نَسْلُكُهُ) أى الذكر (فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) أى أهل مكة أو جنس المجرمين فيدخلون فيه دخولا أوليا ومحله النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أو حال منه أى نسلكه سلكا مثل ذلك السلك أو نسلك السلك حال كونه مثله أى مقرونا بالاستهزاء غير مقبول لما تقتضيه الحكمة فانهم من أهل الخذلان ليس لهم استحقاق لقبول الحق وصيغة المضارع لكون المشبه به مقدما فى الوجود وهو السلك الواقع فى الأمم السالفة أو الدلالة على استحضار الصورة والسلك إدخال الشىء فى آخر يقال سلكت الخيط فى الابرة والرمح فى المطعون (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ) أى بالذكر حال من ضمير نسلكه أى غير مؤمن به أو بيان للجملة السابقة فلا محل لها وقد جعل الضمير للاستهزاء فيتعين البيانية إلا أن يجعل الضمير المجرور أيضا له على أن الباء للملابسة أى نسلك الاستهزاء فى قلوبهم حال كونهم غير مؤمنين بملابسته والحال اما مقدرة أو مقارنة للايذان بأن كفرهم مقارن للالقاء كما فى قوله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به (وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) أى قد مضت طريقتهم التى سنها الله تعالى فى اهلاكهم حين فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء وهو استئناف جىء به تكملة للتسلية وتصريحا بالوعيد والتهديد (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ) أى على هؤلاء المقترحين المعاندين (بَابًا مِنَ السَّمَاءِ) أى بابا ما لا بابا من أبوابها المعهودة كما قيل ويسر لهم الرقى والصعود اليه (فَظَلُّوا فِيهِ) فى ذلك الباب (يَعْرُجُونَ) بآلة أو بغيرها ويرون ما فيها من العجائب عيانا كما يفيده الظلول أو فظل الملائكة الذين اقترحوا اتيانهم يعرجون فى ذلك الباب وهم يرونه عيانا مستوضحين طول نهارهم (لَقَالُوا) لفرط عنادهم وغلوهم فى المكابرة وتفاديهم عن قبول الحق (إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا) أى سدت من الاحساس من السكر كما يدل عليه القراءة بالتخفيف أو حيرت كما يعضده قراءة من قرأ سكرت أى حارت (بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) قد سحرنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة وفى كلمتى الحصر والاضراب دلالة على أنهم يبتون القول بذلك وأن ما يرونه لا حقيقة له وإنما هو أمر خيل اليهم بالسحر وفى اسمية الجملة الثانية دلالة على دوام مضمونها وإيرادها بعد تسكير الابصار لبيان انكارهم لغير ما يرونه فان عروج كل منهم إلى السماء وإن كان مرئيا لغيره فهو معلوم بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الابصار فهم يدعون أن ذلك نوع آخر من السحر غير تسكير الابصار (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا) قصورا ينزلها السيارات وهى البروج

الاثنا عشر المشهورة المختلفة الهيئات والخواص حسبما يدل عليه الرصد والتجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء والجعل ان جعل بمعنى الخلق والابداع وهو الظاهر فالجار متعلق به وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعول ثان له متعلق بمحذوف أى جعلنا بروجا كائنة فى السماء (وزيناها) أى السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والكواكب سيارات كانت أو ثوابت (للناظرين) اليها فمعنى التزيين ظاهر أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها فتزيينها ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة (وحفظناها من كل شيطان رجيم) مرمى بالنجوم فلا يقدر أن يصعد اليها ويوسوس فى أهلها ويتصرف فيها ويقف على أحوالها (إلا من استرق السمع) محله النصب على الاستثناء المتصل ان فسر الحفظ بمنع الشياطين عن التعرض لها على الاطلاق والوقوف على ما فيها فى الجملة أو المنقطع ان فسر ذلك بالمنع عن دخولها والتصرف فيها. عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد النبى صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها واستراق السمع اختلاسه سرا شبه به خطفتهم اليسيرة من قطان السموات بما بينهم من المناسبة فى الجوهر أو بالاستدلال من الأوضاع (فأتبعه) أى تبعه ولحقه (شهاب) لهب محرق وهو شعلة نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب والسنان لما فيهما من البريق (مبين) ظاهر أمره للمبصرين قال معمر قلت لابن شهاب الزهرى أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية قال نعم وان النجم ينقض ويرمى به الشيطان فيقتله أو يخبله لئلا يعود إلى استراق السمع ثم يعود إلى مكانه قال أفرأيت قوله تعالى وأنا كنا نقعد منها مقاعد الآية قال غلظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام ولكن لم يكن فى شدة الحراسة كما بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الشياطين يركب بعضهم بعضا إلى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا يخطىء أبدا فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه وجنبه ويده حيث يشاء الله تعالى ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس فى البوادى. قال القرطبى اختلفوا فى أن الشهاب هل يقتل أم لا قال ابن عباس رضى الله عنهما يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل وقال الحسن وطائفة يقتل قال والأول أصح (والأرض مددناها) بسطناها وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير ولم يقرأ بالرفع لرجحان النصب للعطف على الجملة الفعلية أعنى قوله تعالى ولقد جعلنا الخ وليوافق ما بعده أعنى قوله تعالى (وألقينا فيها رواسى) أى جبالا ثوابت وقد مر بيانه فى أول الرعد (وأنبتنا فيها) أى فى الأرض أو فيها وفى رواسيها (من كل شىء موزون) بميزان الحكمة ذاتا وصفة ومقدارا وقيل ما يوزن من الذهب والفضة وغيرهما أو من كل شىء مستحسن مناسب أو ما يوزن ويقدر من أبواب النعمة (وجعلنا لكم فيها معايش) ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما مما يتعلق به البقاء وهى بياء صريحة وقرىء بالهمزة تشبيها له بالشمائل (ومن لستم له برازقين) عطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل جعلنا لكم معايش وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب وما أشبهها على طريقة التغليب وذكرهم بهذا العنوان لرد حسبانهم أنهم يكفون مؤناتهم ولتحقيق أن الله تعالى هو الذى يرزقهم واياهم أو وجعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين (وإن من شىء) ان للنفى ومن مزيدة للتأكيد وشىء فى محل الرفع على الابتداء أى ما من شىء من الأشياء الممكنة فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا (إلا عندنا خزائنه) الظرف خبر للمبتدا وخزائنه مرتفع به على أنه فاعله لاعتماده أو خبر له والجملة خبر للمبتدا الأول والخزائن جمع الخزانة وهى ما يحفظ فيه نفائس الأموال لا غير غلب فى العرف على ما للملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس شبهت مقدوراته تعالى الفائتة للحصر المندرجة تحت قدرته

الشاملة فى كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول أيديهم مع كمال افتقارهم اليها ورغبتهم فيها وكونها مهيأة متأتية لايجاده وتكوينه بحيث متى تعلقت الارادة بوجودها وجدت بلا تأخر بنفائس الأموال المخزونة فى الخزائن السلطانية فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخيلية (وَما نُنَزِّلُهُ) أى مانوجدوما نكون شيئا من تلك الأشياء ملتبسا بشىء من الاشياء (إلا بقدرٍ معلومٍ) أى الاملتبسا بمقدار معين تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئة التابعة لها لا بما تقتضيه القدرة فان ذلك غير متناه فان تخصيص كل شىء بصفة معينة وقدر معين ووقت محدود دون ماعداذلك مع استواء الكل فى الامكان واستحقاق تعلق القدرة به لابد له من حكمة تقتضى اختصاص كل من ذلك بما اختص به وهذا البيان سر عدم تكوين الأشياء على وجه الكثرة حسبما هو فى خزائن القدرة وهو اما عطف على مقدر أى ننزله وما ننزله الخ أو حال مما سبق أى عندنا خزائن كل شىء والحال أنا ما ننزله الا بقدر معلوم فالاول لبيان سعة القدرة والثانى لبيان بالغ الحكمة وحيث كان انشاء ذلك بطريق التفضل من العالم العلوى إلى العالم السفلى كما فى قوله تعالى وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج وكان ذلك بطريق التدريج عبر عنه بالتنزيل وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار (وأرسلنا الرياح) عطف على جعلنا لكم فيها معايش وما بينهما اعتراض لتحقيق ماسبق وترشيح مالحق أى أرسلنا الرياح (لواقح) أى حوامل شبهت الريح التى تجىء بالخير من انشاء سحاب ماطر بالحامل كما شبه بالعقيم مالا يكون كذلك أو ملقحات بالشجر والسحاب ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات فى قوله ومختبط مما تطيح الطوائح أى المهلكات وقرىء وأرسلنا الريح على ارادة الجنس (فأنزلنا من السماء) بعدما أنشأنا بتلك الرياح سحابا ماطرا (ماء فأسقيناكموه) أى جعلناه لكم سقيا وهو أبلغ من سقيناكموه لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدا لهم ينتفعون به متى شاؤا (وما أنتم له بخازنين) نفى عنهم ما أثبته لجنابه بقوله وان من شىء الاعندنا خزائنه كأنه قيل نحن القادرون على ايجاده وخزنه فى السحاب وانزاله وما أنتم على ذلك بقادرين وقيل ما أنتم بخازنين له بعدما أنزلناه فى الغدران والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها لنجعلها سقيا لكم مع أن طبيعة الماء تقتضى الغور (وإنا لنحن نحيى) بايجاد الحياة فى بعض الاجسام القابلة لها (ونميت) بازالتها عنها وقد يعم الأحياء والامانة لما يشمل الحيوان والنبات وتقديم الضمير للحصر وهو اما تأكيد للاول أو مبتدأ خبره الفعل والجملة خبر لانا ولا يجوز كونه ضمير الفصل لالان اللام مانعة من ذلك كما قيل فان النحاة جوزوا دخول لام التأكيد على ضمير الفصل كما فى قوله تعالى ان هذا لهو القصص الحق بل لأنه لم يقع بين اسمين (ونحن الوارثون) أى الباقون بعد فناء الخلق قاطبة المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازى الحاكمون فى الكل أولا وآخرا وليس لهم الا التصرف الصورى والملك المجازى وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم كما يتراءى من ظاهر الحال (ولقد علمنا المستقدمين منكم) من تقدم منكم ولادة وموتا (ولقد علمنا المستأخرين) من تأخر ولادة وموتا أو من خرج من أصلاب الآباء ومن لم يخرج بعد أو من تقدم فى الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة ومن تأخر فى ذلك لايخفى علينا شىء من أحوالكم وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته فان ما يدل عليها دليل عليه وفى تكرير قوله تعالى ولقد علمنا مالا يخفى من الدلالة على كمال التأكيد وقيل رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصف الاول فازدحموا عليه فنزلت وقيل ان امرأة حسناء كانت تصلى خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام فتقدم بعض الناس لئلا يراها وتأخر آخرون ليروها فنزلت والاول هو المناسب لما سبق وما لحق من قوله تعالى (وإن ربك هو يحشرهم) أى للجزاء وتوسيط ضمير العظمة للدلالة على أنه هو القادر على حشرهم والمتولى له لاغير لانهم كانوا يستبعدون ذلك ويستنكرونه ويقولون من يحيى العظام وهى رميم أى هو يحشرهم لاغير وفى الالتفات والتعرض لعنوان الربوبية اشعار بعلة الحكم وفى الاضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دلالة على اللطف

به عليه الصلاة والسلام (إنه حكيم) بالغ الحكمة متقن فى أفعاله فانها عبارة عن العلم بحقائق الأشياء على ما هى عليه والاتيان بالأفعال على ما ينبغى (عليم) وسع علمه كل شىء ولعل تقديم صفة الحكمة للايذان باقتضائها للحشر والجزاء (ولقد خلقنا الإنسان) أى هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفراده خلقا بديعا منطويا على خلق سائر أفراده انطواء اجماليا كما مر تحقيقه فى سورة الأنعام (من صلصل) من طين يابس غير مطبوخ يصلصل أى يصوت عند نقره قيل إذا توهمت فى صوته مدا فهو صليل وإن توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة وقيل هو تضعيف صل إذا أنتن (من حمإ) من طين تغير واسود بطول مجاورة الماء وهو صفة لصلصال أى من صلصال كائن من حمإ (مسنون) أى مصور من سنة الوجه وهى صورته أو مصبوب من سن الماء صبه أى مفرغ على هيئة الانسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة فى القوالب وقيل منتن فهو صفة لحمإ وعلى الأولين حقه أن يكون صفة لصلصال وإنما أخر عن حمإ تنبيها على أن ابتداء مسنونيته ليس فى حال كونه صلصالا بل فى حال كونه حمأ كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال انسان أجوف فيبس حتى إذا نقر صوت ثم غيره إلى جوهر آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (والجان) أبا الجن وقيل ابليس ويجوز أن يراد به الجنس كما هو الظاهر من الانسان لأن تشعب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقا منها وقرىء بالهمزة وانتصابه بفعل يفسره (خلقنه) وهو أقوى من الرفع للعطف على الجملة الفعلية (من قبل) من قبل خلق الانسان ومن هذا يظهر جواز كون المراد بالمستقدمين أحد الثقلين وبالمستأخرين الآخر والخطاب بقوله منكم للكل (من نار السموم) من نار الحر الشديد النافذ فى المسام ولا امتناع من خلق الحياة فى الاجرام البسيطة كما لا امتناع من خلقها فى الجواهر المجردة فضلا عن الاجساد المؤلفة التى غالب أجزائها الجزء النارى فانها أقبل لها من التى غالب أجزائها الجزء الأرضى وقوله تعالى من نار باعتبار الغالب كقوله تعالى خلقكم من تراب ومساق الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التى يتوقف عليها امكان الحشر وهو قبول المواد للجمع والاحياء (وإذ قال ربك) نصب باضمار اذكر وتذكير الوقت لما مر مرارا من أنه أدخل فى تذكير ما وقع فيه من الحوادث وفى التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشىء إلى كماله اللائق به شيئا فشيئا مع الاضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام أى اذكر وقت قوله تعالى (للملئكة إنى خلق) فيما سيأتى وفيه ما ليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل له البتة من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه (بشرا) أى انسانا قيل ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب بل الظاهر أن يكون قد قيل لهم انى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكن اقتصر عند الحكاية على الاسم وقيل جسما كثيفا يلاقى ويباشر وقيل خلقا بادى البشر بلا صوف ولا شعرة (من صلصل) متعلق بخالق أو بمحذوف وقع صفة لمفعوله أى بشرا كائنا من صلصال كائن (من حمإ مسنون) تقدم تفسيره ولا ينافى هذا ما فى قوله تعالى فى سورة ص من قوله بشرا من طين فان عدم التعرض عند الحكاية لوصف الطين من التغير والاسوداد ولما ورد عليه من آثار التكوين لا يستلزم عدم التعرض لذلك عند وقوع المحكى غايته أنه لم يتعرض له هناك اكتفاء بما شرح ههنا (فإذا سويته) أى صورته بالصورة الانسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه (ونفخت فيه من روحى) النفخ اجراء الريح إلى تجويف جسم صالح لامساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وإنما هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها أى فاذا كملت استعداده وأفضت عليه ما يحيا به من الروح التى هى من أمرى (فقعوا له) أمر من وقع يقع وفيه دليل على أن ليس المأمور به مجرد الانحناء كما قيل أى اسقطوا له (سجدين) تحية له وتعظيما أو اسجدوا لله تعالى

على أنه عليه الصلاة والسلام بمنزلة القبلة حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته كقول حسان رضى الله تعالى عنه

أليس أول من صلى لقبلتكم وأعلم الناس بالقرآن والسنن

(فَسَجَدَ المَلَٰئِكَةُ) أى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد الملائكة (كُلُّهُمْ) بحيث لم يشذ منهم أحد (أَجْمَعُونَ) بحيث لم يتأخر فى ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التأكيد أيضا فان الاشتقاق الواضح يرشد إلى أن فيه معنى الجمع والمعية بحسب الوضع والأصل فى الخطاب التنزيل على أكمل أحوال الشىء ولا ريب فى أن السجود معا أكمل أصناف السجود لكن شاع استعماله تأكيدا وأقيم مقام كل فى إفادة معنى الاحاطة من غير نظر إلى الكمال فاذا فهمت الاحاطة من لفظ آخر لم يكن بد من مراعاة الأصل صونا للكلام عن الالغاء وقيل أكد بتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا وأما أن سجودهم هذا هل ترتب على ما حكى من الأمر التعليق كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة ص أو على الأمر التنجيزى كما يستدعيه ما فى غيرهما فقد خرجنا بفضل الله عز وجل عن عهدة تحقيقه فى تفسير سوره البقرة (إِلَّا إِبْلِيسَ) استثناء متصل اما لأنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة فعد منهم تغليبا واما لأن من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم وقوله تعالى (أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّٰجِدِينَ) استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فان مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد وبه علم أنه مع الاباء والاستكبار أو منقطع فيتصل به ما بعده أى لكن إبليس أبى أن يكون معهم وفيه دلالة على كمال ركاكة رأيه حيث أدمج فى معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الأمر والاستكبار مع تحقير آدم عليه الصلاة والسلام ومفارقة الجماعة والاباء عن الانتظام فى سلك أولئك المقربين الكرام (قَالَ) استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال تعالى عند ذلك فقيل قال (يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ) أى أى سبب لك لا أى غرض لك كما قيل لقوله تعالى ما منعك (أَلَّا تَكُونَ) فى أن لا تكون (مَعَ السَّٰجِدِينَ) لآدم مع أنهم هم ومنزلتهم فى الشرف منزلتهم وما كان التوبيخ عند وقوعه لمجرد تخلفه عنهم بل لكل من المعاصى الثلاث المذكورة قال تعالى فى سورة الأعراف قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك وفى سورة ص قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ولكن اقتصر عند الحكاية فى كل موطن على ما ذكر فيه اجتزاء بما ذكر فى موطن آخر واشعارا بأن كل واحدة من تلك المعاصى الثلاث كافية فى التوبيخ وإظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا فى سورة البقرة وسورة بنى إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه (قَالَ) أى إبليس وهو أيضا استئناف مبنى على السؤال الذى ينساق إليه الكلام (لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ) اللام لتأكيد النفى أى ينافى حالى ولا يستقيم منى لأنى مخلوق من أشرف العناصر وأعلاها أن أسجد (لِبَشَرٍ) أى جسم كثيف (خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) اقتصر ههنا على الاشارة الاجمالية إلى ادعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاء بما صرح به حين قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ولم يكتف اللعين بمجرد ذكر كونه عليه الصلاة والسلام من التراب الذى هو أخس العناصر وأسفلها بل تعرض لكونه مخلوقا منه فى أخس أحواله من كونه طينا متغيرا وقد اكتفى فى سورة الاعراف وسورة ص بما حكى عنه ههنا فاقتصر على حكاية تعرضه لخلقه عليه الصلاة والسلام من طين وكذا فى سورة بنى إسرائيل حيث قيل أأسجد لمن خلقت طينا وفى جوابه دليل على أن قوله تعالى ما لك ليس استفسارا عن الغرض بل هو استفسار عن السبب وفى عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال روم للتفصى عن المناقشة وأنى له ذلك كأنه قال لم أمتنع عن امتثال الامر ولا عن الانتظام فى سلك الملائكة بل عما لا يليق بشأنى من الخضوع للمفضول ولقد جرى خذله الله تعالى على سنن قياس عقيم وزل عنه أن ما يدور عليه فلك الفضل والكمال هو التحلى بالمعارف الربانية والتخلى عن الملكات الردية التى أقبحها التكبر والاستعصاء على أمر رب العالمين

جل جلاله (قال فاخرج منها) أى من زمرة الملائكة المعززين لا من السماء فان وسوسته لآدم عليه الصلاة والسلام فى الجنة إنما كانت بعد هذا الطرد وقوله تعالى فاهبط منها اليس نصا فى ذلك فان الخروج من بين الملأ الأعلى هبوط وأى هبوط أو من الجنة على أن وسوسته كانت بطريق النداء من بابها كما روى عن الحسن البصرى أو بطريق المشافهة بعد أن احتال فى دخولها وتوسل اليه بالحية كما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولا ينافى هذا طرده على رؤس الاشهاد لما يقتضيه من الحكم البالغة (فإنك رجيم) مطرود من كل خير وكرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته فان من عارض النص بالقياس فهو رجيم معلون (وإن عليك اللعنة) الابعاد عن الرحمة وحيث كان ذلك من جهة الله سبحانه وإن كان جاريا على ألسنة العباد قيل فى سورة ص وان عليك لعنتى (إلى يوم الدين) إلى يوم الجزاء والعقوبة وفيه اشعار بتأخير عقابه وجزائه اليه وأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وإنما يتحقق ذلك يومئذ وفيه من التهويل مالا يوصف وجعل ذلك أقصى أمد اللعنة ليس لأنها تنقطع هنالك بل لأنه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من أفانين العذاب فتصير هى كالزائل وقيل إنما حدت به لأنه أبعد غاية يضربها الناس كقوله تعالى خالدين فيها مادامت السموات والأرض وحيث أمكن كون تأخير العقوبة مع الموت كسائر من أخرت عقوباتهم إلى الآخرة من الكفرة طلب اللعين تأخير موته كما حكى عنه بقوله تعالى (قال رب فأنظرنى) أى أمهلنى وأخرنى ولا تمتنى والفاء متعلق بمحذوف ينسحب عليه الكلام أى إذ جعلتنى رجيما فأمهلنى (إلى يوم يبعثون) أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم ويأخذ منهم ثاره وينجو من الموت لاستحالة بعد يوم البعث (قال فإنك من المنظرين) وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ماسأله لآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم فى ذلك دليل على أنه اخبار بالانظار المقدر لهم أزلا لا انشاء لانظار خاص به وقع اجابة لدعائه أى إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين فالفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار بل لربط الأخبار المذكور به كما فى قوله فان ترحم فأنت لذاك أهل فانه لا إمكان لجعل الفاء فيه لربط مافيه تعالى من الأهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هى لربط الاخبار بتلك الاهلية للرحمة بوقوعها وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت إذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل ونظمه فى ذلك فى سلك من أخرت عقوبتهم إلى الآخرة فى علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحق من الثقلين لا يلائم مقام الاستنظار مع الحياة ولأن ذلك التأخير معلوم من إضافة اليوم إلى الدين مع إضافته فى السؤال إلى البعث كما عرفته وفى سورة الأعراف قال انظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين بترك التوقيت والنداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ماذكر ههنا وفى سورة ص فان إيراد كلام واحد على أساليب متعددة غير عزيز فى الكتاب العزيز وأما أن كان كل أسلوب من أساليب النظم الكريم لابد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ماحكى من اللعين إنما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع الا دفعة فمقام المحاورة ان اقتضى أحد الأساليب المذكورة فهو المطابق لمقتضى الحال والبالغ إلى طبقة الاعجاز وماعداه قاصر عن رتبة البلاغة فضلا عن الارتقاء إلى معالم الاعجاز فقد مر تحقيقه بتوفيق الله تعالى فى سورة الأعراف (إلى يوم الوقت المعلوم) وهو وقت النفخة الأولى التى علم أنه يصعق عندها من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله تعالى ويجوز أن يكون المراد بالأيام واحدا والاختلاف فى العبارات لاختلاف الاعتبارات فالتعبير بيوم البعث لأن غرض اللعين به يتحقق وبيوم الدين لما ذكر من الجزاء وبيوم الوقت المعلوم لما ذكر أو لاستئثاره تعالى بعلمه فلعل كلا من هلاك الخلق جميعا وبعثهم وجزائهم فى يوم واحد يموت اللعين فى أوله ويبعث فى أواسطه ويعاقب فى بقيته

يروى أن بين موته و بعثه أربعين سنة من سنى الدنيا مقدار ما بين النفختين . نقل عن الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى أنه قال قدمت المدينة أريد أمير المؤمنين عمر رضى الله تعالى عنه فاذا أنا بحلقة عظيمة وكعب الأحبار فيها يحدث الناس وهو يقول لما حضر آدم عليه الصلاة والسلام الوفاة قال يارب سيشمت بى عدوى إبليس إذا رآنى ميتا وهو منظر إلى يوم القيامة فأجيب أن يا آدم انك سترد إلى الجنة و يؤخر اللعين الى النظرة ليذوق ألم الموت بعدد الأولين والآخرين ثم قال لملك الموت صف كيف تذيقه الموت فلما وصفه قال يارب حسبى فضج الناس وقالوا يا أبا اسحق كيف ذلك فأبى فألحوا فقال يقول الله سبحانه لملك الموت عقيب النفخة الأولى قد جعلت فيك قوة أهل السموات السبع وأهل الأرضين السبع وانى ألبستك اليوم أثواب السخط والغضب كلها فانزل بغضبى وسطوتى على رجيمى ابليس فأذقه الموت واحمل عليه فيه مرارة الأولين والآخرين من الثقلين أضعافا مضاعفة وليكن معك من الزبانية سبعون ألفا قد امتلأوا غيظا وغضبا وليكن مع كل منهم سلسلة من سلاسل جهنم وغل من أغلالها وانزع روحه المنتن بسبعين ألف كلاب من كلاليبها ونادِ مالكا ليفتح أبواب النيران فينزل ملك الموت بصورة لو نظر اليها أهل السموات والأرضين لماتوا بغتة من هولها فينتهى إلى ابليس فيقول قف لى ياخبيث لأذيقنك الموت كم من عمر أدركت وقرون أضللت وهذا هو الوقت المعلوم قال فيهرب اللعين الى المشرق فاذا هو بملك الموت بين عينيه فيهرب الى المغرب فاذا هو به بين عينيه فيغوص البحار فتنزمنه البحار فلا تقبله فلا يزال يهرب فى الأرض ولا محيص له ولا ملاذ ثم يقوم فى وسط الدنيا عند قبر آدم ويتمرغ فى التراب من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق حتى اذا كان فى الموضع الذى أهبط فيه آدم عليه الصلاة والسلام وقد نصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب ويبقى فى النزع والعذاب إلى حيث يشاء الله تعالى ويقال لآدم وحواء اطلعا اليوم إلى عدوكما كيف يذوق الموت فيطلعان فينظران إلى ما هو فيه من شدة العذاب فيقولان ربنا أتممت علينا نعمتك (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى) الباء للقسم وما مصدرية والجواب (لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ) أى أقسم باغوائك إياى لأزينن لهم المعاصى (فِى الْأَرْضِ) أى فى الدنيا التى هى دار الغرور كقوله تعالى أخلد إلى الأرض واقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه وقهره لا ينافى اقسامه بهذا فانه فرع من فروعها وأثر من آثارها فلعله أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بهذا وأخرى بذاك أو للسببية وقوله لأزينن جواب قسم محذوف والمعنى بسبب تسبيبك لاغوائى أقسم لأفعلن بهم مثل ما فعلت بى من التسبيب لاغوائهم بتزيين المعاصى وتسويل الاباطيل والمعتزلة أولوا الاغواء بالنسبة إلى الغى أو التسبب له بأمره اياه بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام واعتذروا عن امهال الله تعالى وتسليطه له على اغواء بنى آدم بأنه تعالى قد علم منه وممن تبعه أنهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار أمهل أم لم يمهل وأن فى إمهاله تعريضا لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب (وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) لأحملنهم على الغواية (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدى وقرىء بكسر اللام أى الذين أخلصوا نفوسهم لله تعالى (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ) أى حق (عَلَىَّ) أن أراعيه (مُسْتَقِيمٌ) لا عوج فيه والاشارة إلى ما تضمنه الاستثناء وهو تخلص المخلصين من اغوائه أو الاخلاص على معنى أنه طريق يؤدى إلى الوصول إلىّ من غير اعوجاج وضلال والاظهر أن ذلك لما وقع فى عبارة ابليس حيث قال لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية وقرىء علىٌّ من علو الشرف (إِنَّ عِبَادِى) وهم المشار اليهم بالمخلصين (لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) تسلط وتصرف بالاغواء (إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) وفيه مع كونه تحقيقا لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الاغواء عنهم وأن اغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان

بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ) أى موعد المتبعين أو الغاوين والأول أنسب وأدخل فى الزجر عن اتباعه وفيه دلالة على أن جهنم مكان الوعد وأن الموعود مما لا يوصف فى الفظاعة (أَجْمَعِينَ) تأكيد للضمير أو حال والعامل فيها الموعد ان جعل مصدرا على تقدير المضاف أو معنى الاضافة ان جعل اسم مكان (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ) يدخلونها لكثرتهم أو سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى الغواية والمتابعة وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية (لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ) من الاتباع أو الغواة (جُزْءٌ مَقْسُومٌ) حزب معين مفرز من غيره حسبما يقتضيه استعداده فأعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين والسابعة للمنافقين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن جهنم لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار والحطمة لعبدة الأصنام وسقر لليهود والسعير للنصارى والجحيم للصابئين والهاوية للموحدين ولعل حصرها فى السبع لانحصار المهلكات فى المحسوسات بالحواس الخمس ومقتضيات القوة الشهوية والغضبية وقرىء بضم الزاى وبحذف الهمزة والقاء حركتها الى ما قبلها مع تشديدها فى الوقف والوصل ومنهم حال من جزء أو من ضميره فى الظرف لا فى مقسوم لأن الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها (إِنَّ الْمُتَّقِينَ) من اتباعه فى الكفر والفواحش فان غيرها مكفر (فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) أى مستقرون فيها خالدين لكل واحد منهم جنة وعين أو لكل منهم عدة منهما كقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقرىء بكسر العين حيث وقع فى القرآن العظيم (ادْخُلُوهَا) على ارادة القول أمر من الله تعالى لهم بالدخول وقرىء ادخلوها أمرا منه تعالى للملائكة بادخالهم وقرأ الحسن ادخلوها مبنيا للمفعول على صيغة الماضى من الادخال (بِسَلَامٍ) ملتبسين بسلام أى سالمين أو مسلما عليكم (آمِنِينَ) من الآفات والزوال (وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ) أى حقد كان فى الدنيا وعن على رضى الله تعالى عنه أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين (إِخْوَانًا) حال من الضمير فى قوله تعالى فى جنات أو من فاعل ادخلوها أو من الضمير فى آمنين أو الضمير المضاف اليه والعامل فيه معنى الاضافة وكذلك قوله تعالى (عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) ويجوز كونهما صفتين لاخوانا أو حالين من ضميره لأنه بمعنى متصافين وكون الثانى حالا من المستكن فى الأول وعن مجاهد تدور بهم الأسرة حيثما داروا فهم متقابلون فى جميع أحوالهم (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ) أى تعب بأن لا يكون لهم فيها ما يوجبه من الكد فى تحصيل ما لا بد لهم منه لحصول كل ما يريدونه من غير مزاولة عمل أصلا أو بأن لا يعتريهم ذلك وإن باشروا الحركات العنيفة لكمال قوتهم وهو استئناف أو حال بعد حال أو حال من الضمير فى متقابلين (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) أبد الآباد لأن تمام النعمة بالخلود (نَبِّئْ عِبَادِى) وهم الذين عبر عنهم بالمتقين (أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له وفى ذكر المغفرة إشعار بأن ليس المراد بالمتقين من يتقى جميع الذنوب كبيرها وصغيرها وفى وصف ذاته تعالى بها وبالرحمة على وجه القصر دون التعذيب ايذان بأنهما مما يقتضيهما الذات وأن العذاب إنما يتحقق بما يوجبه من خارج (وَنَبِّئْهُمْ) عطف على نبىء عبادى والمقصود اعتبارهم بما جرى على ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع أهله من البشرى فى تضاعيف الخوف وبما حل بقوم لوط من العذاب ونجاته عليه الصلاة والسلام مع أهله التابعين له فى ضمن الخوف وتنبيههم بحلول انتقامه تعالى من المجرمين وعلمهم بأن عذاب الله هو العذاب الأليم (عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انهم جبريل عليه الصلاة والسلام وملكان معه وقال محمد بن كعب وسبعة معه وقيل جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم الصلاة والسلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن السدى كانوا أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل أنهم كانوا اثنى عشر ملكا

وإنما لم يتعرض لعنوان رسالتهم لأنهم لم يكونوا مرسلين إلى ابراهيم عليه الصلاة والسلام بل إلى قوم لوط حسبما يأتى ذكره (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ) نصب بفعل مضمر معطوف على نبيء أى واذكر وقت دخولهم عليه أو خبر مقدر مضاف إلى ضيف أى خبر ضيف ابراهيم حين دخولهم عليه أو بنفس ضيف على أنه مصدر فى الأصل (فَقَالُوا) عند ذلك (سَلَامًا) أى نسلم سلاما أو سلمنا أو سلمت سلاما (قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ) أى خائفون فان الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه قاله عليه الصلاة والسلام حين امتنعوا من أكل ماقربه اليهم من العجل الحنيذ لما أن المعتاد عندهم أنه إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير لا عند ابتداء دخولهم لقوله تعالى فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة فلا مجال لكون خوفه عليه الصلاة والسلام بسبب دخولهم بغير اذن ولا بغير وقت إذ لو كان كذلك لأجابوا حينئذ بما أجابوا حينئذ به ولم يتصد عليه الصلاة والسلام لتقريب الطعام اليهم وإنما لم يذكرههنا اكتفاء بما بين فى غير هذا الموضع ألا يرى إلى أنه لم يذكر ههنا رده عليه الصلاة والسلام لسلامهم (قَالُوا لَا تَوْجَلْ) لاتخف وقرىء لاتاجل ولاتوجل من أوجله أى أخافه ولا تواجل من واجله بمعنى أوجله (إِنَّا نُبَشِّرُكَ) استئناف لتعليل النهى عن الوجل فان المبشر به لايكاد يحوم حول ساحته خوف ولاحزن كيف لا وهو بشارة ببقائه وبقاء أهله فى عافية وسلامة زمانا طويلا (بِغُلَامٍ) هو اسحق عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى فبشرناها باسحق ولم يتعرض ههنا لبشارة يعقوب عليه الصلاة والسلام اكتفاء بما ذكر فى سورة هود (عَلِيمٍ) إذا بلغ وفى موضع آخر بغلام حليم (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي) بذلك (عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ) وأثر فى تعجب عليه الصلاة والسلام من بشارتهم بالولد فى حالة مباينة للولادة وزاد فى ذلك فقال (فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) أى بأى أعجوبة تبشرونى فان البشارة بما لايتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء أو بأى طريقة تبشرونى وقرىء بتشديد النون المكسورة على ادغام نون الجمع فى نون الوقاية (قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ) أى بما يكون لامحالة أو باليقين الذى لالبس فيه أو بطريقة هى حق وهو أمر الله تعالى وقوله (فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ) من الآيسين من ذلك فان الله قادر على أن يخلق بشرا بغير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر وقرىء من القنطين وكان مقصده عليه الصلاة والسلام استعظام نعمته تعالى عليه فى ضمن التعجب العادى المبنى على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه كما ينبىء عنه قول الملائكة فلا تكن من القانطين دون أن يقولوا من الممترين أو نحوه (قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ) استفهام انكارى أى لايقنط (مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) المخطئون طريق المعرفة والصواب فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته كما قال يعقوب عليه الصلاة والسلام لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ومراده نفى القنوط عن نفسه على أبلغ وجه أى ليس بى قنوط من رحمته تعالى وإنما الذى أقول لبيان منافاة حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة على وفى التعرض لوصف الربوبية والرحمة مالايخفى من الجزالة وقرىء بضم النون وبكسرها من قنط بالفتح ولم تكن هذه المفاوضة من الملائكة مع ابراهيم عليه الصلاة والسلام خاصة بل مع سارة أيضا حسبما شرح فى سورة هود ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هذه هناك اكتفاء بما ذكر ههنا (قَالَ) أى ابراهيم عليه الصلاة والسلام وتوسيطه بين قوله السابق وبين قوله (فَمَا خَطْبُكُمْ) أى أمركم وشأنكم الخطير الذى لأجله أرسلتم سوى البشارة (أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) صريح فى أن بينهما مقالة مطوية لهم أشير به إلى مكانها كما فى قوله تعالى قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت على الآية فان قوله الأخير ليس موصولا بقوله الأول بل هو مبنى على قوله تعالى فاخرج منها فانك رجيم فان توسيط قال بين قوليه للايذان بعدم اتصال الثانى بالأول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره ثم خطابه لهم عليهم الصلاة والسلام بعنوان الرسالة

بعد ما كان خطابه السابق مجردا عن ذلك مع تصديره بالفاء دليل على أن مقالتهم المطوية كانت متضمنة لبيان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا فكأنه قال عليه الصلاة والسلام ان لم يكن شأنكم مجرد البشارة فماذا هو فلا حاجة الى الالتجاء إلى أن علمه عليه الصلاة والسلام بأن كل المقصود ليس البشارة بسبب أنهم كانوا ذوى عدد والبشارة لاتحتاج إلى عدد ولذلك اكتفى بالواحد فى زكريا عليه الصلاة والسلام ومريم ولا إلى أنهم بشروه فى تضاعيف الحال لازالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدؤا بها فتأمل (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ) هم قوم لوط لكن وصفوا بالاجرام وجيء بهم بطريق التنكير ذما لهم واستهانة بهم (إِلَّا آلَ لُوطٍ) استثناء متصل من الضمير فى مجرمين أى إلى قوم أجرموا جميعا إلا آل لوط فالقوم والارسال شاملان للمجرمين وغيرهم والمعنى إنا أرسلنا إلى قوم أجرم كلهم إلا آل لوط لنهلك الأولين وننجى الآخرين ويدل عليه قوله تعالى (إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ) أى لوطا وآله (أَجْمَعِينَ) أى مما يصيب القوم فانه استئناف للاخبار بنجاتهم لعدم اجرامهم أو لبيان مافهم من الاستثناء من مطلق عدم شمول العذاب لهم فان ذلك قد يكون بكون حالهم بين بين أو لتعليله فان من تعلق بهم التنجية بمنجى من شمول العذاب أو منقطع من قوم وقوله تعالى إنا لمنجوهم متصل بآل لوط جار مجرى خبر لكن وعلى هذا فقوله تعالى (إِلَّا امْرَأَتَهُ) استثناء من آل لوط أو من ضميرهم وعلى الأول من الضمير خاصة لاختلاف الحكمين اللهم إلا أن يجعل إنا لمنجوهم اعتراضا وقرىء بالتخفيف (قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) الباقين مع الكفرة لتهلك معهم وقرىء قدرنا بالتخفيف وإنما علق فعل التقدير مع اختصاص ذلك بأفعال القلوب لتضمنه معنى العلم ويجوز حمله على معنى قلنا لأنه بمعنى القضاء قول وأصله جعل الشيء على مقدار غيره واسنادهم له إلى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لما لهم من الزلفى والاختصاص (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ) شروع فى بيان كيفية إهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما أجمل فى الاستثناء ثم فصل فى التعليل نوع تفصيل ووضع المظهر موضع المضمر للايذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من الاهلاك والتنجية وليس المراد به ابتداء مجيئهم بل مطلق كينونتهم عند آل لوط فان ماحكى عنه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) إنما قاله عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتى حين ضاقت عليهم الحيل وعيت به العلل لما لم يشاهد من المرسلين عند مقاساته الشدائد ومعاناته المكايد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون ماهو المعهود والمعتاد من الاعانة والامداد فيما يأتى ويذر عند تجشمه فى تخليصهم انكارا لخذلانهم له وترك نصرته فى مثل تلك المضايقة المعترية له بسببهم حيث لم يكونوا مباشرين معه لأسباب المدافعة والممانعة حتى ألجأته إلى أن قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد حسبما فصل فى سورة هود لا أنه قاله عند ابتداء ورودهم له خوفا أن يطرقوه بشر كما قيل كيف لا وهم بجوابهم المحكى بقوله تعالى (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ) أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به فيمترون فيه ويكذبونك قد قشروا العصا وبينوا له عليه الصلاة والسلام جلية الأمر فأنى يمكن أن يعتريه بعد ذلك المساءة وضيق الذرع وليست كلمة بل اضرابا عن موجب الخوف المذكور على معنى ماجئناك بما تنكرنا لأجله بل بما يسرك وتقربه عينك بل هى اضراب عما فهمه عليه الصلاة والسلام من ترك النصرة له والمعنى ماخذلناك وما خلينا بينك وبينهم بل جئناك بما يدمرهم من العذاب الذى كانوا يكذبونك حين كنت تتوعدهم به ولعل تقديم هذه المقاولة على ماجرى بينه وبين أهل المدينة من المجادلة للمسارعة إلى ذكر بشارة لوط عليه الصلاة والسلام باهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهما وحيث كان ذلك مستدعيا لبيان كيفية النجاة وترتيب مباديها أشير إلى ذلك إجمالا ثم ذكر مافعل القوم وما فعل بهم ولم يبال بتغيير الترتيب الوقوعى ثقة بمراعاته فى مواقع أخر ونسبة المجيء بالعذاب اليه عليه الصلاة والسلام مع أنه نازل بالقوم

بطريق تفويض أمره اليه لا بطريق نزوله عليه كأنهم جاءوه به رفوضوا أمره اليه ليرسله عليهم حسبما كان يتوعدهم به (وأتيناك بالحق) أى باليقين الذى لا مجال فيه للامتراء والشك وهو عذابهم عبر عنه بذلك تنصيصا على نفى الامتراء عنه أو المراد بالحق الاخبار بمجيء العذاب المذكور وقوله تعالى (وإنا لصادقون) تأكيد له أى أتيناك فيما قلنا بالخبر الحق أى المطابق للواقع وإنا الصادقون فى ذلك الخبر أو فى كل كلام فيكون كالدليل على صدقهم فيه وعلى الأول تأكيد اثر تأكيد وقوله تعالى (فأسر بأهلك) شروع فى ترتيب مبادى النجاة أى اذهب بهم فى الليل وقرىء بالوصل وكلاهما من السرى وهو السير فى الليل وقرىء فسر من السير (بقطع من الليل) بطائفة منه أو من آخره قال:

افتحى الباب وانظرى فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

وقيل هو بعد ما مضى منه شيء صالح (واتبع أدبارهم) وكن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ولعل ايثار الاتباع على السوق مع انه المقصود بالأمر للمبالغة فى ذلك إذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخر والالتفات المنهى عنه بقوله تعالى (ولا يلتفت منكم) أى منك ومنهم (أحد) فيرى ماوراءه من الهول فلا يطيقه أو يصيبه ما أصابهم أو ولا ينصرف منكم أحد ولا يتخلف لغرض فيصيبه العذاب وقيل نهوا عن ذلك ليوطنوا أنفسهم على المهاجرة أو هو نهى عن ربط القلب بما خلفوه أو هو للاسراع فى السير فان الملتفت قلما يخلو عن أدنى وقفة وعدم ذكر استثناء المرأة من الاسراء والالتفات لا يستدعى عدم وقوعه فان ذلك لما عرفت مرارا للاكتفاء بما ذكر فى مواضع أخر (وامضوا حيث تؤمرون) إلى حيث أمركم الله تعالى بالمضى اليه وهو الشام أو مصر وحذف الصلتين على الاتساع المشهور وايثار المضى إلى ما ذكر على الوصول اليه واللحوق به للايذان بأهمية النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ما سلف من الغابرين (وقضينا) أى أوحينا (إليه) مقضيا ولذلك عدى بإلى (ذلك الأمر) مبهم يفسره (أن دابر هؤلاء مقطوع) على أنه بدل منه وايثار اسم الاشارة على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التى هى مدار ثبوت الحكم أى دابر هؤلاء المجرمين وايراد صيغة المفعول بدل صيغة المضارع لكونها أدخل فى الدلالة على الوقوع وفى لفظ القضاء والتعبير عن العذاب بالأمر والاشارة اليه بذلك وتأخيره عن الجار والمجرور وابهامه أولا ثم تفسيره ثانيا من الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته ما لا يخفى وقرىء بالكسر على الاستئناف والمعنى أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد (مصبحين) داخلين فى الصبح وهو حال من هؤلاء أو من الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء بمعنى مدبرى هؤلاء (وجاء أهل المدينة) شروع فى حكاية ما صدر عن القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف من الفعل والقول وما ترتب عليه بعد ما أشير إلى ذلك اجمالا حسبما نبه عليه أى جاء أهل سدوم منزل لوط عليه الصلاة والسلام (يستبشرون) أى مستبشرين بأضيافه عليه الصلاة والسلام طمعا فيهم (قال إن هؤلاء ضيفى) الضيف حيث كان مصدرا فى الأصل أطلق على الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث واطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه الصلاة والسلام لكونهم فى زى الضيف والتأكيد ليس لانكارهم بذلك بل لتحقيق اتصافهم به واظهار اعتنائه بشأنهم وتشمره لمراعاة حقوقهم وحمايتهم من السوء ولذلك قال (فلا تفضحون) أى عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا أنه ليس لى عندكم قدر وحرمة أو لا تفضحون بفضيحة ضيفى فان من أسيء إلى ضيفه فقد أسيء اليه يقال فضحه فضحا وفضيحة إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار (واتقوا الله) فى مباشرتكم لما يسوؤنى (ولا تخزون) أى لا تذلونى ولا تهينونى بالتعرض لمن أجرتهم بمثل تلك الفعلة الخبيثة وحيث كان التعرض لهم بعد أن نهاهم عليه الصلاة

والسلام عن ذلك بقوله فلا تفضحون أكثر تأثيرا فى جانبه عليه الصلاة والسلام وأجلب للعار اليه إذ التعرض للجار قبل شعور المجير بذلك ربما يتسامح فيه وأما بعد الشعور به والمناصبة لحمايته والذب عنه فذاك أعظم العار عبر عليه الصلاة والسلام عما يعتريه من جهتهم بعد النهى المذكور بسبب لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى وأمرهم بتقوى الله تعالى فى ذلك وإنما لم يصرح بالنهى عن نفس تلك الفاحشة لأنه كان يعرف أنه لا يفيدهم ذلك وقيل المراد تقوى الله تعالى فى ركوب الفاحشة ولا يساعده توسيطه بين النهيين عن أمرين متعلقين بنفسه عليه الصلاة والسلام وكذلك قوله تعالى (قالوا أولم ننهك عن العالمين) أى عن التعرض لهم بمنعهم عنا وضيافتهم والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر أى ألم نتقدم اليك ولم ننهك عن ذلك فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء وكان عليه الصلاة والسلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا قد نهوه عليه الصلاة والسلام عن أن يجير أحدا فكأنهم قالوا ما ذكرت من الفضيحة والخزى إنما جاءك من قبلك لا من قبلنا إذ لولا تعرضك لما نتصدى له لما اعتراك تلك الحالة ولما رآهم لا يقلعون عما هم عليه (قال هؤلاء بناتى) يعنى نساء القوم فان نبى كل أمة بمنزلة أبيهم أو بناته حقيقة أى فتزوجوهن وقد كانوا من قبل يطلبونهن ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعية المناكحة بين المسلمات والكفار وقد فصل ذلك فى سورة هود (إن كنتم فاعلين) أى قضاء الوطر أو ما أقول لكم (لعمرك) قسم من الله تعالى بحياة النبي عليه الصلاة والسلام أو من الملائكة بحياة لوط عليه الصلاة والسلام والتقدير لعمرك قسمى وهى لغة فى العمر يختص به القسم إيثارا للخفة لكثرة دورانه على الالسنة (إنهم لفى سكرتهم) غوايتهم أو شدة غلمتهم التى أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب (يعمهون) يتحيرون ويتمادون فكيف يسمعون النصح وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض (فأخذتهم الصيحة) أى الصيحة العظيمة الهائلة وقيل صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام (مشرقين) داخلين فى وقت شروق الشمس (فجعلنا عاليها) عالى المدينة أو عالى قراهم وهو المفعول الأول لجعلنا وقوله تعالى (سافلها) مفعول ثان له وهو أدخل فى الهول والفظاعة من العكس كما مر (وأمطرنا عليهم) فى تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب (حجارة) كائنة (من سجيل) من طين متحجر أو طين عليه كتاب وقد فصل ذلك فى سورة هود (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من القصة (لآيات) لعلامات يستدل بها على حقيقة الحق (للمتوسمين) أى المتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشىء بسمته (وإنها) أى المدينة أو القرى (لبسبيل مقيم) أى طريق ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها (إن فى ذلك) فيما ذكر من المدينة أو القرى أو فى كونها بمرأى من الناس يشاهدونها فى ذهابهم وإيابهم (لآية) عظيمة (للمؤمنين) بالله ورسوله فانهم الذين يعرفون أن ما حاق بهم من العذاب الذى ترك ديارهم بلاقع إنما حاق بهم لسوء صنيعهم وأما غيرهم فيحملون ذلك على الاتفاق أو الأوضاع الفلكية وإفراد الآية بعد جمعها فيما سبق لما أن المشاهد ههنا بقية الآثار لا كل القصة كما فيما سلف (وإن كان) إن مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام هى الفارقة أى وإن الشأن كان (أصحاب الأيكة) وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام والأيكة والليكة الشجرة الملتفة المتكاثفة وكان عامة شجرهم المقل وكانوا يسكنونها فبعثه الله تعالى اليهم (لظالمين) متجاوزين عن الحد (فانتقمنا منهم) بالعذاب روى أن الله تعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث سحابة فالتجؤا اليها يلتمسون الروح فبعث الله تعالى عليهم منها نارا فأحرقتهم فهو عذاب يوم الظلة (وإنهما) يعنى سدوم والأيكة وقيل الأيكة ومدين فانه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثا اليهما فذكر أحدهما منبه على الآخر (لبإمام مبين) لبطريق واضح والإمام اسم ما يؤتم به سمى به الطريق ومطمر البناء واللوح الذى يكتب فيه لانها مما يؤتم به (ولقد كذب أصحاب

الحجر) يعنى ثمود (المرسلين) أى صالحا فان من كذب واحدا من الأنبياء عليهم السلام فقد كذب الجميع لاتفاقهم على التوحيد والأصول التى لاتختلف باختلاف الأمم والأعصار وقيل المراد صالح ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون لخبيب بن عبدالله بن الزبير وأصحابه والحجر وادبين المدينة والشام كانوا يسكنونه (وءاتينٰهم ءايٰتنا) وهى الآيات المنزلة على نبيهم أو المعجزات من الناقة وسقيها وشربها ودرها أو الأدلة المنصوبة لهم (فكانوا عنها معرضين) اعراضا كليا بل كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة مافعلوا (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا ءامنين) من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء لوثاقتها أو من العذاب لحسبانهم أن ذلك يحميهم منه . عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها (فأخذتهم الصيحة مصبحين) وهكذا وقع فى سورة هود وقيل صاح بهم جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء فى الأرض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وفى سورة الأعراف فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء تموجا شديدا يفضى اليها كما مر فى سورة هود (فما أغنى عنهم) ولم يدفع عنهم مانزل بهم (ما كانوا يكسبون) من بناء البيوت الوثيقة والأموال الوافرة والعدد المتكاثرة وفيه تهكم بهم والفاء لترتيب عدم الاغناء الخاص بوقت نزول العذاب حسبما كانوا يرجونه لا عدم الاغناء المطلق فانه أمر مستمر (وما خلقنا السموٰت والأرض وما بينهما إلا بالحق) أى إلا خلقا ملتبسا بالحق والحكمة والمصلحة بحيث لايلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور ولذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء دفعا لفسادهم وإرشادا لمن بقى إلى الصلاح أو الا بسبب العدل والانصاف يوم الجزاء على الأعمال كما ينبىء عنه قوله تعالى (وإن الساعة لآتية) فينتقم الله تعالى لك فيها ممن كذبك (فاصفح) أى أعرض عنهم (الصفح الجميل) اعراضا جميلا وتحمل أذيتهم ولا تعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم وقيل هى منسوخة بآية السيف (إن ربك) الذى يبلغك إلى غاية الكمال (هو الخلٰق) لك ولهم ولسائر الموجودات على الاطلاق (العليم) بأحوالك وأحوالهم بتفاصيلها فلايخفى عليه شىء مما جرى بينك وبينهم فهو حقيق بأن تكل جميع الأمور اليه ليحكم بينكم أو هو الذى خلقكم وعلم تفاصيل أحوالكم وقد علم أن الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح فهو تعليل للامر بالصفح على التقديرين وفى مصحف عثمان وأبى رضى الله تعالى عنهما هو الخالق وهو صالح للقليل والكثير والخلاق مختص بالكثير (ولقد ءاتينٰك سبعا) سبع آيات وهى الفاتحة وعليه عمر وعلى وابن مسعود وأبو هريرة رضى الله تعالى عنهم والحسن وأبو العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة رحمهم الله تعالى وقيل سبع سور وهى الطوال التى سابعتها الأنفال والتوبة فانهما فى حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية وقيل يونس أو الحواميم السبع وقيل الصحائف السبع وهى الاسباع (من المثانى) بيان للسبع من التثنية وهى التكرير فان كان المراد الفاتحة وهو الظاهر فتسميتها مثانى لتكرر قراءتها فى الصلاة وأما تكرر قراءتها فى غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدارا للتسمية ولانها تثنى بما يقرأ بعدها فى الصلاة وأما تكرر نزولها فلا يكون وجها للتسمية لأنها كانت مسماة بهذا الاسم قبل نزولها الثانى إذ السورة مكية بالاتفاق وإن كان المراد غيرها من السور فوجه كونها من المثانى أن كلا من ذلك تكرر قراءته وألفاظه أو قصصه ومواعظه أو من الثناء لاشتماله على ماهو ثناء على الله واحدتها مثناة أو مثنية صفة للآية وأما الصحائف وهى الاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء على الله تعالى كأنها تثنى عليه

سبحانه بأفعاله وصفاته الحسنى ويجوز أن يراد بالمثانى القرآن لما ذكر أولانه مثنى عليه بالإعجاز أو كتب الله تعالى كلها فمن للتبعيض وعلى الأول للبيان (والقرآن العظيم) إن أريد بالسبع الآيات أو السور فمن عطف الكل على البعض أو العام على الخاص وإن أريد به الاسباع أو كل القرآن فهو عطف أحد الوصفين على الآخر كما فى قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب فى المزدحم

أى ولقد أتيناك مايقال له السبع المثانى والقرآن العظيم (لا تمدن عينيك) لا تطمح ببصرك طموح راغب ولا تدم نظرك (إلى مامتعنا به) من زخارف الدنيا وزينتها ومحاسنها وزهرتها (أزواجاً منهم) أصنافا من الكفرة فان مافى الدنيا من أصناف الأموال والذخائر بالنسبة إلى ما أوتيته مستحقر لا يعبأ به أصلا وفى حديث أبى بكر رضى الله تعالى عنه من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وروى أنه وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الأمتعة فقال المسلمون لوكانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله فقيل لهم قد أعطيتم سبع آيات وهى خير من هذه القوافل السبع (ولا تحزن عليهم) حيث لم يؤمنوا ولم ينتظموا اتباعك فى سلك ليتقوى بهم ضعفاء المسلمين وقيل أو أنهم المتمتعون به ويأباه كلمة على فان تمتعهم به لا يكون مدار اللحزن عليهم (واخفض جناحك للمؤمنين) أى تواضع لهم وارفق بهم وألن جانبك لهم وطب نفسا من إيمان الأغنياء (وقل إنى أنا النذير المبين) أى المنذر المظهر لنزول عذاب الله وحلوله (كما أنزلنا على المقتسمين) قيل إنه متعلق بقوله تعالى ولقد آتيناك الخ أى أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب (الذين جعلوا القرآن عضين) أى قسموه إلى حق وباطل حيث قالوا اعنادا وعدوانا بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما أو اقتسموه لأنفسهم استهزاء حيث كان يقول بعضهم سورة البقرة لى وبعضهم سورة آل عمران لى وهكذا أو قسموا ماقرؤا من كتبهم وحرفوه فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه وحمل توسط قوله تعالى لا تمدن عينيك على امداد ماهو المراد بالكلام من التسلية وعقب ذلك بأنه جل المقام عن التشبيه ولقد أوتى عليه الصلاة والسلام ما لم يؤت أحد قبله ولا بعده مثله وقيل انه متعلق بقوله انى أنا النذير المبين فانه فى قوة الأمر بالانذار كأنه قيل أنذر قريشا مثل ما أنزلنا على المقتسمين يعنى اليهود وهو ماجرى على بنى قريظة والنضير بأن جعل المتوقع كالواقع وقد وقع كذلك وأنت خبير بأن مايشبه به العذاب المنذر لابد أن يكون محقق الوقوع معلوم الحال عند المنذرين إذ به تتحقق فائدة التشبيه وهى تأكيد الانذار وتشديده وعذاب بنى قريظة والنضير مع عدم وقوعه اذ ذاك لم يسبق به وعد ووعيد فهم منه فى غفلة محضة وشك مريب وتنزيل المتوقع منزلة الواقع له موقع جليل من الاعجاز لكن اذا صادف مقاما يقتضيه كما فى قوله تعالى إنا فتحنا لك فتحا مبينا ونظائره على أن تخصيص الاقتسام باليهود بمجرد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شركتهم للنصارى فى الاقتسام المتفرع على الموافقة والمخالفة وفى الاقتسام بمعنى التحريف الشامل للكتابين بل تخصيص العذاب المذكور بهم مع كونه من نتائج الاقتسام تخصيص من غير مخصص وقد جعل الموصول مفعولا أول لانذر أى انذر المعضين الذين يجزؤن القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثناعشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعد كل منهم فى مدخل لينفروا الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج منافانه ساحر ويقول الآخر شاعر والآخر كذاب فأهلكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفات وفيه مع مافيه من الاشتراك لماسبق فى عدم كون العذاب الذى شبه به العذاب المنذر واقعا ولا معلوما للمنذرين ولا موعود الوقوع أنه لاداعى إلى تخصيص وصف التعضية بهم وإخراج المقتسمين من بينهم مع كونهم أسوة

لهم فى ذلك فان وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما وصفوا من السحر والشعر والكذب متفرع على وصفهم للقرآن بذلك وهل هو إلا نفس التعضية ولا إلى اخراجهم من حكم الإنذار على أن ما نزل بهم من العذاب لم يكن من الشدة بحيث يشبه به عذاب غيرهم ولا مخصوصا بهم بل عاماً لكلا الفريقين وغيرهم مع أن بعض المنذرين كالوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب قد هلكوا قبل مهلك أكثر المقتسمين يوم بدر ولا الى تقديم المفعول الثانى على الأول كما ترى وقيل انه وصف لمفعول النذير أقيم مقامه والمقتسمون هم القاعدون فى مداخل مكة كما حرر وفيه مع ما مر أن قوله تعالى كما أنزلنا صريح فى أنه من قول الله تعالى لا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام والاعتذار بأن ذلك من باب ما يقوله بعض خواص الملك أمرنا بكذا وان كان الآمر هو الملك حسبما سلف فى قوله تعالى قدرنا انها لمن الغابرين تعسف لا يخفى وان اعمال الوصف الموصوف مما لم يجوزه البصريون فلا بد من الهرب الى مسلك الكوفيين أو المصير الى جعله مفعولا لغير صريح أى أنا النذير المبين بعذاب مثل عذاب المقتسمين وقيل المراد بالمقتسمين الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحا عليه الصلاة والسلام فأهلكهم الله تعالى وأنت تدرى أن عذابهم حيث كان متحققا ومعلوما للمنذرين حسبما نطق به القرآن العظيم صالح لأن يقع مشبها به العذاب المنذر لكن الموصول المذكور عقيبه حيث لم يمكن كونه صفة المقتسمين حينئذ فسواء جعلناه مفعولا أول للنذير أو لما دل هو عليه من أنذر لا يكون للتعرض لعنوان التعضية فى حيز الصلة ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور فى حيز المفعول الثانى فائدة لما أن ذلك إنما يكون للاشعار بعلية الصلة والصفة للحكم الثابت للموصول والموصوف فلا يكون هناك وجه شبه يدور عليه تشبيه عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكهم فى السبب فان المعضين بمعزل من التقاسم على التبييت الذى هو السبب لهلاك أولئك كما أن أولئك بمعزل من التعضية التى هى السبب لهلاك هؤلاء ولا علاقة بين السببين مفهوما ولا وجودا تصحح وقوع أحدهما فى جانب والآخر فى جانب واتفاق الفريقين على مطلق الاتفاق على الشر المفهوم من الاتفاق على الشر المخصوص الذى هو التبييت المدلول عليه بالتقاسم غير مفيد إذ لا دلالة لعنوان التعضية على ذلك وإنما يدل عليه اقتسام المداخل وجعل الموصول مبتدأ على أن خبره الجملة القسمية لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنه الجليل اذا عرفت هذا فاعلم أن الأقرب من الأقوال المذكورة أنه متعلق بالأول وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين وأن الموصول مع صلته صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ومحل الكاف النصب على المصدرية وحديث جلالة المقام عن التشبيه من لوائح النظر الجليل والمعنى لقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ايتاء مماثلا لانزال الكتابين على أهلهما وعدم التعرض لذكر ما أنزل عليهم من الكتابين لأن الغرض بيان المماثلة بين الايتاءين لا بين متعلقيهما والعدول عن تطبيق ما فى جانب المشبه به على ما فى جانب المشبه بأن يقال كما آتينا المقتسمين حسبما وقع فى قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب الخ للتنبيه على ما بين الإيتاءين من التنافى فان الأول على وجه التكرمة والامتنان وشتان بينه وبين الثانى ولا يقدح ذلك فى وقوعه مشبها به فان ذلك انما هو لمسلميته عندهم وتقدم وجوده على المشبه زمانا لا لمزية تعود إلى ذاته كما فى الصلاة الخليلية فان التشبيه فيها ليس لكون رحمة الله تعالى الفائضة على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وآله أتم وأكمل مما فاض على النبى عليه الصلاة والسلام وإنما ذلك للتقدم فى الوجود والتنصيص عليه فى القرآن العظيم فليس فى التشبيه شائبة اشعار بأفضلية المشبه به من المشبه فضلا عن ايهام أفضلية ما تعلق به الأول مما تعلق به الثانى وإنما ذكروا بعنوان الاقتسام انكارا لاتصافهم به مع تحقق ما ينفيه من الإنزال المذكور وايذانا بأنه كان من حقهم أن يؤمنوا بكله حسب ايمانهم بما أنزل عليهم بحكم الاشتراك فى العلة والاتحاد فى الحقيقة التى هى مطلق الوحى وتوسيط قوله تعالى لا تمدن الخ لكمال اتصاله بما هو المقصود من بيان حال ما أوتى النبى عليه الصلاة والسلام

ولقد بين أولا علو شأنه ورفعة مكانه بحيث يستوجب اغتباطه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءه به عما سواه ثم نهى عن الالتفات إلى زهرة الدنيا وعبر عن إيتائها لأهلها بالتمتيع المنبيء عن وشك زوالها عنهم ثم عن الحزن بعدم إيمان المنهمكين فيها وأمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وباظهار قيامه بمواجب الرسالة ومراسم النذارة حسبما فصل فى تضاعيف ما أوتى من القرآن العظيم ثم رجع إلى كيفية إيتائه على وجه أدمج فيه ما يزيح شبه المنكرين ويستنزلهم عن العناد من بيان مشاركته لما لاريب لهم فى كونه وحيا صادقا فتأمل والله عنده علم الكتاب هذا وقد قيل المعنى قل إنى أنا النذير المبين كما قد أنزلنا فى الكتب إنك ستأتى نذيرا على أن المقتسمين أهل الكتاب انتهى يريد أن ما فى كما موصولة والمراد بالمشابهة المستفادة من الكاف الموافقة وهى مع ما فى حيزها فى محل النصب على الحالية من مفعول قل أى قل هذا القول حال كونه كما أنزلنا على أهل الكتابين أى موافقا لذلك فالأنسب حينئذ حمل الاقتسام على التحريف ليكون وصفهم بذلك تعريضا بما فعلوا من تحريفهم وكتمانهم لنعت النبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى عضين جمع عضة وهى الفرقة أصلها عضوة فعلة من عضى الشاة تعضية إذا جعلها أعضاء وإنما جمعت جمع السلامة جبرا للمحذوف كسنين وعزين والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية التى هى تفريق الأعضاء من ذى الروح المستلزم لازالة حياته وإبطال اسمه دون مطلق التجزئة والتفريق اللذين ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيض من المثليات للتنصيص على كمال قبح ما فعلوه بالقرآن العظيم وقيل هى فعلة من عضهته إذا بهته وعن عكرمة العضه السحر بلسان قريش فنقصانها على الأول واو وعلى الثانى هاء (فوربك لنسألنهم أجمعين) أى لنسألن يوم القيامة أصناف الكفرة من المقتسمين وغيرهم سؤال توبيخ وتقريع (عما كانوا يعملون) فى الدنيا من قول وفعل وترك فيدخل فيه ما ذكر من الاقتسام والتعضية دخولا أوليا ولنجزينهم بذلك جزاء موفورا وفيه من التشديد وتأكيد الوعيد ما لا يخفى والفاء لترتيب الوعيد على أعمالهم التى ذكر بعضها وفى التعرض لوصف الربوبية مضافا إليه عليه الصلاة والسلام إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام (فاصدع بما تؤمر) فاجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا أو افرق بين الحق والباطل وأصله الإبانة والتمييز وما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أى ما تؤمر به من الشرائع المودعة فى تضاعيف ما أوتيته من المثانى السبع والقرآن العظيم (وأعرض عن المشركين) أى لا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تتصد للانتقام منهم (إنا كفيناك المستهزئين) بقمعهم وتدميرهم قيل كانوا خمسة من أشراف قريش الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والحرث بن قيس بن الطلاطلة والاسود بن عبد يغوث والاسود بن المطلب يبالغون فى إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال قد أمرت أن أكفيكهم فأومأ إلى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لأخذه فأصاب عرقا فى عقبه فقطعه فمات وأومأ إلى أخمص العاص فدخلت فيه شوكة فقال لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى فمات وأشار إلى عينى الاسود بن المطلب فعمى وإلى أنف الحرث فامتخط قيحا فمات وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (الذين يجعلون مع الله إلها آخر) وصفهم بذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهوينا للخطب عليه باعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام بل اجترؤا على العظيمة التى هى الاشراك بالله سبحانه (فسوف يعلمون) عاقبة ما يأتون ويذرون (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) من كلمات الشرك والطعن فى القرآن والاستهزاء به وبك وتحلية الجملة بالتأكيد لافادة تحقيق ما تتضمنه من التسلية وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم حسب استمرار متعلقه باستمرار ما يوجبه من أقوال الكفرة (فسبح بحمد ربك) فافزع إلى

الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر والحرج بالتسبيح والتقديس ملتبسا بحمده وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام مالايخفى من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الحكم أعنى الأمر بالتسبيح والحمد (وكُنْ مِنَ السّٰجِدِينَ) أى المصلين يكفك ويكشف الغم عنك أو فنزهه عما يقولون ملتبسا بحمده على أن هداك للحق المبين وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (واعبُدْ ربَّكَ) دم على ما أنت عليه من عبادته تعالى وإيثار الاظهار بالعنوان السالف آنفا لتأكيد ما سبق من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الأمر بالعبادة (حتّٰى يأتِيَكَ اليقِينُ) أى الموت فانه متيقن اللحوق بكل حى مخلوق وإسناد الاتيان اليه للايذان بأنه متوجه إلى الحى طالب للوصول اليه والمعنى دم على العبادة مادمت حيا من غير إخلال بها لحظة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم .

سورة النحل

(مكية إلا وإن عاقبتم إلى آخرها . وهى مائة وثمان وعشرون آية)

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

(أتىٰ أمرُ اللهِ) أى الساعة أوما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللإيذان بأن تحققه فى نفسه وإتيانه منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب وإتيانه عبارة عن دنوه واقترابه على طريقة نظم المتوقع فى سلك الواقع أوعن إتيان مباديه القريبة على نهج إسناد حال الأسباب إلى المسببات وأياما كان ففيه تنبيه على كمال قربه من الوقوع واتصاله وتكميل لحسن موقع التفريع فى قوله عز وجل (فلا تَسْتَعْجِلوهُ) فان النهى عن استعجال الشىء وإن صح تفريعه على قرب وقوعه أوعلى وقوع أسبابه القريبة لكنه ليس بمثابة تفريعه على وقوعه إذ بالوقوع يستحيل الاستعجال رأسا لابماذكر من قرب وقوعه ووقوع مباديه والخطاب للكفرة خاصة كما يدل عليه القراءة على صيغة نهى الغائب واستعجالهم وإن كان بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونهوا عنه بضرب من التهكم لا مع المؤمنين سواء أريد بأمر الله ماذكر أوالعذاب الموعود للكفرة خاصة أما الأول فلأنه لايتصور من المؤمنين استعجال الساعة أوما يعمها وغيرها من العذاب حتى يعممهم النهى عنه وأما الثانى فلأن استعجالهم له بطريق الحقيقة واستعجال الكفرة بطريق الاستهزاء كما عرفته فلا ينتظمهما صيغة واحدة والالتجاء إلى إرادة معنى مجازى يعمهما معا من غير أن يكون هناك رعاية نكتة سرية تعسف لايليق بشأن التنزيل الجليل وماروى من أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار فيما بينهم ان هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئاً فنزلت اقترب للناس حسابهم فأشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزلت أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع الناس رؤسهم فلما نزل فلا تستعجلوه اطمأنوا فليس فيه دلالة على عموم الخطاب كما قيل لا لما توهم من أن التصدير بالفاء يأباه فانه بمعزل عن إبائه حسبما تحققته بل لان مناط اطمئنانهم إنما وقوفهم على أن المراد بالاتيان هو الاتيان الادعائى لا الحقيقى الموجب لاستحالة الاستعجال المستلزمة لامتناع النهى عنه لما أن النهى عن الشىء يقتضى إمكانه فى الجملة ومدار ذلك الوقوف إنما هو النهى عن الاستعجال المستلزم لامكانه المقتضى لعدم وقوع المستعجل بعد ولا يختلف ذلك باختلاف المستعجل كائنا من كان بل فيه دلالة واضحة على عدم العموم لأن المراد بأمر

الله إنما هو الساعة وقد عرفت استحالة صدور استعجالها عن المؤمنين نعم يجوز تخصيص الخطاب بهم على تقدير كون أمر الله عبارة عن العذاب الموعود للكفرة خاصة لكن الذى يقضى به الاعجاز التنزيلى أنه خاص بالكفرة كما ستقف عليه ولما كان استعجالهم ذلك من نتائج اشراكهم المستتبع لنسبة الله عز وجل إلى ما لا يليق به من العجز والاحتياج إلى الغير واعتقاد أن أحداً يحجزه عن انجاز وعده وامضاء وعيده وقد قالوا فى تضاعيفه ان صح مجىء العذاب فالأصنام تخلصنا عنه بشفاعتها رد ذلك فقيل بطريق الاستئناف (سُبحانهُ وتعالىَ عمَّا يُشرِكونَ) أى تنزه وتقدس بذاته وجل عن اشراكهم المؤدى إلى صدور أمثال هذه الأباطيل عنهم أو عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم بوجه من الوجوه وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد اشراكهم واستمراره والالتفات إلى الغيبة للايذان باقتضاء ذكر قبائحهم للاعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم وعلى تقدير تخصيص الخطاب بالمؤمنين تفوت هذه النكتة كما يفوت ارتباط المنهى عنه بالمتنزه عنه وقرىء على صيغة الخطاب (يُنزّلُ المَلٰئِكةَ) بيان لتحتم التوحيد حسبما نبه عليه تنبيها اجماليا ببيان تقدس جناب الكبرياء وتعاليه عن أن يحوم حوله شائبة أن يشاركه شىء فى شىء وإيذان بأنه دين أجمع عليه جمهور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمروا بدعوة الناس اليه مع الاشارة إلى سر البعثة والتشريع وكيفية القاء الوحى والتنبيه على طريق علم الرسول عليه الصلاة والسلام باتيان ما أوعدهم به وباقترابه إزاحة لاستبعادهم اختصاصه عليه الصلاة والسلام بذلك وإظهار البطلان رأيهم فى الاستعجال والتكذيب وإيثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك عادة مستمرة له سبحانه والمراد بالملائكة إما جبريل عليه السلام قال الواحدى يسمى الواحد بالجمع إذا كان رئيسا أو هو ومن معه من حفظة الوحى بأمر الله تعالى وقرىء ينزل من الإنزال وتنزل بحذف إحدى التاءين وعلى صيغة المبنى للمفعول من التنزيل (بالرُّوحِ) أى بالوحى الذى من جملته القرآن على نهج الاستعارة فانه يحيى القلوب الميتة بالجهل أو يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد والباء متعلقة بالفعل أو بما هو حال من مفعوله أى ملتبسين بالروح (مِنْ أمرِهِ) بيان للروح الذى أريد به الوحى فانه أمر بالخير أو حال منه أى حال كونه ناشئاً ومبتدأ منه أو صفة له على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أى بالروح الكائن من أمره الناشىء منه أو متعلق بينزل ومن للسببية كالباء مثل ما فى قوله تعالى مما خطيئاتهم أى ينزلهم بأمره (علىَ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ) أن ينزلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهلهم لذلك (أنْ أنذِرُوا) بدل من الروح أى ينزلهم ملتبسين بأن أنذروا أى بهذا القول والمخاطبون به الأنبياء الذين نزلت الملائكة عليهم والآمر هو الله سبحانه والملائكة نقلة للأمر كما يشعر به الباء فى المبدل منه وأن ما مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف أى ينزلهم ملتبسين بأن الشأن أقول لكم أنذروا أو مفسرة على أن تنزيل الملائكة بالوحى فيه معنى القول كأنه قيل يقول بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده انذروا فلا محل لها من الاعراب أو مصدرية لجواز كون صلتها انشائية كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك حسبما ذكر فى أوائل سورة هود فمحلها الجر على البدلية أيضا والانذار الاعلام خلا أنه مختص باعلام المحذور من نذر بالشىء إذا علمه فحذره وأنذره بالأمر انذاراً أى أعلمه وحذره وخوفه فى ابلاغه كذا فى القاموس أى أعلموا الناس (أنّـهُ لا إلٰهَ إلاّ أنا) فالضمير للشأن ومدار وضعه موضعه إدعاء شهرته المغنية عن التصريح به وفائدة تصدير الجملة به الايذان من أول الأمر بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقرير له فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه ابتداء إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن لديه عند وروده فضل تمكن كأنه قيل أنذروا أن الشأن الخطير هذا وانباء مضمونه عن المحذور ليس لذاته بل من حيث اتصاف المنذرين بما يضاده من الاشراك وذلك كاف فى كون اعلامه انذارا وقوله سبحانه (فاتّـقُونِ) خطاب للمستعجلين على طريقة

الالتفات والفاء فصيحة أى إذا كان الأمر كما ذكر من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الأنبياء عليهم السلام وأمرهم
بأن ينذروا الناس أنه لا شريك له فى الألوهية فاتقون فى الاخلال بمضمونه ومباشرة ماينافيه من الاشراك وفروعه التى
من جملتها الاستعجال والاستهزاء وبعد تمهيد الدليل السمعى للتوحيد شرع فى تحرير الأدلة العقلية فقيل (خَلَقَ السَّمٰوٰتِ
وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ) أى أوجدهما على ماهما عليه من الوجه الفائق والنمط اللائق (تَعٰلىٰ) وتقدس بذاته لاسيما بأفعاله
التى من جملتها إبداع هذين المخلوقين (عَمَّا يُشْرِكُونَ) عن اشراكهم المعهود أو عن شركة مايشركونه به من الباطل
الذى لا يبدىء ولا يعيد وبعدما نبه على صنعه الكلى المنطوى على تفاصيل مخلوقاته شرع فى تعداد ما فيه من خلائقه فبدأ
بفعله المتعلق بالأنفس فقال (خَلَقَ الإِنسٰنَ) أى هذا النوع غير الفرد الأول منه (مِنْ نُطْفَةٍ) جماد لاحس له
ولا حراك سيال لا يحفظ شكلا ولا وضعا (فَإِذَا هُوَ) بعد الخلق (خَصِيمٌ) منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم
(مُبِينٌ) لحجته لقن بها وهذا أنسب بمقام الامتنان باعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته أو
مخاصم لخالقه منكر له قائل من يحيى العظام وهى رميم وهذا أنسب بمقام تعداد هنات الكفرة روى أن أبى بن خلف الجمحى
أتى النبى عليه السلام بعظم رميم فقال يا محمد أترى الله تعالى يحيى هذا بعد ماقد رم فنزلت (وَالأَنْعٰمَ) وهى الأزواج
الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز وانتصابها بمضمر يفسره قوله تعالى (خَلَقَهَا) أو بالعطف على الانسان ومابعده
بيان ماخلق لأجله والذى بعده تفصيل لذلك وقوله تعالى (لَكُمْ) إما متعلق بخلقها وقوله (فِيهَا) خبر مقدم وقوله
(دِفْءٌ) مبتدأ وهو مايدفأ به فيقى من البرد والجملة حال من المفعول أو الظرف الأول خبر للمبتدأ المذكور وفيها
حال من دفء إذ لو تأخر لكان صفة (وَمَنٰفِعُ) هى درها وركوبها وحملها والحراثة بها وغير ذلك وإنما عبر عنها بها
ليتناول الكل مع أنه الأنسب بمقام الامتنان بالنعم وتقديم الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترقى إلى الأعلى (وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ) أى تأكلون مايؤكل منها من اللحوم والشحوم وغير ذلك وتغيير النظم للايماء إلى أنها لاتبقى عند الاكل
كما فى السابق واللاحق فان الدفء والمنافع والجمال يحصل منها وهى باقية على حالها ولذلك جعلت محالا لها بخلاف الاكل
وتقديم الظرف للايذان بأن الاكل منها هو المعتاد المعتمد فى المعاش لان الاكل مماعداها من الدجاج والبط وصيد
البر والبحر من قبيل التفكه مع أن فيه مراعاة للفواصل ويحتمل أن يكون معنى الاكل منها أكل مايحصل بسببها فان
الحبوب والثمار المأكولة تكتسب باكراء الإبل وبأثمار نتاجها وألبانها وجلودها (وَلَكُمْ فِيهَا) مع مافصل من أنواع
المنافع الضرورية (جَمَالٌ) أى زينة فى أعين الناس ووجاهة عندهم (حِينَ تُرِيحُونَ) تردونها من مراعيها إلى مراحها
بالعشى (وَحِينَ تَسْرَحُونَ) تخرجونها بالغداة من حظائرها إلى مسارحها فالمفعول محذوف من كلا الفعلين لرعاية
الفواصل وتعيين الوقتين لان مايدور عليه أمر الجمال من تزين الافنية والاكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها إنما
هو عند ورودها وصدورها فى ذينك الوقتين وأما عند كونها فى المراعى فينقطع اضافتها الحسية إلى أربابها وعند
كونها فى الحظائر لايراها راء ولا ينظر إليها ناظر وتقديم الاراحة على السرح لتقدم الورود على الصدور ولكونها
أظهر منه فى استتباع ماذكر من الجمال وأتم فى استجلاب الانس والبهجة إذ فيها حضور بعد غيبة وإقبال بعد إدبار على
أحسن مايكون ملأى البطون مرتفعة الضلوع حافلة الضروع وقرىء حينا تريحون وحينا تسرحون على أن كلا
الفعلين وصف لحينا بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ) جمع ثقل وهو متاع المسافر وقيل أثقالكم
أجرامكم (إِلَىٰ بَلَدٍ) قال ابن عباس رضى الله عنهما أريد به اليمن ومصر والشام ولعله نظر إلى أنها متاجر أهل مكة
وقال عكرمة أريد به مكة ولعله نظر إلى أن أثقالهم وأحمالهم عند القفول من متاجرهم أكثر وحاجتهم إلى الحمولة

أمس والظاهر أنه عام لكل بلد سحيق (لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ) واصلين اليه بأنفسكم مجردين عن الاثقال لولا الابل (إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ) فضلا عن استصحابها معكم وقرىء بفتح الشين وهما لغتان بمعنى الكلفة والمشقة وقيل المفتوح مصدر من شق الأمر عليه شقا وحقيقته راجعة إلى الشق الذى هو الصدع والمكسور النصف كأنه يذهب نصف القوة لما يناله من الجهد فالاضافة إلى الانفس مجازية أو على تقدير مضاف أى الابشق قوى الأنفس وهو استثناء مفرغ من أعم الأشياء أى لم تكونوا بالغيه بشىء من الاشياء الابشق الأنفس ولعل تغيير النظم الكريم السابق الدال على كون الانعام مدارا للنعم السابقة إلى الجلة الفعلية المفيدة لمجرد الحدوث للاشعار بأن هذه النعمة ليست فى العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلق وفى الشمول للاوقات والاطراد فى الاحيان المعهودة بمثابة النعم السابقة فانها بحسب المنشأ وخاصة بالابل وبحسب المتعلق بالضاربين فى الأرض المتقلبين فيها للتجارة وغيرها فى أحايين غير مطردة وأما سائر النعم المعدودة فموجودة فى جميع أصناف الانعام وعامة لكافة المخاطبين دائما أو فى عامة الأوقات (إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسر لكم الأمور الشاقة (وَالْخَيْلَ) هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالابل وهو عطف على الانعام أى خلق الخيل (وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا) تعليل بمعظم منافعها وإلا فالانتفاع بها بالحمل أيضا مما لاريب فى تحققه (وَزِينَةً) عطف على محل لتركبوها وتجريده عن اللام لكونه فعلا لفاعل الفعل المعلل دون الأول وتأخيره لكون الركوب أهم منه أو مصدر لفعل محذوف أى وتتزينوا بها زينة وقرىء بغير واو أى خلقها زينة لتركبوها ويجوز أن يكون مصدرا واقعا موقع الحال من فاعل تركبوها أو مفعوله أى متزينين بها أو متزينا بها (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) أى يخلق فى الدنيا غير ما عدد من أصناف النعم فيكم ولكم مالا تعلمون كنهه وكيفية خلقه فالعدول إلى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد أو لاستحضار الصورة أو يخلق لكم فى الجنة غير ما ذكر من النعم الدنيوية مالا تعلمون أى ماليس من شأنكم أن تعلموه وهو ما أشير اليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويجوز أن يكون هذا اخبارا بأنه سبحانه يخلق من الخلائق مالا علم لنا به دلالة على قدرته الباهرة الموجبة للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة. عن ابن عباس رضى الله عنهما ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل فيزداد نورا إلى نوره وجمالا إلى جماله وعظما إلى عظمه ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك فيدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور وسبعون ألف ملك الكعبة لا يعودون اليه إلى يوم القيامة (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) القصد مصدر بمعنى الفاعل يقال سبيل قصد وقاصد أى مستقيم على طريقة الاستعارة أو على نهج إسناد حال سالكه اليه كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه أى حق عليه سبحانه وتعالى بموجب رحمته ووعده المحتوم بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه إلى الحق الذى هو التوحيد بنصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب لدعوة الناس اليه أو مصدر بمعنى الاقامة والتعديل قاله أبو البقاء أى عليه عز وجل تقويمها وتعديلها أى جعلها بحيث يصل سالكها إلى الحق لكن لا بعد ما كانت فى نفسها منحرفة عنه بل ابداعها ابتداء كذلك على نهج قوله سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل وحقيقته راجعة الى ما ذكر من نصب الأدلة وقد فعل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التى كل واحد منها لاحب يهتدى بمناره وعلم يستضاء بناره وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين وأنزل عليهم كتبا من جملتها هذا الوحى الناطق بحقيقة الحق الفاحص عن كل ما جل من الاسرار ودق الهادى الى سبيل الاستدلال بتلك الأدلة المفضية إلى معالم الهدى المنجية

عن فيا فى الضلالة ومهاوى الردى ألا يرى كيف بين أولا تنزه جناب الكبرياء وتعاليه بحسب الذات عن أن يحوم حوله شائبة توهم الاشراك ثم أوضح سر القاء الوحى على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكيفية أمرهم بانذار الناس ودعوتهم الى التوحيد ونهيهم عن الاشراك ثم كر على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الافعال مرشدا إلى طريقة الاستدلال فبدأ بفعله المتعلق بمحيط العالم الجسمانى ومركزه بقوله تعالى خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ثم فصل أفعاله المتعلقة بما بينهما فبدأ بفعله المتعلق بأنفس المخاطبين ثم ذكر ما يتعلق بما لابد لهم منه فى معايشهم ثم بين قدرته على خلق ما لا يحيط به علم البشر بقوله ويخلق ما لا تعلمون وكل ذلك كما ترى بيان لسبيل التوحيد غب بيان وتعديل له أيما تعديل فالمراد بالسبيل على الأول الجنس بدليل إضافة القصد اليه وقوله تعالى (ومِنهَا) فى محل الرفع على الابتداء اما باعتبار مضمونه وإما بتقدير الموصوف كما فى قوله تعالى ومنا دون ذلك وقد مر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الخ أى بعض السبيل أو بعض من السبيل فانها تؤنث وتذكر (جائِرٌ) أى مائل عن الحق منحرف عنه لا يوصل سالكه اليه وهو طرق الضلال التى لا يكاد يحصى عددها المندرج كلها تحت الجائر وعلى الثانى نفس السبيل المستقيم والضمير فى منها راجع اليها بتقدير المضاف أى ومن جنسها ما عرفت من أن تعديل السبيل وتقويمه إبداعه ابتداء على وجه الاستقامة والعدالة لا تقويمه بعد انحرافه وأيا ما كان فليس فى النظم الكريم تغيير الأسلوب رعاية لأمر مطلوب كما قيل فان ذلك إنما يكون فيما اقتضى الظاهر سبكا معينا ولكن يعدل عن ذلك لنكتة أهم منه كما فى قوله سبحانه الذى يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين فان مقتضى الظاهر أن يقال والذى يسقمنى ويشفين ولكن غير إلى ما عليه النظم الكريم تفاديا عن اسناد ما تكرهه النفس اليه سبحانه وليس المراد ببيان قصد السبيل مجرد اعلام أنه مستقيم حتى يصح اسناد أنه جائر اليه تعالى فيحتاج إلى الاعتذار عن عدم ذلك على أنه لو أريد ذلك لم يوجد لتغيير الأسلوب نكتة وقد بين ذلك فى مواضع غير معدودة بل المراد ما مر من نصب الأدلة لهداية الناس اليه ولا إمكان لإسناد مثله اليه تعالى بالنسبة إلى الطريق الجائر بأن يقال وجائرها حتى يصرف ذلك الاسناد منه تعالى إلى غيره لنكتة تستدعيه ولا يتوهمه متوهم حتى يقتضى الحال دفع ذلك بأن يقال لا جائرها ثم يغير سبك النظم عن ذلك لداعية أقوى منه بل الجملة الظرفية اعتراضية جىء بها لبيان الحاجة إلى البيان والتعديل وإظهار جلالة قدر النعمة فى ذلك والمعنى على الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق وتعديله بما ذكر من نصب الأدلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصد وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة فان ذلك مما ليس بحق على الله تعالى لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته بل هو مخل بحكمته حيث يستدعى تسوية المحسن والمسىء والمطيع والعاصى بحسب الاستعداد واليه أشير بقوله تعالى (وَلَوْ شاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) أى لو شاء أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد هداية موصلة اليه البتة مستلزمة لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك ولكن لم يشأه لأن مشيئته تابعة للحكمة الداعية اليها ولا حكمة فى تلك المشيئة لما أن الذى عليه يدور فلك التكليف واليه ينسحب الثواب والعقاب إنما هو الاختيار الجزئى الذى عليه يترتب الأعمال التى بها نيط الجزاء هذا هو الذى يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام وقد فسر كون قصد السبيل عليه تعالى بانتهائه اليه على نهج الاستقامة وإيثار حرف الاستعلاء على أداة الانتهاء لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلى من غير أن يكون هناك استعلاء لشىء عليه سبحانه وتعالى عنه علوا كبيرا كما فى قوله تعالى هذا صراط على مستقيم فالقصد مصدر بمعنى الفاعل والمراد بالسبيل الجنس كما مر وقوله تعالى ومنها جائر معطوف على الجملة الأولى والمعنى أن قصد السبيل واصل اليه تعالى بالاستقامة وبعضها منحرف عنه ولو شاء لهداكم جميعا إلى الأول وأنت خبير

بأن هذا حق فى نفسه ولكنه بمعزل عن نكتة موجبة لتوسيطه بين ماسبق من أدلة التوحيد وبين ماالحق ولمابين الطريق السمعى للتوحيد على وجه اجمالى وفصل بعض أدلته المتعلقة بأحوال الحيوانات وعقب ذلك ببيان السر الداعى اليه بعثا للمخاطبين على التأمل فيما سبق وحثا على حسن التلقى لما لحق أتبع ذلك ذكر مايدل عليه من أحوال النبات فقيل (هُوَ الذِي أنزَلَ) بقدرته القاهرة (مِنَ السَّماءِ) أى من السحاب أو من جانب السماء (ماءً) أى نوعا منه وهو المطر وتأخره عن المجرور لما مر مرارا من أن المقصود هو الاخبار بأنه أنزل من السماء شيئا هو الماء لا أنه أنزله من السماء والسر فيه ماسلف من أن عند تأخير ماحقه التقديم يبقى الذهن مترقباله مشتاقا اليه فيتمكن لديه عند وروده عليه فضل تمكن (لكمْ مِنْهُ شَرابٌ) أى ماتشربونه وهو اما مرتفع بالظرف الأول أو مبتدأ وهو خبره والجملة صفة لماء والظرف الثانى نصب على الحالية من شراب ومن تبعيضية وليس فى تقديمه ايهام حصر المشروب فيه حتى يفتقر الى الاعتذار بأنه لا بأس به لأن مياه العيون والابار منه لقوله تعالى فسلكه ينابيع فى الأرض وقوله تعالى فأسكناه فى الأرض وقيل الظرف الأول متعلق بانزل والثانى خبر لشراب والجملة صفة لماء وأنت خبير بأن مافيه من توسيط المنصوب بين المجرورين وتوسيط الثانى منهما بين الماء وصفته مما لا يليق بجزالة نظم التنزيل الجليل (ومِنْهُ شَجَرٌ) من ابتدائية أى ومنه يحصل شجر ترعاه المواشى والمراد به ماينبت من الأرض سواء كان له ساق أولا أو تبعيضية مجازا لأنه لما كان سقيه من الماء جعل كأنه منه كقوله: أسنمة الآبال فى ربابه   يعنى به المطر الذى ينبت به الكلأ الذى تأكله الإبل فتسمن أسنمتها وفى حديث عكرمة لاتأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلأ (فيهِ تُسِيمونَ) ترعون من سامت الماشية وأسامها صاحبها وأصلها السومة وهى العلامة لأنها تؤثر بالرعى علامات فى الأرض (يُنبِتُ) أى الله عز وجل وقرىء بالنون (لَكمْ بهِ) بما أنزل من السماء (الزَّرْعَ والزَّيتونَ والنَّخيلَ والأعنابَ) بيان للنعم الفائضة عليهم من الأرض بطريق الاستئناف وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار وأنها سنته الجارية على مر الدهور أو لاستحضار صورة الانبات وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لمامر آنفا مع مافى تقديم أولهما من الاهتمام به لادخال المسرة ابتداء وتقديم الزرع على ماعداه لانه أصل الأغذية وعمود المعاش وتقديم الزيتون لمافيه من الشرف من حيث أنه ادام من وجه وفاكهة من وجه وتقديم النخيل على الأعناب لظهور أصالتها وبقائها وجمع الأعناب للاشارة إلى مافيها من الاشتمال على الاصناف المختلفة وتخصيص الأنواع المعدودة بالذكر مع اندراجها تحت قوله تعالى (ومِنْ كلِّ الثَّمَراتِ) للاشعار بفضلها وتقديم الشجر عليها مع كونه غذاء للانعام لحصوله بغير صنع من البشر أو للارشاد إلى مكارم الاخلاق فان مقتضاها أن يكون اهتمام الانسان بأمر ماتحت يده أكمل من اهتمامه بأمر نفسه أو لان أكثر المخاطبين من أصحاب المواشى ليس لهم زرع ولا ثمر وقيل المراد تقديم مايسام لا تقديم غذائه فانه غذاء حيوانى للانسان وهو أشرف الأغذية وقرىء ينبت من الثلاثى مسندا الى الزرع وما عطف عليه (إنَّ فى ذلكَ) أى فى انزال الماء وانبات مافصل (لآيةً) عظيمة دالة على تفرده تعالى بالالوهية لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة (لقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ) فان من تفكر فى أن الحبة أو النواة تقع فى الأرض وتصل اليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الارض وينشق أعلاها وان كانت منتكسة فى الوقوع ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الاوراق والازهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الاشكال والالوان والخواص والطبائع وعلى نواة قابلة لتوليد الامثال على النمط المحرر لا الى نهاية مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية بالنسبة إلى الكل علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شىء فى شىء من صفات الكمال فضلا عن أن يشاركه أخس الاشياء فى أخص صفاته التى هى الالوهية واستحقاق

العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات الفكرية قطع الآية الكريمة بالتفكر (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وانضاجها (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) يدأبان في سيرهما وإنارتهما أصالة وخلافة وإصلاحهما المانيط بهما صلاحه من المكونات التي من جملتها ما فصل وأجمل كل ذلك لمصالحكم ومنافعكم وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينهم من تصرفها كيف شاؤا كما في قوله تعالى سبحان الذي سخر لنا هذا ونظائره بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم كان ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب إرادتهم وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير إيماء إلى ما في المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين وإيثار صيغة الماضي للدلالة على أن ذلك أمر واحد مستمر وان تجددت آثاره (وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) مبتدأ وخبر أي سائر النجوم في حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوهما مسخرات لله تعالى أو لما خلقن له بإرادته ومشيئته وحيث لم يكن عود منافع النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبلها من الملوين والقمرين لم ينسب تسخيرها إليهم بأداة الاختصاص بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته تعالى من غير دلالة على شيء آخر ولذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث إلى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار وقرىء برفع الشمس والقمر أيضا وقرىء بنصب النجوم على أنه مفعول أول لفعل مقدر ينبيء عنه الفعل المذكور ومسخرات مفعول ثان له أي وجعل النجوم مسخرات بأمره أو على أنه معطوف على المنصوبات المتقدمة ومسخرات حال من الكل والعامل ما في سخر من معنى نفع أي نفعكم بها حال كونها مسخرات لله الذي خلقها ودبرها كيف شاء أو لما خلقن له بإيجاده وتقديره أو لحكمه أو مصدر ميمي جمع لاختلاف الأنواع أي أنواعا من التسخير وما قيل من أن فيه ايذانا بالجواب عما عسى يقال أن المؤثر في تكوين النبات حركات الكواكب وأوضاعها بأن ذلك ان سلم فلا ريب في أنها أيضا أمور ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجوه الممكنة فلا بد لها من موجد مخصص مختار واجب الوجود دفعا للدور والتسلسل فبناه حسبان ما ذكر أدلة على وجود الصانع تعالى وقدرته واختياره وأنت تدري أن ليس الأمر كذلك فانه ليس مما ينازع فيه الخصم ولا يتلعثم في قبوله قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون وقال تعالى ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيي به الارض من بعد موتها ليقولن الله الآية وإنما ذلك أدلة التوحيد من حيث ان من هذا شأنه لا يتوهم أن يشاركه شيء في شيء فضلا عن أن يشاركه الجماد في الألوهية (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ) أي فيما ذكر من التسخير المتعلق بما ذكر مجملا ومفصلا (لَآيَاتٍ) باهرة متكاثرة (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية أظهر جمع الآيات وعلقت بمجرد العقل من غير حاجة إلى التأمل والتفكر ويجوز أن يكون المراد لقوم يعقلون ذلك فالمشار إليه حينئذ تعاجيب الدقائق المودعة في العلويات المدلول عليها بالتسخير التي لا يتصدى لمعرفتها إلا المهرة من أساطين علماء الحكمة ولا ريب في أن احتياجها إلى التفكر أكثر (وَمَا ذَرَأَ) عطف على قوله تعالى والنجوم رفعا ونصبا على أنه مفعول لجعل أي وما خلق (لَكُمْ فِي الْأَرْضِ) من حيوان ونبات حال كونه (مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ) أي أصنافه فان اختلافها غالبا يكون باختلاف اللون مسخر لله تعالى أو لما خلق له من الخواص وبالأحوال والكيفيات أو جعل ذلك مختلف الألوان أي الأصناف لتتمتعوا من ذلك بأي صنف شئتم وقد عطف على ما قبله من المنصوبات وعقب بأن ذكر الخلق لهم مغن عن ذكر التسخير واعتذر بأن الأول لا يستلزم الثاني لزوما عقليا لجواز كون ما خلق لهم عزيز المرام صعب المنال وقيل هو منصوب بفعل مقدر أي خلق وأنبت على أن قوله مختلفا ألوانه حال من مفعوله (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ) الذي ذكر من التسخيرات ونحوها (لَآيَةً) بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد

لا ند له ولا ضد (لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) فان ذلك غير محتاج إلا إلى تذكر ما عسى يغفل عنه من العلوم الضرورية وأما ما يقال من أن اختلافها فى الطباع والهيآت والمناظر ليس إلا بصنع صانع حكيم فدارء مالوحنا به من حسبان ماذكر دليلا على إثبات الصانع تعالى وقد عرفت حقيقة الحال فان إيراد مايدل على اتصافه سبحانه بما ذكر من صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه بل من حيث ان ذلك من المقدمات المسلمة جىء به للاستدلال به على مايقتضيه ضرورة من وحدانيته تعالى واستحالة أن يشاركه شىء فى الألوهية (وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ) شروع فى تعداد النعم المتعلقة بالبحر إثر تفصيل النعم المتعلقة بالبر حيوانا ونباتا أى جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد (لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا) هو السمك والتعبير عنه باللحم مع كونه حيوانا للتلويح بانحصار الانتفاع به فى الأكل ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والتنبيه على وجوب المسارعة إلى أكله كيلا يتسارع اليه الفساد كما ينبىء عنه جعل البحر مبتدأ أكله وللايذان بكمال قدرته تعالى فى خلقه عذبا طريا فى ماء زعاق ومن اطلاق اللحم عليه ذهب مالك والثورى أن من حلف لا يأكل اللحم حنث بأكله والجواب أن مبنى الأيمان العرف ولا ريب فى أنه لا يفهم من اللحم عند الاطلاق ولذلك لو أمر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثلا بالأمر ألا يرى إلى أن الله تعالى سمى الكافر دابة حيث قال إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ولا يحنث بركوبه من حلف لا يركب دابة (وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً) كاللؤلؤ والمرجان (تَلْبَسُونَهَا) عبر فى مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لبسهن لأجلهم (وَتَرَى الْفُلْكَ) السفن (مَوَاخِرَ فِيهِ) جوارى فيه مقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها من المخر وهو شق الماء وقيل هو صوت جرى الفلك (وَلِتَبْتَغُوا) عطف على تستخرجوا وما عطف هو عليه وما بينهما اعتراض لتمهيد مبادى الابتغاء ودفع توهم كونه باستخراج الحلية أو على علة محذوفة أى لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ذكره ابن الانبارى أو متعلقة بفعل محذوف أى وفعل ذلك لتبتغوا (مِنْ فَضْلِهِ) من سعة رزقه بركوبها للتجارة (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) أى تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث أن فيها قطعا لمسافة طويلة مع أحمال ثقيلة فى مدة قليلة من غير مزاولة أسباب السفر بل من غير حركة أصلا مع أنها فى تضاعيف المهالك وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر للايذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معا (وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ) أى جبالا ثوابت وقد مر تحقيقه فى أول سورة الرعد (أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) كراهة أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تميد بكم فان الأرض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالأفلاك أو تتحرك بأدنى سبب محرك فلما خلقت الجبال تفاوتت حافاتها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد وقيل لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة ما هى بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال (وَأَنْهَارًا) أى وجعل فيه أنهارا لأن فى ألقى معنى الجعل (وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) بها إلى مقاصدكم (وَعَلَامَاتٍ) معالم يستدل بها السابلة بالنهار من جبل ومنهل وريح وقد نقل أن جماعة يشمون التراب ويتعرفون به الطرقات (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) بالليل فى البرارى والبحار حيث لا علامة غيره والمراد بالنجم الجنس وقيل هو الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدى وقرىء بضمتين وبضمة وسكون وهو جمع كرهن ورهن وقيل الأول بطريق حذف الواو من النجوم للتخفيف ولعل الضمير لقريش فانهم كانوا كثيرى التردد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم فى أسفارهم وصرف النظم عن سنن الخطاب وتقديم النجم واقحام الضمير للتخصيص كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر

عليه ألزمهم وأوجب عليهم (أفمن يخلق) هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هاتيك الأفاعيل البديعة أو يخلق كل شيء (كمن لا يخلق) شيئا أصلا وهو تبكيت للكفرة وإبطال لاشراكهم وعبادتهم للأصنام بانكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاء ظاهرا أو تعقيب الهمزة بالفاء لتوجيه الانكار إلى توهم المشابهة المذكورة على ما فصل من الأمور العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يؤذن به ما تلوناه من قوله تعالى ولئن سألتهم الآيتين والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه أعظمها وأظهرها واستتباعه إياها أى لكون كل منها خلقا مخصوصا أى بعد ظهور اختصاصه تعالى بمبدئية هذه الشؤن الواضحة الدلالة على وحدانيته تعالى وتفرده بالالوهية واستبداده باستحقاق العبادة يتصور المشابهة بينه وبين ما هو بمعزل من ذلك بالمرة كما هو قضية إشراككم ومدارها وإن كان على تشبيه غير الخالق بالخالق لكن التشبيه حيث كان نسبة تقوم بالمنتسبين اختير ما عليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملكة على العدم وتفاديا عن توسيط عدمها بينها وبين جزئياتها المفصلة قبلها وتنبيها على كمال قبح ما فعلوه من حيث ان ذلك ليس بمجرد رفع الاصنام عن محلها بل هو حط لمنزلة الربوبية إلى مرتبة الجمادات ولا ريب فى أنه أقبح من الاول والمراد بمن لا يخلق كل ما هذا شأنه كائنا ما كان والتعبير عنه بما يختص بالعقلاء للمشاكلة أو العقلاء خاصة ويعرف منه حال غيرهم لدلالة النص فان من يخلق حيث لم يكن كمن لا يخلق وهو من جملة العقلاء فما ظنك بالجماد وأياما كان فدخول الاصنام فى حكم عدم المماثلة والمشابهة إما بطريق الاندراج تحت الموصول العام وإما بطريق الانفهام بدلالة النص على الطريقة البرهانية لا بأنها هى المرادة بالموصول خاصة (أفلا تذكرون) أى ألا تلاحظون فلا تتذكرون ذلك فانه لوضوحه بحيث لا يفتقر إلى شيء سوى التذكر (وإن تعدوا نعمة الله) تذكير إجمالى لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها وكان الظاهر إيراده عقيبها تكملة لها على طريقة قوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون ولعل فصل ما بينهما بقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون للمبادرة إلى إلزام الحجة وإلقام الحجر اثر تفصيل ما فصل من الأفاعيل التى هى أدلة الوحدانية مع ما فيه من سر ستقف عليه ودلالتها عليها وإن لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليها من حيثية الانعام أيضا لكنها حيث كانت مستتبعات الحيثية الأولى استغنى عن التصريح بها ثم بين حالها بطريق الإجمال أى ان تعدوا نعمته الفائضة عليكم مما ذكر وما لم يذكر حسبما يعرب عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا (لا تحصوها) أى لا تطيقوا حصرها وضبط عددها ولو اجمالا فضلا عن القيام بشكرها وقد خرجنا عن عهدة تحقيقه فى سورة ابراهيم بفضل الله سبحانه (إن الله لغفور) حيث يستر ما فرط منكم من كفرانها والاخلال بالقيام بحقوقها ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك (رحيم) حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون وتذرون من أصناف الكفر التى من جملتها عدم الفرق بين الخالق وغيره وكل من ذلك نعمة وأيما نعمة فالجملة تعليل للحكم بعدم الاحصاء وتقديم وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية (والله يعلم ما تسرون) تضمرونه من العقائد والأعمال (وما تعلنون) أى تظهرونه منهما وحذف العائد لمراعاة الفواصل أى يستوى بالنسبة إلى علمه المحيط سركم وعلنكم وفيه من الوعيد والدلالة على اختصاصه سبحانه بنعوت الالهية ما لا يخفى وتقديم السر على العلن لما ذكرناه فى سورة البقرة وسورة هود من تحقيق المساواة بين علميه المتعلقين بهما على أبلغ وجه كان علمه تعالى بالسر أقدم منه بالعلن أو لأن كل شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية (والذين يدعون) شروع فى تحقيق كون الأصنام بمعزل من استحقاق العبادة وتوضيحه بحيث لا يبقى فيه شائبة ريب بتعديد أوصافها وأحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة وتلك الأحوال وإن كانت غنية

عن البيان لكنها شرحت للتنبيه على كمال حماقة عبدتها وأنهم لا يعرفون ذلك إلا بالتصريح أى والآلهة الذين يعبدهم الكفار (مِنْ دُونِ اللهِ) سبحانه وقرىء على صيغة المبنى للمفعول وعلى الخطاب (لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا) من الأشياء أصلا أى ليس من شأنهم ذلك ولما لم يكن بين نفى الخالقية وبين المخلوقية تلازم بحسب المفهوم وان تلازما فى الصدق أثبت لهم ذلك صريحا فقيل (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) أى شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية لأنها ذوات ممكنة مفتقرة فى ماهياتها ووجوداتها إلى الموجد وبناء الفعل للمفعول لتحقيق التضاد والمقابلة بين ما أثبت لهم وبين ما نفى عنهم من وصفى المخلوقية والخالقية وللايذان بعدم الافتقار إلى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جل جلاله ويجوز أن يجعل الخلق الثانى عبارة عن النحت والتصوير رعاية للمشاكلة بينه وبين الأول ومبالغة فى كونهم مصنوعين لعبدتهم وأعجز عنهم وايذانا بكمال ركاكة عقولهم حيث أشركوا بخالقهم مخلوقهم وأما جعل الأول أيضا عبارة عن ذلك كما فعل فلا وجه له إذ القدرة على مثل ذلك الخلق ليست مما يدور عليه استحقاق العبادة أصلا ولما أن اثبات المخلوقية لهم غير مستدع لنفى الحياة عنهم لما أن بعض المخلوقين أحياء صرح بذلك فقيل (أَمْوَاتٌ) وهو خبر ثان للموصول لا للضمير كما قيل أو خبر مبتدأ محذوف وحيث كان بعض الأموات مما يعتريه الحياة سابقا أو لاحقا كأجساد الحيوان والنطف التى ينشئها الله تعالى حيوانا احترز عن ذلك فقيل (غَيْرُ أَحْيَاءٍ) أى لا يعتريها الحياة أصلا فهى أموات على الاطلاق وأما قوله تعالى (وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) أى ما يشعر أولئك الآلهة أيان يبعث عبدتهم فعلى طريقة التهكم بهم لأن شعور الجماد بالأمور الظاهرة بديهى الاستحالة عند كل أحد فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير وفيه ايذان بأن البعث من لوازم التكليف وإن معرفة وقته مما لا بد منه فى الألوهية (إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) لا يشاركه شىء فى شىء وهو تصريح بالمدعى وتمحيض للنتيجة غب إقامة الحجة (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) وأحوالها التى من جملتها ما ذكر من البعث وما يعقبه من الجزاء المستلزم لعقوبتهم وذلتهم (قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ) للوحدانية جاحدة لها أو للآيات الدالة عليها (وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) عن الاعتراف بها أو عن الآيات الدالة عليها والفاء للايذان بأن إصرارهم على الانكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة والمعنى أنه قد ثبت بما قرر من الحجج والبينات اختصاص الالهية به سبحانه فكان من نتيجة ذلك اصرارهم على ما ذكر من الانكار والاستكبار وبناء الحكم المذكور على الموصول للاشعار بكونه معللا بما فى حيز الصلة فان الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء المتنوع إلى الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية يؤدى إلى قصر النظر على العاجل والاعراض عن الدلائل السمعية والعقلية الموجب لانكارها وإنكار مؤداها والاستكبار عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقه وأما الايمان بها وبما فيها فيدعو لا محالة إلى التأمل فى الآيات والدلائل رغبة ورهبة فيورث ذلك يقينا بالوحدانية وخضوعا لأمر الله تعالى (لَا جَرَمَ) أى حقا وقد مر تحقيقه فى سورة هود (أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ) من إنكار قلوبهم (وَمَا يُعْلِنُونَ) من استكبارهم وقولهم للقرآن أساطير الأولين وغير ذلك من قبائحهم فيجازيهم بذلك (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد أى لا يحب المستكبرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالة عليها أو لا يحب جنس المستكبرين فكيف بمن استكبر عما ذكر (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ) أى لأولئك المنكرين المستكبرين وهو بيان لإضلالهم غب بيان ضلالهم (مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ) القائل الوافدون عليهم أو المسلمون أو بعض منهم على طريق التهكم وماذا منصوب بما بعده أو مرفوع أى أى شىء أنزل أو ما الذى أنزله (قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أى ما تدعون نزوله والمنزل بطريق السخرية أحاديث الأولين وأباطيلهم وليس من الإنزال فى شىء قيل هؤلاء القائلون هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخل مكة

ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سؤال وفود الحاج عما نزل عليه عليه السلام (ليحملوا) متعلق بقالوا أى قالوا ماقالوا ليحملوا (أوزارهم) الخاصة بهم وهى أوزار ضلالهم (كاملة) لم يكفر منها شىء بنكبة أصابتهم فى الدنيا كما يكفر بها أوزار المؤمنين (يوم القيامة) ظرف ليحملوا (ومن أوزار الذين يضلونهم) وبعض أوزار من ضل باضلالهم وهو وزر الاضلال لأنهما شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر واللام للتعليل فى نفس الأمر من غير أن يكون غرضا وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار الاضلال أو باعتبار حال قولهم لا حال الحمل (بغير علم) حال من الفاعل أى يضلونهم غير عالمين بأن مايدعون اليه طريق الضلال وأما حمله على معنى غير عالمين بأنهم يحملون يوم القيامة أوزار الضلال والاضلال على أن يكون العامل فى الحال قالوا وتأييده بما سيأتى من قوله تعالى وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون من حيث ان حمل ماذكر من أوزار الضلال والاضلال من قبيل اتيان العذاب من حيث لايشعرون فيرده أن الحمل المذكور انما هو يوم القيامة والعذاب المذكور انما هو العذاب الدنيوى كما ستقف عليه أو حال من المفعول أى يضلون من لايعلم أنهم ضلال وفائدة التقييد بها الاشعار بأن مكرهم لايروج عند ذى لب وانما يتبعهم الأغبياء والجهلة والتنبيه على أن جهلهم ذلك لايكون عذرا اذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق الحقيق بالاتباع وبين المبطل (ألا ساء ما يزرون) أى بئس شيأ يزرونه ماذكر (قد مكر الذين من قبلهم) وعيد لهم برجوع غائلة مكرهم إلى أنفسهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل أى قد سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله تعالى (فأتى الله) أى أمره وحكمه (بنيانهم) وقرىء بيتهم وبيوتهم (من القواعد) وهى الأساطين التى تعمد وأساسه فضعضعت أركانه (فخر عليهم السقف من فوقهم) أى سقط عليهم سقف بنيانهم إذ لايتصور له القيام بعد تهدم القواعد شبهت حال أولئك الماكرين فى تسويتهم المكايد والمنصوبات التى أرادوا بها الايقاع برسل الله سبحانه وفى ابطاله تعالى تلك الحيل والمكايد وجعله اياها أسبابا لهلاكهم بحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين فأتى ذلك من قبل أساطينه بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا وقرىء فخر عليهم السقف بضمتين (وأتاهم العذاب) أى الهلاك والدمار (من حيث لايشعرون) باتيانه منه بل يتوقعون اتيان مقابله مما يريدون ويشتهون والمعنى أن هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الأولين سيأتيهم من العذاب مثل ما أتاهم وهم لايحتسبون والمراد به العذاب العاجل لقوله سبحانه (ثم يوم القيامة يخزيهم) فانه عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى هذا الذى فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء أو ماهو أعم منه ومما ذكر من عذاب أولئك جزاؤهم فى الدنيا ويوم القيامة يخزيهم أى يذلهم بعذاب الخزى على رؤس الاشهاد وأصل الخزى ذل يستحيى منه وثم للايماء إلى مابين الجزاءين من التفاوت مع مايدل عليه من التراخى الزمانى وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزى على يوم القيامة كما هو المتبادر من تقديم الظرف على الفعل بل لأن الاخبار بجزائهم فى الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء أخر ويبقى النفس مترقبة إلى وروده سائلة عنه بأنه ماذا مع تيقنها بأنه فى الآخرة فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر اخزاؤهم لاكونه يوم القيامة والضمير اما للمفترين فى حق القرآن الكريم أولهم ولمن مثلوا بهم من الماكرين كما أشير اليه وتخصيصه بهم بأباه السباق والسياق كما ستقف عليه (ويقول) لهم تفضيحا وتوبيخا فهو الخ بيان للاخزاء (أين شركائى) أضافهم اليه سبحانه حكاية لاضافتهم الكاذبة ففيه توبيخ اثر توبيخ مع الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون فيهم) أى تخاصمون الأنبياء والمؤمنين فى شأنهم بأنهم شركاء حقا حين بينوا لكم بطلانها والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة أو المدافعة على طريقة الاستهزاء والتبكيت والاستفسار عن مكانهم لايوجب غيبتهم حقيقة حتى

يعتذر بأنهم يجوز أن يحال بينهم وبين عبادتهم حينئذ ليتفقدوها فى ساعة علقوا بها الرجاء فيها أو بأنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب بل يكفى فى ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذى كانوا يزعمون أنهم متصفون من عنوان الإلهية فليس هناك شركاء ولا أما كنها على أن قوله ليتفقدوا ليس بسديد فانه قد تبين عندهم الأمر حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصور منهم التفقد وقرىء بكسر النون أى تشاقوننى على أن مشاقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين لاسيما فى شأن متعلق به سبحانه مشاقة له عز وجل (قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) من أهل الموقف وهم الأنبياء والمؤمنون الذين أوتوا علما بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم فى الدنيا إلى التوحيد فيجادلونهم ويتكبرون عليهم أى يقولون توبيخا لهم وإظهارا للشماتة بهم وتقريرا لما كانوا يعظونهم وتحقيقا لما أوعدوهم به له إيثار صيغة الماضى للدلالة على تحققه وتحتم وقوعه حسبما هو المعتاد فى اخباره سبحانه وتعالى كقوله ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الأعراف (إِنَّ الْخِزْيَ) الفضيحة والذل والهوان (الْيَوْمَ) منصوب بالخزى على رأى من يرى أعمال المصدر المصدر باللام أو بالاستقرار فى الظرف وفيه فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف إلا أنه مغتفر فى الظروف وإيراده للاشعار بأنهم كانوا قبل ذلك فى عزة وشقاق (وَالسُّوءَ) العذاب (عَلَى الْكَافِرِينَ) بالله تعالى وبآياته ورسله (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) بتأنيث الفعل وقرىء بتذكيره وبادغام التاء فى التاء والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم إياهم لما فيها من الهول والموصول فى محل الجر على أنه نعت للكافرين أو بدل منه أو فى محل النصب أو الرفع على الذم وفائدته تخصيص الخزى والسوء بمن استمر كفره إلى حين الموت دون من آمن منهم ولو فى آخر عمره أى على الكافرين المستمرين على الكفر إلى أن يتوفاهم الملائكة (ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) أى حال كونهم مستمرين على الكفر فانه ظلم منهم لانفسهم وأى ظلم حيث عرضوها للعذاب المخلد وبدلوا فطرة الله تبديلا (فَأَلْقَوُا السَّلَمَ) أى فيلقون والعدول إلى صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وهو عطف على قوله تعالى ويقول أين شركائى وما بينهما جملة اعتراضية جىء بها تحقيقا لما حاق بهم من الخزى على رؤس الاشهاد أى فيسالمون ويتركون المشاقة وينزلون عما كانوا عليه فى الدنيا من الكبر وشدة الشكيمة قائلين (مَا كُنَّا نَعْمَلُ) فى الدنيا (مِنْ سُوءٍ) أى من شرك قالوه منكرين لصدوره عنهم كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين وإنما عبروا عنه بالسوء اعترافا بكونه سيئا لا انكارا لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم ويجوز أن يكون تفسير السلم على أن يكون المراد به الكلام الدال عليه وعلى التقديرين فهو جواب عن قوله سبحانه أين شركائى كما فى سورة الأنعام لا عن قول أولى العلم ادعاء لعدم استحقاقهم لما دهمهم من الخزى والسوء (بَلَى) رد عليهم من قبل أولى العلم واثبات لما نفوه أى بلى كنتم تعملون ما تعملون (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فهو يجازيكم عليه وهذا أوانه (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ) أى كل صنف بابه المعد له وقيل أبوابها أصناف عذابها فالدخول عبارة عن الملابسة والمقاساة (خَالِدِينَ فِيهَا) ان أريد بالدخول حدوثه فالحال مقدرة وإن أريد مطلق الكون فيها فهى مقارنة (فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) عن التوحيد كما قال تعالى قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وذكرهم بعنوان التكبر للاشعار بعليته لثوائهم فيها والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم وتأويل قولهم ما كنا نعمل من سوء بأنا ما كنا عاملين ذلك فى اعتقادنا روما للمحافظة على أن لا كذب ثمة يرده الرد المذكور وما فى سورة الأنعام من قوله تعالى انظر كيف كذبوا على أنفسهم (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) أى المؤمنين وصفوا بالتقوى إشعارا بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشىء عن التقوى (مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا) سلكوا فى الجواب مسلك السؤال من غير تلعثم ولا تغيير فى الصورة والمعنى أى أنزل خيرا فانه جواب مطابق للسؤال وسبكا للواقع فى نفس الأمر مضمونا وأما الكفرة فانهم خذلهم الله تعالى كما غيروا

الجواب عن نهج الحق الواقع الذى ليس له من دافع غير واصورته وعدلوا بها عن سنن السؤال حيث رفعوا الأساطير رو مالما من انكار النزول روى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى عليه السلام فاذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا إن لم تلقه كان خيرا لك فيقول أنا شر وافد ان رجعت إلى قومى دون أن أستطلع أمر محمد وأراه فيلقى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين قالوا خيرا (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا) أى أعمالهم أو فعلوا الإحسان (فِى هَٰذِهِ) الدار (الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) أى مثوبة حسنة مكافأة فيها (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ) أى مثوبتهم فيها (خَيْرٌ) مما أوتوا فى الدنيا من المثوبة أو خير على الاطلاق فيجوز اسناد الخيرية إلى نفس دار الآخرة (وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) أى دار الآخرة حذف لدلالة ما سبق عليه وهذا كلام مبتدأ مدح الله تعالى به المتقين وعدجوابهم المحكى من جملة إحسانهم ووعدهم بذلك ثوابى الدنيا والآخرة فلا محل له من الاعراب أو بدل من خيرا أو تفسير له أى أنزل خيرا هو هذا الكلام الجامع قالوه ترغيبا للسائل (جَنَّاتُ عَدْنٍ) خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى لهم جنات ويجوز أن يكون هو المخصوص بالمدح (يَدْخُلُونَهَا) صفة لجنات على تقدير تنكير عدن وكذلك (تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أو كلاهما حال على تقدير علميته (لَهُمْ فِيهَا) فى تلك الجنات (مَا يَشَاءُونَ) الظرف الأول خبر لما والثانى حال منه والعامل ما فى الأول أو متعلق به أى حاصل لهم فيها ما يشاؤن من أنواع المشتهيات وتقديمه للاحتراز عن توهم تعلقه بالمشيئة أو لما مر مرارا من أن تأخير ما حقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عن وروده عليها فضل تمكن (كَذَٰلِكَ) مثل ذلك الجزاء الاوفى (يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ) اللام للجنس أى كل من يتقى من الشرك والمعاصى ويدخل فيه المتقون المذكورون دخولا أوليا ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى أو للعهد فيكون فيه تحسير للكفرة (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) نعت المتقين وقوله تعالى (طَيِّبِينَ) أى طاهرين عن دنس الظلم لأنفسهم حال من الضمير وفائدته الايذان بأن ملاك الأمر فى التقوى هو الطهارة عما ذكر إلى وقت توفيهم ففيه حث للمؤمنين على الاستمرار على ذلك ولغيرهم على تحصيله وقيل فرحين طيبى النفوس ببشارة الملائكة إياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية إلى جناب القدس (يَقُولُونَ) حال من الملائكة أى قائلين لهم (سَلَامٌ عَلَيْكُمُ) قال القرظى رحمه الله إذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت عليه السلام فقال السلام عليك يا ولى الله الله تعالى يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ) اللام للعهد أى جنات عدن الخ ولذلك جردت عن النعت والمراد دخولهم لها فى وقته فان ذلك بشارة عظيمة وإن تراخى المبشر به لا دخول القبر الذى هو روضة من رياضها إذ ليس فى البشارة به ما فى البشارة بدخول نفس الجنة (بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة أو بالذى كنتم تعملونه من ذلك وقيل المراد بالتوفى التوفى للحشر لأن الأمر بالدخول حينئذ يتحقق (هَلْ يَنظُرُونَ) أى ما ينتظر كفار مكة المار ذكرهم (إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ) لقبض أرواحهم بالعذاب جعلوا منتظرين لذلك وشتان بينهم وبين انتظاره لا لانه يلحقهم البتة لحوق الأمر المنتظر بل لمباشرتهم لأسبابه الموجبة له المؤدية اليه فكأنهم يقصدون اتيانه ويترصدون لوروده وقرىء بتذكير الفعل (أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ) التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام إشعار بأن اتيانه لطف به عليه الصلاة والسلام وإن كان عذابا عليهم والمراد بالأمر العذاب الدنيوى لا القيامة لكن لا لان انتظارها يجامع انتظار اتيان الملائكة فلا يلائمه العطف بأو لانها ليست نصا فى العناد إذ يجوز أن يعتبر منع الخلو ويراد بإيرادها كفاية كل واحد من الأمرين فى عذابهم بل لان قوله تعالى فيما سيأتى ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم الآية صريح فى أن المراد به ما أصابهم من العذاب الدنيوى (كَذَٰلِكَ) أى مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم

والتكذيب والاستهزاء (فعل الذين) خلوا (من قبلهم) من الأمم (وما ظلمهم الله) بما سيتلى من عذابهم (ولكن كانوا) بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك (أنفسهم يظلمون) كان الظاهر أن يقال ولكن كانوا هم الظالمين كما في سورة الزخرف لكنه أوثر ما عليه النظم الكريم لافادة أن غائلة ظلمهم آيلة اليهم وعاقبته مقصورة عليهم مع استلزام اقتصار ظلم كل أحد على نفسه من حيث الوقوع اقتصاره عليه من حيث الصدور وقد مر تحقيقه في سورة يونس (فأصابهم) عطف على قوله تعالى فعل الذين من قبلهم وما بينهما اعتراض لبيان أن فعلهم ذلك ظلم لانفسهم (سيئات ما عملوا) أى أجزية أعمالهم السيئة على طريقة تسمية المسبب باسم سببه ايذانا بفظاعته لا على حذف المضاف فانه يوهم أن لهم أعمالا غير سيئاتهم (وحاق بهم) أى أحاط بهم من الحيق الذى هو إحاطة الشر وهو أبلغ من الإصابة وأفظع (ماكانوا به يستهزءون) من العذاب (وقال الذين أشركوا) أى أهل مكة وهو بيان لفن آخر من كفرهم والعدول عن الاضمار إلى الموصول لتقريعهم بما في حيز الصلة وذمهم بذلك من أول الأمر (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء) أى لو شاء عدم عبادتنا لشيء غيره كما نقول لما عبدنا ذلك (نحن ولا آباؤنا) الذين نقتدى بهم فى ديننا (ولا حرمنا من دونه من شيء) من السوائب والبحائر وغيرها وإنما قالوا ذلك تكذيبا للرسول عليه الصلاة والسلام وطعنا فى الرسالة رأسا متمسكين بأن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع فلو أنه شاء أن نوحده ولا نشرك به شيئا ولا نحرم مما حرمنا شيئا كما يقول الرسل وينقلونه من جهة الله عز وجل لكان الأمر كما شاء من التوحيد ونفى الاشراك وما يتبعهما وحيث لم يكن كذلك ثبت أنه لم يشأ شيئا من ذلك وإنما يقول الرسل من تلقاء أنفسهم فأجيب عنه بقوله عز وجل (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (فعل الذين من قبلهم) من الأمم أى أشركوا بالله وحرموا حله وردوا رسله وجادلوهم بالباطل حين نبهوهم على الخطا وهدوهم إلى الحق (فهل على الرسل) الذين يبلغون رسالات الله وعزائم أمره ونهيه (إلا البلاغ المبين) أى ليست وظيفتهم الا التبليغ للرسالة تبليغا واضحا أو موضحا وإبانة طريق الحق وإظهار أحكام الوحى الذى من جملتها تحتم تعلق مشيئة الله تعالى باهتداء من صرف قدرته واختياره إلى تحصيل الحق لقوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأما الجاؤهم إلى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم شاؤا أو أبوا كما هو مقتضى استدلالهم فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التى عليها يدور أمر التكليف فى شىء حتى يستدل بعدم ظهور آثاره على عدم حقية الرسل أو على عدم تعلق مشيئته تعالى بذلك فان ما يترتب عليه الثواب والعقاب من أفعال العباد لابد فى تعلق مشيئته تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختيارية له وصرف اختيارهم الجزئى إلى تحصيله وإلا لكان الثواب والعقاب اضطراريين فالفاء للتعليل كأنه قيل كذلك فعل أسلافهم وذلك باطل فان الرسل ليس شأنهم الا التبليغ أو امر الله تعالى ونواهيه لا تحقيق مضمونهما واجراء موجبها على الناس قسرا والجاء وإيراد كلمة على للايذان بأنهم فى ذلك مأمورون وبأن ما يبلغونه حق للناس عليهم ايفاؤه وبهذا ظهر أن حمل قولهم لو شاء الله الخ على الاستهزاء لا يلائم الجواب والله تعالى أعلم بالصواب (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) تحقيق لكيفية مشيئته تعالى بافعال العباد بعد بيان أن الالجاء ليس من وظائف الرسالة ولا من باب المشيئة المتعلقة بما يدور عليه الثواب والعقاب من الافعال الاختيارية لهم أى بعثنا فى كل أمة من الأمم الخالية رسولا خاصا بهم (أن اعبدوا الله) يجوز أن تكون أن مفسرة لما فى البعث من معنى القول وأن تكون مصدرية أى بعثنا بأن اعبدوا الله وحده (واجتنبوا الطاغوت) هو الشيطان وكل ما يدعو إلى الضلالة (فمنهم) أى من تلك الأمم والفاء فصيحة أى فبلغوا ما بعثوا به من الأمر بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت فتفرقوا فمنهم (من هدى الله) إلى الحق الذى هو عبادته واجتناب الطاغوت بعد صرف قدرتهم واختيارهم الجزئى إلى تحصيله (ومنهم

مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَٰلَةُ) أى وجبت وثبتت إلى حين الموت لعناده واصراره عليها وعدم صرف قدرته إلى تحصيل الحق وتغيير الأسلوب للاشعار بأن ذلك لسوء اختيارهم كقوله تعالى وإذا مرضت فهو يشفين فلم يكن كل من مشيئة الهداية وعدمها الا حسبما حصل منهم من التوجه إلى الحق وعدمه الا بطريق القسر والالجاء حتى يستدل بعدمهما على عدم تعلق مشيئته تعالى بعبادتهم له تعالى وحده (فَسِيرُوا) يامعشر قريش (فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا) فى أكنافها (كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) من عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة لعلكم تعتبرون حين تشاهدون فى منازلهم وديارهم آثار الهلاك والعذاب وترتيب الأمر بالسير على مجرد الاخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير اخبار بحلول العذاب للايذان بأنه غنى عن البيان وأن ليس الخبر كالعيان وترتيب النظر على السير لما أنه بعده وأن ملاك الأمر فى تلك العاقبة هو التكذيب والتعلل بأنه لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء (إِن تَحْرِصْ) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء بفتح الراء وهى لغية (عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ) أى ان تطلب هدايتهم بجهدك (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ) أى فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره والمراد به قريش وإنما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على أنهم ممن حقت عليه الضلالة وللاشعار بعلة الحكم ويجوز أن يكون المذكور علة للجزاء المحذوف أى ان تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك لأن الله لايهدى من يضله وهؤلاء من جملتهم وقرىء لايهدى على بناء المفعول أى لايقدر أحد على هداية من يضله الله تعالى وقرىء لايهدى بفتح الهاء وإدغام تاء يهتدى فى الدال ويجوز أن يكون يهدى بمعنى يهتدى وقرىء يضل بفتح الياء وقرىء لاهادى لمن يضل ولمن أضل (وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ) ينصرونهم فى الهداية أو يدفعون العذاب عنهم وصيغة الجمع فى الناصرين باعتبار الجمعية فى الضمير فان مقابلة الجمع بالجمع يقتضى انقسام الآحاد إلى الآحاد لا لأن المراد نفى طائفة من الناصرين من كل منهم (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ) شروع فى بيان فن آخر من أباطيلهم وهو انكارهم البعث (جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ) مصدر فى موقع الحال أى جاهدين فى أيمانهم (لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ) ولقد رد الله تعالى عليهم أبلغ رد بقوله الحق (بَلَىٰ) أى بلى يبعثهم (وَعْدًا) مصدر مؤكد لما دل عليه بلى فان ذلك موعد من الله سبحانه أو المحذوف أى وعد بذلك وعدا (عَلَيْهِ) صفة لوعد أى وعدا ثابتا عليه انجازه لامتناع الخلف فى وعده أو لأن البعث من مقتضيات الحكمة (حَقًّا) صفة أخرى له أو نصب على المصدرية أى حق حقا (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ) لجهلهم بشؤون الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه ومالا يجوز وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة التى جرت عادته سبحانه بمراعاتها (لَا يَعْلَمُونَ) أنه يبعثهم فيبتون القول بعدمه أو أنه وعد عليه حق فيكذبونه قائلين لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ) غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير لمن يموت إذ التبيين يعم المؤمنين أيضا فانهم وإن كانوا عالمين بذلك لكنه عند معاينة حقيقة الحال يتضح الأمر فيصل علمهم إلى مرتبة عين اليقين أى يبعثهم ليبين لهم بذلك وبما يحصل لهم من مشاهدة الأحوال كما هى ومعاينتها بصورها الحقيقية الشأن (الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ) من الحق المنتظم لجميع ماخالفوه مما جاء به الشرع المبين ويدخل فيه البعث دخولا أوليا (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا) بالله سبحانه بالاشراك وإنكار البعث وتكذيب وعده الحق (أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ) فى كل مايقولون لا سيما فى قولهم لا يبعث الله من يموت والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته وللاشعار بعلية ماذكر فى حيز الصلة للتبيين وما عطف عليه وجعلهما غاية للبعث المشار اليه باعتبار وروده فى معرض الرد على المخالفين وإبطال مقالة المعاندين المستدعى للتعرض لما يردعهم عن المخالفة

ويلجئهم إلى الاذعان للحق فان الكفرة إذا علموا أن تحقيق البعث إذا كان لتبيين أنه حق وليعلموا أنهم كاذبون فى إنكاره كان ذلك أزجر لهم عن إنكاره وأدعى إلى الاعتراف به ضرورة أنه يدل على صدق العزيمة على تحقيقه كما تقول لمن ينكر أنك تصلى لأصلين رغما لأنفك وإظهارا لكذبك ولأن تكرر الغايات أدل على وقوع الفعل المغيا بها وإلا فالغاية الأصلية للبعث باعتبار ذاته إنما هو الجزاء الذى هو الغاية القصوى للخلق المغيا بمعرفته عز وجل وعبادته وإنما لم يذكر ذلك لتكرر ذكره فى مواضع أخر وشهرته وإنما لم يدرج علم الكفار بكذبهم تحت التبيين بأن يقال وإن الذين كفروا كانوا كاذبين بل جىء بصيغة العلم لأن ذلك ليس مما تعلق به التبيين الذى هو عبارة عن إظهار ما كان مبهما قبل ذلك بأن يخبر به فيختلف فيه كالبعث الذى نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون واما كذب الكافرين فليس من هذا القبيل فما يتعلق به علم ضرورى حاصل لهم من قبل أنفسهم وقدمر تحقيقه فى سورة التوبة عند قوله تعالى حتى يتبين لك الذين صدقوا وإنما خص الاسناد بهم حيث لم يقل وليعلموا أن الكافرين الآية لأن علم المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضا (إِنَّمَا قَوْلُنَا) استئناف لبيان كيفية التكوين على الاطلاق ابداء وإعادة بعد التنبيه على انية البعث ومنه يظهر كيفيته فما كافة وقولنا مبتدأ وقوله (لِشَيْءٍ) أى أى شىء كان مما عز وهان متعلق به على أن اللام للتبليغ كهى فى قولك قلت له قم فقام وجعلها الزجاج سببية أى لأجل شىء وليس بواضح والتعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئته تعالى به لا أنه كان شيأ قبل ذلك (إِذَا أَرَدْنَاهُ) ظرف لقولنا أى وقت إرادتنا لوجوده (أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ) خبر للمبتدأ (فَيَكُونُ) إما عطف على مقدر يفصح عنه الفاء وينسحب عليه الكلام أى فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون واما جواب لشرط محذوف أى فاذا قلنا ذلك فهو يكون وليس هناك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور حتى يقال إنه يلزم منه أحد المحالين اما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل أو يقال إنما يستدعيه انحصار قوله تعالى كن وليس يلزم منه انحصار أسباب التكوين فيه كما يفيده قوله تعالى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فان المراد بالأمر هو الشأن الشامل للقول والفعل ومن ضرورة انحصاره فى كلمة كن انحصار أسبابه على الاطلاق فيه بل إنما هو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات حسب تعلق مشيئته تعالى بها وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فى ذلك من طاعة المأمور المطيع لأمر الآمر المطاع فالمعنى إنما إيجادنا لشىء عند تعلق مشيئتنا به أن نوجده فى أسرع ما يكون ولما عبر عنه بالأمر الذى هو قول مخصوص وجب أن يعبر عن مطلق الايجاد بالقول المطلق فتأمل وفى الآية الكريمة من الفخامة والجزالة ما يحار فيه العقول والالباب وقرىء بنصب يكون عطفا على نقول أو تشبيها له بجواب الأمر (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ) أى فى شأن الله تعالى ورضاه وفى حقه ولوجهه (مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) ولعلهم الذين ظلمهم أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجوهم من ديارهم فهاجروا الى الحبشة ثم بوأهم الله تعالى المدينة حسبما وعد بقوله سبحانه (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) أى مباءة حسنة أو تبوئة حسنة كما قال قتادة وهو الأنسب بما هو المشهور من كون السورة غير ثلاث آيات من آخرها مكية وأما ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنها نزلت فى صهيب وبلال وعمار وخباب وعايس وجبير وأبى جندل بن سهيل أخذهم المشركون فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام فأما صهيب فقال لهم أنا رجل كبير إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال ربح البيع يا صهيب وقال عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه فانما يناسب ما حكى عن الأصم من كون كل سورة مدنية وما نقل عن قتادة من كون هذه الآية إلى آخر السورة مدنية فيحمل ما نقلناه عنه من نزول الآية فى أصحاب الهجرتين على أن يكون نزولها بالمدينة بين الهجرتين وأما جعل

رسول الله صلى الله عليه وسلم من جملتهم فلا يساعده نظم التنزيل ولا شأنه الجليل وقرىء لنثوينهم ومعناه لنثوينهم مثواة حسنة أو لننزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة وهى الغلبة على من ظلمهم من أهل مكة وعلى العرب قاطبة وأهل الشرق والغرب كافة (ولأجرُ الآخرةِ) أى أجر أعمالهم المذكورة فى الآخرة (أكبرُ) مما يعجل لهم فى الدنيا وعن عمر رضى الله عنه انه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله تعالى لك فيه هذا ما وعدك الله تعالى فى الدنيا وما ادخر فى الآخرة أفضل (لو كانوا يعلمون) الضمير للكفار أى لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم فى الدين وقيل للمهاجرين أى لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد أو لما تألموا لما أصابهم من المهاجرة وشدائدها (الذينَ صبروا) على الشدائد من أذية الكفار ومفارقة الأهل والوطن وغير ذلك ومحله النصب أو الرفع على المدح (وعلى ربهم) خاصة (يتوكلون) منقطعين اليه تعالى معرضين عما سواه مفوضين اليه الأمر كله والجملة اما معطوفة على الصلة وتقديم الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله تعالى وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام التوكل أو حال من ضمير صبروا (وما أرسلنا من قبلكَ إلا رجالاً نوحى إليهم) وقرىء بالياء مبنيا للمفعول وهو رد لقريش حين قالوا الله أجل من أن يكون له رسول من البشر كما هو مبنى قولهم لو شاء الله ما عبدنا الخ أى جرت السنة الالهية حسبما اقتضته الحكمة بأن لا يبعث للدعوة العامة الا بشرا يوحى اليهم بواسطة الملك أوامره ونواهيه ليبلغوها الناس ولما كان المقصود من الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيه الكفار على مضمونه صرف الخطاب اليهم فقيل (فسئلوا أهلَ الذكرِ) أى أهل الكتاب أو علماء الأخبار أو كل من يذكر بعلم وتحقيق ليعلموكم ذلك (إن كنتم لا تعلمون) حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه وفيه دلالة على انه لم يرسل للدعوة العامة ملكا وقوله تعالى جاعل الملائكة رسلا معناه رسلا إلى الملائكة أو إلى الرسل ولا امرأة ولا صبيا ولا ينافيه نبوة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو فى المهد لأنها أعم من الرسالة وإشارة إلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم (بالبيناتِ والزبرِ) بالمعجزات والكتب والباء متعلقة بمقدر وقع جوابا عن سؤال من قال بم أرسلوا فقيل أرسلوا بالبينات والزبر أو بما أرسلنا داخلا تحت الاستثناء مع رجالا عند من يجوزه أى ما أرسلنا إلا رجالا بالبينات كقولك ما ضربت إلا زيدا بالسوط أو على نية التقديم قبل أداة الاستثناء أى ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر الا رجالا عند من يجوز تأخر صلة ما قبل إلا إلى ما بعده أو بما وقع صفة للمستثنى أى إلا رجالا ملتبسين بالبينات أو بنوحى على المفعولية أو الحالية من القائم مقام فاعل يوحى وهو اليهم على أن قوله تعالى فاسئلوا اعتراض أو بقوله لا تعلمون على أن الشرط للتبكيت كقول الأجير إن كنت عملت لك فأعطنى حقى (وأنزلنا إليكَ الذكرَ) أى القرآن وإنما سمى به لأنه تذكير وتنبيه للغافلين (لتبينَ للناسِ) كافة ويدخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا (ما نزلَ إليهم) فى ذلك الذكر من الأحكام والشرائع وغير ذلك من أحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب حسب أعمالهم الموجبة لذلك على وجه التفصيل بيانا شافيا كما ينبىء عنه صيغة التفعيل فى الفعلين لاسيما بعد ورود الثانى أولا على صيغة الأفعال ولما أن التبيين أعم من التصريح بالمقصود ومن الارشاد إلى ما يدل عليه دخل تحته القياس على الاطلاق سواء كان فى الأحكام الشرعية أو غيرها ولعل قوله عز وجل (ولعلهم يتفكرون) إشارة الى ذلك أى ارادة أن يتأملوا فيتنبهوا للحقائق وما فيه من العبر ويحترزوا عما يؤدى الى مثل ما أصاب الأولين من العذاب (أفأمنَ الذينَ مكروا السيئاتِ) هم أهل مكة الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وراموا صد أصحابه عن الإيمان عليهم الرضوان لا الذين احتالوا لهلاك الأنبياء كما قيل ولا من يعم الفريقين لما أن المراد تحذير هؤلاء عن اصابة مثل ما أصاب أولئك من فنون العذاب المعدودة والسيئات نعت لمصدر محذوف أى مكروا المكرات السيئات

التى قصت عنهم أو مفعول به للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل أى عملوا السيئات فقوله تعالى (أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ) مفعول لأمن أو السيئات صفة لما هو المفعول أى أفأمن الماكرون العقوبات السيئة وقوله أن يخسف الخ بدل من ذلك وعلى كل حال فالفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى أنزلنا اليك الذكر لتبين لهم مضمونه الذى من جملته أنباء الأمم المهلكة بفنون العذاب ويتفكروا فى ذلك ألم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون على توجيه الانكار إلى المعطوفين معا أو أتفكروا فأمنوا على توجيهه إلى المعطوف على أن الامن بعد التفكر مما لا يكاد يفعله أحد وقيل هو عطف على مقدر ينبىء عنه الصلة أى أمكر فأمن الذين مكروا الخ (أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ) باتيانه أى فى حالة غفلتهم أو من مأمنهم أو من حيث يرجون إتيان ما يشتهون كما حكى فيما سلف مما نزل بالماكرين (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ) أى فى حالة تقلبهم فى مسائرهم ومتاجرهم (فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) بممتنعين أو فائتين بالهرب والفرار على ما يوهمه حال التقلب والسير والفاء اما لتعليل الأخذ أو لترتيب عدم الاعجاز عليه دلالة على شدته وفظاعته حسبما قال عليه السلام أن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته وايراد الجملة الاسمية للدلالة على دوام النفى لا لنفى الدوام (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ) أى مخافة وحذر عن الهلاك والعذاب بأن يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون وحيث كانت حالتا التقلب والتخوف مظنة للهرب عبر عن اصابة العذاب فيهما بالأخذ وعن اصابته حالة الغفلة المنبئة عن السكون بالإتيان وقيل التخوف التنقص قال قائلهم :

تخوف الرحل منها تامكا قردا ... كما تخوف عود النبعة السفن

أى يأخذهم على أن ينقصهم شيئاً بعد شىء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا والمراد بذكر الأحوال الثلاث بيان قدرة الله سبحانه على اهلاكهم بأى وجه كان لا الحصر فيها (فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها (أَوَلَمْ يَرَوْا) استفهام إنكارى وقرىء على صيغة الخطاب والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم ينظروا ولم يروا متوجهين (إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ) أى من كل شىء (يَتَفَيَّؤُا ظِلاَلُهُ) أى يرجع شيئاً فشيئاً حسبما يقتضيه إرادة الخالق تعالى فان التفيؤ مطاوع الافاءة وقرىء بتأنيث الفعل (عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ) أى ألم يروا الأشياء التى لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أى عن جانبى كل واحد منها استعير لهما ذلك من يمين الانسان وشماله (سُجَّدًا لِلهِ) حال من الظلال كقوله تعالى وظلالهم بالغدو والآصال والمراد بسجودها تصرفها على مشيئة الله سبحانه وتأتيها لارادته تعالى فى الامتداد والتقلص وغيرهما غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقوله تعالى (وَهُمْ دَاخِرُونَ) أى صاغرون منقادون حال من الضمير فى ظلاله والجمع باعتبار المعنى وايراد الصيغة الخاصة بالعقلاء لما أن الدخور من خصائصهم والمعنى ترجع الظلال من جانب إلى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها فانها كل يوم من أيام السنة تتحرك على مدار معين من المدارات اليومية بتقدير العزيز العليم منقادة لما قدر لها من التفيؤ أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد والحال أن أصحابها من الاجرام داخرة منقادة لحكمه تعالى ووصفها بالدخور مغن عن وصف ظلالها به أو كلاهما حال من الضمير المشار اليه والمعنى ترجع ظلال تلك الاجرام حال كونها منقادة لله تعالى داخرة فوصفها بهما مغن عن وصف ظلالها بهما ولعل المراد بالموصول الجمادات من الجبال والأشجار والاحجار التى لا يظهر لظلالها أثر سوى التفيؤ بما ذكر من ارتفاع الشمس وانحدارها أو اختلاف مشارقها ومغاربها وأما الحيوان فظله يتحرك بتحركه وقيل المراد باليمين والشمائل يمين الفلك وهو جانبه الشرقى لان الكواكب منه تظهر آخذة فى الارتفاع والسطوع وشماله وهو جانبه الغربى المقابل له فان الظلال فى أول النهار تبتدىء من الشرق واقعة على الربع

الغربي من الأرض وعند الزوال تبتدىء من الغرب واقعة على الربع الشرقي منها وبعد ما بين سجود الظلال وأصحابها من الاجرام السفلية الثابتة في أخبارها ودخورها له سبحانه وتعالى شرع في بيان سجود المخلوقات المتحركة بالارادة سواء كانت لها ظلال أولا فقيل (ولله يسجد) أي له تعالى وحده يخضع وينقاد لا لشيء غيره استقلالا أو اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد الا أن الانسب بحال المخاطبين قصر الأفراد كما يؤذن به قوله تعالى وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين (ما في السموات) قاطبة (وما في الأرض) كائنا ما كان (من دابة) بيان لما في الأرض وتقديمه لقلته ولئلا يقع بين المبين والمبين فصل والافراد مع أن المراد الجمع لافادة وضوح شمول السجود لكل فرد من الدواب قال الاخفش هو كقولك ما أتاني من رجل مثله وما أتاني من الرجال مثله (والملائكة) عطف على ما في السموات عطف جبريل على الملائكة تعظيما واجلالا أو على أن يراد بما في السموات الخلق الذي يقال له الروح أو يراد به ملائكة السموات وبقوله والملائكة ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم (وهم) أي الملائكة مع علو شأنهم (لا يستكبرون) عن عبادته عز وجل والسجود له وتقديم الضمير ليس للقصر والجملة اما حال من ضمير الفاعل في يسجد مسند إلى الملائكة أو استئناف أخبر عنهم بذلك (يخافون ربهم) أي مالك أمرهم وفيه تربية للمهابة واشعار بعلة الحكم (من فوقهم) أي يخافونه جل وعلا خوف هيبة واجلال وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده أو يخافون أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون أو بيان له وتقرير لان من يخاف الله سبحانه لا يستكبر عن عبادته (ويفعلون ما يؤمرون) أي ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الجلالة وايذان بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده إلى غيره سبحانه وفيه ان الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء وبعدما بين أن جميع الموجودات يخصون الخضوع والانقياد الطبيعي وما يجري مجراه من عبادة الملائكة حيث لا يتصور منهم عدم الانقياد أصلا لله عز وجل أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الاشراك فقيل (وقال الله) عطفا على قوله ولله يسجد واظهار الفاعل وتخصيص لفظة الجلالة بالذكر للايذان بأنه متعين الألوهية وإنما المنهي عنه هو الاشراك به لأن المنهي عنه مطلق اتخاذ إلهين بحيث يتحقق الانتهاء عنه برفض أيهما كان أي قال تعالى لجميع المكلفين (لا تتخذوا إلهين اثنين) وإنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عن ذلك دلالة على أن مساق النهي هي الاثنينية وانها منافية للالوهية كما أن وصف الاله بالوحدة في قوله تعالى (إنما هو إله واحد) للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية وأنها من لوازم الالهية وأما الالهية فأمر مسلم الثبوت له سبحانه واليه أشير حيث أسند اليه القول وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة على رأي من اكتفى في تحقق الالتفات بكون الاسلوب الملتفت عنه حق الكلام ولم يشترط سبق الذكر على ذلك الوجه (فإياي فارهبون) التفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة والقاء الرهبة في القلوب ولذلك قدم المفعول وكرر الفعل أي ان كنتم راهبين شيئا فاياي ارهبوا فارهبون لا غير فاني ذلك الواحد الذي يسجد له ما في السموات والأرض (وله ما في السموات والأرض) خلقا وملكا تقرير لعلة انقياد ما فيهما له سبحانه خاصة وتحقيق لتخصيص الرهبة به تعالى وتقديم الظرف لتقوية ما في اللام من معنى الاختصاص وكذا في قوله تعالى (وله الدين) أي الطاعة والانقياد (واصبا) أي واجبا ثابتا لا زوال له لما تقرر أنه الإله وحده الحقيق بأن يرهب وقيل واصبا من الوصب أي وله الدين ذا كلفة وقيل الدين الجزاء أي وله الجزاء الدائم بحيث لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر (أفغير الله تتقون) الهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه السياق أي أعقيب تقرر الشئون المذكورة من تخصيص جميع الموجودات للسجود به تعالى وكون ذلك كله له ونهيه

عن اتخاذ الأنداد وكون الدين له واصبا المستدعى ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه غير الله الذى شأنه ماذكر تتقون فتطيعون (وما بكم) أى أى شىء يلابسكم ويصاحبكم (من نعمة) أية نعمة كانت (فمن الله) فهى من الله فما شرطية أو موصولة متضمنة لمعنى الشرط باعتبار الاخبار دون الحصول فان ملابسة النعمة بهم سبب للاخبار بأنها منه تعالى لا لكونها منه تعالى (ثم إذا مسكم الضر) مساسا يسيرا (فإليه تجأرون) تتضرعون فى كشفه لا إلى غيره والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة قال الأعشى :

يراوح من صلوات المليـ ـك طورا سجودا وطورا جؤارا

وقرىء تجرون بطرح الهمزة والقاء حركتها إلى ماقبلها وفى ذكر المساس المنبىء عن أدنى اصابة وإيراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر وتحلية الضر بلام الجنس المفيدة لمساس أدنى ما ينطلق عليه اسم الجنس مع إيراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء الصاحبة وإيراد ما المعربة عن العموم مالا يخفى من الجزالة والفخامة ولعل إيراد إذا دون إن للتوسل به إلى تحقق وقوع الجواب (ثم إذا كشف الضر عنكم) وقرىء كاشف الضر وكلمة ثم ليست للدلالة على تمادى زمان مساس الضر ووقوع الكشف بعد برهة مديدة بل للدلالة على تراخى رتبة مايترتب عليه من مفاجأة الاشراك المدلول عليها بقوله سبحانه (إذا فريق منكم بربهم يشركون) فان ترتبها على ذلك فى أبعد غاية من الضلال ثم ان وجه الخطاب إلى الناس جميعا فمن للتبعيض والفريق فريق الكفرة وإن وجه إلى الكفرة فمن للبيان كأنه قيل إذا فريق كافر وهم أنتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر وازدجر كقوله تعالى فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد فمن تبعيضية أيضا والتعرض لوصف الربوبية للايذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الاشراك والكفران (ليكفروا بما ءاتينهم) من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم فى الشرك كفران النعمة وانكار كونها من الله عز وجل (فتمتعوا) أمر تهديد والالتفات إلى الخطاب للايذان بتناهى السخط وقرىء بالياء مبنيا للمفعول عطفا على ليكفروا على أن يكون كفران النعمة والتمتع غرضا لهم من الاشراك ويجوز أن يكون اللام لام الأمر الوارد للتهديد (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب وفيه وعيد أكيد منبىء عن أخذ شديد حيث لم يذكر المفعول إشعارا بأنه مما لا يوصف (ويجعلون) لعله عطف على ماسبق بحسب المعنى تعدادا لجناياتهم أى يفعلون مايفعلون من الجؤار إلى الله تعالى عند مساس الضر ومن الاشراك به عند كشفه ويجعلون (لما لا يعلمون) أى لما لا يعلمون حقيقته وقدره الخسيس من الجمادات التى يتخذونها شركاء لله سبحانه جهالة وسفاهة ويزعمون أنها تنفعهم وتشفع لهم على أن ما موصولة والعائد اليها محذوف أو لما لا علم له أصلا وليس من شأنه ذلك فما موصولة أيضا والعائد اليها مافى الفعل من الضمير المستكن وصيغة جمع العقلاء لكون ماعبارة عن آلهتهم التى وصفوها بصفات العقلاء أو مصدرية واللام للتعليل أى لعدم علمهم والمجعول له محذوف للعلم بمكانه (نصيبا مما رزقنهم) من الزرع والأنعام وغيرهما تقربا اليها (تالله لتسئلن) سؤال توبيخ وتقريع (عما كنتم تفترون) فى الدنيا بأنها آلهة حقيقة بأن يتقرب اليها وفى تصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب المنبىء عن كمال الغضب من شدة الوعيد مالا يخفى (ويجعلون لله البنت) هم خزاعة وكنانة الذين يقولون الملائكة بنات الله (سبحنه) تنزيه وتقديس له عز وجل عن مضمون قولهم ذلك أو تعجيب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة (ولهم ما يشتهون) من البنين وما مرفوعة المحل على أنه مبتدأ والظرف المقدم خبره والجملة حالية وسبحانه اعتراض فى حاق موقعه وجعلها منصوبة بالعطف على

البنات أى يجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين يؤدى إلى جعل الجعل بمعنى يعم الزعم والاختيار (وإذا بُشِّرَ أحدُهُم بالأنثى) أى أخبر بولادتها (ظلَّ وجهُهُ) أى صار أو دام النهار كله (مُسْوَدًّا) من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش (وهُوَ كَظِيمٌ) ممتلىء حنقا وغيظا (يَتَوارَى) أى يستخفى (مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بهِ) من أجل سوئه والتعبير عنها بما لاسقاطها عن درجة العقلاء (أيُمْسِكُهُ) أى مترددا فى أمره محدثا نفسه فى شأنه أيمسكه (على هُونٍ) ذل وقرىء هوان (أمْ يَدُسُّهُ) يخفيه (فى التُّرابِ) بالوأد والتذكير باعتبار لفظ ما وقرىء بالتأنيث (ألا ساءَ ما يَحْكُمُونَ) حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم من الهون والحقارة لله المتعالى عن الصاحبة والولد والحال أنهم يتحاشون عنه ويختارون لأنفسهم البنين فمدار الخطأ جعلهم ذلك لله سبحانه مع إبائهم إياه لا جعلهم البنين لأنفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه ويجوز أن يكون مداره التعكيس لقوله تعالى تلك إذا قسمة ضيزى (لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ) ممن ذكرت قبائحهم (مَثَلُ السَّوْءِ) صفة السوء الذى هو كالمثل فى القبح وهى الحاجة إلى الولد ليقوم مقامه عند موتهم وإيثار الذكور للاستظهار بهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة (ولله) سبحانه وتعالى (المَثَلُ الأعْلَى) أى الصفة العجيبة الشأن التى هى مثل فى العلو مطلقا وهو الوجوب الذاتى والغنى المطلق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين ويدخل فيه علوه تعالى عما قالوه علوا كبيرا (وهُوَ العَزِيزُ) المتفرد بكمال القدرة لا سيما على مؤاخذتهم بذنوبهم (الحَكِيمُ) الذى يفعل كل ما يفعل بمقتضى الحكمة البالغة وهذا أيضا من جملة صفاته العجيبة تعالى (ولو يُؤاخِذُ اللهُ النّاسَ) الكفار (بظُلْمِهِمْ) بكفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما عدد من قبائحهم وهذا تصريح بما أفاده قوله تعالى وهو العزيز الحكيم وإيذان بأن ما أتوه من القبائح قد تناهى إلى أمد لا غاية وراءه (ما تَرَكَ عليها) على الأرض المدلول عليها بالناس وبقوله تعالى (مِنْ دابَّةٍ) أى ما ترك عليها شيأ من دابة قط بل أهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين كقوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول إن الظالم لا يضر إلا نفسه فقال بلى والله حتى ان الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم أو من دابة ظالمة وقيل لو أهلك الآباء لم يكن الابناء فيلزم أن لا يكون فى الأرض دابة لما أنها مخلوقة لمنافع البشر لقوله سبحانه هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا (ولكِنْ) لا يؤاخذهم بذلك بل (يُؤَخِّرُهُمْ إلى أجَلٍ مُسَمًّى) لأعمارهم أو لعذابهم كى يتوالدوا أو يكثر عذابهم (فإذا جاءَ أجَلُهُمْ) المسمى (لا يَسْتَأْخِرُونَ) عن ذلك الأجل أى لا يتأخرون وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له (ساعَةً) فذة وهى مثل فى قلة المدة (ولا يَسْتَقْدِمُونَ) أى لا يتقدمون وإنما تعرض لذكره مع أنه لا يتصور الاستقدام عند مجىء الاجل مبالغة فى بيان عدم الاستئخار بنظمه فى سلك ما يمتنع كما فى قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع أنه لا توبة له رأسا قد نظم فى سمط من لم تقبل توبته للايذان بأنهما سيان فى ذلك وقد مر فى تفسير سورة يونس (ويَجْعَلُونَ للهِ) أى يثبتون له سبحانه وينسبون اليه فى زعمهم (ما يَكْرَهُونَ) لانفسهم مما ذكر وهو تكرير لما سبق تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى (وتَصِفُ ألسِنَتُهُمُ الكَذِبَ) أى يجعلون له تعالى ما يجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب وهو (أنَّ لَهُمُ الحُسْنَى) العاقبة الحسنى عند الله تعالى كقوله ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى وقرىء الكذب وهو جمع الكذوب على أنه صفة الألسنة (لا جَرَمَ) رد لكلامهم ذلك

واثبات لنقيضه أى حقا (أنَّ لهُمُ) مكان ما أملوا من الحسنى (النَّارَ) التى ليس وراءها عذاب وهى علم فى السوء أى (وأنَّهم مُّفرَطونَ) أى مقدمون اليها من أفرطته أى قدمته فى طلب الماء وقيل منسيون من أفرطت فلانا خلفى اذا خلفته ونسيته وقرىء بالتشديد وفتح الراء من فرطته فى طلب الماء وبكسر الراء المشددة من التفريط فى الطاعات وبكسر المخففة من الافراط فى المعاصى فلا يكونان حينئذ من أحوالهم الأخروية كما عطف عليه (تالله لقدْ أرسَلْنا إلى أمَمٍ مِّن قبلكَ) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يناله من جهالات الكفرة ووعيد لهم على ذلك أى أرسلنا إليهم رسلا فدعوهم إلى الحق فلم يجيبوا إلى ذلك (فزيَّنَ لهُمُ الشيطانُ أعمالَهُمْ) القبيحة فعكفوا عليها مصرين (فهوَ ولِيُّهُمُ) أى قرينهم وبئس القرين (اليومَ) أى يوم زين لهم الشيطان أعمالهم فيه على طريق حكاية الحال الماضية أو فى الدنيا أو يوم القيامة على طريق حكاية الحال الآتية وهى حال كونهم معذبين فى النار والولى بمعنى الناصر أى فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره مبالغة فى نفى الناصر عنهم ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى مشركى قريش والمعنى زين للأمم السالفة أعمالهم فهو ولى هؤلاء لأنهم منهم وأن يكون على حذف المضاف أى ولى أمثالهم (ولهُمْ) فى الآخرة (عذابٌ أليمٌ) هو عذاب النار (وما أنزلْنا عليكَ الكتبَ) أى القرآن (إلا لتُبيِّنَ) استثناء مفرغ من أعم العلل أى ما أنزلناه عليك لعلة من العلل إلا لتبين (لهُمُ) أى للناس (الذى اختلفوا فيهِ) من التوحيد والقدر وأحكام الأفعال وأحوال المعاد (وهُدًى ورَحمةً) معطوفان على محل لتبين أى وللهداية والرحمة (لِّقومٍ يُؤمِنونَ) وإنما انتصبا لكونهما أثرى فاعل الفعل المعلل بخلاف التبيين حيث لم ينتصب لفقدان شرطه ولعل تقديمه عليهما لتقدمه فى الوجود وتخصيص كونهما هدى ورحمة بالمؤمنين لأنهم المغتنمون آثاره (واللهُ أنزلَ مِنَ السَّماءِ) من السحاب أو من جانب السماء حسبما مر وهذا تكرير لما سبق تأكيدا لمضمونه وتوطئة لما يعقبه من أدلة التوحيد (ماءً) نوعا خاصا من الماء هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب لما مر مرارا من التشويق إلى المؤخر (فأحيا بهِ الأرضَ) بما أنبت به فيها من أنواع النباتات (بعدَ موتِها) أى بعد يبسها وما يفيده الفاء من التعقيب العادى لا ينافيه ما بين المعطوفين من المهلة (إنَّ فى ذلكَ) أى فى انزال الماء من السماء وإحياء الأرض الميتة به (لآيةً) وأية آية دالة على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته (لِّقومٍ يَسمعُونَ) هذا التذكير ونظائره سماع تفكر وتدبر فكأن من ليس كذلك أصم (وإنَّ لكمْ فى الأنعمِ لعِبرةً) عظيمة وأى عبرة تحار فى دركها العقول وتهيم فى فهمها ألباب الفحول (نُّسقيكُمْ) استئناف لبيان ما أبهم أولا من العبرة (مِّمَّا فى بُطونهِ) أى بطون الأنعام والتذكير هنا لمراعاة جانب اللفظ فانه اسم جمع ولذلك عده سيبويه فى المفردات المبنية على أفعال كأكياش وأخلاق كما أن تأنيثه فى سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى ومن جعله جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن ليس لجميعها أوله على المعنى فان المراد به الجنس وقرىء بفتح النون ههنا وفى سورة المؤمنين (مِن بينِ فرْثٍ ودَمٍ لبَنًا) الفرث فضالة ما يبقى من العلف فى الكرش المنهضمة بعض الانهضام وكثيف ما يبقى فى المعاء وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان البهيمة اذا اعتلفت وانطبخ العلف فى كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما ولعل المراد به أن أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذى يغذو البدن لأن عدم تكونهما فى الكرش مما لا ريب فيه بل الكبد تجذب صفاوة الطعام المنهضم فى الكرش ويبقى ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها فيحدث أخلاطا أربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين الصفراء والسوداء وتدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال ثم توزع الباقى على الأعضاء بحسبها فتجرى على كل حقه على ما يليق به بتقدير العزيز العليم ثم إن كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها فيندفع الزائد أولا لأجل الجنين إلى

الرحم فاذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع فيبيض لمجاورته لحومها الغذوية البيض ويلذ طعمه فيصير لبنا ومن تدبر فى بدائع صنع الله تعالى فيما ذكر من الاخلاط والالبان واعداد مقارها ومجاريها والأسباب المولدة لها وتسخير القوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه وقدرته وحكمته وتناهى رأفته ورحمته فمن الأولى تبعيضية لما أن اللبن بعض ما فى بطونه لأنه مخلوق من بعض أجزاء الدم المتولد من الأجزاء اللطيفة التى فى الفرث حسبما فصل والثانية ابتدائية كقولك سقيت من الحوض لأن بين الفرث والدم مبدأ الاسقاء وهى متعلقة بنسقيكم وتقديمه على المفعول لما مر مرارا من أن تقديم ما حقه التأخير يبعث للنفس شوقا إلى المؤخر موجبا لفضل تمكنه عند وروده عليها لا سيما اذا كان المقدم متضمنا لوصف مناف لوصف المؤخر كالذى نحن فيه فان بين وصفى المقدم والمؤخر تنافيا وتنائيا بحيث لا يتراءى ناراهما فان ذلك مما يزيد الشوق والاستشراف إلى المؤخر كما فى قوله تعالى الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا أو حال من لبنا قدم عليه لتنكيره والتنبيه على أنه موضع العبرة (خالِصاً) عن شائبة ما فى الدم والفرث من الأوصاف ببرزخ من القدرة القاهرة الحاجزة عن بغى أحدهما عليه مع كونهما مكتنفين له (سائِغاً لِلشّارِبِينَ) سهل المرور فى حلقهم قيل لم يغص أحد باللبن وقرىء سيغا بالتشديد وبالتخفيف مثل هين وهين (وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ) متعلق بما يدل عليه الاسقاء من مطلق الاطعام المنتظم لاعطاء المطعوم والمشروب فان اللبن مطعوم كما أنه مشروب أى ونطعمكم من ثمرات النخيل ومن الأعناب أى من عصيرهما وقوله تعالى (تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً) استئناف لبيان كنه الاطعام وكشفه أو بقوله تتخذون منه وتكرير الظرف للتأكيد أو خبر لمبتدا محذوف صفته تتخذون أى ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه وحذف الموصوف إذا كان فى الكلام كلمة من سائغ نحو قوله تعالى وما منا إلا له مقام معلوم وتذكير الضمير على الوجهين الأولين لأنه للمضاف المحذوف أعنى العصير أو لأن المراد هو الجنس والسكر مصدر سمى به الخمر وقيل هو النبيذ وقيل هو الطعم (وَرِزْقاً حَسَناً) كالتمر والدبس والزبيب والخل والآية إن كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهتها وإلا فجامعة بين العتاب والمنة (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً) باهرة (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) يستعملون عقولهم فى الآيات بالنظر والتأمل (وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) أى ألهمها وقذف فى قلوبها وعلمها بوجه لا يعلمه إلا العليم الخبير وقرىء بفتحتين (أَنِ اتَّخِذِي) أى بأن اتخذى على أن أن مصدرية ويجوز أن تكون مفسرة لما فى الايحاء من معنى القول وتأنيث الضمير مع أن النحل مذكر للحمل على معنى أو لأنه جمع نحلة والتأنيث لغة أهل الحجاز (مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً) أى أوكارا مع ما فيها من الخلايا وقرىء بيوتا بكسر الباء (وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمّا يَعْرِشُونَ) أى يعرشه الناس أى يرفعه من كرم أو سقف وقيل المراد به ما يرفعه الناس ويبنونه للنحل والمعنى اتخذى لنفسك بيوتا من الجبال والشجر إذا لم يكن لك أرباب والا فاتخذى ما يعرشونه لك وايراد حرف التبعيض لما أنها لا تبنى فى كل جبل وكل شجر وكل عرش ولا فى كل مكان منها (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ) من كل ثمرة تشتهيها حلوها ومرها (فَاسْلُكِي) ما أكلت منها (سُبُلَ رَبِّكِ) أى مسالكه التى برأها بحيث يحيل فيها بقدرته القاهرة النور المر عسلا من أجوافك أو فاسلكى الطرق التى ألهمك فى عمل العسل أو فاسلكى راجعة إلى بيوتك سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تلتبس (ذُلُلاً) جمع ذلول وهو حال من السبل أى مذللة غير متوعرة ذللها الله سبحانه وسهلها لك أو من الضمير فى اسلكى أى اسلكى منقادة لما أمرت به (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها) استئناف عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى التى هى موضع العبرة بعد ما أمرت بما أمرت (شَرابٌ) أى عسل لأنه مشروب واحتج به وبقوله تعالى كلى من زعم أن النحل تأكل

الازهار والاوراق العطرة فتستحيل فى بطنها عسلا ثم تقىء ادخارا للشتاء ومن زعم أنها تلتقط بأفواهها أجزاء قليلة حلوة صغيرة متفرقة على الازهار والاوراق وتضعها فى بيوتها فاذا اجتمع فيها شىء كثير يكون عسلا فسر البطون بالافواه (مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) أبيض وأسود وأصفر وأحمر حسب اختلاف سن النحل أو الفصل أو الذى أخذت منه العسل (فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) إما بنفسه كما فى الأمراض البلغمية أو مع غيره كما فى سائر الأمراض إذ قلما يكون معجون لا يكون فيه عسل مع أن التنكير فيه مشعر بالتبعية ويجوز كونه للتفخيم وعن قتادة أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن أخى يشتكى بطنه فقال عليه الصلاة والسلام اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرىء كأنما أنشط من عقال وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله تعالى من أحوال النحل وعن ابن مسعود رضى الله عنه العسل شفاء لكل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور فعليكم بالشفاءين العسل والقرآن (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ) الذى ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالى (لَآيَةً) عظيمة (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فان من تفكر فى اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة المشتملة على حسن الصنعة وصحة القسمة التى لا يقدر عليها حذاق المهندسين إلا بآلات رقيقة وأدوات أنيقة وأنظار دقيقة جزم قطعا بأن له خالقا قادرا حكيما يلهمها ذلك ويهديها اليه جل جلاله (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ) لما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والأنعام والنحل أشار إلى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره إلى آخره وتطوراته فيما بين ذلك وقد ضبطوا مراتب العمر فى أربع الأولى سن النشو والنماء والثانية سن الوقوف وهى سن الشباب والثالثة سن الانحطاط القليل وهى سن الكهولة والرابعة سن الانحطاط الكبير وهى سن الشيخوخة (ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ) حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على حكم بالغة بآجال مختلفة أطفالا وشبابا وشيوخا (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ) قبل توفيه أى يعاد (إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ) أى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة على ما روى عن على رضى الله عنه وتسعون سنة على ما نقل عن قتادة رضى الله عنه وقيل خمس وتسعون وإيثار الرد على الوصول والبلوغ ونحوهما للايذان بأن بلوغه والوصول اليه رجوع فى الحقيقة إلى الضعف بعد القوة كقوله تعالى ومن نعمره ننكسه فى الخلق ولا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم الذى يشبه الطفل فى نقصان العقل والقوة (لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ) كثير (شَيْئًا) من العلم أو من المعلومات أو لكيلا يعلم شيئا بعد علم بذلك الشىء وقيل لئلا يعقل بعد عقله الأول شيئا (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ) بمقادير أعماركم (قَدِيرٌ) على كل شىء يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفانى وفيه تنبيه على أن تفاوت الآجال ليس إلا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوت هذا المبلغ (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ) أى جعلكم متفاوتين فيه فاعطاكم منه أفضل مما أعطى مماليككم (فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا) فيه على غيرهم (بِرَادِّى رِزْقِهِمْ) الذى رزقهم إياه (عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) على مماليكهم الذين هم شركاؤهم فى المخلوقية والمرزوقية (فَهُمْ) أى الملاك والمماليك (فِيهِ) أى فى الرزق (سَوَاءٌ) أى لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم فى التصرف ويشاركونهم فى التدبير والفاء للدلالة على ترتيب التساوى على الرد أى لا يردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوى وإنما يردون عليهم منه شيئا يسيرا الخبيث لا يرضون بمساواة مماليكهم لأنفسهم وهم أمثالهم فى البشرية والمخلوقية لله عز سلطانه فى شىء لا يختص بهم بل يعمهم وإياهم من الرزق الذى هم أسوة لهم فى استحقاقه فما بالهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيما لا يليق إلا به من الالوهية والمعبودية الخاصة بذاته تعالى لذاته بعض مخلوقاته الذى هو بمعزل من درجة الاعتبار وهذا كما ترى مثل ضرب لكمال قباحة ما فعله المشركين تقريعا عليهم كقوله تعالى هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما

رزقناكم فأنتم فيه سواء الآية (أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) حيث يفعلون مايفعلون من الاشراك فان ذلك يقتضى أن يضيفوا نعم الله سبحانه الفائضة عليهم إلى شركائهم ويجحدوا كونها من عند الله تعالى أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعدما أنعم الله بها عليهم والباء لتضمين الجحود معنى الكفر نحو وجحدوا بها والفاء للعطف على مقدر وهى داخلة فى المعنى على الفعل أى أيشركون به فيجحدون نعمته وقرىء تجحدون على الخطاب أو ليس الموالى برادى رزقهم على مماليكهم بل أنا الذى أرزقهم وإياهم فلا يحسبوا انهم يعطونهم شيئاً وإنما هو رزقى أجريه على أيديهم فهم جميعا فى ذلك سواء لامزية لهم على مماليكهم ألا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله فهو رد على زعم المفضلين أو على فعلهم المؤذن بذلك أو ما المفضلون برادى بعض فضلهم على مماليكهم فيتساووا فى ذلك جميعا مع أن التفضيل ليس الا ليبلوهم أيشكرون أم يكفرون ألا يعرفون ذلك فيجحدون نعمة الله تعالى كأنه قيل فلم يردوه عليهم والجملة الاسمية للدلالة على استمرارهم على عدم الرد يحكى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنما هم اخوانكم فاكسوهم مما تلبسون واطعموهم مما تطعمون فما رؤى عبده بعد ذلك الا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) أى من جنسكم (أَزْوَاجًا) لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم ويكون أولادكم أمثالكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ) وضع الظاهر موضع المضمر للايذان بأن المراد جعل لكل منكم من زوجه لامن زوج غيره (بَنِينَ) وبأن نتيجة الأزواج هو التوالد (وَحَفَدَةً) جمع حافد وهو الذى يسرع فى الخدمة والطاعة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد أى جعل لكم خدما يسرعون فى خدمتكم وطاعتكم فقيل المراد بهم أولاد الأولاد وقيل البنات عبر عنهن بذلك ايذانا بوجه المنة فانهن يخدمن البيوت أتم خدمة وقيل أولاد المرأة من الزوج الأول وقيل البنون والعطف لاختلاف الوصفين وقيل الاختان على البنات وتأخير المنصوب فى الموضعين عن المجرور لمامر من التشويق وتقديم المجرور باللام على المجرور بمن للايذان من أول الأمر بعود منفعة الجعل اليهم امدادا للتشويق وتقوية له أى جعل لمصلحتكم مما يناسبكم أزواجا وجعل لمنفعتكم من جهة مناسبة لكم بنين وحفدة (وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) من اللذائذ أو من الحلالات ومن للتبعيض إذ المرزوق فى الدنيا أنموذج لما فى الآخرة (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ) وهو أن الأصنام تنفعهم وأن البحائر ونحوها حرام والفاء فى المعنى داخلة على الفعل وهى للعطف على مقدر أى أيكفرون بالله الذى شأنه هذا فيؤمنون بالباطل أو أبعد تحقق ماذكر من نعم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه (وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ) تعالى الفائضة عليهم مماذكر ومما لايحيط به دائرة البيان (هُمْ يَكْفُرُونَ) حيث يضيفونها إلى الأصنام وتقديم الصلة على الفعل للاهتمام أو لايهام الاختصاص مبالغة أو لرعاية الفواصل والالتفات إلى الغيبة للايذان باستيجاب حالهم للاعراض عنهم وصرف الخطاب إلى غيرهم من السامعين تعجيبا لهم مما فعلوه (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) لعله عطف على يكفرون داخل تحت الانكار التوبيخى أى أيكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه (مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا) ان جعل الرزق مصدرا فشيأ نصب على المفعولية منه أى مالايقدر على أن يرزقهم شيأ لامن السموات مطرا ولامن الأرض نباتا وان جعل اسما للمرزوق فنصب على البدلية منه بمعنى قليلا ومن السموات والأرض صفة لرزقا أى كائنا منهما ويجوز كونه تأكيدا للايملك أى لايملك رزقا ماشيأ من الملك (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ) أن يملكوه إذ لا استطاعة لهم رأسا لانها موات لاحراك بها فالضمير للآلهة ويجوز أن يكون للكفرة على معنى أنهم مع كونهم أحياء متصرفين فى الأمور لايستطيعون من ذلك شيأ فكيف بالجماد الذى لاحس به (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ)

التفات إلى الخطاب للايذان بالاهتمام بشأن النهى أى لا تشركوا به شيأ والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد إلى النهى عن الاشراك به تعالى فى شأن من الشؤن فان ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أى لا تشبهوا بشأنه تعالى شأنا من الشؤن واللام مثلها فى قوله تعالى ضرب الله مثلا الذين كفروا امرأة نوح وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون لا مثلها فى قوله تعالى واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ونظائره والفاء للدلالة على ترتب النهى على ما عدد من النعم الفائضة عليهم من جهته سبحانه وكون ما يشركون به تعالى بمعزل من أن يملك لهم من أقطار السموات والأرض شيئا من رزق ما فضلا عما فصل من نعمة الخلق والتفضيل فى الرزق ونعمة الأزواج والأولاد (إن الله يعلم) تعليل للنهى المذكور ووعيد على المنهى عنه أى أنه تعالى يعلم كنه ما تأتون وما تذرون وأنه فى غاية العظم والقبح (وأنتم لا تعلمون) ذلك وإلا لما فعلتموه أو أنه تعالى يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم وقفوا مواقف الامتثال لما ورد عليكم من الأمر والنهى ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك فتقعون فيما تقعون فيه من مهاوى الردى والضلال ثم علمهم كيفية ضرب الأمثال فى هذا الباب فقال (ضرب الله مثلا) أى ذكر وأورد شيأ يستدل به على تباين الحال بين جنابه عز وجل وبين ما أشركوا به وعلى تباعدهما بحيث ينادى بفساد ما ارتكبوه نداء جليا (عبدا مملوكا لا يقدر على شىء) بدل من مثلا وتفسير له والمثل فى الحقيقة حالته العارضة له من المملوكية والعجز التام وبحسبها ضرب نفسه مثلا ووصف العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر لاشتراكهما فى كونهما عبدان لله سبحانه وقد أدمج فيه أن الكل عبيد له تعالى وبعدم القدرة لتمييزه عن المكاتب والمأذون اللذين لهما تصرف فى الجملة وفى إبهام المثل أولا ثم بيانه بما ذكر ما لا يخفى من الفخامة والجزالة (ومن رزقناه) من موصوفة معطوفة على عبدا أى رزقناه بطريق الملك والالتفات إلى التكلم للاشعار باختلاف حالى ضرب المثل والرزق (منا) من جنابنا الكبير المتعالى (رزقا حسنا) حلالا طيبا أو مستحسنا عند الناس مرضيا (فهو ينفق منه) تفضلا وإحسانا والفاء لترتيب الانفاق على الرزق كأنه قيل ومن رزقناه منا رزقا حسنا فأنفق وإيثار ما عليه النظم الكريم من الجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الانفاق واستمراره التجددى (سرا وجهرا) أى حال السر والجهر أو انفاق سر وإنفاق جهر والمراد بيان عموم انفاقه للأوقات وشمول انعامه لمن يجتنب عن قبوله جهرا والاشارة إلى أصناف نعم الله تعالى الباطنة والظاهرة وتقديم السر على الجهر للايذان بفضله عليه والعدول عن تطبيق القرينتين بأن يقال وحرا مالكا للاموال مع كونه أدل على تباين الحال بينه وبين قسيمه لتوخى تحقيق الحق بأن الأحرار أيضا تحت ربقة عبوديته سبحانه وتعالى وأن مالكيتهم لما يملكونه ليست إلا بأن يرزقهم الله تعالى اياه من غير أن يكون لهم مدخل فى ذلك مع محاولة المبالغة فى الدلالة على ما قصد بالمثل من تباين الحال بين الممثلين فان العبد المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فما ظنك بالجماد ومالك الملك خلاق العالمين (هل يستوون) جمع الضمير للايذان بان المراد بما ذكر من اتصف بالأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لا فردان معينان منهما أى هل يستوى العبيد والأحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات مع أن الفريقين سيان فى البشرية والمخلوقية لله سبحانه وأن ما ينفقه الأحرار ليس مما لهم دخل فى إيجاده ولا فى تملكه بل هو مما أعطاه الله تعالى إياهم فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برب العالمين حيث تشركون به ما لا ذليل أذل منه وهو الاصنام (الحمد لله) أى كله له لأنه مولى جميع النعم لا يستحقه أحد غيره وان ظهرت على أيدى بعض الوسايط فضلا عن استحقاق العبادة وفيه ارشاد الى ما هو الحق من أن ما يظهر على يد من ينفق مما ذكر راجع الى الله سبحانه كما لوح به قوله تعالى رزقناه (بل أكثرهم لا يعلمون) ما ذكر فيضيفون نعمه تعالى الى غيره

ويعبدونه لأجلها ونفى العلم عن أكثرهم للاشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك وانما لا يعلمون بوجه عنادا كقوله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون (وضرب الله مثلا) أى مثلا آخر يدل على ما دل عليه المثل السابق على وجه أوضح وأظهر وبعد ما أبهم ذلك لتنتظر النفس إلى وروده وترقبه حتى يتمكن لديها عند وروده بين فقيل (رجلين أحدهما أبكم) وهو من ولد أخرس (لا يقدر على شىء) من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره بحدس أو فراسة لقلة فهمه وسوء ادراكه (وهو كل) ثقل وعيال (على مولاه) على من يعوله ويلى أمره وهذا بيان لعدم قدرته اقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شىء مطلقا وقوله تعالى (أينما يوجهه) أى حيث يرسله مولاه فى أمر بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح مولاه ولو كانت مصلحة يسيرة وقرىء على البناء للمفعول وعلى صيغة الماضى من التوجه (لا يأت بخير) بنجح وكفاية مهم البتة (هل يستوى هو) مع ما فيه من الأوصاف المذكورة (ومن يأمر بالعدل) أى من هو منطيق فهم ذو رأى وكفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل الجامع لجامع الفضائل (وهو) فى نفسه مع ما ذكر من نفعه العام للخاص والعام (على صراط مستقيم) ومقابلة الصفات المذكورة بهذين الوصفين لأنهما فى حاق ما يقابلها فان محصل الصفات المذكورة عدم استحقاق المأمورية وملخص هذين استحقاق كمال الآمرية المستتبع لحيازة المحاسن بأجمعها وتغير الأسلوب حيث لم يقل والآخر آمر بالعدل الآية لمراعاة الملاءمة بينه وبين ما هو المقصود من بيان التباين بين القرينتين واعلم أن كلا من الفعلين ليس المراد بهما حكاية الضرب الماضى بل المراد انشاؤه بما ذكر عقيبه ولا يبعد أن يقال ان الله تعالى ضرب مثلا بخلق الفريقين على ما هما عليه فكان خلقهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين ما يشركون فيكون كل من الفعلين حكاية للضرب الماضى (ولله) تعالى خاصة لا لأحد غيره استقلالا ولا اشتراكا (غيب السموات والأرض) أى الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة بحيث لا سبيل لهم اليها لا مشاهدة ولا استدلالا ومعنى الإضافة اليهما التعلق بهما باعتبار الوقوع فيهما حالا أو مآلا وإما باعتبار الغيبة عن أهلهما والمراد بيان الاختصاص به تعالى من حيث المعلومية حسبما ينبىء عنه عنوان الغيبية لا من حيث المخلوقية والمملوكية وإن كان الأمر كذلك فى نفس الأمر وفيه إشعار بأن علمه سبحانه حضورى فان تحقق الغيوب فى أنفسها علم بالنسبة اليه تعالى ولذلك لم يقل ولله علم غيب السموات والأرض (وما أمر الساعة) التى هى أعظم ما وقع فيه المماراة من الغيوب المتعلقة بهما من حيث غيبتها عن أهلهما أو ظهور آثارها فيهما عند وقوعها فان وقت وقوعها بعينه من الغيوب المختصة به سبحانه وإن كان انيتها من الغيوب التى نصبت عليها الأدلة أى ما شأنها فى سرعة المجىء (إلا كلمح البصر) أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها (أو هو) أى بل أمرها فيما ذكر (أقرب) من ذلك وأسرع زمانا بأن يقع فى بعض من زمانه فان ذلك وإن قصر عن حركة آنية لها هوية اتصالية منطبقة على زمان له هوية كذلك قابل للانقسام إلى أبعاض هى أزمنة أيضا بل فى آن غير منقسم من ذلك الزمان وهو ان ابتداء تلك الحركة أو ما أمرها إلا كالشىء الذى يستقرب ويقال هو كلمح البصر أو هو أقرب وأيا ما كان فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عبر عنها فى فاتحة السورة الشريفة بالاتيان (إن الله على كل شىء قدير) ومن جملة الأشياء أى يجىء بها أسرع ما يكون فهو قادر على ذلك أو وما أمر إقامة الساعة التى كنهها وكيفيتها من الغيوب الخاصة به سبحانه وهى إماتة الأحياء وإحياء الاموات من الأولين والآخرين وتبديل صور الأكوان أجمعين وقد أنكرها المنكرون وجعلوها من قبيل ما لا يدخل تحت الامكان فى سرعة الوقوع وسهولة التأتى الا كلمح البصر أو هو أقرب على ما مر من الوجهين إن الله على كل شىء قدير فهو قادر على ذلك لا محالة وقيل غيب السموات والأرض عبارة

يوم القيامة بعينه لما أن علمه بخصوصه غائب عن أهلهما فوضع الساعة موضع الضمير لتقوية مضمون الجملة (وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) عطف على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى والله أنزل من السماء ماء وقوله تعالى والله خلقكم وقوله تعالى والله فضل بعضكم على بعض والأمهات بضم الهمزة وقرىء بكسرها أيضا جمع الام زيدت الهاء فيه كما زيدت فى اهراق من اراق وشذت زيادتها فى الواحدة قال: أمهتى خندف والياس أبى (لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً) فى موقع الحال أى غير عالمين شيئا أصلا (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ) عطف على أخرجكم وليس فيه دلالة على تأخر الجعل المذكور عن الاخراج لما أن مدلول الواو هو الجمع مطلقا لا الترتيب على أن أثر ذلك الجعل لا يظهر قبل الاخراج أى جعل لكم هذه الأشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء وتدركوها بأفئدتكم وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الاحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية والأفئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب وهو من القلب كالقلب من الصدر وهو من جموع القلة التى جرت مجرى جموع الكثرة وتقديم المجرور على المنصوبات لما مر من الايذان من أول الأمر بكون المجعول نافعا لهم وتشويق النفس إلى المؤخر ليتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) كى تعرفوا ما أنعم به عليكم طورا غب طور فتشكروه وتقديم السمع على البصر لما أنه طريق تلقى الوحى أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر وإفراده باعتبار كونه مصدرا فى الأصل (أَلَمْ يَرَوْا) وقرىء بالتاء (إِلَى الطَّيْرِ) جمع طائر أى ألم ينظروا اليها (مُسَخَّرَاتٍ) مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المساعدة له وفيه مبالغة من حيث ان معنى التسخير جعل الشىء منقادا لآخر يتصرف فيه كيف يشاء كتسخير البحر والفلك والدواب للانسان والواقع ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء فكان مقتضى طبيعة الطير السقوط فسخرها الله تعالى للطيران وفيه تنبيه على أن الطيران ليس بمقتضى طبع الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى (فِى جَوِّ السَّمَاءِ) أى فى الهواء المتباعد من الأرض والسكاك واللوح أبعد منه وإضافته إلى السماء لما أنه فى جانبها من الناظر ولاظهار كمال القدرة (مَا يُمْسِكُهُنَّ) فى الجو حين قبض أجنحتهن وبسطها ووقوفهن (إِلَّا اللهُ) عز وجل بقدرته الواسعة فان ثقل جسدها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها ولا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وهو إما حال من الضمير المستتر فى مسخرات أو من الطير وإما مستأنف (إِنَّ فِى ذَلِكَ) الذى ذكر من تسخير الطير للطيران بأن خلقها خلقة تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحة خفيفة وأذنابا كذلك وجعل أجسادها من الخفة بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها لا يطيق ثقلها يخرق ما تحتها من الهواء الرقيق القوام وتخرق ما بين يديها من الهواء لأنها لا تلاقيه بحجم كبير (لَآيَاتٍ) ظاهرة (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أى من شأنهم أن يؤمنوا وإنما خص ذلك بهم لأنهم المنتفعون به (وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ) معطوف على ما مر وتقديم لكم على ما سيأتى من المجرور والمنصوب لما مر من الايذان من أول الأمر بأنه لمصلحتهم ومنفعتهم لتشويق النفس إلى وروده وقوله تعالى (مِنْ بُيُوتِكُمْ) أى من بيوتكم المعهودة التى تبنونها من الحجر والمدر تبيين لذلك المجعول المبهم فى الجملة وتأكيد لما سبق من التشويق (سَكَناً) فعل بمعنى مفعول أى موضعا تسكنون فيه وقت إقامتكم أو تسكنون اليه من غير أن ينتقل من مكانه بعض بيوتكم بحيث تسكنون اليه وتطمئنون به (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً) أى بيوتا أخر مغايرة لبيوتكم المعهودة هى الخيام والقباب والأخبية والفساطيط (تَسْتَخِفُّونَهَا) تجدونها خفيفة سهلة المأخذ (يَوْمَ ظَعْنِكُمْ) وقت ترحالكم فى النقض والحمل والنقل وقرىء بفتح العين (وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ) وقت نزولكم فى الضرب والبناء (وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا) عطف على قوله تعالى من جلودها والضمائر للأنعام على وجه التنويع أى

وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز (أَثَٰثًا) أي متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر أثيث (وَمَتَٰعًا) أي شيئا يتمتع به بفنون التمتع (إِلَىٰ حِينٍ) إلى أن تقضوا منه أوطاركم أو إلى أن يبلى ويفنى فانه فى معرض البلا والفناء وقيل إلى أن تموتوا والكلام فى ترتيب المفاعيل مثل مامر من قبل (وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ) من غير صنع من قبلكم (ظِلَٰلًا) أشياء تستظلون بها من الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها امتن سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة (وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا) مواضع تسكنون فيها من الكهوف والغيران والسروب والكلام فى الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذى مر غير مرة (وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ) جمع سربال وهو كل مايلبس أى جعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف وغيرها (تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ) خصه بالذكر اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر أو لأن وقايته هى الأهم عندهم لما مر آنفا (وَسَرَٰبِيلَ) من الدروع والجواشن (تَقِيكُم بَأْسَكُمْ) أى البأس الذى يصل إلى بعضكم من بعض فى الحرب من الضرب والطعن ولقد من الله سبحانه علينا حيث ذكر جميع نعمه الفائضة على جميع الطوائف فبدأ بما يخص المقيمين حيث قال والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ثم بما يخص المسافرين ممن لهم قدرة على الخيام وأضرابها حيث قال وجعل لكم من جلود الأنعام الخ ثم بما يعم من لا يقدر على ذلك ولا يأويه إلا الظلال حيث قال وجعل لكم مما خلق ظلالا الخ ثم بما لا بد منه لأحد حيث قال وجعل لكم سرابيل الخ بما لا غنى عنه فى الحروب حيث قال وسرابيل تقيكم بأسكم ثم قال (كَذَٰلِكَ) أى مثل ذلك الاتمام البالغ (يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) أى إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا به وحده وتذروا ما كنتم به تشركون وتنقادوا لأمره وافراد النعمة إما لأن المراد بها المصدر أو لاظهار أن ذلك بالنسبة إلى جانب الكبرياء شىء قليل وقرىء تسلمون أى تسلمون من العذاب أو من الشرك وقيل من الجراح بلبس الدروع (فَإِن تَوَلَّوْا۟) فعل ماض على طريقة الالتفات وصرف الخطاب عنهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له أى فان أعرضوا عن الإسلام ولم يقبلوا منك ما ألقى اليهم من البينات والعبر والعظات (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) أى فلا قصور من جهتك لأن وظيفتك هى البلاغ الموضح أو الواضح وقد فعلته بما لا مزيد عليه فهو من باب وضع السبب موضع المسبب (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ) استئناف لبيان أن توليهم واعراضهم عن الاسلام ليس بعدم معرفتهم بما عدد من نعم الله تعالى أصلا فانهم يعرفونها ويعترفون أنها من الله تعالى (ثُمَّ يُنكِرُونَهَا) بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها أو بقولهم انها بشفاعة آلهتنا أو بسبب كذا وقيل نعمة الله تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عرفوها بالمعجزات كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروها عنادا ومعنى ثم لاستبعاد الانكار بعد المعرفة لأن حق من عرف النعمة الاعتراف بها لا الانكار وإسناد المعرفة والانكار المتفرع عليها إلى ضمير المشركين على الاطلاق من باب إسناد حال البعض إلى الكل كقولهم بنو فلان قتلوا فلانا وإنما القاتل واحد منهم فان بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه (وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ) أى المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر والحكم عليهم بمطلق الكفر المؤذن بالكمال من حيث الكمية لا ينافى كمال الفرقة الأولى من حيث الكيفية هذا وقد قيل ذكر الأكثر إما لأن بعضهم لم يعرفوا لنقصان العقل أو التفريط فى النظر أو لم يقم عليه الحجة لأنه لم يبلغ حد التكليف فتدبر (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) يشهد لهم بالايمان والطاعة وعليهم بالكفر والعصيان وهو نبيها (ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟) فى الاعتذار إذ لا عذر لهم وثم للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبىء عن الاقناط الكلى وهو عندما يقال لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون أشد من ابتلائهم بشهادة الانبياء عليهم السلام عليهم وأطم (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) يسترضون أى

لا يقال لهم أرضوا ربكم إذ الآخرة دار الجزاء لا دار العمل وانتصاب الظرف بمحذوف تقديره اذكر أو خوفهم يوم نبعث الخ أو يوم نبعث يحيق بهم ما يحيق مما لا يوصف وكذا قوله تعالى (وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ) الذي يستوجبونه بظلمهم وهو عذاب جهنم (فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ) ذلك (وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) أي يمهلون كقوله تعالى بل تأتيهم بغتة فتبهتهم (وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ) الذين كانوا يدعونهم في الدنيا وهم الأوثان أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه وقارنوهم في الغي والضلال (قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ) أي نعبدهم أو نطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعا في توزيع العذاب بينهم كما ينبيء عنه قوله سبحانه (فَأَلْقَوْا) أي شركاؤهم (إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) فإن تكذيبهم إياهم فيما قالوا ليس إلا للمدافعة والتخلص عن غائلة مضمونه وإنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويطيعونهم لأن الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكأن عبادتهم لم تكن عبادة لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام بل كانوا يعبدون الجن يعنون أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لا نحن أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله سبحانه عن الشريك والشياطين وإن كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القسر والإلجاء كما قال إبليس وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فكأنهم قالوا ما عبدتمونا حقيقة بل إنما عبدتم أهواءكم (وَأَلْقَوْا) أي الذين أشركوا (إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ) الاستسلام والانقياد لحكمه العزيز الغالب بعد الاستكبار عنه في الدنيا (وَضَلَّ عَنْهُم) أي ضاع وبطل (مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) من أن لله سبحانه شركاء وأنهم ينصرون ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم وتبرؤا منهم (الَّذِينَ كَفَرُوا) في أنفسهم (وَصَدُّوا) غيرهم (عَن سَبِيلِ اللَّهِ) بالمنع عن الإسلام والحمل على الكفر (زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ) الذي كانوا يستحقونه بكفرهم قيل في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفا وقيل يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد إلى النار (بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) متعلق بقوله زدناهم أي زدناعذابهم بسبب استمرارهم على الإفساد وهو الصد المذكور (وَيَوْمَ نَبْعَثُ) تكرير لما سبق تثنية للتهديد (فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم) أي نبيا (مِّنْ أَنفُسِهِمْ) من جنسهم قطعا لمعذرتهم وفي قوله تعالى عليهم إشعار بأن شهادة أنبيائهم على الأمم تكون بمحضر منهم (وَجِئْنَا بِكَ) إيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع (شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ) الأمم وشهدائهم كقوله تعالى فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقيل على أمتك والعامل في الظرف محذوف كما مر والمراد به يوم القيامة (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ) الكامل في الكتابية الحقيق بأن يخص باسم الجنس وهو إما استئناف أو حال بتقدير قد (تِبْيَانًا) بيانا بليغا (لِّكُلِّ شَيْءٍ) يتعلق بأمور الدين ومن جملة ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم عليهم السلام فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيدا عليهم وكذا من جملته ما أخبر به هذه الآية الكريمة من بعث الشهداء وبعثه عليه السلام شهيدا عليهم عليهم الصلاة والسلام والتبيان كالتلقاء في كسر أوله وكونه تبيانا لكل شيء من أمور الدين باعتبار أن فيه نصا على بعضها وإحالة لبعضها على السنة حيث أمر باتباع النبي عليه السلام وطاعته وقيل فيه وما ينطق عن الهوى وحثا على الإجماع وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته باتباع أصحابه حيث قال أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق الاجتهاد فكانت السنة والإجماع والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب ولم يضر ما في البعض من الخفاء في كونه تبيانا فإن المبالغة باعتبار الكمية دون الكيفية كما قيل في قوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد إنه من قولك فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ومنه قوله سبحانه وما للظالمين من أنصار (وَهُدًى وَرَحْمَةً) للعالمين فإن حرمان الكفرة من مغانم آثاره من تفريطهم لا من جهة الكتاب (وَبُشْرَىٰ

(للمسلمين) خاصة أو يكون كل ذلك خاصا بهم لأنهم المنتفعون بذلك (إن الله يأمر) أى فيما نزله تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين وإيثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لإفادة التجدد والاستمرار (بالعدل) بمراعاة التوسط بين طرفى الافراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها يندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة المتوسطة بين الجربزة والبلادة وفضيلة القوة الشهوية البهيمية من العفة المتوسطة بين الخلاعة والخمود وفضيلة القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن فمن الحكم الاعتقادية التوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن العدل هو التوحيد والقول بالكسب المتوسط بين الجبر والقدر ومن الحكم العملية التعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ومن الحكم الخلقية الجود المتوسط بين البخل والتبذير (والإحسان) أى الاتيان بما أمر به على الوجه اللائق وهو إما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما يشير اليه قوله صلى الله عليه وسلم الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (وإيتاء ذى القربى) أى إعطاء الأقارب ما يحتاجون اليه وهو تخصيص اثر تعميم اهتماما بشأنه (وينهى عن الفحشاء) الافراط فى مشايعة القوة الشهوية كالزنى مثلا (والمنكر) ما ينكر شرعا أو عقلا من الافراط فى اظهار آثار القوة الغضبية (والبغى) الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التى هى حاصلة من رذيلتى القوتين المذكورتين الشهوية والغضبية وليس فى البشر شر إلا وهو مندرج فى هذه الأقسام صادر عنه بواسطة هذه القوى الثلاث ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت فى كونه تبيانا لكل شىء وهدى (يعظكم) بما يأمر وينهى وهو إما استئناف وإما حال من الضميرين فى الفعلين (لعلكم تذكرون) طلبا لأن تتعظوا بذلك (وأوفوا بعهد الله) هو البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانها مبايعة لله سبحانه لقوله تعالى إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله (إذا عاهدتم) أى حافظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه وبايعتم به رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا تنقضوا الأيمان) التى تحلفون بها عند المعاهدة (بعد توكيدها) حسبما هو المعهود فى أثناء العهود لا على أن يكون النهى مقيدا بالتوكيد مختصا به (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) شاهدا رقيبا فان الكفيل مراع لحال المكفول به محافظ عليه (إن الله يعلم ما تفعلون) من نقض الإيمان والعهود فيجازيكم على ذلك (ولا تكونوا) فيما تصنعون من النقض (كالتى نقضت غزلها) أى ما غزلته مصدر بمعنى المفعول (من بعد قوة) متعلق بنقضت أى كالمرأة التى نقضت غزلها من بعد إبرامه وأحكامه (أنكاثا) طاقات نكثت فتلها جمع نكث وانتصابه على الحالية من غزلها أو على أنه مفعول ثان لنقضت فانه بمعنى صيرت والمراد تقبيح حال النقض بتشبيه الناقض بمثل هذه الخرقاء المعتوهة. قيل هى ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هى وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) حال من الضمير فى لا تكونوا أو فى الجار والمجرور الواقع موقع الخبر أى مشابهين لامرأة شأنها هذا حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم وأصل الدخل ما يدخل الشىء ولم يكن منه (أن تكون أمة) أى بأن تكون جماعة (هى أربى) أى أزيد عددا وأوفر مالا (من أمة) من جماعة أخرى أى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم أو لكثرة منابذيهم وقوتهم كقريش فانهم كانوا إذا رأوا شوكة فى أعادى حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم (إنما يبلوكم الله به) أى بأن تكون أمة أربى من أمة أى يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله عليه السلام أم تغترون بكثرة قريش

وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال (وليبيننّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) حين جازاكم بأعمالكم ثوابا وعقابا (ولو شاء الله) مشيئة قسر وإلجاء (لجعلكم أمة واحدة) متفقة على الإسلام (ولكن) لا يشاء ذلك لكونه مزاحما لقضية الحكمة بل (يضل من يشاء) إضلاله أى يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره الجزئى اليه (ويهدى من يشاء) هدايته حسبما يصرف اختياره إلى تحصيلها (ولتسئلن) جميعا يوم القيامة (عما كنتم تعملون) فى الدنيا وهذا إشارة إلى ما لوح به من الكسب الذى عليه يدور أمر الهداية والضلال (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) تصريح بالنهى عنه بعد التضمين تأكيدا ومبالغة فى بيان قبح المنهى عنه وتمهيدا لقوله سبحانه (فتزل قدم) عن محجة الحق (بعد ثبوتها) عليها ورسوخها فيها بالإيمان وافراد القدم وتنكيرها للايذان بأن زلل قدم واحدة أى قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف بأقدام كثيرة (وتذوقوا السوء) أى العذاب الدنيوى (بما صددتم) بصدودكم أو بصدكم غيركم (عن سبيل الله) الذى ينتظم الوفاء بالعهود والإيمان فان من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره (ولكم) فى الآخرة (عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله) أى لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى وبيعة رسوله عليه السلام أو آياته الناطقة بايجاب المحافظة على العهود والإيمان (ثمنا قليلا) أى لا تستبدلوا بها عرضا يسيرا وهو ما كانت قريش يعدون ضعفة المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد من حطام الدنيا (إنما عند الله) عز وجل من النصر والتغنيم والثواب الأخروى (هو خير لكم) مما يعدونكم (إن كنتم تعلمون) أى ان كنتم من أهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهى على طريقة التحقيق كما أن قوله تعالى (ما عندكم) تعليل للخيرية بطريق الاستئناف أى ما تتمتعون به من نعيم الدنيا وان جل بل الدنيا وما فيها جميعا (ينفد) وان جم عدده وينقضى وان طال أمده (وما عند الله) من خزائن رحمته الدنيوية والأخروية (باق) لا نفاد له أما الأخروية فظاهرة وأما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالأخروية ومستتبعة لها فقد انتظمت فى سمط الباقيات الصالحات وفى ايثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام ما لا يخفى وقوله تعالى (ولنجزين) بنون العظمة على طريقة الالتفات تكرير للوعد المستفاد من قوله تعالى ان ما عند الله هو خير لكم على نهج التوكيد القسمى مبالغة فى الحمل على الثبات فى الدين والالتفات عما يقتضيه ظاهر الحال من أن يقال ولنجزينكم أجركم بأحسن ما كنتم تعملون للتوسل إلى التعرض لأعمالهم والاشعار بعليتها للجزاء أى والله لنجزين (الذين صبروا) على أذية المشركين ومشاق الإسلام التى من جملتها الوفاء بالعهود والفقر وقرىء بالياء من غير التفات (أجرهم) مفعول ثان لنجزين أى لنعطينهم أجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم على ما منوا به من الأمور المذكورة (بأحسن ما كانوا يعملون) أى لنجزينهم بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور وإنما أضيف اليه الاحسن للاشعار بكمال حسنه كما فى قوله سبحانه وحسن ثواب الآخرة لا لافادة قصر الجزاء على الاحسن منه دون الحسن فان ذلك مما لا يخطر ببال أحد لا سيما بعد قوله تعالى أجرهم أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الأدنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الأعلى منها من الأجر الجزيل لا انا نعطى الأجر بحسب أفرادها المتفاوتة فى مراتب الحسن بأن نجزى الحسن منها بالأجر الحسن والاحسن بالأحسن وفيه ما لا يخفى من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم فى تضاعيف الصبر من بعض جزع ونظمه فى سلك الصبر الجميل أو لنجزينهم بجزاء أحسن من أعمالهم وأما التفسير بما ترجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات أو بما ترجح تركه أيضا كالمحرمات والمكروهات دلالة على أن ذلك هو المدار للجزاء دون ما يستوى فعله وتركه كالمباحات فلا يساعده مقام الحث على الثبات على ما هم عليه من الأعمال

الحسنة المخصوصة والترغيب فى تحصيل ثمراتها بل التعرض لاخراج بعض أعمالهم عن مدارية الجزاء من قبيل تحجير الرحمة الواسعة فى مقام توسيع حماها (مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا) أى عملا صالحا أى عمل كان وهذا شروع فى تحريض كافة المؤمنين على كل عمل صالح غب ترغيب طائفة منهم فى الثبات على ما هم عليه من عمل صالح مخصوص دفعا لتوهم اختصاص الأجر الموفور بهم وبعملهم المذكور وقوله تعالى (مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ) مبالغة فى بيان شموله للكل (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) قيده به إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة فى استحقاق الثواب أو تخفيف العذاب لقوله تعالى وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وإيثار إيراده بالجملة الاسمية الحالية على نظامه فى سلك الصلة لافادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً) فى الدنيا يعيش عيشا طيبا أما إن كان موسرا فظاهر وأما إن كان معسرا فيطيب عيشه بالقناعة والرضى بالقسمة وتوقع الأجر العظيم كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله بخلاف الفاجر فانه إن كان معسرا فظاهر وإن كان موسرا فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ) فى الآخرة (أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه شائبة تكرار والجمع فى الضمائر العائدة الى الموصول لمراعاة جانب المعنى كما أن الافراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ وإيثار ذلك على العكس لما أن وقوع الجزاء بطريقة الاجتماع المناسب للجمعية ووقوع ما فى حيز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للافراد وإذ قد انتهى الامر الى أن مدار الجزاء المذكور هو صلاح العمل وحسنه رتب عليه بالفاء الارشاد إلى ما به يحسن العمل الصالح ويخلص عن شوب الفساد فقيل (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ) أى إذا أردت قراءته عبر بها عن ارادتها على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب ايذانا بأن المراد هى الارادة المتصلة بالقراءة (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ) فاسأله عز جاره أن يعيذك (مِنَ الشَّيْطَـٰنِ الرَّجِيمِ) من وساوسه وخطراته كيلا يوسوسك عند القراءة فان له همة بذلك قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته الآية وتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيص قراءة القرآن من بين الاعمال الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها للتنبيه على أنها لغيره عليه الصلاة والسلام وفى سائر الاعمال الصالحة أهم فانه عليه السلام حيث أمر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فما ظنكم بمن عداه عليه السلام فيما عدا القراءة من الاعمال والامر للندب وهذا مذهب الجمهور وعند عطاء للوجوب وقد أخذ بظاهر النظم الكريم فاستعاذ عقيب القراءة أبو هريرة رضى الله عنه ومالك وابن سيرين وداود وحمزة من القراء وعن ابن مسعود رضى الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال عليه السلام قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ (إِنَّهُ) الضمير للشأن أو للشيطان (لَيْسَ لَهُ سُلْطَـٰنٌ) تسلط وولاية (عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) أى اليه يفوضون أمورهم وبه يعوذون فى كل ما يأتون وما يذرون فان وسوسته لا تؤثر فيهم ودعوته غير مستجابة عندهم وايثار صيغة الماضى فى الصلة الاولى للدلالة على التحقق كما أن اختيار صيغة الاستقبال فى الثانية لافادة الاستمرار التجددى وفى التعرض لوصف الربوبية عدة كريمة باعادة المتوكلين والجملة تعليل للأمر بالاستعاذة أو لجوابه المنوى أى يعذك أو نحوه (إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُ) أى تسلطه وولايته بدعوته المستتبعة للاستجابة لا سلطانه بالقسر والالجاء فانه منتف عن الفريقين لقوله سبحانه حكاية عنه وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى وقد أفصح عنه قوله تعالى (عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ) أى يتخذونه وليا ويستجيبون دعوته ويطيعونه فان المقسور بمعزل من ذلك (وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ) سبحانه وتعالى (مُشْرِكُونَ) أو بسبب الشيطان مشركون اذ هو

الذى حملهم على الاشراك بالله سبحانه وقصر سلطانه عليهم غب نفيه عن المؤمنين المتوكلين دليل على أن لا واسطة فى الخارج بين التوكل على الله تعالى وبين تولى الشيطان وإن كان بينهما واسطة فى المفهوم وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم فى سلك من يتولى الشيطان من حيث لا يحتسب إذ به يتم التعليل ففيه مبالغة فى الحمل على التوكل والتحذير عن مقابله وإيثار الجملة الفعلية الاستقبالية فى الصلة الأولى لما مر من إفادة الاستمرار التجددى كما أن اختيار الجملة الاسمية فى الثانية للدلالة على الثبات وتكرير الموصول للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول غير المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه وتقديم الأولى على الثانية التى هى بمقابلة الصلة الأولى فيما سلف لرعاية المقارنة بينها وبين ما يقابلها من التوكل على الله تعالى ولو روعى الترتيب السابق لانفصل كل من القرينتين عما يقابلها (وإذا بدّلنا آيةً مكانَ آيةٍ) أى إذا أنزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلا منها بأن نسخناها بها (والله أعلم بما يُنزّلُ) أولا وآخرا وبأن كلا من ذلك ما نزلت حيثما نزلت الا حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فان كل وقت له مقتض غير مقتضى الآخر فكم من مصلحة فى وقت تنقلب فى وقت آخر مفسدة وبالعكس لانقلاب الأمور الداعية إلى ذلك وما الشرائع إلا مصالح للعباد فى المعاش والمعاد تدور حسبما تدور المصالح والجملة إما معترضة لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم وفى الالتفات إلى الغيبة مع إسناد الخبر إلى الاسم الجليل المستجمع للصفات ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض أو حالية وقرىء بالتخفيف من الانزال (قالوا) أى الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ (إنما أنتَ مُفترٍ) أى متقول على الله تعالى تأمر بشىء ثم يبدو لك فتنهى عنه وحكاية هذا القول عنهم ههنا للايذان بأن ذلك كفرة ناشئة من نزغات الشيطان وأنه وليهم (بل أكثرُهم لا يعلمونَ) أى لا يعلمون شيئا أصلا أو لا يعلمون أن فى النسخ حكما بالغة وإسناد هذا الحكم إلى الأكثر لما أن منهم من يعلم ذلك وإنما ينكره عنادا (قلْ نزّله) أى القرآن المدلول عليه بالآية (روحُ القدُس) يعنى جبريل عليه السلام أى الروح المطهر من الأدناس البشرية وإضافة الروح إلى القدس وهو الطهر كاضافة حاتم إلى الجود حيث قيل حاتم الجود للمبالغة فى ذلك الوصف كأنه طبع منه وفى صيغة التفعيل فى الموضعين إشعار بأن التدريج فى الانزال بما تقتضيه الحكمة البالغة (مِن ربّكَ) فى إضافة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من الدلالة على تحقيق افاضة آثار الربوبية عليه صلى الله عليه وسلم ما ليس فى اضافته إلى ياء المتكلم المبنية على التلقين المحض (بالحقّ) أى ملتبسا بالحق الثابت الموافق للحكمة المقتضية له بحيث لا يفارقها إنشاء ونسخا وفيه دلالة على أن النسخ حق (ليُثبّتَ الذينَ آمنوا) على الايمان بأنه كلامه تعالى فانهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم وقرىء ليثبت من الأفعال (وهُدًى وبُشرى للمسلمينَ) المنقادين لحكمه تعالى وهما معطوفان على محل ليثبت أى تثبيتا وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول أضداد الأمور المذكورة لمن سواهم من الكفار (ولقدْ نعلمُ أنهمْ يقولونَ) غير ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء (إنما يُعلّمُهُ) أى القرآن (بشرٌ) على طريق البت مع ظهور أنه نزله روح القدس عليه الصلاة والسلام وتحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددى فى متعلقه فانهم مستمرون على تفوه تلك العظيمة يعنون بذلك جبر الرومى غلام عامر بن الحضرمى وقيل جبرا ويسارا كانا يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والانجيل وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه وقيل عابسا غلام حويطب بن عبد العزى قد أسلم وكان صاحب كتب وقيل سلمان الفارسى وإنما لم يصرح باسم من زعموا أنه يعلمه مع كونه أدخل فى ظهور كذبهم للايذان بأن مدار خطابهم ليس نسبته عليه السلام إلى التعلم من شخص معين

بل من البشر كائنا من كان مع كونه عليه السلام معدنا لعلوم الأولين والآخرين (لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ) الالحاد الامالة من ألحد القبر إذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر فى شق منه ثم استعير لكل امالة عن الاستقامة فقالوا ألحد فلان فى قوله وألحد فى دينه أى لغة الرجل الذى يميلون اليه القول عن الاستقامة أعجمية غير بينة وقرىء بفتح الياء والحاء وبتعريف اللسان (وَهَٰذَا) أى القرآن الكريم (لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) ذو بيان وفصاحة والجملتان مستأنفتان لابطال طعنهم وتقريره أن القرآن معجز بنظمه كما أنه معجز بمعناه فان زعمتم أن بشرا يعلمه معناه فكيف يعلمه هذا النظم الذى أعجز جميع أهل الدنيا والتشبث فى أثناء الطعن بأذيال أمثال هذه الخرافات الركيكة دليل على كمال عجزهم (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) أى لا يصدقون أنها من عند الله بل يقولون فيها ما يقولون يسمونها تارة افتراء وأخرى أساطير معلمة من البشر (لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ) إلى الحق أو إلى سبيل النجاة هداية موصلة إلى المطلوب لما علم أنهم لا يستحقون ذلك لسوء حالهم (وَلَهُمْ) فى الآخرة (عَذَابٌ أَلِيمٌ) وهذا تهديد لهم ووعيد على ما هم عليه من الكفر بآيات الله تعالى ونسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الافتراء والتعلم من البشر بعد إماطة شبهتهم ورد طعنهم وقوله تعالى (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) رد لقولهم إنما أنت مفتر وقلب للأمر عليهم ببيان أنهم هم المفترون بعد رده بتحقيق أنه منزل من عند الله بواسطة روح القدس وإنما وسط بينهما قوله تعالى ولقد نعلم الآية لما لا يخفى من شدة اتصاله بالرد الأول والمعنى والله تعالى أعلم أن المفترى هو الذى يكذب بآيات الله ويقول إنه افتراء ومعلم من البشر أى تكذيبها على الوجه المذكور هو الافتراء على الحقيقة لأن حقيقته الكذب والحكم بأن ما هو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى فى كونه كذبا وافتراء كالحكم بأن ما ليس بكلامه تعالى كلامه تعالى والتصريح بالكذب للمبالغة فى بيان قبحه وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ما هو عبارة عنه أعنى قوله لا يؤمنون وقيل المعنى انما يفترى الكذب ويليق ذلك بمن لا يؤمن بآيات الله لأنه لا يترقب عقابا عليه ليرتدع عنها وأما من يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء البتة (وَأُولَٰئِكَ) الموصوفون بما ذكر من عدم الايمان بآيات الله (هُمُ الْكَاذِبُونَ) على الحقيقة أو الكاملون فى الكذب إذ لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل والسر فى ذلك أن الكذب الساذج الذى هو عبارة عن الاخبار بعدم وقوع ما هو واقع فى نفس الأمر بخلق الله تعالى أو بوقوع ما لم يقع كذلك مدافعة لله تعالى فى فعله فقط والتكذيب مدافعة له سبحانه فى فعله وقوله المنبىء عنه معا أو الذين عادتهم الكذب لا يزعهم عنه وازع من دين أو مروءة وقيل الكاذبون فى قولهم إنما أنت مفتر (مَن كَفَرَ بِاللَّهِ) أى تلفظ بكلمة الكفر (مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ) به تعالى وهو ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله بعدما آمن بها بعد بيان حال من لم يؤمن بها رأسا ومن موصولة ومحلها الرفع على الابتداء والخبر محذوف لدلالة الخبر الآتى عليه أو هو خبر لهما معا أو النصب على الذم (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ) على ذلك بأمر يخاف على نفسه أو على عضو من أعضائه وهو استثناء متصل من حكم الغضب والعذاب أو الذم لأن الكفر لغة يتم بالقول كما أشير اليه وقوله تعالى (وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) حال من المستثنى والعامل هو الكفر الواقع بالاكراه لا نفس الاكراه لأن مقارنة اطمئنان القلب بالايمان للاكراه لا تجدى نفعا وإنما المجدى مقارنته للكفر الواقع به أى إلا من كفر باكراه وإلا من أكره فكفر والحال أن قلبه مطمئن بالايمان لم تتغير عقيدته وإنما لم يصرح به إيماء إلى أنه ليس بكفر حقيقة وفيه دليل على أن الايمان هو التصديق بالقلب (وَلَٰكِن مَّن) لم يكن كذلك بل (شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) أى اعتقده وطاب به نفسا (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) عظيم لا يكتنه كنهه (مِّنَ اللَّهِ) اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتقوية تعظيم العذاب (وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) اذ لا جرم أعظم من جرمهم والجمع

فى الضميرين المجرورين لمراعاة جانب المعنى كما أن الافراد فى المستكن فى الصلة لرعاية جانب اللفظ . روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الارتداد فأباه أبواه فربطوا بين بعيرين ووجئت بحربة فى قبلها وقالوا إنما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرا وهما أول قتيلين فى الاسلام وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوا عليه فقيل يارسول الله ان عمارا كفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا ملىء ايمانا من قرنه إلى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال مالك ان عادوا لك فعدلهم بما قلت وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الاكراه الملجىء وان كان الافضل أن يتجنب عنه اعزازا للدين كما فعله أبواه وروى أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لاحدهما ماتقول فى محمد قال رسول الله قال فما تقول فى قال فأنت أيضا فخلاه وقال للآخر ماتقول فى محمد قال رسول الله قال فما تقول فى قال أنا أصم فأعاد ثلاثا فأعاد جوابه فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الأول فقد أخذ برخصة وأما الثانى فقد صدع بالحق (ذَٰلِكَ) اشارة الكفر بعد الايمان أو إلى الوعيد المذكور (بِأَنَّهُمُ) بسبب أنهم (اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا) آثروها (عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى) إلى الايمان وإلى مايوجب الثبات عليه هداية قسر والجاء (الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ) فى علمه المحيط فلا يعصمهم عن الزيغ ومايؤدى اليه من الغضب والعذاب العظيم ولولا أحد الأمرين اما إيثار الحيوة الدنيا على الآخرة واما عدم هداية الله سبحانه للكافرين هداية قسر بأن آثروا الآخرة على الدنيا أو بأن هداهم الله تعالى هداية قسر لما كان ذلك لكن الثانى مخالف للحكمة والأول مما لا يدخل تحت الوقوع واليه أشير بقوله تعالى (أُولَٰٓئِكَ) أى أولئك الموصوفين بما ذكر من القبائح (الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ) فأبت عن ادراك الحق والتأمل فيه (وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ) أى الكاملون فى الغفلة إذ لا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر العواقب (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ) اذ ضيعوا أعمارهم وصرفوها إلى مالا يفضى إلا إلى العذاب المخلد (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا) إلى دار الاسلام وهم عمار وأصحابه رضى الله عنهم أى لهم بالولاية والنصر لا عليهم كما يوجبه ظاهر أعمالهم السابقة فالجار والمجرور خبر لأن ويجوز أن يكون خبرها محذوفا لدلالة الخبر الآتى عليه ويجوز أن يكون ذلك خبراً لها وتكون ان الثانية تأكيداً للاولى وثم للدلالة على تباعد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التى يفيدها الاستثناء من مجرد الخروج عن حكم الغضب والعذاب بطريق الاشارة لا عن رتبة حال الكفرة (مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا) أى عذبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالايمان وقرىء على بناء الفاعل أى عذبوا المؤمنين كالحضرمى أكره مولاه جبرا حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا (ثُمَّ جَٰهَدُوا) فى سبيل الله (وَصَبَرُوا) على مشاق الجهاد (إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا) من بعد المهاجرة والجهاد والصبر فهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له أو من بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم اخلال ذلك بالحكم (لَغَفُورٌ) لما فعلوا من قبل (رَّحِيمٌ) ينعم عليهم مجازاة على ماصنعوا من بعد وفى التعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين إيماء إلى علة الحكم وفى اضافة الرب إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الاثر فى الطائفة المذكورة اظهار لكمال اللطف به عليه السلام وإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعا له (يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ) منصوب برحيم ومارتب عليه أو باذكر وهو يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين (تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا) عن ذاتها تسعى فى خلاصها بالاعتذار لا يهمها شأن غيرها فتقول نفسى نفسى (وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ) أى تعطى وافيا كاملا (مَّا عَمِلَتْ) أى جزاء ماعملت بطريق اطلاق اسم

السبب على المسبب اشعارا بكمال الاتصال بين الاجزية والاعمال وإيثار الاظهار على الاضمار لزيادة التقرير وللايذان باختلاف وقتى المجادلة والتوفية وان كانتا فى يوم واحد (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) لاينقصون أجورهم أو لايعاقبون بغير موجب ولايزاد فى عقابهم على ذنوبهم (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً) قبل ضرب المثل صنعه واعتماله وقدمر تحقيقه فى سورة البقرة ولايتعدى الا إلى مفعول واحد وإنما عدى إلى الاثنين لتضمينه معنى الجعل وتأخير قرية مع كونها مفعولا أولا لئلا يحول المفعول الثانى بينها وبين صفتها ومايترتب عليها إذ التأخير عن الكل مخل بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها ولأن تأخير ماحقه التقديم ممايورث النفس ترقبا لوروده وتشوقا اليه لاسيما إذا كان فى المقدم مايدعو اليه فان المثل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ماهو مثل فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن والقرية امامحققة فى الغابرين واما مقدرة أى جعلها مثلا لأهل مكة خاصة أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا مافعلوا فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمة ودخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا (كَانَتْ ءَامِنَةً) ذات أمن من كل مخوف (مُّطْمَئِنَّةً) لايزعج أهلها مزعج (يَأْتِيهَا رِزْقُهَا) أقوات أهلها صفة ثانية لقرية وتغيير سبكها عن الصفة الأولى لما أن اتيان رزقها متجدد وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر (رَغَداً) واسعا (مِّن كُلِّ مَكَانٍ) من نواحيها (فَكَفَرَتْ) أى كفر أهلها (بِأَنْعُمِ اللهِ) أى بنعمه جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع أو جمع نعم كبؤس وأبؤس والمراد بها نعمة الرزق والأمن المستمر وإيثار جمع القلة للايذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب فما ظنك بكفران نعم كثيرة (فَأَذَاقَهَا اللهُ) أى اذاق أهلها (لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشى للابس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الاذاقة المستعارة لمطلق الايصال المنبئة عن شدة الإصابة بمافيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة على نهج التجريد فانها لشيوع استعمالها فى ذلك وكثرة جريانها على الألسنة جرت مجرى الحقيقة كقول كثير :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا غلقت لضحكته رقاب المال

فان الغمر مع كونه فى الحقيقة من أحوال الماء الكثير لما كان كثير الاستعمال فى المعروف المشبه بالماء الكثير جرى مجرى الحقيقة فصارت اضافته إلى الرداء المستعار للمعروف تجريدا أو شبه أثرهما وضررهما من حيث الاحاطة بهم والكراهة تارة باللباس الغاشى للابس المناسب للخوف بجامع الاحاطة واللزوم تشبيه معقول بمحسوس فاستعير له اسمه استعارة تصريحية وأخرى بطعم المر البشع الملائم للجوع الناشىء من فقد الرزق بجامع الكراهة فأومى اليه بأن أوقع عليه الاذاقة المستعارة لايصال الضار المنبئة عن شدة الاصابة بمافيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة وتقديم الجوع الناشىء مماذكر من فقدان الرزق على الخوف المترتب على زوال الأمن المقدم فيما تقدم على اتيان الرزق لكونه أنسب بالاذاقة أو لمراعاة المقارنة بينها وبين إتيان الرزق وقد قرىء بتقديم الخوف وبنصبه أيضا عطفا على المضاف أو اقامة له مقام مضاف محذوف وأصله ولباس الخوف (بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) فيما قبل أو على وجه الاستمرار وهو الكفران المذكور أسند ذلك إلى أهل القرية تحقيقا للامر بعد إسناد الكفران اليها وايقاع الاذاقة عليها إرادة للمبالغة وفى صيغة الصنعة ايذان بأن كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسنة مسلوكة (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ) من تتمة المثل جىء بها لبيان أن ما فعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمة منهم لقضية العقل فقط بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضا أى ولقد جاء أهل تلك القرية (رَسُولٌ مِّنْهُمْ) أى من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وأنذرهم سوء عاقبة مايأتون ومايذرون (فَكَذَّبُوهُ) فى رسالته أو فيما أخبرهم به مماذكر فالفاء فصيحة

وعدم ذكره للايذان بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تلعثم (فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ) المستأصل لشأفتهم غب ماذاقوا نبذة من ذلك (وَهُمْ ظَٰلِمُونَ) أى حال التباسهم بما هم عليه من الظلم الذى هو كفران نعم الله تعالى وتكذيب رسوله غير مقلعين عنه بما ذاقوا من مقدماته الزاجرة عنه وفيه دلالة على تماديهم فى الكفر والعناد وتجاوزهم فى ذلك كل حد معتاد وترتيب العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد اليه قوله سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وبه يتم التمثيل فان حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة أو لمن سار سيرتهم كافة مجاذية لحال أهل تلك القرية حذو القذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولو فى خصلة فذة كيف لا وقد كانوا فى حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم وما يمر ببالهم طيف من الخوف وكانت تجبى اليه ثمرات كل شىء ولقد جاءهم رسول منهم وأى رسول يحار فى ادراك سمو رتبته العقول صلى الله عليه وسلم ما اختلف الدبور والقبول فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله عليه السلام فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف حيث أصابهم بدعائه عليه السلام بقوله اللهم أعن عليهم بسبع كسبع يوسف ما أصابهم من جدب شديد وأزمة حصت كل شىء حتى اضطرتهم إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة والعلهز وهو الوبر المعالج بالدم وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم من العذاب هذا هو الذى يقتضيه المقام ويستدعيه حسن النظام وأما ما أجمع عليه أكثر أهل التفسير من أن الضمير فى قوله تعالى ولقد جاءهم لأهل مكة قد ذكر حالهم صريحا بعد ما ذكر مثلهم وأن المراد بالرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالعذاب ما أصابهم من الجدب ووقعة بدر فبمعزل من التحقيق كيف لا وقوله سبحانه (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) مفرع على نتيجة التمثيل وصدلهم عما يؤدى إلى مثل عاقبته والمعنى وإذ قد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله وما حل بهم بسبب ذلك من اللتيا والتى أولا وآخرا فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول عليه السلام كيلا يحل بكم مثل ما حل بهم واعرفوا حق نعم الله تعالى وأطيعوا رسوله عليه السلام فى أمره ونهيه وكلوا من رزق الله حال كونه (حَلَٰلًا طَيِّبًا) وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها (وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ) واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران والفاء فى المعنى داخلة على الأمر بالشكر وإنما أدخلت على الأمر بالأكل لكون الأكل ذريعة إلى الشكر فكأنه قيل فاشكروا نعمة الله غب أكلها حلالا طيبا وقد أدمج فيه النهى عن زعم الحرمة ولاريب فى أن هذا إنما يتصور حين كان العذاب المستأصل متوقعا بعد وقد تمهدت مباديه وبعد ما وقع ما وقع فمن ذا الذى يحذر ومن ذا الذى يؤمر بالأكل والشكر وحمل قوله تعالى فأخذهم العذاب وهم ظالمون على الاخبار بذلك قبل الوقوع يأباه التصدى لاستصلاحهم بالأمر والنهى وتوجيه خطاب الأمر بالأكل إلى المؤمنين مع أن ما يتلوه من خطاب النهى متوجه إلى الكفار كما فعله الواحدى حيث قال فكلوا أنتم يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل (إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) أى تطيعون أو ان صح زعمكم انكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته تعالى (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) تعليل لحل ما أمرهم بأكله مما رزقهم أى إنما حرم هذه الأشياء دون ما تزعمون حرمته من البحائر والسوائب ونحوها (فَمَنِ اضْطُرَّ) بما اعتراه من الضرورة فتناول شيئا من ذلك (غَيْرَ بَاغٍ) أى على مضطر آخر (وَلَا عَادٍ) أى متجاوز قدر الضرورة (فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (١) أى لا يؤاخذ بذلك فأقيم سببه مقامه وفى التعرض لوصف الربوبية إيماء إلى علة الحكم

---

(١) قوله (فان ربك غفور رحيم) التلاوة فان الله غفور رحيم وحينئذ فلا حاجة لبيان نكتة التعبير بالربوبية المضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام بقوله (وفى التعرض لوصف الربوبية الخ)

وفى الاضافة إلى ضميره عليه السلام اظهار لكمال اللطف به عليه السلام وتصدير الجملة بانما لحصر المحرمات فى الأجناس الأربعة الا ماضم اليه كالسباع والحمر الأهلية ثم أكد ذلك بالنهى عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم) اللام صلة مثلها فى قوله تعالى ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات أى لا تقولوا فى شأن ما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر فضلا عن استناده إلى وحى أو قياس مبنى عليه (الكذب) منتصب بلا تقولوا وقوله تعالى (هذا حلال وهذا حرام) بدل منه ويجوز أن يتعلق بتصف على ارادة القول أى لا تقولوا لما تصف ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام وأن يكون القول المقدر حالا من ألسنتهم اى قائلة هذا حلال الخ ويجوز أن ينتصب الكذب بتصف ويتعلق هذا حلال الخ بلا تقولوا واللام للتعليل وما مصدرية أى لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أى لا تحلوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له بصورة مستحسنة وتزيينها له فى المسامع كأن ألسنتهم لكونها منشأ للكذب ومنبعا للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس ويعرفه أوضح وصف وأبين تعريف على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال وجهه يصف الجمال وعينه تصف السحر وقرىء بالجر صفة لما مع مدخولها كأنه قيل لوصفها الكذب بمعنى الكاذب كقوله تعالى بدم كذب والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرىء الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للالسنة وبالنصب على الشتم أو بمعنى الكلم الكواذب أو هو جمع الكذاب من قولهم كذب كذابا ذكره ابن جنى (لتفتروا على الله الكذب) فان مدار الحل والحرمة ليس الا أمر الله تعالى فالحكم بالحل والحرمة اسناد للتحليل والتحريم إلى الله سبحانه من غير أن يكون ذلك منه واللام لام العاقبة (إن الذين يفترون على الله الكذب) فى أمر من الأمور (لا يفلحون) لا يفوزون بمطالبهم التى ارتكبوا الافتراء للفوز بها (متاع قليل) خبر مبتدأ محذوف أى منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم) لا يكتنه كنهه (وعلى الذين هادوا) خاصة دون غيرهم من الأولين والآخرين (حرمنا ما قصصنا عليك) أى بقوله تعالى حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الآية (من قبل) متعلق بقصصنا أو بحرمنا وهو تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بابطال ما يخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم فى ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الأمر الينا (وما ظلمناهم) بذلك التحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه حسبما نعى عليهم قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم الآية ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل الا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين روى أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها أن تحريم ما حرم عليهم من الطيبات لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديدا أوضح بيان وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم فى التحريم (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة) أى بسبب جهالة أو ملتبسين بها ليعم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر فى العواقب لغلبة الشهوة والسوء يعم الافتراء على الله تعالى وغيره (ثم تابوا من بعد ذلك) أى من بعد ما عملوا ما عملوا والتصريح به مع دلالة ثم عليه للتأكيد والمبالغة (وأصلحوا) أى أصلحوا أعمالهم أو دخلوا فى الصلاح (إن ربك من بعدها) من بعد التوبة (لغفور) لذلك السوء (رحيم) يثيب على طاعته تركا وفعلا وتكرير قوله تعالى ان ربك لتأكيد الوعد واظهار كمال العناية بانجازه والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة إلى ضميره عليه

السلام مع ظهور الأثر فى التائبين للايماء إلى أن إفاضة آثار الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسطه عليه السلام وكونهم من أتباعه كما أشير اليه فيما مر (إِنَّ إِبْرٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً) على حياله لحيازته من الفضائل البشرية ما لا تكاد توجد إلا متفرقة فى أمة جمة حسبما قيل:

ليس على الله بمستنكر … أن يجمع العالم فى واحد

وهو رئيس أهل التوحيد وقدوة أصحاب التحقيق جادل أهل الشرك وألقمهم الحجر ببينات باهرة لا تبقى ولا تذر وأبطل مذاهبهم الزائغة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة أو لأنه عليه السلام كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار وقيل هى فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من أمه إذا قصده أو اقتدى به فان الناس كانوا يقصدونه ويقتدون بسيرته لقوله تعالى إنى جاعلك للناس إماما وإيراد ذكره عليه السلام عقيب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن فى النبوة وتحريم ما أحله الله تعالى للايذان بأن حقية دين الإسلام وبطلان الشرك وفروعه أمر ثابت لا ريب فيه (قَانِتًا لِلّٰهِ) مطيعا له قائما بأمره (حَنِيفًا) مائلا عن كل دين باطل إلى الدين الحق غير زائل عنه بحال (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فى أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك مع ظهوره لا ردا على كفار قريش فقط فى قولهم نحن على ملة أبينا إبراهيم بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم عزير ابن الله فى افترائهم وادعائهم أنه عليه الصلاة والسلام كان على ما هم عليه كقوله سبحانه ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين إذ به ينتظم أمر إيراد التحريم والسبت سابقا ولاحقا (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ) صفة ثالثة لأمة وإنما أوثر صيغة جمع القلة للايذان بأنه عليه السلام كان لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ما هم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى حسبما بين ذلك بضرب المثل (اجْتَبَاهُ) للنبوة (وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) موصل اليه سبحانه وهو ملة الإسلام وليست نتيجة هذه الهداية مجرد اهتدائه عليه السلام بل مع إرشاد الخلق أيضا بمعونة قرينة الاجتباء (وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً) حالة حسنة من الذكر الجميل والثناء فيما بين الناس قاطبة حتى إنه ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه وقيل هى الخلة والنبوة وقيل قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم والالتفات إلى التكلم لاظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيم مكانه عليه الصلاة والسلام (وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) أصحاب الدرجات العالية فى الجنة حسبما سأله بقوله وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) مع علو طبقتك وسمو رتبتك (أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ) الملة اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء عليهم السلام من أمللت الكتاب إذا أمليته وهو الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له وتحقيقه أن الوضع الإلهى مهما نسب إلى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومهما نسب إلى من يقيمه ويعمل به يسمى دينا قال الراغب الفرق بينهما أن الملة لا تضاف الا الى النبى عليه السلام ولا تكاد توجد مضافة إلى الله سبحانه ولا إلى آحاد الأمة ولا تستعمل إلا فى جملة الشرائع دون آحادها والمراد بملته عليه السلام الإسلام الذى عبر عنه آنفا بالصراط المستقيم (حَنِيفًا) حال من المضاف اليه لما أن المضاف لشدة اتصاله به عليه السلام جرى منه مجرى البعض فعد بذلك من قبيل رأيت وجه هند قائمة والمأمور به الاتباع فى الأصول دون الشرائع المتبدلة بتبدل الأعصار وما فى ثم من التراخى فى الرتبة للايذان بأن هذه النعمة من أجل النعم الفائضة عليه عليه السلام (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) تكرير لما سبق لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عليه السلام عما هم عليه من عقد وعمل وقوله تعالى (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ) أى فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد فيه تحقيق لذلك النفى الكلى وتوضيح له بابطال ما عسى يتوهم كونه قادحا فى كليته حسبما سلف فى قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا الخ فان اليهود كانوا يدعون أن السبت من شعائر الاسلام وأن ابراهيم عليه السلام كان محافظا عليه أى ليس السبت من شرائع ابراهيم

وشعائر ملته التى أمرت باتباعها حتى يكون بينه عليه الصلاة والسلام وبين بعض المشركين علاقة فى الجملة وإنما شرع ذلك لبنى إسرائيل بعد مدة طويلة وإيراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة الاسناد إلى الغير وقد قرىء على البناء للفاعل وإنما عبر عن ذلك بالجعل موصولا بكلمة على وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم فقيل إنما جعل السبت (عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ) للايذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدى إلى العذاب وبكونه معللا باختلافهم فى شأنه قبل الوقوع إيثارا له على ما أمر الله تعالى به واختيارا للعكس لكن لا باعتبار شمول العلية لطرفى الاختلاف وعموم الغائلة للفريقين بل باعتبار حال منشأ الاختلاف من الطرف المخالف للحق وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام أمر اليهود أن يجعلوا فى الأسبوع يوما واحدا للعبادة وأن يكون ذلك يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذى فرغ الله تعالى فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت الا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فأذن الله تعالى لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع أمر الله تعالى الرضوان بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فسخهم الله سبحانه قردة دون أولئك المطيعين (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) أى بين الفريقين المختلفين فيه (يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) أى يفصل ما بينهما من الخصومة والاختلاف فيجازى كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب وفيه إيماء إلى أن ما وقع فى الدنيا من مسخ أحد الفريقين وإنجاء الآخر بالنسبة إلى ما سيقع فى الآخرة شىء لا يعتد به هذا هو الذى يستدعيه الاعجاز التنزيلى وقيل المعنى إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه أى أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى وكان حتما عليهم أن يتفقوا على تحريمه حسبما أمر الله سبحانه به وفسر الحكم بينهم بالمجازاة باختلاف أفعالهم بالاحلال تارة والتحريم أخرى ووجه إيراده ههنا بأنه أريد به انذار المشركين من سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لأوامره كضرب المثل بالقرية التى كفرت بأنعم الله تعالى ولا ريب فى أن كلمة بينهم تحكم بأن المراد بالحكم هو فصل ما بين الفريقين من الاختلاف وأن توسيط حديث المسخ للانذار المذكور بين حكاية أمر النبى صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وبين أمره صلى الله عليه وسلم بالدعوة اليها من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فتأمل (ادْعُ) أى من بعثت اليهم من الأمة قاطبة فحذف المفعول للتعميم أو افعل الدعوة كما فى قولهم يعطى ويمنع أى يفعل الاعطاء والمنع فحذفه للقصد إلى إيجاد نفس الفعل إشعارا بأن عموم الدعوة غنى عن البيان وإنما المقصود الأمر بإيجادها على وجه مخصوص (إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ) الى الاسلام الذى عبر عنه تارة بالصراط المستقيم وأخرى بملة إبراهيم عليه السلام وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية وتبليغ الشىء إلى كماله اللائق شيئا فشيئا مع إضافة الرب إلى ضمير النبى عليه الصلاة والسلام فى مقام الأمر بدعوة الأمة على الوجه الحكيم وتكميلهم بأحكام الشريعة الشريفة من الدلالة على إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والايماء إلى وجه بناء الحكم ما لا يخفى (بِالْحِكْمَةِ) أى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة (وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) أى الخطابيات المقنعة والعبر النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم فالأولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم ويجوز أن يكون المراد بهما القرآن المجيد فانه جامع لكلا الوصفين (وَجَادِلْهُمْ) أى ناظر معانديهم (بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) بالطريقة التى هى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الايسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكينا لشغبهم واطفاء للهبهم كما فعله الخليل عليه السلام (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) الذى أمرك بدعوة الخلق اليه وأعرض عن قبول الحق بعد ما عاين ما عاين من الحكم والمواعظ والعبر (وَهُوَ أَعْلَمُ

بالمهتدين) اليه بذلك وهو تعليل لما ذكر من الأمرين والمعنى والله تعالى أعلم اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة فانه تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من خير جبلى فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة فانه كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين أو ماعليك إلا ماذكر من الدعوة والمجادلة بالأحسن وأما حصول الهداية أو الضلال والمجازاة عليهما فالى الله سبحانه إذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدى اليه فيجازى كلا منهما بما يستحقه وتقديم الضالين لما أن مساق الكلام لهم وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لما أنه تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها واعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض بخلاف الاهتداء الذى هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جىء به على صيغة الاسم المنبىء عن الثبات وتكرير هو أعلم للتأكيد والاشعار بتباين حال المعلومين ومآلهما من العقاب والثواب وبعد ما أمره عليه الصلاة والسلام فيما يختص به من شأن الدعوة بما أمره به من الوجه اللائق عقبه بخطاب شامل له ولمن شايعه فيما يعم الكل فقال (وإن عاقبتم) أى إن أردتم المعاقبة على طريقة قول الطبيب للمحتمى إن أكلت فكل قليلا (فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به) أى بمثل مافعل بكم وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة إطلاق اسم المسبب على السبب نحو كما تدين تدان أو على نهج المشاكلة والمقصود إيجاب مراعاة العدل مع من يناصبهم من غير تجاوز حين ما آل الجدال إلى القتال وأدى النزاع إلى القراع فان الدعوة المأمور بها لا تكاد تنفك عن ذلك كيف لا وهى موجبة لصرف الوجوه عن القبل المعبودة وإدخال الأعناق فى قلادة غير معهودة قاضية عليهم بفساد ما يأتون وما يذرون وبطلان دين استمرت عليه آباؤهم الأولون وقد ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وسدت عليهم طرق المحاجة والمناظرة وأرتجت دونهم أبواب المباحثة والمحاورة وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة رضى الله عنه يوم أحد قد مثل به قال لئن أظفرنى الله بهم لامثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراده وقرىء وإن عقبتم فعقبوا أى وان قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل مافعل بكم غير متجاوزين عنه والأمر وإن دل على إباحة المماثلة فى المثلة من غير تجاوز لكن فى تقييده بقوله وإن عاقبتم حث على العفو تعريضا وقد صرح به على الوجه الآكد فقيل (ولئن صبرتم) أى عن المعاقبة بالمثل (لهو) أى لصبركم ذلك (خير) لكم من الانتصار بالمعاقبة وإنما قيل (للصابرين) مدحا لهم وثناء عليهم بالصبر أو وصفا لهم بصفة تحصل لهم عند ترك المعاقبة ويجوز عود الضمير إلى مطلق الصبر المدلول عليه بالفعل فيدخل فيه صبرهم كدخول أنفسهم فى جنس الصابرين دخولا أوليا ثم أمر عليه الصلاة والسلام صريحا بما ندب اليه غيره تعريضا من الصبر لأنه أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشؤنه سبحانه ووفور وثوقه به فقيل (واصبر) أى على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذية وعاينت من اعراضهم عن الحق بالكلية (وماصبرك إلا بالله) استثناء مفرغ من أعم الأشياء أى وماصبرك ملابسا ومصحوبا بشىء من الأشياء إلا بالله أى بذكره والاستغراق فى مراقبة شؤنه والتبتل اليه بمجامع الهمة وفيه من تسليته عليه الصلاة والسلام وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه مالا مزيد عليه أو إلا بمشيئته المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسلية من حيث اشتماله على غايات جميلة وقيل إلا بتوفيقه ومعونته فهى من حيث تسهيله وتيسيره فقط (ولا تحزن عليهم) أى على الكافرين بوقوع اليأس من إيمانهم بك ومتابعتهم لك نحو فلا تأس على القوم الكافرين وقيل على المؤمنين ومافعل بهم والأول هو الأنسب بجزالة النظم الكريم (ولا تك فى ضيق) بالفتح وقرىء بالكسر وهما لغتان كالقول والقيل أى لا تكن فى ضيق صدر وحرج ويجوز أن يكون الأول تخفيف ضيق كهين من هين أى فى

أمر ضيق (مِمَّا يَمْكُرُونَ) أى من مكرهم بك فيما يستقبل فالأول نهى عن التألم بمطلوب من قبلهم فات والثانى عن التألم بمحذور من جهتهم آت والنهى عنهما مع أن انتفاءهما من لوازم الصبر المأمور به لاسيما على الوجه الأول لزيادة التأكيد وإظهار كمال العناية بشأن التسلية وإلا فهل يخطر ببال من توجه إلى الله سبحانه بشراشر نفسه متنزها عن كل ماسواه من الشواغل شىء من مطلوب فينهى عن الحزن بفواته أو محذور فكيف عن الخوف من وقوعه (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا) تعليل لما سبق من الأمر والنهى والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لاتحوم حول صاحبها شائبة شىء من الجزع والحزن وضيق الصدر ومايشعر به دخول كلمة مع من متبوعية المتقين إنما هى من حيث انهم المباشرون للتقوى وكذا الحال فى قوله سبحانه إن الله مع الصابرين ونظائرهما كافة والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منه الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك أعنى التنزه عن كل مايشغل سره عن الحق والتبتل اليه بشراشر نفسه وهو التقوى الحقيق المورث لولايته تعالى المقرونة ببشارة قوله سبحانه ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون والمعنى أن الله ولى الذين تبتلوا اليه بالكلية وتنزهوا عن كل مايشغل سرهم عنه فلم يخطر ببالهم شىء من مطلوب أو محذور فضلا عن الحزن بفواته أو الخوف من وقوعه وهو المعنى بما به الصبر المأمور به حسبما أشير اليه وبه يحصل التقريب ويتم التعليل كما فى قوله تعالى فاصبر إن العاقبة للمتقين على أحد التفسيرين كما حقق فى مقامه والا فمجرد التوقى عن المعاصى لايكون مدار الشىء من العزائم المرخص فى تركها فكيف بالصبر المشار اليه ورديفيه وإنما مداره المعنى المذكور فكأنه قيل إن الله مع الذين صبروا وإنما أوثر ماعليه النظم الكريم مبالغة فى الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجل النعوت الجليلة وروادفه كما أن قوله تعالى (وَٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) للاشعار بأنه من باب الإحسان الذى يتنافس فيه المتنافسون على مافصل ذلك حيث قيل واصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين وقد نبه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الاحسان فى قوله تعالى إنه من يتق ويصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين وحقيقة الاحسان الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وتكرير الموصول للايذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه من غير أن تكون احداهما تتمة للاخرى وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث كما أن إيراد الثانية اسمية لافادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم وتقديم التقوى على الاحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولا أوليا واما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك مدحا لهم وثناء عليهم بالنعتين الجليلين وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الأمة به كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما عند التعزية :

اصبر نكن بك صابرين فانما صبر الرعية عند صبر الراس

عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار أوص قال إنما الوصية من المال وأوصيكم بخواتيم سورة النحل . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها أو ليلته كان له من الأجر كالذى مات وأحسن الوصية والحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله أجمعين .

سـورة بنى اسرائيل

(مائة وإحدى عشرة آية . مكية إلا آيات فى آخرها)

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

(سُبْحٰنَ الذِى أَسْرٰى بِعَبْدِهِ) سبحانه علم للتسبيح كعثمان للرجل وحيث كان المسمى معنى لاعينا وجنسا لاشخصا لم تكن إضافته من قبيل ما فى زيد المعارك أو حاتم طيء وانتصابه بفعل متروك الاظهار تقديره أسبح الله سبحان الخ وفيه مالايخفى من الدلالة على التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الأرض ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة العدول من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما وهو علم يشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة قيامه مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه ففيه مبالغة من حيث إضافة التنزه إلى ذاته المقدسة ومناسبة تامة بين المحذوف وبين ماعطف عليه فى قوله تعالى سبحانه وتعالى كأنه قيل تنزه بذاته وتعالى والاسراء السير بالليل خاصة كالسرى وقوله تعالى (لَيْلاً) لإفادة قلة زمان الاسراء لما فيه من التنكير الدال على البعضية من حيث الاجزاء دلالته على البعضية من حيث الافراد فان قولك سرت ليلا كما يفيد بعضية زمان سيرك من الليالى يفيد بعضيته من فرد واحد منها بخلاف ما إذا قلت سرت الليل فانه يفيد استيعاب السير له جميعا فيكون معيارا للسير لا ظرفا له ويؤيده قراءة من الليل أى بعضه وإيثار لفظ العبد للايذان بتمحضه عليه الصلاة والسلام فى عبادته سبحانه وبلوغه فى ذلك غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية حسبما يلوح به مبدأ الاسراء ومنتهاه وإضافة التنزيه أو التنزه إلى الموصول المذكور للاشعار بعلية مافى حيز الصلة للمضاف فان ذلك من أدلة كمال قدرته وبالغ حكمته ونهاية تنزهه عن صفات المخلوقين (مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) اختلف فى مبدأ الإسراء فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فانه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتانى جبريل عليه الصلاة والسلام بالبراق وقيل هو دار أم هانىء بنت أبى طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به أو لأن الحرم كله مسجد فانه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام كان نائما فى بيت أم هانىء بعد صلاة العشاء فكان ماكان فقصه عليها فلما قام ليخرج إلى المسجد تشبثت بثوبه عليه الصلاة والسلام لتمنعه خشية أن يكذبه القوم قال عليه الصلاة والسلام وإن كذبونى فلما خرج جلس اليه أبو جهل فأخبره صلى الله عليه وسلم بحديث الاسراء فقال أبو جهل يامعشر كعب بن لؤى بن غالب هلم فحدثهم فمن مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال إلى أبى بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدقه على ذلك قال إنى أصدقه على أبعد من ذلك فسمى الصديق وكان فيهم من يعرف بيت المقدس فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس فطفق ينظر اليه وينعته لهم فقالوا أما النعت فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد أشرقت فقال آخر هذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا قاتلهم الله أنى يؤفكون . واختلف فى وقته أيضا فقيل كان قبل الهجرة بسنة وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعثة واختلف أيضا انه فى اليقظة أو فى المنام فعن الحسن أنه كان فى المنام وأكثر الأقاويل بخلافه والحق أنه كان فى المنام قبل البعثة وفى اليقظة بعدها واختلف أيضا أنه كان جسمانيا أو روحانيا فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت

مافقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية أنه قال إنما عرج بروحه والحق أنه كان جسمانيا على ماينبىء عنه التصدير بالتنزيه وما فى ضمنه من التعجب فان الروحانى ليس فى الاستبعاد والاستنكار وخرق العادة بهذه المثابة ولذلك تعجبت منه قريش وأحالوه ولا استحالة فيه فانه قد ثبت فى الهندسة أن قطر الشمس ضعف قطر الأرض مائة ونيفا وستين مرة ثم ان طرفها الأسفل يصل إلى موضع طرفها الأعلى بحركة الفلك الأعظم مع معاوقة حركة فلكها لها فى أقل من ثانية وقد تقرر أن الأجسام متساوية فى قبول الأعراض التى من جملتها الحركة وأن الله سبحانه قادر على كل مايحيط به حيطة الامكان فيقدر على أن يخلق مثل تلك الحركة بل أسرع منها فى جسد النبى صلى الله عليه وسلم أو فيما يحمله ولو لم يكن مستبعدا لم يكن معجزة (إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا) أى بيت المقدس سمى به إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد وفى ذلك من تربية معنى التنزيه والتعجب مالايخفى (ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ) ببركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحى ومتعبد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (لِنُرِيَهُۥ) غاية للاسراء (مِنْ ءَايَٰتِنَا) العظيمة التى من جملتها ذهابه فى برهة من الليل مسيرة شهر ولا يقدح فى ذلك كونه قبل الوصول إلى المقصد ومشاهدة بيت المقدس وتمثل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية عليهم الصلاة والسلام والالتفات الى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات وقرىء ليريه بالياء (إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ) لأقواله عليه الصلاة والسلام بلا أذن (ٱلْبَصِيرُ) بأفعاله بلا بصر حسبما يؤذن به القصر فيكرمه ويقربه بحسب ذلك وفيه ايماء إلى أن الاسراء المذكور ليس إلا لتكرمته عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته وإلا فالاحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة إلى التقريب والالتفات إلى الغيبة لتربية المهابة (وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ) أى التوراة وفيه ايماء إلى دعوته عليه الصلاة والسلام إلى الطور وماوقع فيه من المناجاة جمعا بين الأمرين المتحدين فى المعنى ولم يذكر ههنا العروج بالنبى عليه السلام إلى السماء وما كان فيه مما لا يكتنه كنهه حسبما نطقت به سورة النجم تقريبا للاسراء إلى قبول السامعين أى آتيناه التوراة بعدما أسرينا به إلى الطور (وَجَعَلْنَٰهُ) أى ذلك الكتاب (هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) يهتدون بما فى مطاويه (أَلَّا تَتَّخِذُوا۟) أى لا تتخذوا نحو كتبت اليه أن افعل كذا وقرىء بالياء على أن أن مصدرية والمعنى آتينا موسى الكتاب لهداية بنى اسرائيل لئلا يتخذوا (مِن دُونِى وَكِيلًا) أى ربا تكلون اليه أموركم والافراد لما أن فعيلا مفرد فى اللفظ جمع فى المعنى (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) نصب على الاختصاص أو النداء على قراءة النهى والمراد تأكيد الحمل على التوحيد بتذكير انعامه تعالى عليهم فى ضمن انجاء آبائهم من الغرق فى سفينة نوح عليه السلام أو على أنه أحد مفعولى لا يتخذوا على قراءة النفى ومن دونى حال من وكيلا فيكون كقوله تعالى ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من واو لا تتخذوا بابدال الظاهر من ضمير المخاطب كما هو مذهب بعض البغاددة وقرىء ذرية بكسر الذال (إِنَّهُۥ) أى ان نوحا عليه الصلاة والسلام (كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) كثير الشكر فى مجامع حالاته وفيه ايذان بأن انجاء من معه كان ببركة شكره عليه الصلاة والسلام وحث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذى هو أعظم مراتب الكفران وقيل الضمير لموسى عليه السلام (وَقَضَيْنَا) أى أتممنا وأحكمنا منزلين (إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) أو موحين اليهم (فِى ٱلْكِتَٰبِ) أى فى التوراة فان الانزال والوحى إلى موسى عليه السلام انزال ووحى اليهم (لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ) جواب قسم محذوف ويجوز اجراء القضاء المحتوم مجرى القسم كأنه قيل وأقسمنا لتفسدن (مَرَّتَيْنِ) مصدر والعامل فيه من غير جنسه أولاهما مخالفة حكم التوراة وقتل شعياء عليه الصلاة والسلام وحبس أرمياء حين أنذرهم سخط الله تعالى والثانية قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم الصلاة والسلام (وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا)

لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه أو لتغلبن الناس بالظلم والعدوان وتفرطن فى ذلك افراطا مجاوزا للحدود (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا) أى أولى كرتى الافساد أى حان وقت حلول العقاب الموعود (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ) لمؤاخذتكم بجناياتكم (عِبَادًا لَنَا) وقرىء عبيدا لنا (أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) ذوى قوة وبطش فى الحروب هم سنجاريب من أهل نينوى وجنوده وقيل بخت نصر عامل لهراسب وقيل جالوت (فَجَاسُوا) أى ترددوا الطلبكم بالفساد وقرىء بالحاء والمعنى واحد وقرىء وجوسوا (خِلَالَ الدِّيَارِ) فى أوساطها للقتل والغارة وقرىء خلل الديار فقتلوا علماءهم وكبارهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا وذلك من قبيل تولية بعض الظالمين بعضا مما جرت به السنة الالهية (وَكَانَ) ذلك (وَعْدًا مَفْعُولًا) لا محالة بحيث لا صارف عنه ولا مبدل (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ) أى الدولة والغلبة (عَلَيْهِمْ) على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الافساد والعلو قيل هى قتل بخت نصر واستنقاذ بنى اسرائيل أساراهم وأموالهم ورجوع الملك اليهم وذلك أنه لما ورث بهمن بن اسفنديار الملك من جده كشتاسف بن لهراسب ألقى الله تعالى فى قلبه الشفقة عليهم فرد أساراهم إلى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من أتباع بخت نصر وقيل هى قتل داود عليه السلام لجالوت (وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ) كثيرة بعدما نهبت أموالكم (وَبَنِينَ) بعدما سبيت أولادكم (وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا) مما كنتم من قبل أو من عدوكم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم القوم المجتمعون للذهاب إلى العدو كالعبيد والمعين (إِنْ أَحْسَنْتُمْ) أعمالكم سواء كانت لازمة لأنفسكم أو متعدية إلى الغير أى عملتموها على الوجه اللائق ولا يتصور ذلك إلا بعد أن تكون الأعمال حسنة فى أنفسها أو إن فعلتم الاحسان (أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ) لأن ثوابها لها (وَإِنْ أَسَأْتُمْ) أعمالكم بأن عملتموها لا على الوجه اللائق ويلزمه السوء الذاتى أو فعلتم الاساءة (فَلَهَا) إذ عليها وبالها وعن على كرم الله وجهه ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت اليه وتلاها (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) حان وقت ما وعد من عقوبة المرة الآخرة (لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ) متعلق بفعل حذف لدلالة ما سبق عليه أى بعثناهم ليسوءوا ومعنى ليسوءوا وجوهكم ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا وقرىء ليسوء على أن الضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث ولنسوء بنون العظمة وفى قراءة على رضى الله عنه لنسوأن على أنه جواب إذا وقرىء لنسوأن بالنون الخفيفة وليسوأن واللام فى قوله عز وجل (وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ) عطف على ليسوءوا متعلق بما تعلق هو به (كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أى فى أول مرة (وَلِيُتَبِّرُوا) أى يهلكوا (مَا عَلَوْا) ما غلبوه واستولوا عليه أو مدة علوهم (تَتْبِيرًا) فظيعا لا يوصف بأن سلط الله عز سلطانه عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جودرد وقيل جردوس وقيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال لم تصدقونى فقتل على ذلك ألوفا فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فقال لمثل هذا ينتقم منكم ربكم ثم قال يا يحيى قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل أن لا أبقى منهم أحدا فهدأ (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ) بعد المرة الآخرة ان تبتم توبة أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصى (وَإِنْ عُدْتُمْ) إلى ما كنتم فيه من الفساد مرة أخرى (عُدْنَا) إلى عقوبتكم ولقد عادوا فأعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلط عليهم الاكاسرة ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الأتاوة ونحو ذلك وعن الحسن عادوا فبعث الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وعن قتادة مثله (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) أى محبسا لا يستطيعون الخروج منها أبد الآبدين وقيل بساطا

كما يبسط الحصير وإنما عدل عن أن يقال وجعلنا جهنم لكم تسجيلا على كفرهم بالعود وذما لهم بذلك وإشعارا بعلة الحكم (إِنَّ هٰذَا الْقُرْءَانَ) الذى آتيناكه (يَهْدِى) أى الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذى آتيناه موسى (لِلَّتِى) للطريقة التى (هِىَ أَقْوَمُ) أى أقوم الطرائق وأسدها أعنى ملة الاسلام والتوحيد وترك ذكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخصلة ونحوها مما يعبر به عن المقصد المذكور بل للايذان بالغنى عن التصريح بها لغاية ظهورها لاسيما بعد ذكر الهداية التى هى من روادفها والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدى اليها من يتمسك به لا تحصيل الاهتداء بالفعل فانه مخصوص بالمؤمنين حينئذ (وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ) بما فى تضاعيفه من الأحكام والشرائع وقرىء بالتخفيف (الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّٰلِحَٰتِ) التى شرحت فيه (أَنَّ لَهُمْ) أى بأن لهم بمقابلة تلك الأعمال (أَجْرًا كَبِيرًا) بحسب الذات وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعدا (وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) وأحكامها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاء وتخصيصها بالذكر من بين سائر ما كفروا به لكونها معظم ما أمروا بالايمان به ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها الذى أنبأ عنه قوله عز وجل (أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) وهو عذاب جهنم أى أعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما وهو أبلغ فى الزجر لما أن اتيان العذاب من حيث لا يحتسب أفظع وأفجع والجملة معطوفة على جملة يبشر باضمار يخبر أو على قوله تعالى أن لهم داخلة معه تحت التبشير المراد به مجازا مطلق الاخبار المنتظم للاخبار بالخبر السار وبالنبأ الضار حقيقة فيكون ذلك بيانا لهداية القرآن بالترغيب والترهيب ويجوز كون التبشير بمعناه والمراد تبشير المؤمنين ببشارتين ثوابهم وعقاب أعدائهم وقوله تعالى (وَيَدْعُ الْإِنسَٰنُ بِالشَّرِّ) بيان لحال المهدى اثر بيان حال الهادى وإظهار لما بينهما من التباين والمراد بالانسان الجنس أسند اليه حال بعض أفراده أو حكى عنه حاله فى بعض أحيانه فالمعنى على الأول أن القرآن يدعو الانسان إلى الخير الذى لا خير فوقه من الأجر الكبير ويحذره من الشر الذى لا شر وراءه من العذاب الأليم وهو أى بعض منه وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور إما بلسانه حقيقة كدأب من قال منهم اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ومن قال فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين إلى غير ذلك مما حكى عنهم وإما بأعمالهم السيئة المفضية اليه الموجبة له مجازا كما هو ديدن كلهم (دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ) أى مثل دعائه بالخير المذكور فرضا لا تحقيقا فانه بمعزل من الدعاء به وفيه رمز إلى أنه اللائق بحاله (وَكَانَ الْإِنسَٰنُ) أى من أسند اليه الدعاء المذكور من أفراده (عَجُولًا) يسارع إلى طلب ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره أو مبالغا فى العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لا محالة ففيه نوع تهكم به وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم تحمل العجولية على اللج والتمادى فى استيجاب العذاب بتلك الأعمال وعلى الثانى ان القرآن يدعو الانسان إلى ما هو خير وهو فى بعض أحيانه كما عند الغضب يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر وكان الانسان بحسب جبلته عجولا ضجرا لا يتأنى إلى أن يزول عنه ما يعتريه روى أنه عليه الصلاة والسلام دفع إلى سودة أسيرا فأرخت كتافه رحمة لأنينه بالليل من ألم القيد فهرب فلما أخبر به النبى عليه الصلاة والسلام قال اللهم اقطع يديها فرفعت سودة يديها تتوقع الاجابة فقال عليه السلام إنى سألت الله تعالى أن يجعل دعائى على من لا يستحق من أهلى عذابا رحمة أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيرا وكان الانسان عجولا غير متبصر لا يتدبر فى أموره حق التدبر ليتحقق ما هو خير حقيق بالدعاء به وما هو شر جدير بالاستعاذة منه (وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ) شروع فى بيان بعض وجوه ما ذكر من الهداية بالارشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية التى كل واحدة منها برهان نير لا ريب فيه ومنهاج بين لا يضل من ينتحيه فان

الجعل المذكور وما عطف عليه من محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة وإن كانت من الهدايات التكوينية لكن الاخبار بذلك من الهدايات القرآنية المنبهة على تلك الهدايات وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودى إذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور ولو أن الليلة أضيفت إلى ماقبلها من النهار لكانت من شهر وصاحبها من شهر آخر ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة أى جعلنا الملوين بهيآتهما وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر على وتيرة عجيبة يحار فى فهمها العقول آيتين تدلان على أن لهما صانعا حكيما قادرا عليما وتهديان إلى ماهدى اليه القرآن الكريم من ملة الاسلام والتوحيد (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ) الاضافة إما بيانية كما فى إضافة العدد إلى المعدود أى محونا الآية التى هى الليل وفائدتها تحقيق مضمون الجملة السابقة ومحوها جعلها ممحوة الضوء مطموسته لكن لا بعد أن لم يكن كذلك بل ابداعها على ذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أى أنشأهما كذلك والفاء تفسيرية لأن المحو المذكور وما عطف عليه ليساما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتماته (وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ) أى الآية التى هى النهار على نحو مامر (مُبْصِرَةً) أى مضيئة يبصر فيها الأشياء وصفالها بحال أهلها أو مبصرة للناس من أبصره فبصره واما حقيقية وآية الليل والنهار نيراهما ومحو القمر اما خلقه مطموس النور فى نفسه فالفاء كما ذكر واما نقص مااستفاده من الشمس شيئاً فشيئاً إلى المحاق على ماهو معنى المحو والفاء للتعقيب وجعل الشمس مبصرة ابداعها مضيئة بالذات ذات أشعة تظهر بها الأشياء المظلمة (لِتَبْتَغُوا) متعلق بقوله تعالى وجعلنا آية النهار كما أشير اليه أى وجعلناها مضيئة لتطلبوا الأنفسكم فى بياض النهار (فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ) أى رزقا إذ لا يتسنى ذلك فى الليل وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال شيئاً فشيئا دلالة على أن ليس للعبد فى تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وانما الاعطاء الى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلا بحكم الربوبية (وَلِتَعْلَمُوا) متعلق بكلا الفعلين أعنى محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط اذ لا يكون ذلك بانفراده مدارا للعلم المذكور أى لتعلموا بتفاوت الجديدين أو نيريهما ذاتا من حيث الاظلام والاضاءة مع تعاقبهما أو حركاتهما وأوضاعهما وسائر أحوالهما (عَدَدَ السِّنِينَ) التى يتعلق بها غرض على لاقامة مصالحكم الدينية الدنيوية (وَالْحِسَابَ) أى الحساب المتعلق بما فى ضمنها من الاوقات أى الأشهر والليالى والأيام وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققها مما ينتظمه الحساب وانما الذى تعلق به العد طائفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة أعنى حيثية تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات مثلا فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث أنها فرد من تلك الطائفة المعدودة بعدها أى يفنيها من غير أن يعتبر فى ذلك تحصل شيء معين وتحقيقه مامر فى سورة يونس من أن الحساب احصاء ماله كمية منفصلة بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص وحكم مستقل كما أشير اليه آنفا والعد احصاؤه بمجرد تكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء كذلك ولما أن السنين لم يعتبر فيها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل أضيف اليها العدد وعلق الحساب بماعداها مما اعتبر فيه تحصل مراتب معينة لها أسام خاصة وأحكام مستقلة وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والألوف اعتبارى لا يجدى فى تحصل المعدودات وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس للتنبيه من أول الأمر على أن متعلق الحساب مافى تضاعيف السنين من الاوقات أو لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالى بما تعلق به الحساب تفصيلا أو لأن العدد من حيث أنه لم يعتبر فيه تحصل

شيء آخر منه حسبما ذكر نازل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب أو لأن العلم المتعلق بالأول أقصى المراتب فكان جديرا بالتقديم فى مقام الامتنان والله سبحانه أعلم (وكلَّ شىءٍ) تفتقرون اليه فى المعاش والمعاد سوى ماذكر من جعل الليل والنهار آيتين ومايتبعه من المنافع الدينية والدنيوية وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى (فصَّلْناهُ تفصيلاً) أى بيناه فى القرآن الكريم بيانا بليغا لا التباس معه كقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء فظهر كونه هاديا للتى هى أقوم ظهورا بينا (وكلَّ إنسانٍ) مكلف (ألزمناهُ طائرهُ) أى عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له كأنه طار اليه من عش الغيب ووكر القدر أو مارقع له فى القسمة الازلية الواقعة حسب استحقاقه فى العلم الازلى من قولهم طار له سهم كذا (فى عنقِهِ) تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط أى ألزمناه عمله بحيث لايفارقه أبدا بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق لاينفك عنه بحال وقرىء بسكون النون (ونخرجُ لهُ) بنون العظمة وقد قرىء بالياء مبنيا للفاعل على أن الضمير لله عز وجل وللمفعول والضمير للطائر كما فى قراءة يخرج من الخروج (يومَ القيامةِ) والبعث للحساب (كتاباً) مسطورا فيه ماذكر من عمله نقيرا وقطميرا وهو مفعول لنخرج على القراءتين الاوليين أو حال من المفعول المحذوف الراجع إلى الطائر وعلى الآخريين حال من المستتر فى الفعل من ضمير الطائر (يلقاهُ) أى يلقى الانسان أو يلقاه الانسان (منشوراً) وهما صفتان للكتاب أو الاول صفة والثانى حال منه وقرىء يلقاه من لقيته كذا أى يلقى الانسان إياه قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة (اقرأ كتابكَ) أى قائلين لك ذلك . عن قتادة يقرأ ذلك اليوم من لم يكن فى الدنيا قارئا وقيل المراد بالكتاب نفسه المنتقشة بآثار أعماله فان كل عمل يصدر من الانسان خيرا أو شرا يحدث منه فى جوهر روحه أمر مخصوص الا أنه يخفى مادام الروح متعلقا بالبدن مشتغلا بواردات الحواس والقوى فاذا انقطعت علاقته عن البدن قامت قيامته لأن النفس كانت ساكنة مستقرة فى الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت نحو الصعود إلى العالم العلوى فيزول الغطاء وتنكشف الاحوال ويظهر على لوح النفس نقش كل شيء عمله فى مدة عمره وهذا معنى الكتابة والقراءة (كفى بنفسِكَ اليومَ عليكَ حسيباً) أى كفى نفسك والباء زائدة واليوم ظرف لكفى وحسيبا تمييز وعلى صلته لأنه بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم من حسب عليه كذا أو بمعنى الكافى ووضع موضع الشهيد لأنه يكفى المدعى ما أهمه وتذكيره لأن ماذكر من الحساب والكفاية مما يتولاه الرجال أو لأنه مبنى على تأويل النفس بالشخص على أنها عبارة عن نفس المذكر كقول جبلة بن حريث

يانفس انك باللذات مسرور ... فاذكر فهل ينفعنك اليوم تذكير

(مَنِ اهتدى فإنما يهتدى لنفسِهِ) فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هاديا لأقوم الطرائق ولزوم الاعمال لأصحابها أى من اهتدى بهدايته وعمل بما فى تضاعيفه من الاحكام وانتهى عما نهاه عنه فانما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه لاتتخطاه إلى غيره ممن لم يهتد (ومَن ضلَّ) عن الطريقة التى يهديه اليها (فإنما يضلُّ عليها) أى فانما وبال ضلاله عليها لاعلى من عداه ممن لم يباشره حتى يمكن مفارقة العمل صاحبه (ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى) تأكيد للجملة الثانية أى لاتحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويختل مابين العامل وعمله من التلازم بل إنما تحمل كل منها وزرها وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه وأما مايدل عليه قوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وقوله تعالى

ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئته فان جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له وإنما الذى يصل إلى من يشفع جزاء شفاعته لاجزاء أصل الحسنة والسيئة وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون إنما هو جزاء الاضلال لاجزاء الضلال وإنما خص التأكيد بالجملة الثانية قطعاً للاطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ) بيان للعناية الربانية اثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها أى وماصح وما استقام منا بل استحال فى سنتنا المبنية على الحكم البالغة أو ماكان فى حكمنا الماضى وقضائنا السابق أن نعذب أحدا من أهل الضلال والأوزار اكتفاء بقضية العقل (حَتَّى نَبْعَثَ) اليهم (رَسُولاً) يهديهم إلى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع حسبما فى تضاعيف الكتاب المنزل عليه والمراد بالعذاب المنفى إما عذاب الاستئصال كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدى رحمه الله وهو المناسب لما بعده أو الجنس الشامل للدنيوى والأخروى وهو من أفراده وأياما كان فالبعث غاية لعدم صحة وقوعه فى وقته المقدر له لا لعدم وقوعه مطلقا كيف لا والأخروى لا يمكن وقوعه عقيب البعث والدنيوى أيضا لا يحصل إلا بعد تحقق ما يوجبه من الفسق والعصيان ألا يرى إلى قوم نوح كيف تأخر عنهم ما حل بهم زهاء ألف سنة وقوله تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً) بيان لكيفية وقوع التعذيب بعد البعثة التى جعلت غاية لعدم صحته وليس المراد بالارادة تحققها بالفعل إذ لا يتخلف عنها المراد ولا الارادة الأزلية المتعلقة بوقوع المراد فى وقته المقدر له إذ لا يقارنه الجزاء الآتى بل دنو وقتها كما فى قوله تعالى أتى أمر الله أى واذا دنا وقت تعلق ارادتنا باهلاك قرية بأن نعذب أهلها بما ذكرنا من عذاب الاستئصال الذى بينا أنه لا يصح ماقبل البعثة أو بنوع مما ذكرنا شأنه من مطلق العذاب أعنى عذاب الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصى دنوا تقتضيه الحكمة من غير أن يكون له حد معين (أَمَرْنَا) بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها (مُتْرَفِيهَا) متنعميها وجباريها وملوكها خصهم بالذكر مع توجه الأمر الى الكل لأنهم الأصول فى الخطاب والباقى أتباع لهم ولأن توجه الأمر اليهم آكد وعدم التعرض للمأمور به اما لظهور أن المراد به الحق والخير لأن الله لا يأمر بالفحشاء لا سيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدى اليه واما لأن المراد وجدنا الأمر كما يقال فلان يعطى ويمنع (فَفَسَقُوا فِيهَا) أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا (فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ) أى ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب اثر ماظهر منهم من الفسق والطغيان (فَدَمَّرْنَاهَا) بتدمير أهلها (تَدْمِيراً) لا يكتنه كنهه ولا يوصف هذا هو المناسب لما سبق وقيل الأمر مجاز عن الحمل على الفسق والتسبب له بأن صب عليهم ما أبطرهم وأفضى بهم الى الفسوق وقيل هو بمعنى التكثير يقال أمرت الشىء فأمر أى كثرته فكثر وفى الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النتاج ويعضده قراءة آمرنا وأمرنا من الافعال والتفعيل وقد جعلتا من الامارة أى جعلناهم أمراء وكل ذلك لا يساعده مقام الزجر عن الضلال والحث على الاهتداء فان مؤدى ذلك أن طغيانهم منوط بارادة الله سبحانه وانعامه عليهم بنعم وافرة أبطرتهم وحملتهم على الفسق حملا حقيقا بأن يعبر عنه بالامر به (وَكَمْ أَهْلَكْنَا) أى وكثيرا ما أهلكنا (مِنَ الْقُرُونِ) بيان لكم وتمييز له والقرن مدة من الزمان يخترم فيها القوم وهى عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو ثمانون أو مائة وقد أيد ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام دعا لرجل فقال عش قرنا فعاش مائة سنة أو مائة وعشرون (مِنْ بَعْدِ نُوحٍ) من بعد زمنه عليه الصلاة والسلام كعاد وثمود ومن بعدهم ممن قصت أحوالهم فى القرآن العظيم ومن لم تقص وعدم نظم قومه عليه الصلاة والسلام فى تلك القرون المهلكة لظهور أمرهم على أن ذكره

عليه الصلاة والسلام رمز إلى ذكرهم (وكفى بربك) أى كفى ربك (بذنوب عباده خبيراً بصيراً) يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها وتقديم الخبير لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التى هى مبادى الأعمال الظاهرة أو لعمومه حيث يتعلق بغير المبصرات أيضا وفيه إشارة إلى أن البعث والأمر وما يتلوهما من فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب فان ذلك حاصل قبل ذلك وإنما هو لقطع الاعذار والزام الحجة من كل وجه (من كان يريد) بأعماله التى يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالأسباب أو بأعمال الآخرة فالمراد بالمريد على الأول الكفرة وأكثر الفسقة وعلى الثانى أهل الرياء والنفاق والمهاجر للدنيا والمجاهد لمحض الغنيمة (العاجلة) فقط من غير أن يريد معها الآخرة كما ينبىء عنه الاستمرار المستفاد من زيادة كان ههنا مع الاقتصار على مطلق الارادة فى قسيمه والمراد بالعاجلة الدار الدنيا وبارادتها إرادة ما فيها من فنون مطالبها كقوله تعالى ومن كان يريد حرث الدنيا ويجوز أن يراد الحياة العاجلة كقوله عز وجل من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها لكن الأول أنسب بقوله (عجلنا له فيها) أى فى تلك العاجلة فان الحياة واستمرارها من جملة ما عجل له فالأنسب بذلك كلمة من كما فى قوله تعالى ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها (ما نشاء) أى ما نشاء تعجيله له من نعيمها لا كل ما يريد (لمن نريد) تعجيل ما نشاء له وهو بدل من الضمير فى له باعادة الجار بدل البعض فانه راجع إلى الموصول المنبىء عن الكثرة وقرىء لمن يشاء على أن الضمير لله سبحانه وقيل هو لمن فيكون مخصوصا بمن أراد به ذلك وهو واحد من الدهماء وتقييد المعجل والمعجل له بما ذكر من المشيئة والارادة لما أن الحكمة التى عليها يدور فلك التكوين لا تقتضى وصول كل طالب إلى مرامه ولا استيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه وأما ما يتراءى من قوله تعالى من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون من نيل كل مؤمل لجميع آماله ووصول كل عامل إلى نتيجة أعماله فقد أشير إلى تحقيق القول فيه فى سورة هود بفضل الله تعالى (ثم جعلنا له) مكان ما عجلناه له (جهنم) وما فيها من أصناف العذاب (يصلاها) يدخلها وهو حال من الضمير المجرور أو من جهنم أو استئناف (مذموماً مدحوراً) مطروداً من رحمة الله تعالى وقيل الآية فى المنافقين كانوا يراءون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم فى الغنائم ونحوها ويأباه ما يقال إن السورة مكية سوى آيات معينة (ومن أراد) بأعماله (الآخرة) الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم (وسعى لها سعيها) أى السعى اللائق بها وهو الاتيان بما أمر والانتهاء عما نهى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم وفائدة اللام اعتبار النية والاخلاص (وهو مؤمن) إيمانا صحيحا لا يخالطه شىء قادح فيه وإيراد الايمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذكر فى حيز الصلة (فأولئك) إشارة إلى الموصول بعنوان اتصافه بما فى حيز الصلة وما فى ذلك من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم والجمعية لمراعاة جانب المعنى إيماء إلى أن الاثابة المفهومة من الخبر تقع على وجه الاجتماع أى أولئك الجامعون لما مر من الخصال الحميدة أعنى إرادة الآخرة والسعى الجميل لها والايمان (كان سعيهم مشكوراً) مقبولا عند الله تعالى أحسن القبول مثابا عليه وفى تعليق المشكورية بالسعى دون قرينيه إشعار بأنه العمدة فيها (كلا) التنوين عوض عن المضاف اليه أى كل واحد من الفريقين لا الفريق الأخير المريد للخير الحقيق بالاسعاف فقط (نمد) أى نزيد مرة بعد مرة بحيث يكون الآنف مددا للسالف وما به الامداد ما عجل لأحدهما من العطايا العاجلة وما أعد للآخر من العطايا الآجلة المشار اليها بمشكورية السعى وإنما لم يصرح به تعويلا على ما سبق تصريحا وتلويحا واتكالا على ما لحق عبارة وإشارة كما ستقف عليه وقوله تعالى (هؤلاء) بدل من كلا (وهؤلاء) عطف عليه أى نمد هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم فان الاشارة متعرضة لذات المشار اليه بما له من العنوان

لا للذات فقط كالاضمار ففيه تذكير لما به الامداد وتعيين للمضاف اليه المحذوف دفعا لتوهم كونه أفراد الفريق الأخير وتأكيد للقصر المستفاد من تقديم المفعول وقوله تعالى (مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ) أى من معطاه الواسع الذى لا تناهى له متعلق بنمد ومغن عن ذكر ما به الامداد ومنبه على أن الامداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعى والعمل بل بمحض التفضل (وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ) أى دنيويا كان أو أخرويا وإنما أظهر إظهار المزيد الاعتناء بشأنه وإشعارا بعليته للحكم (مَحْظُورًا) ممنوعا عمن يريده بل هو فائض على من قدر له بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وإن وجد منه ما يقتضى الحظر كالكافر وهو فى معنى التعليل لشمول الامداد للفريقين والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين للاشعار بمبدئيتها لما ذكر من الامداد وعدم الحظر (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) كيف فى محل النصب بفضلنا على الحالية والمراد توضيح ما مر من الامداد وعدم محظورية العطاء بالتنبيه على استحضار مراتب أحد العطاءين والاستدلال بها على مراتب الآخر أى انظر بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به من العطايا العاجلة فمن وضيع ورفيع وظالع وضليع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة ودرجات تفاضل أهلها على طريقة الاستشهاد بحال الادنى على حال الأعلى كما أفصح عنه قوله تعالى (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ) أى هى وما فيها أكبر من الدنيا وقرىء أكثر (دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) لأن التفاوت فيها بالجنه ودرجاتها العالية التى لا يقادر قدرها ولا يكتنه كنهها كيف لا وقد عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هذا ويجوز أن يراد بما به الامداد العطايا العاجلة فقط ويحمل القصر المذكور على دفع توهم اختصاصها بالفريق الأول فان تخصيص إرادتهم لها ووصولهم اليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثانى إرادة ووصولا مما توهم اختصاصها بالأولين فالمعنى كل واحد من الفريقين نمد بالعطايا العاجلة لا من ذكرنا إرادته لها فقط من الفريق الأول من عطاء ربك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوى محظورا من أحد ممن يريده وممن يريد غيره أنظر كيف فضلنا فى ذلك العطاء بعض كل من الفريقين على بعض آخر منهما وللآخرة الآية واعتبار عدم المحظورية بالنسبة إلى الفريق الأول تحقيقا لشمول الامداد له كما فعله الجمهور حيث قالوا لا يمنعه من عاص لعصيانه يقتضى كون القصر لدفع توهم اختصاص الامداد الدنيوى بالفريق الثانى مع أنه لم يسبق فى الكلام ما يوهم ثبوته له فضلا عن إيهام اختصاصه (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد به أمته وهو من باب التهييج والالهاب أو كل أحد ممن يصلح للخطاب (فَتَقْعُدَ) بالنصب جوابا للنهى والقعود بمعنى الصيرورة من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة أو بمعنى العجز من قعد عنه أى عجز عنه (مَذْمُومًا مَخْذُولًا) خبران أو حالان أى جامعا على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى وفيه اشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة (وَقَضَى رَبُّكَ) أى أمر أمرا مبرما وقرىء وأوصى ربك ووصى ربك (أَلَّا تَعْبُدُوا) أى بأن لا تعبدوا (إِلَّا إِيَّاهُ) على أن أن مصدرية ولا نافية أو أى لا تعبدوا على أنها مفسرة ولا ناهية لأن العبادة غاية التعظيم فلا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الأنعام وهو كالتفصيل للسعى للآخرة (وَبِالْوَالِدَيْنِ) أى وبأن تحسنوا بهما أو وأحسنوا بهما (إِحْسَانًا) لأنهما السبب الظاهر للوجود والتعيش (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا) إما مركبة من أن الشرطية وما المزيدة لتأكيدها ولذلك دخل الفعل نون التأكيد ومعنى عندك فى كنفك وكفالتك وتقديمه على المفعول مع أن حقه التأخر عنه للتشويق إلى وروده فانه مدار تضاعف الرعاية والاحسان وأحدهما فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه وقرىء يبلغان فأحدهما بدل من ضمير التثنية وكلاهما عطف عليه ولا سبيل الى جعل كلاهما تأكيدا للضمير وتوحيد ضمير الخطاب فى عندك وفيما بعده مع أن

ماسبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد فان المقصود نهى كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما ولو قوبل الجمع بالجمع أو بالتثنية لم يحصل هذا المرام (فلا تقل لهما) أى لواحد منهما حالتى الانفراد والاجتماع (أف) وهو صوت ينبىء عن تضجر أواسم فعل هو أتضجر وقرىء بالكسر بلا تنوين وبالفتح والضم منونا وغير منون أى لا تتضجر بما تستقذر منهما وتستثقل من مؤنهما وبهذا النهى يفهم النهى عن سائر مايؤذيهما بدلالة النص وقد خص بالذكر بعضه إظهارا للاعتناء بشأنه فقيل (ولا تنهرهما) أى لاتزجرهما عما لا يعجبك باغلاظ قيل النهى والنهر والنهم اخوات (وقل لهما) بدل التأفيف والنهر (قولا كريما) ذا كرم أو هو وصف له بوصف صاحبه أى قولا صادرا عن كرم ولطف وهو القول الجميل الذى يقتضيه حسن الأدب ويستدعيه النزول على المروءة مثل أن يقول ياأباه ويا أماه كدأب ابراهيم عليه السلام إذقال لأبيه ياأبت مع مابه من الكفر ولا يدعوهما بأسمائهما فانه من الجفاء وسوء الأدب وديدن الدعار وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال أن لاتقوم إلى خدمتهما عن كسل وقيل أن لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر إليهما شزرا ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولا باطن وأن تترحم عليهما ماعاشا وتدعو لهما إذا ماتا وتقوم بخدمة أوداءهما من بعدهما فعن النبى عليه الصلاة والسلام ان من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه (واخفض لهما جناح الذل) عبارة عن إلانة الجانب والتواضع والتذلل لهما فان اعزازهما لا يكون الا بذلك فكأنه قيل واخفض لهما جناحك الذليل أو جعل لذله جناح كما جعل لبيد فى قوله:

وغداة ريح قد كشفت وقرة … إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

للقرة زماما وللشمال يدا تشبيها له بطائر يخفض جناحه لأفراخه تربية لها وشفقة عليها وأما جعل خفض الجناح عبارة عن ترك الطيران كما فعله القفال فلا يناسب المقام (من الرحمة) من فرط رحمتك وعطفك عليهما ورقتك لهما لافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله تعالى اليهما ولا تكتف برحمتك الفانية بل ادع الله لهما برحمته الواسعة الباقية (وقل رب ارحمهما) برحمتك الدنيوية والأخروية التى من جملتها الهداية إلى الإسلام فلا ينافى ذلك كفرهما (كما ربيانى) الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى رحمة مثل تربيتهما لى أو مثل رحمتهما لى على أن التربية رحمة ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معا وقد ذكر أحدهما فى أحد الجانبين والآخر فى الآخر كما يلوح به التعرض لعنوان الربوبية فى مطلع الدعاء كأنه قيل رب ارحمهما وربهما كما رحمانى ورببانى (صغيرا) ويجوز أن تكون الكاف للتعليل أى لأجل تربيتهما لى كقوله تعالى واذكروه كما هداكم ولقد بالغ عز وجل فى التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الاحسان اليهما بتوحيده سبحانه ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا ثم ضيق الأمر فى باب مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع ماله من موجبات الضجر مالا يكاد يدخل تحت الحصر وختمها بأن جعل رحمته التى وسعت كل شىء مشبهة بتربيتهما وعن النبى عليه الصلاة والسلام رضى الله فى رضى الوالدين وسخطه فى سخطهما وروى يفعل البار مايشاء أن يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق مايشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ماوليا منى فى الصغر فهل قضيتهما حقهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما وروى أن شيخا أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال ان ابنى هذا له مال كثير وانه لا ينفق على من ماله فنزل جبريل عليه السلام وقال ان هذا الشيخ قد أنشأ فى ابنه أبياتا ماقرع سمع بمثلها فاستنشدها فأنشدها الشيخ فقال:

غذوتك مولودا ومنتك يافعا … تعل بما أجنى عليك وتنهل

إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت … لسقمك الا باكيا أتململ

كأنى أنا المطروق دونك بالذى طرقت به دونى وعينى تهمل
فلما بلغت السن والغاية التى اليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المجاور يفعل

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أنت ومالك لأبيك (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ) من البر والعقوق (إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ) قاصدين للصلاح والبر دون العقوق والفساد (فَإِنَّهُ) تعالى (كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ) أى الرجاعين اليه تعالى عما فرط منهم مما لا يكاد يخلو عنه البشر (غَفُورًا) لما وقع منهم من نوع تقصير أو أذية فعلية أو قولية وفيه مالا يخفى من التشديد فى الأمر بمراعاة حقوقهما ويجوز أن يكون عاما لكل تائب ويدخل فيه الجانى على أبويه دخولا أوليا (وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ) أى ذا القرابة (حَقَّهُۥ) توصية بالاقارب اثر التوصية ببر الوالدين ولعل المراد بهم المحارم وبحقهم النفقة كما ينبىء عنه قوله تعالى (وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ) فان المأمور به فى حقهما المواساة المالية لامحالة أى وآتهما حقهما مما كان مفترضا بمكة بمنزلة الزكاة وكذا النهى عن التبذير وعن الافراط فى القبض والبسط فان الكل من التصرفات المالية (وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) نهى عن صرف المال إلى من سواهم ممن لا يستحقه فان التبذير تفريق فى غير موضعه مأخوذ من تفريق حبات والقائها كيفما كان من غير تعهد لمواقعه لا عن الاكثار فى صرفه اليهم وإلا لناسبه الاسراف الذى هو تجاوز الحد فى صرفه وقد نهى عنه بقوله تعالى ولا تبسطها وكلاهما مذموم (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَٰنَ الشَّيَٰطِينِ) تعليل للنهى عن التبذير ببيان أنه يجعل صاحبه ملزوزا فى قرن الشياطين والمراد بالاخوة المماثلة التامة فى كل مالا خير فيه من صفات السوء التى من جملتها التبذير أى كانوا بما فعلوا من التبذير امثال الشياطين أو الصداقة والملازمة اى كانوا أصدقاءهم وأتباعهم فيما ذكر من التبذير والصرف فى المعاصى فانهم كانوا ينحرون الابل ويتياسرون عليها ويبذرون أموالهم فى السمعة وسائر مالا خير فيه من المناهى والملاهى أو المقارنة أى قرناءهم فى النار على سبيل الوعيد (وَكَانَ الشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا) من تتمة التعليل أى مبالغا فى كفران نعمته تعالى لأن شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوى والقدر إلى غير ما خلقت هى له من أنواع المعاصى والافساد فى الأرض واضلال الناس وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به وتخصيص هذا الوصف بالذكر من بين سائر أوصافه القبيحة للايذان بأن التبذير الذى هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى إلى غير مصرفها من باب الكفران المقابل للشكر الذى هو عبارة عن صرفها إلى ما خلقت هى له والتعرض لوصف الربوبية للاشعار بكمال عتوه فان كفران نعمة الرب مع كون الربوبية من أقوى الدواعى إلى شكرها غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ) أى ان اعتراك أمر اضطرك إلى أن تعرض عن أولئك المستحقين (ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ) أى لفقد رزق من ربك اقامة للمسبب مقام السبب فان الفقد سبب للابتغاء (تَرْجُوهَا) من الله تعالى لتعطيهم وكان عليه السلام إذا سئل شيئا وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء فأمر بتعهدهم بالقول الجميل لئلا تعتريهم الوحشة بسكوته عليه السلام فقيل (فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) سهلا لينا وعدهم وعدا جميلا من يسر الأمر نحو سعد أو قل لهم رزقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاء لهم بيسر عليهم فقرهم (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذر زجرا لهما عنهما وحملا على ما بينهما من الاقتصاد كلا طرفى قصد الأمور ذميم وحيث كان قبح الشح مقارنا له معلوما من أول الأمر روعى ذلك فى التصوير

بأقبح الصور ولما كان غائلة الاسراف فى آخره بين قبحه فى أثره فقيل (فتقعُدَ مَلومًا) أى فتصير ملوما عند الله تعالى وعند الناس وعند نفسك إذا احتجت وندمت على ما فعلت (مَحْسورًا) نادما أو منقطعا بك لاشىء عندك من حسره السفر إذا بلغ منه وما قيل من أنه روى عن جابر رضى الله عنه أنه قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد إذ أتاه صبى فقال ان أمى تستكسيك درعا فقال عليه السلام من ساعة إلى ساعة فعد الينا فذهب إلى أمه فقالت له قل ان أمى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة فنزلت فيأباه أن السورة مكية خلا آيات فى آخرها وكذا ما قيل انه عليه السلام أعطى الاقرع بن حابس مائة من الابل وكذا عيينة بن حصن الفزارى فجاء عباس بن مرداس فأنشأ يقول :

أتجعل نهبى ونهب العبيـ ... د بين عيينة والاقرع
وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال عليه السلام يا أبا بكر اقطع لسانه عنى أعطه مائة من الابل وكانوا جميعا من المؤلفة القلوب فنزلت (إنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ ويَقْدِرُ) تعليل لما مر أى يوسعه على بعض ويضيقه على آخرين حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة فليس ما يرهقك من الاضافة التى تحوجك إلى الاعراض عن السائلين أو نفاد ما فى يدك إذا بسطتها كل البسط الا لمصلحتك (انهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبيرًا بَصيرًا) تعليل لما سبق أى يعلم سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ويجوز أن يراد ان البسط والقبض من أمر الله العالم بالسرائر والظواهر الذى بيده خزائن السموات والأرض وأما العباد فعليهم أن يقتصدوا وأن يراد أنه تعالى يبسط تارة ويقبض أخرى فاستنوا ابسنته فلا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط وأن يراد أنه تعالى يبسط ويقدر حسب مشيئته فلا تبسطوا على من قدر عليه رزقه وأن يكون تمهيدا لقوله (ولا تَقتُلوا أوْلادَكُم خَشْيَةَ إمْلاقٍ) أى مخافة فقر وقرىء بكسر الخاء كانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك (نَحنُ نَرْزُقُهُم وإيّاكُم) لا أنتم فلا تخافوا الفاقة بناء على علمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهى المذكور بابطال موجبه فى زعمهم وتقديم ضمير الأولاد على المخاطبين على عكس ما وقع فى سورة الأنعام للاشعار باصالتهم فى إفاضة الرزق أو لأن الباعث على القتل هناك الاملاق الناجز ولذلك قيل من املاق وههنا الاملاق المتوقع ولذلك قيل خشية املاق فكأنه قيل نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شىء فيعتريكم ما تخشونه وإياكم أيضا رزقا إلى رزقكم (إنَّ قَتْلَهُم كانَ خِطْئًا كَبيرًا) تعليل آخر ببيان أن المنهى عنه فى نفسه منكر عظيم والخطء الذنب والاثم يقال خطىء خطأ كأثم إثما وقرىء بالفتح والسكون وبفتحتين بمعناه كالحذر والحذر وقيل بمعنى ضد الصواب وبكسر الخاء والمد وبفتحها ممدودا وبفتحها وحذف الهمزة وبكسرها كذلك (ولا تَقْرَبوا الزِّنى) بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلا عن مباشرته وإنما نهى عن قربانه على خلاف ما سبق ولحق من القتل للمبالغة فى النهى عن نفسه ولأن قربانه داع إلى مباشرته وتوسيط النهى عنه بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن قتل النفس المحرمة على الاطلاق باعتبار أنه قتل للاولاد لما أنه تضييع للانساب فان من لم يثبت نسبه ميت حكما (إنهُ كانَ فَاحِشَةً) فعلة ظاهرة القبح متجاوزة عن الحد (وَساءَ سَبيلاً) أى بئس طريقا طريقه فانه غصب الابضاع المؤدى إلى اختلال أمر الانساب وهيجان الفتن كيف لا وقد قال النبى عليه السلام إذا زنى العبد خرج منه الايمان فكان على رأسه كالظلة فاذا انقطع رجع اليه وقال عليه السلام لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وعن حذيفة رضى الله عنه أنه قال عليه السلام اياكم والزنا فان فيه ست خصال

ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة فأما التى فى الدنيا فذهاب البهاء ودوام الفقر وقصر العمر وأما التى فى الآخرة فسخط الله تعالى وسوء الحساب والخلود فى النار (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ) قتلها بأن عصمها بالاسلام أو بالعهد (إلا بالحقّ) إلا باحدى ثلاث كفر بعد إيمان وزنا بعد احصان وقتل نفس معصومة عمدا فالاستثناء مفرغ أى لاتقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق أو ملتبسين أو ملتبسة بشىء من الأشياء ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف أى لاتقتلوها قتلا ما إلا قتلا ملتبسا بالحق (وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا) بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقاتل حتى انه لايعتبر إباحته لغير القاتل فان من عليه القصاص إذا قتله غير من له القصاص يقتص له ولا يفيده قول الولى أنا أمرته بذلك مالم يكن الأمر ظاهرا (فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ) لمن يلى أمره من الوارث أو السلطان عند عدم الوارث (سُلْطَانًا) تسلطا واستيلاء على القاتل يؤاخذه بالقصاص أو بالدية حسبما تقتضيه جنايته أو حجة غالبة (فَلَا يُسْرِفْ) وقرىء لاتسرف (فِى القَتْلِ) أى لايسرف الولى فى أمر القتل بأن يتجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه المثلة أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه أو بأن يقتل الاثنين مكان الواحد كما يفعله أهل الجاهلية أو بأن يقتل القاتل فى مادة الدية وقرىء بصيغة النفى مبالغة فى افادة معنى النهى (إنَّهُ كَانَ مَنصُورًا) تعليل للنهى والضمير للولى على معنى أنه تعالى نصره بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام بمعونته فى استيفاء حقه فلا يبغ ماوراء حقه ولا يستزد عليه ولا يخرج من دائرة أمر الناصر أو للمقتول ظلما على معنى أنه تعالى نصره بما ذكر فلا يسرف وليه فى شأنه أو للذى يقتله الولى ظلما واسرافا ووجه التعليل ظاهر وعن مجاهد أن الضمير فى لايسرف للقاتل الأول ويعضده قراءة فلا تسرفوا والضميران فى التعليل عائدان إلى الولى أو المقتول فالمراد بالاسراف حينئذ اسراف القاتل على نفسه بتعريضها للهلاك العاجل والآجل لا الاسراف وتجاوز الحد فى القتل أى لايسرف على نفسه فى شأن القتل كما فى قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ) نهى عن قربانه لما ذكر من المبالغة فى النهى عن التعرض له ومن إفضاء ذلك اليه وللتوسل إلى الاستثناء بقوله تعالى (إلا بالَّتِى هِىَ أحْسَنُ) أى إلا بالخصلة والطريقة التى هى أحسن الخصال والطرائق وهى حفظه واستثماره (حَتَّى يَبْلُغَ أشُدَّهُ) غاية لجواز التصرف على الوجه الأحسن المدلول عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ) سواء جرى بينكم وبين ربكم أو بينكم وبين غيركم من الناس والايفاء بالعهد والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يستعمل إلا بالباء فرقا بينه وبين الايفاء الحسى كايفاء الكيل والوزن (إنَّ العَهْدَ) أظهر فى مقام الاضمار إظهارا لكمال العناية بشأنه أولأن المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود (كَانَ مَسْؤُلًا) أى مسؤلا عنه على حذف الجار وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعا مستكنا فى اسم المفعول كقوله تعالى وذلك يوم مشهود أى مشهود فيه ونظيره مافى قوله تعالى تلك آيات الكتاب الحكيم على أن أصله الحكيم قائله فحذف المضاف وجعل الضمير مستكنا فى الحكيم بعد انقلابه مرفوعا ويجوز أن يكون تخييلا كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأى ذنب قتلت (وَأَوْفُوا الكَيْلَ) أى أتموه ولا تخسروه (إذَا كِلْتُمْ) أى وقت كيلكم للمشترين وتقييد الأمر بذلك لما أن التطفيف هناك يكون وأما وقت الاكتيال على الناس فلا حاجة إلى الأمر بالتعديل قال تعالى إذا اكتالوا على الناس يستوفون الآية (وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ) وهو القرسطون وقيل كل ميزان صغيرا كان أو كبيرا رومى معرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لانتظام المعربات فى سلك الكلم العربية وقرىء بضم القاف (المُسْتَقِيمِ) أى العدل السوى ولعل الاكتفاء باستقامته عن الأمر بايفاء الوزن لما أن عند استقامته لايتصور الجور غالبا بخلاف الكيل فانه كثيرا

مايقع التطفيف مع استقامة الآلة كما أن الاكتفاء بايفاء الكيل عن الأمر بتعديله لما أن ايفاءه لايتصور بدون تعديل المكيال وقد أمر بتقويمه أيضا فى قوله تعالى أوفوا الكيل والميزان بالقسط (ذٰلِكَ) أى ايفاء الكيل والوزن بالميزان السوى (خَيْرٌ) فى الدنيا إذهو أمانة توجب الرغبة فى معاملته والذكر الجميل بين الناس (وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) عاقبة تفعيل من آل إذا رجع والمراد مايؤول اليه (وَلَا تَقْفُ) ولاتتبع من قفا أثره إذا تبعه وقرىء ولاتقف من قاف أثره أى قفاه ومنه القافة فى جمع القائف (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) أى لاتكن فى اتباع مالاعلم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مسلكا لايدرى أنه يوصله إلى مقصده واحتج به من منع اتباع الظن وجوابه أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند قطعيا كان أو ظنيا واستعماله بهذا المعنى مما لاينكر شيوعه وقيل إنه مخصوص بالعقائد وقيل بالرمى وشهادة الزور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج ومنه قول الكميت :

ولا أرمى البرىء بغير ذنب ولا أقفو الحواصن ان رمينا

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ) وقرىء بفتح الفاء والواو المقلوبة من الهمزة عند ضم الفاء (كُلُّ أُولٰئِكَ) أى كل واحد من تلك الأعضاء فأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤلة عن أحوالها شاهدة على أصحابها هذا وان أولاء وإن غلب فى العقلاء لكنه من حيث أنه اسم جمع لذا الذى يعم القبيلين جاء لغيرهم أيضا قال :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

(كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) أى كان كل من تلك الأعضاء مسؤلا عن نفسه على أن اسم كان ضمير يرجع إلى كل وكذا الضمير المجرور وقد جوز أن يكون الاسم ضمير القافى بطريق الالتفات اذ الظاهر أن يقال كنت عنه مسؤلا وقيل الجار والمجرور فى محل الرفع قد أسند اليه مسؤلا معللا بأن الجار والمجرور لايلتبس بالمبتدا وهو السبب فى منع تقديم الفاعل ومايقوم مقامه ولكن النحاس حكى الاجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل اذا كان جارا ومجرورا ويجوز أن يكون من باب الحذف على شريطة التفسير ويحذف الجار من المفسر ويعود الضمير مستكنا كما ذكرنا فى قوله تعالى يوم مشهود وجوز أن يكون مسؤلا مسندا الى المصدر المدلول عليه بالفعل وأن يكون فاعله المصدر وهو السؤال وعنه فى محل النصب وسأل ابن جنى أبا على عن قولهم فيك يرغب وقال لايرتفع بما بعده فاين المرفوع فقال المصدر أى فيك يرغب الرغبة بمعنى تفعل الرغبة كما فى قولهم يعطى ويمنع أى يفعل الاعطاء والمنع وجوز أن يكون اسم كان أو فاعله ضمير كل بحذف المضاف أى كان صاحبه عنه مسؤلا أو مسؤلا صاحبه (وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ) التقييد لزيادة التقرير والاشعار بأن المشى عليها مما لايليق بالمرح (مَرَحًا) تكبرا وبطرا واختيالا وهو مصدر وقع موقع الحال أى ذا مرح أو تمرح مرحا أو لأجل المرح وقرىء بالكسر (إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ) تعليل للنهى وفيه تهكم بالمختال وايذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وتكبر عليها أى لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك وقرىء بضم الراء (وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ) التى هى بعض أجزاء الأرض (طُولًا) حتى يمكن لك أن تتكبر عليها إذ التكبر انما يكون بكثرة القوة وعظم الجثة وكلاهما مفقود وفيه تعريض بما عليه المختال من رفع رأسه ومشيه على صدور قدميه (كُلُّ ذٰلِكَ) اشارة الى ماعلم فى تضاعيف ذكر الأوامر والنواهى من الخصال الخمس والعشرين (كَانَ سَيِّئُهُ) الذى نهى عنه وهى اثنتا عشرة خصلة (عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) مبغضا غير مرضى أو غير مراد بالارادة الأولية لاغير مراد مطلقا لقيام الادلة القاطعة على أن جميع الأشياء واقعة بارادته سبحانه وهو تتمة لتعليل الأمور

المنهى عنها جميعا ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن البعض من الكبائر للايذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية فى وجوب الانتهاء عن ذلك وتوجيه الإشارة إلى الكل ثم تعيين البعض دون توجيهها اليه ابتداء لما أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة بل على وجه الاختلاط وفيه إشعار بكون ماعداه مرضيا عنده تعالى وإنما لم يصرح بذلك إيذانا بالغنى عنه وقيل الاضافة بيانية كما فى آية الليل وآية النهار وقرىء سيئة على أنه خبر كان وذلك إشارة إلى مانهى عنه من الأمور المذكورة ومكروها بدل من سيئة أو صفة لها محمولة على المعنى فانه بمعنى سيئا وقد قرىء به أو مجرى على موصوف مذكر أى أمرا مكروها أو مجرى مجرى الأسماء زال عنه معنى الوصفية ويجوز كونه حالا من المستكن فى كان أو فى الظرف على أنه صفة سيئة وقرىء سيئاته وقرىء شأنه (ذَٰلِكَ) أى الذى تقدم من التكاليف المفصلة (مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ) أى بعض منه أو من جنسه (مِنَ الْحِكْمَةِ) التى هى علم الشرائع أو معرفة الحق لذاته والعمل به أو من الأحكام المحكمة التى لا يتطرق اليها النسخ والفساد وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان هذه الآيات الثمانى عشرة كانت فى ألواح موسى عليه السلام أولها لا تجعل مع الله إلها آخر قال تعالى وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وهى عشر آيات فى التوراة ومن اما متعلقة بأوحى على أنها تبعيضية أو ابتدائية وإما بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من ضميره المحذوف فى الصلة أى كائنا من الحكمة واما بدل من الموصول باعادة الجار (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ) الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد غيره ممن يتصور منه صدور المنهى عنه وقد كرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه وأنه رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه علومه وحكمه وإن بذ فيها أساطين الحكماء وحك بيافوخه عنان السماء وقد رتب عليه ما هو عائدة الاشراك أولا حيث قيل فتقعد مذموما مخذولا ورتب عليه ههنا نتيجته فى العقبى فقيل (فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا) من جهة نفسك ومن جهة غيرك (مَدْحُورًا) مبعدا من رحمة الله تعالى وفى إيراد الالقاء مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وازدراء بالمشرك وجعل له من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه فيطرحها فى التنور (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا) خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله سبحانه والاصفاء بالشىء جعله خالصا والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يفسره المذكور أى أفضلكم على جنابه فخصكم بأفضل الأولاد على وجه الخلوص وآثر لذاته أخسها وأدناها كما فى قوله سبحانه ألكم الذكر وله الأنثى وقوله تعالى أم له البنات ولكم البنون وقد قصد ههنا بالتعرض لعنوان الربوبية تشديد النكير وتأكيده وأشير بذكر الملائكة عليهم السلام وإيراد الاناث مكان البنات إلى كفرة لهم أخرى وهى وصفهم لهم عليهم السلام بالأنوثة التى هى أخس صفات الحيوان كقوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ) بمقتضى مذهبكم الباطل الذى هو إضافة الولد اليه سبحانه (قَوْلًا عَظِيمًا) لا يقادر قدره فى استتباع الاثم وخرقه لقضايا العقول بحيث لا يجترىء عليه أحد حيث يجعلونه تعالى من قبيل الأجسام المتجانسة السريعة الزوال وليس كمثله شىء وهو الواحد القهار الباقى بذاته ثم تضيفون اليه ما تكرهون من أخس الأولاد وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين ثم تصفون الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق بالأنوثة التى هى أخس أوصاف الحيوان فيا لها من ضلة ما أقبحها وكفرة ما أشنعها وأفظعها (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا) هذا المعنى وكررناه (فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ) على وجوه من التصريف فى مواضع منه وإنما ترك الضمير تعويلا على الظهور وقرىء بالتخفيف (لِيَذَّكَّرُوا) ما فيه ويقفوا على بطلان ما يقولونه والالتفات إلى الغيبة للايذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم ويحكى للسامعين هناتهم وقرىء بالتخفيف من الذكر بمعنى التذكر ويجوز أن يراد بهذا القرآن ما نطق ببطلان مقالتهم المذكورة من الآيات الكريمة الواردة على أساليب مختلفة ومعنى التصريف فيه جعله مكانا له أى أوقعنا

فيه التصريف كقوله يجرح فى عراقيها نصلى وقدجوز أن يراد به ابطال إضافتهم اليه تعالى البنات وأنت تعلم أن
ابطالها من آثار القرآن ونتائجها (وَمَا يَزِيدُهُمْ) أى والحال أنه مايزيدهم ذلك التصريف البالغ (إلا نُفُورًا) عن
الحق واعراضا عنه فضلا عن التذكر المؤدى الى معرفة بطلان ماهم عليه من القبائح (قُلْ) فى اظهار بطلان ذلك
من جهة أخرى (لَوْ كَانَ مَعَهُ) تعالى (ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ) أى المشركون قاطبة وقرىء بالتاء خطابا لهم من قبل
النبى عليه الصلاة والسلام والكاف فى محل النصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى كونا مشابها لما يقولون والمراد بالمشابهة
الموافقة والمطابقة (إِذًا لَّابْتَغَوْا) جواب عن مقالتهم الشنعاء وجزاء للو أى لطلبوا (إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ) أى الى من
له الملك والربوبية على الاطلاق (سَبِيلًا) بالمبالغة والممانعة كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض على طريقة قوله تعالى
لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقيل بالتقرب اليه تعالى كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة
والأول هو الأظهر الأنسب لقوله (سُبْحَٰنَهُ) فانه صريح فى أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم من
حيث لا يحتسبون وأما ابتغاء السبيل اليه تعالى بالتقرب فليس مما يختص بهذا التقرير ولا هو مما يلزمهم من حيث
لا يشعرون بل هو أمر يعتقدونه رأسا أى تنزه بذاته تنزهاحقيقا به (وَتَعَٰلَىٰ) متباعدا (عَمَّا يَقُولُونَ) من العظيمة
التى هى أن يكون معه آلهة وأن يكون له بنات (عُلُوًّا) تعاليا كقوله تعالى والله أنبتكم من الأرض نباتا (كَبِيرًا)
لا غاية وراءه كيف لا وانه سبحانه فى أقصى غايات الوجود وهو الوجوب الذاتى وما يقولونه من أن له تعالى شركاء وأولادا
فى أبعد مراتب العدم أعنى الامتناع لا لأنه تعالى فى أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود لذاته واتخاذ الولد
من أدنى مراتبه فانه من خواص ما يمتنع بقاؤه كما قيل فان ما يقولونه ليس مجرد اتخاذ الولد بل اتخاذه تعالى له وأن يكون
معه آلهة ولا ريب فى أن ذلك ليس بداخل فى حد الامكان فضلا عن دخوله تحت الوجود وكونه من أدنى مراتب
الوجود إنما هو بالنسبة إلى من شأنه ذلك (تُسَبِّحُ) بالفوقانية وقرىء بالتحتانية وقرىء سبحت (لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ
وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) من الملائكة والثقلين على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال ولسان الحال
بطريق عموم المجاز (وَإِن مِّن شَىْءٍ) من الأشياء حيوانا كان أو نباتا أو جمادا (إِلَّا يُسَبِّحُ) ملتبسا (بِحَمْدِهِ) أى
ينزهه تعالى بلسان الحال عما لا يليق بذاته الأقدس من لوازم الامكان ولواحق الحدوث إذ ما من موجود إلا وهو
بامكانه وحدوثه يدل دلالة واضحة على أن له صانعا عليما قادرا حكيما واجبا لذاته قطعا للسلسلة (وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ) أيها المشركون لاخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم ذلك وقرىء لا يفقهون على صيغة المبنى للمفعول من
باب التفعيل (إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا) ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ما أنتم عليه من موجباتها من الاعراض عن التدبر فى
الدلائل الواضحة الدالة على التوحيد والانهماك فى الكفر والاشراك (غَفُورًا) لمن تاب منكم (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ)
الناطق بالتسبيح والتنزيه ودعوتهم إلى العمل بما فيه من التوحيد ورفض الشرك وغير ذلك من الشرائع (جَعَلْنَا) بقدرتنا
ومشيئتنا المبنية على دواعى الحكم الخفية (بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ) أوثر الموصول على الضمير
ذمالهم بما فى حيز الصلة وإنما خص بالذكر كفرهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على أنها
معظم ما أمروا بالايمان به فى القرآن وتمهيدا لما سينقل عنهم من إنكار البعث واستعجاله ونحو ذلك (حِجَابًا)
يحجبهم من أن يدركوك على ما أنت عليه من النبوة ويفهموا قدرك الجليل ولذلك اجترؤا على تفوه العظيمة التى هى
قولهم إن تتبعون إلا رجلا مسحورا وحمل الحجاب على ما روى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه من أنه لما
نزلت سورة تبت أقبلت العوراء أم جميل امرأة أبى لهب وفى يدها فهر والنبى عليه الصلاة والسلام قاعد فى المسجد

ومعه أبو بكر رضى الله عنه فلما رآها قال يارسول الله لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك قال عليه الصلاة والسلام انها لن تراني وقرأ قرآنا فوقفت على أبي بكر رضى الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يقبله الذوق السليم ولا يساعده النظم الكريم (مَسْتُوراً) ذا ستر كما فى قولهم سيل مفعم أو مستورا عن الحس بمعنى غير حسى أو مستورا فى نفسه بحجاب آخر أو مستورا كونه حجابا حيث لايدرون أنهم لايدرون (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) أغطية كثيرة جمع كنان (أَنْ يَفْقَهُوهُ) مفعول لأجله أى كراهة أن يفقهوه أو مفعول لما دل عليه الكلام أى منعناهم أن يقفوا على كنهه ويعرفوا أنه من عند الله تعالى (وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً) صمما وثقلا مانعا من سماعه اللائق به وهذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشئون النبي عليه الصلاة والسلام وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له جىء بها إيذانا بالعدم فقههم لتسبيح لسان المقال اثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال وإيذانا بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه إلا لمانع قوى يعترى المشاعر فيبطلها وتنبيها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق لاحكاية لما قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب كيف لا وقصدهم بذلك إنما هو الاخبار بما اعتقدوه فى حق القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام جهلا وكفرا من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والإيمان ككون القرآن سحرا او شعرا او أساطير وقس عليه حال النبي عليه الصلاة والسلام لا الاخبار بأن هناك أمرا وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين إدراكه حائل من قبلهم ولا ريب فى أن ذلك المعنى مما لا يكاد يلائم المقام (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ) واحدا غير مشفوع به آلهتهم وهو مصدر وقع موقع الحال أصله يحد وحده (وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ) أى هربوا ونفروا (نُفُوراً) أو ولوا نافرين (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ) ملتبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن يروى أنه كان يقوم عن يمينه عليه الصلاة والسلام رجلان من بنى عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار (إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) ظرف لأعلم وفائدته تأكيد الوعيد بالاخبار بأنه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلق به العلم لا أن العلم يستفاد هناك من أحد وكذا قوله تعالى (وَإِذْ هُمْ نَجْوَى) لكن لا من حيث تعلقه بما به الاستماع بل بما به التناجى المدلول عليه بسياق النظم والمعنى نحن أعلم بالذى يستمعون ملتبسين به مما لا خير فيه من الأمور المذكورة وبالذى يتناجون فيما بينهم أو الأول ظرف ليستمعون والثانى ليتناجون والمعنى نحن أعلم بما به الاستماع وقت استماعهم من غير تأخير وبما به التناجى وقت تناجيهم ونجوى مرفوع على الخبرية بتقدير المضاف أى ذوو نجوى أو هو جمع نجى كقتلى جمع قتيل أى متناجون (إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ) بدل من إذهم وفيه دليل على أن ما يتناجون به غير ما يستمعون به وإنما وضع الظالمون موضع المضمر إشعارا بأنهم فى ذلك ظالمون مجاوزون للحد أى يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم (إِنْ تَتَّبِعُونَ) ما تتبعون ان وجد منكم الاتباع فرضا أو ما تتبعون باللغو والهزء (إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً) أى سحر فجن أو رجلا ذا سحر أى رئة يتنفس أى بشرا مثلكم (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ) أى مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون (فَضَلُّوا) فى جميع ذلك عن منهاج المحاجة (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) إلى طعن يمكن أن يقبله أحد فيتهافتون ويخبطون ويأتون بما لا يرتاب فى بطلانه أحد أو الى سبيل الحق والرشاد وفيه من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً) استفهام انكارى مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعدما آل الحال إلى هذا المآل لما بين غضاضة الحى ويبوسة الرميم من التنافى كأن استحالة الأمر من الظهور بحيث لا يقدر المخاطب على التكلم به والرفات ما بولغ فى دقه وتفتيته وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد وقيل هو الحطام وإذا متمحضة للظرفية وهو الاظهر والعامل فيها ما دل عليه قوله

تعالى (أءنّا لمبعُوثونَ) لا نفسه لأن ما بعدان والهمزة واللام ولا يعمل فيما قبلها وهو نبعث أو نعاد وهو المرجع للانكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيصه به فانهم منكرون للاحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له وتكرير الهمزة فى قولهم أئنا لتأكيد النكير وتحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين فى المبعوثية بالفعل فى حال كونهم عظاما ورفاتا كما يتراءى من ظاهر الجملة الاسمية بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له ومرجعه إلى انكار البعث بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوهم فى الكفر وتماديهم فى الضلال مالا مزيد عليه (خَلقاً جَدِيداً) نصب على المصدر من غير لفظه أو الحالية على أن الخلق بمعنى المخلوق (قلْ) جوابا لهم وتقريبا لما استبعدوه (كُونُوا حِجارَةً أوْ حَدِيداً أوْ خَلقاً) آخر (مِمّا يَكْبُرُ فى صُدُورِكُمْ) أى يعظم عندكم عن قبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها وبينه فانكم مبعوثون ومعادون لا محالة (فَسَيَقولونَ مَنْ يُعِيدُنا) مع ما بيننا وبين الإعادة من مثل هذه المباعدة والمباينة (قلِ) لهم تحقيقا للحق وإزاحة للاستبعاد وإرشادا لهم إلى طريقة الاستدلال (الذِى) أى يعيدكم القادر العظيم الذى (فطَرَكُمْ) اخترعكم (أوّلَ مَرّةٍ) من غير مثال يحتذيه ولا أسلوب ينتحيه وكنتم ترابا ما شم رائحة الحياة أليس الذى يقدر على ذلك بقادر على أن يعيد العظام البالية إلى حالتها المعهودة بلى إنه على كل شىء قدير (فَسَيُنْغِضُونَ إليْكَ رُءُوسَهُمْ) أى سيحركونها نحوك تعجبا وإنكارا (وَيَقولونَ) استهزاء (مَتَى هوَ) أى ما ذكرته من الإعادة (قلْ) لهم (عَسَى أنْ يَكونَ) ذلك (قرِيباً) نصب على أنه خبر ليكون أو ظرف على أن كان تامة أى أن يقع فى زمان قريب ومحل أن مع ما فى حيزها اما نصب على أنه خبر لعسى وهى ناقصة واسمها ضمير عائد إلى ما عاد اليه هو أى عسى البعث أن يكون قريبا أو عسى البعث يقع فى زمان قريب أو رفع على أنه فاعل لعسى وهى تامة أى عسى كونه قريبا أو وقوعه فى زمان قريب (يوْمَ يَدْعوكُمْ) منصوب بفعل مضمر أى اذكروا أو على أنه بدل من قريبا على أنه ظرف أو بيكون تامة بالاتفاق أو ناقصة عند من يجوز أعمال الناقصة فى الظروف أو بضمير المصدر المستكن فى عسى أو يكون أعنى البعث عند من يجوز أعمال ضمير المصدر كما فى قول زهير :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم — وما هو عنها بالحديث المرجم

فهو ضمير المصدر وقد تعلق به ما بعده من الجار (فتَسْتَجِيبُونَ) أى يوم يبعثكم فتبعثون وقد استعير لهما الدعاء والإجابة إيذانا بكمال سهولة التأتى وبأن المقصود منهما الاحضار للمحاسبة والجواب (بِحَمْدِهِ) حال من ضمير تستجيبون أى منقادين له حامدين لما فعل بكم غير مستعصين أو حامدين له تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة أحكامها (وَتظُنُّونَ) عطف على تستجيبون أى تظنون عند ما ترون ما ترون من الأمور الهائلة (إن لَبِثْتُمْ) أى ما لبثتم فى القبور (إلا قلِيلاً) كالذى مر على قرية أو ما لبثتم فى الدنيا (وَقلْ لِعِبادِى) أى المؤمنين (يَقولوا) عند محاورتهم مع المشركين (التى) أى الكلمة التى (هِىَ أحْسَنُ) ولا يخاشنوهم كقوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن (إنّ الشّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ) أى يفسد ويهيج الشر والمراء ويغرى بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة والمشارة والمعارة والمضارة فلعل ذلك يؤدى إلى تأكد العناد وتمادى الفساد فهو تعليل للامر السابق وقرىء بكسر الزاء (إنّ الشّيْطانَ كانَ) قدما (لِلإنْسانِ عَدُوّاً مُبِيناً) ظاهر العداوة وهو تعليل لما سبق من أن الشيطان ينزغ بينهم (رَبُّكُمْ أعْلمُ بِكُمْ إنْ يَشَأ يَرْحَمْكُمْ) بالتوفيق للإيمان (أوْ إنْ يَشَأ يُعَذِّبْكُمْ) بالاماتة على الكفر وهذا تفسير التى هى

أحسن ومابينهما اعتراض أى قولوا لهم هذه الكلمة ومايشاكلها ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار فانه مما يهيجهم على الشر مع أن العاقبة مما لا يعلمه إلا الله سبحانه فعسى يهديهم إلى الايمان (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً) موكولا اليك أمورهم تقسرهم على الايمان وإنما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمشاقة وذلك قبل نزول آية السيف وقيل نزلت فى عمر رضى الله عنه شتمه رجل فأمر بالعفو وقيل أفرط أذية المشركين بالمؤمنين فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقيل الكلمة التى هى أحسن أن يقولوا يهديكم الله ويرحمكم الله (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ) وتفاصيل أحوالهم الظاهرة والكامنة التى بها يستأهلون الاصطفاء والاجتباء فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء ممن يستحقه وهو رد عليهم إذ قالوا بعيد أن يكون يتيم أبى طالب نبيا وأن يكون العراة الجوع أصحابه دون أن يكون ذلك من الأكابر والصناديد وذكر من فى السموات لابطال قولهم لولا أنزل علينا الملائكة وذكر من فى الأرض لرد قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ) بالفضائل النفسانية والتنزه عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الأموال والاتباع (وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً) بيان لحيثية تفضيله عليه الصلاة والسلام فان ذلك ايتاء الزبور لا ايتاء الملك والسلطنة وفيه ايذان بتفضيل النبى عليه الصلاة والسلام فان نعوته الجليلة وكونه خاتم النبيين مسطورة فى الزبور وأن المراد بعباد الله الصالحين فى قوله تعالى إن الأرض يرثها عبادى الصالحون هو النبى عليه الصلاة والسلام وأمته وتعريف الزبور تارة وتنكيره أخرى اما لأنه فى الأصل فعول بمعنى المفعول كالحلوب أو مصدر بمعناه كالقبول واما لأن المراد آتينا داود زبورا من الزبر أو بعضا من الزبور فيه ذكره عليه الصلاة والسلام وقرىء بضم الزاى على أنه جمع زبر بمعنى مزبور (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) أنها آلهة (مِنْ دُونِهِ) تعالى من الملائكة والمسيح وعزير (فَلَا يَمْلِكُونَ) فلا يستطيعون (كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ) بالمرة كالمرض والفقر والقحط ونحو ذلك (وَلَا تَحْوِيلاً) أى ولا تحويله إلى غيركم (أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ) أى أولئك الآلهة الذين يدعوهم المشركون من المذكورين (يَبْتَغُونَ) يطلبون لأنفسهم (إِلَىٰ رَبِّهِمُ) ومالك أمورهم (الْوَسِيلَةَ) القربة بالطاعة والعبادة (أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) بدل من فاعل يبتغون وأى موصولة أى يبتغى من هو أقرب اليه تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه أو ضمن الابتغاء معنى الحرص فكانه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب اليه تعالى بالطاعة والعبادة (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ) بها (وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) بتركها كدأب سائر العباد فأين هم من كشف الضر فضلا عن الالهية (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) حقيقا بأن يحذره كل أحد حتى الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو تعليل لقوله تعالى ويخافون عذابه وتخصيصه بالتعليل لما أن المقام مقام التحذير من العذاب وأن بينهم وبين العذاب بونا بعيدا (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ) بيان لتحتم حلول عذابه تعالى بمن لا يحذره اثر بيان أنه حقيق بالحذر وأن أساطين الخلق من الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام على حذر من ذلك وكلمة ان نافية ومن استغراقية والمراد بالقرية القرية الكافرة أى ما من قرية من قرى الكفار (إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا) أى مخربوها البتة بالخسف بها أو باهلاك أهلها بالمرة لما ارتكبوا من عظائم الموبقات المستوجبة لذلك وفى صيغة الفاعل وإن كانت بمعنى المستقبل ما ليس فيه من الدلالة على التحقق والتقرر وإنما قيل (قَبْلَ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ) لأن الاهلاك يومئذ غير مختص بالقرى الكافرة ولا هو بطريق العقوبة وانما هو لانقضاء عمر الدنيا (أَوْ مُعَذِّبُوهَا) أى معذبو أهلها على الاسناد المجازى (عَذَاباً شَدِيداً) لا بالقتل والسبى ونحوهما من البلايا الدنيوية فقط بل بما لا يكتنه كنهه من فنون العقوبات الأخروية أيضا حسبما يفصح عنه اطلاق التعذيب عما قيد به الاهلاك من قبلية يوم القيامة كيف لا وكثير من القرى العاتية العاصية قد أخرت عقوباتها إلى يوم القيامة (كَانَ

ذلك) الذي ذكر من الاهلاك والتعذيب (في الكتاب) أي اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوبا لم يغادر منه شيء إلا بين فيه بكيفياته وأسبابه الموجبة له ووقته المضروب له هذا وقد قيل الهلاك للقرى الصالحة والعذاب للطالحة وعن مقاتل وجدت في كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسير ها أما مكة فيخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف وأما خراسان فهلاكها ضروب ثم ذكرها بلدا بلدا وقال الحافظ أبو عمرو الدواني في كتاب الفتن أنه روى عن وهب بن منبه أن الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة فاذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يدي رجل من بني هاشم وخراب الأندلس من قبل الزنج وخراب أفريقية من قبل الاندلس وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها وخراب العراق من الجوع وخراب الكوفة من قبل عدن ومن ورائهم يحصرهم حتى لا يستطيعون أن يشربوا من الفرات قطرة وخراب البصرة من قبل الغرق وخراب الايلة من قبل عدو يحصرهم برا وبحرا وخراب الري من الديلم وخراب خراسان من قبل التبت وخراب التبت من قبل الصين وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان وخراب مكة من الحبشة وخراب المدينة من قبل الجوع وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال آخر قرية من قرى الاسلام خرابا المدينة وقد أخرجه العمري من هذا الوجه وأنت خبير بأن تعميم القرية لا يساعده السباق ولا السياق (وما منعنا أن نرسل بالآيات) أي الآيات التي اقترحتها قريش من احياء الموتى وقلب الصفا ذهبا ونحو ذلك (إلا أن كذب بها الأولون) استثناء مفرغ من أعم الأشياء أي وما منعنا إرسالها شيء من الأشياء إلا تكذيب الأولين بها حين جاءتهم باقتراحهم وعدم ارساله تعالى بها وإن كان بمشيئته المبنية على الحكم البالغة لا لمنع مانع عن ذلك من التكذيب أو غيره لاستحالة العجز عليه تعالى لكن تكذيبهم المذكور بواسطة استتباعه لاستئصالهم بحكم السنة الالهية واستلزامه لتكذيب الآخرين بحكم الاشتراك في العتو والعناد وافضائه إلى أن يحل بهم مثل ما حل بهم بحكم الشركة في الجريرة لما كان منافيا الارسال ما اقترحوه من الآيات لتعين التكذيب المستدعي للاستئصال المخالف لما جرى به قلم القضاء من تأخير عقوبات هذه الأمة إلى الآخرة لحكم باهرة من جملتها ما يتوهم من ايمان بعض أعقابهم عبر عن تلك المنافاة بالمنع على نهج الاستعارة ايذانا بتعاضد مبادي الارسال لا كما زعموا من عدم ارادته تعالى لتأييده عليه الصلاة والسلام بالمعجزات وهو السر في ايثار الارسال على الايتاء لما فيه من الاشعار بتداعي الآيات إلى النزول لولا أن تمسكها يد التقدير وإسناد على هذا المنع الى تكذيب الاولين لا الى علمه تعالى بما سيكون من الآخرين كما في قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون لاقامة الحجة عليهم بابراز الانموذج وللايذان بأن مدار عدم الاجابة إلى ايتاء مقترحهم ليس إلا صنيعهم (وآتينا ثمود الناقة) عطف على ما يفصح عنه النظم الكريم كأنه قيل وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرة فكذبوها وآتينا باقتراحهم ثمود الناقة (مبصرة) على صيغة الفاعل أي بينة ذات ابصار أو بصائر يدركها الناس أو أسند اليها حال من يشاهدها مجازا أو جاعلتهم ذوي بصائر من أبصره جعله بصيرا وقرىء على صيغة المفعول وبفتح الميم والصاد وهي نصب على الحالية وقرىء بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف (فظلموا بها) فكفروا بها ظالمين أي لم يكتفوا بمجرد الكفر بها بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر أو ظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها ولعل تخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم وأن لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم ورودا وصدورا أو لأنها من جهة أنها حيوان أخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى قل كونوا حجارة

أو حديدا (وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ) المقترحة (إِلَّا تَخْوِيفًا) لمن أرسلت هى عليهم مما يعقبها من العذاب المستأصل كالطليعة له وحيث لم يخافوا ذلك فعل بهم مافعل فلا محل للجملة حينئذ من الاعراب ويجوز أن تكون حالا من ضمير ظلموا أى فظلموا بها ولم يخافوا عاقبته والحال أنا مانرسل بالآيات التى هى من جملتها الا تخويفا من العذاب الذى يعقبها انزل بهم مانزل (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) أى علما كما نقله الامام الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما فلا يخفى عليه شىء من أفعالهم الماضية والمستقبلة من الكفر والتكذيب وفى قوله تعالى (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) إلى آخر الآية تنبيه على تحققها بالاستدلال عليها بما صدر عنهم عند مجىء بعض الآيات لاشتراك الكل فى كونها أمورا خارقة للعادات منزلة من جانب الله سبحانه لتصديق النبى عليه الصلاة والسلام فتكذيبهم لبعضها مستلزم لتكذيب الباقى كما أن تكذيب الآخرين بغير المقترحة يدل على تكذيبهم بالآيات المقترحة والمراد بالرؤيا ماعاينه عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء حسبما ذكر فى فاتحة السورة الكريمة والتعبير عن ذلك بالرؤيا اما لانه لافرق بينها وبين الرؤية أو لأنها وقت بالليل أو لان الكفرة قالوا لعلها رؤيا أى وما جعلنا الرؤيا التى أريناكها عيانا مع كونها آية عظيمة وأية آية حقيقة بأن لايتلعثم فى تصديقها أحد ممن له أدنى بصيرة الافتنة افتتن بها الناس حتى ارتد بعضهم (وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ) عطف على الرؤيا والمراد بلعنها فيه لعن طاعمها على الاسناد المجازى أو ابعادها عن الرحمة فانها تنبت فى أصل الجحيم فى أبعد مكان من الرحمة أى وما جعلناها الافتنة لهم حيث أنكروا ذلك وقالوا ان محمدا يزعم أن الجحيم يحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ولقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا حيث كابروا قضية عقولهم فانهم يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة فلا تضرها ويشاهدون المناديل المتخذة من وبر السمندر تلقى فى النار فلا تؤثر فيها ويرون أن فى كل شجر نارا وقرىء بالرفع على حذف الخبر كانه قيل والشجرة الملعونة فى القرآن كذلك (وَنُخَوِّفُهُمْ) بذلك وبنظائرها من الآيات فان الكل للتخويف وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار (فَمَا يَزِيدُهُمْ) التخويف (إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا) متجاوزا عن الحد فلو أنا أرسلنا بما اقترحوه من الآيات لفعلوا بها مافعلوا بنظائرها وفعل بهم مافعل بأشياعهم وقد قضينا بتأخير العقوبة العامة لهذه الأمة إلى الطامة الكبرى هذا هو الذى يستدعيه النظم الكريم وقد حمل أكثر المفسرين الاحاطة على الاحاطة بالقدرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الاجابة إلى انزال الآيات التى اقترحوها لان انزالها ليس بمصلحة من نوع حزن من طعن الكفرة حيث كانوا يقولون لو كنت رسولا حقا لأتيت بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكانه قيل اذكر وقت قولنا لك ان ربك اللطيف بك قد أحاط بالناس فهم فى قبضة قدرته لايقدرون على الخروج من مشيئته فهو يحفظك منهم فلا تهتم بهم وامض لما أمرتك به من تبليغ الرسالة ألا يرى أن الرؤيا التى أريناك من قبل جعلناها فتنة للناس مورثة للشبهة مع أنها ما أورثت ضعفا لأمرك وفتورا فى حالك وقد فسر الاحاطة باهلاك قريش يوم بدر وإنما عبر عنه بالماضى مع كونه منتظرا حسبما ينبىء عنه قوله تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر وقوله تعالى قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وغير ذلك جريا على عادته سبحانه فى أخباره وأولت الرؤيا بما رآه عليه الصلاة والسلام فى المنام من مصارعهم لماروى أنه عليه الصلاة والسلام لما ورد ماء بدر قال والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم وهو يومىء إلى الأرض هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فتسامعت به قريش فاستسخروا منه وبما رآه عليه الصلاة والسلام أنه سيدخل مكة وأخبر به أصحابه فتوجه اليها فصده المشركون عام الحديبية واعتذر عن كون ماذكر مدنيا بأنه يجوز أن يكون الوحى باهلاكهم وكذا الرؤيا واقعا بمكة وذكر الرؤيا وتعيين المصارع واقعين بعد الهجرة وأنت خبير بأنه

يلزم منه أن يكون افتتان الناس بذلك واقعا بعد الهجرة وأن يكون ازديادهم طغيانا متوقعا غير واقع عند نزول الآية وقد قيل الرؤيا ما رآه عليه الصلاة والسلام فى وقعة بدر من مضمون قوله تعالى إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولا ريب فى أن تلك الرؤيا مع وقوعها فى المدينة ما جعلت فتنة للناس (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ) تذكير لما جرى منه تعالى من الأمر ومن الملائكة من الامتثال والطاعة من غير تردد وتحقيق لمضمون ما سبق من قوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا ويعلم من حال الملائكة حال غيرهم من عيسى وعزير عليهما السلام فى الطاعة وابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة ومخافة العذاب ومن حال إبليس حال من يعاند الحق ويخالف الأمر أى واذكر وقت قولنا لهم (اسْجُدُوا لِآدَمَ) تحية وتكريما لما له من الفضائل المستوجبة لذلك (فَسَجَدُوا) له من غير تلعثم امتثالا للأمر وأداء لحقه عليه الصلاة والسلام (إِلَّا إِبْلِيسَ) وكان داخلا فى زمرتهم مندرجا تحت الأمر بالسجود (قَالَ) أى عند ما وبخ بقوله عز سلطانه يا إبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين وقوله ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك وقوله ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى كما أشير إليه فى سورة الحجر (أَأَسْجُدُ) وأنا مخلوق من العنصر العالى (لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) نصب على نزع الخافض أى من طين أو حال من الراجع إلى الموصول أى خلقته وهو طين أو من نفس الموصول أى أأسجد له وأصله طين والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالموصول لتعليل إنكاره بما فى حيز الصلة (قَالَ) أى إبليس لكن لا عقيب كلامه المحكى بل بعد الانظار المترتب على استنظاره المتفرع على الأمر بخروجه بين الملأ الأعلى باللعن المؤبد وإنما لم يصرح بذلك اكتفاء بما ذكر فى مواضع أخر فان توسيط قال بين كلامى اللعين للايذان بعدم اتصال الثانى بالأول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره كما فى قوله تعالى قال فما خطبكم بعد قوله تعالى قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون (أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ) الكاف لتأكيد الخطاب لا محل لها من الاعراب وهذا مفعول أول والموصول صفته والثانى محذوف لدلالة الصلة عليه أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته على بأن أمرتنى بالسجود له لم كرمته على وقيل هذا مبتدأ حذف عنه حرف الاستفهام والموصول مع صلته خبره ومقصوده الاستصغار والاستحقار أى أخبرنى أهذا من كرمته على وقيل معنى أرأيتك أتأملت كان المتكلم ينبه المخاطب على استحضار ما يخاطبه به عقيبه (لَئِنْ أَخَّرْتَنِ) حيا (إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه وقوله (لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ) أى لأستأصلنهم من قولهم احتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلا أو لأقودنهم حيث ما شئت ولأستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم حنكت الدابة واحتنكتها إذا جعلت فى حنكها الأسفل حبلا تقودها به وهذا كقوله لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين وإنما علم تسنى ذلك المطلب له تلقيا من جهة الملائكة عليهم الصلاة والسلام أو استنباطا من قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء أو توسما من خلقه (إِلَّا قَلِيلًا) منهم وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى (قَالَ اذْهَبْ) أى امض لشأنك الذى اخترته وهو طرد له وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه (فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ) أى جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب رعاية لحق المتبوعية (جَزَاءً مَوْفُورًا) أى جزاء مكملا من قولهم فر لصاحبك عرضه فرة أى وفر وهو نصب على أنه مصدر مؤكد لما فى قوله فان جهنم جزاؤكم من معنى تجازون أو للفعل المقدر أو حال موطئة لقوله موفورا (وَاسْتَفْزِزْ) أى استخف (مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ) أن تستفزه (بِصَوْتِكَ) بدعائك إلى الفساد (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ) أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح (بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) أى بأعوانك وأنصارك من راكب وراجل من أهل العيث والفساد قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة ان له خيلا ورجلا

من الجن والانس فما كان من راكب يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من خيل ابليس وما كان من راجل يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من رجل ابليس والخيل الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ياخيل الله اركبي والرجل اسم جمع للراجل كالصحب والركب وقرىء بكسر الجيم وهى قراءة حفص على أنه فعل بمعنى فاعل كتعب وتاعب وبضمة مثل حدث وحدث وندس وندس ونظائرهما أى جمعك الراجل ليطابق الخيل وقرىء رجالك ورجالك ويجوز أن يكون استفزازه بصوته واجلابه بخيله ورجله تمثيلا لتسلطه على من يغويه فكأنه مغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتا يزعجهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم (وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَٰلِ) بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام والتصرف فيها على مالا ينبغى (وَالْأَوْلَٰدِ) بالحث على التوصل اليهم بالاسباب المحرمة والاشراك كتسميتهم بعبد العزى والتضليل بالحمل على الاديان الزائغة والحرف الذميمة والافعال القبيحة (وَعِدْهُمْ) المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة بتطويل الأمل (وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا) اعتراض لبيان شأن مواعيده والالتفات إلى الغيبة لتقوية معنى الاعتراض مع مافيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان شأنه للناس ومن الاشعار بعلية شيطنته للغرور وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب (إِنَّ عِبَادِى) الاضافة للتشريف وهم المخلصون وفيه أن من تبعه ليس منهم وأن الاضافة لثبوت الحكم فى قوله تعالى (لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ) أى تسلط وقدرة على اغوائهم كقوله تعالى إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا) لهم يتوكلون عليه ويستمدون به فى الخلاص عن اغوائك والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلى مع الاضافة الى ضمير ابليس للاشعار بكيفية كفايته تعالى لهم أعنى سلب قدرته على اغوائهم (رَّبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ) مبتدأ وخبر والازجاء السوق حالا بعد حال أى هو القادر الحكيم الذى يسوق لمنافعكم الفلك ويجريها فى البحر (لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ) من رزقه الذى هو فضل من قبله أو من الربح الذى هو معطيه ومن مزيدة أو تبعيضية وهذا تذكير لبعض النعم التى هى دلائل التوحيد وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضر تكملة لما مر من قوله تعالى فلا يملكون الآية (إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ) أزلا وأبدا (رَحِيمًا) حيث هيأ لكم ما تحتاجون اليه وسهل عليكم مايعسر من مباديه وهذا تذييل فيه تعليل لما سبق من الازجاء لابتغاء الفضل وصيغة الرحيم للدلالة على أن المراد بالرحمة الرحمة الدنيوية والنعمة العاجلة المنقسمة إلى الجليلة والحقيرة (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ) خوف الغرق فيه (ضَلَّ مَن تَدْعُونَ) أى ذهب عن خواطركم ما كنتم تدعون من دون الله من الملائكة أو المسيح أو غيرهم (إِلَّا إِيَّاهُ) وحده من غير أن يخطر ببالكم أحد منهم وتدعوه لكشفه استقلالا أو اشتراكا أو ضل كل من تدعونه من اغاثتكم وانقاذكم ولم يقدر على ذلك إلا الله على الاستثناء المنقطع (فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ) من الغرق وأوصلكم (إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ) عن التوحيد أو اتسعتم فى كفران النعمة (وَكَانَ الْإِنسَٰنُ كَفُورًا) تعليل لما سبق من الاعراض (أَفَأَمِنتُمْ) الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم (أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ) الذى هو مأمنكم أى يقلبه ملتبسا بكم أو بسبب كونكم فيه وفى زيادة الجانب تنبيه على تساوى الجوانب والجهات بالنسبة إلى قدرته سبحانه وتعالى وقهره وسلطانه وقرىء بنون العظمة (أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ) من فوقكم وقرىء بالنون (حَاصِبًا) ريحا ترمى بالحصباء (ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا) يحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم فانه لا راد لأمره الغالب (أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ) فى البحر وأوثرت كلمة فى على كلمة إلى المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه (تَارَةً أُخْرَىٰ) إسناد الإعادة إليه تعالى مع أن العود إليه

باختيارهم باعتبار خلق الدواعى الملجئة لهم إلى ذلك وفيه إيماء إلى كمال شدة هول مالاقوه فى التارة الأولى بحيث لولا الإعادة لماعادوا (فيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ) وأنتم فى البحر وقرىء بالنون (قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ) وهى التى لاتمر بشىء إلا كسرته وجعلته كالرميم أوالتى لها قصيف وهو الصوت الشديد كأنها تتقصف أى تتكسر (فَيُغْرِقَكُمْ) بعد كسر فلككم كما ينبىء عنه عنوان القصف وقرىء بالنون وبالتاء على الاسناد إلى ضمير الريح (بِمَا كَفَرْتُمْ) بسبب اشراككم أو كفرانكم لنعمة الانجاء (ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) أى ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا مناو دركا للثار من جهتنا كقوله سبحانه ولايخاف عقباها (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ) قاطبة تكريما شاملا لبرهم وفاجرهم أى كرمناهم بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على مافى الأرض والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لايكاد يحيط به نطاق العبارة ومن جملته ماذكره ابن عباس رضى الله عنهما من أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الانسان فانه يرفعه اليه بيده وماقيل من شركة القرد له فى ذلك مبنى على عدم الفرق بين اليد والرجل فانه متناول له برجله التى يطأ بها القاذورات لا بيده (وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) على الدواب والسفن من حملته إذا جعلت له مايركبه وليس من المخلوقات شىء كذلك وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم الأرض ولم نغرقهم بالماء وأنت خبير بأن الأول هو الأنسب بالتكريم إذ جميع الحيوانات كذلك (وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) أى فنون النعم وضروب المستلذات مما يحصل بصنعهم وبغير صنعهم (وَفَضَّلْنَاهُمْ) فى العلوم والادراكات بماركبنا فيهم من القوى المدركة التى بها يتميز الحق من الباطل والحسن من القبيح (عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا) وهم من عدا الملائكة عليهم الصلاة والسلام (تَفْضِيلاً) عظيما فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولايكفروها ويستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقة ويرفضوا ماهم عليه من الشرك الذى لايقبله أحد ممن له أدنى تميز فضلا عمن فضل على من عدا الملأ الأعلى الذين هم العقول المحضة وإنما استثنى جنس الملائكة من هذا التفضيل لأن علومهم دائمة عارية عن الخطأ والخلل وليس فيه دلالة على أفضليتهم بالمعنى المتنازع فيه فان المراد هنا بيان التفضيل فى أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها ولايمكن أن يكون ذلك هو الفضل فى عظم الدرجة وزيادة القربة عند الله سبحانه . ان قيل أى حاجة إلى تعيين مافيه التفضيل بعد بيان ماهو المراد بالمفضلين فان استثناء الملائكة عليهم الصلاة والسلام من تفضيل جميع أفراد البشر عليهم لايستلزم استثناءهم من تفضيل بعض أفراده عليهم قلنا لابد من تعيينه البتة إذ ليس من الأفراد الفاجرة للبشر أحد يفضل على أحد من المخلوقات فيما هو المتنازع فيه أصلا بل هم أدنى من كل دنىء حسبما ينبىء عنه قوله تعالى أولئك كالأنعام بل هم أضل وقوله تعالى إن شر الدواب عند الله الذين كفروا (يَوْمَ نَدْعُوا) نصب على المفعولية باضمار اذكر أو ظرف لمادل عليه قوله تعالى ولايظلمون وقرىء بالياء على البناء للفاعل وللمفعول ويدعو بقلب الألف واوا على لغة من يقول فى أفعى أفعو وقد جوز كون الواو علامة الجمع كما فى قوله تعالى وأسروا النجوى أوضميره وكل بدلا منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فانها ليست إلا علامة الرفع وقد يكتفى بتقديره كما فى يدعى (كُلَّ أُنَاسٍ) من بنى آدم الذين فعلنا بهم فى الدنيا مافعلنا من التكريم والتفضيل وهذا شروع فى بيان تفاوت أحوالهم فى الآخرة بحسب أحوالهم وأعمالهم فى الدنيا (بِإِمَامِهِمْ) أى بمن ائتموا به من نبى أومقدم فى الدين أو كتاب أودين وقيل بكتاب أعمالهم التى قدموها فيقال ياأصحاب كتاب الخير ياأصحاب كتاب الشر أو ياأهل دين كذا ياأهل كتاب كذا وقيل الإمام جمع أم كخف وخفاف والحكمة فى دعوتهم بأمهاتهم اجلال عيسى عليه السلام وتشريف الحسنين رضى الله عنهما والستر على أولاد الزنا (فَمَنْ أُوتِىَ) يومئذ من أولئك المدعوين (كِتَابَهُ) صحيفة أعماله (بِيَمِينِهِ) إبانة لخطر الكتاب المؤتى وتشريفا لصاحبه وتبشيرا له من أول الأمر بما فى مطاويه (فَأُولَئِكَ) إشارة إلى من باعتبار معناه

إيذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل أو إشعارا بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما فى حال الايتاء وما فيه من الدلالة على البعد للاشعار برفعة درجاتهم أى أولئك المختصون بتلك الكرامة التى يشعر بها الايتاء المزبور (يقرءُونَ كتبهُمْ) الذى أوتوه على الوجه المبين تبجحا بما سطر فيه من الحسنات المستتبعة لفنون الكرامات (ولا يُظلمونَ) أى لا ينقصون من أجور أعمالهم المرتسمة فى كتبهم بل يؤتونها مضاعفة (فتيلاً) أى قدر فتيل وهو القشرة التى فى شق النواة أو أدنى شىء فان الفتيل مثل فى القلة والحقارة (ومَن كانَ) من المدعوين المذكورين (فى هذهِ) الدنيا التى فعل بهم فيها ما فعل من فنون التكريم والتفضيل (أعمى) فاقد البصيرة لا يهتدى إلى رشده ولا يعرف ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها ولا يستعمل ما أودعناه فيه من العقول والقوى فيما خلقن له من العلوم والمعارف الحقة (فهوَ فى الآخرةِ) التى عبر عنها بيوم ندعو (أعمى) كذلك أى لا يهتدى إلى ما ينجيه ولا يظفر بما يجديه لأن العمى الأول موجب للثانى وقد جوز كون الثانى بمعنى التفضيل على أن عماه فى الآخرة أشد من عماه فى الدنيا ولذلك قرأ أبو عمرو الأول ممالا والثانى مفخما (وأضلُّ سبيلاً) أى من الأعمى لزوال الاستعداد الممكن وتعطل الآلات بالكلية وهذا بعينه هو الذى أوتى كتابه بشماله بدلالة حال ما سبق من الفريق المقابل له ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان مع أنه الذى يستدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع فى سورة الحاقة وسورة الانشقاق للايذان بالعلة الموجبة له كما فى قوله تعالى وأما إن كان من المكذبين الضالين بعد قوله تعالى فأما إن كان من أصحاب اليمين وللرمز الى علة حال الفريق الأول وقد ذكر فى أحد الجانبين المسبب وفى الآخر السبب ودل بالمذكور فى كل منهما على المتروك فى الآخر تعويلا على شهادة العقل كما فى قوله عز وعلا وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله (وإنْ كادُوا ليَفتنونَكَ) نزلت فى ثقيف اذقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم لا ندخل فى أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب لا نعشر ولا نحشر ولا نجبى فى صلاتنا وكل ربا لنا فهو لنا وكل ربا علينا فهو موضوع عنا وأن تمتعنا باللات سنة وأن تحرم وادينا وج كما حرمت مكة فاذا قالت العرب لم فعلت فقل ان الله أمرنى بذلك وقيل فى قريش حيث قالوا اجعل لنا آية عذاب آية رحمة وآية رحمة آية عذاب أو قالوا لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا فان مخففة من المشددة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام هى الفارقة بينها وبين النافية أى ان الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فاتنين (عنِ الذى أوحينا إليكَ) من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفترىَ علينا غيرَهُ) لتتقول علينا غير الذى أوحينا اليك مما اقترحته ثقيف أو قريش حسبما نقل (وإذاً لاتخذوكَ خليلاً) أى لو اتبعت أهواءهم لكنت لهم وليا ولخرجت من ولايتى (ولولا أنْ ثبتناكَ) على ما أنت عليه من الحق بعصمتنا لك (لقدْ كدتَ تركنُ إليهمْ شيئاً قليلاً) من الركون الذى هو أدنى ميل أى لولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل اليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير لقوة خدعهم وشدة احتيالهم لكن أدركتك العصمة فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون اليهم فضلا عن نفس الركون وهذا صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام ما هم باجابتهم مع قوة الداعى اليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته (إذاً) لو قاربت أن تركن اليهم أدنى ركنة (لأذقناكَ ضعفَ الحيوةِ وضعفَ المماتِ) أى عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف ما يعذب به فى الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لأن خطأ الخطير خطير وكان أصل الكلام عذابا ضعفا فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات بمعنى مضاعفا ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت اضافة موصوفها وقيل الضعف من أسماء العذاب وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وبضعف الممات عذاب القبر (ثمَّ لا تجدُ لكَ علينا نصيراً) يدفع عنك العذاب (وإنْ كادُوا)

الكلام فيه كما فى الأول أى كاد أهل مكة (لَيَسْتَفِزُّونَكَ) أى ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم (مِنَ الأَرْضِ) أى الأرض التى أنت فيها وهى أرض مكة (لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ) بالرفع عطفا على خبر كاد وقرىء لا يلبثوا بالنصب باعمال اذن على أن الجملة معطوفة على جملة وإن كادوا ليستفزونك (خِلَافَكَ) أى بعدك قال :

خلت الديار خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا

أى ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك وقرىء خلفك (إِلَّا قَلِيلاً) إلا زمانا قليلا وقد كان كذلك فانهم أهلكوا ببدر بعد هجرته عليه الصلاة والسلام وقيل نزلت الآية فى اليهود حيث حسدوا مقام النبى عليه الصلاة والسلام بالمدينة فقالوا الشام مقام الأنبياء عليهم السلام فان كنت نبيا فالحق بها حتى نؤمن بك فوقع ذلك فى قلبه عليه الصلاة والسلام فخرج مرحلة فنزلت فرجع ثم قتل منهم بنو قريظة وأجلى بنو النضير بقليل (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا) نصب على المصدرية أى سن الله تعالى سنة وهى أن يهلك كل أمة أخرجت رسولهم من بين أظهرهم فالسنة لله تعالى وإضافتها إلى الرسل لأنها سنت لأجلهم على ما ينطق به قوله عز وجل (وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً) أى تغيرا (أَقِمِ الصَّلٰوةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) لزوالها كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام أتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر واشتقاقه من الدلك لأن من نظر اليها حينئذ يدلك عينه وقيل لغروبها من دلكت الشمس أى غربت وقيل أصل الدلوك الميل فينتظم كلا المعنيين واللام للتأقيت مثلها فى قولك لثلاث خلون (إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) إلى اجتماع ظلمته وهو وقت صلاة العشاء وليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار بل إقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلوات من غير فصل بينها لما أن الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض بخلاف أول وقت العشاء والفجر فانه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدهما عن الآخر ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات وقيل المراد بالصلاة صلاة المغرب والتحديد المذكور بيان لمبدئه ومنتهاه واستدل به على امتداد وقته إلى غروب الشفق وقوله تعالى (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ) أى صلاة الفجر نصب عطفا على مفعول أقم أو على الاغراء قاله الزجاج وإنما سميت قرآنا لأنه ركنها كما تسمى ركوعا وسجودا واستدل به على الركنية ولكن لادلالة له على ذلك لجواز كون مدار التجوز كون القراءة مندوبة فيها نعم لو فسر بالقراءة فى صلاة الفجر لدل الأمر باقامتها على الوجوب فيها نصا وفيما عداها دلالة ويجوز أن يكون وقرآن الفجر حثا على تطويل القراءة فى صلاة الفجر (إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ) أظهر فى مقام الاضمار ابانة لمزيد الاهتمام به (كَانَ مَشْهُوداً) يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار أو شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذى هو أخو الموت أو يشهده كثير من المصلين أو من حقه أن يشهده الجم الغفير فالآية على تفسير الدلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس وعلى تفسيره بالغروب لما عدا الظهر والعصر (وَمِنَ اللَّيْلِ) قيل هو نصب على الاغراء أى الزم بعض الليل وقيل لا يكون المغرى به حرفا ولا يجدى نفعا كون معناه التبعيض فان واومع ليست اسما بالاجماع وإن كانت بمعنى الاسم الصريح بل هو منصوب على الظرفية بمضمر أى قم بعض الليل (فَتَهَجَّدْ بِهِ) أى أزل وألق الهجود أى النوم فان صيغة التفعل تجىء للازالة كالتحرج والتحنث والتأثم ونظائرها والضمير المجرور للقرآن من حيث هو لا بقيد إضافته إلى الفجر أو للبعض المفهوم من قوله تعالى ومن الليل أى تهجد فى ذلك البعض على أن الباء بمعنى فى وقيل منصوب بتهجد أى تهجد بالقرآن بعض الليل على طريقة وإياى فارهبون (نَافِلَةً لَكَ) فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصة بك دون الأمة ولعله هو الوجه فى تأخير

ذكرها عن ذكر صلاة الفجر مع تقدم وقتها على وقتها أو تطوعا لكن لا لكونها زيادة على الفرائض بل لكونها زيادة
له صلى الله عليه وسلم فى الدرجات على ما قال مجاهد والسدى فانه عليه السلام مغفور له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر فيكون
تطوعه زيادة فى درجاته بخلاف من عداه من الأمة فان تطوعهم لتكفير ذنوبهم وتدارك الخلل الواقع فى فرائضهم
وانتصابها اما على المصدرية بتقدير تنفل أو بجعل تهجد بمعناه أو بجعل نافلة بمعنى تهجدا فان ذلك عبادة زائدة واما على
الحالية من الضمير الراجع إلى القرآن أى حال كونها صلاة نافلة وإما على المفعولية لتهجد إذا جعل بمعنى صل وجعل
الضمير المجرور للبعض أى فصل فى ذلك البعض نافلة لك (عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ) الذى يبلغك إلى كمالك اللائق
بك من بعد الموت الأكبر كما انبعثت من النوم الذى هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة (مَقَامًا) نصب على الظرفية
على اضمار فيقيمك أو تضمين البعث معنى الاقامة إذ لابد من أن يكون العامل فى مثل هذا الظرف فعلا فيه معنى
الاستقرار ويجوز أن يكون حالا بتقدير مضاف أى يبعثك ذا مقام (مَحْمُودًا) عندك وعند جميع الناس وفيه تهوين
لمشقة قيام الليل وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المقام المحمود هو المقام الذى
أشفع فيه لأمتى وعن ابن عباس رضى الله عنهما مقاما يحمدك فيه الأولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق
تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس أحد الا تحت لوائك وعن حذيفة رضى الله عنه يجمع الناس فى صعيد واحد فلا
تتكلم فيه نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك
بين يديك وبك واليك لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى)
أى القبر (مُدْخَلَ صِدْقٍ) أى ادخالا مرضيا (وَأَخْرِجْنِى) أى منه عند البعث (مُخْرَجَ صِدْقٍ) أى اخراجا
مرضيا ملقى بالكرامة فهو تلقين للدعاء بما وعده من البعث المقرون بالاقامة المعهودة التى لا كرامة فوقها وقيل المراد
ادخال المدينة والاخراج من مكة وتغيير ترتيب الوجود لكون الادخال هو المقصد وقيل إدخاله عليه السلام
مكة ظاهرا عليها وإخراجه منها آمنا من المشركين وقيل ادخاله الغار وإخراجه منه سالما وقيل إدخاله فيما حمله من اعباء
الرسالة وإخراجه منه مؤديا حقه وقيل إدخاله فى كل ما يلابسه من مكان أو أمر وإخراجه منه وقرىء مدخل ومخرج
بالفتح على معنى أدخلنى فأدخل دخولا وأخرجنى فأخرج خروجا كقوله :

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع ‏ ‏ من المال إلا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق (وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا) حجة تنصرنى على من يخالفنى أو ملكا وعزا ناصرا للاسلام
مظهرا له على الكفر فأجيبت دعوته عليه السلام بقوله عز وعلا والله يعصمك من الناس ألا ان حزب الله هم الغالبون
ليظهره على الدين كله ليستخلفنهم فى الأرض (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ) أى الاسلام والوحى الثابت الراسخ (وَزَهَقَ
الْبَاطِلُ) أى ذهب وهلك الشرك والكفر وتسويلات الشيطان من زهق روحه إذا خرج (إِنَّ الْبَاطِلَ) كائنا ما كان
(كَانَ زَهُوقًا) أى شأنه أن يكون مضمحلا غير ثابت وهو عدة كريمة بإجابة الدعاء بالسلطان النصير الذى لقنه . عن
ابن مسعود رضى الله عنه أنه عليه السلام دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل ينكت بمخصرة
كانت بيده فى عين واحد واحد ويقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب لوجهه حتى ألقى جميعها وبقى صنم خزاعة فوق
الكعبة وكان من صفر فقال يا على ارم به فصعد فرمى به فكسره (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ) وقرىء ننزل من الانزال
(مَا هُوَ شِفَاءٌ) لما فى الصدور من أدواء الريب وأسقام الاوهام (وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) به العاملين بما فى تضاعيفه أى
ما هو فى تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمرضى ومن بيانية قدمت على المبين اعتناء فان كل القرآن

كذلك عن النبى عليه السلام من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله أو تبعيضية لكن لا بمعنى أن بعضه ليس كذلك بل بمعنى انا ننزل منه فى كل نوبة ما تستدعى الحكمة نزوله حينئذ فيقع ذلك ممن نزل عليهم بسبب موافقته لأحوالهم الداعية إلى نزوله موقع الدواء الشافى المصادف لا بأنه من المرضى المحتاجين اليه بحسب الحال من غير تقديم ولا تأخير فكل بعض منه متصف بالشفاء لكن لا فى كل حين بل عند تنزيله وتحقيق التبعيض باعتبار الشفاء الجسمانى كما فى الفاتحة وآيات الشفاء لا يساعده قوله سبحانه (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) أى لا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الكافرين المكذبين به الواضعين للاشياء فى غير مواضعها مع كونه فى نفسه شفاء من الاسقام الا خسارا أى هلاكا بكفرهم وتكذيبهم لا نقصانا كما قيل فان ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبىء عن حصول بعض مبادى الاسقام فيهم وزيادتهم فى مراتب الهلاك من حيث أنهم كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجا ازدادوا بذلك هلاكا وفيه إيماء إلى أن ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعترية لهم فى أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الامراض وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك واسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن مع أنهم هم المزدادون فى ذلك بسوء صنعهم باعتبار كونه سببا لذلك وفيه تعجيب من أمره حيث يكون مدارا للشفاء والهلاك (وإذا أنعمنا على الإنسان) بالصحة والنعمة (أعرض) عن ذكرنا فضلا عن القيام بموجب الشكر (ونأى) تباعد عن طاعتنا (بجانبه) النأى بالجانب أن يلوى عن الشىء عطفه ويوليه عرض وجهه فهو تأكيد للاعراض أو عبارة عن الاستكبار لأنه من ديدن المستكبرين (وإذا مسه الشر) من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل وفى إسناد المساس إلى الشر بعد اسناد الانعام إلى ضمير الجلالة إيذان بأن الخير مراد بالذات والشر ليس كذلك (كان يؤسا) شديد اليأس من روحنا وهذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة ولا ينافيه قوله تعالى وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ونظائره فان ذلك شأن بعض آخرين منهم وقيل أريد به الوليد بن المغيرة وقرىء ناء إما على القلب كما يقال راء فى رأى واما على أنه بمعنى نهض (قل كل) أى كل أحد منكم وممن هو على خلافكم (يعمل) عمله (على شاكلته) طريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة أو جوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه (فربكم) الذى برأكم على هذه الطبائع المتخالفة (أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى أسد طريقا وأبين منهاجا وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين (ويسئلونك عن الروح) الظاهر أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدبر البدن الانسانى ومبدأ حياته روى أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عنها جميعا أو سكت فليس بنبى وان أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة (قل الروح) أظهر فى مقام الاضمار إظهارا لكمال الاعتناء بشأنه (من أمر ربى) كلمة من بيانية والأمر بمعنى الشأن والاضافة للاختصاص العلمى لا الايجادى لاشتراك الكل فيه وفيها من تشريف المضاف مالا يخفى كما فى الإضافة الثانية من تشريف المضاف اليه أى هو من جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه من الأسرار الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشر (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) لا يمكن تعلقه بأمثال ذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب قال عليه الصلاة والسلام بل نحن وأنتم فقالوا ما أعجب شأنك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام الآية وإنما قالوا ذلك لركاكة عقولهم فان الحكمة الانسانية أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية بل ما نيط به المعاش والمعاد وذلك بالاضافة إلى ما لا نهاية له من معلوماته سبحانه قليل ينال به خير كثير

فى نفسه أو بالنسبة إلى الانسان أو هو من الابداعيات الكائنة بمحض الأمر التكويني من غير تحصل من مادة و تولد من أصل كاعضاء الجسد حتى يمكن تعريفه ببعض مباديه ومآله أنه من عالم الأمر لا من عالم الخلق وليس هذا من قبيل قوله سبحانه انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فان ذلك عبارة عن سرعة التكوين سواء كان الكائن من عالم الامر أو من عالم الخلق وفيه تنبيه على أنه مما لا يحيط بكنهه دائرة ادراك البشر وإنما الممكن هذا القدر الاجمالي المندرج تحت ما استثنى بقوله تعالى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا أى إلا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحواس فان تعقل المعارف النظرية إنما هو من إحساس الجزئيات ولذلك قيل من فقد حسا فقد فقد علما ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس ولا شيء من أحواله التي يدور عليها معرفة ذاته وأما حمل ما ذكر على السؤال عن قدمه وحدوثه وجعل الجواب اخبارا بحدوثه أى كائن بتكوينه حادث باحداثه بالأمر التكويني فمع عدم ملاءمته لحال السائلين لا يساعده التعرض لبيان قلة علمهم فان ماسألوا عنه مما بقى به علمهم حينئذ وقد أخبر عنه وقيل المراد بالروح خلق عظيم روحانى أعظم من الملك وقيل جبريل عليه السلام وقيل القرآن ومعنى من أمر ربى من وحيه وكلامه لا من كلام البشر (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) من القرآن الذى هو شفاء ورحمة للمؤمنين ومنبع للعلوم التى أوتيتموها وثبتناك عليه حين كادوا يفتنونك عنه ولولاه لكدت تركن اليهم شيئا قليلا وانما عبر عنه بالموصول تفخيما لشأنه ووصفاله بما فى حيز الصلة ابتداء واعلاما بحاله من أول الأمر وبأنه ليس من قبيل كلام المخلوق واللام موطئة للقسم ولنذهبن جوابه النائب مناب جزاء الشرط وبذلك حسن حذف مفعول المشيئة والمراد من الذهاب به المحو من المصاحف والصدور وهو أبلغ من الاذهاب عن ابن مسعود رضى الله عنه أن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما تفقدون الصلاة وليصلين قوم ولا دين لهم وأن هذا القرآن تصبحون يوما وما فيكم منه شيء فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا وأثبتناه فى مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع ما فى القلوب (ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ) أى بالقرآن (عَلَيْنَا وَكِيلًا) من يتوكل علينا استرداده مسطورا محفوظا (إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) فانها إن نالتك لعلها تسترده عليك ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به فيكون امتنانا بابقائه بعد المنة بتنزيله وترغيبا فى المحافظة على أداء حقوقه وتحذيرا من أن لا يقدر قدره الجليل ويفرط فى القيام بشكره وهو أجل النعم وأعظمها (إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) كارسالك وانزال الكتاب عليك وابقائه فى حفظك وغير ذلك (قُلْ) للذين لا يعرفون جلالة قدر التنزيل ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل بل يزعمون أنه من كلام البشر (لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ) أى اتفقوا (عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ) المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة فى البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى وتخصيص الثقلين بالذكر لأن المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما لا لأن غيرهما قادر على المعارضة (لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ) أوثر الاظهار على إيراد الضمير الراجع إلى المثل المذكور احترازا عن أن يتوهم أن له مثلا معينا وايذانا بأن المراد نفى الاتيان بمثل ما أى لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة وفيهم العرب العاربة أرباب البراعة والبيان وهو جواب للقسم الذى ينبىء عنه اللام الموطئة وسادمسد جزاء الشرط ولولاها لكان جوابا له بغير جزم لكون الشرط ماضيا كما فى قول زهير :

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالى ولا حرم

وحيث كان المراد بالاجتماع على الاتيان بمثل القرآن مطلق الاتفاق على ذلك سواء كان التصدى للمعارضة من كل واحد منهم على الانفراد أو من المجموع بأن يتألبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحق الأفكار وتعاضد الأنظار قيل (وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ

لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) أى فى تحقيق ما يتوخونه من الاتيان بمثله وهو عطف على مقدر أى لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ولو كان الخ وقد حذف المعطوف عليه حذفا مطردا لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة فان الاتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر فلأن ينتفى عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى أن ولو الوصليتين من التأكيد كما مر غير مرة ومحله النصب على الحالية حسبما عطف عليه أى لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ولو فى هذه الحال المنافية لعدم الاتيان به فضلا عن غيرها وفيه حسم لأطماعهم الفارغة فى روم تبديل بعض آياته ببعض ولا مساغ لكون الآية تقريرا لما قبلها من قوله تعالى ثم لا تجد لك به علينا وكيلا كما قيل لكن لا لما قيل من أن الاتيان بمثله أصعب من استرداد عينه ونفى الشىء انما يقرره نفى ما دونه لا نفى ما فوقه فان أصعبية الاسترداد بغير أمره تعالى من الاتيان بمثله مما لا شبهة فيه بل لأن الجملة القسمية ليست مسوقة إلى النبى صلى الله عليه وسلم بل إلى المكابرين من قبله عليه السلام (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا) كررنا ورددنا على أنحاء مختلفة توجب زيادة تقرير وبيان ووكادة رسوخ واطمئنان (لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ) المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة (مِن كُلِّ مَثَلٍ) من كل معنى بديع هو فى الحسن والغرابة واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول (فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ) أوثر الإظهار على الإضمار تأكيدا وتوضيحا (إِلَّا كُفُورًا) أى إلا جحودا وانما صح الاستثناء من الموجب مع أنه لا يصح ضربت الا زيدا لأنه متأول بالنفى كأنه قيل ما قبل أكثرهم إلا كفورا وفيه من المبالغة ما ليس فى أبوا الايمان لأن فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور من الايمان والتوقف فى الأمر ونحو ذلك وأنهم بالغوا فى عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الاباء (وَقَالُوا) عند ظهور عجزهم ووضوح مغلوبيتهم بالإعجاز التنزيلى وغيره من المعجزات الباهرة متعللين بما لا يمكن فى العادة وجوده ولا تقتضى الحكمة وقوعه من الأمور كما هو ديدن المبهوت المحجوج (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ) وقرىء بالتشديد (لَنَا مِنَ الْأَرْضِ) أرض مكة (يَنبُوعًا) عينا لا ينضب ماؤها يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء إذا زخر (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ) أى بستان تستر أشجاره ما تحتها من العرصة (مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ) أى تجريها بقوة (خِلَالَهَا تَفْجِيرًا) كثيرا والمراد اما اجراء الأنهار خلالها عند سقيها أو إدامة اجرائها كما ينبىء عنه الفاء لا ابتداؤه (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا) جمع كسفة كقطعة وقطع لفظا ومعنى وقرىء بالسكون كسدرة وسدر وهى حال من السماء والكاف فى كما فى محل النصب على أنه صفة مصدر محذوف أى إسقاطا مماثلا لما زعمت يعنون بذلك قوله تعالى أو تسقط عليهم كسفا من السماء (أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا) أى مقابلا كالعشير والمعاشر أو كفيلا يشهد بصحة ما تدعيه وهو حال من الجلالة وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها أى والملائكة قبلاء كما حذف الخبر فى قوله فانى وقيار بها لغريب أو جماعة فيكون حالا من الملائكة (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ) من ذهب وقد قرىء به وأصله الزينة (أَوْ تَرْقَىٰ فِى السَّمَاءِ) أى فى معارجها فحذف المضاف يقال رقى فى السلم وفى الدرجة (وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ) أى لأجل رقيك فيها وحده أو لن نصدق رقيك فيها (حَتَّىٰ تُنَزِّلَ) منها (عَلَيْنَا كِتَٰبًا) فيه تصديقك (نَّقْرَؤُهُ) نحن من غير أن يتلقى من قبلك. عن ابن عباس رضى الله عنهما قال عبد الله بن أبى أمية لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول وما كانوا يقصدون بهاتيك الاقتراحات الباطلة إلا العناد واللجاج ولو أنهم أوتوا أضعاف ما اقترحوا من الآيات ما زادهم ذلك إلا مكابرة وإلا فقد كان يكفيهم بعض ما شاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال (قُلْ) تعجبا من شدة شكيمتهم وتنزيها لساحة السبحات عما لا يكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة التى تكاد السموات يتفطرن منها أو عن طلبك ذلك وتنبيها على بطلان

ماقالوه (سُبْحانَ رَبّى) وقرىء قال سبحان ربى (هَلْ كُنْتُ إلا بَشَرًا) لاملكا حتى يتصور منى الرقى فى السماء ونحوه (رَسُولاً) مأمورا من قبل ربى بتبليغ الرسالة من غير أن يكون لى خيرة فى الأمر كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات اليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله سبحانه بشىء منها وقوله بشرا خبر لكنت ورسولا صفته (وَما مَنَعَ النّاسَ) أى الذين حكيت أباطيلهم (أنْ يُؤْمِنوا) مفعول ثان لمنع وقوله (إذْ جاءَهُمُ الهُدَى) أى الوحى ظرف لمنع أو يؤمنوا أى ومامنعهم وقت مجىء الوحى المقرون بالمعجزات المستدعية للايمان أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك أو مامنعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجىء ماذكر (إلا أنْ قالُوا) فى محل الرفع على أنه فاعل منع أى الاقولهم (أبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً) منكرين أن يكون رسول الله تعالى من جنس البشر وليس المراد أن هذا القول صدر عن بعضهم فمنع بعضا آخر منهم بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم وإنما عبر عنه بالقول ايذانا بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق وحصر المانع من الإيمان فيما ذكر مع أن لهم موانع شتى لما أنه معظمها أو لأنه هو المانع بحسب الحال أعنى عند سماع الجواب بقوله تعالى هل كنت الا بشرا رسولا إذ هو الذى يتشبثون به حينئذ من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية وفيه ايذان بكمال عنادهم حيث يشير إلى أن الجواب المذكور مع كونه حاسما لمواد شبههم ملجئا إلى الإيمان يعكسون الأمر ويجعلونه مانعا منه (قلْ) لهم أولا من قبلنا تبيينا للحكمة وتحقيقا للحق المزيح للريب (لوْ كانَ) أى لو وجد واستقر (فى الأرْضِ) بدل البشر (مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنّينَ) قارين فيها من غير أن يعرجوا فى السماء ويعلموا مايجب أن يعلم (لنَزّلْنا عَلَيْهِم مِنَ السّماءِ مَلَكًا رسُولاً) يهديهم إلى الحق ويرشدهم إلى الخير لتمكنهم من الاجتماع والتلقى منه وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية فكيف لا وهى منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها مبنى التكوين والتشريع وإنما يبعث الملك من بينهم إلى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا إلى جانب وقوله تعالى ملكا يحتمل أن يكون حالا من رسولا وأن يكون موصوفا به وكذلك بشرا فى قوله تعالى أبعث الله بشرا رسولا والاول أولى (قلْ) لهم ثانيا من جهتك بعد ماقلت لهم من قبلنا ماقلت وبينت لهم ماتقتضيه الحكمة فى البعثة ولم يرفعوا اليه رأسا (كَفَى باللهِ) وحده (شَهِيدًا) على أنى أديت ماعلى من مواجب الرسالة أكمل أداء وأنكم فعلتم مافعلتم من التكذيب والعناد وتوجيه الشهادة إلى كونه عليه السلام رسولا باظهار المعجزة على وفق دعواه كما اختير لا يساعده قوله تعالى (بَيْنِى وبَيْنَكُمْ) ومابعده من التعليل وإنما لم يقل بيننا تحقيقا للمفارقة وابانة للمباينة وشهيدا اما حال أو تمييز (إنّهُ كانَ بِعِبادِهِ) من الرسل والمرسل اليهم (خَبِيرًا بَصِيرًا) محيطا بظواهر أحوالهم وبواطنها فيجازيهم على ذلك وهو تعليل للكفاية وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار (ومَنْ يَهْدِ اللهُ) كلام مبتدأ يفصل ماأشار اليه الكلام السابق من مجازاة العباد إشارة اجمالية أى من يهده الله إلى الحق بما جاء من قبله من الهدى (فهُوَ المُهْتَدِ) اليه وإلى مايؤدى اليه من الثواب او المهتد إلى كل مطلوب (ومَنْ يُضْلِلْ) أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين (فلَنْ تَجِدَ لهُمْ) أوثر ضمير الجماعة اعتبارا لمعنى من غب ماأوثر فى مقابله الأفراد نظرا إلى لفظها تلويحا بوحدة طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال وكثرة الضلال (أوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ) من دون الله تعالى أى أنصارا يهدونهم إلى طريق الحق أو إلى طريق يوصلهم إلى مطالبهم الدنيوية والأخروية أو إلى طريق النجاة من العذاب الذى يستدعيه ضلالهم على

معنى لن تجد لأحد منهم وليا على ما تقتضيه قضية مقابلة الجمع بالجمع من انقسام الآحاد إلى الآحاد (ونحشرهم) التفات من الغيبة إلى التكلم إيذانا بكمال الاعتناء بأمر الحشر (يوم القيمة على وجوههم) حال من الضمير المنصوب أى كائنين عليها سحبا كقوله تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم أو مشيا فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (عميا) حال من الضمير المجرور فى الحال السابقة (وبكما وصما) لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا ينطقون ما يقبل منهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم لما قد كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ولا ينطقون بالحق ولا يستمعونه ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار موفى القوى والحواس وأن يحشروا كذلك ثم يعاد اليهم قواهم وحواسهم فان ادراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه (مأوىهم جهنم) اما حال واستئناف وكذا قوله تعالى (كلما خبت زدنهم سعيرا) أى كلما سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار وتحرقه زدناهم توقدا بأن بدلناهم جلودا غيرها فعادت ملتهبة ومستعرة ولعل ذلك عقوبة لهم على انكارهم الاعادة بعد الفناء بتكريرها مرة بعد أخرى ليروها عيانا حيث لم يعلموها برهانا كما يفصح عنه قوله تعالى (ذلك) أى ذلك العذاب (جزاؤهم بأنهم) أى بسبب أنهم (كفروا بآيتنا) العقلية والنقلية الدالة على صحة الاعادة دلالة واضحة فذلك مبتدأ وجزاؤهم خبره ويجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وبأنهم خبره والجملة خبرا لذلك وأن يكون جزاؤهم بدلا من ذلك أو بيانا له والخبر هو الظرف (وقالوا) منكرين أشد الانكار (أءذا كنا عظما ورفتا أءنا لمبعوثون خلقا جديدا) اما مصدر مؤكد من غير لفظه أى لمبعوثون بعثا جديدا واما حال أى مخلوقين مستأنفين (أولم يروا) أى ألم يتفكروا ولم يعلموا (أن الله الذى خلق السموت والأرض) من غير مادة مع عظمهما (قادر على أن يخلق مثلهم) فى الصغر على أن المثل مقحم والمراد بالخلق الاعادة كما عبر عنها بذلك حيث قيل خلقا جديدا (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) عطف أولم يروا فانه فى قوة قد رأوا والمعنى قد علموا أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الانس وجعل لهم ولبعثهم أجلا محققا لا ريب فيه هو يوم القيامة (فأبى الظلمون) وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد بالمرة (إلا كفورا) أى جحودا (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى) خزائن رزقه التى أفاضها على كافة الموجودات وأنتم مرتفع بفعل يفسره المذكور كقول حاتم لو ذات سوار لطمتنى وفائدة ذلك المبالغة والدلالة على الاختصاص (إذا لأمسكتم) لبخلتم (خشية الإنفاق) مخافة النفاد بالانفاق إذ ليس فى الدنيا أحد إلا وهو يختار النفع لنفسه ولو آثر غيره بشىء فانما يؤثره لعوض يفوقه فاذن هو بخيل بالاضافة إلى جود الله سبحانه (وكان الإنسن قتورا) مبالغا فى البخل لان مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج اليه وملاحظة العوض بما يبذله (ولقد ءاتينا موسى تسع ءايت بينت) واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان والسنون ونقص الثمرات وقيل انفجار الماء من الحجر ونتق الطور على بنى اسرائيل وانفلاق البحر بدل الثلاث الأخيرة ويأباه أن هذه الثلاث لم تكن منزلة إذ ذاك وأن الأولين لا تعلق لهما بفرعون وإنما أوتيهما بنو إسرائيل وعن صفوان بن عسال أن يهوديا سأل النبى عليه الصلاة والسلام عنها فقال أن لا تشركوا به شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا فى السبت فقبل اليهودى يده ورجله عليه السلام ولا يساعده أيضا ما ذكر ولعل جوابه عليه السلام بذلك لما أنه المهم للسائل وقبوله لما أنه كان

فى التوراة مسطورا وقد علم أنه ماعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من جهة الوحى (فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ) وقرىء فسل أى فقلنا له سلهم من فرعون وقل له أرسل معى بنى اسرائيل أو سلهم عن إيمانهم أو عن حال دينهم أو سلهم أن يعاضدوك ويؤيده قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صيغة الماضى وقيل الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام أى فاسألهم عن تلك الآيات لتزداد يقينا وطمأنينة أو ليظهر صدقك (إِذْ جَاءَهُمْ) متعلق بقلنا أو بسأل على القراءة المذكورة وبآتينا أو بمضمر هو يخبروك أو اذكر على تقدير كون الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام (فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ) الفاء فصيحة أى فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون (إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا) سحرت فتخبط عقلك (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ) يعنى الآيات التى أظهرها (إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ) خالقهما ومدبرهما والتعرض لربوبيته تعالى لهما للايذان بأنه لا يقدر على ايتاء مثل هاتيك الآيات العظام إلا خالقهما ومدبرهما (بَصَائِرَ) حال من الآيات أى بينات مكشوفات تبصرك صدقى ولكنك تعاند وتكابر نحو وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ومن ضرورة ذلك العلم العلم بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال رصانة العقل فضلا عن توهم المسحورية وقرىء علمت على صيغة التكلم أى لقد علمت بيقين أن هذه الآيات الباهرة أنزلها الله عز سلطانه فكيف يتوهم أن يحوم حولى سحر (وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر من قولهم ماثبرك عن هذا أى ماصرفك أو هالكا ولقد قارع عليه السلام ظنه بظنه وشتان بينهما كيف لا وظن فرعون افك مبين وظنه عليه الصلاة والسلام يتاخم اليقين (فَأَرَادَ) أى فرعون (أَن يَسْتَفِزَّهُم) أى يستخفهم ويزعجهم (مِّنَ الْأَرْضِ) أرض مصر أو من الأرض مطلقا بالقتل كقوله سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم (فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا) فعكسنا عليه مكره واستفززناه وقومه بالاغراق (وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ) من بعد اغراقهم (لِبَنِي إِسْرَٰءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ) التى أراد أن يستفزكم منها (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) الكرة الآخرة أو الحياة أو الساعة والدار الآخرة أى قيام القيامة (جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا) مختلطين إياكم وإياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) أى وما أنزلنا القرآن إلا ملتبسا بالحق المقتضى لإنزاله وما نزل إلا ملتبسا بالحق الذى اشتمل عليه أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظا وما نزل على الرسول إلا محفوظا من تخليط الشياطين ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره (وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا) للمطيع بالثواب (وَنَذِيرًا) للعاصى من العقاب وهو تحقيق لحقية بعثته عليه الصلاة والسلام إثر تحقيق حقية انزال القرآن (وَقُرْءَانًا) منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (فَرَقْنَٰهُ) وقرىء بالتشديد دلالة على كثرة نجومه (لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ) على مهل وتثبت فانه أيسر للحفظ وأعون على الفهم وقرىء بالفتح وهو لغة فيه (وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا) حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ويقع من الحوادث والواقعات (قُلْ) الذين كفروا (ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا) فان إيمانكم به لا يزيده كمالا وامتناعكم لا يورثه نقصا (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ) أى العلماء الذين قرؤا الكتب السالفة من قبل تنزيله وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة وتمكنوا من التميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل ورأوا فيها نعتك ونعت ما أنزل إليك (إِذَا يُتْلَىٰ) أى القرآن (عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ) أى يسقطون على وجوههم (سُجَّدًا) تعظيما لأمر الله تعالى أو شكر الانجاز ماوعد به فى تلك الكتب من بعثتك وتخصيص الأذقان بالذكر للدلالة على كمال التذلل إذ حينئذ يتحقق الخرور عليها وإيثار اللام للدلالة على اختصاص الخرور بها كما فى قوله فخر صريعا لليدين وللفم وهو تعليل لما يفهم من قوله تعالى آمنوا به أو لا تؤمنوا من عدم المبالاة بذلك أى ان لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن إيمان من هو

خير منكم ويجوز أن يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل تسل بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكترث بإيمانهم وإعراضهم (وَيَقُولُونَ) فى سجودهم (سُبْحَانَ رَبِّنَا) عما يفعل الكفرة من التكذيب أو عن خلف وعده (إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً) ان مخففة من المثقلة واللام فارقة أى ان الشأن هذا (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ) كرر الخرور للأذقان لاختلاف السبب فان الأول لتعظيم أمر الله تعالى أو الشكر لانجاز الوعد والثانى لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله (وَيَزِيدُهُمْ) أى القرآن بسماعهم (خُشُوعاً) كما يزيدهم علما ويقينا بالله تعالى (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) نزل حين سمع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا ألله يا رحمن فقالوا إنه ينهانا عن عبادة إلهين وهو يدعو إلها آخر وقالت اليهود إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثره الله تعالى فى التوراة والمراد على الأول هو التسوية بين اللفظين بأنهما عبارتان عن ذات واحدة وان اختلف الاعتبار والتوحيد إنما هو للذات الذى هو المعبود وعلى الثانى انهما سيان فى حسن الاطلاق والافضاء إلى المقصود وهو أوفق لقوله تعالى (أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) والدعاء بمعنى التسمية وهو يتعدى إلى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه أو للتخيير والتنوين فى أيا عوض عن المضاف اليه وما مزيدة لتأكيد ما فى أى من الابهام والضمير فى له للمسمى لأن التسمية له لا للاسم وكان أصل الكلام أيا ما تدعو فهو حسن فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه إذ حسن جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين وكونها حسنى لدلالتها على صفات الكمال من الجلال والجمال والاكرام (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ) أى بقراءة صلاتك بحيث تسمع المشركين فان ذلك يحملهم على السب واللغو فيها (وَلَا تُخَافِتْ بِهَا) أى بقراءتها بحيث لا تسمع من خلفك من المؤمنين (وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ) أى بين الجهر والمخافتة على الوجه المذكور (سَبِيلاً) أمرا وسطا قصدا فان خير الأمور أوساطها والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه اليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم إلى المطلوب وروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان يخفت ويقول أناجى ربى وقد علم حاجتى وعمر رضى الله عنه كان يجهر بها ويقول أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان فلما نزلت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع قليلا وعمر أن يخفض قليلا وقيل المعنى لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلا بالمخافتة نهارا والجهر ليلا وقيل بصلاتك بدعائك وذهب قوم إلى أنها منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً) كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) أى الألوهية كما يقوله الثنوية القائلون بتعدد الآلهة (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ) ناصر ومانع منه لاعتزازه به أو لم يوال أحدا من أجل مذلة ليدفعها به وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من هذه نعوته دون غيره إذ بذلك يتم الكمال والقدرة التامة على الايجاد وما يتفرع عليه من افاضة أنواع النعم وما عداه ناقص مملوك نعمة أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ فى التنزيه والتمجيد واجتهد فى الطاعة والتحميد ينبغى أن يعترف بالقصور فى ذلك . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية الكريمة . وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة بنى اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار فى الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية والحمد لله سبحانه وله الكبرياء والعظمة والجبروت

سورة الكهف

(مكية وقيل إلا قوله تعالى واصبر نفسك الآية . وهى مائة وإحدى عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله الذى أنزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (الكتاب) أى الكتاب الكامل الغنى عن الوصف بالكمال المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به وهو عبارة عن جميع القرآن أو عن جميع المنزل حينئذ كما مر مرارا وفى وصفه تعالى بالموصول إشعار بعلية ما فى حيز الصلة لاستحقاق الحمد وإيذان بعظم شأن التنزيل الجليل كيف لا وعليه يدور فلك سعادة الدارين وفى التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد مضافا إلى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه عليه الصلاة والسلام إلى أعلى معارج العبادة وتشريف له أى تشريف وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبدا للمرسل لا كما زعمت النصارى فى حق عيسى عليه السلام وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع أن حقه التقديم عليه ليتصل به قوله تعالى (ولم يجعل له عوجا) أى شيئا من العوج بنوع اختلال فى النظم وتناف فى المعنى أو انحراف عن الدعوة إلى الحق وهو فى المعانى كالعوج فى الأعيان وأما قوله تعالى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا مع كون الجبال من الأعيان فللدلالة على انتفاء ما لا يدرك من العوج بحاسة البصر بل إنما يوقف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسية ولما كان ذلك مما لا يشعر به بالمشاعر الظاهرة عد من قبيل ما فى المعانى وقيل الفتح فى اعوجاج المنتصب كالعود والحائط والكسر فى اعوجاج غيره عينا كان أو معنى (قيما) بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد على ما ينبىء عنه ما بعده من الانذار والتبشير فيكون وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال أو على ما قبله من الكتب السماوية شاهدا بصحتها ومهيمنا عليها أو متناهيا فى الاستقامة فيكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج مع إفادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له حسبما تنبىء عنه الصيغة لا أنه نفى عنه العوج مع كونه من شأنه وانتصابه على تقدير كون الجملة المتقدمة معطوفة على الصلة بمضمر ينبىء عنه نفى العوج تقديره جعله قيما وأما على تقدير كونها حالية فهو على الحالية من الكتاب إذ لا فصل حينئذ بين أبعاض المعطوف عليه بالمعطوف وقرىء قيما (لينذر) متعلق بأنزل والفاعل ضمير الجلالة كما فى الفعلين المعطوفين عليه والاطلاق عن ذكر المفعول الأول للايذان بأن ما سيق له الكلام هو المفعول الثانى وأن الأول ظاهر لا حاجة إلى ذكره أى أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا به (بأسا) أى عذابا (شديدا من لدنه) أى صادرا من عنده نازلا من قبله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم وقرىء من لدنه بسكون الدال مع اشمام الضمة وكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للاتباع (ويبشر) بالتشديد وقرىء بالتخفيف (المؤمنين) أى المصدقين به (الذين يعملون الصالحات) الأعمال الصالحة التى بينت فى تضاعيفه وإيثار صيغة الاستقبال فى الصلة للاشعار بتجدد الأعمال الصالحة واستمرارها وإجراء الموصول على موصوفه المذكور لما أن مدار قبول الأعمال هو الإيمان (أن لهم) أى بأن لهم بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة (أجرا حسنا) هو الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى (ماكثين) حال من الضمير المجرور فى لهم (فيه) أى فى ذلك الأجر (أبدا) من غير انتهاء أى خالدين فيه وهو نصب على الظرفية لماكثين وتقديم الانذار على التبشير لاظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية وتكرير الانذار بقوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) متعلقا بفرقة خاصة ممن عمه الانذار السابق من مستحق البأس الشديد للايذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم أى وينذر من بين سائر الكفرة هؤلاء

المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم كفار العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزير ابن الله والنصارى القائلون المسيح ابن الله وترك اجراء الموصول على الموصوف كما فعل فى قوله تعالى ويبشر المؤمنين للايذان بكفاية ما فى حيز الصلة فى الكفر على أقبح الوجوه وإيثار صيغة الماضى فى الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق وجعل المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة يؤدى إلى خروج سائر أصناف الكفرة عن الانذار والوعيد وتعميم الانذار هناك للمؤمنين أيضا بحمله على معنى مجرد الاخبار بالخبر الضار من غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما فى قوله تعالى أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا يفضى إلى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول البأس الشديد على من عدا هذه الفرقة ويجوز أن يكون الفاعل فى الأفعال الثلاثة ضمير الكتاب أو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام ‹ مَالَهُمْ بِهِ › أى باتخاذه سبحانه وتعالى ولدا ‹ مِنْ عِلْمٍ › مرفوع على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد الظرف ومن مزيدة لتأكيد النفى والجملة حالية أو مستأنفة لبيان حالهم فى مقالهم أى مالهم بذلك شىء من علم أصلا لا لاخلالهم بطريقه مع تحقق المعلوم أو امكانه بل لاستحالته فى نفسه ‹ وَلَا لِآبَائِهِمْ › الذين قلدوهم فتاهوا جميعا فى تيه الجهالة والضلالة أو مالهم علم بما قالوه أهو صواب أم خطأ بل إنما قالوه رميا عن عمى وجهالة من غير فكر وروية كما فى قوله تعالى وخرقوا له بنين وبنات بغير علم أو بحقيقة ما قالوه وبعظم رتبته فى الشناعة كما فى قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه الآيات وهو الأنسب بقوله تعالى ‹ كَبُرَتْ كَلِمَةً › أى عظمت مقالتهم هذه فى الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه إلى مالا يكاد يليق بجناب كبريائه والفاعل فى كبرت إما ضمير المقالة المدلول عليها بقالوا وكلمة نصب على التمييز أو ضمير مبهم مفسر بما بعده من النكرة المنصوبة تمييزا كبئس رجلا والمخصوص بالذم محذوف تقديره كبرت هى كلمة خارجة من أفواههم وقرىء كبرت باسكان الباء مع اشمام الضم وقرىء كلمة بالرفع ‹ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ › صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوه بها واسناد الخروج اليها مع أن الخارج هو الهواء المتكيف بكيفية الصوت لملابسته بها ‹ إِنْ يَقُولُونَ › ما يقولون فى ذلك الشان ‹ إِلَّا كَذِبًا › أى إلا قولا كذبا لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلا والضمير إن لهم ولآبائهم مثل حاله عليه الصلاة والسلام فى شدة الوجد على إعراض القوم وتوليهم عن الإيمان بالقرآن وكمال التحسر عليهم بحال من يتوقع منه إهلاك نفسه اثر فوت ما يحبه عنده مفارقة أحبته تأسفا على مفارقتهم وتلهفا على مهاجرتهم فقيل على طريقة التمثيل حملا له عليه الصلاة والسلام على الحذر والاشفاق من ذلك ‹ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ › أى مهلك ‹ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ › غما ووجدا على فراقهم وقرىء بالاضافة ‹ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ › أى القرآن الذى عبر عنه فى صدر السورة بالكتاب وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه وقرىء بأن المفتوحة أى لأن لم يؤمنوا فاعمال باخع بحمله على حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة كما فى قوله عز وجل باسط ذراعيه ‹ أَسَفًا › مفعول له لباخع أى لفرط الحزن والغضب أو حال مما فيه من الضمير أى متأسفا عليهم ويجوز على النظم الكريم على الاستعارة التبعية بجعل التشبيه بين أجزاء الطرفين لا بين الهيئتين المنتزعتين منهما كما فى التمثيل وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم ‹ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ › استئناف وتعليل لما فى لعل من معنى الاشفاق أى إنا جعلنا ما عليها مما عدا من وجه اليه التكليف من الزخارف حيوانا كان أو نباتا أو معدنا كقوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ‹ زِينَةً › مفعول ثان للجعل ان حمل على معنى التصيير أو حال ان حمل على معنى الابداع واللام فى ‹ لَهَا › إما متعلقة بزينة أو بمحذوف هو صفة لها أى كائنة لها أى

ليتمتع بها الناظرون من المكلفين وينتفعوا بها نظرا واستدلالا فان الحيات والعقارب من حيث تذكيرهما لعذاب الآخرة من قبيل المنافع بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على وجود الصانع ووحدته فان الأزواج والأولاد أيضا من زينة الحياة الدنيا بل أعظمها ولا يمنع ذلك كونهم من جملة المكلفين فانهم من جهة انتسابهم إلى أصحابهم داخلون تحت الزينة ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء (لِنَبْلُوَهُمْ) متعلق بجعلنا أي جعلنا ما جعلنا ليعاملهم معاملة من يختبرهم (أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) فنجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبين المحسن من المسيء وامتازت طبقات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز مراتب علومهم المرتبة على أنظارهم وتفاوت درجات أعمالهم المتفرعة على ذلك كما قررناه فى مطلع سورة هود وأى اما استفهامية مرفوعة بالابتداء وأحسن خبرها والجملة فى محل النصب معلقة لفعل البلوى لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالسؤال والنظر ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية واما موصولة بمعنى الذى وأحسن خبر مبتدا مضمر والجملة صلة لها وهى فى حيز النصب بدل من مفعول لنبلوهم والتقدير لنبلو الذى هو أحسن عملا فحينئذ يحتمل أن تكون الضمة فى أيهم للبناء كما فى قوله عز وجل ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا على أحد الأقوال لتحقق شرط البناء الذى هو الاضافة لفظا وحذف صدر الصلة وأن تكون للاعراب لأن ما ذكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه وحسن العمل الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعة باليسير منها وصرفها على ما ينبغى والتأمل فى شأنها وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها والتمتع بها حسبما أذن له الشرع وأداء حقوقها والشكر لها لا اتخاذها وسيلة الى الشهوات والاغراض الفاسدة كما يفعله الكفرة وأصحاب الأهواء وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والأحسن فقط للاشعار بأن الغاية الأصلية للجعل المذكور انما هو ظهور كمال احسان المحسنين على ما حقق فى تفسير قوله تعالى ليبلوكم أحسن عملا (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ) فيما سيأتى عند تناهى عمر الدنيا (مَا عَلَيْهَا) من المخلوقات قاطبة بافنائها بالكلية وإنما أظهر فى مقام الاضمار لزيادة التقرير أو لادراج المكلفين فيه (صَعِيداً) مفعول ثان للجعل والصعيد التراب أو وجه الأرض قال أبو عبيدة هو المستوى من الأرض وقال الزجاج هو الطريق الذى لا نبات فيه (جُرُزاً) ترابا لا نبات فيه بعد ما كان يتعجب من بهجته النظار وتتشرف بمشاهدته الأبصار يقال أرض جرز لا نبات فيها وسنة جرز لا مطر فيها قال الفراء جرزت الأرض فهى مجروزة أى ذهب نباتها بقحط أو جراد ويقال جرزها الجراد والشاة والابل إذا أكلت ما عليها وهذه الجملة لتكميل ما فى السابقة من التعليل والمعنى لا تحزن بما عاينت من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب فانا قد جعلنا ما على الأرض من فنون الأشياء زينة لها لنختبر أعمالهم فنجازيهم بحسبها وإنا لمفنون جميع ذلك عن قريب ومجازون لهم بحسب أعمالهم (أَمْ حَسِبْتَ) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد إنكار حسبان أمته وأم منقطعة مقدرة ببل التى هى للانتقال من حديث إلى حديث لا للابطال وبهمزة الاستفهام عند الجمهور وببل وحدها عند غيرهم أى بل أحسبت (أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا) فى بقائهم على الحياة مدة طويلة من الدهر (مِنْ آيَاتِنَا) من بين آياتنا التى من جملتها ما ذكرناه من جعل ما على الأرض زينة لها للحكمة المشار اليها ثم جعل ذلك كله صعيدا جرزا كأن لم تغن بالأمس (عَجَباً) أى آية ذات عجب وضعا له موضع المضاف أو وصفا لذلك بالمصدر مبالغة وهو خبر لكانوا ومن آياتنا حال منه والمعنى أن قصتهم وإن كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات التى من جملتها ما ذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هى عندها كالنزر الحقير والكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم كلبهم قال أمية بن أبى الصلت :

وليس بها إلا الرقيم مجاورا   وصيدهم والقوم فى الكهف همد

وقيل هو لوح رصاصى أو حجرى رقمت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف وقيل هو الوادى الذى فيه الكهف فهو من رقمة الوادى أى جانبه وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين وقيل أصحاب الرقيم آخرون وكانوا ثلاثة انطبق عليهم الغار فنجوا بذكر كل منهم أحسن عمله على ما فصل فى الصحيحين (إِذْ أَوَى) ظرف لعجبا لا لحسبت أو مفعول لاذكر أى حين التجأ (الْفِتْيَةُ) أى أصحاب الكهف وأوثر الاظهار على الاضمار لتحقيق ما كانوا عليه فى أنفسهم من حال الفتوة فانهم كانوا فتية من أشراف الروم أرادهم دقيانوس على الشرك فهربوا منه بدينهم ولأن صاحبية الكهف من فروع التجائهم إلى الكهف فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه (إِلَى الْكَهْفِ) بجبلهم للجلوس واتخذوه مأوى (فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ) من خزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن عيون أهل العادات فمن ابتدائية متعلقة بآتنا أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله الثانى قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له أى آتنا كائنة من لدنك (رَحْمَةً) خاصة تستوجب المغفرة والرزق والأمن من الأعداء (وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا) الذى نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك وأصل التهيئة إحداث هيئة الشىء أى أصلح ورتب وأتمم لنا من أمرنا (رَشَدًا) إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب واهتداء اليه وكلا الجارين متعلق بهيء لاختلافهما فى المعنى وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة فى المؤخر بتقديم أحواله فان تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع الى وروده ينبىء عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة وكذا الكلام فى تقديم قوله تعالى من لدنك على تقدير تعلقه بآتنا وتقديم لنا على من أمرنا للايذان من أول الأمر بكون المسئول مرغوبا فيه لديهم أو اجعل أمرنا رشدا كله على أن من تجريدية مثلها فى قولك رأيت منك أسدا (فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ) أى أنمناهم على طريقة التمثيل المبنى على تشبيه الانامة الثقيلة المانعة عن وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها فى الحجب عن الشعور عند النوم لما أنها المحتاج إلى الحجب عادة إذ هى الطريقة للتيقظ غالبا لا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق وقيل الضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة وحمله على تعطيلها كما فى قولهم ضرب الأمير على يد الرعية أى منعهم من التصرف مع عدم ملاءمته لما سيأتى من البعث لا يدل على النوم مع أنه المراد قطعا والفاء فى فضربنا كما فى قوله عز وجل فاستجبنا له بعد قوله تعالى إذ نادى فان الضرب المذكور وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال والبعث وغير ذلك إيتاء رحمة لدنية خافية عن أبصار المتمسكين بالأسباب العادية استجابة لدعوتهم (فِي الْكَهْفِ) ظرف مكان لضربنا (سِنِينَ) ظرف زمان له باعتبار بقائه لا ابتدائه (عَدَدًا) أى ذوات عدد أو تعد عددا على أنه مصدر أو معدودة على أنه بمعنى المفعول ووصف السنين بذلك اما للتكثير وهو الأنسب باظهار كمال القدرة أو للتقليل وهو الأليق بمقام إنكار كون القصة عجبا من بين سائر الآيات العجيبة فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده عز وجل (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ) أى أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت (لِنَعْلَمَ) بنون العظمة وقرىء بالياء مبنيا للفاعل بطريق الالتفات وأياما كان فهو غاية للبعث لكن لا بجعل العلم مجازا من الإظهار والتمييز أو بحمله على ما يصح وقوعه غاية للبعث الحادث من العلم الحالى الذى يتعلق به الجزاء كما فى قوله تعالى الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وقوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا ونظائرهما التى يتحقق فيها العلم بتحقق متعلقه قطعا فان تحويل القبلة قد ترتب عليه تحزب الناس الى متبع ومنقلب وكذا مداولة الأيام بين الناس ترتب عليه تحزبهم الى الثابت على الإيمان والمتزلزل فيه وتعلق بكل من الفريقين العلم

الحالى والاظهار والتمييز وأما بعث هؤلاء فلم يترتب عليه تفرقهم إلى المحصى وغيره حتى يتعلق بهما العلم أو الاظهار والتمييز ويتسنى نظم شىء من ذلك فى سلك الغاية وإنما الذى ترتب عليه تفرقهم إلى مقدر تقديرا غير مصيب ومفوض إلى العلم الربانى وليس شىء منهما من الاحصاء فى شىء بل بحمل النظم الكريم على التمثيل المبنى على جعل العلم عبارة عن الاختبار مجازا بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب وليس من ضرورة الاختبار صدور الفعل المختبر به عن المختبر قطعا بل قد يكون لاظهار عجزه عنه على سنن التكاليف التعجيزية كقوله تعالى فأت بها من المغرب وهو المراد ههنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم (أىُّ الحزبين) أى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتى (أحصى) أى أضبط (لما لبثوا) أى للبثهم (أمداً) أى غاية فيظهر لهم عجزهم ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ويتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانهم وأديانهم فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وعلمه ويستبصروا به أمر البعث ويكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم وقد اقتصر ههنا من تلك الغايات الجليلة على ذكر مبدئها الصادر عنه عز وجل وفيما سيأتى على ما صدر عنهم من التساؤل المؤدى اليها وهذا أولى من تصوير التمثيل بأن يقال بعثناهم بعث من يريد ان يعلم الخ حسبما وقع فى تفسير قوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا على أحد الوجوه حيث حمل على معنى فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الايمان من غير الثابت إذ ربما يتوهم منه استلزام الارادة لتحقق المراد فيعود المحذور فيصار إلى جعل إرادة العلم عبارة عن الاختبار فاختبر واختر هذا وقد قرىء ليعلم مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل من الاعلام على أن المفعول الأول محذوف والجملة المصدرة بأى فى موقع المفعول الثانى فقط ان جعل العلم عرفانيا وفى موقع المفعولين ان جعل يقينيا أى ليعلم الله الناس أى الحزبين أحصى الخ وروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أحد الحزبين الفتية والآخر الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك وقيل كلاهما من غيرهم والأول هو الأظهر فان اللام للعهد ولا عهد لغيرهم والأمد بمعنى المدى كالغاية فى قولهم ابتداء الغاية وانتهاء الغاية وهو مفعول لأحصى والجار والمجرور حال منه قدمت عليه لكونه نكرة وليس معنى إحصاء تلك المدة ضبطها من حيث كميتها المتصلة الذاتية فانه لا يسمى إحصاء بل ضبطها من حيث المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها إلى السنين وبلوغها من تلك الحيثية إلى مراتب الاعداد على ما يرشدك اليه كون تلك المدة عبارة عما سبق من السنين ويجوز أن يراد بالامد معناه الوضعى بتقدير المضاف أى لزمان لبثهم وبدونه أيضا فان اللبث عبارة عن الكون المستمر المنطبق على الزمان المذكور فباعتبار الامتداد العارض له بسببه يكون له أمد لا محالة لكن ليس المراد به ما يقع غاية ومنتهى لذلك الكون المستمر باعتبار كميته المتصلة العارضة له بسبب انطباقه على الزمان الممتد بالذات وهو آن انبعاثهم من نومهم فان معرفته من تلك الحيثية لا تخفى على أحد ولا تسمى احصاء كما مر بل باعتبار كميته المنفصلة معارضة له بسبب عروضها لزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه إلى السنين ووصوله إلى مرتبة معينة من مراتب العدد كما حقق فى الصورة الأولى والفرق بين الاعتبارين أن ما تعلق به الاحصاء فى الصورة السابقة نفس المدة المنقسمة إلى السنين فهو مجموع ثلثمائة وتسع سنين وفى الصورة الأخيرة منتهى تلك المدة المنقسمة اليها أعنى السنة التاسعة بعد الثلثمائة وتعلق الاحصاء بالامد بالمعنى الأول ظاهر وأما تعلقه به بالمعنى الثانى فباعتبار انتظامه لما تحته من مراتب العدد واشتماله عليها هذا على تقدير كون ما فى قوله تعالى لما لبثوا مصدرية ويجوز أن تكون موصولة حذف عائدها من الصلة أى للذى لبثوا فيه من الزمان الذى عبر عنه فيما قبل بسنين عددا فالامد بمعناه الوضعى على ما تحققته وقيل اللام مزيدة والموصول مفعول وأمدا نصب على التمييز وأما ما قيل من أن أحصى اسم تفضيل لأنه الموافق لما وقع فى سائر الآيات الكريمة نحو أيهم أحسن عملا أيهم أقرب لكم نفعا إلى غير ذلك مما لا يحصى ولأن كونه فعلا ماضيا

يشعر بأن غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم على البعث لا بالاحصاء المتأخر عنه وليس كذلك وادعاء أن مجيء أفعل التفضيل من المزيد عليه غير قياسي مدفوع بأنه عند سيبويه قياس مطلقا وعند ابن عصفور فيما ليست همزته للنقل ولا ريب فى أن مانحن فيه من ذلك القبيل وامتناع عمله إنما هو فى غير التميز من المعمولات وأما أن التميز يجب كونه فاعلا فى المعنى فلمانع أن يمنعه بصحة أن يقال أيهم أحفظ لهذا الشعر وزنا أو تقطيعا أو يقال إن العامل فى أمدا فعل محذوف يدل عليه المذكور أى يحصى لما لبثوا أمدا كما فى قوله وأضرب منا بالسيوف القوانسا وحديث الوقوع فى المحذور بلا فائدة مدفوع بما أشير اليه من فائدة الموافقة للنظائر فمع مافيه من الاعتساف والخلل بمعزل من السداد لأن مؤداه أن يكون المقصود بالاختيار اظهار أفضل الحزبين وتميزه عن الأدنى مع تحقق أصل الاحصاء فيهما ومن البين أن لاتحقق له أصلا وأن المقصود بالاختبار اظهار عجز الكل عنه رأسا فهو فعل ماض قطعا وتوهم ايذانه بأن غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم عليه مردود بأن صيغة الماضى باعتبار حال الحكاية والله تعالى أعلم (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ) شروع فى تفصيل ما أجمل فيما سلف من قوله تعالى إذ أوى الفتية الخ أى نحن نخبرك بتفاصيل أخبارهم وقدم بيان اشتقاقه فى مطلع سورة يوسف عليه السلام (نَبَأَهُم) النبأ الخبر الذى له شأن وخطر (بِالحَقِّ) إما صفة لمصدر محذوف أو حال من ضمير نقص أو من نبأهم أو صفة له على رأى من يرى حذف الموصول مع بعض صلته أى نقص قصصا ملتبسا بالحق أو نقصه ملتبسين به أو نقص نبأهم ملتبسا به أو نبأهم الملتبس به ونبأهم حسبما ذكره محمد بن اسحق بن يسار أنه قد مرج أهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وكان ممن بالغ فى ذلك وعتا عتوا كبيرا دقيانوس فانه غلا فيه غلوا شديدا فجاس خلال الديار والبلاد بالعيث والفساد وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام وكان يتبع الناس فيخيرهم بين القتل وعبادة الأوثان فمن رغب فى الحياة الدنيا الدنية يصنع مايصنع ومن آثر عليها الحياة الأبدية قتله وقطع آرابه وعلقها فى سور المدينة وأبوابها فلما رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء أهل مدينتهم وقيل كانوا من خواص الملك قاموا فتضرعوا إلى الله عز وجل واشتغلوا بالصلاة والدعاء فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أعوان الجبار فاحضروهم بين يديه فقال لهم ماقال وخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان فقالوا ان لنا الها ملأ السموات والأرض عظمته وجبروته لن ندعو من دونه أحدا ولن نقر لماتدعونا اليه أبدا فاقض ما أنت قاض فأمر بنزع ماعليهم من الثياب الفاخرة وأخرجهم من عنده وخرج هو إلى مدينة نينوى لبعض شأنه وأمهلهم إلى رجوعه ليتأملوا فى أمرهم فان تبعوه وإلا فعل بهم مافعل بسائر المسلمين فأزمعت الفتية على الفرار بالدين والالتجاء إلى الكهف الحصين فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئا فتصدقوا ببعضه وتزودوا بالباقى فأووا إلى الكهف فجعلوا يصلون فيه آناء الليل وأطراف النهار ويبتهلون إلى الله سبحانه بالأنين والجؤار وفوضوا أمر نفقتهم إلى يمليخا فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان ويلبس لباس المساكين ويدخل المدينة ويشترى مايهمهم ويتحسس مافيها من الأخبار ويعود إلى أصحابه فلبثوا على ذلك إلى أن قدم الجبار المدينة فطلبهم وأحضر آباءهم فاعتذروا بأنهم عصوهم ونهبوا أموالهم وبذروها فى الأسواق وفروا إلى الجبل فلما رأى يمليخا مارأى من الشر رجع إلى أصحابه وهو يبكى ومعه قليل من الزاد فأخبرهم بما شهده من الهول ففزعوا إلى الله عز وجل وخروا له سجدا ثم رفعوا رؤسهم وجلسوا يتحدثون فى أمرهم فبينما هم كذلك إذ ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رؤسهم فخرج دقيانوس فى طلبهم بخيله ورجله فوجدوهم قد دخلوا الكهف فأمر باخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله فلما ضاق بهم ذرعا قال قائل منهم أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا وليكن كهفهم قبرا لهم ففعل ثم كان من

شأنهم ما قص الله عز وجل عنهم (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ) استئناف تحقيق مبنى على تقدير السؤال من قبل المخاطب والفتية جمع قلة للفتى كالصبية للصبي (ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ) أوثر الالتفات للاشعار بعلية وصف الربوبية لإيمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم من المقالة حسبما سيحكى عنهم (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه وفيه التفات من الغيبة إلى ما عليه سبك النظم سباقا وسياقا من التكلم (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) أى قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والأوطان والنعيم والإخوان واجترؤا على الصدع بالحق من غير خوف وحذار والرد على دقيانوس الجبار (إِذْ قَامُوا) منصوب بربطنا والمراد بقيامهم انتصابهم لإظهار شعار الدين قال مجاهد خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد فقال أكبرهم انى لأجد فى نفسى شيئا إن ربى رب السموات والأرض فقالوا نحن أيضا كذلك فقاموا جميعا (فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ضمنوا دعواهم ما يحقق فحواها ويقضى بمقتضاها فان ربوبيته عز وجل لهما تقتضى ربوبيته لما فيهما أى اقتضاء وقيل المراد قيامهم بين يدى الجبار من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام فحينئذ يكون ما سيأتى من قوله تعالى هؤلاء الخ منقطعا عما قبله صادرا عنهم بعد خروجهم من عنده (لَن نَّدْعُوَا) لن نعبد أبدا (مِن دُونِهِ إِلَٰهًا) معبودا آخر لا استقلالا ولا اشتراكا والعدول عن أن يقال ربا للتنصيص على رد المخالفين حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة وللاشعار بأن مدار العبادة وصف الألوهية وللايذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الألوهية لا بطريق المالكية المجازية (لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) أى قولا ذا شطط أى تجاوز عن الحد أو قولا هو عين الشطط على أنه وصف بالمصدر مبالغة ثم اقتصر على الوصف مبالغة على مبالغة وحيث كانت العبادة مستلزمة للقول لما أنها لا تعرى عن الاعتراف بألوهية المعبود والتضرع اليه قيل لقد قلنا وإذا جواب وجزاء أى لو دعونا من دونه الها والله لقد قلنا قولا خارجا عن حد العقول مفرطا فى الظلم (هَٰؤُلَاءِ) هو مبتدأ وفى اسم الاشارة تحقير لهم (قَوْمُنَا) عطف بيان له (اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً) خبره وفيه معنى الانكار (لَّوْلَا يَأْتُونَ) تحضيض فيه معنى الإنكار والتعجيز أى هلا يأتون (عَلَيْهِم) على ألوهيتهم أو على صحة اتخاذهم لها آلهة (بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ) بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم وهو تبكيت لهم والقام حجر (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) بنسبة الشريك اليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا والمعنى أنه أظلم من كل ظالم وإن كان سبك النظم على إنكار الأظلمية من غير تعرض لإنكار المساواة كما مر تحقيقه فى سورة هود (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ) أى فارقتموهم فى الاعتقاد أو أردتم الاعتزال الجسمانى (وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) عطف على الضمير المنصوب وما موصولة أو مصدرية أى اذا اعتزلتموهم ومعبوديهم إلا الله أو وعبادتهم الا عبادة الله وعلى التقديرين فالاستثناء متصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكة ومنقطع على تقدير تمحضهم فى عبادة الأوثان ويجوز كون ما نافية على انه اخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين إذ وجوابه (فَأْوُا) أى التجئوا (إِلَى الْكَهْفِ) قال الفراء هو جواب إذ كما تقول إذ فعلت فافعل كذا وقيل هو دليل على جوابه أى إذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا أو إذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف (يَنشُرْ لَكُمْ) يبسط لكم ويوسع عليكم (رَبُّكُم) مالك أمركم (مِّن رَّحْمَتِهِ) فى الدارين (وَيُهَيِّئْ لَكُم) يسهل لكم (مِّنْ أَمْرِكُم) الذى أنتم بصدده من الفرار بالدين (مِّرْفَقًا) ما ترتفقون وتنتفعون به وقرىء بفتح الميم وكسر الفاء مصدرا كالمرجع وتقديم لكم فى الموضعين لما مر مرارا من الايذان من أول الأمر بكون المؤخر من منافعهم والتشويق إلى وروده (وَتَرَى الشَّمْسَ) بيان لحالهم بعد ما أووا إلى الكهف ولم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه لظهور جريانهم على موجب الأمر به لكونه صادرا عن رأى صائب وتعويلا على ما سلف من

قوله سبحانه إذ أوى الفتية إلى الكهف وما لحق من إضافة الكهف اليهم وكونهم فى فجوة منه والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وليس المراد به الاخبار بوقوع الرؤية تحقيقا بل الانباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس (إذا طلعت تزاور) أى تتزاور و تتنحى بحذف إحدى التاءين وقرىء بادغام التاء فى الزاى وتزور كتحمر وتزوار كتحمار وتزوئر وكلها من الزور وهو الميل (عن كهفهم) الذى أووا إليه فالاضافة لأدنى ملابسة (ذات اليمين) أى جهة ذات يمين الكهف عند توجه الداخل إلى قعره أى جانبه الذى يلى المغرب فلا يقع عليهم شعاعها فيؤذيهم (وإذا غربت) أى تراها عند غروبها (تقرضهم) أى تقطعهم من القطيعة والصرم ولا تقربهم (ذات الشمال) أى جهة ذات شمال الكهف أى جانبه الذى يلى المشرق وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على منهاج خرق العادة كرامة لهم وقوله تعالى (وهم فى فجوة منه) جملة حالية مبينة لكون ذلك أمرا بديعا أى تراها تميل عنهم يمينا وشمالا ولا تحوم حولهم مع أنهم فى متسع من الكهف معرض لاصابتها لولا أن صرفتها عنهم يد التقدير (ذلك) أى ماصنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها حالتى الطلوع والغروب مع كونهم فى موقع شعاعها (من آيات الله) العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته وحقية التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه وتعالى وهذا قبل أن سد دقيانوس باب الكهف وقيل كان باب الكهف شماليا مستقبل بنات نعش وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته رأس مشرق السرطان ومغربه والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الايمن وهو الذى يلى المغرب وتغرب محاذية لجانبه الايسر فيقع شعاعها على جنبيه وتحلل عفونته وتعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذى أجسادهم ويبلى ثيابهم ولعل ميل الباب إلى جانب الغرب كان أكثر ولذلك أوقع التزاور على كهفهم والقرض على أنفسهم فذلك حينئذ إشارة إلى ايوائهم إلى كهف هذا شأنه وأما جعله إشارة إلى حفظ الله سبحانه اياهم فى ذلك الكهف تلك المدة الطويلة أو إلى اطلاعه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم على أخبارهم فلا يساعده ايراده فى تضاعيف القصة (من يهد الله) إلى الحق بالتوفيق له (فهو المهتد) الذى أصاب الفلاح والمراد اما الثناء عليهم والشهادة لهم باصابة المطلوب والاخبار بتحقيق ما أملوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق أو التنبيه على أن أمثال هذه الآية كثيرة ولكن المنتفع بها من وفقه الله تعالى للاستبصار بها (ومن يضلل) أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره اليه (فلن تجد له) أبدا وإن بالغت فى التتبع والاستقصاء (وليا) ناصرا (مرشدا) يهديه إلى ماذكر من الفلاح لاستحالة وجوده فى نفسه لا أنك لا تجده مع وجوده أو إمكانه (وتحسبهم) بفتح السين وقرىء بكسرها أيضا والخطاب فيه كما سبق (أيقاظا) جمع يقظ بكسر القاف وفتحها وهو اليقظان ومدار الحسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر وقيل كثرة تقلبهم ولا يلائمه قوله تعالى ونقلبهم (وهم رقود) أى نيام وهو تقرير لما لم يذكر فيما سلف اعتمادا على ذكره السابق من الضرب على آذانهم (ونقلبهم) فى رقدتهم (ذات اليمين) نصب على الظرفية أى جهة تلى أيمانهم (وذات الشمال) أى جهة تلى شمائلهم كيلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض قيل لهم تقليبتان فى السنة وقيل تقليبة واحدة يوم عاشوراء وقيل فى كل تسع سنين وقرىء يقلبهم على الاسناد إلى ضمير الجلالة وتقلبهم على المصدر منصوبا بمضمر ينبىء عنه وتحسبهم أى وترى تقلبهم (وكلبهم) قيل هو كلب مروا به فتبعهم فطردوه مرارا فلم يرجع فأنطقه الله تعالى فقال لا تخشوا جانبى فانى أحب أحباء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم وقيل هو كلب راع قد تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة كالبهم إذ الظاهر لحوقه بهم وقيل هو كلب صيد أحدهم أو زرعه أو غنمه واختلف فى لونه فقيل كان أنمر وقيل أصفر وقيل أصهب وقيل غير ذلك وقيل كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل تتوه وقيل قطمور وقيل ثور قال خالد

ابن معدان ليس فى الجنة من الدواب الا كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم وقيل لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان أسدا (باسط ذراعيه) حكاية حال ماضية ولذلك أعمل اسم الفاعل وعند الكسائى وهشام وأبى جعفر من البصريين يجوز أعماله مطلقا والذراع من المرفق إلى رأس الأصبع الوسطى (بالوصيد) أى بموضع الباب من الكهف (لو اطلعت عليهم) أى لو عاينتهم وشاهدتهم وأصل الاطلاع الاشراف على الشىء بالمعاينة والمشاهدة وقرىء بضم الواو (لوليت منهم فرارا) هربا مما شاهدت منهم وهو اما نصب على المصدرية من معنى ما قبله إذ التولية والفرار من واد واحد واما على الحالية بجعل المصدر بمعنى الفاعل أى فارا أو بجعل الفاعل مصدرا مبالغة كما فى قولها فانما هى اقبال وادبار واما على أنه مفعول له (ولملئت منهم رعبا) وقرىء بضم العين أى خوفا يملأ الصدور يرعبه وهو اما مفعول ثان أو تمييز ذلك لما ألبسهم الله عز وجل من الهيبة والهيئة كانت أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم وقيل لطول أظفارهم وشعورهم ولا يساعده قولهم لبثنا يوما أو بعض يوم وقوله ولا يشعرن بكم أحدا فان الظاهر من ذلك عدم اختلاف أحوالهم فى أنفسهم وقيل لعظم أجرامهم ولعل تأخير هذا عن ذكر التولية للايذان باستقلال كل منهما فى الترتب على الاطلاع اذ لو روعى ترتيب الوجود لتبادر إلى الفهم ترتب المجموع من حيث هو هو عليه وللاشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد وعن معاوية لما غزا الروم فمر بالكهف قال لو كشفت لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال له ابن عباس رضى الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله تعالى من هو خير منك حيث قال لو اطلعت عليهم الآية قال معاوية لا أنتهى حتى أعلم علمهم فبعث ناسا وقال لهم اذهبوا فانظروا ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحا فأحرقتهم وقرىء بتشديد اللام على التكثير وبابدال الهمزة ياء مع التخفيف والتشديد (وكذلك بعثناهم) أى كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلى والتحلل آية دالة على كمال قدرتنا بعثناهم من النوم (ليتساءلوا بينهم) أى ليسأل بعضهم بعضا فيترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة وجعله غاية للبعث المعلل فيما سبق بالاختبار من حيث أنه من أحكامه المترتبة عليه والاقتصار على ذكره لاستتباعه لسائر آثاره (قال) استئناف لبيان تساؤلهم (قائل منهم) هو رئيسهم واسمه مكسلمينا (كم لبثتم) فى منامكم لعله قاله لما رأى من مخالفة حالهم لما هو المعتاد فى الجملة (قالوا) أى بعضهم (لبثنا يوما أو بعض يوم) قيل إنما قالوه لأنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم آخر النهار فقالوا لبثنا يوما فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعد قالوا أو بعض يوم وكان ذلك بناء على الظن الغالب فلم يعزوا إلى الكذب (قالوا) أى بعض آخر منهم بما سنح لهم من الأدلة أو بالهام من الله سبحانه (ربكم أعلم بما لبثتم) أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم وإنما يعلمها الله سبحانه وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من مراعاة حسن الأدب وبه يتحقق التحزب إلى الحزبين المعهودين فيما سبق وقد قيل القائلون جميعهم ولكن فى حالتين ولا يساعده النظم الكريم فان الاستئناف فى الحكاية والخطاب فى المحكى يقضى بأن الكلام جار على منهاج المحاورة والمجاوبة والا لقيل ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) قالوه اعراضا عن التعمق فى البحث واقبالا على ما يهمهم بحسب الحال كما ينبىء عنه الفاء والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة ووصفها باسم الإشارة يشعر بأن القائل ناولها بعض أصحابه ليشترى بها قوت يومهم ذلك وقرىء بسكون الراء وبادغام القاف فى الكاف وبكسر الواو وبسكون الراء مع الادغام وحملهم لها دليل على أن التزود لا ينافى التوكل على الله تعالى (فلينظر أيها) أى أهلها (أزكى) أحل وأطيب أو أكثر وأرخص (طعاما فليأتكم برزق منه) أى من ذلك الازكى طعاما (وليتلطف) وليتكلف اللطف فى المعاملة كيلا يغبن أو فى الاستخفاء لئلا يعرف (ولا يشعرن بكم أحدا) من أهل المدينة فانه يستدعى شيوع أخباركم أى لا يفعلن ما يؤدى إلى ذلك فالنهى على الأول تأسيس وعلى

الثانى تأكيد للأمر بالتلطف (إنهم) تعليل لما سبق من الأمر والنهى أى ليبالغ فى التلطف وعدم الاشعار لانهم (إنْ يظْهَرُوا عَليكُمْ) أى يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم والضمير للأهل المقدر فى أيها (يرْجُمُوكُمْ) ان ثبتم على ما أنتم عليه (أو يُعيدُوكُمْ فى مِلَّتِهِمْ) أى يصيروكم اليها ويدخلوكم فيها كرها من العود بمعنى الصيرورة كقوله تعالى أو لتعودن فى ملتنا وقيل كانوا أولا على دينهم وايثار كلمة فى على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار الذى هو أشد شيء عندهم كراهة وتقديم احتمال الرجم على احتمال الاعادة لان الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدى اليه وضمير الخطاب فى المواضع الأربعة للمبالغة فى حمل المبعوث على الاستخفاء وحث الباقين على الاهتمام بالتوصية فان امحاض النصح أدخل فى القبول واهتمام الانسان بشأن نفسه أكثر وأوفر (ولن تُفلِحُوا إذاً) أى ان دخلتم فيها ولو بالكره والالجاء لن تفوزوا بالخير (أبداً) لا فى الدنيا ولا فى الآخرة وفيه من التشديد فى التحذير ما لا يخفى (وكَذَلكَ) أى وكما أنمناهم وبعثناهم لما مر من ازديادهم فى مراتب اليقين (أعثَرْنا) أى أطلعنا الناس (عَليهِمْ لِيعلَمُوا) أى الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبة (أنَّ وعْدَ اللهِ) أى وعده بالبعث أو موعوده الذى هو البعث أو أن كل وعده أو كل موعوده فيدخل فيه وعده بالبعث أو البعث الموعود دخولا أوليا (حقٌّ) صادق لا خلف فيه أو ثابت لا مرد له لان نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث (وأنَّ السّاعةَ) أى القيامة التى هى عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعا للحساب والجزاء (لا ريْبَ فيها) لا شك فى قيامها فان من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسهم وأمسكها ثلثمائة سنة وأكثر حافظا أبدانها من التحلل والتفتت ثم أرسلها اليها لا يبقى له شائبة شك فى أن وعده تعالى حق وأنه يبعث من فى القبور فيرد اليهم أرواحهم فيحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالهم (إذْ يتَنَازَعونَ) ظرف لقوله أعثرنا قدم عليه الغاية اظهاراً لكمال العناية بذكرها لا لقوله ليعلموا كما قيل لدلالته على أن التنازع يحدث بعد الاعثار وليس كذلك أى اعثرناهم عليهم حين يتنازعون (بيْنَهُمْ أمْرَهُمْ) ليرتفع الخلاف ويتبين الحق قيل المتنازع فيه أمر دينهم حيث كانوا مختلفين فى البعث فمن مقر له وجاحد به وقائل يقول ببعث الأرواح دون الاجساد وآخر يقول ببعثهما معا قيل كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحا مؤمنا وقد اختلف أهل مملكته فى البعث حسبما فصل فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه أن يظهر الحق فألقى الله عز وجل فى نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سد به دقيانوس باب الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه فعند ذلك بعثهم الله تعالى فجرى بينهم من التقاول ما جرى روى أن المبعوث لما دخل المدينة أخرج الدرهم ليشترى به الطعام وكان على ضرب دقيانوس فاتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به إلى الملك فقص عليه القصة فقال بعضهم ان آباءنا أخبرونا بأن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء فانطلق الملك وأهل المدينة من مسلم وكافر وأبصروهم وكلموهم ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الانس والجن ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا فألقى الملك عليهم ثيابه وجعل لكل منهم تابوتا من ذهب فرآهم فى المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا وقيل لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخل أولا لئلا يفزعوا فدخل فعمى عليهم المدخل فبنوا ثمة مسجدا وقيل المتنازع فيه أمر الفتية قبل بعثهم أى أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الأحوال والاهوال ويتلقون ذلك من الاساطير وأفواه الرجال وعلى التقديرين فالفاء فى قوله عز وجل (فقالُوا) فصيحة أى أعثرناهم عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا فقالوا أى قال بعضهم (ابْنُوا عليْهِمْ) أى على باب كهفهم (بُنْيَاناً) لئلا يتطرق اليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها وقوله تعالى (رَبُّهُمْ أعْلَمُ بِهِمْ) من كلام المتنازعين كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة حالهم من حيث النسب ومن حيث العدد ومن حيث اللبث فى

الكهف قالوا ذلك تفويضا للأمر إلى علام الغيوب أو من كلام الله تعالى رداً لقول الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين وقيل هو أمرهم وتدبيرهم عند وفاتهم أو شأنهم فى الموت والنوم حيث اختلفوا فى أنهم ماتوا أو ناموا كما فى أول مرة فاذ حينئذ متعلق بقوله تعالى (قالَ الذِينَ غلَبوا علىَ أمْرِهمْ) وهم الملك والمسلمون (لنتّخذنّ عليهمْ مسجداً) وقوله تعالى فقالوا معطوف على يتنازعون وإيثار صيغة الماضى للدلالة على أن هذا القول ليس مما يستمر ويتجدد كالتنازع وقيل متعلق باذكر مضمرا وأما تعلقه بأعثرنا فيأباه أن اعثارهم ليس فى زمان تنازعهم فيما ذكر بل قبله وجعل وقت التنازع ممتدا يقع فى بعضه الاعثار وفى بعضه التنازع تعسف لايخفى مع أنه لامخصص لاضافته إلى التنازع وهو مؤخر فى الوقوع (سيَقولونَ) الضمير فى الأفعال الثلاثة للخائضين فى قصتهم فى عهد النبي عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب والمسلمين لكن لا على وجه إسناد كل منها إلى كلهم بل إلى بعضهم (ثلاثةٌ رابعُهُمْ كلبُهُمْ) أى هم ثلاثة أشخاص رابعهم أى جاعلهم أربعة بانضمامه اليهم كلبهم قيل قالته اليهود وقيل قاله السيد من نصارى نجران وكان يعقوبيا وقرىء ثلاث بادغام الثاء فى التاء (وَيقولونَ خمسَةٌ سادِسُهُمْ كلبُهُمْ) قيل قالته النصارى أو العاقب منهم وكان نسطوريا (رَجماً بالغَيْبِ) رميا بالخبر الخفى الذى لا مطلع عليه أو ظنا بالغيب من قولهم رجم بالظن إذا ظن وانتصابه على الحالية من الضمير فى الفعلين جميعا أى راجمين أو على المصدرية منهما فان الرجم والقول واحد أو من محذوف مستأنف واقع موقع الحال من ضمير الفعلين معا أى يرجمون رجما وعدم إيراد السين للاكتفاء بعطفه على ما فيه ذلك (وَيقولونَ سَبعَةٌ وَثامِنُهُمْ كلبُهُمْ) هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقى من هذا الوحى وما فيه مما يرشدهم إلى ذلك من عدم نظمه فى سلك الرجم بالغيب وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادة وكادة النسبة فيما بين طرفيها لا بوحى آخر كما قيل (قلْ) تحقيقا للحق ورداً على الأولين (رَبّى أعلَمُ) أى أقوى علما (بعِدّتِهم) بعددهم (مَايعلَمُهُم) أى مايعلم عدتهم أو مايعلمهم فضلا عن العلم بعدتهم (إلا قليلٌ) من الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد قال ابن عباس رضى الله عنه حين وقعت الواو انقطعت العدة وعليه مدار قوله رضى الله عنه أنا من ذلك القليل ولو كان فى ذلك وحى آخر لما خفى عليه ولما احتاج الى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون اسوة له فى العلم بذلك وعن على كرم الله وجهه أنهم سبعة نفر أسماؤهم يمليخا ومكشليينا ومشليينا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة فى أمره والسابع الراعى الذى وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسمه كفيشيططيوش (فلا تُمارِ) الفاء لتفريع النهى على ماقبله أى اذ قد عرفت جهل أصحاب القولين الأولين فلا تجادلهم (فيهِمْ) فى شأن الفتية (إلا مِراءً ظاهِراً) قدر ما تعرض له الوحى من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الاجمالى وتفويض العلم إلى الله سبحانه من غير تصريح بجهلهم وتفضيح لهم فانه مما يخل بمكارم الأخلاق (ولا تستَفْتِ فيهِمْ) فى شأنهم (مّنهُمْ) من الخائضين (أحَداً) فان فيما قص عليك لمندوحة عن ذلك مع أنه لا علم لهم بذلك وقال عطاء إلا قليل من أهل الكتاب فالضمائر الثلاثة فى الأفعال الثلاثة لهم وما ذكر من الشواهد لارشاد المؤمنين إلى صحة القول الثالث وفيه محيص عما فى الأول من التكلف فى جعل أحد الأقوال المحكية المنظومة فى سمط واحد ناشئا عن الحكاية مع كون الأخيرين بخلافه ووضوح فى سبب حذف المفعول فى لاتمار والمعنى حينئذ وإذ قد وقفت على أن كلهم ليسوا على خطأ فى ذلك فلا تجادلهم الاجدالا ظاهرا انطق به الوحى المبين من غير تجهيل لجميعهم فان فيهم مصيبا وإن قل والنهى عن الاستفتاء لدفع ما عسى يتوهم من احتمال جوازه أو احتمال وقوعه بناء على إصابة بعضهم فالمعنى لا تراجع اليهم فى شأن الفتية ولا تصدق القول الثالث من حيث صدوره عنهم بل من حيث التلقى من الوحى (ولا تقولَنّ لِشاىْءٍ) أى لأجل

شىء تعزم عليه (إنّى فاعلٌ ذلكَ) الشىء (غدًا) أى فيما يستقبل من الزمان مطلقا فيدخل فيه الغد دخولا أوليا فانه نزل حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذى القرنين فسألوه عليه الصلاة والسلام فقال ائتونى غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه وكذبته قريش وما قيل من أن المدلول بالعبارة هو الغد وما بعد ذلك مفهوم بطريق دلالة النص يرده أن ما بعده ليس بمعناه فى مناط النهى فان وسعة المجال دليل القدرة فليتأمل (إلا أنْ يشاءَ اللهُ) استثناء مفرغ من النهى أى لا تقولن ذلك فى حال من الأحوال إلا حال ملابسته بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد وهو أن يقال إن شاء الله أو فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله لا مطلقا بل مشيئته إذن فان النسيان أيضا بمشيئته تعالى ولا مساغ لتعليقه بفاعل لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاة استثناء اعتراضها النهى وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل لا تقولنه أبدا كقوله تعالى وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله (واذكرْ ربّكَ) بقولك إن شاء الله متداركا له (إذا نسِيتَ) إذا فرط منك نسيان ثم ذكرته وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولو بعد سنة ما لم يحنث ولذلك جوز تأخير الاستثناء وعامة الفقهاء على خلافه إذ لو صح ذلك لما تقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب قال القرطبى هذا فى تدارك التبرك والتخلص عن الاثم وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون إلا متصلا ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء مبالغة فى الحث عليه أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارك أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها (وقلْ عسى أنْ يهدِيَنِ ربّى) أى يوفقنى (لأقربَ مِن هذا) أى لشىء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتى (رشَدًا) أى إرشادا للناس ودلالة على ذلك وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ما هو أعظم من ذلك وأبين كقصص الأنبياء المتباعد أيامهم والحوادث النازلة فى الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة أو لأقرب رشدا وأدنى خيرا من المنسى (ولبِثوا فى كهفِهم) أحياء مضروبا على آذانهم (ثلثَ مائةٍ سِنينَ وازْدادُوا تِسعًا) وهى جملة مستأنفة مبينة لما أجمل فيما سلف وأشير إلى عزة مناله وقيل أنه حكاية كلام أهل الكتاب فانهم اختلفوا فى مدة لبثهم كما اختلفوا فى عدتهم فقال بعضهم هكذا وبعضهم ثلثمائة وروى عن على رضى الله عنه أنه قال عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية والله تعالى ذكر السنة القمرية والتفاوت بينهما فى كل مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلثمائة وتسع سنين وسنين عطف بيان لثلثمائة وقيل بدل وقرىء على الاضافة وضعا للجمع موضع المفرد ومما يحسنه ههنا أن علامة الجمع فيه جبر لما حذف فى الواحد وأن الأصل فى العدد إضافته إلى الجمع (قلِ اللهُ أعلمُ بما لبِثوا) أى بالزمان الذى لبثوا فيه (لهُ غيبُ السَّمٰوٰتِ والأرضِ) أى ما غاب فيهما وخفى من أحوال أهلهما واللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فانه غير مختص بالغيب (أبصرْ بهِ وأسمِعْ) دل بصيغة التعجب على أن شأن علمه سبحانه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين لا يحجبه شىء ولا يحول دونه حائل ولا يتفاوت بالنسبة اليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفى والجلى والهاء ضمير الجلالة ومحله الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سيبويه وكان أصله أبصر أى صار ذا بصر ثم نقل إلى صيغة الأمر للانشاء فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له أو لزيادة الباء كما فى كفى به والنصب على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة إن كانت الهمزة للتعدية ومعدية إن كانت للصيرورة ولعل تقديم أمر ابصاره تعالى لما أن الذى نحن بصدده من قبيل المبصرات (ما لهمْ) لأهل السموات والأرض (من دُونهِ) تعالى (مِن وَلِىٍّ) يتولى أمورهم وينصرهم استقلالا (ولا يُشرِكُ فى حُكمِهِ) فى قضائه أو فى علم الغيب

(أحدًا) منهم ولا يجعل له فيه مدخلا وهو كما ترى أبلغ فى نفى الشريك من أن يقال من ولى ولا شريك وقرىء على صيغة نهى الحاضر على أن الخطاب لكل أحد ولما دل انتظام القرآن الكريم لقصة أصحاب الكهف من حيث انها بالنسبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم من المغيبات على أنه وحى معجز أمره عليه السلام بالمداومة على دراسته فقال (واتلُ ما أوحِيَ إليكَ مِن كتابِ ربِّكَ) ولا تسمع لقولهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله (لامُبدِّلَ لكلماتِه) لا قادر على تبديله وتغييره غيره (ولن تجدَ) أبدا الدهر وإن بالغت فى الطلب (مِن دُونه مُلتحدًا) ملجأ تعدل اليه عند إلمام ملمة (واصبِرْ نفسَكَ) احبسها وثبتها مصاحبة (مَعَ الذينَ يدعُونَ ربَّهُمْ بالغدَاةِ والعَشِيِّ) أى دائبين على الدعاء فى جميع الأوقات وقيل فى طرفى النهار وقرىء بالغدوة على أن إدخال اللام عليها وهى علم فى الأغلب على تأويل التنكير بهم والمراد بهم فقراء المؤمنين مثل صهيب وعمار وخباب ونحوهم رضى الله عنهم وقيل أصحاب الصفة وكانوا نحو سبعمائة رجل قيل انه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نح هؤلاء الموالى الذين كأن ريحهم ريح الضأن حتى نجالسك كما قال قوم نوح عليه السلام أنؤمن لك واتبعك الأرذلون فنزلت والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الأمر بما فى حيز الصلة من الخصلة الداعية إلى ادامة الصحبة (يُريدُونَ) بدعائهم ذلك (وجهَهُ) حال من المستكن فى يدعون أى مريدين لرضاه تعالى وطاعته (ولا تعدُ عيناكَ عنهُمْ) أى لا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم من عداه أى جاوزه واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو أو لا تصرف عيناك النظر عنهم إلى غيرهم من عدوته عن الأمر أى صرفته عنه على أن المفعول محذوف لظهوره وقرىء ولا تعد عينيك ولا تعد عينيك من الاعداء والتعدية والمراد نهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم طموحا إلى زى الأغنياء (تُريدُ زينةَ الحيَوٰةِ الدنيا) أى تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وأصحاب الدنيا وهى حال من الكاف على الوجه الأول من القراءة المشهورة ومن الفاعل على الوجه الثانى منها وضمير تريد للعينين وإسناد الارادة اليه مجاز وتوحيده للتلازم كما فى قوله :

لمن زحلوفة زل ... بها العينان تنهل

ومن المستكن فى الفعل على القراءتين الأخيرتين (ولا تُطعْ) فى تنحية الفقراء عن مجالسك (مَنْ أغفَلْنا قلبَهُ) أى جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر بالمرة أو وجدناه غافلا كقولك أجبنته وأبخلته إذا وجدته كذلك أو هو من أغفل ابله أى لم نسمه بالذكر (عن ذِكرِنا) كأولئك الذين يدعونك إلى طرد الفقراء عن مجلسك فانهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء فى مجامع الأوقات وفيه تنبيه على أن الباعث له على ذلك الدعاء غفلة قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهماكه فى الحسيات حتى خفى عليه أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد وقرىء أغفلنا قلبه على اسناد الفعل إلى القلب أى حسبنا غافلين عن ذكرنا اياه بالمؤاخذة من أغفلته إذا وجدته غافلا (واتبعَ هوَاهُ وكانَ أمرُهُ فُرُطًا) ضياعا وهلاكا أو متقدما للحق والصواب نابذا له وراء ظهره من قولهم فرس فرط أى متقدم للخيل أو هو بمعنى الافراط والتفريط فان الغفلة عن ذكره سبحانه تؤدى إلى اتباع الهوى المؤدى إلى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية ما فى حيز الصلة للنهى عن الاطاعة (وقُلِ) لأولئك الغافلين المتبعين هواهم (الحقُّ مِن ربِّكُمْ) أى ما أوحى إلى الحق لا غير كائنا من ربكم أو الحق المعهود من جهة ربكم لا من جهتى حتى يتصور فيه التبديل أو يمكن التردد فى اتباعه وقوله تعالى (فمَنْ شاءَ فليُؤمِنْ ومَن شاءَ فليكفُرْ) اما من تمام القول المأمور به والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد لا لتفريعه عليه كما فى قوله تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وقوله تعالى الحق من ربك فلا تكونن من الممترين أى عقيب تحقق أن ما أوحى إلى حق لا ريب فيه وأن ذلك الحق من جهة ربكم فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن كسائر

المؤمنين ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل ومن شاء أن يكفر به فليفعل وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم
وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم وجوداً وعدماً ما لا يخفى وأما تهديد من جهة الله تعالى والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على
الأمر لا على مضمون المأمور به والمعنى قل لهم ذلك وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن ومن شاء
أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل فقوله تعالى (إنا أعتدنا) وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لما يفيده من الزجر
عن الكفر أو لما يفهم من ظاهر التخيير من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه فان اعداد جزائه من دواعي
الاملاء والامهال وعلى الوجه الاول هو تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديدي أى قل لهم ذلك إنا أعتدنا (للظٰلمين)
أى هيأنا للكافرين بالحق بعد ما جاء من الله سبحانه والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره تجاوز
عن الحد ووضع للشيء فى غير موضعه (ناراً) عظيمة عجيبة (أحاطَ بهم) أى يحيط بهم وايثار صيغة الماضي للدلالة
على التحقق (سُرادِقُها) أى فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل السرادق الحجرة التى تكون حول الفسطاط
وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار (وَإن يَستغيثوا) من العطش (يُغاثوا بماءٍ كالمُهلِ) كالحديد المذاب
وقيل كدردي الزيت وهو على طريقة قوله فاعتبوا بالصيلم (يَشوي الوُجوهَ) إذا قدم ليشرب انشوى الوجه لحرارته
عن النبى عليه الصلاة والسلام هو كعكر الزيت فاذا قرب اليه سقطت فروة وجهه (بِئسَ الشرابُ) ذلك (وساءَت)
النار (مُرتفَقاً) متكأ وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد وأنى ذلك فى النار وإنما هو بمقابلة قوله تعالى حسنت
مرتفقا (إنّ الذينَ ءامَنوا) فى محل التعليل للحث على الايمان المنفهم من التخيير كأنه قيل وللذين آمنوا ولعل تغيير سبكه
للايذان بكمال تنافى مآلى الفريقين أى ان الذين آمنوا بالحق الذى أوحى اليك (وعمِلوا الصٰلحٰتِ) حسبما بين فى
تضاعيفه (إنّا لا نُضيعُ أجرَ مَن أحسنَ عملا) خبر ان الأولى هى الثانية مع ما فى حيزها والراجع محذوف أى
من أحسن منهم عملا أو مستغنى عنه كما فى قولك نعم الرجل زيد أو واقع موقعه الظاهر فان من أحسن عملا
فى الحقيقة هو الذى آمن وعمل الصالحات (أولٰئكَ) المنعوتون بالنعوت الجليلة (لهُم جنّٰتُ عدنٍ
تجرى مِن تحتِهمُ الأنهٰرُ) استئناف لبيان الأجر أو هو الخبر وما بينهما اعتراض أو هو خبر بعد خبر
(يُحلَّونَ فيها مِن أساوِرَ مِن ذهبٍ) من الأولى ابتدائية والثانية بيانية صفة لأساور والتنكير للتفخيم وهو جمع
أسورة أو أسوار جمع سوار (ويَلبَسونَ ثياباً خُضراً) خصت الخضرة بثيابهم لانها أحسن الالوان وأكثرها طراوة
(مِن سُندُسٍ وإستبرَقٍ) أى بما رق من الديباج وما غلظ جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهى الانفس وتلذ
الاعين (متّكِئينَ فيها علَى الأرائِكِ) على السرر على ما هو شأن المتنعمين (نِعمَ الثّوابُ) ذلك (وحَسُنَت) أى
الارائك (مُرتفَقاً) أى متكأ (واضرِب لهُم) أى للفريقين الكافر والمؤمن (مَثلاً رجُلَينِ) مفعولان لاضرب
أولهما ثانيهما لانه المحتاج إلى التفصيل والبيان أى اضرب للكافرين والمؤمنين لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر
آنفا من أن للأولين فى الآخرة كذا وللآخرين كذا بل من حيث عصيان الاولين مع تقلبهم فى نعم الله تعالى
وطاعة الآخرين مع مكابدتهم مشاق الفقر مثلا حال رجلين مقدرين أو محققين هما اخوان من بنى اسرائيل أو شريكان
كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا اقتسما ثمانية آلاف دينار فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا وصرف المؤمن
نصيبه الى وجوه المبار فآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى وقيل هما اخوان من بنى مخزوم كافر هو الاسود بن
عبد الاسد ومسلم هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الاسد زوج أم سلمة رضى الله عنها أولا (جعَلنا لأحدِهِما)
وهو الكافر (جنّتَينِ) بستانين (مِن أعنٰبٍ) من كروم متنوعة والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة لرجلين

(وحففناهما بنخل) أى جعلنا النخل محيطة بهما مؤزرا بها كرومهما يقال حفه القوم إذا طافوا به وحففته بهم جعلتهم حافين حوله فيزيده الباء مفعولا آخر كقولك غشيته به (وجعلنا بينهما) وسطهما (زرعاً) ليكون كل منهما جامعاً للاقوات والفواكه متواصل العمارة على الهيئة الرائقة والوضع الأنيق (كلتا الجنتين آتت أكلها) ثمرها وبلغت مبلغا صالحا للاكل وقرىء بسكون الكاف وقرىء كل الجنتين آتى أكله (ولم تظلم منه) لم تنقص من أكلها (شيئاً) كما يعهد ذلك فى سائر البساتين فان الثمار غالبا تكثر فى عام وتقل فى آخر وكذا بعض الأشجار يأتى بالثمر فى بعض الأعوام دون بعض (وفجرنا خلالهما) فيما بين كل من الجنتين (نهرا) على حدة ليدوم شربهما ويزيد بهاؤهما وقرىء بالتخفيف ولعل تأخير ذكر تفجير النهر عن ذكر ايتاء الأكل مع أن الترتيب الخارجى على العكس للايذان باستقلال كل من ايتاء الأكل وتفجير النهر فى تكميل محاسن الجنتين كما فى قصة البقرة ونحوها ولو عكس لانفهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مترتب على بعض فان ايتاء الأكل متفرع على السقى عادة وفيه إيماء إلى أن ايتاء الأكل لا يتوقف على السقى كقوله تعالى يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار (وكان له) لصاحب الجنتين (ثمر) أنواع من المال غير الجنتين من ثمر ماله إذا كثره قال ابن عباس رضى الله عنهما هو جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك وقال مجاهد هو الذهب والفضة خاصة (فقال لصاحبه) المؤمن (وهو) أى القائل (يحاوره) أى صاحبه المؤمن وإن جاز العكس أى يراجعه فى الكلام من حار إذا رجع (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) حشما وأعوانا أو أولادا ذكورا لأنهم الذين ينفرون معه (ودخل جنته) التى شرحت أحوالها وعددها وصفاتها وهيآتها وتوحيدها إما لعدم تعلق الغرض بتعددها وإما لاتصال احداهما بالأخرى وإما لأن الدخول يكون فى واحدة فواحدة (وهو ظالم لنفسه) ضار لها بعجبه وكفره (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من ذكر دخول جنته حال ظلمه لنفسه كأنه قيل فماذا قال إذ ذاك فقيل قال (ما أظن أن تبيد هذه) الجنة أى تفنى (أبدا) لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بمهلته ولعله إنما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنتيه ونهيه عن الاغترار بهما وأمره بتحصيل الباقيات الصالحات (وما أظن الساعة قائمة) كائنة فيما سيأتى (ولئن رددت) بالبعث عند قيامها كما تقول (إلى ربى لأجدن) يومئذ (خيرا منها) أى من هذه الجنة وقرىء منهما أى من الجنتين (منقلباً) مرجعا وعاقبة ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاد أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه فى الدنيا لاستحقاقه الذاتى وكرامته عليه سبحانه ولم يدر أن ذلك استدراج (قال له صاحبه) استئناف كما سبق (وهو يحاوره) جملة حالية كما مر فائدتها التنبيه من أول الأمر على أن ما يتلوه كلام معتنى بشأنه مسوق للمحاورة (أكفرت) حيث قلت ما أظن الساعة قائمة (بالذى خلقك) أى فى ضمن خلق أصلك (من تراب) فان خلق آدم عليه السلام منه متضمن لخلقه منه لما أن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه وقيل خلقك منه لأنه أصل مادتك إذ به يحصل الغذاء الذى منه تحصل النطفة فتدبر (ثم من نطفة) هى مادتك القريبة فالمخلوق واحد والمبدأ متعدد (ثم سواك رجلاً) أى عدلك وكملك انسانا ذكرا أو صيرك رجلا والتعبير عنه تعالى بالموصول للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة لانكار الكفر والتلويح بدليل البعث الذى نطق به قوله عز من قائل يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب الخ (لكنا هو الله ربى) أصله لكن أنا وقد قرىء كذلك فحذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الادغام وهو ضمير الشأن وهو مبتدأ خبره الله ربى

وتلك الجملة خبر أنا والعائد منها اليه الضمير وقرىء باثبات ألف أنا فى الوصل والوقف جميعاً وفى الوقف خاصة وقرىء لكنه بالهاء ولكن بطرح أنا ولكن انا لا اله إلا هو ربى ومدار الاستدراك قوله تعالى أكفرت كأنه قال أنت كافر لكنى مؤمن موحد (ولا أشرك بربى أحدا) فيه إيذان بأن كفره كان بطريق الاشراك (ولولا إذ دخلت جنتك قلت) أى هلا قلت عند ما دخلتها وتقديم الظرف على المحضض عليه للايذان بتحتم القول فى آن الدخول من غير ريث لا للقصر (ما شاء الله) أى الأمر ما شاء الله أو ما شاء الله كائن على أن ما موصولة مرفوعة المحل أو أى شىء شاء الله كان على أنها شرطية منصوبة والجواب محذوف والمراد تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها (لا قوة إلا بالله) أى هلا قلت ذلك اعترافا بعجزك وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته تعالى وإقداره عن النبى صلى الله عليه وسلم من رأى شيأ فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره (إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا) أنا إما مؤكد لياء المتكلم أو ضمير فصل بين مفعولى الرؤية ان جعلت علمية وأقل ثانيهما وحال ان جعلت بصرية فيكون أنا حينئذ تأكيدا لا غير لأن شرط كونه ضمير فصل توسطه بين المبتدا والخبر أو ما أصله المبتدأ والخبر وقرىء أقل بالرفع خبر أنا والجملة مفعول ثان للرؤية أو حال وفى قوله تعالى وولدا نصرة لمن فسر النفر بالولد (فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك) هو جواب الشرط والمعنى ان ترن أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله سبحانه أن يقلب ما بى وما بك من الفقر والغنى فيرزقنى لايمانى جنة خيرا من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب جنتك (ويرسل عليها حسبانا) هو مصدر بمعنى الحساب كالبطلان والغفران أى مقدارا قدره الله تعالى وحسبه وهو الحكم بتخريبها وقيل عذاب حسبان وهو حساب ما كسبت يداه وقيل مرامى جمع حسبانة وهى الصواعق ومساعدة النظم الكريم فيما سيأتى للاولين أكثر (من السماء فتصبح صعيدا زلقا) مصدر أريد به المفعول مبالغة أى أرضا ملساء يزلق عليها لاستئصال ما عليها من البناء والشجر والنبات (أو يصبح) عطف على قوله تعالى فتصبح وعلى الوجه الثالث على يرسل (ماؤها غورا) أى غائرا فى الأرض أطلق عليه المصدر مبالغة (فلن تستطيع) أبدا (له) أى للماء الغائر (طلبا) فضلا عن وجدانه ورده (وأحيط بثمره) أهلك أمواله المعهودة من جنتيه وما فيهما وأصله من احاطة العدو وهو عطف على مقدر كأنه قيل فوقع بعض ما توقع من المحذور وأهلك أمواله وإنما حذف لدلالة السباق والسياق عليه كما فى المعطوف عليه بالفاء الفصيحة (فأصبح يقلب كفيه) ظهرا لبطن وهو كناية عن الندم كأنه قيل فأصبح يندم (على ما أنفق فيها) أى فى عمارتها من المال ولعل تخصيص الندم به دون ما هلك الآن من الجنة لما أنه إنما يكون على الأفعال الاختيارية ولأن ما أنفق فى عمارتها كان مما يمكن صيانته عن طوارق الحدثان وقد صرفه إلى مصالحها رجاء أن يتمتع بها أكثر مما يتمتع به وكان يرى أنه لا تنالها أيدى الردى ولذلك قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا فلما ظهر له أنها مما يعتريه الهلاك ندم على ما صنع بناء على الزعم الفاسد من انفاق ما يمكن ادخاره فى مثل هذا الشىء السريع الزوال (وهى) أى الجنة من الأعناب المحفوفة بنخل (خاوية) ساقطة (على عروشها) أى دعائمها المصنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها وتخصيص حالها بالذكر دون النخل والزرع اما لأنها العمدة وهما من متممانها واما لأن ذكر هلاكها مغن عن ذكر هلاك الباقى لأنها حيث هلكت وهى مشيدة بعروشها فهلاك ما عداها بالطريق الأولى واما لأن الانفاق فى عمارتها أكثر وقيل أرسل الله تعالى عليها نارا فأحرقتها وغار ماؤها (ويقول) عطف على يقلب أو حال من ضميره أى وهو يقول (يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا) كأنه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه إنما أتى من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه قبل ويحتمل أن يكون ذلك توبة من الشرك وندما على ما فرط منه

(ولم تكن له) وقرىء بالياء التحتانية (فئة ينصرونه) يقدرون على نصره بدفع الاهلاك أو على رد المهلك أو الاتيان بمثله وجمع الضمير باعتبار المعنى كما فى قوله عز وعلا يرونهم مثليهم (من دون الله) فانه القادر على ذلك وحده (وما كان) فى نفسه (منتصرا) ممتنعا بقوته عن انتقامه سبحانه (هنالك) فى ذلك المقام وفى تلك الحال (الولاية لله الحق) أى النصرة له وحده لا يقدر عليها أحد فهو تقرير لما قبله أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة كما نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن ويعضده قوله تعالى (هو خير ثوابا وخير عقبا) أى لأوليائه وقرىء الولاية بكسر الواو ومعناها الملك والسلطان أى هنالك السلطان له عز وجل لا يغلب ولا يمتنع منه أو لا يعبد غيره كقوله تعالى وإذا ركبوا دعوا الله مخلصين له الدين فيكون تنبيها على أن قوله ياليتنى لم أشرك الخ كان عن اضطرار وجزع مما دهاه على أسلوب قوله تعالى آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين وقيل هنالك إشارة إلى الآخرة كقوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقرىء برفع الحق على أنه صفة للولاية وبنصبه على أنه مصدر مؤكد وقرىء عقبا بضم القاف وعقبى كرجعى والكل بمعنى العاقبة (واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا) أى واذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكفوا عليها ولا يضربوا عن الآخرة صفحا بالمرة أو بين لهم صفتها العجيبة التى هى فى الغرابة كالمثل (كماء) استئناف لبيان المثل أى هى كماء (أنزلناه من السماء) ويجوز كونه مفعولا ثانيا لاضرب على أنه بمعنى صير (فاختلط به) اشتبك بسببه (نبات الأرض) فالتف وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه أو نجع الماء فى النبات حتى روى ورف فمقتضى الظاهر حينئذ فاختلط بنبات الأرض وإيثار ما عليه النظم الكريم عليه للمبالغة فى الكثرة فان كلا من المختلطين موصوف بصفة صاحبه (فأصبح) ذلك النبات الملتف اثر بهجته ورفيفه (هشيما) مهشوما مكسورا (تذروه الرياح) تفرقه وقرىء تذريه من أذراه وتذروه الريح وليس المشبه به نفس الماء بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر وارفا ثم هشيما تطيره الرياح كأن لم يغن بالأمس (وكان الله على كل شىء) من الأشياء التى من جملتها الانشاء والافناء (مقتدرا) قادرا على الكمال (المال والبنون زينة الحيوة الدنيا) بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من محسنات الحياة الدنيا كما قال الأخ الكافر أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا اثر بيان شأن نفسها بما مر من المثل وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه كما فى الآية المحكية آنفا وقوله تعالى وأمددناكم بأموال وبنين وغير ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما نيط به من الزينة والامداد وغير ذلك وعمومه بالنسبة إلى الافراد والأوقات فانه زينة وممد لكل أحد من الآباء والبنين فى كل وقت وحين وأما البنون فزينتهم وامدادهم إنما يكون بالنسبة إلى من بلغ مبلغ الأبوة ولأن المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع ولأن الحاجة اليه أمس من الحاجة اليهم ولأنه أقدم منهم فى الوجود ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فان من له بنون بلا مال فهو فى ضيق حال ونكال وافراد الزينة مع أنها مسندة إلى الاثنين لما أنها مصدر فى الأصل أطلق على المفعول مبالغة كأنهما نفس الزينة والمعنى ان ما يفتخرون به من المال والبنين شىء يتزين به فى الحياة الدنيا وقد علم شأنها فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال فكيف بما هو من أوصافها التى شأنها أن تزول قبل زوالها (والباقيات الصالحات) هى أعمال الخير وقيل هى الصلوات الخمس وقيل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقيل كل ما أريد به وجه الله تعالى وعلى كل تقدير يدخل فيها أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه دخولا أوليا أما صلاحها فظاهر وأما بقاؤها فبقاء عوائدها عند فناء كل ما تطمح اليه النفس من حظوظ الدنيا (خير) أى مما نعت شأنه من المال والبنين وإخراج بقاء تلك الأعمال وصلاحها مخرج الصفات المفروغ عنها مع أن حقهما أن يكونا مقصودى

الافادة لاسيما فى مقابلة إثبات الفناء لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق للايذان بأن بقاءها أمر محقق لا حاجة إلى بيانه بل لفظ الباقيات اسم لها وصف ولذلك لم يذكر الموصوف وإنما الذى يحتاج إلى التعرض له خيريتها (عِندَ ربكَ) أى فى الآخرة وهو بيان لما يظهر فيه آثار خيريتها بمنزلة إضافة الزينة إلى الحياة الدنيا لا لأفضليتها فيها من المال والبنين مع مشاركة الكل فى الأصل إذ لا مشاركة لهما فى الخيرية فى الآخرة (ثَوَاباً) عائدة تعود إلى صاحبها (وَخَيرٌ أَمَلاً) حيث ينال بها صاحبها فى الآخرة كل ما كان يؤمله فى الدنيا وأما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه أمل يناله وتكرير خير للاشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة فيها (وَيَومَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ) منصوب بمضمر أى اذكر حين نقلعها من أماكنها ونسيرها فى الجو على هيئاتها كما ينبىء عنه قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب أو نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منبثا والمراد بتذكيره تحذير المشركين مما فيه من الدواهى وقيل هو معطوف على ما قبله من قوله تعالى عند ربك أى الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة وقرىء تسير على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جريا على سنن الكبرياء وإيذانا بالاستغناء عن الاسناد إلى الفاعل لتعينه وقرىء تسير (وَتَرَى الأَرضَ) أى جميع جوانبها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية وقرىء ترى على صيغة البناء للمفعول (بَارِزَةً) أما بروز ما تحت الجبال فظاهر وأما ما عداه فكانت الجبال تحول بينه وبين الناظر قبل ذلك فالآن أضحى قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا (وَحَشَرنَاهُم) جمعناهم إلى الموقف من كل أوب وإيثار صيغة الماضى بعد نسير وترى للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذى ينكره المنكرون وعليه يدور أمر الجزاء وكذا الكلام فيما عطف عليه منفيا وموجبا وقيل هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك (فَلَم نُغَادِر) أى لم نترك (مِنهُم أَحَداً) يقال غادره وأغدره إذا تركه ومنه الغدر الذى هو ترك الوفاء والغدير الذى هو ماء يتركه السيل فى الأرض الغائرة وقرىء بالياء وبالفوقانية على إسناد الفعل إلى ضمير الأرض كما فى قوله تعالى وألقت ما فيها وتخلت (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ) شبهت حالهم بحال جند عرضوا على السلطان ليأمر فيهم بما يأمر وفى الالتفات إلى الغيبة وبناء الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والاضافة الى ضميره عليه السلام من تربية المهابة والجرى على سنن الكبرياء واظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى (صَفّاً) أى غير متفرقين ولا مختلطين فلا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده وقد ورد فى الحديث الصحيح يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا (لَقَد جِئتُمُونَا) على اضمار القول على وجه يكون حالا من ضمير عرضوا أى مقولا لهم أو وقلنا لهم وأما كونه عاملا فى يوم نسير كما قيل فبعيد من جزالة التنزيل الجليل كيف لا ويلزم منه أن هذا القول هو المقصود بالاصالة دون سائر القوارع مع أنه خاص التعلق بما قبله من العرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الأرض (كَمَا خَلَقنَاكُم) نعت لمصدر مقدر أى مجيئا كائنا كمجيئكم عند خلقنا لكم (أَوَّلَ مَرَّةٍ) أو حال من ضمير جئتمونا أى كائنين كما خلقناكم أول مرة حفاة عراة عزلا أو ما معكم شىء مما تفتخرون به من الأموال والأنصار كقوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم (بَل زَعَمتُم أَلَّن نَجعَلَ لَكُم مَوعِداً) اضراب وانتقال من كلام الى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع أى زعمتم فى الدنيا أنه لن نجعل لكم أبدا وقتا ننجز فيه ما وعدناه من البعث وما يتبعه وأن مخففة من المثقلة فصل بحرف النفى بينها وبين خبرها لكونه جملة فعلية متصرفة غير دعاء والظرف اما مفعول ثان للجعل وهو بمعنى التصيير والأول هو موعدا أو حال من موعدا وهو بمعنى الخلق والإبداع (وَوُضِعَ الكِتَابُ) عطف على عرضوا داخل تحت الأمور الهائلة التى أريد تذكيرها بتذكير وقتها أورد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة

الماضى دلالة على التقرر أيضا أى وضع صحائف الأعمال وإيثار الافراد للاكتفاء بالجنس والمراد بوضعها اما وضعها فى أيدى أصحابها يمينا وشمالا وإما فى الميزان (فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ) قاطبة فيدخل فيهم الكفرة المنكرون للبعث دخولا أوليا (مُشْفِقِينَ) خائفين (مِمَّا فِيهِ) من الجرائم والذنوب (وَيَقُولُونَ) عند وقوفهم على ما فى تضاعيفه نقيرا وقطميرا (يَا وَيْلَتَنَا) منادين لهلكتهم التى هلكوها من بين الهلكات مستدعين لها ليهلكوا ولا يروا هول ما لاقوه أى يا ويلتنا احضرى فهذا أوان حضورك (مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ) أى أى شىء له وقوله تعالى (لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) أى حواها وضبطها جملة حالية محققة لما فى الجملة الاستفهامية من التعجب أو استئنافية مبنية على سؤال نشأ من التعجب كأنه قيل ما شأنه حتى يتعجب منه فقيل لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا) فى الدنيا من السيئات أو جزاء ما عملوا (حَاضِرًا) مسطورا عتيدا (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) فيكتب ما لم يعمل من السيئات أو يزيد فى عقابه المستحق فيكون إظهارا لمعدلة القلم الأزلى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ) أى اذكر وقت قولنا لهم (اسْجُدُوا لِآدَمَ) سجود تحية وتكريم وقد مر تفصيله (فَسَجَدُوا) جميعا امتثالا بالأمر (إِلَّا إِبْلِيسَ) فانه لم يسجد بل أبى واستكبر وقوله تعالى (كَانَ مِنَ الْجِنِّ) كلام مستأنف سيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين كأنه قيل ماله لم يسجد فقيل كان أصله جنيا (فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) أى خرج عن طاعته كما ينبىء عنه الفاء أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر الله تعالى إذ لولاه لما أبى والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله والمراد بتذكير قصته تشديد النكير على المتكبرين المفتخرين بأنسابهم وأموالهم المستنكفين عن الانتظام فى سلك فقراء المؤمنين ببيان أن ذلك من صنيع إبليس وأنهم فى ذلك تابعون لتسويله كما ينبىء عنه قوله تعالى (أَفَتَتَّخِذُونَهُ) الخ فان الهمزة للانكار والتعجيب والفاء للتعقيب أى أعقيب علمكم بصدور تلك القبائح عنه تتخذونه (وَذُرِّيَّتَهُ) أى أولاده وأتباعه جعلوا ذريته مجازا قال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين (أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي) فتستبدلونهم بى فتطيعونهم بدل طاعتى (وَهُمْ) أى والحال أن إبليس وذريته (لَكُمْ عَدُوٌّ) أى أعداء كما فى قوله تعالى فانهم عدو لى الارب العالمين وقوله تعالى هم العدو وإنما فعل به ذلك تشبيها له بالمصادر نحو القبول والولوع وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيد الإنكار وتشديده فان مضمونها مانع من وقوع الاتخاذ ومناف له قطعا (بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ) أى الواضعين للشىء فى غير موضعه (بَدَلًا) من الله سبحانه ابليس وذريته وفى الالتفات إلى الغيبة مع وضع الظالمين موضع الضمير من الايذان بكمال السخط والاشارة إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح ما لا يخفى (مَا أَشْهَدْتُهُمْ) استئناف مسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور فى أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك من خباثة المحتد والفسق والعداوة أى ما أحضرت ابليس وذريته (خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) حيث خلقتهما قبل خلقهم (وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) أى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم هذا ما أجمع عليه الجمهور حذارا من تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الأنفس ولك أن ترجع الضمير الثانى إلى الظالمين وتلتزم التفكيك بناء على عود المعنى اليه فان نفى إشهاد الشياطين خلق الذين يتولونهم هو الذى يدور عليه انكار اتخاذهم أولياء بناء على أن أدنى ما يصحح التولى حضور الولى خلق المتولى وحيث لا حضور لا مصحح للتولى قطعا وأما نفى اشهاد بعض الشياطين خلق بعض منهم فليس من مدارية الانكار المذكور فى شىء على أن اشهاد بعضهم خلق بعض ان كان مصححا لتولى الشاهد بناء على دلالته على كماله باعتبار أن له مدخلا فى خلق المشهود فى الجملة فهو مخل بتولى المشهود بناء على قصوره عمن شهد خلقه فلا يكون نفى الاشهاد المذكور متمحضا فى نفى الكمال المصحح للتولى عن الكل وهو

المناط للانكار المذكور (وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ) أى متخذهم وإنما وضع موضعه المظهر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالاضلال وتأكيدا لما سبق من انكار اتخاذهم أولياء (عَضُدًا) أعوانا فى شأن الخلق أو فى شأن من شئونى حتى يتوهم شركتهم فى التولى بناء على الشركة فى بعض أحكام الربوبية وفيه تهكم بهم وايذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم حيث لا يفهمون هذا الأمر الجلى الذى لا يكاد يشتبه على البله والصبيان فيحتاجون إلى التصريح به وإيثار نفى الاشهاد على نفى شهودهم ونفى اتخاذهم أعوانا على نفى كونهم كذلك للاشعار بأنهم مقهورون تحت قدرته تعالى تابعون لمشيئته وإرادته فيهم وأنهم بمعزل من استحقاق الشهود والمعونة من تلقاء أنفسهم من غير احضار واتخاذ وإنما قصارى ما يتوهم فى شأنهم أن يبلغوا ذلك المبلغ بأمر الله عز وجل ولم يكد ذلك يكون وقيل الضمير للمشركين والمعنى ما أشهدتهم خلق ذلك وما أطلعتهم على أسرار التكوين وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون فلا يلتفت إلى قولهم طمعا فى نصرتهم للدين فانه لا ينبغى لى أن أعتضد بالمضلين ويعضده القراءة بفتح التاء خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى ما صح لك الاعتضاد بهم ووصفهم بالاضلال لتعليل نفى الاتخاذ وقرىء متخذا المضلين على الأصل وقرىء عضدا بضم العين وسكون الضاد وبفتح وسكون بالتخفيف وبضمتين بالاتباع وبفتحتين على انه جمع عاضد كرصد وراصد (وَيَوْمَ يَقُولُ) أى الله عز وجل للكافرين توبيخا وتعجيزا وقرىء بنون العظمة (نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) أنهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم والمراد بهم كل ما عبد من دونه تعالى وقيل إبليس وذريته (فَدَعَوْهُمْ) أى نادوهم للاغاثة وفيه بيان لكمال اعتنائهم باعانتهم على طريقة الشفاعة إذ معلوم أن لا طريق إلى المدافعة (فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) فلم يغيثوهم إذ لا إمكان لذلك وفى إراده مع ظهوره تهكم بهم وإيذان بأنهم فى الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم) بين الداعين والمدعوين (مَّوْبِقًا) اسم مكان أو مصدر من وبق وبوقا كوثب وثوبا أو وبق وبقا كفرح فرحا إذا هلك أى مهلكا يشتركون فيه وهو النار أو عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك كقول عمر رضى الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقيل البين الوصل أى وجعلنا تواصلهم فى الدنيا هلاكا فى الآخرة ويجوز أن يكون المراد بالشركاء الملائكة وعزيرا وعيسى عليهم السلام ومريم وبالموبق البرزخ البعيد أى جعلنا بينهم أمدا بعيدا يهلك فيه الاشواط لفرط بعده لأنهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان (وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ) وضع المظهر مقام المضمر تصريحا باجرامهم وذما لهم بذلك (فَظَنُّوا) أى فأيقنوا (أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا) مخالطوها واقعون فيها أو ظنوا إذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعة (وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) انصرافا أو معدلا ينصرفون اليه (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا) أى كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم (فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ) لمصلحتهم ومنفعتهم (مِن كُلِّ مَثَلٍ) من جملته ما مر من مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا أو من كل نوع من أنواع المعانى البديعة الداعية إلى الإيمان التى هى فى الغرابة والحسن واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا (وَكَانَ الْإِنسَٰنُ) بحسب جبلته (أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا) أى أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدل وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل والمماراة من الجدل الذى هو الفتل والمجادلة الملاواة لأن كلا من المجادلين يلتوى على صاحبه وانتصابه على التمييز والمعنى أن جدله أكثر من جدل كل مجادل (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ) أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم (أَن يُؤْمِنُوا) من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه من الاشراك (إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ) أى القرآن العظيم الهادى إلى الإيمان بما فيه من فنون المعانى الموجبة له (وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ) عما فرط منهم من أنواع الذنوب التى من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل (إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) أى الا طلب إتيان سنتهم أو الا انتظار اتيانها أو الا تقديره فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وسنتهم الاستئصال (أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ) أى

عذاب الآخرة (قبلاً) أى أنواعا جمع قبيل أو عيانا كما فى قراءة قبلا بكسر القاف وفتح الباء وقرىء بفتحتين أى مستقبلا يقال لقيته قبلا وقبلا وقبلا وانتصابه على الحالية من الضمير أو العذاب والمعنى أن ما تضمنه القرآن الكريم من الأمور المستوجبة للايمان بحيث لو لم يكن مثل هذه الحكمة القوية لما امتنع الناس من الايمان وإن كانوا مجبولين على الجدل المفرط (وما نرسل المرسلين) إلى الأمم ملتبسين بحال من الأحوال (إلا) حال كونهم (مبشرين) للمؤمنين بالثواب (ومنذرين) للكفرة والعصاة بالعقاب (ويجادل الذين كفروا بالباطل) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتا (ليدحضوا به) أى بالجدال (الحق) أى يزيلوه عن مركزه ويبطلوه من ادحاض القدم وهو ازلاقها وهو قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام ما أنتم إلا بشر مثلنا ولو شاء الله لأنزل ملائكة ونحوهما (واتخذوا آياتى) التى تخر لها صم الجبال (وما أنذروا) أى أنذروه من القوارع الناعية عليهم العقاب والعذاب أو انذارهم (هزوا) استهزاء وقرىء بسكون الزاى وهو ما يستهزأ به (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) وهو القرآن العظيم (فأعرض عنها) ولم يتدبرها ولم يتذكر بها وهذا السبك وان كان مدلوله الوضعى نفى الأظلمية من غير تعرض لنفى المساواة فى الظلم إلا أن مفهومه العرفى أنه أظلم من كل ظالم وبناء الأظلمية على ما فى حيز الصلة من الاعراض عن القرآن للاشعار بأن ظلم من يجادل فيه ويتخذه هزوا خارج عن الحد (ونسى ما قدمت يداه) أى عمله من الكفر والمعاصى التى من جملتها ما ذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاء بالحق ولم يتفكر فى عاقبتها (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية كثيرة جمع كنان وهو تعليل لاعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم (أن يفقهوه) مفعول لما دل عليه الكلام أى منعناهم أن يقفوا على كنهه أو مفعول له أى كراهة أن يفقهوه (وفى آذانهم) أى جعلنا فيها (وقرا) ثقلا يمنعهم من استماعه (وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً) أى فلن يكون منهم اهتداء البتة مدة التكليف وإذن جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبى عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته باسلامهم كأنه قال عليه الصلاة والسلام مالى لا أدعوهم فقيل إن تدعهم الخ وجمع الضمير الراجع إلى الموصول فى هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن أفراده فى المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار لفظه (وربك) مبتدأ وقوله تعالى (الغفور) خبره وقوله تعالى (ذو الرحمة) أى الموصوف بها خبر بعد خبر وإيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب ولأن المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى من العذاب وأما الرحمة فهى فعل وإيجاد ولا يدخل تحت الوجود إلا ما يتناهى وتقديم الوصف الأول لأن التخلية قبل التحلية أو لأنه أهم بحسب الحال إذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قوله عز وجل (لو يؤاخذهم) أى لو يريد مؤاخذتهم (بما كسبوا) من المعاصى التى من جملتها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات (لعجل لهم العذاب) لاستيجاب أعمالهم لذلك وإيثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الأخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للايذان بأن النفى المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبىء عنه تاليها وإيثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضى لافادة أن انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم إرادة المؤاخذة فان المضارع الواقع موقع الماضى يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى كما حقق فى موضعه (بل لهم موعد) اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل ليسوا بمؤاخذين بغتة (لن يجدوا) البتة (من دونه موئلا) منجى أو ملجأ يقال وأل أى نجا ووأل إليه أى لجأ إليه (وتلك القرى) أى قرى عاد وثمود

وأضرابها وهى مبتدأ على تقدير المضاف أى وأهل تلك القرى خبره قوله تعالى (أَهْلَكْنَٰهُمْ) أو مفعول مضمر مفسر به (لَمَّا ظَلَمُوا) أى وقت ظلمهم كما فعلت قريش بما حكى عنهم من القبائح وترك المفعول إما لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلة اللازم أى لما فعلوا الظلم ولما إما حرف كما قال ابن عصفور وإما ظرف استعمل للتعليل وليس المراد به الوقت المعين الذى عملوا فيه الظلم بل زمان ممتد من ابتداء الظلم إلى آخره (وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم) أى عينا لهلاكهم (مَّوْعِدًا) أى وقتا معينا لا يحيدون عن ذلك وهذا استشهاد على مافعل بقريش من تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغتروا بتأخر العذاب وقرىء بضم الميم وفتح اللام أى اهلاكهم وبفتحهما (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ) نصب باضمار فعل أى اذكر وقت قوله عليه السلام (لِفَتَاهُ) وهو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليه السلام سمى فتاه إذ كان يخدمه ويتبعه وقيل كان يتعلم منه ويسمى التلميذ فتى وإن كان شيخا ولعل المراد بتذكيره عقيب بيان أن لكل أمة موعدا تذكير مافى القصة من موعد الملاقاة مع مافيها من سائر المنافع الجليلة (لَا أَبْرَحُ) من برح الناقص كزال يزال أى لا أزال أسير فحذف الخبر اعتمادا على قرينة الحال إذ كان ذلك عند التوجه إلى السفر واتكالا على مايعقبه من قوله (حَتَّىٰ أَبْلُغَ) فان ذلك غاية تستدعى ذا غاية يؤدى اليها ويجوز أن يكون أصل الكلام لا يبرح مسيرى حاصلا حتى ابلغ فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فينقلب الضمير البارز المجرور المحل مرفوعا مستكنا والفعل من صيغة الغيبة إلى التكلم ويجوز أن يكون من برح التام كزال يزول أى لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ (مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ) هو ملتقى بحر فارس والروم مما يلى المشرق وقيل طنجة وقيل هما الكر والرس بارمينية وقيل افريقية وقرىء بكسر الميم كمشرق (أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) أسير زمانا طويلا أتيقن معه فوات المطلب والحقب الدهر أو ثمانون سنة وكان منشأ هذه العزيمة أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بنى اسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط أمر الله عز وجل أن يذكر قومه النعمة فقام فيهم خطيبا بخطبة بديعة رقت بها القلوب وذرفت العيون فقالوا له من أعلم الناس قال أنا فعتب الله تعالى عليه إذ لم يرد العلم اليه عز وجل فأوحى اليه بل أعلم منك عبد لى عند مجمع البحرين وهو الخضر عليه السلام وكان فى أيام أفريدون قبل موسى عليه السلام وكان على مقدمة ذى القرنين الأكبر وبقى إلى أيام موسى وقيل إن موسى عليه السلام سأل ربه أى عبادك أحب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فأى عبادك أقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فأى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال إن كان عبادك من هو أعلم منى فدلنى عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على ساحل البحر عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيثما فقدته فهو هناك فأخذ حوتا فجعله فى مكتل فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرنى فأخذ يمشيان (فَلَمَّا بَلَغَا) الفاء فصيحة كما أشير اليه (مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا) أى مجمع البحرين وبينهما ظرف أضيف اليه اتساعا أو بمعنى الوصل (نَسِيَا حُوتَهُمَا) الذى جعل فقدانه أمارة وجدان المطلوب أى نسيا تفقد أمره وما يكون منه وقيل نسى يوشع أن يقدمه وموسى عليه السلام أن يأمره فيه بشىء روى أنهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التى لا يصيب ماؤها ميتا إلا يحيى وضعا رؤسهما على الصخرة فناما فلما أصاب الحوت برد الماء وروحه عاش وقد كان أكلا منه وكان ذلك بعد ما استيقظ يوشع عليه السلام وقيل توضأ عليه السلام من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش فوقع فى الماء (فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) مسلكا كالسرب وهو النفق قيل أمسك الله عز وجل جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام وانتصاب سربا على أنه مفعول ثان لاتخذ وفى البحر حال منه أو من السبيل ويجوز أن يتعلق باتخذ (فَلَمَّا جَاوَزَا) أى مجمع البحرين

الذى جعل موعدا للملاقاة قيل أدلجا وسارا الليلة والغد إلى الظهر وألقى على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك (قَالَ لِفَتَٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا) أى ما نتغدى به وهو الحوت كما ينبىء عنه الجواب (لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا) إشارة إلى ما سارا بعد مجاوزة الموعد (نَصَبًا) تعبا وإعياء قيل لم ينصب ولم يجع قبل ذلك والجملة فى محل التعليل للأمر بإيتاء الغداء إما باعتبار أن النصب إنما يعترى بسبب الضعف الناشىء عن الجوع وإما باعتبار ما فى أثناء التغدى من استراحة ما (قَالَ) أى فتاه عليه السلام (أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى ٱلصَّخْرَةِ) أى التجأنا إليها وأقمنا عندها وذكر الإواء إليها مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة فإن المجمع محل متسع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة إليه ولتمهيد العذر فإن الإواء إليها والنوم عندها مما يؤدى إلى النسيان عادة والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التى لا تكاد تنسى وقد جعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس يقول أحدهم لصاحبه إذا نابه خطب أرأيت ما نابنى يريد بذلك تهويله وتعجيب صاحبه منه وأنه مما لا يعهد وقوعه لا استخباره عن ذلك كما قيل والمفعول محذوف اعتمادا على ما يدل عليه من قوله عز وجل (فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ) وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المنسى وإيقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع أنه المأمور بإتيانه للتنبيه من أول الأمر على أنه ليس من قبيل نسيان المسافر زاده فى المنزل وأن ما شاهده ليس من قبيل الأحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غداء وطعام بل من حيث هو حوت كسائر الحيتان مع زيادة أى نسيت أن أذكر لك أمره وما شاهدت منه من الأمور العجيبة (وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ) بوسوسته الشاغلة عن ذلك وقوله تعالى (أَنْ أَذْكُرَهُۥ) بدل اشتمال من الضمير أى ما أنسانى أن أذكره لك وفى تعلق الإنساء بضمير الحوت أولا وبذكره له ثانيا على طريق الإبدال المنبىء عن تنحية المبدل منه إشارة إلى أن متعلق النسيان أيضا ليس نفس الحوت بل ذكر أمره وقرىء أن أذكره وإيثار أن أذكره على المصدر للمبالغة فإن مدلوله نفس الحدث عند وقوعه والحال وإن كانت غريبة لا يعهد نسيانها لكنه لما تعود بمشاهدة أمثالها عند موسى عليه السلام وألفها قل اهتمامه بالمحافظة عليها (وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا) بيان لطرف من أمر الحوت منبىء عن طرف آخر منه وما بينهما اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار كأنه قيل حى واضطرب ووقع فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا فعجبا ثانى مفعولى اتخذ والظرف حال من أولهما أو ثانيهما أو هو المفعول الثانى وعجبا صفة مصدر محذوف أى اتخاذا عجبا وهو كون مسلكه كالطاق والسرب أو مصدر فعل محذوف أى أتعجب منه عجبا وقد قيل إنه من كلام موسى عليه الصلاة والسلام وليس بذاك (قَالَ) أى موسى عليه الصلاة والسلام (ذَٰلِكَ) الذى ذكرت من أمر الحوت (مَا كُنَّا نَبْغِ) وقرىء بإثبات الياء والضمير العائد إلى الموصول محذوف أصله نبغيه أى نطلبه لكونه أمارة للفوز بالمرام (فَٱرْتَدَّا) أى رجعا (عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا) طريقهما الذى جاءا منه (قَصَصًا) يقصان قصصا أى يتبعان آثارهما اتباعا أو مقتصين حتى أتيا الصخرة (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ) التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف والجمهور على أنه الخضر واسمه بليا بن ملكان وقيل اليسع وقيل إلياس عليهم الصلاة والسلام (ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا) هى الوحى والنبوة كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء (وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) خاصا لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب (قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من السياق كأنه قيل فماذا جرى بينهما من الكلام فقيل قال له موسى (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ) استئذانا منه فى اتباعه له على وجه التعلم (مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) أى علما ذا رشد أرشد به فى دينى والرشد إصابة الخير وقرىء بفتحتين وهو

مفعول تعلمن ومفعول علمت محذوف وكلاهما منقول من علم المتعدى إلى مفعول واحد ويجوز كونه علة لأتبعك أو مصدرا بإضمار فعله ولا ينافى نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من نبى آخر ما لا تعلق له بأحكام شريعته من أسرار العلوم الخفية ولقد راعى فى سوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام (قَالَ) أى الخضر (إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً) نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كأنه مما لا يصح ولا يستقيم وعلله بقوله (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً) إيذانا بأنه يتولى أمورا خفية المدار منكرة الظواهر والرجل الصالح لا سيما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يشمئز عند مشاهدتها وفى صحيح البخارى قال الخضر يا موسى إنى على علم من علم الله تعالى علمنيه لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه وخبرا تمييز أى لم يحط به خبرك (قَالَ) موسى عليه الصلاة والسلام (سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً) معك غير معترض عليك وتوسيط الاستثناء بين مفعولى الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر (وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً) عطف على صابرا أى ستجدنى صابرا وغير عاص وفى وعد هذا الوجدان من المبالغة ما ليس فى الوعد بنفس الصبر وترك العصيان أو على ستجدنى فلا محل له من الإعراب والأول هو الأولى لما عرفته ولظهور تعلقه بالاستثناء حينئذ وفيه دليل على أن أفعال العباد بمشيئة الله سبحانه وتعالى (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي) أذن له فى الاتباع بعد اللتيا والتى والفاء لتفريع الشرطية على ما مر من التزام موسى عليه الصلاة والسلام للصبر والطاعة (فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ) تشاهده من أفعالى أى لا تفاتحنى بالسؤال عن حكمته فضلا عن المناقشة والاعتراض (حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً) أى حتى أبتدىء ببيانه وفيه إيذان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع وقرىء فلا تسألنى بالنون المثقلة (فَانطَلَقَا) أى موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام على الساحل يطلبان السفينة وأما يوشع فقد صرفه موسى عليه الصلاة والسلام إلى بنى اسرائيل قيل انهما مرا بسفينة فكلما أهلها فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول (حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ) استعمال الركوب فى أمثال هذه المواقع بكلمة فى مع تجريده عنها فى مثل قوله عز وجل لتركبوها وزينة على ما يقتضيه تعديته بنفسه لما أشرنا اليه فى قوله تعالى وقال اركبوا فيها لا لما قيل من أن فى ركوبها معنى الدخول (خَرَقَهَا) قيل خرقها بعد ما لججوا حيث أخذ فأسا فقلع من ألواحها لوحين مما يلى الماء فعند ذلك (قَالَ) موسى عليه السلام (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) من الاغراق وقرىء بالتشديد من التغريق وليغرق أهلها من الثلاثى (لَقَدْ جِئْتَ) أتيت وفعلت (شَيْئاً إِمْراً) أى عظيما هائلا من أمر الأمر إذا عظم قيل الأصل أمرا فخفف (قَالَ) أى الخضر عليه السلام (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً) تذكير لما قاله من قبل وتحقيق لمضمونه متضمن للانكار على عدم الوفاء بوعده (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ) بنسيانى أو بالذى نسيته أو بشىء نسيته وهو وصيته بأن لا يسأله عن حكمة ما صدر عنه من الأفعال الخفية الأسباب قبل بيانه أراد أنه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسى كما ورد فى صحيح البخارى من أن الأول كان من موسى نسيانا أو أخرج الكلام فى معرض النهى عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه أنه قد نسى ليبسط عذره فى الانكار وهو من معاريض الكلام التى يتقى بها الكذب مع التوصل إلى الغرض أو أراد بالنسيان الترك أى لا تؤاخذنى بما تركت من وصيتك أول مرة (وَلَا تُرْهِقْنِي) أى لا تغشنى ولا تحملنى (مِنْ أَمْرِي) وهو اتباعه إياه (عُسْراً) أى لا تعسر على متابعتك ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وقرىء عسرا بضمتين (فَانطَلَقَا) الفاء فصيحة أى فقبل عذره فخرجا من السفينة فانطلقا (حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ) قيل كان الغلام يلعب مع الغلمان فقتل عنقه وقيل ضرب برأسه الحائط وقيل اضجعه فذبحه بالسكين (قَالَ) اى موسى عليه الصلاة والسلام (أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً)

طاهرة من الذنوب وقرىء زاكية (بِغَيْرِ نَفْسٍ) أى بغير قتل نفس محرمة وتخصيص نفى هذا المبيح بالذكر من بين سائر المبيحات من الكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان لأنه الأقرب إلى الوقوع نظرا إلى حال الغلام ولعل تغيير النظم الكريم بجعل ماصدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام ههنا من جملة الشرط وإبراز ماصدر عن موسى عليه الصلاة والسلام فى معرض الجزاء المقصود افادته مع أن الحقيق بذلك إنما هو ماصدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام من الخوارق البديعة لاستشراف النفس إلى ورود خبرها لقلة وقوعها فى نفس الأمر وندرة وصول خبرها إلى الأذهان ولذلك روعيت تلك النكتة فى الشرطية الأولى لما أن صدور الخوارق منه عليه الصلاة والسلام خرج بوقوعه مرة مخرج العادة فانصرفت النفس عن ترقبه إلى ترقب أحوال موسى عليه الصلاة والسلام هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب وعده الأكيد عند مشاهدة خارق آخر أو يسارع إلى المناقشة كما فى المرة الأولى فكان المقصود افادة ماصدر عنه عليه الصلاة والسلام ففعل مافعل ولله در شأن التنزيل وأما ماقيل من أن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل فكان جديرا بأن يجعل عمدة فى الكلام فليس من دفع الشبهة فى شىء بل هو مؤيد لها فان كون القتل أقبح من مبادى قلة صدوره عن المؤمن العاقل وندرة وصول خبره إلى الأسماع وذلك مما يستدعى جعله مقصودا بالذات وكون الاعتراض عليه أدخل من موجبات كثرة صدوره عن كل عاقل وذلك مما لا يقتضى جعله كذلك (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) قيل معناه أنكر من الأول إذ لا يمكن تداركه كما يمكن تدارك الأول بالسد ونحوه وقيل الأمر أعظم من النكر لأن قتل نفس واحدة أهون من اغراق أهل السفينة (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) زيد لك لزيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير حتى زاد فى النكير فى المرة الثانية (قَالَ) أى موسى عليه الصلاة والسلام (إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا) أى بعد هذه المرة (فَلَا تُصَاحِبْنِي) وقرىء من الأفعال أى لا تجعلنى صاحبك (قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا) أى قد أعذرت ووجدت من قبلى عذرا حيث خالفتك ثلاث مرات عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى موسى استحيى فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب وقرىء لدنى بتخفيف النون وقرىء بسكون الدال كعضد فى عضد (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ) هى أنطاكية وقيل أيلة وهى أبعد أرض الله من السماء وقيل هى برقة وقيل بلدة بأندلس عن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا أهل قرية لئاما وقيل شر القرى التى لا يضاف فيها الضيف ولا يعرف لابن السبيل حقه وقوله تعالى (اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا) فى محل الجر على أنه صفة لقرية ولعل العدول عن استطعامهم على أن يكون صفة للاهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم فان الاباء من الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع روى أنهما طافا فى القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم (فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا) بالتشديد وقرىء بالتخفيف من الاضافة يقال ضافه إذا كان له ضيفا وأضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفا له وحقيقة ضاف مال اليه من ضاف السهم عن الغرض ونظيره زاره من الازورار (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) أى يدانى أن يسقط فاستعيرت الارادة للمشارفة للدلالة على المبالغة فى ذلك والانقضاض الاسراع فى السقوط وهو انفعال من القض يقال قضضته فانقض ومنه انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة وقيل هو افعلال من النقض كاحمر من الحمرة وقرىء أن ينقض من النقض وأن ينقاض من انقاضت السن إذا انشقت طولا (فَأَقَامَهُ) قيل مسحه بيده فقام وقيل نقضه وبناه وقيل أقامه بعمود عمده به قيل كان سمكه مائة ذراع (قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) تحريضا له على اخذ الجعل لينتعشا به أو تعريضا بأنه فضول لما فى لو من النفى كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر

واتخذ افتعل من تخذ بمعنى أخذ كاتبع من تبع وليس من الأخذ عند البصريين وقرىء لتخذت أى لأخذت وقرىء بادغام الذال فى التاء (قَالَ) أى الخضر عليه الصلاة والسلام (هٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) على إضافة المصدر إلى الظرف اتساعا وقد قرىء على الأصل والمشار اليه اما نفس الفراق كما فى هذا أخوك أو الوقت الحاضر أى هذا الوقت وقت فراق بينى وبينك أو السؤال الثالث أى هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود (سَأُنَبِّئُكَ) السين للتأكيد لعدم تراخى التنبية (بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) التأويل رجع الشىء إلى مآله والمراد به ههنا المآل والعاقبة إذ هو المنبأ به دون التأويل وهو خلاص السفينة من اليد العادية وخلاص أبوى الغلام من شره مع الفوز بالبدل الأحسن واستخراج اليتيمين للكنز وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر دون أن يقال بتأويل ما فعلت أو بتأويل ما رأيت ونحوهما نوع تعريض به عليه الصلاة والسلام وعتاب (أَمَّا السَّفِينَةُ) التى خرقتها (فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ) لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة وقيل كانت لعشرة أخوة خمسة منهم زمنى وخمسة (يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ) وإسناد العمل إلى الكل حينئذ إنما هو بطريق التغليب أو لأن عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) أى أجعلها ذات عيب (وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ) أى أمامهم وقد قرىء به أو خلفهم وكان رجوعهم عليه لا محالة واسمه جلندى بن كركر وقيل منولة بن جلندى الازدى (يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ) أى صالحة وقد قرىء كذلك (غَصْبًا) من أصحابها وانتصابه على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ ولعل تفريع إرادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبل بيان خوف الغصب مع أن مدارها كلا الأمرين للاعتناء بشأنها إذ هى المحتاجة إلى التأويل وللايذان بأن الأقوى فى المدارية هو الأمر الأول ولذلك لا يبالى بتخليص سفن سائر الناس مع تحقق خوف الغصب فى حقهم أيضا ولأن فى التأخير فصلا بين السفينة وضميرها مع توهم رجوعه إلى الأقرب (وَأَمَّا الْغُلَامُ) الذى قتلته (فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ) لم يصرح بكفرانه أو بكفره إشعارا بعدم الحاجة إلى الذكر لظهوره (فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا) فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين (طُغْيَانًا) عليهما (وَكُفْرًا) لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شرا وبلاء أو يقرن بايمانهما طغيانه وكفره فيجتمع فى بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وإنما خشى الخضر عليه الصلاة والسلام منه ذلك لأن الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره وقرىء فخاف ربك أى كره سبحانه كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره ويجوز أن تكون القراءة المشهورة على الحكاية بمعنى فكرهنا كقوله تعالى لأهب لك (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا) منه بأن يرزقهما بدله ولدا خيرا (مِنْهُ) وفى التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليهما لا يخفى من الدلالة على إرادة وصول الخير اليهما (زَكَاةً) طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة (وَأَقْرَبَ رُحْمًا) أى رحمة وعطفا قيل ولدت لهما جارية تزوجها نبى فولدت نبيا هدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم وقيل ولدت سبعين نبيا وقيل أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما وقرىء يبدلهما بالتشديد وقرىء رحما بضم الحاء أيضا وانتصابه على التميز مثل زكوة (وَأَمَّا الْجِدَارُ) المعهود (فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ) هى القرية المذكورة فيما سبق ولعل التعبير عنها بالمدينة لاظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح قيل اسماهما اصرم وصريم واسم المقتول جيسور (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا) من فضة وذهب كما روى مرفوعا والذم على كنزهما فى قوله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يؤدى زكاتهما وسائر حقوقهما وقيل كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا إله إلا الله محمد رسول الله وقيل صحف فيها علم (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) تنبيه على أن سعيه فى ذلك كان لصلاحه

قيل كان بينهما وبين الاب الذى حفظا فيه سبعة آباء (فأراد ربك) أى مالكك ومدبر أمورك ففى اضافة الرب إلى ضمير موسى عليه الصلاة والسلام دون ضميرهما تنبيه له عليه الصلاة والسلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لارادته سبحانه ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة (أن يبلغا أشدهما) أى حلمهما وكمال رأيهما (ويستخرجا) بالكلية (كنزهما) من تحت الجدار ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع (رحمة من ربك) مصدر فى موقع الحال أى مرحومين منه عز وجل أو مفعول له أو مصدر مؤكد لأراد فان إرادة الخير رحمة وقيل متعلق بمضمر أى فعلت مافعلت من الأمور التى شاهدتها رحمة من ربك ويعضده اضافة الرب إلى ضمير المخاطب دون ضميرهما فيكون قوله عز وعلا (وما فعلته عن أمرى) أى عن رأيى واجتهادى تأكيدا لذلك (ذلك) إشارة إلى العواقب المنظومة فى سلك البيان ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتها فى الفخامة (تأويل مالم تسطع) أى لم تستطع فحذف التاء للتخفيف (عليه صبرا) من الأمور التى رأيته أى مآله وعاقبته فيكون انجازا للتنبئة الموعودة أو إلى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه وعلى كل حال فهو فذلكة لما تقدم وفى جعل الصلة عين ما مر تكرير للنكير وتشديد للعتاب تنبيه اختلفوا فى حياة الخضر عليه الصلاة والسلام فقيل انه حى وسببه أنه كان على مقدمة ذى القرنين فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة فنزل واغتسل منها وشرب من مائها وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد قالوا والياس أيضا فى الحياة يلتقيان كل سنة بالموسم وقيل أنه ميت لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام صلى العشاء ذات ليلة ثم قال أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة منها لايبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ولو كان الخضر حينئذ حيا لما عاش بعد مائة عام . روى أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يفارقه قال له أوصنى قال لاتطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به (ويسئلونك عن ذى القرنين) هم اليهود سألوه على وجه الامتحان أو سأله قريش بتلقينهم وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجواب وهو ذو القرنين الأكبر واسمه الاسكندر بن فيلفوس اليونانى وقال ابن اسحق اسمه مرزبان بن مردبه من ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام وكان أسود وقيل اسمه عبدالله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور بن عبدالله بن الآزر بن عون بن زيد بن كهلان بن سبا بن يعرب بن قحطان وقال السهيلى قيل ان اسمه مرزبان بن مدركة ذكره بن هشام وهو أول التبابعة وقيل انه أفريدون ابن النعمان الذى قتل الضحاك وذكر أبو الريحان البيرونى فى كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية أن ذا القرنين هو أبو كرب سمى بن عيرين بن أفريقيس الحميرى وأن ملكه بلغ مشارق الأرض ومغاربها وهو الذى افتخر به التبع اليمانى حيث قال :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ... ملكا علا فى الأرض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغى ... أسباب أمر من حكيم مرشد

وجعل هذا القول أقرب لان الاذواء كانوا من اليمن كذى المنار وذى نواس وذى النون وذى رعين وذى يزن وذى جدن قال الامام الرازى والأول هو الاظهر لان من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التى نطق بها التنزيل الجليل إنما هو الاسكندر اليونانى كما تشهد به كتب التواريخ يروى أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد ان كان طوائف ثم قصد ملوك العرب وقهرهم ثم أمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر ثم عاد إلى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بنى اسرائيل وورد بيت المقدس وذبح فى مذبحه ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب ودان له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرارا إلى أن قتله صاحب حرسه واستولى على ممالك الفرس وقصد الهند

وفتحه وبنى مدينة سرنديب وغيرها من المدن العظام ثم قصد الصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خرسان وبنى بها مدائن كثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهر زورومات انتهى كلام الامام وروى أن أهل النجوم قالوا له انك لاتموت الاعلى أرض من حديد وتحت سماء من خشب وكان يدفن كنز كل بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه فبلغ بابل فرعف وسقط عن دابته فبسطت له دروع فنام عليها فآذته الشمس فأظلوه بترس فنظر فقال هذه أرض من حديد وسماء من خشب فأيقن بالموت فمات وهو ابن ألف وستمائة سنة وقيل ثلاثة آلاف سنة قال ابن كثير وهذا غريب وأغرب منه ماقاله ابن عساكر من أنه بلغنى أنه عاش ستا وثلاثين سنة أو ثنتين وثلاثين سنة وأنه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام فان ذلك لاينطبق الاعلى ذى القرنين الثانى كاسنذكره قلت وكذا ماذكره الامام من قصد بنى إسرائيل وورود بيت المقدس والذبح فى مذبحه فانه مما لايكاد يتأتى نسبته إلى الأول واختلف فى نبوته بعد الاتفاق على إسلامه وولايته فقيل كان نبيا لقوله تعالى انا مكنا له فى الأرض وظاهر أنه متناول للتمكين فى الدين وكماله بالنبوة ولقوله تعالى وآتيناه من كل شىء سببا ومن جملة الأشياء النبوة ولقوله تعالى قلنا ياذا القرنين ونحو ذلك وقيل كان ملكا لما روى أن عمر رضى الله عنه سمع رجلا يقول لآخر ياذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن تتسموا بأسماء الانبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة قال ابن كثير والصحيح أنه ماكان نبيا ولا ملكا وإنما كان ملكا صالحا عادلا ملك الاقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم ودانت له البلاد وأنه كان داعيا إلى الله تعالى سائرا فى الخلق بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المنصور وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار الذى هو من الملك بمنزلة الوزير وقد ذكر الازرقى وغيره أنه أسلم على يدى ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فطاف معه بالكعبة هو واسماعيل عليهم السلام وروى أنه حج ماشيا فلما سمع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بقدومه تلقاه ودعا له وأوصاه بوصايا ويقال انه أتى بفرس ليركب فقال لا أركب فى بلد فيه الخليل فعند ذلك سخر له السحاب وطوى له الأسباب وبشره ابراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكره وجميع آلاتهم إذا أرادوا غزوة قوم وقال أبو الطفيل سئل عنه على كرم الله وجهه أكان نبيا أم ملكا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا لكن كان عبدا أحب الله فأحبه وناصح الله فناصحه سخر له السحاب ومد له الاسباب واختلف فى وجه تسميته بذى القرنين فقيل لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقيل لأنه ملك الروم وفارس وقيل الروم والترك وقيل لأنه كان فى رأسه أو فى تاجه مايشبه القرنين وقيل لانه كان له ذؤابتان وقيل لانه كانت صفحتا رأسه من النحاس وقيل لأنه دعا الناس إلى الله عز وجل فضرب بقرنه الأيمن فمات ثم بعثه الله تعالى فضرب بقرنه الأيسر فمات ثم بعثه الله تعالى وقيل لأنه رأى فى منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرنى الشمس وقيل لأنه انقرض فى عهده قرنان وقيل لأنه سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل لقب به لشجاعته هذا وأما ذو القرنين الثانى فقد قال ابن كثير أنه الاسكندر بن فيليس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومى بن ليطى بن يونان ابن يافث بن نونه بن شرخون بن رومية بن ثونط بن نوفيل بن رومى الاصفر بن العنز بن العيص بن اسحق بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام كذا نسبه ابن عساكر المقدونى اليونانى المصرى بانى الاسكندرية الذى يؤرخ بأيامه الروم وكان متأخرا عن الأول بدهر طويل أكثر من ألفى سنة كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وهو الذى قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس ووطىء أرضهم ثم قال ابن كثير وإنما بينا هذا لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وأن المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير كيف لا والأول كان عبدا صالحا مؤمنا وملكا عادلا وزيره الخضر عليه الصلاة والسلام وقد قيل

انه كان نبيا وأما الثانى فقد كان كافرا وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وقد كان مابينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة فأين هذا من ذاك انتهى قلت المقدونى نسبة إلى بلدة من بلاد الروم غربى دار السلطنة السنية قسطنطينية المحمية لازالت مشحونة بالشعائر الدينية بينهما من المسافة مسيرة خمسة عشر يوما أو نحو ذلك عند مدينة سيروز اسمها بلغة اليونانيين مقدونيا كانت سرير ملك هذا الاسكندر وهى اليوم بلقع لا يقيم بها أحد ولكن فيها علائم تحكى كمال عظمها فى عهد عمرانها ونهاية شوكة واليها وسلطانها ولقد مررت بها عند القفول من بعض المغازى السلطانية فعاينت فيها من تعاجيب الآثار مافيه عبرة لأولى الأبصار (قل) لهم فى الجواب (سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ) أى سأذكر لكم (مِنْهُ) أى من ذى القرنين (ذِكْرًا) أى نبأ مذكورا وحيث كان ذلك بطريق الوحى المتلو حكاية عن جهة الله عز وجل قيل سأتلو أو سأتلو فى شأنه من جهته تعالى ذكرا أى قرآنا والسين للتأكيد والدلالة على التحقيق المناسب لمقام تأييده عليه الصلاة والسلام وتصديقه بانجاز وعده أى لا أترك التلاوة البتة كما فى قول من قال :

سأشكر عمرا ان تراخت منيتى أيادى لم تمنن وإن هى جلت

لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل لأن هذه الآية مانزلت بانفرادها قبل الوحى بتمام القصة بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام عنه وعن الروح وعن أصحاب الكهف فقال لهم عليه الصلاة والسلام ائتونى غدا أخبركم فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما أو أربعين كما ذكر فيما سلف وقوله عز وجل (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ) شروع فى تلاوة الذكر المعهود حسبما هو الموعود والتمكين ههنا الاقدار وتمهيد الأسباب يقال مكنه ومكن له ومعنى الأول جعله قادرا وقويا ومعنى الثانى جعل له قدرة وقوة ولتلازمهما فى الوجود وتقاربهما فى المعنى يستعمل كل منهما فى محل الآخر كما فى قوله عز وعلا مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم أى جعلناهم قادرين من حيث القوى والأسباب والآلات على أنواع التصرفات فيها مالم نجعله لكم من القوة والسعة فى المال والاستظهار بالعدد والأسباب فكأنه قيل مالم نمكنكم فيها أى مالم نجعلكم قادرين على ذلك فيها أو مكنالهم فى الأرض مالم نمكن لكم وهكذا إذا كان التمكين مأخوذا من المكان بناء على توهم ميمه أصلية كما أشير اليه فى سورة يوسف عليه الصلاة والسلام والمعنى انا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى والأسباب حيث سخر له السحاب ومد له فى الأسباب وبسط له النور وكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير فى الأرض وذللت له طرقها (وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ) أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه (سَبَبًا) أى طريقا يوصله اليه وهو كل مايتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة (فَأَتْبَعَ) بالقطع أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع (سَبَبًا) يوصله اليه ولعل قصد بلوغ المغرب ابتداء لمراعاة الحركة الشمسية وقرىء فاتبع من الافتعال والفرق أن الأول فيه معنى الادراك والاسراع دون الثانى (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ) أى منتهى الارض من جهة المغرب بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له أوقيانوس الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات التى هى مبدأ الأطوال على أحد القولين (وَجَدَهَا) أى الشمس (تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ) أى ذات حمأة وهى الطين الأسود من حمئت البئر إذا كثرت حمأتها وقرىء حامية أى حارة روى أن معاوية رضى الله عنه قرأ حامية وعنده ابن عباس رضى الله عنهما فقال حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين وروى فى ثأط فوافق قول ابن عباس رضى الله عنهما وليس بينهما منافاة قطعية لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الياء فى

الثانية منقلبة عن الهمزة لانكسار ما قبلها وأما رجوع معاوية إلى قول ابن عباس رضى الله عنهم بما سمعه من كعب مع أن قراءته أيضا مسموعة قطعا فلكون قراءة ابن عباس رضى الله عنهما قطعية فى مدلولها وقراءته محتملة ولعله لما بلغ ساحل المحيط رآها كذلك إذ ليس فى مطمح بصره غير الماء كما يلوح به قوله تعالى وجدها تغرب (وَوَجَدَ عِندَهَا) عند تلك العين (قَوْمًا) قيل كان لباسهم جلود الوحوش وطعامهم ما لفظه البحر وكانوا كفارا فخيره الله جل ذكره بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الايمان وذلك قوله تعالى (قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ) بالقتل من اول الأمر (وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) أى أمرا ذا حسن على حذف المضاف أو على طريقة إطلاق المصدر على موصوفه مبالغة وذلك بالدعوة إلى الاسلام والارشاد إلى الشرائع ومحل أن مع صلته اما الرفع على الابتداء أو الخبرية واما النصب على المفعولية أى اما تعذيبك واقع أو اما أمرك تعذيبك أو اما تفعل تعذيبك وهكذا الحال فى الاتخاذ ومن لم يقل بنبوته قال كان ذلك الخطاب بواسطة نبى فى ذلك العصر أو كان ذلك الهاما لا وحيا بعد أن كان ذلك التخيير موافقا لشريعة ذلك النبى (قَالَ) أى ذو القرنين لذلك النبى أو لمن عنده من خواصه بعد ما تلقى أمره تعالى مختارا للشق الأخير (أَمَّا مَن ظَلَمَ) أى نفسه ولم يقبل دعوتى وأصر على ما كان عليه من الظلم العظيم الذى هو الشرك (فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ) بالقتل وعن قتادة انه كان يطبخ من كفر فى القدور ومن آمن أعطاه وكساه (ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ) فى الآخرة (فَيُعَذِّبُهُ) فيها (عَذَابًا نُّكْرًا) أى منكرا فظيعا وهو عذاب النار وفيه دلالة ظاهرة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحى اليه وأن مقاولته كانت مع النبى أو مع من عنده من أهل مشورته (وَأَمَّا مَنْ آمَنَ) بموجب دعوتى (وَعَمِلَ) عملا (صَالِحًا) حسبما يقتضيه الايمان (فَلَهُ) فى الدارين (جَزَاءً الْحُسْنَىٰ) أى فله المثوبة الحسنى أو الفعلة الحسنى أو الجنة جزاء على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قدم على المبتدأ اعتناء به أو منصوب بمضمر أى نجزى بها جزاء والجملة حالية أو معترضة بين المبتدأ والخبر المتقدم عليه أو حال أى مجزيا بها أو تمييز وقرىء منصوبا غير منون على أنه سقط تنوينه لالتقاء الساكنين ومرفوعا منونا على أنه المبتدأ والحسنى بدله والخبر الجار والمجرور وقيل خير بين القتل والأسر والجواب من باب الأسلوب الحكيم لأن الظاهر التخيير بينهما وهم كفار فقال أما الكافر فيراعى فى حقه قوة الاسلام وأما المؤمن فلا يتعرض له إلا بما يجب ويجوز أن تكون اما واما للتوزيع دون التخيير أى وليكن شأنك معهم اما التعذيب واما الاحسان فالأول لمن بقى على حاله والثانى لمن تاب (وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا) أى مما نأمر به (يُسْرًا) أى سهلا متيسرا غير شاق وتقديره ذا يسر أو أطلق عليه المصدر مبالغة وقرىء بضمتين (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) أى طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا إلى مشرقها (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ) يعنى الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من معمورة الارض وقرىء بفتح اللام على تقدير مضاف أى مكان طلوع الشمس فانه مصدر قيل بلغه فى اثنتى عشرة سنة وقيل فى أقل من ذلك بناء على ما ذكر من أنه سخر له السحاب وطوى له الأسباب (وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا) من اللباس والبناء قيل هم الزنج وعن كعب أن أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب فاذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب أو البحر فاذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقالوا بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى ومعى صاحب يعرف لسانهم فقالوا له جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس قال فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشى على ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء إذا هو فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سربا لهم فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر يصطادون السمك ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم وعن مجاهد

من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض (كذلك) أى أمر ذى القرنين كما وصفناه لك فى رفعة المحل وبسطة الملك أو أمره فيهم كأمره فى أهل المغرب من التخيير والاختيار ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف لوجد أو نجعل أو صفة قوم أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس فى الكفر والحكم أو سترا مثل ستركم من اللباس والاكنان والجبال وغير ذلك (وقد أحطنا بما لديه) من الأسباب والعدد والعدد (خبرا) يعنى أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير هذا على الوجه الأول وأما على الوجوه الباقية فالمراد بما لديه ما يتناول ما جرى عليه وما صدر عنه وما لاقاه فتأمل (ثم أتبع سببا) أى طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من الجنوب إلى الشمال (حتى إذا بلغ بين السدين) بين الجبلين الذين سد ما بينهما وهو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق لا جبلا أرمينية وأذربيجان كما توهم وقرىء بالضم قيل ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح وانتصاب بين على المفعولية لأنه مبلوغ وهو من الظروف التى تستعمل أسماء أيضا كما ارتفع فى قوله تعالى لقد تقطع بينكم وانجر فى قوله تعالى هذا فراق بينى وبينك (ووجد من دونهما) أى من ورائهما مجاوزا عنهما (قوما) أى أمة من الناس (لا يكادون يفقهون قولا) لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرىء من باب الأفعال أى لا يفهمون السامع كلامهم واختلفوا فى أنهم من أى الأقوام فقال الضحاك هم جيل من الترك وقال السدى الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة انهم اثنتان وعشرون قبيلة سد ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلة منهم وبقيت واحدة فسموا الترك لأنهم تركوا خارجين قال أهل التاريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج (قالوا) أى بواسطة مترجمهم أو بالذات على أن يكون فهم ذى القرنين كلامهم وإفهام كلامه إياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الأسباب (يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج) قد ذكرنا أنهما من أولاد يافث بن نوح عليه السلام وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل واختلف فى صفاتهم فقيل فى غاية صغر الجثة وقصر القامة لا يزيد قدهم على شبر واحد وقيل فى نهاية عظم الجسم وطول القامة تبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعا وفيهم من عرضه كذلك وقيل لهم مخالب وأضراس كالسباع وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف وقيل عربيان من أج الظليم إذا أسرع وأصلهما الهمزة كما قرأ عاصم وقد قرىء بغير همزة ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث (مفسدون فى الأرض) أى فى أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع قيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ولا يابسا إلا احتملوه وقيل كانوا يأكلون الناس أيضا (فهل نجعل لك خرجا) أى جعلا من أموالنا والفاء لتفريع العرض على إفسادهم فى الأرض وقرىء خراجا وكلاهما واحد كالنول والنوال وقيل الخراج ما على الأرض والذمة والخروج المصدر وقيل الخرج ما كان على كل رأس والخراج ما كان على البلد وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) وقرىء بالضم (قال ما مكنى) بالادغام وقرىء بالفك أى ما مكننى (فيه ربى) وجعلنى فيه مكينا قادرا من الملك والمال وسائر الأسباب (خير) أى مما تريدون أن تبذلوه إلى من الخرج فلا حاجة بى إليه (فأعينونى بقوة) أى بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبآلات لابد منها فى البناء والفاء لتفريع الأمر بالاعانة على خيرية ما مكنه الله تعالى فيه من مالهم أو على عدم قبول خرجهم (أجعل) جواب للأمر (بينكم وبينهم) تقديم إضافة الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج لاظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعوه فى قولهم بيننا

وبينهم (رَدْماً) أى حاجزا حصينا وبرزخا متينا وهو أكبر من السد وأوثق يقال ثوب مردم أى فيه رقاع فوق رقاع وهذا إسعاف بمرامهم فوق مايرجونه (ءَاتونِي زُبَرَ ٱلحَدِيدِ) جمع زبرة كغرف فى غرفة وهى القطعة الكبيرة وهذا لاينافى رد خراجهم لأن المأمور به الإيتاء بالثمن أو المناولة كما ينبىء عنه القراءة بوصل الهمزة أى جيئونى بزبر الحديد على حذف الباء كما فى أمرتك الخير ولأن إيتاء الآلة من قبيل الاعانة بالقوة دون الخراج على العمل ولعل تخصيص الأمر بالإيتاء بها دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لما أن الحاجة اليها أمس إذ هى الركن فى السد ووجودها أعز قيل حفر للاساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد مابين الجبلين إلى أعلاهما وكان مائة فرسخ وذلك قوله عز قائلا (حَتَّىٰ إذا ساوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ) أى آتوه إياها فأخذ يبنى شيئا فشيئا حتى إذا جعل مابين ناحيتى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى السمك على النهج المحكى قيل كان ارتفاعه مائتى ذراع وعرضه خمسين ذراعا وقرىء سوى من التسوية وسووى على البناء للمجهول (قالَ) للعملة (انفُخُوا) أى بالكيران فى الحديد المبنى ففعلوا (حتىٰ إذا جعَلَهُ) أى المنفوخ فيه (نَاراً) أى كالنار فى الحرارة والهيئة واسناد الجعل المذكور إلى ذى القرنين مع انه فعل الفعلة للتنبيه على أنه العمدة فى ذلك وهم بمنزلة الآلة (قالَ) للذين يتولون أمر النحاس من الاذابة ونحوها (ءَاتونِي أفرِغ عليهِ قِطراً) أى آتونى قطرا أى نحاسا مذابا أفرغ عليه قطرا فحذف الأول لدلالة الثانى عليه وقرىء بالوصل أى جيئونى كأنه يستدعيهم للاعانة باليد عند الافراغ واسناد الافراغ إلى نفسه للسر الذى وقفت عليه آنفا وكذا الكلام فى قوله تعالى ساوى وقوله تعالى أجعل (فمَا اسطَاعُوا) بحذف تاء الافتعال تخفيفا وحذرا عن تلاقى المتقاربين وقرىء بالادغام وفيه جمع بين الساكنين على غير حده وقرىء بقلب السين صادا والفاء فصيحة أى فعلوا ما أمروا به من إيتاء القطر أو الاتيان فأفرغه عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلا صلدا فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فما استطاعوا (أن يَظهَرُوهُ) أى يعلوه ويرقوا فيه لارتفاعه وملاسته (وما استَطاعُوا لهُ نقبًا) لصلابته وثخانته وهذه معجزة عظيمة لأن تلك الزبر الكثيرة إذا أثرت فيها حرارة النار لايقدر الحيوان على أن يحوم حولها فضلا عن النفخ فيها إلى أن تكون كالنار أو عن افراغ القطر عليها فكأنه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للاعمال فكان ما كان والله على كل شىء قدير وقيل بناه من الصخور مرتبطا بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب فى تجاويفها بحيث لم يبق هناك فرجة أصلا (قالَ) أى ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم (هٰذا) اشارة إلى السد وقيل إلى تمكينه من بنائه والفضل للمتقدم أى هذا الذى ظهر على يدى وحصل بمباشرتى من السد الذى شأنه ماذكر من المتانة وصعوبة المنال (رَحمَةٌ) أى أثر رحمة عظيمة عبر عنه بها مبالغة (مِّن رَّبِّى) على كافة العباد لاسيما على مجاوريه وفيه إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة بل هو إحسان إلهى محض وإن ظهر بمباشرتى والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة (فإذا جاءَ وَعدُ رَبّى) مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة لاخروج يأجوج ومأجوج كما قيل إذ لايساعده النظم الكريم والمراد بمجيئه ماينتظم مجيئه ومجىء مباديه من خروجهم وخروج الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك لادنو وقوعه فقط كما قيل فان بعض الأمور التى ستحكى تقع بعد مجيئه حتما (جَعَلَهُ) أى السد المشار اليه مع متانته ورصانته وفيه من الجزالة ماليس فى توجيه الاشارة السابقة إلى التمكين المذكور (دَكّاءَ) أى أرضا مستوية وقرىء دكا أى مدكوكا مسوى بالأرض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك ومنه الجمل الادك أى المنبسط السنام

وهذا الجعل وقت مجيء الوعد بمجيء بعض مباديه وفيه بيان لعظم قدرته عز وجل بعد بيان سعة رحمته (وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي) أي وعده المعهود أو كل ما وعد به فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا (حَقًّا) ثابتا لا محالة واقعا البتة وهذه الجملة تذييل من ذي القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية ومقرر مؤكد لمضمونها وهو آخر ما حكى من قصته وقوله عز وجل (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ) كلام مسوق من جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى جعله دكاء ومحقق لمضمونه أي جعلنا بعض الخلائق (يَوْمَئِذٍ) أي يوم إذ جاء الوعد بمجيء بعض مباديه (يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) آخر منهم يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلط إنسهم وجنهم حيارى من شدة الهول ولعل ذلك قبل النفخة الأولى أو تركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر منهم حين يخرجون من السد مزدحمين في البلاد روى أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عز وجل نغفا في أقفائهم فيدخل آذانهم فيموتون موت نفس واحدة فيرسل الله تعالى عليهم طيرا فتلقيهم في البحر ثم يرسل مطرا يغسل الأرض ويطهرها من نتنهم حتى يتركها كالزلفة ثم يوضع فيها البركة وذلك بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتل الدجال (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) هي النفخة الثانية بقضية الفاء في قوله تعالى (فَجَمَعْنَاهُمْ) ولعل عدم التعرض لذكر النفخة الأولى لأنها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار ولئلا يقع الفصل بين ما يقع في النشأة الأولى من الأحوال والأهوال وبين ما يقع منها في النشأة الآخرة أي جمعنا الخلائق بعد ما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء (جَمْعًا) أي جمعا عجيبا لا يكتنه كنهه (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ) أي أظهرناها وأبرزناها (يَوْمَئِذٍ) أي يوم إذ جمعنا الخلائق كافة (لِلْكَافِرِينَ) منهم حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا (عَرْضًا) أي عرضا فظيعا هائلا لا يقادر قدره وتخصيص العرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة لأن ذلك لأجلهم خاصة (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ) وهم في الدنيا (فِي غِطَاءٍ) كثيف وغشاوة غليظة محاطة بذلك من جميع الجوانب (عَنْ ذِكْرِي) عن الآيات المؤدية لأولى الأبصار المتدبرين فيها إلى ذكرى بالتوحيد والتمجيد أو كانت أعين بصائرهم في غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشأني أو عن القرآن الكريم (وَكَانُوا) مع ذلك (لَا يَسْتَطِيعُونَ) لفرط تصامهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول عليه الصلاة والسلام (سَمْعًا) استماعا لذكرى وكلامي الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالابصار والموصول نعت للكافرين أو بدل منه أو بيان جيء به لذمهم بما في حيز الصلة وللاشعار بعليته لإصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم فان ذلك إنما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم في الدنيا من الآيات واعراضهم عنها مع كونها أسبابا منجية عما ابتلوا به في الآخرة (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي كفروا بي كما يعرب عنه قوله تعالى عبادي والحسبان بمعنى الظن وقد قرىء أفظن والهمزة للانكار والتوبيخ على معنى انكار الواقع واستقباحه كما في قولك أضربت أباك لا انكار الوقوع كما في قوله أأضرب أبي والفاء للعطف على مقدر يفصح عنه الصلة على توجيه الانكار والتوبيخ إلى المعطوفين جميعا كما إذا قدر المعطوف عليه في قوله تعالى أفلا تعقلون منفيا أي ألا تسمعون فلا تعقلون لا إلى المعطوف فقط كما إذا قدر مثبتا أي أتسمعون فلا تعقلون والمعنى أكفروا بي مع جلالة شأني فحسبوا (أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي) من الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام وهم تحت سلطاني وملكوتي (أَوْلِيَاءَ) معبودين ينصرونهم من بأسي وما قيل انها للعطف على ما قبلها من قوله تعالى كانت الخ وكانوا الخ دلالة على أن الحسبان ناشيء من التعامي والتصام وأدخل عليها همزة الانكار ذما على ذم وقطعا

له عن المعطوف عليهما لفظا لا معنى للايذان بالاستقلال المؤكد للذم يأباه ترك الاضمار والتعرض لوصف آخر غير التعامى والتصام على أنهما أخرجا مخرج الأحوال الجبلية لهم ولم يذكروا من حيث أنهما من أفعالهم الاختيارية الحادثة كحسبانهم ليحسن تفريعه عليهما وأيضا فانه دين قديم لهم لا يمكن جعله ناشئا عن تصامهم عن كلام الله عز وجل وتخصيص الانكار بحسبانهم المتأخر عن ذلك تعسف لا يخفى وما فى حيز صلة أن ساد مسد مفعولى حسب كما فى قوله تعالى وحسبوا أن لا تكون فتنة أى أفحسبوا أنهم يتخذونهم أولياء على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ فى شىء لما أنه انما يكون من الجانبين وهم عليهم الصلاة والسلام منزهون عن ولايتهم بالمرة لقولهم سبحانك أنت ولينا من دونهم وقيل مفعوله الثانى محذوف أى أفحسبوا اتخاذهم نافعا لهم والوجه هو الأول لأن فى هذا تسليما لنفس الاتخاذ واعتدادا به فى الجملة وقرىء أفحسب الذين كفروا أى أفحسبهم وكافيهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر أو الفعل والفاعل فان النعت اذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل فى العمل فالهمزة حينئذ بمعنى انكار الوقوع (إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ) أى هيأناها (لِلْكَٰفِرِينَ) المعهودين عدل عن الاضمار ذما لهم وإشعارا بأن ذلك الاعتاد بسبب كفرهم المتضمن لحسبانهم الباطل (نُزُلًا) اى شيئا يتمتعون به عند ورودهم وهو ما يقام للنزيل أى الضيف مما حضر من الطعام وفيه تخطئة لهم فى حسبانهم وتهكم بهم حيث كان اتخاذهم اياهم أولياء من قبيل اعتاد العتاد واعداد الزاد ليوم المعاد فكأنه قيل انا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر جهنم عدة وفى ايراد النزل ايماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له وقيل النزل موضع النزول ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمثوى (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ) الخطاب الثانى للكفرة على وجه التوبيخ والجمع فى صيغة المتكلم لتعيينه من أول الأمر وللايذان بمعلومية النبأ للمؤمنين أيضا (بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا) نصب على التمييز والجمع للايذان بتنوعها وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الأعمال الحسنة فى أنفسها وفى حسبانهم أيضا حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غب بيان حالهم باعتبار أعمالهم السيئة فى أنفسها مع كونها حسنة فى حسبانهم (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ) فى اقامة تلك الأعمال أى ضاع وبطل بالكلية (فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا) متعلق بالسعى لا بالضلال لان بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا قيل المراد بهم أهل الكتابين قاله ابن عباس وسعد بن أبى وقاص ومجاهد رضى الله عنهم ويدخل فى الأعمال حينئذ ما عملوه من الاحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات وقيل الرهابنة الذين يحبسون أنفسهم فى الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة ولعله ما يعمهم وغيرهم من الكفرة ومحل الموصول الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف لانه جواب للسؤال كأنه قيل من هم فقيل الذين الخ وجعله مجرورا على أنه نعت للاخسرين أو بدل منه أو منصوبا على الذم على أن الجواب ما سيأتى من قوله تعالى أولئك الآية يأباه أن صدره ليس منبئا عن خسران الاعمال وضلال السعى كما يستدعيه مقام الجواب والتفريع الاول وان دل على حبوطها لكنه ساكت عن انباء ما هو العمدة فى تحقيق معنى الخسران من الوثوق بترتب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا على أن التفريع الثانى مما يقطع ذلك الاحتمال رأسا إذ لا مجال لإدراجه تحت الامر بقضية نون العظمة (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى أى يحسبون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لاعجابهم بأعمالهم التى سعوا فى اقامتها وكابدوا فى تحصيلها والجملة حال من فاعل ضل أى بطل سعيهم المذكور والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون فى ذلك وينتفعون بآثاره أو من المضاف اليه لكونه فى محل الرفع نحو قوله تعالى اليه مرجعكم جميعا أى بطل سعيهم والحال أنهم الخ والفرق بينهما أن المقارن لحال حسبانهم المذكور فى الاول ضلال سعيهم وفى الثانى نفس سعيهم والأول

أدخل فى بيان خطائهم (أولئك) كلام مستأنف من جنابه تعالى مسوق لتكميل تعريف الاخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم بحيث ينطبق التعريف على المخاطبين غير داخل تحت الأمر أى أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعى مع الحسبان المزبور (الذين كفروا بآيات ربهم) بدلائله الداعية إلى التوحيد عقلا ونقلا والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم فى الكفر المذكور (ولقائه) بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة على ما هى عليه (فحبطت) لذلك (أعمالهم) المعهودة حبوطا كليا (فلا نقيم لهم) أى لأولئك الموصوفين بما مر من حبوط الأعمال وقرىء بالياء (يوم القيامة وزنا) أى فنزدريهم ولا نجعل لهم مقدارا واعتبارا لأن مداره الأعمال الصالحة وقد حبطت بالمرة وحيث كان هذا الازدراء من عواقب حبوط الأعمال عطف عليه بطريق التفريع وأما ما هو من أجزية الكفر فسيجىء بعد ذلك أو لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزانا لأنه إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين ليتميز به مقادير الطاعات والمعاصى ليترتب عليه التكفير أو عدمه لأن ذلك فى الموحدين بطريق الكمية وأما الكفر فاحباطه للحسنات بحسب الكيفية دون الكمية فلا يوضع لهم الميزان قطعا (ذلك) بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم اثر بيان مآل أعمالهم المحبطة بذلك أى الأمر ذلك وقوله عز وجل (جزاؤهم جهنم) جملة مبينة له أو ذلك مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف أى جزاؤهم به أو جزاؤهم بدله وجهنم خبره أو جزاؤهم خبره وجهنم عطف بيان للخبر (بما كفروا) تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التى أنبأ عنها قوله تعالى (واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) أى مهزوا بهما فانهم لم يقتنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضا (إن الذين آمنوا) بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرة اثر بيان مآلهم بطريق الوعيد أى آمنوا بآيات ربهم ولقائه (وعملوا الصالحات) من الأعمال (كانت لهم) فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده وفيه إيماء إلى أن أثر الرحمة يصل اليهم بمقتضى الرأفة الازلية بخلاف ما مر من جعل جهنم للكافرين نزلا فانه بموجب ما حدث من سوء اختيارهم (جنات الفردوس) عن مجاهد ان الفردوس هو البستان بالرومية وقال عكرمة هو الجنة بالحبشية وقال الضحاك هو الجنة الملتفة الأشجار وقيل هى الجنة التى تنبت ضروبا من النبات وقيل هى الجنة من الكرم خاصة وقيل ما كان غالبه كرما وقال المبرد هو فيما سمعت من العرب الشجر الملتف والاغلب عليه أن يكون من العنب وعن كعب أنه ليس فى الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجة مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها وفيها الأنهار الأربعة فاذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فان فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة (نزلا) خبر كانت والجار والمجرور متعلق بمحذوف على أنه حال من نزلا أو على أنه بيان أو حال من جنات الفردوس والخبر هو الجار والمجرور فان جعل النزول بمعنى ما يهيأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس نزلا أو جعلت نفس الجنات نزلا مبالغة فى الاكرام وفيه إيذان بأنها عندما أعدالله لهم على ما جرى على لسان النبوة من قوله أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بمنزلة النزل بالنسبة إلى الضيافة وإن جعل بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر (خالدين فيها) نصب على الحالية (لا يبغون عنها حولا) مصدر كالعوج والصغر أى لا يطلبون تحولا عنها إذ لا يتصور أن يكون شىء أعز عندهم وأرفع منها حتى تنازعهم اليه أنفسهم وتطمح نحوه أبصارهم ويجوز أن يراد نفى التحول وتأكيد الخلود والجملة حال من صاحب خالدين أو من ضميره فيه فيكون حالا متداخلة (قل لو كان البحر) أى جنس البحر (مدادا) وهو ما تمد به الدواة من الحبر (لكلمات ربى) لتحرير كلمات علمه وحكمته

التى من جملتها ماذكر من الآيات الداعية إلى التوحيد المحذرة من الاشراك (لنفد البحر) مع كثرته ولم يبق منه شىء لتناهيه (قبل أن تنفد) وقرىء بالياء والمعنى من غير أن تنفد (كلمت ربى) لعدم تناهيها فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر وفى إضافة الكلمات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميره صلى الله عليه وسلم فى الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف اليه مالايخفى وإظهار البحر والكلمات فى موضع الاضمار لزيادة التقرير (ولو جئنا) كلام من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن جىء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله معزيادة مبالغة وتأكيد والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة أى لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى لولم نجىء بمثله مددا ولوجئنا بقدرتنا الباهرة (بمثله مددا) عونا وزيادة لأن مجموع المتناهيين متناه بل مجموع مايدخل تحت الوجود من الأجسام لايكون إلامتناهيا لقيام الأدلة القاطعة على تناهى الابعاد وقرىء مددا جمع مدة وهى مايستمده الكاتب وقرىء مدادا (قل) لهم بعدماتبينت لهم شأن كلماته تعالى (إنما أنا بشر مثلكم) لاأدعى الإحاطة بكلماته التامة (يوحى إلى) من تلك الكلمات (أنما إلهكم إله وحد) لاشريك له فى الخلق ولافى سائر أحكام الالوهية وإنما تميزت عنكم بذلك (فمن كان يرجوا لقاء ربه) الرجاء توقع وصول الخير فى المستقبل والمراد بلقائه تعالى كرامته وإدخال الماضى على المستقبل للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء أى فمن استمر على رجاء كرامته تعالى (فليعمل) لتحصيل تلك الطلبة العزيزة (عملا صلحا) فى نفسه لائقا بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) اشراكا جليا كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ولا إشراكا خفيا كما يفعله أهل الرياء ومن يطلب به أجرا وإيثار وضع المظهر موضع المضمر فى الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية لزيادة التقرير وللاشعار بعلية العنوان للامر والنهى ووجوب الامتثال فعلا وتركا . روى أن جندب ابن زهير رضى الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى لأعمل العمل لله تعالى فاذا اطلع عليه سرنى فقال عليه الصلاة والسلام إن الله لايقبل ماشورك فيه فنزلت تصديقا له وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك إذا قصد أن يقتدى به وعنه عليه السلام اتقوا الشرك الأصغر قيل وما الشرك الأصغر قال الرياء . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض إلى السماء وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ عند مضجعه قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى الخ كان له من مضجعه نورا يتلألأ إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وإن كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ الحمد لله سبحانه على نعمه العظام .

سـورة مريم عليها السلام

(مكية إلا آية السجدة وهى ثمان أو تسع وتسعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(كهيعص) بامالة الهاء والياء وإظهار الدال وقرىء بفتح الهاء وامالة الياء وبتفخيمهما وباخفاء النون قبل الصاد لتقاربهما وقدسلف أن مالايكون من هذه الفواتح مفردة ولا موازنة لمفرد فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الاعجاز على الوقف سواء جعلت أسماء للسور أو مسرودة على نمط التعديد وان لزمها التقاء الساكنين لكونه مغتفرا فى باب الوقف قطعا

لحق هذه الفاتحة الكريمة أن يوقف عليها جريا على الأصل وقرىء بادغام الدال فيما بعدها لتقاربهما فى المخرج فان جعلت اسما للسورة على ما عليه اطباق الأكثر فمحله الرفع اما على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هذا كهيعص أى مسمى به وإنما صحت الإشارة اليه مع عدم جريان ذكره لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد كما يقال هذا ما اشترى فلان أو على أنه مبتدأ خبره (ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ) أى المسمى به ذكر رحمة الخ فان ذكرها لما كان مطلع السورة الكريمة ومعظم ما انطوت هى عليه جعلت كأنها نفس ذكرها والأول هو الأولى لأن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لا علم بالتسمية من قبل لحقها الاخبار بها كما فى الوجه الأول وإن جعلت مسرودة على نمط التعديد حسبما جنح اليه أهل التحقيق فذكر الخ خبر لمبتدا محذوف هو ماينبىء عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف المبسوطة مرادا به السورة ذكر الرحمة الخ أو اسم إشارة أشير به اليه تنزيلا لحضور المادة منزلة حضور المؤلف منها أى هذا ذكر رحمة الخ وقيل هو مبتدأ قد حذف خبره أى فيما يتلى عليك ذكرها وقرىء ذكر رحمة ربك على صيغة الماضى من التذكير أى هذا المتلو ذكرها وقرىء ذكر على صيغة الأمر والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للايذان بأن تنزيل السورة عليه عليه الصلاة والسلام تكميل له عليه السلام وقوله تعالى (عَبْدَهُ) مفعول لرحمة ربك على أنها مفعول لما أضيف اليها وقيل للذكر على أنه مصدر أضيف إلى فاعله على الاتساع ومعنى ذكر الرحمة بلوغها وإصابتها كما يقال ذكرنى معروف فلان أى بلغنى وقوله عز وعلا (زَكَرِيَّا) بدل منه أو عطف بيان له (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا) ظرف لرحمة ربك وقيل لذكر على أنه مضاف إلى فاعله اتساعا لا على الوجه الأول لفساد المعنى وقيل هو بدل اشتمال من زكريا كما فى قوله واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت ولقد راعى عليه الصلاة والسلام حسن الأدب فى إخفاء دعائه فانه مع كونه بالنسبة اليه عز وجل كالجهر أدخل فى الاخلاص وأبعد من الرياء وأقرب إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد لتوقفه على مباد لا يليق به تعاطيها فى أوان الكبر والشيخوخة وعن غائلة مواليه الذين كان يخافهم وقيل كان ذلك منه عليه السلام لضعف الهرم قالوا كان سنه حينئذ ستين وقيل خمسا وستين وقيل سبعين وقيل خمسا وسبعين وقيل ثمانين وقيل أكثر منها كما مر فى تفسير سورة آل عمران (قَالَ) جملة مفسرة لنادى لا محل لها من الاعراب (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) إسناد الوهن إلى العظم لما أنه عماد البدن ودعام الجسد فاذا أصابه الضعف والرخاوة أصاب كله أو لأنه أشد أجزائه صلابة وقواما وأقلها تأثرا من العلل فاذا وهن كان ما وراءه أوهن وإفراده للقصد إلى الجنس المنبىء عن شمول الوهن لكل فرد من أفراده ومنى متعلق بمحذوف هو حال من العظم وقرىء وهن بكسر الهاء وبضمها أيضا وتأكيد الجملة لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) شبه عليه الصلاة والسلام الشيب فى البياض والإنارة بشواظ النار وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال إلى محل الشعر ومنبته وأخرجه مخرج التمييز وأطلق الرأس اكتفاء بما قيد به العظم وفيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى حيث كان الأصل اشتعل شيب رأسى فأسند الاشتعال إلى الرأس كما ذكر لافادة شموله لكلها فان وزانه بالنسبة إلى الأصل وزان اشتعل بيته نارا بالنسبة إلى اشتعل النار فى بيته ولزيادة تقريره بالاجمال أولا والتفصيل ثانيا ولمزيد تفخيمه بالتنكير وقرىء بادغام السين فى الشين (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) أى ولم أكن بدعائى إياك خائبا فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت لى والجملة معطوفة على ما قبلها أو حال من ضمير المتكلم إذ المعنى واشتعل رأسى شيبا وهذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه من الاستجابة عند كل

دعوة اثر تمهيد مايستدعي الرحمة ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال فانه تعالى بعد ماعود عبده بالإجابة دهراً طويلا لايكاد يخيبه أبدا لاسيما عند اضطراره وشدة افتقاره والتعرض فى الموضعين لوصف الربوبية المنبئة عن إضافة مافيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لاسيما توسيطه بين كان وخبرها لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة فى التضرع ولذلك قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ) عطف على قوله تعالى إنى وهن العظم مترتب مضمونه على مضمونه فان ضعف القوى وكبر السن من مبادى خوفه عليه السلام من يلى أمره بعد موته ومواليه بنو عمه وكانوا أشرار بنى إسرائيل فخاف أن لايحسنوا خلافته فى أمته ويبدلوا عليهم دينهم وقوله (مِنْ وَرَائِي) أى بعد موتى متعلق بمحذوف ينساق اليه الذهن أى فعل الموالى من بعدى أو جور الموالى وقد قرىء كذلك أو بما فى الموالى من معنى الولاية أى خفت الذين يلون الأمر من ورائى لابخفت لفساد المعنى وقرىء وراى بالقصر وفتح الياء وقرىء خفت الموالى من ورائى أى قلوا وعجزوا عن القيام بأمور الدين بعدى أو خفت الموالى القادرون على إقامة مراسم الملة ومصالح الأمة من خف القوم أى ارتحلوا مسرعين أى درجوا قدامى ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد فالظرف حينئذ متعلق بخفت (وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا) أى لاتلد من حين شبابها (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ) كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا وتقديم الأول لكون مدلوله أهم عنده ويجوز تعلق الثانى بمحذوف وقع حالا من المفعول ولدن فى الأصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات وقد مر تفصيله فى أوائل سورة آل عمران أى أعطنى من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة بطريق الاختراع لابواسطة الأسباب العادية (وَلِيًّا) أى ولدا من صلبي وتأخيره عن الجارين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع مع مافيه من التشويق إلى المؤخر فان ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن ولأن فيه نوع طول بما بعده من الوصف فتأخيرهما عن الكل أو توسيطهما بين الموصوف والصفة مما لايليق بجزالة النظم الكريم والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها فان ماذكره عليه الصلاة والسلام من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسط الأسباب العادية واستيهابه على الوجه الخارق للعادة ولا يقدح فى ذلك أن يكون هناك داع آخر إلى الاقبال على الدعاء المذكور من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة فى حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه الآية وعدم ذكره ههنا للتعويل على ذكره هناك كما أن عدم ذكر مقدمة الدعاء هناك للاكتفاء بذكره ههنا فان الاكتفاء بما ذكر فى موطن عما ترك فى موطن آخر من النكت التنزيلية وقوله تعالى (يَرِثُنِي) صفة لوليا وقرىء هو وما عطف عليه بالجزم جوابا للدعاء أى يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة فان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لايورثون المال قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركنا صدقة وقيل يرثنى الحبورة وكان عليه السلام حبرا (وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) يقال ورثه وورث منه لغتان وآل الرجل خاصته الذين يؤول اليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم أى ويرث منهم الملك قيل هو يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقال الكلبي ومقاتل هو يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكريا قال الكلبي كان بنو ماثان رؤوس بنى اسرائيل وملوكهم وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذ فأراد أن يرثه ولده حبورته ويرث من بنى ماثان ملكهم وقرىء ويرث وارث آل يعقوب على أنه حال من المستكن فى يرث وقرىء أويرث آل يعقوب بالتصغير

ففيه ايماء إلى وراثته عليه السلام لما يرثه فى حالة صغره وقرىء وارث من آل يعقوب على أنه فاعل يرثنى على طريقة التجريد أى يرثنى به وارث وقيل من للتبعيض إذ لم يكن كل آل يعقوب عليه السلام أنبياء ولا علماء (وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) مرضيا عندك قولا وفعلا وتوسيط رب بين مفعولى اجعل للمبالغة فى الاعتناء بشأن ما يستدعيه (يَا زَكَرِيَّا) على إرادة القول أى قال تعالى يا زكريا (إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى) لكن لا بأن يخاطبه عليه الصلاة والسلام بذلك بالذات بل بواسطة الملك على أن يحكى له عليه الصلاة والسلام هذه العبارة عنه عز وجل على نهج قوله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا الآية وقد مر تحقيقه فى سورة آل عمران وهذا جواب لندائه عليه الصلاة والسلام ووعد باجابة دعائه لكن لا كلا كما هو المتبادر من قوله تعالى فاستجبنا له ووهبنا له يحيى الخ بل بعضا حسبما تقتضيه المشيئة الالهية المبنية على الحكم البالغة فان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وان كانوا مستجابى الدعوة لكنهم ليسوا كذلك فى جميع الدعوات ألا يرى إلى دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فى حق أبيه وإلى دعوة النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها وقد كان من قضائه عز وعلا أن يهبه يحيى نبيا مرضيا ولا يرثه فاستجيب دعاؤه فى الأول دون الثانى حيث قتل قبل موت أبيه عليهما الصلاة والسلام على ما هو المشهور وقيل بقى بعده برهة فلا اشكال حينئذ وفى تعيين اسمه عليه الصلاة والسلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه الصلاة والسلام وفى تخصيصه به عليه السلام حسبما يعرب عنه قوله تعالى (لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) أى شريكا له فى الاسم حيث لم يسم أحد قبله بيحيى مزيد تشريف وتفخيم له عليه الصلاة والسلام فان التسمية بالاسامى البديعة الممتازة عن اسماء سائر الناس تنويه بالمسمى لا محالة وقيل سميا شبيها فى الفضل والكمال كما فى قوله تعالى هل تعلم له سميا فان المتشاركين فى الوصف بمنزلة المتشاركين فى الاسم قالوا لم يكن له عليه الصلاة والسلام مثل فى أنه لم يعص الله تعالى ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد من شيخ فان وعجوز عاقر وأنه كان حصورا فيكون هذا اجمالا لما نزل بعده من قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين والاظهر أنه اسم أعجمى وان كان عربيا فهو منقول عن الفعل كيعمر ويعيش قيل سمى به لانه حيى به رحم أمه أو حيى دين الله تعالى بدعوته (قَالَ) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حينئذ فقيل قال (رَبِّ) ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى اليه بتوسط الملك للمبالغة فى التضرع والمناجاة والجد فى التبتل اليه تعالى والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملك من توهم ان علمه تعالى بما يصدر عنه متوقف على توسطه كما أن علم البشر بما يصدر عنه سبحانه متوقف على ذلك فى عامة الأوقات (أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ) كلمة أنى بمعنى كيف أو من أين وكان اما تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر أى كيف أو من أين يحدث لى غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام إذ لو تأخر لكان صفة له أى أنى يحدث كائنا لى غلام أو ناقصة اسمها ظاهر وخبرها اما أنى ولى متعلق بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى (وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا) حال من ضمير المتكلم بتقدير قد وكذا قوله تعالى (وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) حال منه مؤكدة للاستبعاد اثر تأكيد أى كانت امرأتى عاقرا لم تلد فى شبابها وشبابى فكيف وهى الآن عجوز وقد بلغت أنا من أجل كبر السن جساوة وقحولا فى المفاصل والعظام أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيا من عتا يعتو وأصله عتو وكقعود فاستثقل توالى الضمتين والواوين فكسرت التاء فانقلبت الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم قلبت الثانية أيضا لاجتماع الواو والياء وسبق احداهما بالسكون وكسرت العين اتباعا لما بعدها وقرىء بضمها ولعل البداءة ههنا بذكر حال امرأته على عكس ما فى سورة آل عمران لما أنه قد ذكر حاله فى تضاعيف دعائه وإنما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكبر تتمة

لما ذكر قبل وأما هنالك فلم يسبق فى الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته لما أن المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب وإنما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله لاسيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى سورة آل عمران استعظاما لقدرة الله تعالى وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته تعالى عليه فى ذلك باظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا وفضله مع كونه فى نفسه من الامور المستحيلة عادة لا استبعاداله وقيل إنما قاله ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون ايقانا ويرتدع المبطلون وقيل كان ذلك منه عليه الصلاة والسلام استفهاما عن كيفية حدوثه وقيل بل كان ذلك بطريق الاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قدنسى دعاءه وهو بعيد (قالَ) استئناف كما مر مبنى على سؤال نشأ مما سلف والكاف فى قوله تعالى (كَذٰلِكَ قالَ رَبُّكَ) مقحمة كما فى مثلك لا يبخل محلها اما النصب على أنه مصدر تشبيهى لقال الثانى وذلك إشارة إلى مصدره الذى هو عبارة عن الوعد السابق لا إلى قوم آخر شبه هذا به وقدمر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا وقوله تعالى (هوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ) جملة مقررة للوعد المذكور دالة على انجازه داخلة فى حيز قال الأول كانه قيل قال الله عز وجل مثل ذلك القول البديع قلت أى مثل ذلك الوعد الخارق للعادة وعدت هو على خاصة هين وان كان فى العادة مستحيلا وقرىء وهو على هين فالجملة حينئذ حال من ربك والياء عبارة عن ضميره كما ستعرفه أو اعتراض وعلى كل حال فهى مؤكدة ومقررة لما قبلها ثم أخرج القول الثانى مخرج الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وادخال الروعة كقول الخلفاء أمير المؤمنين يرسم لك مكان أنا أرسم ثم أسند إلى اسم الرب المضاف إلى ضميره عليه السلام تشريفا له واشعارا بعلة الحكم فان تذكير جريان أحكام ربوبيته تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من ايجاده من العدم وتصريفه فى أطوار الخلق من حال إلى حال شيئا فشيئا إلى أن يبلغ كماله اللائق به مما يقلع أساس استبعاده عليه الصلاة والسلام لحصول الموعود ويورثه عليه الصلاة والسلام الاطمئنان بانجازه لا محالة ثم التفت من ضمير الغائب العائد إلى الرب الى ياء العظمة إيذانا بأن مدار كونه هينا عليه سبحانه هو القدرة الذاتية لا ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام خاصة وتمهيدا لما يعقبه وقيل ذلك إشارة إلى مبهم يفسره قوله تعالى هو على هين على طريقة قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ولا يخرج هذا الوجه على القراءة بالواو لأنها لا تدخل بين المفسر والمفسر وأما الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وذلك إشارة إلى ما تقدم من وعده تعالى أى قال عز وعلا الأمر كما وعدت وهو واقع لا محالة وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مقرر لمضمونه والجملة المحكية على القراءة الثانية معطوفة على المحكية الأولى أو حال من المستكن فى الجار والمجرور وأيا ما كان فتوسيط قال بينهما مشعر بمزيد الاعتناء بكل منهما والكلام فى اسناد القول إلى الرب ثم الالتفات إلى التكلم كالذى مر آنفا وقيل ذلك إشارة إلى ماقاله زكريا عليه الصلاة والسلام أى قال تعالى الأمر كما قلت تصديقا له فيما حكاه من الحالة المباينة للولادة فى نفسه وفى امرأته وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مسوق لازالة استبعاده بعد تقريره أى قال تعالى هو مع بعده فى نفسه على هين والقراءة الثانية أدخل فى افادة هذا المعنى على أن الواو للعطف وأما جعلها للحال فمخل بسداد المعنى لأن مآله تقرير صعوبته حال سهولته عليه تعالى مع أن المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته فى نفسه وقوله تعالى (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها والمراد به ابتداء خلق البشر إذ هو الواقع اثر العدم المحض لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد وإنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه الصلاة والسلام وهو المخلوق من العدم حقيقة بأن يقال وقد خلقت أباك أو آدم من قبل ولم يك شيئا مع كفايته فى ازالة الاستبعاد بقياس حال ما بشر به على حاله عليه الصلاة والسلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس حيث نبه على أن كل فرد من

أفراد البشر له حظ من إنشائه عليه الصلاة والسلام من العدم إذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرية سائر آحاد الجنس انطواء إجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان ابداعه عليه الصلاة والسلام على ذلك الوجه إبداعا للكل أحد من فروعه كذلك ولما كان خلقه عليه الصلاة والسلام على هذا النمط السارى إلى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته وكان عدم زكريا حينئذ أظهر عنده وأجلى وكان حاله أولى بأن يكون معيار الحال مابشر به نسب الخلق المذكور اليه كما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم توفية لمقام الامتنان حقه فكأنه قيل وقد خلقتك من قبل فى تضاعيف خلق آدم ولم تكن إذ ذاك شيئا أصلا بل عدما بحتا ونفيا صرفا هذا وأما حمل الشىء على المعتد به أى ولم تكن شيئا معتدا به فيأباه المقام ويرده نظم الكلام وقرىء خلقناك (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً) أى علامة تدلنى على تحقق المسؤول ووقوع الحبل ولم يكن هذا السؤال منه عليه الصلاة والسلام لتأكيد البشارة وتحقيقها كما قيل فان ذلك مما لا يليق بمنصب الرسالة وإنما كان ذلك لتعريف وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهو أمر خفى لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها ولا يؤخره إلى أن تظهر ظهورا معتادا وقد مرت الاشارة فى تفسير سورة آل عمران إلى أن هذا السؤال ينبغى أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهة من الزمان لما روى أن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين ولا ريب فى أن دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام كان فى صغر مريم لقوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه وهى إنما ولدت عيسى عليه الصلاة والسلام وهى بنت عشر سنين أو بنت ثلاث عشرة سنة والجعل ابداعى واللام متعلقة به وتقديمها على المفعول به لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أو بمحذوف وقع حالا من آية إذ لو تأخر لكان صفة لها وقيل بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أولهما آية وثانيهما الظرف وتقديمه لأنه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديم الظرف فلا يتغير حالهما بعد ورود الناسخ (قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ) أى أن لا تقدر على أن تكلمهم بكلام الناس مع القدرة على الذكر والتسبيح (ثَلَاثَ لَيَالٍ) مع أيامهن للتصريح بها فى سورة آل عمران (سَوِيًّا) حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الاضطرار دون الاختيار أى تمنع الكلام فلا تطيق به حال كونك سوى الخلق سليم الجوارح ما بك شائبة بكم ولا خرس (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ) أى من المصلى أو من الغرفة وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا إذ خرج عليهم متغيرا لونه فأنكروه وقالوا مالك (فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ) أى أومأ إليهم لقوله تعالى إلا رمزا وقيل كتب على الأرض وأن فى قوله تعالى (أَن سَبِّحُوا) اما مفسرة لأوحى أو مصدرية والمعنى أى صلوا أو بأن صلوا (بُكْرَةً وَعَشِيًّا) هما ظرفا زمان للتسبيح عن أبى العالية أن المراد بهما صلاة الفجر وصلاة العصر أو نزهوا ربكم طرفى النهار ولعله كان مأمورا بأن يسبح شكرا ويأمر قومه بذلك (يَا يَحْيَىٰ) استئناف طوى قبله جمل كثيرة مسارعة إلى الانباء بانجاز الوعد الكريم أى قلنا يا يحيى (خُذِ الْكِتَابَ) التوراة (بِقُوَّةٍ) أى بجد واستظهار بالتوفيق (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) قال ابن عباس رضى الله عنهما الحكم النبوة استنبأه وهو ابن ثلاث سنين وقيل الحكم الحكمة وفهم التوراة والفقه فى الدين روى أنه دعاه الصبيان إلى اللعب فقال ما للعب خلقنا (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا) عطف على الحكم وتنوينه للتفخيم وهو التحنن والاشتياق ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا أو رحمة فى قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما (وَزَكَاةً) أى طهارة

من الذنوب أو صدقة تصدقنا به على أبويه أو وفقناه للتصدق على الناس (وَكَانَ تَقِيًّا) مطيعاً متجنباً عن المعاصى (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ) عطف عن تقيا أى باراً بهما لطيفاً بهما محسناً اليهما (وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا) متكبراً عاقاً لهما أو عاصياً لربه (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ) من الله عز وجل (يَوْمَ وُلِدَ) من أن يناله الشيطان بما ينال به بنى آدم (وَيَوْمَ يَمُوتُ) من عذاب القبر (وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا) من هول القيامة وعذاب النار (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ) كلام مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وأمر بذكر قصة مريم اثر قصة زكريا لما بينهما من كمال الاشتباك والمراد بالكتاب السورة الكريمة لا القرآن إذ هى التى صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الأنبياء المذكورين فيها أى واذكر للناس (مَرْيَمَ) أى نبأها فان الذكر لا يتعلق بالأعيان وقوله تعالى (إِذِ انْتَبَذَتْ) ظرف لذلك المضاف لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبأها عند انتباذها فقط بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناف داخل فى حيز الظرف متمم للنبأ وقيل بدل اشتمال من مريم على أن المراد بها نبأها فان الظروف مشتملة على ما فيها وقيل بدل الكل على أن المراد بالظرف ما وقع فيه وقيل إذ بمعنى أن المصدرية كما فى قولك أكرمتك إذ لم تكرمنى أى لأنك لم تكرمنى فهو بدل اشتمال لا محالة وقوله تعالى (مِنْ أَهْلِهَا) متعلق بانتبذت وقوله (مَكَانًا شَرْقِيًّا) مفعول له باعتبار ما فى ضمنه من معنى الاتيان المترتب وجوداً واعتباراً على أصل معناه العامل فى الجار والمجرور وهو السر فى تأخيره عنه أى اعتزلت وانفردت منهم وأتت مكانا شرقيا من بيت المقدس أو من دارها لتتخلى هنالك للعبادة وقيل قعدت فى مشرقة لتغتسل من الحيض محتجبة بحائط أو بشىء يسترها وذلك قوله تعالى (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا) وكان موضعها المسجد فاذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها وإذا طهرت عادت إلى المسجد فبيناهى فى مغتسلها أتاها الملك عليه الصلاة والسلام فى صورة آدمى شاب أمرد وضىء الوجه جعد الشعر وذلك قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا) أى جبريل عليه الصلاة والسلام عبر عنه بذلك توفية للمقام حقه وقرىء بفتح الراء لكونه سبباً لما فيه روح العباد الذى هو عدة المقربين فى قوله تعالى فأما إن كان من المقربين فروح وريحان (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) سوى الخلق كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئا وقيل تمثل فى صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى اليها من كلماته تعالى إذ لو بدالها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته وأما ما قيل من أن ذلك لتهييج شهوتها فتنحدر نطفتها إلى رحمها فع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة يكذبه قوله تعالى (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ) فانه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما اليه فضلا عما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة نعم كان تمثيله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة فى العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التى هى العصمة مما دهمها وقوله تعالى (إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) أى تتقى الله تعالى وتبالى بالاستعاذة به وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السباق عليه أى فانى عائذة به أو فتعوذ بتعوذى أو فلا تتعرض لى (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ) يريد عليه الصلاة والسلام انى لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر وإنما أنا رسول ربك الذى استعذت به (لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا) أى لأكون سببا فى هبته بالنفخ فى الدرع ويجوز أن يكون ذلك حكاية لقوله تعالى ويؤيده القراءة بالياء والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتها والاشعار بعلة الحكم فان هبة الغلام لها من أحكام تربيتها وفى بعض المصاحف أمرنى أن أهب لك غلاما (زَكِيًّا) طاهراً من الذنوب أو ناميا على الخير أى مترقيا من سن إلى سن على الخير والصلاح (قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ) كما وصفت

(وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) أي والحال أنه لم يباشرني بالنكاح رجل وإنما قيل بشر مبالغة في بيان تنزهها من مبادي الولادة
(وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) عطف على لم يمسسني داخل معه في حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالنكاح
أي ولم أكن فاجرة تبغي الرجال وهي فعول بمعنى الفاعل أصلها بغوى فأدغمت الواو بعد قلبها ياء في الياء وكسرت الغين
للياء وقيل هي فعيل بمعنى الفاعل وإلا لقيل بغو كما يقال فلان نهو عن المنكر وإنما لم تلحقه التاء لأنها من باب النسب كطالق
أو بمعنى المفعول أي يبغيها الرجال للفجور بها (قَالَ) أي الملك تقريرا لمقالته وتحقيقا لها (كَذَٰلِكِ) أي الأمر كما
قلت لك وقوله تعالى (قَالَ رَبُّكِ) الخ استئناف مقرر له أي قال ربك الذي أرسلني اليك (هُوَ) أي ماذكرت لك
من هبة الغلام من غير أن يمسك بشر أصلا (عَلَيَّ) خاصة (هَيِّنٌ) وإن كان مستحيلا عادة لما أني لا أحتاج إلى
الأسباب والوسائط وقوله تعالى (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ) إما علة لمعلل محذوف أي ولنجعل وهب الغلام آية لهم
وبرهانا يستدلون به على كمال قدرتنا نفعل ذلك أو معطوف على علة أخرى مضمرة أي لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية الخ
والواو على الأول اعتراضية والالتفات إلى نون العظمة لاظهار كمال الجلالة (وَرَحْمَةً) عظيمة كائنة (مِنَّا) عليهم
يهتدون بهدايته ويسترشدون بارشاده (وَكَانَ) ذلك (أَمْرًا مَقْضِيًّا) محكما قد تعلق به قضاؤنا الأزلي أو قدر وسطر
في اللوح لابد من جريانه عليك البتة أو كان أمرا حقيقا بأن يقضى ويفعل لتضمنه حكما بالغة (فَحَمَلَتْهُ) بأن نفخ
جبريل عليه الصلاة والسلام في درعها فدخلت النفخة في جوفها قيل إنه عليه الصلاة والسلام رفع درعها فنفخ في جيبه
فحملت وقيل نفخ عن بعد فوصل الريح اليها فحملت في الحال وقيل إن النفخة كانت في فيها وكانت مدة حملها سبعة أشهر وقيل
ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غيره وقيل تسعة أشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة كما حملت وضعته وسنها
حينئذ ثلاث عشرة سنة وقيل عشر سنين وقد حاضت حيضتين (فَانْتَبَذَتْ بِهِ) أي فاعتزلت وهو في بطنها كما في
قوله : تدوس بنا الجماجم والتريبا فالجار والمجرور في حيز النصب على الحالية أي فانتبذت ملتبسة به (مَكَانًا قَصِيًّا)
بعيدا من أهلها وراء الجبل وقيل أقصى الدار وهو الأنسب بقصر مدة الحمل (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ) أي فألجأها وهو
في الأصل منقول من جاء لكنه لم يستعمل في غيره كآتى في أعطى وقرىء المخاض بكسر الميم وكلاهما مصدر مخضت
المرأة اذا تحرك الولد في بطنها للخروج (إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ) لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة وهو ما بين العرق
والغصن وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء والتعريف إما للجنس أو للعهد اذ لم يكن ثمة غيرها
وكانت كالمتعالم عند الناس ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريها من آياتها ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب الذي هو خرسة
النفساء الموافقة لها (قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ) بكسر الميم من مات يمات كخفت وقرىء بضمها من مات يموت (قَبْلَ هَٰذَا)
أي هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت وانما قالته مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد
الكريم استحياء من الناس وخوفا من لائمتهم أو حذارا من وقوع الناس في المعصية بما تكلموا فيها أو جريا على سنن
الصالحين عند اشتداد الأمر عليهم كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه أخذ تبنة من الأرض فقال ياليتني هذه التبنة ولم
اكن شيئا وعن بلال أنه قال ليت بلالا لم تلده أمه (وَكُنْتُ نَسْيًا) أي شيئا تافها شأنه أن ينسى ولا يعتد به أصلا
وقرىء بالكسر قيل هما لغتان في ذلك كالوتر والوتر وقيل هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض وبالفتح
مصدر سمي به المفعول مبالغة وقرىء بهما مهموزا من نسأت اللبن إذا صببت عليه الماء فصار مستهلكا فيه وقرىء
نسا كعصا (مَنْسِيًّا) لا يخطر ببال أحد من الناس وهو نعت للمبالغة وقرىء بكسر الميم اتباعا له بالسين (فَنَادَاهَا)
أي جبريل عليه السلام (مِنْ تَحْتِهَا) قيل أنه كان يقبل الولد وقيل من تحتها اى من مكان أسفل منها تحت

الاكمة وقيل من تحت النخلة وقيل ناداها عيسى عليه السلام وقرىء نخاطبها من تحتها بفتح الميم (ألا تحزني) أي لا تحزني على أن أن مفسرة أو بأن لا تحزني على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار (قد جعل ربك تحتك) أي بمكان أسفل منك وقيل تحت أمرك ان أمرت بالجري جرى وإن أمرت بالامساك أمسك (سريا) أي نهرا صغيرا حسبما روي مرفوعا قال ابن عباس رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا وقيل فعله عيسى عليه السلام وقيل كان هناك نهر يابس أجرى الله عز وجل فيه الماء حينئذ كما فعل مثله بالنخلة فانها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ورق فضلا عن التمر وكان الوقت شتاء فجعل الله لها إذ ذاك رأسا وخوصا وتمرا وقيل كان هناك ماء جار والأول هو الموافق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر من النظم الكريم وقيل سريا أي سيدا نبيلا رفيع الشأن جليلا وهو عيسى عليه السلام فالتنوين للتفخيم والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهي عنه والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية (وهزي) هز الشيء تحريكه إلى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا متداركا والمراد هنا ما كان منه بطريق الجذب والدفع لقوله تعالى (إليك) أي إلى جهتك والباء في قوله عز وعلا (بجذع النخلة) صلة للتأكيد كما في قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الخ قال الفراء تقول العرب هزه وهز به وأخذ الخطام وأخذ بالخطام أو لالصاق الفعل بمدخولها أي افعلي الهز بجزعها أو هزي الثمرة بهزه وقيل هي متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول الهز أي هزي اليك الرطب كائنا بجزعها (تساقط) أي تسقط النخلة (عليك) اسقاطا متواترا حسب تواتر الهز وقرىء تسقط ويسقط من الاسقاط بالتاء والياء وتتساقط باظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية وتساقط بادغامها في السين ويساقط بالياء كذلك وتسقط ويسقط من السقوط على أن التاء في الكل للنخلة والياء للجذع وقوله تعالى (رطبا) على القراءات الثلاث الأول مفعول وعلى الست البواقي تمييز وقوله تعالى (جنيا) صفة له وهو ما قطع قبل يبسه فعيل بمعنى مفعول أي رطبا مجنيا أي صالحا للاجتناء وقيل بمعنى فاعل أي طريا طيبا وقرىء جنيا بكسر الجيم للاتباع (فكلي واشربي) أي ذلك الرطب وماء السري أو من الرطب وعصيره (وقري عينا) وطيبي نفسا وارفضي عنها ما أحزنك وأهمك فانه تعالى قد نزه ساحتك عما اختلج في صدور المتعبدين بالأحكام العادية بأن أظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك وقرىء وقري بكسر القاف وهي لغة نجد واشتقاقه من القرار فان العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت اليه من النظر إلى غيره أو من القر فان دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ولذلك يقال قرة العين وسخنة العين للمحبوب والمكروه (فإما ترين من البشر أحدا) أي آدميا كائنا من كان وقرىء ترئن على لغة من يقول لبأت بالحج لما بين الهمزة والياء من التآخي (فقولي) له ان استنطقك (فقولي إني نذرت للرحمن صوما) أي صمتا وقد قرىء كذلك أو صياما وكان صيامهم بالسكوت (فلن أكلم اليوم إنسيا) أي بعد أن أخبرتكم بنذري وإنما أكلم الملائكة وأناجي ربي وقيل أمرت بأن تخبر بنذرها بالإشارة وهو الأظهر قال الفراء العرب تسمي كل ما وصل إلى الانسان كلاما بأي طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فاذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام وإنما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام فانه نص قاطع في قطع الطعن (فأتت به قومها) أي جاءتهم مع ولدها راجعة اليهم عند ما طهرت من نفسها (تحمله) أي حاملة له (قالوا) مؤنبين لها (يا مريم لقد جئت) أي فعلت (شيئا فريا) أي عظيما بديعا منكرا من فري الجلد أي قطعه أو جئت مجيئا عجيبا عبر عنه بالشيء تحقيقا للاستغراب (يا أخت هرون) استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ عنوا به هرون النبي عليه السلام وكانت من اعقاب من

كان معه فى طبقة الأخوة وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة وقيل هو رجل صالح أو طالح كان فى زمانهم
شبهوها به أى كنت عندنا مثله فى الصلاح أو شتموها به (مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا) تقرير
لكون ما جاءت به فريا منكرا وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ) أى إلى عيسى
عليه السلام أن كلموه والظاهر أنها حينئذ بينت نذرها وأنها بمعزل من محاورة الإنس حسبما أمرت ففيه دلالة على أن
المأمور به بيان نذرها بالإشارة لا بالعبارة والجمع بينهما مما لا عهد به (قَالُوا) منكرين لجوابها (كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ
كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) ولم نعهد فيما سلف صبيا يكلمه عاقل وقيل كان لإيقاع مضمون الجملة فى زمان ماض مبهم صالح
لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة بدليل أنه مسوق للتعجب وقيل هى زائدة والظرف صلة من وصبيا حال من
المستكن فيه أو هى تامة أو دائمة كما فى قوله تعالى وكان الله عليما حكيما (قَالَ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من سياق
النظم الكريم كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال عيسى عليه السلام (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ) أنطقه الله عز وجل بذلك
أثر ذى أثير تحقيقا للحق وردا على من يزعم ربوبيته قيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليهما الصلاة والسلام وعن
السدى رضى الله عنه لما أشارت إليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا أشد علينا مما فعلت وروى أنه عليه السلام كان يرضع
فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار إليهم بسبابته فقال ما قال الخ وقيل كلمهم بذلك
ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان (آتَانِيَ الْكِتَابَ) أى الإنجيل (وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي) مع ذلك
(مُبَارَكًا) نفاعا معلما للخير والتعبير بلفظ الماضى فى الأفعال الثلاثة اما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم أو بجعل
ما فى شرف الوقوع لا محالة واقعا وقيل أكمله الله عقلا واستنبأه طفلا (أَيْنَ مَا كُنْتُ) أى حيثما كنت (وَأَوْصَانِي
بِالصَّلَاةِ) أى أمرنى بها أمرا مؤكدا (وَالزَّكَاةِ) زكاة المال إن ملكته أو بتطهير النفس عن الرذائل (مَا دُمْتُ
حَيًّا) فى الدنيا (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي) عطف على مباركا أى جعلنى بارا بها وقرىء بالكسر على أنه مصدر وصف به مبالغة
أو منصوب بمضمر دل عليه أوصانى أى وكلفنى برا ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفا على الصلاة والزكاة والتنكير
للتفخيم (وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) عند الله تعالى لفرط تكبره (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ
أُبْعَثُ حَيًّا) كما هو على يحيى على أن التعريف للعهد والأظهر أنه للجنس والتعريض باللعن على أعدائه فان إثبات جنس
السلام لنفسه تعريض باثبات ضده لأضداده كما فى قوله تعالى والسلام على من اتبع الهدى فانه تعريض بأن العذاب
على من كذب وتولى (ذَلِكَ) إشارة إلى من فصلت نعوته الجليلة وما فيه من معنى البعد للدلالة على علو مرتبته وبعد
منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلة المشاهد المحسوس (عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) لا ما يصفه
النصارى وهو تكذيب لهم فيما يزعمونه على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانى حيث جعله موصوفا بأضداد ما يصفونه
(قَوْلَ الْحَقِّ) بالنصب على أنه مصدر مؤكد لقال إنى عبد الله الخ وقوله تعالى ذلك عيسى ابن مريم اعتراض مقرر
لمضمون ما قبله وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو قول الحق الذى لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير
للكلام السابق أو لتمام القصة وقيل صفة عيسى أو بدله أو خبر ثان ومعناه كلمة الله وقرىء قال الحق وقول الحق فان القول
والقول والقال فى معنى واحد (الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ) أى يشكون او يتنازعون فيقول اليهود ساحر والنصارى ابن الله
وقرىء بتاء الخطاب (مَا كَانَ لِلَّهِ) اى ما صح وما استقام له تعالى (أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ) تكذيب
للنصارى وتنزيه له تعالى عما بهتوه وقوله تعالى (إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) تبكيت لهم ببيان ان
شأنه تعالى إذا قضى امرا من الأمور ان يعلق به إرادته فيكون حينئذ بلا تأخير فمن هذا شأنه كيف يتوهم ان يكون له ولد

وقرىء فيكون بالنصب على الجواب وقوله تعالى (وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) من تمام كلام عيسى عليه السلام قيل هو عطف على قوله إنى عبدالله داخل تحت القول وقد قرىء بغير واو وقرىء بفتح الهمزة على حذف اللام أى ولأنه تعالى ربى وربكم فاعبدوه كقوله تعالى وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وقيل معطوف على الصلاة (هَٰذَا) أى الذى ذكرته من التوحيد (صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ) لا يضل سالكه والفاء فى قوله تعالى (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ) لترتيب مابعدها على ماقبلها تنبيها على سوء صنيعهم بجعلهم مايوجب الاتفاق منشأ للاختلاف فان ماحكى من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصا قاطعة فى كون عبده تعالى ورسوله قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والافراط أو فرق النصارى فقالت النسطورية هو ابن الله وقالت اليعقوبية هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء تعالى عن ذلك علوا كبيرا وقالت الملكانية هو عبدالله ونبيه (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا) وهم المختلفون عبر عنهم بالموصول إيذانا بكفرهم جميعا وإشعارا بعلة الحكم (مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) أى من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء وهو يوم القيامة أو من وقت شهوده أو من مكان الشهود فيه أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن يشهد عليهم الملائكة والأنبياء عليهم السلام وألسنتهم وآذانهم وأيديهم وأرجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق أو من وقت الشهادة أو من مكانها وقيل هو ماشهدوا به فى حق عيسى وأمه عليهما السلام (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ) تعجب من حدة سمعهم وابصارهم يومئذ ومعناه أن أسماعهم وأبصارهم (يَوْمَ يَأْتُونَنَا) للحساب والجزاء أى يوم القيامة جدير بأن يتعجب منها بعد أن كانوا فى الدنيا صما عميا أو تهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ وقيل أمر بأن يسمعهم ويبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه والجر والمجرور على الأول فى موقع الرفع وعلى الثانى فى حيز النصب (لَٰكِنِ الظَّٰلِمُونَ الْيَوْمَ) أى فى الدنيا (فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) لا تدرك غايته حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلية ووضع الظالمين موضع الضمير للايذان بأنهم فى ذلك ظالمون لأنفسهم (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ) أى يوم يتحسر الناس قاطبة أما المسىء فعلى إساءته وأما المحسن فعلى قلة إحسانه (إِذْ قُضِىَ الْأَمْرُ) أى فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظرون فينادى المنادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرح وأهل النار غما إلى غم وإذ بدل من يوم الحسرة أو ظرف للحسرة فان المصدر المعرف باللام يعمل فى المفعول الصريح عند بعضهم فكيف بالظرف (وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ) أى عما يفعل بهم فى الآخرة (وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) وهما جملتان حاليتان من الضمير المستتر فى قوله تعالى فى ضلال مبين أى مستقرون فى ذلك وهم فى تينك الحالتين وما بينهما اعتراض أو من مفعول أنذرهم أى أنذرهم غافلين غير مؤمنين فيكون حالا متضمنة لمعنى التعليل (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا) لا يبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك أو نتوفى الأرض ومن عليها بالافناء والاهلاك توفى الوارث لارثه (وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) أى يردون للجزاء لا إلى غيرنا استقلالا أو اشتراكا (وَاذْكُرْ) عطف على أنذرهم (فِى الْكِتَٰبِ) اى فى السورة او فى القرآن (إِبْرَٰهِيمَ) أى اتل على الناس قصته وبلغها إياهم كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابراهيم فانهم ينتمون اليه عليه السلام فعساهم باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من القبائح (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا) ملازما للصدق فى كل ما يأتى ويذر أو كثير التصديق لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله والجملة استئناف مسوق لتعليل موجب الأمر فان وصفه عليه السلام بذلك من دواعى ذكره (نَّبِيًّا) خبر آخر لكان مقيد للأول مخصص له كما ينبىء عنه قوله تعالى من النبيين والصديقين الآية أى كان جامعا بين الصديقية والنبوة ولعل هذا الترتيب للمبالغة فى الاحتراز عن

توهم تخصيص الصديقية بالنبوة فان كل نبي صديق (إِذْ قَالَ) بدل اشتمال من ابراهيم ومابينهما اعتراض مقرر لماقبله أومتعلق بكان أو بنبيا وتعليق الذكر بالأوقات مع أن المقصود تذكير ماوقع فيها من الحوادث قد مر سره مرارا أى كان جامعا بين الاثرتين حين قال (لِأَبِيهِ) آزر متلطفا فى الدعوة مستميلا له (يَا أَبَتِ) أى يا أبى فان التاء عوض عن ياء الاضافة ولذلك لايجتمعان وقد قيل يا أبتا لكون الألف بدلا من الياء (لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ) ثناءك عليه عند عبادتك له وجؤارك اليه (وَلَا يُبْصِرُ) خضوعك وخشوعك بين يديه أو لا يسمع ولا يبصر شيأ من المسموعات والمبصرات فيدخل فى ذلك ماذكر دخولا أوليا (وَلَا يُغْنِي) أى لايقدر على أن يغنى (عَنكَ شَيْئًا) فى جلب نفع أو دفع ضرر ولقد سلك عليه السلام فى دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل لئلا يركب متن المكابرة والعناد ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل من عالم وجاهل ويأبى الركون اليه فضلا عن عبادته التى هى الغاية القاصية من التعظيم مع أنها لاتحق إلا لمن له الاستغناء التام والانعام العام الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل مايفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح والشىء لوكان حيا مميزا سميعا بصيرا قادرا على النفع والضر مطيقا بايصال الخير والشر لكن كان ممكنا لاستنكف العقل السليم عن عبادته وإن كان أشرف الخلائق لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ليس له من أوصاف الاحياء عين ولا أثر ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهديه إلى الحق المبين لما أنه لم يكن محفوظا من العلم الالهى مستقلا بالنظر السوى مصدر الدعوته بما مر من الاستمالة والاستعطاف حيث قال (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ) ولم يسم أباه بالجهل المفرط وإن كان فى أقصاه ولا نفسه بالعلم الفائق وإن كان كذلك بل أبرز نفسه فى صورة رفيق له أعرف بأحوال ماسلكاه من الطريق فاستماله برفق حيث قال (فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) أى مستقيما موصلا إلى أسنى المطالب منجيا عن الضلال المؤدى إلى مهاوى الردى والمعاطب ثم ثبطه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فانه فى الحقيقة عبادة الشيطان لما أنه الآمر به فقال (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ) فان عبادتك للاصنام عبادة له إذ هو الذى يسولها لك ويغريك عليها وقوله (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) تعليل لموجب النهى وتأكيد له ببيان أنه مستعص على ربك الذى أنعم عليك بفنون النعم ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص وكل من هو عاص حقيق بأن يسترد منه النعم وينتقم منه والاظهار فى موضع الاضمار لزيادة التقرير والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لأنه ملاكها أو لأنه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام وذريته فتذكيره داع لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته والتعرض لعنوان الرحمانية لاظهار كمال شناعة عصيانه وقوله (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ) تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤه بما ابتلى به معبوده من العذاب الفظيع وكلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية واظهار الرحمن للاشعار بأن وصف الرحمانية لايدفع حلول العذاب كما فى قوله عز وجل ماغرك بربك الكريم (فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) أى قرينا له فى اللعن المخلد وذكر الخوف للمجاملة وابراز الاعتناء بأمره (قَالَ) استئناف مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فماذا قال أبوه عند ما سمع منه عليه السلام هذه النصائح الواجبة القبول فقيل قال مصرا على عناده (أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ) أى أمعرض ومنصرف أنت عنها بتوجيه الانكار إلى نفس الرغبة مع ضرب من التعجب كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلا عن ترغيب الغير عنها وقوله (لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ)

تهديد وتحذير عما كان عليه من العظة والتذكير أى والله لئن لم تنته عما كنت عليه من النهى عن عبادتها لأرجمنك بالحجارة وقيل باللسان (وَاهْجُرْنِى) أى فاحذرنى واتركنى (مَلِيًّا) أى زمانا طويلا أو مليا بالذهاب مطيقا به (قَالَ) استئناف كما سلف (سَلَامٌ عَلَيْكَ) توديع ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة أى لا أصيبك بمكروه بعد ولا أشافهك بما يؤذيك ولكن (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى) أى أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ويهديك إلى الإيمان كما يلوح به تعليل قوله تعالى واغفر لأبى بقوله تعالى انه كان من الضالين والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لاريب فى جوازه وإنما المحظور استدعاء المغفرة له مع بقائه على الكفر فانه مما لامساغ له عقلا ولا نقلا وأما الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا تأباه قضية العقل وإنما الذى يمنعه السمع ألا يرى إلى أنه عليه السلام قال لعمه أبى طالب لا أزال أستغفر لك مالم أنه عنه فنزل قوله تعالى ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية والاشتباه فى أن هذا الوعد من ابراهيم عليه السلام وكذا قوله لأستغفرن لك وما ترتب عليهما من قوله واغفر لأبى الآية إنما كان قبل انقطاع رجائه عن إيمانه لعدم تبين أمره لقوله تعالى فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما مر فى تفسير سورة التوبة واستثناؤه عما يؤتسى به فى قوله تعالى الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك لا يقدح فى جوازه لكن لا لأن ذلك قبل ورود النهى أو لموعدة وعدها إياه كما قيل لما أن النهى إنما ورد فى شأن الاستغفار بعد تبين الأمر وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبين فلم يتناوله النهى أصلا وأن الوعد بالمحظور لا يرفع حظره بل لأن المراد بما يؤتسى به ما يجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الاعراض عنه بقوله تعالى لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد فاستثناؤه عن ذلك إنما يفيد عدم وجوب استدعاء الإيمان للكافر المرجو إيمانه لاسيما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء وذلك مما لا يتردد فيه أحد من العقلاء وأما عدم جوازه قبل تبين الأمر فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا وتوجيه الاستثناء إلى العدة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار بقوله واغفر لأبى الآية لأنها كانت هى الحاملة له عليه السلام عليه وتخصيص تلك العدة بالذكر دون ما وقع ههنا لورودها على نهج التأكيد القسمى وأما جعل الاستغفار دائرا عليها وترتيب التبرؤ على تبين الأمر فقد مر تحقيقه فى تفسير سورة التوبة وقوله (إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا) أى بليغا فى البر والالطاف تعليل لمضمون ما قبله (وَأَعْتَزِلُكُمْ) أى أتباعد عنك وعن قومك (وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) بالمهاجرة بدينى حيث لم تؤثر فيكم نصائحى (وَأَدْعُو رَبِّى) أعبده وحده وقد جوز أن يراد به دعاؤه المذكور فى تفسير سورة الشعراء ولا يبعد أن يراد به استدعاء الولد أيضا بقوله رب هب لى من الصالحين حسبما يساعده السباق والسياق (عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا) أى خائبا ضائع السعى وفيه تعريض بشقائهم فى عبادة آلهتهم وفى تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضع ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الاجابة والاثابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب وأن العبرة بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفى (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) بالمهاجرة إلى الشام (وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) بدل من فارقهم من أقربائه الكفرة لكن لا عقيب المهاجرة فان المشهور أن الموهوب حينئذ اسمعيل عليه السلام لقوله تعالى فبشرناه بغلام حليم اثر دعائه بقوله رب هب لى من الصالحين ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عظم النعم التى أعطاها الله تعالى إياه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء فانهما شجرتا الأنبياء لهما أولاد وأحفاد أولوا شأن خطير وذوو اعدد كثير هذا وقد روى أنه عليه السلام لما قصد الشام أتى أولا حران وتزوج بسارة وولدت له اسحاق وولد لاسحق يعقوب والأول هو الأقرب الأظهر (وَكُلًّا) أى كل واحد منهما أو منهم وهو

مفعول أول لقوله تعالى (جَعَلْنَا نَبِيًّا) قدم عليه للتخصيص لكن لا بالنسبة إلى من عداهم بل بالنسبة إلى بعضهم أى كل واحد منهم جعلنا نبيا لا بعضهم دون بعض (وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا) هى النبوة وذكرها بعد ذكر جعلهم نبيا للايذان بأنها من باب الرحمة وقيل هى المال والأولاد وما بسط لهم من سعة الرزق وقيل هو الكتاب والأظهر أنها عامة لكل خير دينى ودنيوى أوتوه مما لم يؤته أحد من العالمين (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام ولسان العرب لغتهم وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنون عليهم وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار وتبدل الدول وتحول الملل والنحل (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ) قدم ذكره على ذكر اسمعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليهما السلام (إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا) موحدا أخلص عبادته عن الشرك والرياء أو أسلم وجهه لله تعالى وأخلص نفسه عما سواه وقرىء مخلصا على أن الله تعالى أخلصه (وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا) أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه ولذلك قدم رسولا مع كونه أخص وأعلى (وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ) الطور جبل بين مصر ومدين والأيمن صفة للجانب أى ناديناه من ناحيته اليمنى من اليمين وهى التى تلى يمين موسى عليه السلام أو من جانبه الميمون من اليمن ومعنى ندائه منه أنه تمثل له الكلام من تلك الجهة (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) تقريب تشريف مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ونجيا أى مناجيا حال من أحد الضميرين فى ناديناه أو قربناه وقيل مرتفعا لما روى أنه عليه السلام رفع فوق السموات حتى سمع صريف القلم (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا) أى من أجل رحمتنا ورأفتنا له أو بعض رحمتنا (أَخَاهُ) أى معاضدة أخيه وموازرته إجابة لدعوته بقوله واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى لا نفسه لأنه كان أكبر منه عليهما السلام وهو على الأول مفعول لوهبنا وعلى الثانى بدل وقوله تعالى (هَارُونَ) عطف بيان له وقوله تعالى (نَبِيًّا) حال منه (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ) فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لابراز كمال الاعتناء بأمره بايراده مستقلا وقوله تعالى (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) تعليل لموجب الأمر وإيراده عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به وناهيك أنه وعد الصبر على الذبح بقوله ستجدنى إن شاء الله من الصابرين فوفى (وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا) فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فان أولاد ابراهيم عليه السلام كانوا على شريعته (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ) اشتغالا بالأهم وهو أن يقبل الرجل بالتكميل على نفسه ومن هو أقرب الناس اليه قال تعالى وأنذر عشيرتك الأقربين وأمر أهلك بالصلاة قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقصدا إلى تكميل الكل بتكميلهم لأنهم قدوة يؤتسى بهم وقيل أهله أمته فان الأنبياء عليهم السلام آباء الأمم (وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) لاتصافه بالنعوت الجليلة التى من جملتها ما ذكر من خصاله الحميدة (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ) وهو سبط شيث وجد أبى نوح فانه نوح بن لمك بن متوشلح بن أخنوخ وهو ادريس عليه السلام واشتقاقه من الدرس يرده منع صرفه نعم لا يبعد أن يكون معناه فى تلك اللغة قريبا من ذلك فلقب به لكثرة دراسته روى أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة وأنه أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا) ملازما للصدق فى جميع أحواله (نَبِيًّا) خبر آخر لكان مخصص للاول إذ ليس كل صديق نبيا (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) هو شرف النبوة والزلفى عند الله عز وجل وقيل علو الرتبة بالذكر الجميل فى الدنيا كما فى قوله تعالى ورفعنا لك ذكرك وقيل الجنة وقيل السماء السادسة أو الرابعة روى عن كعب وغيره فى سبب رفع ادريس عليه السلام أنه سئل ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب إنى قد مشيت فيها يوما وقد أصابنى منها ما أصابنى فكيف من يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم

واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها مالا يعرف فقال يارب ما الذى قضيت فيه قال ان عبدى ادريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته قال يارب اجعل بينى وبينه خلة فأذن الله تعالى له فرفعه إلى السماء (أولٰئك) إشارة إلى المذكورين فى السورة الكريمة وما فيه من معنى البعد للاشارة بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (الذين أنعم الله عليهم) صفته أى أنعم عليهم بفنون النعم الدينية والدنيوية حسبما أشير اليه مجملا وقوله تعالى (من النبيين) بيان للموصول وقوله تعالى (من ذرية ءادم) بدل منه باعادة الجار ويجوز أن تكون كلمة من فيه للتبعيض لأن المنعم عليهم أعم من الأنبياء وأخص من الذرية (وممن حملنا مع نوح) أى ومن ذرية من حملنا معه خصوصا وهم من عدا ادريس عليه السلام فان ابراهيم كان من ذرية سام ابن نوح (ومن ذرية إبرٰهيم) وهم الباقون (وإسرٰءيل) عطف على ابراهيم أى ومن ذرية اسرائيل وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية (وممن هدينا واجتبينا) أى ومن جملة من هديناهم إلى الحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة وقوله تعالى (إذا تتلىٰ عليهم ءايٰت الرحمٰن خروا سجدا وبكيا) خبر لأولئك ويجوز أن يكون الخبر هو الموصول وهذا استئنافا مسوقا لبيان خشيتهم من الله تعالى واخباتهم له مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة فى شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه وسجدا وبكيا حالان من ضمير خروا أى ساجدين باكين عن النبى صلى الله عليه وسلم اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا والبكى جمع باك كالسجد جمع ساجد وأصله بكوى فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء وقرىء يتلى بالياء التحتانية لأن التأنيث غير حقيقى وقرىء بكيا بكسر الباء للاتباع قالوا ينبغى أن يدعو الساجد فى سجدته بما يليق بآيتها فههنا يقول اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وفى آية الاسراء يقول اللهم اجعلنى من الباكين اليك الخاشعين لك وفى آية تنزيل السجدة يقول اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك (فخلف من بعدهم خلف) يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام ولعقب الشر خلف بالسكون أى فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء (أضاعوا الصلوٰة) وقرىء الصلوات أى تركوها أو أخروها عن وقتها (واتبعوا الشهوٰت) من شرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك فى فنون المعاصى وعن على رضى الله عنه هم من بنى المشيد وركب المنظور ولبس المشهور (فسوف يلقون غيا) أى شرا فان كل شر عند العرب غى وكل خير رشاد كقوله :

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره … ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

وعن الضحاك جزاء غى كقوله تعالى يلق أثاما أى جزاء اثام أو غيا عن طريق الجنة وقيل غى واد فى جهنم تستعيذ منه أوديتها وقوله تعالى (إلا من تاب وءامن وعمل صٰلحا) يدل على أن الآية فى حق الكفرة (فأولٰئك) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا أى فأولئك المنعوتون بالتوبة والايمان والعمل الصالح (يدخلون الجنة) بموجب الوعد المحتوم وقرىء يدخلون على البناء للمفعول (ولا يظلمون شيئا) أى لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئا أو لا ينقصون شيئا من النقص وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ولا ينقص أجورهم (جنٰت عدن) بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض أو نصب على المدح وقرىء بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هى أو تلك جنات الخ أو مبتدأ خبره التى وعد الخ وقرىء جنة عدن نصبا

ورفعا وعدن علم لمعنى العدن وهو الاقامة كما أن فينة وسحر وأمس فيمن لم يصرفها أعلام لمعانى الفينة وهى الساعة التى أنت فيها والسحر والأمس فجرى لذلك مجرى العدن أو هو علم لأرض الجنة خاصة ولولا ذلك لما ساغ ابدال ما أضيف اليه من الجنة بلا وصف عند غير البصريين ولا وصفه بقوله تعالى (الَّتى وَعَدَ الرَّحمٰنُ عِبادَهُ) وجعله بدلا منه خلاف الظاهر فان الموصول فى حكم المشتق وقد نصوا على أن البدل بالمشتق ضعيف والتعرض لعنوان الرحمة للايذان بأن وعدها وانجازه لكمال سعة رحمته تعالى والباء فى قوله تعالى (بالغَيبِ) متعلقة بمضمر هو حال من المضمر العائد إلى الجنات أو من عباده أى وعدها إياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب أى غائبة عنهم غير حاضرة أو غائبين عنها لا يرونها وإنما آمنوا بها بمجرد الاخبار أو بمضمر هو سبب للوعد أى وعدها إياهم بسبب ايمانهم (إنَّهُ كانَ وَعدُهُ) أى موعوده كائنا ما كان فيدخل فيه الجنات الموعودة دخولا أوليا ولما كانت هى مثابة يرجع اليها قيل (مَأتِيًّا) أى يأتيه من وعد له لا محالة بغير خلف وقيل هو مفعول بمعنى فاعل وقيل مأتيا أى مفعولا منجزا من أتى اليه إحسانا أى فعله (لا يَسمَعُونَ فِيها لَغوًا) أى فضول كلام لا طائل تحته وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغى أن يجتنب عنه فى هذه الدار ما أمكن (إلا سَلامًا) استثناء منقطع أى لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم أو تسليم بعضهم على بعض أو متصل بطريق التعليق بالمحال أى لا يسمعون لغوا ما إلا سلاما فحيث استحال كون السلام لغوا استحال سماعهم له بالكلية كما فى قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

أو على أن معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياء عنه فهو من باب اللغو ظاهرا وإنما فائدته الاكرام وقوله تعالى (وَلَهُم رِزقُهُم فِيها بُكرَةً وعَشِيًّا) وارد على عادة المتنعمين فى هذه الدار وقيل المراد دوام رزقهم ودروره وإلا فليس فيها بكرة ولا عشى (تِلكَ الجَنَّةُ) مبتدأ وخبر جىء به لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها فان ما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها (الَّتى نورِثُ) أى نورثها (مِن عِبادِنا مَن كانَ تَقِيًّا) أى نبقيها عليهم بتقواهم ونمتعهم بها كما نبقى على الوارث مال مورثه ونمتعه به والوراثة أقوى ما يستعمل فى التملك والاستحقاق من الألفاظ من حيث انها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ولا ابطال وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادة فى كرامتهم وقرىء نورّث بالتشديد (وَما نَتَنَزَّلُ إلا بِأمرِ رَبِّكَ) حكاية لقول جبريل حين استبطأه رسول الله عليهما الصلاة والسلام لما سئل عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فلم يدر كيف يجيب ورجا أن يوحى اليه فيه فأبطأ عليه أربعين يوما أو خمسة عشر فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه ثم نزل ببيان ذلك وأنزل الله عز وجل هذه الآية وسورة والضحى والتنزل النزول على مهل لأنه مطاوع للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزول كما يطلق التنزيل على الانزال والمعنى وما نتنزل وقتا غب وقت إلا بأمر الله تعالى على ما تقتضيه حكمته وقرىء وما يتنزل بالياء والضمير للوحى (لَهُ ما بَينَ أيدِينا وَما خَلفَنا وما بَينَ ذٰلِكَ) وهو ما نحن فيه من الأماكن والأزمنة ولا ننتقل من مكان إلى مكان ولا نتنزل فى زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته (وما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) أى تاركا لك يعنى أن عدم النزول لم يكن إلا لعدم الأمر به لحكمة بالغة فيه ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه اياك كما زعمت الكفرة وفى اعادة اسم الرب المعرب عن التبليغ إلى الكمال اللائق مضافا إلى ضميره عليه السلام من تشريفه والاشعار بعلة الحكم ما لا يخفى وقيل أول الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة مخاطبا بعضهم بعضا بطريق التبجح والابتهاج والمعنى وما نتنزل الجنة إلا بأمر الله تعالى ولطفه وهو مالك الأمور كلها سالفها ومترقبها وحاضرها فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله وقوله تعالى وما كان ربك نسيا تقرير لقولهم

من جهة الله تعالى أى وما كان ناسيا لأعمال العاملين وما وعدهم من الثواب عليها وقوله تعالى (رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فان من بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحاته الغفلة والنسيان وهو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من ربك والفاء فى قوله تعالى (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) لترتيب ما بعدها من موجب الأمرين على ما قبلها من كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما وقيل من كونه تعالى غير تارك له عليه الصلاة والسلام أو غير ناس لأعمال العاملين والمعنى فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده الخ فان ايجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته بما لا ريب فيه أو حين عرفت أنه تعالى لا ينساك أو لا ينسى أعمال العاملين كائنا من كان فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها ولا تحزن بابطاء الوحى وهزؤ الكفرة فانه يراقبك ويراعيك ويلطف بك فى الدنيا والآخرة وتعدية الاصطبار باللام لا بحرف الاستعلاء كما فى قوله تعالى واصطبر عليها لتضمينه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمبارز اصطبر لقرينك اى اثبت له فيما يورد عليك من شدائده (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) السمى هو الشريك فى الاسم والظاهر أن يراد به ههنا الشريك فى اسم خاص قد عبر عنه تعالى بذلك وهو رب السموات والأرض وما بينهما والمراد بانكار العلم ونفيه انكار المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكده فالجملة تقرير لما أفاده الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب عبادته بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عز وجل بذلك الاسم وانتفاء اطلاقه على الغير بالكلية حقا أو باطلا وقيل المراد هو الشريك فى الاسم الجليل فإن المشركين مع غلوهم فى المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلا وقيل هو الشريك فى اسم الإله والمراد بالتسمية التسمية على الحق فالمعنى هل تعلم شيئا يسمى بالاستحقاق الها وأما التسمية على الباطل فهى كلا تسمية فتقرير الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما فى الاسمين الكريمين من الاشعار باستحقاق العبادة فتدبر (وَيَقُولُ الإِنْسَانُ) المراد به اما الجنس بأسره واسناد القول إلى الكل لوجود القول فيما بينهم وإن لم يقله الجميع كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم واما البعض المعهود منهم وهم الكفرة أو أبى بن خلف فانه أخذ عظاما بالية ففتها وقال يزعم محمد انا نبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذه الحال أى يقول بطريق الانكار والاستبعاد (أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) أى أبعث من الأرض أو من حال الموت وتقديم الظرف وايلاؤه حرف الإنكار لما أن المنكر كون ما بعد الموت وقت الحياة وانتصابه بفعل دل عليه أخرج لا به فان ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها وهى ههنا مخلصة للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلصت الهمزة واللام للتعويض فى يا الله فساغ اقترانها بحرف الاستقبال وقرىء اذا مامت بهمزة واحدة مكسورة على الخبر (أَوَلَا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ) من الذكر الذى يراد به التفكر والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والإشعار بأن الانسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليه من شئون التكوين المنجية بالقلع عن القول المذكور وهو السر فى اسناده الى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان والهمزة للانكار التوبيخى والواو لعطف الجملة المنفية على مقدر يدل عليه يقول أى أيقول ذلك ولا يذكر (أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ) أى من قبل الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه (وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) أى والحال أنه لم يكن حينئذ شيئا أصلا فحيث خلقناه وهو فى تلك الحالة المنافية للخلق بالكلية مع كونه أبعد من الوقوع فلأن نبعثه بجمع المواد المتفرقة وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض أولى وأظهر فما له لا يذكره فيقع فيما يقع فيه من النكير وقرىء يذكر ويتذكر على الأصل (فَوَرَبِّكَ) اقسامه باسمه عزت أسماؤه مضافا إلى ضميره عليه السلام لتحقيق الأمر بالاشعار بعليته وتفخيم شأنه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته (لَنَحْشُرَنَّهُمْ) لنجمعن القائلين بالسوق إلى المحشر بعدما أخرجناهم من الأرض أحياء ففيه اثبات للبعث بالطريق البرهانى على أبلغ وجه وآكده كأنه أمر واضح غنى عن التصريح به وإنما المحتاج إلى البيان

مابعدذلك من الاهوال (والشيطين) معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه . روى أن الكفرة يحشرون مع قرنائهم الشياطين التي كانت تغويهم كل منهم مع شيطانه فى سلسلة وهذا وإن كان مختصا بهم لكن ساغ نسبته الى الجنس باعتبار أنهم لما حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعا كما ساغ نسبة القول المحكى اليه مع كون القائل بعض أفراده (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) ليرى السعداء مانجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غبطة وسرورا وينال الأشقياء ماادخروا لمعادهم عدة ويزدادوا غيظا من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم بهم والجثى جمع جاث من جثا إذاقعد على ركبتيه وأصله جثو وبواوين فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين فكسرت الثاء للتخفيف فانقلبت الواو الأولى ياء لسكونها وانكسار ماقبلها فاجتمعت واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء الأولى وكسرت الجيم اتباعا لما بعدها وقرىء بضمها ونصبه على الحالية من الضمير البارز أى لنحضرنهم حول جهنم جاثين على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع أو لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل إلى الثواب والعقاب فان أهل الموقف جاثون كما ينطق به قوله تعالى وترى كل أمة جاثية على ماهو المعتاد فى مواقف التقاول وإن كان المراد بالانسان الكفرة فلعلهم يساقون من الموقف إلى شاطىء جهنم جثاة إهانة بهم أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة (ثم لننزعن من كل شيعة) أى من كل أمة شاعت دينا من الأديان (أيهم أشد على الرحمن عتيا) أى من كان منهم أعصى وأعتى فنطرحهم فيها وفى ذكر الاشد تنبيه على أنه تعالى يعفو عن بعض من أهل العصيان وعلى تقدير تفسير الانسان بالكفرة فالمعنى إنا نميز من كل طائفة منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم فى النار على الترتيب أو ندخل كلا منهم طبقتها اللائقة به وأيهم مبنى على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يبنى كسائر الموصولات لكنه أعرب حملا على كل وبعض للزوم الاضافة وإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقه ومنصوب المحل بننزعن ولذلك قرىء منصوبا ومرفوع عند غيره بالابتداء على أنه استفهامى وخبره أشد والجملة محكية والتقدير لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشد أو معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم أو مستأنفة والفعل واقع على كل شيعة على زيادة من أو على معنى لننزعن بعض كل شيعة كقوله تعالى ووهبنا لهم من رحمتنا وعلى للبيان فيتعلق بمحذوف كأن سائلا قال على من عتوا فقيل على الرحمن أو متعلق بأفعل وكذا الباء فى قوله تعالى (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) أى هم أولى بصليها أو صليهم أولى بالنار وهم المنتزعون ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتيا رؤساء الشيع فان عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالهم والصلى كالعتى صيغة وإعلالا وقرىء بضم الصاد (وإن منكم) التفات لاظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام وقيل هو خطاب للناس من غير التفات الى المذكور ويؤيد الاول أنه قرىء وإن منهم أى مامنكم أيها الانسان (إلا واردها) أى واصلها وحاضر دونها يمر بها المؤمنون وهى خامدة وتنهار بغيرهم وعن جابر أنه صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة وأما قوله تعالى أولئك عنها مبعدون فالمراد به الابعاد عن عذابها وقيل ورودها الجواز على الصراط الممدود عليها (كان) أى ورودهم إياها (على ربك حتما مقضيا) أى أمرا محتوما أوجبه الله عز وجل على ذاته وقضى أنه لابد من وقوعه البتة وقيل أقسم عليه (ثم ننجى الذين اتقوا) الكفر والمعاصى مما كانوا عليه من حال الجثو على الركب على الوجه الذى سلف فيساقون الى الجنة وقرىء ننجى بالتخفيف وينجى وينجى على البناء للمفعول وقرىء ثمة ننجى بفتح الثاء أى هناك ننجيهم (ونذر الظالمين) بالكفر والمعاصى (فيها جثيا) منهارا بهم كما كانوا قيل فيه دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وأن المؤمنين يفارقون الفجرة بعد تجاثيهم حولها ويلقى

الفجرة فيها على هيآتهم وقوله تعالى (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) الآية إلى آخرها حكاية لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم أى وإذا تتلى على المشركين (ءَايَٰتُنَا) التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بحسن حال المؤمنين وسوء حال الكفرة وقوله تعالى (بَيِّنَٰتٍ) أى مرتلات الالفاظ مبينات المعانى بنفسها أو ببيان الرسول عليه الصلاة والسلام أو بينات الاعجاز حال مؤكدة من آياتنا (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى قالوا ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على أنهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له أو قال الذين مردوا منهم على الكفر ومرنوا على العتو والعناد وهم النضر بن الحرث وأتباعه الفجرة واللام فى قوله تعالى (لِلَّذِينَ ءَامَنُوا) للتبليغ كما فى مثل قوله تعالى وقال لهم نبيهم وقيل لام الاجل كما فى قوله تعالى وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه أى قالوا لأجلهم وفى حقهم والأول هو الأولى لأن قولهم ليس فى حق المؤمنين فقط كما ينطق به قوله تعالى (أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ) أى المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا أينا (خَيْرٌ) نحن أو أنتم (مَّقَامًا) أى مكانا وقرىء بضم الميم أى موضع إقامة ومنزل (وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) أى مجلسا ومجتمعا يروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنونها ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين يريدون بذلك أن خيريتهم حالا وأحسنيتهم منالا مما لا يقبل الانكار وأن ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزلفاهم عنده إذ هو العيار على الفضل والنقصان والرفعة والضعة وأن من ضرورته هو أن المؤمنين عليه تعالى لقصور حظهم العاجل وما هذا القياس العقيم والرأى السقيم إلا لكونهم جهلة لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم فرد عليهم ذلك من جهته تعالى بقوله (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا) أى كثيرا من القرون التى كانت أفضل منهم فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية كعاد وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى كأنه قيل فلينتظر هؤلاء أيضا مثل ذلك فكم مفعول أهلكنا ومن قرن بيان لابهامها وأهل كل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم مأخوذ من قرن الدابة وهو مقدمها وقوله تعالى هم أحسن أثاثا فى حيز النصب على أنه صفة لكم وأثاثا تمييز النسبة وهو متاع البيت وقيل هو ما جد منه والخرثى ما لبس منه ورث والرئى المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن لما يطحن وقرىء ريا على قلب الهمزة ياء وادغامها أو على أنه من الرى وهو النعمة والترفه وقرىء ريئا على القلب وريا بحذف الهمزة وزيا بالزاى المعجمة من الزى وهو الجمع فانه عبارة عن المحاسن المجموعة (قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا) لما بين عاقبة أمر الأمم المهلكة مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الحظوظ ببيان مآل أمر الفريقين اما على وجه كلى متناول لهم لغيرهم من المنهمكين فى اللذة الفانية المبتهجين بها على أن من على عمومها واما على وجه خاص بهم على أنها عبارة عنهم ووصفهم بالتمكن لذمهم والاشعار بعلة الحكم أى من كان مستقرا فى الضلالة مغمورا بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور فليمدد له الرحمن أى يمد له ويمهله بطول العمر واعطاء المال والتمكين من التصرفات وإخراجه على صيغة الأمر للايذان بأن ذلك مما ينبغى أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير كما ينبىء عنه قوله عز وجل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى إنما نملى لهم ليزدادوا إثما وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس واعتبار الاستقرار فى الضلالة لما أن المد لا يكون إلا للمصرين عليها اذ رب ضال يهديه الله عز وجل والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية وقوله تعالى (حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ) غاية للمد الممتد لا لقول المفتخرين كما قيل امتداد بحسب الذات وهو ظاهر ولا استمرار بحسب التكرار

لوقوعه فى حيز جواب إذا وجمع الضمير فى الفعلين باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الضميرين الأولين باعتبار لفظهم وقوله تعالى (إِمَّا العَذابَ وإِمَّا السَّاعةَ) تفصيل للموعود بدل منه على سبيل البدل فانه إما العذاب الدنيوى بغلبة المسلمين واستيلائهم عليهم وتعذيبهم إياهم قتلا وأسرا وامايوم القيامة وما نالهم فيه من الخزى والنكال على طريقة منع الخلو دون منع الجمع فان العذاب الأخروى لا ينفك عنهم بحال وقوله تعالى (فَسَيَعْلَمُونَ) جواب الشرط والجملة محكية بعد حتى أى حتى إذا عاينوا مايوعدون من العذاب الدنيوى أو الأخروى فقط فسيعلمون حينئذ (مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً) من الفريقين بأن يشاهدوا الأمر على عكس ماكانوا يقدرونه فيعلمون أنهم شر مكانا لاخير مقاما (وَأَضْعَفُ جُنْداً) أى فئة وأنصارا لاأحسن نديا كما كانوا يدعونه وليس المراد أن لهم ثمة جندا ضعفاء كلا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا وإنما ذكر ذلك ردا لما كانوا يزعمون أن لهم أعوانا من الأعيان وأنصارا من الأخيار ويفتخرون بذلك فى الأندية والمحافل (وَيَزِيدُ اللهُ الذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) كلام مستأنف سيق لبيان حال المهتدين اثر بيان حال الضالين وقيل عطف على فليمدد لأنه فى معنى الخبر حسبما عرفته كأنه قيل من كان فى الضلالة يمده الله ويزيد المهتدين هداية كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وقيل عطف على الشرطية المحكية بعد القول كأنه لما بين ان امهال الكافر وتمتيعه بالحياة ليس لفضله عقب ذلك ببيان أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لأنه تعالى أراد به ما هو خير من ذلك وقوله تعالى (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ) على تقدير الاستئناف والعطف كلام مستأنف وارد من جهته تعالى لبيان فضل أعمال المهتدين غير داخل فى حيز الكلام الملقن لقوله تعالى (عِنْدَ رَبِّكَ) أى الطاعات التى تبقى فوائدها وتدوم عوائدها ومن جملتها ماقيل من الصلوات الخمس وماقيل من قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خير عند الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميره لتشريفه عليه السلام (ثَوَاباً) أى عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم المخدجة الفانية التى يفتخرون بها لاسيما ومآلها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرة السرمدية والعذاب الأليم كما أشير اليه بقوله تعالى (وَخَيْرٌ مَرَدًّا) أى مرجعا وعاقبة وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيدها وفى التفضيل مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيرية فى العاقبة تهكم بهم (أَفَرَأَيْتَ الذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا) أى بآياتنا التى من جملتها آيات البعث نزلت فى العاص بن وائل كان لخباب بن الأرت عليه مال فاقتضاه فقال لاحتى تكفر بمحمد قال لا والله لا أكفر به حيا ولاميتا ولاحين بعثت قال فاذا بعثت جئنى فيكون لى ثمة مال وولد فأعطيك وفى رواية قال لاأكفر به حتى يميتك ثم تبعث فقال إنى لميت ثم مبعوث قال نعم قال دعنى حتى أموت وأبعث فسأوتى مالا وولدا فاقضيك فنزلت فالهمزة للتعجيب من حاله والايذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن ترى ويقضى منها العجب ومن فرق بين ألم تر وأرأيت بعد بيان اشتراكهما فى الاستعمال لقصد التعجيب بأن الأول يعلق بنفس المتعجب منه فيقال ألم تر إلى الذى صنع كذا بمعنى انظر اليه فتعجب من حاله والثانى يعلق بمثل المتعجب منه فيقال أرأيت مثل الذى صنع كذا بمعنى أنه من الغرابة بحيث لايرى له مثل فقد حفظ شيئا وغابت عنه أشياء وكأنه ذهب عليه قوله عز وجل أرأيت الذى يكذب بالدين والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أنظرت فرأيت الذى كفر بآياتنا الباهرة التى حقها أن يؤمن بها كل من يشاهدها (وَقَالَ) مستهزئا بها مصدرا لكلامه باليمين الفاجرة والله (لَأُوتَيَنَّ) فى الآخرة (مَالاً وَوَلَداً) أى انظر اليه فتعجب من حالته البديعة وجراءته الشنيعة هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم وقد قيل ان أرأيت بمعنى أخبر والفاء على أصلها والمعنى أخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك الذين قالوا أى الفريقين خير مقاما

الآية وأنت خبير بأن المشهور استعمال أرأيت فى معنى أخبرنى بطريق الاستفهام جاريا على أصله أو مخرجا إلى ما يناسبه من المعانى لابطريق الأمر بالاخبار لغيره وقرىء ولدا على أنه جمع ولد كأسد جمع أسد أو على أنه لغة فيه كالعرب والعرب وقوله تعالى (أَطَّلَعَ الغيبَ) رد لكلمته الشنعاء وإظهار لبطلانها اثر ماأشير اليه بالتعجيب منها أى أقد بلغ من عظمة الشأن إلى أن ارتقى إلى علم الغيب الذى استأثر به العليم الخبير حتى ادعى أن يؤتى فى الآخرة مالا وولدا وأقسم عليه (أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً) بذلك فانه لايتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين والتعرض لعنوان الرحمانية للاشعار بعلية الرحمة لايتاء مايدعيه وقيل العهد كلمة الشهادة وقيل العمل الصالح فان وعده تعالى بالثواب عليهما كالعهد وهذا مجاراة مع اللعين بحسب منطوق مقاله كما أن كلامه مع خباب كان كذلك وقوله تعالى (كَلَّا) ردع له عن التفوه بتلك العظيمة وتنبيه عن خطائه (سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ) أى سنظهر أنا كتبنا قوله كقوله إذا ماانتسبنا لم تلدنى لئيمة أى يتبين أنى لم تلدنى لئيمة أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة الجانى وحفظها عليه فان نفس الكتبة لاتكاد تتأخر عن القول لقوله عز وعلا مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد فمبنى الأول تنزيل اظهار الشىء الخفى منزلة إحداث الأمر المعدوم بجامع أن كلا منهما إخراج من الكمون إلى البروز فيكون استعارة تبعية مبنية على تشبيه اظهار الكتابة على رؤس الأشهاد باحداثها ومدار الثانى تسمية الشىء باسم سببه فان كتابة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعا (وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدّاً) مكان مايدعيه لنفسه من الامداد بالمال والولد أى نطول له من العذاب مايستحقه أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العظام ولذلك أكد بالمصدر دلالة على فرط الغضب (وَنَرِثُهُ) بموته (مَا يَقُولُ) أى مسمى مايقول ومصداقه وهو ما أوتيه فى الدنيا من المال والولد وفيه إيذان بأنه ليس لما يقوله مصداق موجود سوى ما ذكر أى ننزع عنه ما آتيناه (وَيَأْتِينَا) يوم القيامة (فَرْداً) لايصحبه مال ولا ولد كان له فى الدنيا فضلا أن يؤتى ثمة زائدا وقيل نزوى عنه مازعم أنه يناله فى الآخرة ونعطيه ما يستحقه ويأباه معنى الإرث وقيل المراد بما يقول نفس القول المذكور لامسماه والمعنى إنما يقول هذا القول مادام حيا فاذا قبضناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضا له منفردا عنه وأنت خبير بأن ذلك مبنى على أن صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد وأنه مستمر على التفوه به راج لوقوع مضمونه ولا ريب فى أن ذلك مستحيل ممن كفر بالبعث وإنما قال ماقال بطريق الاستهزاء وتعليق اداء دينه بالمحال (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً) حكاية لجناية عامة للكل مستتبعة لضدما يرجون ترتبه عليها اثر حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعها النقيض مضمونها أى اتخذوا الأصنام آلهة متجاوزين الله تعالى (لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً) أى ليتعززوا بهم بأن يكونوا لهم وصلة اليه عز وجل وشفعاء عنده (كَلَّا) ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل وإنكار لوقوع ماعلقوا به أطماعهم الفارغة (سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ) أى ستجحد الآلهة بعبادتهم لها بأن ينطقها الله تعالى وتقول ماعبدتمونا أو سينكر الكفرة حين شاهدوا سوء عاقبة كفرهم عبادتهم لها كما فى قوله تعالى والله ربنا ما كنا مشركين ومعنى قوله تعالى (وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً) على الأول تكون الآلهة التى كانوا يرجون أن تكون لهم عزا ضدا للعز أى ذلا وهوانا أو تكون عونا عليهم وآلة لعذابهم حيث تجعل وقود النار وحصب جهنم أو حيث كانت عبادتهم لها سببا لعذابهم واطلاق الضد على العون لما أن عون الرجل يضاد عدوه وينافيه باعانته له عليه وعلى الثانى يكون الكفرة ضدا وأعداء للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبونها كحب الله ويعبدونها وتوحيد الضد لوحدة المعنى الذى عليه تدور مضادتهم فانهم بذلك كشىء واحد كما فى قوله عليه السلام وهم يد على من سواهم وقرىء كلا

بفتح الكاف والتنوين على قلب الألف نونا فى الوقف قلب ألف الاطلاق فى قوله :

أقلى اللوم عاذل والعتابن وقولى ان أصبت لقد أصابن

أو على معنى كل هذا الرأى كلا وقرىء كلا على اضمار فعل يفسره مابعده أى سيجحدون كلا سيكفرون الخ (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما نطقت به الآيات الكريمة السالفة وحكته عن هؤلاء الكفرة الغواة والمردة العتاة من فنون القبائح من الأقاويل والأفاعيل والتمادى فى الغى والانهماك فى الضلال والافراط فى العناد والتصميم على الكفر من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم والاجماع على مدافعة الحق بعد اتضاحه وانتفاء الشك عنه بالكلية وتنبيه على أن جميع ذلك منهم باضلال الشياطين واغوائهم لا لأن له مسوغا فى الجملة ومعنى إرسال الشياطين عليهم اما تسليطهم عليهم وتمكينهم من اضلالهم واما تقييضهم لهم وليس المراد تعجيبه عليه السلام من ارسالهم عليهم كما يوهمه تعليق الرؤية به بل مما ذكر من أحوال الكفرة من حيث كونها من آثار اغواء الشياطين كما ينبىء عنه قوله تعالى (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) فانه اما حال مقدرة من الشياطين أو استئناف وقع جوابا عما نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يفعل الشياطين بهم حينئذ فقيل تؤزهم أى تغريهم وتهيجهم على المعاصى تهييجا شديدا بأنواع الوساوس والتسويلات فان الازو الهز والاستفزاز أخوات معناها شدة الازعاج (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ) أى بأن يهلكوا حسبما تقتضيه جناياتهم ويبيدوا عن آخرهم وتطهر الأرض من فساداتهم والفاء للاشعار بكون ماقبلها مظنة لوقوع المنهى عنه محوجة إلى النهى كما فى قوله تعالى ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة وقوله تعالى (إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) تعليل لموجب النهى ببيان اقتراب هلاكهم أى لا تستعجل بهلاكهم فانه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس نعدها عدا (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ) منصوب على الظرفية بفعل مؤخر قد حذف للاشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحه لكمال فظاعة مايقع فيه من الطامة التامة والدواهى العامة كأنه قيل يوم نحشر المتقين أى نجمعهم (إِلَى الرَّحْمَٰنِ) إلى ربهم الذى يغمرهم برحمته الواسعة (وَفْدًا) وافدين عليه كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكراماتهم وانعامهم (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ) كما تساق البهائم (إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا) عطاشا فان من يرد الماء لا يورده إلا العطش أو كالدواب التى ترد الماء نفعل بالفريقين من الأفعال مالا يفى ببيانه نطاق المقال وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم أى اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم نحشر الخ وقيل على الظرفية لقوله تعالى (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ) والذى يقتضيه مقام التهويل وتستدعيه جزالة التنزيل أن ينتصب بأحد الوجهين الأولين ويكون هذا استئنافا مبنيا لبعض مافيه من الأمور الدالة على هوله وضميره عائدا إلى العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيهما وقيل إلى المتقين خاصة وقيل إلى المجرمين من الكفرة وأهل الاسلام والشفاعة على الأولين مصدر من المبنى للفاعل وعلى الثالث ينبغى أن تكون مصدرا من المبنى للمفعول وقوله تعالى (إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا) على الأول استثناء متصل من لا يملكون ومحل المستثنى اما الرفع على البدل أو النصب على أصل الاستثناء والمعنى لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلا من استعد له بالتحلى بالايمان والتقوى أو من أمر بذلك من قولهم عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به فيكون ترغيبا للناس فى تحصيل الايمان والتقوى المؤدى إلى نيل هذه الرتبة وعلى الثانى استثناء من الشفاعة على حذف المضاف والمستثنى منصوب على البدل أو على أصل الاستثناء أى لا يملك المتقون الشفاعة إلا شفاعة من اتخذ العهد بالاسلام فيكون ترغيبا فى الاسلام وعلى الثالث استثناء من لا يملكون أيضا والمستثنى مرفوع على البدل أو

منصوب على الأصل والمعنى لا يملك المجرمون أن يشفع لهم إلا من كان منهم مسلماً (وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً) حكاية لجناية اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا اثر حكاية عبدة الأصنام بطريق عطف القصة على القصة وقوله تعالى (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا) رد لمقالتهم الباطلة وتهويل لأمرها بطريق الالتفات المنبىء عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراءة والاد بالكسر والفتح العظيم المنكر والادة الشدة وأدنى الأمر وآدنى أثقلنى وعظم على أى فعلتم أمراً منكراً شديداً لا يقادر قدره فان جاء وأتى يستعملان فى معنى فعل فيعديان تعديته وقوله تعالى (تَكادُ السَّمٰوٰاتُ) الخ صفة لادا أو استئناف ببيان عظم شأنه فى الشدة والهول وقرىء يكاد بالتذكير (يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ) يتشققن مرة بعد أخرى من عظم ذلك الأمر وقرىء ينفطرن والأول أبلغ لأن تفعل مطاوع فعل وانفعل مطاوع فعل ولأن أصل التفعل التكلف (وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ) أى تكاد وتنشق الأرض (وَتَخِرُّ الْجِبالُ) أى تسقط وتهدم وقوله تعالى (هَدًّا) مصدر مؤكد لمحذوف هو حال من الجبال أى تهد هدا أو مصدر من المبنى للمفعول مؤكد لتخر على غير الصدر لأنه حينئذ بمعنى التهدم والخرور كأنه قيل وتخر الجبال خرورا أو مصدر بمعنى المفعول منصوب على الحالية أى مهدودة أو مفعول له أى لأنها تهد وهذا تقرير لكونه ادا والمعنى أن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تطلق بها هاتيك الاجرام العظام وتفتتت من شدتها أو أن فظاعتها فى استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا حلمه تعالى لخرب العالم وبددت قوائمه غضباً على من تفوه بها (أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً) منصوب على حذف اللام المتعلقة بتكاد أو مجرور باضمارها أى تكاد السموات يتفطرن والأرض تنشق والجبال تخر لأن دعوا له سبحانه ولدا وقيل اللام متعلقة بهدا وقيل الجملة بدل من الضمير المجرور فى منه كما فى قوله:

على جوده لضن بالماء حاتم

وقيل خبر مبتدأ محذوف أى الموجب لذلك أن دعوا الخ وقيل فاعل هدا أى هدها دعاء الولد والأول هو الأولى ودعوا من دعا بمعنى سمى المتعدى إلى مفعولين وقد اقتصر على ثانيهما ليتناول كل مادعى له ولدا أو من دعا بمعنى نسب الذى مطاوعه ادعى إلى فلان أى انتسب اليه وقوله تعالى (وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً) حال من فاعل قالوا أو دعوا مقررة لبطلان مقالتهم واستحالة تحقق مضمونها أى قالوا اتخذ الرحمن ولدا أو أن دعوا للرحمن ولدا والحال أنه ما يليق به تعالى اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلا لاستحالته فى نفسه ووضع الرحمن موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم بالتنبيه على أن كل ما سواه تعالى اما نعمة أو منعم عليه فكيف يتسنى أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها وفروعها حتى يتوهم أن يتخذه ولدا وقد صرح له قوم به عز قائلا (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ) أى ما منهم أحد من الملائكة والثقلين (إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً) إلا وهو مملوك له يأوى اليه بالعبودية والانقياد وقرىء آت الرحمن على الأصل (لَقَدْ أَحْصاهُمْ) أى حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد من حيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته (وَعَدَّهُمْ عَدًّا) أى عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وكل شىء عنده بمقدار (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَرْداً) أى كل واحد منهم آت إياه تعالى منفردا من الاتباع والانصار وفى صيغة الفاعل من الدلالة على اتيانهم كذلك البتة ما ليس فى صيغة المضارع لو قيل يأتيه فاذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذكر فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئاً منهم ولدا (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ) لما فصلت قبائح أحوال الكفرة عقب ذلك بذكر محاسن أحوال المؤمنين (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا) أى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها سوى ما لهم من الايمان والعمل الصالح والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن الموعود

من آثارها وعن النبي عليه الصلاة والسلام إذا أحب الله عبدا يقول لجبريل عليه السلام انى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء ان الله أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له المحبة فى الأرض والسين لأن السورة مكية وكانوا إذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك ثم أنجزه حين ربا الاسلام أو لأن الموعود فى القيامة حين تعرض حسناتهم على رؤس الاشهاد فينزع ما فى صدورهم من الغل الذى كان فى الدنيا ولعل افراد هذا بالوعد من بين ما سيؤتون يوم القيامة من الكرامات السنية لما أن الكفرة سيقع بينهم يومئذ تباغض وتضاد وتقاطع وتلاعن (فإنما يسرناه) أى القرآن (بلسانك) بأن أنزلناه على لغتك والباء بمعنى على وقيل ضمن التيسير معنى الانزال أى يسرنا القرآن منزلين له بلغتك والفاء لتعليل أمر ينساق اليه النظم الكريم كأنه قيل بعد ايحاء السورة الكريمة بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر فإنما يسرناه بلسانك العربى المبين (لتبشر به المتقين) أى الصائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه من الأمر والنهى (وتنذر به قوما لدا) لا يؤمنون به لجاجا وعنادا واللد جمع الألد وهو الشديد الخصومة اللجوج المعاند وقوله تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى ضمن وعيد الكفرة بالاهلاك وحث له عليه الصلاة والسلام على الانذار أى قرنا كثيرا أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين وقوله تعالى (هل تحس منهم من أحد) استئناف مقرر لمضمون ما قبله أى هل تشعر بأحد منهم وترى (أو تسمع لهم ركزا) أى صوتا خفيا وأصل الركز هو الخفاء ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه فى الأرض والركاز المال المدفون المخفى والمعنى أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لا يرى منهم أحد ولا يسمع منهم صوت خفى. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى وعيسى ومريم وسائر الأنبياء المذكورين فيها وبعدد من دعا الله تعالى فى الدنيا ومن لم يدع الله تعالى.

سورة طه

(مكية وهى مائة وخمس وثلاثون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طه) فخمهما قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الأصل والطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه وأمالهما الباقون وهو من الفواتح التى يصدر بها السور الكريمة وعليه جمهور المتقنين وقيل معناه يارجل وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنه والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى الا أنه عند سعيد على اللغة النبطية وعند قتادة على السريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبى على لغة عك وقيل عكل وهى لغة يمانية قالوا ان صح فلعل أصله ياهذا فتصرفوا فيه بقلب الياء طاء وحذف ذا من هذا وما استشهد به من قول الشاعر:

ان السفاهة طه فى خلائقكم ... لاقدس الله أخلاق الملاعين

ليس بنص فى ذلك لجواز كونه قسما كما فى حم لا ينصرون وقد جوز أن يكون الأصل طاها بصيغة الأمر من الوطء فقلبت الهمزة فى يطأ ألفا لانفتاح ما قبلها كما فى قول من قال لاهناك المرتع وها ضمير الأرض على أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يطأ الأرض بقدميه لما كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه مبالغة فى المجاهدة ولكن يأباه كتابتهما على صورة الحرف كما تأبى التفسير يارجل فان الكتابة على صورة الحرف مع كون التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم وقرىء طه إما على أن أصله طأ فقلبت همزته هاء كما فى أمثال هرقت أو قلبت الهمزة فى يطأ ألفا

كما مر ثم بنى منه الأمر وألحق به هاء السكت واما على أنه اكتفى فى التلفظ بشطرى الاسمين وأقيما مقامهما فى الدلالة على المسميين فكأنهما اسماهما الدالان عليهما وعلى هذا ينبغى أن يحمل قول من قال واكتفى بشطرى الكلمتين وعبر عنهما باسمهما والا فالشطران لم يذكرا من حيث أنهما مسميان لاسميهما ليقعا معبرا عنهما بل من حيث انهما جزآن لهما قد اكتفى بذكرهما عن ذكرهما لذلك وقع التلفظ بأنفسهما لا باسميهما بأن يراد بضمير التثنية فى الموضعين الشطران من حيث هما مسميان لا من حيث هما جزآن للاسمين ويراد باسمهما الشطران من حيث هما قائمان مقام الاسمين فالمعنى اكتفى فى التلفظ بشطرى الكلمتين أى الاسمين فعبر عنهما أى عن الشطرين من حيث هما مسميان بهما من حيث هما قائمان مقام الاسمين وأما حمله على معنى أنه اكتفى فى الكتابة بشطرى الكلمتين يعنى طا على تقديرى كونه أمرا وكونه حرف نداء وها على تقديرى كونها كناية عن الأرض وكونها حرف تنبيه وعدل عن ذينك الشطرين فى التلفظ باسمهما فبين البطلان كيف وطا وها على ماذكر من التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين بل الأول أمر أو حرف نداء والثانى ضمير الأرض أو حرف تنبيه على أن كتابة صورة الحرف والتلفظ بغيره من خواص حروف المعجم كما مر فالحق ما سلف من أنهما من الفواتح اما مسرودة على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين فى مطلع سورة البقرة فلا محل لها من الاعراب وكذا ما بعدها من قوله تعالى (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ) فانه استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فان الشقاء شائع فى ذلك المعنى ومنه أشقى من رائض مهر أى ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة فى مكابدة الشدائد فى مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر على أن يؤمنوا كقوله عز وجل فلعلك باخع نفسك على آثارهم الآية بل للتبليغ والتذكير وقد فعلت فلا عليك ان لم يؤمنوا به بعد ذلك أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة فى المجاهدة فى العبادة كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فان لها عليك حقا أى ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك وحملها على الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وقيل ان أبا جهل والنضر بن الحرث قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك شقى حيث تركت دين آبائك وان القرآن نزل عليك لتشقى به فرد ذلك بأنا ما أنزلناه عليك لما قالوا والأول هو الأنسب كما يشهد به الاستثناء الآتى هذا واما اسم للقرآن محله الرفع على أنه مبتدأ وما بعده خبره والقرآن ظاهر أوقع موقع العائد إلى المبتدأ كأنه قيل القرآن ما أنزلناه عليك لتشقى أو النصب على اضمار فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه وما بعده جوابه وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسما للسورة أيضا بخلاف الوجه الأول فانه لا يتسنى على ذلك التقدير لكن لا لأن المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مقامه فان القرآن صادق على الصورة لا محالة اما بطريق الاتحاد بأن يراد به القدر المشترك بين الكل والبعض أو باعتبار الاندراج ان أريد به الكل بل لأن نفى كون انزاله للشقاء يستدعى سبق وقوع الشقاء مترتبا على انزاله قطعا اما بحسب الحقيقة كما لو اريد به معنى التعب أو بحسب زعم الكفرة كما لو أريد به ضد السعادة ولا ريب فى أن ذلك إنما يتصور فى انزال ما أنزل من قبل وأما انزال السورة الكريمة فليس مما يمكن ترتب الشقاء السابق عليه حتى يتصدى لنفيه عنه أما باعتبار الاتحاد فظاهر وأما باعتبار الاندراج فلأن مآله أن يقال هذه السورة ما أنزلنا القرآن المشتمل عليها لتشقى ولا يخفى أن جعلها مخبرا عنها مع انه لا دخل لانزالها فى الشقاء السابق أصلا مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل وقوله تعالى (إِلَّا تَذْكِرَةً) نصب على أنه مفعول له لأنزلنا لكن لا من حيث انه معلل بالشقاء على معنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بتبليغه الا تذكرة الآية كقولك ما ضربتك للتأديب

الاشفاقا لما أنه يجب فى أمثاله أن يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتما كما فى المثال المذكور وفى قولك ماشافهتك بالسوء لتتأذى الازجر الغيرك فان التأديب فى الأول مسبب عن الاشفاق والتأذى فى الثانى سبب لزجر الغير وقد عرفت ما بين الشقاء والتذكرة من التنافى ولا يجدى أن يراد به التعب فى الجملة المجامع للتذكرة لظهور أن لا ملابسة بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وإنما يتصور ذلك أن لو قيل مكان الاتذكرة الاتكثير الثوابك فان الأجر بقدر التعب ولا من حيث أنه بدل من محل لتشقى كما فى قوله تعالى مافعلوه إلا قليل لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفت حالهما بل من حيث أنه معطوف عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد من الاستثناء المنقطع كأنه قيل ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب فى تبليغه ولكن تذكرة (لِمَنْ يَخْشَى) وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلا لفاعل الفعل المعلل أى لمن من شأنه أن يخشى الله عز وعلا ويتأثر بالانذار لرقة قلبه ولين عريكته أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لأنهم المنتفعون بها وقوله تعالى (تَنزِيلاً) مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله أى نزل تنزيلا أو لما تفيده الجملة الاستثنائية فانها متضمنة لأن يقال أنزلناه للتذكرة والأول هو الأنسب بما بعده من الالتفات أو منصوب على المدح والاختصاص وقيل هو منصوب بيخشى على المفعولية أى يخشى تنزيلا من الله تعالى وأنت خبير بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره كما فى قوله تعالى يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم وقيل هو بدل من تذكرة لكن لا على أنه مفعول له لأنزلنا إذ لا يعلل الشىء بنفسه ولا بنوعه بل على أنه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال من الكاف فى عليك أو من القرآن ولا مساغ له الا بأن يكون قيد الأنزلنا بعد تقيده بالقيد الأول وقد عرفت حاله فيما سلف وقرىء تنزيل على أنه خبر لمبتدأ محذوف ومن فى قوله تعالى (مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمٰوٰتِ العُلَى) متعلقة بتنزيلا أو بمضمر هو صفة له مؤكدة لما فى تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ونسبة التنزيل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغيبة بعد نسبته إلى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الافعال والصفات اثر بيانها بحسب الذات بطريق الابهام ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير وتخصيص خلقهما بالذكر مع أن المراد خلقهما بجميع ما يتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى له ما فى السموات وما فى الأرض الآية لإصالتهما واستتباعهما لما عداهما وتقديم الأرض لكونه أقرب إلى الحس وأظهر عنده ووصف السموات بالعلا وهو جمع العليا تأنيث الأعلى لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك إلى قوله تعالى له الاسماء الحسنى مسوق لتعظيم شأن المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم شأن المنزل الداعى إلى تربية المهابة وإدخال الروعة المؤدية إلى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واستمالتهم نحو الخشية المفضية إلى التذكرة والإيمان (الرَّحْمٰنُ) رفع على المدح أى هو الرحمن قد عرفت فى صدر سورة البقرة أن المرفوع مدحا فى حكم الصفة الجارية على ما قبله وإن لم يكن تابعاله فى الأعرب ولذلك التزموا حذف المبتدا ليكون فى صورة متعلق من متعلقاته وقد قرىء بالجر على أنه صفة صريحة للموصول وما قيل من أن الأسماء الناقصة لا يوصف منها إلى الذى وحده مذهب الكوفيين وأياما كان فوصفه بالرحمانية اثر وصفه بخالقية السموات والأرض للاشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن للايذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الرحمة وفيه اشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضا من أحكام رحمته تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى الرحمن علم القرآن أو رفع على الابتداء واللام للعهد والإشارة إلى الموصول والخبر قوله تعالى (عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذى شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للايذان بأن ذلك أمر بين لا سترة به غنى عن الاخبار به صريحا

وعلى متعلقة باستوى قدمت عليه لمراعاة الفواصل والجار والمجرور على الأول خبر مبتدا محذوف كما فى قراءة الجر وقد جوز أن يكون خبرا بعد خبر والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان متفرع على الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير يقال استوى فلان على سرير الملك يراد به ملك وان لم يقعد على السرير أصلا والمراد بيان تعلق إرادته الشريفة بايجاد الكائنات وتدبير أمرها وقوله تعالى (لَهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما (وَمَا بَيْنَهُمَا) من الموجودات الكائنة فى الجو دائما كالهواء والسحاب أو أكثريا كالطير أى له وحده دون غيره لاشركة ولا استقلالا كل ماذكر ملكا وتصرفا وإحياء وإماتة وإيجادا وإعداما (وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ) أى ماوراء التراب وذكره مع دخوله تحت مافى الأرض لزيادة التقرير روى عن محمد بن كعب أنه ماتحت الأرضين السبع وعن السدى أن الثرى هو الصخرة التى عليها الأرض السابعة (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ) بيان لإحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء اثر بيان سعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات أى وان تجهر بذكره تعالى ودعائه فاعلم أنه تعالى غنى عن جهرك (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) أى ماأسررته إلى غيرك وشيئا أخفى من ذلك وهو ماأخطرته ببالك من غير أن تتفوه به أصلا أو ماأسررته لنفسك وأخفى منه وهو ماستسره فيما سيأتى وتنكيره للمبالغة فى الخفاء وهذا إما نهى عن الجهر كقوله تعالى واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول واما إرشاد للعباد إلى أن الجهر ليس لاسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة عنها وهضمها بالتضرع والجؤار وقوله تعالى (اللَّهُ) خبر مبتدا محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان أن ماذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود بالحق أى ذلك المنعوت بماذكر من النعوت الجليلة الله عز وجل وقوله تعالى (لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ) تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه ماقبله من اختصاص الالوهية به سبحانه فان ماأسند اليه تعالى من خلق جميع الموجودات والرحمانية والمالكية للكل والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بينا وقوله تعالى (لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) بيان لكون ماذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه وصفاته من غير تعدد فى ذاته تعالى فانه روى أن المشركين حين سمعوا النبى عليه الصلاة والسلام يقول يا الله يارحمن قالوا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الها آخر والحسنى تأنيث الاحسن يوصف به الواحدة المؤنثة والجمع من المذكر والمؤنث كمآرب أخرى وآياتنا الكبرى (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ) استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد الذى اليه انتهى مساق الحديث وبيان أنه أمر مستمر فيما بين الأنبياء كابرا عن كابر وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له إننى أنا الله لا إله إلا أنا وبه ختم عليه الصلاة والسلام مقاله حيث قال إنما الهكم الله الذى لا إله إلا هو وأما ماقيل من أن ذلك لترغيب النبى عليه الصلاة والسلام فى الائتساء بموسى عليه الصلاة والسلام فى تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب فى تبليغ أحكام الرسالة فيأباه أن مساق النظم الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن اقتحام المشاق وقوله تعالى (إِذْ رَأَىٰ نَارًا) ظرف للحديث وقيل لمضمر مؤخر أى حين رأى نارا كان كيت وكيت وقيل مفعول لمضمر مقدم أى اذكر وقت رؤيته نارا روى أنه عليه الصلاة والسلام استأذن شعيبا عليهما الصلاة والسلام فى الخروج إلى أمه وأخيه فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشأم فلما وافى وادى طوى وهو بالجانب الغربى من الطور ولد له ولد فى ليلة مظلمة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فبينما هو فى ذلك إذ رأى نارا على يسار الطريق من جانب الطور (فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا) أى أقيموا مكانكم أمرهم عليه الصلاة والسلام بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه عليه الصلاة والسلام من الذهاب إلى النار كما هو المعتاد لا لئلا ينتقلوا إلى موضع آخر فانه مما لا يخطر بالبال

والخطاب للمرأة والولد والخادم وقيل لها وحدها والجمع اما الظاهر لفظ الأهل أو للتفخيم كما فى قول من قال:
وإن شئت حرمت النساء سواكم (إنى ءانست نارا) أى أبصرتها إبصارا بينا لا شبهة فيه وقيل الايناس خاص بابصار ما يؤنس به والجملة تعليل للأمر أو المأمور به (لعلى ءاتيكم منها) أى أجيئكم من النار (بقبس) أى بشعلة مقتبسة من معظم النار وهى المرادة بالجذوة فى سورة القصص وبالشهاب القبس (أو أجد على النار هدى) هاديا يدلنى على الطريق على أنه مصدر سمى به الفاعل مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذا هداية أو على أنه إذا وجد الهادى فقد وجد الهدى وقيل هاديا يهدينى إلى أبواب الدين فان أفكار الابرار مغمورة بالهمة الدينية فى عامة أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل والأول هو الأظهر لأن مساق النظم الكريم لتسلية أهله وقد نص عليه فى سورة القصص حيث قيل لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة الآية وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو دون منع الجمع ومعنى الاستعلاء فى قوله تعالى على النار أن أهل النار يستعملون المكان القريب منها أو لأنهم عند الاصطلاء يكتنفونها قياما وقعودا فيشرفون عليها ولما كان الاتيان بهما مترقبا غير محقق الوقوع صدر الجملة بكلمة الترجى وهى اما علة لفعل قد حذف ثقة بما يدل عليه من الأمر بالمكث والاخبار بايناس النار وتفاديا عن التصريح بما يوحشهم وإما حال من فاعله أى فأذهب اليها لآتيكم أو كى آتيكم أو راجيا أن آتيكم منها بقبس الآية وقد مر تحقيق ذلك مفصلا فى تفسير قوله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون (فلما أتىها) أى النار التى آنسها قال ابن عباس رضى الله عنهما رأى شجرة خضراء أطافت بها من أسفلها إلى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوئها وشدة خضرة الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوءها. قالوا النار أربعة أصناف صنف يأكل ولا يشرب وهى نار الدنيا وصنف يشرب ولا يأكل وهى نار الشجر الأخضر وصنف يأكل ويشرب وهى نار جهنم وصنف لا يأكل ولا يشرب وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام وقالوا أيضا هى أربعة أنواع نوع له نور واحراق وهى نار الدنيا ونوع لا نور له ولا إحراق وهى نار الأشجار ونوع له نور بلا احراق وهى نار موسى عليه الصلاة والسلام ونوع له احراق بلا نور وهى نار جهنم روى ان الشجرة كانت عوسجة وقيل كانت سمرة (نودى يموسى) أى نودى فقيل ياموسى (إنى أنا ربك) أو عومل النداء معاملة القول لكونه ضربا منه وقرىء بالفتح أى بأنى وتكرير الضمير لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة روى أنه لما نودى ياموسى قال عليه الصلاة والسلام من المتكلم فقال الله عز وجل أنا ربك فوسوس اليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال أنا عرفت أنه كلام الله تعالى بأنى أسمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء قلت وذلك لأن سماع ما ليس من شأنه ذلك من الأعضاء ليس إلا من آثار قدرة الخلاق العليم تعالى وتقدس وقيل تلقى عليه الصلاة والسلام كلام رب العزة تلقيا روحانيا ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة (فاخلع نعليك) أمر عليه الصلاة والسلام بذلك لأن الحفوة أدخل فى التواضع وحسن الأدب ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين وقيل ليباشر الوادى بقدميه تبركا به وقيل لما أن نعليه كانا من جلد حمار غير مدبوغ وقيل معناه فرغ قلبك من الأهل والمال والفاء لترتيب الأمر على ما قبلها فان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات الأمر ودواعيه وقوله تعالى (إنك بالواد المقدس) تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لسبب ورود الأمر بذلك من شرف البقعة وقدسها روى أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما وألقاهما وراء الوادى (طوى) بضم الطاء غير منون وقرىء منونا وقرىء بالكسر منونا وغير منون فمن نونه أوله بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى من الطى مصدر لنودى أو المقدس.

أى نودى نداء بن أو قدس مرة بعد أخرى (وَأَنا اخترْتُكَ) أى اصطفيتك للنبوة والرسالة وقرىء وانا اخترناك بالفتح والكسر والفاء فى قوله (فاستَمِعْ) لترتيب الأمر أو المأمور به على ماقبلها فان اختياره عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والأمر به واللام فى قوله تعالى (لِمَا يُوحَى) متعلقة باستمع وماموصولة أومصدرية أى فاستمع للذى يوحى اليك أو للوحى لا باخترتك كماقيل لكن لا لما قيل من أنه من باب التنازع واعمال الأول فلابد حينئذ من اعادة الضمير مع الثانى بل لأن قوله تعالى (إنّنى أنا اللهُ لا إلـهَ إلاّ أنا) بدل من مايوحى ولاريب فى أن اختياره عليه الصلاة والسلام ليس لهذا الوحى فقط والفاء فى قوله تعالى (فاعْبُدْنى) لترتيب المأمور به على ماقبلهافان اختصاص الألوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل (وَأَقِمِ الصَّلوٰةَ) خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالأمر مع اندراجها فى الأمر بالعبادة لفضلها وانافتها على سائر العبادات بمانيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وذلك قوله تعالى (لِذِكْرِى) أى لتذكرنى فان ذكرى كما ينبغى لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الاذكار أو لذكرى خاصة لاتشوبه بذكر غيرى أو لاخلاص ذكرى وابتغاء وجهى لاترائى بها ولاتقصد بها غرضا آخر أى لتكون ذاكرا لى غير ناس وقيل لذكرى اياها وأمرى بها فى الكتب أو لأن أذكرك بالمدح والثناء وقيل لاوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى لما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها لان الله تعالى يقول وأقم الصلاة لذكرى وقرىء لذكرى بألف التأنيث وللذكرى معرفا وللذكر بالتعريف والتنكير وقوله تعالى (إنّ السّاعةَ ءاتِيَةٌ) تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة أى كائنة لامحالة وإنما عبر عن ذلك بالاتيان تحقيقا لحصولها بابرازها فى معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين (أكادُ أُخْفِيهَا) أى لا أظهرها بأن أقول انها آتية ولولا ان مافى الاخبار بذلك من اللطف وقطع الاعذار لمافعلت أو أكاد أظهرها بايقاعها من أخفاه اذا أظهره بسلب خفائه ويؤيده القراءة بفتح الهمزة من خفاه بمعنى أظهره وقيل أخفاه من الاضداد يجىء بمعنى الاظهار والستر وقوله تعالى (لِتُجزىٰ كلُّ نفسٍ بمَا تَسْعىٰ) متعلق بآتية ومابينهما اعتراض أو بأخفيها على المعنى الاخير وما مصدرية أى لتجزى كل نفس بسعيها فى تحصيل ماذكر من الأمور المأمور بها وتخصيصه فى معرض الغاية لاتيانها مع أنه لجزاء كل نفس بماصدر عنها سواء كان سعيا فيماذكر أو تقاعدا عنه بالمرة أو سعيا فى تحصيل مايضاده للايذان بأن المراد بالذات من اتيانها هو الاثابة بالعبادة وأما العقاب بتركها فمن مقتضيات سوء اختيار العصاة وبأن المأمور به فى قوة الوجوب والساعة فى شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان على كل نفس أن تسعى فى الامتثال بالامر وتجد فى تحصيل ماينجيها من الطاعات وحينئذ تحترز عن اقتراف مايرديها من المعاصى وعليه مدار الامر فى قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فان الابتلاء مع شموله لكافة المكلفين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط قد علق بالأخيرين لما ذكر من أن المقصود الأصلى من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على أتم الوجوه الرائقة وأكمل الانحاء اللائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لايحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد إلى مايرشد اليه من مطلق الإيمان والطاعة وانما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف وأما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الوقوع فضلا عن أن ينتظم فى سلك الغاية لذلك الصنع البديع وإنما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له أو مسوغ هذا ويجوز أن يراد بالسعى مطلق العمل (فلاَ يَصُدَّنّكَ عَنها) أى عن ذكر الساعة ومراقبتها وقيل عن تصديقها والأول هو

الاليق بشأن موسى عليه الصلاة والسلام وإن كان النهى بطريق التهييج والالهاب وتقديم الجار والمجرور على قوله تعالى (مَن لا يُؤمِنُ بِهَا) لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فان ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن ولأن فى المؤخر نوع طول ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيا للكافر عن صد موسى عليه الصلاة والسلام عن الساعة لكنه فى الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشيء ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وإبطال للسببية من أصلها كما فى قوله تعالى ولا يجرمنكم الخ فان صد الكافر حيث كان سببا لانصداده عليه الصلاة والسلام كان النهى عنه نهيا بأصله وموجبه وابطالا له بالكلية ويجوز أن يكون من باب النهى عن المسبب وإرادة النهى عن السبب على أن يراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن اظهار لين الجانب للكفرة فان ذلك سبب لصدهم إياه عليه الصلاة والسلام كما فى قوله لا أرينك ههنا فان المراد به نهى المخاطب عن الحضور لديه الموجب لرؤيته (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) أى ماتهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية (فَتَرْدَى) أى فتهلك فان الاغفال عنها وعن تحصيل ماينجى عن أهوالها مستتبع للهلاك لا محالة وهو فى محل النصب على جواب النهى أو فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى فأنت تردى (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى) شروع فى حكاية ما كلف به عليه الصلاة والسلام من الأمور المتعلقة بالخلق اثر حكاية ما أمر به من الشؤون الخاصة بنفسه فما استفهامية فى حيز الرفع بالابتداء وتلك خبره أو بالعكس وهو أدخل بحسب المعنى وأوفق بالجواب وبيمينك متعلق بمضمر وقع حالا أى وما تلك قارة أو مأخوذة بيمينك والعامل معنى الاشارة كما فى قوله عز وعلا وهذا بعلى شيخا وقيل تلك موصولة أى ما التى هى بيمينك وأيا ما كان فالاستفهام ايقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على ماسيبدو له من التعاجيب وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه (قَالَ هِيَ عَصَايَ) نسبها إلى نفسه تحقيقا لوجه كونها بيمينه وتمهيدا لما يعقبه من الأفاعيل المنسوبة اليه عليه الصلاة والسلام وقرىء عصى على لغة هذيل (أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا) أى أعتمد عليها عند الاعياء أو الوقوف على رأس القطيع (وَأَهُشُّ بِهَا) أى أخبط بها الورق وأسقطه (عَلَى غَنَمِي) وقرىء أهش بكسر الهاء وكلاهما من هش الخبز يهش إذا انكسر لهشاشته وقرىء بالسين غير المعجمة وهو زجر الغنم وتعديته بعلى لتضمين معنى الانحاء والاقبال أى أزجرها منحيا ومقبلا عليها (وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) أى حاجات أخر من هذا الباب مثل ماروى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب ونحوها وإذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل به وإذا قصر الرشاء وصله بها وإذا تعرضت لغنمه السباع قاتل بها وقيل ومن جملة المآرب أنها كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن وإذا أراد كسره لواه بالشعبتين وكأنه عليه الصلاة والسلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء حتى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواص بديعة علم أنها آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله تعالى وليست من الخواص المترتبة عليها فذكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والاجمال على معنى أنها من جنس العصى مستتبعة لمنافع بنات جنسها ليطابق جوابه الغرض الذى فهمه من سؤال العليم الخبير (قَالَ) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عز وجل فقيل قال (أَلْقِهَا يَا مُوسَى) لترى من شأنها مالم يخطر ببالك من الأمور وتكرير النداء لتأكيد التنبيه (فَأَلْقَاهَا) على الأرض (فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) روى أنه عليه الصلاة والسلام حين ألقاها انقلبت حية صفراء فى غلظ العصا ثم انتفخت وعظمت فلذلك شبهت بالجان تارة وسميت ثعبانا أخرى وعبر عنها بالاسم العام للحالين وقيل قد انقلبت من أول الأمر ثعبانا وهو

الاليق بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل فاذا هى ثعبان مبين وإنما شبهت بالجان فى الجلادة وسرعة الحركة لا فى صغر الجثة وقوله تعالى تسعى اما صفة لحية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة (قَالَ) استئناف كما سبق (خُذْهَا وَلَا تَخَفْ) عن ابن عباس رضى الله عنهما انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع كل شىء من الصخر والشجر فلما رآه كذلك خاف ونفر وملكه ما يملك البشر عند مشاهدة الأهوال والمخاوف من الفزع والنفار وفى عطف النهى على الأمر إشعار بأن عدم المنهى عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط وقوله تعالى (سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ) مع كونه استئنافا مسوقا للتعليل الامتثال بالأمر والنهى فان اعادتها إلى ما كانت عليه من موجبات أخذها وعدم الخوف منها عدة كريمة باظهار معجزة أخرى على يده عليه الصلاة والسلام وإيذان بكونها مسخرة له عليه الصلاة والسلام ليكون على طمأنينة من أمره ولا يعتريه شائبة تزلزل عند محاجة فرعون أى سنعيدها بعد الأخذ إلى حالتها الأولى التى هى الهيئة العصوية قيل بلغ عليه الصلاة والسلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يدخل يده فى فمها ويأخذ بلحييها والسيرة فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الجار أى إلى سيرتها أو على أن أعاد منقول من عاده بمعنى عاد اليه أو على الظرفية أى سنعيدها فى طريقتها أو على تقدير فعلها وايقاعها حالا من المفعول أى سنعيدها عصا كما كانت من قبل تسير سيرتها الاولى أى سائرة سيرتها الاولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ) أمر عليه الصلاة والسلام بذلك بعد ما أخذ الحية وانقلبت عصا كما كانت أى أدخلها تحت عضدك فان جناحى الانسان جنباه كما أن جناحى العسكر ناحيتاه مستعار من جناحى الطائر وقد سميا جناحين لانه يجنحهما أى يميلهما عند الطيران وقوله تعالى (تَخْرُجْ) جواب الامر وقوله تعالى (بَيْضَاءَ) حال من الضمير فيه وقوله تعالى (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) متعلق بمحذوف هو حال من الضمير فى بيضاء أى كائنة من غير عيب وقبح كنى به عن البرص كما كنى بالسوءة عن العورة لما أن الطباع تعافه وتنفر عنه روى أنه عليه الصلاة والسلام كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس تغشى البصر (ءَايَةً أُخْرَىٰ) أى معجزة أخرى غير العصا وانتصابها على الحالية اما من الضمير فى تخرج على أنها بدل من الحال الاولى واما من الضمير فى بيضاء وقيل من الضمير فى الجار والمجرور وقيل هى منصوبة بفعل مضمر نحو خذ أو دونك وقوله تعالى (لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا الْكُبْرَىٰ) متعلق بمضمر ينساق اليه النظم الكريم كأنه قيل فعلنا ما فعلنا من الامر والاظهار لنريك بذلك بعض آياتنا الكبرى على أن الكبرى صفة لآياتنا أو نريك بذلك من آياتنا ماهى كبرى على أن الكبرى مفعول ثان لنريك ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعول وأياما كان فالآية الكبرى عبارة عن العصا واليد جميعا واما تعلقه بما دل عليه آية أى دللنا بها لنريك الخ أو بقوله تعالى واضمم أو بقوله تخرج أو بما قدر من نحو خذ ودونك كما قال بكل من ذلك قائل فيؤدى إلى عراء آية العصا عن وصف الكبر فتدبر (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ) تخلص إلى ما هو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الاوامر ايذانا بأصالته أى اذهب اليه بما رأيته من الآيات الكبرى وادعه إلى عبادتى وحذره نقمتى وقوله تعالى (إِنَّهُ طَغَىٰ) تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به أى جاوز الحد فى التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية (قَالَ) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حين أمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير فقيل قال مستعينا بربه عز وجل (رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى) لما أمر بما أمر به من الخطب الجليل تضرع إلى ربه عز وجل واظهر عجزه بقوله ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى وسأله تعالى أن يوسع صدره ويفسح قلبه ويجعله عليما بشؤون الحق وأحوال الخلق حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد والمكاره

بجميل الصبر وحسن الثبات ويتلقاها بصدر فسيح وجأش رابط وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذى هو أجل الأمور
وأعظمها وأصعب الخطوب وأهولها بتوفيق الأسباب ورفع الموانع وفى زيادة كلمة لى مع انتظام الكلام بدونها تأكيد
لطلب الشرح والتيسير بإبهام المشروح والميسر أولا وتفسيرهما ثانيا وفى تقديمها وتكريرها اظهار مزيد اعتناء بشأن
كل من المطلوبين وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له واختصاصهما به ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ روى أنه كان
فى لسانه عليه الصلاة والسلام رتة من جمرة أدخلها فاه فى صغره وذلك أن فرعون حمله ذات يوم فأخذ لحيته فنتفها لما كان
فيها من الجواهر فغضب وأمر بقتله فقالت آسية انه صبى لا يفرق بين الجمر والياقوت فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة
فوضعها فى فيه قيل واحترقت يده فاجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ ثم لما دعاه قال إلى أى رب تدعونى قال الى الذى أبرأ
يدى وقد عجزت عنه واختلف فى زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله تعالى قد أوتيت سؤلك ومن لم يقل به احتج
بقوله تعالى هو أفصح منى وقوله تعالى ولا يكاد يبين وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل حل عقدة
تمنع الافهام ولذلك نكرها ووصفها بقوله من لسانى أى عقدة كائنة من عقد لسانى وجعل قوله تعالى ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾
جواب الأمر وغرضا من الدعاء فبحلها فى الجملة يتحقق ايتاء سؤله عليه الصلاة والسلام والحق أن ماذكر لا يدل على بقائها
فى الجملة أما قوله تعالى هو أفصح منى فلأنه عليه الصلاة والسلام قاله قبل استدعاء الحل كما تعرفه على أن أفصحيته منه عليهما
الصلاة والسلام لا تستدعى بقاءها أصلا بل تستدعى عدم البقاء لما أن الأفصحية توجب ثبوت أصل الفصاحة فى
المفضول أيضا وذلك مناف للعقدة رأسا وأما قوله تعالى ولا يكاد يبين فمن باب غلو اللعين فى العتو والطغيان والا لدل على
عدم زوالها أصلا وتنكيرها انما يفيد قلتها فى نفسها لا قلتها باعتبار كونها بعضا من الكثير وتعلق كلمة من فى قوله تعالى
من لسانى بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به بل الظاهر تعلقها بنفس الفعل فان المحلول اذا كان متعلقا بشىء ومتصلا
به فكما يتعلق الحل به يتعلق بذلك الشىء أيضا باعتبار ازالته عنه أو ابتداء حصوله منه ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ
أَهْلِي هَارُونَ أَخِي﴾ أى موازرا يعاوننى فى تحمل أعباء ما كلفته على أن اشتقاقه من الوزر الذى هو الثقل أو ملجأ
أعتصم برأيه على أنه من الوزر وهو الملجأ وقيل أصله أزير من الازر بمعنى القوة فعيل بمعنى مفاعل كالشعير والجليس
قلبت همزته واوا كقلبها فى موازر ونصبه على أنه مفعول ثان لاجعل قدم على الأول الذى هو قوله تعالى هرون اعتناء
بشأن الوزارة ولى صلة للجعل أو متعلق بمحذوف هو حال من وزيرا اذ هو صفة له فى الأصل ومن أهلى اما صفة لوزيرا
أو صلة لاجعل وقيل مفعولاه لى وزيرا وهرون عطف بيان للوزير ومن أهلى كما مر من الوجهين وأخى فى الوجهين بدل
من هرون أو عطف بيان آخر وقيل هما وزيرا من أهلى ولى تبيين كما فى قوله تعالى ولم يكن له كفوا أحد ورد بأن شرط
المفعولين فى باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية ولا مساغ لجعل وزيرا مبتدأ ويخبر عنه بما بعده ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي
وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ كلاهما على صيغة الدعاء أى أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها
كما ينبغى وفصل الأول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فان شدة الأزر عبارة عن جعله وزيرا وأما الاشراك
فى الأمر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾
غاية للأدعية الثلاثة الاخيرة فان فعل فيها كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثرا لفعل الآخر ومضاعفا له
بسبب انضمامه اليه مكثر له فى نفسه أيضا بسبب تقويته وتأييده إذ ليس المراد بالتسبيح والذكر ما يكون منهما
بالقلب أو فى الخلوات حتى لا يتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل ما يكون منهما فى تضاعيف أداء الرسالة ودعوة
المردة العتاة إلى الحق وذلك مما لاريب فى اختلاف حاله فى حالتى التعدد والانفراد فان كلا منهما يصدر عنه

بتأييد الآخر من إظهار الحق مالا يكاد يصدر عنه مثله فى حال الانفراد وكثيرا فى الموضعين نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف أى ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعال التى من جملتها ما يدعيه فرعون الطاغية ويقبله منه فئته الباغية من ادعاء الشركة فى الألوهية ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال تنزيها كثيرا أو زمانا كثيرا من جملته زمان دعوة فرعون وأوان المحاجة معه وأما ما قيل من أن المعنى كى نصلى لك كثيرا ونحمدك ونثنى عليك فلا يساعده المقام (إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً) أى عالما بأحوالنا وبأن ما دعوتك به مما يصلحنا ويفيدنا فى تحقيق ما كلفته من إقامة مراسم الرسالة وبأن هرون نعم الرده فى أداء ما أمرت به والباء متعلقة ببصيرا قدمت عليه لمراعاة الفواصل (قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ) أى أعطيت سؤلك فعل بمعنى مفعول كالخبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول والايتاء عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديره اياها حتما فكلها حاصلة له عليه السلام وإن كان وقوع بعضها بالفعل مترقبا بعد كتيسير الأمر وشد الأزر وباعتباره قيل سنشد عضدك بأخيك وقوله تعالى (يا مُوسى) تشريف له عليه السلام بشرف الخطاب اثر تشريفه بشرف قبول الدعاء وقوله تعالى (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان انه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب فلان ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداع أولى وأحرى وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أى وبالله لقد أنعمنا (مَرَّةً أُخْرى) أى فى وقت غير هذا الوقت لا أن ذلك مؤخر عن هذا فان اخرى تأنيث آخر بمعنى غير والمرة فى الاصل اسم للمرور الواحد ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات متعدية كانت أو لازمة ثم شاع فى كل فرد واحد من أفراد ماله أفراد متجددة متعددة فصار علما فى ذلك حتى جعل معيارا لما فى معناه من سائر الأشياء فقيل هذا بناء المرة ويقرب منها الكرة والتارة والدفعة والمراد بها هنا الوقت الممتد الذى وقع فيه ما سيأتى ذكره من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى (إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى) ظرف لمننا والمراد بالايحاء اما الايحاء على لسان نبى فى وقتها كقوله تعالى واذ أوحيت إلى الحواريين الآية واما الايحاء بواسطة الملك لا على وجه النبوة كما أوحى إلى مريم واما الإلهام كما فى قوله تعالى وأوحى ربك إلى النحل وأما الاراءة فى المنام والمراد بما يوحى ما سيأتى من الأمر بقذفه فى التابوت وقذفه فى البحر أبهم أولا تهويلا له وتفخيما لشأنه ثم فسر ليكون أقر عند النفس وقيل معناه ما ينبغى أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به وقيل ما لا يعلم الا بالوحى وفيه انه لا يلائم المعنيين الأخيرين للوحى اذ لا تفخيم لشأنه فى أن يكون مما لا يعلم إلا بالالهام أو بالاراءة فى المنام وأن فى قوله تعالى (أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ) مفسرة لأن الوحى من باب القول أو مصدرية حذف منها الباء أى بأن اقذفيه ومعنى القذف ههنا الوضع وأما فى قوله تعالى (فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ) فالالقاء وهذا التفصيل هو المراد بقوله تعالى فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم لا القذف بلا تابوت (فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ) لما كان القاء البحر اياه بالساحل أمرا واجب الوقوع لتعلق الارادة الربانية به جعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمر بذلك وأخرج الجواب مخرج الأمر والضمائر كلها لموسى عليه السلام والمقذوف فى البحر والملقى بالساحل وإن كان هو التابوت أصالة لكن لما كان المقصود بالذات ما فيه جعل التابوت تبعا له فى ذلك (يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ) جواب للأمر بالالقاء وتكرير العدو للمبالغة والتصريح بالأمر والاشعار بأن عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيه ولا تضره بل تؤدى إلى المحبة فان الأمر بما هو سبب للهلاك صورة من قذفه فى البحر ووقوعه فى يد عدو الله تعالى وعدوه مشعر بأن هناك لطفا خفيا مندرجا تحت قهر صورى وقيل الاول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع وليس المراد بالساحل نفس الشاطىء بل ما يقابل الوسط وهو ما يلى الساحل

من البحر بحيث يجرى ماؤه إلى نهر فرعون لما روى أنها جعلت فى التابوت قطنا ووضعته فيه ثم قيرته و ألقته فى اليم وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر صغير فدفعه الماء إليه فأتى به إلى بركة فى البستان وكان فرعون جالسا ثمة مع آسية بنت مزاحم فأمر به فأخرج ففتح فاذا هو صبى أصبح الناس وجها فأحبه عدو الله حبا شديدا لا يكاد يتمالك الصبر عنه وذلك قوله تعالى (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى) كلمة من متعلقة بمحذوف هو صفة لمحبة مؤكدة لما فى تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى محبة عظيمة كائنة منى قد زرعتها فى القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ولذلك أحبك عدو الله وآله وقيل هى متعلقة بألقيت أى أحببتك ومن أحبه الله تعالى أحبته القلوب لا محالة وقوله تعالى (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى) متعلق بألقيت معطوف على علة له مضمرة أى ليتعطف عليك ولتربى بالحنو والشفقة بمراقبتى وحفظى أو بمضمر مؤخر هو عبارة عما قبله من القاء المحبة والجملة مبتدأة أى ولتصنع على عينى فعلت ذلك وقرىء ولتصنع على صيغة الأمر بسكون اللام وكسرها وقرىء بفتح التاء والنصب أى وليكون عملك على عين منى لئلا تخالف به عن أمرى (إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ) ظرف لتصنع على أن المراد به وقت وقع فيه مشيها إلى بيت فرعون وما ترتب عليه من القول والرجع إلى أمها وتربيتها له بالبر والحنو وهو المصداق لقوله تعالى ولتصنع على عينى إذ لا شفقة أعظم من شفقة الأم وصنعها على موجب مراعاته تعالى وقيل هو بدل من إذ أوحينا على أن المراد به زمان متسع متباعد الأطراف وهو الأنسب بما سيأتى من قوله تعالى فنجيناك من الغم الخ فان جميع ذلك من المنن الالهية ولا تعلق لشىء منها بالصنع المذكور وأما كونه ظرفا لألقيت كما جوز فربما يوهم أن القاء المحبة لم يحصل قبل ذلك ولا ريب فى أن معظم آثار القائها ظهر عند فتح التابوت (فَتَقُولُ) أى لفرعون وآسية حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثديا وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ) أى يضمه إلى نفسه ويربيه وذلك إنما يكون بقبوله ثديها يروى أنه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما فى النيل لا يرتضع ثدى امرأة واضطروا إلى تتبع النساء فخرجت أخته مريم لتعرف خبره فجاءتهم متنكرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا فجاءت بأمه فقبل ثديها فالفاء فى قوله تعالى (فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ) فصيحة معربة عن محذوف قبلها يعطف عليه ما بعدها أى فقالوا دلينا عليها فجاءت بأمك فرجعناك اليها (كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا) بلقائك (وَلَا تَحْزَنَ) أى لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فان التخلية متقدمة على التحلية وقيل ولا تحزن أنت بفقد اشفاقها (وَقَتَلْتَ نَفْسًا) هى نفس القبطى الذى استغاثه الاسرائيلى عليه (فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ) أى غم قتله خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعون بالانجاء منه بالمهاجرة إلى مدين (وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) أى ابتليناك ابتلاء أو فتونا من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز فى حجزة وبدور فى بدرة أى خلصناك مرة بعد أخرى وهو إجمال ما ناله فى سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الألاف والمشى راجلا وفقد الزاد وقد روى أن سعيد بن جبير سأل عنه ابن عباس رضى الله عنهما فقال خلصناك من محنة بعد محنة ولد فى عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير وألقته أمه فى البحر وهم فرعون بقتله وقتل قبطيا وآجر نفسه عشر سنين وضل الطريق وتفرقت غنمه فى ليلة مظلمة وكان يقول عند كل واحدة فهذه فتنة يا ابن جبير ولكن الذى يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد إجارة نفسه وما بعدها من تلك الفتون ضرورة أن المراد بها ما وقع قبل وصوله عليه السلام إلى مدين بقضية الفاء فى قوله تعالى (فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ) إذ لا ريب فى أن الاجارة المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصول اليهم وقد أشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله

اليهم إلى جميع ما قاساه عليه السلام فى تضاعيف تلك السنين العشر من فنون الشدائد والمكاره التى كل واحد منها فتنة وأى فتنة ومدين بلدة شعيب عليه الصلاة والسلام على ثمانى مراحل من مصر (ثُمَّ جِئْتَ) إلى المكان الذى أونس فيه النار ووقع فيه النداء والجؤار وفى كلمة التراخى إيذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتى من ضلال الطريق وتفرق الغنم فى الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك (عَلَىٰ قَدَرٍ) أى تقدير قدرته لأن أكلمك وأستنبئك فى وقت قد عينته لذلك فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر وقيل على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء عليهم السلام وهو رأس أربعين سنة وقوله تعالى (يَٰمُوسَىٰ) تشريف له عليه الصلاة والسلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الأخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولا وقوله تعالى (وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى) تذكير لقوله تعالى وأنا اخترتك وتمهيد لارساله عليه السلام إلى فرعون مؤيدا بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابغة السابقة تأكيدا لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة وهذا تمثيل لما خوله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب الملك بعض خواصه واصطناعه لنفسه وترشيحه لبعض أموره الجليلة والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى وفتناك ونظيريه السابقين تمهيد لافراد لفظ النفس اللائق بالمقام فانه أدخل فى تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص أى اصطفيتك برسالاتى وبكلامى وقوله تعالى (ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ) أى وليذهب أخوك حسبما استدعيت استئناف مسوق لبيان ماهو المقصود بالاصطناع (بِـَٔايَٰتِى) أى بمعجزاتى التى أريتكما من اليد والعصا فانهما وإن كانتا اثنتين لكن فى كل منهما آيات شتى كما فى قوله تعالى فيه آيات بينات مقام ابراهيم فان انقلاب العصا حيوانا آية وكونها ثعبانا عظيما لا يقادر قدره آية أخرى وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرى وكونه مع ذلك مسخرا له عليه السلام بحيث كان يدخل يده فى فمه فلا يضره آية أخرى ثم انقلابها عصا آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها فى نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها إلى حالتها الأولى آية أخرى والباء للمصاحبة لا للتعدية إذ المراد ذهابهما إلى فرعون ملتبسين بالآيات متمسكين بها فى إجراء أحكام الرسالة وإكمال أمر الدعوة لا مجرد اذهابها وايصالها اليه (وَلَا تَنِيَا) لا تفترا ولا تقصرا وقرىء لا تنيا بكسر التاء للاتباع (فِى ذِكْرِى) أى بما يليق بى من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة عند تبليغ رسالتى والدعاء إلى وقيل المعنى لا تنيا فى تبليغ رسالتى فان الذكر يقع على جميع العبادات وهو أجلها وأعظمها وقيل لا تنسيانى حيثما تقلبتما واستمدا بذكرى العون والتأييد واعلما أن أمرا من الأمور لا يتأتى ولا يتسنى إلا بذكرى (ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ) جمعهما فى صيغة أمر الحاضر مع غيبة هرون إذ ذاك للتغليب وكذا الحال فى صيغة النهى روى أنه أوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى عليهما السلام وقيل سمع باقباله فتلقاه (إِنَّهُۥ طَغَىٰ) تعليل لموجب الأمر والفاء فى قوله تعالى (فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا) لترتيب ما بعدها على طغيانه فان تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين عريكة الطغاة قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تعنفا فى قولكما وقيل القول اللين مثل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فانها دعوة فى صورة عرض ومشورة ويرده ما سيجىء من قوله تعالى فقولا انا رسولا ربك الآيتين وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة وقيل عداه شبابا لا يهرم ويبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح وملكا لا يزول إلا بالموت وقرىء لينا (لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ) بما بلغتماه من ذكرى ويرغب فيما رغبتماه فيه (أَوْ يَخْشَىٰ) عقابى ومحل الجملة النصب على الحال من ضمير التثنية أى فقولا له قولا لينا راجين أن يتذكر أو يخشى وكلمة أو لمنع الخلو أى باشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع فى أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه وهو يجتهد بطوقه ويحتشد بأقصى وسعه وجدوى ارسالها اليه مع العلم

بحاله الزام الحجة وقطع المعذرة (قالا رَبَّنا) أسند القول اليهما مع أن القائل حقيقة هو موسى عليه الصلاة والسلام بطريق التغليب إيذانا بأصالته فى كل قول وفعل وتبعية هرون عليه السلام له فى كل ما يأتى ويذر ويجوز أن يكون هرون قد قال ذلك بعد تلاقيهما فحكى ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزول الآية كما فى قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات فان هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم فى الوجود فكيف باجتماعهم فى الخطاب (إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا) أى يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة من فرط إذا تقدم ومنه الفارط وفرس فارط يسبق الخيل وقرىء يفرط من أفرطه إذا حمله على العجلة أى نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار أو الخوف على الملك أو غيرهما على المعاجلة بالعقاب (أَوْ أَنْ يَطْغى) أى يزداد طغيانا إلى أن يقول فى شأنك مالا ينبغى لكمال جراءته وقساوته وإطلاقه من حسن الأدب وإظهار كلمة أن مع سداد المعنى بدونه لإظهار كمال الاعتناء بالأمر والاشعار بتحقق الخوف من كل منهما (قالَ) استئناف مبنى على السؤال الناشىء من النظم الكريم ولعل إسناد الفعل إلى ضمير الغيبة للاشعار بانتقال الكلام من مساق إلى مساق آخر فان ما قبله من الأفعال الواردة على صيغة التكلم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ما سيأتى من قوله تعالى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى فان ما قبله أيضا وارد بطريق الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما اليه فقيل قال (لا تَخافا) ما توهمتما من الأمرين وقوله تعالى (إِنَّنِي مَعَكُما) تعليل لموجب النهى ومزيد تسلية لهما والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة كما ينبىء عنه قوله تعالى (أَسْمَعُ وَأَرى) أى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل فأفعل فى كل حال ما يليق بها من دفع ضر وشر وجلب نفع وخير ويجوز أن لا يقدر شىء على معنى أننى حافظكما سميعا بصيرا والحافظ الناصر إذا كان كذلك فقد تم وبلغت النصرة غايتها (فَأْتِياهُ) أمر باتيانه الذى هو عبارة عن الوصول اليه بعد ما أمر بالذهاب اليه فلا تكرار وهو عطف على لا تخافا باعتبار تعليله بما بعده (فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ) أمرا بذلك تحقيقا للحق من أول الأمر ليعرف الطاغية شأنهما ويبنى جوابه عليه وكذا التعرض لربوبيته تعالى له والفاء فى قوله تعالى (فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان كونهما رسولى ربه مما يوجب ارسالهم معهما والمراد بالارسال اطلاقهم من الأسر والقسر وإخراجهم من تحت يده العادية لا تكليفهم أن يذهبوا معهما إلى الشام كما ينبىء عنه قوله تعالى (وَلا تُعَذِّبْهُمْ) أى بابقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فانهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم فى الأعمال الصعبة الفادحة من الحفر ونقل الأحجار وغيرهما من الأمور الشاقة ويقتلون ذكور أولادهم عاما دون عام ويستخدمون نساءهم وتوسيط حكم الارسال بين بيان رسالتهما وبين ذكر المجىء بآية دالة على صحتها لاظهار الاعتناء به مع ما فيه من تهوين الأمر على فرعون فان إرسالهم معهما من غير تعرض لنفسه وقومه بفنون التكاليف الشاقة كما هو حكم الرسالة عادة ليس مما يشق عليه كل المشقة ولأن فى بيان مجىء الآية نوع طول كما ترى فتأخير ذلك عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم وأما ما قيل من أن ذلك دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان فكلا (قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ) تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة وتعليل لوجوب الإرسال فان مجيئهما بالآية من جهته تعالى مما يحقق رسالتهما ويقررها ويوجب الامتثال بأمرهما وإظهار اسم الرب فى موضع الاضمار مع الاضافة إلى ضمير المخاطب لتأكيد ما ذكر من التقرير والتعليل وتوحيد الآية مع تعددها لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا بيان تعدد الحجة وكذلك قوله تعالى قد جئتكم ببينة وقوله تعالى أو لو جئتك بشىء مبين

وأما قوله تعالى فأت بآية إن كنت من الصادقين فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات (والسلام) المستتبع لسلامة الدارين من الله تعالى والملائكة وغيرهم من المسلمين (على من اتبع الهدى) بتصديق آيات الله تعالى الهادية الى الحق وفيه من ترغيبه فى اتباعهما على ألطف وجه ما لا يخفى (إنا قد أوحى إلينا) من جهة ربنا (أن العذاب) الدنيوى والأخروى (على من كذب) أى بآياته تعالى (وتولى) أى أعرض عن قبولها وفيه من التلطيف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به ما لا مزيد عليه (قال) أى فرعون بعدما أتياه وبلغاه ما أمرا به وإنما طوى ذكره للايجاز والاشعار بأنهما كما أمرا بذلك سارعا إلى الامتثال به من غير تلعثم وبأن ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به (فمن ربكما يا موسى) لم يضف الرب إلى نفسه ولو بطريق حكاية ما فى قوله تعالى إنا رسولا ربك وقوله تعالى قد جئناك بآية من ربك لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه اليهما لما أن المرسل لابد أن يكون ربا للرسول أو لأنهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بأن قالا إنا رسول رب العالمين كما وقع فى سورة الشعراء والاقتصار ههنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود والفاء لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولى ربهما أى إذا كنتما رسولى ربكما فاخبرا من ربكما الذى أرسلكما وتخصيص النداء بموسى عليه الصلاة والسلام مع توجيه الخطاب اليهما لما أنه الأصل فى الرسالة وهرون وزيره وأما ما قيل من أن ذلك لأنه قد عرف أن له عليه الصلاة والسلام رتة فأراد أن يفحمه فيرده ما شاهده منه عليه الصلاة والسلام من حسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ وأما قوله ولا يكاد يبين فمن غلوه فى الخبث والدعارة كما مر (قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام مجيبا له (ربنا) اما مبتدأ وقوله تعالى (الذى أعطى كل شىء خلقه) خبره أو هو خبر لمبتدأ محذوف والموصول صفته وأيا ما كان فلم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما فقط حسبما أراد اللعين بل جميع المخلوقات تحقيقا للحق وردا عليه كما يفصح عنه ما فى حيز الصلة أى هو ربنا الذى أعطى كل شىء من الأشياء خلقه أى صورته وشكله اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع أو أعطى مخلوقاته كل شىء تحتاج هى اليه وترتفق به وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به أو أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث زوج الحصان بالحجر والبعير بالناقة والرجل بالمرأة ولم يزوج شيأ من ذلك بخلاف جنسه وقرىء خلقه على صيغة الماضى على أن الجملة صفة للمضاف أو المضاف اليه وحذف المفعول الثانى اما للاقتصار على الأول أى كل شىء خلقه الله تعالى لم يحرمه من عطائه وإنعامه أو للاختصار من كونه منويا مدلولا عليه بقرينة الحال أى أعطى كل شىء خلقه الله تعالى ما يحتاج اليه (ثم هدى) أى الى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل الى بقائه وكماله اما اختيارا كما فى الحيوانات أو طبعا كما فى الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية ولما كان الخلق الذى هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام متقدما على الهداية التى هى عبارة عن ايداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الأجسام وسط بينهما كلمة التراخى ولقد ساق عليه الصلاة والسلام جوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بين أنه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الأشياء منعم عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضل وضمنه أن ارساله تعالى اياه الى الطاغية من جملة هداياته تعالى اياه بعد أن هداه الى الحق بالهدايات التكوينية حيث ركب فيه العقل وسائر المشاعر والآلات الظاهرة والباطنة (قال فما بال القرون الأولى) لما شاهد اللعين ما نظمه عليه الصلاة والسلام فى سلك الاستدلال من البرهان النير على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقية مقالاته عليه الصلاة والسلام وبطلان خرافات نفسه ظهورا بينا فأراد أن يصرفه عليه الصلاة والسلام عن سننه الى ما لا يعنيه من الأمور التى لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات ويشغله عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتساق بذلك الى أن

يدعى بين يدى قومه نوع معرفة فقال ماحال القرون الماضية والأمم الخالية وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة فاجاب عليه الصلاة والسلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لاملابسة له بمنصب الرسالة وإنما علمها عند الله عز وجل وأما ماقيل من أنه سأله عن حال من خلا من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد فيأباه قوله تعالى (قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى) فان معناه أنه من الغيوب التى لا يعلمها إلا الله تعالى وإنما أنا عبد لا أعلم منها إلا ما علمنيه من الأمور المتعلقة بما أرسلت به ولو كان المسؤول عنه ما ذكر من الشقاوة والسعادة لأجيب ببيان أن من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن تولى فقد عذب حسبما نطق به قوله تعالى والسلام الآيتين (فِى كِتَٰبٍ) أى مثبت فى اللوح المحفوظ بتفاصيله ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه وتقرره فى علم الله عز وجل بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة كما يلوح به قوله تعالى (لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى) أى لا يخطىء ابتداء ولا يذهب علمه بقاء بل هو ثابت أبدا فانهما محالان عليه سبحانه وهو على الأول لبيان أن اثباته فى اللوح ليس لحاجته تعالى اليه فى العلم به ابتداء أو بقاء وإظهار ربى فى موقع الإضمار للتلذذ بذكره ولزيادة التقرير والاشعار بعلة الحكم فان الربوبية مما يقتضى عدم الضلال والنسيان حتما ولقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها مع أنه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شؤنه تعالى ثم تخلص اليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله عز وجل لما سيأتى من الالتفات (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا) على أن الموصول إما مرفوع على المدح أو منصوب عليه أو خبر مبتدا محذوف أى جعلها لكم كالمهد تتمهدونها أو ذات مهد وهو مصدر سمى به المفعول وقرىء مهادا وهو اسم لما يمهد كالفراش أو جمع مهد أى جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم (وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) أى حصل لكم طرقا ووسطها بين الجبال والأودية والبرارى تسلكونها من قطر إلى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها (وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) هو المطر (فَأَخْرَجْنَا بِهِ) أى بذلك الماء وهو عطف على أنزل داخل تحت الحكاية وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة والايذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن تنقاد لامره وتذعن لمشيئته الاشياء المختلفة كما فى قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها وقوله تعالى أم من خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة خلا أن ما قبل الالتفات هناك صريح كلامه تعالى وأما ههنا فحكاية عنه تعالى وجعل قوله تعالى فاخرجنا به هو المحكى مع كون ماقبله كلام موسى عليه الصلاة والسلام خلاف الظاهر مع أنه يفوت حينئذ الالتفات لعدم اتحاد المتكلم (أَزْوَٰجًا) أصنافا سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض (مِّن نَّبَاتٍ) بيان أو صفة لأزواجا أى كائنة من نبات وكذا قوله تعالى (شَتَّىٰ) أى متفرقة جمع شتيت ويجوز أن يكون صفة لنبات لما أنه فى الاصل مصدر يستوى فيه الواحد والجمع يعنى أنها شتى مختلفة فى الطعم والرائحة والشكل والنفع بعضها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح وبعضها للبهائم فان من تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده لما كان تحصلها بعمل الانعام جعل علفها مما يفضل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعاما لهم وقوله تعالى (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ) حال من ضمير فاخرجنا على إرادة القول أى أخرجنا منها أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا أنعامكم أى معديها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين فى ذلك (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ) إشارة إلى ماذكر من شؤنه تعالى وأفعاله وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الكمال والتنكير فى قوله تعالى (لَءَايَٰتٍ) للتفخيم كما وكيفا أى لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤن الله تعالى فى ذاته وصفاته وافعاله وعلى صحة نبوة موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام (لِّأُولِى النُّهَىٰ) جمع نهية سمى بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل

وارتكاب القبائح كما سمى بالعقل والحجر لعقله وحجره عن ذلك أى لذوى العقول الناهية عن الأباطيل التى من جملتها مايدعيه الطاغية ويقبله منه فئته الباغية وتخصيص كونها آيات بهم مع أنها آيات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ) أى فى ضمن خلق أبيكم آدم عليه الصلاة والسلام منها فان كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه الصلاة والسلام إذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه الصلاة والسلام بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه الصلاة والسلام منها خلقا للكل منها وقيل المعنى خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض بوسائط وقيل إن الملك الموكل بالرحم يأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه المولود فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة (وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ) بالإماتة وتفريق الاجزاء وايثار كلمة فى على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار المديد فيها (وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ) بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الارواح اليها وكون هذا الإخراج تارة أخرى باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها وان لم يكن على نهج التارة الثانية والتارة فى الأصل اسم للتور الواحد وهو الجريان ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتجددة كما مر فى المرة (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ) حكاية إجمالية لما جرى بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين فرعون اثر حكاية ماذكره عليه الصلاة والسلام بجلائل نعمائه الداعية له إلى قبول الحق والانقياد له وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها وإسناد الاراءة إلى نون العظمة نظر إلى الحقيقة لا إلى موسى نظر إلى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه فى المكابرة والعناد أى وبالله لقد بصرنا فرعون أو عرفناه (ءَايَاتِنَا) حين قال لموسى عليه الصلاة والسلام إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما فى تضاعيفهما من بدائع الأمور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون حسبما بين فى تفسير قوله تعالى اذهب أنت وأخوك بآياتى وقد ظهر عند فرعون أمور أخر كل واحد منها داهية دهياء فانه روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ألقاها انقلبت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الأسفل على الأرض والاعلى على سور القصر وتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا من قومه فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك الا أخذته فأخذه فعاد عصا وروى أنها انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول ياموسى مرنى بماشئت ويقول فرعون أنشدك الخ ونزع يده من جيبه فاذا هى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن حدود العادات قد غلب شعاعه شعاع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمره ففى تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صراحة أكدت بقوله تعالى (كُلَّهَا) كأنه قيل أريناه آيتينا بجميع مستتبعاتهما وتفاصيلهما قصدا إلى بيان أنه لم يبق له فى ذلك عذر اما ولا مساغ لعد بقية الآيات التسع منها لما أنها إنما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ماغلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى تفسير سورة الاعراف ولاريب فى أن أمر السحرة مترقب بعد وأبعد من ذلك أن يعد منها ماجعل لاهلاكهم لا لإرشادهم إلى الإيمان من فلق البحر وماظهر بعد مهلكهم من الآيات الظاهرة لبنى إسرائيل من نتق الجبل والحجر سواء أريد به الحجر الذى فر بثوبه أو الذى انفجرت منه العيون وكذا أن يعد منها الآيات الظاهرة على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بناء على أن حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون فى حكم إظهارها بين يديه وإراءته إياها لاستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام فان حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون بما لم

يجرذكره هنا على أن ماسيأتى من حمل ماأظهره عليه الصلاة والسلام على السحر والتصدى للمعارضة بالمثل يأباه أباء بينا وينطق بأن المراد بها ماذكرناه قطعا ولولا ذلك لجاز جعل مافصله عليه الصلاة والسلام من أفعاله تعالى الدالة على اختصاصه بالربوبية وأحكامها من جملة الآيات (فَكَذَّبَ) موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردد وتأخر مع ماشاهد فى يده من الشواهد الناطقة بصدقه جحودا وعنادا (وَأَبَى) الإيمان والطاعة لعتوه واستكباره وقيل كذب بالآيات جميعا وأبى أن يقبل شيأ منها أو أبى قبول الحق وقوله تعالى (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ) استئناف مبين لكيفية تكذيبه وابائه والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وادعاء أنه أمر محال والمجىء إما على حقيقته أو بمعنى الاقبال على الأمر والتصدى له أى أجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ماغبت عنا أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر فان ذلك مما يصدر عن العاقل لكونه من باب محاولة المحال وإنما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه الصلاة والسلام بابراز أن مراده عليه الصلاة والسلام ليس مجرد انجاء بنى اسرائيل من أيديهم بل إخراج القبط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لايتوجه إلى اتباعه أحد ويبالغوا فى المدافعة والمخاصمة وسمى ما أظهره عليه الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحرا لتجسيرهم على المقابلة ثم ادعى أنه يعارضه بمثل ما أتى به عليه الصلاة والسلام فقال (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ) الفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها واللام جواب قسم محذوف كأنه قيل إذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك (فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا) أى وعدا كما ينبىء عنه وصفه بقوله تعالى (لَّا نُخْلِفُهُۥ) فانه المناسب لا المكان والزمان أى لانخاف ذلك الوعد (نَحْنُ وَلَآ أَنتَ) وإنما فوض اللعين أمر الوعد إلى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب وضيق المجال واظهار الجلادة وإراءة أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة وترتيب آلات المغالبة طال الأمد أم قصر كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيط كلمة النفى بينهما للايذان بمسارعته إلى عدم الاخلاف وأن عدم اخلافه لايوجب عدم اخلافه عليه الصلاة والسلام ولذلك أكد النفى بتكرير حرفه وانتصاب (مَكَانًا سُوًى) بفعل يدل عليه المصدر لابه فانه موصوف أو بأنه بدل من موعدا على تقدير مكان مضاف اليه فحينئذ تكون مطابقة الجواب فى قوله تعالى (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ) من حيث المعنى فان يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ أو باضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الأول أو وعدكم وعد يوم الزينة وقرىء يوم بالنصب وهو ظاهر فى أن المراد بالمصدر ومعنى سوى منتصفا تستوى مسافته الينا واليك وهو فى النعت كقولهم قوم عدى فى الشذوذ وقرىء بكسر السين قيل يوم الزينة يوم عاشوراء أو يوم النيروز أو يوم عيد كان لهم فى كل عام وإنما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لاظهار كمال قوته وكونه على ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم لما أن ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم وليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود على رؤس الاشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد (وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) عطف على يوم أو الزينة وقرىء على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون وبالياء على أن الضمير له على سنن الملوك أو لليوم (فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ) أى انصرف عن المجلس (فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ) أى مايكاد به من السحرة وأدواتهم (ثُمَّ أَتَىٰ) أى الموعد ومعه ماجمعه من كيده وفى كلمة التراخى ايماء إلى أنه لم يسارع اليه بل أتاه بعد لأى وتلعثم وقوله تعالى (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ) الخ بطريق الاستئناف المبنى على السؤال يقضى بأن المترقب من أحواله عليه الصلاة والسلام حينئذ والمحتاج إلى السؤال والبيان ليس إلا ماصدر عنه عليه الصلاة والسلام من الكلام وأما اتيانه أولا فأمر محقق غنى عن التصريح به كأنه قيل فماذا صنع موسى

عليه الصلاة والسلام عند اتيان فرعون بمن جمعه من السحرة فقيل قال لهم بطريق النصيحة (وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا) بأن تدعوا بآياته التي ستظهر على يدي سحرا كما فعل فرعون (فَيُسْحِتَكُمْ) أي يستأصلكم بسببه (بِعَذَابٍ) هائل لا يقادر قدره وقرىء يسحتكم من الثلاثي على لغة أهل الحجاز والاسحات لغة بني تميم ونجد (وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى) أي على الله كائنا من كان بأي وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهي عنه دخولا أوليا أو وقد خاب فرعون المفترى فلا تكونوا مثله في الخيبة والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها (فَتَنَازَعُوا) أي السحرة حين سمعوا كلامه عليه الصلاة والسلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا (أَمْرَهُمْ) الذي أريد منهم من مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا (بَيْنَهُمْ) في كيفية المعارضة وتجاذبوا أهداب القول في ذلك (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى) أي من موسى عليه الصلاة والسلام لئلا يقف عليه فيدافعه وكان نجواهم ما نطق به قوله تعالى (قَالُوا) أي بطريق التناجي والاسرار (إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ) الخ فانه تفسير له ونتيجة لتنازعهم وخلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور وإن مخففة من أن قد أهملت عن العمل واللام فارقة وقرىء بتشديد نون هذان وقيل هي نافية واللام بمعنى إلا أي ما هذان إلا ساحران وقرىء إن بالتشديد وهذان اسمها على لغة بلحارث بن كعب فانهم يعربون التثنية تقديرا وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها وقيل ان بمعنى نعم وما بعدها جملة من مبتدأ وخبر وفيهما أن اللام لا تدخل خبر المبتدأ وقيل أصله انه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكد باللام لا يليق به الحذف وقرىء ان هذين لساحران وهي قراءة واضحة (يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ) أي أرض مصر بالاستيلاء عليها (بِسِحْرِهِمَا) الذي أظهراه من قبل (وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى) أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب وأمثلها باظهار مذهبهما واعلاء دينهما يريدون به ما كان عليه قوم فرعون لا طريقة السحر فانهم ما كانوا يعتقدونه دينا وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه الصلاة والسلام أرسل معنا بني اسرائيل وكانوا أرباب علم فيما بينهم ويأباه أن اخراجهم من أرضهم إنما يكون بالاستيلاء عليها تمكنا وتصرفا فكيف يتصور حينئذ نقل بني اسرائيل إلى الشأم وحمل الاخراج على اخراج بني اسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن هذه المقالة منهم للاغراء بالمبالغة في المغالبة والاهتمام بالمناصبة فلا بد أن يكون الانذار والتحذير بأشد المكاره وأشقها عليهم ولا ريب في أن إخراج بني اسرائيل من بينهم والذهاب بهم إلى الشأم وهم آمنون في ديارهم ليس فيه كثير محذور وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم لما أنهم قدوة لغيرهم ولا يخفى أن تخصيص الاذهاب بهم مما لا مزية فيه وقوله تعالى (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ) تصريح بالمطلوب إثر تمهيد المقدمات والفاء فصيحة أي إذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين يريدان بكم ما ذكر من الاخراج والاذهاب فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعا عليه بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم وارموا عن قوس واحدة وقرىء فأجمعوا من الجمع ويعضده قوله تعالى فجمع كيده أي فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغي (ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا) أي مصطفين أمروا بذلك لأنه أهيب في صدور الرائين وادخل في استجلاب الرهبة من المشاهدين قيل كانوا سبعين ألفا مع كل منهم حبل وعصا وأقبلوا عليه اقبالة واحدة وقيل كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط والباقي من بني اسرائيل وقيل تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقيل خمسة عشر ألفا وقيل بضعة وثلاثين ألفا والله أعلم ولعل الموعد كان مكانا متسعا خاطبهم موسى عليه الصلاة والسلام بما ذكر في قطر من أقطاره وتنازعوا أمرهم في قطر آخر منه ثم أمروا بأن يأتوا وسطه على الوجه المذكور وقد فسر الصف بالمصلى لاجتماع الناس فيه في الاعياد والصلوات

ووجه صحته أن يكون علما لموضع معين من المكان الموعود وأما إرادة مصلى من المصليات بعد تعين المكان الموعود فلا مساغ لها قطعا وقوله تعالى (وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى) اعتراض تذييلي من قبلهم مؤكد لما قبله من الأمرين أي قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب ما وعدهم فرعون من الأجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى قال نعم وإنكم لمن المقربين وبمن غلب أنفسهم جميعا على طريقة قولهم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون أو من غلب منهم حثا لهم على بذل المجهود في المغالبة هذا هو اللائق بتجاوب أطراف النظم الكريم وقد قيل كان نجواهم أن قالوا حين سمعوا مقالة موسى عليه الصلاة والسلام ما هذا بقول ساحر وقيل كان ذلك أن قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه وقيل كان ذلك قولهم إن كان ساحرا فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر فيكون اسرارهم حينئذ من فرعون وملئه ويحمل قولهم إن هذان لساحران الخ على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة ثم رجعوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر واستقرت آراؤهم على ذلك وأبوا إلا المناصبة للمعارضة وأما جعل ضمير قالوا لفرعون وملئه على أنهم قالوا ذلك للسحرة ردا لهم عن الاختلاف وأمروهم بالاجماع والازماع وإظهار الجلادة بالاتيان على وجه الاصطفاف فمخل بجزالة النظم الكريم كما يشهد به الذوق السليم (قَالُوا) استئناف مبنى على سؤال ناشيء من حكاية ما جرى بين السحرة من المقاولة كأنه قيل فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم ما قالوا فقيل قالوا (يَا مُوسَى) وإنما لم يتعرض لاجماعهم واتيانهم بطريق الاصطفاف اشعارا بظهور أمرهما وغناهما عن البيان (إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ) أي ما تلقيه أولا على أن المفعول محذوف لظهوره أو تفعل الالقاء أولا على أن الفعل منزل منزلة اللازم (وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى) ما يلقيه أو أول من يفعل الالقاء خيروه عليه الصلاة والسلام بما ذكر مراعاة للأدب لما رأوا منه عليه الصلاة والسلام ما رأوا من مخايل الخير ورزانة الرأي وإظهارا للجلادة باراءة أنه لا يختلف حالهم بالتقديم والتأخير وأن مع ما في حيزها منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية مبتدأ محذوف أي اختر القاءك أولا أو القاءنا أو الأمر اما القاؤك أو القاؤنا (قَالَ) استئناف كما سلف ناشيء من حكاية تخيير السحرة اياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام فقيل قال (بَلْ أَلْقُوا) أنتم أولا مقابلة للأدب بأحسن من أدبهم حيث بت القول بالقائهم أولا وإظهار العدم المبالاة بسحرهم ومساعدة لما أوهموا من الميل إلى البدء وليبرزوا ما معهم ويستفرغوا أقصى جهدهم ويستنفدوا اقصاراهم وسعهم ثم يظهر الله عز وجل سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لما علم أن ما سيظهر بيده سيلقف ما يصنعون من مكايد السحر (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) الفاء فصيحة معربة عن مسارعتهم إلى الالقاء كما في قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أي فألقوا فإذا حبالهم وهي للمفاجأة والتحقيق أنها أيضا ظرفية تستدعي متعلقا ينصبها وجملة تضاف اليها لكنها خصت بكون متعلقها فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت أن يخيل اليه سعي حبالهم وعصيهم من سحرهم وذلك أنهم كانوا لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيل اليه أنها تتحرك وقرىء تخيل بالتاء على إسناده إلى ضمير الحبال والعصي وإبدال أنها تسعى منه بدل اشتمال وقرىء نخيل باسناده اليه تعالى وقرىء تخيل بحذف احدى التاءين من تتخيل (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى) أي أضمر فيها بعض خوف من مفاجأته بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيات والاحتراز من ضررها المعتاد من اللسع ونحوه وقيل من أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه وليس بذاك كما ستعرفه وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل (قُلْنَا لَا تَخَفْ) أي ما توهمت (إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) تعليل لما يوجبه النهي من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على أبلغ وجه وآكده كما يعرب عنه الاستئناف وحرف التحقيق

وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو المنبىء عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل (وألق ما في يمينك) أي عصاك كما وقع في سورة الأعراف وإنما أوثر الابهام تهويلا لأمرها وتفخيما لشأنها وايذانا بأنها ليست من جنس العصى المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود سائر أفراد الجنس مبهمة الكنه مستتبعة لآثار غريبة وعدم مراعاة هذه النكتة عند حكاية الأمر في موضع آخر لايستدعي عدم مراعاتها عند وقوع المحكي هذا وحمل الابهام على التحقير بأن يراد لاتبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذي في يدك فانه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها يأباه ظهور حالها فيما مر مرتين على أن ذلك المعنى انما يليق بما لو فعلت العصا مافعلت وهي على هيئتها الأصلية وقد كان منها ماكان وقوله تعالى (تلقف ما صنعوا) بالجزم جوابا للأمر من لقفه إذا ابتلعه والتقمه بسرعة والتأنيث لكون ماعبارة عن العصا أي تبتلع ماصنعوه من الحبال والعصى التي خيل اليك سعيها وخفتها والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير والايذان بالتمويه والتزوير وقرىء تلقف بتشديد القاف وإسقاط إحدى التاءين من تتلقف وقرىء بالرفع على الحال أو الاستئناف والجملة الأمرية معطوفة على النهي متممة بما في حيزها لتعليل موجبه ببيان كيفية غلبته عليه الصلاة والسلام وعلوه فان ابتلاع عصاه لأباطيلهم التي منها أوجس في نفسه ما أوجس مما يقمع مادته بالكلية وهذا كما ترى صريح في أن خوفه عليه الصلاة والسلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشك للناس وعدم اتباعهم له عليه الصلاة والسلام وإلا لعلل بما يزيله من الوعد بما يوجب إيمانهم واتباعهم له عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (إنما صنعوا) الخ تعليل لقوله تعالى تلقف ماصنعوا وما اماموصولة أو موصوفة أي ان الذي صنعوه أوان شيأ صنعوه (كيد سحر) بالرفع على أنه خبر لأن اى كيد جنس الساحر وتنكيره للتوسل به إلى تنكير ما أضيف اليه للتحقير وقرىء بالنصب على أنه مفعول صنعوا وما كافة وقرىء كيد سحر على أن الاضافة للبيان كما في علم فقه أو على معنى ذي سحر أو على تسمية الساحر سحرا مبالغة وقوله تعالى (ولا يفلح الساحر) أي هذا الجنس (حيث أتى) أي حيث كان وأين أقبل من تمام التعليل وعدم التعرض لشأن العصا وكونها معجزة الهية مع ما في ذلك من تقوية التعليل للايذان بظهور أمرها والفاء في قوله تعالى (فألقي السحرة سجدا) كما سلف فصيحة معربة عن محذوفين ينساق اليهما النظم الكريم غنيين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردد موسى عليه السلام في الامتثال بالأمر واستحالة عدم وقوع اللقف الموعود أي فألقاه عليه السلام فوقع ماوقع من اللقف فألقي السحرة سجدا لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر وإنما هي آية من آيات الله عز وجل روي أن رئيسهم قال كنا نغلب الناس وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فأين ما ألقيناه من الآلات فاستدل بتغير أحوال الأجسام على الصانع القادر العالم وبظهور ذلك على يد موسى عليه الصلاة والسلام على صحة رسالته لاجرم ألقاهم ما شاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتوا بما هو غاية الخضوع قيل لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله تعالى في سجودهم منازلهم في الجنة ولا ينافيه قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا الخ لأن كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم (قالوا) استئناف كما مر غير مرة (آمنا برب هرون وموسى) تأخير موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل وقد جوز أن يكون ترتيب كلامهم أيضا هكذا إما لكبر سن هرون عليه الصلاة والسلام وإما للمبالغة في الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربي موسى عليه الصلاة والسلام في صغره فلو قدموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعين وقومه من أول الأمر أن مرادهم فرعون (قال) أي فرعون للسحرة (آمنتم له) أي لموسى عليه الصلاة والسلام واللام لتضمين الفعل معنى الاتباع وقرىء

على الاستفهام التوبيخي (قبل أن ءاذن لكم) أي من غير أن آذن لكم في الايمان له كما في قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي لا أن اذنه لهم في ذلك واقع بعده أو متوقع (إنه) يعني موسى عليه الصلاة والسلام (لكبيركم) أي في فنكم وأعلمكم به وأستاذكم (الذي علمكم السحر) فتواطأتم على مافعلتم أي فعلمكم شيأ دون شيء فلذلك غلبكم وهذه شبهة زورها اللعين وألقاها على قومه وأراهم أن أمر الإيمان منوط باذنه فلما كان إيمانهم بغير إذنه لم يكن معتدا به وأنهم من تلامذته عليه الصلاة والسلام فلا عبرة بما أظهره كما لا عبرة بما أظهروه وذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة في الإيمان بالله تعالى ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال (فلأقطعن) أي فوالله لأقطعن (أيديكم وأرجلكم من خلاف) أي اليد اليمنى والرجل اليسرى ومن ابتدائية كان القطع ابتداء من مخالفة العضو العضو فان المبتدى من المعروض مبتدىء من العارض أيضا وهي مع مجرورها في حيز النصب على الحالية أي لأقطعنها مختلفات وتعيين تلك الحال للايذان بتحقيق الأمر وإيقاعه لا محالة بتعيين كيفيته المعهودة في باب السياسة لا لأنها أفظع من غيرها (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي عليها وإيثار كلمة في للدلالة على ابقائهم عليها زمانا مديدا تشبيها لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف في الظرف المشتمل عليه قالوا وهو أول من صلب وصيغة التفعيل في الفعلين للتكثير وقد قرئا بالتخفيف (ولتعلمن أينا) يريد به نفسه وموسى عليه الصلاة والسلام لقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم واللام مع الإيمان في كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا إما لقصد توضيع موسى عليه الصلاة والسلام والهزء به لأنه لم يكن من التعذيب في شيء وإما لاراءة أن إيمانهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبل موسى عليه الصلاة والسلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم فخافوا على أنفسهم أيضا وقيل يريد به رب موسى الذي آمنوا به بقولهم آمنا برب هرون وموسى (أشد عذابا وأبقى) أي أدوم (قالوا) غير مكترثين بوعيده (لن نؤثرك) لن نختارك بالإيمان والاتباع (على ما جاءنا) من الله على يد موسى عليه الصلاة والسلام (من البينات) من المعجزات الظاهرة فان ماظهر بيده عليه الصلاة والسلام من العصا كان مشتملا على معجزات جمة كما مر تحقيقه فيما سلف فانهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها (والذي فطرنا) أي خلقنا وسائر المخلوقات وهو عطف على ماجاءنا وتأخيره لأن ما في ضمنه آية عقلية نظرية وما شاهدوه آية حسية ظاهرة وإيراده تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم للاشعار بعلة الحكم فان خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم إيثارهم له عليه سبحانه وتعالى وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وقيل هو قسم محذوف الجواب لدلالة المذكور عليه أي وحق الذي فطرنا لا نؤثرك الخ ولا مساغ لكون المذكور جوابا له عند من يجوز تقديم الجواب أيضا لما أن القسم لا يجاب بلن الا على شذوذ وقوله تعالى (فاقض ما أنت قاض) جواب عن تهديده بقوله لأقطعن الخ أي فاصنع ما أنت صانعه أو فاحكم ما أنت حاكم به وقوله تعالى (إنما تقضي هذه الحيوة الدنيا) مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد مما سبق من الأمر بالقضاء أي إنما تصنع ماتهواه أو تحكم بما تراه في هذه الحياة الدنيا فحسب وما لنا من رغبة في عذبها ولا رهبة من عذابها (إنا ءامنا بربنا ليغفر لنا خطيانا) التي اقترفناها من الكفر والمعاصي ولا يؤاخذنا بها في الدار الآخرة لا ليمتعنا بتلك الحياة الفانية حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب وقوله تعالى (وما أكرهتنا عليه من السحر) عطف على خطايانا أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه في معارضة موسى عليه الصلاة والسلام باكراهك وحشرك إيانا من المدائن القاصية خصوه بالذكر مع اندراجه في خطاياهم إظهارا لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته وذكر الاكراه للايذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالاكراه وفيه نوع اعتذار

لاستجلاب المغفرة وقيل أرادوا الاكراه على تعلم السحر حيث روى أن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط والباقى من بنى إسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر وقيل انه أكرههم على المعارضة حيث روى أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ماهذا بسحر فان الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه ويأباه تصديهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يعرب عنه قولهم أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين وقولهم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون (وَاللَّهُ خَيْرٌ) أى فى حد ذاته وهو ناظر إلى قولهم والذى فطرنا (وَأَبْقَىٰ) أى جزاء ثوابا كان أو عذابا أو خير ثوابا وأبقى عذابا وقوله تعالى (إِنَّهُ) إلى آخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى خيرا وأبقى جزاء وتحقيق له وإبطال لما ادعاه فرعون وتصديرهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما لأن مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره مع مافيه من زيادة التقرير فان الضمير لايفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن كأنه قيل إن الشأن الخطير هذا أى قوله تعالى (مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا) بأن مات على الكفر والمعاصى (فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا) فينتهى عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى (وَلَا يَحْيَىٰ) حياة ينتفع بها (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا) به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التى من جملتها ماشاهدناه (قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ) الصالحة كالحسنة جارية مجرى الاسم ولذلك لاتذكر غالبا مع الموصوف وهى كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والنقل (فَأُولَٰئِكَ) إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم أى فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات (لَهُمُ) بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة (الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ) أى المنازل الرفيعة وليس فيه مايدل على عدم اعتبار الايمان المجرد عن العمل الصالح فى استتباع الثواب لأن ما نيط بالايمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقا وهل التشاجر الافيه (جَنَّاتُ عَدْنٍ) بدل من الدرجات العلى أو بيان وقد مر أن عدنا علم لمعنى الاقامة أو لأرض الجنة فقوله تعالى (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) حال من الجنات وقوله تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا) حال من الضمير فى لهم والعامل معنى الاستقرار أو الاشارة (وَذَٰلِكَ) إشارة الى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر من الدرجات العلى ومعنى البعد لما مر من التفخيم (جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ) أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى بما ذكر من الايمان والأعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه ودوامه ردا على ما ادعاه فرعون بقوله أينا أشد عذابا وأبقى هذا وقد قيل هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عز وجل قالوا ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ولم يثبت فى الاخبار (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ) حكاية اجمالية لما انتهى اليه أمر فرعون وقومه وقد طوى فى البين ذكر ماجرى عليهم من الآيات المفصلات الظاهرة على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة فى نحو من عشرين سنة حسبما فصل فى سورة الأعراف وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها وأن فى قوله تعالى (أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي) إما مفسرة لأن الوحى فيه معنى القول أو مصدرية حذف عنها الجار والتعبير عنهم بعنوان كونهم عبادا له تعالى لاظهار المرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل أى وبالله لقد أوحينا اليه عليه الصلاة والسلام أن أسر بعبادى الذين أرسلتك لانقاذهم من ملكة فرعون أى سر بهم من مصر ليلا (فَاضْرِبْ لَهُمْ) أى فاجعل أو فاتخذ لهم (طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا) أى يابسا على انه مصدر وصف به الفاعل مبالغة وقرىء يبسا وهو اما مخفف منه أو وصف كصعب أو جمع يابس كصحب

وصف به الواحد للمبالغة أو لتعدده حسب تعدد الأسباط (لاتخافُ دَرَكاً) حال من المأمور أى آمنا من أن يدرككم العدو أو صفة أخرى لطريقا والعائد محذوف وقرىء لاتخف جوابا للأمر (ولا تخشى) عطف على لاتخاف داخل فى حكمه أى ولاتخشى الغرق وعلى قراءة الجزم استئناف أى وأنت لاتخشى أو عطف عليه والالف للاطلاق كما فى قوله تعالى وتظنون بالله الظنونا وتقديم نفى الخوف المذكور للمسارعة إلى ازاحة ماكانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا إنا لمدركون (فأتبعهم فرعونُ بجنوده) أى تبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم يقال اتبعتهم أى تبعتهم وذلك إذا كانوا سبقوك فلحقتهم ويؤيده أنه قرىء فاتبعهم من الافتعال وقيل المعنى أتبعهم فرعون نفسه فحذف المفعول الثانى وقيل الباء زائدة والمعنى فاتبعهم فرعون جنوده أى ساقهم خلفهم وأياما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ثقة بغاية ظهوره وإيذانا بكمال مسارعة موسى عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال بالأمر أى ففعل ما أمر به من الاسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه فأتبعهم فرعون بجنوده برا وبحرا روى أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم أول الليل وكانوا ستمائة وسبعين ألفا فاخبر فرعون بذلك فاتبعهم بعساكره وكانت مقدمته سبعمائة ألف فقص أثرهم فلحقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك ضرب عليه الصلاة والسلام بعصاه البحر فانفلق على اثنى عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم فعبر موسى عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأسباط سالمين وتبعهم فرعون بجنوده (فغشيهم مّنَ اليمّ مَا غشيهم) أى علاهم منه وغمرهم ماغمرهم من الأمر الهائل الذى لايقادر قدره ولا يبلغ كنهه وقيل غشيهم ماسمعت قصته وليس بذاك فان مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لاسماع قصته وقرىء فغشاهم من اليم ماغشاهم أى غطاهم ماغطاهم والفاعل هو الله عز وعلا أو ماغشاهم وقيل فرعون لأنه الذى ورطهم للهلكة ويأباه الاظهار فى قوله تعالى (وَأضلّ فرعونُ قومَهُ) أى سلك بهم مسلكا أداهم إلى الخيبة والخسران فى الدين والدنيا معا حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوى المتصل بالعذاب الخالد الأخروى وقوله تعالى (ومَا هدَى) أى ما أرشدهم قط إلى طريق موصل إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقرير لاضلاله وتأكيد له اذرب مضل قد يرشد من يضله إلى بعض مطالبه وفيه نوع تهكم به فى قوله وما أهديكم الاسبيل الرشاد فان نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة وذلك إنما يتصور فى حقه بطريق التهكم وحمل الاضلال والهداية على مايختص بالدينى منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده إلى مساق الهلاك الدنيوى وجعلهما عبارة عن الاضلال فى البحر والانجاء منه مما لايقبله العقل السليم (يـٰبنى إسرٰءيلَ) حكاية لما خاطبهم الله تعالى بعد اغراق فرعون وقومه وانجائهم منهم لكن لاعقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما أفاض وقيل هو انشاء خطاب للذين كانوا منهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام على معنى أنه تعالى قد من عليهم بما فعل بآبائهم اصالة وبهم تبعا ويرده ماسيأتى من قوله تعالى وما أعجلك الآية ضرورة استحالة حمله على الانشاء فالوجه هو الحكاية بتقدير قلنا عطفا على أوحينا أى وقلنا يابنى إسرائيل (قدْ أنجيْنـٰكم مّنْ عدوّكمْ) فرعون وقومه حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وقرىء نجينا كم ونجيتكم (وَوٰعدْنـٰكمْ جانبَ الطّور الأيمنَ) بالنصب على أنه صفة للمضاف وقرىء بالجر للجوار أى واعدناكم بواسطة نبيكم اتيان جانبه الايمن نظرا إلى السالك من مصر إلى الشام أى اتيان موسى عليه الصلاة والسلام للمناجاة وانزال التوراة عليه ونسبت المواعدة اليهم مع كونها لموسى عليه الصلاة والسلام نظرا إلى ملابستها اياهم وسراية منفعتها اليهم وايفاء لمقام الامتنان حقه كما فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم حيث نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المخلوق المصور بالذات هو آدم

لاستجلاب المغفرة وقيل أرادوا الاكراه على تعلم السحر حيث روى أن رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط والباقى من بنى إسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر وقيل انه أكرههم على المعارضة حيث روى أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ماهذا بسحر فان الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه ويأباه تصديهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يعرب عنه قولهم أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين وقولهم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون (وَاللهُ خَيْرٌ) أى فى حد ذاته وهو ناظر إلى قولهم والذى فطرنا (وَأَبْقَى) أى جزاء ثوابا كان أو عذابا أو خير ثوابا وأبقى عذابا وقوله تعالى (إِنَّهُ) إلى آخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى خيرا وأبقى جزاء وتحقيق له وإبطال لما ادعاه فرعون وتصديرهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما لأن مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره مع مافيه من زيادة التقرير فان الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن كأنه قيل إن الشأن الخطير هذا أى قوله تعالى (مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا) بأن مات على الكفر والمعاصى (فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا) فينتهى عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى (وَلَا يَحْيَى) حياة ينتفع بها (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا) به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التى من جملتها ماشاهدناه (قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ) الصالحة كالحسنة جارية مجرى الاسم ولذلك لاتذكر غالبا مع الموصوف وهى كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والنقل (فَأُولَئِكَ) إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم أى فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات (لَهُمُ) بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة (الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) أى المنازل الرفيعة وليس فيه مايدل على عدم اعتبار الايمان المجرد عن العمل الصالح فى استتباع الثواب لأن ما نيط بالايمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقا وهل التشاجر الافيه (جَنَّاتُ عَدْنٍ) بدل من الدرجات العلى أو بيان وقد مر أن عدنا علم لمعنى الاقامة أو لأرض الجنة فقوله تعالى (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) حال من الجنات وقوله تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا) حال من الضمير فى لهم والعامل معنى الاستقرار أو الاشارة (وَذَلِكَ) إشارة الى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر من الدرجات العلى ومعنى البعد لما مر من التفخيم (جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى بما ذكر من الايمان والأعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة إلى بيان أشدية عذابه ودوامه ردا على ما ادعاه فرعون بقوله أينا أشد عذابا وأبقى هذا وقد قيل هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عز وجل قالوا ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ولم يثبت فى الاخبار (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى) حكاية اجمالية لما انتهى اليه أمر فرعون وقومه وقد طوى فى البين ذكر ماجرى عليهم من الآيات المفصلات الظاهرة على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعد ماغلب السحرة فى نحو من عشرين سنة حسبما فصل فى سورة الأعراف وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها وأن فى قوله تعالى (أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي) إما مفسرة لأن الوحى فيه معنى القول أو مصدرية حذف عنها الجار والتعبير عنهم بعنوان كونهم عبادا له تعالى لاظهار المرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل وفعل بهم من فنون الظلم مافعل أى وبالله لقد أوحينا اليه عليه الصلاة والسلام أن أسر بعبادى الذين أرسلتك لانقاذهم من ملكة فرعون أى سر بهم من مصر ليلا (فَاضْرِبْ لَهُمْ) أى فاجعل أو فاتخذ لهم (طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا) أى يابسا على انه مصدر وصف به الفاعل مبالغة وقرىء يبسا وهو اما مخفف منه أو وصف كصعب أو جمع يابس كصحب

وصف به الواحد للمبالغة أو لتعدده حسب تعدد الأسباط (لاتخافُ دَرَكاً) حال من المأمور أى آمنا من أن يدرككم
العدو أو صفة أخرى لطريقا والعائد محذوف رقرىء لاتخف جوابا للأمر (ولا تخشى) عطف على لاتخاف
داخل فى حكمه أى ولاتخشى الغرق وعلى قراءة الجزم استئناف أى وأنت لاتخشى أو عطف عليه والالف للاطلاق
كما فى قوله تعالى وتظنون بالله الظنونا وتقديم نفى الخوف المذكور للمسارعة إلى ازاحة ما كانوا عليه من الخوف
العظيم حيث قالوا إنا لمدركون (فأتبعهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ) أى تبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم يقال اتبعتهم أى تبعتهم
وذلك إذا كانوا اسبقوك فلحقتهم ويؤيده أنه قرىء فاتبعهم من الافتعال وقيل المعنى أتبعهم فرعون نفسه فحذف المفعول
الثانى وقيل الباء زائدة والمعنى فاتبعهم فرعون جنوده أى ساقهم خلفهم وأياما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد
طوى ذكره ثقة بغاية ظهوره وإيذانا بكمال مسارعة موسى عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال بالأمر أى ففعل ما أمر
به من الاسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه فأتبعهم فرعون بجنوده برا وبحرا روى أن موسى عليه الصلاة والسلام
خرج بهم أول الليل وكانوا ستمائة وسبعين ألفا فاخبر فرعون بذلك فاتبعهم بعساكره وكانت مقدمته سبعمائة ألف
فقص أثرهم فلحقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك ضرب عليه الصلاة والسلام بعصاه البحر فانفلق على اثنى عشر فرقا
كل فرق كالطود العظيم فعبر موسى عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأسباط سالمين وتبعهم فرعون بجنوده
(فغَشِيَهُمْ مِنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) أى علاهم منه وغمرهم ماغمرهم من الأمر الهائل الذى لايقادر قدره ولا يبلغ كنهه
وقيل غشيهم ماسمعت قصته وليس بذاك فان مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لا سماع قصته
وقرىء فغشاهم من اليم ماغشاهم أى غطاهم ماغطاهم والفاعل هو الله عز وعلا أو ماغشاهم وقيل فرعون لأنه الذى
ورطهم للهلكة ويأباه الاظهار فى قوله تعالى (وَأضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ) أى سلك بهم مسلكا أداهم إلى الخيبة والخسران
فى الدين والدنيا معا حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوى المتصل بالعذاب الخالد الأخروى وقوله تعالى
(ومَا هَدَى) أى ما أرشدهم قط إلى طريق موصل إلى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقرير لاضلاله وتأكيد
له اذرب مضل قد يرشد من يضله إلى بعض مطالبه وفيه نوع تهكم به فى قوله وما أهديكم إلا سبيل الرشاد فان نفى الهداية
عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة وذلك إنما يتصور فى حقه بطريق التهكم وحمل الاضلال
والهداية على مايختص بالدينى منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده إلى مساق الهلاك الدنيوى وجعلهما عبارة عن الاضلال
فى البحر والانجاء منه مما لايقبله العقل السليم (يَبَنِى إسْرَٰءِيلَ) حكاية لما خاطبهم الله تعالى بعد اغراق فرعون
وقومه وانجائهم منهم لكن لاعقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما أفاض وقيل هو
انشاء خطاب للذين كانوا منهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام على معنى أنه تعالى قد من عليهم بما فعل بآبائهم
اصالة وبهم تبعا ويرده ماسيأتى من قوله تعالى وما أعجلك الآية ضرورة استحالة حمله على الانشاء فالوجه هو الحكاية
بتقدير قلنا عطفا على أوحينا أى وقلنا يابنى إسرائيل (قدْ أنجَيْنَٰكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ) فرعون وقومه حيث كانوا يبغونكم
الغوائل ويسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وقرىء نجيناكم ونجيتكم (وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ
الطُّورِ الأيْمَنَ) بالنصب على أنه صفة للمضاف وقرىء بالجر للجوار أى واعدناكم بواسطة نبيكم اتيان جانبه الايمن نظرا
إلى السالك من مصر إلى الشام أى اتيان موسى عليه الصلاة والسلام للمناجاة وانزال التوراة عليه ونسبت المواعدة اليهم مع
كونها لموسى عليه الصلاة والسلام نظرا إلى ملابستها اياهم وسراية منفعتها اليهم وايفاء لمقام الامتنان حقه كما فى قوله
تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم حيث نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المخلوق المصور بالذات هو آدم

عليه الصلاة والسلام وقرىء واعدتكم ووعدناكم (ونزلنا عليكم المن والسلوى) أى الترنجبين والسمانى حيث كان ينزل عليهم المن وهم فى التيه مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل انسان صاع ويبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه كما مر مرارا (كلوا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان اباحة ماذكر لهم واتماما للنعمة عليهم (من طيبات ما رزقناكم) أى من لذائذه أو حلالاته وقرىء رزقتكم وفى البدء بنعمة الانجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن النظم ولطف الترتيب مالا يخفى (ولا تطغوا فيه) أى فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدى لما حد لكم فيه كالسرف والبطر والمنع من المستحق (فيحل عليكم غضبي) جواب للنهى أى فتلزمكم عقوبتى وتجب لكم من حل الدين إذا وجب أداؤه (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) أى تردى وهلك وقيل وقع فى الهاوية وقرىء فيحل بضم الحاء من حل يحل إذا نزل (وإنى لغفار لمن تاب) من الشرك والمعاصى التى من جملتها الطغيان فيما ذكر (وآمن) بما يجب الإيمان به (وعمل صالحا) أى عملا صالحا مستقيما عند الشرع والعقل وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان فيما ذكر وحث على التوبة والإيمان وقوله تعالى (ثم اهتدى) أى استقام على الهدى إشارة إلى أن من لم يستمر عليه بمعزل من الغفران وثم للتراخى الرتبى (وما أعجلك عن قومك يا موسى) حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه الصلاة والسلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة المذكورة أى وقلنا له أى شىء أعجلك منفردا عن قومك وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق لانكار انفراده عنهم لما فى ذلك بحسب الظاهر من مخايل اغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه مأمورا باستصحابهم واحضارهم معه لالانكار نفس العجلة الصادرة عنه عليه الصلاة والسلام لكونها نقيصة منافية للحزم اللائق بأولى العزم ولذلك أجاب عليه الصلاة والسلام بنفى الانفراد المنافى للاستصحاب والمعية حيث (قال هم أولاء على أثرى) يعنى أنهم معى وإنما سبقتهم بخطا يسيرة ظننت أنها لاتخل بالمعية ولا تقدح فى الاستصحاب فان ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة أصلا وبعد ماذكر عليه الصلاة والسلام أن تقدمه ذلك ليس لأمر منكر ذكر أنه لأمر مرضى حيث قال (وعجلت إليك رب لترضى) عنى بمسارعتى إلى الامتثال بأمرك واعتنائى بالوفاء بعهدك وزيادة رب لمزيد الضراعة والابتهال رغبة فى قبول العذر (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه الصلاة والسلام وهو السر فى وروده على صيغة الغائب لا انه التفات من التكلم إلى الغيبة لما أن المقدر فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلم كانه قيل من جهة السامعين فماذا قال له ربه حينئذ فقيل قال (فإنا قد فتنا قومك من بعدك) أى ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هارون عليه الصلاة والسلام وكانوا ستمائة ألف مانجا منهم من عبادة العجل الا اثنا عشر ألفا والفاء لترتيب الاخبار بما ذكر من الابتلاء على اخبار موسى عليه الصلاة والسلام بعجلته لكن لا لأن الاخبار بها سبب موجب للاخبار به بل لما بينهما من المناسبة المصححة للانتقال من أحدهما إلى الآخر من حيث أن مدار الابتلاء المذكور عجلة القوم فانه روى أنهم أقاموا على ماوصى به موسى عليه الصلاة والسلام عشرين ليلة بعد ذهابه فحسبوها مع أيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العدة وليس من موسى عليه الصلاة والسلام عين ولا أثر (وأضلهم السامرى) حيث كان هو المدبر فى الفتنة فقال لهم إنما اخلف موسى عليه الصلاة والسلام ميعادكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم فكان من أمر العجل ما كان فاخباره تعالى بوقوع هذه الفتنة عند قدومه عليه الصلاة والسلام اما باعتبار تحققها فى علمه تعالى ومشيئته واما بطريق التعبير عن المتوقع بالواقع كما فى قوله تعالى ونادى أصحاب الجنة ونظائره أو لأن السامرى كان قد عزم على ايقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام وتصدى لترتيب مبانيها وتمهيد

مباديها فكانت الفتنة واقعة عند الاخبار بها وقرىء وأضلهم السامرى على صيغة التفضيل أى أشدهم ضلالا لأنه ضال
ومضل والسامرى منسوب إلى قبيلة من بنى اسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجا من كرماز وقيل من أهل باجرما واسمه
موسى ابن ظفر وكان منافقا قد أظهر الاسلام وكان من قوم يعبدون البقر (فرجع موسى إلى قومه) عند رجوعه المعهود
أى بعد ما استوفى الأربعين وأخذ التوراة لا عقيب الاخبار بالفتنة فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هى باعتبار قيد الرجوع
المستفاد من قوله تعالى (غضبان أسفا) لا باعتبار نفسه وان كانت داخلة عليه حقيقة فان كون الرجوع بعد تمام الأربعين
أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم إلى كونه عند الاخبار بالفتنة كما إذا قلت شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة فرجعوا
سالمين فان أحدا لا يرتاب فى أن المراد رجوعهم المعتاد لا رجوعهم اثر الدعاء وأن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة
لا باعتبار نفس الرجوع والأسف الشديد الغضب وقيل الحزين (قال) استئناف مبنى على سؤال ناشىء من حكاية
رجوعه كذلك كأنه قيل فماذا فعل بهم فقيل قال (يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) بأن يعطيكم التوراة
فيها ما فيها من النور والهدى والهمزة لانكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده أى وعدكم بحيث
لا سبيل لكم إلى انكاره والفاء فى قوله تعالى (أفطال عليكم العهد) أى الزمان للعطف على مقدر والهمزة لانكار
المعطوف ونفيه فقط أى أوعدكم ذلك فطال زمان الانجاز فأخطأتم بسببه (أم أردتم أن يحل) أى يجب (عليكم
غضب) شديد لا يقادر قدره كائن (من ربكم) أى من مالك أمركم على الاطلاق (فأخلفتم موعدى) أى وعدكم إياى
بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات على إضافة المصدر إلى مفعوله للقصد إلى زيادة تقبيح حالهم فان اخلافهم
الوعد الجارى فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث إضافته إليه عليه السلام أشنع منه من حيث إضافته إليهم والفاء
لترتيب ما بعدها على كل واحد من شقى الترديد على سبيل البدل كأنه قيل أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتموه خطأ أم
أردتم حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمدا وأما جعل الموعد مضافا إلى فاعله وحمل اخلافه على معنى وجدان الخلف
فيه أى فوجدتم الخلف فى موعدى لكم بالعود بعد الأربعين فمما لا يساعده السباق ولا السياق أصلا (قالوا ما أخلفنا
موعدك) أى وعدنا إياك الثبات على ما أمرتنا به وإيثاره على أن يقال موعدنا على إضافة المصدر إلى فاعله لما مر آنفا
(بملكنا) أى بأن ملكنا أمورنا يعنون أنا لو خلينا وأمورنا ولم يسول لنا السامرى ما سوله مع مساعدة بعض
الأحوال لما أخلفناه وقرىء بملكنا بكسر الميم وضمها والكل لغات فى مصدر ملكت الشىء (ولكنا حملنا أوزارا
من زينة القوم) استدراك عما سبق واعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ وقرىء حملنا بالتخفيف أى حملنا أحمالا
من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم ثم لم
يردوها إليهم عند الخروج مخافة أن يقفوا على أمرهم وقيل هى ما ألقاه البحر على الساحل بعد اغراقهم فأخذوها ولعل
تسميتهم لها أوزارا لأنها تبعات وآثام حيث لم تكن الغنائم تحل حينئذ (فقذفناها) أى فى النار رجاء للخلاص عن
ذنبها (فكذلك) أى فمثل ذلك القذف (ألقى السامرى) أى ما كان معه منها وقد كان أراهم أنه أيضا يلقى ما كان معه
من الحلى فقالوا ما قالوا على زعمهم وإنما كان الذى ألقاه التربة التى أخذها من أثر الرسول كما سيأتى روى أنه قال لهم
إنما تأخر موسى عنكم لما معكم من الأوزار فالرأى أن نحفر حفيرة ونسجر فيها نارا ونقذف فيها كل ما معنا ففعلوا
(فأخرج) أى السامرى (لهم) للقائلين (عجلا) من تلك الحلى المذابة وتأخيره مع كونه مفعولا صريحا
عن الجار والمجرور لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه
بتجاوب أطراف النظم الكريم فان قوله تعالى (جسدا) أى جثة ذا دم ولحم أو جسدا من ذهب لا روح له

بدل منه وقوله تعالى (لَهُ خُوَارٌ) أى صوت عجل نعت له (فقالوا) أى السامرى ومن افتتن به أول مارآه (هٰذَا إِلٰهُكُمْ وَإِلٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ) أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامرى فعلا وقولا من جهته تعالى قصدا إلى زيادة تقريرها ثم ترتيب الانكار عليها لا من جهة القائلين وإلا لقيل فأخرج لنا والحمل على أن عدولهم إلى ضمير الغيبة لبيان أن الاخراج والقول المذكورين للكل لا للعبدة فقط خلاف الظاهر مع أنه مخل باعتذارهم فان مخالفة بعضهم للسامرى وعدم افتتانهم بتسويله مع كون الاخراج والخطاب لهم مما يهون مخالفته للمعتذرين فافتتانهم بعد ذلك أعظم جناية وأكثر شناعة وأما ماقيل من أن المعتذرين هم الذين لم يعبدوا العجل وأن نسبة الاخلاف إلى أنفسهم وهم برآء منه من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم كأنهم قالوا ما وجد الاخلاف فيما بيننا بأمر كنا نملكه بل تمكنت الشبهة فى قلوب العبدة حيث فعل السامرى مافعل فأخرج لهم ما أخرج وقال ماقال فلم نقدر على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافة ازدياد الفتنة فيقضى بفساده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى (أَفَلَا يَرَوْنَ) الخ انكار وتقبيح من جهته تعالى لحال الضالين والمضلين جميعا وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى لايشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتخاذه إلها والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا يتفكرون فلا يعلمون (أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا) أى إنه لايرجع اليهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا فكيف يتوهمون أنه إله وقرئ يرجع بالنصب قالوا فالرؤية حينئذ بصرية فان أن الناصبة لاتقع بعد أفعال اليقين أى ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه اليهم قولا من الأقوال وتعليق الأبصار بماذكر مع كونه أمرا عدميا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعى لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم وقوله تعالى (وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) عطف على لايرجع داخل معه فى حيز الرؤية أى أفلا يرون أنه لايقدر على أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا أو لايقدر على أن يضرهم ان لم يعبدوه أو ينفعهم ان عبدوه (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ) جملة قسمية مؤكدة لماقبلها من الانكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول اثر بيان مكابرتهم لقضية العقول أى وبالله لقد نصح لهم هرون ونبههم على كنه الأمر من قبل رجوع موسى عليه السلام اليهم وخطابه إياهم بماذكر من المقالات وقيل من قبل قول السامرى كأنه عليه السلام أول ما أبصره حين طلع من الحفيرة توهم منهم الافتتان به فسارع إلى تحذيرهم وقال لهم (يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ) أى أوقعتم فى الفتنة بالعجل أو أضللتم به على توجيه القصر المستفاد من كلمة إنما إلى نفس الفعل بالقياس إلى مقابله الذى يدعيه القوم لا إلى قيده المذكور بالقياس إلى قيد آخر على معنى إنما فعل بكم الفتنة لا الارشاد إلى الحق لا على معنى إنما فتنتم بالعجل لا بغيره وقوله تعالى (وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ) بكسر ان عطفا على إنما إرشاد لهم إلى الحق اثر زجرهم عن الباطل والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحق كما أن التعرض لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل أى ان ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لاغير والفاء فى قوله تعالى (فَاتَّبِعُونِي) لترتيب مابعدها على ماقبلها من مضمون الجملتين أى إذا كان الأمر كذلك فاتبعونى فى الثبات على الدين (وَأَطِيعُوا أَمْرِي) هذا واتركوا عبادة ماعرفتم شأنه (قالوا) فى جواب هرون عليه السلام (لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ) على العجل وعبادته (عَٰكِفِينَ) مقيمين (حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ) جعلوا رجوعه عليه السلام اليهم غاية لعكوفهم على عبادة العجل لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه عليه السلام بل بطريق التعلل والتسويف وقد دسوا تحت ذلك أنه عليه السلام لايرجع بشىء مبين تعويلا على مقالة السامرى روى أنهم لما قالوه اعتزلهم هرون عليه السلام فى اثنى عشر ألفا وهم الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة فقال لهم ماقال وسمع منهم ماقالوا وقوله تعالى (قَالَ) استئناف

مبنى على سؤال نشأ من حكاية جوابهم لهرون عليه السلام كأنه قيل فماذا قال موسى لهرون عليهما السلام حين سمع جوابهم له وهل رضى بسكوته بعد ما شاهد منهم ما شاهد فقيل قال له وهو مغتاظ قد أخذ بلحيته ورأسه (يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا) بعبادة العجل وبلغوا من المكابرة إلى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء (أَلَّا تَتَّبِعَنِ) أى أن تتبعنى على أن لا مزيدة وهو مفعول ثان لمنع وهو عامل فى إذ أى أى شىء منعك حين رؤيتك لضلالهم من أن تتبعنى فى الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به وقيل المعنى ما حملك على أن لا تتبعنى فإن المنع عن الشىء مستلزم للحمل على مقابلة وقيل ما منعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم فتكون مفارقتك مزجرة لهم وفيه أن نصائح هرون عليه السلام حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فلأن لا تزجرهم مفارقته إياهم عنه أولى والاعتذار بأنهم إذا علموا أنه يلحقه ويخبره بالقصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجروا عن ذلك بمعزل من حيز القبول كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه إلى حين رجوعه عليه السلام (أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى) أى بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه فإن قوله له عليهما السلام اخلفنى متضمن للأمر بهما حتما فإن الخلافة لا تتحقق إلا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضرا والهمزة للإنكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم تتبعنى أو أخالفتنى فعصيت أمرى (قَالَ يَبْنَؤُمَّ) خص الأم بالإضافة استعطافا لحقها وترقيقا لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لأم فإن الجمهور على أنهما كانا شقيقين (لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى) أى ولا بشعر رأسى روى أنه عليه السلام أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لله وكان عليه السلام حديدا متصلبا فى كل شىء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ففعل ما فعل وقوله تعالى (إِنِّى خَشِيتُ) الخ استئناف سيق لتعليل موجب النهى ببيان الداعى إلى ترك المقاتلة وتحقيق أنه غير عاص لأمره بل ممتثل به أى إنى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا (أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ) برأيك مع كونهم أبناء واحد كما ينبىء عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق الذى لا يرجى بعده الاجتماع (وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى) يريد به قوله عليه السلام اخلفنى فى قومى وأصلح الخ يعنى إنى رأيت أن الإصلاح فى حفظ الدهماء والمداراة معهم إلى أن ترجع إليهم فلذلك استأنيتك لتكون أنت المتدارك للأمر حسبما رأيت لا سيما وقد كانوا فى غاية القوة ونحن على القلة والضعف كما يعرب عنه قوله تعالى إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى (قَالَ) استئناف وقع جوابا عما نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم بإسناد الفساد إلى السامرى واعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماع ما حكى من الاعتذارين واستقرار أصل الفتنة على السامرى فقيل قال موبخا له هذا شأنهم (فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ) أى ما شأنك وما مطلوبك بما فعلت خاطبه عليه السلام بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ويفعل به وبما صنعه من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين ولمن خلفهم من الأمم (قَالَ) أى السامرى مجيبا له عليه السلام (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ) بضم الصاد فيهما وقرىء بكسرها فى الأول وفتحها فى الثانى وقرىء بالتاء على الوجهين على خطاب موسى عليه السلام وقومه أى علمت ما لم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له أو رأيت ما لم يروه وهو الأنسب بما سيأتى من قوله وكذلك سولت لى نفسى لا سيما على القراءة بالخطاب فإن ادعاء علم ما لم يعلمه موسى عليه السلام جراءة عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه بخلاف ادعاء رؤية ما لم يره عليه السلام فإنها مما يقع بحسب ما يتفق وقد كان رأى أن جبريل عليه السلام جاء راكب فرس وكان كلما رفع الفرس يديه أو رجليه على الطريق اليبس يخرج من تحته النبات فى الحال فعرف أن له شأنا فأخذ من موطئه حفنة وذلك قوله تعالى (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ

أثر الرسول) وقرىء من أثر فرس الرسول أى من تربة موطىء فرس الملك الذى أرسل اليك ليذهب بك إلى الطور
ولعل ذكره بعنوان الرسالة للاشعار بوقوفه على مالم يقف عليه القوم من الاسرار الإلهية تأكيدا لما صدر به مقالته والتنبيه
على وقت أخذ ما أخذه والقبضة المرة من القبض أطلقت على المقبوض مرة وقرىء بضم القاف وهو اسم المقبوض
كالغرفة والمضغة وقرىء فقبصت قبصة بالصاد المهملة والأول للاخذ بجميع الكف والثانى بأطراف الأصابع ونحوهما
الخضم والقضم (فنبذتها) أى فى الحلى المذابة فكان ماكان (وكذلك سولت لى نفسى) أى مافعلته من القبض
والنبذ فقوله تعالى ذلك إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده ومحل كذلك فى الأصل النصب على أنه مصدر تشبيهى أى نعت
لمصدر محذوف والتقدير سولت لى نفسى تسويلا كائنا مثل ذلك التسويل فقدم على الفعل لإفادة القصر واعتبرت الكاف
مقحمة لإفادة تأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتا له أى ذلك التزيين البديع زينت
لى نفسى ما فعلته لا تزيينا أدنى منه ولذلك فعلته وحاصل جوابه أن ما فعله إنما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة
بالسوء واغوائها لا بشىء آخر من البرهان العقلى أو الإلهام الإلهى فعند ذلك (قال) عليه السلام (فاذهب) أى من
بين الناس وقوله تعالى (فإن لك فى الحيوة) الخ تعليل لموجب الأمر وفى متعلقة بالاستقرار فى لك أى ثابت لك فى
الحياة أو بمحذوف وقع حالا من الكاف والعامل معنى الاستقرار فى الظرف المذكور لاعتماده على ماهو مبتدأ معنى
لا بقوله تعالى (أن تقول لا مساس) لمكان أن أى ثابت لك كائنا فى الحياة أى مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية
لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجىء اليها وذلك انه تعالى رماه بداء عقام لا يكاد يمس
أحدا أو يمسه أحد كائنا من كان الا حما من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح بأقصى طوقه لا مساس
وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرها مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس
أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم ومن الوحش النافر فى البرية ويقال أن قومه باق فيهم تلك الحالة إلى اليوم وقرىء
لا مساس كفجار وهو علم للمسة ولعل السر فى مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصة ما بينهما من مناسبة التضاد فانه لما
أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سببا لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سببا للحمى التى هى من أسباب
موت الاحياء (وإن لك موعدا) أى فى الآخرة (لن تخلفه) أى لن يخلفك الله ذلك الوعد بل ينجزه لك البتة
بعد ما عاقبك فى الدنيا وقرىء بكسر اللام والاظهر أنه من أخلفت الموعد أى وجدته خلفا وقرىء بالنون على حكاية
قوله عز وجل (وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا) أى ظللت مقيما على عبادته فحذفت اللام الأولى تخفيفا
وقرىء بكسر الظاء بنقل حركة اللام اليها (لنحرقنه) جواب قسم محذوف أى بالنار ويؤيده قراءة لنحرقنه من
الاحراق وقيل بالمبرد على أنه مبالغة فى حرق إذا برد بالمبرد ويعضده قراءة لنحرقنه (ثم لننسفنه) أى لنذرينه وقرىء
بضم السين (فى اليم) رمادا أو مبرودا كأنه هباء (نسفا) بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر ولقد فعل عليه السلام ذلك
كله حينئذ كما يشهد به الأمر بالنظر وإنما لم يصرح به تنبيها على كمال ظهوره واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين
(إنما إلهكم الله) استئناف مسوق لتحقيق الحق اثر ابطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكل أى إنما معبودكم
المستحق للعبادة الله (الذى لا إله) فى الوجود لشىء من الأشياء (إلا هو) وحده من غير أن يشاركه شىء من
الأشياء بوجه من الوجوه التى من جملتها أحكام الألوهية وقرىء الله لا إله إلا هو الرحمن رب العرش وقوله تعالى
(وسع كل شىء علما) أى وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم بدل من الصلة كأنه قيل إنما إلهكم الله الذى وسع
كل شىء علما لا غيره كائنا ما كان فيدخل فيه العجل دخولا أوليا وقرىء وسع بالتشديد فيكون انتصاب علما

على المفعولية لأنه على القراءة الأولى فاعل حقيقة وبنقل الفعل إلى التعدية إلى المفعولين صار الفاعل مفعولا أول كأنه قيل وسع علمه كل شيء وبه تم حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير أمر التوحيد حسبما نطقت به خاتمته وقوله تعالى (كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ) كلام مستأنف خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد الجميل بتنزيل أمثال مامر من أنباء الأمم السالفة وذلك إشارة إلى اقتصاص حديث موسى عليه السلام ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر مقدر أى نقص عليك (مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ) من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية قصا مثل ذلك القص المار والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين ومن فى قوله تعالى من أنباء فى حيز النصب اما على أنه مفعول نقص باعتبار مضمونه وإما على أنه متعلق بمحذوف هو صفة للمفعول كما فى قوله تعالى ومنا دون ذلك أى جمع دون ذلك والمعنى نقص عليك بعض أنباء ماقد سبق أو بعضا كائنا من أنباء ماقد سبق وقدمر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ وتأخيره عن عليك لمامر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أى مثل ذلك القص البديع الذى سمعته نقص عليك ماذكر من الانباء لاقصا ناقصا عنه تبصرة لك وتوفيرا لعلمك وتكثيرا لمعجزاتك وتذكيرا للمستبصرين من أمتك (وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا) أى كتابا منطويا على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقا بالتفكر والاعتبار وكلمة من متعلقة بآتيناك وتنكير ذكرا للتفخيم وتأخيره عن الجار والمجرور لما أن مرجع الافادة فى الجملة كون المؤتى من لدنه تعالى ذكرا عظيما وقرآنا كريما جامعا لكل كمال لا كون ذلك الذكر مؤتى من لدنه عز وجل مع مافيه من نوع طول بما بعده من الصفة فتقديمه يذهب برونق النظم الكريم (مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ) عن ذلك الذكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين وقيل عن الله عز وجل ومن اما شرطية أو موصولة وأياما كانت فالجملة صفة لذكرا (فَإِنَّهُ) أى المعرض عنه (يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا) أى عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنوبه وتسميتها وزرا اما لتشبيهها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح الحامل وينقض ظهره أو لأنها جزاء الوزر وهو الاثم والأول هو الانسب بماسيأتى من تسميتها حملا وقوله تعالى (خَالِدِينَ فِيهِ) أى فى الوزر أو فى احتماله المستمر حال من المستكن فى يحمل والجمع بالنظر إلى معنى من لما أن الخلود فى النار مما يتحقق حال اجتماع أهلها كما أن الافراد فيما سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر إلى لفظها (وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا) أى بئس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره حملا والمخصوص بالذم محذوف أى ساء حملا وزرهم واللام للبيان كما فى هيت لك كأنه لما قيل ساء قيل لمن يقال هذا فأجيب لهم وإعادة يوم القيامة لزيادة التقرير وتهويل الأمر (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ) بدل من يوم القيامة أو منصوب باضمار اذكر أو ظرف لمضمر قد حذف للايذان بضيق العبارة عن حصره وبيانه حسبما مر فى تفسير قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل وقوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا وقرىء ننفخ بالنون على اسناد النفخ الى الآمر به تعظيما له وبالياء المفتوحة على أن ضميره لله عز وجل أو لاسرافيل عليه السلام وان لم يجر ذكره لشهرته (وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ) أى يوم اذ ينفخ فى الصور وذكره صريحا مع تعين أن الحشر لايكون الا يومئذ للتهويل وقرىء ويحشر المجرمون (زُرْقًا) أى حال كونهم زرق العيون وانما جعلوا كذلك لان الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها الى العرب فان الروم الذين كانوا أعدى عدوهم زرق ولذلك قالوا فى صفة العدو أسود الكبد وأصهب السبال وأزرق العين أو عميا لان حدقة الاعمى تزرق وقوله تعالى (يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ) أى يخفضون أصواتهم ويخفونها لما يملأ صدورهم من الرعب والهول استئناف لبيان ماياتون ومايذرون حينئذ أو حال أخرى من المجرمين أى يقول بعضهم

لبعض بطريق المخافتة (إن لبثتم) أى ما لبثتم فى الدنيا (إلا عشرا) أى عشر ليال استقصار المدة لبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وأيقنوا أنهم استحقوها على إضاعتها فى قضاء الأوطار واتباع الشهوات أو فى القبر وهو الانسب بحالهم فانهم حين يشاهدون البعث الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحالات لايتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافا به وتحقيقا لسرعة وقوعه كأنهم قالوا قد بعثتم وما لبثتم فى القبر إلا مدة يسيرة والا خالهم أفظع من أن تمكنهم من الاشتغال بتذكر أيام النعمة والسرور واستقصارها والتأسف عليها (نحن أعلم بما يقولون) وهو مدة لبثهم (إذ يقول أمثلهم طريقة) أى أعدلهم رأيا أو عملا (إن لبثتم إلا يوما) ونسبة هذا القول إلى أمثلهم استرجاح منه تعالى له لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق بل لكونه أدل على شدة الهول (ويسئلونك عن الجبال) أى عن مآل أمرها وقد سأل عنه رجل من ثقيف وقيل مشركو مكة على طريق الاستهزاء (فقل ينسفها ربى نسفا) أى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها والفاء للمسارعة إلى إلزام السائلين (فيذرها) الضمير اما للجبال باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النسف وهى مقارها ومراكزها أى فيذر ما انبسط منها وساوى سطحه سطوح سائر اجزاء الأرض بعد نسف ما نتأ منها ونشز وإما للارض المدلول عليها بقرينة الحال لأنها الباقية بعد نسف الجبال وعلى التقديرين يذر الكل (قاعا صفصفا) لأن الجبال إذا سويت وجعل سطحها مساويا لسطوح سائر أجزاء الارض فقد جعل الكل سطحا واحدا والقاع قيل السهل وقيل المنكشف من الارض وقيل المستوى الصلب منها وقيل ما لا نبات فيه ولا بناء والصفصف الأرض المستوية الملساء كان أجزاءه صف واحد من كل جهة وانتصاب قاعا على الحالية من الضمير المنصوب أو هو مفعول ثان ليذر على تضمين معنى التصيير وصفصفا اما حال ثانية أو بدل من المفعول الثانى وقوله تعالى (لا ترى فيها) أى فى مقار الجبال أو فى الأرض على مامر من التفصيل (عوجا) بكسر العين أى اعوجاجا ما كأنه لغاية خفائه من قبيل ما فى المعانى أى لا تدركه ان تأملت بالمقاييس الهندسية (ولا أمتا) أى نتوءا يسيرا استئناف مبين لكيفية ماسبق من القاع الصفصف أو حال أخرى أو صفة لقاعا والخطاب لكل أحد ممن تتأتى منه الرؤية وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من طول ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم (يومئذ) أى يوم اذ نسفت الجبال على اضافة اليوم الى وقت النسف وهو ظرف لقوله تعالى (يتبعون الداعى) وقيل بدل من يوم القيامة وليس بذاك أى يتبع الناس داعى الله عز وجل الى المحشر وهو اسرافيل عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائما على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى الى عرض الرحمن فيقبلون من كل أوب الى صوبه (لا عوج له) لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه (وخشعت الأصوات للرحمن) أى خضعت لهيبته (فلا تسمع إلا همسا) أى صوتا خفيا ومنه الهميس لصوت أخفاف الابل وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها الى المحشر (يومئذ) أى يوم اذ يقع ما ذكر من الأمور الهائلة (لا تنفع الشفاعة) من الشفعاء أحدا (إلا من أذن له الرحمن) أن يشفع له (ورضى له قولا) أى ورضى لأجله قول الشافع فى شأنه أو رضى قوله لاجله وفى شأنه وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وان فرض صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين فالاستثناء كما ترى من أعم المفاعيل وأما كونه استثناء من الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع لغيره كما جوزوه فلا سبيل اليه لما أن حكم الشفاعة ممن لم يؤذن له أن لا يملكها ولا تصدر هى عنه أصلا كما فى قوله تعالى لا يملكون الشفاعة إلا

من اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله تعالى ولا يشفعون إلا لمن ارتضى فالاخبار عنهم بمجرد عدم نفعها للمشفوع له ربما يوهم امكان صدورها عمن لم يؤذن له مع اخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم وأما قوله تعالى ولا يقبل منها شفاعة فمعناه عدم الاذن فى الشفاعة لاعدم قبولها بعد وقوعها (يعلم ما بين أيديهم) أى ماتقدمهم من الأحوال وقيل من أمر الدنيا (وما خلفهم) ومابعدهم مما يستقبلونه وقيل من أمر الآخرة (ولا يحيطون به علما) أى لاتحيط علومهم بمعلوماته تعالى وقيل بذاته أى من حيث اتصافه بصفات الكمال التى من جملتها العلم الشامل وقيل الضمير لأحد الموصولين أولمجموعهما فانهم لايعلمون جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه (وعنت الوجوه للحى القيوم) أى ذلت وخضعت خضوع العناة أى الأسارى فى يد الملك القهار ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا ويؤيده قوله تعالى (وقد خاب من حمل ظلما) قال ابن عباس رضى الله عنهما خسر من أشرك بالله ولم يتب وهو استئناف لبيان مالأجله عنت وجوههم أو اعتراض كأنه قيل خابوا وخسروا وقيل حال من الوجوه ومن عبارة عنها مغنية عن ضميرها وقيل الوجوه على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من حمل منهم ظلما فقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات) الخ قسيم لقوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما لا لقوله تعالى وعنت الوجوه الخ كما أنه كذلك على الوجه الأول أى ومن يعمل بعض الصالحات أو بعضا من الصالحات على أحد الوجهين المذكورين فى تفسير قوله تعالى من أنباء ماقد سبق (وهو مؤمن) فان الايمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات (فلا يخاف ظلما) أى منع ثواب مستحق بموجب الوعد (ولا هضما) ولا كسرا منه بنقص أو لايخاف جزاء ظلم وهضم إذ لم يصدر عنه ظلم ولاهضم حتى يخافهما وقرىء فلايخف على النهى (وكذلك) عطف على كذلك نقص وذلك إشارة إلى انزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة وأهوالها أى مثل ذلك الانزال (أنزلناه) أى القرآن كله وإضماره من غير سبق ذكره للايذان بنباهة شأنه وكونه مركوزا فى العقول حاضرا فى الاذهان (قرآنا عربيا) ليفهمه العرب ويقفوا على مافيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجا عن طوق البشر نازلا من عند خلاق القوى والقدر (وصرفنا فيه من الوعيد) أى كررنا فيه بعض الوعيد أو بعضا من الوعيد حسبما أشير اليه آنفا (لعلهم يتقون) أى كى يتقوا الكفر والمعاصى بالفعل (أو يحدث لهم ذكرا) اتعاظا واعتبارا مؤديا بالآخرة إلى الاتقاء (فتعالى الله) استعظام له تعالى ولشؤنه التى يصرف عليها عباده من الأوامر والنواهى والوعد والوعيد وغير ذلك أى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله (الملك) النافذ أمره ونهيه الحقيق بأن يرجى وعده ويخشى وعيده (الحق) فى ملكوته وألوهيته لذاته أو الثابت فى ذاته وصفاته (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك) أى يتم (وحيه) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ألقى اليه جبريل عليهما السلام الوحى يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ فنهى عن ذلك اثر ذكر الانزال بطريق الاستطراد لما أن استقرار الألفاظ فى الأذهان تابع لاستقرار معانيها فيها وربما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع مابعدها وأمر باستفاضة العلم واستزادته منه تعالى فقيل (وقل) أى فى نفسك (رب زدنى علما) أى سل الله عزوجل زيادة العلم فانه الموصل إلى طلبتك دون الاستعجال وقيل انه نهى عن تبليغ ما كان مجملا قبل أن يأتى بيانه وليس بذاك فان تبليغ المجمل وتلاوته قبل البيان مما لاريب فى صحته ومشروعيته (ولقد عهدنا إلى آدم) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماسبق من تصريف الوعيد فى القرآن وبيان أن أساس بنى آدم على العصيان وعرقه راسخ فى النسيان مع مافيه من انجاز الموعود فى قوله تعالى كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق يقال عهد اليه الملك وعزم عليه وأوعز اليه وتقدم اليه اذا أمره

ووصاه والمعهود محذوف يدل عليه ما بعده واللام جواب قسم محذوف أى وأقسم أو وبالله أو وتالله لقد أمرناه ووصيناه (مِنْ قَبْلُ) أى من قبل هذا الزمان (فَنَسِيَ) أى العهد ولم يعتن به حتى غفل عنه أو تركه ترك المنسى عنه وقرىء فنسى أى نساه الشيطان (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) تصميم رأى وثبات قدم فى الأمور إذ لو كان كذلك لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغره وقد كان ذلك منه عليه السلام فى بدء أمره من قبل أن يجرب الأمور ويتولى حارها وقارها ويذوق شريها وأريها عن النبى عليه الصلاة والسلام لو وزنت أحلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما وقيل عزما على الذنب فانه أخطأ ولم يتعمد وقوله تعالى ولم نجد إن كان من الوجود العلمى فله عزما مفعولاه قدم الثانى على الأول لكونه ظرفا وإن كان من الوجود المقابل للعدم وهو الأنسب لأن مصب الفائدة هو المفعول وليس فى الاخبار بكون العزم المعدوم له مزيد مزية فله متعلق به قدم على مفعوله لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر أو بمحذوف هو حال من مفعوله المنكر كأنه قيل ولم نصادف له عزما وقوله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) شروع فى بيان المعهود وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه وإذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام أى واذكر وقت قولنا لهم وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة فى إيجاب ذكرها فان الوقت مشتمل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه فالأمر بذكره أمر بذكر تفاصيل ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل على أعيان الحوادث فاذا ذكر صارت الحوادث كأنها موجودة فى ذهن المخاطب بوجوداتها العينية أى اذكر ما وقع فى ذلك الوقت منا ومنه حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) قد سبق الكلام فيه مرارا (أَبَى) جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ عن الاخبار بعدم سجوده كأنه قيل ما باله لم يسجد فقيل أبى واستكبر ومفعول أبى محذوف أى أبى السجود كما فى قوله تعالى أبى أن يكون مع الساجدين أو غير منوى رأسا بتنزيله منزلة اللازم أى فعل الإباء وأظهره (فَقُلْنَا) عقيب ذلك اعتناء بنصحه (يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا) الذى رأيت ما فعل (عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا) أى لا يكونن سببا لاخراجكما (مِنَ الْجَنَّةِ) والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان إلى اخراجهما منها بالطريق البرهانى كما فى قولك لا أرينك ههنا والفاء لترتيب موجب النهى على عداوته لهما أو على الاخبار بها (فَتَشْقَىٰ) جواب للنهى وإسناد الشقاء اليه خاصة بعد تعليق الاخراج الموجب له بهما معا لأصالته فى الأمور واستلزام شقائه لشقائها مع ما فيه من مراعاة الفواصل وقيل المراد بالشقاء التعب فى تحصيل مبادى المعاش وذلك من وظائف الرجال (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ) تعليل لما يوجبه النهى فان اجتماع أسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادى البقاء فيها والجد فى الانتهاء عما يؤدى إلى الخروج عنها والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعما بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعا بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها ما لا يخفى إلى ما ذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحى لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التى حذره عنها ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى إليها على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى ما استثنى من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما وقد طوى ذكره ههنا اكتفاء بما ذكر فى موضع آخر واقتصر على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ومعنى أن لا تجوع فيها الخ أن لا يصيبه شىء من الأمور الأربعة أصلا فان الشبع والرى والكسوة والسكن قد تحصل بعد عروض اضدادها باعواز الطعام والشراب واللباس والمسكن وليس الأمر فيها كذلك بل كل ما وقع فيها شهوة وميل إلى شىء

من الأمور المذكورة تمتع به من غير أن يصل الى حد الضرورة ووجه إفراده عليه السلام بما ذكر مامر آنفا وفصل الظمأ عن الجوع فى الذكر مع تجانسهما وتقارنهما فى الذكر عادة وكذا حال العرى والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه بالاشارة إلى أن نفى كل واحد من تلك الأمور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال فى الجمع بين العرى والضحو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقرير بالتنبيه على أن نفى كل واحد من الأمور المذكورة مقصود بالذات مذكور بالاصالة لا أن نفى بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية لنفى بعض آخر كما عسى يتوهم لو جمع بين كل من المتجانسين وقرىء انك بالكسر والجمهور على الفتح بالعطف على أن لا تجوع وصحة وقوع الجملة المصدرة بأن المفتوحة اسما للمكسورة المشاركة لها فى إفادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبرا لها لما أن المحذور اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة لا اجتماع فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما فى حيزهما بخلاف مالو وقعت خبرا لها فان اتحاد المناط حينئذ مما لا ريب فيه بيانه أن كل واحدة من المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولا يخفى أن مرجع خبريتها ما فيهما من الحكم الإيجابى أو السلبى وأن مناط ذلك الحكم خبرها لا اسمها فدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها فى نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسما للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر وأما تحقيق ثبوتها فى نفسها فهو مدلول المفتوحة حتما فلم يلزم اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة قطعا وإنما لم يجوزوا أن يقال ان أن زيدا قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا إن عندى أن زيدا قائم للتجافى عن صورة الاجتماع والواو العاطفة وإن كانت نائبة عن المكسورة التى يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها فى افضاء معناها وإجراء أحكامها على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق لم يلزم من دخولها على المفتوحة اجتماع حرفى التحقيق أصلا فالمعنى ان لك عدم الجوع وعدم العرى وعدم الظمأ خلا أنه لم يقتصر على بيان أن الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحو مطلقا كما فعل مثله فى المعطوف عليه بل قصد بيان أن الثابت له عليه السلام تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدرى المحض أن المفيدة له كأنه قيل ان لك فيها عدم ظمأك على التحقيق (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَٰنُ) أى أنهى اليه وسوسته أو أسرها اليه (قَالَ) اما بدل من وسوس أو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ منه كأنه قيل فماذا قال فى وسوسته فقيل قال (يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ) أى شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلا سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكا لقوله تعالى الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ) أى لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه (فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا) قال ابن عباس رضى الله عنهما عريا عن النور الذى كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجهما (وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ) قد مر تفسيره فى سورة الأعراف (وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ) بما ذكر من أكل الشجرة (فَغَوَىٰ) ضل عن مطلوبه الذى هو الخلود أو عن المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو وقرىء فغوى من غوى الفصيل اذا اتخم من اللبن وفى وصفه عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم لها وزجر بليغ لأولاده عن أمثالها (ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ) أى اصطفاه وقربه اليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من اجتبى الشىء بمعنى جباه لنفسه أى جمعه كقولك اجتمعته أو من جبى الى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فاجتليتها وأصل الكلمة الجمع وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام (فَتَابَ عَلَيْهِ) أى قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلين ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وافراده عليه السلام بالاجتباء وقبول

التوبة قدس وجهه (وهدى) أى إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بأنه تعالى قبل توبته وهداه كأنه قيل فماذا أمره تعالى بعد ذلك فقيل قال له ولزوجته (اهبطا منها جميعاً) أى انزلا من الجنة إلى الأرض وقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) حال من ضمير المخاطب فى اهبطا والجمع لما أنهما أصل الذرية ومنشأ الأولاد أى متعادين فى أمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب (فإما يأتينكم منى هدى) من كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) وضع الظاهر موضع المضمر مع الاضافة الى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى ايجاب اتباعه (فلا يضل) فى الدنيا (ولا يشقى) فى الآخرة (ومن أعرض عن ذكرى) أى عن الهدى الذاكر لى والداعى الى (فإن له) فى الدنيا (معيشة ضنكا) ضيقا مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث وقرىء ضنكى كسكرى وذلك لأن مجامع همته ومطامح نظره مقصورة على أعراض الدنيا وهو متهالك على ازديادها وخائف من انتقاصها بخلاف المؤمن الطالب للآخرة مع أنه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر ويوسع ببركة الايمان كما قال تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وقال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض وقال تعالى ولو أن أهل الكتاب آمنوا الى قوله تعالى لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقيل هو الضريع والزقوم فى النار وقيل عذاب القبر (ونحشره) وقرىء بسكون الهاء على لفظ الوقف وبالجزم عطفا على محل فان له معيشة ضنكا لأنه جواب الشرط (يوم القيامة أعمى) فاقد البصر كما فى قوله تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما لا أعمى عن الحجة كما قيل (قال) استئناف كما مر (رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) أى فى الدنيا وقرىء أعمى بالامالة فى الموضعين وفى الأول فقط لكونه جديرا بالتغيير لكونه رأس الآية ومحل الوقف (قال كذلك) أى مثل ذلك فعلت أنت ثم فسره بقوله تعالى (أتتك آياتنا) واضحة نيرة بحيث لا تخفى على أحد (فنسيتها) أى عميت عنها وتركتها ترك المنسى الذى لا يذكر أصلا (وكذلك) ومثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا (اليوم تنسى) تترك فى العمى والعذاب جزاء وفاقا لكن لا أبدا كما قيل بل الى ماشاء الله ثم يزيله عنه فيرى أهوال القيامة ويشاهد مقعده من النار ويكون ذلك له عذابا فوق العذاب وكذا البكم والصمم يزيلهما الله تعالى عنهم أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا (وكذلك) أى مثل ذلك الجزاء الموافق للجناية (نجزى من أسرف) بالانهماك فى الشهوات (ولم يؤمن بآيات ربه) بل كذبها وأعرض عنها (ولعذاب الآخرة) على الاطلاق أو عذاب النار (أشد وأبقى) أى من ضنك العيش أو منه ومن الحشر على العمى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من قوله تعالى وكذلك نجزى الآية والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام واستعمال الهداية باللام اما لتنزيلها منزلة اللام فلا حاجة الى المفعول أو لأنها بمعنى التبيين والمفعول محذوف وأياما كان فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها وضمير لهم للمشركين المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى أغفلوا فلم يفعل الهداية لهم أو فلم يبين لهم مآل أمرهم كثرة اهلاكنا للقرون الأولى وقد مر فى قوله عز وجل أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها الآية وقيل الفاعل الضمير العائد إلى الله عز وجل ويؤيده القراءة بنون العظمة وقوله تعالى كم أهلكنا الخ اما معلق للفعل ساد مسد مفعوله أو مفسر لمفعوله المحذوف هكذا قيل والأوجه أن لا يلاحظ له مفعول كأنه قيل أفلم يفعل الله تعالى لهم الهداية ثم قيل بطريق الالتفات كم أهلكنا الخ بيانا لتلك الهداية ومن القرون فى محل النصب على أنه وصف لمميز كم أى كم قرنا كائنا من القرون وقوله تعالى (يمشون فى مساكنهم) حال من القرون أو من مفعول أهلكنا أى أهلكناهم وهم فى حال أمن وتقلب فى ديارهم أو من الضمير

فى لهم مؤكد للانكار والعامل يهدوا المعنى أفلم يهدلهم اهلاكنا للقرون السالفة من أصحاب الحجر وثمود وقريات قوم لوط حال كونهم ماشين فى مساكنهم إذ سافروا إلى الشام مشاهدين لآثار هلاكهم مع أن ذلك مما يوجب أن يهتدوا إلى الحق فيعتبروا لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك وقرىء يمشون على البناء للمفعول أى يمكنون من المشى (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ) تعليل للانكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم وذلك إشارة إلى مضمون قوله تعالى كم أهلكنا الخ وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلته وعلو شأنه فى بابه (لَآيَٰتٍ) كثيرة عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحق فاذن هو هاد وأيما هاد ويجوز أن تكون كلمة فى تجريدية فافهم (لِّأُولِى النُّهَىٰ) لذوى العقول الناهية عن القبائح التى من أقبحها مايتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله تعالى والتعامى عنها وغير ذلك من فنون المعاصى وفيه دلالة على أن مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول وقوله تعالى (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) كلام مستأنف سيق لبيان حكمة عدم وقوع مايشعر به قوله تعالى أفلم يهد لهم الآية من أن يصيبهم مثل ما أصاب القرون المهلكة أى ولولا الكلمة السابقة وهى العدة بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه (لَكَانَ) عقاب جناياتهم (لِزَامًا) أى لازما لهؤلاء الكفرة بحيث لايتأخر عن جناياتهم ساعة لزوم مانزل بأولئك الغابرين وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميره عليه السلام تلويح بأن ذلك التأخير لتشريفه عليه السلام كاينبىء عنه قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم واللزام إما مصدر لازم وصف به مبالغة وإما فعال بمعنى مفعل جعل آلة اللزوم لفرط لزومه كما يقال لزاز خصم (وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) عطف على كلمة أى ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم وهو يوم القيامة ويوم بدر لما تأخر عذابهم أصلا وفصله عما عطف عليه للمسارعة إلى بيان جواب لولا وللاشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآى الكريمة وقد جوز عطفه على المستكن فى كان العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد أى لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كدأب عاد وثمود وأضرابهم ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) أى إذا كان الأمر على ماذكر من أن تأخير عذابهم ليس باهمال بل امهال وأنه لازم لهم البتة فاصبر على مايقولون من كلمات الكفر فان علمه عليه السلام بأنهم معذبون لامحالة مما يسليه ويحمله على الصبر (وَسَبِّحْ) ملتبسا (بِحَمْدِ رَبِّكَ) أى صل وأنت حامد لربك الذى يبلغك إلى كمالك على هدايته وتوفيقه أو نزهه تعالى عما ينسبونه اليه مما لايليق بشأنه الرفيع حامدا له على ماميزك بالهدى معترفا بأنه مولى النعم كلها والأول هو الأظهر المناسب لقوله تعالى (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ) الخ فان توقيت التنزيه غير معهود فالمراد صلاة الفجر (وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) يعنى صلاتى الظهر والعصر لأنهما قبل غروبها بعد زوالها وجمعهما لمناسبة قوله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل صلاة العصر (وَمِنْ ءَانَاىِٕ الَّيْلِ) أى من ساعاته جمع انى بالكسر والقصر وأناء بالفتح والمد (فَسَبِّحْ) أى فصل والمراد به المغرب والعشاء وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل فان القلب فيهما أجمع والنفس إلى الاستراحة أميل فتكون العبادة فيهما أشق ولذلك قال تعالى إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا (وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) تكرير لصلاة الفجر والمغرب إيذانا باختصاصهما بمزيد مزية ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الالباس كقول من قال ظهراهما مثل ظهور الترسين أو أمر بصلاة الظهر فانه نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الأخير وجمعه باعتبار النصفين أو لأن النهار جنس أو أمر بالتطوع فى أجزاء النهار (لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ) متعلق بسبح أى سبح فى هذه الأوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ماترضى به نفسك وقرىء ترضى على صيغة البناء للمفعول من أرضى أى يرضيك ربك (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) أى لاتطل نظرهما بطريق الرغبة والميل (إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ) من زخارف

الدنيا وقوله تعالى (أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ) أى أصنافا من الكفرة مفعول متعنا قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به أو هو حال من الضمير والمفعول منهم أى إلى الذى متعنا به وهو أصناف وأنواع بعضهم على أنه معنى من التبعيضية أو بعضا منهم على حذف الموصوف كما مر مرارا (زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا) منصوب بمحذوف يدل عليه متعنا أى أعطينا أو به على تضمين معناه أو بالبدلية من محل به أو من أزواجا بتقدير مضاف أو بدونه أو بالذم وهى الزينة والبهجة وقرىء زهرة بفتح الهاء وهى لغة كالجهرة فى الجهرة أو جمع زاهر وصف لهم بأنهم زاهر والدنيا لتنعمهم وبهاء زيهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) متعلق بمتعنا جىء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا اثر اظهار بهجته حالا أى لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه (وَرِزْقُ رَبِّكَ) أى ما ادخر لك فى الآخرة أو ما رزقك فى الدنيا من النبوة والهدى (خَيْرٌ) مما منحهم فى الدنيا لأنه مع كونه فى نفسه أجل ما يتنافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة بخلاف ما منحوه (وَأَبْقَىٰ) فانه لا يكاد ينقطع نفسه أو أثره أبدا كما عليه زهرة الدنيا (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ) أمر عليه السلام بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة بعدما أمر هو بها ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا الفت أرباب الثروة (وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) وثابر عليها غير مشتغل بأمر المعاش (لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا) أى لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك (نَّحْنُ نَرْزُقُكَ) وإياهم ففرغ بالك بأمر الآخرة (وَالْعَٰقِبَةُ) الحميدة (لِلتَّقْوَىٰ) أى لأهل التقوى على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه تنبيها على أن ملاك الأمر هو التقوى روى أنه عليه السلام كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِ) حكاية لبعض أقاويلهم الباطلة التى أمر عليه السلام بالصبر عليها أى هلا يأتينا بآية تدل على صدقه فى دعوى النبوة أو بآية مما اقترحوها بلغوا من المكابرة والعناد إلى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء وقوله تعالى (أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ) أى التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية رد من جهته عز وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها من انكار اتيان الآية باتيان القرآن الكريم الذى هو أم الآيات وأس المعجزات وأعظمها وأبقاها لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعى النبوة بنوع من الأمور الخارقة للعادات أى أمر كان ولا ريب فى أن العلم أجل الأمور وأعلاها إذ هو أصل الأعمال ومبدأ الأفعال ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأولين والآخرين على يد أمى لم يمارس شيئا من العلوم ولم يدارس أحدا من أهلها أصلا فأى معجزة تراد بعد وروده وأى آية ترام مع وجوده وفى ايراده بعنوان كونه بينة لما فى الصحف الأولى من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية أى شاهدا بحقية ما فيها من العقائد الحقة وأصول الأحكام التى أجمعت عليها كافة الرسل وبصحة ما تنطق به من أنباء الأمم من حيث أنه غنى باعجازه عما يشهد بحقيته حقيق باثبات حقية غيره ما لا يخفى من تنويه شأنه وإنارة برهانه ومزيد تقرير وتحقيق لاتيانه وإسناد الاتيان اليه مع جعلهم إياه مأتيا به للتنبيه على أصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة والهمزة لإنكار الوقوع والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل ألم يأتهم سائر الآيات ولم تأتهم خاصة بينة ما فى الصحف الأولى تقريرا لإتيانه وإيذانا بأنه من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم انكاره اصلا وإن اجترؤا على انكار سائر الآيات مكابرة وعنادا وقرىء أولم يأتهم بالياء التحتانية وقرىء الصحف بالسكون تخفيفا وقوله تعالى (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ) إلى آخر الآية جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها من كون القرآن آية بينة لا يمكن انكارها ببيان أنهم يعترفون بها يوم القيامة والمعنى لو أنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب مستأصل (مِّن قَبْلِهِ) متعلق بأهلكنا أو بمحذوف هو صفة لعذاب أى بعذاب كائن من قبل اتيان

البينة أو من قبل محمد عليه الصلاة والسلام (لقالوا) أى يوم القيامة (ربنا لولا أرسلت إلينا) فى الدنيا (رسولا) مع كتاب (فنتبع آياتك) التى جاءنا بها (من قبل أن نذل) بالعذاب فى الدنيا (ونخزى) بدخول النار اليوم ولكنا لم نهلكهم قبل اتيانها فانقطعت معذرتهم فعند ذلك قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء (قل) لأولئك الكفرة المتمردين (كل) أى كل واحد منا ومنكم (متربص) منتظر لما يؤول اليه أمرنا وأمركم (فتربصوا) وقرىء فتمتعوا (فستعلمون) عن قريب (من أصحاب الصراط السوى) أى المستقيم وقرىء السواء أى الوسط الجيد وقرىء السوء والسوءى والسوى تصغير السوء (ومن اهتدى) من الضلالة ومن فى الموضعين استفهامية محلها الرفع بالابتداء خبرها ما بعدها والجملة سادة سد مفعولى العلم أو مفعوله ويجوز كون الثانية موصولة بخلاف الأولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط وقيل العائد فى الأولى محذوف والتقدير من هم أصحاب الصراط. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار وقال لا يقرأ أهل الجنة من القرآن الا سورة طه ويس.

سورة الأنبياء

(مكية وهى مائة واثنتا عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقترب للناس حسابهم) مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لماقبلها من الخاتمة الشريفة غنية عن البيان قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالناس المشركون وهو الذى يفصح عنه ما بعده والمراد باقتراب حسابهم اقترابه فى ضمن اقتراب الساعة واسناد الاقتراب اليه لا إلى الساعة مع استتباعها له ولسائر ما فيها من الأحوال والاهوال الفظيعة لانسياق الكلام إلى بيان غفلتهم عنه واعراضهم عما يذكرهم ذلك واللام متعلقة بالفعل وتقديمها على الفاعل للمسارعة إلى ادخال الروعة فان نسبة الاقتراب اليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب كما أن تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح فى قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الأرض لتعجيل المسرة لما أن بيان كون الخلق لأجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة فيما خلق لهم وشوقا اليه وجعلها تأكيدا للاضافة على أن الأصل المتعارف فيما بين الأوساط اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم مع أنه تعسف تام بمعزل عما يقتضيه المقام وإنما الذى يستدعيه حسن النظام ما قدمناه والمعنى دنا منهم حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب وفى اسناد الاقتراب المنبيء عن التوجه نحوهم إلى الحساب مع امكان العكس بأن يعتبر التوجه والاقبال من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويل أمره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شىء مقبل عليهم لا يزال يطلبهم ويصيبهم لا محالة ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوه منهم بعد بعده عنهم فانه فى كل ساعة من ساعات الزمان أقرب اليهم منه فى الساعة السابقة هذا وأما الاعتذار بأن قربه بالاضافة إلى مامضى من الزمان أو بالنسبة إلى الله عز وجل أو باعتبار أن كل آت قريب فلا تعلق له بما نحن فيه من الاقتراب المستفاد من صيغة الماضى ولا حاجة اليه فى تحقيق أصل معناه نعم قد يفهم منه عرفا كونه قريبا فى نفسه أيضا فيصار حينئذ إلى التوجيه بالوجه الأول دون الأخيرين أما الثانى فلا سبيل إلى اعتباره ههنا لان قربه بالنسبة اليه تعالى مما لا يتصور فيه التجدد والتفاوت حتما وإنما اعتباره فى قوله تعالى لعل الساعة قريب ونظائره مما لادلالة فيه على

الحدوث وأما الثالث فلا دلالة فيه على القرب حقيقة ولو بالنسبة إلى شيء آخر (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) أي في غفلة تامة منه ساهون عنه بالمرة لأنهم غير مبالين به مع اعترافهم باتيانه بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولهم أن الأعمال لابد لها من الجزاء (مُعْرِضُونَ) أي عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة وهما خبران للضمير وحيث كانت الغفلة أمرا جبليا لهم جعل الخبر الأول ظرفا منبئا عن الاستقرار بخلاف الاعراض والجملة حال من الناس وقد جوز كون الظرف حالا من المستكن في معرضون (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ) من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم ذلك أكمل تذكير وتنبههم عن الغفلة أتم تنبيه كأنها نفس الذكر ومن في قوله تعالى (مِنْ رَبِّهِمْ) لابتداء الغاية مجازا متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر وأياما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وكمال شناعة ما فعلوا به والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع (مُحْدَثٍ) بالجر صفة لذكر وقرىء بالرفع حملا على محله أي محدث تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة وقوله تعالى (إِلَّا اسْتَمَعُوهُ) استثناء مفرغ محله النصب على أنه حال من مفعول يأتيهم باضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور وقوله تعالى (وَهُمْ يَلْعَبُونَ) حال من فاعل استمعوه وقوله تعالى (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) اما حال أخرى منه أو من واو يلعبون والمعنى ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث في حال من الأحوال الا حال استماعهم إياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه أو لاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهي غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر في الأمور والتفكر في العواقب وقرىء لاهية بالرفع على أنه خبر بعد خبر (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى) كلام مستأنف مسوق لبيان جناية خاصة اثر حكاية جناياتهم المعتادة والنجوى اسم من التناجي ومعنى اسرارها مع أنها لا تكون الاسرا أنهم بالغوا في اخفائها أو أسروا نفس التناجي بحيث لم يشعر أحد بأنهم متناجون وقوله تعالى (الَّذِينَ ظَلَمُوا) بدل من واو أسروا منبيء عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما أسروا به أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه اهتماما به والمعنى هم أسروا النجوى فوضع الموصول موضع الضمير تسجيلا على فعلهم بكونه ظلما أو منصوب على الذم وقوله تعالى (هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) الخ في حيز النصب على أنه مفعول لقول مضمر هو جواب عن سؤال نشأ عما قبله كأنه قيل ماذا قالوا في نجواهم فقيل قالوا هل هذا الخ أو بدل من أسروا أو معطوف عليه أو على أنه بدل من النجوى أي أسروا هذا الحديث وهل بمعنى النفي والهمزة في قوله تعالى (أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ) للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) حال من فاعل تأتون مقررة للانكار ومؤكدة للاستبعاد والمعنى ما هذا الا بشر مثلكم أي من جنسكم وما أتى به سحر أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الاذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر قالوه بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون الا ملكا وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر وزل عنهم أن ارسال البشر إلى عامة البشر هو الذي تقتضيه الحكمة التشريعية قاتلهم الله أنى يؤفكون وإنما أسروا ذلك لأنه كان على طريق توثيق العهد وترتيب مبادي الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد في هدم أمر النبوة واطفاء نور الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) حكاية من جهته تعالى لما قاله عليه السلام بعدما أوحى اليه أحوالهم وأقوالهم بيانا لظهور أمرهم وانكشاف سرهم وايثار القول المنتظم للسر والجهر على السر لاثبات علمه تعالى بالسر على النهج البرهاني مع ما فيه من الايذان بأن علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعا كما في علوم الخلق وقرىء قل ربي الخ وقوله تعالى في السماء والأرض متعلق بمحذوف وقع حالا من القول أي كائنا في السماء والأرض وقوله تعالى (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات التي من جملتها ما أسروه من النجوى فيجازيهم

بأقوالهم وأفعالهم اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ماقبله متضمن للوعيد (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) اضراب من جهته تعالى وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية قول آخر مضطرب فى مسالك البطلان أى لم يقتصروا على أن يقولوا فى حقه عليه السلام هل هذا إلا بشر وفى حق ماظهر على يده من القرآن الكريم إنه سحر بل قالوا تخاليط الأحلام ثم أضربوا عنه فقالوا (بَلِ افْتَرَاهُ) من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل ثم قالوا (بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) وما أتى به شعر يخيل إلى السامع معانى لاحقيقة لها وهكذا شأن المبطل المحجوج متحير لايزال يتردد بين باطل وأبطل ويتذبذب بين فاسد وأفسد فالاضراب الأول كما ترى من جهته تعالى والثانى والثالث من قبلهم وقد قيل الكل من قبلهم حيث أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ثم إلى أنه كلام مفترى ثم إلى أنه قول شاعر ولاريب فى أنه كان ينبغى حينئذ أن يقال قالوا بل أضغاث أحلام والاعتذار بأن بل قالوا مقول لقالوا المضمر قبل قوله تعالى هل هذا إلا بشر الخ كأنه قيل وأسروا النجوى قالوا هل هذا إلى قوله بل أضغاث أحلام وإنما صرح بقالوا بعد بل لبعد العهد مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله (فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ) جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه قيل وإن لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من الله تعالى فليأتنا بآية (كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) أى مثل الآية التى أرسل بها الأولون كاليد والعصا ونظائرهما حتى نؤمن به فما موصولة ومحل الكاف الجر على أنها صفة لآية ويجوز أن تكون مصدرية فالكاف منصوبة على أنها مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر محذوف أى فليأتنا بآية اتيانا كائنا مثل إرسال الأولين بها وصحة التشبيه من حيث ان الاتيان بالآية من فروع الارسال بها أى مثل اتيان مترتب على الارسال ويجوز أن يحمل النظم الكريم على أنه أريد كل واحد من الاتيان والارسال فى كل واحد من طرفى التشبيه لكنه ترك فى جانب المشبه ذكر الارسال وفى جانب المشبه به ذكر الاتيان اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى الموطن الآخر حسبما مر فى آخر سورة يونس عليه السلام (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ) كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما ينبئ عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمنى بالايمان كما أشير إليه وبيان أنهم فى اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بظلفه وأن فى ترك الاجابة إليه ابقاء عليهم كيف لا ولو أعطوا مااقترحوا مع عدم إيمانهم قطعاً لوجب استئصالهم لجريان سنة الله عزوجل فى الأمم السالفة على أن المقترحين إذا أعطوا مااقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لامحالة وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى أن هذه الأمة لايعذبون بعذاب الاستئصال فقوله من قرية أى من أهل قرية فى محل الرفع على الفاعلية ومن مزيدة لتأكيد العموم وقوله تعالى (أَهْلَكْنَاهَا) أى باهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجىء مااقترحوه من الآيات صفة لقرية والهمزة فى قوله تعالى (أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) لانكار الوقوع والفاء للعطف إما على مقدر دخلته الهمزة فأفادت انكار وقوع إيمانهم ونفيه عقيب عدم إيمان الأولين فالمعنى أنه لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند اعطاء مااقترحوه من الآيات أهم لم يؤمنوا فهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ماسألوا وأعطوا مااقترحوا مع كونهم أعتى منهم وأطغى وإما على ما آمنت على أن الفاء متقدمة على الهمزة فى الاعتبار مفيدة لترتيب انكار وقوع إيمانهم على عدم إيمان الأولين وإنما قدمت عليها الهمزة لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وقوله عزوجل (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا) جواب لقولهم هل هذا إلا بشر الخ متضمن لرد مادسوا تحت قولهم كما أرسل الأولون من التعريض بعدم كونه عليه السلام مثل أولئك الرسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين ولذلك قدم عليه جواب قولهم فليأتنا بآية ولأنهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلابد من المسارعة إلى رده وابطاله كما مر فى تفسير قوله تعالى قال إنما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين وقوله تعالى ماننزل الملائكة إلا بالحق وماكانوا إذاً منظرين ولأن فى هذا الجواب نوع بسط يخل

تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم والحق أن ما اتخذوه سببا للتكذيب موجب للتصديق فى الحقيقة لأن مقتضى الحكمة أن يرسل إلى البشر البشر وإلى الملك الملك حسبما ينطق به قوله تعالى قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا فان عامة البشر بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية لتوقفها على التناسب بين المفيض والمستفيض فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وإنما الذى تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك منهم إلى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا إلى جانب آخر وقوله تعالى (نوحِي إليهِمْ) استئناف مبين لكيفية الارسال وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة وحذف المفعول لعدم القصد إلى خصوصه والمعنى وما أرسلنا إلى الأمم قبل إرسالك إلى أمتك إلا رجالا مخصوصين من أفراد الجنس مستأهلين للاصطفاء والارسال نوحى اليهم بواسطة الملك ما نوحى من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والاخبار كما نوحى اليك من غير فرق بينهما فى حقيقة الوحى وحقية مدلوله حسبما يحكيه قوله تعالى إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين إلى قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما كما لا فرق بينك وبينهم فى البشرية فما لهم لا يفهمون أنك لست بدعا من الرسل وأن ما أوحى اليك ليس مخالفا لما أوحى اليهم فيقولون ما يقولون وقرىء يوحى اليهم بالياء على صيغة المبنى للمفعول جريا على سنن الكبرياء وإيذانا بتعين الفاعل وقوله تعالى (فسئلوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمونَ) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير اثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه الحقيق بالخطاب فى أمثال تلك الحقائق الأنيقة وأما الوقوف عليها بالاستخبار من الغير فهو من وظائف العوام والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى ان كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أيها الجهلة أهل الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلوات لتزول شبهتكم أمروا بذلك لأن اخبار الجم الغفير يوجب العلم لا سيما هم كانوا يشايعون المشركين فى عداوته عليه السلام ويشاورونهم فى أمره عليه السلام ففيه من الدلالة على كمال وضوح الأمر وقوة شأن النبى عليه السلام ما لا يخفى (وَما جعلناهُمْ جسدا) بيان لكون الرسل عليهم السلام أسوة لسائر أفراد الجنس فى أحكام الطبيعة البشرية اثر بيان كونهم أسوة لهم فى نفس البشرية والجسد جسم الانسان والجن والملائكة ونصبه إما على أنه مفعول ثان للجعل لكن لا بمعنى جعله جسدا بعد أن لم يكن كذلك كما هو المشهور من معنى التصيير بل بمعنى جعله كذلك ابتداء على طريقة قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل كما مر فى قوله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة واما حال من الضمير والجعل ابداعى وافراده لارادة الجنس المنتظم للكثير أيضا وقيل بتقدير المضاف اى ذوى جسد وقوله تعالى (لا يأكلونَ الطعامَ) صفة له أى وما جعلناهم جسدا مستغنيا عن الأكل والشرب بل محتاجا إلى ذلك لتحصيل بدل ما يتحلل منه (وَما كانوا خالدينَ) لأن مآل التحلل هو الفناء لا محالة وفى إيثار ما كانوا على ما جعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود مقتضى جبلتهم التى أشير اليها بقوله تعالى وما جعلناهم الخ لا بالجعل المستأنف والمراد بالخلود اما المكث المديد كما هو شأن الملائكة أو الأبدية وهم معتقدون أنهم لا يموتون والمعنى جعلناهم أجسادا متغذية صائرة إلى الموت بالآخرة على حسب آجالهم لا ملائكة ولا أجسادا مستغنية عن الأغذية مصونة عن التحلل كالملائكة فلم يكن لها خلود كخلودهم فالجملة مقررة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم السلام بشرا لا ملكا مع ما فى ذلك من الرد على قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام وقوله تعالى (ثم صدقناهُمُ الوعدَ) عطف على ما يفهم من حكاية وحيه تعالى اليهم على الاستمرار التجددي كأنه قيل أوحينا اليهم ما أوحينا ثم صدقناهم فى الوعد الذى وعدناهم فى تضاعيف الوحى

باهلاك أعدائهم (فأنجيناهم ومن نشاء) من المؤمنين وغيرهم ممن تستدعى الحكمة ابقاءه كمن سيؤمن هو أو بعض فروعه بالآخرة وهو السر فى حماية العرب من عذاب الاستئصال (وأهلكنا المسرفين) أى المجاوزين للحدود فى الكفر والمعاصى (لقد أنزلنا إليكم) كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن العظيم الذى ذكر فى صدر السورة الكريمة اعراض الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به وتسميتهم تارة سحرا وتارة أضغاث أحلام وأخرى مفترى وشعرا وبيان علو رتبته اثر تحقيق رسالته صلى الله عليه وسلم ببيان أنه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام قد صدر بالتوكيد القسمى اظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وإيذانا بكون المخاطبين فى أقصى مراتب النكير أى والله لقد أنزلنا اليكم يامعشر قريش (كتابا) عظيم الشأن نير البرهان وقوله تعالى (فيه ذكركم) صفة لكتابا مؤكدة لما أفاده التنكير التفخيمى من كونه جليل المقدار بأنه جميل الآثار مستجلب لهم منافع جليلة أى فيه شرفكم وصيتكم كقوله تعالى وإنه لذكر لك ولقومك وقيل ماتحتاجون اليه فى أمور دينكم ودنياكم وقيل فيه ماتطلبون به حسن الذكر من مكارم الاخلاق وقيل فيه موعظتكم وهو الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه فان قوله تعالى (أفلا تعقلون) انكار توبيخى فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الأمر كذلك أو لا تعقلون شيأ من الأشياء التى من جملتها ماذكر وقوله تعالى (وكم قصمنا من قرية) نوع تفصيل لاجمال قوله تعالى وأهلكنا المسرفين وبيان لكيفية أهلاكهم وسببه وتنبيه على كثرتهم وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها النصب على أنها مفعول لقصمنا ومن قرية تمييز وفى لفظ القصم الذى هو عبارة عن الكسر بابانة أجزاء المكسور وإزالة تأليفها بالكلية من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط مالايخفى وقوله تعالى (كانت ظالمة) فى محل الجر على أنها صفة لقرية بتقدير مضاف ينبىء عنه الضمير الآتى أى وكثيرا قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها كدأبكم (وأنشأنا بعدها) أى بعد اهلاكها (قوما آخرين) أى ليسوا منهم نسبا ولا دينا ففيه تنبيه على استئصال الأولين وقطع دابرهم بالكلية وهو السر فى تقديم حكاية انشاء هؤلاء على حكاية مبادى اهلاك أولئك بقوله تعالى (فلما أحسوا بأسنا) أى أدركوا عذابنا الشديد ادراكا تاما كأنه ادراك المشاهد المحسوس (إذا هم منها يركضون) يهربون مسرعين راكضين دوابهم أو مشبهين بهم فى فرط الاسراع (لا تركضوا) أى قيل لهم بلسان الحال أو بلسان المقال من الملك أو ممن ثمة من المؤمنين بطريق الاستهزاء والتوبيخ لاتركضوا (وارجعوا إلى ما أترفتم فيه) من التنعم والتلذذ والاتراف ابطار النعمة (ومساكنكم) التى كنتم تفتخرون بها (لعلكم تسئلون) تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات والنوازل أو تتفقدون إذا رئيت مساكنكم خالية وتسألون أين أصحابها أو يسألكم الوافدون نوالكم على أنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياء أو بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم (قالوا) لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب (يا ويلنا) أى هلاكنا (إنا كنا ظالمين) أى مستوجبين للعذاب وهذا اعتراف منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندم عليه حين لم ينفعهم ذلك (فما زالت تلك دعواهم) أى فما زالوا يرددون تلك الكلمة وتسميتها دعوى أى دعوة لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلا ياويل تعال فهذا أوانك (حتى جعلناهم حصيدا) أى مثل الحصيد وهو المحصود من الزرع والنبت ولذلك لم يجمع (خامدين) أى ميتين من خمدت النار إذا طفئت وهو مع حصيدا فى حيز المفعول الثانى للجعل كقولك جعلته حلوا حامضا والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو حال من الضمير المنصوب فى جعلناهم أو من المستكن فى حصيد أو صفة لحصيد لتعدده معنى لأنه فى حكم جعلناهم أمثال حصيد (وما خلقنا

السماءَ والأرضَ) اشارة اجمالية إلى أن تكوين العالم وابداع بنى آدم مؤسس على قواعد الحكم البالغة المستتبعة للغايات الجليلة وتنبيه على أن ماحكى من العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى من مقتضيات تلك الحكم ومتفرعاتها حسب اقتضاء أعمالهم اياه وأن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوبا مثل ذنوبهم أى ماخلقناهما (وَما بينهُما) من المخلوقات التى لاتحصى أجناسها وأفرادها ولاتحصر أنواعها وآحادها على هذا النمط البديع والأسلوب المنيع خالية عن الحكم والمصالح وإنما عبر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل (لـٰعِبين) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة بتصويره بصورة مالايرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه سبحانه بل إنما خلقناهما ومابينهما لتكون مبدأ لوجود الانسان وسببا لمعاشه ودليلا يقوده إلى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى بواسطة طاعتنا وعبادتنا كما ينطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى (لو أردْنا أنْ نتخذَ لهْواً) استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو أى لو أردنا أن نتخذ مايتلهى به ويلعب (لاتخذْناهُ مِن لدُنّا) أى من جهة قدرتنا أو من عندنا مما يليق بشأننا من المجردات لامن الأجسام المرفوعة والاجرام الموضوعة كديدن الجبابرة فى رفع العروش وتحسينها وتسوية الفروش وتزيينها لكن يستحيل ارادتنا له لمنافاته الحكمة فيستحيل اتخاذنا له قطعا وقوله تعالى (إنْ كُنّا فٰعِلينَ) جوابه محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه أى إن كنا فاعلين لاتخذناه وقيل ان نافية أى ما كنا فاعلين أى لاتخاذ اللهو لعدم إرادتنا إياه فيكون بيانا لانتفاء التالى لانتفاء المقدم أو لإرادة اتخاذه فيكون بيانا لانتفاء المقدم المستلزم لانتفاء التالى وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى ولايخفى بعده (بلْ نقذِفُ بالحقّ على البٰطلِ) اضراب عن اتخاذ اللهو بل عن إرادته كأنه قيل لكنا لانريده بل شأننا أن نغلب الحق الذى من جملته الجد على الباطل الذى من قبيله اللهو وتخصيص شأنه هذا من بين سائر شؤنه تعالى بالذكر للتخلص إلى ماسيأتى من الوعيد (فيدمَغُهُ) أى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية وقد استعير لايراد الحق على الباطل القذف الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة ولمحقه للباطل الدمغ الذى هو كسر الشىء الرخو الاجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدى إلى زهوق الروح تصويرا له بذلك وقرىء فيدمغه بالنصب وهو ضعيف وقرىء فيدمغه بضم الميم (فإذا هوَ زاهِقٌ) أى ذاهب بالكلية وفى إذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان مالايخفى فكأنه زاهق من الاصل (ولكمُ الويْلُ مما تصِفُونَ) وعيد لقريش بأن لهم أيضا مثل مالأولئك من العذاب والعقاب ومن تعليلية متعلقة بالاستقرار الذى تعلق به الخبر أو بمحذوف هو حال من الويل أو من ضميره فى الخبر وما اما مصدرية أو موصولة أو موصوفة أى واستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له سبحانه بما لايليق بشأنه الجليل أو بالذى تصفونه أو بشىء تصفونه به من الولد أو كائنا مما تصفونه تعالى به (ولهُ مَن فى السمٰوٰتِ والأرْضِ) استئناف مقرر لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة بالغة ونظام كامل وأنه تعالى يحق الحق ويزهق الباطل أى له تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة من غير أن يكون لأحد فى ذلك دخل ما استقلالا أو استتباعا (ومَن عندَهُ) وهم الملائكة عليهم السلام عبر عنهم بذلك اثر ما عبر عنهم بمن فى السموات تنزيلا لهم لكرامتهم عليه عز وعلا وزلفاهم عنده منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره (لايستكبِرُونَ عَن عِبادَتِهِ) أى لايتعظمون عنها ولايعدون أنفسهم كبيرا (ولا يستحسِرونَ) ولايكلون ولايعيون وصيغة الاستفعال المنبئة عن المبالغة فى الحسور للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ومع ذلك يستحسرون

لا لافادة نفى المبالغة فى الحسور مع ثبوت أصله فى الجملة كما أن نفى الظلامية فى قوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد لافادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد لا لافادة نفى المبالغة فى الظلم مع ثبوت أصل الظلم فى الجملة وقيل من عنده معطوف على من الأولى وافرادهم بالذكر مع دخولهم فى من فى السموات والأرض للتعظيم كما فى قوله تعالى وجبريل وميكال فقوله تعالى لا يستكبرون حينئذ حال من الثانية (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) أى ينزهونه فى جميع الأوقات ويعظمونه ويمجدونه دائما وهو استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله كأنه قيل ماذا يصنعون فى عباداتهم أوكيف يعبدون فقيل يسبحون الخ أو حال من فاعل يستحسرون وكذا قوله تعالى (لا يَفْتُرُونَ) أى لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلا بفراغ أو بشغل آخر (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً) حكاية لجناية أخرى من جناياتهم بطريق الاضراب والانتقال من فن إلى فن آخر من التوبيخ اثر تحقيق الحق ببيان أنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم قاطبة تحت ملكوته وقهره وأن عباده مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته منزهون له عن كل ما لا يليق بشأنه من الأمور التى من جملتها الأنداد ومعنى الهمزة فى أم المنقطعة إنكار الوقوع لا إنكار الواقع وقوله تعالى (مِنَ الأَرْضِ) متعلق باتخذوا أو بمحذوف هو صفة لآلهة وأياما كان فالمراد هو التحقير لا التخصيص وقوله تعالى (هُمْ يُنْشِرُونَ) أى يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذى يدور عليه الانكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ فانه واقع لا محالة أى بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى كلا فان ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك وهم وان لم يقولوا بذلك صريحا لكنهم حيث ادعوا لها الالهية فكأنهم ادعوا لها الانشار ضرورة أنه من الخصائص الالهية حتما ومعنى التخصيص فى تقديم الضمير ما أشير اليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للانشار الموجبة لمزيد الانكار كما فى قوله تعالى أفى الله شك وقوله تعالى أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون فان تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لأن يشك فيه ويستهزأ به ويجوز أن يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل لأن الألوهية مقتضية للاستقلال بالابداء والاعادة فحيث ادعوا للأصنام الالهية فكأنهم ادعوا لها الاستقلال بالانشار كما أنهم جعلوا بذلك مدعين لأصل الانشار (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ) ابطال لتعدد الاله باقامة البرهان على انتفائه بل على استحالته وايراد الجمع لوروده اثر انكار اتخاذ الآلهة لا لأن للجمعية مدخلا فى الاستدلال وكذا فرض كونها فيهما وإلا بمعنى غير على أنها صفة لآلهة ولا مساغ للاستثناء لاستحالة شمول ما قبلها لما بعدها وافضائه إلى فساد المعنى لدلالته حينئذ على أن الفساد لكونها فيهما بدونه تعالى ولا للرفع على البدل لأنه متفرع على الاستثناء ومشروط بأن يكون فى كلام غير موجب أى لو كان فى السموات والأرض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل (لَفَسَدَتَا) أى لبطلتا بما فيهما جميعا وحيث انتفى التالى علم انتفاء المقدم قطعا بيان الملازمة أن الالهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الاطلاق تغييرا وتبديلا وايجادا واعداما واحياء واماتة فبقاؤهما على ما هما عليه اما بتأثير كل منها وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة واما بتأثير واحد منها فالبواقى بمعزل من الالهية قطعا واعلم أن جعل التالى فسادهما بعد وجودهما لما أنه اعتبر فى المقدم تعدد الآلهة فيهما والا فالبرهان يقضى باستحالة التعدد على الاطلاق فانه لو تعدد الاله فان توافق الكل فى المراد تطاردت عليه القدر وان تخالفت تعاوقت فلا يوجد موجود أصلا وحيث انتفى التالى تعين انتفاء المقدم والفاء فى قوله تعالى (فَسُبْحَانَ اللهِ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان أى فسبحوه سبحانه اللائق به ونزهوه عما لا يليق به من الأمور التى من جملتها أن يكون له شريك فى الالوهية وايراد الجلالة فى موضع الاضمار للاشعار بعلة الحكم فان الالوهية مناط لجميع صفات كماله التى من جملتها تنزهه

تعالى عما لا يليق به ولتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى (رَبِّ العَرْشِ) صفة للاسم الجليل مؤكدة لتنزهه عزوجل (عَمَّا يَصِفُونَ) متعلق بالتسبيح أى فسبحوه عما يصفونه من أن يكون من دونه آلهة (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) استئناف ببيان أنه تعالى لقوة عظمته وعزة سلطانه القاهر بحيث ليس لاحد من مخلوقاته أن يناقشه ويسأله عما يفعل من أفعاله اثر بيان أن ليس له شريك فى الالهية (وَهُمْ) أى العباد (يُسْئَلُونَ) عما يفعلون نقيرا وقطميرا لانهم مملوكون له تعالى مستعبدون ففيه وعيد للكفرة (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً) اضراب انتقال من اظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة آلهة حقيقة باظهار خلوها عن خصائص الالهية التى من جملتها الانشار واقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الاله على الاطلاق وتفرده سبحانه بالالوهية إلى اظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عرائها عن تلك الخصائص بالمرة شركاء لله عز سلطانه وتبكيتهم بالجائهم إلى اقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد وبطلان الاشراك والهمزة لانكار الاتخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه ومن متعلقة باتخذوا والمعنى بل اتخذوا متجاوزين إياه تعالى مع ظهور شؤنه الجليلة الموجبة لتفرده بالالوهية آلهة مع ظهور خلوهم عن خواص الالوهية بالكلية (قُلْ) لهم بطريق التبكيت والقام الحجر (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) على ماتدعونه من جهة العقل والنقل فانه لا صحة لقول لا دليل عليه فى الامور الدينية لاسيما فى مثل هذا الشأن الخطير وما فى اضافة البرهان إلى ضميرهم من الاشعار بأن لهم برهانا ضرب من التهكم بهم وقوله تعالى (هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي) إنارة لبرهانه وإشارة إلى أنه مما نطقت به الكتب الالهية قاطبة وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة وزيادة تهييج لهم على اقامة البرهان لاظهار كمال عجزهم أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع العقلى ذكر أمتى أى عظتهم وذكر الامم السالفة قد أقمته فأقيموا أنتم أيضا برهانكم وقيل المعنى هذا كتاب أنزل على أمتى وهذا كتاب أنزل على أمم الأنبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة والصحف فراجعوها وانظروا هل فى واحد منها غير الأمر بالتوحيد والنهى عن الاشراك ففيه تبكيت لهم متضمن لاثبات نقيض مدعاهم وقرىء بالتنوين والأعمال كقوله تعالى أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما وبه وبمن الجارة على أن مع اسم هو ظرف كقبل وبعد وقوله تعالى (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ) اضراب من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن وانتقال من الأمر بتبكيتهم بمطالبة البرهان إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة باظهار حقية الحق وبطلان الباطل فان أكثرهم لا يفهمون الحق ولا يميزون بينه وبين الباطل (فَهُم) لاجل ذلك (مُّعْرِضُونَ) أى مستمرون على الاعراض عن التوحيد واتباع الرسول لا يرعوون عما هم عليه من الغى والضلال وان كررت عليهم البينات والحجج أو معرضون عما ألقى عليهم من البراهين العقلية والنقلية وقرىء الحق بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وسط بين السبب والمسبب تأكيدا للسببية وقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) استئناف مقرر لما أجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الالهية وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام وقرىء يوحى إلى صيغة الغائب مبنيا للمفعول وأياما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورة الوحى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا) حكاية لجناية فريق من المشركين جىء بها لاظهار بطلانها وبيان تنزهه تعالى عن ذلك اثر بيان تنزهه سبحانه عن الشركاء على الاطلاق وهم حى من خزاعة يقولون الملائكة بنات الله تعالى ونقل الواحدى أن قريشا وبعض أجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح يقولون ذلك والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ماسواه تعالى مربوبا له تعالى نعمة أو منعما عليه لابراز كمال شناعة مقالتهم

الباطلة (سُبْحَٰنَهُۥ) أى تنزه بالذات تنزهه اللائق به على أن السبحان مصدر من سبح أى بعد أو أسبحه تسبيحه على أنه علم للتسبيح وهو مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحه وقوله تعالى (بَلْ عِبَادٌ) اضراب وابطال لما قالوه كأنه قيل ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباده له تعالى (مُّكْرَمُونَ) مقربون عنده وقرىء مكرمون بالتشديد وفيه تنبيه على منشأ غلط القوم وقوله تعالى (لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ) صفة أخرى لعباد منبئة عن كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره تعالى أى لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به وأصله لا يسبق قولهم قوله تعالى فأسند السبق اليهم منسوبا اليه تعالى تنزيلا لسبق قولهم قوله تعالى منزلة سبقهم إياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به للذين يقولون مالا يقوله الله تعالى وجعل القول محلا للسبق وأداة له ثم أنيب اللام عن الإضافة للاختصار والتجافى عن التكرار وقرىء لا يسبقونه بضم الباء من سابقته فسبقته أسبقه وفيه مزيد استهجان للسبق وإشعار بأن من سبق قوله قوله تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى فى السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى وزيادة تنزيه لهم عما نفى عنهم ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة فأنى يتوهم صدوره عنهم (وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ) بيان لتبعيتهم له تعالى فى الأعمال اثر بيان تبعيتهم له تعالى فى الأقوال فان نفى سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه كأنه قيل هم بأمره يقولون وبأمره يعملون لا بغير أمره أصلا فالقصر المستفاد من تقديم الجار معتبر بالنسبة إلى غير أمره لا إلى أمر غيره (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) استئناف وقع تعليلا لما قبله وتمهيدا لما بعده فانهم لعلمهم باحاطته تعالى بما قدموا وأخروا من الأقوال والأعمال لا يزالون يراقبون أحوالهم فلا يقدمون على قول أو عمل بغير أمره تعالى (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ) أن يشفع له مهابة منه تعالى (وَهُم) مع ذلك (مِّنْ خَشْيَتِهِۦ) عز وجل (مُشْفِقُونَ) مرتعدون وأصل الخشية الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق الخوف مع الاعتناء فعند تعديته بمن يكون معنى الخوف فيه أظهر وعند تعديته بعلى ينعكس الأمر (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ) أى من الملائكة الكلام فيهم وفى كونهم بمعزل مما قالوا فى حقهم (إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ) متجاوزا إياه تعالى (فَذَٰلِكَ) الذى فرض قوله فرض محال (نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) كسائر المجرمين ولا يغنى عنهم ماذكر من صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم فى حقهم ماتوهمه أولئك الكفرة مالا يخفى (كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ) مصدر تشبيهى مؤكد لمضمون ماقبله أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الذين يضعون الأشياء فى غير مواضعها ويتعدون أطوارهم والقصر المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة أى لا جزاء أنقص منه (أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟) تجهيل لهم بتقصيرهم فى التدبر فى الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالألوهية وكون جميع ماسواه مقهورا تحت ملكوته والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر وقرىء بغير واو والرؤية قلبية أى ألم يتفكروا ولم يعلموا (أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا) أى جماعتا السموات والأرضين كما فى قوله تعالى إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا (رَتْقًا) الرتق الضم والالتحام والمعنى اما على حذف المضاف أوهو بمعنى المفعول أى كانتا ذواتى رتق أو مرتوقتين وقرىء رتقا أى شيأ رتقا أى مرتوقا (فَفَتَقْنَٰهُمَا) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عكرمة والحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير كانتا شيأ واحدا ملتزمين ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماء إلى حيث هى وأقر الأرض وقال كعب خلق الله تعالى السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحا فتوسطتها ففتقتها وعن الحسن خلق الله تعالى الأرض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما وقال مجاهد والسدى

كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الأرض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال ابن عباس فى رواية عطاء وعليه أكثر المفسرين إن السموات كانت رتقا مستوية صلبة لا تمطر والأرض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات فيكون المراد بالسموات السماء الدنيا والجمع باعتبار الآفاق أو السموات جميعا على أن لها مدخلا فى الأمطار وعلم الكفرة الرتق والفتق بهذا المعنى مما لا سترة به وأما بالمعانى الأول فهم وإن لم يعلموهما لكنهم متمكنون من علمهما إما بطريق النظر والتفكر فإن الفتق عارض مفتقر إلى مؤثر قديم وإما بالاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) أى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء وذلك لأنه من أعظم مواده أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به أو صيرنا كل شيء حي من الماء أى بسبب منه لا بد له من ذلك وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به لا لمجرد أن المفعولين فى الأصل مبتدأ وخبر وحق الخبر عند كونه ظرفا أن يتقدم على المبتدا فإن ذلك مصحح محض لا مرجح وقرىء حيا على أنه صفة كل أو مفعول ثان والظرف كما فى الوجه الأول قدم على المفعول للاهتمام به والتشويق إلى المؤخر (أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) إنكار لعدم إيمانهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفاقية والأنفسية الدالة على تقرره عز وجل بالألوهية وعلى كون ما سواه من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الانكار السابق أى أيعلمون ذلك فلا يؤمنون (وَجَعَلْنَا فِى الْأَرْضِ رَوَاسِيَ) أى جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشيء إذا ثبت ورسخ ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مما لا ريب فى صحته كقوله تعالى أشهر معلومات وأياما معدودات (أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ) أى كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم أو لئلا تميد بهم بحذف اللام ولا لعدم الالباس (وَجَعَلْنَا فِيهَا) أى فى الأرض وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين ولتوفية مقام الامتنان حقه أو فى الرواسى لأنها المحتاجة إلى الطرق (فِجَاجاً) مسالك واسعة وإنما قدم على قوله تعالى (سُبُلاً) وهو وصف له ليصير حالا فيفيد أنه تعالى حين خلقها خلقها كذلك أو ليبدل منها سبلا فيدل ضمنا على أنه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التوكيد (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) أى إلى مصالحهم ومهماتهم (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً) من الوقوع بقدرتنا القاهرة أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئتنا أو من استراق السمع بالشهب (وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا) الدالة على وحدانيته تعالى وعلمه وحكمته وقدرته وإرادته التى بعضها محسوس وبعضها معلوم بالبحث عنه فى علمى الطبيعة والهيئة (مُعْرِضُونَ) لا يتدبرون فيها فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال وقوله تعالى (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) اللذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام أى هو الذى خلقهن وحده (كُلٌّ) أى كل واحد منهما على أن التنوين عوض عن المضاف إليه (فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) أى يجرون فى سطح الفلك كالسبح فى الماء والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الخليفة حلة والجملة حال من الشمس والقمر وجاز انفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما والجمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لأن السباحة حالهم (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ) أى فى الدنيا لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية (أَفَإِنْ مِتَّ) بمقتضى حكمتنا (فَهُمُ الْخَالِدُونَ) نزلت حين قالوا نتربص به ريب المنون والفاء لتعليق الشرطية بما قبلها والهمزة لانكار مضمونها بعد تقرر القاعدة الكلية النافية لذلك بالمرة والمراد بانكار خلودهم ونفيه إنكار ما هو مدار له وجودا وعدما من شماتتهم بموته عليه السلام فإن الشماتة بما يعتريه أيضا مما لا ينبغى أن يصدر عن العاقل كأنه قيل أفإن مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك وقوله تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) أى ذائقة مرارة مفارقتها

جسدها برهان على ما أنكر من خلودهم (وَنَبْلُوكُم) الخطاب إما للناس كافة بطريق التلوين أو للكفرة بطريق الالتفات أى نعاملكم معاملة من يبلوكم (بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ) بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون أو لا (فِتْنَةً) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) لا إلى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال فهو على الأول وعد ووعيد وعلى الثانى وعيد محض وفيه إيماء إلى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب وقرىء يرجعون بالياء على الالتفات (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى المشركون (إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا) أى ما يتخذونك إلا مهزوءا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم إياه هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر كأنه قيل ما يفعلون بك إلا اتخاذك هزوا وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ان أتبع إلا ما يوحى إلى فى سورة الأنعام (أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) على إرادة القول أى ويقولون أو قائلين ذلك أى يذكرهم بسوء كما فى قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ وقوله تعالى (وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ) فى حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدر والمعنى أنهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم بما يليق به من التوحيد أو بإرشاد الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب أو بالقرآن كافرون فهم أحقاء بالعيب والانكار فالضمير الأول مبتدأ خبره كافرون وبذكر متعلق بالخبر والتقدير وهم كافرون بذكر الرحمن والضمير الثانى تأكيد لفظى للاول فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكد والمؤكد بالمعمول (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه تنزيلا لما طبع عليه من الأخلاق منزلة ما طبع منه من الأركان إيذانا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجاله بالوعيد روى أنها نزلت فى النضر بن الحرث حين استعجل العذاب بقوله اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالإنسان آدم عليه السلام وأنه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم وروى أنه لما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ولما دخل جوفه اشتهى الطعام وقيل خلقه الله تعالى فى آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس فأسرع فى خلقه قبل غيبتها فالمعنى خلق الانسان خلقا ناشئا من عجل فذكره لبيان أنه من دواعى عجلته فى الأمور والأظهر أن المراد به الجنس وإن كان خلقه عليه السلام ساريا إلى أولاده وقيل العجل الطين بلغة حمير ولا تقريب له ههنا وقوله تعالى (سَأُورِيكُمْ آيَاتِي) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المستعجلين بطريق التهديد والوعيد أى سأريكم نقماتى فى الآخرة كعذاب النار وغيره (فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) بالاتيان بها والنهى عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) أى وقت مجىء الساعة التى كانوا يوعدون وإنما كانوا يقولونه استعجالا لمجيئه بطريق الاستهزاء والانكار كما يرشد إليه الجواب لا طلبا لتعيين وقته بطريق الالزام كما فى سورة الملك (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أى فى وعدكم بأنه يأتينا والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجىء الساعة وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه حسبما حذف فى مثل قوله تعالى فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فان قولهم متى هذا الوعد استبطاء منهم للموعود وطلب لاتيانه بطريق العجلة فان ذلك فى قوة الأمر بالاتيان عجلة كأنه قيل فليأتنا بسرعة إن كنتم صادقين (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه وإيثار صيغة المضارع فى الشرط وإن كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم العلم فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى

إفادة انتفاء استمرار الفعل بل يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام كما فى قولك لو تحسن إلى اشكرتك فان المعنى أن انتفاء الشكر لاستمرار انتفاء الاحسان لا لانتفاء استمرار الاحسان ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على علة استعجالهم وقوله تعالى (حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ) مفعول يعلم وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه وإضافته إلى الجملة الجارية مجرى الصفة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب أيضا مع انكار الكفرة لذلك للايذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة له إلى الاخبار به وإنما حقه الانتظام فى سلك المسلمات المفروغ عنها وجواب لو محذوف أى لو لم يستمر عدم علمهم بالوقت الذى يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد من الحين الذى تحيط بهم النار فيه من كل جانب وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب واستلزام الاحاطة بهما الاحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها بأنفسهم من جانب من جوانبهم (وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ) من جهة الغير فى دفعها الخ لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال ويجوز أن يكون يعلم متروك المفعول منزلا منزلة اللازم أى لو كان لهم علم لما فعلوه وقوله تعالى حين الخ استئناف مقرر لجهلهم ومبين لاستمراره إلى ذلك الوقت كأنه قيل حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال (بَلْ تَأْتِيهِمْ) عطف على لا يكفون أى لا يكفونها بل تأتيهم أى العدة أو النار أو الساعة (بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ) أى تغلبهم أو تحيرهم وقرىء الفعلان بالتذكير على أن الضمير للوعد أو الحين وكذا الهاء فى قوله تعالى (فلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا) بتأويل الوعد بالنار أو العدة والحين بالساعة ويجوز عوده إلى النار وقيل إلى البغتة أى لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية (وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ) أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين وفيه تذكير لامهالهم فى الدنيا (وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به عليه السلام فى ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بأنه يصيبهم مثل ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير ومن متعلقة بمحذوف هو صفة له أى وبالله لقد استهزىء برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه (فَحَاقَ) أى أحاط عقيب ذلك أو نزل أو حل أو نحو ذلك فان معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل إلا فى الشر والحيق ما يشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى (بالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ) أى من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذى هو قوله تعالى (مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم وما إما موصولة مفيدة للتهويل والضمير المجرور عائد اليها والجار متعلق بالفعل وتقديمه عليه لرعاية الفواصل أى فأحاط بهم الذى كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لأجله وإما مصدرية فالضمير المجرور راجع حينئذ إلى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا ولعل إيثاره على الجمع للتنبيه على أنه يحيق بهم جزاء استهزائهم بكل واحد واحد منهم عليهم السلام لا جزاء استهزائهم بكلهم من حيث هو كل فقط أى فنزل بهم جزاء استهزائهم على وضع السبب موضع المسبب إيذانا بكمال الملابسة بينهما أو عين استهزائهم ان أريد بذلك العذاب الأخروى بناء على تجسم الأعمال فان الأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح وعلى ذلك بنى الوزن وقد مر تفصيله فى سورة الأعراف وفى قوله تعالى إنما بغيكم على أنفسكم الآية الى آخرها (قُلْ) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تسليته بما ذكر من مصير أمرهم الى الهلاك وأمر له عليه السلام بأن يقول لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتبكيت (مَنْ يَكْلَؤُكُمْ) أى يحفظكم (بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ) أى من بأسه الذى تستحقون نزوله ليلا أو نهارا وتقديم

الليل لما أن الدواهى أكثر فيه وقوعا وأشد وقعا وفى التعرض لعنوان الرحمانية إيذان بأن كالئهم ليس إلا رحمته العامة وبعد ما أمر عليه السلام بما ذكر من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالهم لأنهم بحيث لو لا أن الله تعالى يحفظهم فى الملوين لحل بهم فنون الآفات فهم أحقاء بأن يكلفوا الاعتراف بذلك فيوبخوا على ماهم عليه من الاشراك أضرب عن ذلك بقوله تعالى (بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) ببيان أن لهم حالا أخرى مقتضية لصرف الخطاب عنهم هى أنهم لا يخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه ويعدوا ما كانوا عليه من الأمن والدعة حفظا وكلاءة حتى يسألوا عن الكالىء على طريقة قول من قال :

عوجوا لنعمى دمنة الدار   ماذا تحيون من نؤى وأحجار

وفى تعليق الاعراض بذكره تعالى وايراد اسم الرب المضاف إلى ضميرهم المنبىء عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم فى الغاية القاصية من الضلالة والغى ما لا يخفى وكلمة أم فى قوله تعالى (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا) منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عما قبله من بيان أن جهلهم بحفظه تعالى إياهم لعدم خوفهم الناشىء عن اعراضهم عن ذكر ربهم بالكلية إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم واسنادهم الحفظ اليها والهمزة لانكار أن يكون لهم آلهة تقدر على ذلك والمعنى بل ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا أو حفظنا أو من عذاب كائن من عندنا فهم معولون عليها واثقون بحفظها وفى توجيه الانكار والنفى إلى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر من المنع لا إلى نفس الصفة بأن يقال أم تمنعهم آلهتهم الخ من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلا عن رتبة المنع ما لا يخفى وقوله عز وعلا (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) استئناف مقرر لما قبله من الانكار وموضح لبطلان اعتقادهم أى هم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم وقوله تعالى (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) اضراب عما توهموا ببيان أن الداعى إلى حفظهم تمتيعنا إياهم بما قدر لهم من الأعمار أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ماهم عليه ولذلك عقب بما يدل على أنه طمع فارغ وأمل كاذب حيث قيل (أَفَلَا يَرَوْنَ) أى ألا ينظرون فلا يرون (أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ) أى أرض الكفرة (نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا وهو تمثيل وتصوير لما يخربه الله عز وجل من ديارهم على أيدى المسلمين ويضيفها إلى دار الاسلام (أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والفاء لانكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المسلمين عليها كأنه قيل أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم كما مر فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى قل أفاتخذتم من دونه أولياء وفى التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون بها (قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ) بعد ما بين من جهته تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون ونهاية سوء حالهم عند اتيانه ونعى عليهم جهلهم بذلك واعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل والنهار وغير ذلك من مساوى أحوالهم أمر عليه السلام بأن يقول لهم إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة (بِالْوَحْيِ) الصادق الناطق باتيانها وفظاعة ما فيها من الأهوال أى إنما شأنى أن أنذركم بالاخبار بذلك لا بالاتيان بها فانه مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية إذ الايمان برهانى لا عيانى وقوله تعالى (وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ) إما من تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض قد أمر عليه السلام بأن يقول لهم توبيخا وتقريعا وتسجيلا عليهم بكمال الجهل والعناد واللام للجنس المنتظم للمخاطبين انتظاما أوليا أو للعهد فوضع المظهر موضع المضمر

للتسجيل عليهم بالتصام وتقييد نفى السماع بقوله تعالى (إذا ما ينذرون) مع أن الصم لا يسمعون الكلام انذارا كان أو تبشيرا لبيان كمال شدة الصمم كما أن ايثار الدعاء الذى هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فان الانذار عادة يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيآت دالة عليه فاذا لم يسمعوها يكون صممهم فى غاية لا غاية وراءها واما من جهته تعالى على طريقة قوله تعالى بل هم عن ذكر ربهم معرضون ويؤيده القراءة على خطاب النبى عليه الصلاة والسلام من الاسماع بنصب الصم والدعاء كأنه قيل قل لهم ذلك وأنت بمعزل من اسماعهم وقرىء بالياء أيضا على أن الفاعل هو عليه السلام وقرىء على البناء للمفعول أى لا يقدر أحد على اسماع الصم وقوله تعالى (وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ) بيان لسرعة تأثرهم من مجىء نفس العذاب اثر بيان عدم تأثرهم من مجىء خبره على نهج التوكيد القسمى أى وبالله لئن أصابهم أدنى إصابة أدنى شىء من عذابه تعالى كما ينبىء عنه المس والنفحة بجوهرها وبنائها فان أصل النفح هبوب رائحة الشىء (لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) ليدعن على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفن عليها بالظلم وقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ) بيان لما سيقع عند اتيان ما انذروه أى نقيم الموازين العادلة التى توزن بها صحائف الأعمال وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الأعمال وقد مر تفصيل ما فيه من الكلام فى سورة الاعراف وافراد القسط لأنه مصدر وصف به مبالغة (لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) التى كانوا يستعجلونها أى لجزائه أو لاجل أهله أو فيه كما فى قولك جئت لخمس خلون من الشهر (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ) من النفوس (شَيْئًا) حقا من حقوقها أو شيأ ما من الظلم بل يوفى كل ذى حق حقه إن خيرا فخير وإن شرا فشر والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين (وَإِنْ كَانَ) أى العمل المدلول عليه بوضع الموازين (مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ) أى مقدار حبة كائنة من خردل أى وإن كان فى غاية القلة والحقارة فان حبة الخردل مثل فى الصغر وقرىء مثقال حبة بالرفع على أن كان تامة (أَتَيْنَا بِهَا) أى أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن والتأنيث لاضافته إلى الحبة وقرىء آتينا بها أى جازينا بها من الايتاء بمعنى المجازاة والمكافأة لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء وقرىء أثبنا من الثواب وقرىء جئنا بها (وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ) نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى اليهم إلى قوله تعالى وأهلكنا المسرفين وإشارة إلى كيفية انجائهم وإهلاك أعدائهم وتصديره بالتوكيد القسمى لاظهار كمال الاعتناء بمضمونه والمراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر أى وبالله لقد آتيناهما وحيا ساطعا وكتابا جامعا بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية وذكرا يتعظ به الناس وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثاره أو ذكر ما يحتاجون اليه من الشرائع والأحكام وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر والاول هو اللائق بمساق النظم الكريم فانه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الالهية لا سيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولأن فلق البحر هو الذى اقترح الكفرة مثله بقولهم فليأتنا بآية كما أرسل الأولون وقرىء ضياء بغير واو على أنه حال من الفرقان وقوله تعالى (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) أى عذابه مجرور المحل على أنه صفة مادحة للمتقين أو بدل أو بيان أو منصوب أو مرفوع على المدح (بِالْغَيْبِ) حال من المفعول أى يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالانذار ما لم يشاهدوا ما أنذروه وقيل من الفاعل (وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) أى خائفون منها بطريق الاعتناء وتقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص اشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الاطلاق للايذان بكونها معظم المخوفات وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الاشفاق

ودوامه (وهذا) أى القرآن الكريم أشير إليه بهذا إيذانا بغاية وضوح أمره (ذكر) يتذكر به من يتذكر وصف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لما مر فى صدر السورة الكريمة (مبارك) كثير الخير غزير النفع يتبرك به (أنزلناه) اما صفة ثانية لذكر أو خبر آخر (أفأنتم له منكرون) انكار لانكارهم بعد ظهور كون انزاله كايتاء التوراة كأنه قيل أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة فى الايتاء والايحاء أنتم منكرون لكونه منزلا من عندنا فان ذلك بعد ملاحظة حال التوراة مما لامساغ له أصلا (ولقد آتينا إبراهيم رشده) أى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الاهتداء الكامل المستند إلى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحى والاقتدار على اصلاح الأمة باستعمال النواميس الالهية وقرىء رشده وهما لغتان كالحزن والحزن (من قبل) أى من قبل ايتاء موسى وهرون التوراة وتقديم ذكر ايتائها لما بينه وبين انزال القرآن من الشبه التام وقيل من قبل استنبائه أو قبل بلوغه ويأباه المقام (وكنا به عالمين) أى بأنه أهل لما آتيناه وفيه من الدليل على أنه تعالى عالم بالجزئيات مختار فى أفعاله مالا يخفى (إذ قال لأبيه وقومه) ظرف لآتينا على أنه وقت متسع وقع فيه الايتاء وما ترتب عليه من أفعاله وأقواله وقيل مفعول لمضمر مستأنف وقع تعليلا لما قبله أى اذكر وقت قولهم له (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) لتقف على كمال رشده وغاية فضله والتمثال اسم لشىء مصنوع مشبه بخلق من خلائق الله تعالى وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن أصنامهم بما التى يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم كأنه لا يعرف أنها ماذا مع إحاطته بأن حقيقتها حجر أو شجر اتخذوها معبودا وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف الذى هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشىء لغرض من الأغراض قصدا إلى تحقيرها واذلالها وتوبيخا لهم على اجلالها واللام فى لها للاختصاص دون التعدية وإلا لجىء بكلمة على والمعنى أنتم فاعلون العكوف لها وقد جوز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبىء عنه قوله تعالى (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) أجابوا بذلك لما أن مآل سؤاله عليه السلام الاستفسار عن سبب عبادتهم لها كما ينبىء عنه وصفه عليه السلام إياهم بالعكوف لها كأنه قال ماهى هل تستحق ما تصنعون من العكوف عليها فلما لم يكن لهم ملجأ يعتد به التجأوا إلى التقليد فأبطله عليه السلام على طريقة التوكيد القسمى حيث (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم) الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة (فى ضلال) عجيب لا يقادر قدره (مبين) أى ظاهر بين بحيث لا يخفى على احد من العقلاء كونه كذلك ومعنى كنتم مطلق استقرارهم على الضلال لا استقرارهم الماضى الحاصل قبل زمان الخطاب المتناول لهم ولآبائهم أى والله لقد كنتم مستقرين على ضلال عظيم ظاهر لعدم استناده إلى دليل ما والتقليد إنما يجوز فيما يحتمل الحقية فى الجملة (قالوا) لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعادا لكون ماهم عليه ضلالا وتعجبا من تضليله عليه السلام إياهم بطريق التوكيد القسمى وترددا فى كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد (أجئتنا بالحق) أى بالجد (أم أنت من اللاعبين) فتقول ما تقول على وجه المداعبة والمزاح وفى إيراد الشق الأخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم (قال) عليه السلام اضرابا عما بنوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها أربابا لهم كما يفصح عنه قولهم نعبد أصناما فنظل لها عاكفين كأنه قيل ليس الأمر كذلك (بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) وقيل هو اضراب عن كونه لاعبا باقامة البرهان على ما ادعاه وضمير هن للسموات والأرض وصفه تعالى بايجادهن اثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقا للحق وتنبيها على أن مالا يكون كذلك بمعزل من الربوبية أى أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التى من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ورجع الضمير إلى التماثيل أدخل فى تضليلهم وأظهر فى الزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغنى عن التأمل فى كون ما يعبدونه

من جملة المخلوقات (وَأَنا عَلىٰ ذٰلِكُمْ) الذى ذكرته من كون ربكم رب السموات والأرض فقط دون ما عداه كائنا ما كان (مِّنَ الشّٰهِدِينَ) أى العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه فان الشاهد على الشىء من تحققه وحققه وشهادته على ذلك ادلاؤه بالحجة عليه واثباته بها كأنه قال وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه (وَتَاللّٰهِ) وقرىء بالباء وهو الأصل والتاء بدل من الواو التى هى بدل من الأصل وفيها تعجب (لَأَكِيدَنَّ أَصْنٰمَكُمْ) أى لأجتهدن فى كسرها وفيه إيذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل وإنما قاله عليه السلام سرا وقيل سمعه رجل واحد (بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) من عبادتها إلى عيدكم وقرىء تولوا من التولى بحذف إحدى التاءين ويعضدها قوله تعالى فتولوا عنه مدبرين والفاء فى قوله تعالى (فَجَعَلَهُمْ) فصيحة أى فولوا فجعلهم (جُذٰذًا) أى قطاعا فعال بمعنى مفعول من الجذ الذى هو القطع كالحطام من الحطم الذى هو الكسر وقرىء بالكسر وهى لغة أو جمع جذيذ كخفاف وخفيف وقرىء بالفتح جذاذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة روى أن آزر خرج به فى يوم عيد لهم فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا إلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا وبقى ابراهيم عليه السلام فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنما مصطفا وثمة صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفأس كانت فى يده ولم يبق إلا الكبير وعلق الفأس فى عنقه وذلك قوله تعالى (إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ) أى للأصنام (لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ) أى إلى ابراهيم عليه السلام (يَرْجِعُونَ) فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم ويبكتهم وقيل يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن الكاسر لأن من شأن المعبود أن يرجع اليه فى الملمات وقيل يرجعون إلى الله تعالى وتوحيده عن تحققهم عجز آلهتهم عن دفع ما يصيبهم وعن الاضرار بمن كسرهم (قَالُوا) أى حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا (مَن فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا) على طريقة الانكار والتوبيخ والتشنيع وإنما عبروا عنها بما ذكر ولم يشيروا اليها بهؤلاء وهى بين أيديهم مبالغة فى التشنيع وقوله تعالى (إِنَّهُ لَمِنَ الظّٰلِمِينَ) استئناف مقرر لما قبله وقيل من موصولة وهذه الجملة فى حيز الرفع على أنها خبر لها والمعنى الذى فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا إنه معدود من جملة الظلمة إما لجرأته على إهانتها وهى حقيقة بالاعظام أو لإفراطه فى الكسر والحطم وتماديه فى الاستهانة بها أو بتعريض نفسه للهلكة (قَالُوا) أى بعض منهم مجيبين للسائلين (سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ) أى يعيبهم فلعله فعل ذلك بها فقوله تعالى يذكرهم اما مفعول ثان لسمع لتعلقه بالعين أو صفة لفتى مصححة لتعلقه به هذا إذا كان القائلون سمعوه عليه السلام بالذات يذكرهم وان كانوا قد سمعوا من الناس أنه عليه السلام يذكرهم بسوء فلا حاجة إلى المصحح (يُقَالُ لَهُ إِبْرٰهِيمُ) صفة أخرى لفتى أى يطلق عليه هذا الاسم (قَالُوا) أى السائلون (فَأْتُوا بِهِ عَلىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ) أى بمرأى منهم بحيث يكون نصب أعينهم فى مكان مرتفع لا يكاد يخفى على أحد (لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) أى يحضرون عقوبتنا له وقيل لعلهم يشهدون بفعله أو بقوله ذلك فالضمير حينئذ ليس للناس بل لبعض منهم مبهم أو معهود (قَالُوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولهم كأنه قيل فماذا فعلوا به عليه السلام بعد ذلك هل أتوا به أولا فقيل أتوا به ثم قالوا (ءَأَنتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يٰإِبْرٰهِيمُ) اقتصارا على حكاية مخاطبتهم إياه عليه السلام للتنبيه على اتيانهم به ومسارعتهم إلى ذلك أمر محقق غنى عن البيان (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا) مشيرا إلى الذى لم يكسره سلك عليه السلام مسلكا تعريضيا يؤديه إلى مقصده الذى هو الزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل فى شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقى من الكذب حيث أبرز الكبير قولا فى معرض المباشر للفعل باسناده اليه كما أبرزه فى ذلك المعرض فعلا بجعل الفأس فى عنقه وقد قصد إسناده اليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الأصنام غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفة مرتبة للعبادة

من دون الله سبحانه وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل اليه باعتبار أنه الحامل عليه وقيل هو حكاية لما يقود الى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها أن يقدر على ما هو أشد من ذلك ويحكى أنه عليه السلام قال فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها فيكون تمثيلا أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لاشراكهم بعبادته الأصنام وأما ما قيل من أنه عليه السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه الى الصنم بل انما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ومثل لذلك بما لو قال لك أمى فيما كتبته بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا فقلت له بل أنت كتبته كان قصدك تقرير الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل لا نفيها عنك واثباتها له فبمعزل من التحقيق لأن خلاصة المعنى فى المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك وادعاء ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله فى السؤال لابتنائه على أن صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك ولاريب فى أن مراده عليه السلام من اسناد الكسر الى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم فى سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم بل انما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل فى أحوال أصنامهم كما ينبىء عنه قوله (فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) أى ان كانوا ممن يمكن أن ينطقوا وانما لم يقل عليه السلام ان كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضا لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وأن عدم نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل وقد حصل ذلك أولا حسبما نطق به قوله تعالى (فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ) أى راجعوا عقولهم وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الاضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودا (فَقَالُوا) أى قال بعضهم لبعض فيما بينهم (إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ) أى بهذا السؤال لأنه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة أو بعبادة الأصنام لا من ظلمتموه بقولكم انه لمن الظالمين أو أنتم الظالمون بعبادتها لا من كسرها (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ) أى انقلبوا الى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة شبه عودهم الى الباطل بصيرورة أسفل الشىء أعلاه وقرىء نكسوا بالتشديد ونكسوا على البناء للفاعل أى نكسوا أنفسهم (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ) على ارادة القول أى قائلين والله لقد علمت أن ليس من شأنهم النطق فكيف تأمرنا بسؤالهم على أن المراد استمرار نفى النطق لا نفى استمراره كما توهمه صيغة المضارع (قَالَ) مبكتا لهم (أَفَتَعْبُدُونَ) أى أتعلمون ذلك فتعبدون (مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى متجاوزين عبادته تعالى (مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا) من النفع (وَلَا يَضُرُّكُمْ) فان العلم بحاله المنافية للألوهية مما يوجب الاجتناب عن عبادته قطعا (أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) تضجر منه عليه السلام من اصرارهم على الباطل البين واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لمزيد استقباح ما فعلوا وأف صوت المتضجر ومعناه قبحا ونتنا واللام لبيان المتأفف له (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أى ألا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم (قَالُوا) أى قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وهكذا ديدن المبطل المحجوج اذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة وافتضح لا يبقى له مفزع الا المناصبة (حَرِّقُوهُ) فانه أشد العقوبات (وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ) بالانتقام لها (إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) أى للنصر أو لشىء يعتد به قيل القائل نمرود بن كنعان بن السنجاريب بن نمرود بن كوس ابن حام بن نوح وقيل رجل من أكراد فارس اسمه هيون وقيل هدير خسفت به الأرض روى أنهم لما أجمعوا على احراقه عليه السلام بنوا له حظيرة بكوثى قرية من قرى الانباط وذلك قوله تعالى قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم

فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة أربعين يوما فأوقدوا نارا عظيمة لا يكاد يحوم حولها أحد حتى ان كانت الطير لتمر بها وهى فى أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها ولم يكد أحد يحوم حولها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها فأتى ابليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه وقيل صنعه لهم رجل من الأكراد فخسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ثم عمدوا الى ابراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولا فرموا به فيها فقال له جبريل عليهما السلام هل لك حاجة قال أما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبي من سؤالى علمه بحالى فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرة روضة وذلك قوله تعالى (قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ) أى كونى ذات برد وسلام أى ابردى بردا غير ضار وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأمورة مطاوعة وإقامة كونى ذات برد مقام ابردى ثم حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه وقيل نصب سلاما بفعله أى وسلمنا سلاما عليه . روى أن الملائكة أخذوا بضبعى ابراهيم وأقعدوه على الأرض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه إلا وثاقه وروى أنه عليه السلام مكث فيها أربعين يوما أو خمسين وقال ما كنت أطيب عيشا منى إذ كنت فيها قال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل فقعد إلى جنبه يؤنسه فنظر نمرود من صرحه فأشرف عليه فرآه جالسا فى روضة مونقة ومعه جليس على أحسن ما يكون من الهيئة والنار محيطة به فناداه يا ابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال فقم فاخرج فقام يمشى فخرج منها فاستقبله نمرود وعظمه وقال من الرجل الذى رأيته معك قال ذلك ملك الظل أرسله ربى ليؤنسنى فقال إنى مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فقال عليه السلام لا يقبل الله منك ما دمت على دينك هذا قال لا أستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبح له أربعة آلاف بقرة فذبحها وكف عن ابراهيم عليه السلام وكان إذ ذاك ابن ست عشرة سنة وهذا كما ترى من أبدع المعجزات فان انقلاب النار هواء طيبا وإن لم يكن بدعا من قدرة الله عز وجل لكن وقوع ذلك على هذه الهيئة مما يخرق العادات وقيل كانت النار على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه فى السمندل كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على ابراهيم (وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا) مكرا عظيما فى الاضرار به (فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ) أى أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم فى اطفاء نور الحق برهانا قاطعا على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل وموجبا لارتفاع درجته واستحقاقهم لأشد العذاب (وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ) أى من العراق إلى الشام وبركاته العامة أن أكثر الأنبياء بعثوا فيه فانتشرت فى العالمين شرائعهم التى هى مبادى الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية وقيل كثرة النعم والخصب الغالب روى أنه عليه السلام نزل بفلسطين ولوط عليه السلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة (وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) أى عطية فهى حال منهما أو ولد ولد أو زيادة على ما سأل وهو اسحق فتختص بيعقوب ولا لبس فيه للقرينة الظاهرة (وَكُلًّا) أى كل واحد من هؤلاء الأربعة لا بعضهم دون بعض (جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ) بأن وفقناهم للصلاح فى الدين والدنيا فصاروا كاملين (وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً) يقتدى بهم فى أمور الدين إجابة لدعائه عليه السلام بقوله ومن ذريتى (يَهْدُونَ) أى الأمة إلى الحق (بِأَمْرِنَا) لهم بذلك وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين (وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ) ليحثوهم عليه فيتم كمالهم بانضمام العمل إلى العلم وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات وكذا قوله تعالى (وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ) وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وإنافته وحذفت تاء الاقامة المعوضة من إحدى الألفين لقيام المضاف اليه مقامه (وَكَانُوا۟ لَنَا) خاصة دون غيرنا (عَٰبِدِينَ) لا يخطر ببالهم غير عبادتنا (وَلُوطًا) قيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (ءَاتَيْنَٰهُ) أى وآتينا لوطا وقيل باذكر (حُكْمًا) أى حكمة أو نبوة

أو فصلا بين الخصوم بالحق (وعلماً) بما ينبغى علمه للأنبياء عليهم السلام (ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) أى اللواطة وصفت بصفة أهلها وأسندت إليها على حذف المضاف وإقامتها مقامه كما يؤذن به قوله تعالى (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) فإنه كالتعليل له (وأدخلناه فى رحمتنا) أى فى أهل رحمتنا أو فى جنتنا (إنه من الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى (ونوحاً) أى اذكر نوحاً أى خبره وقوله تعالى (إذ نادى) أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك ظرف للمضاف المقدر أى أذكر نبأه الواقع وقت دعائه (من قبل) أى من قبل هؤلاء المذكورين (فاستجبنا له) أى دعاءه الذى من جملته قوله إنى مغلوب فانتصر (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو الطوفان وقيل أذية قومه وأصل الكرب الغم الشديد (ونصرناه) نصرا مستتبعا للانتقام والانتصار ولذلك قيل (من القوم الذين كذبوا بآياتنا) وحمله على فانتصر يأباه ما ذكر من دعائه عليه السلام فإن ظاهره يوجب إسناد الانتصار إليه تعالى مع ما فيه من تهويل الأمر وقوله تعالى (إنهم كانوا قوم سوء) تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى (فأغرقناهم أجمعين) فإن الاصرار على تكذيب الحق والانهماك فى الشر والفساد مما يوجب الاهلاك قطعا (وداود وسليمان) إما عطف على نوحا معمول لعامله وإما المضمر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف وقوله تعالى (إذ يحكمان) ظرف للمضاف المقدر وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها أى اذكر خبرهما وقت حكمهما (فى الحرث) أى فى حق الزرع أو الكرم المتدلى عناقيده كما قيل أو بدل اشتمال منهما وقوله تعالى (إذ نفشت) أى تفرقت وانتشرت (فيه غنم القوم) ليلا بلا راع فرعته وأفسدته ظرف للحكم (وكنا لحكمهم) أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما فإن الاضافة لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع وقرىء لحكمهما (شاهدين) حاضرين علما والجملة اعتراض مقرر للحكم ومفيد لمزيد الاعتناء بشأنه (ففهمناها سليمان) عطف على يحكمان فإنه فى حكم الماضى وقرىء فأفهمناها والضمير للحكومة أو الفتيا روى أنه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما ان غنم هذا دخلت فى حرثى ليلا فأفسدته فقضى له بالغنم فخرجا فرعلى سليمان عليه السلام فأخبراه بذلك فقال غير هذا أرفق بالفريقين فسمعه داود فدعاه فقال له بحق النبوة والأبوة الا أخبرتنى بالذى أرفق بالفريقين فقال أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها والحرث إلى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادا فقال القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك والذى عندى أن حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فإن قول سليمان عليه السلام غير هذا أرفق بالفريقين ثم قوله أرى أن تدفع الخ صريح فى أنه ليس بطريق الوحى والا لبت القول بذلك ولما ناشده داود عليهما السلام لاظهار ما عنده بل وجب عليه أن يظهره بدأ وحرم عليه كتمه ومن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضا كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد بل أقول والله تعالى أعلم ان رأى سليمان عليه السلام استحسان كما ينبىء عنه قوله أرفق بالفريقين ورأى داود عليه السلام قياس كما أن العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبى حنيفة إلى المجنى عليه أو يفديه ويبيعه فى ذلك أو يفديه عند الشافعى وقد روى أنه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت وأما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث إلى أن يزول الضرر الذى أتاه من قبله كما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا فأبق منه انه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من المنافع فإذا ظهر الآبق ترادا وفى قوله تعالى ففهمناها سليمان دليل على رجحان قوله ورجوع داود عليه السلام مع أن الحكم المبنى على الاجتهاد

لاينقض باجتهاد آخروان كان أقوى منه لما أن ذلك من خصائص شريعتنا على أنه وردفى الاخبار أن داود عليه السلام لم يكن بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ماسمع وأما حكم المسئلة فى شريعتنا فعند أبى حنيفة رحمه الله لاضمان ان لم يكن معها سائق أو قائد وعند الشافعى يجب الضمان ليلا لانهارا وقوله تعالى (وكلاًّ ءاتينا حُكماً وعِلماً) لدفع ماعسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داود عليه السلام حكما شرعيا أى وكل واحد منهما آتيناه حكما وعلما كثيرا لاسليمان وحده وهذا إنمايدل على أن خطأ المجتهد لايقدح فى كونه مجتهدا وقيل بل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لقوله تعالى ففهمناها سليمان ولولا النقل لاحتمل توافقهما على أن قوله تعالى ففهمناها سليمان لاظهار ماتفضل عليه فى صغره فانه عليه السلام كان حينئذ ابن احدى عشرة سنة (وَسخّرنا مَعَ داوُدَ الجبالَ) شروع فى بيان مايختص بكل منهما من كراماته تعالى اثر بيان كرامته العامة لهما (يُسبّحنَ) أى يقدسن الله عز وجل معه بصوت يتمثل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلام وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال أو استئناف مبين لكيفية التسخير ومع متعلقة بالتسخير وقيل بالتسبيح وهو بعيد (والطّيرَ) عطف على الجبال أو مفعول معه وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أى والطير مسخرات وقيل على العطف على الضمير فى يسبحن وفيه ضعف لعدم التأكيد والفصل (وكُنّا فٰعِلينَ) أى من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وإن كان بديعا عندكم (وَعلّمناهُ صَنعَةَ لَبوسٍ) أى عمل الدرع وهو فى الأصل اللباس قال قائلهم :

البس لكل حالة لبوسها   اما نعيمها واما بوسها

وقيل كانت صفائح فخلقها وسردها (لَكُمْ) متعلق بعلمنا أو بمحذوف هو صفة لبوس (لِتُحصِنَكُم) أى اللبوس بتأويل الدرع وقرىء بالتذكير على أن الضمير لداود عليه السلام أو للبوس وقرىء بنون العظمة وهو بدل اشتمال من لكم باعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص والمنفعة المستفادة من لام لكم (مِن بأسِكُمْ) قيل من حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم (فهَل أنتُم شٰكِرونَ) أمر وارد على صورة استفهام للمبالغة أو التقريع (وَلسُليمٰنَ الرّيحَ) أى وسخرنا له الريح وايراد اللام ههنا دون الأول للدلالة على مابين التسخيرين من التفاوت فان تسخير ماسخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلى له والامتثال بأمره ونهيه والمقهورية تحت ملكوته وأما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له عليه السلام والاقتداء به فى عبادة الله عز وعلا (عاصِفةً) حال من الريح والعامل فيها الفعل المقدر أى وسخرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب من حيث أنها كانت تبعد بكرسيه فى مدة يسيرة من الزمان كما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وكانت رخاء فى نفسها طيبة وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة أخرى حسب إرادته عليه السلام وقرىء الريح بالرفع على الابتداء والخبر هو الظرف المقدم وعاصفة حينئذ حال من ضمير المبتدأ فى الخبر والعامل مافيه من معنى الاستقرار وقرىء الرياح نصبا ورفعا (تجرى بأمرِهِ) بمشيئته حال ثانية أو بدل من الأولى أو حال من ضميرها (إلىٰ الأرضِ التى بٰرَكنا فِيها) وهى الشأم رواحا بعد ما سار به منه بكرة قال الكلبى كان سليمان عليه السلام وقومه يركبون عليها من اصطخر إلى الشأم وإلى حيث شاء ثم يعود إلى منزله (وكُنّا بكلّ شىءٍ عالمينَ) فنجريه حسبما تقتضيه الحكمة (ومِنَ الشّيٰطينِ) أى وسخرنا له من الشياطين (مَن يغوصُونَ لهُ) فى البحار ويستخرجون له من نفائسها وقيل من رفع على الابتداء وخبره ماقبله والأول هو الأظهر (ويَعمَلونَ عمَلاً دُونَ ذٰلكَ) أى غير ماذكر من بناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة لقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية وهؤلاء اما الفرقة

الأولى أو غيرها العموم كلمة من كأنه قيل ومن يعملون وجمع الضمير الراجع اليها باعتبار معناها بعد ماشرح جانبه بقوله تعالى ومن الشياطين روى أن المسخر له عليه السلام كفارهم لامؤمنوهم لقوله تعالى ومن الشياطين وقوله تعالى (وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ) أى من أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ماهو مقتضى جبلتهم قيل وكل بهم جمعا من الملائكة وجمعا من مؤمنى الجن وقال الزجاج كان يحفظهم من أن يفسدوا ماعملوا وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار (وَأَيُّوبَ) الكلام فيه كما مر فى قوله تعالى وداود وسليمان أى واذكر خبر أيوب (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي) أى بأنى (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) وقرىء بالكسر على اضمار القول أو تضمين النداء معناه والضر شائع فى كل ضرر وبالضم خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما (وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وصفه تعالى بغاية الرحمة بعدما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى به عن عرض المطلب لطفا فى السؤال وكان عليه السلام روميا من ولد عيص بن اسحاق استنبأه الله تعالى وكثر أهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله والمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبعا وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات روى أن امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف عليه السلام أو رحمة بنت افرايم بن يوسف قالت له يوما لودعوت الله تعالى فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحى من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى وروى أن إبليس أتاها على هيئة عظيمة فقال أنا اله الأرض فعلت بزوجك مافعلت لانه تركنى وعبد إله السماء فلو سجد لى سجدة لرددت عليه وعليك جميع ماأخذت منكما وفى رواية لوسجدت لى سجدة لرجعت المال والولد وعافيت زوجك فرجعت إلى أيوب وكان ملقى فى الكناسة لايقرب منه أحد فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام كأنك افتتنت بقول اللعين لئن عافانى الله عز وجل لأضربنك مائة سوط وحرام على أن أذوق بعد هذا شيئا من طعامك وشرابك فطردها فبقى طريحا فى الكناسة لايحوم حوله أحد من الناس فعند ذلك خر ساجدا فقال رب انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فقيل له ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة الا سقطت ولا جراحة الا برئت ثم ركض مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء الا خرج وعاد صحيحا ورجع اليه شبابه وجماله ثم كسى حلة وذلك قوله تعالى (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ) فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الاهل والمال الا وقد ضاعفه الله تعالى وذلك قوله تعالى (وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ) وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف ماكان ثم ان امرأته قالت فى نفسها هب انه طردنى أفأتركه حتى يموت جوعا ويأكله السباع لأرجعن اليه فلما رجعت مارأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وقد تغيرت الأمور فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأل عنه فأرسل اليها أيوب ودعاها فقال ماتريدين ياأمة الله فبكت وقالت أريد ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة قال لها ماكان منك فبكت وقالت بعلى قال أتعرفينه إذا رأيته قالت وهل يخفى على فتبسم فقال أنا ذلك فعرفته بضحكه فاعتنقته (رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ) أى آتيناه ماذكر لرحمتنا أيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب أو لرحمتنا العابدين اللذين من جملتهم أيوب وذكرنا اياهم بالاحسان وعدم نسياننا لهم (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ) أى واذكرهم وذو الكفل والياس وقيل يوشع بن نون وقيل زكريا سمى به لانه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفل منه أوضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم فان الكفل يجىء بمعنى النصيب والكفالة والضعف (كُلٌّ) أى كل واحد من هؤلاء (مِّنَ الصَّابِرِينَ) أى على مشاق التكاليف وشدائد النوب والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بذكرهم

(وأدخلناهم في رحمتنا) أى فى النبوة أو فى نعمة الآخرة (إنهم من الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح الكامل الذى لايحوم حوله شائبة الفساد وهم الأنبياء فان صلاحهم معصوم من كدر الفساد (وذا النون) أى واذكر صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام (إذ ذهب مغاضبا) أى مراغما لقومه لما برم من طول دعوته إياهم وشدة شكيمتهم وتمادى اصرارهم مهاجرا عنهم قبل أن يؤمر وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن انه كذبهم فغضب من ذلك وهو من بناء المغالبة للمبالغة أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرىء مغضبا (فظن أن لن نقدر عليه) أى لن نضيق عليه أو لن نقضى عليه بالعقوبة من القدر ويؤيده أنه قرىء مشددا أو لن نعمل فيه قدرتنا وقيل هو تمثيل لحاله بحال من يظن أن لن نقدر عليه أى نعامله معاملة من يظن أن لن نقدر عليه فى مراغمته قومه من غير انتظار لأمرنا كما فى قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده أى نعامله معاملة من يحسب ذلك وقيل خطرة شيطانية سبقت إلى وهمه فسميت ظنا للمبالغة وقرىء بالياء مخففا ومثقلا مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول (فنادى) الفاء فصيحة أى فكان ماكان من المساهمة والتقام الحوت فنادى (فى الظلمات) أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة أو فى ظلمات بطن الحوت والبحر والليل وقيل ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل فى ظلمتى بطنى الحوتين وظلمتى البحر والليل (أن لا إله إلا أنت) أى بأنه لا إله إلا أنت على أن أن مخففة من أن وضمير الشأن محذوف أو أى لا إله إلا أنت على أنها مفسرة (سبحانك) أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يعجزك شىء أو أن يكون ابتلائى بهذا بغير سبب من جهتى (إنى كنت من الظالمين) لأنفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت إلى المهاجرة (فاستجبنا له) أى دعاءه الذى دعاه فى ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له (ونجيناه من الغم) بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان فيها فى بطنه وقيل بعد ثلاثة أيام وقيل الغم غم الالتقام وقيل الخطيئة (وكذلك) أى مثل ذلك الانجاء الكامل (ننجى المؤمنين) من غموم دعوا الله تعالى فيها بالخلاص لا انجاء أدنى منه وفى الامام نجى فلذلك أخفى الجماعة النون الثانية فانها تخفى مع حروف الفم وقرىء بتشديد الجيم على أن أصله ننجى فحذفت الثانية كما حذفت التاء فى تظاهرون وهى وان كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة التى لمعنى ولا يقدح فيه اختلاف حركتى النونين فان الداعى إلى الحذف اجتماع المثلين مع تعذر الادغام وامتناع الحذف فى تتجافى لخوف اللبس وقيل هو ماض مجهول أسند إلى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفا ورد بأنه لايسند إلى المصدر والمفعول مذكور والماضى لايسكن آخره (وزكريا) أى واذكر خبره (إذ نادى ربه) وقال (رب لا تذرنى فردا) أى وحيدا بلا ولد يرثنى (وأنت خير الوارثين) فحسبى أنت ان لم ترزقنى وارثا (فاستجبنا له) أى دعاءه (ووهبنا له يحيى) وقد مر بيان كيفية الاستجابة والهبة فى سورة مريم (وأصلحنا له زوجه) أى أصلحناها للولادة بعد عقرها أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها وكانت حردة وقوله تعالى (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى المتعلقة بالأنبياء المذكورين أى كانوا يبادرون فى وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير وهو السر فى ايثار كلمة فى على كلمة إلى المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين اليها كما فى قوله تعالى وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة (ويدعوننا رغبا ورهبا) ذوى رغب ورهب أو راغبين فى الثواب راجين للاجابة أو فى الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية أو للرغب والرهب (وكانوا لنا خاشعين) أى مخبتين متضرعين أو دائمى الوجل والمعنى انهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة (والتى أحصنت

فرْجَها) أى اذكر خبر التى أحصنته على الاطلاق من الحلال والحرام والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها وتنزيهها عما زعموه فى حقها آثر ذى أثير (فَنَفَخْنَا فِيهَا) أى أحيينا عيسى فى جوفها (مِن رُّوحِنَا) من الروح الذى هو من أمرنا وقيل فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام (وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا) أى قصتهما وحالهما (ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ) فان من تأمل حالهما تحقق كمال قدرته عز وجل فالمراد بالآية ما حصل بهما من الآية التامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما وقيل أريد بالآية الجنس الشامل لما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة وقيل المعنى وجعلناها آية وابنها آية فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها (إِنَّ هَٰذِهِ) أى ملة التوحيد والاسلام أشير اليها بهذه تنبيها على كمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد (أُمَّتُكُمْ) أى ملتكم التى يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها ولا تخلوا بشىء منها والخطاب للناس قاطبة (أُمَّةً وَاحِدَةً) نصب على الحالية من أمتكم أى غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام إذ لا مشاركة لغيرها فى صحة الاتباع ولا احتمال لتبدلها وتغيرها كفروع الشرائع المتبدلة حسب تبدل الأمم والاعصار وقرىء أمتكم بالنصب على البدلية من اسم ان وأمة واحدة بالرفع على الخبرية وقرئتا بالرفع على أنهما خبران (وَأَنَا رَبُّكُمْ) لا اله لكم غيرى (فَاعْبُدُونِ) خاصة لا غير وقوله تعالى (وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ) التفات إلى الغيبة لينعى عليهم ما أفسدوه من التفرق فى الدين وجعل أمره قطعا موزعة وينهى قبائح أفعالهم إلى الآخرين كأنه قيل ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله الذى أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام (كُلٌّ) أى كل واحدة من الفرق المتقطعة أو كل واحد من آحاد كل واحدة من تلك الفرق (إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) بالبعث لا إلى غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم وإيراد اسم الفاعل للدلالة على الثبات والتحقق وقوله تعالى (فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ) الخ تفصيل للجزاء أى فمن يعمل بعض الصالحات أو بعضا من الصالحات (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) بالله ورسله (فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) أى لا حرمان لثواب عمله ذلك عبر عن ذلك بالكفران الذى هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الاثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه تعالى ونفى نفى الجنس للمبالغة فى التنزيه وعبر عن العمل بالسعى لإظهار الاعتداد به (وَإِنَّا لَهُ) أى لسعيه (كَاتِبُونَ) أى مثبتون فى صحائف أعمالهم لا نغادر من ذلك شيأ (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ) أى ممتنع على أهلها غير متصور منهم وقرىء حرم وهى لغة كالحل والحلال (أَهْلَكْنَاهَا) قدرنا هلاكها أو حكمنا به لغاية طغيانهم وعتوهم وقوله تعالى (أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) فى حيز الرفع على أنه مبتدأ خبره حرام أو فاعل له ساد مسد خبره والجملة لتقرير مضمون ما قبلها من قوله تعالى كل الينا راجعون وما فى أن من معنى التحقيق معتبر فى النفى المستفاد من حرام لا فى المنفى أى ممتنع البتة عدم رجوعهم الينا للجزاء لا أن عدم رجوعهم المحقق ممتنع وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق به قوله تعالى كل الينا راجعون لأنهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم وقيل ممتنع رجوعهم إلى التوبة على أن لا صلة وقرىء أنهم لا يرجعون بالكسر على أنه استئناف تعليلى لما قبله فحرام خبر مبتدأ محذوف أى حرام عليها ذلك وهو ما ذكر فى الآية السابقة من العمل الصالح المشفوع بالايمان والسعى المشكور ثم علل بقوله تعالى انهم لا يرجعون عما هم عليه من الكفر فكيف لا يمتنع ذلك ويجوز حمل المفتوحة أيضا على هذا المعنى بحذف اللام عنها أى لأنهم لا يرجعون وحتى فى قوله تعالى (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) الخ هى التى يحكى بعدها الكلام وهى على الأول غاية لما يدل عليه ما قبلها كأنه قيل يستمرون على ما هم عليه من الهلاك حتى إذا قامت القيامة يرجعون الينا ويقولون يا ويلنا الخ وعلى الثانى غاية للحرمة أى يستمر امتناع رجوعهم إلى التوبة حتى إذا قامت القيامة يرجعون اليها حين لا تنفعهم

التوبة وعلى الثالث غاية لعدم الرجوع عن الكفر أى لا يرجعون عنه حتى إذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الانس قالوا الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج والمراد بفتحها فتح سدهما على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه وقرىء فتحت بالتشديد (وهم) أى يأجوج ومأجوج وقيل الناس (من كل حدب) أى نشز من الأرض وقرىء جدث وهو القبر (ينسلون) أى يسرعون وأصله مقاربة الخطو مع الاسراع وقرىء بضم السين (واقترب الوعد الحق) عطف على فتحت والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء لا النفخة الأولى (فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) جواب الشرط وإذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كما فى قوله تعالى إذا هم يقنطون فاذا دخلتها الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط والضمير للقصة أو مبهم يفسره ما بعده (يا ويلنا) على تقدير قول وقع حالا من الموصول أى يقولون ياويلنا تعال فهذا أوان حضورك وقيل هو الجواب للشرط (قد كنا فى غفلة) تامة (من هذا) الذى دهمنا من البعث والرجوع اليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنه حق (بل كنا ظالمين) اضراب عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة أى لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذر مكذبين بها أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب وقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم مع كونه معلوما مما سبق على وجه الإجمال مبالغة فى الانذار وإزاحة الاعتذار وما تعبدون عبارة عن أصنامهم لأنها التى يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا الآية قال له ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة أليست اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة رد عليه بقوله عليه السلام ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل ولا يعارضه ما روى أنه عليه السلام رده بقوله بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك ولا ما روى أن ابن الزبعرى قال هذا شىء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال عليه السلام بل لكل من عبد من دون الله تعالى اذ ليس شىء منهما نصا فى عموم كلمة ما كما أن الأول نص فى خصوصها وشمول حكم النص لا يقتضى شموله بطريق العبارة بل يكفى فى ذلك شموله لهم بطريق دلالة النص بجامع الشركة فى المعبودية من دون الله تعالى فلعله عليه السلام بعد ما بين مدلول النظم الكريم بما ذكر وعدم دخول المذكورين فى حكمه بطريق العبارة بين عدم دخولهم فيه بطريق الدلالة أيضا تأكيدا للرد والالزام وتكريرا للتبكيت والافحام لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمهم فان اخراج بعض المعبودين عن حكم منبىء عن الغضب على العبدة والمعبودين مما يوهم الرخصة فى عبادته فى الجملة بل بتحقيق الحق وبيان أنهم ليسوا من المعبودية فى شىء حتى يتوهم دخولهم فى الحكم المذكور دلالة بموجب شركتهم للأصنام فى المعبودية من دون الله تعالى وإنما معبودهم الشياطين التى امرتهم بعبادتهم كما نطق به قوله تعالى سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن الآية فهم الداخلون فى الحكم المذكور لاشتراكهم الأصنام فى المعبودية من دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجه فى التوفيق بين الأخبار المذكورة وأما تعميم كلمة ما للعقلاء أيضا وجعل ما سيأتى من قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الخ بيانا للتجوز أو التخصيص فمما لا يساعده السباق والسياق كما يشهد به الذوق السليم والحصب ما يرمى به ويهيج به النار من حصبه إذا رماه بالحصباء وقرىء بسكون الصاد وصفا له بالمصدر للمبالغة (أنتم لها واردون) استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للدلالة على الاختصاص وأن ورودهم لاجلها والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا (لو كان هؤلاء) أى أصنامهم (آلهة) كما يزعمون (ما وردوها) وحيث تبين ورودهم اياها تعين امتناع كونها آلهة بالضرورة وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بما يعبدون هى الأصنام

لأن المراد اثبات نقيض مايدعونه وهم إنما يدعون الهية الأصنام لا الهية الشياطين حتى يحتج بورودها النار على عدم الهيتها وأما ماوقع فى الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار الكلام اليه عند بيان ماسيق له النظم الكريم بطريق العبارة حيث سأل ابن الزبعرى عن حال سائر المعبودين وكان الاقتصار على الجواب الأول بما يوهم الرخصة فى عبادتهم فى الجملة لأنهم المعبودون عندهم أجيب ببيان أن المعبودين هم الشياطين وأنهم داخلون فى حكم النص لكن بطريق الدلالة لا بطريق العبارة لئلا يلزم التدافع بين الخبرين (وَكُلٌّ) أى من العبدة والمعبودين (فِيهَا خَالِدُونَ) لاخلاص لهم عنها (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ) أى أنين وتنفس شديد وهو مع كونه من أفعال العبدة أضيف إلى الكل للتغليب ويجوز أن يكون الضمير للعبدة لعدم الالباس وكذا فى قوله تعالى (وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ) أى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول وفظاعة العذاب وقيل لا يسمعون مايسرهم من الكلام (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ) شروع فى بيان حال المؤمنين اثر شرح حال الكفرة حسبما جرت به سنة التنزيل من شفع الوعد بالوعيد وايراد الترغيب مع الترهيب أى سبقت لهم منا فى التقدير الخصلة الحسنة التى هى أحسن الخصال وهى السعادة وقيل التوفيق للطاعة أو سبقت لهم كلمتنا بالبشرى بالثواب على الطاعة وهو الادخل الاظهر فى الحمل عليها لما أن الأولين مع خفائهما ليسا من مقدورات المكلفين فالجملة مع مابعدها تفصيل لما اجمل فى قوله تعالى فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون كما أن ماقبلها من قوله تعالى انكم وماتعبدون الخ تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى وحرام الخ (أُولَٰئِكَ) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف والفضل أى أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل (عَنْهَا) أى عن جهنم (مُبْعَدُونَ) لانهم فى الجنة وشتان بينها وبين النار وماروى أن عليا رضى الله تعالى عنه خطب يوما فقرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا) ليس بنص فى كون الموصول عبارة عن طائفة مخصوصة والحسيس صوت يحس به أى لا يسمعون صوتها سمعا ضعيفا كما هو المعهود عند كون المصوت بعيدا وان كان صوته فى غاية الشدة لأنهم لا يسمعون صوتها الخفى فى نفسه فقط والجملة بدل من مبعدون أو حال من ضميره مسوقة للمبالغة فى انقاذهم منها وقوله تعالى (وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) بيان لفوزهم بالمطالب اثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب أى دائمون فى غاية التنعم وتقديم الظرف للقصر والاهتمام به وقوله تعالى (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) بيان لنجاتهم من الافزاع بالكلية بعد بيان نجاتهم من النار لانهم إذا لم يحزنهم أكبر الافزاع لا يحزنهم ماعداه بالضرورة عن الحسن رضى الله عنه أنه الانصراف إلى النار وعن الضحاك حين يطبق على النار وقيل حين يذبح الموت فى صورة كبش أملح وقيل النفخة الأخيرة لقوله تعالى ففزع من فى السموات ومن فى الأرض وليس بذاك فان الآمن من ذلك الفزع من استثناه الله تعالى بقوله الا من شاء الله لا جميع المؤمنين الموصوفين بالأعمال الصالحة على أن الاكثرين على أن ذلك فى النفخة الاولى دون الاخيرة كما سيأتى فى سورة النمل (وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) أى تستقبلهم مهنئين لهم (هَٰذَا يَوْمُكُمُ) على ارادة القول أى قائلين هذا اليوم يومكم (الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) فى الدنيا وتبشرون بما فيه من فنون المثوبات على الإيمان والطاعات هذا كما ترى صريح فى أن المراد بالذين سبقت لهم الحسنى كافة المؤمنين الموصوفين بالإيمان والاعمال الصالحة لا من ذكر من المسيح وعزير والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ) بنون العظمة منصوب باذكر وقيل ظرف لقوله تعالى لا يحزنهم الفزع وقيل بتتلقاهم وقيل حال مقدرة من الضمير

المحذوف في توعدون والطي ضد النشر وقيل المحو وقرىء يطوى بالياء والتاء والبناء للمفعول (كَطَيِّ السِّجِلِّ) وهي الصحيفة أي طيا كطي الطومار وقرىء السجل كلفظ الدلو وبالكسر والسجل على وزن العتل وهما لغتان واللام في قوله تعالى (لِلْكُتُبِ) متعلقة بمحذوف هو حال من السجل أو صفة له على رأي من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أي كطي السجل كائنا للكتب أو الكائن للكتب فان الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض أجزائها وبه يتعلق الطي حقيقة وقرىء للكتاب وهو اما مصدر واللام للتعليل أي كما يطوى الطومار للكتابة أو اسم كالامام فاللام كما ذكر أولا وقيل السجل اسم ملك يطوى كتب أعمال بني آدم إذا رفعت اليه وقيل هو كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) أي نعيد ما خلقناه مبتدء اعادة مثل بدئنا إياه في كونها ايجادا بعد العدم أو جمعا من الاجزاء المتبددة والمقصود بيان صحة الاعادة بالقياس على المبدأ لشمول الامكان الذاتي المصحح للمقدورية وتناول القدرة لهما على السواء وما كافة أو مصدرية وأول مفعول لبدأنا أو لفعل يفسره نعيده أو موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره نعيده أي نعيد مثل الذي بدأناه وأول خلق ظرف لبدأنا أو حال من ضمير الموصول المحذوف (وَعْدًا) مصدر مؤكد لفعله ومقرر لنعيده أو منتصب به لانه عدة بالاعادة (عَلَيْنَا) أي علينا انجازه (إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) لما ذكر لا محالة (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ) هو كتاب داود عليه السلام وقيل هو اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء عليهم السلام (مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) أي التوراة وقيل اللوح المحفوظ أي وبالله لقد كتبنا في كتاب داود بعد ما كتبنا في التوراة أو كتبنا في جميع الكتب المنزلة بعد ما كتبنا وأثبتنا في اللوح المحفوظ (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) أي عامة المؤمنين بعد اجلاء الكفار وهذا وعد منه تعالى باظهار الدين واعزاز أهله وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد أرض الجنة كما ينبىء عنه قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقيل الأرض المقدسة يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم (إِنَّ فِي هَٰذَا) أي فيما ذكر في السورة الكريمة من الاخبار والمواعظ البالغة والوعد والوعيد والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة (لَبَلَاغًا) أي كفاية أو سبب بلوغ إلى البغية (لِقَوْمٍ عَابِدِينَ) أي لقوم همهم العبادة دون العادة (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ) بما ذكر وبأمثاله من الشرائع والأحكام وغير ذلك من الأمور التي هي مناط لسعادة الدارين (إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) هو في حيز النصب على أنه استثناء من أعم العلل أو من أعم الأحوال أي ما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل الا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة أو ما أرسلناك في حال من الأحوال الا حال كونك رحمة لهم فان ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشأتين ومن لم يغتنم مغانم آثاره فانما فرط في نفسه وحرمة حقه لا أنه تعالى حرمه مما يسعده وقيل كونه رحمة في حق الكفار أمنهم من الخسف والمسخ والاستئصال حسبما ينطق به قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) أي ما يوحى إلى الا أنه لا اله لكم الا اله واحد لانه المقصود الاصلي من البعثة وأما ما عداه فمن الاحكام المتفرعة عليه فانما الاولى لقصر الحكم على الشيء كقولك إنما يقوم زيد أي ما يقوم الا زيد والثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك إنما زيد قائم أي ليس له الا صفة القيام (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) أي مخلصون العبادة لله تعالى مخصصون لها به تعالى والفاء للدلالة على أن ما قبلها موجب لما بعدها فالوا فيه دلالة على أن صفة الوحدانية تصح أن يكون طريقها السمع (فَإِنْ تَوَلَّوْا) عن الاسلام ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه من الوحي (فَقُلْ) لهم (آذَنْتُكُمْ) أي أعلمتكم ما أمرت به أو حربي لكم (عَلَىٰ سَوَاءٍ) كائنين على سواء في الاعلام به لم أطوه عن أحد منكم أو مستوين به أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به أو في المعاداة أو ايذانا على سواء وقيل أعلمتكم أني على سواء أي

عدل واستقامة رأى بالبرهان النير (وَإِنْ أَدْرِي) أى ما أدرى (أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ) من غلبة المسلمين وظهور الدين أو الحشر مع كونه آتيا لا محالة (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ) أى ما تجاهرون به من الطعن فى الاسلام وتكذيب الآيات التى من جملتها ما نطق بمجىء الموعود (وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) من الاحن والاحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيرا وقطميرا (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ) أى ما أدرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة فى افتتانكم أو امتحان لكم لينظر كيف تعملون (وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) أى وتمتع لكم الى أجل مقدر تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ليكون ذلك حجة عليكم (قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ) حكاية لدعائه عليه الصلاة والسلام وقرىء قل رب على صيغة الأمر أى اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لتعجيل العذاب والتشديد عليهم وقد استجيب دعاؤه عليه السلام حيث عذبوا ببدر أى تعذيب وقرىء رب احكم بضم الباء وربى أحكم على صيغة التفضيل وربى أحكم من الاحكام (وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ) مبتدأ أى كثير الرحمة على عباده وقوله تعالى (الْمُسْتَعَانُ) أى المطلوب منه المعونة خبر وخبر آخر للمبتدا واضافة الرب فيما سبق الى ضميره عليه السلام خاصة لما أن الدعاء من الوظائف الخاصة به عليه السلام كما أن اضافته ههنا الى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين أيضا لما أن الاستعانة من الوظائف العامة لهم (عَلَى مَا تَصِفُونَ) من الحال فانهم كانوا يقولون ان الشوكة تكون لهم وان راية الاسلام تخفق ثم تركد وان المتوعد به لو كان حقا لنزل بهم الى غير ذلك مما لا خير فيه فاستجاب الله عز وجل دعوة رسوله عليه السلام فخيب آمالهم وغير أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فأصابهم يوم بدر ما أصابهم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله وقرىء يصفون بالياء التحتانية وعن النبى عليه السلام من قرأ اقترب حاسبه الله تعالى حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن

تم بحمد الله تعالى الجزء الثالث من تفسير العلامة أبى السعود

ويليه الجزء الرابع وأوله سورة الحج

صحيفة

٢ ﴿ سورة هود عليه السلام ﴾
٥ ﴿ الجزء الثانى عشر ﴾
٥ تفسير قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها)
١٤ تفسير قوله تعالى (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا)
٢٢ تفسير قوله تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم)
٣٠ تفسير قوله تعالى (والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره)
٣٨ تفسير قوله تعالى (والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره)
٤٦ تفسير قوله تعالى (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض)
٥١ ﴿ سورة يوسف عليه السلام ﴾
٦٦ تفسير قوله تعالى (وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا)
٧٧ ﴿ الجزء الثالث عشر ﴾
٧٧ تفسير قوله تعالى (وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء)
٨٦ تفسير قوله تعالى (قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل)
٩٣ تفسير قوله تعالى (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض)
٩٥ ﴿ سـورة الرعد ﴾
٩٨ تفسير قوله تعالى (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات)
١٠٦ تفسير قوله تعالى (أفمن يعلم أن ماأنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولو الالباب)
١١٢ تفسير قوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الانهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا)
١١٥ ﴿ سورة ابراهيم عليه السلام ﴾
١٢٠ تفسير قوله تعالى (قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم)
١٢٥ تفسير قوله تعالى (ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار)
١٣٩ ﴿ الجزء الرابع عشر ﴾
١٣٩ ﴿ سـورة الحجر ﴾
١٥١ تفسير قوله تعالى (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم)
١٦٠ ﴿ سـورة النحل ﴾
١٧١ تفسير قوله تعالى (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة)
١٧٨ تفسير قوله تعالى (وقال الله لاتتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد فاياى فارهبون)
١٨٥ تفسير قوله تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لايقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا)
١٩٠ تفسير قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى)
١٩٥ تفسير قوله تعالى (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ماعملت وهم لايظلمون)

صحيفة

٢٠٣ ﴿ الجزء الخامس عشر ﴾
٢٠٣ ﴿ سورة بنى اسرائيل ﴾
٢١١ تفسير قوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا)
٢٢٠ تفسير قوله تعالى (قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم)
٢٢٦ تفسير قوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات)
٢٣٤ تفسير قوله تعالى (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض وجعل لهم أجلا لاريب فيه)
٢٣٧ ﴿ سورة الكهف ﴾
٢٤٣ تفسير قوله تعالى (وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين)
٢٥٠ تفسير قوله تعالى (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل)
٢٥٥ تفسير قوله تعالى(ماأشهدتهم خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم)
٢٦٢ ﴿ الجزء السادس عشر ﴾
٢٦٢ تفسير قوله تعالى (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فاردت أن أعيبها)
٢٧٢ ﴿ سورة مريم عليها السلام ﴾
٢٨٢ تفسير قوله تعالى(فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم)
٢٨٧ تفسير قوله تعالى (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا)
٢٩٥ ﴿ سورة طه ﴾
٣٠٨ تفسير قوله تعالى (انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى)
٣١٨ تفسير قوله تعالى (وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على اثرى وعجلت اليك رب لترضى)
٣٢٥ تفسير قوله تعالى (وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما)
٣٣١ ﴿ الجزء السابع عشر ﴾
٣٣١ ﴿ سورة الأنبياء ﴾
٣٣٩ تفسير قوله تعالى (ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين)
٣٤٥ تفسير قوله تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين)
٣٥١ تفسير قوله تعالى (وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين)

﴿ تم فهرس الجزء الثالث من تفسير العلامة أبى السعود ﴾

DATE DUE

30 NOV 2001
Circulation Dept. 2

297.207:A162tA:v.2-3:c.1
ابو السعود ،محمد بن محمد بن مصطف
تفسير ابى السعود المسمى ارشاد العق
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01010375